الجزء الخامس

عجايب الآثار في التراجم والأخبار

عبد الرحمن الجبرتي

عجايب الآثار في التراجم والأخبار (الجزء الخامس)

عجايب الآثار في التراجم والأخبار (الجزء الخامس)

تأليف
عبد الرحمن الجبرتي



عجايب الآثار في التراجم والأخبار (الجزء الخامس)

عبد الرحمن الجبرتي

رقم إيداع ١٩٦٩٧ / ٢٠١٣
تدمك: ٩ ٤٧٠ ٧١٩ ٩٧٧ ٩٧٨

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة

٥٤ عمارات الفتح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة
جمهورية مصر العربية
تليفون: ٢٢٧٠٦٣٥٢ ٢٠٢ + **فاكس:** ٣٥٣٦٥٨٥٣ ٢٠٢ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: هاني ماهر.

المحتويات

محرم الحرام ابتدا سنة ألف ومايتين وسبعة عشر هجرية (١٨٠٢م)

استهل بيوم الاتنين، فيه تواترت الأخبار بحصول الصلح العمومي بين القرانات جميعًا ورفع الحروب فيما بينهم.

وفيه ترادفت الأخبار بأمر عبد الوهاب وظهور شأنه من مدة تلات سنوات من ناحية نجد، ودخل في عقيدته قبايل من العرب كثيرة، وبثَّ دعاته في أقاليم الأرض، ويزعم أنه يدعو إلى كتاب الله — سبحانه وتعالى — وسنَّة رسوله، ويأمر بترك البدع التي ارتكبها الناس ومشوا عليها إلى غير ذلك.

وفيه سافر عثمان كتخدا الدولة إلى الديار الرُّومية، ونزل إلى بولاق، وضربوا له عدة مدافع، وأخذ صحبته الخزينة، وسافر معه مختار أفندي ابن شريف أفندي دفتردار مصر.

وفي هذه الأيام حصلت أمطار متتابعة وغيام ورعود وبروق عدة أيام، وذلك في أواسط نيسان الرُّومي.

وفي ذلك اليوم نبهوا على الوجاقات والعسكر بالحضور من الغد إلى الديوان لقبض الجامكية، فلما كان في صبحها يوم التلات نصبوا صيوانًا كبيرًا ببركة الأزبكية، وحضر العساكر والوجاقلية بترتيبهم، ونزل الباشا بموكبه إلى ذلك الصِّيوان وهو لابس على رأسه الطلخان والقفطان الأطلس، وهو شعاير الوزارة، ورصوا الأكياس وخطفوها على العادة القديمة، فكان وقتًا مشهودًا.

وفي يوم التلات تاسعه حضر كبير الإنكليز من السكندرية، ونصبوا وطاقهم ببر إنبابة، فلما كان يوم الأربع يوم عاشوراء عَدَّى النيل كبير الإنكليز ومعه عدة من أكابرهم فتهيًّا لملاقاته الباشا، واصطفت العساكر عند بيت الباشا.

ووصل الإنكليز إلى الأزبكية وطلعوا إلى عند الباشا وقابلوه، فأخلع عليهم وقدَّم لهم خيلًا وهدية، ثم نزلوا وركبوا ورجعوا إلى وطاقهم، وعند ركوبهم ضربوا لهم عدة مدافع فلم يعجب الباشا ضربها، فأمر بحبس الطبجية لكونهم لم يضربوها على نسق واحد.

وفيه وردت الأخبار بأن الإنكليز أخلوا القلاع بإسكندرية، وسلموها لأحمد بك خورشيد وذلك يوم الاتنين تامنه، وأبطلوا الكرنتيلة أيضًا، وحصل الفرج للناس، وانطلق سبيل المسافرين برًّا وبحرًا، وأخذ الباشا في الاهتمام بتشهيل الإنكليز المسافرين إلى السويس والقصير، وفيما يحتاجون إليه من الأدوات والطلب والجمال والعليق وجميع ما يلزم، ولما حضر الإنكليز إلى عند الباشا، فدعوه إلى الحضور عندهم فوعدهم على يوم الجمعة.

فلما كان يوم الجمعة تالت عشره ركب الباشا وصحبته طاهر باشا في نحو الخمسين، وعدى إلى الجيزة بعد الظهر، فلما طلع إلى البر وقفت عساكر الإنكليز صفوفًا رجالًا وركبانًا وبأيديهم البنادق والسيوف، وأظهروا زينتهم وأبهتهم، وذلك عندهم من التعظيم للقادم، فنزل الباشا ودخل القصر، فوجدهم كذلك صفوفًا بدهليز القصر ومحل الجلوس، فجلس عندهم ساعة زمانية وأهدوا له هدايا وتقادم.

وعند قيامه ورجوعه ضربوا له عدة مدافع على قدر ما ضرب لهم هو عند حضورهم إليه، فلقد أخبرني بعض خواصهم أن الباشا ضرب لهم سبعة عشر مدفعًا، ولقد عددت ما ضربه الإنكليز للباشا فكان كذلك.

وأخبرني حسين بك وكيل قبطان باشا، وكان بصحبة الباشا عند ذهابه إلى الإنكليز قال: كنا في نحو الخمسين، والإنكليز في نحو الخمسة آلاف، فلو قبضوا علينا في ذلك الوقت لملكوا الإقليم من غير ممانع، فسبحان المنجي من المهالك!

وإذا تأمل العاقل في هذه القضية يرى فيها أعظم الاعتبارات والكرامة لدين الإسلام؛ حيث سخر الطايفة الذين هم أعدا للملة هذه لدفع تلك الطايفة ومساعدة المسلمين عليهم، وذلك مصداق الحديث الشريف وقوله ﷺ: «إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر.» فسبحان القادر الفعال!

واستمرت طايفة كبيرة بإسكندرية من الإنكليز حتى يريد الله.

وفي ذلك اليوم سافرت لملاقاة الحجاج بالوش.

وفيه وصلت مكاتبات من أهل القدس ويافا والخليل يشكون ظلم محمد باشا أبي مرق، وأنه أحدث عليهم مظالم وتفاريد ويستغيثون برجال الدولة، وكذلك أعرضوا أمرهم لأحمد باشا الجزار، وحضر الكثير من أهل غزة ويافا والخليل والرملة هروبًا من المذكور.

وفي ضمن المكاتبات أنه حفر قبور المسلمين والأشراف والشهدا بيافا، ثم رمى عظامهم وشرع يبني في تلك الجبانة سورًا يتحصن به، وأذن للنصارى ببنا دير عظيم لهم، ومكنهم أيضًا من مغارة السيدة مريم بالقدس، وأخذ منهم مالًا عظيمًا على ذلك، وفعل من أمثال هذه الفعال أشيا كثيرة.

وفيه حضر جماعة من العسكر القبالي وصحبتهم أربعة روس من المصرلية، وفيهم راس علي كاشف أبي دياب، وتواترت الأخبار بوقوع معركة بين العثمانية والمصرلية، وكانت الغلبة على العثمانية وقُتل منهم الكثير، وذلك عند أرمنت، ورأس عصبة المصرلية الألفي وصحبته طايفة من الفرنسيس، وتجمع عليهم عدة من عسكر الفرنساوية والعثمانية؛ طمعًا في بذلهم وأن عثمان بك الحسني انفرد عنهم، وأرسل يطلب أمانًا ليحضر، فأرسلوا له أمانًا، فحضر عند حسن باشا والي دجرجا، وأخلع عليه فروة سمور، وقدم له خيلًا وهديةً.

وفيه ورد الخبر بموت محمد باشا توسون والي جدة، وكذلك خازنداره.

وفي يوم السبت رابع عشره شرع الإنكليز المتوجهون إلى جهة السويس في تعدية البر الشرقي، ونصبوا وطاقهم عند جزيرة بدران وبعضهم جهة العادلية، وذهبت طايفة منهم إلى جهة البر الغربي متوجهين إلى القصير، واستمروا يعدون عدة أيام ويحضر أكابرهم عند الباشا، فيضربون لهم مدافع حال ركوبهم إلى أماكنهم إكرامًا لهم.

وفي يوم الاتنين تاني عشرينه عدا حسين بك وكيل القبطان إلى الجيزة، وتسلمها من الإنكليز وأقام بها وسكن بالقصر.

وفي خامس عشرينه وصل إلى ساحل بولاق أغا وعلى يده مثالات وأوامر، وحضر أيضًا عساكر رومية فأرسلوا عدة منهم إلى الجيزة، فركب ذلك الأغا في موكب من بولاق إلى بيت الباشا، فأخلع عليه وقدم له تقدمة، وضربوا له عدة مدافع.

وفيه حضر ططري من ناحية قبلي بالأخبار بما حصل بين العثمانية والمصرلية، وطلب جبخانة ولوازم.

وفيه وصلت الأخبار بأن أحمد باشا أَرسل عسكرًا إلى أبو مرق من البرِّ والبحر، فأحاطوا بِيافا وقطعوا عنها الجالب، واستمروا على حصاره.

وفيه اتخذ الباشا عسكرًا من طايفة التَّكرور الذين يأتون إلى مصر بقصد الحج، فأعرضهم واختار منهم جملة، وطلبوا الخياطين ففصَّلوا لهم قناطيش قصارًا من جوخ أحمر، وألبسه في وسطهم من جوخ أزرق، وصدريات، وجميعها ضيقة مقطمة مثل

ملابس الفرنسيس، وعلى روسهم طراطير حمر، وأعطوهم سلاحًا وبنادق وأسكنوهم بقلعة الجامع الظاهري خارج الحسينية، وجعلوا عليهم كبيرًا يركب فرسًا ويلبس فروة سمور.

وجمع الباشا أيضًا العبيد والسود، وأخذهم من أسيادهم بالقهر وجعلهم طايفة مستقلة، وألبسهم شبه ما تقدم، وأركبهم خيلًا وجعلهم فرقتين صغارًا وكبارًا، واختارهم للركوب إذا خرج إلى الخلا، وعليهم كبير يعلمهم هيئة اصطفاف الفرنسيس، وكيفية أوضاعهم والإشارات بمرش واردبوش.

وكذلك طلب المماليك وغصب ما وجده منهم من أسيادهم، واختص بهم وألبسهم شبه لبس المماليك المصرلية وعمايم شبه عمايم البحرية الأروام، ويلكات وشراويل، وأدخل فيهم ما وجده من مرادن الفرنسيس، وجعل لهم كبيرًا أيضًا من الفرنسيس يعلمهم الكر والفر والرمي بالبنادق، وفي بعض الأحيان يلبسون زرديات وخوذًا وبأيديهم السيوف المسلولة، وسموا ذلك كله «النظام الجديد».

وأستهل شهر صفر الخير بيوم الأربع (سنة ١٢١٧)

في ثانيه وصل سعيد أغا وكيل دار السعادة، وهو فحل أسمر، فحضر عند الباشا فقابله وخلع عليه وقدم له تقدمة، وضربوا له عدة مدافع أيضًا.

وفي يوم الخميس تاسعه عمل الباشا ديوانًا، وحضر القاضي والعلما والأعيان، وقروا خطًّا شريفًا حضر بصحبة وكيل دار السعادة المذكور مضمونه أنه ناظر أوقاف الحرمين ووكيلها.

وفي يوم الاتنين ثالث عشره قَتل الباشا ثلاثة أشخاصٍ من النصارى المشاهير؛ وهم: ألْطون أبو طاقية، وإبراهيم زيدان، وبركات معلم الديوان سابقًا. قتلوهم في طريق الأزبكية ولم يعلم سبب ذلك، وفي الحال أرسل الدفتردار فختم على دورهم وأملاكهم، وشرعوا في نقل ذلك إلى بيت الدفتردار على الجمال ليباع في المزاد، فبدوا بإحضار تركة ألطون أبي طاقية فوُجد له موجود كثير من ثياب وأمتعة ومصاغ وجواهر وغيرها، وجوارٍ سود وحبوش وساعات، واستمر سوق المزاد في ذلك عدة أيام.

وفيه تواترت الأخبار بأن بونابارته عظيم الفرنسيس خرج بعمارة كبيرة ليحارب الجزاير، وأنه انضم إلى طايفة الفرنسيس الإسبانيول والنابولطان، وتفرقوا في البحر وكثر

اللغط بسبب ذلك، وامتنع سفر المراكب، ورجع الإنكليز إلى قلاع إسكندرية، واستمرت هذه الإشاعة مدة أيام، ثم ظهر عدم صحة هذه الأخبار، وأن ذلك من اختلاقات الإنكليز.

وفي يوم الخميس سابع عشره حضر جاويش الحاج وصحبته مكاتبات الحجاج من العقبة، وضربوا لحضوره مدافع، وأخبروا بالأمن والرخا والراحة ذهابًا وإيابًا، ومشوا من الطريق السلطاني، وتلقتهم العربان وفرحوا بقدومهم، فلما كان يوم الاتنين وصل الحجاج ودخلوا إلى مصر.

وفي صبحها دخل أمير الحاج وصحبته المحمل.

وفي يوم الخميس ثالث عشرينه سافر حسين أغا شنن وذو الفقار كتخدا وصحبتهما علي كاشف لملاقاة عثمان بك الحسيني، وأخلوا له دار عبد الرحمن كتخدا بحارة عابدين.

وفي يوم التلات ثامن عشرينه حضر عثمان بك الحسيني فأرسل إليه الباشا أعيان أتباعه من الأغوات وغيرهم والجنايب، فحضر بصحبتهم وقابل حضرة الباشا، وخلع عليه خلعة وقدم له تقدمة، وذهب إلى الدار التي أعدت له.

وحضر صحبته صالح بك غيطاس وخلافه من الأمرا البطالين، ومعهم نحو المايتين من الغُزِّ والمماليك، سكن كل من الأمرا والكشاف في مساكن أزواجهم، فكانوا يركبون في كل يوم إلى بيت عثمان بك، ويذهبون صحبته إلى ديوان الباشا، ورتب له خمسة وعشرين كيسًا في كل شهر.

وأستهل شهر ربيع الأول بيوم الخميس (سنة ١٢١٧)

وفيه شرعوا في عمل المولد النبوي، وعملوا صواري ووقدة قبالة بيت الباشا وبيت الدفتردار وبيت الشيخ البكري، ونصبوا خيامًا في وسط البركة، ونودي في يوم الخميس تامنه بتزيين البلد وفتح الأسواق والحوانيت والسهر بالليل تلات ليالٍ؛ أولها صبح يوم الجمعة، وآخرها الأحد ليلة المولد الشريف، فكان كذلك.

وفي ليلة المولد حضر الباشا إلى بيت الدفتردار باستدعا، وتعشى هناك، واحتفل لذلك الدفتردار، وعمل له حراقة نفوط وصواريخ حصة من الليل.

وفيه وصلت الأخبار بكثرة عربدة الأمرا القبالي، وتجمع لديهم الكثير من غوغا الحوف والهوارة والعربان، ووصلوا إلى غربي أسيوط، وخافتهم العساكر العثملية، وداخلهم الرعب منهم، وتحصن كل فريق في الجهة التي هو فيها، وانكمشوا عن الإقدام عليهم، وهابوا لقاهم مع ما هم عليه من الظلم والفجور والفسق بأهل الريف والعسف بهم،

وطلبهم الكلف الشاقة والقتل والحرق، وذلك هو السبب الداعي لنفور أهل الريف منهم وانضمامهم إلى المصرلية.

ومن جملة أفاعيلهم التي ضيقت المنافس، وأحرجت الصدور حتى أعاظم الدولة، حجزُهم المراكب ومنعُهم السفار، حتى تعطلت الأسباب وامتنع حضور الغلال من الجهة القبلية، وخلت عرصات الغلة والسواحل من الغلال مع كثرتها في بلاد الصعيد، ولولا تشديد الباشا في عدم زيادة سعر الغلة لغلت أسعارها، وأمر بأن لا يُدخلوا إلى الشون والحواصل شيًّا من الغلة، بل يباع ما يرد على الفقرا حتى يكتفوا. وفي كل وقت يرسلون أوراقًا وفرمانات إلى العساكر بإطلاق المراكب، فلا يمتثلون، ويحجز الواحد منهم أو الاثنان المركب التي تحمل الألف أردب، ويربطونها بساحل الجهة التي هم بها، وتستمر كذلك من غير منفعة، وربما مرت بهم المراكب المشحونة بالغلة، فيأخذون منها النواتية والريس يستخدمونهم في مركبهم، ويأخذ غيرهم المركب فيرمي ما بها من الغلال على بعض السواحل إن لم يجدوا من يشتريه، ويأخذون المراكب فيربطونها عندهم.

وأمثال ذلك مما تقصر عنه العبارة. وفيه تواترت هذه الأخبار بزحف الأمرا القبالي ومن انضم إليهم، فشرعوا في تسفير العسكر أيضًا وصاري عسكرهم طاهر باشا، وأخذ في التشهيل والسفر، فلما كان يوم الخميس خامس عشره عدى إلى البر الغربي وتبعه عسكره.

وفي ذلك اليوم حضرت مكاتبة من الأمرا القبالي ملخصها أن الأرض ضاقت عليهم، واضطرهم الحال والضيق والتغرب عن الوطن إلى ما هم فيه، وأنهم مستمرون في طاعة الله ورسوله والسلطان، ولم يقع منهم ما يوجب إبعادهم وطردهم وقتلهم، فإنهم خدموا وجاهدوا وقاتلوا مع العثمانية وأبلوا مع الفرنساوية فجُوزُوا بضد الجزا، ولا يهون بالنفس الذل والإقبال على الموت، فإما أن تعطونا جهة نتعيَّش فيها أو ترسلوا لنا أهلنا وعيالنا وتشهلوا لنا مراكب على ساحل القصير فنسافر فيها على بر الحجاز، أو تعينوا لنا جهة نقيم بها نحو خمسة أشهر، مسافة ما نخاطب الدولة في أمرنا، ويرجع لنا الجواب ونعمل بمقتضى ذلك، فإن لم تجيبونا لشي من ذلك فيكون ذنب الخلايق في رقابكم لا رقابنا.

وورد الخبر عنهم أنهم رجعوا القهقرى إلى قبلي، فلما حضرت تلك المكاتبة فاشتوروا في ذلك، وكتبوا لهم جوابًا بإمضا الباشا والدفتردار والمشايخ، حاصله الأمان، ما عدا: إبراهيم بك والألفي والبرديسي وأبا دياب، فلا يمكن أن يوذن لهم بشي حتى يرسلوا إلى الدولة، ويأتي الإذن بما تقتضيه الآراء، وأما بقيتهم فلهم الأمان والإذن بالحضور إلى

مصر، ولهم الإعزاز والإكرام، ويسكنون فيما أحبوا من البيوت، ويرتب لهم ما يكفيهم من التراتيب والنفقة وغير ذلك مثل ما وقع لعثمان بك الحسيني، فإنهم رتبوا له خمسة وعشرين كيسًا في كل شهر، ومكنوه مما طلبه من خصوص الالتزام، ورفعوها عمن كان أخذها حلوان، وهذه أول قضية شنيعة ظهرت بقدومهم. واستمر طاهر باشا مقيمًا بالبر الغربي.

وفي هذا الشهر كمل تتميم عمارة المقياس على ما كان عمره الفرنسيس على طرف نفقة الميري، وأنشا الباشا طيارة في علوه عوضًا عن الطيارة القديمة التي هدمها الفرنسيس، وأنشا أيضًا مصطبة في مرمى النشاب بالناصرية، وجعل فيها كشكًا لطيفًا مزينًا بالأصباغ، ودرابزين حول المصطبة المذكورة.

ومن الحوادث بثغر سكندرية أنه حضر قليون وفيه تجار وبزرجانية، يقال له: قليون مهردار الدولة فارسي بالمينة الغربية، وطلع منه قبطان وبعض التجار إلى البلدة وأقام نحو يومين أو تلاتة، فطلع رجل من نصارى الأروام، وأخبر الإنكليز أنه مات بالقليون رجل بالطاعون، ومات قبله تلاتة أيضًا فطلبوا القبطان فهرب، فأرسلوا إلى المركب وأحضروا اليازجي وتحققوا القضية وأحرقوا المركب بما فيها، وأشهروا اليازجي وعروه من ثيابه وسحبوه بينهم في الأسواق، وكلما مروا به على جماعة من العثمانية مجتمعين على مصاطب القهاوي بطحوه بين أيديهم وضربوه ضربًا شديدًا، ولم يزالوا يفعلون به ذلك حتى قتلوه.

ووقع أيضًا أن خورشيد باشا حاكم سكندرية أحدث مظالم ومكوسًا على الباعة والمحترفين، فذهب بعض الإنكليز يشتري سمكًا، فطلب السماك منه ثمنًا زايدًا على العادة، فقال له الإنكليزي: لأي شيء تطلب الزيادة عن المعتاد؟ فعرَّفه علة ذلك بما أحدثه الحاكم عليهم من المكس، فرجع الإنكليزي وأخبر كبراه، فتحققوا القضية وأحضروا المنادي وأمروه بالمناداه بإبطال ما أحدثه العثمانية من المكوس والمظالم، فخرج المنادي وقال: حسبما رسم الوزير محمد باشا وخورشيد أغا بأن جميع الحوادث المحدثة بطالة. فسمعوه يقول ذلك فأحضروه وضربوه ضربًا شديدًا وعزروه على ذلك القول، وقالوا له: قل في مناداتك: حسبما رسم صاري عسكر الإنكليز.

ووقع أيضًا أن جماعة من العسكر أرادوا القبض على امرأة من النسا الذين يصاحبن الإنكليز، فمنعها منهم عسكر الإنكليز فتضاربوا معهم، فقتل من الإنكليز اثنان، فاجتمع الإنكليز وأرسلوا إلى خورشيد باشا بأن يخرج إلى خارج البلدة ويحاربهم، فامتنع من

ذلك، فأمروه بالنزول من القلعة وأسكنوه في دار بالبلد، ومنعوا عسكره من حمل السلاح مطلقًا مثل الإنكليزية واستمروا على ذلك.

واستهل شهر ربيع التاني (سنة ١٢١٧)

فيه حضر أحمد أغا شويكار من عند القبالي ومحمد كاشف صحبته من جماعة الألفي، ومعهم مكاتبات وأشيع طلبهم الصلح، فأقاموا عدة أيام محجوبين عن الاجتماع بالناس، ثم سافروا في أواسطه ولم يظهر كيفية ما حصل وبطل سفر طاهر باشا إلى الجهة القبلية، ورجع إلى داره بعد عدة أيام من رجوعهم.

وفيه عمل مولد المشهد الحسيني، ودعا الشيخ السادات الباشا في خامسه وتعشى هناك ورجع إلى داره.

وفيه تقلد السيد أحمد المحروقي أمين الضربخانة وفرق ذهبًا كثيرًا في ذلك اليوم ببيت الباشا، وعمل له ليلة بالمشهد الحسيني ودعا الباشا والدفتردار وأعيان الدولة والعلما، وأولم لهم وليمة عظيمة، وأوقد بالمسجد وقدة كبيرة، وقدم للباشا تقدمة، وفي صبحها أرسل للباشا مع ولده هدية وتعبية أقمشة نفيسة، فخلع عليه الباشا فروة سمور.

وفي غرة هذا الشهر شرع الباشا في هدم الأماكن المجاورة لمنزله التي تهدمت واحترقت في واقعة الفرنسيس ليبنيها مساكن للعساكر المختصة به، وتسمى عندهم بالقشلة، وذلك من قبالة منزله من المكان المعروف بالساكت إلى جامع عثمان كتخدا حيث رصيف الخشاب، واهتم لذلك اهتمامًا عظيمًا، ورسم بتفريد فِردة على البلاد: أعلى وأوسط وأدنى، وأرسلوا المعينين لقبض ذلك من البلاد مع ما الفلاحون فيه من الظلم والجور من العساكر والمباشرين، وحق الطرد وفرد الإنكليز.

وفي منتصفه كملت عمارة مشهد السيدة زينب بقناطر السباع، وكان من خبره أن هذا المشهد كان أنشاه وعمَّره عبد الرحمن كتخدا القاردغلي في جملة عمايره، وذلك في سنة أربع وسبعين وماية وألف. فلم يزل على ذلك إلى أن ظهر به خلل ومال شقه، فانتدب لعمارته عثمان بك المرادي المقتول المعروف بالطنبرجي في سنة اثنتي عشرة ومايتين وألف، فهدمه وكشف أنقاضه وشرع في بناه وأقام جدرانه، ونصبوا أعمدته وأزادوا عقد قناطره، فحصلت حادثة الفرنسيس وجرى ما جرى، فبقي على حالته إلى أن خرج الفرنسيس من أرض مصر.

وحضرت الدولة العثمانية فأعرض خدمة الضريح إلى الوزير يوسف باشا، فأمر بإتمامه وإكماله على طرف الميري، ثم وقع التراخي في ذلك إلى أن استقر قدم محمد باشا في ولاية مصر، فاهتم لذلك، فشرعوا في إكماله وتتميمه وتسقيفه، وتقيد لمباشرة ذلك ذو الفقار كتخدا، فتم على أحسن ما كان، وأحدثوا به حنفية وفسحة وزخرفوه بالنقوشات والأصباغ.

ولما كان يوم الجمعة رابع عشره حصلت به الجمعية، وحضر الباشا والدفتردار والمشايخ وصلوا به الجمعة، وبعد انقضا الصلاة عقد الشيخ محمد الأمير المالكي درس وظيفته، وأملى ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ﴾ الآية. والأحَاديث المتعلِقة بذلك، وتمَّ المجلس وأخلع عليه الباشا بعد ذلك خلعة، وكذا الإمام.

وفيه نصب للباشا خيمة عند بيته بقرب الهدم يجلس بها حصة كل يوم لمباشرة العمل، وربما باشر بنفسه ونقل بعض الأنقاض، فلما عاين الأغوات والجوخدارية منه ذلك بادروا إلى الشيل، ونقل التراب بالغلقان فلما أشيع ذلك حضر طاهر باشا وأعيان العساكر، فنقلوا أيضًا وأشيع طلب المساعدة.

فحضر طايفة من ناحية الرميلة وعرب اليسار، ومعهم طبول وزمور، فسأل عن ذلك، فقال له المحتسب ذو الفقار: هولا طايفة من طوايفي حضروا لأجل المساعدة. فشكرهم على ذلك وأمرهم بالذهاب، فبقي منهم طايفة واحده. وأخذوا في شيل التراب بالأغلاق ساعة والطبول تضرب لهم فانسرَّ الباشا من ذلك، وحسن القُرَنَا المُلازمين للباشا المساعدة وأن الناس تحب ذلك، فرتبوا له ترتيب هذا الأمر.

وأحضروا قوايم أرباب الحرف التي كتبت أيام فِرَد الفرنسيس، ونبهوا عليهم بالحضور، فأول ما بدوا بالنصارى الأقباط فحضروا، ويقدمهم رُيَسَاهم وهم: جرجس الجوهري وواصف وفلتيوس ومعهم طبول وزمور، وأحضر لهم أيضًا مهتار باشا النوبة التركية وأنواع الآلات والمغنين، حتى البرامكة بالرباب فاشتغلوا نحو ثلاث ساعات.

وفي ثاني يوم حضر منهم أيضًا كذلك طايفة، ولما انقضت طوايف الأقباط حضر النصارى الشوام والأروام.

ثم طلبوا أرباب الحرف من المسلمين، فكان يجتمع الطايفتان والثلاثة، ويحضرون معهم عدة من الفَعَلَة يستأجرونهم ويحضرون إلى العمل، ويقدمهم الطبول والزمور والمجرية، وذلك خلاف ما رتبه مهتار باشا، فيصير ضجة عظيمة مختلطة من نوبات تركية، وطبول شامية ونقاقير كشوفية ودبادب حربية وآلات موسيقية، وطبلات بلدية وربابات برامكية، كل ذلك في الشمس والغبار والعفار.

وزادوا في الطنبور نغمة، وهي أنهم بعد أن يفرغوا من الشغل، ويأذنوا لهم بالذهاب يلزمونهم بدراهم يقبضها مهتار باشا برسم البقشيش على أوليك الطبالين والزمارين، فيعطيهم النزر اليسير ويأخذ لنفسه الباقي، وذلك بحسب رسمه واختياره، فيأتي على الطايفة المابة قرش والخمسون قرشًا ونحو ذلك، ويركب في ثاني يوم ويذهب إلى خطتهم ويلزمهم بإحضار الذي قرره عليهم، فيجمعونه من بعضهم ويدفعونه.

وإذا حضرت طايفة ولم تقدم بين يديها هدية أو جعالة، طولوا عليهم المدة، وأتعبوهم ونهروهم واستحثوهم في الشغل، ولو كانوا من ذوي الحرف المعتبرة، كما وقع لتجار الغورية والحريرية.

وإذا قدموا بين أيديهم شيًّا خففوا عليهم وأكرموهم، ومنعوا أعيانهم وشيوخهم من الشغل وأجلسوهم بخيمة مهتار باشا، وأحضر لهم الآلات والمغاني فضربت بين أيديهم، كما وقع ذلك لليهود.

واستمر هذا العمل بقية الشهر الماضي إلى وقتنا هذا، فاجتمع على الناس عشرة أشيا من الرذالة وهي السخرة، والعونة، وأجرة الفعلة، والذل، ومشقة العمل، وتقطيع الثياب، ودفع الدراهم، وشماتة الأعدا، وتعطيل معاشهم، وعاشرها أجرة الحمام.

وفي يوم الأربع ثاني عشره الموافق لسادس مسرى القبطي كان وفا النيل المبارك، وكُسر السد في صبحها يوم الخميس بحضرة الباشا والقاضي، والشنك المعتاد وجرى الما في الخليج ولم يطف مثل العادة، ومنعوا دخول السفن والمراكب المعدة للنزهة؛ وذلك بسبب أذية العساكر العثمانية.

وفي منتصفه حضر قصاد (رسل) من الططر، وعلى يدهم مكاتبات من الدولة بوقوع الصلح العام بين العثملي والقرانات وعثمان باشا، ومن معه من المخالفين على الدولة من جهة الروملي، فعملوا شنكًا ومدافع تلات أيام تضرب في كل وقت من الأوقات الخمسة، وكتبوا أوراقًا بذلك وألصقوها في مفارق الطرق والأسواق، وقد تقدم مثل ذلك وأظنه من المختلقات.

وفي أواخره حضر حريم الباشا من الجهة الرومية، وهما اثنتان: إحداهما معتوقة أم السلطان، والأخرى معتوقة أخته زوجة قبطان باشا، وصحبتهما عدة سراري، فأسكنهن ببيت الشيخ خليل البكري، وقد كان عمَّره قبل حضورهن وزخرفه ودهنوه بأنواع الصباغات والنقوش، وفرشوه بالفرش الفاخرة وفرش الشيخ المحروقي مكانًا، وكذلك جرجس الجوهري فرش مكانًا، وأحمد بن محرم واعتنوا بذلك اعتنًا زايدًا، حتى إن

جرجس فرش بساطًا من الكشمير وغير ذلك، وعمل وليمة العقد، وعقد على الثنتين في آن واحد بحضرة القاضي والمشايخ، وأهدوا لكل من الحاضرين بقجة من ظرايف الأقمشة الهندية والرومية، وعملوا شنكًا وحراقة بالأزبكية عدة ليالٍ.

واستهل شهر جمادى الأولى بيوم الاتنين (سنة ١٢١٧)

في يوم الاتنين تامنه شنقوا تلاتة من عساكر الأروام: أحدهم بباب زويلة، والتاني بباب الخرق، والتالت بالأزبكية بالقرب من مسجد عثمان كتخدا، وقتلوا أيضًا شخصًا بالنحاسين.

وفي يوم التلات تاسعه عمل الباشا ديوانًا وفرق الجامكية على الوجاقلية.

وفيه وردت الأخبار بوقوع حادثة بين الأمرا القبالي والعثملية، وذلك أن شخصًا من العثملية يقال له أجدر، موصوفًا بالشجاعة والإقدام، أراد أن يكبس عليهم على حين غفلة؛ ليكون له ذكر ومنقبة في أقرانه، فركب في نحو الألف من العسكر المعدودين، وكانوا في طرف الجبل بالقرب من الهو، فسبق العين إلى إلى الأمرا وأخبرهم بذلك، فلما توسطوا سطح الجبل، وإذا بالمصرلية أقبلت عليهم في ثلاثة طوابير فأحاطوا بهم، فضرب العثملية بنادقهم طلقًا واحدًا لا غير، ونظروا وإذا بهم في وسطهم وتحت سيوفهم، ففتكوا فيهم وحصدوهم ولم ينج منهم إلا من طال عمره وفرَّ، وأُخذ كبيرهم أجدر المذكور أسيرًا.

وانجلت الحرب بينهم وأحضروا أجدر بين يدي الألفي، فقال له: لأي شيء سموك أجدر؟ فقال: الأجدر معناه الأفعى العظيم، وقد صرت من أتباعك. فقال: لكن يحتاج إلى تطريمك وإخراج سُمِّك أولًا. وأمر به فأخذوه وقلعوا أسنانه ثم قتلوه، وأخذوا جميع ما كان معهم، ومن جملة ذلك أربعة مدافع كبار.

وفيه قلدوا أحمد كاشف سليم إمارة أسيوط، وعزل أميرها «مقدار» بك العثماني؛ بسبب شكوى أهل النواحي من ظلمه.

وفي منتصفه تواترت الأخبار برجوع الأمرا القبالي إلى بحري، وأنهم وصلوا إلى بني عدي، فنهبوا غلالها ومواشيها، وقبضوا أموالها وأعطوهم وصولات بختمهم، وكذلك «الحواوشة» وما جاور ذلك من البلاد، فشرع العثمانية بمصر في تشهيل تجريدة وعساكر.

وفيه حضرت أيضًا عساكر كثيرة من جنود الأتراك والأرنؤد، فأحضروا مشايخ الحارات، وأمروهم بإخلا البيوت لسكناهم، فأزعجوا الكثير من الناس وأخرجوهم من دورهم بالقهر، فحصل للناس غاية الضرر وضاق الحال بالناس وكلما سكنت منهم

طايفة بدار أخربوها وأحرقوا أخشابها وطيقانها وأبوابها، وانتقلوا إلى غيرها فيفعلون بها كذلك، ومن تكلم أو دافع عن داره وُبِّخَ بالكلام القبيح الذي لا أصل له، وقيل له: عجب! كنتم تُسكنون الفرنسيس وتخلون لهم الدور. وأمثال ذلك من الكلام القبيح الذي لا أصل له.

ولما شرعوا في تشهيل التجريدة حصلت منهم أمور وأذيِّة في الناس كثيرة؛ فمنها أنهم طلبوا الحمَّارة المُكارية وأمروهم بإحضار ستماية حمار، وشددوا عليهم في ذلك، فقيل إنهم لما جمعوها أعطوهم أثمانها في كل حمار خمسة ريال، بعدته ولجامه، مع أن فيها ما قيمته خمسون ريالًا خلاف عدته.

ثم ما كفاهم ذلك، بل صاروا يخطفون حمير الناس من أولاد البلد بالقهر، وكذلك حمير السقايين، التي تنقل الماء من الخليج للبيوت، حتى امتنع السقايون بالكلية، وبلغ ثمن القربة الكتافي من الخليج عشرة أنصاف فضة.

وتعدَّى بالخطف أيضًا من ليس بمسافرٍ، فكانوا يُنزلون الناس من على حميرهم ويذهبون بها إلى الساحة ويبيعونها، والبعض تبعهم واشترى حماره بالثمن.

فخبا جميع الناس حميرهم في داخل الدور، فكان يأتي الجماعة من العسكر ويتنصتون بآذانهم على باب الدار ويتبعون نهيق الحمير، وبعض شياطينهم يقف على الدار ويقول: «زر» ويكررها، فينهق الحمار، فيعلمون به ويطلبونه من البيت، فإما أخذوه قهرًا أو افتداه صاحبه بما أرادوه وغير ذلك.

وفيه حضر قاضي إسكندرية إلى مصر، وذلك أنه لما حضر من إسلامبول طلع إلى داره وحضرت إليه الدعاوى، فأخذ منهم المحصول على الرسم المعتاد، فأرسل إليه الإنكليز ولاموه على عدم حضوره إليهم وقت قدومه، وقالوا له: إن أقمت هنا بتقليدنا إياك فلا تأخذ من أحد شيًّا ونرتب لك ثلاثة قروش في كل يوم، وإلا فاذهب حيث شيت. فحضر إلى مصر بذلك السبب.

شهر جمادى التانية (سنة ١٢١٧)

في خامسه سافرت العسكر بالتجريدة إلى الأمرا القبالي، وسافر أيضًا عثمان بك الحسيني وباقي العساكر المعزولين وأمير العساكر العثملية محمد علي سرششمه، وكان الباشا أرسل إبراهيم كاشف الشرقية بجواب إليهم، فرجع في ثامنه بجواب الرسالة، وأعطاه الألفي ألفين ريال، وقدم له حصانين.

وحاصل تلك الرسالة كما تقدم: الأمان لجميع الأمرا المصرلية، وأنهم يحضرون إلى مصر، ويقيمون بها، ولهم ما يرضيهم من الفايظ وغيره ما عدا الأربعة الأمرا، وهم: إبراهيم بك والألفي والبرديسي وأبا دياب؛ فإنهم مطلوبون إلى حضرة السلطان، يتوجهون إليه مع الأمن عليهم، ويعطيهم مناصب وولايات كما يحبون، فإن لم يرضوا بذلك، فالباشا يعطيهم إقطاع إسنا ويقيمون بها، فلما وصل إبراهيم أغا المذكور إلى ناحية أسيوط وأرسل إليهم، أرسلوا إليه أحمد أغا شويكار ومحمد كاشف الألفي، فانتظروه خارج الجبانة، فخرج إليهم ولاقوه وأخذوه صحبتهم إلى عرضهم وأنزلوه في بوطاق بات به، فلما أصبح الصباح طلبوه إلى ديوانهم، فحضر ووقفت عساكرهم صفوفًا ببنادقهم، وفيهم كثير على هيَّة اصطفاف الفرنسيس، وعملوا له شنكًا ومدافع، ثم أعطاهم المكاتبة بحضرة الجميع، فقروها، ثم تكلم الألفي، وقال: أما قولكم: نذهب إلى إسلامبول ونقابل السلطان ينعم علينا، فهذا مما لا يمكن، وإن كان مراده أن ينعم علينا، فإننا في بلاده، وإنعامه لا يتقيد بحضورنا بين يديه، وأما باقي إخواننا، فهم بالخيار إن شاوا أقاموا معنا، وإلا ذهبوا. كل إنسان أمير نفسه، وأما كون حضرة الباشا يعطينا إقطاع إسنا فلا يكفينا هذا، وإنما يكفينا من أسيوط إلى آخر الصعيد، ونقوم بدفع خراجه، فإن لم ترضوا بذلك فإن الأرض لله، ونحن خلق الله نذهب حيث شينا، وناكل من رزق الله ما يكفينا، ومن تعدى علينا وحارَبَنا حاربْناه حتى يكون من أمرنا ما يكون.

ثم استقروا بقنطرة اللاهون وكسروا القنطرة، وشرعوا في قبض الأموال من بلاد الفيوم، فلما رجع إبراهيم كاشف بذلك الجواب، ركب الباشا في صبحها إلى الآثار، واستعجل العسكر بالذهاب، فعدوا إلى البر الغربي، وتأخر عنهم عثمان بك الحسيني والغز المصرلية وباتوا بطرًا.

وفيه شنق الباشا رجلًا طبجيًّا في المشنقة التي عند قنطرة المغربي.

ثم إن عثمان بك أرسل إلى الباشا يطلب حسين أغا شنن ومصطفى أغا الوكيل؛ ليتفاوض معهما في كلام، فأرسل له إبراهيم أغا كاشف الشرقية، فأعطاه الخلعة التي خلعها عليه الباشا ودراهم الترحيلة، وقال له: سلِّم علي الباشا أفندينا، وأخبره أني جاهدت الفرنسيس، وبلوت معهم، ثم إني حضرت بأمان طايعًا، فلم أجازَ، ولم أحصل ما كنت أومِّله، ولم يوف معي وعدًا، وأنا لا أقاتل إخواني المسلمين وأختم عملي بذلك، ولا أقيم بمصر آكُل الصدقة، وإنما أذهب سايحًا في بلاد الله. وكان في ظن عثمان بك أنه إذا أتى إلى مصر على هذه الصورة يجعله الباشا أمير البلاد أو أمير الحاج.

وفيه أمر الباشا محمد كتخدا المعروف بالزربة بالسفر إلى جهة قبلي، فاستعفى من ذلك فأمر بقتله، فشفع فيه يوسف كتخدا الباشا، وقال: إن له حرمة، وقد كان في السابق كتخدا لأفندينا، ولا يناسب قتله على هذه الصورة. فأمر بسفره إلى جهة البحيرة محافظًا، فسافر من يومه.

وأما عثمان بك فإنه ركب وذهب إلى جهة قبلي من الحاجز في البر الغربي على غير الرسم، وأشيع ذلك في الناس ولغطوا به، فلما تحقق العثمانية ذلك رسموا لطوايف العسكر أن يقيموا منهم طوايف بالقلاع التي على التلول، ونصبوا عليها بيارق، وأوقفوا حراسًا على أبواب المدينة يمنعون من يخرج من المدينة من الغز الخيالة والمصرلية، فمن خرج إلى بولاق أو غيرها فلا يخرج إلا بورقة من كتخدا الباشا.

وفي ليلة الجمعة عاشره أمر الباشا بكبس بيوت الأمرا الحسنية، ونهب ما بها من الخيول والجمال والسلاح.

وفيه حضر أغات التبديل إلى بيت الخربطلي بعطفة خُشْقَدَم، وبه جماعة من عسكر المغاربة، فكبس عليهم وقبض على جماعة منهم وكتفهم، وكشف روسهم وأحاطت بهم عساكره وسحبوهم، وأخذوا ما وجدوه في جيوبهم على هيَّة شنيعة، ومروا بهم على الغورية، ثم على النحاسين وباب الشعرية، حتى انتهوا بهم إلى الأزبكية على حارة النصارى، ودخلوا بهم بيت الباشا، وهم لا يعلمون لهم ذنبًا، فلما مثلوا بين يدي كتخدا الباشا ذكر لهم أن بجوارهم ديرًا للنصارى، وأنهم فتحوا طاقًا صغيرًا يطل على الدير، فقالوا: لا علم لنا بذلك. وأخبروا أن جماعة من الأرنؤد ساكنون معهم بأعلى الدار، فيحتمل أن ذلك من فعلهم، فأرسلوا من كشف عن ذلك، فوجدوه كما قال المغاربة، فأطلقوهم بعد هذه الجرسة الشنيعة ومرورهم بهم إلى حارة النصارى، وأُخْذ دراهمهم ومتاعهم، والأمر لله وحده.

وفيه أشيع عن مرور جماعة من الغُز القبالي على جهة الجيزة إلى جهة إسكندرية، وكذلك جماعة من الإنكليز من إسكندرية إلى قبلي.

وفيه تداعى مصطفى خادم مقام سيدي أحمد البدوي مع نسيبه سعد بسبب ميراث أخته، فقال مصطفى: أنا أحاسبه على خمسين ألف ريال. فقال سعد: أنا أستخرج منه مايتي ألف، ريال بشرط أن تعوقوه هنا وتعطوني خادمه وجماعة من العسكر. ففعلوا ذلك وعوقوه ببيت السيد عمر النقيب، وتسلم سعد خادمه والعسكر، وذهب بهم إلى طندتا، فعاقبوا الخادم، فأقرَّ على مكان أخرجوا منه ستة وتلاتين ألف ريال فرانسة، ثم فتحوا بيرًا

مردومة بالأتربة، وأخرجوا منها ريالات فرانسة، وأنصافًا وأرباعًا كلها مخلوطة بالأتربة، وقد ركبها الصدا والسواد فأحضروها وجلوها في قاعة اليهود، ولم يزالوا يستخرجون حتى غلقوا ماية وسبعة وتمانين ألفًا وسبعماية وكسورًا خلاف الهالك، وآخر الأمر أخرجوا خبية لا يعلم قدرها.

ثم حصل العفو ورجع العسكر وأخذوا كِرَا طريقهم، وأخذوا من أولاد عمه عشرة أكياس.

وفي يوم السبت حادي عشره كان آخر التسخير في الهدم ونقل التراب من العمارة، وكان آخر ذلك طايفة الخردة من الغياش والقرداتية وأرباب الملاعيب وبطل الزمر والطبل، واستمر الفعلة في حفر الأساس ورشح الماء عليهم بأدنى حفر؛ لكون أن ذلك في وقت النيل والبركة مَلآنة بالماء حول ذلك.

وفي خامس عاشره خرجت عساكر كثيرة ودلاة أيضًا وسافروا إلى قبلي.

وفي ثالث عشرينه سافر عساكر في نحو الأربعين مركبًا إلى جهة البحيرة؛ بسبب عرب بني عدي، فإنهم حضروا إلى تلك الناحية وحصل منهم ضرر زايد وعاثوا بالبحيرة ودمنهور.

ومن الحوادث السماوية أن في تلك الليلة، وهي ليلة الأربع ثاني عشرينه، احمرت السما بالسحاب عند غروب الشمس حمرة مشوبة بصفرة، ثم انجلت وظهر في أثرها برق من ناحية الجنوب في سحاب قليل متقطع، وازداد وتتابع من غير فاصل، حتى كان مثل شعلة النفط المتوقدة المتموجة بالهوا، واستمر ذلك إلى تالت ساعة من الليل، ثم تحول إلى جهة المغرب وتتابع، لكنه بفاصل على هيئة البرق المعتاد، واستمر إلى خامس ساعة، ثم أخذ في الاضمحلال وبقي أثره غالب الليل، وكان ذلك ليلة سادس عشرين درجة من برج الميزان وحادي عشر «بابه» القبطي وتامن تشرين أول الرومي، ولعل ذلك من الملاحم المنذرة بحادث من الحوادث.

وفيه ورد الخبر بورود مركب من فرانسا، وبها ألجي وقنصل، وصحبتهما عدة فرنسيس، فعمل لهم الإنكليز شنكًا ومدافع بإسكندرية، فلما كان ليلة التلات تامن عشرينه وصل ذلك (الألجي) وصحبته خمسة من أكابر الفرنسيس إلى ساحل بولاق، فأرسل لهم الباشا لملاقاتهم خازنداره وصحبته عدة عساكر خيالة، وبأيديهم السيوف المسلولة، فقابلوهم وضربوا لهم مدافع من بولاق والجيزة والأزبكية، وركبوا إلى دار أعدت لهم بحارة البنادقة، وحضروا في صبحها عِند الباشا وقابلوه، وقدم لهم خيلًا معدة وأهدى لهم هدايا، وصاروا يركبون في هيئة وأبهة معتبرة، وكان فيهم جبير ترجمان بونابرته.

وفيه وردت الأخبار بأن الغُز القبالي نهبوا بلاد الفيوم، وقبضوا أموالها ونهبوا غلالها ومواشيها، وحرقوا البلاد التي عصت عليهم، وقتلوا أناسها حتى قتلوا من بلدة واحدة ماية وخمسين نفرًا، وأما العثمانية الكاينون بالفيوم، فإنهم تحصنوا بالبلدة وعملوا لهم متاريس بالمدينة وأقاموا داخلها.

شهر رجب الفرد (١٢١٧)

استهل بيوم الجمعة، وفيه رموا أساس عمارة الباشا، وكان طلب من الفلكيين أن يختاروا له وقتًا لوضع الأساس، ففعلوا ذلك وكان بعد اثني عشر يومًا من يوم تاريخه، فاستبعده وأمر برمي الأساس في اليوم المذكور، ورب النجم يفعل ما يشا.

وفيه أحضروا أربعة روس فوضعت عند باب الباشا، زعموا أنهم من قتلى الغز المصرلية.

وفي خامسه يوم التلات سافر الألجي الفرنساوي وأصحابه، فنزلوا إلى بولاق وأمامهم مماليك الباشا بزينتهم، وهم لابسين الزروخ والخوذ، وبأيديهم السيوف المسلولة، وخلفهم العبيد المختصة بالباشا، وعلى روسهم طراطير حمر، وبأيديهم البنادق على كواهلهم، فلم يزالوا صحبتهم حتى نزلوا ببيت «راشتو» ببولاق، ثم رجعوا، ثم نزلوا المراكب وسافروا إلى جهة دمياط، وضربوا لهم مدافع عند تعويمهم السفن.

وفيه أشيع انتشار الأمرا القبالي إلى جهة بحري وحضروا إلى إقليم الجيزة، وطلبوا منها الكلف حتى وردان.

وفيه حضر محمد كتخدا المعروف بالزربه الذي كان كتخدا الباشا، وتقدم أنه كان أَمَره بالسفر إلى قبلي، فامتنع وأذن له بالسفر إلى البحيرة محافظًا، فلما تقدم طوايف الأمرا إلى بحري، فمر منهم جماعة قليلة على محمد كتخدا الزربه المذكور، فلم يتعرض لهم مع قدرته على تعويقم، فبلغ الباشا ذلك فحقدها عليه، وأرسل إليه وطلبه إلى الحضور فحضر، فلما كان يوم السبت تاسعه طلبه الباشا في بكرة النهار، فلما حضر أمر بقتله فنزل به العسكر، ورموا رقبته عند باب الباشا، ثم نقلوه إلى بين المفارق قبالة حمام عثمان كتخدا، فاستمر مرميًّا عريانًا إلى قبيل الظهر، ثم شالوه إلى بيته وغسلوه في حوش البيت سكنه ودفنوه، وعند موته أرسل الدفتردار، فختم على داره وأخرج حريمه، وفي تاني يوم أحضروا تركته ومتاعه وباعوا ذلك ببيت الدفتردار.

وفيه وردت مكاتبات من الديار الرومية، وفيها الخبر بعزل شريف محمد أفندي الدفتردار وولاية خليل أفندي الرجاوي المنفصل عن الدفتردارية عام أول، فحزن الناس لذلك حزنًا عظيمًا؛ فإن أهل مصر لم يروا راحة من وقت دخول العثمانية إلى مصر، من نحو أربعين سنة، سوى هذه السنة التي باشرها هو، فإنه أرضى خواطر الصغير قبل الكبير، والفقير قبل الغني، وصرف الجامكية وغلال الأنبار عينًا وكَيلًا، وكان كثير الصدقات، ويحب فعل الخير والمعروف، وكان مهذبًا في نفسه بشوشًا متواضعًا، وهو الذي أرسل يطلب الاستعفا من الدفتردارية لما رأى من اختلال أحكام الباشا.

وفي يوم الاتنين حادي عشره عدى يوسف كتخدا الباشا إلى بر إنبابة، وعدى معه الكثير من العسكر، ونصب العرضي ببر إنبابة على ساحة البحر، وأُشيع وصول الأمرا إلى ناحية الجسر الأسود، وقطعوا الجسر لأجل تصفية المياه وانحدارها من الملق لأجل مشي الحافر، ثم رجعوا ناحية المنصورية وبشتيل.

واستمر خروج العساكر العثمانية التي كانت جهة قبلي إلى بر إنبابة، وهم كالجراد المنتشر، ونصبوا وطاقهم ظاهر إنبابة، واستمر خروج العساكر والطلب ونقل البقسماط والجبخَانة على الجمال والحمير ليلًا ونهارًا، وأخذوا المراكب ووسقوها معهم في البحر، وغصبوا ما وجدوه من السفن قهرًا.

وانتشرت عساكرهم وخيامهم ببر إنبابة حتى ملوا الفضا، بحيث يظن الرائي أنهم متى تلاقوا مع الغز المصرلية، أخذوهم تحت أقدامهم لكثرتهم واستعدادهم، بحيث كان أوايل العرضي عند الوراريق، وآخرهم بالقرب من بولاق الدكرور طولًا، ثم إن الأمرا رجعوا إلى ناحية وردان والطرانة.

وفي يوم الجمعة خامس عشره انتقل العرضي من بر إنبابة وحلُّوا الخيام، وفي ثاني يوم خرجت عساكر خلافهم ونصبت مكانهم، وسافروا وخرج خلافهم، وهكذا دأبهم في كل يوم تخرج طايفة بعد أخرى.

وفيه رسم الباشا بألف أردب قمح إنعام تفرق على طلبة العلم والمجاورين والأروقة بالجامع الأزهر، ففرقت بحسب الأغراض، وأنعم أيضًا بعد أيام بألف أخرى، فُعل بها كذلك.

وإنها خطرات من وساوسه   يعطي ويمنع لا بخلًا ولا كرمَا

وفي يوم الأحد سابع عشره وصل جماعة ططر، وأخبروا بتقليد شريف محمد أفندي الدفتردار ولاية جدة.

وفي يوم التلات تاسع عشره خرج طاهر باشا، ونصب وطاقه جهة إنبابة للمحافظة، وخرجت عساكره ونصبت وطاقاتهم ببر إنبابة أيضًا متباعدين عن بعضهم البعض، واستمروا على ذلك.

وفي يوم الجمعة ثاني عشرينه حضر رجل من طرف الدولة يقال له حجان، وهو رجل عظيم من أرباب الأقلام، وعلى يده فرمان، فأرسل الباشا إلى ملاقاته، وأصبح عَمِل ديوانًا، وجمع فيه المشايخ والقاضي والوجاقلية، وحضر شريف أفندي الدفتردار والقاضي والمشايخ، وجمعهم بعد الظهر، وقُري عليهم ذلك الفرمان، وهو خطاب إلى حضرة الباشا، وملخصه: إننا اخترناك لولاية مصر لكونك عريقًا في رجال الدولة ورُبيت بالسراية، ولما نعلمه منك من نور عقلك وحسن سياستك والشجاعة، وأرسلنا إليك عساكر كثيرة وأَمَرناك بقتل الخاينين، وإخراج الأربعة أنفار من الإقليم المصري، بشرط الأمان عليهم من القتل، وتقليدهم ما يختارونه من المناصب في غير إقليم مصر، وإكرامهم غاية الإكرام إن امتثلوا الأوامر السلطانية (وأطلقنا لك التصرف في الأموال الميرية لنفقة العسكر واللوازم، وما عرفنا الموجب تأخير أمرهم لهذا الوقت، فإن كنت محتاجًا إلى الأمداد أو المال، أرسلنا إليك الأمداد الكثيرة من العساكر، أو المال أرسلنا إليك كذلك) وإن لم يمتثلوا، وكل من انضم إليهم مثلهم، ومن شذ عنهم وطلب الأمان فهو مقبول وعليه الأمان إلى آخر ما ذكر من ذلك المعنى.

وفي يوم السبت تالت عشرينه كتبت أوراق بمعنى ذلك وألصقت بالطرقات.

وفي خامس عشرينه تواترت الأخبار بوقوع معركة بين العثمانيين والأمرا المصرلية بأراضي دمنهور، وقتل من العساكر العثمانية مقتلة عظيمة، وكانت الغلبة للمصرليين وانتصروا على العثمانيين.

وصورة ذلك أنه لما تراي الجمعان، واصطفت عساكر العثمانيين الرجالة ببنادقهم، واصطفت الخيالة بخيولهم، وكان الألفي بطايفة من الأجناد نحو التلاتماية قريبًا منهم وصحبتهم جماعة من الإنكليز، فلما رأوهم مجتمعين لحربهم قال لهم الإنكليز: ماذا تصنعون؟ قالوا: نصدمهم ونحاربهم. قال الإنكليز: انظروا ما تقولون، إن عساكرهم الموجهين إليكم أربعة عشر ألفًا وأنتم قليلون! قالوا: النصر بيد الله. فقالوا: دونكم. فساقوا إليهم واقتحموا إلى الخيالة، فقتل منهم من قتل، فانهزم الباقون وتركوا الرجالة خلفهم،

ثم كروا على الرجالة فلم يتحركوا بشي وطلبوا الأمان فساقوا منهم نحو السبعماية مثل الأغنام.

وأخذوا الجبخانة والمدافع وغالب الحملة والإنكليز وقوف على علوة ينظرون إلى الفريقين بالنظارات.

فلما تحقق الباشا ذلك اهتم في تشهيل عساكر ومدافع، وعدوا إلى بر إنبابة، ونصبوا وطاقهم هناك، وانتقل طاهر باشا إلى ناحية الجيزة.

استهل شعبان بيوم السبت (سنة ١٢١٧)

فيه شرعوا في عمل متاريس جهة الجيزة، وقبضوا على أناس كثيرة من ساحل مصر القديمة ليسخِّروهم في العمل.

وفيه حضر الكثير من العساكر المجاريح، وجمع الباشا النجارين والحدادين، وشرع في عمل شر كفلك، فاشتغلوا فيه ليلًا ونهارًا حتى تمموه في خمسة أيام، وحملوه على الجمال وأنزلوه المراكب وسفروه إلى دمنهور في سادسه.

وفي عاشره كتبوا عدة أوراق وختم عليها المشايخ؛ ليرسلوها إلى البلاد خطابًا لمشايخ البلاد والعربان، مضمونها معنى ما تقدم، وكتبوا كذلك نسخًا ولصقوها بالأسواق، وذلك بإشارة بعض قُرَنَا الباشا المصرلية، وهي بمعنى التحذير والتخويف لمن يسالم الأمرا المصرلية، وخصوصًا المغضوب عليهم، مطرودين السلطنة، العصاة، إلى آخر معنى ما تقدم.

وفي هذه الأيام كثرت الغلال حتى غصت بها السواحل والحواصل، ورخص سعرها حتى بيع القمح بماية وعشرين نصفًا الأردب، واستمرت الغلال مُعَرَّمَة في السواحل ولا يوجد من يشتريها، وكان شريف أفندي الدفتردار أنشا أربعة مراكب كبار لحمل غلال الميري.

ولما حصلت النصرة للمصرلية على العثمانية، خصوصًا هذه المرة مع كثرتهم وقوتهم واستعدادهم، ضبَّعوا فيهم واحتقروهم، ووقفوا على سواحل النيل يمنعون الصادر والوارد منهم ومن غيرهم، وأما الباشا فإنه سخط على العساكر، وصار يلعنهم ويشتمهم في غيابهم وحضورهم.

وفيه حضرت جماعة من أشراف مكة وعلماها هروبًا من الوهابيين، وقصدهم السفر إلى إسلامبول، يخبرون الدولة بقيام الوهابيين، ويستنجدون بهم لينقذوهم منهم

ويبادروا لنصرهم عليهم، فذهبوا إلى بيت الباشا والدفتردار وأكابر البلد، وصاروا يحكون ويشكون وتنقل الناس أخبارهم وحكاياتهم.

استهل شهر رمضان المعظم (سنة ١٢١٧)

عملت الرؤية ليلة الأحد، وركب المحتسب ومشايخ الحرف على العادة ولم ير الهلال، وكان غيمًا مطبقًا، فلزم إتمام عدة شعبان ثلاثين يومًا، فانتبذ بعض الفقها وتبعه آخر وشهدا أنهما رايا هلال شعبان ليلة الجمعة، فقبله القاضي وحكم به تلك الليلة، على أن ليلة الجمعة التي شهدوا برويته فيها لم يكن للهلال وجود البتة، وكان الاجتماع في سادس ساعة من ليلة الجمعة المذكورة بإجماع الحساب والدساتير المصرية والرومية، على أنه لم ير الهلال ليلة السبت إلا حديد البصر في غاية العسر والعجب، وشهر رجب كان أوله الجمعة، وكان عسر الرؤية أيضًا، وأن الشاهد بذلك لم يتفوه به إلا تلك الليلة، فلو كانت شهادته صحيحة لأشاعها في أول الشهر؛ ليوقع ليلة النصف — التي هي من المواسم الإسلامية — في محلها، حيث كان حريصًا على إقامة شعاير الإسلام.

وفيه حضرت جماعة من أشراف مكة وغيرها. وفي خامس عشرينه حضر خليل أفندي الرجاوي الدفتردار في قلة من أتباعه، وترك أثقاله بالمراكب، وركب من مدينة فوة وحضر على البر؛ وذلك بسبب وقوف جماعة من الأمرا المصرلية ناحية النجيلة يقطعون الطريق على المارِّين في المراكب، ولما حضر نزل ببيت إسماعيل بك بالأزبكية.

وفي غايته وقع ما هو أشنع مما وقع في غرته، وذلك أن ليلة الاتنين غايته كان بالسما غيم مطبق ومطر ورعد وبرق متواتر، وأوقدت قناديل المنارات والمساجد، وصلى الناس التراويح، واستمر الحال إلى سابع ساعة من الليل، وإذا بمدافع كثير وشنك من القلعة والأزبكية.

ولغط الناس بالعيد، وذكروا أن جماعة حضروا من دمنهور والبحيرة، وشهدوا أنهم رأوا هلال رمضان ليلة السبت، فذهبوا إلى بيت الباشا، فأرسلهم القاضي، فتوقف في قبول شهادتهم، فذهبوا إلى الشيخ الشرقاوي، فقبلهم وأيدهم وردهم إلى القاضي، وألزمه بقبول شهادتهم، فكتبوا بذلك إعلامًا إلى الباشا، وقضوا بتمام عدة رمضان بيوم الأحد، ويكون غرة شوال صبحها يوم الاتنين، وأصبح الناس في أمر مريج، منهم الصايم ومنهم المفطر، فلزم من ذلك أنهم جعلوا رجب تمانية وعشرين يومًا، وشعبان تسعة وعشرين، وكذلك رمضان، والأمر لله وحده.

شهر شوال (سنة ١٢١٧)

كان أوله الحقيقي يوم التلات، وجزم غالب الناس المفطرين بقضا يوم الاتنين.

وفي خامسه وصلت أثقال خليل أفندي الرجاوي الدفتردار، وفيه طلبوا ألف كيس سلفة من التجار وأرباب الحرف، فوزعت وقبضت على يد السيد أحمد المحروقي، وهي أول حادثة وقعت بقدوم الدفتردار.

وفي يوم الخميس عاشره نصب جاليش شريف باشا المعبر عنه بالطوخ عند بيته بالأزبكية، وضربت له النوبة التركية، وأهدى له الباشا خيامًا كثيرة وطقمًا ولوازم.

وفي يوم الاتنين تاني عشرينه كان خروج أمير الحاج بالموكب والمحمل المعتاد إلى الحصوة، وكان رَكْب الحجاج في هذه السنة عالَمًا عظيمًا، وحضر الكثير من حجاج المغاربة من البحر، وكذلك عالم كثير من الصعيد والقرى القبلية والبحرية والأروام، والقرمان وغير ذلك.

وفي يوم الخميس خامس عشرينه خرج شريف باشا في موكب جليل، ونصب وطاقه عند بركة الشيخ قمر، فأقام به إلى أن يسافر إلى جدة من القلزم، وانتقل خليل أفندي الرجاوي الدفتردار إلى دار شريف باشا بالأزبكية.

وفي غايته حضر أولاد الشريف سرور، شريف مكة، هروبًا من الوهابيين؛ ليستنجدوا بالدولة، فنزلوا ببيت المحروقي بعدما قابلوا محمد باشا والي مصر وشريف باشا والي جدة.

شهر ذي القعدة الحرام (سنة ١٢١٧)

استهل بيوم الأربعا فيه تقدم الناس بطلب الجامكية، فأمرهم الدفتردار بكتابة عرضحالات، فثقل عليهم ذلك، فقالوا: إننا كتبنا عرضحالات في السنة الماضية، وأخذنا سنداتنا من الدفتردار المنفصل، ودفع لنا سنة ستة عشر. فقيل لهم: إنه دفع لكم سنة معجلة، والعبرة بتاريخ السندات، والحساب لا يكون إلا من يوم التوجيه. فضجوا من ذلك وكثر لغط الناس بسبب ذلك، وأكثروا من التشكي من الدفتردار.

وفي سادسه اجتمع الكثير من النسا بالجامع الأزهر، وصاحوا بالمشايخ وأبطلوا دروسهم فَاجتمعوا بِقبلته، ثُم ركبوا إلى الباشا فوعدهم بخير حتى ينظر في ذلك، وبقي الأمر وهم في كل يوم يحضرون، وكثر اجتماعهم بالأزهر وباب الباشا، فلم يحصل لهم

فايدة من ذلك سوى أن رسم لهم بموجب آخر سنة تاريخه معجلة، ولم يقبضوا منها إلا ما قل بسبب تتابع الشرور والحوادث.

وفي حادي عشره يوم السبت ارتحل شريف باشا إلى بركة الحج متوجهًا إلى السويس.

وفيه ارتحل حجاج المغاربة، وكانوا كثيرين فسافر أغنياهم والكثير من فقراهم من طريق البر وآخرون من السويس على القلزم.

وفي رابع عشره حضر ططريات إلى الباشا وعلى يدهم مثالات شريفة وبشارة بتقريره على السنة الجديدة، وزيد له تشريف تترخانية، ومعناه مرتبة عالية في الوزارة، فضربوا شنكًا ومدافع متوالية يومين.

وفيه أشيع انتقال الأمرا المصرلية من جهة البحيرة، وقبلوا إلى ناحية الجسر الأسود، وأشيع أيضًا أن جماعة منهم نزلوا بصحبة جماعة من الإنكليز إلى البحر قاصدين التوجه إلى إسلامبول، وانتقل كتخدا بك خلفهم بعساكره، ولكن لم يتجاسروا على الإقدام عليهم.

وفيه وصلت الأخبار من الديار الشامية بهروب محمد باشا أبو مرق من يافا، واستيلا أحمد باشا الجزار عليها، وذلك بعد حصاره فيها سنة وأكثر.

وفي رابع عشره حضر كتخدا الباشا وتقدم الأمرا المصرلية إلى جهة قبلي حتى عدوا الجيزة، وحصل منهم ومن العساكر العثمانية الضرر الكثير في مرورهم على البلاد: من التفاريد والكلف ورعي الزروع وقطع الطرق برًّا وبحرًا.

وكان أغات الجوالي القبلية، وهو نجيب أفندي كتخدا الدفتردار، مسافرًا إلى قبلي وصحبته أرباب مناصب عدوا إلى الجيزة ونصبوا خيامهم هناك، فصادفوهم الأمرا القبالي وهجموا عليهم وقتلوا منهم من وجدوه وهرب الباقون، فاستولوا على خيامهم ووطاقهم، وكذلك كتخدا الدفتردار خرج إلى مصر القديمة متوجهًا الصعيد لقبض الغلال والأموال، فاستمر مكانه وتأخر لعدم المراكب وخوفًا من المذكورين.

وفيه ورد الخبر بنزول شريف باشا إلى المراكب بالقلزم يوم الخميس سادس عشره.

وفي يوم الأربع تاني عشرينه طلبوا أيضًا خمسة آلاف كيس سلفة؛ من التجار ثلاثة آلاف كيس، ومن الملتزمين ألفَا كيس، وشرعوا في توزيعه، فانزعج الناس وأغلق أهل الغورية حوانيتهم، وكذا خلافهم وهرب أهل وكالة الصابون إلى الشام على الهجن، واختفى أكثر الناس مثل السكرية وأهل مرجوش وخلافهم، فطلبهم المعينون ولزموا بيوتهم وسمروا مطابخ السكر، وكذلك عملوا فردة على البلاد؛ أعلى وأوسط وأدنى: الأعلى خمسماية ريال، والأوسط تلاتماية، والأدنى ماية وخمسون.

وفيه تحقق الخبر بنزول طايفة الإنكليز وسفرهم من ثغر إسكندرية في يوم السبت حادي عشره، ونزل بصحبتهم محمد بك الألفي، وصحبته جماعة من خمسة عشر شخصًا من مماليكه الصغار وأتباعه.

وفي خامس عشرينه حضر أحمد باشا والي دمياط، وكانوا أرسلوا له طَوخًا ثالثًا، وأنه يحضر ويتوجه لمحافظة مكة، وكذلك قلدوا آخر باشوية المدينة يسمى أحمد باشا، وضموا لها عسكرًا يسافرون صحبتهم من الوهابيين وأخذوا في التشهيل.

وفي هذه الأيام تشكى العسكر من عدم الجامكية والنفقة، فإنه اجتمع لهم جامكية نحو سبعة أشهر، وقد قطع عليهم الباشا رواتبهم وخرجهم لقلة الإيراد وكثرة المطلوبات وكراهته لهم، فصار كبراهم يترددون ويكثرون من مطالبة الدفتردار، حتى كان يهرب من بيته غالب الأيام، وأشيع بالمدينة قيام العسكر، وأنهم قاصدون نهب أمتعة الناس، فنقل أهل الغورية وخلافهم بضايعهم من الحوانيت، وامتنع الكثير منهم من فتح الحوانيت، وخافهم الناس حتى في المرور، وخصوصًا أوقات المسا، فكانوا إذا انفردوا بأحد شلحوه من ثيابه وربما قتلوه، وكذلك أكثروا من خطف النساء والمردان.

وفي ليلة التلات تامن عشرينه كان انتقال الشمس لبرج الحمل وأول فصل الربيع، وفي تلك الليلة هبت رياح شمالية شرقية هبوبًا شديدًا مزعجًا، واستمرت بطول الليل.

وفي آخر الليل قبل الفجر اشتد هبوبها، ثم سكنت عند الشروق وسقط تلك الليلة دار بالحبالة بالرميلة، ومات بها نحو تلات أشخاص، وداران أيضًا بطولون وغير ذلك حيطان وأطارف أماكن قديمة، ثم تحولت الريح غربية قوية واستمرت عدة أيام ومعها غيم ومطر.

وفيه وصل الأمرا القبالي المصرلية إلى الفيوم، فأخذوا كلفًا ودراهم كثيرة، فردوها على البلاد، ثم سافروا إلى الجهة القبلية.

وفيه ورد الخبر بأن المراكب التي فيها ذخيرة أمير الحاج بالقلزم المتوجهة إلى الينبع والمويلح، غرقت بما فيها، ومركب الجميعي من جملتها.

وفيه حضر مصطفى بينباشي الذي كان أيَّام الوزير بمصر إلى بلبيس، وهو موجه بطلب مبلغ دراهم، فأقام ببلبيس حتى شهلوها وأرسلوها له، ثم ذَهب إلى دمياط وصحبته نحو الأربعماية من الأرنؤد ليسافر من البحر.

وفيه توجه السيد أحمد المحروقي والكثير من الناس لزيارة سيدي أحمد البدوي لمولد الشرنبلالية، وأخذ معه عدة كثيرة من العسكر خوفًا من العربان، ووصل إليه

فرمان بطلب دراهم من أولاد الخادم ومن أولاد البلد، فدلوا على مكان لمصطفى الخادم، فاستخرجوا منه ستة آلاف ريال، وطلبوا من كل واحد من أولاد عمه مثلها.

شهر ذي الحجة الحرام (سنة ١٢١٧)

استهل بيوم الجمعة. في يوم الاتنين رابعه قتلوا شخصًا عسكريًّا نصرانيًّا عند باب الخرق، قتله أغا التبديل؛ بسبب أنه كان يقف عند باب داره بحارة عابدين هو ورفيقان له يخطفون من يمر بهم من النسا أثنا النهار، إلى أن قبض عليه وهرب رفيقاه.

وفيه أيضًا أخرجوا من دار بحارة خشقدم قتلى كثيرة؛ نسًا ورجالًا من فعل العسكر.

وفيه عدى إبراهيم باشا إلى بر الجيزة.

وفي يوم الأحد عاشره كان عيد الأضحى، وفي ذلك اليوم حضر من الأمرا القبالي مكاتبة على يد الشيخ سليمان الفيومي خطابًا للمشايخ، فأخذها بختمها وذهب بها إلى الباشا ففتحها واطلع على ما فيها، ثم طلب المشايخ فحضروا إليه وقت العصر.

وفي يوم الجمعة خامس عشره حضرت مكاتبات من الديار الحجازية، يخبرون فيها عن الوهابيين أنهم حضروا إلى جهة الطايف، فخرج إليهم شريف مكة الشريف غالب، فحاربهم فهزموه، فرجع إلى الطايف وأحرق داره التي مر بها، وخرج هاربًا إلى مكة فحضر الوهابيون إلى البلدة وكبيرهم المضايفي نسيب الشريف، وكان قد حصل بينه وبين الشريف وحشة، فذهب مع الوهابيين وطلب من مسعود الوهابي أن يؤمِّره على العسكر الموجه لمحاربة الشريف، ففعل، فحاربوا الطايف وحاربهم أهلها تلات أيام حتى غلبوا، فأخذ البلدة الوهابيون، واستولوا عليها عنوة، وقتلوا الرجال وأسروا النسا والأطفال، وهذا دأبهم مع من يحاربهم.

وفي ذلك اليوم مر أربعة أنفار من العسكر، وأخذوا غلامًا لرجل حلاق بخط بين السورين عند القنطرة الجديدة، فعارضهم الأسطى الحلاق في أخذ الغلام، فضربوا الحلاق وقتلوه، ثم ذهبوا بالغلام إلى دارهم بالخطة، فقامت في الناس ضجة وكرشة، وحضر أغات التبديل فطلبهم فكَرْنَكُوا بالدار وضربوا عليه البنادق من الطيقان، فقتلوا من أتباعه تمانية أنفار.

ولم يزالوا على ذلك تاني يوم، فركب الباشا في التبديل، ومر من هناك وأمر بالقبض عليهم، فنقبوا عليهم من خلف الدار، وقبضوا عليهم بعدما قتلوا وجرحوا آخرين، فشنقوهم ووجدوا بالدار مكانًا خربًا أخرجوا منه زيادة عن ستين امرأة مقتولة، وفيهن من وجودها وطفلها مذبوح معها في حضنها.

وفيه حضر علي أغا الوالي إلى بيت أحمد شويكار بضرب سعادة، وأخرج منه قتلى كثيرة، وأمثال ذلك شي كثير.

وفي خامس عشره أيضًا أمر الباشا الوجاقلية أن يتهيوا ويخرجوا جهة العادلية لأجل الغفر من العربان، فإنهم فحش أمرهم وتجاسروا في التعرية والخطف، حتى على نواحي المدينة، بل وطريق بولاق وغير ذلك.

فلما كان في تاني يوم ركب الوجاقلية المذكورون بأبهتهم وبيارقهم، وحضروا إلى بيت الباشا وخرجوا من هناك إلى وطاقهم الذي أعدوه لأنفسهم خارج القاهرة، وشرعوا في تعمير قصر من القصور الخارجة التي خربت أيام الفرنسيس.

وفي تاسع عشره سافر جماعة الوجاقلية المذكورين وصحبتهم عدة من العسكر إلى جهة عرب الجيزة؛ بسبب إغارة موسى خالد ومن معه على البلاد وقطع الطرق، فلاقاهم المذكور وحاربهم وهزمهم إلى وردان وذهب هو إلى جهة البحيرة.

وفي رابع عشرينه يوم الأحد كان عيد النصارى الكبير في ليلتها، وهي ليلة الاتنين، وقع الحريق في الكنيسة التي بحارة الروم وفي صبحها شاع ذلك، فركب إليها أغات الإنكشارية والوالي، وأحضروا السقايين والفعلة الذين يعملون في عمارة الباشا، حتى أخذوا الناس المجتمعة بسوق المؤيد بالأنماطيين، وحضر الباشا أيضًا في التبديل، واجتهدوا في إطفاها بالماء والهدم حتى طفيت في تاني يوم، واحترق بها أشياء كثيرة وذخاير وأمتعة، ونهبت أشيا كثيرة.

وفيه وردت أخبار بأن الأمرا المصرلية وصلوا إلى منية ابن خصيب، فأرسلوا إلى حاكمها بأن ينتقل منها ويعدي هو ومن معه من العسكر إلى البر الشرقي، حتى إنهم يقيمون بها أيامًا ويقضون أشغالهم ثم يرحلون، فأبوا عليهم وحصنوا البلدة وزادوا في عمل المتاريس.

أما حاكمها المذكور سليم كاشف تابع عثمان بك الطنبرجي المرادي المقتول، فإنه سالم العثمانيين وانضم إليهم، فألبسوه حاكمًا على المنية، وأضافوا إليه عساكر فذهب إليها، ولم يزل يجتهد في عمل متاريس وحفر خنادق ونصْب مدافع، حتى ظن أنه في مَنعة عظيمة، فلما أجابهم بالامتناع حضروا إلى البلدة، وحاربهم أشد المحاربة مدة أربعة أيام بلياليها، حتى غلبوا عليهم ودخلوا البلدة وملكوها، وأطلقوا النار وقتلوا أهلها وما بها من العسكر، ولم ينج منهم إلا من ألقى نفسه في البحر وعام إلى البر الآخر، أو كان قد هرب قبل ذلك، وأما سليم كاشف فإنهم قبضوا عليه حيًّا، وأخذوه أسيرًا إلى إبراهيم بك فوبخه وأمر بضربه، فضربوه علقة بالنبابيت.

وفيه وصلت هجانة من شريف باشا بمكاتبة للباشا والدفتردار يخبر فيها أنه وصل إلى الينبع، وهو عازم على الركوب من هناك على البر؛ ليدرك الحج ويترك أثقاله، فتوجه في المركب إلى جدة.

وفي غايته وصل سلحدار الباشا وصحبته أغات المقرر الذي تقدمت بشارته، فلما وصلوا إلى بولاق أرسل الباشا في صبحها إليهم فركبوا إلى بيت الباشا، وضربوا لهم مدافع، وحضر المشايخ والقاضي والأعيان والوجاقات فقُرِي عليهم ذلك، وفيه الأمر بتشهيل غلال للحرمين والحث والأمر بمحاربة المخالفين.

وفيه بعثوا نحو ألف من العسكر إلى جهة أسيوط للمحافظة، فساروا على الهجن من البر الشرقي.

وفيه أرسلوا أوراقًا إلى التجار وأرباب الحرف بطلب باقي الفردة، وهو القدر الذي تشفَّع فيه المحروقي وأخذوا في تحصيله، فلما قبضوا الذي تقرر طلبوا الباقي.

وانقضت هذه السنة وما وقع بها من الحوادث الكلية التي ذكر بعضها، وأما الجزئية فلا يمكن الإحاطة ببعضها، فضلًا عن كلها؛ لكثرتها واختلاف جهاتها، واشتغال البال عن تتبع حقايقها ونسيان الغايب لعلة الشنيع بالأشنع والقبيح بالأقبح، فمن الكلية التي عم الضرر بها:

- زيادة المكوس والجمارك أضعاف المعتاد في كل ثغر ذهابًا وإيابًا.
- ومنها توالي الفرد والمظالم والمغارم، التي يسمونها السُّلف، على أهل المدينة والأرياف، وحق طريق المعينين وكلفهم الخارجة عن الحد والمعقول بأدنى شكوى، ولو بالباطل، فبمجرد ما يأتي الشاكي بعرضحال شكواه، يكتب له ورقة، ويعين بها عسكري أو بشتلي أو اثنان أو أكثر بحسب اختيار الشاكي وطلبه للتشفي من خصمه، فبمجرد وصوله إلى المشكي بصورة منكرة وسلاح كثير متقلد به، فلا يكون له شغل إلا طلب خدمته؛ لأن في اعتقاده أنها منفعة وجهت إليه، ولا يسأل عن الدعوى ولا عن صورتها، ويطلب طلبًا خارجًا عن المعقول كألف قرش في دعوى عشرة قروش، وخصوصًا إذا كانت الشكوى على فلاح في قرية فيحصل أشنع من ذلك من إقامتهم عندهم، وطلبهم وتكليفهم الذبايح والفطور بما يشترونه ويقترحونه عليهم.

  وربما يذهب الشخص الذي يكون بينه وبين آخر عداوة قديمة أو مشاحنة أو دعوى قُضي عليه فيها بحرق من زمان طويل، فيقدم له عرضحال ويعين له

مباشرًا بفرمان، ويذهب هو فلا يظهر ويذهب المعين في شغله والمشكي لا يرى الشاكي ولا يدري من أين جاته هذه المصيبة، ويمكن أنه من بعد خلاصه من أمر المباشر يحضر إلى بيت الباشا، ويبحث عن خصمه ويعرفه فيُنهي دعواه ويظهر حجته، بأنه على الحق وأن خصمه على الباطل، فيقال له: عين على خصمك أيضًا. فإن أجاب إلى ذلك رسم له بفرمان ومعين آخر كذلك، وإلا ترك أجره على الله ورجع.

فضاق خناق الناس من هذه الحال وكرهوا هذه الأوضاع، وربما قتل الفلاحون المعينين وهربوا من بلادهم وجلوا عن أوطانهم خوف الغايلة.

ولم يزل هذا دأبهم حتى نفرت منهم القلوب وكرهتهم النفوس، وتمنوا لهم الغوايل، وعصت أهل النواحي وعربدت العربان وقطعوا الطرق، وعلموا خيانتهم فخانوهم، ومكالبتَهم فكالبوهم.

وانتمى عربان الجهة القبلية إلى الأمرا المصرلية، وساعدوهم عليهم، ولما انحدر الأمرا إلى جهة بحري انضمت إليهم جميع قبايل الجهة العربية والهنادي وعرب البحيرة وخلافهم.

فلما وقعت الحروب بين الأمرا والعثمانيين، وكانت الغلبة للأمرا والعربان، زَادت جسارتهم عليهم، ورصدوا لهم الغوايل وقطعوا عليهم وعلى المسافرين الطرق بحرًا وبرًّا، فمن ظفروا به ومانعهم، نهبوا متاعه وقتلوه، وإلا سلبوه وتركوه، وفحش الأمر جدًّا قبلي وبحري، حتى وقف حال الناس ورضوا عن أحكام الفرنسيس.

- ومنها أن الباشا لما قتل الوالي والمحتسب وعمل قايمة تسعيرة للمبيعات، وأن يكون الرطل اثنتي عشرة أوقية في جميع الأوزان، وأبطلوا الرطل الزياتي الذي يُوزن به السمن والجبن والعسل واللحم وغير ذلك، وهو أربع عشرة أوقية، لم ينفذ من تلك الأوامر شي سوى نقص الأرطال، ولم يزل ذو الفقار محتسبًا حتى رتب المقررات على المتسببين زيادة عن القانون الأصلي، وجعل منها قسطًا لخزينة الباشا والكتخدا وخلافهما.

ورجعت الأمور في الأسعار أقبح وأغلى مما كانت عليه في كل شي، واستمر الرطل اثنتي عشرة أوقية لا غير، وكثر ورود الغلال أيام النيل، ورخص سعرها، والرغيف على مقدار رغيف الغلا.

- ومنها أن الفضة الأنصاف العددية صاروا يأخذونها من دار الضرب أولًا بأول ويرسلونها إلى الروم والشام بزيادة الصرف، ولا ينزل إلى الصيارف منها إلا القليل، حتى شحت بأيدي الناس جدًّا، ووقف حالهم في شرا لوازم البيوت ومحقرات الأمور، ويدور الإنسان بالريال أو المحبوب أو المجر وهو في يده طوال النهار فلا يجد مصارفته. وأغلقت غالب الصيارف حوانيتهم بسبب ذلك؛ وبسبب أذية العسكر؛ فإنهم يأتون إليهم ويلزمونهم بالمصارفة فيقول له الصيرفي: ليس عندي فضة. فلا يقبل عذره ويفزع عليه بيَطقانه أو بَارودته، وإن وجد عنده المصارفة وكان المحبوب أو البندقي ناقصًا في الوزن ولا يستقيم في نقصه، ولا يأخذ إلا صرفه كاملًا، وإذا اشترى شيًّا من سوقي أعطاه بندقيًّا وطلب باقيه، ولم يكن عند البايع باقية، أخذ الذي اشتراه والبندقي وذهب، ولا يقدر المسبب استخلاص حقه منه، وإن وجد معه باقي المصارفة وأخذ ذلك البندقي ونقده عند الصراف وكان ناقصًا، وهو الغالب، لا يقدر الصيرفي أن يذكر نقصه فإن قال: إنه ينقص، فزع عليه وسبه، وبعضهم أدخل أصبعه في عين الصراف، وأمثال ذلك.
- ومنها شحة المراكب حتى أخذ المسافر يمكث الأيام الكثيرة ينتظر مركبًا فلا يجد، وربما أخذوها بعد تمام وسقها فنكتوه وأخذوها، وإن مرت على الأمرا المصرلية وما انضم إليهم تعرضوا لها ونهبوا ما بها من الشحنة، وأخذوا المركب، واستمر هذا الحال على الدوام، فكان ذلك من أعظم أسباب التعطيل أيضًا.
- ومنها تسلط العسكر على خطف الناس وسلبهم وقتلهم، وخصوصًا في أواخر هذه السنة، حتى امتنعت الناس من المرور في جهات سكنهم، إلا أن يكونوا في عزوة ومنعة وقوة، ولا تكاد ترى شخصًا يمر في الأسواق السلطانية من بعد المغرب وقبيل العشا، وإذا اضطر الإنسان إلى المرور تلك الأوقات فلا يمر إلا كالمجازف على نفسه، وكأنما على رأسه الطير.

فيقال: إن فعلهم هذه الفعايل من عوايدهم الخبيثة إذا تأخرت نفقاتهم فعلوا ذلك مع العامة. على حد قول القايل: «خلص تارك من جارك.» وذلك كله بسبب تأخير جماكيهم وقطع خرجهم نحو خمسة أشهر، والباشا يشوفهم ويقول: هولا لا يستحقون فلسًا وأي شي خرج من يدهم، وطول المدى نكلفهم ونعطيهم وما يستروا أنفسهم مع الغز المصرلية ولا مرة، فلا حاجة لنا بهم، بل

يخرجون عني ويذهبون حيث شاءوا، فليس منهم إلا الأذية والعنطزية، وهم يقولون: لا نخرج ولا نذهب حتى نستوفي حقنا على دور النصف فضة الواحد، وإن شينا أقمنا وإن شينا ذهبنا.

- ومنها استمرار الباشا على الهمة والاجتهاد في العمارة والبنا وطلب الأخشاب والمون، حتى عز جميع أدوات العمارة، وضاق حال الناس بسبب احتياجهم لعمارة أماكنهم التي تخربت في الحوادث السابقة، وبلغ سعر الأردب الجبس ماية وعشرين نصفًا، والجير المخلوط أربعين نصفًا القنطار، وأجرة المعلم في اليوم خمسة وأربعين نصفًا، ويتبعه آخر مثل ذلك، والفاعل اثنين وعشرين نصفًا.

وأحدثوا أخذ إجازة من المعمارجي، وهو أن الذي يريد بنا ولو كانونًا لا يقدر وأن يأتيه البنا حتى يأخذ ورقة من المعمارجي، ويدفع عليها خمسين نصفًا.

ولم يزل الاجتهاد في العمارة المذكورة حتى أقاموا جانبًا من القشلة، وهي عبارة عن وكالة يعلوها أطباق وأسفلها اصطبلات وحولها من داخل حواصل ومن خارج حوانيت وقهوة، فعندما تمت الحوانيت ركبوا عليها درفها وأسكنوا بها قهوجيًّا ومزينًا من أتباع الباشا وخياطين وعقادين وسروجية الباشا، وغير ذلك، لم يكمل تسقيف الطباق وعملوا لها بوابة عظيمة بمصاطب، وهدموا حائط الرحبة المقابلة لبيت الباشا الخارجة، وعمرت وأنشيت بالحجر النحت المحكم الصنعة، وعملوا لها بوابة عظيمة ببدنات وأبراج عظام، وبها طاقات عليا وسفلى وصفوا بها المدافع العظيمة، وبركن الرحبة مثل ذلك وعملوا لها بابًا آخر قبالة باب القشلة، بحيث صار بينها وبين القشلة رحبة متسعة يسلك منها المارون إلى جهة بولاق على الجسر الذي عمله الفرنسيس، ويخرجون أيضًا في سلوكهم من بوابة عظيمة إلى طريق بولاق من الجهة الغربية بحايط حجر متصلة من الرحبة، حيث البوابة المواجهة للقشلة.

وعلى هذه البوابة من الجهتين مدافع كبيرة مركبة على بدنات وأبراج وطبقات مهندمة، وبها باب يصعد منه إلى تلك الأبراج والجبخانة والعساكر جلوس على تلك المصاطب الخارجة والداخلة، لابسين الأسلحة وبنادقهم مرصوصة بداير الحيطان.

وبداخل الرحبة الوسطانية مدافع مرصوصة بطول الرحبة يمينًا وشمالًا، وكذلك بداخل الحوش الجواني الأصلي وبأسفل الرحبة نحو المايتي مدفع مرصوصة أيضًا، وعربيات وصناديق جبخانة وآلات حرب وغير ذلك، والجبخانة الكبيرة لها محل مخصوص بالحوش الداخل الأصلي، ولها خزنة وطبجية وعربجية.

- ومنها أنه عدم البصل الأحمر حتى بيع الرطل بسعر القنطار في الزمن السابق، وعدم الملح أيضًا بسبب احتكاره، وعدم المراكب التي تجلبه من بحري لما ترتب عليهم من زيادة الجمارك، وعدم مكاسبهم فيه؛ لأن الذي تولى على جمرك الملاحة صار يأخذه من أصحابه على ذمته بسعر قليل معلوم، ويبيعه على ذمته بسعر كثير لمن يسافر به إلى جهة قبلي؛ وذلك خلاف ما يأخذه من المراكب التي تحمله، فامتنع المتسببون فيه من تجارته، فعز وجوده في آخر السنة، حتى أُبيع الرطل بثمانين نصفًا من تلات أنصاف، وضجت الناس من ذلك، فأرسل ذلك الملتزم تلات مراكب على ذمته، ووسقها ملحًا وصار يبيع الرطل بعشرين نصفًا، ويبيعه المسبب بثلاثين، وهذا لم يعهد فيما تقدم من السنين.

وعدم أيضًا الصابون بسبب تأخر القافلة حتى أُبيع بأغلى ثمن، ثم حضرت القافلة فانحل سعره وتواجد وغير ذلك مما لا يمكن الإحاطة به، ونسأل الله تعالى حسن العاقبة بمنِّه وكرمه.

سنة ثماني عشرة ومايتين وألف هجرية

شهر محرم الحرام (سنة ١٢١٨هـ/ ١٨٠٣م)

استهل بِيوم السبت، في ذلك اليوم وقعت زعجة عظيمة في الناس، وحصلت كرشات في مصر وبولاق، وأغلق أهل الأسواق حوانيتهم، ورفعوا منها ما خف من متاعهم من الدكاكين، وبعضهم ترك حانوته وهرب، والبعض سقط متاعه من يده ولم يشعر من شدة ما لحقهم من الخوف والإرجاف، ولم يعلم سبب ذلك.

فيقال إن السبب في ذلك أن جماعة من كبار العسكر ذهبوا إلى الباشا، وطلبوا جماكيهم المنكسرة وخرجهم، فقال لهم: اذهبوا إلى الدفتردار. فذهبوا إلى الدفتردار، فقال لهم: جمكيتكم عند محمد علي سرششمه. فذهبوا إلى محمد علي، وكانوا أوعدوهم بقبض جامكيتهم في ذلك اليوم، فلما ذهبوا إلى محمد علي قال لهم: لم أقبض شيًّا فعملوا معه شراسة، ووقع بينهم مضاربة بالبنادق، وهاجت العسكر عند بيت محمد علي سرششمه، فحصلت هذه الزعجة في مصر وبولاق ثم سكن ذلك بعد أن أوعدوهم بعد ستة أيام.

وفيه وردت عدة نقاير وبها جبخانة وجملة من العسكر، وصحبتهم إبراهيم أغا الذي كان كاشف الشرقية عام أول، وكان توجه إلى إسلامبول فحضر وصحبته ذلك، فحملوا الجبخانة وطلعوها إلى القلعة فيقال: إنها متوجهة إلى جدة بسبب فتنة الحجاز وقيل غير ذلك.

وفي يوم الجمعة سابعه ثارت العسكر، وحضروا إلى بيت الدفتردار فاجتمعوا بالحوش وقفلوا باب القيطون، وطردوا القواسة، وطلع جمع منهم فوقفوا بفسحة المكان الجالس به الدفتردار، ودخل أربعة منهم عند الدفتردار، فكلموه في إنجاز الوعد، فقال لهم: عندي نحو الستين ألف قرش، فإما أن تأخذوها أو تصبروا كام يوم حتى يكمل لكم

المطلوب. فقالوا: لا بد من التشهيل؛ فإن العسكر تقلقوا من طول المواعيد، ولازم التشهيل في هذا اليوم، ولا صبر بعد ذلك. فلما رأى منهم الجد، كتب ورقة وأرسلها إلى الباشا بأن يرسل إليه جانب دراهم تكملة للقدر الحاصل عنده في الخزينة، فرجع الرسول بالجواب من الباشا وهو يقول: لا أدفع ولا آذن بدفع شي، فإما أن يخرجوا ويسافروا من بلدي أو لا بد من قتلهم عن آخرهم. فعندما رجع بذلك الجواب قال له: ارجع إليه وأخبره أن البيت قد امتلا بالعساكر فوق وتحت، وإني محصور بينهم.

فعند وصول المرسال وقبل رجوعه أمر الباشا بأن يديروا المدافع ويضربوا على بيت الدفتردار وعلى العسكر، فما شعر الدفتردار إلا وجلَّة وقعت بين يديه، فقام من مجلسه إلى مجلس آخر، وتتابع الرمي واشتعلت النار في البيت وفي الكشك الذي أنشأه ببيت جده المجاور لبيته، وهو من الخشب والحجنة من غير بياض. فلم يكمل، فالتهب بالنار فنزل إلى أسفل والأرنؤد محيطة به، وبات تحت السلالم إلى الصباح ونهب العسكر الخزينة والبيت.

ولم يسلم إلا الدفتردار والأوراق وضعوها في صناديق وشالوها، وكان ابتدا رمي المدافع وقت صلاة الجمعة.

وأما أهل البلد فإنهم كانوا متخوفين ومتطيرين من قومه أو فزعة تحصل من العسكر قبل ذلك، فلما عاين الناس تجمعهم ببيت الدفتردار شاع ذلك في المدينة، ومر الوالي يقول للناس: ارفعوا متاعكم، واحفظوا أنفسكم، وخذوا حذركم وأسلحتكم. فأغلق الناس الدكاكين والدروب وهاجوا وماجوا، فلما سمعوا ضرب المدافع تطيروا وتخيلوا هجوم العسكر ونهب البلد، بل ودخول البيوت ولا راد يردهم ولا حاكم يمنعهم.

ونادى المنادي معاشر الناس وأولاد البلد: كل من كان عنده سلاح فليلبسه، واجتمعوا واذهبوا عند شيخ مشايخ الحارات يذهب بكم إلى بيت الباشا. وحضرت أوراق من الباشا لأهل الغورية ومغاربة الفحامين وتجار خان الخليلي وأهل طولون يطلبهم بأسلحتهم والحضور عنده والتحذير من التخلف.

فذهب بعض الناس عند بيت حريم الباشا وبيت ابن المحروقي المجاور له، وهو بيت البكري القديم فباتوا ليلتهم هناك.

وحضر حسن أغا نجاتي والي العمارة عشا تلك الليلة، وطاف على الناس يحرضهم على القيام ومعاونة الباشا، وتجمع بعض الأوباش بالعصي والمساوق، وتحزبوا أحزابًا وعملوا متاريس عند رأس الوراقين وجهة العقادين والمشهد الحسيني.

فلما دخل الليل بطل الرمي إلى الصباح، فشرعوا بالرمي بالمدافع والقنابر من الجهتين، وتترست العساكر بجامع أزبك وبيت الدفتردار وبيت محمد علي وكوم الشيخ سلامة، وداخل الناس خوف عظيم من هذه الحادثة، وأما القلعة الكبيرة فإن الباشا مطمين من جهتها؛ لأنها مقيد بها الخازندار ومعه عدة من الأرنؤد وغيرهم وقافل أبوابها.

ولما كان يوم الجمعة أمس تاريخه قبل حصول الواقعة، وحضر أغات الإنكشارية والوجاقلية لأجل السلام على عادتهم، ودخلوا عند كتخدا بك، فقال لهم: نبهوا على أهل البلد بغلق الدكاكين والأسواق والاستعداد، فإن العسكر حاصل عندهم قلة أدب.

فلما طلعوا عند الباشا أعلموه بمقالة كتخدا بك، فقال لهم: نعم. فقال له أغات الإنكشارية: يا سلطانم، ينبغي الاحتفاظ بالقلعة الكبيرة قبل كل شي. فقال: إن بها الخازندار، وأوصيته بالاحتفاظ وغلق الأبواب.

فقال له الأغا: لكن ينبغي أن نترك عند كل باب من خارج قدر خمسين إنكشاريًّا. فقال: وإيش فايدتهم؟ ما عليكم من هذا الكلام؟ تريدون تفريق عساكري؟! اذهبوا لما أمرتكم به؛ وذلك لأحل إنقاذ القضاء.

وحضر طاهر باشا أيضًا في ذلك الوقت وهو كالمحب، ومكمن العداوة فلم يقابله الباشا، وأمره بأن يذهب إلى داره ولا يقارش.

فلما كان في صبحها يوم السبت، رتب الباشا عساكره على طريقة الفرنسيس، وهو المسمى بـ «النظام الجديد»، فخرجوا بأسلحتهم وبنادقهم وخيولهم وهم طوابير، ومروا حوالي البركة، وانقسموا فرقتين: فرقة أتت على رصيف الخشاب، وفرقة على جهة باب الهوا؛ ليأخذوا الأرنؤدية بينهم ويحصروهم من الجهتين، فلما حضرت الفرقة التي من ناحية رصيف الخشاب قاتلوا الأرنؤدية، فعند ذلك أركبوا الدفتردار وأخذوه إلى بيت طاهر ومعه أتباعه، وانهزم الأرنؤدية من جهة الجامع وانحصروا جهة جامع أزبك، واشتغلوا بمحاربة الفرقة الأخرى وتحققوا الهزيمة والخذلان.

وعندما وصلت عساكر الباشا إلى بيت الدفتردار والمحروقي وبيت حريم الباشا، اشتغلوا بالنهب وإخراج الحريم وتركوا القتال وتفرقوا بالمنهوبات، وفترت همة الفرقة الأخرى، وجرى أكثرهم ليخطف شيًّا ويغنم مثلهم، وقالوا: نحن نقاتل ونموت لا على شي، وأصحابنا ينهبون ويغنمون. فهزموا أنفسهم لذلك، وتراجع الأرنؤدية واشتدت عزيمتهم ورجع البعض منهم على عساكر الباشا، فهزموا من بقي منهم وملكوا الجهة التي كانوا أَجْلَوْهم عنها.

فعند ذلك ظهر طاهر باشا وركب إلى الرميلة، وتقدم إلى باب العزب، فوجده مغلوقًا، فعالج الطاقات الصغار التي في حايط باب العزب القريبة من الأرض، المعدة لرمي المدافع من أسفل، ففتح بعضها، ودخل منها بعض العسكر، فتلاقوا مع الأرنؤد المحافظين داخل الباب، فالتف بعضهم على بعض.

ثم طلعوا عند الخازندار، وكان عنده ابن أخت طاهر باشا متمرضًا قبل ذلك بأيام، وصحبته طائفة أيضًا، فالتفوا على بعضهم وصاروا عصبة وطلبوا مفاتيح القلعة من الخازندار فمانعهم، ولما رأى منهم العين الحمرا سلمهم المفاتيح، فنزلوا وفتحوا الأبواب لطاهر باشا وحبسوا الخازندار، وأنزلوا من القلعة مدافع وبنبات وجبخانة إلى الأزبكية لجماعتهم، وكذلك قيدوا بالقلعة طبجية وعساكر.

كل ذلك ومحمد باشا لا يدري بشي من ذلك، فلم يشعر إلا والضرب نازل عليه من القلعة، فسأل: ما هذا؟ فقيل له: إنهم ملكوا القلعة. فسقط في يده.

وعند ذلك نزل طاهر باشا من القلعة وشق من وسط المدينة، وهو يقول بنفسه مع المنادي: أمان واطمئنان، افتحوا دكاكينكم، وبيعوا واشتروا وما عليكم بأس. وطاف يزور الأضرحة والمشايخ والمجاذيب ويطلب منهم الدعا، ورفع الناس المتاريس من الطرق وانكفوا عن مقارشة العسكر، وكذلك لم يحصل أذية من العسكر لأحد من الرعية، وأمروا بفتح مخابز العيش والمآكل، وأخذوا واشتروا عن غير إجحاف ولا بخس، فلما علم الباعة منهم ذلك ذهبوا إليهم بالعيش والكعك والجبن والفطير والسميط وغير ذلك، ودخلوا فيهم يبيعون عليهم وهم يشترون منهم بالمصلحة.

وصار بعض أولاد البلد يذهب إلى الفرجة، ويدخل بينهم ويمر من وسطهم فلا يتعرضون لهم، ويقولون: نحن مع بعضنا وأنتم رعية فلا علاقة لكم بنا.

ووجدوا مع البعض سلاحًا ذهب به عندما أرسل الباشا، ونادى على الناس فردوهم بلطف، وكل ذلك على غير القياس.

وطاهر باشا لم يكن له شغل إلا الطواف بالمدينة والأسواق وخارج البلد، ويقول للفلاحين الذين يجلبون الحطب والجلة والسمن والجبن من الأرياف: كونوا على ما أنتم عليه، وهاتوا أسبابكم، وبيعوا واشتروا وليس عليكم بأس. وحضر إليه الوالي فأمره بالمرور والمناداة بالأمن للناس.

واستمر الحرب بين الفريقين نهار السبت، واشتد ليلة الأحد طول الليل، فما أصبح النهار حتى زحف عساكر الأرنؤد إلى جامع عثمان كتخدا وإلى حارة النصارى من

الجهة الأخرى، وطلعوا إلى التلول التي بناحية بولاق، وملكوا بولاق وهجموا على مناخ الجمال الذي بالقرب من الشَّيخ فَرج، فقتلوا من به من عسكر التكرور، وهرب من بقي منهم عريانًا، وقبضوا على ميتش القبطان، وأخذوا قليونه، وعدوا به إلى بر إنبابة ونَهبوا ما فيه، وكان به مال القبطان وذخايره التي جمعها من مظالم المراكب والمسافرين والقادمين شيًّا كثيرًا، وكذلك ذهبت طايفة منهم إلى قصر العيني وقبضوا على من به من عبيد الباشا وعروهم، وأخذوهم أسرى ونهبوا بيت السيد أحمد المحروقي بالأزبكية وهو بيت البكري القديم، وقد كان أخلاه لنفسه وعمره وسكنه بحريمه، فنهبوا منه شيًّا كثيرًا يفوق الحصر، وأخرجوا منه النسا بعدما فتشوهن أو افتدين أنفسهن، وكذلك بيت حريم الباشا الملاصق له بعدما أرسل الباشا عساكره قبل بيوم، فنقل منه الحريم عنده بطولهن لا غير، ونهبوا بيت المعلم جرجس الجوهري، وأخذوا منه أشيا نفيسة كثيرة وفراوي مثمنة، وحريم بيت الباشا لم يتمكنوا منه إلا بعد انفضاض القضية بيومين؛ بسبب أن المحافظين عليه كانوا تمانية عشر فرنساويًّا، فحاصروا فيه هذه المدة حتى خرجوا منه بأمان.

وأما سكان تلك الخطة فكانوا يذهبون إلى طاهر باشا أو محمد علي، فيرسل معهم عسكرًا لخفارتهم، حتى ينقلوا أمتعتهم أو ما أمكنهم إلى جهات بعيدة عن ذلك المحل؛ ليأمنوا على أنفسهم من الحرب.

وهرب السيد أحمد المحروقي وابنه عند الباشا ولاحت لوايح الخذلان على الباشا، واستعد للفرار، فإنه لما بات تلك الليلة لم يجد عليقًا ولا خبزًا، فعلقوا على الخيل أرزًا وتعشى الباشا بالبقسماط، وأرسل إلى حارة النصارى فطلب منهم خبزًا، فأرسلوا إليه خبزًا، فخطفه الأرنؤد في الطريق ولم يصل إليه.

ثم إن عسكر الأرنؤد أحضروا له آلة بنية وضعوها بالبركة، وضربوا بها على بيت الباشا، فوقعت واحدة على الباذاهنج، فالتهب فيه النار، فأرادوا إطفاها فلم يجدوا سقايين تنقل الماء.

ويقال: إن الخازندار الذي كان بالقلعة لما قبضوا عليه التزم لهم بحرق بيت الباشا ويطلقوه، فأرسل بعض أتباعه إلى مكانه الذي ببيت الباشا، فأوقدوا فيه النار في ذلك الوقت، واشتعلت في الأخشاب والسقوف، وسرت إلى مساكن الباشا.

فعند ذلك نزل الباشا إلى أسفل، وأنزل الحريم وعددهن سبع عشرة امرأة، فأركبهن بغالًا وأمر الدلاة والهوارة أن يقدموهن، وركب صحبتهن المحروقي وابنه وترجمانه

وصيرفيه وعبيده وفراشوه، وتأخر الباشا حتى أركب الحريم، ثم ركب في مماليكه ومن بقي من عسكره وأتباعه، وركب معه حسين أغا شنن وبعض أغوات وصحبته ثلاثة هجن وخرج إلى جزيرة بدران.

فعندما أشيع ركوبه هجمت عساكر الأرنؤد على البيت، واشتغلوا بالنهب، هذا والنار تشتعل فيه.

وكان ركوبه قبيل أذان العصر من يوم الأحد تاسع المحرم، وخرج خلفه عدة وافرة من عسكر الأرنؤد، فرجع عليهم وهزمهم مرتين، وقيل ثلاثًا.

وأما المحروقي ومن معه، فإنهم تشتتوا من بعضهم خلف الدلاة ولم يلحقوا، وانقطع حزام بغلته فنزل عنها فأدركه العساكر المتلاحقة بالباشا، فعروه وشلحوه هو وأتباعه وابنه، وأخذوا منهم نحو عشرين ألف دينار إسلامبولي نقدية، وقيل جواهر بنحو ذلك، فأدركهم عمر أغا بينباشي المقيم ببولاق، فوقعوا عليه فأمنهم وأخذهم معه إلى بولاق، وباتوا عنده إلى ثاني يوم، وأخذ لهم أمانًا وحضر إلى طاهر باشا وقابله، وكذلك المعلم جرجس الجوهري.

ونهب العسكر بيت الباشا وأخذوا منه شيًّا كثيرًا، وباتت النار تلتهب فيه والدخان صاعد إلى عنان السما، حتى لم يبق فيه إلا الجدران التحتانية الملاصقة للأرض، واحترقت وانهدمت تلك الأبنية العظيمة المشيدة والعالية، وما به من قصور والمجالس والمقاعد والرواشن والشَّبابيك والقمريات والمناظر والتنهات والخزاين والمخادع، وكان هذا البيت من أضخم المباني المكلفة، فإنه إذا حلف الحالف أنه صرف على عمارته من أول الزمان إلى أن احترق عشرة خزاين من المال أو أكثر لا يحنث! فإن الألفي لما أنشاه صرف عليه مبالغ كثيرة.

وكان أصل هذا المكان قصرًا عمَّره وأنشاه السيد إبراهيم ابن السيد سعودي إسكندر من فُقها الحنفية، وجعل في أسفله قناطر وبوايك من ناحية البركة، وجعلها برسم النزهة لعامة الناس، فكان يجتمع بها عالم من أجناس الناس وأولاد البلد شي كثير، وبها قهاوي وفكهانية ومغاني وغير ذلك، ويقف عندها مراكب وقوارب بها من تلك الأجناس، فكان يقع بها وبالجسر المقابل لها من عصر النهار إلى آخر الليل من الخط والنزاهة ما لا يوصف، ثم تداول ذلك القصر أيدي الملاك وظهر علي بك وقساوة حكمه فسدوا تلك البوايك، ومنعوا الناس عنها؛ لِما كان يقع بها في بعض الأحيان من اجتماع أهل الفسوق والحشاشين.

ثم اشترى ذلك القصر الأمير أحمد أغا شويكار وباعه بعد مدة، فاشتراه الأمير محمد بك الألفي سنة إحدى عشرة ومايتين وألف، وشرع في هدمه وتعميره، وأنشاه على الصورة التي كان عليها وكان غايبًا جهة الشرقية فرسم لكتخداه صورته في كاغد بكيفية وضعه، فحضر ذو الفقار كتخدا، وهدم ذلك القصر وحفر الجدران ووضع الأساس وأقام الدعائم ووضع سقوف الدور السفلي.

فحضر عند ذلك مخدومه فلم يجده على الرسم الذي حدده له، فهدمه ثانيًا وأقام دعائمه على مراده، واجتهد في عمارته وطلب له الصناع والمؤن من الأحجار والأخشاب المتنوعة، حتى شحت المؤن في ذلك الوقت، وأوقف أربعة من أمرايه على أربع جهاته، وعمل على ذمة العمارة طواحين للجبس وقمن الجير، وأحضر البلاط من الجبل قطعًا كبارًا ونشرها على قياس مطلوبه، وكذلك الرخام، وذلك خلاف أنقاش رخام المكان وأنقاض الأماكن التي اشتراها وهدمها، وأخذ أخشابها وأنقاضها ونقلها على الجمال وفي المراكب لأجل ذلك.

فمنها البيت الكبير الذي أنشاه حسن كتخدا الشعراوي على بركة الرطلي، وكان به شي كثير من الأخشاب والأنقاض والشبابيك والرواشن، نقلت جميعها إلى العمارة، فصار كل من الأمرا المشيدين يبني وينقل ويبيع ويفرق على من أحب، حتى بنوا دورًا من جانب تلك العمارة، والطلب مستمر حتى آتوه في مدة يسيرة، وركب على جميع الشبابيك شرايح الزجاج أعلى وأسفل وهو شي كثير جدًّا، وفي المخادع المختصة به ألواح الزجاج البلور الكبار التي يساوي الواحد منها خمسماية درهم وهو كثير أيضًا، ثم فرشه جميعه بالبسط الرومي والفرش الفاخر، وعلقوا به الستاير والوسايد المزركشة وطوالات المراتب كلها مقصبات، وبنى به حمامين: علويًّا وسفليًّا، إلى غير ذلك، فما هو إلا أن تم ذلك فأقام به نحو عشرين يومًا، ثم خرج إلى الشرقية فأقام هناك، وحضر الفرنسيس فسكنه ساري عسكر بونابارته، فعمر فيه أيضًا عمارة، ولما سافر وأقام مكانه كليبر عمر فيه أيضًا، فلما قتل كليبر وتولى عوضه عبد الله منو، ولم يزل مجتهدًا في عمارته وغير معاليمه، وأدخل فيه المسجد وبنى الباب على الوضع الذي كان عليه وعقد فوقه القبة المحكمة، وأقام في أركانها الأعمدة بوضع محكم متقن، وعمل السلالم العراض التي يصعد منها إلى الدور العلوي والسفلي من على يمين الداخل، وجعل مساكنه كلها تنفذ إلى بعضها البعض على طريقة وضع مساكنهم، واستمر يبني فيه ويعمر مدة إقامته إلى أن خرج من مصر.

فلما حضر العثمانية وتولى على مصر محمد باشا المذكور، رغب في سكنى هذا المكان، وشرع في تعميره هذه العمارة العظيمة، حتى إنه رتب لحرق الجير فقط اثني عشر قمينًا تشتغل على الدوام، والجمال التي تنقل الحجر من الجبل تلات قطارات، كل قطار سبعون جملًا، وقس على ذلك بقية اللوازم.

ورموا جميع الأتربة في البركة الرطلي حتى رَدموا منها جانبًا كبيرًا ردمًا غير معتدل، حتى شوهوا البركة، وصارت كلها كيمانًا وأتربة.

والعجب أن منتهى الرغبة في سكن هذه البركة وأمثالها، إنما هو تسريح النظر وانبساط النفس باتساعها وإطلاقها، وخصوصًا أيام النيل حين تمتلئ بالماء فتصير لجة ماء دايرة بركاوية مملوة بالزورق والقنج والشطيات المعدة للنزهة تسرح فيها ليلًا ونهارًا، وعند دخول المسا يوقدون القناديل بدايرها في جميع قواطين البيوت، فيصير لذلك منظر بهيج، لا سيما في الليالي المقمرة، فيختلط ضحك الماء في وجه البدور والقناديل وانعكاس خيالها كأنها أسفل الماء أيضًا، وصدى أصوات القيان والأغاني في ليال لا تعد من الأعمار.

إذ الناسُ ناسٌ والزمان زمان.

فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

إلى أن كان ما كان ووقعت هذه الحوادث، فتضاعف المسخ والتشويه، والعجب أنه لما وقعت الحرابة بين الفرنساوية والعثمانية وأهل مصر وقامت الحرب ستة وثلاثين يومًا، وهم يضربون على ذلك البيت بالمدافع والقنابر لم يصبه شي، ولم ينهدم منه حجر واحد.

ولما وقعت هذه الحرابة بين الباشا وعسكره، احترق وانهدم في ليلة واحدة، وكذلك احترق بيت الدفتردار وهو بيت «تلاتة وليه»، الذي كان أنشاه رضوان كتخدا الجلفي، وكان بيتًا عظيمًا، ليس له نظير في عمارته وزخرفته وكلفته، وسقوفه من أغرب ما صنعته أيدي بني آدم في الدقة والصنعة، وكله منقوش بالذهب واللازورد والأصباغ، وعلى مجالسه العليا قباب مُصنعة، وأرضه كلها بالرخام الملون، فاحترق جميعه ولم يبق به شي إلا بعض الجدران اللاطية بالأرض.

وسكنت الفتنة، وشق الوالي علي أغا الشعراوي وذو الفقار المحتسب وأغات الإنكشارية، ونادوا بالأمان والبيع والشرا، فكانت مدة ولاية هذا الباشا على مصر سنة وثلاثة أشهر وأحدًا وعشرين يومًا، وكان سيئ التدبير ولا يحسن التصرف، ويحب

سفك الدماء ولا يتروى في ذلك، ولا يضع شيًّا في محله ويتكرم على من لا يستحق ويبخل على من يستحق.

وفي آخر مدته داخله الغرور وطاوع قُرَنَا السو المحدقين به، والتفت إلى المظالم والفرد على الناس وأهل القرى، حتى إنهم كانوا حرروا دفاتر فردة عامة على الدور الأماكن بأجرة تلات سنوات، وقيل أشنع من ذلك.

فأنقذ الله منه عباده وسلط عليه جنده وعساكره، وخرج مرغومًا مقهورًا على هذه الصورة، ولم يزل في سيره إلى أن نزل بقليوب بعد الغروب، فعشاه الشواربي شيخ قليوب، ثم سار ليلًا إلى دجوة، فأنزل الحريم والأثقال في تلات مراكب، وسار هو إلى جهة بنها وغالب جماعته تخلفوا عنه بمصر، وكذلك الكتخدا وديوان أفندي والخازندار الذي كان بالقلعة والسلحدار وخليل أفندي خزنة كاتب.

وفي يوم الاتنين عاشِره نودي بالأمان أيضًا، وأن العساكر لا يتعرضون لأحد بأذية، وكل من تعرض له عسكري بأذية ولو قليلة فليشتكه إلى القلق الكاين بخطته، ويحضره إلى طاهر باشا فينتقم له منه.

وفي يوم الخميس وقت العصر حضر الأغا والوجاقلي إلى بيت القاضي، وأعلموه باجتماعهم في غد عند طاهر باشا، ويتفقون على تلبيسه قايمقام، ويكتبون عرض محضر بحاصل ما وقع.

وفي ذلك اليوم حضر جعفر كاشف تابع إبراهيم بك، وبيده مراسلة خطابًا للعلما والمشايخ وقيل إنه كان بمصر من مدة أيام، وكان يجتمع بطاهر باشا كل وقت بالشيخونية.

فلما أصبح يوم الجمعة رابع عشره اجتمع المشايخ عند القاضي، وركبوا صحبته وذهبوا عند طاهر باشا، وعملوا ديوانًا وأحضر القاضي فروة سمور ألبسها لطاهر باشا؛ ليكون قايمقام حتى تحضر له الولاية، أو يأتي وال، وكلموه على رفع الحوادث والمظالم، وظنوا فيه الخيرية واتفقوا على كتابة عرضحال بصورة ما وقع.

وقروا المكتوب الذي حضر من عند الأُمرا القبالي وهو مشتمل على آيات وأحاديث وكلام طويل، ومحصله أنهم طايعون وممتثلون، ولم يحصل منهم تعدٍ ولا محاربة، وإنما إذا حضروا إلى جهة أو بلدة، وطلبوا المرور عليها أو قضا حاجة من بندر؛ منعهم الحاكم والعساكر التي بها ونابذوهم بالمحاربة والطرد، ومع ذلك إذا وقعت بيننا محاربة لا يثبتون لنا وينهزمون ويفرون، وقد تكرر ذلك المرة بعد المرة، ولا يخفى ما يترتب على

ذلك من النهب والسلب وهتك الحراير، وقد وقع أننا لما حضرنا بالمنية فحصل ما حصل، بدءونا بالطرد والإبعاد، وحصل ما حصل مما ذكر وعوقب من لا جنى، وذنب الرعية والعباد في رقابكم.

وقد التمسنا من ساداتنا المشايخ أن يتشفعوا لنا عند حضرة الوزير، ويعطينا ما يقوم بمونتنا ومعايشنا، فأبى حضرة الوزير إلا إخراجنا من القطر المصري كليًّا، وبعثتم تحذرونا مخالفة الدولة العلية مستدلين علينا بقوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾، ولم تذكروا لنا آية تدل على أننا نخرج من تحت السما، ولا آية تدل على أننا نلقي بأيدينا إلى التهلكة.

وذكرتم لنا أن حريمنا وأولادنا بمصر، وربما ترتب على المخالفة وقوع الضرر بهم، وقد تعجبنا من ذلك؛ فإننا إنما تركنا حريمنا ثقة بأنهم في كفالتكم وعرضكم، على أن المروءة تأبى صرف الهمة إلى امتداد الأيدي للحريم، والرجال للرجال، على أن الفلك دوار، والله يقلب الليل والنهار، والملك بيد الله يوتيه من يشا ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ﴾ الآية. فلما قري ذلك بتفاصيله تعجب السامعون له، فكأنما كانوا ينظرون من خلف حجاب الغيب، وأخذ ذلك المكتوبَ طاهر باشا وأودعه في جيبه.

ثم قال الحاضرون: فما يكون الجواب؟ قال: حتى نتروى في ذلك. ثم كتب لهم جوابًا يخبرهم فيه بما وقع، ويأمرهم بأنهم يحضرون بالقرب من مصر؛ لربما اقتضى الحال إلى المعاونة.

وفي يوم الاتنين سابع عشره كتبوا العرض المحضر بصورة ما وقع، وختم عليه المشايخ والوجاقلية وأرسلوه إلى إسلامبول.

وأما محمد باشا المهزوم فإنه لم يزل في سيره حتى وصل إلى المنصورة، وفرد على أهلها تسعين ألف ريال، وكذلك فرد على ما أمكنه من بلاد الدقهلية والغربية فردًا ومظالم وكلفًا، وصادف في طريقه بعض المعينين حاضرين بمبالغ الفردة السابقة، فأخذها منهم.

وفي ليلة التلات بعد المغرب تامن عشره أرسل طاهر باشا عدة من العسكر، فقبضوا على جماعة من بيوتهم، وهم: أغات الإنكشارية، ومصطفى كتخدا الرزاز، ومصطفى أغا الوكيل، وأيوب كتخدا الفلاح، وأحمد كتخدا علي، والسيد أحمد المحروقي، وخليل أفندي كاتب خزنة محمد باشا، وأطلعوهم إلى القلعة وأصبح الناس يتحدثون بذلك، ثم إن جماعة الفقها سعوا إلى السيد أحمد المحروقي فأنزلوه إلى بيته في تاني يوم، وعملوا عليه

ستماية كيس، ولزم العسكر بيته وكذلك بقية الجماعة منهم من عمل عليه مايتا كيس وأقل وأكثر، وأقاموا في الترسيم.

وفي يوم الجمعة حادي عشرينه ركب طاهر باشا بالموكب والملازمين، وصلى الجمعة بجامع الحسين، وفيه وردت الأخبار بأن الأمرا المصرية رجعوا إلى قبلي، ووصلوا إلى قرب بني سويف.

وفيه تشفع شيخ السادات في مصطفى أغا الوكيل، وأخذه إلى بيته وعملوا عليه مايتين وعشرين كيسًا.

فلما كان يوم الأحد أرسل طاهر باشا يطلب مصطفى أغا الوكيل من عند شيخ السادات، فركب معه شيخ السادات وسعيد أغا وكيل دار السعادة، وذهبا صحبته إلى بيت طاهر باشا.

فلما طلعوا إلى أعلى الدرج خرج عليهم جماعة من العسكر، وجذبوا مصطفى أغا من بينهم وقبضوا عليه وأنزلوه إلى أسفل، وأخذوه إلى القلعة ماشيًا على أقدامه فحنق الشيخ السادات، ودخل على طاهر باشا، وتشاجر معه، فأطلعه على مكتوب مرسل من محمد باشا إليه، فقال: هذا لا يؤاخذ به، وإنما يؤاخذ إذا كان المكتوب منه إلى محمد باشا. ثم انحط الأمر على أنه لا يقتله ولا يطلقه، ثم إن طاهر باشا ركب ليلًا، وذهب إلى شيخ السادات، وأخذ خاطره بعدما فزع من حضوره إليه في ذلك الوقت.

وفي تالت عشرينه أطلعوا يوسف كتخدا الباشا إلى القلعة، وألزموه بمال وكذلك خزنة كاتب.

وفيه خرج أمير الألزم لملاقاة الحجاج، فنصب وطاقه بقبة النصر وأقام هناك.

وفيه حضر هجان على يده مكاتيب مؤرَّخة في عشرين شهر الحجة، مضمونها أن الوهابيين أحاطوا بالديار الحجازية، وأن شريف مكة غالب تداخل مع شريف باشا وأمير الحاج المصري والشامي، وأرشاهم على أن يتعوقوا معه أيامًا حتى ينقل ماله ومتاعه إلى جدة، وذلك بعد اختلاف كبير وحل وربط، وكونهم يجتمعون على حربه، ثم يرجعون على ذلك إلى أن اتفق رأيهم على الرحيل، فأقاموا مع الشريف اثني عشر يومًا، ثم رحلوا، ورحل الشريف بعد أن أحرق داره، ورحل شريف باشا أيضًا إلى جده.

وفيه قبضوا على أنفار من الوجاقلية أيضًا المستورين، وطلبوا منهم دراهم، وعملوا على طايفة القبط الكتبة خمسماية كيس بالتوزيع.

وفي خامس عشرينه قبضوا على جماعة منهم وحبسوهم، وكذلك عملوا على طايفة اليهود ماية كيس.

وفيه حضر أحمد أغا شويكار إلى مصر بمراسلة من الأمرا القبالي.

وفي يوم الأربع سادس عشرينه سافرت التجريدة المعينة لمحمد باشا وكبيرها حسن بك أخو طاهر باشا، فنزلوا في مراكب وفي البر أيضًا.

وفي يوم الخميس قبضوا على المعلم ملطي القبطي من أعيان كتبة القبط، وهو الذي كان قاضيًا أيام الفرنسيس، فرموا رقبته عند باب زويلة، وكذلك قطعوا رأس المعلم حنا الصبحاني أخي يوسف الصبحاني من تجار الشوام، عند باب الخرق في ذلك اليوم، وأقاما مرميين إلى تاني يوم.

وفي يوم السبت غايته رجع أحمد أغا شويكار بجواب من الباشا إلى رفقاه، وأشيع وصول إبراهيم بك ومن معه إلى زاوية المصلوب، ووصلت مقدماتهم إلى بر الجيزة يقبضون الكلف من البلاد.

وفيه أفرجوا عن يوسف كتخدا الباشا، بعد أن دفع ثمانين كيسًا ونزل من القلعة إلى داره.

وفيه أرسل طاهر باشا إلى مصطفى أفندي رامز الكاتب وإبراهيم أفندي الروزنامجي وسليمان أفندي، فأخذوهم عند عبد الله أفندي رامز الروزنامجي الرومي.

شهر صفر (سنة ١٢١٨)

استهل بيوم الأحد، في تانيه حضر الأمراء القبالي إلى الشيخ الشيمي.

وفي ليلة الأربع رابعه خنقوا أحمد كتخدا علي باش اختيار الإنكشارية ومصطفى كتخدا الرزاز كتخدا العزب، وكانا محبوسين بالقلعة، وضربوا وقت خنقهما مدفعين في الساعة الثالثة من الليل ورموهما إلى خارج.

وفي صبحها يوم الأربع حضر جواب من العسكر الذين ذهبوا لمحاربة محمد باشا، مضمونه أنه انتقل من مكانه وذهب إلى جهة دمياط، وأنه تخلف عنه جماعة من العسكر الذين معه، وأرسلوا يطلبون منهم الأمان، فلم يجاوبوهم حتى يستأذنوا في ذلك، فأجابهم طاهر باشا بأن يعطوهم أمانًا ويضمُّوهم إليهم.

وفي ذلك اليوم أشيع أن طاهر باشا قاصد التعدية إلى البر الغربي؛ ليسلم على الأمرا المصرلية، وفي ذلك الوقت أمر بإحضار حسن أغا محرم، فارتاع من ذلك، وأيقن بالموت، فلما حضر بين يديه خلع عليه فروة، وجعله معمارجي باشا، وأعطاه ألفي فرانسا، وأمره أن يتقيد بتعمير القلعة، وما صدق أنه خرج من بين يديه وسكن روعه.

وفي ذلك الوقت حضر إليه طايفة من الإنكشارية، وهم الذين كانوا حضروا في أول المحرم في النقاير مع الجبخانة؛ ليتوجهوا إلى الديار الحجازية وأنزلوهم بجامع الظاهر خارج الحسينية.

وحصلت كاينة محمد باشا وهم مقيمون على ما هم عليه، ولما خرج محمد باشا وظهر عليه طايفة الأرنؤد، شمخوا على الإنكشارية وصاروا ينظرون إليهم بعين الاحتقار، مع تكبر الإنكشارية ونظرهم في أنفسهم أنهم فخذُ السلطنة وأن الأرنؤد خدمهم وعسكرهم وأتباعهم.

ولما فَرَدْ الفِرَد طاهر باشا وصادر الناس، صار يدفع إلى طايفة الأرنؤد جماكِيهم المنكسرة، أو يحولهم بأوراق على المصادرين، وكلما طلب الإنكشارية شيًّا من جماكيهم، قال لهم: ليس لكم عندي شي، ولا أعطيكم إلا من وقت ولايتي، فإن كان لكم شي فاذهبوا وخذوه من محمد باشا. فضاق خناقهم وأوغر صدورهم، وبيتوا أمرهم مع أحمد باشا والي المدينة.

فلما كان في هذا اليوم ركب الجماعة المذكورون من جامع الظاهر، وهم نحو المايتين وخمسين نفرًا بعددهم وأسلحتهم كما هي عادتهم، وخلفهم كبراوهم، وهم: إسماعيل أغا، ومعه آخر يقال له موسى أغا، وآخر، فذهبوا على طاهر باشا وسألوه في جماكيهم، فقال لهم: ليس لكم عندي إلا من وقت ولايتي، وإن كان لكم شي مكسور فهو مطلوب لكم من باشتكم محمد باشا، فألحوا عليه، فنتر فيهم، فعاجلوه بالحسام، وضربه أحدهم فطيَّر رأسه ورماها من الشباك إلى الحوش، وسحبت طوايفهم الأسلحة وهاجوا في أتباعه، فوقع الحريق والنهب في الدار، ووقع في الناس كرشات، وخرجت العساكر الإنكشارية وبأيديهم السيوف المسلولة ومعهم ما خطفوه من النهب، فانزعجت الناس وأغلقوا الأسواق والدكاكين، وهربوا إلى الدور وأغلقوا الأبواب، وهم لا يعلمون ما الخبر.

وبعد ساعة شاع الخبر وشق الوالي والأغا ينادون بالأمن والأمان حسب ما رسم أحمد باشا، وكرروا المناداة بذلك.

ثم نادوا باجتماع الإنكشارية البلدية، وخلافهم عند أحمد باشا على طايفة الأرنؤد، وقتلهم وإخراجهم من المدينة، فتحزبوا أحزابًا ومشوا طوايف طوايف، وتجمع الأرنؤد جهة الأزبكية وفي بيوتهم الساكنين فيها وصار الإنكشارية إذا ظفروا بأحد من الأرنؤد أخذوا سلاحه، وربما قتلوه وكذلك الأرنؤد يفعلون معهم مثل ذلك.

هذا والنهب والحريق عمال في بيت طاهر باشا، وفرج الله عن المعتقلين والمحبوسين على المغارم والمصادرات، وبقيت جثة طاهر باشا مرمية لم يلتفت إليها أحد، ولم يجسر

أحد من أتباعه على الدخول إلى البيت وإخراجها ودفنها، وزالت دولته وانقضت سلطته في لحظة، فكانت مدة غلبته ستة وعشرين يومًا، ولو طال عمره زِيادة لَأهلَك الحرث والنسل، وكان صفته أسمر اللون نحيف البدن أسود اللحية قليل الكلام بالتركي فضلًا عن العربي، ويغلب عليه لغة الأرنؤدية، وفيه هوس وانسلاب وميل للمسلوبين والمجاذيب والدراويش، وعمل له خلوة بالشيخونية، وكان يبيت فيها كثيرًا، ويصعد مع الشيخ عبد الله الكردي إلى السطح في الليل ويذكر معه، ثم سكن هناك بحريمه، وقد كان تزوج بامرأة من نسا الأمرا وكان يجتمع عنده أشكال مختلفة الصور، فيذكر معهم ويجالسهم ويظهر الاعتقاد فيهم، ولما رأوا منه ذلك خرج الكثير من الأوباش وتزيًّا بما سولت له نفسه وشيطانه، ولبس له طرطورًا طويلًا ومرقعة ودلقًا، وعلق له جلاجل وبهرجان وعصا مصبوغة، وفيها شخاشيخ وشراريب، وطبلة يدق عليها، ويصرخ ويزعق ويتكلم بكلمات مستهجنة وألفاظ موهمة بأنه من أرباب الأحوال ونحو ذلك.

ولما قتل أقام مرميًّا إلى تاني يوم لم يدفن، ثم دفنوه من غير رأس بقبة عند بركة الفيل وأخذ بعض الينكجرية رأسه وذهبوا بها ليوصلوها إلى محمد باشا ويأخذوا منه البقشيش، فلحقهم جماعة من الأرنؤد فقتلوهم وأخذوا الرأس منهم، ورجعوا بها ودفنوها مع جثته.

وكتب أحمد باشا مكتوبًا إلى محمد باشا يعلمه بصورة الواقعة ويستعجله للحضور، وكذلك المحروقي وسعيد أغا أرسل كل واحد مكتوبًا بمعنى ذلك وظنوا إتمام المنصف.

ولما نهبوا بيته نهبوا ما جاوره من دور الناس من الحبانية إلى ضلع السمكة إلى درب الجماميز.

ثم إن أحمد باشا أحضر المشايخ وأعلمهم بما وقع، وأمرهم بالذهاب إلى محمد علي ويخاطبوه بأن يذعن إلى الطاعة، فلما ذهبوا إليه وخاطبوه في ذلك، أجاب بأن أحمد باشا لم يكن واليًا على مصر، بل إنما هو والي المدينة المنورة — على ساكنها أفضل الصلاة والسلام — وليس له علاقة بمصر، وأنا كنت الذي وليت طاهر باشا لكونه محافظ الديار المصرية من طرف الدولة، وله شبهة في الجملة، وأما أحمد باشا فليس له جرة ولا شبهة، فهو يخرج خارج البلد، ويأخذ معه الإنكشارية ونجهزه ويسافر إلى ولايته.

فقاموا من عنده على ذلك، واستمر الإنكشارية على ما هم عليه من النهب وتتبع الأرنؤد، وتحزبوا وتسلحوا، وعملوا متاريس على جهاتهم ونواحيهم إلى آخر النهار، فنادوا على الناس بالسهر والتحفظ، والدكاكين تفتح والقناديل تعلق وبات الناس على تخوف.

ولما أصبح نهار الخميس مر الوالي والأغا ينادون بالأمان برسم حكم أحمد باشا، ثم إن أحمد باشا أرسل أوراقًا إلى المشايخ بالحضور، فذهبوا إليه، فقال لهم: أريد منكم أن تجمعوا الناس والرعية وتأمروهم بالخروج على الأرنؤد وقتلهم. فقالوا: سمعًا وطاعة. وأخذوا في القيام فقال لهم: لا تذهبوا وكونوا عندي وأرسلوا للناس كما أمرتكم. فقالوا له: إن عادتنا أن يكون جلوسنا في المهمات بالجامع الأزهر، ونجتمع به ونرسل إلى الرعية، فإنهم عند ذلك لا يخالفون. وكان مصطفى أغا الوكيل حاضرًا، فرادهم في ذلك، وعرف منهم الانفكاك، فلم يزالوا حتى تخلصوا وخرجوا.

وكان أحمد باشا أرسل أحضر الدفتردار ويوسف كتخدا الباشا وعبد الله أفندي رامز الروزنامجي وغالب أكابر العثمانية، ومصطفى أغا الوكيل كان مرهونًا عند شيخ السادات كما تقدم، فعندما سمع بقتل طاهر باشا ركب بجماعته وأبهته، وأخذ معه عدة من الإنكشارية وذهب إلى عند أحمد باشا ووقف بين يديه يعاضده ويقويه، وأما محمد علي والأرنؤد فإنهم مالكون القلعة الكبيرة، ويجمعون أمرهم ويراسلون الأمرا.

فلما أصبح ذلك اليوم عدَّى الكثير من المماليك والكشاف إلى بر مصر، ومروا في الأسواق، وعدى أيضًا محمد علي، وقابلهم في بر الجيزة ورجع، وعدى الكثير منهم من ناحية إنبابة، ومعهم عربان كثيرة، وساروا إلى جهة خارج، باب النصر وباب الفتوح، وأقاموا هناك.

وأرسل إبراهيم بك ورقة إلى أحمد باشا يقول فيها: إنه بلغنا موت المرحوم طاهر باشا — عليه الرحمة والرضوان — فأنتم تكونون مع أتباعكم الأرنؤد حالًا واحدًا، ولا تتداخلوا مع الإنكشارية. فلما كان ضحوة النهار ذهب جماعة من الإنكشارية إلى جهة الرميلة، فضربوا عليهم من القلعة مدافع، فولوا وذهبوا، ثم بعد حصة ضربوا أيضًا عدة مدافع متراسلة على جهة بيت أحمد باشا، وكان ساكنًا في بيت علي بك الكبير بالداودية، فعند ذلك أخذ أمره في الانحلال، وتفرق عنه غالب الإنكشارية البلدية، ووافق أن المشايخ لما خرجوا من عنده وركبوا لم يزالوا سائرين إلى أن وصلوا جامع الغورية، فنزلوا به وجلسوا وهم في حيرة متفكرين فيما يصنعون، فعندما سمعوا صوت المدافع قاموا وتفرقوا إلى بيوتهم.

ثم إن إبراهيم بك أرسل ورقة إلى أحمد باشا قبيل العصر يأمره فيها بتسليم الذين قتلوا طاهر باشا، ويخرج إلى خارج البلد، ومعه مهلة إلى حادي عشر ساعة من النهار، ولا يقيم إلى الليل، وإن خالف فلا يلومن إلا نفسه، فلما رأى حال نفسه مضمحلًّا لم

يجد بدًّا من الامتثال، إلا أنه يجد جمالًا يحمل عليها أثقالهن فقال للرسول: سلِّم عليه وقل له يرسل لي جمالًا وأنا أخرج، وأما تسليم القاتلين فلا يمكن. فقال له: أما حضور الجمال فغير متيسر في هذا الوقت؛ لبعد المسافة. فقال له: وكيف يكون العمل؟ فقال: يركب حضرتكم ويخرج، ووقت ما حضرت الجمال الليلة أو غدًا حملت الأثقال ولحقتكم خارج البلد. فعند ذلك قام وركب وقت العصر، وتفرق من كان معه من أعيان العثمانية مثل: الدفتردار وكتخدا بك والروزنامجي، وذهبوا إلى محمد علي والتجئوا إليه، فأظهر لهم البشر والقبول.

وخرج أحمد باشا في حالة شنيعة وأتباعه مشاة بين يديه، وهم يعدون في مشيهم وعلى أكتافهم وسايد وأمتعة خفيفة، فعندما خرج من البيت دخل الأرنؤد ونهبوا جميع ما فيه، ولم يزل سايرًا حتى خرج من المدينة من باب الفتوح، فوجد العسكر والعربان وبعض كشاف ومماليك مصرية محدقة بالطرق، فدخل مع الإنكشارية إلى قلعة الظاهر وأغلقوها عليهم، وخرج خلفهم عدة وافرة من الأرنؤد والكشاف المصرلية والعرب والغز، وأحاطوا بهم وأقاموا على ذلك تلك الليلة.

وبعد العشا مر الوالي وأمامه المناداة بالأمان، حسب ما رسم إبراهيم بك حاكم الولاية وأفندينا محمد علي، فكانت مدة الولاية لأحمد باشا يومًا وليلة لا غير.

وفي ذلك اليوم نهبوا بيت يوسف كتخدا بك، وأخرجوا منه أشيا كثيرة، أخذ ذلك جميعه الأرنؤد، وأصبح يوم الجمعة فركب المشايخ والأعيان وعدوا إلى الجِيزة وسلموا على إبراهيم بك والأمرا.

وفيه استأذن الدفتردار وكتخدا بك محمد علي في الإقامة عنده أو الذهاب، فأذن لهما بالتوجه إلى بيوتهما، فركبا قبيل الظهر وسارا إلى بيت الدفتردار وهو بيت البارودي، فدخل كتخدا بك مع الدفتردار لعلمه بنهب بيته، فنزلا وجلسا مقدار ساعة، وإذا بجماعة من كبار الأرنؤد ومعهم عدة من العسكر وصلوا إليهما، وعند دخولهم طلبوا المشاعلي من بيت علي أغا الشعراوي، وهو تجاه بيت البارودي فلم يجدوه، فذهب معهم رفيق له وليس معه سلاح، فدخلوا الدار وأغلقوا الباب.

وعلم أهل الخطة مرادهم، فاجتمع الكثير من الأوباش والجعيدية والعسكر خارج الدار يريدون النهب، ولما دخلوا عليهما قبضوا أولًا على الدفتردار وشلحوه من ثيابه، وهو يقول: «عيبتر»، وأصابه بعضهم بضربة على يده اليمنى، وأخرجوه إلى فسحة المكان، وقطعوا رأسه بعدة ضربات وهو يصيح مع كل ضربة؛ لكون المشاعلي لا يحسن الضرب، ولم يكن معه سلاح بل ضربه بسلاح بعض العسكر الحاضرين.

ثم فعلوا ذلك بيوسف كتخدا بك وهو ساكت لم يتكلم، وأخذوا الرأسين وتركوهما مرميين، وخرجوا بعدما نهبوا ما وجدوه من الثياب والأمتعة بالمكان، وكذلك ثياب أتباعهم، وخرج أتباعهم في أسوأ حال يطلبون النجاة بأرواحهم، ومنهم من هرب وطلع إلى حريم البارودي الساكنات في البيت، وصرخ النسا وانزعجن.

وكانت الست نفيسة المرادية في ذلك المنزل أيضًا في تلك الأيام، فعندما رأت وصول الجماعة، أرسلت إلى سليم كاشف المحرمجي، فحضر في ذلك الوقت، فكلمته في أن يتلافى الأمر، فوجده قد تم، فخرج بعد خروجهم بالرأسين، فظن الناس أنها فعلته، ثم حضر محمد علي في أثر ذلك وطرد الناس المجتمعين للنهب، وختم على المكان وركب إلى داره، ثم إن علي أغا الشعراوي استأذن محمد علي في دفنهما، فأذن له، فأعطى شخصًا ستماية نصف فضة لتجهيزهما وتكفينهما، فأخذها وأعطى منها لآخر مائتي نصف لا غير، فأخذها وذهب فوضعهما في تابوت واحد من غير رءوس، وكانوا ذهبوا برءوسهما إلى الأمرا بالجيزة، ولم يردوهما ولم يدفنا معهما، ثم رفعهما بالتابوت إلى ميضاة جامع السلطان شاه المجاور للمكان، وهو مكان قذر، فغسلهما وكفنهما في كفن حقير، ودفنهما في حفرة تحت حايط بتربة الأزبكية من غير روس، فهذا ما كان من أمرهما.

وأما الذين في قلعة الظاهر فإنهم انحصروا وأحاط بهم الأرنؤد والغز والعربان، وليس عندهم ما يأكلون ولا ما يشربون، فصاروا يرمون عليهم من السور بالقرابين والبارود، وهم كذلك يرمون عليهم من أسفل وجمعوا أتربة وعملوها كيمانًا عالية، وصاروا يرمون عليهم منها كذلك بقية نهار الجمعة، وليلة السبت اشتد الحرب بينهم بطول الليل.

وفي الصباح أنزلوا من القلعة مدافع كبارًا وبنبه وجبخانة، وأصعدوها على التلول، وضربوا عليهم إلى قبيل العصر، فعند ذلك طلبوا الأمان، وفتحوا باب القلعة، وخرج أحمد باشا وصحبته شخصان، وهما اللذان قتلا طاهر باشا، فأخذوهم وعدوا بهم إلى الجيزة، وبطل الحرب والرمي، وبقي طايفة الإنكشارية داخل القلعة وحولهم العساكر.

فلما ذهبوا بهم إلى الجيزة أرسلوا أحمد باشا إلى قصر العيني، وأبقوا الاتنين وهم إسماعيل أغا وموسى أغا بالقصر الذي بالجيزة، ونودي بالأمان للرعية حسب ما رسم إبراهيم بك وعثمان بك البرديسي ومحمد علي.

وفي يوم السبت حضر أحمد بك أخو محمد علي إلى جهة خان الخليلي؛ لإجراء التفتيش على منهوبات الأرنؤد التي نهبها الإنكشارية وأودعوه عند أصحابهم الأتراك،

ففتحوا عدة حوانيت وقهاوي وأماكن، وأخذوا ما فيها وأجلسوا طوايف من عسكر الأرنؤد على الخانات والوكايل والأماكن، وشلحوا أناسًا كثيرة من ثيابهم، وربما قتلوا من عصى عليهم، فتخوف أهل خان الخليلي ومن جاورهم، واستمر الأرنؤد كلما مرت منهم طايفة ووجدوا شخصًا في أي جهة فيه شبه ما بالأتراك، قبضوا عليه وأخذوا ثيابه، وخصوصًا إن وجدوا شيًّا معه من السلاح أو سكينًا، فتوقى أكثر الناس وانكفوا عن المرور في أسواق المدينة فضلًا عن الجهات البرانية.

وفيه كثر مرور الغز والكشاف المصرلية، وترددوا إلى المدينة، وعلى أكتافهم البنادق والقرابين وخلفهم المماليك والعربان فيذهبون إلى بيوتهم، ويبيتون بها ويدخلون الحمامات ويغيرون ثيابهم ويعودون إلى بر الجيزة، وبعضهم أمامه المناداة بالأمان عند مروره بوسط المدينة.

وفيه كتبت أوراق بطلب دراهم فردة على البلاد المنوفية والغربية، كل بلد ألف ريال، وذلك خلاف مضايف العرب وكلفهم.

وفي يوم الاتنين قتلوا شخصًا بباب الخرق، يقال إنه كان من أكبر المتحزبين على الأرنؤد وجمع منهوبات كثيرة.

وفيه أيضًا قتلوا إسماعيل أغا وموسى أغا، وهما اللذان كان قتلا طاهر باشا، وتقدم أنهم كانوا أخذوهما بالأمان صحبة أحمد باشا، وأرسلوا أحمد باشا إلى قصر العيني، وبقي الاثنان بقصر الجيزة، فأخذوهما وعدوا بهما إلى البر الآخر، وقطعوا رأسيهما عند الناصرية وأخذوا الرأسين وذهبوا بهما إلى زوجة طاهر باشا بالشيخونية، ثم طلعوهما إلى أخي طاهر باشا بالقلعة.

وفيه تقلد سليم أغا أغات مستحفظان سابقًا الأغاوية كما كان، وركب وشق المدينة بأعوانه وأمامه جماعة من العسكر الأرنؤد.

وليسوا أيضًا حسين أغا أمين خزنة مراد بك وقلدوه والي الشرطة، ولبسوا محمدًا المعروف بالبرديسي كتخدا قائدًا أغا، وجعلوه محتسبًا، وشق كل منهم بالمدينة وأمامهم المناداة بالأمن والأمان والبيع والشرا.

وفيه أخرجوا الإنكشارية الذين بقلعة الظاهر، وسفروهم إلى جهة الصالحية، وصحبتهم كاشفان وطايفة من العرب بعدما أخذوا سلاحهم ومتاعهم، بل وشلحوهم ثيابهم، والذي بقي لهم بعد ذلك أخذته العرب، وذهبوا في أسوأ حال وأنحس بال، وهم نحو الخمسماية إنسان ومنهم من التجأ إلى بعض المماليك والغز، فستر عليه وغير هيئته

وجعله من أتباعه، وكذلك الإنكشارية الذين كانوا مخفيين التجئوا إلى المماليك وانتموا إليهم وخدموهم، فسبحان مقلب الأحوال!

وحضر سليم كاشف المحرمجي وسكن بقلعة الظاهر، وكتب إلى إقليم القليوبية أوراقًا، وقرر على كل بلد ألف ريال، ومن كل صنف من الأصناف سبعين، مثل: سبعين خروفًا، وسبعين رطلًا، سمنًا، وسبعين رطلًا بنًّا، وسبعين فرخةً، وهكذا. وحق طريق المعين لقبض ذلك خمسة وعشرون ألف فضة من كل بلد.

وفي يوم الأربع حادي عشره حضر محمد علي وعبد الله أفندي رامز الروزنامجي ورضوان كتخدا إبراهيم بك إلى بيت الدفتردار المقتول، وضبطوا تركته فوجد عنده نقودًا تلاتماية كيس، وقيمة عروض وجواهر وغيرها نحو ألف كيس.

وفيه أرسل إبراهيم بك فجمع الأعيان والوجاقلية، وأبرز لهم فرمانات وجدوها عند الدفتردار المقتول، مضمونها تقريرات مظالم، منها أن المماليك المصرلية كانوا أحدثوا على الغلال التي تباع إلى «بحر برا» عن كل أردب محبوب، فيقرر ذلك بحيث يتحصل من ذلك للخزينة العامرة عشرة آلاف كيس في السنة، فإن نقصت عن ذلك القدر أضر ذلك بالخزينة.

ومنها تقرير المليون، الذي كان قرره الفرنسيس على أهالي مصر في آخر مدتهم، ويوزع ذلك على الرووس والدور والعقار والأملاك، ومنها أن الحلوان عن المحلول تلات سنوات، ومنها أنه يحسب المضاف والبراني إلى ميري البلاد وغير ذلك.

وفي يوم الخميس ثاني عشره عمل عثمان بك البرديسي عزومة بقصر العيني، وحضر إبراهيم بك والأمراء ومحمد علي سرششمه ورفاقه، وبعد انقضا العزومة ألبسوا محمد علي ورفاقه خلعًا، وقدموا لهم تقادم.

وفي يوم الجمعة كذلك عملوا عزومة لابن أخي طاهر باشا المقيم بالقلعة وصحبته عايدي بك ورفقاهم بقصر العيني، وخلعوا عليهم وقدموا لهم تقادم أيضًا.

وفي يوم الأحد خامس عشره نزل ابن أخي طاهر باشا من القلعة ومن معه من أكابر الأرنؤد وأعيانهم وعساكرهم بعزالهم ومتاعهم، وما جمعوه من المنهوبات، وهو شي كثير جدًّا، وسلموا القلعة إلى الأمرا المصرلية، وطلع أحمد بك الكلارجي إلى باب الإنكشارية وأقام به، وعبد الرحمن بك إبراهيم إلى باب العزب، وسليم أغا مستحفظان إلى القصر، فعند ذلك اطمأن الناس بنزولهم من القلعة، فإنهم كانوا على تخوف من إقامتهم بها، وكثر فيهم اللغط بسبب ذلك، فلم يزل الأمرا يدبرون أمرهم حتى أنزلوهم منها، وبقي بها طايفة من الأرنؤد، وعليهم كبير يقال له حسين قبطان.

وفيه ورد الخبر أن محمد باشا لما قربت منه العساكر التي كان أرسلها له طاهر باشا ارتحل إلى دمياط كما تقدم.

وفي يوم الاتنين وردت مكاتبات من الديار الحجازية مؤرخة في منتصف محرم، وفيها الأخبار باستيلا الوهابيين على مكة في يوم عاشورا، وأن الشريف غالب أحرق داره وارتحل إلى جدة، وأن الحجاج أقاموا بمكة ثمانية أيام زيادة عن المعتاد؛ بسبب الارتباط قبل حصول الوهابيين بمكة ومراعاةً للشريف، حتى نقل متاعه إلى جدة، ثم ارتحل الحجاج وخرجوا من مكة طالبين زيارة المدينة، فدخل الوهابيون بعد ارتحال الحج بيومين.

وفي يوم الأربع ثامن عشره أخرجوا باقي الإنكشارية والدلاة والسجمان، وكانوا مجتمعين بمصر القديمة، فتضرر منهم المارة وأهل تلك الجهة بسبب قبايحهم وخطفهم أمتعة الناس بل وقتلهم، وكان تجمعهم على أن يذهبوا إلى جهة الصعيد، ويلتفون على حسن باشا بجرجا وينضمون إليه وإلى من بناحية الصعيد من أجناسهم، فذهب منهم من أخبر الأمرا المصرلية بذلك، فضبطوا عليهم الطرق، واتفق أن جماعة منهم وقفوا لبعض الفلاحين المارين بالبطيخ والخضار فحجزوهم، وطلبوا منهم دراهم فمر بهم بعض مماليك من أتباع البرديسي، فاستجار بهم الفلاحون، فكلموهم فتشاحنوا معهم، وسحبوا على بعضهم السلاح، فقتل مملوك منهم فذهبوا إلى سيدهم وأعلموه، فأرسل إلى إبراهيم بك فركب إلى العرضي ناحية بولاق التكرور، وترك مكانه بقصر الجيزة محمد بك بشتك وكيل الألفي، وشركوا عليهم الطرق وأمروهم بالركوب والخروج من مصر إلى جهة الشام واللحوق بجماعتهم، فركبوا من هناك ومروا على ناحية الجبل من خلف القلعة إلى جهة العادلية وأمامهم وخلفهم بعض الأمرا المصرلية، ومعهم مدفعان وهم نحو ألف وخمسماية وأزيد، فلما خرجوا وتوسطوا البرية عروا الكثير منهم ومن المتخلفين والمتأخرين عنهم، وأخذوا أسلحتهم وقتلوا كثيرًا منهم ورجع المماليك ومعهم الكثير من بنادقهم وسلاحهم يحملونه معهم ومع خدامهم، فلما رجع المماليك بهذه الصورة ووقف العسكر الأرنؤدية على أبواب المدينة انزعج الناس كعادتهم في كرشاتهم، وأغلقوا الدكاكين وعين للسفر معهم حسين كاشف الألفي يذهب معهم إلى القنطرة، ونودي في عصريته بالأمان وخروج من تخلف من الإنكشارية، وكل من وجد منهم بعد تلاتة أيام فدمه وماله هدر.

وفي يوم الخميس مر الوالي والمناداة أمامه على الأتراك والإنكشارية والبشتاق والسجمان بالخروج من مصر، والتحذير لمن آواهم أو تاواهم، وكلما صادف في طريقه

شخصًا من الأتراك قبض عليه، وسأله عن تخلفه فيقول: أنا من المتسببين والمتأهلين من زمان بمصر. فيطلب منه بينة على ذلك ويستلمه عسكر الأرنؤد، فيُودِعونه في مكان مع أمثاله حتى يتحققوا أمره.

وفيه مر بعض المماليك بجهة الميدان ناحية باب الشعرية، فصادفوا جماعة من العسكر المذكورين يحملون متاعًا لهم، فاشتَكلوا بهم، وأرادوا أخذ سلاحهم ومتاعهم، فمانعوهم وتضاربوا معهم، فقتل بينهم شخصان من الإنكشارية وشخصان من المماليك، أحدهما فرنساوي.

وفيه حضر أيضًا تلاتة من المماليك إلى وكالة الصاغة إلى رجل رومي ططري، وسألوه عن جوارٍ سود عنده لمحمد باشا، وأنهم يطلبونهن لعثمان بك البرديسي، فأنكر ذلك، وشهد جيرانه أنهن ملكه واشتراهن ليتَّجر فيهن، فلم يزالوا حتى أخذوا منه تلاتة على سوم الشرا، وذهب معهن، فلما بعدوا عن الجهة فزعوا عليه وطردوه، وذهبوا بالجواري، فذهب ذلك الططري إلى محمد علي، فأرسل إلى البرديسي ورقة بطلب الجواري أو ثمنهن، ففحص عنهن حتى ردهن إلى صاحبهن.

وفيه حضر أيضًا جماعة من المماليك إلى بيت عثمان أفندي بجوار ضريح الشيخ الشعراني، وهو من كتبة ديوان محمد باشا، فأخذوا خيله وسلاحه ومتاعه التي بأسفل الدار.

وفي يوم الجمعة نهبوا أيضًا دار أحمد أفندي الذي كان شهر حوالة وكاشف الشرقية في العام الماضي، فأخذوا جميع ما عنده حتى ثيابه التي على بدنه، وقتلوا خادمه على باب داره قتله الوالي زاعمًا أنه هو الذي دل عليه.

وفي يوم السبت مر سليم أغا وأمامه المناداة على الأغراب الشوام والحلبية والرومية، يجتمعون بالجمالية يوم تاريخه فلم يجتمع منهم أحد.

وفي يوم الأحد حضر الشريف عبد الله بن سرور، وصحبته بعض أقاربه من شرفا مكة وأتباعهم نحو ستين نفرًا، وأخبروا أنهم خرجوا من مكة مع الحجاج، وأن عبد العزيز بن مسعود الوهابي دخل إلى مكة من غير حرب، وولى الشريف عبد المعين أميرًا على مكة، والشيخ عقيل قاضيًا، وأنه هدم قبة زمزم والقباب التي حول الكعبة والأبنية التي أعلى من الكعبة، وذلك بعد أن عقد مجلسًا بالحرم وباحثهم على ما الناس عليه من البدع والمحرمات المخالفة للكتاب والسنة، وأخبروا أن الشريف غالب وشريف باشا ذهبا إلى جدة وتحصنا بها، وأنهم فارقوا الحجاج في الجديدة.

وفيه كتبوا عرضحالين أحدهما بصورة ما وقع لمحمد باشا مع العساكر، ثم قيام الإنكشارية وقتلهم لطاهر باشا، ثم كرَّة الأرنؤد على الإنكشارية لما أثاروا الفتنة مع أحمد باشا حتى اختلت أحوال المدينة، وكاد يعمها الخراب لولا قرب الأمرا المصرلية وحضورهم، فسكنوا الفتنة، وكفوا أيدي المتعدين، والثاني يتضمن رفع الإحداثات التي في ضمن الأوامر التي كانت مع الدفتردار التي تقدمت الإشارة إليها.

وفيه عزم الأمرا على التوجه إلى جهة بحري، فقصد البرديسي وصحبته محمد بك تابع محمد بك المنفوخ جهة دمياط، ومعهم محمد علي وعلي بك أيوب وغيرهم وصحبتهم الجم الكثير من العساكر والعربان، ولم يتخلف إلا إبراهيم بك وأتباعه والحكام وسافر سليمان كاشف البواب إلى جهة رشيد وصحبته عساكر أيضًا.

وفي يوم التلات عدى الكثير إلى البر الشرقي.

وفي يوم الأربع خامس عشرينه قدم جاويش الحجاج بمكاتيب العقبة، وأخبروا بموت الكثير من الناس بالحمى والإسهال، وحصل لهم تعب شديد من الغلا أيضًا ذهابًا وإيابًا، ومات الشيخ أحمد العريشي الحنفي، ودُفن بنبط، ومات أيضًا محمد أفندي باش جاجرت ودُفن بالينبع، والشيخ علي الخياط الشافعي.

وفيه عدى إبراهيم بك إلى قصر العيني، وركب مع البرديسي إلى جهة الحلي، وودعه ورجع إلى قصر العيني فأقام به، وجلس ابنه مرزوق بك في مضرب النشاب واستمر وكيل الألفي مقيمًا بقصر الجيزة.

وفيه وردت الأخبار بأن محمد باشا لما ارتحل من المنصورة إلى دمياط، أبقى بفارسكور إبراهيم باشا ومملوكه سليم كاشف المنوفية بعدة من العسكر فتحصنوا بها، فلما حضر إليهم حسن بك أخو طاهر باشا بالعساكر تحاربوا معهم، وملكوا منهم فارسكور؛ فنهبوها وأحرقوها وفسقوا بنساها وفعلوا ما لا خير فيه، وقُتل سليم كاشف المنوفية المذكور أيضًا، ثم إن بعض أكابر العسكر المنهزمين أرسل إلى حسن بك يطلب منه أمانًا، وكان ذلك خديعة منهم فأرسل لهم أمانًا فحضروا إليه، وانضموا لعسكره وسهلوا له أمر محمد باشا، وأنه في قلة وضعف، وهم مع ذلك يراسلون أصحابهم، ويشيرون عليهم بالعود والتثبت إلى أن عادوا وتأهبوا للحرب ثانيًا، وخرج إليهم حسن بك بعساكره وخلفه المنضافون إليه من أوليك، فلما أن نشبت الحرب بينهم أخذوهم مواسطة فأثخنوهم، ووقعت فيهم مقتلة عظيمة، وانهزموا إلى فارسكور فتلقاهم أهل البلدة وكملوا قتلهم، ونزلوا عليهم بالنبابيت والمساوق والحجارة جزا لما فعلوه معهم

حتى اشتفوا منهم، ولم ينجُ منهم إلا من كان في عزوة أو هرب إلى جهة أخرى، وحضر الكثير منهم إلى مصر في أسوأ حال.

وفي يوم الجمعة والسبت حضر الكثير من حجاج المغاربة، وصحبتهم مصاروة وفلاحون كثيرة.

وفيه حضرت مكاتبة من الديار الرومية على يد شخص يُسمَّى صالح أفندي إلى إسكندرية، فأرسل خورشيد أفندي حاكم إسكندرية يستأذن في حضوره بمكاتبة على يد «راشته» قنصل النيمسا، فذهب «راشته» إلى إبراهيم بك، وأخبره وأطلعه على المكتوب الذي حضر له، فبعد ساعة وصل الخبر بوصول صالح أفندي المذكور إلى بولاق، فأرسل إبراهيم بك رضوان كتخدا وأحمد بك الأرنؤدي، وأمرهما بأن يأخذا ما معه من الأوراق ويأمراه بالرجوع بغير مهلة ولا يدعاه يطلع إلى البر؛ ففعلا ذلك.

ومضمون ما في تلك الأوراق خطاب لطاهر باشا، وأنه بلغنا ما حصل من محمد باشا من الجور والظلم وقطع علوفات العسكر، وأنهم قاموا عليه وأخرجوه، وهذه عادة العساكر إذا انقطعت علوفاتهم، وأننا وجهنا له ولاية سنانيك، وأن طاهر باشا يستمر على المحافظة، وأحمد باشا قايمقام إلى أن يأتي المتولي، وخطاب لمحمد باشا بمعنى ذلك.

والسر في تقليد أحمد باشا قايمقام دون طاهر باشا أن طاهر باشا أرنؤدي، وليس له إلا طوخان، ومن قواعدهم القديمة أنهم لا يقلدون الأرنؤدي ثلاثة أطواخ أبدًا.

وفي يوم السبت المذكور دخل الكثير من الحجاج آخر النهار وفي الليل.

وفي يوم الأحد دخل الجم الغفير من الحجاج، ومات الكثير من الداخلين في ذلك اليوم، وكثير مرضى وحصل لهم مشقة عظيمة وشوب وغلا، وخصوصًا بعد مجاوزتهم العقبة، وبلغت الشربة الماء دينارًا، والبطيخة دينارين، وكان حجاج كثير وأكثرهم أوباش الناس من الفلاحين والنسا وغير ذلك.

وخرج سليم أغا مستحفظان وصحبته جماعة من الإنكشارية والكشاف والأجناد والعسكر، فاستلموا المحمل من أمير الحاج وأمروه أن لا يدخل المدينة، بل يقيم بالبركة حتى يحاسبوه، ويسافر بمن معه من العسكر إلى جهة الشام.

ثم رجعوا بالمحمل ودخلوا به المدينة وقت الظهر على خلاف العادة، وحضر صحبة الحجاج كثير من أهل مكة هروبًا من الوهابي.

ولغط الناس في خبر الوهابي واختلفوا فيه؛ فمنهم من يجعله خارجيًّا وكافرًا وهم المكيون ومن تابعهم وصدق أقوالهم، ومنهم من يقول بخلاف ذلك لخلو غرضه، وأرسل إلى شيخ الركب المغربي كتابًا ومعه أوراق تتضمن دعوته وعقيدته وصورتها:

بسم الله الرحمن الرحيم، وبه نستعين، الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مُضل له، ومن يضلل فلا هاديَ له، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ونشهد أن محمدًا عبده ورسوله، من يُطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصِ الله ورسوله فقد غوى، ولا يضر إلا نفسه ولن يضر اللهَ شيًّا، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا، أما بعد؛ فقد قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ۖ وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، وقال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾، وقال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾، فأخبر — سبحانه — أنه أكمل الدين وأتمه على لسان رسوله ﷺ وأمرنا بلزوم ما أُنزل إلينا من ربنا، وترك البدع والتفرق والاختلاف، وقال تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

والرسول ﷺ قد أخبرنا بأن أمته تأخذ مأخذ القرون قبلها شبرًا بشبر وذراعًا بذراع، وثبت في الصحيحين وغيرهما عنه ﷺ أنه قال: «لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القُذة بالقذة حتى لو دخلوا حجر ضب لدخلتموه، قالوا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟»

وأخبر في الحديث الآخر أن أمته ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة، قالوا: من هي يا رسول الله؟ قال: من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي. إذا عُرف هذا فمعلوم ما قد عمت به البلوى من حوادث الأمور التي أعظمها الإشراك بالله، والتوجه إلى الموتى، وسؤالهم النصر على الأعدا، وقضا الحاجات وتفريج الكربات التي لا يقدر عليها إلا رب الأرض والسموات.

وكذلك التقرب إليهم بالنذور وذبح القربان والاستغاثة بهم في كشف الشدايد وجلب الفوايد، إلى غير ذلك من أنواع العبادة التي لا تصلح إلا لله، وصرف شي من أنواع العبادة لغير الله كصرف جميعها؛ لأنه — سبحانه وتعالى — أغنى الأغنيا عن الشرك، ولا يقبل من العمل إلا ما كان خالصًا

كما قال تعالى: ﴿فَاعْبُدِ اللهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ * أَلَا لِلهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ۚ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾.

فأخبر — سبحانه — أنه لا يرضى من الدين إلا ما كان خالصًا لوجهه، وأخبر أن المشركين يدعون الملايكة والأنبيا والصالحين ليقربوهم إلى الله زلفى ويشفعوا لهم عنده، وأخبر أنه لا يهدي من هو كاذب كفار.

وقال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

فأخبر أنه من جعل بينه وبين الله وسايط سألهم الشفاعة، فقد عبدهم وأشرك بهم؛ وذلك أن الشفاعة كلها لله كما قال تعالى: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾، وقال تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ﴾، وقال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾. وهو — سبحانه وتعالى — لا يرضى إلا التوحيد كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾، فالشفاعة حق، ولا تُطلب في دار الدنيا إلا من الله كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَدًا﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ﴾، فإذا كان الرسول ﷺ — وهو سيد الشفعاء وصاحب المقام المحمود، وآدم فمن دونه تحت لوائه لا يشفع إلا بإذن الله — لا يشفع ابتداءً، بل يأتي فيخر لله ساجدًا فيحمده بمحامد يُعلمه إياها، ثم يُقال: ارفع رأسك وسلْ تُعطَ واشفع تُشفَّع؛ ثم يحد له حدًّا فيدخلهم الجنة، فكيف بغيره من الأنبيا والأوليا.

وهذا الذي ذكرناه لا يخالف فيه أحد من علما المسلمين، بل قد أجمع عليه السلف الصالح من الأصحاب والتابعين، والأيمة الأربعة وغيرهم ممن سلك سبيلهم ودرج على منهاجهم.

وأما ما حدث من سوال الأنبيا والأوليا من الشفاعة بعد موتهم، وتعظيم قبورهم ببنا القباب عليها، وإسراجها والصلاة عندها، واتخاذها أعيادًا وجعْل السدنة والنذور لها — فكل ذلك من حوادث الأمور التي أخبر بها النبي ﷺ

أمته وحذر منها، كما في الحديث عنه ﷺ أنه قال: «لا تقوم الساعة حتى يلحق حي من أمتي بالمشركين، وحتى تعبد فئام من أمتي الأوثان.»

وهو ﷺ حمى جناب التوحيد أعظم حماية، وسد كل طريق يؤدي إلى الشرك؛ فنهى أن يجصص القبر وأن يُبنى عليه، كما ثبت في صحيح مسلم من حديث جابر، وثبت فيه أيضًا أنه بعث عليَّ بن أبي طالب — رضي الله عنه — وأمره لا يدع قبرًا مشرفًا إلا سواه، ولا تمثالًا إلا طمسه.

ولهذا قال غير واحد من العلما: يجب هدم القباب المبنية على القبور؛ لأنها أُسست على معصية الرسول ﷺ، فهذا هو الذي أوجب الاختلاف بيننا وبين الناس، حتى آل بهم الأمر إلى أن كفَّرونا وقاتلونا واستحلوا دمانا وأموالنا، حتى نصرنا الله عليهم وظفرنا بهم، وهو الذي ندعو الناس إليه ونقاتلهم عليه بعدما نقيم عليهم الحجة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وإجماع السلف الصالح من الأمة، ممتثلين لقوله — سبحانه وتعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾.

فمن لم يُجب الدعوة بالحجة والبيان قاتلناه بالسيف والسنان، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾.

وندعو الناس إلى إقامة الصلوات في الجماعات على الوجه المشروع، وإيتاء الزكاة، وصيام شهر رمضان، وحج بيت الله الحرام، ونأمر بالمعروف وننهى عن المنكر، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾، فهذا هو الذي نعتقده وندين الله به؛ فمن عمل بذلك فهو أخونا المسلم له ما لنا وعليه ما علينا، ونعتقد أيضًا أن أمة محمد ﷺ المتبعين للسنة لا تجتمع على ضلالة، وأنه لا تزال طايفة من أمته على الحق منصورة لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك. أقول: إن كان كذلك فهذا ما ندين الله به نحن أيضًا، وهو خلاصة لباب التوحيد، وما علينا من المارقين والمتعصبين.

وقد بسط الكلام في ذلك ابن القيم في كتابه إغاثة اللهفان، والحافظ المقريزي في تجريد التوحيد والإمام اليوسي في شرح الكبرى، وشرح الحكم

لابن عباد، وكتاب جمع الفضايل وقمع الرذايل، وكتاب مصايد الشيطان وغير ذلك. انتهى.

وفي ذلك اليوم نُودي على المتخلفين من الإنكشارية بالسفر صحبة أمير الحاج، وقبضوا على أنفار منهم وأخرجوهم، ومنعوا أيضًا حجاج المغاربة من الدخول إلى المدينة، ومن دخل منهم لأجل حاجة فليدخل من غير سلاح، فذهبوا إلى بولاق وأقاموا هناك.

وفي يوم الاتنين مر الوالي بناحية الجمالية، فوجد إنسانًا من أكابر غزة يُسمَّى علي أغا شعبان حضر إلى مصر من جملة من حضر مع العرضي، وكان مهندسًا في عمارة الباشا، ثم عُين لسد ترعة الفرعونية لمعرفته بأمور الهندسة، فوجده جالسًا على دكان يتنزه حصة وفرسه وخدمه وقوف أمامه، فطلبه وأمره بالركوب معه فركب وذهب صحبته، فكان آخر العهد به، وكان في جيبه ألف دينار ذهبًا بإخبار أخيه خلاف الورق، فأخذ ثيابه وفرسه وما معه وخنقه وأخفى أمره وأنكره وكان رجلًا لا بأس به.

شهر ربيع الأول (سنة ١٢١٨)

استهل بيوم التلات، وفي يوم السبت خامسه سافر أحمد باشا والعساكر الإنكشارية الذين جمعوهم من المدينة، وسافر صحبتهم من العساكر الذين كانوا صحبة أمير الحاج، والجميع كانوا نحو ألفين وخمسماية، وأما أمير الحاج فإنهم عفوا عنه من السفر ودخل المدينة بخاصته.

وفي هذا اليوم حضر علي كتخدا من جهة قبلي، وهو كتخدا حسن باشا والي جرجا ومعه مكاتبة إلى الأمرا المصرلية، وإنه وصل إلى أسيوط فكتبوا له أمانًا بالحضور إلى مصر بمن معه من العسكر، ورجع علي كتخدا بذلك في ثاني يومه فقط.

وفيه ورد الخبر بوصول أنجد بك إلى ثغر دمياط بالريالة إلى محمد باشا.

وفي يوم الأربع تاسعه سافر الشريف عبد الله بن سرور إلى إسكندرية متوجهًا إلى إسلامبول، وأنعم عليه إبراهيم بك بخمسين ألف فضة.

وفي يوم الجمعة كان المولد النبوي، ونادوا بفتح الدكاكين ووقود القناديل؛ فأوقدت الأسواق تلك الليلة والليلة التي قبلها، ولكن دون ذلك، وأما الأزبكية فلم يعمل بها وقدة إلا قبالة بيت البكري لاستيلا الخراب عليها.

وفي تاني عشره سفروا جبخانة وجللًا وبارودًا إلى جهة بحري، وأُشيع بأن كثيرًا من العسكر المصحوبين بالتجريدة ذهبوا إلى محمد باشا، وكذلك طايفة من الإنكشارية المطرودين الذين خلصوا إلى طريق دمياط.

وفي يوم الأربع سادس عشره وردت مكاتبات من عثمان بك البرديسي بالخبر بوقوع الحرب بينهم وبين محمد باشا وعساكره.

وفي يوم الاتنين رابع عشره وقع بين الفريقين مقتلة عظيمة، وكانوا ملكوا منه متاريس القنطرة البيضا قبل ذلك، ثم هجم المصريون في ذلك اليوم عليهم هجمة عظيمة وكبسوا على دمياط بمخامرة بعض رؤسا عساكر الباشا، وفتكوا في عسكر الباشا بالقتل، وقُتلت خواصه وأتباعه، وقُتل حسين كتخدا شنن، ومصطفى أغات التبديل، ونهبوا دمياط وأسروا النسا، وافتضوا الأبكار وأخذوهم أسرى، وصاروا يبيعونهم على بعضهم، وفعلوا أفعالًا شنيعة من الفسق والفجور، وأخذوا حتى ما على أجساد الناس من الثياب، ونهبوا الخانات والبيوت والوكايل وجميع أسباب التجار التي بها من أصناف البضايع الشامية والرومية والمصرية، وكان شيًّا كثيرًا يفوق الحصر، وما بالمراكب حتى بيع الفرد الأرز الذي هو نصف أردب بثلاثة عشر نصفًا وقيمته ألف نصف، والكيس الحرير الذي قيمته خمسماية ريال بريالين إلى غير ذلك، والأمر لله وحده.

والتجأ الباشا إلى القرية وتترس بها، فأحاطوا به من كل جهة؛ فطلب الأمان فأمنوه فنزل من القرية وحضر إلى البرديسي وخطف عمامته بعض العسكر، ولما رآه البرديسي ترجل عن مركوبه إليه وتمنَّى بالسلام عليه، وألبسه عمامة وأنزله في خيمة بجانب خيمته متحفظًا به.

ولما وصل الخبر بذلك إلى مصر ضربوا مدافع كثيرة من قصر العيني والقلعة والجيزة ومصر العتيقة، واستمر ذلك ثلاثة أيام بلياليها في كل وقت.

وفي عصريتها حضر جوخدار البرديسي وهو الذي قتل حسين أغا شنن، وحكى بصورة الحال فألبسه إبراهيم بك فروة، وأنعم عليه ببلاد المقتول وبيته وزوجته وأملاكه، وجعله كاشف الغربية، وذهب إلى وكيل الألفي أيضًا فخلع عليه فروة سمور، وصار يبدر الذهب في حال ركوبه.

وفي يوم الجمعة ذهب المذكور إلى مقام الإمام الشافعي، وأرخى لحيته على عادتهم التي سنها السدنة ليعفيها بعد ذلك من الحلق.

وفي ذلك اليوم عمل إبراهيم بك ديوانًا ببيت ابنته بدرب الجماميز، وحضر القاضي والمشايخ ولبس خلعة وتولى قايمقام مصر، وضربت في بيته النوبة التركية.

وفي عشرينه ورد الخبر بوصول علي باشا الطرابلسي إلى إسكندرية واليًا على مصر عوضًا عن محمد باشا، وحضر منه فرمان خطابًا للأمرا يُعلِمهم بوصوله، ويذكر لهم أنه متولًّ على الأقطار المصرية عوضًا عن محمد باشا من إسكندرية إلى أسوان (ولم يبلغ الدولة موت طاهر باشا ولا دخولكم إلى مصر) ومعنا أوامر لطاهر باشا وأحمد باشا أنهم يتوجهون بالعساكر إلى الحجاز؛ بسبب الوهابيين. فلما وصلنا إلى إسكندرية بلغنا موت طاهر باشا وحضوركم إلى المدينة بمعاونة الأرنؤدية، وقتْل رجال الدولة والإنكشارية وقتْل من معهم، وإخراج من بقي على غير صورة إلى غير ذلك، وهذا غير مناسب ولا نرضى لكم بهذا على هذا الوجه؛ فإننا نحب لكم الخير، ولنا معكم عِشرة سابقة ومحبة أكيدة، ونطلب راحتكم في أوطانكم ونسعى لكم فيها على وجه جميل، وكان المناسب أن لا تدخلوا المدينة إلا بإذن الدولة؛ فإن تظاهركم بالخلاف والعصيان مما يوجب لكم عدم الراحة؛ فإن سيف السلطنة طويل، فربما استعان السلطان عليكم ببعض المخالفين الذين لا طاقة لكم بهم.

ثم قال لهم في ضمن ذلك: إن لنا معكم بعض كلام لا يحتمله الكتاب، وعن قريب يأتيكم اثنان من طرفنا عاقلان تعملون معهما مشاورة.

فكتبوا له جوابًا حاصله أن محمد باشا لما كان متوليًا لم نزلْ نترجى مراحمه، وهو لا يزداد معنا إلا قسوة ولا يسمح لنا بالإقامة بالقطر المصري جملة، وجرد علينا التجاريد والعساكر من كل جهة، وينصرنا الله عليه في كل مرة إلى أن حصل بينه وبين عساكره وحشة بسبب جماكيهم وعلوفاتهم؛ فقاموا عليه وحاربوه وأخرجوه من مصر بمعونة طاهر باشا، ثم قامت الإنكشارية على طاهر باشا وقتلوه ظلمًا، وقامت العساكر على بعضهم البعض.

وكنا حضرنا إلى جهة الجيزة باستدعاء طاهر باشا، فلما قُتل طاهر باشا بقيت المدينة رعية من غير راعٍ، وخافت الرعية من جور العساكر وتعديهم، فحضر إلينا المشايخ والعلما واختيارية الوجاقلية واستغاثوا بنا، فأرسلنا من عندنا من ضبط العساكر وأمن المدينة والرعية، وأما محمد باشا فإنه نزل إلى دمياط وظلم البلاد والعباد، وفرد عليها الفرد الشاقة وحرقها؛ فتوجه عثمان بك البرديسي لتأمين أهالي القرى إلى أن وصل إلى ظاهر دمياط، فأقام بمن معه خارج المدينة فما يشعر إلا ومحمد باشا صدمهم ليلًا وحاربهم فحاربوه، فنصرهم الله عليه وانهزمت عساكره وقبض عليه، وهو الآن عندنا في الإعزاز والإكرام، ونحن الآن على ذلك حتى يأتينا العفو.

وأما قولكم: إننا نخرج من مصر، فهذا لا يمكن ولا تطاوعنا جماعتنا وعساكرنا على الخروج من أوطانهم بعد استقرارهم فيها، وأما قولكم: إن حضرة السلطان يستعين علينا ببعض المخالفين، فإننا لا نستعين إلا بالله، وإننا أرسلنا عرضحال نطلب العفو ونترجى الرضا، ومنتظرون الجواب.

وفي تاني عشرينه حضر واحد أغا ومعه آخر؛ فضربوا له مدافع وعملوا ديوانًا، وتكلم معهم وتكلم المشايخ الحاضرون في ظلم العثمانيين وما أحدثوه من مظالم والمكوس، واتفقوا على كتابة عرضحال إلى الباشا؛ فكتبوا ذلك وأمضوا عليه، ونادوا في الأسواق برفع ما أحدثه الفرنساوية والعثمانية من المظالم وزيادة المكوس، ودفعوا إلى الأغا الواصل ألف ريال حق طريقه وسافر.

وفيه وصل الخبر بأن سليمان كاشف لما وصل إلى رشيد وبها جماعة من العثمانية وحاكمها إبراهيم أفندي، فلما بلغه وصول سليمان كاشف أخلى له البلد وتحصَّن في برج مغيزل، فعبر سليمان كاشف إلى البلد.

وخرج يحاصر إبراهيم أفندي، فهم على ذلك وإذا بالسيد علي باشا القبطان وصل إلى رشيد، وأرسل إلى سليمان كاشف يُعلِمه بحضوره وحضور علي باشا القبطان وَالي مصر، ويقول: ما هذا الحصار؟ فقال له: نحن نقاتل كل من كان من طرف حسين قبطان باشا، وأما ما كان من طرف الوزير يوسف باشا فلا نقاتله، وارتحل من رشيد إلى الرحمانية، ودخل السيد علي القبطان إلى رشيد.

وفي تالت عشرينه سافر جوخدار البرديسي إلى ولاية الغربية، وكان شاهين كاشف المرادي هناك يجمع الفردة، وتوجه إلى طنتدا وعمل على أولاد الخادم تمانين ألف ريال، فحضروا إلى مصر ومعهم مفاتيح مقام سيدي أحمد البدوي هاربين، وتشكَّوا وتظلَّموا وقالوا لإبراهيم بك: لم يبقَ عندنا شي؛ فإن الفرنساوية نهبونا وأخذوا أموالنا، ثم إن محمد باشا أرسل المحروقي فحفر دارنا، وأخذ منا نحو تلتماية ألف ريال، ولم يبقَ عندنا شي جملة كافية.

وفي يوم الاتنين تاسع عشرينه وصل محمد باشا إلى ساحل بولاق وصحبته المحافظون عليه، وهم جماعة من عسكر الأرنؤد الذين كانوا سابقًا في خدمته وجماعة من الأجناد المصرلية، ولم يكن معه من أتباعه إلا ستة مماليك فقط، فإن مماليكه المختصين به اختار منهم البرديسي من اختاره، واقتسم باقيهم الأرنؤد، ومنهم من يخدم الأرنؤد المحافظين عليه.

ووافق أن ذلك اليوم كان جمع سيدي أحمد البدوي ببولاق على العادة، فنصبوا له خيمة لطيفة بساحل البحر وطلع إليها فرأى جمع الناس، فظن أنهم اجتمعوا للفرجة عليه فقال: ما هذا؟ فأخبروه بصورة الحال.

وكان إبراهيم بك في ذلك اليوم حضر إلى بولاق، ودخل إلى بيت السيد عمر نقيب الأشراف باستدعا، فجلس عنده ساعة، ثم ركب إلى ديوان بولاق فنزل هناك ساعة أيضًا، ثم ركب إلى بيته بحارة عابدين، فلما وصل الباشا كما ذكر حضر إليه سليم كاشف المحرمجي وأركبه حصانًا، وركب مماليكه حميرًا وذهبوا به إلى بيت إبراهيم بك بحارة عابدين، فوجدوا إبراهيم بك طلع إلى الحريم، فلم ينزل إليه ولم يقابله؛ فرجع به سليم كاشف إلى بيت حسن كاشف جركس — وهو بيت البرديسي — فبات به.

فلما كان في الصباح، ركب إبراهيم بك إلى قصر العيني، فركب المحرمجي، وأخذ معه الباشا وذهب به إلى قصر العيني، فقابل إبراهيم بك هناك وسلَّم عليه، وحضر الألفي وباقي الأمرا بجموعهم وخيولهم، فترامحوا تحت القصر وتسابقوا ولعبوا بالجريد.

ثم طلع أكابرهم إلى أعلى القصر، فصاروا يُقبِّلون يد إبراهيم بك والباشا جالس، حتى تحلقوا حواليهما، ثم إن إبراهيم بك قدم له حصانًا وقام وركب مع المحرمجي إلى بيت حسن كاشف بالناصرية؛ فسبحان المعز المذل القهار!

وفي تاني يوم غايته ركب إبراهيم بك والألفي وذهبا إلى الباشا وسلَّما عليه في بيت البرديسي، وهادياه بثياب وأمتعة، وبعد أن كانوا يترجون عفوه ويتمنون الرضا منه ويكونوا تحت حكمه، صار هو يترجى عفوهم ويؤمل وفدهم وإحسانهم، وبقي تحت حكمهم؛ فالعياذ بالله من زوال النعم وقهر الرجال.

شهر ربيع الثاني (سنة ١٢١٨)

استهل بيوم الأربع، في تانيه ضربت مدافع كثيرة بسبب إقامة بنديرة الإنكليز بمصر.

وفيه عدى البرديسي من المنصورة إلى البر الغربي متوجهًا إلى جهة رشيد.

وفي يوم السبت رابعه وردت هجانة من ناحية الينبع، وأخبروا أن الوهابيين جلوا عن جدة ومكة؛ بسبب أنهم جاتهم أخبار بأن العجم زحفوا على بلادهم الدرعية وملكوا بعضها، والأوراق فيها خطاب من شريف باشا وشريف مكة لطاهر باشا على ظن حياته.

وفي يوم الاتنين نادى الأغا والوالي بالأسواق على العثمانية والأتراك والأغراب من الشوام والحلبية بالسفر والخروج من مصر، فكل من وُجد بعد تلاتة أيام فدمه هدر،

وأمروا عثمان بك أمير الحاج بالسفر على جهة الشام من البر، ويسافر المنادلي عليهم صحبته، وكذلك إبراهيم باشا.

وفي يوم الأربع خرج عثمان بك إلى جهة العادلية، وخرج الكثير من أعيان العثمانية معه، وتتابع خروجهم في كل يوم، وصاروا يبيعون متاعهم وثيابهم وهم خزايا حيارى في أسوأ حال، وأكثرهم متأهل ومتزوج، ومنهم من نُهب وسُلب وصار لا يملك شيًّا، فلما تكامل خروجهم وسافروا في عاشره وهم زيادة عن ألفين وبقي منهم أناس، التجوا إلى بعض المصرلية والإنكليز وانتموا إليهم.

وفيه وصلت الأخبار بأن البرديسي وصل إلى رشيد، وأن السيد علي باشا ريس القبطانية تحصن ببرج مغيزل، وغالب أهلها جلا عنها خوفًا من مثل حادثة دمياط، ولما دخل عثمان بك البرديسي إلى رشيد فرد على أهلها مبلغ دراهم، يقال: ثمانين ألف ريال.

وفي تالت عشره حضر قنصل الفرنسيس فعملوا له شنكًا ومدافع، وأركبوه من بولاق بموكب جليل، وقدامه أغات الإنكشارية والوالي وأكابر الكشاف وحسين كاشف المعروف بالإفرنجي، وعساكره الذين مثل عسكر الفرنسيس، وهيئته لم يتقدم مثلها بين المسلمين، ونصب بنديرته في بركة الأزبكية من ناحية قنطرة الدكة على صاري طويل مرتفع في الهوا، واجتمع إليه كثير من النصارى الشوام والأقباط، وعملوا جمعيات وولايم وازدحموا على بابه، وحضر صحبته كثير من الذين هربوا عند دخول المسلمين مع الوزير، وكان المحتفل بذلك حسين كاشف الإفرنجي.

وفي ثامن عشره وصلت مكاتبة من البرديسي إلى إبراهيم بك يخبر فيها أنه لما وصل إلى رشيد وتحصن السيد علي باشا بالبرج، أَرسل إليه فبَعث له حسن بك قرابة علي باشا الطرابلسي الوالي، فتكلم معه وقال: ما المراد؟ إن كان حضرة الباشا واليًا على مصر فليأتِ على الشرط والقانون القديم، ويقيم معنا على الرحب والسعة، وإن كان خلاف ذلك فأخبرونا به إلى أن انتهى الكلام بيننا وبينه على مهلة تلاتة أيام، ورجع وانتظرنا بعد مُضِيِّ الميعاد بساعتين فلم يأتِنا منهم جواب؛ فضربنا عليهم في يوم واحدماية وخمسين قنطارًا من البارود، وأنكم ترسلون لنا أعظم ما يكون عندكم من البنب والمدافع والبارود، فشهلوا المطلوب وأرسلوه في ثاني يوم صحبة حسين الإفرنجي، وتراسل الطلب خلفه ولحقوا به عدة أيام.

وفي عشرينه وصل حسن باشا الذي كان والي جرجا إلى مصر العتيقة، فركب إبراهيم بك للسلام عليه، وحضر الطبجية إلى جبخانته، فأخذوها وطلعوا بها إلى القلعة، وكذلك

الجِمال أخذها الجَمَّالة والعسكر وذهبوا إلى رفقاهم الذين بمصر، وطولب بالمال واستمر بمصر العتيقة مستحفظًا به من كل ناحية.

وفي يوم السبت خامس عشرينه وقعت نادرة، وهي أن محمد باشا طلب من سليم كاشف المحرمجي أن يأذن له في أن يركب إلى خارج الناصرية بقصد التفسح، فأرسل سليم كاشف يستأذن إبراهيم بك في ذلك؛ فأذن له بأن يركب ويعمل رماحة، ثم يأتي إليه بقصر العيني فيتغدى عنده ثم يعود، وأوصى على ذبح أغنام، ويعملون له كبابًا وشوا، فأركبه سليم كاشف بمماليكه وعدة من مماليك المحرمجي وصحبته إبراهيم باشا، فلما ركب وخرج إلى خارج الناصرية أرسل جواده ورمحه، وتبعه مماليكه من خلفه؛ فظن المماليك المصرلية أنهم يعملون رماحة ومسابقة.

فلما غابوا عن أعينهم ساقوا خلفهم ولم يزالوا سايقين إلى الأزبكية وهو شاهر سيفه، وكذلك بقية الطاردين والمطرودين، فدخل إلى أحمد بك الأرنؤدي، وضرب بعض المماليك فرسه ببارودة فسقط، وذلك عند وصوله إلى بيت أحمد بك المذكور، ووصل الخبر إلى سليم كاشف، فركب على مثل ذلك بباقي أتباعه وهم شاهرون السيوف ورامحون الخيول، واتصل الخبر بإبراهيم بك فأمر الكشاف بالركوب، وأرسل إلى البواقي بالطلوع إلى القلعة، وحفظ أطارف البلد؛ فركب الجميع وتفرقوا رامحين وبأيديهم السيوف والبنادق، فانزعجت الناس وترامحوا وأغلقوا الحوانيت، واختلفت رواياتهم، وظنوا وقوع الشقاق بين الأرنؤد والمصرلية، وكذلك المماليك المصرلية أيقنوا ذلك، وطلع الكثير منهم إلى القلعة.

ولما دخل محمد باشا عند أحمد بك ومن معه من أكابر الأرنؤد، قاموا في وجهه ووبخوه بالكلام، وقبضوا عليه وعلى مماليكه، وأخذوا ما وجدوه معهم من الدراهم، وكان في جيب الباشا خاصة ألف وخمسماية دينار، وحضر سليم كاشف المحرمجي عند ذلك فسلموه له، فأركبه الباشا أكديشًا؛ لأن فرسه أصيب ببارودة من بعض المماليك اللاحقين به، وذلك عند وصوله إلى بيت أحمد بك، وركب معه أحمد بك أيضًا، وأخذوه إلى عند إبراهيم بك بقصر العيني، فخلع إبراهيم بك على أحمد بك فروة سمور، وقدم له حصانًا بسرجه، وسكنت الفتنة، ونعوذ بالله من الخذلان ومعاداة الزمان.

وفي يوم الأحد سادس عشرينه وردت الأخبار ومكاتبة من البرديسي بنصرتهم على العثمانية، واستيلاهم على برج رشيد بعد أن حاربوا عليه نيفًا وعشرين يومًا، وأسروا السيد علي القبطان وآخرين معه وعدة كثيرة من العسكر، وأرسلوهم إلى جهة الشرقية

ليذهبوا على ناحية الشام بعد أن قُتل منهم من قُتل، فعند ذلك عملوا شنكًا وضربوا مدافع كثيرة، وكذلك في تاني يوم وتالت يوم.

وفي يوم الأربع تاسع عشرينه كسفت الشمس وقت الضحوة، وكان المنكسف تسعة أصابع وهو نحو التلتين، وأظلم الجو وابتداه الساعة واحدة وتمان دقايق ونصف، وتمام الانجلا في تالت ساعة وست عشرة دقيقة، وكان ذلك في أيام زيادة النيل. نسأل الله العفو والعافية في الدين والدنيا والآخرة.

شهر جمادى الأولى (سنة ١٢١٨)

استهل بيوم الجمعة، في ثانيه الموافق الخامس عشر مسرى القبطي، وفا النيل سبعة عشر ذراعًا وكسر سد الخليج صبحها، بحضرة إبراهيم بك قايمقام والقاضي، وجرى الماء في الخليج على العادة، وفيه وردت الأخبار بأن علي باشا كسر السد الذي ناحية أبي قير الحاجز على البحر المالح.

وهذا السد من قديم الزمان من السدود العظام المتينة السلطانية، وتتفقده الدول على ممر الأيام بالمرمة والعمارة إذا حصل به أدنى خلل، فلما اختلت الأحوال وأُهمل غالب الأمور وأسباب العمارات انشرم منه شرم؛ فسالت المياه المالحة على الأراضي والقرى التي بين رشيد وإسكندرية، وذلك من نحو ستة عشر عامًا، فلم يُتَدارَك أمره واستمر حاله يزيد وخرقه يتسع حتى انقطعت الطرق.

واستمر ذلك إلى واقعة الفرنسيس، فلما حضرت الإنكليز والعثمانية شرموه أيضًا من الناحية البحرية لأجل قطع الطرق على الفرنسيس؛ فسالت المياه المالحة على الأراضي إلى قريب دمنهور، واختلطت بخليج الأشرفية، وشرقت الأراضي وخربت القرى والبلاد، وتلفت المزارع، وانقطعت الطرق حول إسكندرية من البر.

وامتنع وصول ماء النيل إلى أهل إسكندرية، فلم يصل إليهم إلا ما يصلهم من جهة البحر في النقاير، أو ما خزنوه من مياه الأمطار بالصهاريج وبعض العيون المستعذبة، فلما استقر العثمانيون بمصر حضر شخص من طرف الدولة، ويسمى صالح أفندي معين لخصوص السد، وأحضر معه عدة مراكب بها أخشاب وآلات، وبذل الهمة والاجتهاد في سد الجسر.

فأقام العمل في ذلك نحو سنة ونصف حتى قارب الإتمام، وفرح الناس بذلك غاية الفرح، واستبشر أهل القرى والنواحي، فما هو إلا وقد حصلت هذه الحوادث وحضر

علي باشا إلى الثغر، وخرج الأجناد المصرلية وحاربوا السيد علي باشا القبطان على برج رشيد؛ فخاف حضورهم إلى إسكندرية، ففتحه ثانيًا، ورجع التلف كما كان وذهب ما صنعه صالح أفندي المذكور في الفارغ، بعدما صرف عليه أموالًا عظيمة.

وأما أهل إسكندرية فإنهم جلوا عنها ونزل البعض في المراكب وسافر إلى أزمير، وبعضهم إلى قبرص ورودس والأضات وبعضهم اكترى بيوتًا بالأيام، وأقاموا بها على الثغر، ولم يبقَ بالبلدة إلا الفقرا والعواجز، والذين لا يجدون ما ينفقونه على الرحلة، وهم أيضًا مُستوفزون، وعمَّ بها الغلا لعدم الوارد وانقطاع الطرق، وقيل: إن علي باشا المذكور فرد عليهم مالًا وقبض على ستة أنفار من أغنيا المغاربة، واتهمهم أنهم كتبوا كتابًا للبرديسي يعدونه أنه إذا حضر يَدُلُّونه على جهة يملك منها البلد بمعونة عسكر المغاربة، فأخذ منهمماية وخمسين كيسًا بشفاعة القبطان الذي في البيليك بالثغر.

واجتهد في حفر خندق حول البلد واستعملهم في ذلك الحفر، وفي عزمه أن يطلق فيه ماء البحر المالح، فإن فعل ذلك حصل به ضرر عظيم؛ فقد أخبر من له معرفة ودراية بالأمور أنه ربما خرب إقليم البحيرة بسبب ذلك، واجتهدوا أيضًا في تحصين المدينة زيادة عن فعل الفرنسيس والإنكليز.

وفي يوم السبت تاسعه وصل السيد علي القبطان إلى مصر، وطلع إلى قصر العيني، وقابل إبراهيم بك فخلع عليه فروة سمور، وقدم له حصانًا معددًا وأكرمه وعظمه، وأنزلوه عند علي بك أيوب، وأعطوه سرية بيضا وجارية حبشية وجاريتين سوداوين للخدمة، ورتبوا له ما يليق به وهو رجل جليل من عظما الناس وعقلائهم، وأخبر القادمون البرديسي والأجناد المصريين ارتحلوا من رشيد إلى دمنهور قاصدين الذهاب إلى إسكندرية، وأرسلوا بطلب ذخيرة وجبخانة ومماليك وعساكر.

وفيه أرادوا عمل فردة وأشيع بين الناس ذلك؛ فانزعجوا منه، واستمر الرجاء والخوف أيامًا ثم انحط الرأي على قبض مال الجهات ورفع المظالم والتحرير من البلاد والميري عن سنة تاريخه من الملتزمين، ويؤخذ من القبط ألف وأربعماية كيس، هذا مع توالي وتتابع الفرد والكلف على البلاد، حتى خرب الكثير من القرى والبلاد، وجلا أهلها عنها خصوصًا إقليم البحيرة، فإنه خرب عن آخره، ثم إن البرديسي استقر بدمنهور بعدما أبقى برشيد مملوكه يحيى بك ومعه جملة من العساكر، وكذلك بناحية البغاز وهم كانوا من وقت محاصرة البرج، حتى منعوا عنه الإمداد الذي أتاه من البحر، وكان ما كان، وشحن البرديسي برج مغيزل بالذخيرة والجبخانة، وأنزلوا برشيد عدة فرد

ومغارم، وفتحوا بيوت الراحلين عنها، ونهبوها وأخذوا أموالهم من الشوادر والحواصل والأخشاب والأحطاب والبن والأرز.

وقلَّت الأقوات فيهم والعليق؛ فعلفوا الدواب بشعير الأرز، بل والأرز المبيض وغير ذلك مما لا تضبطه الأقلام ولا تحيط به الأوهام.

وفي منتصف هذا الشهر في أيام النسيء نقص النيل نقصًا فاحشًا وانحدر من على الأراضي؛ فانزعج الناس وازدحموا على مشترى الغلال، وزاد سعرها ثم استمر يزيد قيراطًا وينقص قيراطين إلى أيام الصليب، وانْكبت الخلايق على شِرا الغلال، ومُنع الغني من شرا ما زاد على الأردب ونصف أردب، والفقير لا يأخذ إلا ويبة فأقل، ويمنعون الكيل بعد ساعتين، فتذهب الناس إلى ساحل بولاق ومصر القديمة، ويرجعون من غير شي، واستمر سليم أغا مستحفظان ينزل إلى بولاق في كل يوم.

وصار الأُمرا يأخذون الغلال القادمة بمراكبها قهرًا عن أصحابها، ويخزنونها لأنفسهم حتى قلت الغلة وعز وجودها في العرصات والسواحل، وقل الخبز من الأسواق والطوابين، وداخل الناس وَهْمٌ عظيم، وخصوصًا مع خراب البلاد بتوالي الفرد والمغارم، وعز وجود الشعير والتين، وبيعت الدواب والبهايم بالسعر الرخيص؛ بسبب قلة العلف، واجتمع بعض المشايخ وتشاوروا في الخروج إلى الاستسقا فلم يمكنهم ذلك لفقد شروطها، وذهبوا إلى إبراهيم بك وتكلموا معه في ذلك، فقال لهم: وأنا أحب ذلك، فقالوا له: وأين الشروط التي من جملتها رفع المظالم وردُّها والتوبة والإقلاع عن الذنوب وغير ذلك؟ فقال لهم: هذا أمر لا يمكن ولا يُتصوَّر ولا أقدر عليه ولا أحكم إلا على نفسي، فقالوا: إذًا نهاجر من مصر، فقال: وأنا معكم، ثم قاموا وذهبوا.

وفي أواخره وردت الأخبار برجوع البرديسي ومن معه من العساكر، وقد كان أشيع أنهم متوجهون إلى إسكندرية ثم ثنى عزمه عن ذلك لأمور:

الأول: وجود القحط فيهم وعدم الذخيرة والعلف.

والتاني: إلحاح العسكر بطلب جماكيهم المنكسرة، وما يأخذونه من المنهوبات لا يدخل في حساب جماكيهم.

والتالت: العجز عن أخذ إسكندرية لوعر الطريق وانقطاع الطرق بالمياه المالحة؛ فلو وصلوها وطال عليهم الحصار، لا يجدون ما يأكلون ولا ما يشربون.

واستهل شهر جمادى الثانية (سنة ١٢١٨) بيوم الأحد

في أوايله نقص ماء النيل، ووقف ماء الخليج، وازدحم السقايون على نقل الماء إلى الصهاريج والأسبلة ليلًا ونهارًا من الخليج، وقد تغير ماؤه بما يُصب فيه من الخرارات والمراحيض، ولم ينزل بالأراضي التي بين بولاق والقاهرة قطرة ماء، وزاد ضجيج الناس وارتفعت الغلات من السواحل والعرصات بالكلية؛ فكانت الفقرا من الرجال والنساء يذهبون بغلقانهم إلى السواحل، ويرجعون بلا شي وهم يبكون ويولولون.

وفي سادسه وصل البرديسي ومن معه من العساكر إلى بر الجيزة، وخرج الأُمرا وغيرهم وعدوا لملاقاتهم.

فلما أصبح يوم السبت عدى محمد علي والعساكر الأرنؤدية إلى بر مصر، وكذلك البرديسي، فخرجت إليهم الفقرا بمقاطفهم وغلقانهم، وعيَّطوا في وجوههم فوعدهم بخير، وأصبح البرديسي مجتهدًا في ذلك، وأرسل محمد علي وخازنداره ففتحوا الحواصل التي ببولاق ومصر العتيقة، وأخرجوا منها الغلال إلى السواحل، واجتمع العالم الكثير من الرجال والنسا، فأذنوا لكل شخص من الفقرا بوبية غلة لا غير؛ فكان الذي يريد الشرا يذهب إلى خازندار البرديسي، ويأخذ منه ورقة بعد المشقة والمزاحمة، ويذهب بها فيكيلون له، ويدفع ثمنها لصاحب الغلة، وما رتبوه عليها؛ فحصل للناس اطمينان.

واشترى الخبازون أيضًا وفتحوا الطوابين والمخابز، وخبزوا وباعوا فكثر الخبز والكعك بالأسواق، وجعلوا سعر القمح ستة ريال الأردب والفول خمسة ريال، وكذلك الشعير إن وجد.

وكان السعر لا ضابط له، منهم من كان يشتريه بثمانية وتسعة وسبعة خفية ممن توجد عنده الغلة في مصر أو الأرياف؛ فعند ذلك سكن روع الناس، واطمأنت نفوسهم وشبعت عيونهم، ودعوا لعثمان بك البرديسي.

وفي هذا الشهر تحقق الخبر بجلا الوهابي عن جدة ومكة ورجوعه إلى بلاده، وذلك بعد أن حاصر جدة وحاربها تسعة أيام وقطع عنها الماء، ثم رحل عنها وعن مكة ورجع الشريف غالب إلى مكة وصحبته شريف باشا، ورجع كل شي إلى حاله الأول ورد المكوس والمظالم.

وفي يوم الأحد (٨ جماد ثان) وصل البرديسي إلى بيته بالناصرية، وهو بيت حسن كاشف جركس وبيت قاسم بك، وقد فرشا له ونقلوا محمد باشا من بيت جركس إلى دار صغيرة بجواره وعليه الحرس.

وفي يوم الاتنين (٩ جماد ثان) عملوا ديوانًا عند إبراهيم بك، فاجتمع فيه هو والبرديسي والألفي وتشاوروا في أمر جامكية العسكر، فوزعوا على أنفسهم قدرًا وكذلك على باقي الأُمرا، والكشاف والأجناد كل منهم على قدر حاله في الإيراد والمراعاة، فمنهم من وُزِّع عليه عشرون كيسًا، ومنهم عشرة وخمسة واثنان وواحد ونصف واحد، وطلبوا من جمرك البهار قدرًا كبيرًا، فعملوا على كل فرقين ماية ريال، وفتحوا الحواصل وأخرجوا منها متاع الناس وباعوه بالبخس على ذلك الحساب وأصحابه ينظرون، وأخذوا ابن الحضارمة والينبعاوية، بحيث وقف الفرق البن بستة ريال على صاحبه، وأخذوا من ذلك الأصل ألف فرق بن، وأُخرجت من الحواصل وحُملت.

وفي يوم السبت رابع عشره أنزلوا فردة أيضًا على أهل البلد، ووزعوها على التجار وأرباب الحرف كل طايفة قدرًا من الأكياس خمسين فما دونها إلى عشرة وخمسة، وبثت الأعوان للمطالبة، فضج الناس وأغلقوا حوانيتهم، وطلبوا التخفيف بالشفاعات والرشوات للوسايط والنصارى؛ فخفف عن البعض.

وبعد منتصف الشهر انقلب الوضع المشروع في الغلة، وانعكس الحال إلى أمر شنيع، وهو أنهم سعروها كل أردب بستة ريال بظاهر الحال، ولا يبيع صاحب الغلة غلته إلا بإذن من القيِّم بعدما يأخذ منه نصف الغلة أو التلت أو الربع على حسب ضعفه وقوته من غير ثمن، وإذا أراد ذو الجاه الشرا ذهب أولًا سرًّا وقدم المصلحة والهدية إلى بيت القيِّم؛ فعند ذلك يؤذن له في مطلوبه، فيكيلون له الغلة ليلًا.

وصار يتأخر في حضوره إلى الساحل إلى قريب الظهر، فيذهب الناس والفقرا فينتظرونه، وإذا حضر ازدحموا عليه وتقدم أرباب المصانعات والوسايط فيؤذن لهم، ويؤخذ منهم عن كل أردب ريال يأخذها القيِّم لنفسه زيادة عن الثمن وعن الكلفة، وهي نحو الخمسين فضة خلاف الأجرة ويرجع الفقرا من غير شي.

وأطلقوا للمحتسب أن يأخذ كل يوم أربعماية أردب، منها مايتان للخبازين ومايتان توضع بالعرصات داخل البلد، فكان يأخذ ذلك إلى داره، ولا يضعون بالعرصات شيًّا، ويعطي للخبازين من المائتين خمسين أردبًّا أو ستين، ويبيع الباقي بأغراضه بما أحب من الثمن ليلًا، فضج الناس وشح الخبز من الأسواق، وخاطب بعض الناس الأُمرا الكبار في شأن ذلك، واستمر الحال على ذلك إلى آخر الشهر والأمر في شدة، وتسلط العسكر والمماليك على خطف ما يصادفونه من الغلة أو التبن أو السمن، فلا يقدر من يشتري شيًّا من ذلك أن يمر به ولو قَلَّ، حتى يكتري واحدًا عسكريًّا أو مملوكًا يحرسه حتى

يوصله إلى داره، وإن حضرت مركب بها غلال وسمن وغنم من قبلي أو بحري أخذوها ونهبوا ما فيها جملة، فكان ذلك من أعظم أسباب القحط والبلا.

وفي عشرينه مات محمد بك الشرقاوي، وهو الذي كان عوض سيده عثمان بك الشرقاوي.

شهر رجب الفرد (سنة ١٢١٨) استهل بيوم التلات

فيه رفعوا خازندار البرديسي من الساحل، وقلدوا محمد كاشف تابع سليمان بك الأغا أمين البحرين والساحل، ورفق بالأمر واستقر سعر الغلة بألف ومايتي نصف فضة الأردب؛ فتواجدت بالرقع والساحل وقل الخطف، وأما السمن فقلَّ وجوده جدًّا حتى بِيعَ الرطل بستة وتلاتين نصف، فيكون القنطار بأربعين ريالًا، وأما التبن فصار يُباع بالقدح إن وُجد، وسرب الناس بهايمهم من عدم العلف.

وفيه حضر واحد إنكليزي وصحبته مملوك الألفي وبعض من الفرنسيس، فعملوا لهم شنكًا ومدافع، وأشيع حضور الألفي إلى إسكندرية، ثم تبين أن هذا الإنكليزي أتى بمكاتبات، فلما مر على ملطة وجد ذلك المملوك، وكان قد تخلف عن سيده لمرض اعتراه، فحضر صحبته إلى مصر فأشيع في الناس أن الألفي حضر إلى إسكندرية، وأن هذا خازنداره سبقه بالحضور إلى غير ذلك.

وفيه حضر أيضًا بعض الفرنسيس بمكاتبة إلى القنصل بمصر، وفيها الطلب بباقي الفردة التي بذمة الوجاقلية، فخاطب القنصل الأُمرا في ذلك، فعملوا جمعية وحضر المشايخ وتكلموا في شان ذلك، ثم قالوا: إن الوجاقلية الذين كانت طرفهم تلك الفردة مات بعضهم، وهو يوسف باشجاويش ومصطفى كتخدا الرزاز، وهم عظماوهم، ومن بقي منهم لا يملك شيًّا؛ فلم يقبلوا هذا القول، ثم اتفق الأمر على تأخير هذه القضية إلى حضور الباشا ويرى رأيه في ذلك.

وحضر أيضًا صحبة أولئك الفرنسيس الخبر بموت يعقوب القبطي، فطلب أخوه الاستيلاء على مخلفاته فدافعته زوجته، وأرادت أخذ ذلك على مقتضى شريعة الفرنسيس، فقال أخوه: إنها ليست زوجته حقيقة بل هي معشوقته ولم يتزوج بها على ملة القبط، ولم يعمل لها الإكليل الذي هو عبارة عن عقد النكاح؛ فأنكرت ذلك، فأرسل الفرنسيس يستخبرون من قبط مصر عن حقيقة ذلك، فكتبوا لهم جوابًا بأنها لم تكن زوجته

على مقتضى شرعهم وملتهم، ولم يُعمل بينهم الإكليل؛ فيكون الحق في تركته لأخيه لا لها.

وفيه ورد الخبر بوقوع حادثة بإسكندرية بين عساكر العثمانية وأجناس الإفرنج المقيمين بها، واختلفت الرواة في ذلك، وبعد أيام وصل من أخبر بحقيقة الواقعة، وهي أن علي باشا رتب عنده طايفة من عسكره على طريقة الإفرنج، فكان يخرج بهم في كل يوم إلى جهة المنشية، ويصطفون ويعملون مرش واردبوش ثم يعودون، وذلك مع انحراف طبيعتهم عن الوضع في كل شي، فخرجوا في بعض الأيام ثم عادوا فمروا بمساكن الإفرنج ووكالة القنصل، فأخرج الإفرنج روسهم من الطيقان نسا ورجالًا ينظرون ركبهم، ويتفرجون عليهم كما جرت به العادة، فضربوا عليهم من أسفل بالبنادق فضرب الإفرنج عليهم أيضًا، فلم يكن إلا أن هجموا عليهم ودخلوا يحاربونهم في أماكنهم، والإفرنج في قلة، فخرج القناصل الستة ومن تبعهم، ونزلوا إلى البحر وطلعوا غليون الريالة، وكتبوا كتابًا بصورة الواقعة أرسلوه إلى إسلامبول وإلى بلادهم، وأما العسكر أتباع الباشا فإنه لما خرج الإفرنج وتركوا أماكنهم دخلوا إليها ونهبوا متاعهم وما أمكنهم، وأرسل إلى القناصل خورشيد باشا فصالحهم، وأخذ بخواطرهم واعتذر إليهم وضمن لهم ما أخذ منهم، فرجعوا بعد علاج كبير.

وجمع الباشا عُلما البلدة وأعيانها وطلب منهم كتابة عرض محضر على ما يمليه على غير صورة الحال، فامتنعوا من الكتابة إلا بصورة الواقع، وكان المتصدر للرد الشيخ محمد المسيري المالكي، فمقته ووبخه؛ ومن ذلك الوقت صار يتكلم في حقه ويزدريه إذا حضر مجلسه وسكنت على ذلك.

وفي يوم الجمعة رابعه اجتمع المشايخ، وذهبوا إلى إبراهيم بك وكلموه بسبب ما أخذوه من حصة الالتزام بالحلوان أيام العثمانيين، ثم استولى على ذلك جماعتهم وأُمراوهم فطمنهم بالكلام اللين على عادته، وكلموه أيضًا على خبز الجراية المرتبة لفقرا الأزهر، فأطلق لهم دراهم تُعطَى للخباز يعمل بها خبزًا.

وفي ثامنه كتبوا مراسلة على لسان المشايخ، وأرسلوها إلى علي باشا بإسكندرية، مضمونها طلبه لمنصبه والحضور إلى مصر ليحصل الاطمينان والسكون وتأمين الطرقات، ويبطل أمر الاهتمام بالعساكر والتجاريد، ولأجل الأخذ في تشهيل أمور الحج وإن تأخر عن الحضور ربما تعطل الحج في هذه السنة، ويكون هو السبب في ذلك إلى غير ذلك من الكلام.

وفي عاشره سافر جعفر كاشف الإبراهيمي رسولًا إلى أحمد باشا الجزار بعكا لغرض باطني لم يظهر.

وفي هذه الأيام كثرت الغلال بالساحل والعرصات، ووصلت مراكب كثيرة، وكثر الخبز بالأسواق وشبعت عيون الناس، ونزل السعر إلى ثمانية ريال وسبعة وانكفوا عن الخطف إلا في التبن.

وفي منتصفه فتحوا طلب مال الميري ومال الجهات، ورفع المظالم عن سنة تاريخه، وعين لطلبها من البلاد أمراء كبار، ووجهت الغربية والمنوفية لعسكر الأرنؤد؛ فزاد على ذلك حق الطرق للمعينين للطلب والاستعجالات، وتكثير المغارم والمعينين وكلفهم على من يتوانى في الدفع.

هذا وطلب الفردة مستمر حتى على أعيان الملتزمين، ومن تأخر عن الدفع ضبطوا حصته وأخذوها وأعطوها لمن يدفع ما عليها من مياسير المماليك، فربما صالح صاحبها بعد ذلك عليها، واستخلصها من واضع اليد إن أمكنه ذلك.

وفي أواخره نبهوا على تعمير الدور التي أخربها الفرنسيس، فشرع الناس في ذلك وفردوا كلفها على الدور والحوانيت والرباع والوكايل، وأحدثوا على الشوارع السالكة دروبًا كثيرة لم تكن قبل ذلك، وزاد الحال وقلد أهل الأخطاط بعضهم كما هو طبيعة أهل مصر في التقليد في كل شي، حتى عملوا في الخطة الواحدة دربين وثلاثة، واهتموا لذلك اهتمامًا عظيمًا، وظنوا ظنونًا بعيدة، وأَنشَئوا بدنات وأكتافًا من أحجار منحوتة وبوابات عظيمة، ولزم لبعضها هدم حوانيت اشتروها من أصحابها، وفردوا أثمانها على أهل الخطة.

وفي أواخره أيضًا نجزت عمارة عثمان بك البرديسي في الأبراج والبوابات التي أنشاها بالناصرية، فإنه أنشا بوابتين عظيمتين بالرحبة المستطيلة خارج بيته الذي هو بيت حسن كاشف جركس، إحداهما عند قناطر السباع، والأخرى عند المزار المعروف بكعب الأحبار، وبنى حولهما أبراجًا عظيمة، وبها طيقان بداخلها مدافع أفواهها بارزة تضرب إلى خارج، ونقل إليها مدافع الباشا التي كانت بالأزبكية، فسبحان مقلب الأحوال!

وفيه نزل إبراهيم بك والبرديسي وحسين بك اليهودي إلى بولاق، وأخذوا ما وجدوه بساحل الغلة وأرسلوا إلى بحري فارتج الناس من ذلك، وعزت الغلال وزاد سعرها بعد الانحلال.

شهر شعبان (سنة ١٢١٨)

أوله يوم الأربع، وفيه وصل كاتب ديوان علي باشا الذي يقال له ديوان أفندي، وعلى يديه مكاتبة، وهي صورة خط شريف وصل من الدولة، مضمونه: الرضا عن الأُمرا المصرلية بشفاعة صاحب الدولة الصدر الأعظم يوسف باشا، وشفاعة علي باشا والي مصر، وأن يقيموا بأرض مصر، ولكل أمير فايظ خمسة عشر كيسًا لا غير، وحلوان المحلول ثمان سنوات، وأن الأوسية والمضاف والبراني يُضم إلى الميري، وأن الكلام في الميري والأحكام والثغور إلى الباشا والروزنامجي الذي يأتي صحبة الباشا، والجمارك والمقاطعات على النظام الجديد للدفتردار الذي يحضر أيضًا، فلما قُري ذلك بحضرة الجمع من الأُمرا والمشايخ أظهروا البشر وضربوا مدافع.

ثم اتفق الرأي على إرسال جواب ذلك الفرمان، فكتبوا جوابًا مضمونه مختصرًا أنه وصل إلينا صورة الخط الشريف، وحصل لنا بوروده السرور بالعفو والرضا، وتمام السرور حضوركم لتنتظم الأحوال وأعظمها تشهيل الحج الشريف، وأرسلوه ليلة الاتنين ثانيه صحبة رضوان كتخدا إبراهيم بك ومحمود باشجاويش الإنكشارية، وصحبتهما من الفُقها السيد محمد بن الدواخلي من طرف الشيخ الشرقاوي.

وفي هذه الأيام كثر عبث العسكر وعربدتهم في الناس، فخطفوا عمايم وثيابًا وقبضوا على بعض أفراد، وأخذوا ثيابهم وما في جيوبهم من الدراهم.

وفيه وصل قاضي عسكر مصر وكان معوقًا بإسكندرية من جملة المحجوز عليهم.

في يوم الجمعة عاشره وقف جماعة من العسكر في خط الجامع الأزهر في طلوع النهار، وشلحوا عدة أناس وأخذوا ثيابهم وعمايمهم فانزعج الناس، ووقعت فيهم كرشة وصلت إلى بولاق ومصر العتيقة، وأغلقوا الدكاكين، واجتمع الناس وذهبوا إلى الشيخ الشرقاوي والسيد عمر النقيب والشيخ الأمير، فركبوا إلى الأُمرا وعملوا جمعية وأحضروا كبار العساكر وتكلموا معهم، ثم ركب الأغا والوالي وأمامه عدة كبيرة من عسكر الأرنؤد وخلافهم، والمنادي ينادي بالأمن والأمان للرعية، وإن وقع من العسكر أو المماليك خطف شي يضربوه وإن لم يقدروا، عليه فليأخذوه إلى حاكمه، ومثل هذا الكلام الفارغ وبعد مرور الحكام بالمناداة خطفوا عمايم ونسا.

وفي ليلة الأربع تامنه حضر الوالي إلى قصر الشوك، ونزل عند رجل من تجار خان الخليلي يُسمَّى عثمان كجك، فتعشَّى عنده ثم قبض عليه وختم على بيته، وأخذه صحبته وخنقه تلك الليلة، ورماه في بير فاستمر بها أيامًا حتى انتفخ، فأخرجوه وأخذته زوجته

فدفنته، وسببه أنه كان يجتمع بالعثمانيين ويغريهم بنسا الأُمرا، وإن بعضهم اشترى أواني نحاسًا ولم يدفع له الثمن، فطالب حريمه في أيام محمد باشا فلم تدفع له فعين عليها جماعة من عسكر محمد باشا، ودخل بهم إلى دارها وطالبها، فقالت: ليس عندي شي، فطلع إلى داخل الحريم وصحبته العسكر، ودخل إلى المطبخ وأخذ قدور الطعام من فوق الكوانين، وقلب ما فيها من الطعام وأخذها وخرج.

وفي يوم الأحد ثاني عشره نبه القاضي الجديد على أن نصف شعبان ليلة التلات، وأخبر أن أتباعه شاهدوا الهلال ليلة التلات وهم عند البغاز على أن الهلال كان ليلة الأربع عسر الرؤية جدًّا، فكان هذا أول أحكامه الفاسدة.

وفي يوم الأربع أشيع أن الأُمرا قاصدون عمل ديوان ببيت إبراهيم بك، ليلبسوا ستة من الكشاف ويقلدوهم صناجق عوضًا عمن هلك منهم، وهم: سليمان كاشف مملوك إبراهيم بك الوالي، الذي تزوج عديلة بنت إبراهيم بك الكبير عوضًا عن سيده.

وعبد الرحمن كاشف مملوك إبراهيم عثمان بك المرادي، الذي قُتل بأبي قير، الذي تزوج امرأة سيده أيضًا.

وعمر كاشف مملوك عثمان بك الأشقر الذي تزوج امرأة سيده أيضًا.

ومحمد كاشف مملوك المنفوخ ورستم كاشف مملوك عثمان بك الشرقاوي.

ومحمد كاشف مملوك سليمان بك الأغا وتزوج ابنته أيضًا.

فلما وقع الاتفاق على ذلك تجمع الكشاف الكبار ومماليك مراد بك وآخرون من طبقتهم، وخرجوا غضابًا نواحي الآثار.

ثم اصطلحوا على تلبيس خمسة عشر صنجقًا، فلما كان يوم الأحد تاسع عشره عملوا ديوانًا بالقلعة وألبسوا فيه خمسة عشر صنجقًا، وهم خمسة من طرف إبراهيم بك الكبير، وهم: صهراه سليمان زوج عديلة هانم ابنة الأمير إبراهيم بك الكبير عوضًا عن سيده، وإسماعيل كاشف مملوك رشوان بك الذي تزوج بزوجة سيده زينب هانم ابنة الأمير إبراهيم بك أيضًا، ومحمد كاشف الغربية، وعمر تابع عثمان كاشف الأشقر الذي تزوج بامرأته، وخليل أغا كتخدا إبراهيم بك.

ومن طرف البرديسي حسين أغا الوالي، وسليمان خازندار مراد بك، وشاهين كاشف مراد، ومحمد تابع محمد بك المنفوخ المرادي، ورستم تابع عثمان بك الشرقاوي، وعبد الرحمن كاشف تابع عثمان بك الطنبرجي الذي تزوج بامرأته.

ومن طرف الألفي عثمان أغا الخازندار، وحسين كاشف المعروف بالوشاش، وصالح كاشف، وعباس كاشف تابع سليمان بك الأغا، ولبسوا حسن أغا مراد والي عوضًا عن حسين المذكور.

وفيه ورد الخبر بوصول طايفة من الإنكليز إلى القصير وهم يزيدون على الألفين.

وفي عشرينه حضر مكتوب من رضوان كتخدا إبراهيم بك من إسكندرية يخبر فيه أنه وصل إلى إسكندرية، وقابل الباشا (علي) ووعد بالحضور إلى مصر، وأنه يأمر بتشهيل أدوات الحج ولوازمه، وأطلق أربعة وأربعين نقيرة حضرت إلى رشيد ببضايع للتجار.

وفيه حضر جعفر كاشف الإبراهيمي من الديار الشامية، وقد قابل أحمد باشا الجزار وأكرمه ورجع بجواب الرسالة، وسافر ثانيًا بعد أيام.

وفيه قلدوا سليمان بك الخازندار ولاية جرجا، وخرج بعسكره إلى مصر القديمة، وجلس هناك بقصر المحرمجي، فاتفق أن جماعة من عسكره الأتراك الذين انضموا إليهم من العثمانية تشاجروا مع العساكر البحرية جماعة حسين بك اليهودي؛ بسبب امرأة رقاصة في قهوة، فقُتل من الأتراك تلاتة ومن البحرية أربعة، وانجرح منهم كذلك جماعة، فخندق حسين بك وتترس بالمقياس وبالمراكب، ووجَّه المدافع إلى القصر وضرب بها عليه.

وكان سليمان بك غايبًا عن القصر، فدخلت جُلة داخل القصر من الشباك بين جماعة من الأُمرا كانوا جالسين هناك ينتظرون رب المكان، ففزعوا وخرجوا من المجلس.

وبلغ سليمان بك الخبر فذهب إلى البرديسي وأعلمه؛ فأرسل البرديسي يطلب حسين بك، فامتنع من الحضور والتجا إلى الألفي، فأرسل البرديسي خبرًا إلى الألفي بعزل حسين بك عن قبطانية البحر وتولية خلافه، فلم يرضَ الألفي بعزله وقال: لا يذهب ولا يُعزل وترددت بينهم الرسل وكادت تكون فتنة، ثم انحط الأمر على أن حسين بك يطلع إلى القلعة، يقيم بها يومين أو تلاتة تطييبًا لخاطر سليمان بك، وإخمادًا للفتنة؛ فكان كذلك واستمر على ما هو عليه.

وفي يوم الأحد سادس عشرينه ألبس إبراهيم بك عثمان كاشف تابع علي أغا كتخدا جاويشان، واستقروا به كتخدا جاويشان عوضًا عن سيده، وكان شاغرًا من مدة حلول الفرنساوية.

وفي يوم التلات ثامن عشرينه ركب حسن بك أخو طاهر باشا في عدة وافرة، وحضر إلى بيت عثمان بك البرديسي بعد العصر على حين غفلة — وكان عند الحريم — فانزعج من ذلك ولم يكن عنده في تلك الساعة إلا أناس قليلة، فأرسل إلى مماليكه فلبسوا

أسلحتهم، وأرسلوا إلى الأُمرا والكشاف والأجناد بالحضور، وتوانى في النزول حتى اجتمع الكثير منهم، وصعد بعض الأُمرا إلى القلعة وحصل بعض قلقة، ثم نزل إلى التنهة (قاعة الاستقبال) وأذن لأخي طاهر باشا بالدخول إليه في قلة من أتباعه، وسأله عن سبب حضوره على هذه الصورة، فقال: نطلب العلوفة ووقع بينهما بعض كلام، وقام وركب ولم يتمكَّن من غرضه، وأرسل البرديسي إلى محمد علي فحضر إليه وفاوضه في ذلك ثم ركب من عنده بعد المغرب.

وفي تلك الليلة نادوا بعمل الرؤية، فاجتمع المشايخ عند القاضي وكلموه في ذلك؛ فرجع عما كان عزم عليه، ونادوا بها ليلة الخميس فعملت الرؤية تلك الليلة، وركب المحتسب بموكبه على العادة إلى بيت القاضي، فلم يثبت الهلال تلك الليلة ونُودي بأنه من شعبان وأصبح الناس مفطرين.

فلما كان في صبحها حضر بعض المغاربة وشهدوا برؤيته، فنُودي بالإمساك وقت الضحى، وترقَّب الناس الهلال ليلة الجمعة، فلم يرَه إلا القليل من الناس بغاية العسر وهو في غاية الدقة والخفا.

شهر رمضان المعظم (سنة ١٢١٨)

استهل بيوم الجمعة، في تانيه قرروا فردة على البلاد برسم نفقة العسكر أعلى وأوسط وأدنى ستين ألفًا وعشرين ألفًا وعشرة، مع ما الناس فيه من الشراقي والغلا والكلف والتعايين وعبث العسكر، وخصوصًا بالأرياف.

وفيه نزلت الكشاف إلى الأقاليم، وسافر سليمان بك الخازندار إلى جرجا واليًا على الصعيد وصالح بك الألفي إلى الشرقية.

وفي تامنه وصل إلى ساحل بولاق عدة مراكب بها بضايع رومية ويميش، وهي التي كان أطلقها الباشا وفيها حجاج وفرمان.

وفيه حضر ساعٍ من إسكندرية وعلى يده مكتوب من رضوان كتخدا ومن بصحبته يخبرون بأن الباشا كان وعدهم بالسفر يوم الاتنين، وبرز خيامه وخازنداره إلى خارج البلد، فورد عليه مكاتبة من أُمرا مصر يأمرونه بأن يحضر من طريق البر على دمنهور ولا يذهب إلى رشيد، فانحرف مزاجه من ذلك وأحضر الرسل الذين هم رضوان كتخدا ومن معه، وأطلعهم على المكاتبة، وقال لهم: كيف تقولون: إني حاكمكم وواليكم ثم يرسلون يتحكمون عليَّ؟ إني لا أذهب إلى مصر على هذا الوجه؛ فأرسلوا بخبر ذلك.

وفي يوم الأربع تالت عشره غيمت السماء غيمًا مطبقًا، وأمطرت مطرًا عظيمًا متتابعًا من آخر ليلة الأربع إلى سادس ساعة من ليلة الخميس، وسقط بسببها عدة أماكن قديمة في عدة جهات، وبعضها على سكانها، وماتوا تحت الردم، وزاد منها بحر النيل، وتغير لونه حتى صار لونه أصفر مما سال فيه من جبل الطَّفل، وبقي على ذلك التغير أيامًا إلا أنه حصل بها النفع في الأراضي والمزارع.

وفي منتصفه ورد الخبر بخروج الباشا من إسكندرية وتوجهه إلى الحضور إلى مصر على طريق البر، وشرعوا في عمل المراكب التي تُسمَّى بالعقبة لخصوص ركوب الباشا، وهي عبارة عن مركب كبيرة قشاشي، يأخذونها من أربابها قهرًا وينقشونها بأنواع الأصباغ والزينة والألوان، ويركبون عليها مقعدًا مصنوعًا من الخشب المصنع، وله شبابيك وطيقان من الخرط، وعليه بيارق ملونة وشراريب مزينة، وهو مصفح بالنحاس الأصفر ومزين بأنواع الزينة والستاير، والمتكفل بذلك أغات الرسالة، فلما خرج الباشا من إسكندرية أرسل محمود جاويش والسيد محمد الدواخلي إلى يحيى بك يقولان له: إن حضرة الباشا يريد الحضور إلى رشيد في قلة.

وأما العساكر فلا يدخل أحد منهم إلى البلد، بل يتركهم خارجها، فلما وصلوا إلى يحيى بك وأرادوا يقولون له ذلك، وجدوه جالسًا مع عمر بك كبير الأرنؤد الذي عنده، وهم يقرون جوابًا أرسله الباشا إلى عمر بك المذكور يطلبه لمساعدته والخروج معه، مسكه بعض أتباع يحيى بك مع الساعي، فلما سمعوا ذلك قالوا لبعضهم: أي شي هذا؟ وتركوا ما معهم من الكلام وحضروا إلى مصر صحبة رضوان كتخدا.

وفي يوم الجمعة سادس عشره ضربوا مدافع كثيرة من القلعة وغيرها، لورود الخبر بموت حسين قبطان باشا وتولية خلافه.

وفي عشرينه أشيع سفر الألفي لملاقاة الباشا وصحبته أربعة من الصناجق، وأبرز الخيام من الجيزة إلى جهة إنبابة، وأخذوا في تشهيل ذخيرة وبقسماط وجبخانة وغير ذلك.

وفي رابع عشرينه عدى الألفي ومن معه إلى البر الشرقي، وأشيع تعدية الباشا إلى بر المنوفية، فلما عدوا إلى البر الشرقي انتقلوا بعرضيهم وخيامهم إلى جهة شبرا، وشرعوا في عمل مخابز العيش في شلقان.

وفيه حضر واحد بيان أغا يُسمَّى صالح أفندي وعلى يده فرمان، فأنزلوه ببيت رضوان كتخدا إبراهيم بك ولا يجتمع به أحد.

وفي غايته وصل الباشا إلى ناحية منوف، وفردوا له فردًا على البلاد، وأكلوا الزروعات وما أنبتته الأرض.

وانقضى هذا الشهر وما حصل به من عربدة الأرنؤد وخطفهم عمايم الناس وخصوصًا بالليل، حتى كان الإنسان إذا مشى يربط عمامته خوفًا عليها، وإذا تمكنوا من أحد شلحوا ثيابه وأخذوا ما معه من الدراهم، ويترصدون لمن يذهب إلى الأسواق مثل سوق إنبابة في يوم السبت لشرا الجبن والزبدة والأغنام والأبقار، فيأخذون ما معهم من الدراهم ثم يذهبون إلى السوق، وينهبون ما يجلبه الفلاحون من ذلك للبيع؛ فامتنع الفلاحون عن ذلك إلا في النادر خفية وقل وجوده، وغلا السمن حتى وصل إلى تلتماية وخمسين نصف فضة العشرة أرطال قباني، وأما التبن فصار أعز من التبر، وبِيع قنطاره بألف نصف فضة إن وُجد، وعز وجود الحطب الرومي حتى بلغ سعر الحملة تلتماية فضة، وكذا غلا سعر باقي الأحطاب وباقي الأمور المعدة للوقود، مثل: البقمة وجلة البهايم وحطب الذرة، ووقفت الأرنؤد لخطف ذلك من الفلاحين؛ فكانوا يأتون بذلك في آخر الليل وقت الغفلة ويبيعونه بأغلى الأثمان، وعلم الأرنؤد ذلك فرصدوهم وخطفوهم، ووقع منهم القتل في كثير من الناس حتى في بعضهم البعض، وغالبهم لم يَصُم رمضان، ولم يُعرَف لهم دين يتدينون به، ولا مذهب ولا طريقة يمشون عليها إباحية، أسهل ما عليهم قتل النفس وأخذ مال الغير وعدم الطاعة لكبيرهم وأميرهم، وهم أخبث منهم فقطع الله دابر الجميع.

وأما ما فعله كشاف الأقاليم في القرى القبلية والبحرية من المظالم والمغارم وأنواع الفرد والتساويف، فشي لا تدركه الأفهام ولا تحيط به الأقلام، وخصوصًا سليمان كاشف البواب بالمنوفية، فنسأل الله العفو والعافية وحسن العاقبة في الدين والدنيا والآخرة.

استهل شهر شوال بيوم السبت (سنة ١٢١٨)

في تانيه تبع رجلًا تاجرًا من وكالة التفاح تلاتة من العسكر، فهرب منهم إلى حمام الطنبدي، فدخلوا خلفه وقتلوه داخل الحمام وأخذوا ما في جيبه من الدراهم وغيرها، وذهبوا وحضر أهله وأخذوه في تابوت ودفنوه ولم ينتطح فيه شاتان.

وقتل في ذلك اليوم أيضًا رجل عند حمام القيسرلي وغير ذلك.

وفيه وصل الباشا إلى ناحية شلقان، وصحبته عساكر كثيرة إنكشارية وغيرهم، وأكثرهم من الذين خرجوا مطرودين من مصر، وصحبته نحو ستين مركبًا في البحر بها أثقاله ومتاعه وعساكر أيضًا.

وفيه ركب الألفي والأُمرا ما عدا إبراهيم بك والبرديسي، فإنهما لم يخرجا من بيوتهما وذهبوا إلى مخيمهم بشبرا، وخرج أيضًا محمد علي وأحمد بك وأتباعهم، وأبقوا عند بيوتهم طوايف منهم.

وفيه وقعت مشاجرة بين الأرنؤدية جهة بيوت سواري العسكر بسبب امرأة، قُتل فيها نحو خمسة أنفار بالأزبكية.

وفي تالته أوقفوا على أبواب المدينة جماعة من العسكر بأسلحتهم، فانزعج الناس وارتاعوا من ذلك وأغلقوا الدروب والبوابات، ونقلوا أمتعتهم وبضايعهم من الدكاكين وأكثروا من اللغط، وصار العسكر الواقفون بالأبواب يأخذون من الداخل والخارج دراهم، ويفتشون جيوبهم ويقولون لهم معكم أوراق؛ فيأخذون بحجة ذلك ما في جيوبهم.

وفي رابعه غيروا العسكر بأجناد من الغز المصرلية، فجلس على كل باب كاشف ومعه جماعة من العسكر، فكان الكاشف الذي على باب الفتوح يأخذ ممن يمر به دراهم، فإن كان بزي الفلاحين بأن كان لابس جبة صوف أو زعبوط أخذ منه ما في جيبه أو عشرة أنصاف إن كان فقيرًا، وإن كان من أولاد البلد ومجمل الصورة أو لابس جوخة ولو قديمة طالبه بألف نصف فضة أو حبسه حتى يسعى عليه أهله، ويدفعوها عنه ويطلقه، وسدوا باب الوزير وباب المحروقي، وقفلوا باب البرقية المعروف بالغريب بعد أن كانوا عزموا على سده بالبنا، ثم تركوه بسبب خروج الأموات.

وفيه نُودي بوقود القناديل ليلًا على البيوت والوكايل وكل تلاتة دكاكين قنديل، وفي صبحها خامسه شق الوالي وسمر عدة حوانيت بسبب القناديل وشدد في ذلك.

وفيه انتقل الألفي ومن معه من الأُمرا إلى ناحية شلقان، ونصبوا خيامهم قبال عرضي الباشا، فحضر إليه بعض أتباع الباشا، وكلموه عن نزوله في ذلك المكان ونصب الخيام في داخل الخيام ودوسهم لهم، فقال لهم: هذه منزلتنا ومحطتنا فلم يسَعِ الباشا وأتباعه إلا قلعهم الخيام والتأخر، فهذه كانت أول حقارة فعلها المصرلية في العثمانية.

ونصب محمد علي وأحمد بك وعساكرهم جهة البحر، ثم إن خدم الألفي أخذوا جِمالًا ليحملوا عليها البرسيم، فنزلوا بها إلى بعض الغيطان، فحضر أميراخور الباشا بالجِمال لأخذ البرسيم أيضًا، فوجدوا جِمال الألفي وأتباعه فنهروهم وطردوهم، فرجعوا إلى سيدهم وأخبروه، فأمر بعض كشافه بالركوب إليهم، فركب رامحًا إلى الغيط، وأحضر أميراخور الباشا وقطع رأسه قبالة صيوان الباشا، ورجع إلى سيده بالجِمال ورأس أميراخور، فذهب أتباع الباشا وأخبروه بقتل أميراخور وأَخْذ الجِمال فحنق وأحضر رضوان كتخدا إبراهيم بك وتكلم معه.

ومن جملة كلامه: أنا فعلت معكم ما فعلت، وصالحت عليكم الدولة ولم تزل تضحك على ذقني، وأنا أطاوعك وأصدق تمويهاتك إلى أن سرت إلى ههنا، فأخذتم تفعلون معي هذه الفعال وتقتلون أتباعي وترذلوني وتأخذون حملتي وجِمالي، فلاطفه رضوان كتخدا في الجواب واعتذر إليه، وقال له: هولا صغار العقول ولا يتدبرون في الأمور، وحضرة أفندي شأنه العفو والمسامحة، ثم خرج من بين يديه وأرسل إلى أتباع الألفي، فأحضر منهم الجِمال وردَّها إلى وطاق الباشا، وحضر إليه عثمان بك يوسف المعروف بالخازندار، وأحمد أغا شويكار، فقابلاه وأخذا بخاطره ولم يخرج إليه أحد من الأُمرا سواهما.

وفي خامسه نادوا بخروج العساكر الأرنؤدية إلى العرضي، وكل من بقي منهم ولم يكن معه ورقة من كبيره فدمه هدر، وصار الوالي بعد ذلك كلما صادف شخصًا عسكريًّا من غير ورقة قبض عليه وغيَّبه، واستمر يفتش عليهم ويتجسس على أماكنهم ليلًا ونهارًا ويقبض على من يجده متخلفًا.

والقصد من ذلك تمييز الأرنؤدية من غيرهم المتداخلين فيهم، وكذلك كل من مر على المتقيدين بأبواب المدينة، وذلك باتفاق بين المصرلية والأرنؤدية لأجل تميزهم من بعضهم وخروج غيرهم.

وفيه أطلعوا السيد علي القبطان أخا علي باشا إلى القلعة.

وفي سادسه خرج البرديسي إلى جهة شلقان، ولم يخرج إبراهيم بك ولم ينتقل من بيته فنصب خيامه على موازاة خيام الألفي، وباقي الأُمرا كذلك إلى الجبل، والأرنؤدية جهة البحر، وقد كان الباشا أرسل إلى محمد علي وكبار الأرنؤدية وغيرهم من قبايل العربان ومشايخ البلاد المشهورين مكاتبات قبل خروجه من الإسكندرية، يستميلهم إليه ويعدهم ويمنيهم إن قاموا بنصرته، ويحذرهم ويخوفهم إن استمروا على الخلاف وموافقة العصاة المتغلبين.

فنقل الأرنؤدية ذلك إلى المصرلية وأطلعوهم على المكاتبات سرًّا فيما بينهم، واتفقوا على رد جواب المراسلة من الأرنؤدية بالموافقة على القيام معه إذا حضر إلى مصر، وخرج الأُمرا لملاقاته والسلام عليه، فيكون هو وعساكره من أمامهم والأرنؤدية المصرية من خلفهم؛ فيأخذونهم مواسطة فيستأصلونهم، والموعد بشلقان، وسهلوا له أمر الأُمرا المصرلية، وأنهم في قلة لا يبلغون ألفًا، ولو بلغوا ذلك فمن المنضمين إليهم من خلاف قبيلتهم، وهم أيضًا معنا في الباطن، ودبروا له تدبيرًا ومناسجات تروج على الأباليس،

منها أن يختار من عسكره قدر كذا من الموصوفين بالشجاعة والمعرفة بالسباحة والقتال في البحر، ويجعلهم في السفن قبالته في البحر، وأن يعدوا بالعساكر البرية إلى البر الشرقي من مكان كذا، ويجعل الخيَّالة والرَّجَّالة معه على صفة ذكروها لهم.

ولما وصل إلى الرحمانية أرسل له الأرنؤد مكاتبة سرًّا بأن يعدي إلى البر الشرقي، وبينوا له صواب ذلك، وهو يعتقد نصحهم فعدى إلى البر الشرقي.

فلما حضر إلى شلقان رتب عساكره وجعلهم طوابير، وجعل كل بينباشا في طابور، وعملوا متاريس ونصبوا المدافع، وأوقفوا المراكب بما فيها من العساكر والمدافع بالبحر على موازاة العرضي، فخرج الألفي كما ذكر بمن معه من الأُمرا المصرلية والعساكر الأرنؤدية، وأرسل إلى الباشا بالانتقال والتأخر فلم يجد بدًّا من ذلك فتأخر إلى زفيتة ونزل ونصب هناك وطاقه ومتاريسه، وفي وقت تلك الحركة تسلل حسين بك الإفرنجي ومن معه من العساكر بالغلايين والمراكب، واستعلوا على مراكب الباشا واحتاطوا بها، وضربوا عليهم بالبنادق والمدافع وساقوهم إلى جهة مصر، وأخذوهم أسرى وذهبوا بهم إلى الجيزة بعدما قتلوا من كان فيهم من العساكر المحاربين، وكبيرهم يُسمَّى مصطفى باشا أخذوه أسيرًا أيضًا.

وكان بالمراكب أناس كثيرة من التجار وصحبتهم بضايع وأسباب رومية، كان الباشا عوقهم بإسكندرية؛ فنزلوا في المراكب ليصلوا ببضايعهم، وطمعًا في عدم دفعهم الجمرك، فوقعوا أيضًا في الشَّرَك وارتبكوا فيمن ارتبك.

ولما تأخر الباشا عن منزلته واستقر بأراضي زفيتة، أحاطت به المصريون والعربان وتحلَّقوا حوله ووقفوا العرضية بالرصد؛ فكل من خرج من الدايرة خطفوه ومن الحياة أعدموه، وأرسل إليه الألفي علي كاشف الكبير، فقال له: حضرة ولدكم الألفي يسلم عليكم ويسأل عن هذه العساكر المصحوبين بركابكم، وما الموجب لكثرتها وهذه هيئة المنابذين لا المسالمين، والعادة القديمة أن الولاة لا يأتون إلا بأتباعهم وخدمهم المختصين بخدمتهم، وقد ذكروا لكم ذلك وأنتم بإسكندرية؟ فقال: نعم وإنما هذه العساكر متوجهة إلى الحجاز تقوية لشريف باشا علي الخارجي، وعندما نستقر بالقلعة نعطيهم جماكيهم ونشهلهم ونرسلهم، فقال: إنهم أعدوا لكم قصر العيني تقيمون به، فإن القلعة خربها الفرنسيس وغيَّروا أوضاعها؛ فلا تصلح لسكناكم كما لا يخفاكم ذلك، وأما العسكر فلا يدخلون معكم بل ينفصلون عنكم ويذهبون إلى بركة الحاج، فيمكثون هناك حتى نشهل لهم احتياجاتهم ونرسلهم، ولسنا نقول ذلك خوفًا منهم، وإنما البلدة في قحط

وغلا والعساكر العثمانية منحرفو الطباع ولا يستقيم حالهم مع الأرنؤدية، ويقع بينهم ما يوجب الفشل والتعب لنا ولكم، فقال: إذًا أرحل وأرجع إلى إسكندرية حيثما كنت، فقال له: هذا لا يكون، وإن فعلتم ذلك حصل لكم الضرر، فقال: إن العساكر لهم عندي أربعماية وثمانون كيسًا أحضروها من حسابي معكم ندفعها لهم وينتقلون إلى البركة كما قلتم.

ورجع علي كاشف إلى الأُمرا بذلك الجواب، وحضر عابدي بك من طرف الباشا إلى الأُمرا وهو كبير العساكر الإنكشارية، فكلموه وكلمهم وميلوه وخدعوه، وذهب إلى الباشا وعاد إليهم فكان آخر كلامهم له: إن بيننا وبينه في غد، إما أن الباشا يحضر عندنا في جماعته المختصين به وينزل بمخيمنا، وإما الحرب بيننا وبينه، وانتظروا عابدي بك فلم يرجع لهم بجواب؛ وهي العلامة بينهم وبينه واشتغل هو تلك الليلة مع أصحابه وثبطهم وحل عزايمهم.

فلما أصبح الصباح ركب الأُمرا المصرلية بعساكرهم وجعلوها طوابير، وزحفوا إلى عرضي الباشا من كل جهة، فأمر عساكره بالركوب والمحاربة فلم يتحركوا، وقالوا: لِمَ تأمر بالمحاربة وليس معك فرمان بذلك، وإخواننا البحريون أخذوا عن آخرهم، ولم تعطِنا جامكية ولا نفقة، ولا طاقة لنا بحرب المصريين على هذا الوجه.

فلما تحقق خذلانهم له في ذلك الوقت الضيق، ركب في خاصته، وذهب إلى الأُمرا، وترك خيامه وأثقاله، فاستقبلوه وأرسلوه صحبة عثمان بك الخازندار، ورضوان كتخدا البرديسى، وأحمد أغا شويكار، إلى خيام أعدوها له عند خيام البرديسي، وحضر إليه كتخدا الجاويشية وكاتب حوالة والوالي وباقي أرباب خدم الديوان.

وذهب بعض خدمه وفراشينه إلى قصر العيني ليفرشوه ويرتبوه وينظموه، وأحضروا مصطفى باشا الذي كان في المراكب، وما كان بصحبته من لوازم الباشا إلى القصر المذكور، وأُشيع صلح الأُمرا مع الباشا.

ثم إن الألفي أرسل إلى كبار عسكر الباشا، فطلبهم ليعطيهم جماكيهم، فلما حضروا عنده — وعدتهم سبعة — عرف منهم ستة من المطرودين في الفتن السابقة، داروا ورجعوا إلى إسكندرية لما سمعوا بعلي باشا؛ فوبخهم ولعنهم وقال لهم: أطلقناكم وعتقناكم وعفونا عنكم وسفرناكم، وكأنكم عدتم لتأخذوا بثأركم، ثم أمر بضرب أعناقهم ففعل بهم ذلك، ورُموا في البحر ما عدا سابعهم، فإنه لم يكن من الذين حضروا إلى مصر.

وتعارف محمد علي معه فشفع فيه وتركوه مع الأرنؤد، وأحضروا متاع الباشا وحملته وطبلخانته من عرضيه إلى عرضي الأُمرا، وأمروا أوليك العساكر بالرحيل، فرحلوا مع حسين بك الوشاش الألفي، وصالح بك الألفي، وقد كان نزل إلى الشرقية، وحضر عند وصول الباشا وصحبته جملة من العربان، ثم رجع مع خشداشينه مع العسكر إلى شرقية بلبيس ليوصلوهم إلى الصالحية؛ والله أعلم ماذا فعل بهم، وعدتهم ألفان وخمسماية.

وانتقل الأمرا والباشا إلى منية السيرج في ثامنه، وأُشيع ركوب الباشا بالموكب إلى قصر العيني على طريق بولاق يوم الاتنين عاشره، وجمع المحتسب خيول الطواحين وخرج كثير من الناس في ذلك اليوم إلى جهة بولاق لأجل الفرجة، وانتظروا ذلك فلم يحصل، وقيل: إنهم أخروه إلى يوم الأربع ثاني عشره، فلما كان يوم الأربع المذكور وصل في صبحها التنابيه لاختيارية الوجاقات بالحضور والركوب مع الباشا.

فلما كان وقت الضحوة الكبرى، تواترت الأخبار أنهم أركبوا الباشا وسفروه إلى جهة بلبيس والصالحية، وكان من خبره أنه لما حضر إلى مخيم الأُمرا، أرسل إليه عثمان بك البرديسي كتخداه رضوان كاشف — المعروف بالغرباوي — بهدية وألف نصفية ذهب، وبلغه السلام ولاطفه.

وقال الباشا له ولمن حضر من الأُمرا: أنا عندما قلدوني ولاية مصر قلت للدولة: إن أول حوايجي العفو والرضا عن الأُمرا المصرلية؛ لأن لهم في عنقي جميلًا عندما حضرت إليهم هاربًا من طرابلس، فآووني وأكرموني، وأقمت معهم مدة طويلة في غاية الحظ والإكرام ولا أنسى معروفهم؛ فأجابوه بأنهم أيضًا يراعون له ذلك، ولا ينسون عشرتهم معه وخصوصًا صداقته لسيدهم مراد بك؛ فإنه كان معه كالأخوين، ولا يأتنس إلا بمجالسته وركوبه معه إلى الصيد وغيره، ولو وقع منه ما وقع بمكاتبة الأرنؤد والعربان وغيرهم؛ فقال: هذا شي قد كان، ونحن أولاد اليوم. وأقام تلاتة أيام بالخيام التي أجلسوه بها في عرضي البرديسي، ورتب له طعامًا في الغدا والعشا من طعامه، ولم يجتمع به أحد من الأمرا الكبار سوى عثمان بك يوسف المعروف بالخازندار، وأحمد أغا شويكار، وأرباب الخدم.

وأما الذنب الذي نقموه عليه، فهو أنهم ذكروا أن في الليلة التي بات بها في عرضي البرديسي كان خرج من خيامه فارس على فرس يعدو بسرعة فصهلت الخيول وانزعج العرضي، وجروا خلفه فلم يلحقوه، فسألوا الباشا عن ذلك، فقال: لعله حرامي أراد أن يسرق شيًّا وخرج هاربًا.

فلما حصل ذلك، أجلسوا حوله عدة من المماليك المسلحين، فسأل عنهم، فقيل له: إنهم جلوس بقصد المحافظة من السراق، ثم إنهم قبضوا على هجَّان بناحية البساتين مسافر إلى قبلي، زعموا أنهم وجدوا معه مكاتبات من الباشا خطابًا إلى عثمان بك حسن بقنا يطلبه الحضور إلى مصر ليكون معينًا له، ويعده بإمارة مصر ونحو ذلك.

فلما كان يوم الأربع المذكور، حضر إليه الجماعة فسلموا عليه، وأذن لهم بالجلوس فجلسوا وهم سكوت ينظرون إلى بعضهم، فنظر لهم الباشا وقال: خيرًا؛ فتكلم رضوان كتخدا البرديسي وقال: ألسنا اصطلحنا مع حضرة أفندينا وصَفَا خاطره معنا؟ قال: نعم، قال له: هل وقع من حضرتكم لأحد مكاتبة قبل ذلك؟ قال: لا، قال: لعلكم أرسلتم مكاتبة إلى قبلي، قال: لم يكن ذلك أبدًا؛ فأخرج له مكتوبًا وناوله إياه، فلما رآه قال: نعم، هذا مما كنا كتبناه بإسكندرية؛ فقالوا له: إنا وجدناه أمسِ مع الهجان المسافر به جهة البساتين، قبض عليه المحافظون بتلك الجهة في ساعته وتاريخه قريب (البساتين)؛ فسكت متفكرًا فقاموا على أقدامهم وقالوا: «بيرون» يعني «تفضلوا»، فقال: إلى أين؟ فقالوا: إلى غزة فإنه لا أمان لنا معك بعد ذلك، ولم يمهلوه لكلام يقوله ولا عذر يبديه، حتى أنهم لم يمهلوه لمجي مركوبه المختص، به بل قدَّموا له فرسًا لبعض المماليك وأركبوه له، وفي حال ركوبه رأى الأُمرا المستعدِّين للذهاب معه وقوفًا في انتظاره، فقال لهم: إن صحبني أحد منكم فقولوا لهم يكونون متباعدين عني في الحط والترحال، فأجابوه إلى ذلك وسار معه محمد بك المنفوخ، وسليمان بك صهر إبراهيم بك على الشرط.

وركب أتباعه خيول الطواحين التي كانوا أعدُّوها للركوب، وكان الطحانون ينتظرون متى ينقضي الركوب ويأخذون خيولهم، فلما تحقق سفرهم طارت عقول الطحانين، وذهبوا إلى صيوان البرديسي يشكون إليه عطل مطاحن البلد، فقال لهم: دونكم، هاهي أمامكم، اذهبوا فخذوها؛ فجَرَوا خلفهم ومسك كل طحان في فرسه أو أفراسه، وأنزل عنها راكبها وأخذوها ورجعوا مسرورين بخيولهم، ولم يقدروا على منعهم؛ لأنهم صاروا أذلًّا مقهورين وركبوا بدلها جِمالًا.

وحجز البرديسي طبلخانة الباشا ومهاترته وطقمه وغالب متاعه، وأُشيع ركوبه وذهابه، وأصبح يوم الخميس ثالث عشره، فدخل الأُمرا والعساكر الأرنؤدية وأكابرهم وهم فرحون مسرورون وخلفهم الطبول والزمور، وركب حسين بك الإفرنجي (شفت) المعروف باليهودي، وأمامه العسكر المختصون به بطبلهم مثل طبل الفرنسيس، وعلى روسهم (برانيط) من نحاس أصفر، وهم نصارى وأروام وتكرور، وخلف البرديسي نوبة

الباشا ومهاترته معهم يطبلون ويزمرون، ولم يدخل الألفي معهم بل ركب من عرضيه بأُمرايه وكشافه، فذهب إلى عرب بلي بالجزيرة، فطرقهم على حين غفلة وقتل منهم أناسًا ونهب مواشيهم ونجعهم وضرب أيضًا زفيتة وأجهور ونحو عشرين بلدًا، وحرقوا أكثرهم وأخذوا زرعهم ومتاعهم؛ بسبب أنه لما كان الباشا كاتب مشايخ البلاد والعربان اغتروا به، وعندما حلَّ بالقرب منهم قبحوا في حق المصرلية وأتباعهم وطردوهم وأسمعوهم أفحش الكلام، وقامت عربان الشرقية وتعصبوا على صالح بك الألفي، فأوجب تحامل المصرلية عليهم حتى جازوهم به عندما فرغوا من أمر الباشا.

وفي تلك ليلة — أعني ليلة الجمعة رابع عشره — حصل خسوف للقمر جزئي بعد رابع ساعة من الليل، ومقدار المنخسف أربع أصابع وثلث، وانجلى في سابع ساعة إلا شيًّا يسيرًا.

وفي ذلك اليوم أرسل البرديسي إلى شيخ السادات تذكرة صحبة واحد كاشف من أتباعه يطلب عشرين ألف ريال سلفة، فلاطفه وردَّه بلطف فرجع إلى مخدومه وأبقى ببيت الشيخ جماعة من العسكر، فوبخه على الرجوع من غير قضا حاجتة وأمره بالعود ثانية، فعاد إليه في خامس ساعة من الليل وصحبته جماعة أخرى من العسكر، فأزعجوا أهل البيت وأرسلت عديلة هانم ابنة إبراهيم بك إلى المعينين تأمرهم أن لا يعملوا قلة أدب، وأرسلت إلى أبيها؛ لأن منزله بجواره، فاهتم لذلك وأرسل خليل بك إلى البرديسي، فكفه عن ذلك بعد علاج وسعي ورفع المعينين.

وفي ليلة الخميس عشرينه، وصلت أخبار ومكاتبات من الأُمرا الذين ذهبوا بصحبة الباشا يخبرون فيها بموت الباشا بالقرين، فضربوا مدافع كثيرة بعد العشا ونصف الليل، ومضمون ما ذكروه في المراسلة أن الباشا أراد أن يكبسهم بمن معه ليلًا، وكان معهم سايس يُعرف بالتركي، فحضر إليهم وأخبرهم فتحذروا منهم، فلما كبسوهم وقعت بينهم محاربة وقتل منهم عدة من المماليك وخازندار محمد بك المنفوخ، وانجرح المنفوخ أيضًا جرحًا بليغًا، وأصيب الباشا وصاحبه من غير قصد، والليل ليس له صاحب فقُضي عليه.

وكان ذلك مقدورًا، وفي الكتاب مسطورًا، وإنكم ترسلون لنا أمانًا بالحضور إلى مصر، وإلا ذهبنا إلى الصعيد؛ هذا ما قالوه، والواقع أنهم لما سافروا معه كان بصحبته خمسة وأربعون نفسًا لا غير، والعساكر التي كانت سافرت قبله نجعت إلى الصالحية وذهبت حيث شاء الله، وكان أمامه عسكر المغاربة وخلفه الأُمرا المصرلية.

فلما وصلوا إلى أراضي القرين ونزلوا هناك عمل المغاربة مع الخدم مشاجرة، وجسموها إلى أن تضاربوا بالسلاح، فقامت الأجناد المصرلية من خلفهم، فصار الباشا ومن معه في الوسط والتحموا عليهم بالقتال، ففر من أتباعه أربعة عشر نفسًا إلى الوادي وتلاتة عشر رَمَوْا بأنفسهم في ساقية قريبة منهم من حلاوة الروح، وضرب الباشا بعضُ المماليك منهم بقرابينة فأصابته، وقُتل معه ابن أخته حسن بك وكتخداه وباقي الثمانية عشر، فلما سقط الباشا وبه رمق رأى أحد الأميرين فقال له: في عرضك يا فلان، إن معي كفنًا بداخل الخرج فكفِّنِّي فيه وادفِنِّي ولا تتركني مرميًّا، فلما انقضى ذلك أعطى ذلك الأمير لبعض العرب دنانير وأعطاه الكفن الذي أوصاه عليه وقال له: اذهب إلى قتلاهم وخذ الباشا فكفنه وادفنه في تربة، فقال: أنا لا أعرفه، فقال: هو الذي لحيته عظيمة من دونهم، ففعل كما أمره وحفروا لباقيهم حفرًا وارَوْهم فيها وانقضى أمرهم.

هذه أخبار بعض أهل تلك البلاد المشاهدين للواقعة، وكل ذلك وبال فعله وسو سريرته وخبث ضميره، فلقد بلغنا أنه قال لعسكره: إن بلغت مرادي من الأُمرا المصريين وظفرت بهم وبالأرنؤد، أبحت لكم المدينة والرعية تلاتة أيام تفعلون بها ما شيتم، والدليل على ذلك ما فعله بالإسكندرية مدة إقامته بها من الجور والظلم ومصادرات الناس في أموالهم وبضايعهم، وتسلط عساكره عليهم بالجور والخطف والفسق، وترذيله لأهل العلم وإهانته لهم، حتى أنه كان يُسمِّي الشيخ محمد المسيري الذي هو أَجَلُّ مذكور في الثغر بالمزوِّر، وإذا دخل عليه مع أمثاله وكان جالسًا اتَّكا ومد رجليه قصدًا لإهانتهم.

وخبر علي باشا المترجم المذكور ومختصر أنه كان أصله من الجزاير مملوك محمد باشا حاكم الجزاير، فلما مات محمد باشا وتولى مكانه صهره أرسله بمراسلة إلى حسين قبطان باشا، وكان أخوه المعروف بالسيد علي مملوكًا للدولة ومذكورًا عند قبطان باشا، ومتولي الريالة، فنَوَّه بذكره فقلده قبطان باشا ولاية طرابلس وأعطاه فرمانات ويرقا، فذهب إليها وجيَّش له جيوشًا ومراكب وأغار على متوليها وهو أخو حمودة باشا صاحب تونس، وحاربه عدة شهور حتى ملكها بمخامرة أهلها لعلمهم أنه متوليها من طرف الدولة، وهرب أخو حمودة باشا عند أخيه بتونس، فلما استولى علي باشا المذكور على طرابلس أباحها لعسكره؛ ففعلوا بها أشنع وأقبح من التمرلنكية من النهب وهتك النسا والفسق والفجور، وسبي حريم متوليها وأخذهن أسرى وفضحهن بين عسكره، ثم طالبهم بالأموال، وأخذ أموال التجار وفرد على أهل البلد وأخذ أموالهم، ثم إن المنفصل حشد وجمع جموعًا ورجع إلى طرابلس وحاصره أشد المحاصرة، وقام معه المغرضون له

من أهل البلدة والمقروصون من علي باشا، فلما رأى الغلبة على نفسه نزل إلى المراكب بما جمعه من الأموال والذخاير، وأخذ معه غلامين جميلين من أولاد الأعيان شبه الرهاين، وهرب إلى إسكندرية وحضر إلى مصر والْتَجَا إلى مراد بك فأكرمه وأنزله منزلًا حسنًا عنده بالجيزة، وصار خصيصًا به.

وسبب مجيه إلى مصر ولم يرجع إلى القبطان عِلمُه أنه صار ممقوتًا في الدولة؛ لأن من قواعد دولة العثمانيين أنهم إذا أمَّروا أميرًا في ولاية ولم يفلح، مقتوه وسلبوه وربما قتلوه، وخصوصًا إذا كان ذا مال.

ثم حج المترجم في سنة سبع ومايتين وألف من القلزم، وأودع ذخايره عند رشوان كاشف المعروف بكاشف الفيوم لقرابة بينهما من بلادهما، ولما كان بالحجاز ووصل الحجاج الطرابلسية ورأوه وصحبته الغلامان، ذهبوا إلى أمير الحاج الشامي وعرَّفوه عنه وعن الغلامين وأنه يفعل بهما الفاحشة، فأرسل معهم جماعة من أتباعه في حصة مهملة وكبسوا عليه على حين غفلة، فوجدوه راقدًا ومعه أحد الغلامين، فسبه الطرابلسية ولعنوه وقطعوا لحيته وضربوه بالسلاح، وجرحوه جرحًا بالغًا وأهانوه، وأخذوا منه الغلامين وكادوا يقتلونه لولا جماعة من جماعة أمير الحاج، ثم رجع إلى مصر من البحر أيضًا، وأقام في منزلته عند مراد بك زيادة عن ست سنوات إلى أن حضر الفرنسيس إلى الديار المصرية، فقاتل مع الأُمرا وتغرَّب معهم في قبلي وغيره، ثم انفصل معهم وذهب من خلف الجبل وسار إلى الشام، فأرسله الوزير يوسف باشا بعد الكسرة بمكاتبات إلى الدولة، فلم يزل حتى وقعت هذه الحوادث وقامت العسكر على محمد باشا وأخرجوه.

ووصل الخبر إلى إسلامبول، فطلب ولاية مصر على ظن بقاء حبل الدولة العثمانية وأوامرها بمصر، وليس بها إلا طاهر باشا والأرنؤد، وجعل على نفسه قدرًا عظيمًا من المال، ووصل إلى إسكندرية وبلغه انعكاس الأمر وموت طاهر باشا، وطرد الينكجرية وانضمام طايفة الأرنؤد للمصرلية وتمكُّنهم من البلدة، فأراد أن يدبر أمرًا ويصطاد العقاب بالغراب؛ فيحوز بذلك سلطنة مجددة ومنقبة مؤيدة، فلم تنفعه التدابير ولم تسعفه المقادير، فكان كالباحث على حتفه بظلفه، والجادع بيده مارن أنفه، ولم يعلم أنها القاهرة كما قهرت جبابرة وكادت فراعنة.

إذا لم يكنْ عونٌ من اللهِ للفتى　　　فأولُ ما يَجني عليه اجتهادُه

وكان صفته أبيض اللون عظيم اللحية والشوارب أشقرهما، قليل الكلام بالعربي يحب اللهو والخلاعة.

ولما انقضى أمره وأرسل سليمان بك ومحمد بك مكاتبات إلى شاهين بك ونُظَرَاهُ بما ذُكر، وأن يأخذوا له أمانًا من إبراهيم بك والبرديسي، فكتبوا لهم أمانًا بعد امتناع منهما وإظهار التغير والغضب والتأسف على التفريط منهما في قتله.

وفي يوم الخميس المذكور عملوا ديوانًا، وأحضروا صالح أغا قابجي باشا الذي حضر أولًا ونزل ببيت رضوان كتخدا إبراهيم بك وَقَرُوا الفرمان الذي معه، وهو يتضمن ولاية علي باشا والأوامر المعتادة لا غير، وليس فيها ما كان ذكره علي باشا من الجمارك والالتزام وغيره، وتكلم الشيخ الأمير في ذلك المجلس، وذكر بعض كلمات ونصايح في اتباع العدل وترك الظلم وما يترتب عليه من الدمار والخراب، وشكا الأُمرا المتأمرون من أفعال بعضهم البعض، وتعدِّي الكشاف النازلين في الأقاليم وجورهم على البلاد، وأنه لا يتحصل لهم من التزامهم وحصصهم ما يقوم بنفقاتهم، فاتفق الحال على إرسال مكاتبات للكشاف بالحضور والكف عن البلاد؛ وأما مصطفى باشا فإنهم أنزلوه في مركب مع أتباع الباشا الذين كانوا بقصر العيني وسفروهم إلى حيث شاء الله.

وفيه وصل الألفي من سرحته إلى مصر القديمة، فأقام في قصره الذي عمره هناك — وهو قصر البارودي — يومين ثم عدى إلى الجيزة، ودخل أتباعه بالمنهوبات من الجمال والأبقار والأغنام، ومعهم الجِمال محملة بالقمح الأخضر والفول والشعير لعدم البرسيم؛ فإنهم رعوا ما وجدوه في حال ذهابهم، وفي رجوعهم لم يجدوا خلاف الغلة، فرعوها وحملوا باقيها على الجِمال، ولو شا ربك ما فعلوه.

وفي تاني عشرينه وقعت معركة بين الأرنؤدية وعسكر التكرور بالقرب من الناصرية بسبب حمل برسيم، وضربوا على بعضهم بنادق رصاص وقُتل بينهم أنفار، واستمروا على مضاربة بعضهم البعض نحو سبعة أيام، وهم يترصدون لبعضهم في الطرقات.

وفي خامس عشرينه عملوا ديوانًا وقَرُوا فرمانًا وصل من الدولة مع الططر خطابًا لعلي باشا والأُمرا بتشهيل أربعة آلاف عسكري، وسفرهم إلى الحجاز لمحاربة الوهابيين، وإرسال تلاتين ألف أردب غلال إلى الحرمين، وأنهم وجهوا أربع باشات من جهة بغداد بعساكر، وكذلك أحمد باشا الجزار أرسلوا له فرمانًا بالاستعداد والتوجه لذلك، فإن ذلك من أعظم ما تتوجه إليه الهمم الإسلامية وأمثال ذلك من الكلام والترفق، وفيه بعض القول بالحسب والمروة لتنجيز المطلوب من الغلال، وإن لم تكن متيسرة عندكم تبذلوا الهمة في تحصيلها من النواحي والجهات بأثمانها على طرف الميري بالسعر الواقع.

وفيه تقيد لضبط مخلفات علي باشا صالح أفندي، ورضوان كتخدا، ونايب القاضي، وباشكاتب.

وفيه حضر الأُمرا الذين توجهوا بصحبة الباشا إلى الشرقية، وفي هذا اليوم حضر عثمان كاشف البواب الذي كان بالمنوفية وترك خيامه وأثقاله وأعوانه على ما هم عليه، وحضر في قلة من أتباعه.

وفيه نقلوا عسكر التكرور من ناحية قناطر السباع إلى جهة أخرى، وأخرجوا سكانًا كثيرة من دورهم جهة الناصرية، وأزعجوهم من مواطنهم وأسكنوا بها عساكر وطبجية.

وفيه أنزلوا السيد علي القبطان من القلعة إلى بيت علي بك أيوب كما كان، وهذا السيد علي هو أخو علي باشا المقتول — كما ذكر — وأصله مملوك وليس بشريف كما يتبادر إلى الفهم من لفظة سيد أنها وصف خاص للشريف، بل هي منقولة من لغة المغاربة، فإنهم يعبرون عن الأمير بالسيد بمعنى المالك وصاحب السيادة.

وفي سادس عشرينه أنزلوا محمل الحاج من القلعة مطويًّا من غير هيئة، وأُشيع في الناس دورانه إلى بيت إبراهيم بك صحبة أحد الكشاف وطايفة من المماليك، واتفق الرأي على سفره من طريق بحر القلزم صحبة محمود جاويش مستحفظان، ومعه الكسوة والصرة، وكان حضر الكثير من حجاج الجهة القبلية بجِمالهم ودوابِّهم ومتاعهم، فلما تحققوا عدم السفر حكم المعتاد، باعوا جِمالهم ودوابَّهم بالرميلة بأبخس الأثمان لعدم العلف بعدما كلفوها بطول السنة، وما قاسَوْه أيضًا في الأيام التي أقاموها بمصر في الانتظار والتوهم.

شهر ذي القعدة (سنة ١٢١٨)

استهل بيوم الاتنين، فيه أنزلوا حسين قبطان ومن معه من عسكر الأرنؤد من القلعة، وكانوا نحو الأربعماية فذهبوا إلى بولاق وسكنوا بها بعدما أخرجوا السكان من دورهم بالقهر عنهم، ولم يبقَ بالقلعة من أجناسهم سوى الطبجية المتقيدين بخدمة المصرلية.

وفيه ألبس إبراهيم بك كتخداه رضوان خلعة، وأُشيع أنه قلَّده دفتردارية مصر وذهب إلى البرديسي فخلع عليه أيضًا، وكذلك الألفي؛ وذلك إكرامًا له وتنويهًا بذكره جزا فعله ومجيه بالباشا وتحيله عليه.

وفي ليلة الجمعة خامسه وصلت مكاتبات من يحيى بك البرديسي حاكم رشيد يخبر فيها بوصول محمد بك الألفي الكبير إلى ثغور رشيد يوم الأربع تالته، وقد طلع على أبي قير وحضر إلى إدكو ثم إلى رشيد في يوم الأربع المذكور، وقصده الإقامة برشيد ستة أيام.

فلما وصلت تلك الأخبار عملوا شنكًا، وضربوا مدافع كثيرة بعد الغروب، وكذلك بعد العشا وفي طلوع النهار من جميع الجهات: من الجيزة ومصر القديمة وبيت البرديسي والقلعة، وأظهروا البشر والفرح، وشرعوا في تشهيل الهدايا والتقادم، وأضمروا في نفوسهم السُّو له ولجماعته المتآمرين حسدًا لرياسته عليهم وخمولهم بحضوره، فهاجت حفايظهم وكتموا حقدهم وتناجوا فيما بينهم وبيَّتوا أمرهم مع كبار العسكر، وأرسل البرديسي كتابًا إلى مملوكه يحيى بك تابعه حاكم رشيد يأمره فيه بقتل الألفي هناك، وركب هو إلى المنيل، وعدى شاهين بك ومحمد بك المنفوخ وإسماعيل بك صهر إبراهيم بك وعمر بك الإبراهيمي إلى بر الجيزة ليلة الأحد، ونصبوا خيامهم ليستعدوا إلى السفر من آخر الليل صحبة الألفي الصغير، وعدى أيضًا قبلهم حسين بك الوشاش الألفي ونصب خيامه بحري منهم، فلما كان في خامس ساعة من الليل أرسلوا إلى حسين بك يطلبونه إليهم، فحضر مع مماليكه وقد رتبوا جماعة منهم تأتي بخيول ومشاعل من جهة القصر، فقالوا له: أين الخيول؟ فإننا راكبون في هذا الوقت للملاقاة، وهاهو أخوك الألفي قد ركب وهو مقبل، فنظر فرأى المشاعل والخيول فلم يَشُكَّ في صحة ذلك ولم يخطر بباله خيانتهم له، فأمر مماليكه أن يذهبوا إلى خيولهم ويركبوا ويأتوه بفرسه، فأسرعوا إلى ذلك، وبقي هو وحده ينتظر فرسه، فعاجلوه وغدروه وقتلوه بينهم وأرسلوا إلى البرديسي بالخبر.

وكان محمد علي وأحمد بك والأرنؤدية عدوا قبلي الجيزة ليلًا، وكمنوا بمكان ينتظرون الإشارة ويتحققون وقوع الدم بينهم، فلما علموا ذلك حضروا إلى القصر وأحاطوا به، وكان طبجي الألفي مخامرًا أيضًا فعطل توالي المدافع.

واستمروا في ترتيب الأُمرا على القصر إلى آخر الليل، فحضر إلى الألفي من أيقظه وأعلمه بقتل حسين بك وإحاطتهم بالقصر، فأراد الاستعداد للحرب وطلب الطبجي فلم يجده وأعلموه بما فعل بالمدافع، فأمر بالتحميل وركب في جماعته الحاضرين وخرج من الباب الغربي وسار مقبلًا، فركب خلفه الأُمرا المذكورون وساروا مقدار ملقتين حتى تعبت خيولهم، ولم يكن معهم خيول كثيرة؛ لأنهم لم يكونوا يظنون خروجه من القصر.

واشتغل أكثر أتباعهم بالنهب؛ لأنه عندما ركب الألفي وخرج من القصر دخله العسكر والأجناد، ونهبوا ما فيه من الأثقال والأمتعة والفرش وغيرها.

وكان كاتبه المعلم غالي ساكنًا بالجيزة، وكذلك كثير من أتباعه ومقدميه، فذهبوا إلى دورهم فنهبوها وأخذوا ما عند كاتبه المذكور من الأموال، ثم نهبوا دور الجيزة عن آخرها، ولم يتركوا بها جليلًا ولا حقيرًا حتى عروا ثياب النسا، وفعلوا مثل ما فعلوا بدمياط.

وأصبح الناس بالمدينة يوم الأحد لا يعلمون شيًّا من ذلك، إلا أنهم سمعوا الصراخ ببيت حسين بك جهة التبانة وقيل: إنه قُتل ببر الجيزة، فصار الناس في تعجب وحيرة، واختلفت رواياتهم ولم يفتحوا دكاكينهم ونقلوا أسبابهم منها، وظلوا غالب اليوم لم يعلموا سر قتل حسين بك إلا من صراخ أهل بيته.

وكل ذلك وقع وإبراهيم بك جالس في بيته، ويسأل من يدخل إليه عن الخبر، وأحضر محمود جاويش المعين للسفر بالمحمل وصيرفي الصرة والكتبة، واشتغل معهم ذلك اليوم في عدِّ مال الصرة وحسابها ولوازم ذلك.

وبعد العصر أُشيع المرور بالمحمل فاجتمع الناس للفرجة، فمروا به من الجمالية إلى قراميدان قبل الغروب، وأصبح يوم الاتنين تامنه ركب إبراهيم بك وأُمراه إلى قراميدان وسلم المحمل، واجتمع الناس للفرجة على العادة، فمروا به من الشارع الأعظم إلى العادلية وأمامه الكسوة في أناس قليلة، وطبل وأشاير، وعينوا للذهاب معه أربعماية مغربي من الحجاج رتبوا لهم جامكية وتلاتين نفرًا من عسكر الأرنؤد.

هذا ما كان من هؤلاء، وأما ما كان من أمر الألفي الكبير، فإنه لما حضر إلى رشيد يوم الأربع تالته — كما تقدم — قابله يحيى بك وعمل له شنكًا وطعامًا وما يليق به، وسأله عن مدة إقامته برشيد، فقال له: أريد الإقامة ستة أيام حتى نستريح، ونزل ببيت مصطفى عبد الله التاجر، ولم يكن معه إلا خاصة مماليكه وجوخداره تتمة ستة عشر، فاستأذنه يحيى بك في إرسال الخبر إلى مصر ليأتي الأُمرا إلى ملاقاته، فلم يرضَ بذلك.

ثم إنه لم يقم برشيد إلا ليلة واحدة وأنزل أمتعته في أربع مراكب من الرواحل، وانتقل آخر الليل إلى بيت «البطروشي» القنصل، وأمر بتنقيل المتاع إلى مراكب النيل، وأهدى له البطروشي غرابًا من صناعة الإنكليز مليح الشكل، نزل هو به وسار إلى مصر، وكان قصده الحضور بغتة، فعندما يصلهم الخبر يصبحون يجدونه في الجيزة، ويأبى الله إلا ما يريد فلم يسعفه الريح، وكان تأخيره سببًا لنجاته، ولما وصل الخبر بحضوره وعملوا الشنك جهز له الألفي الصغير بحض الاحتياجات، وأرسلها في الذهبية والقنجة صحبة الخواجا محمود حسن وخلافه، فنزلوا من بولاق وانحدروا بعد الظهر من يوم

السبت، فاجتمعوا به عند نادر نصف الليل، فلما أصبح حضر إليه سليمان كاشف البواب وقابله، ورجع معه إلى منوف العلى.

فأقام هناك يوم الأحد، وبات هناك ودخل الحمام، وسار منها بعد طلوع النهار وهم يسحبون المراكب باللبان لمخالفة الريح، فلم يزل سايرًا إلى الظهيرة فلاقاه عدة من عسكر الأرنؤد الموجهة إليه في أربعة مراكب في مضيق الترعة، فسلم عليهم فردوا عليه السلام، فسألهم بعض أتباعه بالتركي، وقال لهم: أين تريدون؟ فقالوا: نريد الألفي، فقال لهم: ها هو الألفي؛ فسكتوا ثم تلاغى الملاحون مع بعضهم فأعلموهم الخبر، فنقلوه إلى الألفي فكذب ذلك وقال: هذا شيء لا يكون، ولا يصح أن إخواننا يفعلون ذلك معي، وأنا سافرت وتغربت سنة لأجل راحتنا، ولعلها حادثة بينهم وبين العسكر.

ثم إن طايفة منهم أدركت الغراب الذي قدمه له البطروشي، وكان متأخرًا عن المراكب فصعدوا إليه، وأخذوا ما فيه من المتاع، فأخبروه بذلك ونظر فرآهم يفعلون ذلك، فأرسل إليهم بعض من معه من الأتراك ليستخبر عن شأنهم وأمرهم، ولم ينتظر رجوعه بالجواب ولكنه أخذ بالحزم ونزل في الحال إلى القنجة مع المماليك وصحبته الخواجا محمود حسن، وأمرهم أن يمسكوا المقاذيف ففعلوا ذلك، وهو يستحثهم حتى خرجوا من الترعة إلى البحر، فلاقاهم طايفة أخرى في سفينتين وفيهم سراج باشا تابع البرديسي، وكان بعيدًا عنهم فأعماهم الله عنه وكأنهم لم يظنوه إياه.

ولم يزل يَجِدُّ في السير حتى وصل إلى شبرا الشهابية، فنظر إلى رجل ساعٍ وأعلمه أنه مرسَل من بيت سليمان كاشف البواب يخبر الواقع، فعند ذلك تحقق الخبر وطلع إلى البر وأمر بتفريق القنجة، ومشى مع المماليك على أقدامهم وتخلف عنه الخواجا محمود حسن بشبرا، فلم يزالوا يَجِدُّون السير حتى وصلوا إلى ناحية قرنفيل، ودخل إلى نجع عرب الحويطات والْتَجَا إلى امرأة منهم فأجارته ولبَّت دعوته، وأركبته فرسًا وأصحبت معه شخصين هجانين، وركب معهما وسار إلى قرب الخانكة ليلًا والمماليك معه مشاة، فقابلهم جماعة من عرب بلي، وكبيرهم يقال له سعد إبراهيم، فاحتاطوا به فاشتغل المماليك بحربهم فتركهم وسار مع الهجانة إلى ناحية الجبل، ومضى فسمع الأجناد القريبون منهم — وفيهم البرديسي — صوت البنادق بين العرب والمماليك، فأسرعوا إليهم وسألوهم عن سيدهم فقالوا: إنه كان معنا وفارقنا الساعة، فأمر البرديسي مَن معه من المماليك والأجناد أن يسرعوا خلفه ويتفرقوا في الطرق، وكل من أدركه فليقتله في الحال، فذهبوا خلفه فلم يعثر به أحد منهم.

وخرم عليه سعد إبراهيم بجماعة قليلة من طريق يعرفها، فرمى لهم ما معه من الذهب والجوهر والكرك الذي على ظهره، فاشتغلوا به وتركهم وسار وغاب أمره.

وفي حال جلوسه عند العرب مر عليهم طايفة من الأجناد سايرين؛ لأنهم لما فعلوا فعلتهم في الجيزة لم يبقَ لهم شغل إلا هو، وأخذوا في الاحتياط عليه ما أمكن، فأرسلوا عسكرًا في المراكب وانبنت طوايفهم في الجهات البحرية شرقًا وغربًا، فذهبت طايفة منهم إلى الشرقية وطايفة إلى القليوبية، وكذلك المنوفية والغربية والبحيرة، وسلكوا طريق الجبل الموصلة إلى قبلي، وذهب حسين بك ورستم بك إلى صالح بك الألفي الذي بالشرقية، وذهب شاهين بك إلى سليمان كاشف البواب من البر الغربي ليقطع عليه الطريق، وذهب علي بك أيوب ومحمد علي جهة القليوبية ليلحقه بمنوف، فلما وصل إلى دجوة تعوق بسبب قلة المعادي، فلما وصل إلى منوف فوجده عدى إلى الجهة الأخرى، فأخذوا متروكاته التي تركها، وهي بعض خيول وجِمال وخمسين زلعة سمن مسلي، وعملوا على أهل البلد أربعة آلاف ريال قبضوها منهم ورجعوا، وكان عندما بلغه الخبر الإجمالي لم يكذب المخبر، وذلك بعد مفارقة الألفي له بنحو تلات ساعات، فعدى في الحال إلى الجهة الغربية بأثقاله وعساكره، فوجد أمامه شاهين بك فأرسل يطلب منه أمانًا، فأجابه إلى ذلك وأرسل إلى مصر من يأتي بالأمان، واطمأن شاهين بك فارتحل سليمان كاشف ليلًا.

فلما أصبح شاهين بك وجده قد ارتحل فرجع بخفي حنين، وعدى إلى القليوبية فبلغه خبر الألفي وما وقع له مع العرب، فطلبهم فأخبروه أنه غاب عنهم في الجبل من الطريق الفلاني، فقبض عليهم وأحضرهم صحبته مشنوقين في عمايمهم، ووجد المماليك فقبض عليهم وأرسلهم إلى البرديسي.

وأما مراكبه فإنه عندما نزل إلى القنجة وفارقها، أدركها العسكر الذين قابلوه في المراكب ونهبوا ما فيها، وكان بها شي كثير من الأموال وظرايف الإنكليز والأمتعة والجوخ والأسلحة والجواهر.

فإنه لما وصل إلى القرالي أكرمه إكرامًا كثيرًا، وأهدى إليه تحفًا غريبة، وكذلك أكابرهم، وأعطاه جملة كبيرة من المال على سبيل الأمانة يرسل له بها غلالًا وأشيا من مصر، واشترى هو لنفسه أشيا بأربعة آلاف كيس يدفعها إلى القنصل بمصر، وأرسل له بها القرالي بوليصة، وأهدى له صورة نفسه وكثير من جوهر ونظارات وآلات وغير ذلك، وأما الألفي الصغير فإنه ذهب إلى جهة قبلي وفرد الفرد والكلف على البلاد، ومن عصى عليه أو توانى في دفع المطلوب نهبهم وحرقهم، وأما صالح بك الألفي فإنه لما وصل إليه

الخبر وقدوم الموجهين إليه ركب في الحال من زنكلون، وترك حملته وأثقاله فلم يدركوه أيضًا.

وفي يوم التلات أحضروا مماليك الألفي الكبير وجوخداره إلى بيت البرديسي، وأرسل إبراهيم بك والبرديسي مكاتبات إلى الأُمرا بقبلي، وهم: سليمان بك الخازندار حاكم جرجا، وعثمان بك حسن بقنا، ومحمد بك المعروف بالغربية الإبراهيمي، يوصونهم ويحذرونهم من التفريط في الألفي الصغير والكبير إن وردا عليهما، وأما شاهين بك فإنه عدى إلى الشرقية واجتهد في التفتيش، ثم رجع يوم التلات المذكور وأمامه العرب المتهمون بأنهم يعرفون طريقه، وأنهم أدركوه فأعطاهم جوهرًا كثيرًا وتركوه، وأحضروا صحبتهم حقًّا من خشب وجدوه مرميًّا في بعض الطرق، فأحضر البرديسي مماليك الألفي وأراهم ذلك الحق، فقالوا: نعم، كانوا مع أستاذنا وفي داخله جوهر ثمين، وأرسلوا عدة من المماليك والهجانة إلى الطريق التي ذكرها العرب، وأحضر البرديسي ابن شديد وسأله فأخبره أنه لم يكن حاضرًا في نجعه، وأن أمه أو خالته هي التي أعطته الفرس والهجانة، فوبخه ولامه فقال له: هذه عادة العرب من قديم الزمان، يجبرون طيبهم ولا يخفرون ذمتهم؛ فحبسه أيامًا ثم أطلقه، وقيل: إنه مر عليه علي بك أيوب ومحمد علي ومن معهم من العسكر، وهو في خيش العرب وهو يراهم وأعماهم الله عن تفتيش النجع وعن السوال أيضًا.

وفي ذلك اليوم خرج عثمان بك يوسف وحسين بك الوالي وأحمد أغا شويكار إلى جهة الشرقية ومرزوق بك إلى القليوبية، يفتشون على الألفي.

وفيه شرعوا في تشهيل تجريدة إلى الألفي الصغير وأميرها شاهين بك، وصحبته محمد بك المنفوخ وعمر بك وإبراهيم كاشف.

وفي يوم الجمعة ثاني عشره سافرت قافلة الحاج بالمحمل إلى السويس.

وفي يوم السبت حضر علي بك أيوب ومحمد علي من سرحتهما على غير طايل.

وفيه سافر قنصل الإنكليز من مصر بسبب هذه الحادثة، فإنه لما وقع ذلك اجتمع إبراهيم بك والبرديسي وتكلم معهما ولامهما على هذه الفعلة، وكلمهما كلامًا كثيرًا منه أنه قال لهما: هذا الذي فعلتماه لأجل نهب مال القرالي ومطلوب مني أربعة آلاف كيس، وهي البوليصة الموجهة على الألفي وغير ذلك، فلاطفاه وأرادا منعه من السفر، فقال: لا يمكن أني أقيم ببلدةٍ هذا شانها، وطريقتنا لا نقيم إلا في البلدة المستقيمة الحال، ثم نزل مغضبًا، وسافر وأراد أيضًا قنصل الفرنسيس السفر فمنعاه.

وفي يوم السبت طلب العسكر جماكيهم من الأُمرا وشددوا في الطلب، واستقلوا الأُمرا في أعينهم، وتكلموا مع محمد علي وأحمد بك وصادق أغا كلامًا كثيرًا، فسعوا في الكلام مع الأُمرا المصرلية فوعدوهم إلى يوم التلات.

ومات بقطر المحاسب كاتب البرديسي يوم الأحد.

فلما كان يوم التلات، اجتمع العسكر ببيت محمد علي، وحصل بعض قلقة، فحولهم على القبط بمايتاي ألف ريال، منها خمسون على غالي كاتب الألفي وثلاثون على تركة بقطر المحاسب والماية والعشرون موزعة عليهم، فسكن الاضطراب قليلًا.

وفي يوم التلات المذكور رجع مرزوق بك من القليوبية.

وفي يوم الأربع سابع عشره تُوُفِّيَ إبراهيم أفندي الرونامجي، وفيه حصل رجات وقلقات بسبب العسكر وجماكيهم وأرادوا أخذ القلعة فلم يتمكنوا من ذلك، وقفل الناس دكاكينهم، وقتلوا رجلًا نصرانيًّا عند حارة الروم، وخطفوا بعض النسا وأمتعة وغير ذلك، وركب محمد علي ونادى بالأمان.

وفي يوم السبت عشرينه حضر سليمان كاشف البواب بالأمان ودخل إلى مصر.

وفي يوم الأحد أفرجوا عن كشاف الألفي المحبوسين.

وفيه حضر عثمان بك يوسف من ناحية الشرقية، واستمر هناك حسين بك الوالي ورستم، وذهب المنفوخ وإسماعيل بك إلى ناحية شرق أطفيح؛ لأنه أُشيع أن الألفي ذهب عند عرب المعازة فقبضوا على جماعة منهم وحبسوهم، وأرسلوا ماية هجان إلى جميع النواحي وأعطوهم دراهم يفتشون على الألفي.

وفيه شرعوا في عمل فردة على أهل البلد، وتصدى لذلك المحروقي وشرعوا في كتابة قوايم لذلك، ووزعوها على العقار والأملاك أجرة سنة يقوم بدفع نصفها المستأجر، والنصف الثاني يدفعه صاحب الملك.

وفي يوم الأربع رابع عشرينه سرح كتاب الفردة والمهندسون، ومع كل جماعة شخص من الأجناد، وطافوا بالأخطاط يكتبون قوايم الأملاك، ويصقعون الأجر؛ فنزل بالناس ما لا يوصف من الكدر مع ما هم فيه من الغلا ووقف الحال، وذلك خلاف ما قرروه على قرى الأرياف، فلما كان في عصر ذلك اليوم نطق أفواه الناس بقولهم: الفردة بطالة وباتوا على ذلك وهم ما بين مصدق ومكذب.

وفي يوم الخميس خامس عشرينه أُشيع إبطال الفردة مع سعي الكتبة والمهندسين في التصقيع والكتابة، وذهبوا إلى نواحي باب الشعرية.

ودخلوا درب مصطفى فضج الفقرا والعامة والنسا، وخرجوا طوايف يصرخون وبأيديهم دفوف يضربون عليها ويندبن وينعين، ويقلن كلامًا على الأُمرا مثل قولهن: «إيش تاخذ من تفليسي يا برديسي»، وصبغن أيديهن بالنيلة وغير ذلك فاقتدى بهن خلافهن، وخرجوا أيضًا ومعهم طبول وبيارق وأغلقوا الدكاكين.

وحضر الجمع الكثير إلى الجامع الأزهر، وذهبوا إلى المشايخ فركبوا معهم إلى الأُمرا، ورجعوا ينادون بإبطالها، وسُرَّ الناس بذلك وسكن اضطرابهم.

وفي وقت قيام العامة كان كثير من العسكر منتشرين في الأسواق، فداخلهم الخوف وصاروا يقولون لهم: نحن معكم سوا سوا أنتم رعية ونحن عسكر ولم نرضَ بهذه الفردة وعلوفاتنا على الميري ليست عليكم، أنتم أناس فقرا فلم يتعرض لهم أحد.

وحضر كتخدا محمد علي مرسولًا من جهته إلى الجامع الأزهر وقال مثل ذلك، ونادى به في الأسواق ففرح الناس وانحرفت طباعهم عن الأُمرا ومالوا إلى العسكر.

وكانت هذه الفعلة من جملة الدسايس الشيطانية؛ فإن محمد علي لما حرش العساكر على محمد باشا خسرو وأزال دولته وأوقع به ما تقدم ذكره بمعونة طاهر باشا والأرنؤد ثم بالأتراك عليه حتى أوقع به أيضًا، وظهر أمر أحمد باشا وعرف أنه إن تم له الأمر ونما أمر الأتراك لا يبقون عليه؛ فعاجله وأزاله بمعونة الأُمرا المصرلية، واستقر معهم حتى أوقع باشتراكهم قتل الدفتردار والكتخدا، ثم محاربة محمد باشا بدمياط حتى أخذوه أسيرًا، ثم التحيل على علي باشا الطرابلسي حتى أوقعوه في فخهم وقتلوه ونهبوه.

كل ذلك وهو يُظهر المصافاة والمصادقة للمصريين، وخصوصًا البرديسي؛ فإنه تآخى معه وجرح كلٌّ منهما نفسه ولحس من دم الآخر.

واغتر به البرديسي وراج سوقه عليه وصدقه وتعضد به واصطفاه دون خشداشينه، وتحصن بعساكره وأقامهم حوله في الأبراج، وفعل بمعونتهم ما فعله بالألفي وأتباعه وشردهم وقص جناحه بيده، وشتت البواقي وفرقهم بالنواحي في طلبهم؛ فعند ذلك استقلوهم في أعينهم وزالت هيبتهم من قلوبهم وعلموا خيانتهم، وسفهوا رأيهم واستخفوا جانبهم، وشمخوا عليهم وفتحوا باب الشر بطلب العلوفة مع الإحجام؛ خوفًا من قيام أهل البلد معهم، ولعلمهم بميلهم الباطني إليهم، فاضطروهم إلى عمل هذه الفردة ونُسب فعلها للبرديسي، فثارت العامة وحصل ما حصل.

وعند ذلك تبرأ محمد علي والعسكر من ذلك، وساعدوهم في رفعها عنهم؛ فمالت قلوبهم إليهم، ونسوا قبايحهم وابتهلوا إلى الله في إزالة الأُمرا، وكرهوهم وجهروا بالدعا عليهم، وتحقق العسكر منهم ذلك.

وانحرف الأُمرا على الرعية باطنًا، بل أظهر البرديسي الغيظ والانحراف من أهل مصر، وخرج من بيته مغضبًا إلى جهة مصر القديمة وهو يلعن أهل مصر، ويقول: لا بد من تقريرها عليهم ثلاث سنوات، وأفعل بهم وأفعل حيث لم يمتثلوا لأوامرنا.

ثم أخذوا يدبرون على العسكر وأرسلوا إلى جماعتهم المتعمقين في الجهات القبلية والبحرية يطلبونهم للحضور؛ فأرسلوا إلى حسين بك الوالي ورستم بك من الشرقية، وإسماعيل بك صهر إبراهيم بك، ومحمد بك المنفوخ ليأتيا من شرق أطفيح، والفريقان كانوا لرصد الألفي وانتظاره، وأرسلوا إلى سليمان بك حاكم الصعيد بالحضور من أسيوط بمن حوله من الكشاف والأُمرا، وإلى يحيى بك حاكم رشيد وأحمد بك حاكم دمياط، وأصعدوا محمد باشا المحبوس إلى القلعة.

وعلم الأرنؤدية منهم ذلك؛ فبادروا واجتمعوا بالأزبكية في يوم الأحد تامن عشرينه، فارتاع الناس وأغلقوا الحوانيت والدروب.

وذهب جمع من العسكر إلى إبراهيم بك واحتاطوا بمهمات بيته بالداودية، وكذلك بيت البرديسي بالناصرية، وتفرقوا على بيوت باقي الأُمرا والكشاف والأجناد، وكان ذلك وقت العصر، والبرديسي عنده عدة كبيرة من العسكر المختصين به ينفق عليهم، ويدر عليهم الأرزاق والجماكي والعلوفات، ومنهم الطبجية وغيرهم.

وعمر قلعة الفرنسيس في تل العقارب بالناصرية، وجددها بعد تخريبها ووسعها وأنشا بها أماكن وشحنها بآلات الحرب والذخيرة والجبخانة، وقيد بها طبجية وعساكر من الأرنؤدية، وذلك خلاف المتقيدين بالأبراج والبوابات التي أنشأها قبالة بيته بالناصرية جهة قناطر السباع، والجهة الأخرى كما سبق ذكر ذلك، فلما علم بوصول العساكر حول دايرته وكان جالسًا صحبة عثمان بك يوسف، فقام وقال له: كن أنت في مكاني هنا حتى أخرج وأرتب الأمر وأرجع إليك، وتركه وركب إلى خارج، فضربوا عليه الرصاص فخرج على وجهه بخاصته وهجنه ولوازمه الخفيفة، وذهب إلى ناحية مصر القديمة، وذلك في وقت الغروب.

وكان العسكر نقبوا نقبًا من الجنينة التي خلف داره، ودخلوا منه وحصلوا بالدار فوجدوه قد خرج بمن معه من المماليك والأجناد، فقاتلوا من وجدوه وأوقعوا النهب في

الدار وانضم إليهم أجناسهم المتقيدون بالدار، وقبضوا على عثمان بك يوسف ومماليكه وشلحوهم ثيابهم وسحبوهم بينهم عرايا مكشوفي الروس، وتسلمهم طايفة منهم على تلك الصورة، وذهبوا بهم إلى جهة الصليبة فأودعوهم بدار هناك.

وفي سابع ساعة من الليل أرسل محمد علي جماعة من العسكر، ومعهم فرمان وصل من أحمد باشا خورشيد حاكم إسكندرية بولايته على مصر، فذهبوا به إلى القاضي وأطلعوه عليه وأمروه أن يجمع المشايخ في الصباح، ويقراه عليهم ليحيط علم الناس بذلك.

فلما أصبح أرسل إليهم فقالوا: لا تصح الجمعية في مثل هذا اليوم مع قيام الفتنة، فأرسله إليهم وأُطلِعوا عليه، وأُشيع ذلك بين الناس.

وأما إبراهيم بك، فإنه استمر مقيمًا ببيته بالداودية وأمر مماليكه وأتباعه بأن يجلسوا بروس الطرق الموصلة إليه، فجلس منهم جماعة وفيهم عمر بك تابعه بسبيل الدهيشة المقابل لباب زويلة، وكذلك ناحية تحت الربع والقربية وجهة سويقة لاجين والداودية، وصار العسكر يضربون عليهم وهم كذلك ودخل عليهم الليل، فلم يزالوا على ذلك إلى الصباح، واضمحل حالهم.

وقُتل الكثير من المماليك والأجناد ووصل إليهم خبر خروج البرديسي، فعند ذلك طلبوا الفرار والنجاة بأرواحهم.

وعلم إبراهيم بك بخروج البرديسي، وأنه إن استمر على حاله أُخِذ؛ فركب في جماعته في ثاني ساعة من النهار، وخرجوا على وجوههم والرصاص يأخذهم من كل ناحية، فلم يزل سايرًا حتى خرج إلى الرميلة وهدم في طريقه أربعة متاريس، وأصيب بعض مماليك وخيول وخدامين.

وأصيب رضوان كتخداه وطَلَعتْ روحه عند الرميلة، فأنزلوه عند باب العزب وأخذوا ما معه من جيوبه، ثم شالوه إلى داره ودفنوه وقبضوا على عمر بك تابع الأشقر الإبراهيمي من سبيل الدهيشة هو ومماليكه، وأما الذين بالقلعة من الأُمرا فإنهم أصبحوا يضربون بالمدافع والقنابر على بيوت الأرنؤد بالأزبكية إلى الضحوة الكبرى.

فلما تحققوا خروج إبراهيم بك والبرديسي ومن أمكنه الهروب، لم يسعهم إلا أنهم أبطلوا الرمي، وتهيوا للفرار ونزلوا من باب الجبل ولحقوا بإبراهيم بك، وعند نزولهم أرادوا أخذ محمد باشا وعلي باشا القبطان وإبراهيم باشا، فقام عليهم عسكر المغاربة ومنعوهم من أخذهم، ونهب المغاربة الضربخانة وما فيها من الذهب والفضة والسبايك، حتى العدد والمطارق.

وتسلم العسكر القلعة من غير مانع، ولم تثبت المصرلية للحرب نصف يوم في القلعة، ولم ينفع اهتمامهم بها طول السنة من التعمير والاستعداد وما شحنوه بها من الذخيرة والجبخانة وآلات الحرب، وملوا ما بها من الصهاريج بالماء الحلو، وقام أحمد بك الكلارجي وعبد الرحمن بك الإبراهيمي وسليم أغا مستحفظان من وقت مجيهم إلى مصر متقيدين ومرتبطين بها ليلًا ونهارًا لا ينزلون إلى بيوتهم إلا ليلة في الجمعة بالنوبة إذا نزل أحدهم أقام الآخران.

وطلع محمد علي إليها ونزل وبجانبه محمد باشا خسرو ورفقاه، وأمامهم المنادي ينادي بالأمان حكم ما رسم محمد باشا ومحمد علي، وأُشيع في الناس رجوع محمد باشا إلى ولاية مصر، فبادر المحروقي إلى المشايخ فركبوا إلى بيت محمد علي يهنون الباشا بالسلامة والولاية، وقدم له المحروقي هدية وأقام على ذلك بقية يوم الاتنين ويوم التلات فكان مدة حبسه ثمانية أشهر كاملة، فإنه حضر إلى مصر بعد كسرته بدمياط في آخر ربيع الأول، وهو آخر يوم منه وأطلق في آخر يوم من ذي القعدة.

وخرج الأُمرا على أسوا حال من مصر، ولم يأخذوا شيًّا مما جمعوه وكنزوه من المال وغيره إلا ما كان في جيوبهم، أو كان منهم خارج البلد مثل سليم كاشف أبي دياب؛ فإنه كان مقيمًا بقصر العيني، أو الغايبين منهم جهة قبلي وبحري.

وأما من كان داخل البلد فإنه لم يخلص له سوى ما كان في جيبه فقط، ونهب العسكر أموالهم وبيوتهم وذخايرهم وأمتعتهم وفرشهم، وسَبَوا حريمهم وسراريهم وجواريهم وسحبوهن بينهم من شعورهن، وتسلطوا على بعض بيوت الأعيان من الناس المجاورين لهم، ومن لهم بهم أدنى نسبة أو شبهة، بل وبعض الرعية إلا من تداركه الله برحمته أو الْتَجَا إلى بعضٍ منهم أو صالَح على بيته بدراهم يدفعها لمن الْتَجَا إليه منهم.

ووقع في تلك الليلة واليومين بعدها ما لا يوصف من تلك الأمور، وخربوا أكثر البيوت وأخذوا أخشابها ونهبوا ما كان بحواصلهم من الغلال والسمن والأدهان، وكان شيًّا كثيرًا، وصاروا يبيعونه على من يشتريه من الناس، ولولا اشتغالهم بذلك لما نجا من الأُمرا المصرلية الذين كانوا بالبلدة أحد، ولو رجع الأُمرا عليهم وهم مشتغلون بالنهب لتمكنوا منهم، ولكن غلب عليهم الخوف والحرص على الحياة والجبن، وخابت فيهم الظنون.

وذهبت نفختهم في الفارغ وجازاهم الله ببغيهم وظلمهم وغرورهم، وخصوصًا ما فعلوه مع علي باشا من الحيل حتى وقع في أيديهم، ثم رذلوه وأهانوه وقتلوا عسكره

ونهبوا أمواله ثم طردوه وقتلوه، فإنه وإن كان خبيثًا لم يعمل معهم ما يستحق ذلك كله.

وأعظم منه ما فعلوه مع أخيهم الألفي الكبير بعدما سافر لحاجتهم وراحتهم، وصالَح عليهم ورتب لهم ما فيه راحتهم وراحة الدولة معهم بواسطة الإنكليز، وغاب في البحر المحيط سنة وقاسى هول الأسفار والفراتين في البحر، فجزوه بالتشريد والتشتيت والنهب وقتْل أتباعه وحبسهم وبلصهم، واتخذوهم أعدا وأخصامًا من غير جرم ولا سابقة عداوة معهم إلا الحسد والحقد وحذرًا من رآسته عليهم.

وكانت هذه الفعلة سببًا لنفور قلوب العسكر منهم، واعتقادهم خيانتهم وقلتهم في أعينهم، فإن الألفي وأتباعه كانوا مقدار النصف منهم، ونصف النصف متفرق في الأقاليم مغمورون في غفلتهم، ومشتغلون بما هم فيه من مغارم الفلاحين وطلب الكُلف، فلما أرسلوا لهم بالحضور لم يسهل بهم ترك ذلك، ولم يستعجلوا الحركة، حتى يستوفوا مطلوباتهم من القرى إلى أن حصل ما حصل ونزل بهم ما نزل، ولم يقع لهم منذ ظهورهم أشنع من هذه الحادثة، وخصوصًا كونها على يد هولا، وكانوا يرون في أنفسهم أن الشخص منهم يدوس برجله الجماعة من العسكر، وأحسنوا ظنهم فيهم واعتقدوا أنهم صاروا أتباعهم وجندهم، مع أنهم كانوا قادرين على إزالتهم من الإقليم، وخصوصًا عندما خرجوا من المدينة لملاقاة علي باشا.

وأخرجوا جميع العسكر وحازوهم إلى جهة البحر، وحصنوا أبواب البلد بمن يثقون به من أجنادهم، ورسموا لهم رسومًا امتثلوها، فلو أرسلوا لهم بعد إيقاعهم بعلي باشا أقل أتباعهم وأمروهم بالرحلة لما وسعتهم المخالفة، حتى ظن كثير ممن له أدنى فطنة حصول ذلك، فكان الأمر بخلاف ذلك.

ودخلوا بعد ذلك وهم بصحبتهم ضاحكين من غفلة القوم مستبشرين برجوعهم ودخولهم إلى المدينة ثانيًا.

وعند ذلك تحقق لذوي الفطن سو رأيهم وعدم فلاحهم، وزادوا في الطنبور نغمة بما صنعوه مع الألفي، وكان العسكر يهابون جانبه ويخافون أتباعه ويخشونهم، وخصوصًا لما سمعوا بوصوله على الهية المجهولة لهم داخلهم من ذلك أمر عظيم استمر في أخلاطهم يومًا وليلة، إلى أن جلاه البرديسي ومن معه بشوم رأيهم وفساد تدبيرهم، وفرقوا جمعهم في النواحي حرصًا على قتل الألفي وأتباعه، فعند ذلك زالت هيبتهم من قلوب العسكر، وأوقعوا بهم ما أوقعوه، ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله.

شهر ذي الحجة الحرام، استهل بيوم التلات (سنة ١٢١٨)

فيه قلدوا علي أغا الشعراوي واليًا على مصر.

وفيه نهبوا بيت محمد أغا المحتسب، وقبضوا عليه وحبسوه.

وفي ليلة الأربع أنزلوا محمد باشا خسرو وإبراهيم باشا إلى بولاق، وسفروهما إلى بحري ومعهما جماعة من العسكر، وكانت ولايته هذه الولاية الكذابة شبيهة بولاية أحمد باشا الذي تولى بعد قتل طاهر باشا يومًا ونصفًا، وكان قد اعتقد في نفسه رجوعه لولاية مصر، حتى أنه لما نزل من القلعة إلى بيت محمد علي نظر إلى بيته من الشباك مهدومًا متخربًا، فطلب في ذلك الوقت المهندسين، وأمرهم بالبنا؛ وذلك من وساوسه ويقال: إن السبب في سفره إخوة طاهر باشا؛ فإنهم داخلهم غيظ شديد، ورأى محمد علي نفرتهم وانقباضهم من ذلك، وعلم أنه لا يستقيم حاله معهم وربما تولد بذلك شر؛ فعجل بسفره وذهابه.

ومن الاتفاقات العجيبة أيضًا أن طاهر باشا لما غدر بمحمد باشا أقام بعده اتنين وعشرين يومًا، وكذلك لما غدر المصرلية بالألفي لم يقيموا بعد ذلك إلا مثل ذلك.

وفيه صعد عابدي بك أخو طاهر باشا بالقلعة وأقام بها.

وفي ليلة الخميس تالته أطلقوا عثمان بك يوسف، وسافر إلى جماعته جهة قبلي، يقال: إنه افتدى نفسه منهم بمال، وأطلقوه ومعه خمسة مماليك وأعطوه خمسة جِمال وأربعة هجن وخيلًا.

وفيه أفرجوا عن محمد أغا المحتسب، وأبقوه في الحسبة على مصلحة عملوها عليه، وقام بدفعها وركب وشق في المدينة وعمل تسعيرة، ونادى بها في الشوارع والأسواق، وأما الأُمرا فإنهم باتوا أول ليلة جهة البساتين، وفي ثاني يوم ذهبوا إلى حلوان، وحضر إليهم حسين بك الوالي ورستم بك من الشرقية، ومروا من تحت القلعة وانفصلوا من العسكر الذين كانوا معهم في المطرية، وتركوا لهم الحملة.

ووصل إليهم أيضًا يحيى بك من ناحية رشيد وأحمد بك من دمياط وذهبوا إليهم، ووصل يحيى بك من ناحية الجيزة وأحضر معه عربانًا كثيرة من الهنادي وبني علي وغيرهم، ونزلوا بإقليم الجيزة ونهبوا البلاد وأكلوا الزروعات، واستمروا على ذلك وانتشروا إلى أن صارت أوايلهم بزاوية المصلوب وأواخرهم بالجيزة.

وفيه كتبوا مكاتبات من نسا الأُمرا المصرلية بأنهم لا يتعرضون لأحد من العساكر الكاينة بقبلي، وإن قُتل منهم أحد اقتصوا من حريمهم وأولادهم بمصر.

وفي يوم الجمعة حضر محمد بك المبدول بأمان ودخل إلى مصر.

وفي يوم الأحد سادسه أصعدوا عمر بك وبقية الكشاف، وبعض الأجناد المصرية إلى القلعة.

وفيه عدى كثير من العسكر إلى بر الجيزة، ووقع بينهم وبين العرب بعض مناوشات وقُتل أناس كثيرة من الفريقين.

وفي سابعه ظهر محمد بك الألفي الكبير من اختِفاه، وكان متواريًا بشرقية بلبيس برأس الوادي عند شخص من العربان يُسمَّى عشيبة، فأقام عنده مدة هذه الأيام، وخلص إليه صالح تابعه بما معه من المال، وكان البرديسي استدل على مكانه وأحضر أناسًا من العرب، وجعل لهم مالًا كثيرًا عليه وأخذوا في التحيل عليه، فحصلت هذه الحوادث وجوزي البرديسي بنيته، وخرج من مصر كما ذُكر.

وكانوا في تلك المدة يشيعون عليه إشاعات، مرة بموته ومرة بالقبض عليه وغير ذلك، فلما حصل ما حصل وانجلت الطرق من المراصدين اطمأن حينئذٍ، وركب في عدة من الهجانة وصحبته صالح بك تابعه، ومروا من خلف الجبل وذهب إلى شرق أطفيح، ونزل عند عرب المعازة وتواتر الخبر بذلك.

وفي تاسعه وصل أحمد باشا خورشيد إلى منوف، فتقيد السيد أحمد المحروقي وجرجس الجوهري بتصليح بيت إبراهيم بك بالداودية وفرشه.

وفي ليلة الاتنين رابع عشره وصل الباشا إلى ثغر بولاق فضربوا شنكًا ومدافع، وخرج العساكر في صبحها والوجاقلية وركب ودخل من باب النصر وأمامه كبار العساكر بزينتهم، ولم يلبس الشعار القديم، بل ركب بالتخفيفة وعليه قبوط مجرور وخلفه النوبة التركية، ودخل إلى الدار التي أعدت له بالداودية، وقدموا له التقادم وعملوا بها تلك الليلة شنكًا وسواريخ.

وفي يوم التلات خامس عشره مر الوالي وأمامه المنادي، وبيده فرمان من الباشا ينادي به على الرعية بالأمن والأمان والبيع والشرا.

وفي منتصفه حضر عبد الرحمن بك الإبراهيمي — وكان في بشبيش بناحية بحري — فطلب أمانًا وحضر إلى مصر.

وفي يوم الجمعة تحوَّل الباشا من الداودية إلى الأزبكية، وسكن ببيت البكري حيث كان حريم محمد باشا فركب قبل الظهر في موكب، وذهب إلى المشهد الحسيني، وصلى الجمعة هناك ورجع إلى الأزبكية.

وفيه فتحوا طلب مال الميري من السنة القابلة لضرورة النفقة، فاغتمَّ الملتزمون لذلك لضيق الحال وتعطل الأسباب وعدم الأمن، وتوالى طلب الفرد من البلاد، فلو فضل للملتزم شي لا يصل إليه إلا بغاية المشقة وركوب الضرر، لوثوب الخلايق من العربان والفلاحين والأجناد والعساكر على بعضهم البعض، من جميع النواحي القبلية والبحرية.

ثم إن الوجاقلية وبعض المشايخ راجعوا في ذلك، فانحط الأمر بعد ذلك على طلب نصف مال الميري من سنة تسعة عشر، وبواقي سنة سبعة عشر وثمانية عشر، وكذلك باقي الحلوان الذي تأخر على المفلسين، وكتبوا التنابيه بذلك وقالوا: من لم يقدر على الدفع فليعرض تقسيطه على المزاد.

هذا والأجناد والعرب محيطة ببر الجيزة والعسكر من داخل الأسوار لا يجسرون على الخروج إليهم، وحجزوا المراكب الواردة بالغلال وغيرها حتى لم يبقَ بالسواحل شي من تلك الغلة أبدًا، ووصل سعر الأردب القمح إن وُجد خمسة عشر ريالًا.

وفي يوم الأحد عشرينه وصل العسكر الذين كانوا صحبة سليمان بك حاكم الصعيد، فدخلوا إلى البلدة وأزعجوا كثيرًا من الناس وسكنوا البيوت بمصر القديمة، بعدما أخرجوهم منها وأخذوا فرشهم ومتاعهم، وكذلك فعلوا ببولاق ومصر عندما حضر الذين كانوا ببحري.

وفيه قلدوا الحسبة لشخص عثمانلي من طرف الباشا، وعزلوا محمد أغا المحتسب وكذلك عزلوا علي أغا الشعراوي، وقلدوا الزعامة لشخص آخر من أتباع الباشا، وقلدوا آخر أغات مستحفظان.

وفي ليلة التلات تاني عشرينه خرجت عساكر كثيرة، وعدت إلى البر الغربي ووقعت في صبحها حروب بينهم وبين المصرلية والعربان، وكذلك في تاني يوم، ودخلت عساكر جرحى كثيرة، وعملوا متاريس عند ترسة والمعتمدية وتترسوا بها، والمصرلية والعربان يرمحون من خارج، وهم لا يخرجون إليهم من المتاريس، واستمروا على ذلك إلى يوم الأحد سابع عشرينه.

وفي ذلك اليوم ضربوا مدافع ورجع محمد علي والكثير من العساكر، وأُشيع ترفع المصرلية إلى فوق ووقع بين العربان اختلاف، وأشاعوا نصرتهم على المصرلية، وأنهم قتلوا منهم أُمرا وكشافًا ومماليك وغير ذلك.

وفي ذلك اليوم شنقوا شخصًا بباب زويلة وآخَر بالحبانية، وهما من الفلاحين ولم يكن لهما ذنب، قيل: إنه وُجد معهما بارود اشترياه لمنع الصايلين عليهم من العرب، فقالوا: إنكم تأخذونه إلى المحاربين لنا وكان شيًّا قليلًا.

وفيه نزل جماعة من العسكر جهة قبة الغوري، ومعهم نحو ثلاثين نفرًا بجِمالهم فقرطوا القمح المزروع، وكان قد بدا صلاحه فطارت عقول الفلاحين، واجتمعوا وتكاثروا عليهم وقبضوا على ثلاثة أشخاص منهم، وهرب الباقون فدخلوا بهم المدينة، ومعهم الأحمال وصحبتهم طبل وأطفال ونسا، وذهبوا تحت بيت الباشا، فأمر بقتل شخص منهم؛ لأنه شامي وليس بأرنؤدي ولا إنكشاري فقتلوه بالأزبكية، فوجدوا على وسطه ستماية بندق ذهب وتلتماية محبوب ذهب والله أعلم، وانقضت السنة وما حصل بها من الحوادث.

وأما من مات فيها ممن له ذكر

(فمات) الفقيه العلامة والنحرير الفهامة الشيخ أحمد اللحام اليونسي المعروف بالعريشي الحنفي، حضر من بلدته خان يونس في سنة تمان وسبعين وماية وألف، وحضر أشياخ الوقت وأكب على حضور الدروس، وأخذ المعقول على مثل الشيخ أحمد البيلي والشيخ محمد الجناحي والصبان والفرماوي وغيرهم، وتفقه على الشيخ عبد الرحمن العريشي ولازمه وبه تخرج، وحضر على الشيخ الوالد في «الدر المختار» من أول كتاب البيوع إلى كتاب الإجارة بقراءته، وذلك سنة اتنين وتمانين وماية وألف.

ولم يزل ملازمًا للشيخ عبد الرحمن ملازمة كلية، وسافر صحبته إلى إسلامبول في سنة تسعين لبعض المقتضيات، وقرأ هناك الشفاء والحكم بقراءة المترجم، وعاد صحبته إلى مصر ولم يزل ملازمًا له حتى حصل للعريشي ما حصل ودنت وفاته، فأوصى إليه بجميع كتبه.

واستقر عوضه في مشيخة رواق الشوام وقرا الدروس في محله، وكان فصيحًا مستحضرًا متضلعًا من المعقولات والمنقولات، وقصدته الناس في الإفتا واعتمدوا أجوبته، وتداخل في القضايا والدعاوى.

واشتهر ذكره، واشترى دارًا واسعة بسوق الزلط بحارة المقس خارج باب الشعرية، وتجمل بالملابس وركب البغال، وصار له أتباع وخدم وهُرعت الناس والعامة والخاصة في دعاويهم وقضاياهم وشكاويهم إليه، وتقلد نيابة القضا لبعض قضاة العساكر أشهرًا.

ولما حضرت الفرنساوية إلى مصر وهرب القاضي الرومي بصحبة كتخدا الباشا — كما تقدم — تعين المترجم للقضا بالمحكمة الكبيرة، وألبسه كليبر ساري عسكر الفرنساوية خلعة مثمنة، وركب بصحبة قايمقام في موكب إلى المحكمة، وفوضوا إليه أمر

النواب بالأقاليم، ولما قُتِل كليبر انحرف عليه الفرنساوية؛ لكون القاتل ظهر من رواق الشوام، وعزلوه ثم تبينت براءته من ذلك، إلى أن رتبوا الديوان في آخر مدتهم، ورسم عبد الله جاك منو باختيار قاضٍ بالقرعة، فلم تقم إلا على المترجم فتولاه أيضًا، وخلعوا عليه وركب مثل الأول إلى المحكمة واستمر بها إلى أن حضرت العثمانيون وقاضيهم، فانفصل عن ذلك ولازم بيته مع مخالطة فصل الخصومات والحكومات والإفتا، ثم قصد الحج في هذه السنة فخرج مع الركب وتمرض في حال رجوعه وتُوُفِّيَ ودُفن بنبط — رحمه الله.

(ومات) الشيخ الإمام العمدة الفقيه الصالح المحقق الشيخ علي المعروف بالخياط الشافعي، حضر أشياخ الوقت وتفقه على الشيخ عيسى البراوي، ولازم دروسه وبه تخرج، واشتهر بالعلم والصلاح، وأقرأ الدروس الفقهية والمعقولية وانتفع به الطلبة، وانقطع للعلم والإفادة ولما وردت ولاية جدة لمحمد باشا توسون طلب إنسانًا معروفًا بالعلم والصلاح، فذُكر له الشيخ المترجم؛ فدعاه إليه وأكرمه وواساه وأحبه، وأخذه صحبته إلى الحجاز وتُوُفِّيَ هناك — رحمه الله.

(ومات) الريس المبجل المهذب صاحبنا محمد أفندي باش جاجرت الروزنامة، وأصله تربية محمد أفندي كاتب كبير الينكجرية، وتمهن في صناعة الكتابة وقوانين الروزنامة، وكان لطيف الطبع سليم الصدر، محبوبًا للناس مشهورًا بالذوق وحسن الأخلاق، مهذبًا في نفسه متواضعًا، يسعى في حوايج إخوانه وقضا مصالحهم المتعلقة بدفاترهم، قانعًا بحاله مترفهًا في مأكله وملبسه، واقتنى كتبًا نفيسة ومصاحف، وتجتمع ببيته الأحباب، ويدير عليهم سُلاف أنسه المستطاب، مع الحشمة والوقار وعدم الملل والنفار.

ولما اختلفت الأحوال وترادفت الفتن ضاق صدره من ذلك، واستوحش من مصر وأحوالها، فقصد الهجرة بأهله وعياله إلى الحرمين وعزم على الإقامة هناك، فلما حصل هناك رأى فيها الاختلاف والخلل كذلك؛ بسبب ظلم الشريف غالب وأتباعه، وإغارة الوهابيين على الحرمين، وفتن العربان؛ فلم يستحسن الإقامة هناك واشتاق لوطنه، فعزم على العود إلى مصر فمرض بالطريق، وتُوُفِّيَ ودُفن بالينبع — رحمه الله.

(ومات) الأمير حسين بك الذي عُرف بالوشاش، وهو من مماليك محمد بك الألفي، وكان يُعرف أولًا بكاشف الشرقية؛ لأنه كان تولى كشوفيتها، وكان صعب المراس شديد البأس قوي الجنان، قلبه — مع نحافة جسمه — أعظم من جبل لبنان، لا يَهاب كثرة الجنود، وتَخشى سطوتَه الأسود.

ولما أجمعوا على خيانة الألفي وأتباعه قال لهم إبراهيم بك الكبير: على ما بلغنا لا يتم مرامكم بدون البداة بالمترجم، فإن أمكنكم ذلك وإلا فلا تفعلوا شيًّا، فلم يزالوا يدبرون عليه ويتملقون له ويُظهرون له خلاف ما يبطنون، حتى تمكنوا من غدره على الصورة المتقدمة.

وسبب تلقُّبه بالوشاش أنه كان طلع لملاقاة الحجاج بمنزلة الوش في سنة ورود الفرنساوية، فلما لاقى الحجاج وأمير الحاج صالح بك رجع صحبتهم إلى الشام، وحصل منه بعد ذلك المواقف الهايلة مع الفرنساوية مع أستاذه ومنفردًا في الجهات القبلية والشامية، ولما انجلت الحوادث وارتحلت الفرنساوية من الديار المصرية واستقرت المصريون بعد حوادث العثمانية، تأمر المترجم في ستة عشر صُنجقًا المتأمرين، وظهر شأنه واشتهر ذكره فيما بينهم، ونفذت أوامره فيهم ونغص عليهم وناكدهم وعاندهم، وأغار على ما بأيديهم حتى ثقلت وطأته عليهم، فلم يزالوا يحتالون عليه حتى أوقعوه في حبال صيدهم، وهو لا يخطر بباله خيانتهم وغدروه بينهم كما ذكر.

(ومات) الأمير رضوان كتخدا إبراهيم بك وهو أغنى مماليكه، ربَّاه وأعتقه وجعله جوخداره، وكان يُعرف أولًا برضوان الجوخدار، واستمر في الجوخدارية مدة طويلة، ولما رجع مع أستاذه — في أواخر سنة خمس ومايتين وألف بعد موت إسماعيل بك — وأتباعه إلى مصر أرخى لحيته، وتقلد كتخداية أستاذه وتزوج ببعض سراريه، وسكن دار عبدي بك بناحية سويقة العزى، ثم انتقل منها إلى دار ملكه على بركة الفيل تجاه بيت شكر بره، وعمرها وصارت له وجاهة بين الأُمرا، وباشر فصل الخصومات والدعاوى، وازدحم الناس ببيته واشتُهر ذكره وعظم شأنه، وقصدته أرباب الحاجات، وأخذ الرشوات والجعالات.

وكان يقرأ ويكتب ويناقش ويحاجج ويعاشر الفُقها ويباحثهم، ويميل بطبعه إليهم ويحب مجالستهم ولا يمل منهم، وعنده حلم وسعة صدر وتؤدة وتأنٍّ في الأمور، وإذا ظهر له الحق لا يعدل عنه، وعنده دهقنة ومداهنة وقوة حزم.

ولما حضر علي باشا الطرابلسي على الصورة المتقدمة، كان المترجم هو المتعين في الإرسال إليه، فلم يزل يتحيل عليه حتى انخدع له وأدخل رأسه الجراب، وصدق تمويهاته وحضر به إلى مصر، وأوردوه بعدُ الموارد، وحاز بذلك منقبة بين أقرانه ونوه بعدُ بشأنه، وخلعوا عليه الخلع وعرضوا عليه الإمارة فأباها.

واستمر على حالته معدودًا في أرباب الرياسة وتأتي الأُمرا إلى داره، ولم يزل حتى ثارت العسكر على من بالبلدة من الأُمرا، وحصروا إبراهيم بك ببيته وخرج في تاني

يوم هاربًا والمترجم خلفه والرصاص يأخذهم من كل ناحية فأصيب في دماغه؛ فمال عن جواده واستند على الخدم — وذلك جهة الدرب الأحمر — فلم يزل في غشوته حتى خرجت روحه بالرميلة، فأنزلوه عند باب العزب واحتاط به المتقيدون بالباب وأخذوا ما في جيوبه، ثم أحضروا له تابوتًا وحملوه فيه إلى داره فغسَّلوه وكفَّنوه ودفنوه بالقرافة — سامحه الله — فإنه كان من خيار جنسه لولا طمع فيه، ولقد بلوته سفرًا وحضرًا يافعًا وكهلًا، فلم أرَ ما يشينه في دينه، عفوفًا طاهر الذيل وقورًا محتشمًا، فصيح اللسان حسن الرأي قليل الفضول بعيد النظر.

(ومات) الأجل العمدة الشريف السيد إبراهيم أفندي الروزنامجي، وهو ابن أخي السيد محمد الكماحي الروزنامجي المُتَوَفَّى سنة سبع ومايتين وألف، وأصلهم رُومِيُّو الجنس، وكان في الأصل جريجيًّا ثم عمل كاتب كشيدة، وكان يسكن دارًا صغيرة بجوار دار عمه.

واستمر على ذلك خامل الذكر، فلما تُوُفِّيَ عمه السيد محمد انتبذ عثمان أفندي العباسي المنفصل عن الروزنامة سابقًا، يريد العود إليها عن شوق وتطلع لها وظنه شغور المنصب عن المتأهل إليه سواه، فلم تساعده الأقدار لشدة مراسه، وسأل إبراهيم بك عن شخص من أهل بيت المُتَوَفَّى، فذكر له السيد إبراهيم المرقوم وخموله وعدم تحمله لأعبا ذلك المنصب، فقال: لا بد من ذلك قطعًا لطمع المتطلعين، والتزم بمراعاته ومساعدته، وطلبه ونقله من حضيض الخمول إلى أوج السعادة والقَبول؛ فتقلد ذلك وساس الأمور بالرفق والسير الحسن، واشترى دارًا عظيمة بدرب الأغوات وسكنها، واستمر على ذلك إلى أن ورد الفرنساوية إلى مصر؛ فخرج مع من خرج هاربًا إلى الشام، ثم رجع مع من رجع ولم يزل حتى تمرض، وتُوُفِّيَ في يوم الأربعا سادس عشر القعدة من السنة — رحمه الله تعالى.

واستهلت سنة تسع عشرة ومايتين وألف
(١٨٠٤م)

فكان ابتدا المحرم بيوم الخميس (١٢ أبريل)، فيه ركب الوالي العثملي وشق من وسط المدينة فمر على سوق الغورية، فأنزل شخصًا من أبناء التجار المحتشمين — وكان يتلو في القرآن — فأمر الأعوان فسحبوه من حانوته وبطحوه على الأرض وضربوه عدة عِصِيٍّ من غير جرم ولا ذنب وقع منه، ثم تركه وسار إلى الأشرفية فأنزل شخصًا من حانوته وفعل به مثل ذلك؛ فانزعج أهل الأسواق وأغلقوا حوانيتهم، واجتمع الكثير منهم وذهبوا إلى بيت الباشا يشكون فعل الوالي، وسمع المشايخ بذلك فركبوا أيضًا إلى بيت الباشا وكلموه؛ فأظهر الحنق والغيظ على الوالي، ثم قاموا وخرجوا من عنده فتبعهم بعض المتكلمين في بيت الباشا وقال لهم: إن الباشا يريد قتل الوالي والمناسب منكم الشفاعة، فرجعوا إلى الباشا وشفعوا في الوالي وأرسل سعيد أغا الوكيل، وأحضروا له المضروب وأخذ بخاطره وطيب نفسه بكلمات ورجع الجميع كما ذهبوا، وظنوا عزل الوالي فلم يُعزل.

وفيه رجع المصرلية والعربان وانتشروا بإقليم الجيزة، حتى وصلوا إلى إنبابة وضربوها ونهبوها، وخرج أهلها على وجوههم وعدوا إلى البر الشرقي، وأخذ العسكر في أهبة التشهيل والخروج لمحاربتهم.

وفي يوم الجمعة تانيه سافر السيد علي القبطان إلى جهة رشيد، وخرج بصحبته جماعة كثيرة من العساكر الذين غنموا الأموال من المنهوبات، فاشتروا بضايع وأسبابًا ومتاجر، ونزلوا بها صحبته وتبعهم غيرهم من الذين يريدون الخلاص والخروج من مصر، فركب محمد علي إلى وداع السيد علي المذكور، ورد كثيرًا من العساكر المذكورة ومنعهم عن السفر.

وفي سادسه (التلات) خرج محمد علي وأكابر العسكر بعساكرهم، وعدوا إلى بر إنبابة، ووصلوا ونصبوا وطاقهم وعملوا لهم عدة متاريس، وركَّبوا عليها المدافع واستعدوا للحرب، فلما كان يوم الأحد حادي عشره كبس المماليك والعربان وقت الغلس على متاريس العسكر، وحملوا على متراس حملة واحدة فقتلوا منهم وهرب من بقي وألقوا بأنفسهم في البحر، فاستعد من كان بالمتاريس الأُخَر، وتابعوا رمي المدافع وخرجوا للحرب، ووقع بينهم مقتلة عظيمة أبلى فيها الفريقان نحو أربع ساعات ثم انجلت الحرب بينهم، وترفع المصرلية والعربان وانكفوا عن بعضهم، وفي وقت الظهر أرسلوا سبعة روس من الذين قُتلوا من المصرلية في المعركة، وشقوا بهم المدينة ثم علقوها بباب زويلة، وفيهم رأس حسين بك الوالي وكاشفين، ومنهم حسن كاشف الساكن بحارة عابدين ومملوكان، وعلقوا عند رأس حسين بك الوالي المذكور صليبًا من جلد زعموا أنهم وجدوه معه، وأُصيب إسماعيل بك صهر إبراهيم بك ومات بعد ذلك ودُفِن بأبي قير.

وفي تاني عشره (الاتنين) حصلت أعجوبة ببيت بالقربية به بغلة تدور بالطاحون، فزنقوها بالإدارة فأسقطت حملًا ليس فيه روح فوضعوه في مقطف، ومروا به من وسط المدينة وذهبوا به إلى بيت القاضي، وأُشيع ذلك بين الناس وعاينوه.

وفي يوم السبت سابع عشره حضر علي كاشف المعروف بالشغب (بتلات معجمات وتشديد الشين وفتح الغين وسكون الباء) رسولًا من جهة الألفي، ووصل إلى جهة البساتين وأرسل إلى المشايخ يُعلمهم بحضوره لبعض أشغال، فركب المشايخ إلى الباشا وأخبروه بذلك؛ فأذن بحضوره، فحضر ليلًا ودخل إلى بيت الشيخ الشرقاوي، فلما أصبح النهار أُشيع ذلك وركب معه المشايخ والسيد عمر (مكرم) النقيب، وذهبوا به إلى بيت الباشا فوجدوه راكبًا في بولاق، فانتظروه حصة إلى أن حضر فتركوا عنده علي كاشف المذكور ورجعوا إلى بيوتهم، واختلى به الباشا حصة وقابله بالبِشر، ثم خلع عليه فروة سمور وقدم له محمد علي أيضًا حصانًا.

وفيه شرعوا في عمل شركفلك للحرب بالأزبكية.

وفي يوم الاتنين تاسع عشره ورد ططري وعلى يده بشارة للباشا بتقليده ولاية مصر، ووصل القابجي الذي معه التقليد والطوخ الثالث إلى والي رشيد وطوخان لمحمد علي وحسن بك أخي طاهر باشا وأحمد بك، فضربوا عدة مدافع وذهب المشايخ والأعيان للتهنئة.

وفي يوم التلات (٢٠ محرم) قَتل الباشا تلات أشخاص أحدهم رجل سروجي؛ وسبب ذلك أن الرجل السروجي له أخ أجير عند بعض الأجناد المصرلية، فأرسل لأخيه فاشترى له بعض تياب ونعالات وأرسلها مع ذلك الرجل، فقبضوا عليه وسألوه فأخبرهم، فأحضروا ذلك الرجل السروجي، وأحضروا أيضًا رجلًا بيطارًا متوجهًا إلى بولاق معه مسامير ونعالات، فقبضوا عليه واتهموه أنه يعدي إلى البر الآخر ليعمل لأخصامهم نعالات للخيل، فأمر الباشا بقتله وقتل السروجي والرجل الذي معه الثياب فقتلوهم ظلمًا.

وفي يوم الأربع (٢١ محرم) حضر القابجي الذي على يده البشرى، وهو خازندار الباشا، وكان أرسله حين كان بإسكندرية ويسمونها المجدة، ولم يحضر معه أطواخ ولا غير ذلك، فضربوا له شنكًا ومدافع.

وفيه خلع الباشا على السيد أحمد المحروقي فروة سمور، وأقره على ما هو عليه أمين الضربخانة وشاه بندر، وكذلك خلع على جرجس الجوهري وأقره باش مباشر الأقباط علي ما هو عليه.

وفيه رجع علي كاشف الشغب بجواب الرسالة إلى الألفي.

وفيه تحقق الخبر بموت يحيى بك وكان مجروحًا من المعركة السابقة.

وفي يوم الخميس (٢٢ محرم) عمل الباشا الديوان وحضر المشايخ والوجاقلية، وقروا المرسوم بحضرة الجمع، ومضمونه: إننا كنا صفحنا ورضينا عن الأُمرا المصرلية على موجب الشروط التي شرطناها عليهم بشفاعة علي باشا والصدر الأعظم، فخانوا العهود ونقضوا الشروط وطغوا وبغوا وظلموا وقتلوا الحجاج، وغدروا علي باشا المُولَّى عليهم وقتلوه ونهبوا أمواله ومتاعه، فوجهنا عليهم العساكر في ثمانين مركبًا بحرية، وكذلك أحمد باشا الجزار بعساكر برية للانتقام منهم ومن العسكر الموالين لهم، فورد الخبر بقيام العساكر عليهم ومحاربتهم لهم وقتلهم وإخراجهم؛ فعند ذلك رضينا عن العسكر لجبرهم ما وقع منهم من الخلل الأول، وصفحنا عنهم صفحًا كليًّا، وأطلقنا لهم السفر والإقامة متى شاءوا وأينما أرادوا من غير حرج عليهم، ولينا حضرة أحمد باشا خورشيد كامل الديار المصرية لما علمنا فيه من حسن التدبير والسياسة، ووفور العقل والرياسة إلى غير ذلك، وعملوا شنكًا وحراقة وسواريخ بالأزبكية تلات ليالٍ ومدافع تضرب في كل وقت من الأوقات الخمسة من القلعة وغيرها.

وفيه تواترت الأخبار بأن الأُمرا القبالي عملوا وحسات، وقصدهم التعدية إلى البر الشرقي.

وفي يوم الأحد خامس عشرينه عدى الكثير منهم على جهة حلوان، وانتقل الكثير من العسكر من بر الجيزة إلى بر مصر، فخاف أهل المطرية وغيرها وجلوا عنها وهربوا إلى البلاد، وحضر كثير منهم إلى مصر خوفًا من وصول الأُمرا القبالي.

وفي يوم الاتنين سادس عشرينه سافر الشيخ الشرقاوي إلى مولد سيدي أحمد البدوي، واقتدى به كثير من العامة وسخاف العقول، وكان المحروقي وجرجس الجوهري مسافرين أيضًا، وشهلوا احتياجاتهم واستأذنوا الباشا فأذن لهم، فلما تبين لهم تعدية المصرلية إلى جهة الشرقية امتنعوا من السفر، ولم يمتنع الشيخ الشرقاوي ومن تابعه.

وفي يوم التلات سابع عشرينه وصل فريق منهم (الأُمرا القبالي) إلى جهة قبة باب النصر والعادلية من خلف الجبل، ورمحوا خلف باب النصر من خارج باب الفتوح ونواحي الشيخ قمر والدمرداش، ونهبوا الوايلي وما جاوره وعبروا الدور وعروا النسا، وأخذوا دسوتهم وغلالهم وزروعهم، وخرج أهل تلك القرى على وجوههم ومعهم بعض شوالي وقصاع، ودخل الكثير منهم إلى مصر.

وفي يوم الأربع جمع الباشا ومحمد علي العسكر واتفقوا على الخروج والمحاربة، وأخرجوا المدافع والشركفلكات إلى خارج باب النصر وشرعوا في عمل متاريس، وفي آخر النهار ترفع المصرلية والعرب، وتفرقوا في إقليم الشرقية والقليوبية وهم يسعون في الفساد ويهلكون الحصاد، فما وجدوه مدروسًا من البيادر أخذوه أو قايمًا على ساقه رعوه أو غير مدروس أحرقوه، أو كان من المتاع نهبوه أو من المواشي ذبحوه وأكلوه.

وذهب منهم طايفة إلى بلبيس فحاصروا بها كاشف الشرقية يومين، ونقبوا عليه الحيطان حتى غلبوه وقتلوا من معه من العسكر، وأخذوه أسيرًا ومعه اثنان من كبار العسكر.

ثم نهبوا البلد وقتلوا من أهلها نحو المايتين، وحضر أبو طويلة شيخ العايد عند الأُمرا ولامهم وكلمهم على هذا النهب، وقال لهم: هذه الزروعات غالبها للعرب والذي زرعه الفلاح في بلاد الشرق (الشرقية) شركة مع العرب، وإن هبود العرب المصاحبين لكم ليس لهم رأس مال في ذلك، فكفوهم وامنعوهم ويأتيكم كفايتكم، وأما النهب فإنه يذهب هدرًا.

فلما سمع كبار العرب المصاحبين لهم من الهنادي وغيرهم قوله: هبود العرب، اغتاظوا منه وكادوا يقتلونه، ووقع بين العربان منافسة واختلاف، وكذلك حصروا كاشف القليوبية، فدخل بمن معه جامع قليوب وتترس به وحارب تلات ليالٍ، وأُصيب كثير من

المحاربين له ثم تركوه ففر بمن بقي معه إلى البحر، ونزل في قارب وحضر إلى مصر، وأخذوا حملته ومتاعه وجبخانته.

وطلبوا مشايخ النواحي مثل شيخ الزوامل والعايد وقليوب وألزموهم بالكلف، وفردوا على القرى الفرد والكلف الشاقة، مثل ألف ريال وألفين وتلاتة، وعينوا بطلبها العرب وعينوا لهم خدمًا وحق طُرق خلاف المقرر عشرين ألف فضة وأزيد، ومن استعظم شيًّا من ذلك أو عصى عليهم حاربوا القرية ونهبوها، وسبوا نساها وقتلوا أهلها وحرقوا جرونهم، وقل الواردون إلى المدينة بالغلال وغيرها فقلت من الرقع، وازدحم الناس على ما يوجد من القليل فيها.

واحتاج العسكر إلى الغلال لأخبازهم؛ لأنهم لم يكن عندهم شي مدخر فأخذوا ما وجدوه في العرصات، فزاد الكرب ومنعوا من يشتري زيادة على ربع الكيل، ولا يدركه إلا بعد مشقة بستين نصفًا، وإذا حضر للبعض من الناس غلة من مزرعته القريبة لا يمكنه إيصالها إلى داره إلا بالتجوه والمصانعة والمغرم لقلقات الأبواب وأتباعهم، فيحجزون ما يرونه داخل البلد من الغلة متعللين بأنهم يريدون وضعها في العرصات القريبة منهم، فيعطونها للفقرا بالبيع، فيعطونهم دراهم ويطلقونهم.

وفي أواخره طلبوا جملة أكياس لنفقة العسكر، فوزعوا جملة أكياس على الأقباط والسيد أحمد المحروقي وتجار البهار ومياسير التجار والملتزمين، وطلبوا أيضًا مال الجهات والتحرير وباقي مسميات المظالم عن سنة تاريخه معجلة.

وفي يوم الخميس تاسع عشرينه خرج الكثير من العسكر ورتبوا أنفسهم تلات فرق في تلات جهات، وردوا الخيول إلا القليل، ووقع بينهم مناوشات قُتل فيها أنفار من الفريقين.

شهر صفر الخير (سنة ١٢١٩)

استهل بيوم الجمعة (١١ مايو) فيه نادوا على الفلاحين والخدامين البطالين بالخروج من مصر، وكل من وجد بعد تلاتة أيام وليس بيده ورقة من سيده يستاهل الذي يجري عليه.

وفي تانيه طاف الأعوان وجمعوا عدة من الناس العتالين وغيرهم ليُسخِّروهم في عمل المتاريس المدافع.

وفي خامسه قبض الوالي على شخص يشتري طربوشًا عتيقًا من سوق العصر بسويقة لاجين، واتهمه أنه يشتري الطرابيش للأخصام من غير حجة ولا بيان، ورمى رقبته عند باب الخرق ظلمًا.

وفي سابعه نزل الأرنؤد من القلعة وتسلمها الباشا وطلع إليها، وضربوا لطلوعه عدة مدافع، ورجع إلى داره آخر النهار.

وفيه أُشيع قدوم سليمان بك حاكم جرجا ووصوله إلى بني سويف، وفي عقبه الألفي الصغير.

وفيه هجم طايفة من الخيالة في طلوع الفجر على المذبح السلطاني وأخذوا تورين، أحدهما من المذبح والآخر من بعض الغيطان، وهرب الجزارون.

وفي يوم السبت تاسعه طلع الباشا إلى القلعة وسكن بها، وضربوا له عدة مدافع.

وفيه حضر كاشف الشرقية المقبوض عليه ببلبيس ومعه اثنان، وقد أفرج عنهم الأُمرا المصرلية وأطلقوهم، فلما وصلوا إلى الباشا خلع عليهم وألبسهم فراوي جبرًا لخاطرهم.

وفيه وصل الخبر بوقوع حرب بين العسكر والمصرلية والعربان، وحضر عدة جرحى، وكانت الواقعة عند الخصوص وبهتيم، وجلا أهل تلك القرى وخرجوا منها، وحضروا إلى مصر بأولادهم وقصاعهم، فلم يجدوا لهم مأوى، ونزل الكثير منهم بالرملية.

وفيه حضر أناس من الذين ذهبوا إلى مولد السيد البدوي، وفيهم عرايا ومجاريح وقتلى، وقد وقفت لهم العرب وقطعت عليهم الطرق؛ فتفرقوا فرقًا في البر والبحر، وحصر العرب طايفة كبيرة منهم بالقراطيين وحصل لهم ما لا خير فيه، وأما الشيخ الشرقاوي فإنه ذهب إلى المحلة الكبيرة وأقام بها أيامًا، ثم ذهب مشرقًا إلى بلده القرين.

وفيه حضر مصطفى أغا الأرنؤدي هجانًا برسالة من عند الألفي، وفيها طلب أتباعه الذين بمصر فلم يأذنوا لهم في الذهاب إليه، واحتجوا بعدم تحقق صداقته للعثمانية.

وفيه ورد الخبر بتوجه سليمان بك الخازندار حاكم جرجا إلى جهة بحري، وأنه وصل إلى بني سويف، وأن الألفي الصغير في أثره بحري منية ابن خصيب، والألفي الكبير مستقر بأسيوط يقبض في الأموال الديوانية والغلال، وأُشيع صلحه مع عشيرته سرًّا، ومظهر خلاف ذلك مع العثمانية.

وفي يوم الأحد عاشره أحضروا جماعة من الوجاقلية عند كتخدا الباشا، فلما استقروا في الجلوس كلموهم وطلبوا منهم سلفة، وحبسوا رضوان كاشف الذي بباب الشعرية،

وطلبوا منه عشرين كيسًا، وكذلك طلبوا من باقي الأعيان، مثل: مصطفى أغا الوكيل، وحسن أغا محرم، ومحمد أفندي سليم، وإبراهيم كتخدا الرزاز وخلافهم مبالغ مختلفة المقادير، وعملوا على الأقباط ألف كيس وحلف الباشا أنها لا تنقص عن ذلك، وفردوا عن البنادر مثل دمياط ورشيد وفوة ودمنهور والمنصورة وخلافها مبالغ أكياس ما بين ثمانين كيسًا وماية كيس وخمسين كيسًا، وغير ذلك لنفقة العسكر، وأحضر الباشا الروزنامجي واتهمه في التقصير.

وفي يوم الاتنين أرسل الباشا الوالي والمحتسب إلى بيت الست نفيسة زوجة مراد بك وطلبها، فركبت معهما وصحبتها امرأتان فطلعا بهن إلى القلعة، وكذلك أرسلوا بالتفتيش على باقي نسا الأُمرا، فاختفى غالبهن وقبضوا على بعضهن، وذلك كله بعد عصر ذلك اليوم.

فلما حصلت الست نفيسة بين يديه قام إليها وأجلها، ثم أمرها بالجلوس وقال لها على طريق اللوم: يصح أن جاريتك مُنَوَّر تتكلم مع صادق أغا وتقول له يسعى في أمر المماليك العصاة، وتلتزم له بالمكسور من جامكية العسكر؟ فأجابته: إن ثبت أن جاريتي قالت ذلك فأنا المأخوذة به دونها، فأخرج من جيبه ورقة وقال لها: وهذه؟ وأشار إلى الورقة فقالت: وما هذه الورقة؟ أرنيها فإني أعرف أن أقرا لأنظر ما هي، فأدخلها ثانيًا في جيبه، ثم قالت له: أنا بطول ما عشت بمصر وقدري معلوم عند الأكابر وخلافهم، والسلطان ورجال الدولة وحريمهم يعرفونني أكثر من معرفتي بك، ولقد مرت بنا دولة الفرنسيس الذين هم أعدا الدين، فما رأيت منهم إلا التكريم، وكذلك سيدي محمد باشا كان يعرفني ويعرف قدري، ولم نرَ منه إلا المعروف، وأما أنت فلم يوافق فعلُك فعلَ أهل دولتك ولا غيرهم، فقال: ونحن أيضًا لا نفعل غير المناسب، فقالت له: وأي مناسبة في أخذك لي من بيتي بالوالي مثل أرباب الجرايم، فقال: أنا أرسلته لكونه أكبر أتباعي فإرساله من باب التعظيم ثم اعتذر إليها، وأمرها بالتوجه إلى بيت الشيخ السحيمي بالقلعة وأجلسوها عنده، بجماعة من العسكر، وأصبح الخبر شايعًا بذلك؛ فتكدرت خواطر الناس لذلك.

وركب القاضي ونقيب الأشراف والشيخ السادات والشيخ الأمير، وطلعوا إلى الباشا وكلموه في أمرها، فقال: لا بأس عليها وإني أنزلتها ببيت الشيخ السحيمي مكرمة حسمًا للفتنة؛ لأنها حصل منها ما يوجب الحجر عليها، فقالوا: نريد بيان الذنب، وبعد ذلك إما العفو أو الانتقام، فقال: إنها سعت مع كبار العسكر تستميلهم إلى المماليك العصاة،

ووعدتهم بدفع علوفاتهم، وحيث إنها تقدر على دفع العلوفة فينبغي أنها تدفع العلوفة، فقالوا له: إن ثبت عليها ذلك فإنها تستحق ما تأمرون به، فيُحتاج أن نتفحص على ذلك؛ فقام إليها الفيومي والمهدي وخاطباها في ذلك، فقالت: هذا كلام لا أصل له، وليس لي في المصرلية زوج حتى أني أخاطر بسببه، فإن كان قصده مصادرتي فلم يبقَ عندي شي وعليَّ ديون كثيرة، فعادوا إليه وتكلموا معه وraddوهم، فقال الشيخ الأمير للترجمان: قل لأفندينا: هذا أمر غير مناسب ويترتب عليه مفاسد، وبعد ذلك يتوجه علينا اللوم، فإن كان كذلك فلا علاقة لنا بشي من هذا الوقت أو نخرج من هذه البلدة، وقام قايمًا على حيله يريد الذهاب، فمسكه مصطفى أغا الوكيل وخلافه وكلموا الباشا في إطلاقها، وأنها تقيم ببيت الشيخ السادات؛ فرضي بذلك وأنزلوها ببيت الشيخ السادات، وكانت عديلة هانم بنت إبراهيم بك عندما وصلها الخبر ذهبت إلى بيته أيضًا.

وفيه شنقوا شخصًا على السبيل بباب الشعرية شكا منه أهل حارته، وأنه يتعاطى القيادة ويجمع بين الرجال والنسا وغير ذلك.

وفي يوم الخميس رابع عشره كتبوا أوراقًا وألصقوها بالأسواق بطلب ميري سنة تاريخه المعجلة بالكامل، وكانوا قبل ذلك طلبوا نصفها ثم اضطرهم الحال بطلب الباقي، وعملوا قوايم بتوزيع خمسة آلاف كيس استقر منها على طايفة القبطة خمسماية كيس بعد الألف، وجملة على الملتزمين خلاف ما أخذ منهم قبل ذلك، وعلى الست نفيسة وبقية نسا الأُمرا تمانماية كيس.

وفيه خطف العرب جراية العسكر من عند الزاوية الحمرا.

وفيه وصل سليمان بك الخازندار وعدى إلى جهة طرا، فخرج عدة من العسكر خلاف المرابطين هناك قبل ذلك من العسكر والمغاربة، فقصد المرور من خلف الجبل واللحوق بجماعته جهة الشرق في آخر الليل، فوقف له العسكر وضربوا عليه بالمدافع الكثيرة، واستمر الضرب من الفجر إلى عصر يوم الجمعة، ونفذ بمن معه على حماية، وقتلوا منه مملوكًا واحدًا وحضروا براسه إلى تحت القلعة.

وفيه رجع الكثير من عسكر الأرنؤد وغيرهم، ودخلوا إلى المدينة يطلبون العلوفة واستمر من بقي منهم ببهتيم وبلقيس ومسطرد، وقد أخرجوا أهاليها منها ونهبوها واستولوا على ما فيها من غلال وأتبان وغير ذلك، وكرنكوا فيها ونقبوا الحيطان لرمي بنادق الرصاص من الثقوب وهم مستترون من داخلها، ونصبوا خيامهم في أسطحة الدور، وجعلوا المتاريس من خارج البلدة وعليها المدافع، فلا يخرجون إلى خارج ولا

يبرزون إلى ميدان الحرب، وكل من قرب منهم من الخيالة المقاتلين رموا عليه بالمدافع والرصاص، ومنعوا عن أنفسهم واستمروا على ذلك.

وفيه وردت مكاتبات إلى التجار من الحجاز، وأخبروا بأن الحجاج أدركوا الحج والوقوف بعرفة، ودخلوا قبل الوقوف بيومين، وأخبروا أيضًا بوفاة شريف باشا إلى رحمة الله تعالى، وكان من خيار الدولة العثمانيين، ووردت أخبار أيضًا من البلاد الشامية بوفاة أحمد باشا الجزار في سادس عشرين المحرم (٧ مايو).

وفي يوم السبت سادس عشره (٢٦ مايو) أرسلوا تنابيه إلى أرباب الحرف والصنايع، بطلب دراهم وزعت عليهم، مجموعها خمسماية كيس، فضج الناس وتكدروا مع ما هم فيه من وقف الحال وغلا الأسعار في كل شي، وأصبحوا على ذلك يوم الأحد فلم يفتحوا الحوانيت وانتظروا ما يفعل بهم، وحضر منهم طايفة إلى الجامع الأزهر، ومر الأغا والوالي ينادون بالأمان وفتح الدكاكين فلم يفتح منهم إلا القليل.

وفيه سرح سليم كاشف المحرمجي إلى جهة بحري، وأشيع وصول الألفي الصغير إلى المنية، وأصبح يوم الاتنين اجتمع الكثير من غوغا العامة والأطفال بالجامع الأزهر ومعهم طبول، وصعدوا إلى المنارات يصرخون ويطبلون، وتحلقوا بمقصورة الجامع يدعون ويتضرعون، ويقولون: يا لطيف! وأغلقوا الأسواق والدكاكين.

ووصل الخبر إلى الباشا، بل سمعهم من القلعة، فأرسل قاصدًا إلى السيد عمر النقيب يقول: إننا رفعنا عن الفقرا، فقال: هؤلاء الناس وأرباب الحرف والصنايع كلهم فقرا، وما كفاهم ما هم فيه من القحط والكساد ووقْف الحال حتى تطلبوا منهم لجوامك العسكر، وما علاقاتهم بذلك. فرجع الرسول بذلك.

وحضر الأغا ومعه عدة من العسكر وجلس بالغورية، وهو يأمر الناس بفتح الحوانيت ويتوعد من يتخلف، فلم يحضر أحد ولم يسمعوا لقوله.

وفي وقت العصر رجع القاصد ومعه فرمان برفع الغرامة عن المذكورين، ونادى المنادي بذلك فاطمأن الناس وتفرقوا وذهبوا إلى بيوتهم، وخرج الأطفال يرمحون ويصرخون ويفرحون.

وفي ذلك اليوم عدى محمد علي وجمع كثير من العسكر والمغاربة إلى بر الجيزة، وبرزوا إلى خارج فنزل عليهم جملة من العرب، فحاربوهم فقُتل بينهم أنفار وانجرح منهم كذلك، ثم ترفعوا عنهم فرجعوا ومعهم راس من العرب ومع المغاربة قتيل منهم في تابوت، وهم يقولون: طردناهم، وخطفوا بعض مواشٍ وأغنام في طريقهم من الرعيان فقتلوهم وأخذوها منهم.

وفي (تاسع عشره صفر/٩ مايو ١٨٠٤) أحضر كتخدا الباشا كاتب البهار، وأمره بإحضار ستماية فرق بُن فاعتذر إليه بعدم وجود ذلك، فقال: إنما نأخذها بأثمانها، فقال له: ليس عليَّ إلا التعريف وقد عرَّفتك أن هذا القدر لا يوجد، وإن أردت فأرسل معي من تريد ونكشف على حواصل التجار والخانات؛ فطافوا على الخانات وفتحوا الحواصل فلم يجدوا إلا سبعين فرقًا وأكثرها عليه نشانات كبار العسكر من مشترواتهم، فرجعوا من غير شي، ثم نودي في إثر ذلك بالأمان.

وفيه وقعت معركة بسوق الصاغة بين بعض العسكر الذين يتحشرون في أيام الأسواق في الدلالين والباعة، ويعطلون عليهم دلالتهم وصناعتهم ومعايشهم، وضربوا على بعضهم بالرصاص؛ ففزع الناس وحصلت كَرشة، وظن من لا يعلم الحقيقة من العسكر أنها قومة (هوجة)، فهربوا يمينًا وشمالًا وطلبوا النجاة والتواري، ووافق مرور أغا الإنكشارية في ذلك؛ الوقت فانزعج هو ومن معه وطلب الهرب، ثم انكشف الغبار وظهر شخص عسكري مطروح وبه رمق وآخر مجروح، فرجع الأغا وأمر بحمله في تابوت ونادى بالأمان.

وفي يوم الجمعة تاني عشرينه قبل المغرب ضربوا مدافع كثيرة من القلعة، وكذلك في صبحها يوم السبت، ولم يظهر لذلك سبب سوى ما يقولونه من التمويهات من وصول الأطواخ وعساكر ودلاة برية تارة وبحرية أخرى.

وفيه أشيع وقوع معركة بين المصرلية والعثمانية، وأخذوا منهم متاريس ومدافع ووصل منهم جرحى دخلوا ليلًا، وحضر من المصرلية طايفة ناحية شلقان وقطعوا الطريق على السُّفَّار في البحر، وأخذوا مركبين وأحرقوا مراكب، وامتنع الواصلون والذاهبون، وارتفعت الغلال من الرقع والعرصات وغلا سعرها؛ فخرج إليهم مراكب يقال لها: الشلنبات وضربوا عليهم بالمدافع، وأجلوهم عن ذلك الموضع ووصل بعض مراكب من المعوَّقين.

وفي يوم التلات سادس عشرينه أرسل الباشا إلى المشايخ، فذهبوا إليه فاستشارهم في خروجه إلى الحرب وخروجهم صحبته مع الرعية، فلم يصوبوا رأيه في ذلك، وقالوا له: إذا انهزم العسكر تأمر غيرهم بالخروج، وإذا كانت الهزيمة علينا وأنت معنا من يخرج بعد ذلك؟ وانفضَّ المجلس على غير طايل.

وفي أواخره يوم الأربع ويوم الخميس وقع بينهم مساجلات ومحاربات ومغالبات، واحترقت جبخانة العثمانيين، وقيل: أخذ باقيها ورجع منهم قتلى ومجاريح، وانجرح

عابدي بك أخو طاهر باشا واحترق أشخاص من الطبجية، ودخل سلحدار الباشا والوالي وأمامهما راس واحدة بشوارب كأنه من المماليك.

وفي عصرية ذلك اليوم أخرجوا عساكر ومعهم مدافع وجبخانة أيضًا محملة على نيف وثلاثين جَملًا.

وفيه ضيقوا على نسا الأُمرا في طلب الغرامة، وألزموا بقبضها وتحصيلها من الست نفيسة وعديلة هانم ابنة إبراهيم بك، فوزعتاها بمعرفتهما على باقي النسا، وأرسلوا عساكر يلازمون بيوتهن حتى يدفعن ما التزمن به؛ فاضطر أكثرهن لبيع متاعهن فلم يجدن من يشتري لعموم المضايقة والكساد.

وانقضى هذا الشهر والحال على ما هو عليه من استمرار الحروب والمحاصرات بين الفريقين، وانقطاع الطرق برًّا وبحرًا وتسلط العربان واستغنامهم تفاشل الحكام وانفكاك الأحكام.

وكذلك تسلط الفلاحين المقاومين من سعد وحرام على بعضهم البعض بحسب المقدرة والقوة والضعف وجهل القايمين المتأمرين بطرايق سياسة الإقليم، ولا يعرفون من الأحكام إلا أخذ الدراهم بأي وجه كان، وتمادى قبايح العسكر بما لا تحيط به الأوراق والدفاتر، بحيث إنه لا يخلو يوم من زعجات ورجفات وكرشات في غالب الجهات، إما لأجل امرأة أو أمْرَد، أو خطف شي أو تنازع، وطلب شر بأدنى سبب مع العامة والباعة، أو مشاحنة مع السوقة والمتسببين بسبب إبدال دنانير ذهب ناقص بدراهم فضة كاملة المصارفة من صيارف أو باعة أو غير ذلك.

وتعطل أسباب المعايش وغلو الأسعار في كل شي، وقلة المجلوب ومنع السُّبُل، ووصل سعر الأردب القمح ستة عشر ريالًا، والفول والشعير أكثر من ذلك لقلته وعِزَّته، وإذا حضر منه شي أخذوه لاحتياج العليق قهرًا بأبخس الثمن عند وصوله المأمن، وأجرة طحين الويبة من القمح ستة وأربعون نصفًا مع ما يسرقه الطحانون منها ويخلطونه فيها، وأجرة خبيزها عشرون نصفًا، بحيث ثمن الأردب بعد غربلته وأجرته ومكسه وكلفته وطحينه وخبيزه إلى أن يصير خبزًا — أربعة وعشرون ريالًا، فسبحان اللطيف الخبير المدبر! ومن خَفِيِّ لطفه كثرة الخبز وأصناف الكعك والفطير في الأسواق.

وسعر الرطل من اللحم الجفيط بما فيه من العظم والكبد تسعة أنصاف، والجاموسي سبعة أنصاف الرطل، والراوية الماء تلاتون نصفًا، والسمن القنطار بألفين وأربعماية نصف، وشح الأرز وقل وجوده وغلا ثمنه، ووصل سعر الأردب إلى خمسة وعشرين ريالًا، والجبن القريش بثمانية عشر نصفًا الرطل.

وأما الخضارات فعز وجودها وغلا ثمنها؛ بحيث إن الرطل من البامية بما فيها من الخشب الذي يُرمى من وقت طلوعها إلى أن بلغت حد الكثرة بثمانية أنصاف كل رطل، والرطل قباني اثنتا عشرة أوقية.

وعز وجود البن وغلا سعره، حتى بلغ في هذا الشهر الرطل سبعين نصفًا.

والسكر العادة الصعيدي خمسة وأربعون نصفًا الرطل الواحد، والعسل الأبيض الغير الجيد ثلاثون نصفًا، والعسل الأسود خمسة عشر نصفًا، والعسل القطر عشرون نصفًا الرطل، والصابون أربعة وعشرون نصفًا، كل ذلك بالرطل القباني الذي عمله محمد باشا؛ فلا جزاه الله خيرًا، والشيرج بألفين فضة القنطار، وورد الكثير من الحطب الرومي، ورخص سعره إلى ماية وعشرين نصفًا الحملة بعد تلتماية نصف، وأما أنواع البطيخ والعبدلاوي فلم يشترِه أكثر الناس لقلته وغلو ثمنه، فإن بيعت الواحدة بعشرين نصفًا فأقل فأكثر، والخيار بخمسة أنصاف الرطل من وقت طلوعه إلى أن بلغ حد الكثرة، وبقي بحال لا تقبله الطبيعة البشرية؛ فعند ذلك بيع بنصفين، وأما الفاكهة فلا يشتريها إلا أفراد الأغنيا أو مريض يشتهيها أو امرأة وحْمَى لغلوها، فإن رطل الخوخ بخمسة عشر نصفًا، والتفاح الأخضر كذلك، وقس على ذلك، وذلك لقلة المجلوب وخراب البساتين وغلو علف البهايم وحوز المتسببين، وأخذ الرشوات منهم وتركهم وما يدينون، وأما الأتبان فإنها كثرت وانحل سعرها عما كانت.

شهر ربيع الأول (سنة ١٢١٩)

استهل بيوم السبت (٩ يونيو ١٨٠٤م) وفيه وقع هرج ومرج وإشاعات، ثم تبين أن طايفة من العربان والمماليك وصلوا إلى خارج باب النصر، وظاهر الحسينية، وناحية الزاوية الحمرا، وجزيرة بدران جهة الحلي، ورمحوا على من صادفوه بتلك النواحي، وحالوا بين العسكر الخارجين وبين عرضيهم، وأخذوا ما معهم من الجراية والعليق والجبخانة، فنزل الباشا ومعه عساكر وذهب إلى جهة بولاق، ثم إلى ناحية الزاوية الحمرا وأغلقوا أبواب المدينة، ثم رجع الباشا بعد العصر ودخل من باب العدوي وطلع إلى القلعة، وهو لابس بُرْنسًا، ثم تكرر بينهم وقايع وخروج عساكر ودخول خلافهم ونزول الباشا وطلوعه.

وفي رابعه حضر الشيخ عبد الله الشرقاوي من غيبته بالقرين بعد ذهابه إلى المحلة من طندتا.

وفي يوم الخميس سادسه حضر هجانة بمكاتبة من عند الألفي الكبير خطابًا للباشا، وفيها الأخبار بعزمه على الحضور إلى مصر هو وعثمان بك حسن، ويلتمس أن يُخلوا له الجزيرة وقصر العيني لينظر في هذا الأمر والفساد الواقع بمصر، فكتب له الباشا جوابًا ملخصه: على ما نُقل إلينا أنك في السابق عرَّفتنا أنك مذعن للطاعة، وأرسلنا لك بالإذن والإقامة بجرجا، وما عرفناه موجب هذا الحضور، فإن كنت طايعًا وممتثلًا فارجع إلى جرجا موضع ما كنت، ولك الولاية والحكم بالإقليم القبلي، وأرسل المال والغلال ونحو ذلك من الكلام، وسافروا بالجواب يوم السبت تامنه.

وفيه ترفع الأُمرا المصرلية إلى ناحية مشتهر وبنها، وانتقلوا من منزلهم وأشاع العسكر ذهابهم وهروبهم.

وفيه وردت مكاتبات من الحجاز وأخبروا فيها بموت محمود جاويش الذي سافر بالمحمل، وكذلك الحاج يوسف صيرفي الصرة، وأن طايفة من الوهابيين حاصروا جدة ولم يملكوها، وأن ببلاد الحجاز غلا شديدًا لمنع الوارد عنهم، والأردب القمح بتلاتين ريال فرنسًا (تساوي) من الفضة العددية خمسة آلاف وأربعماية.

وفي يوم السبت ثامنه أرسلوا هناك مراكب حربية يسمونها الشلنبات.

وفي يوم التلات (١١ ربيع أول) خرج محمد علي وحسن بك أخو طاهر باشا إلى جهة القليوبية، وصحبتهم عساكر كثيرة وأدوات، وعدَّى طايفة من الأُمرا إلى بر المنوفية، وهرب حاكم المنوفية من المنوف.

وفي ثالث عشره ورد الخبر بوصول مراكب داوات من القلزم إلى السويس، وفيها حجاج والمحمل، وأخبروا بمحاصرة الوهابيين لمكة والمدينة وجدة، وأن أكثر أهل المدينة ماتوا جوعًا لعزة الأقوات، والأردب القمح بخمسين فرنسًا إن وُجد، والأردب الأرز بماية فرانسة، وقس على ذلك.

وفي خامس عشره يوم السبت وصلت مراكب وفيها طايفة من العسكر، وهم الذين يسمونهم النظام الجديد الذين يقلدون محاربة الإفرنج، وأشاعوا أنهم خمسة آلاف وعشرة آلاف، ووصل صحبتهم الأغا الذي كان حضر بالمجدة والبشارة للباشا بالتقليد والأطواخ، ورجع إلى إسكندرية، فحضر أيضًا وضربوا لوصوله مدافع وشنكًا جهة بولاق، وأرسلوا له خيولًا ويرقًا وطبلخانات، وأركبوه من بولاق، وشق طريقه من وسط المدينة وأمامه وخلفه أتباع الباشا والوالي والجنيبات وعسكر النظام الجديد، وهم دون الماية شخص، والأغا المذكور ومعه أوراق في أكياس حرير ملون وخلفه آخر راكب، ومعه

بقجة يقال إن بداخلها خلعة برسم الباشا، وآخر معه صندوق صغير وعليه دواة كتابه منقوشة بالفضة، وخلفهم الطبلخانات، فلما وصلوا إلى القلعة ضربوا لوصولهم مدافع كثيرة من القلعة، وعمل الباشا ديوانًا في ذلك الوقت بعد العصر وقروا التقليد المذكور.

وفي ذلك اليوم وصلت طايفة من العربان إلى جهة بولاق وجزيرة بدران وناحية المذبح، وخطفوا ما خطفوه وذهبوا بما أخذوه.

وفيه ورد الخبر بوصول الألفي الكبير إلى ناحية بني سويف، وعثمان بك حسن في مقابلته بالبر الشرقي.

وفي يوم الاتنين وصل قاصد من الألفي بمكتوب خطابًا للمشايخ العلما، مضمونه: أنه لا يخفاكم أننا كنا سافرنا سابقًا لقصد راحتنا وراحة البلاد، ورجعنا بأوامر، وحصل لنا ما حصل ثم توجهنا إلى قبلي، واستقرينا بأسيوط بعد حصول الحادث بين إخواننا الأُمرا والعسكر وخروجهم من مصر، وأرسلنا إلى أفندينا الباشا بذلك؛ فأنعم علينا بولاية جرجا ونكون تحت الطاعة، فامتثلنا ذلك وعزمنا على التوجه حسب الأمر، فبلغنا مصادرة الحريم والتعرض لهم بما لا يليق من الغرايم، وتسليط العساكر عليهم ولزومهم؛ فثنينا العزم، واستخرنا الله تعالى في الحضور إلى مصر لننظر في هذه الأحوال، فإن التعرض للحريم والعِرض لا تهضمه النفوس، وكلام كثير من هذا المعنى، فلما وصلتهم المكاتبة أخذوها إلى الباشا وأطلعوه عليها، فقال في الجواب: إنه تقدم أنهم تركوا نساهم للفرنسيس وأخذوا منهم أموالًا، وإني كنت أعطيت له جرجا، ولعثمان بك قنا وما فوق ذلك من البلاد، وكان في عزمي أن أكاتب الدولة وأطلب لهم أوامر ومراسيم بما فعلته لهم وبراحتهم، فحيث إنهم لم يرضوا بفعلي وغرتهم أمانيهم فليأخذوا على نواصيهم.

وفيه شرعوا في حفر خندق قبلي الإمام الليث بن سعد ومتاريس.

وفي ذلك اليوم أرسل محمد علي إلى مصطفى أغا الوكيل وعلي كاشف الصابونجي، فلما حضروا إليه عوقهما إلى الليل، ثم أرسلهما إلى القلعة بعد العشا ماشين ومعهما عدة من العسكر فحبسا بها.

وفي يوم الخميس عشرينه عمل الباشا ديوانًا وحضر المشايخ والوجاقلية، وأظهر زينته وتفاخره في ذلك الديوان، وأوقف خيوله المسوَّمة بالحوش وخيول شجر الدر واصطف العساكر بالأبواب والحوش والديوان، ووقفت أصناف الديوان باختلاف أشكالهم والسعاة بالطاسات المذهبة على روسهم، وخرج الباشا بالشعار والهيبة،

وعلى رأسه الطلخان بالطراز إلى الديوان الكبير المعروف بديوان الغوري، وقد أعدوا له كرسيًّا بغاشية جوخ أحمر وبساط مفروش خلاف الموضع القديم، فجلس عليه وزعقت الجاويشية وأحضر التقليد، فقراه ديوان أفندي بحضور الجمع الكبير.

ثم قرأ فرمانين آخرين، مضمون أحدهما أكثر كلامًا من الثاني، ملخصه الولاية وحكاية الحال الماضية من ولاية علي باشا وشفاعته في الأُمرا المصرية بشرط توبتهم ورجوعهم، ثم عودهم إلى البغي والفجور، وغدر علي باشا المذكور وظلمهم الرعية بمعونة العسكر، ثم قيام الرعية والعسكر عليهم حتى قتلوهم وأخرجوهم من مصر؛ فعند ذلك صفحنا عن العسكر وعفونا عما تقدم منهم، وأمرناهم بأن يلازموا الطاعة، ويكونوا مع أحمد باشا خورشيد بالحفظ والصيانة والرعاية لكافة الرعية والعلما، وإبعاد أهل الفساد والمعتدين وطردهم، وتشهيل لوازم الحج والحرمين من الصرة والغلال ونحو ذلك من الكلام المحفوظ المعتاد المنمق.

ولما انقضى أمر قراة الأوراق قام الباشا إلى مجلسه الداخل، ودخل إليه المشايخ فخلع عليهم فراوي سمور، وكذلك الوجاقية والكتبة والسيد أحمد المحروقي، ثم عملوا شنكًا ومدافع كثيرة وطبولًا.

وأحضر في ذلك الوقت المعلم جرجس وكبار الكتبة، وعدتهم اثنان وعشرون قبطيًّا، ولم تجر عادة بإحضارهم فخلع عليهم أيضًا، ثم نزلوا إلى بيت المحروقي فتغدوا عنده ثم عوقهم إلى العصر، ثم طلبهم الباشا إلى القلعة فحبسهم تلك الليلة، واستمروا في الترسيم وطلب منهم ألف كيس.

وفي يوم السبت تاني عشرينه أفرجوا عن مصطفى أغا الوكيل وعلي كاشف الصابونجي على تلتماية كيس.

وفيه حضر محمد علي وحسن بك أخو طاهر باشا وطلعا إلى القلعة، فخلع عليهما الباشا وهنآه بالولاية، واستقر بمحمد علي والي جرجا وحسن بك والي الغربية، وضربوا لذلك مدافع كثيرة وشنكًا، وعملوا تلك الليلة حراقة وسواريخ من الأزبكية وجهة الموسكي، والحال أنهم لا يقدرون أن يتعدوا بر الجيزة ولا شلقان، فإن طوايف عسكر الألفي وصلوا إلى بر الجيزة، وأخذوا منها الكلف، والأُمرا البحرية منتشرون ببر الغربية والمنوفية.

وفيه هرب شخص من كبار الأرنؤد يقال له إدريس أغا، كان بجماعته جهة برشوم التين، فركب إلى المصرلية ولحق بهم، وتبعه جماعته وهم نحو الماية وخمسين شخصًا.

وفيه أرسل الباشا أغا الإنكشارية ليقبض على علي كاشف من أتباع الألفي من بيته بسوق المالطيين، فأرسل إلى الأرنؤد فأرسلوا له جماعة منعوا الأغا من أخذه وجلسوا

عنده، فأرسل الباشا من طرفه جماعة أقاموا محافظين عليه في بيته، ثم إن سليمان أغا كبير الأرنؤد الذي الْتَجا إليهم المذكور حضر إليه، وأخذه إلى داره بالأزبكية وصحبته الأمير مصطفى البردقجي الألفي أيضًا.

وفي يوم الاتنين وصل شخص رومي بمراسله من الألفي إلى الباشا، فعندما قرا الباشا المراسلة أمر بقتله حالًا، فرموا عنقه برحبة القلعة، وحضر أيضًا مملوك بمراسلة من عند عثمان بك حسن يذكر فيها حضوره مع الألفي، وأنه اغتر بكلامه وتمويهاته عليه وأن بيده أوامر شريفة من الدولة ومن حضرة الباشا بالحضور، ثم ظهر أنه لم يكن بيده شي، وأن عثمان بك ممتثل لما يأمره به الباشا وأمثال ذلك، فكتب له جوابًا وخلع على ذلك المملوك ورجع سالمًا.

وفي يوم الأربع سادس عشرينه أفرجوا عن النصارى الأقباط بعدما قرروا عليهم ألف كيس خلاف البراني، وقدره مايتان وخمسون كيسًا، ونزلوا إلى بيوتهم بعد العشا الأخيرة في الفوانيس.

وفيه وصل الألفي الصغير وانتشرت خيوله إلى بر إنبابة، فرموا مدافع من المراكب وبولاق ورفعوا الغلة من الرقع، وأُشيع أن الألفي الكبير وصل إلى الشوبك، وعثمان بك حسن وصل إلى حلوان، ورجع إبراهيم بك والبرديسي وباقي الأُمرا إلى ناحية بنها، بعدما طافوا المنوفية والغربية وقبضوا الكلف والفرد، وخرج كثير من العسكر إلى معسكرهم ناحية شلقان وما وازاها إلى الشرق، وخرج أيضًا عدة من العسكر إلى ناحية طرا والجيزة.

وفيه أرسل الألفي الصغير ورقة لشخص من كبار العسكر مقطوع الأنف — كان من أتباعه حين كان بمصر — يطلبه للحضور إليه ويعده بالإكرام، وأن يكون كما كان في منزلته عنده، فأخذ الورقة والرسول إلى الباشا فأمر بقتل المرسال وهو رجل فلاح، فقطعوا راسه بالرمليه، وأنعم على مقطوع الأنف بعشرين ألف نصف فضة وشكره. قبل ذلك بأيام وصلت هجانة من العريش، وأخبروا بورود عساكر من الدلاة وغيرهم معونة لمن بمصر، واختلفت الروايات في عدتهم؛ فالمكثر من كذابي العثمانية يقولون: عشرة آلاف، والمقل من غيرهم يقولون: ألفان أو تلاتة.

وفي يوم الأربع تواترت الأخبار بقربهم من الصالحية، وانتقل الأُمرا البحرية إلى بلبيس، وركب منهم عدة وافرة لملاقاة العسكر الواردين، وخرج محمد علي وحسن بك في جمع كثير من العسكر الخيالة إلى جهة الشرقية ببلبيس، ونقلوا عرضيهم من ناحية البحر، وردوا الكثير من أثقالهم إلى المدينة.

وفي يوم الخميس أحضر الباشا طايفة من اليهود وحبسهم، وطلب منهم ألف كيس واستمروا في الحبس.

وفيه رجع الألفي الصغير من ناحية إنبابة إلى جهة الشيمي باستدعا من سيده، وأشاع العثمانية أنهم ذهبوا ورجعوا من حيث أتوا لعجزهم وعدم قدرتهم عليهم، وكان في ظنهم أمور لا تتم لهم كما ظنوا، ولحقتهم جميع العساكر من الجهة الشامية.

وفيه أرسلوا ملاقاة للعساكر الواردين، وفيها قومانية وجبخانة ولوازم على ستين جَملًا ومعهم هجانة، فعندما توسطوا البرية أحاط بهم العربان وأخذوهم.

وفيه تسحب أشخاص من كبار العسكر بأتباعهم، وذهبوا إلى المصريين وانضموا إليهم، فمنهم من ذهب إلى قبلي ومنهم من ذهب إلى بحري.

وفيه عدى الألفي الكبير والصغير إلى البر الشرقي عند عثمان بك، وترفعت مراكبهم إلى قبلي.

وفيه حضر عابدي بك وحسن بك من البحر إلى بولاق، وانتقل محمد علي إلى طنطا جهة برشوم التين بعد مقتلة وقعت بينهم وبين المصريين، وانهزموا وذهبوا إلى تلك الجهة.

وفي يوم الأحد غايته أفرجوا عن طايفة اليهود، بعد أن قرروا عليهم مايتي كيس خلاف البراني.

وفيه حضر خازندار الباشا من الديار الرومية إلى ساحل بولاق، وصحبته أمتعة ولوازم للباشا وأشيا في صناديق.

استهل شهر ربيع الثاني بيوم الاتنين (سنة ١٢١٩)

فيه ركب الخازندار المذكور وطلع إلى القلعة من وسط المدينة، ونزل لملاقاته أغوات الباشا والجاويشية والشفاسية، وحضر صحبته نحو خمسين عسكريًّا، ومشوا أمامه وخلفه والصناديق التي حضرت معه خلفه محملة على الجِمال، والجاويشية أمامه يضربون على طبلات حكم العادة في ركوباتهم، ومعه عدة كبيرة من أتباع الباشا وأمامه الجنيبات والخيول.

وفيه وصلت مراكب من الديار الحجازية إلى السويس وفيها حجاج ومغاربة، ولم يصل منهم إلا القليل، وأكثرهم قتله العسكر الذي بقي بمكة بعد موت شريف باشا ومن انضم إليهم من أجناسهم، وقد حصل منهم غاية الضرر والفساد والقتل حتى في داخل

الحرم؛ لأن الشريف غالبًا ضمهم إليه ورتب لهم جامكية واستمروا معه على هذا الحال الفظيع.

وفيه أنبهم أمر العسكر الدلاة القادمين من الجهة الشامية، واضطربت الروايات عن أخبارهم، فمنهم من قال: إن المصرلية وقفوا لهم بالطرق وقاتلوهم، ورجع من نجا منهم بنفسه، ومنهم من قال: إنهم لما بلغهم قطع الطريق عليهم رجعوا من حيث أتوا، وبعضهم طلب الأمان وانضم إليهم ومن قال: إن فرقة منهم ذهبت من فم الرمانة من طريق دمياط، وقيل: إنهم حضروا بثمانين راسًا منهم إلى بلبيس.

وفي يوم الأربع خرج الوالي بعدة من العسكر وصحبته مدافع وجبخانة، واستقر بزاوية الدمرداش.

وفي يوم الخميس رابعه هجم الأُمرا القبالي، وهم: الألفي وأتباعه، وعثمان بك، وحسن ومن انضم إليهم على طرا، وملكوا منها البرج الذي من ناحية الجبل بعدما ضربوا عليه من أعلى الجبل، وتعدوا إلى ناحية البساتين، وتركوا طرا ومن فيها خلف ظهورهم، وتحاربوا من طوابير العسكر، وكانوا أنفارًا قليلة، ونظرهم الباشا من قلعته فزعق على السلحدار، فركب في عدة من الشفاسية وخرج إليهم، فعندما واجهوهم لم يثبتوا وولوا بعدما سقط منهم أنفار.

وفيه وصل جواب من الأُمرا القبالي إلى المشايخ يذكرون فيه أنهم يخاطبون الباشا في إخماد الحرب وصلحه معهم، فإن ذلك أصلح له، ويكونون معه على ما يجب وما يأمر به ويرتاح من علوفة العسكر التي أوجبت له المصادرات وسلب الأموال وخراب الإقليم، وأن يختار من العسكر طايفة معلومة معدودة يقيمون بمصر، ويأمر الباقي بالسفر إلى بلادهم، فلما خاطبوه بذلك وأطلعوه على المكاتبة أبى، وقال: ليس لهم عندي إلا الحرب.

وفي يوم الجمعة حصلت أيضًا بينهم محاربة، وأصيب من المراكب الحربية التي يسمونها الشلنبات اثنتان، غرقت إحداهما وأُحرقت الثانية، واتهم الباشا الطبجية فقتل منهم خمسة: اثنان بالقلعة وثلاثة بالرميلة.

وفي يوم السبت حضر محمد علي من بحري وذهب إلى جهة القرافة، فأقام بمقام عقبة بن عامر الجهني، ووقع في ذلك اليوم محاربات أيضًا.

وفي يوم الأحد أشيع حضور الأُمرا القبالي إلى ناحية بهتيم، وأنهم أرسلوا إلى المطرية بالجلا عنها، ورمحت العرب نواحي بولاق والجهات البرانية وضربوا عليهم مدافع، وفي ذلك اليوم نظر الباشا وكبار العسكر إلى جهة البساتين فلم يروا أحدًا من المصرلية،

فركب محمد علي وأخذ معه عدة وافرة ودخلوا تلك الجهة فلم يروا أمامهم أحدًا، فلم يزالوا سايرين وإذا بكمين خرج عليهم من جانب الجبل، فأوقع معهم وقعة قوية حتى أثخنوهم وقُتل منهم من قُتل، حتى لحقوا بالمشاة الرَّجَّالة فضربوا عليهم طلقًا وولوا مدبرين، فصار محمد علي يستحثهم ويردهم ويحرضهم فلم يسمعوا له، ورجعوا وفيهم جرحى كثيرة طلعوا بطايفة المزينين لمداواة الجرحى بالقلعة، وأخذوا في ذلك اليوم برج الدير الذي كان بأيدي العسكر جهة البحر بطرا، وقتلوا من به من العسكر، وأعطوا لمن بقي الأمان وهم نحو التلاتين شخصًا.

وفي يوم الاتنين تامنه وصل المصرلية الذين كانوا جهة المشرق، ووصلت مقدماتهم إلى جهة العادلية وناحية الشيخ قمر، بل وعند الكيمان خارج باب النصر، فأغلقوا باب النصر وباب الفتوح والعدوي، وهربت سكان الحسينية، وحصلت كرشة بالجمالية ولم يخرج إليهم أحد من العسكر، بل أخذوا يضربون المدافع من أعلى السور، ودخل محمد بك المنفوخ إلى الحسينية وجلس بمسجد البيومي، وانتشر المماليك والأتباع على الدكاكين والقهاوي، واستمر ضرب المدافع إلى بعد الظهر، ثم إن المصرلية ترفعوا عن الحسينية إلى البشتكية فبطل الرمي، ودخل الوالي وأمامه ثلاثة روس تبين أنها روس مغاربة من مقاطيع الحجاج المرضى، كانوا مطروحين خارج القاهرة.

وفيه طلب جماعة المماليك السيد بدر المقدسي، فخرج إليهم من داره خارج باب الفتوح، فأخذوه عند البرديسي وإبراهيم بك، فأسر إليه إبراهيم بك بأن يكون سفيرًا بينهم وبين الباشا في الصلح معهم، وأنه لا يستقيم حاله مع العسكر ولا يرتاح معهم، وليعتبر بما فعلوه مع محمد باشا، وأما نحن فنكون معه على ما ينبغي من الطاعة والخدمة، وحضر في أواخر النهار.

فلما أصبح يوم التلات ركب وطلع إلى الباشا وبلغه ذلك، فقال له الباشا على سبيل الاختبار والمسايرة: قولك صحيح، ومن يرجع إليهم بالجواب، فقال: أنا؛ فحقدها عليه ثم قام من عنده فأرسل خلفه وعوقه عند الخازندار، فذهب إليه في تاني يوم شيخ السادات والسيد عمر النقيب، وترجوا في إطلاقه فامتنع وقال: أخاف عليه أن يقتله العسكر، ولا بأس عليه، ولا يصلح إطلاقه في هذا الوقت، وبعد خمسة أيام يكون خيرًا، فإنه مقيم عند الخازندار في إكرام وفي مكان أحسن من داره، وهذا رجل اختيار يفعل هذه الفعال، يخرج إلى المخالفين متنكرًا ويرجع من عندهم بكلام، ثم يطلب العود إليهم ثانيًا.

وفي ليلة التلات المذكور حضر محمد علي عند الباشا بعد الغروب، وقبض منه خمسين كيسًا وقيل ثمانين، ورجع إلى معسكره فجمع العسكر وتكلم معهم، وفرَّق

عليهم الدراهم واتفق معهم على الركوب والهجوم على من بطرا في تلك الليلة على حين غفلة، وكان كاتبهم قبل ذلك يُلاطفهم ويُظهر العجز ويطلب معهم الصلح وأمثال ذلك، وفي ظن أوليك صدقه وعدم قدرتهم على مقاومتهم وملاقاتهم.

فلما مضى نحو خمس ساعات من الليل ركب محمد علي في نحو أربعة آلاف فرسانًا ورجالًا، فلما قربوا من الحراس في آخر السادسة ترجلوا، وقسموا أنفسهم ثلاثة طوابير، ذهب قسم منهم جهة الدير، والثاني جهة المتاريس، التالت جهة الخيل، والجماعة وهم صالح بك الألفي ومن معه في غفلتهم ونومهم مطمينين وكذلك حرسهم، فلم يشعروا إلا وقد صدموهم، فاستيقظ القوم وبادروا إلى الهرب والنجاة، فملكوا منهم الدير وأبراج طرا، وكان بها عسكر العثمانيين إلى هذا الوقت محصورين، وقد أشرفوا على طلب الأمان وأخذوا مدفعين كانوا بالمتراس، وبعض أمتعة وثمان هجن وثلاثة عشر فرسًا، وقُتل بينهم بعض أشخاص وانجرح كذلك.

ورجع محمد علي والعسكر على الفور من آخر الليل ومعه خمسة روس، فيها راس واحدة لم يعلم راس من هي، والباقي روس عربان أو سياس أو غير ذلك، وزعموا أن الراس راس صالح بك، وأرسلوا المبشرين آخر الليل إلى الأعيان ليأخذوا البقاشيش، وأشاعوا أنهم قبضوا على الألفي الصغير (بشتك بك) وأحضروه معهم حيًّا، والباقي رموا بأنفسهم إلى البحر.

ولما طلع محمد علي إلى الباشا خلع عليه الفروة التي حضرت له من الدولة، وعلقوا تلك الروس على السبيل بالرميلة، وضربوا شنكًا من القلعة ومدافع، وأظهروا السرور وداروا بالأسواق يضربون بالطنابير، وشمخ المغرضون بآنافهم على المغرضين للمصرلية، ثم تبين عدم صحة تلك الإشاعة، وأن تلك الراس راس بعض الأجناد ولم يُمسَك الألفي كما قالوا.

وفي يوم الأربع عاشره وصل من بحري ثلاث شلنبات كان الباشا أرسل بطلبها عوضًا عما تلف، فعندما وصلوا إلى جهة باسوس، وهناك مركز للمصرلية على جرف عالٍ، أقعدوا به طبجية ليمنعوا من يمر بالمراكب فضربوا عليهم، وضرب من في المراكب الحربية أيضًا على من في البر، فكان ضرب من في البر يصيب من في البحر، وضربهم لا يصيبهم لعُلُو الجرف عليهم؛ فاحترقت جبخانة إحدى الشلنبات واحترق ما فيها بها وغرقت الثانية، ويقال: إن الثالثة لم تكن من المراكب الحربية بل هي مركب معاش، وكان حضر في خفارتهم عدة من المراكب المسافرين فخافوا ورجعوا، وقبضوا على بعض قواويس بها غلال فأخذوا ما فيها.

فلما شاع ذلك في المدينة رفعوا ما كان موجودًا من الغلة بالعرصات، وشحَّت الغلال وعُدِم الفول والشعير، وبيع ربع الويبة من الفول بتسعين نصفًا، وقل وجود الخبز من الأسواق، وخطف بعض العسكر ما وجدوه من الخبز ببعض الأفران، وأخذوا الدقيق من الطواحين، وصار بعض العسكر يدخل بعض البيوت ويطلبون منهم الأكل والعليق لدوابهم.

وفي يوم الخميس والجمعة اشتد الحال، وبيع ربع الويبة من القمح بسبعين نصفًا وثمانين نصفًا وعُدِم الفول، واشترى بعض من وجده ربعًا بماية نصف فضة؛ فيكون الأردب على الحساب بألفين وأربعماية نصف، وخرج عساكر كثيرة ووقعت حروب بين الفريقين، ورجع القبليون إلى طرا وحاربوا عليها، وكانوا شرعوا في عمارة ما تهدم من أبراجها ونقلوا إليها الذخيرة والقومانية والجبخانة والعسكر، وأخذوا جِمال السقايين لنقل الماء إلى الصهريج الذي ببرج طرا، ودار الأغا والوالي على المخازن ببولاق ومصر، وأخذوا منها ما وجدوه من الغلة وأمروا ببيعه على الناس بخمسين نصفًا الربع، وأخذوا لأنفسهم ما وجدوه من الشعير والفول.

وفي يوم السبت قلدوا حسن أغا نجاتي الحسبة فخافته السوقة، واجتهدوا في تكثير العيش والكعك والمأكولات بقدر إمكانهم، واجتهد هو أيضًا في الفحص على الغلال المخزونة وبيعها للخبازين، وأما اللحم الضاني فإنه انعدم بالكلية لعدم ورود الأغنام.

وفيه شح ورود الغلة في العرصات، وذهب أناس إلى بر إنبابة فاشتروا الربع بثمانين نصفًا وأزيد من ذلك، والفول بماية وعشرين وعلق أكثر الناس على بهايمهم ما وجدوه من أصناف الحبوب، مثل: الحمص والعدس، وهم المياسير من الناس، وأما غيرهم فاقتصروا على التبن، وأما العنب والتين في وقت وفرتهما فلم يظهر منهما إلا القليل، وبيع الرطل من العنب بأربعة عشر نصفًا، والتين بسبعة أنصاف، وذلك بعد سلوك الطريق ومشي السفن.

وفي يوم الأحد رابع عشره اجتمعت العساكر الكثيرة للحرب عند شبرا، ورموا على بعضهم بالمدافع والقرابين والبنادق من ضحوة النهار، ثم التحم الحرب بين الفريقين واشتد الجلاد بينهما إلى منتصف النهار، وصبر الفريقان وقُتل بينهما عدة كبيرة من العسكر الأرنؤدة وطايفة المماليك والعربان، فقُتل من أكابر العسكر أربعة أو خمسة ودخلوا بهم المدينة، وانكف الفيتان وانحازا إلى معسكرهما، وبعد هجعة من الليل اجتمع

العسكر من الإنكشارية والأرنؤدية وغيرهم، وكبسوا على متاريس شبرا وبها حسين بك المعروف بالإفرنجي، وعلي بك أيوب، ومعهما عسكر من الأرنؤد الذين انضموا إليهما، ومنهم الرماة والطبجية فأجلوهم عن المتاريس وملكوها منهم، ووقع بينهم قتلى كثيرة وقُتل من عسكر حسين بك المذكور نحوماية وستين نفرًا، وعدة من مماليك علي بك أيوب خلاف الجرحى، وزحفوا على باقي المتاريس فملكوا منهم متاريس شلقان وباسوس، وانهزم المصرلية إلى جهة الشرق بالخانكة وأبي زعبل.

وقيل: إن العسكر المنضمين إليهم المتقيدين بالمتاريس هم الذين خامروا عليهم وانهزموا عن المتاريس، حتى كانوا هم السبب في هزيمتهم، فلما أصبح النهار حضروا بسبعة روس فيها ثلاثة من الأجناد الملتحين وتلاتة بشوارب ورأس أسود، فعلقوها بباب زويلة، ومن التلاتة أجناد رأس له لحية طويلة شايبة شبيهة بلحية إبراهيم بك الكبير، فقال بعض الناس: هذه رأس إبراهيم بك بلا شك، وأشيع ذلك بينهم؛ فاجتمع الناس من كل ناحية للنظر إليه.

ووصل الخبر إلى الباشا فأحضر عبد الرحمن بك والمزين الذي كان يحلق له لمعرفتهما به وآخرين، وطلب الرأس فأحضروها وتأملوها، فمنهم من اشتبهت عليه ومنهم من أنكرها لعلامات يعرفها به، وهي الصلع وسقوط الأسنان، ثم أعيدت إلى مكانها على ذلك الاشتباه.

ثم إنهم عملوا شنكًا ومدافع لذلك، ثم طلبه محمد علي أيضًا وفعل مثل ذلك، ورده أيضًا ثم رفعوه في الليل، واستمر الفرح والشنك يومين، والناس بين نافٍ ومثبت ومُسلِّم ومنكِر ومعاند ومكابر، حتى وردت خدم من معسكرهم وأخبروا بحيلة إبراهيم بك، وأنه بوطاقه جهة الشرق؛ فزال الشك، وأرسل المصريون إلى بيوتهم أوراقًا.

وفي ليلة الاتنين المذكور وقع خسوف قمري، وطلع من المشرق منخسفًا آخذًا في الانجلا، ومقدار المنخسف منه عشرة أصابع، وتم انجلاه في تاني ساعة من الليل، وكان بأول برج الدلو.

وفي ليلة الخميس وصل أمير أخور الصغير من الديار الرومية، وطلع بولاق في صبحها وركب إلى القلعة، فأنزله الباشا ببيت رضوان كتخدا إبراهيم بك بدرب الجماميز، ولم يعلم ما بيده من الأوامر، ثم تبين أن من الأوامر التي معه إخراج خمسماية من العسكر إلى بندر ينبع البحر يقيمون بها محافظين لها من الوهابيين، ويدفع لهم جامكية سنة كاملة وذخيرتها وما يحتاجون إليه من مونة وغلال وجبخانة.

وفي يوم التلات قروا تلك الأوامر، وفيها أنه تعين محمد باشا أبو مرق بعساكر الشام إلى الحجاز، فأحضر الباشا كبار العسكر وعرض عليهم ذلك الأمر، وقال لهم: إنه ورد لي إذْن عام في تقليد من أقلده، فمن أَحب منكم قلدته أمرية طوخ أو طوخين، فامتنعوا من ذلك وقالوا: نحن لا نخرج من مصر ولا نتقلد منصبًا خارجًا عنها، ووصلت الأخبار في هذه الأيام أن الوهابيين ملكوا الينبع.

وفيه وردت الأخبار بأن الألفي عدى إلى البر الشرقي، وكان قبل ذلك عدى إلى البر الغربي، وانتشرت عساكره إلى الجسر الأسود، ثم رجعوا وعدوا إلى البر الشرقي.

وفي يوم الأربع سابع عشره ركب الأُمرا المصرلية، وانتقلوا من الخانكة ومروا من خلف الجبل بحملاتهم وأثقالهم، وذهبوا إلى جهة قبلي وخاب سعيهم ولم ينالوا غرضهم، وكان في ظنهم أنهم إذا حصلوا بالقرب من المدينة خرج إليهم الكثير من العسكر، وانضم إليهم لمقدمات سبقت منهم ومراسلات وكلام وقع بينهم وبين أتباعهم ومماليكهم المجتمعين عند أكابرهم، وذبهم عنهم وعن بيوتهم وحريمهم، بل وإخراج بعض الأتباع والمماليك بمطلوبات إلى أسيادهم خفية وليلًا، حتى استقر في أذهان كثير من العقلا ممالآت كثير من البنباشيات وريسا العسكر مع المصرلية.

وعندما تحقق العسكر ذهابهم ودخلوا إلى المدينة بأثقالهم وحمولهم وانتشروا بها، حتى ملوا الأزقة والطرق والبيوت، وقدمت السفن المعوقة وتواجدت الغلال بالرقع، وتخلف عنهم أناس كانوا منضمين إليهم طلبوا إذنًا بعد ذلك، وحضروا بعد ذلك إلى مصر.

وقدمت عساكر ودلاة في المراكب ودخلوا البيوت بمصر وبولاق، وأخرجوا منها أهلها وسكنوها، وإذا سكنوا دارًا أخربوها وكسروا أخشابها وأحرقوها لوقودهم، فإذا صارت خرابًا تركوها وطلبوا غيرها ففعلوا بها كذلك.

وهذا دأبهم من حين قدومهم إلى مصر حتى عم الخراب ساير النواحي، وخصوصًا بيوت الأُمرا والأعيان وبواقي دور بركة الفيل وما حولها من بيوت الأكابر والقصور التي كانت يُضرَب بأدناها المَثَل، وفي ذلك يقول صاحبنا العلامة الشيخ حسن العطار:

> وأما بركة الفيل فقد رُميَت بكل خطب جليل، وأَورثَت العين بوحشتها بكاءً وعويلًا، والقلبَ بذكر ما سلف من مباهجها حزنًا طويلًا، تبدَّلت مغردات أطيارها بنواعب الغربان، ومحاسن غزلانها بكل عِلج تقذى به العينان، ومشيد قصورها بخرايب وتلال، وأكابر أُمراها بصعاليك وأرذال، ولقد تذكرت

ماضي عيش بها سلف، ومعهد أنس كان الكآبة بعده خلف، فقلت متذكرًا أوليك الأيام التي مرت كأضغاث أحلام:

عـلِّلانـي بـذكـرِ خـشـف رخـيـم　　واسقياني في الروض بنتَ الكرومِ
وصِفَا لي زمان أُنسٍ صَفَا لي　　بـحـبـيـب غَـضٍّ وراحٍ قـديـمِ
حيثما الدهر طوعُنا والأماني　　فـي قيادٍ والوهـمُ فـي تـهـويـمِ
والـرُّبـا فـي نـضـارةٍ وزُهُـوٍّ　　حلَّ فيه من الغَمامِ السجيمِ
خافضات به الغصون رءوسًا　　مـثـقـلات مـن دُرِّ طَـلٍّ نـظـيـمِ
ولـصـفـو الـغـديـر فـيـهـا ولـوع　　يرقب الوصل من مرور النسيمِ
وتـرى الـورد كـالـمـلـيـك لـديـه　　كل غـصـن يـهـوي بـقَـدٍّ قـويـمِ
بسَط الروضُ نحوه وشْي بُسطٍ　　حاكها الطَّل في ابتداعٍ وسيمِ
لِـلُـجَـيْـنِ الـنـهـور فـيـهـا طـرازٌ　　ولـدرِّ الـزهـور رقـش الـرسـومِ
وبـكـاء الـحـمـام هَـيَّـج عـنـدي　　فرط شوق إلى الزمان القديمِ
زمـن بـالـسـرور لـم يـكُ إلا　　حُـلُـمـا مَـرَّ أو تـغـاضـي حـلـيـمِ
فيه كانت تُجلى بدور جمالٍ　　أشرقت عن نجومِ ليلٍ بهيمِ
من بني الترك ذي الجمالِ المفدَّى　　أيُضاهى في الحسن ريم الرمومِ
كل ظـبـي تـراه يـزهـو ويـرنـو　　بـقـوام الـقـنـا وطـرف الـريـمِ
بـرهـة بـاجـتـلا الـمـدام يُـحـيِّـيــ　　ــك يـحـيِّـيك بـعـدُ بـالـتـكـلـيـمِ
أسـرونـي وأطـلـقـوا دمعَ جـفـنـي　　وأثاروا في القلبِ نارَ الجحيم
يـا زمـانًـا بـبـركـة الـفـيـل وَلَّـى　　فيه قد كنت ثاويًا في نعيمِ
لا عـدمـنـاك مـن زمـانٍ تـقـضَّـى　　بـيـن سـاقٍ وشـادنٍ ونـغـيـمِ

قلت: وهكذا الدنيا طبعت على هذا الشأن مَنْ سره زمانٌ ساءته أزمان، وللعاقل في تقلبات الأيام عِبر ما شوهد منها وما غبر.

وفي يوم التلات تالت عشرينه طلع المشايخ عند الباشا، وشفعوا في السيد بدر المقدسي فأطلقه ونزل إلى داره.

وفي يوم الخميس خامس عشرينه قلدوا علي أغا الوالي على العسكر المعين إلى الينبع أميرًا، وضربوا له مدافع وفرح الناس بعزله من الولاية؛ فإنه كان أخبث من تقلد الولاية من العثمانية، وكان الباشا يراعي خاطره ولا يقبل فيه شكوى، وتعين للسفر معه عدة

من العسكر من أخلاط مصر البطالين أروام وخلافهم، وفيه قلدوا مناصب كشوفية الأقاليم لأشخاص من العثمانية.

وفي ثامن عشرينه تشاجر شخص من العسكر مع شخص حكيم فرنساوي عند حارة الإفرنج بالموسكي، فأراد العسكري قتل الفرنساوي فعاجله الفرنساوي فضربه فقتله وفر هاربًا، فاجتمع العسكر وأرادوا نهب الحارة، فوصل الخبر إلى محمد علي، فركب في الوقت ومنع العسكر من النهب وأغلق باب الحارة، وقبض على وكيل قنصل الفرنساوية وأخذه معه وحبسه عنده حتى سكن العسكر.

وفي تلك الليلة أيضًا مر جماعة من العسكر بخُط الدرب الأحمر، فأرادوا أخذ قنديل من قناديل السوق، فقام عليهم الخفير يريد منعهم فذبحوه وأخذوا القنديل، فأصبح الناس فرأوا الخفير مذبوحًا وسمعوا القصة من سكان الدور بالخطة، ووجدوا أيضًا عسكريًّا مقتولًا جهة الموسكي، وغير ذلك حوادث كثيرة في كل يوم من أخذ النسا والمردان والأمتعة والمبيعات من غير ثمن وانقضى الشهر.

وفيه استقر الأُمرا المصرلية جهة صول والبرنبل وما قابلهما من البر الغربي، واستمر عثمان بك حسن والبرديسي وأتباعهما بالبر الشرقي، وشرعوا في بنا متاريس وقلاع بساحل البحر من الجهتين، وأرسل الباشا إلى جهة دمياط ورشيد يطلب عدة مراكب وشلنبات لاستعداد الحروب، واجتهد في ملء صهاريج القلعة، وطلبوا السقايين وألزموهم بذلك؛ فشح الماء بالمدينة وغلا سعره لذلك ولغلو العليق، حتى بلغ ثمن الراوية أربعين نصفًا بعد المشقة في تحصيله؛ لأنه لم يبقَ إلا الروايا الملاكي لأكابر الناس، فيمنعها العُطَّاش عند مرورها قهرًا ويدفعون ثمنها بالزيادة، واتفق شدة الحر وتوالى هبوب الرياح الحارة وجفاف الجو وتأخير زيادة النيل.

شهر جمادى الأولى (سنة ١٢١٩)

استهل بيوم التلات، في ذلك اليوم كان مولد المشهد الحسيني، ونزل الباشا وزار المشهد ودخل عند شيخ السادات باستدعا، وتغذى عنده ثم ركب راجعًا قبل الظهر إلى القلعة، ولم يقع في ليالي المولد حظ للناس ولا انشراح صدور كالعادة؛ بسبب أذية العسكر واختلاطهم بهم وتكديرهم عليهم في الحوانيت والأسواق، حتى إنهم في آخر الليلة التي كان من عادتهم يسهرونها مع ليالٍ قبلها إلى الصباح أغلقوا الحوانيت، وأطفوا القناديل من بعد أذان العشا وذهبوا إلى دورهم.

وفيه قرروا فِردة غلال على البلاد قمح وشعير وتبن أعلى وأوسط وأدنى، الأعلى خمسة عشر أردبًّا وخمسة عشر حمل تبن، والأوسط عشرة، والأدنى خمسة، على أن إقليم القليوبية لم يبقَ به إلا خمس وعشرون قرية فيها بعض سكان، والباقي خراب ليس فيها ديار ولا نافخ نار، ومجموع المطلوب ثمانية آلاف أردب خلاف التبن، وذلك برسم ترحيلة علي باشا إلى الينبع، ثم قرروا فردة كذلك أيضًا، وقدرها ألف وخمسماية كيس رومية.

وفي يوم الجمعة رابعه جمع الباشا المشايخ في ديوان خاص بسبب مكتوب حضر من الأُمرا المصريين خطابًا للمشايخ، مضمونه أنهم يسعون بينهم وبين الباشا فيما يكون فيه الراحة للبلاد والعباد، وأنه يخرج هذه العساكر؛ فإنهم إن داموا بالإقليم كملوا خرابه وهتكوه بأفاعيلهم وظُلمهم وفِسقهم، وطلب العلوفات التي لا يفي ببعضها خراج الإقليم، وأما نحن فإننا مطيعون السلطنة وخدامون بلا جامكية ولا علوفة، وإن لم يفعل ذلك يُعطِنا جهة قبلي نتعيش فيها، وإن أرادوا الحرب فليخرجوا لنا بعيدًا عن الأبنية ويحاربونا في الميدان، والله يُعطي النصر لمن يشا، إلى آخر ما قالوه، فقال الباشا للمشايخ: اكتبوا لهم يأخذوا جهة إسنا ومقبلا، فقالوا: نحن لا نكتب شيًّا، اكتبوا لهم مثل ما تعرفون، وانفض المجلس.

وفيه عزم جماعة من أكابر العسكر على السفر إلى بلادهم، وهم: أحمد بك رفيق محمد علي، وصادق أغا وخلافهما، وأخذوا في تشهيل أنفسهم وبيع متاعهم، ونزلوا إلى بولاق عند عمر أغا، ونزل محمد علي لوداعهم ببيت عمر أغا فاجتمع العسكر وأحاطوا بهم، ومنعوهم من السفر قايلين لهم: أعطونا علوفاتنا المنكسرة، وإلا عطلناكم ولا ندعكم تسافرون بأموال مصر ومنهوباتها، فأخذوا خواطرهم ووعدوهم على أيام وامتنعوا من السفر.

وفي يوم التلات تامنه تقلد شخص من العثمانيين الزعامة، عوضًا عن علي أغا الذي تولى باشة السفر للينبع.

وفي عاشره اجتمع العسكر وطلبوا علوفاتهم من الباشا، فدفعوا للأرنؤد جامكية شهر.

وفي ليلة الجمعة حادي عشر جمادى الأولى الموافق لثاني عشر مسرى القبطي أوفى النيل المبارك سبعة عشر ذراعًا، وكسر سد الخليج في صبح يوم السبت بحضرة الباشا والقاضي ومحمد علي وباقي كبار العسكر وجميع العسكر، وكان جمعًا مهولًا، وضرب

الجميع بنادقهم وجرى الماء بالخليج وركبوا القوارب والمراكب، ودخلوا فيه وهم يضربون بالبنادق، وكذلك من كان منهم بالقواطين والبيوت، وكان الموسم خاصًّا بهم دون أولاد البلد وخلافهم.

وكذلك سكنوا بيوت الخليج مع قُحَّابهم من النسا، ومات في ذلك اليوم عدة أشخاص نسا ورجالًا أصيبوا من بنادقهم.

ومما وقع أنه أصيب شخص من أولاد البلد برصاصة منهم ومات، وحضر أهله يصرخون وأرادوا أخذه ليواروه، فمنعهم الوالي وطلب منهم ثلاثة آلاف درهم فضة، ولم يمكنهم من شيله حتى صالحوه على ألف وخمسماية، وكذلك من كان منهم بالقواطين والبيوت أذن لهم في أخذه ومواراته، ونظر بعضهم إلى أعلى بيوت الخليج فرأى امرأة جالسة في الطاقة، فضربها برصاصة فأصابتها في دماغها وماتت من ساعتها، وغير ذلك مما لم تتحقق أخباره.

وفي يوم الأحد ثالث عشره خرج علي باشا الوالي المسافر إلى الينبع خارج البلد، وأقام جهة العادلية، وارتحل يوم السبت تاسع عشره ومعه ماية عسكري لا غير، وذهب إلى جهة السويس.

وفيه أرسل الباشا إلى المشايخ والوجاقلية، وتكلم معهم في توزيع فردة على أهل مصر لغلاق جامكية العسكر، فدافعوا بما أمكنهم من المدافعة، فقال: هذا الذي نطلبه إنما نأخذه على سبيل القرض ثم نرده إليهم، فقالوا له: لم يبقَ بأيدي الناس ما يقرضونه، ويكفي الناس ما هم فيه من الغلا ووقف الحال وغير ذلك، فالتفت إلى الوجاقلية وقال: كيف يكون العمل؟ فقال أيوب كتخدا: نعمل جمعية مع السيد أحمد المحروقي ويحصل خير، فركن الباشا على ذلك.

ثم اجتمعوا مع المذكور واتفقوا أنهم يطلبونها بكيفية ليس فيها شناعة ولا بشاعة، وهي أنهم قرروا على الوجاقلية قدرًا من الأكياس، وكتبوا بها تنابيه بأسما أشخاص، منها ما جعلوا عليه عشرين كيسًا وعشرة وخمسة وأقل وأكثر، وكذلك وزعوا على أشخاص من تجار البن وخان الخليلي ومغاربة أغراب وأهل الغورية وخلافهم، ومن تراخى في الدفع قبضوا عليه وأودعوه في أضيق الحبوس، ووضعوا الحديد في يديه ورجليه ورقبته، ومنهم من يوقفونه على قدميه والجنزير مربوط بالسقف، وأرسلوا العسكر إلى بيوتهم فجلسوا بها يأكلون ويسكرون ويطلبون من النسا المصروف، خلاف الأكل الذي يطلبونه ويشتهونه، وهو ثمن الشراب والدخان والفاكهة، بل ويأتون بالقحاب معهم ويضربون بالبندق والرصاص بطول الليل والنهار وأمثال ذلك.

وفي يوم الخميس رابع عشرينه أرسل الباشا عسكرًا، فقبض على الأمير علي المدني صهر ابن الشيخ الجوهري وحبسه، فركب إليه المشايخ وكلموه في شأنه وقالوا: إنه رجل وجاقلي من خيار الناس، وما السبب في القبض عليه وما ذنبه الموجب لذلك؟ فقال: إنه رجل قبيح، ولي عليه دعوة شرعية، وإذا كان من خيار الناس ومن الوجاقلية لأي شي يعمل كتخدا عند صالح بك الألفي، وأنه عند هروب مخدومه من الشرقية أخذ ما كان معه من المال على أربعة جِمال ودخل بها إلى داره، وعندي بيِّنة تشهد عليه بذلك، فأنا أطالبه بالمال الذي عنده، وقاموا ونزلوا من غير طايل.

وفي يوم السبت سادس عشرينه تُوُفِّيَ الشيخ موسى الشرقاوي الشافعي، وكان من أعيان العلما الشافعية.

وفي يوم الاتنين تامن عشرينه أحضروا المحمل من السويس، فنزل كتخدا الباشا والأغا والوالي وأكابر العسكر وعدة كبيرة من العسكر وعملوا له الموكب، وشقوا به البلد وخلفه الطبل والزمر.

وفي أواخره وصلت قوافل البن من السويس فحجزها الباشا وأخذها، وأعطى أصحاب البن وثايق بثمن البن لأجل، ووكل في بيعه، وحول به العسكر يأخذونه من أصل علوفاتهم، فبلغ ثمن المحجوز تسعماية كيس، وانهمك المشترون على الشرا، ومنعوا القبانية من الوزن إلا بحضور المقيدين بذلك.

وانقضى هذا الشهر وحوادثه وما وقع فيه من عكوسات العسكر من الخطف والقتل والدعاوى الكذب، وشهاداتهم الزور لبعضهم فيما يدَّعونه، وتواطيهم على ذلك، فيذهب الخبيث منهم فيكتب له عرضحال ويشكو من بعض مساتير الناس أنه غصبه في مدة سابقة قبل ذلك وطلَّق منه زوجته قهرًا بعد أن كان صرف عليها مبلغ دراهم كثيرة في المهر والنفقة والكسوة، ويكتبون له عليه علامة الباشا، ويأخذ صحبته أشخاصًا معينين من أقرانه، فيسحبون المدعى عليه إلى المحكمة فلا يثبت عليه ذلك، فيكتب له القاضي إعلامًا بعدم صحة الدعوى بدراهم يدفعها على ذلك الإعلام، فيذهبون إلى ديوان الباشا ويخبرون الكتخدا ببطلان الدعوى، ويطَّلعون على الإعلام بحضرة الخصم، وهو يظن البراح والخلاص من تلك الدعوى الباطلة، فيقول الكتخدا للخصم: أعطِ المباشرين خدمتهم خمسة أكياس واذهب، وأمثال ذلك، فإن وجد شافعًا أو مغيثًا توسط له أو تشفَّع في تخفيف ذلك قليلًا أو ضمنه أو دفع عنه وأنقذه، وإلا حُبس كغيره وذاق في الحبس أنواع العذاب حتى يدفع ما قرره عليه الكتخدا.

واتفق أن جماعة من سكان المحجر شكوا نظار جامع وسبيل ومدرسة متخربة من أيام الفرنسيس ومعطلة الشعاير والإيراد، فأمر الكتخدا بإحضار النظار وهم ناس فقرا وعواجز، وسألهم فأخبروا بتعطيل الإيراد، فأحضروا مباشرين الأوقاف فحاسبوهم فلم يطلع عليهم شي، فقال الكتخدا: أعطوا المباشرين خدمتهم فلما فرغوا من ذلك بعد مشقة عظيمة قالوا: هاتوا محصول الخزينة، فقالوا: وما يكون محصول الخزينة؟ قالوا: تلاتون كيسًا، من كل ناظر عشرة أكياس؛ فبهت الجماعة وتحيروا في أمرهم، ولم يعلموا ما يعملوا ما يقولون، وفي الحال جذبوهم إلى الحبس، وفيهم رجل من جماعة المشهدية عاجز لا يقدر على القيام، فسعى عليه حريمه وخشداشينه وصالحوا عليه بكيسين وخلصوه، وأما الاثنان الآخران فاستمرا في الحبس والحديد مدة طويلة، وأمثال ذلك.

وفي أواخره أفرجوا عن السيد علي المدني بعدما قرروا عليه أربعة آلاف ريال خلاف البراني، وأمثال ذلك كثير.

شهر جمادى الثانية (سنة ١٢١٩)

استهل بيوم الخميس، فيه حضر القاضي الجديد إلى جهة بولاق، وركب في يوم الجمعة فطلع إلى القلعة وسلم على الباشا ورجع إلى المحكمة، وكان عندما وصل إلى رشيد أرسل إلى الباشا ليأمر له بعمارة المحكمة، فألزم الباشا أصحابها بالعمارة وأمرهم بالاجتهاد في ذلك.

وفيه فُقد اللحم وشح وجوده، وكذلك السكر والعسل، وأما العسل الأبيض فبلغ الرطل خمسين نصفًا إن وُجد؛ لعدم الوارد من ناحية قبلي وقلة المرعى بالجهة البحرية، واستقر الألفي الكبير جهة اللاهون، وبقية الجماعة جهة المنية وأسيوط، وعثمان بك حسن بجبل الطير بالبر الشرقي.

وفي خامسه أُشيع سفر محمد علي إلى بلاده، وكذلك أحمد بك وغيرهم من أكابرهم وشرعوا في بيع جِمالهم وبلادهم ومتاعهم، وكثر لغط الناس بسبب ذلك وكثر إفساد العساكر وخطفهم، وأغلق أهل الأسواق الدكاكين وخاف الناس المرور، وتطيروا منهم وخصوصًا الإنكشارية.

وفي يوم التلات سادسه مر محمد علي وخلفه عدة كبيرة من العسكر وهو ماشٍ على أقدامه، وكذلك حسن بك أخو طاهر باشا، وعابدي بك وأغات الإنكشارية والوالي، وجلس

منهم جماعة جهة الغورية وخان الخليلي ساعة، ثم ذهبوا وكأنهم يطمنون الناس، وأمام بعضهم المناداة بالتركي بالأمن والأمان وفتح الدكاكين، وكل من تعرض لكم اقتلوه، وفي أثر مرورهم وقع الخطف والتعرية.

وفي ذلك اليوم أواخر النهار مرت مركبان فيهما عسكر أرنؤد بالخليج المرخم ومعهم امرأة، وبتلك الجهة عسكر إنكشارية ساكنون ببيت المجنون، فضربوا عليهم رصاصًا من الشبابيك؛ فقُتل منهم جماعة، وهرب من نجا أو عرف العوم، فتحزب الأرنؤد، وجاء منهم طايفة لذلك البيت فلم يجدوا به أحدًا، فأرسل محمد علي إلى حسن بك وتكلم معه في شأن ذلك.

وفي صبحها يوم الأربع قتلوا تلاتة، وقيل خمسة ناحية الموسكي، يقال: إنه بسبب تلك الحادثة، وقيل: بسبب آخر.

وفيه سافر جماعة من العسكر وأخذوا المراكب، وأرسلوا إلى إسكندرية ودمياط ورشيد وغيرها بطلب المراكب، فشحت المراكب ووقف حال المسافرين، وتعطلوا عن المرواح والمجي، وغلا سعر القمح والسمن وعُدِم اللحم وكذلك باقي الأسباب والمأكولات زيادة عن الواقع، وإذا وصلت مراكب نزل في المراكب الكبيرة الخمسة أنفار أو العشرة، والحال أنها تسع الماية، وساروا ينهبون في طريقهم ما يصادفونه من المسافرين ويقتلونهم، ويطلبون من البلاد الكُلَف والمآكل وغير ذلك.

وفي يوم السبت سابع عشره سافر أحمد بك وعلي بك أخو طاهر باشا، وفيه قلد الباشا سلحداره ولاية جرجا وبرزت خيامه جهة دير العدوية.

وفي يوم الخميس تاني عشرينه وصلت مراكب من الشلنبات الحربية، فضربوا لها مدافع من القلعة.

وفي يوم الأحد تعدى جماعة من العسكر وخطفوا عمايم الناس، واتفق أن الشيخ إبراهيم السجيني مر من جهة الداودية وهو راكب بهيئته، فأخذوا طيلسانه من على كتفه وعمامة تابعه وقتلوا من بعضهم أنفارًا.

وفي يوم الاتنين نزل الأغا ونادى على العسكر بالخروج والسفر إلى التجريدة، وكل من كان مسافرًا إلى بلاده فليسافر.

وفيه هربت زوجة عثمان بك البرديسي مع العرب إلى زوجها بقبلي، فلما بلغ الخبر الباشا أحضر أخاها والمحروقي وسألهما عنها، فقالا: لم نعلم بهروبها فعوق أخاها عنده ثم أطلقه بشفاعة المحروقي.

شهر رجب الفرد (سنة ١٢١٩)

استهل بيوم السبت، فيه انتقل العسكر المسافرون من دير العدوية إلى ناحية طرا، وسافر منهم عدة مراكب، وسافر قبل ذلك بأيام كاشف بني سويف، ويقال له: محمد أفندي.

وفي يومَي الاتنين والتلات نادى الأغا وأغات التبديل بخروج العسكر المسافرين، وكثر أذى العسكر للناس، وخطفوا الحمير وتعطلت أشغال الناس في السعي إلى مصالحهم ونقل بضايعهم.

وفي يوم الأربع سافرت التجريدة برًّا وبحرًا، وتأخر محمد علي عن السفر إلى بلاده، كما كان أُشيع ذلك، واشتهر أنه مسافر إلى جهة قبلي، وورد الخبر باستقرار كاشف بني سويف بها، ولم يكن بها أحد من المصرلية.

وفي يوم الأحد تاسعه نزل الباشا إلى وليمة عرس مدعوًّا ببيت السيد محمد بن الدواخلي بحارة الجعيدية وكفر الطماعين، ونزل في حال مروره ببيت السيد عمر أفندي نقيب الأشراف، فجلس عنده ساعة وقدم له حصانين.

وفي حادي عشره نزل الباشا في التبديل ومر من سوق السمكرية، فرأى عسكريًّا يشتري كوز صفيح، فأعطاه خمسة أنصاف فأبى السمكري إلا بعشرة، فأبى ولم يدفع له إلا خمسة، فرآه الباشا فقال له: أعطِه ثمنه، فقال له: وإيش علاقتك؟ وهو لم يعرفه، فقال له: أما تخاف من الباشا علي؟ فقال: الباشا على زبِّي؛ فضربه الباشا وقتله ومضى.

وفي يوم الاتنين سابع عشره أحضروا أربعة روس ووضعوها تجاه باب زويلة، وأشاعوا أنهم من مقتلة وقعت بينهم وبين القبالي، وأشاعوا أنه بعد يومين تصل روس كثيرة، ووصل أيضًا جملة أسرى طلعوا بهم إلى القلعة.

وفي يوم الأربع طلع محمد علي إلى القلعة، فخلع عليه الباشا فروة سمور على سفره إلى قبلي وبرز بوطاقه إلى خارج.

وفي يوم الأربع سادس عشرينه اتهموا قادري أغا بأنه يكاتب الأُمرا المصرلية القبالي، ومنعوه من السفر إلى قبلي وأمروه بأن يسافر إلى بلاده، فركب في عسكره وذهب إلى بولاق وفتح وكالة علي بك الجديدة، ودخل فيها بعسكره وامتنع بها وانضم إليه كثير من العسكر، فحضر إليه محمد علي وكلمهم، وكذلك حضر إليهم الباشا ببولاق فلم يمتثلوا وقالوا: لا نسافر ولا نذهب إلا بمرادنا وأعطونا المنكسر من علوفاتنا فتركوهم، ونادوا على خبازين بولاق لا يبيعون عليهم الخبز ولا المأكولات، فأرسل قادري أغا إلى المحتسب

وقال له: نحن نأخذ العيش بثمنه فإن منعتموه من الأسواق طلعنا إلى البيوت، وأخذنا ما فيها من الخبز، ويترتب على ذلك ما يترتب من الإفساد، فأخبروا الباشا بذلك فأطلقوا لهم بيع الخبز وغيره، واستمر على ذلك أيامًا.

وفيه شرعوا في تحرير فِردة على البلاد، وكتبوا دفاترها الأعلى ثمانون ألف فضة ودون ذلك، ويتبعها على كل بلد جَملان وسمن وأغنام وقمح وتبن وشعير، وفي أواخره حصلت نوَّة وتتابع مرور الغيوم وحصل رعد هايل، ودخل الليل فكثر الرعد والبرق وتبعه المطر، ثم حضر أناس بعد أيام من جهة شرقية بلبيس، وأخبروا أنه نزل بناحية مشتول صواعق أهلكت نحو العشرين من بني آدم وأبقارًا وأغنامًا، وعميت أعين أشخاص من الناس.

وفي هذا الشهر شرعوا في عمل كسوة الكعبة بيد السيد أحمد المحروقي، فقيد بها وكيله بذلك، وشرعوا في عملها في بيت المُلَّا بحارة المقاصيص.

شهر شعبان (سنة ١٢١٩)

استهل بيوم الأحد، في رابعه حضر لحسن بك طوخان، وطلع إلى القلعة ونزل إلى الباشا، ولبس خلعة من خلع الباشا وقاووقًا، وركب ونزل من القلعة وأمامه الجاويشية والسعاة والملازمون، وضربت له النوبة بمعنى أنه صار عوضًا عن أخيه.

وفي يوم الخميس نزل قادري أغا ومن معه من العسكر في المراكب، وسافر جهة بحري وسافر خلفهم عدة من الدلاة، وفيه أُشيع إبطال الفردة في هذا الوقت، ثم قرروا مطلوبات دون ذلك.

وفي يوم الخميس تاني عشره نودي بخروج العسكر إلى السفر لجهة قبلي، ولا يتأخر منهم من كان مسافرًا؛ فشرعوا في الخروج وقضا حوايجهم، وصاروا يخطفون حمير الناس والجِمال.

وفي يوم الجمعة وصل قاصد من الديار الرومية، وعلى يده فرمان جواب عن مراسلة للباشا بإرسال باشة الينبع لمحافظتها من الوهابيين، وأنه أعطاه ذخيرة شهرين بأن يرسل إليه ما يحتاجه من الذخيرة، وكذلك محمد باشا والي جدة يعطي له ما يحتاجه من الذخيرة لأجل حفظ الحرمين، والوصية برعية مصر ودفع المخالفين وأمثال ذلك، فعمل الباشا الديوان في ذلك اليوم، وقروا الفرمان وضربوا عدة مدافع.

وفيه مات الشيخ حجاب.

وفي يوم السبت رابع عشره سافر محمد علي، وفيه هرب علي كاشف السلحدار الألفي ومن بمصر من جماعته، فلما وصل الخبر إلى الباشا أرسل إلى بيوتهم، فلم يجد فيها أحدًا فسمروها وقبضوا على الجيران، ونهبوا بعض البيوت.

وفي سابع عشره سافر حسن باشا أيضًا، ونادوا على العسكر بالخروج.

وفي تاسع عشره حضر طايفة من الدلاة نحو المايتين وخمسين نفرًا، فأنزلهم الباشا بقصر العيني.

وفي يوم التلات المذكور سابع عشره عمل السيد أحمد المحروقي وليمة، ودعا الباشا إلى داره فنزل إليه وتغدى عنده، وجلس نحو ساعتين ثم ركب وطلع إلى القلعة، فأرسل المحروقي خلفه هدية عظيمة، وهي: بقج قماش هندي وتفاصيل ومصوغات مجوهرة، وشمعدانات فضة وذهب وتحايف، وخيول له ولكبار أتباعه صحبة ولده وترجمانه وكتخداه، وخلع عليهم الباشا فراوي سمور.

وفي يوم الأحد تاني عشرينه تُوُفِّيَ السيد أحمد المحروقي فجأة، وكان جالسًا مع أصحابه حصة من الليل فأخذته رعدة، فدثروه ومات في الحال في سادس ساعة من الليل، فسبحان الحي الذي لا يموت! وركب ابنه وطلع إلى الباشا فوعده الباشا بخير، وأرسل القاضي وديوان أفندي وختم على بيته وحواصله، ثم حضروا في تاني يوم فضبطوا موجوداته وكتبوها في دفاتر، وأودعوها في مكان وختموا عليها، وأرسلوا علم ذلك إلى الدولة صحبة صالح أفندي، وكان على أهبة السفر فعوقوه حتى حرروا ذلك، وسافر في يوم الجمعة سابع عشرينه.

وفي يوم الأربع خامس عشرينه أحضروا إحدى وعشرين راسًا لا يُعلم ما هي، وهي متغيرة محشوة بالتبن، وأشاعوا أنهم من ناحية المنية، وأنهم حاربوا عليها وملكوها ولم يظهر لذلك أثر بيِّن.

وفي يوم السبت ثامن عشرينه ألبس الباشا ابن السيد أحمد المحروقي فروة سمور وقفطانًا على دار الضرب، وعلى ما كان أبوه عليه من خدمة الدولة والالتزام، ونزل من القلعة صحبة القاضي إلى المحكمة ثم رجع إلى بيته.

وفي ذلك اليوم بعد العصر وقع رَبع بجوار حمام المصبغة جهة الكعكين على الحمام، فهدم ليوان المسلخ فمات من به من النسا والأطفال والبنات ثلاثة عشر، وخرج الأحيا من داخله وهن عرايا ينفضن غبرات الأتربة والموت.

وحضر الأغا والوالي ومنعوا من رفع القتلى إلا بدراهم، ونهبوا متاع النسا، وقبضوا على الشيخ محمد العجمي مباشر وقف الغوري ليلًا وأزعجوه؛ لأن تلت الحمام جار في

الوقف، والحال أن الحمام لم يسقط وإنما هدمه ما سقط عليه، وكذلك طلبوا ملَّاك الرَّبع، وهم الشيخ عمر الغرياني وشركاه، فذهبوا إلى بيت الشيخ الشرقاوي والتجوا إليه، ثم إن القاضي كلم الباشا في أمر المردومين، وذكر له طلب الحاكم دراهم على رفعهم واجتماع مصيبتين على أهليهم، والْتَمس منه إبطال ذلك الأمر؛ فكتب فرمانًا يمنع ذلك ونودي به في البلدة وسجل.

وفي ليلة الاتنين عمل موسم الرؤية لثبوت هلال رمضان، وركب المحتسب ومشايخ الحرف على العادة من بيت القاضي، ولم يثبت الهلال تلك الليلة ونودي أنه من شعبان.

وانقضى شهر شعبان وقادري أغا عاصٍ جهة شابور في قرية، وصالح أغا ومن معه من العساكر مستمرون على حصاره، وصحبتهم أخلاط من العربان، وجلا أهل شابور عنها وخرجوا على وجوههم مما نزل بهم من النهب وطلب الكلف، وغير ذلك من العاصي منهم والطايع، فإن كلًّا الفريقين تسلطوا على نهب البلاد وطلب الكلف وغيرها، وإذا مرت بهم مركب نهبوها وأخذوا ما فيها؛ فامتنع ورود المراكب وزاد الغلا، وامتنع وجود السمن، وإذا وُجد بِيع العشرة أرطال بخمسماية نصف فضة وستماية ولا يوجد، وبِيع الرطل من البصل في بعض الأيام بثمانية أنصاف، والأردب الفول بثمانية عشر ريالًا، والقمح بستة عشر ريالًا، والرطل الشمع الدهن بأربعين نصفًا، والشيرج بخمسة وثلاثين نصفًا، وأما زيت الزيتون فنادر الوجود، وقس على ذلك.

شهر رمضان (سنة ١٢١٩)

استهل بيوم التلات، في ثانيه حضر صالح أغا الذي كان يحاصر قادري أغا، وضربوا له مدافع، وتحقق أن قادري طلب أمانًا فأرسلوه مع من معه إلى دمياط، وذلك بعد أن ضيقوا عليه وحضر إليه كاشف البحيرة وضايقه من الجهة الأخرى وفرغت ذخيرته؛ فعند ذلك أرسل إلى كاشف البحيرة فأمنه.

وفي سابعه وصل جماعة من الإنكليز إلى مصر، وهم نحو سبعة عشر شخصًا، وفيهم فسيال كبير وآخر كان بصحبة علي باشا الطرابلسي.

وفي عاشره سافر صالح أغا إلى جهة بحري، قيل: ليأتي بجانم أفندي الدفتردار، فإنه لم يزل عاصيًا عن الحضور إلى مصر.

وفيه ركب الباشا في التبديل (متنكرًا)، ونزل من جهة التبانة فوجد في طريقه عسكريًّا يأخذ حمل تبن من صاحبه قهرًا، فكلمه وهو لم يعرفه فأغلظ في الجواب فقتله،

ثم نزل إلى جهة باب الشعرية وخرج على ناحية قناطر الأوز، فوجد جماعة من العسكر غاصبين قصعة زبدة من رجل فلاح وهو يصيح، فأدركهم وهم سبعة وفيهم شخص ابن بلد أمرد لابس ملابس العسكر، فأمر بقتلهم فقبضوا على تلاتة منهم وفيهم ابن البلد وقتلوهم، وهرب الباقون.

ثم نزل إلى ناحية قنطرة الدكة وقتل شخصين أيضًا، وبناحية بولاق كذلك، وبالجملة فقتل في ذلك اليوم نيفًا وعشرين شخصًا، وأراد بذلك الإخافة فانكف العسكر عن الإيذا قليلًا، وتواجد السمن وبعض الأشيا مع غلو الثمن.

وفيه تواترت الأخبار بوقوع حرب بين العسكر والأُمرا المصريين في المنية، وقُتل من الأُمرا صالح بك الألفي، ومراد بك من الصناجق الجدد المقلدين الإمارة خارج مصر، وهو زوج امرأة قاسم بك وخازندار البرديسي سابقًا المعروف باسم موسقو، ولم تزل الحرب قايمة بين الفريقين، وأرسلوا بطلب ذخيرة وعلوفة، فأرسلوا لهم بقسماطًا وغيره.

وفي عشرينه حضر إلى الباشا بعض الرواد، وأخبره أن طايفة من عرب أولاد علي نزلوا ناحية الأهرام بالجيزة، وهم مارون يريدون الذهاب إلى ناحية قبلي، فركب في عسكره إليهم فوجدهم قد ارتحلوا، ووجد هناك قبيلة يقال لهم الجوابيص، نازلين بنجعهم هناك، وهم جماعة مرابطون من خيار العرب، لم يُعهد منهم ضرر ولا أذية لأحد، فقتل منهم جماعة ونهب نجعهم وجِمالهم وأغنامهم، وأحضر صحبته عدة أشخاص منهم وعدَّى إلى مصر بمنهوباتهم وقد باع الأغنام والمعز للجزارين قهرًا، وكذلك الجِمال باعوا منها جملة بالرملية.

وفي سادس عشرينه نهب العربان قافلة التجار الواصلة من السويس، وهي نيف وأربعة آلاف جَمل من البن والبهار والقماش، وأصيب فيها كثير من فقرا التجار وسُلبت أموالهم وأصبحوا لا يملكون شيًّا.

وفيه حضر صالح أغا وصحبته جانم أفندي الدفتردار فأسكنه الباشا بالقلعة، وذكر جانم أفندي المذكور ومن معه للباشا أنهم رأوا هلال رمضان ليلة الاتنين صاموه بإسكندرية ذلك اليوم، وكذلك صاموه في رشيد وفوة وغالب بلاد بحري، وحضر أيضًا الشيخ سليمان الفيومي قبل ذلك بأيام، وحكى ذلك فلم يعمل به القاضي، وقال: إن رؤي الهلال ليلة الأربع أفطرنا، وإن لم يُرَ فهو من رمضان فلما كان بعد عصر ذلك اليوم ضربت مدافع من القلعة، فاشتبه على الناس الأمر، وذهب جماعة إلى القاضي وسألوه، فقال: لا علم لي بذلك.

وأرسل في المسا جماعة من أتباعه وباش كاتب إلى منارة المارستان، فصعدوا إليها وطلع معهم آخرون، وترقبوا رؤية الهلال فلم يروه، وأخبروا القاضي بذلك فأمر بالصوم ونادوا به وأوقدوا المنارات والقناديل، وصلوا التراويح بالمساجد، وتحقق الناس الصيام من الغد.

فلما كان بعد العشا الأخيرة ضربت مدافع كثيرة من القلعة وسواريخ وشنك؛ فوقع الارتباك، فأرسل القاضي ينادي بالصوم، وذكروا أن هذا المسموع شنك لأخبار وردت بملك المنية، وحضر المبشر بذلك لابن السيد أحمد المحروقي وخلع عليه خلعة، وكذلك بقية الأعيان.

وبعد حصة مر الوالي ينادي بالفطر والعيد؛ فزاد الارتباك وركب بعض المشايخ إلى القاضي وسأله، فأخبر أنه لم يأمر بذلك ولم يثبت لديه رؤية الهلال وأن غدًا من رمضان؛ فخرجوا من عنده يقولون ذلك للناس ويأمرونهم بالصوم، وانحط الأمر على ذلك وطاف المسحرون على العادة.

فلما كان في سادس ساعة من الليل أرسل الباشا إلى القاضي وطلبه، فطلع إليه فعرفه بشهادة الجماعة الواصلين من بحري وأحضرهم بين يديه، فشهدوا برؤية هلال أول الشهر ليلة الاتنين، وهم نحو العشرين شخصًا، فما وسع القاضي إلا قبول شهادتهم وخصوصًا لكونهم أتراكًا، ونزل القاضي ينادي بالفطر ويأمر بطفي القناديل من المنارات، وأصبح كثير من الناس لا علم له بما حصل آخرًا في جوف الليل.

وبالجملة فكانت هذه الحادثة من النوادر، وتبيَّن أن خبر المنية لا أصل له، بل هو من جملة اختلاقاتهم، وانقضى شهر رمضان وكان لا بأس به في قصر النهار؛ لأنه كان في غاية الانقلاب الشتوي والراحة بسبب غياب العسكر وقلتهم بالبلدة وبُعْدهم، ولم يحصل فيه من الكدورات العامة — خصوصًا على الفقرا — سوى غلا الأسعار في كل شي كما تقدم ذكر ذلك في شعبان.

شهر شوال (سنة ١٢١٩)

استهل بيوم الأربع، في تالته سافر السيد محمد بن المحروقي وجرجس الجوهري، ومعهما جملة من العسكر إلى جهة القليوبية بسبب القافلة المنهوبة.

وفي سادسه طلبوا مال الميري عن سنة عشرين معجلة؛ بسبب تشهيل الحج، وكتبوا التنابيه بطلب النصف حالًا، وعينوا بها عساكر عثمانية وجاويشية وشفاسية، فدُهِيَ

الملتزمون بذلك مع أن أكثرهم أفلس، وباقٍ عليهم بواقٍ من سنة تاريخه وما قبلها لخراب البلاد، وتتابع الطلب والفِرد والتعايين والشكاوى والتساويف ووقوف العربان بساير النواحي، وتعطيل المراكب عن السفر لعدم الأمن، وغصبهم ما يرد من السفاين والمعاشات ليرسلوا فيها الذخيرة والعسكر والجبخانة معونة للمحاربين على المنية.

وفي عاشره طلبوا طايفة من المزينين وأرسلوهم إلى قبلي لمداواة الجرحى.

وفيه تواترت الأخبار بحصول مقتلة عظيمة بين المتحاربين، وأن العسكر حملوا على المنية حملة قوية من البر والبحر وملكوا جهة منها، وحضر المبشرون بذلك ليلة الأربع أواخر رمضان كما تقدم، وعملوا الشنك لذلك الخبر، فورد بعد ذلك بنحو ساعتين برجوع الأخصام ثانيًا ومقاتلتهم حتى هزموهم وأجلوهم عن ذلك، وذلك هو الحامل على المغالطة والمناداة في سابع ساعة بثبوت العيد، وإفطار الناس ذلك اليوم.

وفي يوم السبت تامن عشره نزل الباشا إلى قراميدان وحضر القاضي والدفتردار وأمير الحاج، فسلمه الباشا المحمل ونزلوا بقطع الكسوة أمام أمير الحاج، وركب أمامه الأغا والوالي والمحتسب وناظر الكسوة بهيئة محتقرة من غير نظام ولا ترتيب، ومن خلفهم المحمل على جمل صغير أعرج.

وفيه أرسل العسكر يطلبون العلوفة والمعونة، فعمل الباشا فِردة على الأعيان وعلى أتباعه، وجمع لهم خمسماية كيس، وعين للسفر بذلك صالح أغا وعدة عساكر وجبخانة وذخيرة.

وفي عشرينه رجع ابن المحروقي وجرجس الجوهري، وأحضرا معهما بعض أحمال قليلة بعدما صرفا أضعافها في مصالح وكساوي للعرب وغير ذلك.

وفيه ورد الخبر بوصول دفتردار جديد إلى ثغر إسكندرية، وهو أحمد أفندي الذي كان بمصر سابقًا وعمل قبطانًا بالسويس في أيام محمد باشا وشريف أفندي، فكتب الباشا عرضًا للدولة بأنهم راضون على جانم أفندي الدفتردار، وأن أهل البلد ارتاحوا عليه وطلبوا إبقاه دون غيره، وختم عليه القاضي والمشايخ والاختيارية وبعثوه إلى الدولة، وأرسلوا إلى الدفتردار الواصل بعدم المجي ويذهب إلى قبرص حتى يرجع الجواب، فاستمر بإسكندرية.

وفي أواخره تواترت الأخبار بأن جماعة من الأُمرا القبالي ومن معهم من العربان حضروا إلى ناحية الفشن، وحضر أيضًا كاشف الفيوم مجروحًا ومعه بعض عسكر ودلاة في هيئة مشوهة، وتتابع ورود كثير من أفراد العسكر إلى مصر، وأُشيع انتقالهم من أمام المنية إلى البر الشرقي بعد وقايع كثيرة ومحاربات.

وفي يوم الخميس غايته برز أمير الحاج المسافر بالمحمل، وخرج إلى البركة ومعه الصرة أو ما تيسر منها، وعين للسفر معه عثمان أغا الذي كان كتخدا محمد باشا بجماعة من العسكر لأجل المحافظة ليوصلوه إلى السويس، ويسافر من القلزم مثل عام أول.

وفيه ورد الخبر بضياع ثلاث داوات بالقلزم، وأنها تلفت بالقرب من الحساني وتلف بها كثير من أموال التجار وصرر النقود، وكان بها قاضي المدينة أحمد أفندي المنفصل عن قضا مصر، فغرق وطلعت أولاده ورجعوا إلى مصر بعد أيام، وسافروا إلى بلادهم، وورد الخبر بأن القبليين قتلوا حسين بك (شفت) المعروف باليهودي، بعد أن تحققوا خيانته ومخامرته، وانقضى هذا الشهر.

شهر القعدة الحرام (سنة ١٢١٩)

استهل بيوم الجمعة، فيه قرر الباشا فِردة على البلاد؛ فجعل على كل بلد من البلاد: العالماية ألف فضة والدون ستين ألفًا، وعين لذلك ذا الفقار كتخدا الألفي على الغربية، وعلي كاشف الصابونجي على المنوفية، وحسن أغا نجاتي المحتسب على الدقهلية، وذلك خلاف ما تقرر على البنادر من العشرين كيسًا وثلاثين وخمسين وماية وأقل وأكثر.

وفي ليلة الجمعة تامنه حضروا بعلي أغا يحيى المعروف بالسبع قاعات ميتًا من سملوط، وقد كانوا أرسلوه ليكون كتخدا لحسن بك أخي طاهر باشا، وكان المحروقي أرسله إلى بشبيش فتوعك هناك فطلب الباشا رجلًا من الريسا يجعله كتخدا لحسن بك، فأشاروا عليه بعلي أغا هذا فطلبه من المحروقي، فأرسل بإحضاره فحضر في اليوم الذي مات فيه المحروقي، وسافر بعد أيام إلى قبلي، فزاد به المرض هناك ومات بسملوط، فأحضروه إلى مصر بعد موته بخمسة أيام، وخرجوا بجنازته في يوم الجمعة من بيته المجاور لبيت المحروقي وصلوا عليه بالأزهر ودُفن، إلى رحمة الله تعالى.

وفي تاني عشره علقوا تلاتة روس بباب زويلة لا يدري أحد من هم.

وفي خامس عشره تواترت الأخبار بوقوع حرب بين العسكر والأُمرا القبالي وملك العسكر جهة من المنية بعدما اصطدموا عليها من البر والبحر، فوصل الأخصام وحالوا بينهم وبين عسكرهم والمتاريس، وأجلوهم وقُتل من قُتل بين الفريقين، واحترق عدة مراكب من مراكب العسكر وما فيها من المتاع والجبخانة، وأرسلوا بطلب ذخيرة وجبخانة وثياب وغير ذلك، وانتشر عسكر القبليين إلى جهة بحري حتى وصلوا إلى زاوية المصلوب،

وحاصروا مَن في بوش والفشن وبني سويف، وكذلك مَن بالفيوم، وشرع الباشا واجتهد في تجهيز المطلوبات وتشهيل الاحتياجات.

وفيه حضرت سعاة من ثغر إسكندرية، وأخبروا بورود عدة مراكب إنجليزية إلى المينا، وسألوا أهل الثغر عن مراكب فرنسيس وردت المينا أم لا، ثم قضوا بعض أشغالهم وذهبوا.

وفي ليلة الأربع رابع عشره وقعت حادثة، وهو أن كشفًا من أكابر الأرنؤد سكن ببيت ابن السكري الذي بالقرب من الحلوجي، ويتردد عليه رجل من المنتسبين إلى الفقها يُسمَّى الشيخ أحمد البراني خبيث الأفعال يصلي إمامًا بالمذكور، فرأى ما رابه منه مع فراشه فضربه بالخنجر والنبابيت حتى ظن هلاكه، ثم أخرجه أتباعه وحملوه إلى منزله في خامس ساعة من الليل وبه بعض رمق، ومات بعد ذلك، وأُخبر المشايخ بذلك ورُفع القتيل إلى المحكمة وتغيب القاتل.

وامتنع المشايخ من حضور الجامع والتدريس بسبب ذلك.

وبسبب أولاد سعد الخادم سدنة ضريح سيدي أحمد البدوي، وقد كانوا شكوا بعضهم بعضًا، وتعين بسبب ذلك كاشف علي أحمد بن الخادم، وهجم داره وقبض على بناته ونساه، ونبشوا داره وفحروا أرضها للتفتيش على المال، وطالت قصتهم من أواخر الشهر الماضي لوقت تاريخه، وتكلم المشايخ مرارًا مع الباشا في أمرهم وهو يغالط طمعًا في المال، وقد كان سمع تهمتهم بكثرة المال، وأن محمد باشا خسرو أخذ منهم سابقًا في أيام ولايته ماية وخمسة وثمانين ألف ريال خلاف حق الطريق، وذلك من مصطفى الخادم وهو الذي يشكو الآن قسيمه ويقول: إنه هو الذي شكاني وتسبب في مصادرتي، وهو مثلي في الإيراد وعنده مثل ما عندي.

فلما حضروا الدار وفتشوا وقرروا نساه وأتباعه، فلم يظهر له شي فأدرجوا هذه القضية في دعوة المقتول، وامتنعوا من حضورهم الأزهر، وأُشيع امتناعهم من التدريس والإفتا، فحضر إليهم سعيد أغا الوكيل وتلطف بهم، وطلب منهم تسكين هذه الفتنة، وأنه يتكفل بتمام المطلوب.

واستمر الحال على ذلك إلى يوم التلات تاسع عشره، فحضر كتخدا الباشا وسعيد أغا وصالح أغا إلى بيت الشيخ الشرقاوي، واجتمع هناك الكثير من المتعممين وتكلموا كثيرًا، وقالوا: لا بد من حضور الخصم القاتل، والمرافعة معه إلى الشرع ورفع الظلم عن أولاد الخادم، وعن الفلاحين وأمثال ذلك وهم يقولون في الجواب: وسمعًا وطاعة في كل ما تأمرون به، وانقضى المجلس على ذلك وذهبوا حيث أتوا.

فلما كان العصر من ذلك اليوم حضر سعيد أغا وصحبته القاتل إلى المحكمة، وأرسلوا إلى المشايخ فحضروا بالمجلس وأقيمت الدعوى، وحضر ابن المقتول وادعى بقتل أبيه، وذكر أنه أخبره قبل خروج روحه أن القاتل له الكاشف صاحب المنزل، فسُئل (الكاشف) فأنكر ذلك وقال: إنه كان إمامًا عنده يصلي به الأوقات، وإنه لم يأتِ إلينا تلك الليلة التي حصل له فيها هذا الحادث؛ فطلب القاضي من ابن المقتول بيِّنة تشهد بقول أبيه، فلم يجدوا إلا شخصًا سمع من المقتول ذلك القول، وأفتى المالكي أنه يعتبر قول المقتول في مثل ذلك (صادق)؛ لأنه في حالة يستحيل عليه فيها الكذب، وذلك نص مذهبهم ولا بد من بيِّنة تشهد على قوله، فطلب القاضي الشطر الثاني فلم يوجد، على أن هناك من كان حاضرًا بالمجلس وقت الضرب، ومشاهدًا للحادثة وكتم الشهادة خوفًا على نفسه، وانفض المجلس وأُهمل الأمر حتى يأتوا بالبيِّنة.

وفي يوم الأحد عزم على السفر محمد أفندي حاكم إسنا سابقًا بمراكب الذخيرة والجبخانة واللوازم، وصحبته عدة من العساكر لخفارتها.

شهر الحجة الحرام اختتام (سنة ١٢١٩)

استهل بيوم الأحد، في سابعه وردت أخبار بوقوع حرب بين العسكر والمصريين القبليين، وهو أن العسكر حملوا على المنية حملة عظيمة في غفلة وملكوها، فاجتمعت عليهم الغزو والعربان، وكبسوا عليهم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة وأخرجوهم منها، وأجلوهم عنها ثانيًا، وذلك في سابع عشرين القعدة.

وفي يوم الأحد تامنه طلع يوسف أفندي الذي تولى نقابة الأشراف في أيام محمد باشا ثم عزل عنها إلى القلعة، فقبض عليه صالح أغا قوش، وضربه ضربًا مبرحًا وأهانه إهانة زايدة، وأنزلوه أواخر النهار وحبسوه ببيت عمر أفندي النقيب، ثم تشفع فيه الشيخ السادات فأفرجوا عنه تلك الليلة، وذهب إلى داره ليلًا؛ وذلك بسبب دعوى تصدر فيها المذكور وتكلم كلامًا في حق الباشا، فحقدوا عليه ذلك وفعلوا ولم ينتطح فيها عنزان.

وفي تالت عشره طلع المشايخ إلى الباشا يهنونه بالعيد، فأخرج لهم ورقة حضرت إليه من محمد أفندي حاكم إسنا سابقًا، الذي سافر بالذخيرة آنفًا واستمر ببني سويف ولم يقدر على الذهاب إلى قبلي، ومضمون تلك الورقة أن البرديسي قتل الألفي غيلة، ولم يكن لهذا الكلام صحة.

وفيه وردت الأخبار بقدوم طايفة من الدلاة على طريق الشام، وبالغوا في عددهم، فيقولون اثنا عشر ألفًا وأكثر، وأنهم وصلوا إلى الصالحية وأنهم طالبون علوفةً وذخيرةً، فشرعوا في تشهيل ملاقاة للمذكورين، وطلبوا من تجار البهار خمسماية كيس وزعوها وشرعوا في جمعها.

وفيه وصلت طايفة من القبالي والعرب إلى بلاد الجيزة وطلبوا من البلاد دراهم وكلفًا، ومن عصى عليهم من البلاد ضربوه، وعدى كتخدا الباشا وجملة من العساكر إلى بر الجيزة، وشرعوا في تحصينها وعملوا بها متاريس، وتردد الكتخدا في النزول والتعدية إلى هناك والرجوع، ثم إنه عدى في رابع عشره وأقام هناك، وأحضروا ثلاثة روس من العرب في ذلك اليوم، وفي يوم الجمعة رجع الكتخدا وأُشيع رجوع المذكورين.

وفيه قرروا فِردة أخرى على البلاد لأجل عسكر الدلاة القادمين، وجعلوا على كل بلد عشرين أردب فول، وعشرين خروفًا، وعشرين رطل سمن، وعشرين رطل بُن، وعشرة قناطير عيش، وربع أردب وسدس أرز أبيض ومثله برغل، وكلفة المطبخ ألف فضة، وذلك خلاف حق الطريق والاستعجالات المتتابعة بمقررات وحق طرقات.

وفي يوم الأربع تامن عشره حضر ططري من ناحية قبلي، وأخبر أن العسكر دخلوا إلى المنية وملكوها، فضربوا مدافع كثيرة من القلعة وعملوا شنكًا، وأظهر العثمانية وأغراضهم الفرح والسرور وكأنهم ملكوا مالطة، وبالغوا في الأخبار والروايات الكذب في القتلى وغير ذلك، والحال أن الأخصام خرجوا منها ونزحوها ولم يُبقوا بها ما ينقره الطير، ولم يقع بينهم كبير قتال، بل إن العسكر لما دهموها من الناحية القبلية، ولم يكن بها إلا القليل من المصريين وباقيهم خارجها من الناحية الأخرى، فتحاربوا مع من بها وهزموهم، فولى أصحابهم وتركوهم بالبلدة فدخلوها فلم يجدوا بها شيًّا.

وفي يوم الخميس وصل أغات المقرر، وهو عبد أسود وطلع إلى القلعة بموكب، وعملوا له شنكًا ومدافع وقرءوا المقرر في ذلك اليوم بحضرة الجميع.

وفي يوم الأحد تاني عشرينه وصلت طايفة من العرب بناحية الجيزة، فوصل الخبر إلى الكاشف الذي بها وهو دملي عثمان كاشف الذي قتل الشيخ أحمد البراني المتقدم ذكره، فإنه بعد تلك الحادثة قلدوه كشوفية الجيزة وذهب إليها وأقام بها، فلما بلغه ذلك ركب على الفور في نحو خمسة وعشرين خيالًا، ورمحوا عليهم فانهزموا أمامهم فطمع فيهم وذهب خلفهم إلى ناحية برنشت، فخرج عليه كمين آخر واحتاطوا به وقتلوه وقطعوا رأسه وستة أنفار معه، وذهبوا بروسهم على مزاريق، واقتص الله منه، فكان بينه وبين قتله للمذكور دون الشهر، وكان مشهورًا فيهم بالشجاعة والإقدام.

وفيه اجتهدوا في تشهيل علوفة وذخيرة وجبخانة، وسفروها مع جملة من العسكر نحو الخمسماية في يوم الاتنين تالت عشرينه.

وفيه يوم الأربع خامس عشرينه وصل الدلاة إلى الخانكة، فحضر منهم طايفة ودخلوا إلى مصر، فردوهم إلى أصحابهم حتى يكونوا بصحبتهم في الدخول.

وفي يوم الخميس نزل كتخدا الباشا وصالح أغا قوش، وخرجوا إلى جهة العادلية لملاقاة الدلاة المذكورين، وكبيرهم يقال له ابن كور عبد الله.

وفي يوم الجمعة دخل الدلاة المذكورون وصحبتهم الكتخدا وصالح أغا قوش وكاشف الشرقية وكاشف القليوبية وطوايف العسكر، ومعهم نقاقير وطبول، وهم نحو الألفين وخمسماية، أجناس مختلفة وأشكال مجتمعة، فذهبوا إلى ناحية مصر القديمة ونواحي الآثار.

وانقضت السنة وما حصل بها من الغلا وتتابع المظالم والفِرد على البلاد، وإحداث الباشا له مرتبات وشهريات على جميع البلاد، والقبض على أفراد الناس بأدنى شبهة، وطلب الأموال منهم وحبسهم، واشتد الضنك في آخر السنة وعُدِم القمح والفول والشعير، وغلا ثمن كل شي، ولولا اللطف على الخلايق بوجود الذرة حتى لم يبقَ بالرقع والعرصات سواه، واستمرت سواحل الغلال خالية من الغلة هذا العام من العام الماضي وبطول هذه السنة، وامتنع الوارد من الجهة القبلية، وبطلت وقل وجودها وغلا ثمنها، ومع ذلك اللطف حاصل من المولى — جل شأنه — ولم يقع قحط ولا موت من الجوع كما رأينا في الغلوات السابقة من عدم الخبز في الأسواق وخطف أطباق العيش والكعك، وأكل القشور وما يتساقط في الطرقات من قشور الخضروات وغير ذلك.

وكان النيل من المعتاد وكثرة مجي الغلال من جميع النواحي، حتى من الشام والروم بخلاف هذه السنة الشراقي في السنة الماضية.

ولم نرَ فيما رأيناه الفتن والنهب والظلم والعري، وانقطاع الطريق وتعطيل المتاجر من قبلي وبحري وجهات الأرزاق وغلو الأثمان، ومع ذلك المأكولات مع شبع الأنفس وعدم القحط وتيسير الأمور، فسبحان المدبر الفعال!

وبلغ سعر الأردب القمح إلى ثمانية عشر ريالًا، والفول مثل ذلك، والذرة باثني عشر ريالًا، والسمن أربعماية وأكثر، وأرطال العسل النحل خمسة وتلاتين نصفًا الرطل، والأسود عشرين نصفًا، والأرز بستة وثلاثين ريالًا الأردب، وقس على ذلك.

وأما من مات في هذه السنة من الأعيان

فقد مات العمدة العلامة والنحرير الفهامة الفقيه النبيه الأصولي النحوي المنطقي الشيخ موسى السرسي الشافعي، أصله من سرس الليانة بالمنوفية، وحضر إلى الأزهر ولازم الاستفادة وحضور الأشياخ من الطبقة التانية، كالشيخ عطية الأجهوري، والشيخ عيسى البراوي، والشيخ محمد الفرماوي وغيرهم، وتمهر وأنجب في المعقولات والمنقولات وإقرا الدروس وأفاد الطلبة، وانطوى إلى الشيخ حسن الكفراوي مدة ورافقه في الإفتا والقضايا، ثم إلى شيخنا الشيخ أحمد العروسي وصار من خاصة ملازميه، وتخلق بأخلاقه وألزم أولاده بحضور دروسه المعقولية وغيرها دون غيره لحسن إلقاه وجودة تفهيمه وتقريره.

واشتهر ذكره وراش جناحه وراج أمره بانتسابه للشيخ المذكور، واشترى أملاكًا واقتنى عقارًا بمصر وببلده سرس ومنوف ومزارع وطواحين ومعاصر، واشترى دارًا نفيسة بدرب عبد الحق بالأزبكية، وعدَّد الأزواج واشترى الجواري والعبيد والحبشيات الحسان.

وكان حلو المفاكهة، حسن المعاشرة، عذب الكلام، مهذب النفس، جميل الأخلاق، ودودًا، قليل الادعا، محبًّا لإخوانه، مستحضرًا للفروع الفقهية، وكان يكتب على غالب الفتاوى عن لسان الشيخ العروسي، ويعتمده في النقول والأجوبة عن المسايل الغامضة والفروع المشكلة.

وله كتابات وتحقيقات، ولم يزل مشتغلًا بشأنه حتى تعلل أيامًا بدار بميدان القطن مطلة على الخليج، وتُوُفِّيَ يوم السبت سادس عشرين جمادى الأولى من السنة.

ومات الجناب المكرم والمشير المفخم الوزير الكبير والدستور الشهير أحمد باشا الشهير بالجزار، وأصله من بلاد البشناق، وخدم عند المرحوم علي باشا حكيم أوغلي وعمل عنده شفاسيًّا، وحضر صحبته إلى مصر في ولايته التانية سنة إحدى وسبعين وماية وألف، فتشوقت نفسه إلى الحج، واستأذن مخدومه فأذن له في ذلك، وأوصى عليه أمير الحاج إذ ذاك صالح بك القاسمي؛ فأخذه صحبته وأكرمه وواساه رعاية لخاطر علي باشا.

ورجع معه إلى مصر فوجد مخدومه قد انفصل من ولاية مصر وسافر إلى الديار الرومية، ووصل نعيه بعد أربعة أشهر من ذهابه، فاستمر المترجم بمصر وتزيًّا بزي المصريين، وخدم عند عبد الله بك تابع علي بك (الكبير) بلوط قبان، وتعلم الفروسية على طريق الأجناد المصرية.

فأرسل علي بك عبد الله بك بتجريدة إلى عرب البحيرة فقتلوه، فرجع المترجم مع باقي أصحابه إلى مصر فقلده علي بك كشوفية البحيرة وقال له: ارجع إلى الذين قتلوا أستاذك وخلص تاره، فذهب إليهم وخادعهم واحتال عليهم وجمعهم في مكان وقتلهم، وهم نيف وسبعون كبيرًا، وبذلك سُمِّي الجزار ورجع منصورًا، وأحبه علي بك لنجابته وشجاعته وتنقل عنده في الخدم والمناصب والإمريات، ثم قلده الصنجقية وصار من جملة أُمراه.

ولما خرج علي بك منفيًّا خرج صحبته لمرافقته في الغربة والتنقلات والوقايع، ولم يزل حتى رجع علي بك وصحبته صالح بك من الجهة القبلية، وقتل خشداشينه وغيرهم.

ثم عزم على غدر صالح بك وأسرَّ بذلك إلى خاصته، ومنهم المترجم، فلم يسهل به ذلك وتذكر ما بينه وبين صالح بك من المعروف السابق، فأسرَّ به إليه وحذره.

فلما اختلى صالح بك بعلي بك عرض له بذلك، فحلف له علي بك أنه باقٍ على مصافاته وكذَّب المخبر إلى أن كان ما كان من قتلهم وغدرهم لصالح بك كما تقدم، وإحجام المترجم وتأخره عن مشاركته لهم في دمه ومناقشتهم له بعد الانفصال، فتجسم له الأمر فتنكر وخرج هاربًا من مصر في صورة شخص جزايرلي.

وتفقده علي بك وأحاط بداره، وكان يسكن ببيت شكربرة بالقرب من جامع أزبك اليوسفي فلم يجدوه.

وسار المذكور إلى إسكندرية وسافر إلى الروم، ثم رجع إلى البحيرة وأقام بعرب الهنادي وتزوج هناك، ولما أرسل علي بك التجاريد إلى ابن حبيب والهنادي حارب المترجم معهم.

ثم سار إلى بلاد الشام فاستمر هناك في هجاج وتنقلات ومحاربات، واشترى مماليك واجتمع لديه عصبة، واشتهر أمره في تلك النواحي.

ولم يزل على ذلك إلى أن مات الظاهر عمر في سنة تسع وثمانين وماية وألف، ووصل حسن باشا الجزايرلي إلى عكا، فطلب من يكون كفئًا للإقامة بحصنها، فذكروا له المترجم، فاستدعاه وقلده الوزارة وأعطاه الأطواخ والبيرق.

وأقام بحصن عكا وعمَّر أسوارها وقلاعها، وأنشا بها البستان والمسجد، واتخذ له جندًا كثيفًا واستكثر من شِرا المماليك، وأغار على تلك النواحي وحارب جبل الدروز مرارًا، وغنم منهم أموالًا عظيمة، ودخلوا في طاعته، وضرب عليهم وعلى غيرهم الضرايب، وجُبيت إليه الأموال من كل ناحية حتى ملا الخزاين وكنز الكنوز.

وصار يصانع أهل الدولة ورجال السلطنة، ويتابع إرسال الهدايا والأموال إليهم، وتقلد ولاية بلاد الشام، وولَّى على البلاد نوابًا وحكامًا من طرفه.

وطلع الحج الشامي مرارًا وأخاف النواحي، وعاقب على الذنب الصغير القتلَ والحبس والتمثيل، وقطع الآناف والآذان والأطراف، ولم يغفر زلة عالم لعلمه أو ذي جاه لوجاهته، وسلب النعم عن كثير جدًّا من ذوي النعم واستأصل أموالهم، ومات في محبسه ما لا يُحصى من الأعيان والعُلما وغيرهم، ومنهم من أطال حبسه سنينًا حتى مات.

واتفق أنه استراب من بعض سراريه ومماليكه؛ فقتل من قويت فيه الشبهة وحرقهم، ونفى الباقي، الجميع ذكورًا وإناثًا بعد أن مثَّل بهم وقطع آنافهم وأخرجهم من عكا وطردهم وشردهم، وسخط على من آواهم أو تاواهم ولو في أقصى البلاد.

وحضر الكثير منهم إلى مصر وخدموا عند الأُمرا، وانضوى نحو العشرين شخصًا منهم وخدموا عند علي بك كتخدا الجاويشية، فلما بلغ المترجم ذلك تغير خاطره من طرفه، وقطع حبل وداده بعد أن كان يراسله ويواصله دون غيره من أُمرا مصر، وكان ذلك سبب استيحاشه منه إلى أن مات.

ولما فعل بهم ذلك تعصب عليه مملوكاه سليم باشا الكبير وسليمان باشا الصغير، وهو الموجود الآن، وانضم إليهما المتآمرون من خشداشينهما وغيرهم غيظًا على ما فعله بخشداشينهم، وعِلمهم بوحدته وانفراده.

وحاصروه بعكا، ولم يكن معه إلا القليل من العساكر البرانيين والفعلة والصناع الذين يستعملهم في البنا، فألبسهم طراطير مثل الدلاة وأصعدهم إلى الأسوار مع الرماة والطبجية، ورآهم المخالفون عليه فتعجبوا وقالوا: «إنه يستخدم الجن»، وكبس عليهم في غفلة من الليل وحاربهم وظهر عليهم وأذعنوا لطاعته، وتفرق عنهم المساعدون لهم، ثم تتبعهم واقتص منهم وكاد البلاد وقهر العباد.

ونصبت الدولة فخاخًا لصيده مرارًا، فلم يتمكنوا من ذلك، فلم يسعهم بعد ذلك إلا مسالمته ومسايرته.

وثبت قدمُه وطار صيته في جميع الممالك الإسلامية والقرانات الإفرنجية والثغور، واشتهر ذكره وراسله ملوك النواحي وراسلهم وهادَوه وهابوه.

وبنى عدة صهاريج وملاها بالزيت والسمن والعسل والسيرج والأرز وأنواع الغلة، وزرع ببستانه ساير أصناف الفواكه والنخيل والأعناب الكثيرة، وجدد دولته ثانيًا، واشترى مماليك وجواري بدلًا عن الذين أبادهم.

وبالجملة فكان من غرايب الدهر، وأخباره لا يفي القلم بتسطيرها ولا يسعف الفكر بتذكارها، ولو جُمع بعضها جاءت مجلدات، ولو لم يكن له من المناقب إلا استظهاره على الفرنساوية، وثباته في محاربتهم له أكثر من شهرين لم يغفل فيها لحظة لكفاه، وكان يقول: إن الفرنساوية لو اجتهدوا في إزالة جبل عظيم لأزالوه في أسرع وقت، وقد تقدم بعض خبر ذلك في محله.

وكان يقول: أنا المنتظر وأنا أحمد المذكور في الجفور الذي يظهر بين القصرين، واستخرج له كثير من الذين يدَّعون معرفة الاستخراج عبارات وتأويلات ورموزًا وإشارات، ويقولون: المراد بالقصرين مكانان جهة الشام، أو المحملان أو نحو ذلك من الوساوس.

ولم يزل حتى تُوُفِّيَ في آخر هذا العام على فراشه، وكان سليمان باشا تابعه غايبًا بالحجاز في إمارة الحج الشامي، فلما علم أنه مفارق الدنيا أحضر إسماعيل باشا والي مرعش، وكان في محبسه يتوقع منه المكروه في كل وقت، فأقامه وكيلًا عنه إلى حضور سليمان باشا من الحج، وأعطاه الدفاتر وعرَّفه بعلوفة العسكر، وأوصاه.

فلما انقضى نحبه ودفنوه صرف النفقة، واتفق مع طه الكردي وصالح الدولة وتحصن بعكا، وحضر سليمان باشا فامتنعا عليه ولم يمْكنه الدخول إليها، فاستمر إسماعيل باشا إلى أن أخرجه أتباع المترجم بحيلة، وملَّكوا سليمان باشا بعد أمور لم نتحقق كيفيتها، وذلك في السنة التالية.

ومات عين الأعيان ونادرة الزمان شاهبندر التجار، والمرتقي بهمته إلى سنام الفخار، النبيه النجيب والحسيب النسيب السيد أحمد بن أحمد الشهير بالمحروقي الحريري، كان والده حريريًّا بسوق العنبريين بمصر، وكان رجلًا صالحًا منور الشيبة، معروفًا بصدق اللهجة والديانة والأمانة بين أقرانه، ووُلد له المترجم فكان يدعو له كثيرًا في صلاته وساير تحركاته، فلما ترعرع خالط الناس وكتب وحسب، وكان على غاية من الحذق والنباهة، وأخذ وأعطى وباع واشترى، وشارك وتداخل مع التجار وحاسب على الألوف، واتحد بالسيد أحمد بن عبد السلام وسافر معه إلى الحجاز، وأحبه وامتزج به امتزاجًا كليًّا بحيث صارا كالتوأمين أو روح حلَّت بدنين.

ومات عمدة التجار العرايشي وهو بالحجاز، وهو أخو السيد أحمد بن عبد السلام، في تلك السنة فأحرز مخلفاته وأمواله ودفاتر شركاه، فتقيد المترجم بمحاسبة التجار والشركاء والوكلاء ومحاققتهم، فوفر عليه لكوكا (الكثير) من الأموال.

واستأنف الشركات والمعاوضات، وعُدَّ ذلك من سعادة مَقْدم المترجم ومرافقته له، ورجع صحبته إلى مصر وزادت محبته له ورغبته فيه.

وكان لابن عبد السلام شهرة ووصلة بأكابر الأُمرا كأبيه، وخصوصًا مراد بك، فيقضي له ولأُمراه لوازمهم اللازمة لهم ولأتباعهم واحتياجاتهم من التفاصيل والأقمشة الهندية وغيرها، وينوب عنه المترجم في غالب أوقاته وحركاته، ولشدة امتزاج الطبيعة بينهما صار يحاكيه في ألفاظه ولغته وجميع اصطلاحاته، في الحركات والسكنات والخطرات، واشتهر ذكره به عند التجار والأعيان والأُمرا.

واتحدا بمحمد أغا البارودي كتخدا مراد بك اتحادًا زايدًا، وأتحفاه بالجرايا وخصصاه بالمزايا؛ فراج به عند مخدومه شأنهما، وارتفع بالزيادة قدرهما.

ولما تأمر إسماعيل بك واستوزر أيضًا البارودي، استمر حالهما كذلك بل وأكثر، إلى أن حصل الطاعون، ومات به السيد أحمد بن عبد السلام في شعبان، فاستقر المترجم في مظهره ومنصبه شاهبندر التجار بواسطة البارودي أيضًا وسعايته وسعادة طالعه، وسكن داره العظيمة التي عمَّرها بجوار الفحامين محل دكة الحسبة القديم وتزوج بزوجاته، واستولى على حواصله ومخازنه، واستقل بها من غير شريك ولا وارث.

وعند ذلك زادت شهرته وعظم شانه ووجاهته، ونفذت كلمته على أقرانه، ولم يزل طالعه يسمو وسعده يزيد وينمو، وعاد مراد بك والأُمرا المصريون بعد موت إسماعيل بك، وانقلاب دولته إلى إمارة مصر، فاختص بخدمته وقضا سايِر أشغاله.

وكذلك إبراهيم بك وباقي الأُمرا، وقدَّم لهم الهدايا والظرايف، وواسى الجميع أعلاهم وأدونهم بحسن الصنع حتى جذب إليه قلوب الجميع، ونافس الرجال وانعطفت إليه الآمال، وعامل تجار النواحي والأمصار من سايِر الجهات والأقطار.

واشتهر ذكره بالأراضي الحجازية، وكذا بالبلاد الشامية والرومية، واعتمدوه وكاتبوه وراسلوه، وأودعوه الودايع وأصناف التجارات والبضايع.

وزوج ولده السيد محمد، وعمل له مهمًّا عظيمًا افتخر به إلى الغاية، ودعا الأُمرا والأكابر والأعيان وأرسل إليهم إبراهيم بك ومراد بك الهدايا العظيمة المحملة على الجِمال الكثيرة، وكذلك باقي الأُمرا ومعها الأجراس التي لها رنة تُسمع من البعد، ويقدمها جَمل عليه طبل نقارية، وذلك خلاف هدايا التجار وعُظما الناس، والنصارى الأروام، والأقباط الكتبة، وتجار الإفرنج والأتراك والشوام والمغاربة وغيرهم، وخلع الخلع الكثيرة وأعطى

البقاشيش والإنعامات والكساوي، ولا يشغله أمر عن أمر آخر يُمضيه أو غرض ينفذه ويقضيه كما قيل:

أخو عزَمات لا يريد على الذي   يهم به من مقطع الأمر صاحبًا
إذا هَمَّ ألقى بين عينيه عزمه   ونكب عن ذكر العواقب جانبًا

وحج في سنة اثنتي عشرة ومايتين وألف، وخرج في تجمل زايد وجِمال كثيرة وتختروانات ومواهي ومسطحات وفراشين وخدم وهجن وبغال وخيول، وكان يوم خروجه يومًا مشهودًا اجتمع الكثير من العامة والنسا وجلسوا بالطريق للفرجة عليه، ومن خرج معه لتشييعه ووداعه من الأعيان والتجار الراكبين والراجلين معه منهم، وبأيديهم البنادق والأسلحة وغير ذلك، وبعث بالبضايع والذخاير والقومانية والأحمال الثقيلة على طريق البحر لمرساة الينبع وجدة.

وعند رجوع الركب وصل الفرنساوية إلى بر مصر ووصلهم الخبر بذلك، وأرسل إبراهيم بك إلى صالح بك أمير الحاج يطلبه مع الحجاج إلى بلبيس كما تقدم، وذهب بصحبتهم المترجم، وجرى عليه ما ذكر من نهب العرب متاعه وحموله، وكان شيًّا كثيرًا حتى ما عليه من الثياب، وانحصر بطريق القرين فلم يجد عند ذلك بدًّا من مواجهة الفرنساوية، فذهب إلى ساري عسكر بونابارته وقابله، فرحب به وأكرمه ولامه على فراره وركونه للمماليك، فاعتذر إليه بجهل الحال فقبل عذره، واجتهد له في تحصيل المنهوبات وأرسل في طلب المتعدين، واستخلص ما أمكن استخلاصه له ولغيره، وأرسلهم إلى مصر وأصحب معهم عدة من العساكر لخفارتهم يتقدمهم طبلهم، وهم مشاة بالأسلحة بين أيديهم حتى أدخلوهم إلى بيوتهم.

ولما رجع ساري عسكر إلى مصر تردد عليه وأحله محل القبول، وارتاح إليه في لوازمه وتصدى للأمور وقضايا التجار، وصار مرعِيَّ الجانب عنده ويقبل شفاعاته ويفصل القوانين بين يديه ويدي أكابرهم.

ولما رتبوا الديوان تعين من الريسا فيه وكاتبوا التجار وأهل الحجاز وشريف مكة بواسطته، واستمر على ذلك حتى سافر بونابارته.

ووصل بعد ذلك عرضي العثمانية والأُمرا المصرية، فخرج فيمن خرج لملاقاتهم، وحصل بعد ذلك ما حصل من نقض الصلح والحروب، واجتهد المترجم في أيام الحرب وساعد وتصدى بكل همته وصرف أموالًا جمة في المهمات والمؤن إلى أن كان ما كان من

ظهور الفرنساوية، وخروج المحاربين من مصر ورجوعهم فلم يسعْه إلا الخروج معهم والجلا عن مصر، فنهب الفرنساوية داره وما يتعلق به.

ولما استقر يوسف باشا الوزير جهة الشام آنسه المترجم وعاضده، واجتهد في حوايجه واقترض الأموال وكاتب التجار وبذل همته وساعده بما لا يدخل تحت طوق البشر، ويراسل خواصه بمصر سرًّا فيطالعونه بالأخبار والأسرار إلى أن حصل العثمانيون بمصر، فصار المترجم هو المشار إليه في الدولة، والتزم بالإقطاعات والبلاد، وحضر الوزير إلى داره، وقدم إليه التقادم والهدايا، وباشر الأمور العظيمة والقضايا الجسيمة، وما يتعلق بالدول والدواوين والمهمات السلطانية، وازدحم الناس ببابه وكثرت عليه الأتباع والأعوان والقواسة والفراشون وعساكر رومية ومترجمون وكلارجية ووكلا، وحضرت مشايخ البلاد والفلاحون الكثيرة بالهدايا والتقادم والأغنام والجمال والخيول، وضاقت داره بهم فاتخذ دورًا بجواره وأنزل بها الوافدين وجعل بها مضايف وحبوسًا وغير ذلك.

ولما قصد يوسف باشا الوزير السفر من مصر، وكَّلَه على تعلقاته وخصوصياته وحضر محمد باشا خسرو، فاختص به أيضًا اختصاصًا كليًّا وسلم إليه المقاليد الكلية والجزئية، وجعله أمير الضربخانه، وزادت صولته وشهرته وطار صيته واتسعت دايرته، وصار بمنزلة شيخ البلد بل أعظم، ونفذت أوامره في الإقليم المصري والرومي والحجازي والشامي، وأدرك من العز والجاه والعظمة ما لم يتفق لأمثاله من أولاد البلد.

وكان ديوان بيته أعظم الدواوين بمصر، وتقرب وُجها الناس لخدمته والوصول لسدته، ووهب وأعطى وراعى جانب كل من انتمى إليه، وأغدق عليه، وكان يرسل الكساوي في رمضان للأعيان والفُقها والتجار وفيها الشالات الكشميري، ويهب المواهب وينعم الإنعامات ويهادي أحبابه ويسعفهم ويواسيهم في المهمات، وعمل عدة أعراس وولايم أيام وزارة محمد باشا المذكور في داره مرتين أو تلاتة باستدعا، وقدم له التقادم والهدايا والتحايف والرخوت المثمنة والخيول والتعابي من الأقمشة الهندية والمقصبات.

ولما ثارت العسكر على محمد باشا وخرج فارًّا كان بصحبته في ذلك الوقت، فركب أيضًا يريد الفرار معه واختلفت بينهما الطرق، فصادفه طايفة من العسكر فقبضوا عليه وعروا ثيابه وثياب ولده ومن معه، وأخذوا منه جوهرًا كثيرًا ونقودًا ومتاعًا، فلحقه عمر بك الأرنؤدي الساكن ببولاق، وأدركه وخلصه من أيديهم وأخذه إلى داره وحماه، وقابل به محمد علي وغيره، وذهب إلى داره واستقر بها إلى أن انقضت الفتنة، وظهر طاهر باشا فساس أمره معه حتى قُتل.

وحضر الأُمرا المصريون فتداخل معهم وقدم لهم وهاداهم، واتحد بهم وبعثمان بك البرديسي فأبقوه على حالته ونجز مطلوبات الجميع، ولم يتضعضع للمزعجات ولم يتقهقر من المفزعات، حتى أنهم لما أرادوا تقليد الستة عشر صنجقًا في يوم أحضره البرديسي تلك الليلة، وأخبره بما اتفقوا عليه، ووجده مشغول البال متحيرًا في ملزوماتهم؛ فهون عليه الأمر وسهله وقضى له جميع المطلوبات واللوازم للستة عشر أميرًا في تلك الليلة، وما أصبح النهار إلا وجميع المطلوبات من خيول ورخوت وفراوي وكساوي ومزركشات، وذهب وفضة برسم الإنعامات والبقاشيش ومصروف الجيب حاضر لديه بين يديه، حتى تعجب هو والحاضرون من ذلك وقال له: مثلك من يخدم الملوك وأعطاه في ذلك اليوم فارسكور زيادة عما بيده.

ولما ثارت العسكر على الأُمرا المصريين وأخرجوهم من مصر وأحضروا أحمد باشا خورشيد من إسكندرية وقلدوه ولاية مصر، وكان كبعض الأغوات مختصر الحال هيأ له رقم الوزارة والرخوت والخلع واللوازم في أسرع وقت وأقرب مدة.

ولم يزَل شأنه في الترفع والصعود وطالعه مقارنًا للسعود وحاله مشهورًا، وذكره منشورًا حتى فاجأته المنية، وحالت بينه وبين الأمنية؛ وذلك أنه لما دعا الباشا في يوم التلات سابع عشر شهر شعبان نزل إلى داره وتغدى عنده، وأقام نحو ساعتين، ثم ركب وطلع إلى القلعة، فأرسل في أثره هدية جليلة صحبة ولده والسيد أحمد الملا ترجمانه، وهي بقج قماش هندي وتفاصيل ومصوغات مجوهرة وشمعدانات فضة، وتحايف وخيول مرختة، وبدونها برسمه ورسم كبار أتباعه ومضى على ذلك خمسة أيام.

فلما كان ليلة الأحد تاني عشرين شعبان المذكور، جلس حصة من الليل مع أصحابه يحادثهم ويملي الكتبة والمراسلات والحسابات، فأخذته رعدة وقال: إني أجد بردًا؛ فدثروه ساعة ثم أرادوا إيقاظه ليدخل إلى حريمه، فحركوه فوجدوه خالصًا قد فارق الدنيا من تلك الساعة التي دثروه فيها فكتموا أمره، حتى ركب ولده السيد محمد إلى الباشا في طلوع النهار وأخبره، ثم رجع إلى داره وحضر ديوان أفندي والقاضي وختموا على خزانته وحواصله، وأشهروا موته وجهزوه وكفنوه وصلوا عليه بالأزهر في مشهد حافل، ثم رجعوا به إلى زاوية العربي تجاه داره ودفنوه مع السيد أحمد بن عبد السلام، وانقضى أمره.

ثم إن الباشا ألبس ولده محمدًا فروة وقفطانًا على الضربخانه، وما كان عليه والده من خدمة الدولة والالتزام، ونزل من القلعة صحبة القاضي ثم ذهب إلى داره — بارك الله فيه وأعانه على وقته.

ومات الأمير المبجل علي أغا يحيى وأصله مملوك يحيى كاشف تابع أحمد بك السكري، الذي كان كتخدا عند عثمان بك الفقاري الكبير المتقدم ذكرهما، ولما ظهر علي بك وأرسل محمد بك ومن معه إلى جهة قبلي بعد قتل صالح بك، وكان الأمير يحيى في جملة الأُمرا الذين كانوا بأسيوط، ووقع لهم ما تقدم ذكره من الهزيمة وتشتتوا في البلاد؛ فذهب الأمير يحيى إلى إسلامبول وصحبته مملوكه المترجم، وأقام هناك إلى أن مات، فحضر الأمير علي تابعه إلى مصر في أيام محمد بك، وتزوج ببنت أستاذه، وسكن بحارة السبع قاعات واشتهر بها، وعمل كتخدا عند سليمان أغا الوالي إلى أن تقلد سليمان أغا المذكور أغاوية مستحفظان، فصار المترجم مقبولًا عنده ويتوسط للناس عنده في القضايا والدعاوى.

واشتهر ذكره من حينئذٍ، وارتاح الناس عليه في غالب المقتضيات، وباشر فصل الحكومات بنفسه، وكان قليل الطمع ليِّن الجانب، ولما تقلد مخدومه الصنجقية بقي معه على حالته في القبول والكتخداية، وزادت شهرته وتداخل في الأمور الجسيمة عند الأُمرا، ولما حضر حسن باشا وخرج مخدومه من مصر مع من خرج وظهر شان إسماعيل بك والعلويين، استوزره حسن بك الجداوي، وعظم أمره أيضًا في أيامه مع مباشرته لوازم مخدومه الأول، وقضا أشغاله سرًّا، واشترى دار مصطفى أغا الجراكسة التي بجوار العربي بالقرب من الفحامين، وانتقل من السبع قاعات وسكن بها.

وسافر مرارًا إلى الجهة القبلية سفيرًا بين الأُمرا البحرية والقبلية في المراسلات والمصالحات، وكذلك في بعض المقتضيات بالبلاد البحرية، ولم يزَل وافر الحرمة حتى كانت دولة العثمانيين، ونما أمر السيد أحمد المحروقي فانضوى إليه لقرب داره منه، فقيده ببعض الخِدَم وجَبْي الأموال من البلاد الجسيمة، فأرسله قبل موته إلى جهة بشبيش فتمرض بها.

فلما تأمر حسن بك أخو طاهر باشا على التجريدة الموجهة إلى ناحية قبلي طلبوا رجلًا من المصريين يكون ريسًا عاقلًا يكون كتخدا، فأشاروا على المترجم فطلبه الباشا من السيد أحمد المحروقي فأرسل إليه بالحضور، فوصل في اليوم الذي تُوُفِّيَ فيه المحروقي، فأقام أيامًا حتى قضى أشغاله، وسافر وهو متوعك، وتُوُفِّيَ بسمالوط في ثالث القعدة، وحضروا برمته في ليلة الجمعة تامنه، وخرجوا بجنازته من بيته وصلوا عليه بالأزهر ودفنوه بالقرافة — ورحمه الله تعالى وغفر له.

واستهلت سنة عشرين ومايتين وألف

فكان ابتدا المحرم يوم الاتنين، ولما نزل الدلاة جهة البساتين وتلك النواحي فأكلوا زروعات الناس ونهبوا دورًا بدير الطين وطلبوا علوفات زايدة، رتب لهم الباشا الجرايات والعليق والجامكية، وقدرها ستماية كيس في كل شهر.

وفي تامنه سافر أناس كثيرة لزيارة مولد سيدي أحمد البدوي المعتاد، وسافر أيضًا الشيخ الشرقاوي، وحضر هناك كاشف الغربية، وحصل منه قبايح كثيرة وقبض على خلايق كثيرة وبلصهم وحبسهم، وخَوْزَق أناسًا كثيرة من غير ذنب ولا يقبل شفاعة أحد في شيء.

وفيه أشيع قدوم محمد علي وحسن باشا إلى مصر؛ وذلك أنهما لما سمعا بوصول طايفة الدلاة وأن أحمد باشا أرسل إليهم وطلبهم ليتعاضد بهم ويقوِّي بهم ساعِده على الأرنؤدية، عزموا على الرجوع إلى مصر ليتلافوا أمرهم قبل استفحال الأمر.

وفي يوم الخميس حادي عشره طلب الباشا المشايخ وعمر أفندي النقيب والوجاقليلة وأرباب الديوان، فلما اجتمعوا قال لهم: إن محمد علي وحسن باشا راجعان من قبلي من غير إذن أو طلب سرًّا، فإما أن يرجعا من حيث أتيا ويقاتلا المماليك، وإما أن يذهبا إلى بلادهما وأعطيهما ولايات ومناصب في غير أراضي مصر، ومعي أمر من السلطان وكيل مفوض ودستور مكرم أعزلُ من أشا، وأولِّي من أشا، وأعطي من أشا، وأمنع من أشا، ثم أخرج من جيبه ورقة صغيرة في كيس حرير أخضر، وأخبرهم أنها بخط السلطان بما ذكر، فأنتم تكونون معي وتقيمون عندي صحبة كبار الوجاقلية، فقالوا له: إن الشيخ الشرقاوي والشيخ البكري والشيخ المهدي غايبون عن مصر، فقال: نرسل لهم بالحضور؛ فكتبوا لهم أوراقًا من الباشا وأرسلوها إليهم مع السعاة يستعجلونهم للحضور.

ثم اتفقوا على أن يبيت عنده بالقلعة في كل ليلة اثنان من المتعممين، واثنان من الوجاقلية، وأعدوا لهم مكانًا بالضربخانة وأمر بأن يذهب الدلاة والعسكر الباقية إلى ناحية طُرا والجيزة، وأخذوا مدافع وجبخانة.

ووصل محمد علي وحسن باشا إلى ناحية طرا، ومعهم عساكرهم فلم يجسر الدلاتية على ممانعتهم.

وكاد لهم محمد علي كيدًا، منها أنه أرسل إليهم يقول: إنما جينا في طلب العلايف ولسنا مخالفين ولا معاندين، فقال الدلاتية لبعضهم: إذا كان الأمر كذلك فلا وجه للتعرض لهم وأخلوا من طريقهم، ودخل الكثير من طوايف عساكرهم ورجع الدلاتية إلى أماكنهم بدير الطين وقصر العيني والآثار، ونزل كتخدا الباشا وعمر بك الأرنؤدي، فتكلما مع الدلاتية فقالوا: إن القوم لم يكن عندهم خلاف ولا تعدٍّ، وإذا كنتم تمنعون وتحاربون من يطلب حقه فكذلك تفعلون معنا إذا خدمناكم زمنًا ثم طلبنا علايفنا، فرجع الكتخدا وعمر بك الأرنؤدي وتتابع دخول أوليك في كل يوم طايفة بعد أخرى، وسكنوا الدور والبيوت.

وفي يوم الأربع ذهب إليهم سعيد أغا وقابجي باشا الأسودان، وسلما على محمد علي وحسن باشا ثم رجعا.

وفي يوم الجمعة تاسع عشره دخل محمد علي بعد العصر وذهب إلى بيته بالأزبكية، ودخل حسن باشا في صبحها ودخلت طوايفهم، وأخذوا الحمير والبغال وجِمال السقايين وحملوا عليها متاعهم ودخلوا البيوت وأزعجوا السكان وأخرجوهم من مساكنهم وفتحوا البيوت المسدودة، وكثرت أخلاطهم بالأسواق، ومنع الباشا المشايخ والوجاقلية من الذهاب إلى محمد علي والسلام عليه، واستمر الأمر على القلقلة واللقلقة والتوحش، وأخذ محمد علي في التدبير على أحمد باشا وخلعه.

شهر صفر الخير (سنة ١٢٢٠)

استهل بيوم الأربع، والأمر على ما هو عليه، وسعيد أغا ساعٍ ومجتهد في إجرا الصلح، ويركب تارة إلى الباشا وتارة إلى محمد علي وإلى حسن باشا، ويطلع من المشايخ في كل ليلة اتنان من الوجاقلية يبيتون بمكان في دار الضرب وينزلون في الصباح، ولم يعقل لذلك معنى، وفي كل وقت يقع التشاحن بين أفراد العسكر في الطرقات، ويقتلون بعضهم بعضًا.

وحضر سليمان كاشف البواب ومر من خلف الجيزة وذهب إلى جهة وردان، وطلب الأموال من البلاد والكلف، وعدى خازنداره إلى بر المنوفية ومعه عدة كثيرة من العربان

بطلب الأموال من البلاد، ومن عصى عليهم من البلاد ضربوهم ونهبوهم وحرقوا أجرانهم، وكاشف المنوفية داخل منوف لا يقدر على الخروج إلى خارج.

وحضر أيضًا محمد بك الألفي إلى ناحية أبو صير الملق، وانتشرت طوايفه وعربانه بإقليم الجيزة، ومصر مشحونة بأخلاط العسكر وأجناسهم المختلفة داخل المدينة وخارجها، والدلاتية جهة مصر القديمة وقصر العيني والآثار ودير الطين يأكلون الزروعات، ويخطفون ما يجدونه مع الفلاحين والمارين، ويأخذون ما معهم ويخطفون النسا والأولاد، بل ويلوطون في الرجال الاختيارية.

وفي أوله حضر سكان مصر القديمة نسا ورجالًا إلى جهة الجامع الأزهر يشكون ويستغيثون من أفعال الدلاتية، ويخبرون أن الدلاتية قد أخرجوهم من مساكنهم وأوطانهم قهرًا عنهم، ولم يتركوهم يأخذون ثيابهم ومتاعهم، بل ومنعوا النسا أيضًا عندهم، وما خلص منهم إلا من تسلق ونط من الحيطان، وحضروا على هذه الصورة، فركب المشايخ إلى الباشا وخاطبوه في أمرهم؛ فكتب فرمانًا خطابًا للدلاتية بالخروج من الدور وتركها إلى أصحابها، فلم يمتثلوا ولم يسمعوا ذلك.

وخوطب الباشا تانيًا وأخبروه بعصيانهم فقال: إنهم مقيمون ثلاثة أيام ثم يسافرون، وزاد الضجيج والجمع، فاجتمع المشايخ في صبحها يوم الخميس بالأزهر، وتركوا قراة الدروس وخرجت سرية من الأولاد الصغار يصرخون بالأسواق، ويأمرون الناس بغلق الحوانيت، وحصل بالبلدة ضجة ووصل الخبر إلى الباشا بذلك، فأرسل كتخداه إلى الأزهر فلم يجد به أحدًا.

وكان المشايخ انتقلوا بعد الظهر إلى بيوتهم لأغراض نفسانية وفشل مستمر فيهم، فلما لم يرَ أحدًا ذهب إلى بيت الشيخ الشرقاوي.

وحضر هناك السيد عمر أفندي وخلافه فكلموه وأوهموه، ثم قام وانصرف، وفي حال خروجه رجمه الأولاد بالحجارة وسبوه وشتموه.

وبقي الأمر على السكوت إلى يوم الجمعة عاشره، والمشايخ تاركون الحضور إلى الأزهر، وغالب الأسواق والدكاكين مغلوقة، واللغط والوسوسة دايران، وبطل طلوع المشايخ والوجاقلية ومبيتهم بالقلعة.

وفي ذلك اليوم نزل أحمد باشا من القلعة ودخل بيت سعيد أغا؛ وذلك أنه ورد قاصد من إسلامبول وعلى يده تقليد لمحمد علي بولاية جدة، فامتنع من طلوع القلعة، فوقع الاتفاق على أن الباشا ينزل إلى بيت سعيد أغا ويخلع محمد علي هناك.

فلما حضر الباشا هناك، وحضر محمد علي وحسن باشا وأخوه عابدي بك، وتقلد محمد علي باشا ولاية جدة ولبس فروة وقاووقًا وخرج يريد الركوب، ثارت عليه العسكر وطلبوا منه العلوفة، فقال لهم: ها هو الباشا عندكم، وركب هو وذهب إلى داره بالأزبكية، وصار يفرق وينثر الذهب بطول الطريق.

ثم إن العسكر ساروا إلى أحمد باشا ومنعوه من الركوب، فلم يزل إلى بعد الغروب، فلاطفهم حسن باشا ووعدهم، ثم ذهب مع حسن باشا إلى داره، وأُشيع في المدينة حبسه، وفرح الناس وباتوا مسرورين، فلما طلع النهار يوم السبت تبيَّن أنه طلع ثانيًا إلى القلعة في آخر الليل، وطلع صحبته عابدي بك فاغتمَّ الناس ثانيًا.

وفي ذلك اليوم طلب الباشا من ابن المحروقي وجرجس الجوهري ألفي كيس، وأُشيع أنه عازم على عمل فردة على أهل البلد، وطلب أجرة الأملاك بموجب قوايم الفرنساوية.

وفيه ركب الدلاة وذهبوا إلى قليوب، ودخلوها واستولوا عليها وعلى دورها، وربطوا خيولهم على أجرانها وطلبوا من أهلها النفقات والكلف، وعملوا على الدور دراهم يطلبونها منهم في كل يوم، وقرروا على دار شيخ البلد الشواربي كل يوم ماية قرش، وحبسوا حريمهم عن الخروج، وكان الشواربي بمصر فوصل إليه الخبر بذلك، واستمروا على ذلك حتى أخذوا النسا والبنات والأولاد، وصاروا يبيعونهم فيما بينهم.

وبعد أيام أرسل إليهم محمد علي وقرر لهم الكلف على البلاد فصاروا يقبضونها، ومن عصى عليهم ضربوه ونهبوه، وأرسلوا إلى بلدة يقال لها أبو الغيط، فامتنعت عليهم وخرج أهلها ودفنوا متاعهم بالجزيرة المقابلة للقرية، فركبوا عليهم وحاربوهم؛ فقُتل من الفلاحين زيادة عن ماية شخص، ودلَّهم بعض الناس من الفلاحين على خباياهم بالجزيرة، فذهبوا إليها واستخرجوها وكانت أشيا كثيرة، والأمر لله وحده لا شريك له، والمشايخ تاركون الحضور إلى الأزهر، وغالب الأسواق والدكاكين مغلوقة.

وبطل طلوع المشايخ والوجاقلية ومبيتهم بالقلعة، فحضر الأغا إلى نواحي الأزهر ونادى بالأمان وفتح الدكاكين في العصر، فقال الناس: وأي شي حصل من الأمان وهو يريد سلب الفقرا ويأخذ أجر مساكنهم ويعمل عليهم غرامات؟ وباتوا في هَرْج ومَرْج.

فلما أصبح يوم الأحد تاني عشره ركب المشايخ إلى بيت القاضي، واجتمع به الكثير من المتعممين والعامة والأطفال حتى امتلا الحوش والمقعد بالناس، وصرخوا بقولهم: شَرْعُ الله بيننا وبين هذا الباشا الظالم، ومِن الأولاد مَن يقول: يا لطيف، ومنهم من يقول: يا رب يا متجلي أهلك العثملي، ومنهم من يقول: حسبنا الله ونعم الوكيل

وغير ذلك، وطلبوا من القاضي أن يرسل بإحضار المتكلمين في الدولة لمجلس الشرع، فأرسل إلى سعيد أغا الوكيل، وبشير أغا الذي حضر قبل تاريخه، وعثمان أغاقبي كتخدا، والدفتردار والشمعدانجي، فحضر الجميع واتفقوا على كتابة عرضحال بالمطلوبات ففعلوا ذلك، وذكروا فيه تعدي طوايف العسكر والإيذا منهم للناس، وإخراجهم من مساكنهم، والمظالم والفرد وقبض مال الميري المعجل، وحق طرق المباشرين ومصادرة الناس بالدعاوى الكاذبة وغير ذلك، وأخذوه ووعدوه برد الجواب في تاني يوم.

وفي تلك الليلة أرسل مراسلة إلى القاضي يرفق فيها الجواب ويظهر الامتثال، ويطلب حضوره إليه من الغد مع العلما ليعمل معهم مشورة، فلما وصلته التذكرة حضر بها إلى السيد عمر أفندي، واستشاروا في الذهاب ثم اتفقوا على عدم التوجه إليه، وغلب على ظنهم أنها منه خديعة وفي عزمه شي آخر؛ لأنه حضر بعد ذلك مَن أخبرهم أنه كان أعد أشخاصًا لاغتيالهم في الطريق، وينسب ذلك الفعل لأوباش العسكر إن لو عوتب بعد ذلك.

فلما أصبحوا يوم الاتنين (٢٠ صفر) اجتمعوا ببيت القاضي، وكذلك اجتمع الكثير من العامة فمنعوهم من الدخول إلى بيت القاضي، وقفلوا بابيه، وحضر إليهم أيضًا سعيد أغا والجماعة، وركب الجميع وذهبوا إلى محمد علي وقالوا له: إنا لا نريد هذا الباشا حاكمًا علينا، ولا بد من عزله من الولاية، فقال: ومَن تريدونه يكون واليًا؟ قالوا له: لا نرضى إلا بك وتكون واليًا علينا بشروطنا لما نتوسمه فيك من العدالة والخير، فامتنع أولًا ثم رضي وأحضروا له كركًا وعليه قفطان.

وقام إليه السيد عمر والشيخ الشرقاوي فألبساه له، وذلك وقت العصر، ونادوا بذلك في تلك الليلة في المدينة.

وأرسلوا إلى أحمد باشا الخبر بذلك، فقال: إني مُوَلًّى من طرف السلطان؛ فلا أُعزل بأمر الفلاحين، ولا أنزل من القلعة إلا بأمر من السلطنة.

وأصبح الناس وتجمعوا أيضًا، فركب المشايخ ومعهم الجم الغفير من العامة، وبأيديهم الأسلحة والعِصِيُّ وذهبوا إلى بركة الأزبكية حتى ملوها، وأرسل الباشا إلى مصر العتيقة فحمل جمالًا من البقسماط والذخيرة والجبخانة، وأخذ غلالًا من عرصة الرملية، وطلع عمر بك الأرنؤدي الساكن ببولاق عند الباشا بالقلعة.

ثم إن محمد علي باشا والمشايخ كتبوا مراسلة إلى عمر بك وصالح أغا قوش المعضدين لأحمد باشا المخلوع يذكرون لهما ما اجتمع عليه رأي الجمهور من عزل الباشا، ولا ينبغي مخالفتهم وعنادهم؛ لما يترتب على ذلك من الفساد العظيم وخراب

الإقليم، فأرسلا يقولان في الجواب: أرونا سندًا شرعيًّا في ذلك، فاجتمع المشايخ في يوم الخميس سادس عشره ببيت القاضي، ونظموا سؤالًا وكتب عليه المفتون وأرسلوه إليهم، فلم يتعقلوا ذلك واستمروا على خلافهم وعنادهم، ونزل كثير من أتباع الباشا بثيابهم إلى المدينة، وانحل عنه طايفة الينكجرية، ولم يبقَ معه إلا طوايف الأرنؤد المغرضون لصالح أغا قوش وعمر أغا.

وفي هذه الأيام حضر محمد بك الألفي ومن معه من أُمراه وعربانه وانتشروا جهة الجيزة، واستقر الألفي بالمنصورية قرب الأهرام، وانتشرت أتباعه إلى الجسر الأسود، وأرسل مكاتبة إلى السيد عمر أفندي والشيخ الشرقاوي ومحمد علي باشا يطلب له جهة يستقر فيها هو وأتباعه، فكتبوا له بأن يختار له جهة يرتاح فيها، ويتأنى حتى تسكن الفتنة القايمة بمصر، واستمر أحمد باشا المخلوع ومن معه على الخلاف والعناد وعدم النزول من القلعة، ويقول: لا أنزل حتى يأتيني أمر من السلطان الذي ولَّاني.

وأرسل تذكرة إلى القاضي يذكر فيها أن العسكر الذين عنده بالقلعة لهم جامكية منكسرة في المدة الماضية، وأنهم كانوا محولين على مال الجهات ورفع المظالم سنة تاريخه معجلًا، فتقبضونها وترسلونها وتعينوا لنا ولهم خرجًا ومصاريف إلى حين حضور جواب من الدولة، وليس في إقامتنا بالقلعة ضرر أو خراب على الرعية فإننا لا نريد ضرارهم، فأجابه القاضي بقوله: أما ما كان من الجامكية المحولة، فإنها لازمة عليكم من إيراد المدة التي قبضتموها في المدة السابقة، ومن قبيل ما ذكرتموه من عدم ضرر الرعية، فإن إقامتكم بالقلعة هو عين الضرر؛ فإنه حضر يوم تاريخه نحو الأربعين ألف نفس بالمحكمة وطالبون نزولكم أو محاربتكم، فلا يمكننا دفع قيام هذا الجمهور، وهذا آخر المراسلات بيننا وبينكم والسلام، فأجابوه بمعنى الجواب الأول.

واجتهد السيد عمر أفندي النقيب وحرض الناس على الاجتماع والاستعداد، وركب هو والمشايخ إلى بيت محمد علي باشا ومعهم الكثير من المشايخ والعامة والوجاقلية، والكل بالأسلحة والعِصِيِّ والنبابيت، ولازموا السهر بالليل في الشوارع والحارات ويسرحون أحزابًا وطوايف ومعهم المشاعل، ويطوفون بالجهات والنواحي وجهات السور.

ثم اتفقوا على محاصرة القلعة، فأرسل محمد علي باشا عساكره في جهات الرملية والحطابة والطرق النافذة مثل: باب القرافة والحصرية وطريق الصلبية وناحية بيت آقبردى، وجلسوا بالمحمودية والسلطان حسن، وعملوا متاريس في تلك الجهات، وذلك في تاسع عشره، ومنعوا من يطلع ومن ينزل من القلعة، وأغلق أهل القلعة الأبواب

ووقفوا على الأسوار يبكت بعضهم بعضًا بالكلام ويترامون بالبنادق، وصعدوا على منارة السلطان حسن يرمون منها إلى القلعة.

وفي يوم الأربع تاني عشرينه ركب السيد عمر أفندي والمشايخ، ومعهم جمع كثير من الناس إلى الأزبكية، وبعد ركوبهم حضر الجمع الكثير من العامة والعصب والقرافة والرملية والحطابة والصليبة وجميع الجهات، ومعهم الطبول والبيارق حتى غصت بهم الأزقة، فحضروا إلى جهات الجامع الأزهر، ثم رجعوا إلى الأزبكية ولحقوا بالمشايخ، وخرج المشايخ من عند محمد علي باشا وذهبوا إلى حسن بك أخي طاهر باشا.

ثم رجعوا واستمر الحال على ذلك إلى ليلة الجمعة، فنزل بين المغرب والعشا عدة من العسكر كبيرة وفتحوا باب القلعة بالرملية، وأرادوا الهجوم على المتاريس فتتابعوا عليهم بالرمي، فلم يزالوا يترامون إلى بعد العشا الأخيرة ثم رجعوا، وعندما سمع الناس صوت الرمي ذهبوا أرسالًا إلى جهات المتاريس، ثم عادوا بعد رجوع المذكورين إلى القلعة.

كل ذلك وحسن باشا طاهر ومن معه من الأرنؤد يراعون من بالقلعة من أجناسهم؛ لأن غالبهم منهم.

فلما كان يوم الجمعة رابع عشرينه طلع عابدي بك أخو حسن باشا إلى القلعة، ونزل عمر بك وأمروا برفع المتاريس وتفرق من بها وأُشيع نزول الباشا من الغد، وبات الناس على ذلك ليلة السبت وهم على ما هم عليه من التجمع والسروح والحيرة.

وفي صبح يوم السبت (٢٥ صفر) مر ثلاثة من العسكر السجمان بناحية مرجوش، فصادفوا غلامًا حماميًّا من اللاونجية خرج ليشتري قهوة، فأرادوا أخذه ففر منهم فضربوه برصاصة وقتلوه، وذلك في مصلاة الحنفي، فتبعهم الناس فوصلوا إلى النحاسين وعطفوا على خان الخليلي، وأرادوا الخلوص إلى جهة المشهد الحسيني، فأغلقوا في وجوههم البوابة فضربوا على المتبعين لهم فقتلوا شخصًا وجرحوا آخر، وخرجوا من القبو إلى ناحية الصنادقية، وفرغ ما معهم من البارود فطلعوا إلى ربع وكالة الشبراوي، فاجتمع الناس وكسروا باب الربع، فنزلوا يريدون الهروب فقتلهم الناس وذهبت أرواحهم إلى النار.

وفي ذلك اليوم ركب السيد عمر أفندي في قلة من الناس، وذهب إلى بيت حسن بك أخي طاهر باشا، وكان هناك عمر بك الذي نزل من القلعة، فوقع بينه وبين السيد عمر مناقشة في الكلام طويلة، ومن جملة ما قال: كيف تعزلون من ولَّاه السلطان عليكم؟ وقد قال الله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾، فقال له: أولو الأمر العلما وحملة الشريعة والسلطان العادل، وهذا رجل ظالم، وجرت العادة من قديم

الزمان أن أهل البلد يعزلون الولاة، وهذا شي من زمان، حتى الخليفة والسلطان إذا سار فيهم بالجور فإنهم يعزلونه ويخلعونه، ثم قال: وكيف تحصروننا وتمنعون عنا الماء والأكل وتقاتلوننا، نحن كفرة حتى تفعلوا معنا ذلك؟ قال: نعم، قد أفتى العُلما والقاضي بجواز قتالكم ومحاربتكم؛ لأنكم عصاة، فقال: إن القاضي هذا كافر، فقال: إذا كان قاضيكم كافرًا، فكيف بكم؟! وحاشاه الله من ذلك، إنه رجل شرعي لا يميل عن الحق.

وانفصل المجلس على ذلك وخاطبه الشيخ السادات في مثل ذلك، فلم يتحوَّل عن الخلاف والعناد، هذا والأمر مستمر من اجتماع الناس وسهرهم وطوافهم بالليل، واتخاذهم الأسلحة والنبابيت، حتى أن الفقير من العامة كان يبيع ملبوسه أو يستدين ويشتري به سلاحًا، وحضرت عربان كثيرة من نواحي الشرق وغيره.

وفي يوم الاتنين ركب السيد عمر وصحبته الوجاقلية، وأمامه الناس بالأسلحة والعدد والأجناد، وأهل خان الخليلي والمغاربة شي كثير جدًّا، ومعهم بيارق ولهم جلبة وازدحام؛ بحيث كان أولهم بالموسكي وآخرهم جهة الأزهر، وانفصل الأمر على رجوع عمر بك إلى القلعة ونزول عابدي بعد أن قضوا أشغالهم، وعبوا ذخيرتهم واحتياجهم من الماء والزاد والغنم ليلًا ونهارًا في مدة الثلاثة أيام المذكورة، وقد كانوا أشرفوا على طلب الأمان، وتبيَّن أنهم إنما فعلوا ذلك من باب المكر والخديعة.

واتفق الحال على إعادة المحاصرة، وصعد المغرضون إلى القلعة، ونزل أشخاص من المغرضين لأهل البلد إليهم، ورجع السيد عمر إلى منزله وأخذ في أسباب الإحاطة بالقلعة كالأول، وذلك بعد العشا ليلة التلات ووقع الاهتمام في صبحها بذلك، وجمعوا الفعلة والعربجية وشرعوا في طلوع طايفة من العسكر والعرب وغيرهم إلى الجبل، وأصعدوا مدافع ورتبوا عدة جِمال لنقل الاحتياجات والخبز وروايا الماء تطلع وتنزل في كل يوم مرتين، وطلع إليهم الكثير من باعة الخبز والكعك والقهاوي وغير ذلك.

شهر ربيع الأول استهل بيوم الخميس (سنة ١٢٢٠)

والأمر على ذلك مستمر من تجمع الناس وسهرهم بالليل في ساير الأخطاط، وفي ليلة التلات سادسه تحرك العسكر وطلبوا العلوفة من محمد علي، فقال لهم: ليس لكم عندي علوفة حتى ينزل أحمد باشا من القلعة ونحاسبه، وتأخذوا علايفكم منه، فلم يمتثلوا وتركوا المتاريس التي حوالي القلعة فتفرقوا وذهبوا، فذهب جماعة من الرعية وتترسوا في مواضعهم.

وفي ليلة الخميس تامنه حضرت طايفة من العسكر الساكنين بناحية المظفر وقت الغروب، وضربوا على من بالمتاريس من الأجناد والرعية على حين غفلة، وخطفوا عمايم وأسلحة وأجلوهم عن المتراس، وجلسوا به فتسامع أهل الرملية فاجتمعوا وحضروا إليهم وكبيرهم حجاج الخضري وإسماعيل جودة، وهجموا عليهم وقتلوا منهم أنفارًا، وانحاز باقيهم إلى الوكالة فأغلقوها عليهم، فحضر ذو الفقار كتخدا ودافع عنهم وأخرجهم، ثم أرسل إلى محمد علي وأمرهم بالهروب من تلك الجهة.

وفي يوم الجمعة قتل العسكر شخصًا بناحية المظفر، وآخر بناحية قنطرة الأمير حسين.

وفي يوم السبت عاشره حصل من بعض أفراد العسكر قبايح، وقتلوا بعض أنفار وحِمَارين وبغلين، وقبض العامة أيضًا على أشخاص منهم وقتلوا منهم أيضًا.

وحضر طايفة من الأرنؤد وملكوا سبيل إسكندر بباب الخرق وحضر أيضًا طايفة ببيت السيد عمر أفندي النقيب، فقام فيهم الحرس الواقفون عند باب البيت فهرب منهم طايفة خيالة، ودخل منهم البعض فحجزوهم ووقع في الناس هوزعات وكرشات، ثم أحضر حسن أغا نجاتي المحتسب وأمر الأفندي بالمناداة، فمر وأمامه المنادي يقول: حسبما رسم السيد عمر الأفندي والعُلما لجميع الرعايا بأن يأخذوا حذرهم وأسلحتهم، ويحترسوا في أماكنهم وأخطاطهم وإذا تعرض لهم عسكري بأذية قابلوه بمثلها، وإلا فلا يتعرضوا له، وأخذ الناس يعملون متاريس في روس الأخطاط ثم تركوا ذلك.

وحضر أيضًا شخص من طرف محمد علي ونادى بمثل ذلك، ومعه أيضًا شخص ينادي بالتركي بمعنى ذلك.

وفي الليلة الماضية حضر كتخدا محمد علي ليلًا ومعه فرمان أرسله أحمد باشا المخلوع إلى الدلاة يطلبهم للحضور، ويذكر لهم أنه يجب عليهم معاونته صيانة لعرض السلطنة، وإقامة لناموسها وناموس الدين، وأن الفلاحين محاصرونه ومانعون عنه الأكل والشرب.

فلما وصل ذلك الفرمان إليهم بقليوب أرسلوه إلى محمد علي، وأرسله محمد علي إلى السيد عمر مكرم أفندي النقيب.

وفي الأحد حادي عشره وقعت أيضًا مناوشات، وتعدى بعض العسكر ودخلوا باب زويلة ووصلوا إلى العقادين، فخرجت عليهم طايفة المغاربة وغيرهم فتترس منهم جماعة بجامع الفكهاني، فحصروهم به وقبضوا على نحو العشرة أنفار، فأخذهم السيد المحروقي، ودافع عنهم العامة وقُتل من الفريقين بعض أنفار، وحضر عابدي بك وطلبهم فسلموهم إليه ورجع.

وفي تلك الليلة أيضًا ذهب جماعة من العسكر إلى جهة الرملية يطلبون أنفارًا منهم ساكنين بتلك الناحية، فأخذ أهل الرملية سلاحهم وحبسوهم عندهم، فذهبت امرأة من المتزوجات بهم فأخبرتهم، فحضر منهم طايفة أواخر النهار وطلبوهم فلم يسلموا فيهم وحاربوهم وهزموهم إلى جهة الصليبة، وقُتل بينهم أنفار ورجع العسكر.

واختلطت القضية واشتبه أمرها على أهل البلد، فلا يعرف كلا الفريقين الصاحب من العدو، فتارة يتشابك العسكر مع أهل البلد، وكذلك أهل البلد معهم، وتارة يتشابك فرقة منهم مع الكاينين بالقلعة، وتارة الفريقان يساعد بعضهم بعضًا، وإذا وقع بين الكاينين بنواحي الرميلة مع العسكر فرح من بالقلعة، وأغروا أولاد البلد بهم، ومنهم من يُغري العسكر على أولاد البلد، ويقولون لهم بلسانهم وبالعربي: اضربوا الفلاحين، ونحو ذلك، وبالجملة فهي قضية مشكلة بين أوباش مختلفة وطباع معوجة منحرفة.

ومضت ليالي المولد الشريف ولم يشعر بها أحد.

وفيه حضر كبار الدلاة فخلع عليهم محمد علي باشا خلعًا وكساوي، وسافروا ثم ارتحلوا من قليوب يريدون الذهاب إلى محاربة الألفي وأتباعه ومن معهم من العرب؛ فإنهم أفحشوا في نهب البلاد ونهب الأموال ما لم يُسمع بمثله ولم يتقدم نظيره، فساروا على البلاد والقرى يأخذون الكلف وينهبون ويقتلون ويفسقون في النسا والأولاد، ولم يذهبوا إلى ما وجهوا إليه.

وفي ليلة الأربع رابع عشره حضر كتخدا محمد علي وجرجس الجوهري إلى بيت السيد عمر، وحضر أيضًا الشيخ الشرقاوي والشيخ الأمير والقاضي، وتشاوروا على أمر ورأي رآه محمد علي باشا، وأما علي باشا السلحدار الذي جهة مصر القديمة، فإنه أخذ في استمالة العسكر وفتنتهم، وانضم إليه كثير منهم، ووعدهم بعلايفهم وصار يراسل إليه الخبز واللحم والسكر والذخيرة على الجِمال من باب صغير فتحوه من عرب اليسار من داخل.

وفي ليلة السبت (١٧ ربيع أول) أجمع رأي علي باشا السلحدار على مكيدة يصنعها، وهو أنه يركب فيمن معه ويهجم على المتاريس من جهة الصليبة، وأرسل إلى مخدومه يُعلمه بذلك وأنه إذا هجم من تلك الناحية يساعده هو من القلعة برمي المدافع والقنابر على البلد والمتاريس، فتنزعج الناس ويتم لهم ما مكروه، وكتب رجب أغا وسليمان أغا — وهما كبيرا عسكر علي باشا المذكور — تذكرة من عندهما خطابًا للسيد عمر أفندي النقيب وباقي المشايخ، مضمونها أنهما يريدان الحضور إلى جهة القلعة، ويسعيان في

أمر يكون فيه الراحة للفريقين وتسكين الفتنة، ويلتمسان من المخاطبين أنهم يرسلون إلى من بالمتاريس من العامة بأن يخلوا لهما طريقًا ولا يتعرضون لهما.

فحضر إلى السيد عمر أفندي النقيب مَن أخبره بذلك الاتفاق بعد الفجر قبل حضور التذكرة، فأرسل إلى من بالنواحي والجهات وأيقظهم وحذرهم فاستعدوا، وانتظروا وراقبوا النواحي، فنظروا إلى ناحية القرافة فرأوا الجِمال التي تحمل الذخيرة الواصلة من علي باشا إلى القلعة، ومعها أنفار من الخدم والعسكر وعدتهم ستون جَملًا، فخرج عليهم حجاج الخضري ومن معه من أهالي الرميلة، فضربوهم وحاربوهم وأخذوا منهم تلك الجِمال وقتلوا شخصين من العسكر، وقبضوا على ثلاثة وحضروا بهم وبروس المقتولين إلى بيت السيد عمر، فأرسلهم إلى محمد علي باشا فأمر بقتل الآخرين.

فلما رأى من بالقلعة ذلك، فعندها رموا بالمدافع والقنابر على البلد، وبيت محمد علي وحسن باشا وجهة الأزهر، ولم يزالوا يراسلون الرمي من أول النهار إلى بعد الظهر، فلم ينزعج أهل البلد من ذلك لما ألفوه من أيام الفرنسيس وحروبهم السابقة، ثم رموا كذلك من العشا إلى سادس ساعة من الليل، فلم يُجِبْهم أحد ولم يرموا عليهم شيًّا من الجبل مع استعدادهم لذلك.

وأصبحوا يوم الأحد فراسلوا الرمي بطول النهار وكذلك ليلة الاتنين ويوم الاتنين.

وهذا وفي كل ليلة يطلع إلى الجبل أربعة عشر جَملًا تحمل قرب الماء، على كل بعير أربع قِرب، وستة أقفاص خبز على ثلاثة جمال، نقلتين في كل يوم، وأصعدوا جبخانة وجللًا وقنابر وضربوا عليهم في ذلك اليوم ضربًا قليلًا، واستمر ذلك ليلة التلات ويوم التلات، فأكثروا الرمي وسقطت قنابر وجلل في عدة أماكن مع الضرر القليل، وباتوا على ذلك ليلة الأربع ويومه وليلة الخميس ويومه إلى آخر النهار، وبطل الرمي تلك الليلة فقال الناس: إنهم تركوا ذلك احترامًا لليلة الجمعة.

وفي تلك الليلة حضر جماعة من أهل الأطارف ليلًا وحرقوا باب الجبل وأوقدوا فيه النار، فظن أهل الجبل أن أهل القلعة يريدون الخروج فضربوا عليهم مدافع، فتنبه من بالقلعة وأسرعوا إلى جهة باب الجبل، وضربوا الرصاص، فلما تحقق من بالجبل القضية رموا عليهم أيضًا، وتسامع الناس كثرة ضرب الرصاص فلم يعلموا الحقيقة، ورجع من أتى إلى الباب من غير طايل، فلما طلع النهار ظهر الأمر.

وفي اليوم التاني بعد الظهر تسلق جماعة من العسكر القلعاوية على سلالم صنعوها من حبال، ونزلوا إلى جهة المحجر لأخذ شي من الأكل والشرب، وهم نحو العشرين، فتنبه

الناس لهم واجتمعوا بالخطة، وأخذوا ما أخذوه من أهل الدور من الخبز والدقيق وقِرب الماء، وصعدوا من حيث أتوا.

وأعادوا الرمي بالمدافع والقنابر من عصر يوم الجمعة وليلة السبت، واستمروا على ذلك، وسقط بسبب ذلك حيطان وبعضٌ من أبنية الدور، وخرج كثير من الناس وبعدوا عن جهات الضرب — وخصوصًا جهة الأزهر — وذهبوا إلى ناحية الحسينية والأطارف، وخرجت النسا هاربات إلى تلك النواحي وبولاق، وانزعجوا من أوطانهم.

وفي يوم الأحد أرسل كتخدا محمد علي باشا إلى السيد عمر، وأشار عليه بإرسال العتالين والشيالين إلى ناحية قلعة الفرنساوية التي بقنطرة الليمون لرفع المدفع الكبير الذي هناك، وأرسلوا أشخاصًا من الإنكليز يتقيدون بذلك، فجمعوا الرجال والأبقار وذهبوا إلى هناك وأحضروه وأخرجوه من باب البرقية، يريدون وضعه عند باب الوزير حيث مجرى السيل؛ ليرموا به على برج القلعة، واستمروا في جره يومين.

وفي ذلك اليوم نزل أيضًا ستة أشخاص يريدون أخذ الماء من صهريج جهة الحطابة، فضرب عليهم مَن هناك مِن المتترسين فهربوا وطلعوا من حيث نزلوا.

وفي ليلة التلات نصبوا المدفع المذكور وضربوا به، وضربوا أيضًا من أعلى الجبل، ومَن بالقلعة يضربون على البلد يواصلون الضرب بالمدافع والقنابر والبنبات الكبار والآلات المحرقة، واستمروا على ذلك إلى ليلة الجمعة الأخرى فسكن الرمي تلك الليلة، وأصيب كثير من الدور والحيطان والأبنية، وأصابت أشخاصًا قتلتهم، ووزن بعض البنبات فبلغ وزنها بما فيها قنطارين.

شهر ربيع الثاني (سنة ١٢٢٠)

استهل بيوم الجمعة (أول يوليو ١٨٠٥)، فيه وردت أخبار من ثغر إسكندرية بورود قابجي، وهو صالح أغا الذي كان سابقًا بمصر ببيت رضوان كتخدا إبراهيم بك، وعلى يده جوابات بالراحة، فحصلت ضجة في الناس، وفرحوا ورمحوا بطول ذلك اليوم، وعملوا شنكًا تلك الليلة التي هي ليلة السبت، ورموا سواريخ في ساير النواحي، وضربوا بنادق وقرابين بالأزبكية وخارج باب الفتوح وباب النصر، والمدافع التي على أبراج الأبواب.

ولما سمع من بالقلعة ومن بمصر القديمة ظنوا أن العساكر الذين في قلوبهم مرض تحاربوا مع أهل البلد، فرموا من القلعة بالمدافع والبنب، وحضر علي باشا ومن معه من جهة مصر القديمة، ونزل من القلعة طايفة من العسكر جهة عرب اليسار وتترسوا

هناك، فاجتمع عليهم حجاج وأهل الرملية ومن معهم من عسكر محمد علي، وتحاربوا مع المتترسين والواصلين وضربوا من القلعة على محاربيهم وعلى أهل البلد، وكذلك من بالجبل ومن بالذنجرية يضربون على القلعة المدافع والسواريخ.

ونزل أيضًا طايفة وهجموا على الذنجرية، وأرادوا سد فوهة المدفع الكبير فضربوا عليهم وقُتل كبيرهم ومعه آخر، وأخذوا سلاحهما وروسهما وأحضروهما إلى السيد عمر، وحصل بالبلدة تلك الليلة من ضرب النار من كل ناحية ما هو عجيب من المستغربات، واختلط الشنك بالحرب وصار الضرب من الجبل على القلعة بالبنب والمدافع والسواريخ، وكذلك من القلعة على البلد وعلى الذنجرية ومنها على القلعة والمحاربين مع بعضهم البعض والشنك من كل جهة، واجتماع الناس والعامة بالأخطاط والنواحي، وضربوا طبولًا ومزامير ونقرزانات وكانت ليلة من الغرايب، وأصبحوا على الحال الذي هم عليه من الرمي بالمدافع والبنب.

وفي يوم الأحد سافرت أنفار من الوجاقلية وغيرهم لملاقاة صالح أغا، وصحبتهم طايفة من العسكر أرسلها محمد علي باشا في مركب لخفارته، وقد كانوا اتفقوا على سفر بعض المتعممين ثم بطل ذلك، وأرسل السيد عمر أفندي باشجاويش والسيد عثمان البكري وسلحدار محمد علي والخواجه عمر المطيلي وبكباش وأحمد أودة باشا.

وفي ليلة التلات أُشيع وصول القابجي إلى بولاق ليلًا، فخرج كثير من العامة لملاقاته أفواجًا، واصطفُّوا في الأسواق للفرجة عليه، واستمروا على ذلك الرج بطول النهار ولم يصل أحد، ثم تبيَّن عدم وصوله وأنه وصل إلى ثغر رشيد، وفي ذلك اليوم وقت الشروق حصلت زلزلة عظيمة، وارتجَّت الأرض نحو أربع درجات.

وفي يوم الأربع سافر جماعة من المتعممين، وهم: السيد محمد الدواخلي، وابن الشيخ الأمير، والشيخ بدوي الهيثمي، وابن الشيخ العروسي، واستمر الحال على ذلك اليوم ويوم الخميس والجمعة، ولم يبطل رمي المدافع والبنب ليلًا ونهارًا في غالب الأوقات ما عدا ليلة الجمعة ويومها إلى العصر.

وفي ليلة الاتنين وصل الخبر بوصول القابجي إلى قليوب، وأنه طلع إلى بر فوَّة وسار من هناك، وحضر في ذلك اليوم المشايخ الذين كانوا ذهبوا لملاقاته، فلما أشيع ذلك اجتمع الناس وطوايف العامة وخرجوا من آخر الليل وهم بالأسلحة والعدد والطبول إلى خارج باب النصر، ووقفوا بالشوارع والسقايف للفرجة، وكذلك النسا والصبيان وازدحموا ازدحامًا زايدًا، ووصل الأغا المذكور وصحبته سلحدار الوزير إلى زاوية دمرداش ونزلا هناك، وعمل لهما إسماعيل الطبجي الفطور فأكلاه وشربا القهوة وركبا.

وانجرت الطوايف والغوغاء من العامة وهم يضربون بالبنادق والقرابين والمدافع من أعلى سور باب النصر والفتوح، واستمر مرورهم نحو ثلاث ساعات.

وخرج كتخدا محمد علي وأكابر الأرنؤد وطايفة من العسكر كبيرة والوجاقلية، وكثير من الفُقها العاملين ريسا العصب وأهالي بولاق ومصر القديمة والنواحي والجهات، مثل: أهل باب الشعرية والحسينية والعطوف وخط الخليفة والقرافتين والرميلة والحطابة والحبالة، وكبيرهم حجاج الخضري وبيده سيف مسلول، وكذلك ابن شمعة شيخ الجزارين وخلافه، ومعهم طبول وزمور والمدافع والقنابر والبنبات نازلة من القلعة، فلم يزالوا سايرين إلى أن وصلوا إلى الأزبكية، فنزلوا ببيت محمد علي باشا وحضر المشايخ والأعيان وقروا المرسوم الذي معه، ومضمونه الخطاب لمحمد علي باشا والي جدة سابقًا ووالي مصر حالًا من ابتدا عشرين ربيع أول، حيث رضي بذلك العُلما والرعية وأن أحمد باشا معزول عن مصر، وأن يتوجه إلى إسكندرية بالإعزاز والإكرام حتى يأتيه الأمر بالتوجه إلى بعض الولايات.

وسكن صالح أغا القابجي المذكور ببيت الخواجا محمود حسن بالأزبكية، وسكن السلحدار عند السيد محمد بن المحروقي.

وفي يوم التلات ركب السيد عمر في جمع كثير من العسكر من أولاد البلد والمغاربة والصعايدة والأتراك، والكل بالأسلحة، وذهب إلى عند محمد علي باشا وجلس عنده حصة، وذهب إلى القابجي وسلم عليه، وذهب إلى السلحدار أيضًا وسلم عليه ورجع.

وفيه بطل الرمي من القلعة وكذلك أبطلوا الرمي عليها من الجبل والذنجرية، مع بقا المحاصرة والمتاريس حول القلعة من الجهات، ومنع الواصل إليهم واستمرار مَن بالجبل، ويطلع إليهم في كل يوم الجِمال الحاملة للخبز، وقِرب الماء واللوازم. وأما الدلاة فاستقروا بمحلة أبي علي وطلبوا الفِرد والكلف من البلاد، ووصل محمد بك الألفي إلى دمنهور البحيرة فتمنعوا عليه، فحاصر البلد وضرب عليها وضربوا عليه أيامًا كثيرة.

وفيه وقع بباب الشعرية مناوشة بين العسكر وأولاد البلد بسبب سكن البيوت، وكذلك جهة باب اللوق وبولاق ومصر القديمة، وقُتل بينهم أنفار وقُتل أيضًا المتكلم بمصر القديمة وحصلت زعجات في الناس.

وفي يوم الأربع مر بعض أولاد البلد بجهة الخرنفش، فضربه بعض عسكر حجو أغا الساكن ببيت شاهين كاشف فقتله، فثارت أهل الناحية وتضاربوا بالرصاص، واجتمع العسكر بتلك الناحية ودخلوا من حارة النصارى النافذة من بين السورين، وصعدوا إلى

البيوت ونقبوا نقوبًا وصاروا يضربون على الناس من الطيقان، واجتمع الناس وانزعجوا وبنوا متاريس عند راس الخرنفش ومرجوش وناحية الباطنية برأس الدرب، وتحاربوا وقُتل بينهم أشخاص من الفريقين، ونهب العسكر عدة دور، وتسلقوا على بيت حسن بك مملوك عثمان الحمامي الحكيم وذبحوه ونهبوا بيته برأس الخرنفش، وكذلك رجل زيات وعبد صالح أغا الجلفي وحسن ابن كاتب الخردة، وكانت واقعة شنيعة استمرت إلى العصر وحضر الأغا وكتخدا محمد علي فلم تسكن الفتنة، وحضر أيضًا إسماعيل الطبجي ثم سكن الحال بعد اضطراب شديد، وبات الناس على ذلك.

وسبب هذه الحادثة أن رجلًا عسكريًّا اشترى من رجل خردجي ملاعق ثم ردها من الغد فلم يرضَ، وتسابًّا فضربه العسكري فصاح الخردجي وقال: ما يحل من الله يضرب النصراني الشريف، فاجتمع عليه الناس وقبضوا عليه وسحبوه إلى بيت النقيب فلما قربوا من البيت ضربوه وقتلوه وأخرجوه إلى تل البرقية ورموه هناك فحصل بسبب ذلك ما ذكر.

وفيه أرسلوا صورة المكاتبة الواردة مع صالح أغا إلى الباشا، فلم يمتثل وامتنع من النزول وقال: أنا متولٍّ بخطوط شريفة وأوامر منيفة ولا أنعزل بورقة مثل هذه، وطلب الاجتماع بصالح أغا والسلحدار، ويخاطبهم مشافهة وينظر في كلامهم وكيفية مجيهم، فلم يرضوا بطلوع المذكورين إليه.

وفي يوم الخميس وقع بين حجاج الخضري والعسكر مقاتلة جهة طيلون، وقُتل بينهم أشخاص.

وفيه تواترت الأخبار بقدوم الأُمرا المصريين القبليين إلى جهة مصر.

وفيه اجتمع الشيخ الشرقاوي والشيخ الأمير وغالب المتعممين وقالوا: إيش هذا الحال وما تداخلنا في هذا الأمر والفتن؟ واتفقوا أنهم يتباعدون عن الفتنة وينادون بالأمان وأن الناس يفتحون حوانيتهم ويجلسون بها، وكذلك يفتحون أبواب الجامع الأزهر ويتقيدون بقراية الدروس وحضور الطلبة.

وركبوا إلى محمد علي وقالوا له: أنت صرت حاكم البلدة، والرعية ليس لهم مقارشة في عزل الباشا ونزوله من القلعة، وقد أتاك الأمر فنفذه كيف شئت، وأخبروه برأيهم فأجابهم إلى ذلك وركب الأغا وصحبته بعض المتعممين، ونادوا في المدينة بالأمن والأمان والبيع والشرا، وأن الناس يتركون حمل الأسلحة بالنهار، وإذا وقع من بعض العسكر قباحة رفعوا أمره إلى محمد علي، وإن كان من الرعية رفعوه إلى بيت السيد عمر النقيب، وإذا دخل الليل حملوا الأسلحة وسهروا في أخطاطهم على العادة وتحفظوا على أماكنهم.

فلما سمع الناس ذلك أنكروه وقالوا: إيش هذا الكلام؟ حينئذٍ نصير طعمة للعسكر بالنهار وغفرًا بالليل، والله لا نترك حمل أسلحتنا، ولا نمتثل لهذا الكلام ولا هذه المناداة.

ومر الأغا ببعض العامة المتسلحين فقبض عليهم وأخذ سلاحهم فازدادوا قهرًا وباتوا على ذلك، واجتمعوا عند السيد عمر النقيب وراجعوه في ذلك فاعتذر، وأخبر بأن هذا الأمر على خلاف مراده.

وفي ليلة الجمعة المذكورة حصل خسوف قمر كلي، وكان ابتداه من بعد العشا الأخيرة بنصف ساعة، وانجلى في سابع ساعة، وأصبح يوم الجمعة فحضر عند السيد عمر كتخدا بك وعابدي بك في جمع من العسكر، وجلسوا عنده ساعة وذكروا له أن في عصرها يرسلون إلى الباشا الكاين بالقلعة ويجتمعون عليه بالنزول، فإن أبى جدوا في قتاله ومحاربته، وذكروا أنه ممالي الأُمرا القبالي، وهو الذي أرسل بحضورهم وطمَّعهم في المملكة، فلزم الاجتهاد في إنزاله من القلعة، ثم يتفرغون لمحاربة القادمين ويخرجون إليهم بالعساكر.

ثم قاموا من عنده وذهبوا إلى بيت القاضي، وحضر حجو أغا الذي كان يحارب بالخرنفش، فرجع صحبته كتخدا بك عند السيد عمر ليأخذ بخاطره وصحبته طايفة من العسكر فوقفوا متفرقين، ودخل منهم طايفة إلى بيت الشيخ الشرقاوي وباقيهم بالشارع، وتجمع حولهم أهالي البلد بالأسلحة فاتفق بينهم انطلاق بندقية، إما خطأً أو قصدًا فهاجت الناس وماجت واجتمعوا من كل ناحية، وخرج جاويشية النقابة إلى نواحي الدايرة ينادون في الناس ويقولون: عليكم ببيت السيد عمر النقيب يا مسلمين أنجدوا إخوانكم، وحصلت من تلك البندقية التي انطلقت فزعة عظيمة وصاح السيد عمر على الناس من الشباك يأمرهم بالسكون والهجوع فلم يسمعوا له، ونزل إلى أسفل ووقف بباب داره يصيح بالناس فلا يزدادون إلا خباطًا، وأقبلوا طوايف من كل جهة فصار يأمرهم بالمرور والخروج إلى جهة باب البرقية، ولم يزالوا على ذلك إلى بعد صلاة الجمعة حتى سكن الحال.

وقام حجو أغا والكتخدا حتى تغذيا مع السيد عمر وركبا وذهبا، ونودي في عصر ذلك اليوم بالأمان وفتح الحوانيت والبيع والشرا ولا يرفعون معهم السلاح، بل يجعلونه معهم في حوانيتهم تحذرًا من غدر العسكر، وفتحوا أبواب الأزهر.

وفي يوم السبت فتح الناس بعض الحوانيت، ونزل المشايخ إلى الجامع الأزهر وقروا بعض الدروس؛ ففترت همم الناس ورموا الأسلحة، وأخذوا يسبون المشايخ ويشتمونهم لتخذيلهم إياهم، وشمخ عليهم العسكر وشرعوا في أذيتهم وتعرضوا لقتلهم وإضرارهم.

وفي يوم الأحد قتلوا أشخاصًا في جهات متفرقة وضج الناس، وأغلقوا الدكاكين وكثرت شكاويهم وأقلقوا السيد عمر النقيب، وهو يعتذر إليهم ويقول لهم: اذهبوا إلى الشيخ الشرقاوي والشيخ الأمير، فهما اللذان أمرا الناس برمي السلاح، فلما زادت الشكوى نادوا في الناس بالعود إلى حمل السلاح والتحذر.

وفيه وصل الأُمرا القبليون إلى قرب الجيزة، وعدى منهم طايفة إلى البر الشرقي جهة دير الطين والبساتين، وهم: عباس بك، ومحمد بك المنفوخ، ورشوان كاشف، وهدموا قلاع طرا وساووها بالأرض.

وفي يوم الاتنين ركب محمد علي وخرج إلى جهة مصر القديمة، وصحبته حسن باشا وأخوه عابدي بك فنزل بقصر بلفيه، وأقاموا إلى العصر وخرج كثير من العسكر إلى ناحية مصر القديمة، ثم ركب محمد علي وحسن باشا وأخوه إلى آخر النهار، وساقوا إلى جهة البساتين ومعهم العساكر أفواجًا، فلما قربوا من الأُمرا المصريين تقهقروا إلى خلف ورجعوا إلى جهة قبلي، وقيل: عدوا إلى بر الجيزة وانضم إليهم علي باشا الذي بالجيزة، واستمر محمد علي ومن معه بمصر القديمة وتراموا بالمدافع.

وفي يوم التلات حضر أيضًا جماعة من القبليين إلى الجيزة، وتراموا بالمدافع والبنب من البرين ذلك اليوم وليلة الأربع، وفيه عدى طايفة الدلاة الكاينين بالبر الغربي، وانضم إليهم المقيمون بجزيرة بدران وحضروا إلى بولاق، وهجموا على البيوت وأخرجوا سكانها قهرًا عنهم وأزعجوهم من أوطانهم، وسكنوها وربطوا خيولهم بخانات التجار ووكالة الزيت، فحضر الكثير من أهالي بولاق إلى بيت السيد عمر وتظلموا وتشكوا، فأرسل إلى كتخدا بك يمنعهم من ذلك فلم يمتنعوا، واستمروا على فعلهم وقبايحهم.

وفيه طلب محمد علي باشا دراهم سلفة من النصارى والتجار، وقرروا فردة على البلاد والبنادر وهي أول طلبة طلبها بعد رياسته.

وفيه أرسلوا بناين وخمسماية فاعل لبنا ما تهدم من حصون طرا.

وفي يوم الخميس حادي عشرينه وردت أخبار بوصول قبطان باشا إلى ثغر إسكندرية وأبي قير، وصحبته مراكب كثيرة لا يعلم المراسلون أخبار من بها، فاجتمع المشايخ واتفقوا على كتابة عرضحال يرسلونه مع بعض المتعممين، ثم اختلفت آراؤهم في ذلك، فلما كان يوم الاتنين ورد الخبر بورود سلحدار قبطان المذكور إلى شلقان فأعرضوا عن ذلك.

وفيه وقع بين طايفة من العسكر الكاينين ببولاق وأهل البلد مناوشة بسبب نقب البيوت، وقُتل بينهم أنفار واستظهر عليهم أهل بولاق.

وفي يوم التلات وصل السلحدار إلى بولاق، وركب من هناك إلى المكان الذي أعد له وصحبته مكاتبة إلى أحمد باشا المخلوع، ومضمونها الأمر بالنزول من القلعة ساعة وصول الجواب إليه من غير تأخير وحضوره إلى الإسكندرية، وجواب آخر إلى محمد علي بإبقايه في القايمقامية حيث ارتضاه الكافة والعُلما، والوصية بالسلوك والرفق بالرعية والكلام المحفوظ المعتاد الذي لا أصل له، وأن يقلد من قِبله باشا على عسكر يعين إرساله إلى البلاد الحجازية، ويشهل له جميع احتياجاته من الجبخانة وساير الاحتياجات واللوازم، فأرسلوا إلى أحمد باشا المخلوع بجوابه فقال: حتى يطلع إلى السلحدار الواصل ويخاطبني مشافهة.

وفي صبح يوم الأربع قبض المحافظون على خيَّال مُقبِل من جهة مصر القديمة يريد الطلوع إلى القلعة من آخر النهار، ووجدوا معه أوراقًا فأخذوه إلى محمد علي باشا، فوجدوا في ضمنها خطابًا إلى الباشا المخلوع من علي باشا وياسين بك الكاينين بالجيزة، مضمونها أنه في صبح يوم الجمعة نطلق من الجيزة سبعة سواريخ تكون إشارة بيننا وبينكم، فعندما ترونها تضربون بالمدافع والبنب على بيت محمد علي، ونحن نعدي إلى مصر القديمة ويصل البرديسي من خلف الجبل إلى جهة العادلية، ويأتي باقي المصريين من ناحية طرا ويقوم من بالبلدة على من فيها فيشغلون الجهات، ويتم المرام بذلك؛ فلما اطَّلع محمد علي على ذلك وكان القاضي حاضرًا عنده اشتد غيظه على ذلك الرجل، ووجده من الأكراد فاستجار بالقاضي فلم يُجرْه، وأمر به فأخذوه وقتلوه ورموه ببركة الأزبكية.

وفي يوم الخميس أحضروا سبعة روس وعلقوها على السبيل المواجهه لباب زويلة، ذكروا أنها من ناحية دمنهور، وعلى أحدها ورقة مكتوبة أنها رأس بك الألفي وأخرى سلحداره، وهي متغيرة جدًّا ومحشوة تبنًا ولا يظهر لها خلق، ولم يكن لذلك صحة.

وفيه أخبر الإخباريون بأن الألفي ارتحل من دمنهور ولم ينل منها غرضه، وأنه كبس على سليمان كاشف البواب ونهب ما معه، وقيل: إنه قُتل، وفي رواية: وقع إلى البحر وهرب باقي أتباعه إلى جهة المنوات في أسوأ حال، وأخذ منه شيًّا كثيرًا، وهو ما جمعه في العام الماضي عندما كان كاشفًا بمنوف، ومن ذلك أنه لما قتل موسى خالدًا أخذ منه مالًا كثيرًا، وذلك خلاف ما دل عليه من خباياه.

وفي تلك الليلة طلع السلحدار المذكور وصحبته صالح أغا الذي وصل قبله إلى القلعة، واجتمع بأحمد باشا المخلوع وتكلما معه، فقال: أنا لست بعاصٍ ولا مخالف للأوامر، وإنما لصالح أغا وعمر علايف نحو خمسماية كيس باقية، ولم يبقَ عندي

شي سوى ما على جسدي من الثياب، وقد أخذ العسكر المحاربون موجوداتي جميعًا، فإذا طيبتم خواطرهما نزلت في الحال، فنزلا بذلك الجواب ثم ترددوا في الكلام والعقد والإبرام، ولم يحسن السكوت على شي.

وفيه وصل الأُمرا القبالي إلى حلوان، وعلي بك أيوب دخل إلى الجيزة صحبة من بها، وسليمان بك خارجها.

وفي يوم الجمعة عدى ياسين بك من الجيزة إلى متاريس الروضة ولم يكن بها سوى الطبجية، فطلعوا إليهم وقبضوا على بعضهم وأخذوا منهم ثلاثة مدافع وسدوا غالبية المدفع الكبير، وآخَر رموه إلى البحر فثارت رجة بمصر القديمة والروضة، وضربوا بالمدافع والرصاص، ورجع الواصلون من الجيزة إلى أماكنهم، وحضر الألفي إلى جهة الطرانة.

وفيه حضر صالح أغا القابجي إلى السيد عمر النقيب، وأخبره أنهم تواعدوا مع أحمد باشا في عصر غد من يوم السبت، إما أن ينزل أو يستمر على عصيانه، فلما كان السبت في الميعاد أفرجوا عن ضُعفا الرعية الكاينين بالقلعة، وكذلك النسا بعدما أخذوا ما معهم من الأمتعة والثياب، وأبقوا عندهم الشبان والأقويا للمعاونة في الأشغال، وأظهروا المخالفة وامتنعوا من النزول وباتوا على ذلك، وكثر اللغط في الناس وانقضى شهر ربيع الثاني على ذلك.

شهر جمادى الأولى (سنة ١٢٢٠)

استهل بيوم الأحد، فيه ضربوا ثلاثة مدافع من القلعة وقت الشروق، وكأنها إشارة وعلامة لأصحابهم.

وفي يوم الاتنين سبح جماعة من الجيزة إلى جهة إنبابة، وكان ببولاق طايفة من العسكر يترامحون بجهة ديوان العشور فضربوا عليهم مدافع فحصل ببولاق ضجة، وركب محمد علي باشا أواخر النهار وذهب إلى بولاق، ونزل ببيت عمر بك الأرنؤدي ووضب جملة من العسكر، وعدوا ليلًا وطلعوا ناحية بشتيل وحضروا إلى جهة إنبابة يوم التلات، وتحاربوا مع من بها حتى أجلوهم عنها، وعملوا هناك متاريس في مقابلتهم واستمروا على ذلك يتضاربون بالمدافع.

وفي يوم السبت سابعه طلع بشير أغا القابجي وصالح أغا السلحدار إلى القلعة، وتكلموا مع أحمد باشا ومن معه، وقد كانت وردت مكاتبات من قبطان باشا في أمر أحمد باشا، ثم نزلوا وصحبتهم كتخدا أحمد باشا إلى بيت سعيد أغا الوكيل، وركبوا معه

إلى بيت محمد علي باشا، واختلطوا مع بعضهم، ثم طلع طالح أغا وأربعة من عُظماهم، ثم نزلوا ثم طلعوا وترددوا في الذهاب والإياب ومراددة الخطاب، وبات الكتخدا أسفل وطلب القلعاويون شروطًا وعلايفهم الماضية وغير ذلك، وانتهى الكلام بينهم على نزول أحمد باشا المخلوع في يوم الاتنين وتسليم القلعة والجبخانة.

وأصبح يوم الاتنين فطلبوا جِمالًا لحمل أثقالهم، فأرسلوا إلى السيد عمر فجمع لهم من جِمال الشواغرية مايتي جَمَل، فنقلوا عليها متاعهم وفرشهم، وأنزل الباشا حريمه إلى بيت مصطفى أغا الوكيل، ونزل كثير من عساكرهم وخدمهم وهم متغيرو الصور، وذهب أكثرهم بعزالهم إلى بولاق ونهبوا بيوت الرعايا التي بالقلعة، وأخذوا ما وجدوه فيها من المتاع، وطلع حسن أغا سرششمه بجملة من العسكر إلى القلعة، وانقضى ذلك اليوم ولم ينقضِ نزولهم، وحضر الوالي أيضًا وقت العشا إلى بيت السيد عمر وطلب خمسين جَمَلًا فلم يتيسر إلا بعضها.

وأصبح يوم التلات فأنزلوا باقي متاعهم ونزل الباشا المخلوع من باب الجبل في رابع ساعة من النهار على جهة باب النصر، ومر من خارجه إلى جهة الخروبي وذهب إلى بولاق وصحبته كتخدا محمد علي الباشا وعمر بك وصالح أغا قوش، ونزل صحبته مدافع تعوَّق بعضها عند الذنجرية لضعف الأكاديش، وسكن ببيت السيد عمر النقيب، وسكن صالح أغا ببيت شيخ السادات، وذلك عاشر جمادى الأولى، واطمأن الناس بعض الاطمينان مع بقا التحرز.

وأرسل السيد عمر فنادى تلك الليلة باستمرار الناس على التحرز والسهر وضبط الجهات، فإن القوم لا أمان لهم، وانحشروا في داخل المدينة والوكايل والبيوت ولا يتركون قبايحهم.

وأما الأُمرا المصرلية، فإنهم وصلوا إلى التبين، واجتمعوا هناك ما عدا علي بك أيوب وسليمان بك وعباس بك، فإنهم بالجيزة مع علي باشا وياسين بك، وأما الدلاتية الأنجاس، فإنهم مستمرون على نهب البلاد وسلب الأموال وأذية العباد.

ونهبوا كاشف الغربية، وهجموا على سمنود وهي مدينة عظيمة، فنهبوا بيوتها وأسواقها وأخذوا ما فيها من الودايع والأموال، وسبوا النسا وفعلوا فِعالًا شنيعة تقشعر منها الأبدان.

ثم انتقلوا إلى المحلة الكبيرة وهم الآن بها، وأما محمد بك الألفي فإنه حاصر دمنهور مدة مديدة، فلم يتمكن منها ثم ارتحل عنها ورجع مقبلًا ووصل إلى ناحية الطرانة، وأما قبطان باشا فإنه لم يزل مقيمًا على ساحل أبي قير.

وفي يوم الخميس وصلت الأخبار بذهاب قبطان باشا إلى إسكندرية.

وفي يوم الأحد خامس عشره نزل أحمد باشا المخلوع إلى المراكب من بولاق، وسافر إلى جهة بحري بعياله وأتباعه المختصين به، وتخلف عنه كتخداه وعمر بك وصالح قوش والدفتردار وكثير من أتباعه، ولم يسهل بهم مفارقة أرض مصر وغنايمها مع أنهم مجتهدون في خرابها.

وفيه وصل الألفي الكبير والصغير إلى بر الجيزة.

وفي يوم الاتنين اتفق جماعة من الأرنؤد، وقصدوا الذهاب إلى بر الجيزة، فوصل خبرهم إلى محمد علي باشا، فأرسل إليهم عسكرًا ومعهم حجو فلحقهم عند المعادي بحري بولاق، فقتلوا منهم نحو العشرين وهرب باقيهم وتفرقوا.

وفيه بنى حجاج الخضري حايطًا وبوابة على الرملية عند عرصات الغلة.

وفي يوم الأربع سابع عشره قبض محمد علي باشا على جرجس الجوهري، ومعه جماعة من الأقباط فحبسهم ببيت كتخداه، وطلب حسابه من ابتدا سنة خمس عشرة، وأحضر المعلم غالي الذي كان كاتب الألفي بالصعيد، وألبسه منصبه في رياسة الأقباط، وكذلك خلع على السيد محمد بن المحروقي خلع الاستمرار على ما كان عليه أبوه من أمانة الضربخانة وغيرها.

وفي تلك الليلة قتل شخص كبير بيكباشي تحت بيت الباشا بالأزبكية، وضربوا لموته مدفعًا؛ وذلك لأمر نقموه عليه.

وفيه سافر كتخدا بك إلى جهة المنوفية، وقبض على كاشفها وأخذ ما معه من الأموال التي جمعها من منهوبات البلاد، ودل على ودايعه وأخذها أيضًا، ووجد له غلالًا كثيرة ومواشي وغير ذلك.

وفي يوم الجمعة عشرينه الموافق لحادي عشر مسرى أوفى النيل المبارك أذرعه ونودي بذلك، وأُشيع في ذلك اليوم وصول فرقة من الأُمرا المصريين من خلف الجبل، وبات الناس مستعدين للفرجة على موسم الخليج على العادة، فأمر الباشا بإخراج الخيام والنظام إلى ناحية الجسر وعمل الحراقة، ثم أمر بكسر السد ليلًا، فما طلع النهار إلا والماء يجري في الخليج، ولم يذهب الباشا ولا القاضي ولا أحد من الناس، ولم يشعروا بذلك، وكان قد بلغه ورود الأُمرا فتأخر عن الخروج، وهم ظنوا خروجه مع العسكر إلى خارج المدينة.

وفي وقت الشروق من ذلك اليوم وصل طايفة من الأُمرا إلى ناحية المذبح، وكسروا بوابة الحسينية ودخلوا من باب الفتوح في كبكبة عظيمة، وخلفهم نقاقير كثيرة وجِمال

وأحمال، فشقوا من بين القصرين حتى وصلوا الأشرفية، وشخص لهم الناس وضجوا بالسلام عليهم وبقولهم: نهار مبارك وسعيد والحمد لله على السلامة.

وشخص الناس وبهتوا وخمنوا التخامين، فلما وصلوا عطفة الخراطين افترقوا فرقتين، فدخل عثمان بك وحسن وشاهين بك المرادي وأحمد كاشف سليم وعباس بك وغيرهم كشاف وأجناد ومماليك وعبيد كثيرة نحو الألف، وخلف كل طايفة نقاقير وهجن وبأيديهم البنادق والسيوف والأسلحة، ومروا بالجامع الأزهر وذهبوا إلى بيت السيد عمر والشيخ الشرقاوي، فامتنع السيد عمر من مقابلتهم.

فدخلوا إلى بيت الشيخ الشرقاوي وحضر عندهم السيد عمر، فطلبوا منهم النجدة وقيام الرعية، فقالوا لهم: لا يصح ولم يكن بيننا وبينكم موعد ولا استعداد والأَوْلى ذهابكم، وإلا أحاطت بنا وبكم العساكر وقتلونا معكم.

فعند ذلك ركبوا وخرجوا من باب البرقية، وبعد خروجهم حضر في أثرهم حسن بك الأرنؤدي في عدة وافرة من العسكر وهم مشاة، وخرج خلفهم فوجدهم خرجوا إلى الخلا فرجع على أثره.

وأما الفرقة الأخرى، فإنهم وصلوا إلى باب زويلة وتقدموا قليلًا إلى جهة الدرب الأحمر؛ فضرب عليهم العسكر الساكنون هناك بالرصاص، فرجعوا القهقرى إلى داخل باب زويلة، وأرادوا الدخول إلى جامع المؤيد والكرنكة بتلك الناحية، فضرب عليهم المغاربة والمرابطون هناك فأصيب منهم أشخاص، وقوي جاش العسكر الذين جهة الدرب الأحمر لما سمعوا ضرب الرصاص وتنبه غيرهم أيضًا واجتمعوا لمعاونتهم، وانصرع منهم ثلاثة أشخاص وقعوا إلى الأرض، فلما عاينوا ذلك ولوا الأدبار وتبعهم العسكر يضربون في أقفيتهم، فلم يزالوا في سيرهم إلى النحاسين.

وقد أغلق الناس بوابة الكعكيين وكذلك بوابة الخراطين وبوابة البندقانيين، وكان حجو الساكن بالخرنفش عندما سمع بدخولهم لحقه الفزع والخوف، فخرج من بيته بعسكره يريد الفرار وخرج من عطفة الخرنفش، وذهب إلى جهة باب النصر لظنه أنه لا يمكنه الخروج من باب الفتوح الذي دخلوا منه، فلما وصل إلى باب النصر وجده مغلوقًا، وامتنع المرابطون عليه من فتحه؛ فعاد على أثره وذهب إلى باب الفتوح فلم يجد به أحدًا، فاطمأن حينئذٍ وعلم سو رأيهم، فأغلقه وأجلس عنده جماعة من أتباعه ورجع على أثره إلى جهة بين القصرين، فصادف إدبار الجماعة والعسكر في أقفيتهم بالرصاص؛ فعند ذلك قوي جاشه وضرب في وجوههم هو ومن معه من العسكر فاختبل القوم وسقط في

أيديهم، وعلموا أنه قد أحيط بهم فنزلوا عن خيولهم، ودخل منهم جماعة كثيرة جامع البرقوقية، وذهب منهم طايفة كبيرة بخيولهم نحو المابة إلى جهة باب النصر فوجدوه مغلوقًا، فنزلوا أيضًا عن خيولهم ودخلوا العطوف ونطوا من السور إلى الخلا وتفرق منهم جماعة اختفوا في الجهات، وبعض الوكايل والبيوت.

ولما انحصر الذين دخلوا جامع البرقوقية وأغلقوا على أنفسهم الباب احتاطت بهم العسكر، وأحرقوا الباب وتسور أيضًا عليهم جماعة من العطفة التي بظاهر البرقوقية، وقبضوا عليهم وعروهم ثيابهم وأخذوا ما معهم من الذهب والنقود والأسلحة المثمنة، وذبحوا منهم نحو الخمسين مثل الأغنام، وسحبوا نحو ذلك العدد بالحياة وهم عرايا مكشوفو الروس حفاة الأقدام موثوقو الأيدي يضربونهم ويصفعونهم على أقفيتهم ووجوههم، ويسبونهم ويشتمونهم ويسحبونهم على وجوههم حتى ذهبوا بهم وبروس القتلى إلى بيت الباشا بالأزبكية، وكان قد استعد للفرار، وتحير في أمره ونزل إلى أسفل يريد الركوب وإذا بالعسكر داخلون عليه ومعهم الروس والأسرى في أيديهم فعند ذلك سكن جاشه وامتلا فرحًا.

ولما مثل بين يديه أحمد بك تابع البرديسي الذي كان بدمياط وحسن شبكة ومن معهما، قال لأحمد بك: يا أحمد بك وقعت في الشَّرَك، فطلب ماءً فحلوا كتافه وأتوه بماء يشرب فنظر لمن حوله وخطف يطقانًا من وسط بعض الواقفين وهاج فيهم، وأراد قتْل محمد علي باشا وقَتل أنفارًا، فقام الباشا وهرب إلى فوق وتكاثروا عليه وقتلوه، ووضعوا باقي الجماعة في جنازير وفي أرجلهم القيود، وربطوهم بالحوش وهم على الحالة التي حضروا فيها من العري والحقارة والذلة.

وفي تاني يوم أحضروا الجزارين وأمروهم بسلخ الروس بين يدي المعتقلين وهم ينظرون إلى ذلك، وأحضروا جماعة من الإسكافية فحشوها تبنًا وخيطوها.

وفي ليلة الاتنين خرج عابدي بك بعساكر الأرنؤد برًّا وبحرًا إلى جهة طرا، فالتقى مع من بها من المصريين وكان بها إبراهيم بك الكبير وابنه مرزوق بك وأمراهم فقتل من عسكر الأرنؤد عدة كبيرة، وولوا منهزمين، وحضروا إلى مصر وغرق من مراكبهم مركبان في ليلة التلات، وفي تلك الليلة قتلوا المعتقلين ما عدا حسن شبكة ومعه اثنان، قيل: إنهم عملوا على أنفسهم تلتماية كيس فأبقوهم وقتلوا الباقي قتلًا شنيعًا، وعذبوهم في القتل من أول الليل إلى آخره، ثم قطعوا روسهم وحشوها تبنًا ووسقوها في مركب وأرسلوها إلى إسكندرية، وعدتهم تلاتة وتمانين راس، وفيهم من غير جنسهم وأناس

جربجية ملتزمون واختيارية التجوا إليهم ورافقوهم في الحضور، وبعتوا من يوصلهم إلى إسلامبول، وكتبوا في المراسلة أنهم حاربوهم وقاتلوهم وحاصروهم حتى أفنوهم، واستأصلوهم ولم يُبقوا منهم باقية، وهذه الروس روس أعيانهم وأكابرهم، فكان عدة قتْل هذه الحادثة من المعروفين المنصبين مراد بك تابع عثمان بك حسن، وقبطان بك تابع البرديسي، وسليم بك الغريبة، وأحمد بك الدمياطي، وعلي بك تابع خليل بك، ونحو الخمسة والعشرين من مماليكهم وأتباعهم، ونجا حسن بك شبكة واثنان معه دون أتباعه، وباقيهم أشخاص مجهولة وفيهم فرنساوية وأرنؤدية، ولم يتفق للأُمرا المصرية أقبح ولا أشنع من هذه الحادثة، وربط الله على قلوبهم وأعمى أبصارهم وغل أيديهم.

وفي يوم الأربع حضر طايفة الدلاة إلى ناحية الخانكة بعدما طافوا إقليم الغربية والمنوفية والشرقية والدقهلية، وفعلوا أفعالًا شنيعة من النهب والسلب والقتل والأسر والفسق، وما لا يُسطر ولا يُذكر ولا يمكن الإحاطة ببعضه. وفيه أفرجوا عن جرجس الجوهري ومن معه على أربعة آلاف وثمانماية كيس وأن يبقى على حاله، فشرع في توزيعها على باقي الأقباط وعلى نفسه وعلى كُبراهم وصيارفهم ما عدا فلتيوس وغالي، وحولت عليه التحاويل وحصل لهم كرب شديد وضج فُقراهم واستغاثوا.

وفي يوم الجمعة خرج عدة كبيرة من العسكر إلى ناحية الشرق لمحاربة الدلاة وأميرهم عمر بك تابع عثمان بك الأشقر، ومحمد بك المبدول، وكثير من الأجناد المصرية، وحسن باشا الأرنؤدي.

وفي يوم السبت رجع القرابة المشاة، وذهب الخيالة خلفهم متباعدين عنهم بمرحلة، فكان شأنهم أن الدلاة المذكورين إذا وردوا قرية نهبوها، وأخذوا ما وجدوه فيها وأخذوا الأولاد والبنات وارتحلوا، فيأتي خلفهم العرب التابعون خلفهم فيطلبون الكلف والعليق، وينهبون أيضًا ما أمكنهم ثم يرتحلون أيضًا خلفهم، فتنزل بعدهم التجريدة فيفعلون أقبح من الفريقين من النهب والسلب حتى ثياب النسا، وأخذ الدلاة من عرب العايد خمسماية جَمَل وذهبوا على طريق راس الوادي.

وفيه ورد الخبر بوصول كتخدا بك إلى منوف، وقبض على كاشفها وأخذ منه ما جمعه، ثم إنه فرد على البلاد التي وجد بها بعض العمار أموالًا من ألف ريال فأزيد، وحصر ذلك في قايمة وهي نحو الستين بلدًا، وأرسل يستأذن في ذلك ويطلب عدم الرفع عن شي منها ليُحصل قدرًا يستعان على علايف العسكر وجماكيهم، وليكمل خراب الإقليم. وانقضى شهر جمادى الأولى.

شهر جمادى الثانية (سنة ١٢٢٠)

استهل بيوم الاتنين، في تانيه وصل ولدا محمد علي باشا إلى ساحل بولاق، فركب أغوات الباشا واستقبلوهما وأحضروهما إلى الأزبكية وعملوا لهما شنكًا تلك الليلة، وفي تالته طلع محمد علي باشا إلى القلعة، وأجلس ابنه الكبير بها وضربوا له في ذلك الوقت مدافع.

وفي رابعه رجع عابدي بك ومن بصحبته من المصرلية من جهة الشرق، وقد وصلوا خلف الدلاة إلى حد العايد، ثم رجعوا وذهب الدلاة إلى جهة الشام بما معهم من المال والغنايم والجِمال والأحمال، وعدتها أكثر من أربعة آلاف جَمَل، وما نهبوه من البلاد وأسروه من النسا والصبيان وغير ذلك، وكانوا من نقمة الله على خلقه، ولم يحصل من مجيهم وذهابهم إلا زيادة الضرر، ولم يحصل للباشا المخلوع الذي استدعاهم لنصرته إلا الخذلان، وكان في عزمه وظنه أنهم يصيرون أعوانه وأنصاره ويستعين بهم وبطايفة الينكجرية على إزالة الطايفة الأخرى، فانتحس بقدومهم وأورثه الله ذلهم وتخلوا عنه وخذلوه، وضاع عليه ما صرفه عليهم في استدعاهم وملاقاتهم وخِلعهم، وتقدماتهم ومصارفهم وعلايفهم وخرجهم، ولم ينفعوه بنافعة بل كانوا من الضرر والصرف عليه وعلى الإقليم، وكان كلما خوطب أو عوتب في أمر أو فِعل يقول: اصبروا حتى تأتي الدلاتية ويحصل بعد ذلك النظام، فلم يحصل بوصولهم إلا الفساد العام، وانقضت دولته وانعكست قضيته.

وفيه شرعوا في عمل دفتر فِردة على البلاد التي بقي فيها بعض الرمق.

وفي خامسه حضر كتخدا بك ليلًا وأشار بإبطال ذلك الدفتر لما فيه من الإشاعة والشناعة، واتفق مع الباشا والمتكلمين أنه يفعل ذلك باجتهاده ورايه، ورجع في تلك الليلة وشرع في التحصيل مع الجور والعسف الزائد كما هو شأنهم.

وفيه سافر أيضًا جانم أفندي الدفتردار، وسافر صحبته قابجي باشا الأسود المسمَّى بشير أغا.

وفيه سافر بعض كبرايهم إلى جهة السويس ليأتي بالمحمل.

وفي يوم الجمعة ورد أحمد أفندي من إسكندرية، وهو الذي كان بالدفتردارية في العام السابق ومنعه أحمد خورشيد من الورود، وكتبوا في شانه عرضحال من المشايخ والوجاقلية بمنعه، وإبقا جانم أفندي واستمر بإسكندرية إلى هذا الوقت، وحضر الآن بمراسلة من قبطان باشا وأحضر صحبته تقرير السعيد أغا على الوكالة وإبقاه على ما هو عليه ونظر الخاصكية لسليمان أغا حافظ.

وفي يوم الأحد رابع عشره تغيب جرجس الجوهري، فيقال: إنه هرب ولم يظهر خبره، وطلب محمد علي فلتيوس وغالي وجرجس الطويل.

وفي يوم الاتنين حضر محمد كتخدا الألفي بجواب من مخدومه، وقابل محمد علي باشا وذهب إلى بيته لقضا أشغاله.

وفيه وصلت القافلة والمحمل وأراد الباشا نهب قافلة التجار، فصالحوا على أحمالهم بألف كيس، ودخل المحمل في ذلك اليوم صحبة المسفر.

وفيه طلب الباشا حسن أغا نجاتي المحتسب والأمير إبراهيم الرزاز، وطلب أن يقلد حسن أغا كتخدا الحج والأمير إبراهيم دويدار بشرط أن يكلفا أنفسهما من مالهما، فاعتذرا بعدم قدرتهما على ذلك؛ فحبسهما وطلب من كل واحد منهما خمسماية كيس، وعزل حسن أغا وقلد عوضه آخر يسمى عبد الله قاضي أوغلي على الحسبة.

وفي يوم التلات ظهر الخبر عن جرجس الجوهري بأنه ركب من دير مصر العتيقة، وذهب إلى الأُمرا المصرلية بناحية التبين.

وفي يوم الأربع سابع عشره تُوُفِّيَ الشيخ محمد الحريري مفتي الحنفية.

وفي يوم الجمعة تاسع عشره تُوُفِّيَ حسن أفندي ابن عثمان الأماحي الخطاط.

وفيه قلدوا علي جلبي بن أحمد كتخدا على كشوفية القليوبية، ولبس القفطان وركب بالملازمين.

وفيه سافر محمد كتخدا الألفي عايدًا إلى مخدومه، وذهب صحبته السلحدار وموسى البارودي.

وفي عشرينه تقلد الحسبة شخص يقال له: عبد الله قاضي أوغلي، وكذلك تقلد قبله بأيام إبراهيم الحسيني الزعامة وهو حليق اللحية، وتقلد محمد من مماليك إسماعيل بك ويُعرف بالألفي، وهو زوج هانم ابنة بنت إسماعيل بك أغا مستحفظان.

وفيه أفرجوا عن حسن أغا المحتسب وإبراهيم الرزاز، وقرروا على الأول خمسة وستين كيسًا، وعلى التاني خمسة عشر كيسًا يقومان بدفعها.

وفيه أنزلوا قوايم على البلاد والحصص التي كانت تحت التزام جرجس الجوهري إلى المزاد، فاشتراها القادرون والراغبون.

وفي حادي عشرينه قلدوا ياسين بك كشوفية بني سويف والفيوم، وكذلك لبسوا كاشفًا على منفلوط وغيرها.

وفي أواخره حضر محمد كتخدا الألفي والسلحدار وذكرا مطلوبات الألفي، وهو أنه يطلب كشوفية الفيوم وبني سويف والجيزة والبحيرة ومايتي بلد التزام، وأنه يأتي إلى

الجيزة ويقيم بها ويكون تحت طاعة محمد علي باشا، وتشاوروا في ذلك أيامًا، وأما باقي الأُمرا المصرليين فإنهم انتقلوا من مكانهم وترفعوا إلى جهة قبلي بناحية بياضة، ثم اتفق الرأي على أن يعطوهم من فوق جرجا، وينزل بها الحاكم المولى عليها من العثمانية، وأن المصريين القبالي اقتسموا بينهم البلاد ويقومون بدفع المال والغلال الميرية، وكل ذلك لا أصل له ولا حقيقة من الطرفين، وكتبوا للألفي مكاتبات بذلك وأن يكون في ضمنهم.

وفي أواخره أيضًا احتاج محمد علي باشا إلى باقي علوفة العسكر، فتكلم مع المشايخ في ذلك وأخبرهم بأن العسكر باقٍ لهم ثلاثة آلاف كيس ولا نعرف لتحصيلها طريقة، فانظروا رأيكم في ذلك، وكيف يكون العمل ولم يبقَ إلا هذه النوبة، ومن هذا الوقت إذا قبض العسكر باقي علايفهم سافروا إلى بلادهم، ولم يبقَ منهم إلا المحتاج إليهم وأرباب المناصب، ولا يأخذون بعد ذلك علايف، فكثر التروِّي في ذلك ولغط الناس بالفردة وتقرير أموال على أهل البلد.

وانحط الأمر بعد ذلك على قبض ثلث الفايظ من الحصص والالتزام، فضج الناس وقالوا: هذه تصير عادة ولم يبقَ للناس معايش، فقال: نكتب فرمانًا ونلتزم بعدم عود ذلك ثانيًا، ونرقم فيه لعن الله من يفعلها مرة أخرى، ونحو ذلك من التمويهات الكاذبة، إلى أن رضي الناس واستقر أمرها وشرعوا في تحريرها وطلبها.

شهر رجب الفرد (سنة ١٢٢٠)

استهل بيوم الأربع وفي حادي عشره سافر محمد كتخدا الألفي بالجواب المتقدم إلى مخدومه بعد أن قضى أشغاله واحتياجاته من أمتعة وخيام وسروج وغير ذلك، وخرج ياسين بك وباقي الكشاف المسافرون إلى الجيزة، وطلبوا المراكب حتى عز وجودها، وامتنع ورودها من الجهة البحرية.

وفي تالت عشره سافر المذكورون بعساكرهم، وسافر أيضًا علي باشا سلحدار أحمد باشا خورشيد المنفصل إلى إسكندرية، وأما قبطان باشا فإنه لم يزل بثغر إسكندرية.

وفي منتصفه برز طاهر باشا الذاهب إلى البلاد الحجازية بعساكره إلى خارج باب النصر.

وفيه وردت الأخبار بأن الوهابيين استولوا على المدينة المنورة — على ساكنها أفضل الصلاة وأتم التسليم — بعد حصارها نحو سنة ونصف من غير حرب، بل تحلقوا حولها وقطعوا عنها الوارد، وبلغ الأردب الحنطة بها ماية ريال فرانسة، فلما اشتد بهم الضيق

سلموها ودخلها الوهابيون ولم يحدثوا بها حدثًا غير منع المنكرات، وشرب التنباك في الأسواق وهدم القباب ما عدا قبة الرسول ﷺ.

وفي تاسع عشره وقع بالأزبكية معركة بين العسكر وقُتل بها واحد من أعيانهم، واثنان آخران ورجل سايس وبغل وفرس وحمار.

وفي خامس عشرينه ورد الخبر بسفر القبطان وأحمد باشا خورشيد من ثغر إسكندرية.

وفيه حضر أهل رشيد يتشكون إلى السيد عمر النقيب والمشايخ، ويذكرون أن محمد علي باشا أرسل يطلب منهم أربعين ألف ريال فرانسة على ثلاثة عشر نفرًا من التجار بقايمة.

وفيه حضر محمود بك الذي كان بالمنية، وتواترت الأخبار بوصول الغز المصريين إلى أسيوط وملكوها، وأما الألفي فإنه جهة الفيوم ووقع بينه وبين جماعة ياسين بك محاربة، وظهر عليهم وأرسل ياسين بك يطلب عسكرًا وذخيرة.

وفي خامس عشرينه ركب المشايخ والسيد عمر النقيب إلى محمد علي، وترجوا عنده في أهل رشيد فاستقرت غرامتهم على عشرين ألف فرانسة، وسافروا على ذلك وأخذوا في تحصيلها.

وفيه طلب بترك الدير، واحتجوا عليه بهروب جرجس الجوهري، وانحط الأمر على المصالحة بماية وأربعين كيسًا وزعها النصارى على بعضهم ودفعوها.

شهر شعبان (سنة ١٢٢٠)

استهل بيوم الجمعة، فيه أمر محمد علي باشا برفع حصص الالتزام التي على النسا، وكتبوا قوايم مزادها، وانحط الأمر على المصالحات بقدر حالهن، وغير ذلك أمور كثيرة وجزئيات وتحيلات على استنضاح الأموال لا يمكن ضبطها.

وفي أواخره زوج محمد علي حسن الشماشرجي تابعه ببنت سليم كاشف الأسيوطي، وهي بنت بنت عبد الرحمن بك تابع عثمان بك الجرجاوي، وهي ربيبة أحمد كاشف تابع سليم كاشف المذكور، فعقدوا عقدها وعملوا لها مهمًا ببيت أمها هانم بحارة عابدين، واحتفل بذلك محمد علي وأمر بأن يعمل لها زفة مثل زفف الأُمرا المتقدمين، ونبهوا على أرباب الحرف فعملوا لهم عربات وملاعيب وسخريات، قاموا بكلفها من مالهم الموزع على أفرادهم، وداروا بالزفة يوم الخميس غاية شعبان.

وحضر محمد علي إلى مدرسة الغورية مع أولاده ليرى ذلك، وعمل له السيد محمد المحروقي ضيافة في ذلك اليوم، وأحضر إليه الغدا بالمدرسة، ولما انقضى أمر الزفة شرعوا في عمل موكب المحتسب ومشايخ الحرف لرؤية رمضان، وحضروا إلى بيت القاضي ولم يثبت الهلال تلك الليلة وانقضى شهر شعبان.

واستهل شهر رمضان بيوم السبت (سنة ١٢٢٠)

وفي هذا اليوم شح وجود اللحم وغلا سعره؛ لعدم المواشي وتوالي الظلم والعسف والفِرد والكلف على القرى والبلاد، حتى بلغ الرطل اللحم الجفيط الهزيل خمسة وعشرين نصفًا إن وُجد، والجاموسي اثني عشر نصفًا، وامتنع وجود الضاني بالأسواق بالكلية راسًا، ولما استهل رمضان انكب الناس على من يوجد من جزاري اللحم الخشن، وكذلك شح وجود السمن وعُدِم بالكلية، وإذا وجد منه شي خطفه العسكر.

وذهبوا إلى سوق إنبابة يوم السبت أول رمضان، ونهبوا ما وجدوه مع الفلاحين من الزبد والجبن وغير ذلك، وزاد فحشهم وقبحهم وتسلطهم على إيذا الناس، وكثروا بالبلد وانحشروا من كل جهة، وتسلطوا على تزوج النسا قهرًا اللاتي مات أزواجهن من الأُمرا المصرلية، ومن أبت عليهم أخذوا ما بيدها من الالتزام والإيراد، وأخرجوها من دارها ونهبوا متاعها فما يسعها إلا الإجابة والرضى بالقضا.

وتزوج بعضهم بزوجة حسن بك الجداوي وهي بنت أحمد بك شنن وأمثالها، ولم ينفعهن الهروب ولا الاختفاء ولا الالتجا.

وتزيوا بزي المصريين في ملابسهم، وركبوا الخيول المسومة بالسروج المذهبة والقلاعيات والرخوت المكفتة، وأحدق بهم الخدم والأتباع والقواسة والسواس والمقدمون، ووصل كل صعلوك منهم لما لا يخطر على باله أو يتوهمه أو يتخيله، ولا في عالم الرؤيا مع انحراف الطبع والجهل المركب وعمى البصيرة والفظاظة والقساوة والتجاري وعدم الدين والحيا والخشية والمُروة، ومنهم من تزوج الاثنتين والثلاث وصار له عدة دور.

وفيه تواترت الأخبار بما حصل لياسين بك، وأنه بعد انهزامه هرب بجماعة قليلة وذهب عند سليمان بك المرادي وانضم إليه.

وفي تالت عشره نهبوا بيت ياسين بك المذكور وأخذوا ما فيه ونفوا محمد أفندي أباه، وأنزلوه في مركب وذهبوا به إلى بحري، وقيل: إنهم قتلوه.

وفيه وردت الأخبار بأنه غرق بمينا إسكندرية أحد عشر غليونًا من الكبار؛ وذلك أنه في أواخر شعبان هبت رياح غربية عاصفة ليلًا، فقطعت مراسي المراكب ودفعتها الرياح إلى البر؛ فانكسرت وتلف ما فيها من الأموال والأنفس، ولم ينجُ منها إلا القليل وكذلك تلف ثماني وأربعون مركبًا واصلة من بلاد الشام إلى دمياط ببضايع التجار.

وفيه حضر جماعة من الألفية إلى بر الجيزة، وطلبوا كلفًا من إقليم الجيزة وقبضوها ورجعوا إلى الفيوم، ومضى في أثرهم عربان أولاد علي من ناحية البحيرة، وعاثوا بأراضي الجيزة، فعينوا لهم طاهر باشا الذي كان مسافرًا إلى بلاد الحجاز، وخرج بعساكره وخيامه وموكبه إلى خارج باب النصر ونصب وطاقه، وصار يضرب في كل ليلة مدافعه وطبله ونوبته.

واستمر مقيمًا على ذلك نحو ثلاثة شهور، وهم يجمعون له الأموال ويفردون الفرد على الأقاليم ويقولون: برسم تشهيل العسكر المسافر للخوارج واستخلاص البلاد الحجازية من أيديهم، ولم يزالوا يحتجون بعدم أخذ النفقة، وفي كل يوم يتسللون شيًّا بعد شي ويدخلون إلى المدينة، ويتفرقون إلى الجهات حتى لم يبقَ منهم إلا القليل.

ثم إنهم ارتحلوا من مخيمهم بحجة العرب وطردهم من الجيزة، فلما عدوا إلى الجيزة دخلوا إلى دورها وسكنوها غصبًا عن أهلها، واستولوا على فراشهم ومتاعهم، ولم يخرج منهم أحد للعرب، ولم يتعدوا خارج السور وبطل أمر السفرة المذكورة.

وفي تاسع عشره أرسل محمد علي من قبض على الأغا الشمعدانجي وعثمان أغا كتخدا بك سابقًا وقت المغرب، وأنزلوهما إلى بولاق في مركب وذهبوا بهما، يقال: إنهم قتلوهما ومعهما اثنان أيضًا من كبار العسكر، ولم يُعلم سبب ذلك، وأنزلوا حصصهم في المزاد.

وفيه فتحوا طلب الميري من الملتزمين عن سنة إحدى وعشرين مع أن سنة تاريخه لم يستحق منها الثلث، وكانوا فتحوها معجلة لقدر الاحتياج، وقبضوا نصفها وطلبوا النصف الآخر بعد أربعة أشهر، وأما هذه فطلبوها بالكامل قبل أوانها بسنة، وخصوصًا في شهر رمضان مع الناس فيه من ضيق المعاش، وغُلو الأسعار في كل شي، وعدم وجود الأقوات، ووقوف العسكر خارج المدينة يخطفون ما يأتي به الفلاحون من السمن والجبن والتبن والبيض وغير ذلك، ومن دونهم العرب.

ومثل ذلك في البحر والمراكب، حتى امتنع وجود المجلوبات برًّا وبحرًا، وطلبوا المراكب لسفر العساكر بالتجاريد، فتسامع القادمون فوقفوا عن القدوم خوفًا من النهب والتسخير، ولم يبقَ بسواحل البحر مركب ولا قارب.

وبطل ديوان العشور ووصل سعر العشرة أرطال السمن ستماية نصف فضة إن وُجد، والعشرة من البيض بخمسة عشر نصف فضة إن وُجد، والدجاجة بأربعين نصفًا، والرطل الصابون بستين نصفًا، ولم يزل يتزايد حتى وصل الرطل إلى ماية وعشرين، والراوية الماء بأربعين نصفًا، والرطل القشطة بستين نصفًا، والرطل السمك الطري بستة عشر نصفًا، والقديد المملوح بعشرة أنصاف، وقد كان يباع بنصفين بالعدد من غير وزن، والحوت الفسيخ بأربعين نصفًا، وقِسْ على ذلك.

وفي عشرينه رجع خازندار طاهر باشا إلى جهة العادلية ثانيًا ومعه جملة من العسكر، وصاروا يضربون في كل ليلة مدفعين، واستمر طاهر باشا بالجيزة.

وفيه كتب محمد علي باشا مكاتبة إلى الأُمرا القبالي، وأرسل بها مصطفى أغا الوكيل وعلي كاشف الصابونجي ليصطلحوا على أمر، وفيه وصل أيضًا جماعة من الألفية إلى جهة سقارة وبلاد الجيزة، وطلبوا منها كلفة ودراهم، فأمر محمد علي بخروج العساكر، فتلكَّئُوا واحتجُّوا بطلب العلوفة فعزم على الخروج بنفسه، فلما كان ليلة الأربع سادس عشرينه طلب كبار العساكر وركب معهم إلى مصر القديمة، وشرعوا في التعدية بطول الليل، وهم: محمد علي وعسكره وخواصه، وعابدي بك، وعمر بك، وصالح قوش، والدلاة وكبيرهم، وعلي كاشف الذي تزوج بنت شنن وأتباعه في تجمل، وكبير الدلاة وطايفته، وركب الجميع وقت الشروق وبرزوا إلى الفضا، وانفرد كل كبير بعسكره خمسة طوابير وستة، ونظروا على البعد منهم فرأوا خيالة من العربان وغيرهم متفرقين كل جماعة في ناحية؛ فحمل كل طابور على جماعة منهم فانهزموا أمامهم، فساقوا خلفهم، فخرج عليهم كماين من خلفهم ووقع بينهم الضراب، وحمل علي كاشف وآخر يقال له: أوزي في جماعتهم فرأوه مجملًا فظنوه محمد علي فاحتاطوا به وتكاثروا عليه، وأخذوه أسيرًا هو ومن معه، وفرَّ من نجا منهم ووقعت فيهم الهزيمة، ورجع الجميع القهقرى وعدوا إلى بر مصر من غير تأخير، وذهب من الأرنؤد طايفة إلى الأخصام وانضموا إليهم.

وفي هذه الأيام وقع بين أهل الأزهر منافسات؛ بسبب أمور وأغراض نفسانية يطول شرحها، وتحزبوا حزبين: حزب مع الشيخ عبد الله الشرقاوي، وحزب مع الشيخ محمد الأمير وهم الأكثر، وجعلوا الشيخ الأمير ناظرًا على الجامع، وكتبوا له تقريرًا بذلك من القاضي، وختم عليه المشايخ والشيخ السادات والسيد عمر أفندي النقيب.

وكانت النظارة شاغرة من أيام الفرنسيس، وكان يتقلدها أحد الأُمرا، فلما خرج الأُمرا من مصر صارت تابعة للمشيخة لوقت تاريخه، فانفعل لذلك الشيخ الشرقاوي، ولما

فعلوا ذلك اجتهد الشيخ الأمير في النظر لخدمة الجامع بنفسه وبابنه، وأحضر الخدمة وكنسوا الجامع وغسلوا صحنه، ومسحوه وفرشوا المقصورة بالحصر الجدد، وعلقوا قناديل البوايك، وصار كل يوم يقف على الخدمة، ويأمرهم بالتنظيف وغسل الميضاة والمراحيض وأمر بغلق الأبواب من بعد صلاة العشا ما عدا الباب الكبير، ورتبوا له بوابًا وطردوا من يبيت به من الأغراب الذين يلتفون بالحصر، ويلوثونها ببولهم وغايطهم ونحو ذلك.

وفي غايته ليلة الأحد التي هي ليلة العيد، عدى طايفة من العسكر إلى بر الجيزة، وانضموا إلى الأخصام، وحصل في العسكر ارتجاج واختلافات، وعملوا شنكًا في تلك الليلة في الأزبكية بعدما أثبتوا هلال شوال بعد العشا الأخيرة، وقد كانوا أسرجوا المساجد وصلوا التراويح، ثم طفوا المنارات في تالت ساعة من الليل.

شهر شوال (سنة ١٢٢٠)

استهل بيوم الأحد المذكور، وجميع الأمور مرتبكة والحال على ما هو عليه من الاضطراب، ولم يحصل في شهر رمضان للناس جمع حواس ولا حظوظ ولا أمن، وانكف الناس عن المرور في الشوارع ليلًا خوفًا من أذية العسكر، وفي كل وقت يسمع الإنسان أخبارًا ونكات وقبايح من أفاعيلهم من الخطف والقتل وأذية الناس.

وفي رابعه قلدوا مناصب كشوفات الأقاليم وتهيئوا للذهاب، وعملوا قوايم فِرَد ومظالم على البلاد خلاف ما تقدَّم، وخلاف ما يأخذه الكشاف لأنفسهم وما يأخذونه قبل نزولهم؛ وذلك أنه عندما يترشح الشخص منهم لتقليد المنصب يرسل من طرفه معينين إلى الإقليم الذي سيتولى عليه بأوراق البشارات، وحق طرق باسم المعينين، إما عشرين ألفًا أو أكثر أو أقل، فإذا قبضوا ذلك أتبعوها بأوراق أخرى ويسمونها أوراق تقبيل اليد، وفيها مثل ذلك أو أكثر أو أقل، ثم كذلك أوراق لبس القفطان ونحو ذلك، وقد يتفق بعد ذلك جميعه أنه يتولى خلافه ويستأنف العمل إلى غير ذلك، هذا وكتخدا بك مستمر في سرحانه بالإقليم وجمع الأموال والعسف والجور، مرة بالمنوفية ومرة بالغربية ومرة بالشرقية، ولا يقرر إلا الأكياس من الشهريات والمغارم وحق الطرق والاستعجالات المترادفة مما لا يحيط به دفتر ولا كتاب.

وفي تامنه تُوُفِّيَ إبراهيم أفندي كاتب البهار، وترك ولدًا صغيرًا فقلدوا مملوكه حسنًا في منصبه وكيلًا عن ولده.

وفي هذه الأيام كثر العسكر والمناداة عليهم بالخروج إلى نواحي طرا والجيزة؛ وذلك بسبب أن بعض الألفية عدى إلى ناحية الشرق، وأخذوا كلفًا من البلاد، وبعضهم وصل إلى وردان بالبر الغربي.

وفي عاشره حضر جملة من الدلاتية وغيرهم من ناحية الشام، فمنهم من حضر في البحر على دمياط، ومنهم من حضر في البر، وعدى طاهر باشا الذي كان مسافرًا على جدة.

وفيه أيضًا سافرت القافلة المتوجهة إلى السويس وصحبتها نحو المايتين من العسكر وعليهم كبير من طرف طاهر باشا بدلًا عنه، وسافر صحبتهم حسن أفندي القاضي المنفصل ليكون قاضيًا بمكة حسب القانون.

وفي خامس عشره وصلت قوافل التجار من السويس، فأرسل محمد علي وفتح الحواصل وأراد أخذ بضايع التجار وفروق البن، فانزعج التجار بوكايل الجمالية وغيرها، وذلك بعد أن دفعوا عشورها ونولونها وأجرها وما جعلوه عليها من المغارم السابقة، وانحط الأمر على المصالحة عن كل فرق خمسون ريالًا ولم ينتطح في ذلك شاتان.

وفي حادي عشرينه حضر كتخدا بك إلى مصر بعدما جمع الأموال من الأقاليم، وفعل ما فعله من الفِرد والمظالم الخارجة عن الحد.

وفي يوم الأربع خامس عشرينه تُوُفِّيَ عثمان أفندي العباسي.

شهر ذي القعدة (سنة ١٢٢٠)

استهل بيوم التلات، والاجتهاد حاصل بخروج العسكر للتجريدة في كل يوم، ونصبوا عرضيهم ببر الجيزة وناحية طرا من ابتدا شعبان كما تقدَّم، وفي كل يوم يخرجون طوايف ويعودون كذلك.

وفي يوم الأربع تاسعه حضر مصطفى أغا الوكيل وعلي كاشف الصابونجي وعلي جاويش الفلاح، الذين كانوا توجهوا إلى قِبلي لأجل الصلح، وحضر صحبتهم نيف وثلاثون مركبًا من السفار والمتسببين فيها غلال وأدهان وجلود وتمر وغير ذلك، ولم يعلم حقيقة ما حصل.

وفي يوم الجمعة حادي عشره نودي على العسكر بالخروج من الغد بالتركي والعربي، والتحذير من التأخير.

وفي يوم الأحد رجع مصطفى أغا بجواب ثانيًا هجانًا من طريق البر.

وفي يوم الاتنين رابع عشره أخرجوا المحمل والكسوة، وعين للسفر بهما من القلزم مصطفى جاويش العنتبلي، ومعه صراف الصرة دفعوا له ربعها وثمنها، وهذا لم يتفق نظيره.

وفي يوم التلات خامس عشره ورد نحو السبعين ططريًّا ومعهم البشارة لمحمد علي باشا بوصول الأطواخ إلى رودس، ووصل معهم أيضًا مراسيم بمنصب الدفتردارية لأحمد أفندي الملقب بجديد، وهو الذي كان وصل في العام الأول بالدفتردارية إلى إسكندرية في أيام أحمد باشا خورشيد وجانم أفندي الدفتردار ومنعوه عنها، وكتبوا في شأنه عرضًا للدولة بعدم قبوله، وأن أهل البلد راضون على جانم أفندي.

فلما حصل ما حصل لخورشيد باشا وعزل عن مصر، وعزل أيضًا جانم أفندي المذكور بمراسيم أخر وفيها الوكالة لسعيد أغا مجددة له، ونظر الخاصكية لحافظ سليمان، واستمر من ذلك الوقت بمصر فوصل إليه الأمر بتقليد الدفتردارية، وكان حسين أفندي الروزنامجي هو المتقلد لذلك، فلما كان يوم الخميس سابع عشره اجتمع بديوان محمد علي صالح أغا قابجي باشا وسعيد أغا ونقيب الأشراف وبعض المشايخ، ولبس أحمد أفندي خلعة الدفتردارية، وشرطوا عليه أنه لا يحدث حوادث كغيره، فإن حصل منه شي عزلوه وعرضوا في شانه وقَبِل ذلك على نفسه.

وفي يوم الجمعة تامن عشره ارتحلت القافلة، وصحبتها الكسوة والمحمل أواخر النهار من ناحية قايتباي بالصحرا، وذهبوا إلى جهة السويس ليسافروا من القلزم.

وفيه وصلت الأخبار بأن بونابارته كبير الفرنسيس ركب في جمع كبير وأغار على بلاد النمساوية وحاربهم حربًا عظيمًا، وظهر عليهم وملك تختهم وقلاعهم وطلب ملكهم بعد خروجه من حصونه، فأعاده لملكته بعدما شرط عليه شروطه، وملك غير ذلك من القرانات والحصون، ثم سار إلى بلاد الموسقو ووقع بينه وبينهم هدنة على ثلاثة أشهر.

وفي يوم الأربع تالت عشرينه خرج حسن باشا طاهر إلى ناحية مصر القديمة.

وفي يوم السبت سادس عشرينه حضر مبشرون بحصول مقتلة عظيمة، وأنهم أخذوا من الأخصام جملة عسكر أسرى وروس؛ فضربوا مدافع لذلك وأظهروا السرور.

وفي يوم الأحد وصلت الروس والأسرى وهي إحدى وعشرون رأسًا وذراع مقطع وسبعة عشر أسيرًا، ليس فيهم من يُعرف ولا من جنس الأجناد وغالبهم فلاحون، فأعطى محمد علي لكل أسير نصف دينار، وأطلقهم ووضعوا الروس والذراع عند باب زويلة.

وفيه وصلت القافلة من السويس، ووصل أيضًا صحبتهم جنرال من الإنكليز راكب في تخت وحملته ومتاعه على نحو سبعين جَمَلًا، فذهب عند قنصلتهم، فلما كان يوم الأربع غايته ركب في التخت وذهب عند محمد علي بالأزبكية، فتلقاه وعمل له شنكًا ومدافع وقدم له هدية وتقادم ثم رجع إلى مكانه.

شهر ذي الحجة الحرام (سنة ١٢٢٠)

استهل بيوم الخميس، فيه حضر مصطفى أغا الوكيل وعلي كاشف الصابونجي من الجهة القبلية، وقد تقدَّم أنهما ذهبا وعادا ثم رجعا ثانيًا على الهجن لتقرير الصلح، ثم رجعا ولم يظهر أثر لذلك الصلح.

وحكى الناس عنهما أن المذكورَين لما ذهبا إلى أسيوط وجدا إبراهيم بك قد انتقل إلى ناحية طحطا، واجتمعا بعثمان بك حسن والبرديسي فلم يرضيا بالتوجه الذي وجها به إليهم، وهو من حدود جرجا، وقالا: لا يكفينا إلا من حدود المنية، فإن الفرنساوية كانوا أعطوا حكم البلاد القبلية من حدود المنية لمراد بك بمفرده، فكيف أنه نحن الجميع من جرجا، وشرطوا أيضًا أنه إن استقر الصلح على مطلوبهم فلا بد من إخلا الإقليم من هذه العساكر الذين لا يتحصل منهم إلا الضرر والخراب والدمار والفساد، ولا يبقى الباشا منهم إلا مقدار ألفَي عسكري، وقالوا: إنه أيضًا إذا لم يعطِنا مطلوبنا، فهو لا يستغني عن أناس من العسكر يقيمون بالبلاد التي يبخل علينا بها؛ فنحن أولى له وأحسن منهم، ونقوم بما على البلاد من المال والغلال، وعند ذلك يحصل الأمن وتسير المسافرون في المراكب، وترد المتاجر والغلال ويحصل لنا وله راحة، وأما إذا استمر الحال على هذا المنوال فإنه لم يزل متعبًا من كثرة العسكر ونفقاتهم، وكذلك ساير البلاد على أنه إن لم يرضَ بذلك فها هي البلاد بأيدينا، والأمر مستمر معنا ومعهم على التعب والنَّصَب.

وفي رابعه ورد الخبر بأن جماعة من كبار العسكر، وفيهم سليمان أغا الأرنؤدي الذي تولى كشوفية منفلوط ومعهم عدة وافرة من العسكر عدوا من المنية إلى البر الشرقي بالمطاهرة؛ بسبب ما عندهم من القحط وعدم الأقوات لإحاطة المصريين بهم، فلما دخلوا إلى بلدة المطاهرة وملكوها وصل إليهم بعض الأُمرا والأجناد، وأحاطوا بهم وحاربوهم أيامًا حتى ظهروا عليهم وقتلوا منهم، وهرب من هرب وهو القليل، وأسروا الباقي وفيهم سليمان أغا المذكور، فالتجأ إلى بعض الأجناد فحماه من القتل، وقابل به كبار الأُمرا

فأنعموا عليه بكسوة ودراهم وسلاح، وأقام معهم أيامًا ثم استأذنهم للعود، وحضر إلى مصر وجلس بداره.

وفيه ورد الخبر أيضًا بموت الأمير بشتك بك المعروف بالألفي الصغير مبطونًا.

وفيه أيضًا حضر حجاج الخضري الرميلاتي إلى مصر، وقد كان خرج من مصر بعد حادثة خورشيد باشا خوفًا من العسكر، وذهب إلى بلده بالمنوات ثم ذهب عند الألفي وأقام في معسكره إلى هذا الوقت، ثم إن الألفي طرده لنكتة حصلت منه، فرجع إلى بلده وأرسل إلى السيد عمر فكتب له أمانًا من الباشا، فحضر بذلك الأمان وقابل الباشا وخلع عليه ونادوا له في خطته بأنه على ما هو عليه في حرفته وصناعته ووجاهته بين أقرانه، فصار يمشي في المدينة وصحبته عسكري ملازم له.

وفي يوم الجمعة تاسعه كان يوم الوقوف بعرفة، وفي ذلك اليوم ركب محمد علي بالأبهة الكاملة وصلى الجمعة بالمشهد الحسيني، ولم يركب من وقت ولايته بالهيئة إلا في هذا اليوم، وفي عصر تلك الليلة ضربوا عدة مدافع من القلعة إعلامًا بالعيد، وكذلك في صبحها وفي كل وقت من الأوقات الخمسة مدة أيام التشريق.

وفي رابع عشره حضر جاهين بك الألفي ومعه طوايف من العربان إلى إقليم الجيزة، وأخذوا الكلف وأغنامًا من البلاد ودراهم، وأُشيع بذلك وأمروا بخروج العساكر إليهم، وركب محمد علي باشا في يوم الخميس وخرج إلى ناحية بولاق، وأنزلوا من القلعة جبخانة ومدافع وطفقوا يخطفون الحمير من الأسواق إن وجدوها، وعدى طايفة من العساكر الخيالة إلى بر الجيزة، وعدى طاهر باشا إلى بر إنبابة وصحبته عساكر كثيرة، وأزعجوا أهل القرية وأخرجوهم من دورهم وسكنوا بها، وأطلقوا دوابهم وخيولهم على المزارع، فأكلوها بأجمعها ولم يُبقوا منها ولا عودًا أخضر في أيام قليلة.

وفيه اختفى حجاج الخضري أيضًا؛ بسبب ما داخله من الوهم والخوف من العسكر.

وفي عشرينه شرع عساكر حسن باشا في التعدية من ناحية معادي الخبيري إلى البر الآخر.

وفي يوم الأحد خامس عشرينه عدى حسن باشا أيضًا.

وفي يوم الاتنين نودي في الأسواق على العساكر الذين لم يكونوا في قوايم العسكر الذين يقال لهم القبسيز، بالسفر والخروج إلى بلادهم، ومن وُجد منهم بعد ثلاثة أيام قُتل، وكذلك كتبوا فرمانات وأرسلوها إلى البلاد بمعنى ذلك، ومن كان من أهل البلد أو المغاربة أو الأتراك بصورة العسكر ومتزييًا بزيهم فلينزع ذلك، وليرجع إلى زيه الأول.

وفيه أيضًا نودي على المعاملة الناقصة لا تقبض إلا بنقص ميزانها؛ لأن المعاملة فحش نقصها جدًّا، وخصوصًا الذهب البندقي الذي كان أحسن أصناف العملة في الوزن والعيار والجودة، فإن العسكر تسلطوا عليه بالقص فيقصون من الشخص الواحد مقدار الربع أو أكثر وأقل، ويدفعونه في المشتروات، ولا يقدر المتسبب على رده أو طلب أرش نقصه، وكذلك الصيرفي لا يقدر على رده أو وزنه، وقُتل بذلك قتلى كثيرة، وأغلق الصيارف حوانيتهم وامتنعوا من الوزن خوفًا من شرهم.

وكذلك نودي على التعامل في بيع البن بالريال المعاملة وهو تسعون نصفًا، وقد كان الاصطلاح في بيع البن بالفرانسة فقط، وبلغ صرف الفرانسة ماية وثمانين نصفًا ضعف الأول، وعز وجوده لرغبة الناس فيه لسلامته من الغش والنقص؛ لأن جميع معاملة الكفار سالمة من الغش والنقص بخلاف معاملات المسلمين، فإن الغالب على جميعها الزيف والخلط والغش والنقص.

فلما انطبعوا على ذلك ونظروا إلى معاملات الكفار وسلامتها، تسلطوا عليها بالقطع والتنقيص والتقصيص؛ تتميمًا للغش والخسران والانحراف عن جميع الأديان، وقال ﷺ: «الدين المعاملة ومن غشنا فليس منا»، فيأخذون الريالات الفرانسة إلى دار الضرب ويسبكونها، ويزيدون عليها ثلاثة أرباعها نحاسًا ويضربونها قروشًا يتعاملون بها، ثم ينكشف حالها في مدة يسيرة وتصير نحاسًا أحمر من أقبح المعاملات شكلًا ووضعًا، لا فرق بينها وبين الفلوس النحاس التي كانت تصرف بالأرطال في الدول المصرية السابقة في الكَمِّ والكَيْفِ، بل تلك أجمل من هذه في الشكل، وقد شاهدنا كثيرًا منها وعليها أسما الملوك المتقدمين، ووزن الواحد منها نصف أوقية، وكان الدرهم المتعامَل به إذ ذاك من الفضة الخالصة على وزن الدرهم الشرعي ستة عشر قيراطًا، ويُصرف بثلاثة أرطال من الفلوس النحاس، فيكون صرف الدرهم الواحد اتنين وسبعين فلسًا تُستعمل في جميع المشتروات والمرتبات والمعاليم ولوازم البيوت والجزئيات والمحقرات.

فلما زالت الدولة القلوونية وظهرت دولة الجراكسة، واستقر الملك المؤيد شيخ في سلطنة مصر وبدا الاختلال، اختصر الدرهم المتعامَل به وجعله نصف درهم وهو ثمانية قراريط، وسُمي نصف مؤيدي، ولم تزل تتناقص حتى صارت في آخر الدولة الجركسية أقل من ربع الدرهم.

واختل أمر الفلوس النحاس والمرتبات والوظايف بالأوقاف المشروط فيها صرف المعاليم بالفلوس، ولم يزل الحال يختل ويضعف بسبب الجور والطمع والغش وغباوة

أولي الأمر، وعمى بصايرهم عن المصالح العامة التي بها قوام النظام، حتى تلاشى أمر الدراهم جدًّا في الوزن والعيار، وصار الدرهم المعبر عنه بالنصف أقل من العشر للدرهم، وفيه من الفضة الخالصة نحو الربع، فيكون في النصف الذي هو الآن بدل الدرهم الأصلي من الفضة الخالصة أقل من ربع العشر، فيكون في النصف الواحد من معاملتنا الآن الذي وزنه خمس قمحات قيراط وربع ثلث قيراط من الفضة، وذلك بدل عن ستة عشر قيراطًا وهو الدرهم الأصلي الخالص.

فانظر إلى هذا الخسران الخفي الذي انمحقت به البَركة في كل شي، فإن الدرهم الفضة الآن صار بمنزلة الفلس النحاس القديم، فتأمل واحسب تجد الأمر كذلك، فإذا فرضنا أن إنسانًا اكتسب ألف درهم من دراهمنا هذه، فكأنه اكتسب خمسة وعشرين لا غير وهو ربع عشرها، على أنه إذا حسبنا قيمة الخمسة وعشرين في وقتنا هذا عن كل درهم ثلاثون نصفًا، فإنها تبلغ سبعماية وخمسين، ويذهب الباقي وهو مايتان وخمسون هدرًا.

وأما الذهب فإن الدينار كان وزنه في الزمن الأول مثقالًا من الذهب الخالص، ثم صار في الدولة الفاطمية وما بعدها عشرين قيراطًا، وكان يُصرف بثلاثين درهمًا من الفضة، فلما نقص الدرهم زاد صرف الدينار إلى أن استقر وزن الدينار في أوايل القرن الماضي ثلاثة عشر قيراطًا ونصفًا، ويُصرف بتسعين نصفًا وهو المعبَّر عنه بالأشرفي، والطرلي المعروف بالفندقلي يُصرف بماية وكانا جيدين في العيار، وكذلك الأنصاف العددية كانت إذ ذاك جيدة العيار والوزن، وكان الريال يصرف بخمسين نصفًا، والريال الكلب باثنين وأربعين نصفًا.

ثم صار الدينار وهو المحبوب الجنزرلي بماية وخمسين والفندقلي بماية وعشرين والفرانسة بستين، ثم حدث المحبوب الزر في أيام السلطان أحمد بدلًا عن الجنزرلي وغلا صرف الجنزرلي، وكان في وزن المشخص وعياره، ووزن الزر ثلاثة عشر قيراطًا ونصف.

إلى أن زاد الاختلال في أيام علي بك والمعلم رزق واستيلاه على دار الضرب والقروش، واستعمل ضرب القروش واستكثر منها، وزاد في غشها لكثرة المصاريف على العساكر والتجاريد والنفقات، واستقر الأشرفي المعروف بالزر بماية وعشرة، والطرلي بماية وستة وأربعين، والمشخص بمايتين، والريال الفرانسة بخمسة وثمانين مدة من أيام علي بك، وفحش وجود القروش المفردة وضعفها، وأجزاها حتى لم يبقَ بأيدي الناس من التعامل إلا هي، وعز باقي الأصناف المذكورة، وطلبت للسبك والادخار وصياغة الحلي

فترقت في المصارفة والأبدال، فلما زالت دولة علي بك وتملك محمد بك أبو الدهب نادى بإبطال تلك القروش بأنواعها رأسًا، فخسر الناس خسارة عظيمة من أموالهم، وباعوها بالأرطال للسبك، واقتصروا على ضرب الأنصاف العددية والمحبوب الزر والنصفيات لا غير، ونقصوا من وزنها وعيارها ونقصت قيمتها وغلت في المصارفة، وزاد الحال بتوالي الحوادث والمحن والغلا والغرامات، وضيق المعاش وكساد البضايع، وتساهلوا في زيادة المصارفة وخصوصًا في ثمن السلع والمبايعات وخلاص الحقوق من المماطلين، واقترن بذلك تغافل الحكام وجورهم وعدم الْتِفاتهم لمصالح الرعية وطمعهم، وتركهم النظر في العواقب إلى أن تجاوزت في وقتنا هذا الحدود.

وبلغت في المصارفة أكثر من الضعف، وصار صرف المحبوب مايتين وخمسة بل وعشرة، والريال الفرانسة بماية وخمسة وسبعين بل وتمانين، والمشخص البندقي بأربعماية وأكثر، والمجر بتلتماية وستين والفندقلي بتلتماية وعشرين وهو الجديد، ويزيد القديم لجودة العيار، فإذا أبدل السليمي الموجود الآن بالمحمودي زِيد في مصارفته أربعون نصفًا وأكثر بحسب الرغبة والاحتجاج، ويتفاوت أيضًا المحمودي بمثله فيزيد أبو وردة عن الراغب، ويزيد الراغب عن الذي فيه حرف العين، ويكون المحبوبان في تحويل المعاملة بدلًا عن المشخص الواحد مع أن وزنهما سبعة وعشرون قيراطًا، ووزن المشخص تمانية عشر قيراطًا، فالتفاوت بينهما تسعة قراريط، وهي ما فيه من الخلط وغير ذلك مما يطول شرحه ويعسر تحقيقه وضبطه.

ولم يزل أمر المعاملة وزيادة صرفها وإتلاف نقودها واضطرابها مستمرًّا، وكل قليل ينادون عليها مناداة بحسب أغراضهم لا يُسمع ولا تُقبل ولا يُلتفت إليها؛ لأن أصل الكدر منبعث عنهم ومنحدر عن مجراة خبايثهم وفسادهم.

وفي آخره أذن الباشا لولده الكبير بالذهاب لزيارة سيدي أحمد البدوي — رضي الله عنه — بطندتا، وعين صحبته أتباعًا وعسكرًا وهجنًا، وقرر له دراهم على البلاد ألف ريال فما دونها خلاف الكلف، وكذلك سافر حريمات وريستهن حريم مصطفى أغا الوكيل في هيئة لم يسبق مثلها في تختروانات وعربات ومواهي وأحمال وجِمال وعسكر وخدم وفراشين، وفرضوا لهن أيضًا مقررات على البلاد وكلفًا ونحو ذلك، وأظن أن هذه المحدثات من أهوال القيامة.

وانقضت السنة وما حصل فيها من الحوادث والإنذارات.

ومات فيها الإمام العلامة والبحر الفهامة صدر المدرسين وعمدة المحققين مفتي الحنفية بالديار المصرية الشيخ محمد عبد المعطي ابن الشيخ أحمد الحريري الحنفي،

وُلد سنة ثلاث وأربعين وماية وألف، ونشأ في عفة وصلاح، وحَفظ القرآن وجوَّده، وحفظ المتون، وحضر أشياخ العصر، وجوَّد الخط وكان ينسخ بالأجرة، وكتب كتبًا كثيرة وخطه في غاية الصحة والجودة، وغالبها في الأدبيات كالريحانة وخبايا الزوايا وخزانة الأدب، والتي بخطه من ذلك في غاية الحسن والقبول، وكان شافعي المذهب ثم تحنَّف، وحضر على أشياخ المذهب مثل: الشيخ محمد الدلجي والشيخ محمد العدوي، ولازم الشيخ حسن المقدسي ملازمة كلية وانتسب إليه، وعرف به وحضر عليه وتلقى عنه غالب الكتب المشهورة في المذهب، وحضر باقي العلوم على الشيخ الملوي والحفني والشيخ علي العدوي وغيرهم، وكان يكتب الأجوبة على الفتاوى عن لسانه.

ولما تُوُفِّيَ شيخه المذكور تقرر مكانه في وظيفة الخطابة والإمامة، بجامع عثمان كتخدا بالأزبكية، وسكن بالدار المشروطة له بها السكنى برحاب الجامع المذكور، وكانت خطبه في غاية الخفة والاختصار، ولوعظه وقْع في النفوس لخلُوِّه عن التصنع.

ولما مات الشيخ أحمد الدمنهوري في سنة اتنين وتسعين وماية وألف، وحصل ما حصل للشيخ عبد الرحمن العريشي — كما تقدَّم — تعين المترجم لمشيخة الحنفية والفتوى عوضًا عن المذكور قبل وفاته بأيام قليلة، وكان أهلًا لذلك وكفئًا له، وسار فيها سيرًا حسنًا بحشمة، واشتُهر ذكره وقصدتْه الناس للفتوى والإفادة، وأقبلت عليه الدنيا وسكن دارًا مشرفة على الأزبكية جارية في وقف عثمان كتخدا، واشترى أيضًا دارًا نفيسة بالجودرية وأسكنها لغيره بالأجرة وانحصرت فيه وظايف مشيخة الحنفية كالتدريس في مدرسة المحمودية والصرغتمشية والمحمدية وغيرها، فكان يباشر الإقرا بنفسه في بعضها، والبعض ولده العلامة الشيخ إبراهيم.

ولم يزل يُقري ويُملي ويُفيد حتى في حال انقطاعه؛ وذلك أنه لما مات أحمد أغا غانم وحصل بين عتقايه منازعة، ثم اتفقوا على تحكيم المترجم بينهم والتمسوا منه أن يذهب صحبتهم إلى فوة ليصلح بينهم، فلما ذهب إلى بولاق وأراد النزول في السفينة اعتمد على بعض الواقفين فعثرت رجله، فقبض ذلك الرجل على معصمه فانكسر عظمه لنحافة جسمه، فعادوا به إلى داره وأحضروا له من عالجه حتى بري بعد شهور وفرحوا بعافيته، ودعاه بعض أحبابه بناحية قناطر السباع فركب وذهب إليه، وكانت أول ركباته بعد برئه، فلما طلع إلى المجلس وأراد الصعود إلى مرتبة الجلوس زلقت رجله فانكسر عظم ساقه وتكدر الحاضرون وحملوه، وذهبوا به إلى داره وأحضروا له المعالج فلم يحسن المعالجة، وتألم كثيرًا واستمر ملازمًا للفراش نحو سبع سنوات، ثم تُوُفِّيَ يوم الأربع سابع عشر رجب من السنة عن سبع وسبعين سنة، ودُفن بتربة الأزبكية.

وتعين بعده في المشيخة والإفتا ولده المحقق العلامة المستعد الشيخ إبراهيم — أدام الله النفع بحياته، وحفظ عليه أولاده — وللمترجم مآثر وتقييدات ومنظومات وضوابط وتخميسات، فمن ذلك قوله:

مُشَبَّهٌ به مع المشبهِ   أداة تشبيهٍ ووجهُ شَبَهِ
والخامسُ المشبهُ النبيهُ   فقد حوى أركانَه التشبيهُ

وله تخميس على البيتين المشهورين:

قد قلت لمَّا وَهَى جسمي وأقلقني   ما حلَّ بي من سقام أنحلت بدني
وما رماني به دهري من المحن   يا رب إن كان تمريضي يقربني
زُلفى إليك فباب العفو أوسع لي
أو كان من أجْل عصياني الذي عظُما   وسوء ما قلته جهرًا ومكتتما
فالعفو عمَّن عصى من شيمة الكرم   أو كان من أجل تمحيص الذنوب فما
يحتاج عفوك للأسقام والعلل

وله تخميس أيضًا على المنبهجة، وتخميس على قصيدة الشيخ عبد الله الشبراوي المشهورة، وأوله:

إن نفسي وغيَّها والتمني   صيرت دأبِيَ المعاصي وفني
ثم إني ناديت من حسن ظني   ربِّ إني تعاظم الذنبُ منِّي
غير أني وجدت عفوك أعظمْ

إلى آخرها، وله غير ذلك — سامحه الله.

ومات الأجلُّ الأمثل المفوَّه المنشي النبيه الفصيح المتكلم عثمان أفندي ابن سعد العباسي الأنصاري، من ولد آخر الخلفا العباسية بمصر المتوكل على الله، ووالده يُعرف بالأنصاري من جهة النسا من بيت السيادة والخلافة، وُلد بمصر وبها نشا واشتغل بالعلم على فُضلا الوقت ومهر في الفنون بذكاه، وعانى الحساب والنجوم فأخذ منها حظًّا.

ونزل كاتب سر في ديوان بعض الأُمرا، ولامه بعض محبيه في ذلك، فاعتذر أنه إنما قدم عليه صيانة لبعض بلاده وضياعه التي استولت عليها أيدي الظلمة، فلا محيد له عن عشرتهم.

واجتمع بشيخنا الشيخ محمود الكردي وأراد السلوك في طريق الخلوتية، وترك شرب الدخان، ولازمه كثيرًا وتلقن الاسم الأول والأوراد، وأقلع عما كان عليه حتى لاحت عليه أنوار ملازمته واعتقده جدًّا.

وبعد وفاة الأستاذ رجع إلى حالته وشرب الدخان، ثم ولي خليفة على غلال الحرمين فباشرها بشهامة، ثم ولي روزنامة مصر بصرامة وقوة مراس وشدة ومخادعة، وراج أمره واتسع حاله وزادت حشمته، وذلك بعد عزل أحمد أفندي أبي كلبة وقبل وفاة السيد محمد أفندي الكماخي الروزنامجي، وثقل أمره على باقي الكتبة والناس، فأغروا عليه وعزلوه فضاق صدره وزاد قلقه.

وحدث فيه رعونة، وتردَّد لمشاهد الأوليا في الليل والنهار يبتهل ويدعو ويفرق خبزًا ودراهم، ويأوي إليه المجاذيب والذين يدَّعون الصلاح والولاية فيكرمهم برهة ويرون له مرائي ومنامات وإخباريات، فيزداد هَوَسُه، ثم لما يطول الحال ينقطع عنهم ويبدلهم بآخرين وهكذا.

وكان ينام مع بعضهم في الحريم ويترجم بعضهم بمكاشفات وشطحيات ويقول: فلان يطَّلع على خطرات القلوب، وفلان يصعد إلى السما، ومن كرامات فلان كذا، ثم يرجع عن ذلك.

ولما مات السيد محمد أعيد في كتابة الروزنامة أيضًا، واستمر بها ثمانية عشر شهرًا، وكانت إعادته في سنة ثمانٍ بعد المايتين، ثم انحرف عليه إبراهيم بك الكبير وعزله، وكان يظن أن الأمر يَئُول إليه فلم يتم له ذلك.

وأحضر إبراهيم بك السيد إبراهيم ابن أخي المُتَوَفَّى وقلده ذلك، فعندها أَيِسَ المترجم منها واختلفت الأمور بحدوث الفتن، وتقلب الدول والأحوال، ولازم شأنه وبيته بعد رجوعه من هجرته إلى الشام في حادثة الفرنسيس، واعترته الأمراض واجتمعت لديه كتب كثيرة في ساير العلوم، وبيعت بأسرها في تركته.

توفي يوم الأربع خامس عشري شوال من السنة.

ومات العمدة الإمام الصالح الناسك العلامة والبحر الفهامة الشيخ محمد بن سيرين بن محمد بن محمود بن جيش الشافعي المقدسي، وُلد في حدود الستين وقدم به والده

إلى مصر فقرا القرآن واشتغل بالعلم وحضر دروس الشيخ عيسى البراوي فتفقه عليه، وحلت عليه أنظاره وحصل طرفًا جيدًا من العلوم على الشيخ عطية الأجهوري ولازمه ملازمة كلية، وبعد وفاة شيخه اشتغل بالحديث فسمع صحيح مسلم على الشيخ أحمد الراشدي، واتصل بشيخنا الشيخ محمود الكردي فلقَّنه الذكر، ولازمه وحصلت له منه الأنوار.

وانجمع عن الناس ولاحت عليه لوايح النجابة، وألبسه التاج وجعله من جملة خلفا الخلوتية، وأمره بالتوجه إلى بيت المقدس فقدمه وسكن بالحرم، وصار يذاكر الطلبة بالعلوم ويعقد حلقة الذكر، وله فهم جيد مع حدة الذهن، وأقبلت عليه الناس بالمحبة، ونُشر له القبول عند الأُمرا والوزراء، وقُبلت شفاعته مع الانجماع عنهم وعدم قبول هداياهم.

وأخبرني بعض من صحبه أنه يفهم من كلام الشيخ ابن العربي، ويقرره تقريرًا جيدًا، ويميل إلى سماعه، وحج من بيت المقدس وأصيب في العقبة بجراحة في عضده وسلب ما عليه، وتحمل تلك المشقات ورجع إلى مصر فزار شيخه الشيخ محمودًا، وجلس مدة ثم أذن له بالرجوع إلى بلده، وسمع أشيا كثيرة في مبادي عمره، واقتبس من الأشياخ فوايد جمَّة حتى قبل اشتغاله بالعلم.

وفي سنة ١١٨٢ كتب إلى شيخنا السيد مرتضى يستجيزه، فكتب له أسانيده العالية في كراسة وسماها قلنسوة التاج، وقد تقدم ذكرها في ترجمة السيد مرتضى، ولم يزل يُملي ويُفيد ويدرس ويُعيد، واشتُهر ذكره في الآفاق، وانعقد على اعتقاده وانفراده الاتفاق، وسطعت أنواره وعمت أسراره وانتشرت في الكون أخباره، وازدحمت على سُدَّته زواره إلى أن أجاب الداعي ونعتْه النواعي، وذلك سابع عشرين شهر شعبان من السنة، ولم يخلف بعده مثله، وبه ختمت دايرة المسلكين من الخلوتية ورجال السادة الصوفية.

سنة إحدى وعشرين ومايتين وألف
(١٨٠٦م)

استهل شهر المحرم بيوم الخميس حسابًا ويوم السبت هلالًا، ووافق ذلك انتقال الشمس لبرج الحمل؛ فاتحدت السنة القمرية والشمسية، وهو يوم النوروز السلطاني، وأول سنة الفرس، وهو التاريخ الجلالي اليزدجردي، وتاريخهم في هذه السنة ألف وماية وستة وسبعون، وكان طالع التحويل الواقع في يوم الجمعة في خامس ساعة ونصف من النهار سبع درجات ونصفًا من برج السرطان، وصاحبه في حيز العاشر منصرف عن تربيع المشتري، ومقارنة عطارد والمشتري في السابع، والمريخ مع الزهرة في العاشر، وهي راجعة، وكيوان في الرابع، وهو دليل على ثبات دولة القايم وتعب الرعية، والحكم لله العلي الكبير.

وفي ثالثه ليلة الثلاث وصل إلى بولاق قبوجي وعلى يده تقرير لمحمد علي باشا بولايته بمصر وصحبة التقرير خلعة، وهي فروة سمور، فلما أصبح النهار عمل محمد علي باشا ديوانًا بمنزله بالأزبكية، وحضر السيد عمر النقيب والمشايخ والأعيان، وحضر ذلك الأغا من بولاق في موكب ودخل من باب النصر وشق من وسط المدينة، وأمامه الأغا والوالي والمحتسب والأغاوات والجاويشية وخلفه النوبة التركية، فلما وصلوا إلى باب الخرق عطفوا على جهة الأزبكية، فلما قُري التقليد ضربوا مدافع كثيرة من الأزبكية والقلعة، وعملوا تلك الليلة شنكًا وحراقات ونفوط وسواريخ كثيرة وطبول وزمور بالأزبكية.

وفي سابعه وصلت الأخبار بوقوع حروب بين العساكر والعربان والأُمرا المصرية بناحية جرزة الهوا، وقُتل شخص من كبار العسكر يسمَّى كور يوسف وغيره، ووصل إلى مصر عدة جرحى وهرب من العسكر طايفة وانضموا إلى الأُمرا المصريين، وأرسل حسن باشا يستنجد الباشا بإرسال عساكر إليه.

وفي ذلك اليوم نادوا في الأسواق بعدم المشي في الأسواق من أذان العشا، وخرج كتخدا بك إلى بولاق في أخريات النهار ونصب وطاقه ببر إنبابة، وخرج سليمان أغا بجملة من العسكر وذهب إلى ناحية طرا.

وفي ثامنه عدى كتخدا بك إلى البر الغربي، وانتقل طاهر باشا إلى الجيزة وأقام بها محافظًا.

وفيه أمر الباشا بجمع الأجناد المصرية والوجاقلية وأمرهم بالتعدية إلى البر الغربي، وكأنه تخوَّف من إقامتهم بالمدينة، وقال لهم: من أراد منكم الذهاب إلى الأخصام فليذهب وإلا يستمر معنا.

وفي هذه الأيام كان مولد سيدي أحمد البدوي، والجمع بطندتا المعروف بمولد الشرنبابلية، وهرع غالب البلد بالذهاب إليه، وأكتروا الجِمال والحمير بأغلى الأجرة؛ لأن ذلك صار عند أهل الإقليم موسمًا وعيدًا لا يتخلفون عنه إما للزيارة أو للتجارة أو للنزاهة أو للفسوق، ويجتمع به العالم الأكبر وأهالي الإقليم البحري والقبلي.

وخرج أكثر أهالي البلد بحمولهم فكان الواقفون على الأبواب يفتشون الأحمال، فوجدوا مع بعضهم أشيا من أسباب الأجناد المصرية وملابسهم ونحو ذلك، فوقع بسبب ذلك إيذا لمن وجدوا معه شيًّا من ذلك ولباقي الناس ضرر بنبش متاعهم، فكان من الناس من يأخذ معه أشخاصًا من العسكر من طرف الأغا يسلكونهم للخروج من غير تفتيش، ويمنعون المتقيدين بالأبواب عن التعرض لهم ونبش متاعهم وأحمالهم.

وفي تاسعه وصل الخبر بأن عابدين بك لما بلغه خروج الألفي من الفيوم، ذهب إليها صحبة الدلاة فلم يجد بها أحدًا، فدخلها وأرسل المبشرين إلى مصر بأنه ملك الفيوم، فضربوا مدافع لذلك وانبث المبشرون يطوفون على بيوت الأعيان يبشرونهم بذلك، ويأخذون على ذلك الدراهم والبقاشيش.

ثم لما بلغ عابدين بك ما حصل لأخيه حسن باشا من الهزيمة رجع إليه، وأقام معه ناحية الرقق.

وفي عاشره وصل الألفي إلى ناحية كرادسة، وانتشرت عساكره وعربانه بإقليم الجيزة، فلم يخرج لهم أحد مع كونهم بمرأ منهم ويسمعون نقاقيرهم وطبولهم ووطء حوافر خيولهم.

وفيه أرسل الألفي خطابًا مكتوبًا إلى السيد عمر أفندي مكرم النقيب والمشايخ، مضمونه:

نخبركم أن سبب حضورنا إلى هذه الجهة إنما هو لطلب القُوت والمعاش، فإن الجهة التي كنا بها لم يبقَ فيها شي يكفينا ويكفي مَن معنا مِن الجيش والأجناد، ونرجو من مراحم أفندينا بشفاعتكم أن يُنعم علينا بما نتعيَّش به كما رجونا منه في السابق.

فلما كان في صبحها يوم الاتنين حادي عشره ركب السيد عمر إلى الباشا، وأخبره بذلك وأطلعه على المراسلة، فقال: ومن أتى به؟ قال له: تابع مصطفى كاشف المورلي وقد ترك متبوعه بالبر الآخر، فقال له: اكتب له بالحضور حتى نتروَّى معه مشافهة.

وفي ذلك الوقت حضر إلى الباشا من أخبره بأن طايفة من المصريين وجيوشهم وصلوا إلى بر إنبابة، فخرج إليهم طايفة من العسكر المرابطين هناك وتحاربوا معهم بسوق الغنم، ووقع بينهم بعض قتلى وجرحى، فركب من فوره وذهب إلى بولاق فنزل بالساحل وجلس هناك ساعة، ثم ركب عايدًا إلى داره بعد أن مُنع من تعدية المراكب إلى بر إنبابة، ثم أمرهم بالتعدية لربما احتاجوهم، وكان كذلك فإنهم رجعوا مهزومين فلو لم يجدوا المعادي لحصل لهم هول كبير.

وفي يوم التلات حضر مصطفى كاشف المورلي المرسول من طرف الألفي، وصحبته علي جربجي بن موسى الجيزاوي إلى بيت السيد عمر، فركب صحبته إلى الباشا وكتبوا له جوابًا ورجع من ليلته.

ثم حضر في يوم الخميس رابع عشره بجواب آخر، ومضمونه: إننا أرسلنا لكم نرجو منكم أن تسعوا بيننا بما فيه الراحة لنا ولكم وللفقرا والمساكين وأهالي القُرى، فأجبتمونا بأننا نتعدى على القرى ونطلب منهم المغارم ونرعى زرعهم وننهب مواشيهم، والحال أنه واللهِ العظيم ونبيِّه الكريم أن هذا الأمر لم يكن على قصدنا ومرادنا مطلقًا، وإنما الموجب لحضورنا إلى هذا الطرف ضيق الحال والمقتضى للجمعية التي نصحبها من العربان وغيرهم، وإرسال التجاريد والعساكر علينا، فلازم لنا أن نجمع إلينا من يساعدنا في المدافعة عن أنفسنا، فهم يجمعون أصناف العساكر من الأقطار الرومية والمصرية لمحاربتنا وقتالنا، وهم كذلك ينهبون البلاد والعباد للإنفاق عليهم.

ونحن كذلك نجمع إلينا من يساعدنا في المنع، ونفعل كفعلهم لننفق على مَن حولنا مِن المساعدين لنا، وكل ذلك يؤدي إلى الخراب والدمار وظلم الفُقرا، والقصد منكم بل الواجب عليكم السعي في راحة الفريقين، وهو أن يكفوا الحرب ويفرزوا لنا جهة نرتاح فيها، فإن أرض الله واسعة تسعنا وتسعهم، ويعطونا عهدًا بكفالة بعض من نعتمد عليه

من عندنا وعندهم، ويُكتب بذلك محضر لصاحب الدولة، وننتظر رجوع الجواب، وعند وصوله يكون العمل بمقتضاه.

فعند ذلك اقتضى الرأي أن يقطعوه إقليم الجيزة، وكتبوا له جوابًا بذلك من غير عقد ولا عهد ولا كفالة كما أشار، وسلموا الجواب لمصطفى كاشف ورجع به.

وفي أثناء ذلك طلب أجناد الألفي كلفًا من بلد برطس وأم دينار وميت عقبة، فامتنعوا عليهم فضربوهم وحاربوهم ونهبوهم؛ وسبب ذلك أن العساكر الأتراك أغروهم وأرسلوا يقولون لهم: إذا طلبوا منكم كلفة أو دراهم لا تدفعوا لهم واطردوهم وحاربوهم وانهبوهم، وإذا سمعنا حربكم معهم أتيناكم وساعدناكم، فاغتروا بذلك وصدقوهم فلما حصل لهم ما حصل لم يسعفوهم، ولم يخرجوا من أوكارهم حتى جرى عليهم المقدور.

وفي يوم السبت تالت عشرينه كتب الباشا مراسيم، وأرسلها إلى كشاف الأقاليم والكاينين بالبلاد من الأجناد المصرية بأن يجتمعوا بأسرهم، ويذهبوا إلى ساحل السبكية للمحافظة عليها من وصول الأخصام إليها، ولمنعهم من تعدية البحر إليها؛ لأنهم إذا حصلوا بها تعدى شَرُّهم إلى بلاد المنوفية بأسرها، وأُشيع عزم الباشا على الركوب بنفسه وذهابه إلى تلك الجهة، ويكون سيره على طريق القليوبية ويلحق بهم، وكتخدا بك وطاهر باشا يسيران على الساحل الغربي تجاههم، ثم بطل ذلك وأرسل إلى حسن باشا سرششمه بأن يحضر بمن معه من العسكر من عند حسن باشا طاهر من ناحية بني سويف، وكذلك عساكر كور يوسف الذي قُتل في المعركة كما ذُكر.

وفي ذلك اليوم وصل رسول أيضًا من عند الألفي بمكاتبات واجتمع بالسيد عمر النقيب، والمكاتبات خطاب له ولبقية المشايخ وللباشا ولسعيد أغا دار السعادة وصالح بك القابجي بمعنى ما تقدم صحبة أحمد أبي دهب العطار، فكتبوا له جوابًا بالمعنى الأول، وأعادوا الرسول وأصحبوه ببعض المتعممين، وهو السيد أحمد الشتيوي ناظر جامع الباسطية، وكل ذلك أمور صورية وملاعبات من الطرفين لا حقيقة لها.

وفي يوم التلات وصل الجماعة المذكورون الذين استدعاهم الباشا بعساكرهم، وخلع الباشا على أحد كبارهم عوضًا عن كور يوسف المقتول.

وفيه وصل الخبر بأن طايفة من الأجناد المصرية ومن يصحبهم من العربان عدوا إلى بر السبكية، ولم يمنعهم المحافظون بل هربوا من وجوههم، فأمر الباشا بسفر العساكر وطلب دراهم سلفة من الأعيان لأجل نفقة العساكر، وفرضوا على البلاد ثلاثة آلاف كيس، ويكون على العال منها مائة ألف فضة، وفيها الأوسط والدون.

وفي يوم الخميس نُودي في الأسواق بخروج العساكر.

وفي يوم السبت سافر طاهر باشا إلى منوف على جرايد الخيل، وسافر بعده كتخداه بالحملة، واحتاجوا إلى جِمال فأخذوا جِمال الساقين والشواغرية.

وفيه حضر عمر بك الأرنؤدي من ناحية بني سويف، وأخبر الواردون من الناحية القبلية أن رجب أغا وطايفة من العسكر خامروا عليه وانضموا إلى الأُمرا القبليين، وهم نحو الستماية، فعند ذلك حضر عمر بك المذكور في تطريدة ليُبري نفسه من ذلك، وحضر أيضًا محو كبير العسكر المحاصرين بالمنيه بطلب علوفة للعسكر.

وفيه أراد كتخدا بك وهو المعروف بدبوس أوغلي أن يركب من إنبابة، وحمل أحماله ليسير إلى جهة بحري، فثارت عليه العسكر وطالبوه بعلايفهم وسفهوا عليه ومنعوه من الركوب، فأراد التعدية إلى بر بولاق فمنعوه أيضًا، وجذبوا لحيته فأقام يومه وليلته، ثم قال لهم: وما الفايدة في مكثي معكم دعوني أذهب إلى الباشا، وأسعى في مطلوبكم؟ ولم يزل حتى تخلص منهم وعدى إلى مصر ولم يرجع إليهم.

وفي يوم السبت غايته وصلت عساكر الدلاة الذين كانوا بناحية بني سويف والفيوم إلى بر إنبابة، وضربوا لهم مدافع لوصولهم.

وفيه أرسل كبار العسكر الذين بناحية منوف مكاتبة إلى الباشا، يذكرون أن العساكر يطلبون مرتبات لحم وأرز وسمن؛ فإنهم لا يحاربون ولا يقاتلون بالجوع.

وفي هذه الأيام وصل الكثير من العساكر القبلية ودخلوا البلدة وكثروا بها.

وفي هذه الأيام أيضًا وصلت الأخبار من الديار الحجازية بمسالمة الشريف غالب للوهابيين؛ وذلك لشدة ما حصل لهم من المضايقة الشديدة وقطع الجالب عنهم من كل ناحية، حتى وصل ثمن الأردب المصري من الأرز خمسماية ريال، والأردب البُر ثلثماية وعشرة، وقس على ذلك السمن والعسل وغير ذلك، فلم يسَع الشريف إلا مسالمتهم والدخول في طاعتهم وسلوك طريقتهم، وأخذ العهد على دعاتهم وكبيرهم بداخل الكعبة، وأمر بمنع المنكرات والتجاهر بها وشرب الأراجيل بالتنباك في المسعى وبين الصفا والمروة، وبالملازمة على الصلوات في الجماعة ودفع الزكاة، وترك لبس الحرير والمقصبات وإبطال المكوس والمظالم.

وكانوا خرجوا عن الحدود في ذلك، حتى إن الميت يأخذون عليه خمسة فرانسة وعشرة بحسب حاله، وإن لم يدفع أهله القدر الذي يتقرر عليه فلا يقدرون على رفعه ودفنه، ولا يتقرب إليه الغاسل حتى يأتيه الإذن.

وغير ذلك من البدع والمكوس والمظالم التي أحدثوها على المبيعات والمشتروات على البايع والمشتري، ومصادرات الناس في أموالهم ودورهم، فيكون الشخص من ساير الناس جالسًا بداره، فما يشعر على حين غفلة منه إلا والأعوان يأمرونه بإخلا الدار وخروجه منها، ويقولون: إن «سيد الجميع» محتاج إليها، فإما أن يخرج منها جملة وتصير من أملاك الشريف، وإما أن يصالح عليها بمقدار ثمنها أو أقل أو أكثر.

فعاهده على ترك ذلك كله واتباع ما أمر الله تعالى به في كتابه العزيز من إخلاص التوحيد لله وحده، واتباع سنة الرسول — عليه الصلاة والسلام — وما كان عليه الخُلفا الراشدين والصحابة والتابعين والأيمة المجتهدين إلى آخر القرن الثالث، وترك ما حدث في الناس من الالتجا لغير الله من المخلوقين الأحياء والأموات في الشدايد والمهمات، وما أحدثوه من بنا القباب والتصاوير والزخارف، وتقبيل الأعتاب والخضوع والتذلل والمناداة والطواف والنذور والذبح والقربان وعمل الأعياد والمواسم لها، واجتماع أصناف الخلايق واختلاط النسا بالرجال، وباقي الأشيا التي فيها شركة المخلوقين مع الخالق في توحيد الألوهية التي بُعثت الرسل إلى مقاتلة من خالفها، ليكون الدين كله لله.

فعاهده على منع ذلك كله وعلى هدم القباب المبنية على القبور والأضرحة؛ لأنها من الأمور المحدثة التي لم تكن في عهده بعد المناظرة مع علماء تلك الناحية، وإقامة الحجة عليهم بالأدلة القطعية التي لا تقبل التأويل من الكتاب والسنة، وإذعانهم لذلك.

فعند ذلك أمنت السبل وسلكت الطرق بين مكة والمدينة، وبين مكة وجدة والطايف، وانحلت الأسعار وكثر وجود المطعومات وما يجلبه عربان الشرق إلى الحرمين من الغلال والأغنام والأسمان والأعسال، حتى بيع الأردب من الحنطة بأربعة ريال.

واستمر الشريف غالب يأخذ العشور من التجار، وإذا نوقش في ذلك يقول: هولا مشركون وأنا آخذ من المشركين لا من الموحدين.

شهر صفر الخير (سنة ١٢٢١)

استهل بيوم الأحد، فيه سافر «محو» بك إلى جهة المنية، وفيه ورد من إسلامبول شخص قابجي وعلى يديه مرسومات بالجمارك وغيرها، ومنها ضبط تِرَك الموتى المقتولين والمقبورين، وكذلك تركة السيد أحمد المحروقي، وآخر يسمَّى الشريف محمد البرلي، والقصد تحصيل الدراهم بأي حجة كانت، ووصل أيضًا آخر متعين لجمرك إسكندرية وآخر لدمياط ولرشيد أيضًا.

وفيه عزم الباشا على السفر لمحاربة الألفي وأُشيع عنه ذلك، وأنزلوا مدافع من القلعة وجبخانة وآلات حربية.

فيه قوي عزمه على ذلك وأُشيع أنه مسافر يوم السبت، وأشار على السيد عمر أفندي النقيب بأن ينوب عنه ويكون قايمًا مقامه في الأحكام مدة غيابه، فلم يقبل السيد عمر وامتنع، ثم فترت همَّته عن ذلك وتبيَّن أنها إيهامات لا أصل لها.

وفي يوم الخميس أرسل الباشا إلى الخانات والوكايل أعوانًا، فختموا على حواصل التجار بما في داخلها من البن والبهار، وذلك بعد أن أمَّنهم وقبض منهم عشورها ومكوسها بالسويس، فلما وصلت القافلة واستقرت البضايع بالحواصل فعل بهم ذلك ثم صالحوا وأفرج عنهم.

وفيه ورد الخبر بأن الألفي ارتحل من ناحية الجسر الأسود والطرانة وقصد جهة البحيرة.

وفي يوم السبت ركب صالح أغا قابجي باشا، ونزل إلى بولاق ليسافر إلى الديار الرومية، فركب لوداعه الباشا وسعيد أغا والسيد عمر النقيب، فشيعوه إلى بولاق حتى نزل إلى المراكب، وخلع عليه الباشا فروة سمور مثمنة بعد أن وفاه خدمته وهاداه بهدايا، وأصحب معه هدايا للدولة وأربابها، وعرَّفه بقضايا وأغراض يتممها له هناك، وودعوه ورجعوا إلى بيوتهم بعد الغروب.

وفي يوم التلات عاشره سافر صالح أغا السلحدار إلى جهة بحري على طريق المنوفية وصحبته عساكر، وقرروا له مقادير من الأكياس على كل بلد من البلاد الرايجة عشرون كيسًا فما فوقها وما دونها من كل صنف مقادير أيضًا.

وفيه فرضوا أيضًا على البلاد غلال قمح وفول وشعير، كل بلد عشرون أردبًّا فما فوقها، وما دونها، وهذه تالت فرضة ابتدعت من الغلال على البلاد في هذه الدولة.

وفيه ورد الخبر بأن الألفي توجه إلى ناحية دمنهور البحيرة يوم الأربع رابعه، وأنهم امتنعوا عليه فحاصرهم؛ لأنهم استعدوا لذلك والبلد منضافة إلى السيد عمر النقيب، فكان يرسل إليهم ويحذرهم منه ويرسل إليهم ويمدهم بآلات الحرب والبارود، ويحرضهم على الاستعداد للحرب فحصنوا البلدة وبنوا سورها وجعلوا فيها أبراجًا وبدنات، وركبوا عليها المدافع الكثيرة وعبوا لديهم ما يحتاجون إليه من الذخيرة والجبخانة وما يكفيهم سنة، وحفروا حولها خنادق وهي في موقعها مرتفعة.

وفيه عزل الباشا محمد أغا كتخدا بك من كتخدايته؛ بسبب أمور نقمها عليه وحبسه وطلب منه ألف كيس وقلد في الكتخداية خازنداره، وهو المعروف بدبوس أوغلي.

وفي ليلة الأحد تامنه عدى صاري عسكر إلى بر إنبابة بوطاقه وهو دبوس أوغلي الكتخدا المذكور، وذلك في أواخر النهار، وضربوا مدافع كثيرة لتعديته، وأخذ العسكر في تشهيل أمورهم ولوازمهم وأنفق عليهم الباشا نفقة.

هذا والطلب والتوزيع بالأكياس مستمر لا ينقطع عن أعيان الناس والتجار والأفندية الكتبة وجماعة الضربخانة والملتزمين بالجمارك، وكل من كان له أدنى علاقة أو خدمة أو تجارة أو صنعة ظاهرة أو فايظ، أو له شهرة قديمة أو من مساتير الناس، وغالب الأحيان المحصل لذلك والقاضي فيه السيد عمر أفندي النقيب، وقد حكمت عليه الصورة التي ظهر فيها وانعكس الحال والوضع وساءت الظنون، والأمر لله وحده.

وفي يوم الخميس تاسع عشره ارتحل عرضي التجريدة من إنبابة، وذهبوا إلى جهة الوراريق.

وفي هذه الأيام كان بين مشايخ العلم منافسات ومنافرات ومحاسدات، وذلك من أوايل شهر رمضان، وتعصبات بسبب مشيخة الجامع ونظر أوقافه وأوقاف عبد الرحمن كتخدا، فاتفق أن الشيخ عبد الرحمن السجيني ابن الشيخ عبد الرءوف عمل وليمة ودعاهم إليها، فاجتمعوا في ذلك اليوم وتصالحوا في الظاهر.

وفي يوم الاثنين هبت رياح جنوبية حارة وأثارت غبارًا وزوابع ولوافح، ثم غيمت السما غيمًا متقطعًا وأرعدت وأمطرت؛ فكان الغبار والزوابع والشمس طالعة والمطر نازل، وذلك بعد العصر، وحصل مثل ذلك أيضًا في يوم الأربع ولكن بعد الظهر.

وفي تلك الليلة بعد الغروب أخرج الباشا محمد أفندي المنفصل عن الكتخداية منفيًّا إلى جهة دمياط، وأصحب معه عدة من العسكر ذهبوا به من طريق البر.

وفي أواخره رجعت عساكر من الأرنؤد وكانوا كثيرين، ونزلوا ببولاق ومصر القديمة، وغالبهم الذين كانوا بصحبة حسن باشا طاهر وأخيه عابدين بك؛ وسبب رجوعهم أنهم طلبوا علايفهم من حسن باشا وكان قد ظهر له فيهم المخامرة عليه وميلهم إلى الأخصام، فامتنع من دفع علايفهم وقال لهم: اذهبوا إلى مصر واطلبوا علايفكم من الباشا، وأرسل إليه يعرِّفه فعالهم ونفاقهم.

فما تراسلوا في الحضور منعهم الباشا من الدخول إلى البلد، ووعدهم بإيصال علايفهم إليهم وهم خارج المدينة، وبعد أن يقبضوا مالهم يعودون إلى مرابطهم كما كانوا، فأقاموا بناحية بولاق وأرسل الباشا فجمع عربان الحويطات والعايد وغيرهم، فأقاموا بناحية شبرا ومنية السيرج، وهم جملة كبيرة استمروا في تجمعهم أربعة أيام.

وأرسل إلى الأجناد والجربجية وأمثالهم المقيمين بمصر، وأمر بأن يتهيئوا ويقضوا أشغالهم ويخرجوا صحبة حسن أغا الشماشرجي، فمن كان منهم ذا مقدرة وعنده حصان يركبه أو جَمل يحمل عليه متاعه خرج بنفسه، وإلا أخرج بدلًا عنه وأعطاه مصروفه واحتياجاته ولوازمه، وبرزوا إلى خارج.

ثم أرسل إلى العساكر المذكورين يأمر كبارهم بالسفر إلى بلادهم، فامتنعوا وقالوا: لا نسافر حتى نقبض المنكسر لنا من علايفنا، فعند ذلك دس إلى أصاغرهم من خدعهم واستمالهم حتى تفرقوا في خدمة المستوطنين، ولم يبقَ مع كبارهم المعاندين إلا القليل، فلم يسَعهم بعد ذلك إلا الامتثال، وارتحلوا في غايته من بولاق وسافر معهم الشماشرجي المذكور، ومن بصحبته من المصريين وحولهم العربان، وساروا على طريق دمياط وهم اثنان وخمسون شخصًا من كبار طايفة الأرنؤد، وحصل من العرب في مدة تجمعهم ما لا خير فيه — وكذلك في مدة إقامتهم — من الخطف والتعرية وقطع الطريق على المسافرين.

شهر ربيع الأول (سنة ١٢٢١)

استهل بيوم التلات، وفي ليلة الأحد سادسه حصل رعد كثير وبرق بين المغرب والعشا بدون مطر، والغيم قليل متقطع، وذلك سابع عشر بشنس وثاني عشر أيَّار، والشمس في تالت درجة من برج الجوزا، وذلك من النوادر في مثل هذا الوقت.

وفي يوم الأحد المذكور ضربوا مدافع من القلعة لبشارة وردت من الجهة القبلية؛ وذلك أن رجب أغا وياسين بك اللذَين انضمَّا إلى الأُمرا المصرية القبليين عملا متاريس بحري المنية؛ ليمنعا من يصل إليها من مراكب الذخيرة، فلما سافر محو بك بمراكب الذخيرة ووصل إلى حسن باشا طاهر ببني سويف، أصحب معه عابدين بك وعدة من العسكر في عدة مراكب، فلما وصلوا إلى محل المتاريس تراموا بالمدافع والرصاص، واقتحموا المرور وساعدهم الريح فخلصوا إلى المنية، وطلعوا إليها ودخلها عابدين بك وقُتل فيما بينهم أشخاص، وأرسلوا بذلك المبشرين فأخبروا بذلك وبالغوا في الأخبار، وأن ياسين بك قُتل هو وخلافه، وراسه واصلة مع روس كثيرة، فعملوا لذلك شنكًا وضربت مدافع كثيرة، ولم يكن لقتل ياسين بك صحة.

ثم وصل محو بك وابن وافي، وقد نزلا في شكترية لها عدة مقاديف، ودفعوا في قوة التيار حتى وصلوا إلى مصر، ولم يصل معهم روس كما أخبر المبشرون.

وفيه قرر فرضة على البلاد وهي دراهم وغلال، وعينوا لذلك كاشفًا، فسافر ومعه عدة من العسكر وصحبتهم نقاقير، وسافر أيضًا خازندار الباشا وصحبته علي جلبي، وهو ابن أحمد كتخدا علي قلده الباشا كشوفية شرقية بلبيس، وأخذ صحبته أكثر رفقاه وأصحابه من أولاد البلد، فسافر على حين غفلة إلى ناحية الدقهلية.

وفي عاشره وصلت الأخبار بأن الألفي ارتحل من البحيرة، ورجع إلى ناحية وردان، وعدى من جيشه وعربانه طايفة إلى جزيرة السبكية، وهرب من كان مرابطًا فيها من الأجناد المصرية وغيرهم، وطلبوا من أهالي السبكية دراهم وغلالًا وفر غالب أهلها منها وجلوا عنها، وتفرقوا في بلاد المنوفية.

وفي تاني عشره يوم الجمعة عمل المولد النبوي ونصبوا بالأزبكية صواري تجاه بيت الباشا والشيخ محمد سعيد البكري، وقد سكن بدار مطلة على البركة داخل درب عبد الحق، وأقام هناك ليالي المولد إظهارًا لبعض الرسوم.

وفيه علقوا تسعة روس على السبيل المواجه لباب زويلة ذكروا أنها من قتلى دمنهور، وهي روس مجهولة، ووضعوا بجانبهم بيرقين ملطخين بالدما.

وفيه طلب الباشا دراهم سلفة من الملتزمين والتجار وغيرهم، بموجب دفتر أحمد باشا خورشيد الذي كان قبضها في عام أول قبل القومة والحرابة، فعينوا مقاديرها وعينوا بطلبها المعينين بالطلب الحثيث من غير مهلة، ومن لم يجدوه بأن كان غايبًا أو متغيبًا دخلوا داره وطالبوا أهله أو جاره أو شريكه، فضاق ذرع الناس وذهبوا أفواجًا إلى السيد عمر أفندي النقيب، فيتضجر ويتأسف ويتقلق ويهوِّن عليهم الأمر، وربما سعى في التخفيف عن البعض بقدر الإمكان وقد تورط في الدعوة.

وفيه سافر السيد محمد المحروقي إلى سد ترعة الفرعونية؛ وذلك أن الترعة المذكورة لما اجتهد في سدها المصريون في سنة اثنتي عشرة ومايتين وألف كما تقدم، فانفتحت من محل آخر ينفذ إلى ناحية الترعة المسمَّاة بالفيض، وكان ذلك بإشارة أيوب بك الصغير لعدم انقطاع الماء عن ري بلاده، فتهورت أيضًا هذه الناحية واتسعت وقوي اندفاع الماء إليها في مدة هذه السنين حتى جف البحر الغربي والشرقي.

وتغير ماء النيل في الناحية الشرقية، وظهرت فيه الملوحة من حدود المنصورة، وتعطلت مزارع الأرز، وشرقت بلاد البحر الشرقي وشربوا الأُجاج ومياه الآبار والسواقي، وكثر تَشَكِّي أهالي البلاد فحصل العزم على سدها في العام، وتقيد بذلك السيد محمد المحروقي وذو الفقار كتخدا، وطلبوا المراكب لنقل الأحجار من الجبل.

وذهب ذو الفقار إلى جهة السد وجمع العمال والفلاحين، وسبقت إليه المراكب المملوة بالأحجار من أول شهر صفر إلى وقت تاريخه، وجبوا الأموال من البلاد لأجل النفقة على ذلك.

ثم سافر السيد المحروقي أيضًا وبذل جهده، ورموا بها من الأحجار ما يضيق به الفضا من الكثرة.

وتعطل بسبب ذلك المسافرون لقلة المراكب وجفاف البحر الغربي، والخوف من السلوك فيه من قطاع الطرق والعربان، فكانت المراكب المعاشات التي تأتي بالسفار وبضايع التجار يأتون بشحناتهم إلى حد السد ومحل العمل والشغل، فيرسون هناك ثم ينقلون ما بها من الشحنة والبضايع إلى البر، وينقلونها إلى السفن والقوارب التي تنقل الأحجار، ويأتون بها إلى ساحل بولاق فيُخرجون ما فيها إلى البر، وتذهب تلك السفن والقوارب إلى أشغالها في نقل الحجر، ولا يخفى ما يحصل في البضايع من الإتلاف والضياع والسرقة وزيادة الكلف والأجر وغير ذلك، وطال أمد هذا الأمر.

وفي أواخره نزل الباشا للكشف على الترعة، فغاب يومين وليلتين ثم عاد إلى مصر.

شهر ربيع الثاني (سنة ١٢٢١)

فيه ورد سعاة من إسكندرية وأخبروا بورود أربع مراكب وفيها عساكر من النظام الجديد، وصحبتهم ططريات وبعض أشخاص من الإنكليز، ومعهم مكاتبة خطابًا إلى الألفي وبشارة بالرِّضَى والعفو للأُمرا المصرية من الدولة بشفاعة الإنكليز، فلما وصلوا إليه بناحية حوش ابن عيسى بالبحيرة سُرَّ بقدومهم، وعمل لهم شنكًا وضرب لهم مدافع كثيرة، ثم شهَّلهم وأرسلهم إلى الأُمرا القبليين وصحبتهم أحد صناجقه، وهو أمين بك ومحمد كاشف تابع إبراهيم بك الكبير.

ثم إنه أرسل عدة مكاتبات بذلك الخبر إلى المشايخ وغيرهم بمصر، وكذلك إلى مشايخ العربان مثل الحويطات والعايد وشيخ الجزيرة وباقي المشاهير، فأحضر ابن شديد وابن شعير الأوراق التي أتتهم من الألفي إلى الباشا، وفيها: ونُعلمكم أن محمد علي باشا ربما ارتحل إلى ناحية السويس فلا تحملوا أثقاله، وإن فعلتم ذلك فلا نقبل لكم عذرًا، ولما سمع الباشا ذلك قال: إنه مجنون وكذاب.

وفيه فتح الباشا الطلب بفايظ البلاد والحصص من الملتزمين والفلاحين، وأمر الروزنامجي وطايفته بتحرير ذلك عن السنة القابلة فضج الملتزمون، وترددوا إلى السيد

عمر النقيب والمشايخ، فخاطبوا الباشا فاعتذر إليهم باحتياج الحال والمصاريف، ثم استقر الحال على قبض ثلاثة أرباعه، النصف على الملتزمين والربع على الفلاحين، وأن يحسب الريال في القبض منهم بتلاتة وثمانين نصفًا، ويقبضه باتنين وتسعين، وعلى كل ماية ريال خمسة أنصاف حق طريق سوا كان القبض من الملتزمين عن حصته في المصر، أو بيد المعينين من طرف الكاشف في الناحية، وإذا كان التوجيه بالطلب من كاشف الناحية، كانت أشنع في التغريم والكلف لترادف الإرسال وتكرار حق الطريق.

وفي سادسه حضر أحمد كاشف سليم من الجهة القبلية، وسبب حضوره أن الباشا لما بلغته هذه الأخبار أرسل الأُمرا القبليين يستدعي منهم بعض عقلاهم، مثل: أحمد أغا شويكار وسليم أغا مستحفظان ليتشاور معهم في الأمر، فلم يُجب واحد منهم إلى الحضور.

ثم اتفقوا على إرسال أحمد كاشف لكونه ليس معدودًا من أفرادهم، وبينه وبين الباشا نسب؛ لأن ربيبته تحت حسن الشماشيرجي فحضر واختلى به الباشا مرارًا.

ثم أمره بالعود فسافر في يوم التلات رابع عشره، وأصحب معه هدية إلى إبراهيم بك والبرديسي وعثمان بك حسن وغيرهم من الأُمرا، وهي عدد خيول وقلاعيات وثياب وأمتعة وغير ذلك.

وفي سادسه أيضًا قبض الباشا على إبراهيم أغا الوالي وحبسه مع أرباب الجرايم؛ وسبب ذلك أن البصاصين شاهدوا حمولًا فيها ثياب من ملابس الأجناد، أعدها بعض تجار النصارى ليرسلها إلى جهة قبلي لتُباع على أجناد الأُمرا المصريين ومماليكهم ويربح فيها.

وسيل الحاملون لها فأخبروا أن أربابها فعلوا ذلك باطلاع الوالي المذكور على مصلحة أخذها منهم، ووصل خبر ذلك إلى الباشا فأحضره وقبض عليه وحبسه، ثم أطلقه بعد أيام على مصلحة تقررت عليه بشفاعة امرأة من القهارمة المتقربين، وعاد إلى منصبه وأُخذت البضاعة وضاعت على أصحابها وغرموهم زيادة على ذلك غرامة، وكذلك اتُّهم الذي حجزها بأنه اختلس منها أشيا وحُبس وأُخذت منه مصلحة، فتحصل من هذه القضية جملة من المال مع أنها في خلال المراسلة والمهاداة.

ونودي بعد ذلك بأن من أراد أن يرسل شيًّا أو متجرًا ولو إلى السويس، فليستأذن على ذلك ويأخذ به ورقة من باب الباشا، فإن لم يفعل وضاع عليه فاللوم عليه.

وفي يوم التلات رابع عشره ورد ساعٍ وصحبته مكتوب من حاكم إسكندرية خطابًا إلى الدفتردار يخبره بوصول قبطان باشا إلى الثغر، وفي أثره وصل باشا متولًّ على مصر، واسمه موسى باشا، وصحبتهم مراكب بها عساكر من الصنف الذي يسمَّى النظام الجديد، وكان ورود القبطان إلى الثغر ليلة الجمعة عاشره، وطلعوا إلى البر بإسكندرية في يوم السبت حادي عشره، فلما قرا الدفتردار الورقة أرسل إلى السيد عمر النقيب، فحضر إليه وركب صحبته للباشا واختليا معه ساعة، ثم فارقاه.

ولما بلغ الألفي ورود هذه الدونانمة وحضرت إليه المبشرون وهو بالبحيرة امتلأ فرحًا، وأرسل عدة مكاتبات إلى مصر صحبة السعاة فقبضوا على السعاة، وحضروا بهم إلى الباشا فأخفاها ووصل غيرها إلى أربابها على غير يد السعاة، وصورتها الأخبار بحضور الدونانمة صحبة قبطان باشا والنظام الجديد، وولاية موسى باشا على مصر وانفصال محمد علي باشا عن الولاية، وأن مولانا السلطان عفا عن الأُمرا المصريين، وأن يكونوا كعادتهم في إمارة مصر وأحكامها والباشا المتولَّ يستقر بالقلعة كعادته، وأن محمد علي باشا يخرج من مصر ويتوجه إلى ولايته التي تقلدها وهي ولاية سلانيك، وأن حضرة قبطان باشا أرسل يستدعي إخواننا الأُمرا من ناحية قبلي، فالله يسهل بحضورهم فتكونوا مطمينين الخاطر، وأعلموا إخوانكم من الألداشات والرعية بأن يضبطوا أنفسهم ويكونوا مع العلما في الطاعة وما بعد ذلك إلا الراحة والخير والسلام.

وفي يوم الجمعة سابع عشره ورد قاصد من طرف قبودان باشا إلى بولاق، فأرسل إليه الباشا مَن قابَله وأركبه وحضر به إلى بيت الباشا، وأراد أن ينزل بمنزل الدفتردار فاستعفى الدفتردار من نزوله عنده، فأنزلوه ببيت الروزنامجي، وأقام يومين: السبت والأحد، ولم يظهر ما دار بينهما.

ثم سافر في يوم الاثنين وذهب صحبته سليم المعروف بقبي لركسخي، وشرع الباشا في عمل آلات حرب وجلل ومدافع، وجمعوا الحدادين بالقلعة وأصعدوا بنبات كثيرة واحتياجات ومهمات إلى القلعة، وظهر منه علامات العصيان وعدم الامتثال، وجمع إليه كبار العسكر وشاورهم وتناجى معهم فوافقوه على ذلك؛ لأن ما من أحد منهم إلا وصار له عدة بيوت وزوجات والتزام بلاد وسيادة لم يتخيلها، ولم تخطر بذهنه ولا بفكره، ولا يسهل به الانسلاخ عنها والخروج منها ولو خرجت روحه.

وأخبر المخبرون أن الألفي أرسل هدية إلى قبودان باشا، وفيها ثلاثون حصانًا منها عشرة برخوتها، ومن الغنم أربعة آلاف رأس، وجملة أبقار وجواميس وماية جَمَل محمَّلة بالذخيرة، وغير ذلك من النقود والثياب والأقمشة برسمه ورسم كبار أتباعه.

ثم إن الباشا أحضر السيد عمر والخاصة، وعرَّفهم بصورة الأمر الوارد بعزله وولاية موسى باشا، وأن الأُمرا المصريين أعرضوا للسلطنة في طلب العفو وعودهم إلى أمرياتهم، وخروج العساكر التي أفسدت الإقليم عن أرض مصر، وشرطوا على أنفسهم القيام بخدمة الدولة والحرمين الشريفين، وإرسال غلالها ودفع الخزينة وتأمين البلاد، فحصل عنهم الرِّضَى وأجيبوا إلى سؤالهم على هذه الشروط، وأن المشايخ والعُلما يتكلفون بهم ويضمنون عهدهم بذلك، فأعملوا فكركم ورأيكم في ذلك، ثم انفصلوا من مجلسه.

وفيه أرسل الباشا فجمع الأخشاب التي وجدها ببولاق في الشوادر والحواصل والوكايل، وطلَّعوا جميع ذلك إلى القلعة لعمل العربات والعجل برسم المدافع والقنابر.

وفي يوم التلات حادي عشرينه كان مولد المشهد الحسيني المعتاد، وحضر الباشا لزيارة المشهد ودعاه شيخ السادات، وهو الناظر على المشهد والمتقيد لعمل ذلك، فدخل إليه وتغدى عنده، ثم ركب وعاد إلى داره وأكثر من الركوب والطواف بشوارع المدينة والطلوع إلى القلعة والنزول منها، والذهاب إلى بولاق وهو لابس برنسًا.

وفي يوم الخميس تالت عشرينه حضر ديوان أفندي وعبد الله أغا بكتاش الترجمان عند السيد عمر، ومعهما صورة عرض يكتب عن لسان المشايخ إلى الدولة في شأن هذه الحادثة، فتناجوا مع بعضهم حصة من النهار، ثم ركبا وحضرا في ثاني يوم عند الشيخ عبد الله الشرقاوي، وأمروا المشايخ بتنظيم العرضحال وترصيعه، ووضع أسماهم وختومهم عليه ليرسله الباشا إلى الدولة، فلم تسعهم المخالفة، ونظموا صورته ثم بيضوه في كاغد كبير. وصورته بالحرف:

> بسم الله الرحمن الرحيم الروف الحليم، الحمد لله ذي الجلال على جميع الشئون والأحوال، نرفع إليك أكُفًّا من بحر جودك مغترفة، ونتوجه إلى كعبة فضلك بقلوب بخالص الوحدانية معترفة، أن تديم بهجة الزمان ورونق عنوان اليمن واليمان بدوام وزير تخضع لمهابته الرقاب، وتدنو لهمة سطوته المهمات الصعاب، منتهى آمال المقاصد والوسايل، ومحط رحال المطالب من كل سايل، حضرة صدر الصدور ومدبر مهمات الأمور الصدر الأعظم أدام الله دعايم العز بقيامه، وفسح للأنام في أيامه، محفوفًا بعناية الرب الكريم، محفوظًا بآيات القرآن العظيم آمين.
>
> أما بعد رفع القصد والرجا، ومد سواعد الخضوع والالتجا، فإننا نُنهي لمسامعكم العلية، وشيم أخلاقكم المرضية، بأنه قد قدم حضرة الدستور المكرم،

والمشير المفخم، مدير مهمات الاسكلات البحرية، خادم الدولة العلية، الوزير قبودان باشا إلى ثغر إسكندرية، فأرسل كتخدا البوابين سعيد أغا وصحبته الأمر الشريف، الواجب القبول والتشريف، المعنون بالرسم الهمايوني العالي، دامت مسراته على ممر الدهور والأعوام والأيام والليالي.

فأوضح مكنونه، وأفصح مضمونه بأنه قد تطاولت العداوة بين الوزير محمد علي باشا وبين المصريين؛ فتعطلت مهمات الحرمين الشريفين من غلال ومرتبات وتنظيم أمير الحاج على حكم سوابق العادات، والحال أنه ينبغي تقديم ذلك علىساير المطلوبات، وأن هذا التأخير سببه كثرة العساكر والعلوفات؛ وترتب على ذلك لكامل الرعية بالأقاليم المصرية الدمار والاضمحلال، وأنهت الأُمرا المصرية هذه الكيفية لحضرة السدة السنية، وأنهم يتعهدون بالتزام جميع مرتبات الحرمين الشريفين من غلال وعوايد ومهمات، وإخراج أمير حاج على حكم أسلوب المتقدمين، مع الامتثال لكامل ما يرد من الأوامر الشريفة إلى ولاة الأمور بالديار المصرية، وأنهم يقومون في كل سنة بدفع الأموال الميرية إلى خزينة الدولة العلية إن حصل لهم العفو عن جرايمهم الماضية، والرضى بدخولهم مصر المحمية، والتمسوا من حضرة الدولة العلية قبول ذلك منهم وبلوغهم مأمولهم.

فأصدرتم لهم الأمر الهمايوني الشريف المطاع المنيف، بعزل الوزير المشار إليه، لتقرير العداوة معه، ووجهتم له ولاية سلانيك، ووجهتم ولاية مصر إلى الوزير موسى باشا، وقبلتم توبتهم، وإن العُلما الوجاقلية والريسا والوُجها بالديار المصرية، الداعين لحضرة مولانا الخنكار السعيد ببلوغ المأمولات المرضية أن تعهدوا بهم، وكلفوهم يحصل لهم المساعدة الكلية حكم التماسهم من أعتاب حضرة الدولة العلية، فأمركم مطاع، وواجب القبول والاتباع.

غير أننا نلتمس من شيم الأخلاق المرضية، والمراحم العلية، العفو عن تعهدنا وكفالتنا لهم؛ فإن شرط الكفيل قدرته على المكفول، ونحن لا قدرة لنا على ذلك لما تقدم من الأفعال الشهيرة، والأحوال والتطورات الكثيرة، التي منها خيانة المرحوم السيد علي باشا — والي مصر سابقًا — بعد واقعة ميرميران طاهر باشا، وقتل الحجاج القادمين من البلاد الرومية، وسلب الأموال بغير أوجه شرعية، والصغير لا يسمع كلام الكبير، والكبير لا يستطيع تنفيذ الأمر

على الصغير، وغير ذلك مما هو معلومنا وبمشاهدتنا، خصوصًا ما وقع في العام الماضي من إقدامهم على مصر المحمية، وهجومهم عليها في وقت الفجرية، فجلاهم عنها حضرة المشار إليه، وقتل منهم جملة كثيرة، فكانت واقعة شهيرة، فهذا شي لا ينكر، فحينئذٍ لا يمكننا التكفل والتعهد؛ لأننا لا نطلع على ما في السراير، وما هو مستكن في الضماير، فنرجو عدم المواخذة في الأمور التي لا قدرة لنا عليها؛ لأننا لا نقدر على دفع المفسدين والطغاة والمتمردين الذين أهلكوا الرعايا ودمروهم، فأنتم خلفا الله على خليفته، وأمناه على بريته، ونحن ممتثلون لولاة أموركم في جميع ما هو موافق للشريعة المحمدية، على حكم الأمر من رب البرية — سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾، فلا تسعنا المخالفة فيما يرضي الله ورسوله.

فإن حصل منهم خلاف ذلك، نَكِلُ الأمر فيهم إلى مالك الممالك؛ لأن أهل مصر قوم ضعاف، وقال عليه الصلاة والسلام: «أهل مصر الجند الضعيف، فما كادهم أحد إلا كفاهم الله مؤنته»، وقال أيضًا: «وكل راعٍ مسول عن رعيته يوم القيامة.»

ونفيد أيضًا حضرة المسامع العلية، من خصوص القُرض والسُّلف التي حصل منها الثقلة للأهالي من حضرة محسوبكم الوزير محمد علي باشا، فإنه اضطُر إليها لأجل إغرا العساكر وتقويتهم على دفع الأشقيا والمفسدين، والطغاة المتمردين امتثالًا لأوامر الدولة العلية في دفعهم، والخروج من حقهم، واجتهد في ذلك غاية الاجتهاد، رغية في حلول أنظار الدولة العلية.

فالأمر مفوَّض إليكم، والملك أمانة الله تحت أيديكم، نسأل الله الكريم المنان أن يديم العز والامتنان لسدة السلطان، مع رفعة ترشح بها في النفوس عظمته، وسطوة تسري في القلوب مهابته وأن يبقي دولته على الأنام، وأن يحسن البدء والختام بجاه سيدنا محمد خير البرية، وآلة وصحبة ذوي المناقب الوفيه. انتهى.

وكتبوا من ذلك نسختين، إحداهما إلى القبطان وأخرى إلى السلطان، وكتبوا عليهما الإمضا والختوم وأرسلوهما.

وفي ليلة الاتنين سابع عشرينه وصل شاكر أغا سلحدار الوزير إلى بولاق، فتلقوه وأركبوه إلى بيت الباشا، فلما أصبح النهار أرسلوا أوراقًا وصلت صحبة السلحدار المذكور، إحداها خطابًا للمشايخ، وأخرى إلى شيخ السادات، وتالته إلى السيد عمر النقيب، وكلها على نسق واحد وهي من قبودان باشا وعليها الختم الكبير، وهي بالعربي وفرمان رابع باللغة التركية خطابًا للجميع، ومضمون الكل الأخبار بعزل محمد علي باشا عن ولاية مصر وولاية سلانيك وولاية السيد موسى باشا المنفصل عنها مصر، وأن يكون الجميع تحت الطاعة والامتثال للأوامر والاجتهاد في المعاونة، وتشهيل محمد علي باشا فيما يحتاج إليه من السفن ولوازم السفر ليتوجه هو وحسن باشا والي جرجا من طريق دمياط بالإعزاز والإكرام، وصحبتهما جميع العساكر من غير تأخير حسب الأوامر السلطانية.

ثم إنهم اجتمعوا في عصر ذلك اليوم بمنزل السيد عمر، وركبوا إلى الباشا، فلما استقروا بالمجلس قال لهم: وصلت إليكم المراسلات الواردة صحبة السلحدار. قالوا: نعم. قال: وما رأيكم في ذلك؟ قال الشيخ الشرقاوي: ليس لنا رأي، والرأي ما تراه، ونحن الجميع على رأيك. فقال لهم: في غد أبعث إليكم صورة تكتبونها في رد الجواب.

وأرسل إليهم من الغد صورة مضمونها أن الأوامر الشريفة وصلت إلينا وتلقيناها بالطاعة والامتثال، إلا أن أهل مصر ورعيتها قوم ضعاف وربما عصت العساكر عن الخروج؛ فيحصل لأهل البلدة الضرر وخراب الدور وهتك الحرمات، وأنتم أهل الشفقة والرحمة والتلطف، ونحو ذلك من التزويقات والتمويهات وأصدروها إليه.

وفي أثنا ذلك كان محمد علي باشا آخذ في الاهتمام والتشهيل، وإظهار الحركة والخروج لمحاربة الألفي، وبرزت العساكر إلى ناحية بولاق وخارج البلدة وعدوا بالخيام إلى البر الغربي.

وتقدم إلى مشايخ الحارات بالتعريف على كل من كان متصفًا بالجندية، ويكتبوا أسماهم ومحل سكنهم ففعلوا ذلك ثم كتبت لهم أوراق بالأمر بالخروج وعليها ختم الباشا ومسطور في ورقة الأمر بأن المأمور يصحب معه شخصين أو تلاتة، على أن أكثرهم لا يملك حمارًا يركبه ولا ما يحمل عليه متاعه، ولا ما يصرفه على نفسه فضلًا عن غيره، وكذلك أمر الوجاقلية جليلهم وحقيرهم بالخروج للمحاربة.

وفيه شرع الباشا في تقرير فرضه على البلاد البحرية، وهي القليوبية والمنوفية والغربية والدقهلية والمزاحمتين إلى آخر مجرى النيل، ورتبوها أعلى وأدنى وأوسط، وهي

غلال، الأعلى تلاتون أردبًّا وتلاتون راسًا من الغنم وأردب أرز وثلاثون رطلًا من الجبن ومن السمن كذلك، وغير هذه الأصناف كالتبن والجلة وغير ذلك، والأوسط عشرون أردبًّا وما يتبعها مما ذُكر والأدنى اثنا عشر.

ومع ذلك القبض والطلب مستمر في فايظ الملتزمين بعضه من ذواتهم وبعضه من فلاحيهم، مع ما يتبع ذلك من حق الطرق والخدم وتوالي الاستعجالات.

وفي ليلة التلات تامن عشرينه سافر شاكر أغا السلحدار بالأجوبة.

شهر جمادى الأولى (سنة ١٢٢١)

استهل بيوم الخميس، في تانيه احترق معمل البارود بناحية المدابغ؛ فحصل منه رجة عظيمة وصوت هايل مثل المدفع العظيم سمعه القريب والبعيد، ومات به عدة أشخاص، ويقال: إنهم رموا بنبة من القلعة بقصد التجربة على جهة بولاق، فسقطت في المعمل المذكور وحصل ما ذُكر.

وفي تالته يوم السبت وقت الزوال ركب الباشا من داره يريد السفر لمحاربة الألفي، ونزل إلى بولاق، وعدى إلى بر إنبابة لتجهيز العرضي، وأرسل أوراقًا لتجمع العربان، وعيَّن لذلك حسن أغا محرم وعلي كاشف الشرقية.

وفي ليلة الاتنين خامسه حضر سليم أغا قابجي كتخدا الذي تقدم سفره صحبة سعيد أغا كتخدا البوابين، مرسولًا إلى قبودان باشا من طرف محمد علي باشا، فرجع بجواب الرسالة، ومحصلها: أن القبودان لم يقبل هذه الأعذار ولا ما نمقوه من التمويهات التي لا أصل لها، ولا بد من تنفيذ الأوامر وسفر الباشا ونزوله هو وحسن باشا وعساكرهما وخروجهم من مصر، وذهابهم إلى ناحية دمياط وسفرهم إلى الجهة المأمورين بالذهاب إليها، ولا شي غير ذلك أبدًا.

وفي ليلة الخميس تامنه حضر علي كاشف الشرقية، وذلك أنه تقنطر من فوق جواده وكُسرت رجله وأحضروه محمولًا.

وفي يوم الخميس المذكور وصل الكثير من طوايف عرب الحويطات ونصف حرام من ناحية شبرا إلى بولاق، وضربوا لحضورهم مدافع.

وفيه ركب طوايف الدلاتية وتقدموا إلى جهة بحري، وأشيع ركوب محمد علي باشا ذلك اليوم فلم يركب.

وفي تاني عشره ورد الخبر بوصول موسى باشا إلى ثغر إسكندرية يوم الأحد حادي عشره، والمذكور أرسل من طرفه قاصدًا وعلى يده مرسوم خطابًا لأحمد أفندي الدفتردار بأن يكون قايمًا مقامه، ويأمره بضبط الإيراد والمصرف، فلم يقبل الدفتردار ذلك، وقال: لم يكن بيدي قبض ولا صرف ولا علاقة لي بذلك.

وفي يوم الأحد طافت جماعة قواسة على بيوت الأعيان يبشرونهم بأن العساكر الكاينين بناحية الرحمانية ركبوا على عرضي الألفي ووقعت بينهم مقتلة كبيرة، وقتلوا منه جملة فيهم أربعة صناجق، ونهبوا منه زيادة عن تمانماية جمل بأحمالها وعدة هجن محملة بالأموال، ورجعت العساكر ومعهم نحو التمانين رأسًا وماية أسير وغير ذلك، وأن الألفي هرب بمفرده إلى ناحية الجبل وقيل إلى إسكندرية، فكانوا يطوفون على الأعيان بهذا الكلام ويأخذون منهم البقاشيش.

ثم ظهر أن هذا الكلام لا أصل له وتبيَّن أن طايفة من العرب يقال لهم: الجوابيص وهم طايفة مرابطون ليس يقع منهم أذية ولا ضرر لأحد مطلقًا، نزلوا بالجبل بتلك الناحية فدهمهم العسكر، وخطفوا منهم إبلًا وأغنامًا وقتل فيما بينهم أنفار من الفريقين لمدافعتهم عن أنفسهم.

وفي ذلك اليوم أيضًا ركب حسن أغا الشماشرجي إلى المنصورية قرية بالجيزة ومعه طايفة من العسكر، وهي بالقرب من الأهرام فضربوا القرية ونهبوا منها أغنامًا ومواشي وأحضروها إلى العرضي بإنبابة، وحضر خلفهم أصحاب الأغنام وفيهم نسا يصرخن ويصحن، وصادف ذلك أن السيد عمر النقيب عدى إلى العرضي فشاهدهم على هذه الحالة، فكلم الباشا في شأنهم فأمر برد الأغنام التي للنسا والفقرا الصارخين، وذهبوا بالباقي للمطابخ.

وفي تاني عشره وردت الأخبار بأن العساكر الكاينين بالرحمانية ومرقص رجعوا إلى النجيلة، ونصبوا عرضيهم هناك، وحضر الألفي تجاههم فركبوا لمحاربته، وكانوا جمعًا عظيمًا فركب الألفي بجيوشه وحاربهم ووقع بينه وبينهم وقعة عظيمة انجلت عن نصرته عليهم وانهزام العسكر، وقتل من الدلاة وغيرهم مقتلة عظيمة، ولم يزالوا في هزيمتهم إلى البحر وألقوا بأنفسهم فيه وامتلا البحر من طراطير الدلاتية، وهرب كتخدا بك وطاهر باشا إلى بر المنوفية، وعدوا في المراكب، واستولى الألفي وجيوشه على خيولهم وخيامهم وحملاتهم وجبخانتهم، وأرسل بروس القتلى والأسرى إلى القبودان.

وأشيع خبر هذه الواقعة في الناس وتحدثوا بها، وانزعج الباشا والعسكر انزعاجًا عظيمًا وعدى إلى بر بولاق، وطاف الوالي وأصحاب الدرك ينادون على العساكر بالخروج إلى العرضي، ويكتبون أسماهم وحضر الباشا إلى داره.

وأكثر من الركوب والذهاب والمجي والطواف حول المدينة والشوارع، ويذهب إلى بولاق ومصر القديمة ويرجع ليلًا ونهارًا وهو راكب رهوانًا تارة أو فرسًا أو بغلة، ومرتديًا برنسًا أبيض مثل المغاربة والعسكر أمامه وخلفه، ووصل مجاريح كثيرة وأخبروا بالواقعة المذكورة، ومات من جماعة الألفي أحمد بك الهنداوي فقط، وانجرح أمين بك وغيره جرح سلامة.

وفي يوم الأربع حادي عشرينه وصلت العساكر المهزومة وكبراهم إلى بولاق، وفيهم مجاريح كثيرة وهم في أسوأ حال، فمنعهم الباشا من طلوع البر وردهم بمراكبهم إلى بر إنبابة، واستمروا هناك إلى آخر النهار وهم عدد كثير، وقد انضاف إليهم من كان ببر المنوفية، ولم يحضر المعركة لما داخلهم من الخوف.

ثم إنهم طلعوا إلى بولاق، وانتشروا في النواحي، وذهب منهم الكتير إلى مصر القديمة، وحضر كتير منهم، ودخلوا المدينة ودخلوا البيوت وأزعجوا كتير من الناس الساكنين بناحية قناطر السباع، وسويقة اللالا والناصرية وغير ذلك من النواحي، وأخرجوهم من دورهم، وقد كانت الناس استراحت منهم مدة غيابهم.

وفي يوم الأربع تامن عشرينه الموافق لتامن مسرى القبطي أوفى النيل أذرعه، وركب الباشا في صبيحة يوم الخميس إلى قنطرة السد، وحضر القاضي والسيد عمر النقيب، وكسر الجسر بحضرتهم وجرى الماء في الخليج جريانًا ضعيفًا؛ بسبب علو أرضه وعدم تنظيفه من الأتربة المتراكمة فيه، ويقال: إنهم فتحوه قبل الوفاء لاشتغال بال الباشا وتطيره وخوفه من حادثة تحدث في مثل يوم هذا الجمع، وخصوصًا وقد وصل إلى بر الجيزة الكثير من أجناد الألفي.

شهر جمادى الآخرة (سنة ١٢٢١)

استهل بيوم السبت، في سادسه حضر طاهر باشا إلى بر إنبابة، ونصب خيامه هناك وعدى هو في قلة إلى بر بولاق، وذهب إلى داره بالأزبكية، وكان من أمره أنه لما حصلت له الهزيمة فذهب إلى المنوفية، وقد اغتاظ عليه الباشا وأرسل يقول له: لا تريني وجهك بعد الذي حصل، وترددت بينهما الرسل ثم أرسل إليه يأمره بالذهاب إلى رشيد، فذهب

إلى فوة، ثم حضر شاهين بك الألفي إلى الرحمانية فأرسل الباشا إلى طاهر باشا يأمره بالذهاب إلى شاهين بك ويطرده من الرحمانية، فذهب إليه في المراكب فضرب عليه شاهين بك بالمدافع، فكسر بعض مراكبه، فرجع على أثره وركب من البر حتى تعدى بحر الرحمانية، ثم حضر إلى مصر، ووصل بعده الكثير من العسكر فأمرهم الباشا بالعود، فعاد الكثير منهم في المراكب، وحضر أيضًا إسماعيل أغا الطوبجي كاشف المنوفية، وقد داخل الجميع الخوف من الألفي.

وأما الألفي فإنه بعد انفصال الحرب من النجيلة رجع إلى حصار دمنهور، وذلك بعد أن ذهب أعيانها إلى قبودان باشا وقابلوه وأمَّنهم، ورجعوا على أمانه فافترقوا فرقتين: فرقة منهم اطمأنت ورضيت بالأمان، والأخرى لم تطمين بذلك، وأرسلوا إلى السيد عمر والباشا، فرجع إليهم الجواب يأمرونهم باستمرارهم على الممانعة ومحاربة من يأتي لحربهم، فامتثلوا ذلك وتبعتهم الفرقة الأخرى وأرسل إليهم القبودان يدعوهم إلى الطاعة ويضمن لهم عدم تعدي الألفي عليهم، فلم يرضوا بذلك، فعند ذلك استقصى العلما في جواز حربهم حتى يذعنوا للطاعة فأفتوه بذلك، فعند ذلك أرسل إلى الألفي يأمره بحربهم فحاصرهم وحاربهم واستمر ذلك.

وفي يوم الجمعة سابعه ورد الخبر بموت الكاشف الذي بدمنهور.

وفي يوم الخميس تالت عشره وصلت قافلة من السويس وصحبتها المحمل، فأدخلوه وشقوا به من المدينة وخلفه طبل وزمر، وأمامه أكابر العسكر وأولاد الباشا، ومصطفى جاويش المتسفر عليه، ولقد أخبرني مصطفى جاويش المذكور أنه لما ذهب إلى مكة، وكان الوهابي حضر إلى الحج واجتمع به فقال له الوهابي: ما هذه العويدات التي تأتون بها وتعظمونها بينكم؟ يشير بذلك القول إلى المحمل، فقال له: جرت العادة من قديم الزمان بها يجعلونها علامة وإشارة لاجتماع الحجاج، فقال: لا تفعلوا ذلك ولا تأتوا به بعد هذه المرة، وإن أتيتم به مرة أخرى فإني أكسره.

وفي ليلة الأربع حضر الأفندي المكتوبجي من طرف القبودان إلى بولاق، فأرسل إليه الباشا حصانًا فركبه وحضر إلى بيت الباشا بالأزبكية في صبح يوم الأربع المذكور، فأحضر الباشا الدفتردار وسعيد أغا واختلوا مع بعضهم ولم يُعلم ما دار بينهم.

في يوم الخميس عشرينه ارتحل مَن بالجيزة مِن الأمرا المصريين، وعدتهم ستة من المتأمِّرين الجدد الذين أمَّرهم الألفي، فذهبوا عند أستاذهم بناحية دمنهور ونزلوا بالقرب منه.

وفي خامس عشرينه مر سليمان أغا صالح من ناحية الجيزة راجعًا من عند الأمرا القبالي وصحبته هدايا من طرفهم إلى القبودان، وفيها خيول وعبيد وطواشية وسكر، ولم يجيبوا إلى الحضور لممانعة عثمان بك البرديسي وحقده الكامن للألفي، ولكون هذه الحركة، وهي مجي القبودان وموسى باشا، باجتهاده وسفارته وتدبيره كما سيتلى عليك فيما بعد.

وفيه ظهرت فحوى النتيجة القياسية وانعكاس القضية، وهو أن القبودان لما لم يجد في المصرلية الإسعاف، وتحقق ما هم عليه من التنافر والخلاف، وتكررت ما بينه وبين الفريقين المراسلات والمكاتبات، فعند ذلك استأنف مع محمد علي باشا المصادقة، وعلم أن الأروج له معه الموافقة، فأرسل إليه المكتوبجي واستوثق منه، والتزم له بأضعاف ما وعد به من الكذابين معجلًا ومؤجلًا على ممر السنين، والالتزام بجميع المأمورات والعدول عن المخالفات.

فوقع الاتفاق على قدر معلوم، وأرسل إلى محمد علي باشا يأمره بكتابة عرضحال خلاف الأولين ويرسله صحبة ولده على يد القبودان، فعند ذلك لخصوا عرضحال، وختم عليه الأشياخ والاختيارية والوجاقلية، وأرسله صحبة ابنه إبراهيم بك وأصحب معه هدية حافلة وخيولًا وأقمشة هندية وغير ذلك، وتلفت طبخه الألفي والتدابير ولم تسعفه المقادير.

ومضمون العرضحال وملخصه أن محمد علي باشا كافل الإقليم وحافظ ثغوره، ومؤمِّن سلبه وقامع المعتدين، وأن الكافة من الخاصة والعامة والرعية راضية بولايته وأحكامه وعدله، والشريعة مقامة في أيامه ولا يرتضون خلافه لما رأوا فيه من عدم الظلم والرفق بالضعفا وأهل القرى والأرياف، وعمارها بأهلها ورجوع الشاردين منها في أيام المماليك المصرية المعتدين الذين كانوا يتعدون عليهم ويسلبون أموالهم ومزارعهم، ويكلفونهم بأخذ الفرض والكلف الخارجة عن الحد.

وأما الآن فجميع أهل القطر المصري آمنوا مطمينين بولاية هذا الوزير، ويرجون من مراحم الدولة العلية أن يبقيه واليًا عليهم، ولا يعزله عنهم لما تحققوه فيه من العدل وإنصاف المظلومين، وإيصال الحقوق لأربابها وقمع المفسدين من العربان الذين كانوا يقطعون الطرقات على المسافرين، ويتعدون على أهل القرى، ويأخذون مواشيهم وزوعهم، ويقتلون من يعصى عليهم منهم، وأما الآن فلم يكن شي من ذلك، وجميع أهل البلاد في غاية من الراحة والأمن برًّا وبحرًا بحسن سياسته وعدله، وامتثاله للأحكام

الشرعية ومحبته للعماء وأهل الفضايل والإذعان لقولهم ونصحهم، ونحو ذلك من الكلمات التي عنها يُسألون ولا يؤذن لهم فيعتذرون.

ولما كتبوا ذلك لم يطَّلع عليه إلا بعض الأفراد المتصدرين، ويكتب كاتبه جميع الأسماء تحته بخطه. ولا يمكِّنون البواقي الذين يضعون إمضاهم وأسماهم من قراته، بل يطلب منهم الخاتم فيختمون به تحت اسمه؛ إذ لا يمكنه الشذوذ والمخالفة لحرصه على دوام ناموسه، وقبوله عند سلطانه، ودايرة أهل دولته، وإن كان متورعًا وليس له كبير صورة فيهم ولا صدارة مثلهم، وأبى أن يسلم خاتمه ليفعل به كغيره ختموه بخاتم موافق لاسمه تحت إمضايه، وهذا هو السبب في عدم نقلي هذه الصورة، بل فهمت المضمون فقط، والله ولي التوفيق.

وفي هذه الأيام تخاصم عرب الحويطات والعيايدة، وتجمع الفريقان حول المدينة وتحاربوا مع بعضهم مرارًا وانقطعت السبل بسبب ذلك، وانتصر الباشا للحويطات وخرج بسببهم إلى العادلية، ثم رجع، ثم إنهم اجتمعوا عند السيد عمر النقيب وأصلح بينهم.

شهر رجب (سنة ١٢٢١)

استهل بيوم الأحد، فيه وصل القاضي الجديد، ويسمى عارف أفندي، وهو ابن الوزير خليل باشا المقتول، وانفصل محمد أفندي سعيد خفيد علي باشا المعروف بحكيم أوغلي، وكان إنسانًا لا بأس به مهذبًا في نفسه، وسافر إلى قضا المدينة المنورة من القلزم بصحبة القافلة.

وفي يوم الجمعة سادسه سافر إبراهيم بك ابن الباشا بالهدية، وسافر صحبته محمد أغا لاظ الذي كان سلحدار محمد باشا خسرو.

وفي يوم السبت أرسل الباشا إلى الشيخ عبد الله الشرقاوي ترجمانه يأمره بلزوم داره، وأنه لا يخرج منها ولا إلى صلاة الجمعة؛ وسبب ذلك أمور وضغاين ومنافسات بينه وبين إخوانه كالسيد محمد الدواخلي والسيد سعيد الشامي، وكذلك السيد عمر النقيب فأغروا به الباشا ففعل به ما ذُكر، فامتثل الأمر ولم يجد ناصرًا وأُهمل أمره.

وفيه تواترت الأخبار بوقوع معركة عظيمة بين العسكر والألفي؛ وذلك أن الألفي لم يزل محاصرًا دمنهور، وهم ممتنعون عليه إلى الآن، وسد خليج الأشرفية ومنع الماء عن البحيرة وإسكندرية لضرورة مرور الماء من ناحية دمنهور ليعطل عليهم المراد من

الحصار، فأرسل الباشا بونابرته الخازندار وصحبته عثمان أغا ومعهما عدة كثيرة من العساكر في المراكب، فوصلوا إلى خليج الأشرفية من ناحية الرحمانية، وعليه جماعة من الألفية فحاربوهم حتى أجلوهم عنها.

وفتحوا فم الخليج فجرى فيه الماء، ودخلوا فيه بمراكبهم فسدَّ الألفية الخليج من أعلى عليهم، وحضر شاهين بك فسدَّ مع الألفية فم الخليج بأعدال القطن والمشاق، ثم فتحوه من أسفل فسال الماء في السبخ، ونضب الماء من الخليج، ووقفت السفن على الأرض ووصلتهم الألفية، فأوقعوا معهم وقعة عظيمة، وذلك عند قرية يقال لها: منية القران، فانهزموا إلى سنهور وتحصنوا بها، فأحاطوا بهم واستمروا على محاربتهم حتى افترق الفريقان فيما بعد.

وفيه أيضًا وصلت الأخبار بأن ياسين بك لم يزل يحارب من بمدينة الفيوم حتى ملكها وقتل من بها، ولم ينجُ منهم إلا القليل، وكانوا أرسلوا يستنجدون بإرسال العسكر فلم يلحقوهم.

وفيه وردت الأخبار من الجهة القبلية بأن الأُمرا المصريين أخلوا منفلوط وملوي، وترفعوا إلى أسيوط وجزيرة منقباط وتحصنوا بهما، وذلك لما أخذ النيل في الزيادة، وخشوا من ورود العساكر عليهم بتلك النواحي، فلا يمكنهم التحصن فيها فترفعوا إلى أسيوط.

فلما فعلوا ذلك أشاعوا هروبهم وذكروا أن عابدين بك وحسن بك حارباهم وطرداهم إلى أن هربوا إلى أسيوط، ولما خلت تلك النواحي منهم رجع كاشف منفلوط وملوي وخلافهما الذين كانوا طردوهم في العام الماضي وفروا من مقاتلتهم.

وفيه شرع الباشا في تجهيز عساكر وتسفيرهم إلى جهة بحري وقبلي، وحجزوا المراكب للعسكر فانقطعت سبل المسافرين، وذلك عندما اطمأن خاطره من قضية القبودان والعزل.

وفيه شرع أيضًا في تقريره فرضة عظيمة على البلاد والقرى والتجار ونصارى الأروام والأقباط والشوام، ومساتير الناس ونسا الأعيان والملتزمين وغيرهم، وقدرها ستة آلاف كيس، وذلك برسم مصلحة القبودان وذكروا أنها سلفة لمدة ستة أيام تُرد إلى أربابها ولا صحة لذلك.

وفي ليلة الاتنين وصل كتخدا القبودان إلى ساحل بولاق، فضربوا لقدومه مدافع وعملوا شنكًا وأرسل له في صبحها خيولًا صحبة ابنه طوسون، ومعهم أكابر الدولة

والأغا والوالي والأغوات، فركب في موكب عظيم، ودخلوا به من باب النصر وشق من وسط المدينة، وعمل الباشا الديوان واجتمع عنده السيد عمر والمشايخ المتصدرون ما عدا الشيخ عبد الله الشرقاوي ومن يلوذ به، فسأل عليه القاضي وعلى من تأخر فقيل له: الآن يحضر، ولعل الذي أخَّره ضعفه ومرضه.

ثم إنهم انتظروا باقي الوُجها وأرسلوا لهم جملة مراسيل فلما حضروا قروا المرسوم الوارد صحبة الكتخدا المذكور، ومضمونه: إبقا محمد علي باشا واستمراره على ولاية مصر، حيث إن الخاصة والعامة راضية بأحكامه وعدله بشهادة العُلما وأشراف الناس، وقبلنا رجاهم وشهادتهم، وأنه يقوم بالشروط التي منها طلوع الحج ولوازم الحرمين وإيصال العلايف والغلال لأربابها على النسق القديم، وليس له تعلُّق بثغر رشيد ولا دمياط ولا إسكندرية، فإنه يكون إيرادها من الجمارك يضبط إلى الترسخانة السلطانية بإسلامبول.

ومن الشروط أيضًا أن يُرضي خواطر الأُمرا المصريين، ويمتنع من محاربتهم ويعطيهم جهات يتعيشون بها، وهذا من قبيل تحلية البضاعة.

وانفض المجلس وضربوا مدافع كثيرة من القلعة والأزبكية وبولاق، وأشيع عمل زينة بالبلدة وشرع الناس في أسبابها وبعضهم علق على داره تعاليق، ثم بطل ذلك وطاف المبشرون من أتباعهم على بيوت الأعيان لأخذ البقاشيش، وأذن الباشا بدخول المراكب إلى الخليج والأزبكية، ثم عملوا شنكًا وحراقات وسواريخ ثلاثة أيام بلياليها بالأزبكية.

شهر شعبان (سنة ١٢٢١)

فيه تكلم القاضي مع الباشا في شأن الشيخ عبد الله الشرقاوي والإفراج عنه ويأذن له في الركوب والخروج من داره حيث يريد، فقال: أنا لا ذنب لي في التحجير عليه، وإنما ذلك من تفاقمهم مع بعضهم، فاستأذنه في مصالحتهم فأذن له في ذلك، فعمل القاضي لهم وليمة ودعاهم وتغدوا عنده وصالحهم، وقروا بينهم الفاتحة، وذهبوا إلى دورهم والذي في القلب مستقر فيه.

وفيه وردت الأخبار من الديار الرومية بقيام الرومنلي، وتعصبهم على منع النظام الجديد والحوادث، فوجهوا عليهم عسكر النظام فتلاقوا معهم وتحاربوا فكانت الهزيمة على النظام وهلك بينهم خلايق كثيرة، ولم يزالوا في أثرهم حتى قربوا من دار السلطنة، فترددت بينهم الرسل وصانعوهم وصالحوهم على شروط منها عزل أشخاص من

مناصبهم، ونفي آخرين ومنهم الوزير وشيخ الإسلام والكتخدا والدفتردار، ومنع النظام والحوادث ورجوع الوجاقات على عادتهم، وتقلد أغات الينكجرية الصدارة وأشيا لم تثبت حقيقتها.

وفيه حضر عابدين بك أخو حسن باشا من الجهة القبلية.

وفي عاشره تواترت الأخبار بوقوع وقايع بالناحية القبلية، واختلاف العساكر ورجوع من كان بناحية منفلوط وعصيان المقيمين بالمنية بسبب تأخر علايفهم، ورجع حسن بك باشا إلى ناحية المنية فضرب عليه من بها فانحدر إلى بني سويف.

وفيه حضر إسماعيل الطوبجي كاشف المنوفية باستدعاء، فأرسله الباشا بمال إلى الجهة القبلية ليصالح العساكر.

وفيه وردت الأخبار من ثغر إسكندرية بسفر قبودان باشا وموسى باشا إلى إسلامبول، وأخذ القبودان صحبته طوسون بن محمد علي باشا، وكان نزولهم وسفرهم في يوم السبت خامسه، واستمر كتخدا القبودان بمصر متخلفًا حتى يستغلق مال المصالحة.

وفيه شرعوا في تقرير فرضة على البلاد أيضًا.

وفيه حضر محو بك من ناحية قبلي.

وفي سادس عشره سافر كتخدا القبودان بعدما استغلق المطلوب.

وفيه وصل إلى ثغر بولاق قابجي وعلى يده تقرير لمحمد علي باشا بالاستمرار على ولاية مصر، وخلعة وسيف، فأركبوه من بولاق إلى الأزبكية في موكب حفل وشقوا به من وسط المدينة، وحضر المشايخ والأعيان والاختيارية.

ونصب الباشا سحابه بحوش البيت للجمع والحضور، وقريت المرسومات، وهما فرمانان: أحدهما يتضمن تقرير الباشا على ولاية مصر بقبول شفاعة أهل البلدة والمشايخ والأشراف، والتاني يتضمن الأوامر السابقة وبإجرا لوازم الحرمين وطلوع الحج، وإرسال غلال الحرمين، والوصية بالرعية، وتشهيل غلال قدرها ستة آلاف أردب، وتسفيرها على طريق الشام معونة للعساكر المتوجهين إلى الحجاز.

وفيه الأمر أيضًا بعدم التعرض للأُمرا المصريين، وراحتهم وعدم محاربتهم؛ لأنه تقدم العفو عنهم ونحو ذلك، وانقضى المجلس وضربوا مدافع كثيرة من القلعة والأزبكية.

واستهل شهر رمضان بيوم الأربع (سنة ١٢٢١)

وانقضى بخير، ولم يقع فيه من الحوادث سوى توالي الطلب والفرض والسلف التي لا تُرد، وتجريد العسكر إلى محاربة الألفي، واستمرار الألفي بالبحيرة، ومحاصرة دمنهور واستمرار أهل دمنهور على الممانعة، وصبرهم على المحاصرة وعدم الطاعة مع متاركة المحاربة.

وفيه ورد الخبر بموت عثمان بك البرديسي في أوايل رمضان بمنفلوط، وكذلك سليم بك أبو دياب ببني عدي.

وفي أواخره تقدم محمد علي باشا إلى السيد عمر النقيب بتوزيع جملة أكياس على الناس من مياسير الناس على سبيل السلفة.

واستهل شهر شوال بيوم الجمعة (سنة ١٢٢١)

ولم يقع في شهر رمضان هذا ارتباك في هلالة أولًا وآخرًا، كما حصل فيما تقدم وكذلك حصل به سكون وطمأنينة من عربدة العساكر، لولا توالي الطلب والسلف والدعاوى الباطلة في المدينة والأرياف، وعسف أرباب المناصب في القرى، وعملوا شنكًا للعيد بمدافع كثيرة في الأوقاف الخمسة تلاتة أيام العيد.

وفيه فتحوا طلب الميري على السنة القابلة، وجدُّوا في التحصيل ووجهوا بالطلب العساكر والقواسة والأتراك بالعصي المفضضة وضيقوا على الملتزمين.

وفي عاشره أخرج الباشا خيامًا ونصب عرضي بناحية شبرا ومنية السيرج، والتمس من السيد عمر توزيع أربعماية كيس برأيه ومعرفته، فضاق صدره وشرع في توزيعها على التجار ومساتير الناس، حيث لم يمكنه التخلف ولا التباعد عن ذلك.

وفي يوم الجمعة تاني عشرينه وصل حسن باشا طاهر من الجهة القبلية، ودخل داره وخرج محمد علي باشا إلى جهة الخلا يريد السفر إلى الألفي ووصلت عربان الألفي وعساكره إلى بر الجيزة، وطلبوا الكلف من البلاد.

وفي يوم الأحد رابع عشرينه عدى محمد علي باشا إلى بر إنبابة.

وفي يوم الاتنين خامس عشرينه عدى محمد علي باشا وغالب العسكر إلى بولاق، وأشاعوا أن الأخصام هربوا من وجوههم، فلم يذهبوا خلفهم بل رجعوا على أثرهم، ونهبوا كفر حكيم وما جاوره من القرى حتى أخذوا النسا والبنات والصبيان والمواشي، ودخلوا بهم إلى بولاق والقاهرة، ويبيعونهم فيما بينهم من غير تحاشٍ كأنهم سبايا الكفار.

واستهل شهر القعدة (سنة ١٢٢١) بيوم السبت

ووصل الحجاج الطرابلسية وعدوا إلى بر مصر. وفي يوم الأحد تانيه وصلت قُفل الصعيد من ناحية الجبل، وبها أحمال كثيرة وبضايع مع عرب المعازة وغيرهم فركب الباشا ليلًا وكبسهم على حين غفلة، ونهبهم وأخذ جِمالهم وأحمالهم متاعهم حتى أولاد العربان والنسا والبنات، ودخلوا بهم إلى المدينة يقودونهم أسرى في أيديهم، ويبيعونهم فيما بينهم كما فعلوا بأهل كفر حكيم وما حوله.

وفي ذلك اليوم ضربوا مدافع كثيرة من القلعة بورود أشخاص من الططر، ببشارة إلى الباشا وتقريره على السنة الجديدة.

وفي يوم السبت تامنه أداروا كسوة الكعبة والمحمل، وركب معها المتسفر عليها من القلزم وهو شخص يقال له: محمود أغا الجزيري، وركب أمامه الأغا والوالي والمحتسب وطايفة الدلاة وكثير من العسكر.

وفي يوم الاتنين عاشره وصلت الأخبار بوصول الألفي إلى ناحية الأخصاص، وانتشار جيوشه بإقليم الجيزة وكان الباشا معزومًا ذلك اليوم عند سعودي الحناوي بسوق الزلط وحارة المقس، وركب قبيل العصر وذهب إلى بولاق، وأمر العساكر بالخروج ولا يتخلف أحد لخامس ساعة من الليل، وعدى بمن معه إلى بر إنبابة.

وفي ليلة الأربع وقع بين الألفي والعسكر معركة، وانحاز العسكر وتترسوا بداخل الكفور والبلاد، ووصل منهم جرحى إلى البلد، واستمر الأمر على ذلك وهم يهابون البروز إلى الميدان، وأخصامهم لا يحاربون المتاريس والحيطان.

وفي يوم التلات تامن عشره ركب الألفي بجيوشه وتوجه إلى ناحية قناطر شبرا منت، فلما عاينهم الباشا ومن معه مارين ركب بعسكره من ناحية كفر حكيم وما حوله، وساروا إلى جهة الجيزة ونصب وطاقه بحريها، وباتوا تلك الليلة وعملوا شنكًا في صبحها، وهم يُشيعون هروب الألفي.

والحال أنه مر في جيش كثيف وصورة هايلة، وقد رتب جنوده وعساكره طوابير وبين يديه النظام الذي رتبه على هيئة عسكر الفرنسيس، ومعهم طبول بكيفية خرعت قلوبهم، والباشا واقف بجيوشه ينظر إليه تارة بعينه وتارة بالنظارة، ويقول: هذا طهماز الزمان، ويتعجب، وقال لطايفة الدلاة: تقدموا لمحاربته وأنا أعطيكم كذا وكذا من المال، فلم يجسروا على التقدم لما سبق لهم معه.

وفي يوم الخميس حضر أشخاص من العرب إلى الباشا، وأخبروه بأن الألفي قد مات يوم وصوله إلى تلك المحطة، وذلك ليلة الأربع تاسع عشره، وقد نزل به خلط دموي

فتقايا ثم مات، وذلك بناحية المحرقة بالقرب من دهشور، وأن مماليكه اجتمعوا وأمَّروا عليهم شاهين بك وذلك بإشارة أستاذهم، وأن طايفة أولاد علي انفصلوا عنهم ورجعوا إلى بلادهم وآخرين يطلبون الأمان.

فاشتبه الحال وشاع الخبر وصارت الناس ما بين مصدق ومكذب، واستمر الاشتباه والاضطراب أيامًا حتى إن الباشا خلع على ذلك المُخبر بعد أن تحقق خبره فروة سمور، وركب بها وشق من وسط المدينة، والناس ما بين مصدق ومكذب، ويظنون أن ذلك من مكايده وتحيلات لأمور يدبرها إلى أن حضر بعض الخدم إلى دوره وأخبروا بحقيقة الحال كما ذكره.

فعند ذلك زال الاشتباه، وعد ذلك من تمام سعد محمد علي باشا الدنيوي، حتى إنه قال في مجلس خاصته: الآن ملكت مصر.

ولما مات الألفي ارتحلت أجناده ومماليكه وأُمراه، وارتفعوا إلى ناحية قبلي. فسبحان الحي الذي لا يموت! قال الشاعر:

فقل للشامتين بنا أفيقوا سيلقى الشامتون كما لقينا

ثم إن الباشا أرسل إلى أُمراه مكاتبة يستميلهم ويطلبهم للصلح، ويدعوهم للانضمام إليه، ويعدهم أن يعطيهم فوق مأمولهم ونحو ذلك، وأرسل تلك المكاتبة صحبة قادري أغا الذي كان طرده الألفي ونفاه.

وأخذ محمد علي باشا في الاهتمام والركوب واللحوق بهم.

وفي كل يوم ينادي على العسكر بالمدينة بالخروج، وقوي نشاطهم ورفعوا روسهم وسعوا في قضا أشغالهم وخطفوا الجِمال والحمير، وحضر الباشا إلى بيته بالأزبكية وبات به ليلة الأحد وصرح بسفره يوم الخميس، وخرج إلى العرضي ثانيًا، وطلب السلف والمال ومضى الخميس والجمعة ولم يسافر.

وفي ليلة السبت تاسع عشرينه نزل به حادر وتحرك عنده خلط، وحصل له إسهال وقيء، وأشاع الناس موته يوم السبت وتناقلوه، وكاد العسكر ينهبون العرضي، ثم حصلت له إفاقة وخرج السيد عمر والمشايخ للسلام عليه يوم الأحد، وليهنوه بالعافية، وكذلك خرجوا لوداعه قبل ذلك مرارًا.

وفيه حضر قادري بجوابات الرسالة من أُمرا الألفي، أحدها للباشا وعليه ختم شاهين وباقي خشداشينه الكبار وآخَر خطابًا لمصطفى كاشف أغا الوكيل وعلي كاشف

الصابونجي، ومن كان كاتبهم بالمعنى السابق، يذكرون في جوابهم إن كان سيدهم قد مات وهو شخص واحد، فقد خلَّف رجالًا وأُمرا، وهم على طريقة أستاذهم في الشجاعة والرأي والتدبير ونحو ذلك، وليس كل مدعٍ تسلم له دعواه، ومن أمثال المغاربة «ما كل حمرا لحمة ولا كل بيضا شحمة»، وذكروا في الجواب أيضًا أنه إن اصطلح من كبراهم الكاينين بقبلي، وهم إبراهيم بك الكبير وعثمان بك حسن وباقي أمراهم كنا مثلهم، وإن كان يريد صلحنا دونهم فيعطينا ما كان يطلبه أستاذنا من الأقاليم ونحو ذلك.

واستهل شهر ذي الحجة بيوم الاثنين (سنة ١٢٢١)

فيه ارتحل الباشا بالعرضي إلى ساقية مكي بالجيزة متوجهًا لقبلي.

وفيه طلبوا المراكب من كل ناحية وعز وجودها، وامتنعت الواردون ومراكب المعاشات والتجارات، مع استمرار الطلب للمغارم والسلف ونحو ذلك.

وفي منتصفه وردت مكاتبات من وزير الدولة العثمانية، وفيها الخبر بوقوع الغزو بين العثماني والموسكوب، والأمر بالتيقظ والتحفظ وتحصين الثغور، فربما أغاروا على بعضها على حين غفلة.

وكذلك وردت أخبار بمعنى ذلك من حاكم أزمير وحاكم رودس، وأن الإنكليز معاونون لطايفة الموسكوب لاستمرار عداوتهم مع الفرنساوية، ولكون الفرانساوية متصادقين مع العثماني.

والخبر عن مجمل القضية أن بونابارته أمير جيش الفرنساوية وعساكرهم خرجوا في العام الماضي، وأغاروا على القرانات والممالك الإفرنجية، واستولوا على النمسا التي هي أعظم القرانات وبينهم وبين الموسكوب مصادقة ونسب، فأرسل الموسكوب جندًا كثيفًا مساعدة للنيمساويه مع كبير من قرابة قرابتهم، فتلاقوا مع بونابارته بعد استيلاه على تخت النيمسة فهزمهم أيضًا وأسر عظماهم، وسار بجيوشه إلى الروسية واستولى على عدة أماكن.

وكلما استولى على جهة قرر بها حكامها، وشرط عليهم شروطه التي منها معاداة الإنكليز ومنابذتهم.

وراسله العثماني وراسله هو أيضًا، ورأى العثماني قوة بأسه فصادقه، وأرسل إليه من طرفه إلجي إلى إسلامبول، فدخلها في أهبة عظيمة وأنزلوه منزلًا حسنًا، وأرسل

صحبته هدايا، وقوبل بأعظم منها، وكذلك أرسل إلى خصوص بونابارته تحفًا وهدايا وتاجًا من الجوهر.

فعند ذلك انتبذ الموسكوب ونقض الهدنة بينه وبين العثماني، وطلب المحاربة فخافه العثماني لما يعلمه منه من القوة والكثرة، وسعى الإنكليز بينهما بالصلح، واجتهد في ذلك حتى أمضاه بشروط قبيحة، وصلت إلينا صورتها وظهر لنا منها اثنا عشر شرطًا، ونصها:

الأول: أن أُمرا القلاع والبغازات يحتاج يتغيرو بإذن الإنكليز والموسكوب.

التاني: مشيخة السبع جزاير من الآن فصاعدًا لا تكون تابعة غير الموسكوب.

التالت: تعريفة الديوان في بلاد العثماني هي التي كانوا يأخذونها قبل النظام الجديد.

الرابع: الدولة العلية تسمح للموسكوب في طريق ثلثماية ألف مقاتل يدخلون إلى أي محل أرادوه من بلاد العثماني، وذلك مدة اتفاق الإنكليز والموسكوب وهو تسع سنين.

الخامس: يكون مسموحًا لعمارة الموسكوب أنها تدخل لمينة الترسخانة بإسلامبول لأجل أنهم يأخذون من هناك كامل الذي يلزمهم.

السادس: جميع الرعايا والحمايات الذي للموسكوب من جديد وقديم لهم الإقامة والتجارة، وشِرا الأملاك في كامل بلاد العثماني.

السابع: كامل مراكب الموسكوب التجاري، التي كانوا عن بعض الأسباب نزلوا بيارقها يقدرون أن يتوجهوا بها إلى قنصولية الموسكوب بإسلامبول، وحالًا تعطى لهم بطانات جديدة.

التامن: كامل الأروام الموجودين في بلاد العثماني، ويريدون أن يدخلوا في حماية الموسكوب يمكنهم بكل حرية.

التاسع: البراتلية والقرمانلية يحصلون على قوتهم التي كانوا بها سابقًا.

العاشر: إلجي الفرنساوية ملزوم يسافر من إسلامبول بعد واحد وتلاتين يومًا.

الحادي عشر: مراكب الأروام والعثماني لم يسافروا لبلاد فرنسا، ما دام الحرب بين الموسكوب والفرنساوية.

فلما تقررت هذه الشروط واطلع عليها الفرنساوي، فكأنه لم يرضَ بها وقال للعثماني: لم يبقَ بيدك مملكة، وأشار عليه بنقضها، وتكفل بمساعدته ومقاومتهم فركن

إليه ونقض تلك الشروط، فعند ذلك نبذوا صداقة العثماني وأظهروا مخاصمته ووافقهم على ذلك الإنكليز، لكونه صادق الفرنساوية. وأغاروا على بعض النواحي وأخذوا الختن وغيرها.

وشرع أهل إسكندرية في تحصين قلاعها وأبراجها، وكذلك أبو قير أرسل كتخدا بك من يتقيد ببنا قلعة بالبرلس.

وحصل لمصر قلق ولغط وغلت الأسعار في البضايع المجلوبة، وعملوا جمعيات ببيت كتخدا بك وببيت السيد عمر النقيب، واتفقوا على إرسال تلك المراسلات إلى محمد علي باشا بالجهة القبلية صحبة ديوان أفندي.

وفي عشرينه اجتمعوا بالأزهر لقراءة صحيح البخاري في أجزاء صغار.

وفيه حضر ديوان أفندي بمكاتبات، وفيها طلب جماعة من الفُقها ليسعوا في إجرا الصلح بين الأُمرا المصريين وبين الباشا، فوقع الاتفاق على تعيين ثلاثة أشخاص، وهم: ابن الشيخ الأمير، وابن الشيخ العروسي، والسيد محمد الدواخلي، فسافروا في يوم الأحد سادس عشرينه.

ووصلت الأخبار بأن الإنكليز حضروا في اثني عشر مركبًا، وعبروا بغاز إسلامبول وكانوا محترسين، فضربوا عليهم بالمدافع من الجهتين فلم يكترثوا ولم يفزعوا ولم يتأخروا ولم يُصب الضرب إلا مركبًا واحدًا من الاثني عشر، وعمروا ثلمتها في الحال، ولم يزالوا سايرين حتى رسوا ببر إسلامبول، فهاج كل أهلها وصرخوا وانزعجوا انزعاجًا عظيمًا، وأيقنوا بأخذ الإنكليز البلدة، ولو أرادوا حرقها لأحرقوها عن آخرها، فعند ذلك نزل إليهم السيد علي باشا القبطان، وهو أخو علي باشا الذي كان أخذ يسير مع البرديسي من برج مغيزل برشيد، فتكلم معهم وصالحهم وخرجوا من البغاز سالمين مغبوطين بعفوهم مع المقدرة، وانقضت السنة بحوادثها.

وأما من مات بها من العُلما والأُمرا ممن له ذكر

مات العمدة الفاضل صدر المدرسين وعمدة المحققين الفقيه الورع الشيخ محمد الخشني الشافعي، تخرج على الشيخ عطية الأجهوري وغيره من أشياخ العصر المتقدمين كالحفني والعدوي، ومسكنه بخطة السيدة نفيسة، ويأتي إلى الأزهر في كل يوم فيقرا دروسه ثم يعود إلى داره، متقللًا في معيشته منعزلًا عن مخالطة غالب الناس، وهو آخر الطبقة.

وتمرض شهورًا بمنزله الذي بالمشهد النفيسي، وكان دايمًا يسأل عن الشيخ سليمان البجيرمي، وكان يقول: لا أموت حتى يموت البجيرمي؛ لأنه رأى النبي ﷺ في المنام وقال له: «أنت آخر أقرانك موتًا»، ولم يكن من أقرانه سوى البجيرمي؛ فلذلك كان يسأل عنه، ثم مات البجيرمي بقرية تسمى مصطية، ومات هو بعده بنحو ثلاثة أشهر، وكانت وفاته في يوم الاتنين خامس عشرين ذي الحجة، ولم يحضروا بجنازته إلى الأزهر، بل صُلي عليه بالمشهد النفيسي، ودُفن هناك — رحمة الله تعالى عليه.

مات الشيخ الفقيه المحدث خاتمة المحققين وعمدة المدققين، بقية السلف وعمدة الخلف الشيخ سليمان بن محمد بن عمر البجيرمي الشافعي الأزهري، المنتهي نسبه إلى الشيخ جمعة الزيدي المدفون ببجيرم بالقرب من منية ابن خصيم.

وينتهي نسب الشيخ جمعة المذكور إلى سيدي محمد بن الحنفية. وُلد ببجيرم قرية من الغربية سنة إحدى وتلاتين ومائة وألف، وحضر إلى مصر صغيرًا دون البلوغ وربَّاه قريبه الشيخ موسى البجيرمي، وحفظ القرآن ولازم الشيخ المذكور حتى تأهل لطلب العلوم.

وحضر على الشيخ العشماوي في الصحيحين وأبي داود والترمذي والشفا والمواهب، وشرح المنهج لشيخ الإسلام وشرحَي المنهاج لكلٍّ من الرملي وابن حجر، وحضر دروس الشيخ الحفني وأجازه الملوي والجوهري والمدابغي، وأخذ عن الديربي وغيره، وحضر أيضًا دروس الشيخ علي الصعيدي والسيد البليدي، وشارك كثيرًا من الأشياخ كالشيخ عطية الأجهوري وغيره.

وكان إنسانًا حسنًا حميد الأخلاق منجمعًا عن مخالطة الناس مقبلًا على شأنه، وقد انتفع به أناس كثيرون وكف بصره سنينًا، وعَمَّرَ وتجاوز المائة سنة.

ومن تآليفه بأيدي الطلبة حاشية على المنهج وأخرى على الخطيب وغير ذلك، وقبل وفاته سافر إلى مصطية بالقرب من بجيرم، فتُوُفِّيَ بها ليلة الاتنين وقت السحر تالت عشر رمضان من السنة المذكورة، ودُفن هناك — رحمة الله تعالى عليه.

ومات الأجل العلامة والفاضل الفهامة فريد عصره علمًا وعملًا، ووحيد دهره تفضيلًا وجملًا الشيخ مصطفى العقباوي المالكي نسبة لمنية عقبة بالجيزة، وحضر إلى الأزهر صغيرًا ولازم السيد حسنًا البقلي، ثم الشيخ محمد العقاد المالكي، ثم الشيخ محمد عبادة العدوي ملازمة كلية حتى تمهر في مذهبه في المنقولات وفي المعقولات، وحضر دروس أشياخ العصر، كالشيخ الدردير والشيخ محمد البيلي والشيخ الأمير وغيرهم، وتصدر لإلقاء الدروس وانتفع به الطلبة، واشتُهر فضله.

وكان إنسانًا حسن الأخلاق مقبلًا على الإفادة والاستفادة، لا يتداخل فيما لا يعنيه، ويأتيه من بلدته ما يكفيه قانعًا متورعًا متواضعًا، ومن مناقبه أنه كان يحب إفادة العوام، حتى إنه كان إذا ركب مع المكاري يعلمه عقايد التوحيد وفرايض الصلاة، إلى أن تُوُفِّيَ يوم الخميس تاسع عشر جمادى الآخرة، ولم يخلف بعده مثله — رحمه الله تعالى وعفا عنا وعنه.

ومات الأجل المعظم المبجل المحقق المدقق المفضل العالم العامل الفاضل الكامل الشيخ علي النجاري المعروف بالقباني، الشافعي مذهبًا المكي مولدًا المدني أصلًا، ابن العالم الفاضل الشيخ أحمد تقي الدين ابن السيد تقي الدين المنتهي نسبه إلى أبي سعيد الخدري، وهو سعد بن مالك بن دينار بن تيم الله بن ثعلبة النجاري أحد بطون الخزرج، وينتهي نسب أخواله إلى السيد أحمد الناسك بن عبد الله بن إدريس بن عبد الله بن حسن الأنور ابن سيدنا الحسن السبط — رضي الله تعالى عنه.

وُلد المترجم بمكة سنة أربع وتلاتين وماية، وقدم إلى مصر مع أبيه وأخيه السيد حسن سنة إحدى وسبعين ماية، فليلة وصولهم مرض أخوه المذكور وتُوُفِّيَ صبح تالت يوم؛ فجزع والده لذلك جزعًا شديدًا وتشاءم به، وعزم على السفر إلى مكة تانيًا، ولم يتيسر له ذلك إلا أواخر شوال من السنة المذكورة، وبقي المترجم واشتغل بتحصيل العلوم وشِرا الكتب النافعة، واستكتابها ومشاركة أشياخ العصر في الإفادة والاستفادة، مع مباشرة شغل تجارتهم من بيع الإرساليات التي ترد إليه من أولاد أخيه من جدة ومكة، وشِرا ما يُشترى وإرساله لهم إلى أن تمرض وانقطع ببيته الذي بخطة عابدين قريبًا من الأستاذ الحنفي سنة تسع ومايتين.

وكان عالمًا ماهرًا وأديبًا شاعرًا تخرَّج على والده وعلى غيره بمكة، وعلى كثير من أشياخ العصر المتقدمين كالشيخ العشماوي والشيخ الحفني والشيخ العدوي وغيرهم، وتخرج في الأدب على والده وعلى الشيخ علي بن تاج الدين المكي، وعلى الشيخ عبد الله الإدكاوي وغيرهم، وله مؤلفات منها: نفح الأكمام على منظومته في علم الكلام، ومنها تقريره على الرملي وهو مجلد ضخم، ومنها شرح بديعيته التي سماها مراقي الفرج في مدح عالي الدرج، وله ديوان شعر صغير غالبه جيد.

وكان في مدة انقطاعه لا يشتغل بغير المطالعة وتحصيل الكتب الغريبة، وقيد ولده السيد سلامة بأشغال تجارتهم، وولده السيد أحمد بملازمته وإسماعه فيما يريد مطالعته.

وكانت داره في غالب الأوقات لا تخلو من المترددين، إلى أن تُوُفِّيَ ليلة السابع والعشرين من رجب من السنة المذكورة، وعمره سبع وثمانون سنة، وصُلي عليه بالأزهر ودُفن بمقبرة أخيه بباب الوزير وخلَّف ولديه المذكورين، وكان وجيهًا لطيفًا محبوبًا للنفوس ورعًا — رحمة الله تعالى عليه.

ومات صاحبنا الأجل المعظم والوجيه المكرم الأمير ذو الفقار البكري نسبة ونسابة، وهو مملوك السيد محمد بن علي أفندي البكري الصديقي، اشتراه سيده المذكور عام إحدى وسبعين وماية وألف وربَّاه وأدَّبه، وأعتقه وزوَّجه ابنته، ونشأ في عز ورفاهية وسيادة وعفة وطيب خيم وعلو همة.

ولما تُوُفِّيَ سيده اتحد بولد السيد محمد أفندي وهو أخو زوجته اتحادًا كليًّا؛ بحيث صارا كالأخوين لا يصبر أحدهما عن الآخر ساعة واحدة، وسكنهما واحد في بيتهم الكبير بالأزبكية.

ولما تُوُفِّيَ السيد محمد أفندي اشتغل المترجم بالسكنى في الدار إلى أن حضر الفرنساوية، فخرج مع من خرج من مصر إلى ناحية الشام ونُهبت كتبه وداره. ثم رجع بأمان في أيام الفرنساوية، فوجد الدار قد سكنها الفرنساوية، فاشترى دارًا غيرها بخطة عابدين وجدد بها نظامه.

ولما حصلت حادثة عسكر الأروام العثمانية مع الأُمرا المصريين التي خرج فيها إبراهيم بك والبرديسي وأمراهم، نُهبت داره المذكورة أيضًا فيما نُهب، فانتقل إلى ناحية الأزهر ثم سكن بحارة السبع قاعات بالأجرة، واقتنى كتبًا شرا واستكتابًا، وجمع عدة أجزاء متفرقة من تاريخ مرآة الزمان لابن الجوزي، وخطط المقريزي وغيرها، إلى أن اخترمته المنية.

ومات فجأة يوم التلات في تاني عشر رجب من السنة قبيل الغروب، وصُلي عليه في صبحها بالأزهر في مشهد حافل، ودُفن بتربة البكرية ظاهر قبة الإمام الشافعي.

وكان إنسانًا حسنًا محبوبًا لجميع الناس وجيه الذات مليح الصفات حسن المفاكهة والمعاشرة، متوقد الفطنة صادق الفراسة ساكن الجاش وقورًا أدوبًا محتشمًا.

وخلف من بعده السيد محمد المعروف بالغزاوي المرزوق له من ابنة سيده المذكور؛ لكونه وُلد بغزة حين كانوا بالشام، أنشاه الله إنشاءً صالحًا وبارك فيه.

ومات الأمير الكبير والضرغام الشهير محمد بك الألفي المرادي، جلبه بعض التجار إلى مصر في سنة تسع وثمانين وماية وألف، فاشتراه أحمد جاويش المعروف بالمجنون،

فأقام ببيته أيامًا فلم تعجبه أوضاعه لكونه كان مماجنًا سفيهًا ممازحًا؛ فطلب منه بيع نفسه فباعه لسليم أغا الغزاوي المعروف بتمرلنك، فأقام عنده شهورًا ثم أهداه إلى مراد بك فأعطاه في نظيره ألف أردب من الغلال؛ فلذلك سُمي بالألفي، وكان جميل الصورة فأحبه مراد بك وجعله جوخداره، ثم أعتقه وجعله كاشفًا بالشرقية وعمَّر دارًا بناحية الخطة المعروفة بالشيخ ضلام، وأنشأ هناك حمامًا بتلك الخطة عرفت به.

وكان صعب المِراس قوي الشكيمة، وكان بجواره علي أغا المعروف بالتوكلي، فدخل عليه وتشفع عنده في أمر فقبل رجاه ثم نكث فحنق منه واحتد ودخل عليه في داره يغادره ويعاتبه، فرد عليه بغلظة فأمر الخدم بضربه، فبطحوه وضربوه بالعصي المعروفة بالنبابيت فتألم لذلك ومات بعد يومين.

فشكوه إلى أستاذ مراد بك فنفاه إلى بحري، فعسف بالبلاد مثل فوة ومطوبس وبارنبال ورشيد، وأخذ منهم أرزًا وأموالًا فتشكوا منه إلى أستاذه، وكان يعجبه ذلك.

وفي أثنا ذلك وقع خلاف بمصر بين الأُمرا، ونفوا سليمان بك الأغا وأخاه إبراهيم بك ومصطفى بك، كما ذُكر ذلك في محله، وأرسل إليه مراد بك وأمره أن يتعين علي مصطفى بك، ويذهب به إلى إسكندرية منفيًّا، ثم يعود هو إلى مصر، ففعل ورجع المترجم إلى مصر فعند ذلك قلدوه الصنجقية، وذلك في سنة اتنين وتسعين وماية وألف.

واشتهر بالفجور فخافته الناس وتحاموا شدته.

وسكن أيضًا بدار بناحية قيصون، وذلك عندما اتسعت دايرته وهدم داره القديمة أيضًا، ووسعها وأنشاها إنشا جديدًا واشترى المماليك الكثيرة، وأمَّر منهم أُمرا وكشافًا فنشوا على طبيعة أستاذهم في التعدي والعسف والفجور، ويخافون من تجبره عليهم.

والتزم بإقطاع فرشوط وغيرها من البلاد القبلية، ومن البلاد البحرية محلة دمنة ومليج وزوير وغيرها، وتقلد كشوفية شرقية بلبيس ونزل إليها، وكان يُغِير على ما بتلك الناحية من إقطاعات وغيرها.

وأخاف جميع عربان تلك الجهة وجميع قبايل الناحية، ومنعهم من التعدي والجور على الفلاحين بتلك النواحي حتى خافه الكثير من العربان والقبايل، وكانوا يخشونه وصادهم بإشراك منهم، وقبض على الكثير من كبراهم وسحبهم في الجنازير، وصادرهم في أموالهم ومواشيهم، وفرض عليهم المغارم والجمال.

ولم يزل على حالته وسطوته إلى أن حضر حسن باشا الجزايرلي إلى مصر، فخرج المترجم مع عشيرته إلى ناحية قبلي، ثم رجع معهم في أواخر سنة خمس ومايتين بعد

الألف، بعد الطاعون الذي مات فيه إسماعيل بك وذلك بعد إقامتهم بالصعيد زيادة عن أربع سنوات.

ففي تلك المدة ترزن عقله وانهضمت نفسه، وتعلق قلبه بمطالعة الكتب والنظر في جزيئات العلوم والفلكيات والهندسيات، وأشكال الرمل والزايرجات والأحكام النجومية، والتقاويم ومنازل القمر وأنواها، ويسأل عمن له إلمام بذلك فيطلبه ليستفيد منه، واقتنى كتبًا في أنواع العلوم والتواريخ واعتكف بداره القديمة ورغب في الانفراد وترك الحالة التي كان عليها قبل ذلك، واقتصر على مماليكه والإقطاعات التي بيده.

واستمر على ذلك مدة من الزمان فثقل هذا الأمر على أهل دايرته، وبدأ يصغر في أعين خشداشينه ويضعف جانبه، وطفقوا يباكتونه، وتجاسروا عليه وطمعوا فيما لديه، وتطلع أدونهم للترفع عليه، فلم يسهل به ذلك، واستعمل الأمر الأوسط.

وسكن بدار أحمد جاويش المجنون بدرب سعادة، وعمَّر القصر الكبير بمصر القديمة بشاطي النيل تجاه المقياس، وأنشا أيضًا قصرًا فيما بين باب النصر والدمرداش وجعل غالب إقامته فيهما.

وأكثرَ مِن شِرا المماليك وصار يدفع فيهم الأموال الكثيرة للجلابين، ويدفع لهم أموالًا مقدمًا يشترونهم بها، وكذلك الجواري حتى اجتمع عنده نحو الألف مملوك خلاف الذي عند كشافه، وهم نحو الأربعين كاشفًا، الواحد منهم دايرته قدر دايرة صنجق من الأُمرا السابقين، وكل مدة قليلة يزوج من يختاره من مماليكه لمن تصلح له من الجواري ويجهزهم بالجهاز الفاخر، ويسكنهم الدور الواسعة ويعطيهم الفايظ والمناصب، وقلد كشوفية الشرقية لبعض مماليكه ترفعًا لنفسه عن ذلك، وينزل هو إليهم أيضًا على سبيل التروح.

وبنى له قصرًا خارج بلبيس وآخر بالدمامين، وأخمد شوكة عربان الشرق، وجبى منهم الأموال والجمال وأخمد ناموسهم الذي كان يغشى أبدان الفلاحين وأرواحهم، وأضعف شوكتهم وأخفى صوتهم، وكان يقيم بناحية الشرق شهورًا ثلاثة أو أربعة ثم يعود إلى مصر.

واصطنع قصرًا من خشب مفصلًا قطعًا ويركب بشناكل وأغربة متينة قوية يُحمل على عدة جمال، فإذا أراد النزول في محطة تقدم الفراشون وركبوه خارج الصيوان، فيصير مجلسًا لطيفًا يصعد إليه بثلاث درج مفروش بالطنافس والوسايد، يسع ثمانية أشخاص وهو مسقوف وله شبابيك من الأربع جهات تفتح وتغلق بحسب الاختيار، وحوله الأسرة من كل جانب، وكل ذلك من داخل دهليز الصيوان.

وكان له داران بالأزبكية إحداهما كانت لرضوان بك بلفيا والأخرى للسيد أحمد بن عبد السلام، فبدا له في سنة اثنتي عشرة ومايتين وألف أن ينشي دارًا عظيمة خلاف ذلك بالأزبكية، فاشترى قصر ابن السيد سعودي الذي بخطة الساكن فيما بينه وبين قنطرة الدكة من أحمد أغا شويكار وهدمه، وأوقف في شيادته على العمارة كتخدا ذا الفقار أرسله قبل مجيه من ناحية الشرقية، ورسم له صورة وضعه في كاغد كبير، فأقام جدرانه وحيطانه وحضر هو في أثنا ذلك، فوجده قد أخطا الرسم فاغتاظ وهدم غالب ذلك وهندسه على مقتضى عقله واجتهد في بناه، وأوقف أربعة من كبار أُمراه على تلك العمارة، كل أمير في جهة من جهاته الأربع يحثون الصناع، ومعهم أكثر أتباعهم ومماليكهم وعملوا عدة قمن لحرق الأحجار، وعمل النورة وكذلك ركب طواحين الجبس لطحنه، وكل ذلك بجانب العمارة وقطعوا الأحجار الكبار ونقلوها في المراكب من طرا إلى جانب العمارة بالأزبكية، ثم نشروها بالمناشير ألواحًا كبارًا لتبليط الأرض وعمل الدرج والفسحات، وأحضروا لها الأخشاب المتنوعة من بولاق وإسكندرية ورشيد ودمياط.

واشترى بيت حسن كتخدا الشعراوي المطل على بركة الرطلي من عتقاه وهدمه، ونقل أخشابه وأنقاضه إلى العمارة، وكذلك نقلوا إليه أنواع الرخام والأعمدة، ولم يزل الاجتهاد في العمل تم على المنوال الذي أراده ولم يجعل له خرجات ولا حرمدانات بارزة عن أصل البنا ولا رواشن، بل جعله ساذجًا حرصًا على المتانة وطول البقا، ثم ركبوا على فرجاته المطلة على البركة والبستان والرجبة الشبابيك الخرط المصنعة، وركبوا عليها شرايح الزجاج ووضع به النجف والأشيا والتحف العظيمة التي أهداها إليه الإفرنج، وعملوا بقاعة الجلوس السفلى فسقية عظيمة بسلسبيل من الرخام قطعة واحدة، ونوفرة كبيرة حولها نوفرات من الصفر يخرج الماء من أفواهها، وجعل بها حمامين علويًّا وسفليًّا، وبنوا بداير حوشه عدة كبيرة من الطباق لسكنى المماليك، وجعله دورًا واحدًا.

ولما تم البنا والبياض والدهان فرشه بأنواع الفرش والوسايد والستاير المقصبات، وجعل خلفه بستانًا عظيمًا وأنشأ به جملونًا مستطيلًا متسعًا به دكك وأعمدة، وهو من الجهة البحرية ينتهي آخره إلى الدور المتصلة بقنطرة الدكة، وأهدى إليه أيضًا الإفرنج فسقية رخام في غاية العظم فيها صورة أسماك مصورة يخرج من أفواهها الماء جعلها بالبستان، ونجز البنا والعمل وسكن بها هو وعياله وحريمه في آخر شهر شعبان من سنة اثنتي عشرة، واستهل شهر رمضان فأوقدوا فيها الوقدات والأحمال المتلية بالقناديل بداير الحوش والرحبة الخارجة، وكذلك بقاعة الجلوس أحمالًا النجف

والشموع والصحب والفتيارات الزجاج، وهنته الشعرا ونظم مولانا الأستاذ الفاضل الشيخ حسن العطار تاريخًا لقاعة الجلوس في بيتين، نقشوها بالأزمير على أسكفة باب القاعة وموَّهوهما بالذهب، وهما:

شموس التهاني قد أضاءت بقاعة   محاسنُها للعين تزداد بالألف
على بابها قال السرور مؤرخًا   سماء سعادتي تجدد بالألفي

وازدحمت خيول الأُمرا ببابه فأقام على ذلك إلى منتصف شهر رمضان.

وبدا له السفر إلى الشرقية، فأبطلوا الوقدة وأطفوا السرج والشموع، فكان ذلك فالًا سيئًا، فكانت مدة سكناه ستة عشر يومًا بلياليها.

وإنما أطنبنا في ذكر ذلك ليعتبر أولو الألباب ولا يجتهد العاقل في تعمير الخراب.

وفي أثنا غيبته بالشرقية وصلت الفرنساوية إلى إسكندرية ثم إلى مصر، وجرى ما جرى مما سبق ذكره، وذهب مع عشيرته إلى قبلي، وعند وصول الفرنساوية إلى بر إنبابة بالبر الغربي، وتحاربوا مع المصريين أبلى المترجم وجنده في تلك الواقعة بلاءً حسنًا، وقتل من كشافه ومماليكه عدة وافرة، ولم يزل مدة إقامة الفرنساوية بمصر ينتقل في الجهات القبلية والبحرية والشرقية والغربية، ويعمل معهم مكايد ويصطاد منهم بالمصايد.

ولما وصل عرضي الوزير إلى ناحية الشام ذهب إليه وقابله، وأنعم عليه وكان معه رويسا من الفرنساوية وعدة أسرى وأسد عظيم اصطاده في سروحه، فشكره الوزير وخلع عليه الخلع السنية، وأقام بعرضيه أيامًا ثم رجع إلى ناحية مصر وذهب إلى الصعيد، ثم رجع إلى الشام والفرنساوية يأخذون خبره ويرصدونه في الطرق فيزوغ منهم ويكبسهم في غفلاتهم، وينال منهم، ولما وصل الوزير وحصل انتقاض الصلح وانحصر المصريون والعثمانيون بداخل المدينة وقع له مع الفرنساوية الوقايع الهايلة، فكان يكر ويفر هو وحسن بك الجداوي ويعمل الحيل والمكايد.

وقتل من كشافه في تلك الحروب رجال معدودة، منهم إسماعيل كاشف المعروف بأبي قطية، احترق هو وجنده ببيت أحمد أغا شويكار الذي كان أنشاه برصيف الخشاب، وكانت الفرنساوية قد عملوا تحته لغم بارود في أسفل جدرانه، ولم يعلم به أحد فلما تترس فيه إسماعيل كاشف ومن معه أرسلوا من ألهمه النار، فالتهبت على من فيه واحترقوا بأجمعهم وتطايروا في الهوا.

ولما اصطلح مراد بك مع الفرنساوية لم يوافقه على ذلك واعتزله، ولما اشتد الأمر بين الفريقين وشاطت طبخة العثمانيين ومن تبعهم، طفق يسعى بين الفريقين في الصلح ويمشي مع رسل الفرنساوية في دخولهم بين العسكر وخروجهم؛ ليمنع من يتعدى عليهم من أوباش العسكر؛ خوفًا من ازدياد الشر إلى أن تم الصلح.

وخرج المترجم مع العثمانية إلى نواحي الشام، ثم رجع إلى جهة الشرقية فيحارب من يصادقه من الفرنسيس ويقتل منهم، فإذا جمعوا جيشهم وأتوا لحربه لم يجدوه، ويمر من خلف الجبل ويمر بالحاجر إلى الصعيد، فلا يعلم أين ذهب بالبر الغربي ثم يسير مشرقًا ويعود إلى الشام، وهكذا كان دأبه بطول السنة التي تخللت بين الصلحين إلى أن نظم العثمانية أمرهم، وتعاونوا بالإنكليز ورجع الوزير على طريق البر وقبطان باشا بصحبة الإنكليز من البحر، فحضر المترجم وباقي الأُمرا واستقر الجميع بداخل مصر والإنكليز ببر الجيزة، وارتحلت الفرنساوية وخلت منهم مصر، فعند ذلك قلق المترجم وداخله وسواس وفكر؛ لأنه كان صحيح النظر في عواقب الأمور فكان لا يستقر له قرار ولم يدخل إلى الحريم، ولم يبت بداره إلا ليلتين على سجادة ومخدة في القاعة السفلى ولم يكن بها حريم.

يقول الفقير: ذهبت إليه مرة في ظرف اليومين فوجدته جالسًا على السجادة فجلست معه ساعة، فدخل عليه بعض أُمراه يستأذنه في زواج إحدى زوجات من مات من خشداشينه، فنتر فيه وشتمه وطرده وقال لي: انظر إلى عقول هولا المغفلين يظنون أنهم استقروا بمصر، ويتزوجوا ويتأهلوا مع أن جميع ما تقدم من حوادث الفرنسيس وغيرها أهون من الورطة التي نحن فيها الآن.

ولما أطلق الوزير لإبراهيم بك الكبير التصرف، وألبسه خلعة وجعله شيخ البلد كعادته وأن أوراق التصرفات في الإقطاعات والأطيان وغيرها تكون بختمه وعلامته، اغتر هو وباقي الأُمرا بذلك، وازدحم الديوان ببيت إبراهيم بك المرادي وعثمان بك حسن والبرديسي، وتناقلوا في الحديث فذكروا ملاطفة الوزير ومحبته لهم وإقامته لناموسهم، فقال المترجم: لا تغتروا بذلك فإنما هي حيل ومكايد، وكأنها تروج عليكم، فانظروا في أمركم وتفطنوا لما عساه يحصل، فإن سو الظن من الحزم، فقالوا له: وما الذي يكون؟ قال: إن هولا العثمانيين لهم السنين العديدة والأزمان المديدة يتمنون نفوذ أحكامهم وتملكهم لهذا الإقليم، ومضت الأحقاب وأُمرا مصر قاهرون لهم وغالبون عليهم ليس لهم معهم إلا مجرد الطاعة الظاهرة، وخصوصًا دولتنا الأخيرة وما كنا نفعله معهم

من الإهانة ومنع الخزينة، وعدم الامتثال لأوامرهم، وكل ذلك مكمون في نفوسهم زيادة على ما جُبلوا عليه من الطمع والخيانة والشره، وقد ولجوا البلاد الآن وملكوها على هذه الصورة، وتأمروا علينا، فلا يهون بهم أن يتركوها لنا كما كانت بأيدينا، ويرجعوا إلى بلادهم بعدما ذاقوا حلاوتها، فدبروا رأيكم وتيقظوا من غفلتكم.

فلما سمعوا منه ذلك صادق عليه بعضهم، وقال بعضهم: هذا من وساوسك، وقال آخر: هذا لا يكون بعدما كنا نقاتل معهم ثلاث سنوات وأشهُر بأموالنا وأنفسنا، وهم لا يعرفون طرايق البلاد ولا سياستها، فلا غنًى لهم عنا وقال آخر غير ذلك، ثم قالوا له: ما رأيك الذي تراه؟ فقال: الرأي عندي إن قبلتموه أن نعدي بأجمعنا إلى بر الجيزة وننصب خيامنا هناك، ونجعل الإنكليز واسطة بيننا وبين الوزير والقبطان، ونتمم الشروط التي نرتاح نحن وهم عليها بكفالة الإنكليز، ولا نرجع إلى البر الشرقي ولا ندخل مصر حتى يخرجوا منها، ويرجعوا إلى بلادهم ويبقى منهم من يبقى مثل من يقلدوه الولاية والدفتردار ونحو ذلك.

وكان ذلك هو الرأي، ووافق عليه البعض ولم يوافق البعض الآخر، وقال: كيف ننابذهم ولم يظهر لنا منهم خيانة، ونذهب إلى الإنكليز وهم أعدا الدين؛ فيحكم العُلما بردتنا وخيانتنا لدولة الإسلام، على أنهم إن قصدوا بنا شيًّا قمنا بأجمعنا عليهم، وفينا ولله الحمد الكفاية وعند ذلك تتوسط بيننا وبينهم الإنكليز، فنكون لنا المندوحة والعذر؟

فقال المترجم: أما الاستنكاف من الالتجا للإنكليز، فإن القوم لم يستنكفوا من ذلك واستعانوا بهم، ولولا مساعدتهم لما أدركوا هذا المحصول ولا قدروا على إخراج الفرنساوية من البلاد، وقد شاهدنا ما حصل في العام الماضي لما حضروا بدون الإنكليز، على أن هذا قياس مع الفارق فإن تلك مساعدة حرب، وأما هذه فهي وساطة مصلحة لا غير، وأما انتظار حصول المنابذة، فقد لا يمكن التدارك بعد الوقوع لأمور، والرأي لكم فسكتوا وتفرقوا على كتمان ما دار بينهم.

ولما لم يوافقوا المترجم على ما أشار به عليهم أخذ يدبر في خلاص نفسه؛ فانضم إلى محمود أفندي ريس الكتاب لقربه من الوزير، وقبوله عنده وأوهمه النصيحة للوزير بتحصيل مقادير عظيمة من الأموال من جهة الصعيد، إن قلده الوزير إمارة الصعيد، فإنه يجمع له أموالًا جمة من تركات الأغنيا الذين ماتوا بالطاعون في العام الماضي وخلافه ولم يكن لهم ورثة، وغير ذلك من الجهات التي لا يحيط بها خلافه، والمال والغلال الميرية، فلما عرف الريس الوزير بذلك لم يكن بأسرع من إجابته لوجهين؛ الأول:

طمعًا في تحصيل المال، والثاني: لتفريق جمعهم، فإنهم كانوا يحسبون حسابه دون باقي الجماعة لكثرة جيشه وشدة احترازه، فإنه كان إذا ذهب عند الوزير لا يذهب في الغالب إلا وحوله جميع جنوده ومماليكه.

وعندما أجاب الوزير إلى سفره كتب له فرمانًا بإمارة الجهة القبلية وأطلق له الإذن، ورخص له في جميع ما يودي إليه اجتهاده من غير معارض، وتمم الريس القصد، وفي الوقت حضر المترجم فأخذ المرسوم ولبس الخلعة بنفسه وودع الوزير والريس، وركب في الوقت والساعة وخرج مسافرًا وجعل ريس أفندي وكيلًا عنه وسفيرًا بينه وبين الوزير، بعدما أسكنه في داره، ولم يشعر بذلك أحد ولم ير للوزير وجهًا بعد ذلك.

وعندما أشيع ذلك حضر إلى الوزير من اعتراض عليه في هذه الغفلة، وأشار عليه بنقض ذلك فأرسل يستدعيه لأمر تذكَّره على ظن تأخره، فلم يدركوه إلا وقد قطع مسافة بعيدة ورجعوا على غير طايل، وذهب هو إلى أسيوط وشرع في جبي الأموال، وأرسل للوزير دفعة من المال وأغنامًا وعبيدًا طواشية وغلالًا.

ثم لم يمضِ على ذلك إلا نحو ثلاثة شهور، وسافر طايفة من الإنكليز إلى إسكندرية، وكذلك حسين باشا القبطان ونصبوا للمصريين الفخاخ، وأرسل القبطان بطلب طايفة منهم فأوقع بهم ما أوقع، وقبض الوزير على من بمصر من الأُمرا وحبسهم وجرى ما هو مسطور في محله، وعينوا على المترجم طاهر باشا بعساكر، وحصلت المفاقمة وقُتل من قُتل والتجا من بقي إلى الإنكليز.

ولم يندمل الجرح بعد تقريحه، وذهب الجميع إلى الناحية القبلية، وأرسلوا لهم التجاريد وتصدى المترجم لحروبهم، ثم حضر إلى ناحية بحري ونزل بظاهر الجيزة، وسار إلى ناحية البحيرة بعد حروب ووقايع، فاجتهد محمد باشا خسرو في إخراج تجريدة عظيمة، وصاري عسكرها كتخداه، وهو يوسف كتخدا بك، وهي التجريدة التي سماها العوام تجريدة الحمير؛ لأنهم جمعوا من جملة ذلك حمير الحمارة والتراسين وحمير اللكاف والسقايين، وعملوا على أهل بولاق بألف حمار، وكذلك مصر ومصر القديمة، وطفقوا يخطفون حمير الناس ويكبسون البيوت ويأخذون ما يجدونه.

وكان يأتي بعض معاكيس العسكر عند الدور، ويضع أحدهم فمه عند الباب ويقول: «زَرْ» فينهق الحمار فيأخذوه، فلما تم مرادهم من جمع الحمير اللازمة لهم سافروا إلى ناحية البحيرة، فكانت بينهم واقعة عظيمة بمرأى من الإنكليز، وكانت الغلبة له على العسكر وأخذ منهم جملة أسرى، وانهزم الباقون شر هزيمة وحضروا إلى مصر في أسوا حال.

وهذه الكسرة كانت سببًا لحصول الوحشة بين الباشا والعسكر، فإنه غضب عليهم وأمرهم بالخروج من مصر، فطلبوا علايفهم فقال: بأي شي تستحقون العلايف ولم يخرج من أيديكم شي؟ فامتنعوا من الخروج، وكان المشار إليه فيهم محمد علي سرششمه، فأراد الباشا اصطياده فلم يتمكن منه لشدة احتراسه، فحاربه فوقع له ما ذُكر في محله وخرج الباشا هاربًا إلى دمياط.

ومن ذلك الوقت ظهر اسم محمد علي، ولم يزل ينمو ذكره بعد ذلك.

وأما المترجم فإنه بعد كسرته للعسكر ذهب ناحية دمنهور، وذهبت كشافه وأُمراه إلى المنوفية والغربية والدقهلية، وطلبوا منهم المال والكلف، ثم رجعوا إلى البحيرة، ثم بعد هذه الوقايع سافر المترجم مع الإنكليز إلى بلادهم، واختار من مماليكه خمسة عشر شخصًا أخذهم صحبته، وأقام عوضه أحد مماليكه المسمى بشتك بك — ويسمى الألفي الصغير — وأمَّره على مماليكه وأُمراه، وأمرهم بطاعته وأوصاه وصايا وسافر، وغاب سنة وشهرًا وبعض أيام؛ لأنه سافر في منتصف شهر شوال سنة سبعة عشر، وحضر في أول شهر القعدة سنة ثمانية عشرة.

وجرى في مدة غيابه من الحوادث التي تقدم من ذكرها ما يغني عن إعادتها من خروج محمد باشا خسرو، وتولية طاهر باشا ثم قتله، ودخول الأُمرا المصريين وتحكمهم بمصر سنة ثمانية عشر وتأمير صناجق من أتباع المترجم، وما جرى بها من الوقايع بتقدير الله — تعالى — البارز بتدبير محمد علي ونفاقه وحيله، فإنه سعى أولًا في نقض دولة مخدومه محمد باشا خسرو، بتواطيه مع طاهر باشا وخازنداره محمد باشا المحافظ للقلعة، ثم الإغرا على طاهر باشا حتى قُتل.

ثم معاونته الأُمرا المصريين ودخولهم وتملكهم وإظهار المساعدة الكلية لهم، ومصادقتهم وخدمتهم ومعاونتهم والرمح في غفلتهم، وخصوصًا عثمان بك البرديسي فإنه كان ممخرقًا غشومًا يحب التراؤس فأظهر له الصداقة والمواخاة والمصافاة، حتى قضى منهم أغراضه من قتل الدفتردار والكتخدا وعلي باشا الطرابلسي ومحاربة محمد باشا، وأخذوه أسيرًا من دمياط، وأخيه السيد علي القبطان برشيد، ونسبة جميع هذه الأفعال والقبايح إليهم.

فلما انقضى ذلك كله لم يبقَ إلا الألفي وجماعته والبرديسي الذي هو خشداشه يحقد عليه ويغار منه، ويعلم أنه إذا حضر لا يبقى له معه ذكر وتخمد أنفاسه فيتناجيا ويتسارا في أمر المترجم، ويتذكرا تعاظم وكيله وخشداشينه، ونقضهم عليه ما يبرمونه

مع غياب أستاذهم، فكيف بهم إذا حضر ويوهمه المساعدة والمعاضدة، ويكون خادمًا له وعساكره جنده، إلى أن حضر المترجم، فأوقعا به ما تقدم ذكره، ونجا بنفسه واختفى عند عشيبة البدوي بالوادي.

فلما خلا الجو من الألفي وجماعته فأوقع محمد علي عند ذلك بالبرديسي وعشيرته ما أوقع، وظهر بعد ذلك المترجم من اختفاه، وذهب إلى ناحية قبلي هو ومملوكه صالح بك، واجتمعت عليه أُمراه وأجناده، واستفحل أمره واصطلح مع عشيرته والبرديسي على ما في نفوسهما، وما زال منجمعًا عن مخالطتهم، وجرى ما جرى من مجيهم حوالي مصر، وحروبهم مع العساكر في أيام خورشيد أحمد باشا، وانفصالهم عنها بدون طايل لتفاشلهم واختلاف آراهم وفساد تدبيرهم، ورجعوا إلى ناحية قبلي، ثم عادوا إلى ناحية بحري بعد حروب ووقايع مع حسن باشا ومحمد علي وعساكرهم.

ثم لما حصلت المفاقمة بينهما وبين خورشيد أحمد باشا، وانتصر محمد علي بالسيد عمر مكرم النقيب والمشايخ والقاضي وأهل البلدة والرعايا، وهاجت الحروب بين الباشا وأهل البلدة كما هو مذكور، وكانت الأُمرا المصريون بناحية التبين والمترجم منعزل عنهم بناحية الطرانة، والسيد عمر يراسله ويعده ويذكر له بأن هذا القيام من أجلك وإخراج هذه الأوباش، ويعود الأمر إليكم كما كان، وأنت المعني بذلك لظننا فيك الخير والصلاح والعدل، فيصدق هذا القول ويساعده بإرسال المال ليصرفه في مصالح المقاتلين والمحاربين، ومحمد علي يداهن السيد عمر سرًّا ويتملق إليه، ويأتيه ويراسله ويأتي إليه في أواخر الليل وفي أوساطه مترددًا عليه في غالب أوقاته، حتى تم له الأمر بعد المعاهدة والمعاقدة والأيمان الكاذبة على سيره بالعدل، وإقامة الأحكام والشرايع والإقلاع عن المظالم، ولا يفعل أمرًا إلا بمشورته ومشورة العُلما، وأنه متى خالف الشروط عزلوه وأخرجوه، وهم قادرون على ذلك كما يفعلون الآن فيتورط المخاطب بذلك القول، ويظن صحته وأن كل الوقايع زلابية.

وكل ذلك سرًّا لم يشعر به خلافهم إلى أن عقد السيد عمر مجلسًا عند محمد علي، وأحضر المشايخ والأعيان وذكر لهم أن هذا الأمر وهذه الحروب ما دامت على هذه الحالة لا تزداد إلا فشلًا، ولا بد من تعيين شخص من جنس القوم للولاية، فانظروا من تجدوه وتختاروه لهذا الأمر؛ ليكون قايم مقام حتى يتعين من طرف الدولة من يتعين، فقال الجميع: الرأي ما تراه فأشار إلى محمد علي فأظهر التمنع وقال: لا أصلح لذلك ولست من الوزرا ولا من الأمرا ولا من أكابر الدولة، فقالوا جميعًا: قد اخترناك لذلك برأي الجميع والكافة والعبرة رِضَى أهل البلاد.

وفي الحال أحضروا فروة ألبسوها له وباركوا له وهنوه، وجهروا بخلع خورشيد أحمد باشا من الولاية، وإقامة المذكور في النيابة حتى يأتي المتولي أو يأتي له تقرير بالولاية، ونودي في المدينة بعزل الباشا وإقامة محمد علي في النيابة، إلى أن كان ما هو مسطور قبل ذلك في محله، فلما بلغ المترجم ذلك وكان ببر الجيزة ويراسل السيد عمر مكرم والمشايخ، فانقبض خاطره ورجع إلى البحيرة، وأراد دمنهور فامتنع عليه أهلها وحاربوه وحاربهم ولم ينل منهم غرضًا، والسيد عمر يقويهم ويمدهم ويرسل إليهم البارود وغيره من الاحتياجات، وظهر للمترجم تلاعب السيد عمر مكرم معه، وكأنه كان يقويه على نفسه فقبض على السفير الذي كان بينهما وحبسه وضربه، وأراد قتله ثم أطلقه ثم عاد إلى بر الجيزة.

وسكنت الفتنة واستقر الأمر لمحمد علي باشا، وحضر قبطان باشا إلى ساحل أبي قير، ووصل سلحداره إلى مصر وأنزل أحمد باشا المخلوع عن الولاية من القلعة إلى بولاق ليسافر، ومنع محمد علي من الذهاب والمجي إلى المصريين، وأوقف أشخاصًا برًّا وبحرًا، يرصدون من يأتي من قِبلهم أو يذهب إليهم بشي من متاع وملبوس وسلاح وغير ذلك، ومن عثروا عليه بشي قبضوا عليه، وأخذوا ما معه وعاقبوه، فامتنع الباعة والمتسببون وغيرهم من الذهاب إليهم بشي مطلقًا، فضاق خناق المترجم فاحتال بأن أرسل محمد كتخداه يطلب الصلح مع الباشا، فانسر لذلك وفرح واعتقد صحة ذلك، وأنعم على الكتخدا وعبى هدية جليلة لمخدومه من ملابس وفراوي وأسلحة وخيام ونقود وغير ذلك.

وعندما قضى الكتخدا أشغاله من مطلوبات مخدومه واحتياجاته له ولأتباعه وأمراه، وأوسق مراكب وذهب بها جهارًا من غير أن يتعرض له أحد، وذهب صحبته السلحدار وموسى البارودي، ثم عاد الكتخدا ثانيًا وصحبته السلحدار وموسى البارودي، وذكروا أنه يطلب كشوفية الفيوم وبني سويف والجيزة والبحيرة ومايتي بلد من الغربية والمنوفية والدقهلية يستغل فايظها، ويجعل إقامته بالجيزة، ويكون تحت الطاعة فلم يرضَ الباشا بذلك، وقال: إننا صالحنا باقي الأمرا وأعطيناهم من حدود جرجا بالشروط التي شرطناها عليهم، وهو داخل في ضمنهم.

فرجع محمد كتخدا له بالجواب بعد أن قضى أشغاله واحتياجاته ولوازمه من أمتعة وخيام وسروج وغير ذلك، وتمت حيلته وقضى أغراضه وذهب إلى الفيوم، وتحارب جنده مع جند ياسين بك، وانخذل فيها ياسين بك ثم عاد شاهين بك الألفي بجند كثير بعد شهور إلى بر الجيزة، وخرج محمد علي باشا لمحاربته بنفسه فكانت له الغلبة، وقتل في

هذه الواقعة علي كاشف الذي كان تزوج بزوجة حسن بك الجداوي، وهي بنت حسن بك شنن، رآه الأخصام منجملًا فظنوه الباشا فأحاطوا به وأخذوه أسيرًا، ثم قتلوه ورجع الباشا إلى مصر، واجتهد في تشهيل تجريدة أخرى وكل ذلك مع طول المدى.

وفي أثنا ذلك مات بشتك بك — المعروف بالألفي الصغير — مبطونًا بناحية قبلي، ثم إن المترجم خرج من الفيوم في أوايل المحرم من السنة المذكورة، وكان حسن باشا طاهر بناحية جزيرة الهوا بمن معه من العساكر، فكانت بينهما واقعة عظيمة انهزم فيها حسن باشا إلى الرقق، وأدركه أخوه عابدين بك فأقام معه الرفق كما تقدم.

وحضر الألفي إلى بر الجيزة وإنبابة، وخرجت إليهم العساكر؛ فكانت بينهم واقعة بسوق الغنم ظهر عليهم فيها أيضًا.

ثم سار مبحرًا وعدى من عسكره وجنده جملة إلى السبكية، فأخذوا منها ما أخذوه وعادوا إلى أستاذهم بالطرانة، ثم إنه انتقل راحلًا إلى البحيرة وحرب دمنهور ومحاصرتها، وكانوا قد حصنوها غاية التحصين؛ فلم يقدر عليها، فعاد إلى ناحية وردان.

ثم رجع إلى حوش ابن عيسى؛ لأنه بلغه وصول مراكب إنكليزية وبها أمين بك تابعه وعدة عساكر من النظام الجديد وأشخاص من الإنكليز؛ لأنه كان مع ما هو فيه من التنقلات والحروب يراسل الدولة والإنكليز، وأرسل بالخصوص أمين بك إلى الإنكليز، فسعوا مع الدولة بمساعدته وحضروا إليه بمطلوبه، فعمل لهم بحوش ابن عيسى شنكًا وأرسلهم مع أمين بك إلى الأُمرا القبليين، فلما بلغ محمد علي باشا ذلك راسل الأُمرا القبليين، وداهنهم وأرسل لهم الهدايا فراجت أموره عليهم مع ما في صدورهم من الغل للمترجم.

وفي أثر ذلك حضر قبطان باشا إلى إسكندرية، ووردت السعاة بخبر وروده وأن بعده واصل باشا واليًا على مصر وبالعفو عن المصريين.

وكان من خبر هذه القضية، والسبب في حركة القبطان إرساليات الألفي للإنكليز، ومخاطبة الإنكليز الدولة ووزيرها المسمى محمد باشا السلحدار، وأصله مملوك السلطان مصطفى ولا يخفى الميل إلى الجنسية، فاتفق أنه اختلى بسليمان أغا تابع صالح بك الوكيل الذي كان يوسف باشا الوزير قلده سلحدارًا، وأرسله إلى إسلامبول وسأله عن المصريين: هل بقي منهم غير الألفي؟ فقال له: جميع الريسا موجودن وعدَّدهم له وهم ومماليكهم يبلغون ألفين وزيادة، فقال: إني أرى تمليكهم ورجوعهم على شروط نشترطها عليهم أولى من تمادي العداوة بينهم وبين هذا الذي ظهر من العسكر، وهو

رجل جاهل متحيل وهم لا يسهل بهم إجلاهم عن أوطانهم وأولادهم وسيادتهم التي ورثوها عن أسلافهم؛ فيتمادى الحال والحروب بينهم وبينه، واحتياج الفريقين إلى جمع العساكر وكثرة النفقات والعلايف والمصاريف، فيجمعونها من أي وجه كان، ويودي ذلك إلى خراب الإقليم، فالأَولى والمناسب صرف هذا المتغلب وإخراجه وتولية خلافه، فما رأيك في ذلك؟ فقال له سليمان: لا رأي عندي في ذلك، وخاف أن يكون كلامه له باطن خلاف الظاهر، وأدرك منه ذلك فحلف له عند ذلك الوزير أن كلامه وخطابه له على ظاهره وحقيقته، لكن لا بد من مصلحة للخزينة العامرة، فقال له سليمان أغا: إذا كان كذلك ابعثوا إلى الألفي بإحضار كتخدا محمد أغا؛ لأنه رجل يصلح للمخاطبة لمثل ذلك ففعل وحضر المذكور في أقرب وقت، وتمموا الأمر على مصلحة ألف وخمسماية كيس كفلها محمد كتخدا المذكور بدفعها لقبطان باشا عند وصوله بيد سليمان أغا المذكور، وكفالته أيضًا لمحمد كتخدا بعد إتمام الشروط التي قررها له مخدومه.

ومن جملتها إطلاق بيع المماليك وشِراهم وجلب الجلابين لهم إلى مصر كعادتهم، فإنهم كانوا منعوا ذلك من نحو تلات سنوات وغير ذلك.

وسافر كلٌّ من سليمان أغا الوكيل ومحمد كتخدا بصحبة قبودان باشا حتى طلعوا على ثغر إسكندرية، فركب صحبة سلحدار القبودان فتلاقوا مع المترجم بالبحيرة، وأعلموه بما حصل فامتلا فرحًا وسرورًا، وقال لسليمان أغا: اذهب إلى إخواننا بقبلي واعرض عليهم الأمر، ولا يخفى أننا الآن ثلاثة فرق، كبيرنا إبراهيم بك وجماعته، والمرادية وكبيرهم هناك عثمان بك البرديسي، وأنا وأتباعي؛ فيكون ما يخص كل طايفة خمسماية كيس، فإذا استلمت منهم الألف كيس ورجعت إليَّ سلمتك الخمسماية كيس.

فركب المذكور وذهب إليهم واجتمع بهم وأخبرهم بصورة الواقع وطلب منهم ذلك القدر، فقال البرديسي: حيث إن الألفي بلغ من قدره أنه يخاطب الدول والقرانات ويراسلهم ويتمم أغراضه منهم، ويولي الوزرا ويعزلهم بمراده ويتعين قبودان باشا في حاجته فهو يقوم بدفع المبلغ بتمامه؛ لأنه صار الآن هو الكبير، ونحن الجميع أتباع له وطوايف خلفه بما فيه والدنا وكبيرنا إبراهيم بك وعثمان بك حسن وخلافه، فقال سليمان أغا: هو على كل حال واحد منكم وأخوكم.

ثم إنه اختلى مع إبراهيم بك الكبير وتكلم معه، فقال إبراهيم بك: أنا أرضى بدخولي أي بيت، كان وأعيش ما بقي من عمري مع عيالي وأولادي تحت إمارة أيٍّ مَن كان مِن عشيرتنا أَولى من هذا الشتات الذي نحن فيه، ولكن كيف أفعل في الرفيق المخالف،

وهذا الذي حصل لنا كله بسو تدبيره ونحسه؟ وعشت أنا ومراد بك المدة الطويلة بعد موت أستاذنا، وأنا أتغاضى عن أفعاله وأفعال أتباعه وأسامحهم في زلاتهم، كل ذلك حذرًا وخوفًا من وقوع الشر والقتل والعداوة، إلى أن مات وخلف هولا الجماعة المجانين، وترأس البرديسي عليهم مع غياب أخيه الألفي، وداخله الغرور وركن إلى أبنا جنسه وصادقهم واغتر بهم وقطع رحمه، وفعل بالألفي الذي هو خشداشه وأخوه ما فعل، ولا يستمع لنصح ناصح أولًا وآخرًا.

وما زال سليمان أغا يتفاوض معهم في ذلك أيامًا إلى أن اتفق مع إبراهيم بك على دفع نصف المصلحة ويقوم المترجم بالنصف الثاني، فقال: سلموني القدر أذهب به وأخبره بما حصل فقالوا: حتى ترجع إليه وتعلمه وتطيب خاطره على ذلك؛ لئلا يقبضه ثم يطالبنا بغيره.

فلما رجع إليه وأخبره بما داره بينهم قال: أما قولهم: إني أكون أميرًا عليهم، فهذا لا يُتصور ولا يصح أني أتعاظم على مثل والدَيَّ إبراهيم بك وعثمان بك حسن، ولا على من هو في طبقتي من خشداشيني على أن هذا لا يعيبهم ولا ينقص مقدارهم بأن يكون المتأمر عليهم واحدًا منهم ومن جنسهم، ولك أمر لم يخطر لي ببال وأرضى بأدنى من ذلك، ويأخذوا عليَّ عهدًا بما أشترطه على نفسي أننا إذا عدنا إلى أوطاننا أن لا أداخلهم في شي ولا أقارشهم في أمر وأن يكون كبيرنا والدنا إبراهيم بك على عادته، ويسمحوا لي بإقامتي بالجيزة ولا أعارضهم في شي، وأقنع بإيرادي الذي كان بيدي سابقًا، فإنه يكفيني وإن اعتقدوا غدري لهم في المستقبل بسبب ما فعلوه معي من قتلهم حسين بك تابعي، وتعصبهم وحرصهم على قتلي وإعدامي أنا وأتباعي، فبعض ما نحن فيه الآن أنساني ذلك كله، فإن حسين بك المذكور مملوكي وليس هو أبي ولا ابني من صلبي، وإنما هو مملوكي اشتريته بالدراهم وأشتري غيره، ومملوكي مملوكهم، وقد قتل لي عدة أُمرا ومماليك في الحروب، فأفرضه من جملتهم ولا يصيبني ويصيبهم إلا ما قدره الله علينا، وعلى أن الذي فعلوه بي لم يكن لسابق ذنب ولا جرم حصل مني في حقهم، بل كنا جميعًا إخوانًا، وتذكروا إشارتي عليهم السابقة في الالتجا إلى الإنكليز، وندموا على مخالفتي بعد الذي وقع لهم، ورجعوا إليَّ ثم أجمع رأيهم على سفري إلى بلاد الإنكليز؛ فامتثلت ذلك وتجشمت المشاق وخاطرت بنفسي وسافرت إلى بلاد الإنجلترة، وقاسيت أهوال البحار سنة وأشهرًا، كل ذلك لأجل راحتي وراحتهم، وحصل ما حصل في غيابي ودخلوا مصر من غير قياس، وبنوا قصورهم على غير أساس، واطمأنوا إلى عدوهم، وتعاونوا به على هلاك صديقهم.

وبعد أن قضى غرضه منهم غدرهم وأحاط بهم، وأخرجهم من البلدة وأهانهم وشردهم، واحتال عليهم ثانيًا يوم قطع الخليج، فراجت حيلته عليهم أيضًا وأرسلت إليهم فنصحتهم فاستغشوني وخالفوني، ودخل الكثير منهم البلد وانحشروا في أزقتها وجرى عليهم ما جرى من القتل الشنيع والأمر الفظيع، ولم ينجُ إلا من تخلف منهم أو ذهب من غير الطريق، ثم إنه الآن أيضًا يراسلهم ويداهنهم ويهاديهم ويصالحهم ويثبطهم عما فيه النجاح لهم، وما أظن أن الغفلة استحكمت فيهم إلى هذا الحد، فارجع إليهم وذكرهم بما سبق لهم من الوقايع، فلعلهم ينتبهوا من سكرتهم ويرسلوا معك التلتين أو النصف الذي سمح به والدنا إبراهيم بك، وهذا القدر ليس فيه كبير مشقة؛ فإنهم إذا وزعوا على كل أمير عشرة أكياس، وعلى كل كاشف خمسة أكياس، وكل جندي أو مملوك كيسًا واحدًا اجتمع المبلغ وزيادة، وأنا أفعل مثل ذلك مع قومي، والحمد لله ليسوا هم ولا نحن مفاليس، وثمرة المال قضا مصالح الدنيا، وما نحن فيه الآن من أهم المصالح، وقل لهم: البدار قبل فوات الفرصة، والخصم ليس بغافل ولا مهمل، والعثمانيون عبيد الدرهم والدينار.

فلما فرغ من كلامه ودعه سليمان أغا ورجع إلى قبلي، فوجد الجماعة أصروا على عدم دفع شي، ورجع إبراهيم بك أيضًا إلى قولهم ورأيهم.

ولما ألقى لهم سليمان أغا العبارات التي قالها صاحبهم، وإنه يكون تحت أمرهم ونهيهم ويرضى بأدنى المعاش معهم ويسكن الجيزة إلى آخر ما قال، قالوا: هذا والله كله كلام لا أصل له ولا ينسى ثأره، وما فعلناه في حقه وحق أتباعه، ولو اعتزل عنا وسكن قلعة الجبل، فهو الألفي الذي شاع ذكره في الآفاق، ولا تخاطب الدولة غيره وقد كنا في غيبته لا نطيق عفريتًا من عفاريته، فكيف يكون هو وعفاريته الجميع ومن ينشيه خلافهم، وداخلهم الحقد وزاد في وساوسهم الشيطان؟ فقال لهم سليمان أغا: اقضوا شغلكم في هذا الحين حتى تنجلي عنكم الأعدا الأغراب، ثم اقتلوه بعد ذلك وتستريحوا منه فقالوا: هيهات بعد أن يظهر علينا، فإنه يقتلنا واحدًا بعد واحد، ويخرجنا إلى البلاد ثم يرسل يقتلنا، وهو بعيد المكر فلا نأمن إليه مطلقًا، وغرهم الخصم بتمويهاته وأرسل إليهم هدايا وخيولًا وسروجًا وأقمشة، هذا ورسل القبودان تذهب وتأتي بالمخاطبات والعرضحالات حتى تمموا الأمر كما تقدم.

وفي أثناء ذلك ينتظر القبودان جوابًا كافيًا وسلحداره مقيم أيضًا عند المترجم، والمترجم يشاغل القبودان بالهدايا والأغنام والذخيرة من الأرز والغلال والسمن والعسل

وغير ذلك، إلى أن رجع إليه سليمان أغا بخُفي حنين محزونًا مهمومًا متحيرًا فيما وقع فيه من الورطة مكسوف البال مع القبودان ووزير الدولة، وكيف يكون جوابه للمذكور والقبودان جعل في الإبرة خيطين ليتبع الأروج.

فلما وصل إليه سليمان أغا، وأخبره أن الجماعة القبليين لا راحة عندهم وامتنعوا من الدفع ومن الحضور، وأن المترجم يقوم بدفع القدر الذي يقدر عليه، والذي يبقى ويتجمع عليه يقوم بدفعه، فاغتاظ القبودان وقال: أنت تضحك على ذقني وذقن وزير الدولة، وقد تحركنا هذه الحركة على ظن أن الجماعة على قلب رجل واحد، وإذا حصل من المالك للبلدة عصيان ومخالفة، ولم يكن فيهم مكافأة لمقاومته ساعدناهم بجيش من النظام الجديد وغيره، وحيث إنهم متنافرون ومتحاسدون ومتباغضون فلا خير فيهم، وصاحبك هذا لا يكفي في المقاومة وحده ويحتاج إلى كثير المعاونة، وهي لا تكون إلا بكثرة المصاريف.

ولما ظهر لسليمان أغا الغيظ والتغير من القبودان، خاف على نفسه أن يبطش به وعرف منه أن المانع له من ذلك غياب السلحدار عند المترجم؛ لأنه قال له: وأين سلحداري؟ قال: هو عند الألفي بالبحيرة فقال: اذهب فأتني به واحضر صحبته.

وكان موسى باشا المتولي قد حضر أيضًا، فما صدق سليمان أغا بقوله ذلك وخلاصه من بين يديه، فركب في الوقت وخرج من إسكندرية فما هو إلا بعد عنها مقدار غلوة إلا والسلحدار قادم إلى إسكندرية، فسأله إلى أين يذهب، فقال: إن مخدومك أرسلني في شغل وها أنا راجع إليكم. وذهب عند المترجم ولم يرجع.

وفي أثناء هذه الأيام كان المترجم يحارب دمنهور، وبعث إليه محمد علي باشا التجريدة العظيمة التي بذل فيها جهده، وفيها جميع عساكر الدلاة وطاهر باشا ومن معه من عساكر الأرنؤد والأتراك وعسكر المغاربة، فحاربهم وكسرهم وهزمهم شر هزيمة، حتى ألقوا بأنفسهم في البحر ورجعوا في أسوأ حال.

فلو تجاسر المترجم وتبعهم لهرب الباقون من البلدة وخرجوا جميعًا على وجوههم من شدة ما داخلهم من الرعب، ولكن لم يرد الله ذلك، ولم يجسروا للخروج عليه بعد ذلك.

ولما تنحت عنه عشيرته ولم يُلبوا دعوته وأتلفوا الطبخة، وسافر القبودان وموسى باشا من ثغر إسكندرية على الصورة المذكورة استأنف المترجم أمرًا آخر وراسل الإنكليز يلتمس منهم المساعدة، وأن يرسلوا له طايفة من جنودهم ليقوى بهم على محاربة

الخصم — كما التمس منهم في العام الماضي — فاعتذروا له بأنهم صلح مع العثماني، وليس في قانون المماليك إذا كانوا صلحًا أن يتعدوا على المتصادقين معهم، ولا يوجهون نحوها عساكر إلا بإذن منهم أو بالتماس المساعدة في أمر مهم، فغاية ما يكون المكالمة والترجي ففعلوا، وحصل ما تقدم ذكره.

ولم يتم الأمر، فلما خاطبهم بعد الذي جرى صادف ذلك وقوع الغرة بينهم وبين العثماني، فأرسلوا إلى المترجم يوعدوه بإنفاذ ستة آلاف لمساعدته، فأقام بالبحيرة ينتظر حضورهم نحو ثلاثة شهور، وكان ذلك أوان القيظ وليس ثَم زرع ولا نبات، فضاقت على جيوشهم الناحية وقد طال انتظاره للإنكليز، فتشكى العربان المجتمعون عليه وغيرهم؛ لشدة ما هم فيه من الجهد، وفي كل حين يوعدهم بالفرج، ويقول لهم: اصبروا ولم يبقَ إلا القليل فلما اشتد بهم الجهد اجتمعوا إليه وقالوا له: إما أن تنتقل معنا إلى ناحية قبلي، فإن أرض الله واسعة، وإما أن تأذن لنا في الرحيل في طلب القوت، فما وسعه إلا الرحيل مكظومًا مقهورًا من معاندة الدهر في بلوغ المآرب:

الأول: مجي القبودان وموسى باشا على هذه الهيئة والصورة ورجوعهما على غير طايل.

الثاني: عدم ملكه دمنهور وكان قصده أن يجعلها معقلًا، ويقيم بها حتى تأتيه النجدة.

الثالث: تأخر مجي النجدة حتى قحطوا واضطروا إلى الرحيل.

الرابع: وهو أعظمها، مجانبة إخوانه وعشيرته وخذلانهم له، وامتناعهم عن الانضمام إليه.

فارتحل من البحيرة بجيوشه ومن يصحبه من العربان حتى وصل إلى الأخصاص، فنادى محمد علي باشا على العساكر بالخروج ولا يتأخر منهم واحد، فخرجوا ليلًا ونهارًا حتى وصلوا إلى ساحل بولاق، وعدوا إلى بر إنبابة وجيشوا بظاهرها، وقد وصل المترجم إلى كفر حكيم يوم التلات تامن عشر القعدة، وانتشرت جيوشه بالبر الغربي ناحية إنبابة والجيزة، وركب الباشا وأصناف العساكر ووقفوا على ظهر خيولهم واصطف الرجالة ببنادقهم وأسلحتهم، ومر المترجم في هيئة عظيمة هايلة وجيوش تسد الفضا وهم مرتبون طوابير ومعهم طبول، وصحبته قبايل العرب من أولاد علي والهنادي، وعربان الشرق في كبكبة زايدة، والباشا والعسكر وقوف ينظرون إليهم من بعيد، وهو يتعجب ويقول: هذا طهماز الزمان وإلا إيش يكون، ثم يقول للدلاة والخيالة: تقدموا وحاربوا وأنا أعطيكم كذا وكذا من المال، ويذكر لهم مقادير عظيمة ويرغبهم فلم يتجاسروا على الإقدام،

وصاروا باهتين ومتعجبين ويتناجون فيما بينهم ويتشاورون في تقدمهم وتأخرهم، وقد أصابوه بأعينهم.

ولم يزل سايرًا حتى وصل إلى قريب قناطر شبرامنت، فنزل على علوة هناك وجلس عليها، وزاد الهاجس والقهر ونظر إلى جهة مصر وقال: يا مصر انظري إلى أولادك وهم حولك مشتتين متباعدين مشردين، واستوطنك أجلاف الأتراك واليهود وأراذل الأرنؤد وصاروا يقبضون خراجك، ويحاربون أولادك ويقاتلون أبطالك ويقاومون فرسانك ويهدمون دورك ويسكنون قصورك، ويفسقون بولدانك وحورك ويطمسون بهجتك ونورك، ولم يزل يردد هذا الكلام وأمثاله وقد تحرك به خلط دموي، وفي الحال تقايا دمًا وقال: قُضي الأمر. وخلصت مصر لمحمد علي وما ثَم مَن ينازعه ويغالبه وجرى، حكمه على المماليك المصرية، فما أظن أن تقوم لهم راية بعد اليوم، ثم إنه أحضر أُمراه وأمَّر عليهم شاهين بك وأوصاه بخشداشينه وأوصاهم به وأن يحرصوا على دوام الألفة بينهم، وترك التنازع الموجب للتفرق والتفاشل، وأن يحذروا من مخادعة عدوهم، وأوصاهم أنه إذا مات يحملوه إلى وادي البهنسا ويدفنوه بجوار قبور الشهدا، فمات في تلك الليلة وهي ليلة الأربع تاسع عشر ذي القعدة، فلما مات غسلوه وكفنوه وصلوا عليه وحملوه على بعير وأرسلوه إلى البهنسا، ودفنوه هناك بجوار الشهدا، وانقضى نحبه، فسبحان من له سَرْمَدِيَّةُ البقا.

وفي الحال حضر المبشر إلى محمد علي باشا وبشره بموت المترجم، فلم يصدقه واستغرب ذلك وحبس البدوي الذي أتاه بالبشارة أربعة أيام؛ وذلك لأن أتباعه كانوا كتموا أمر موته ولم يذيعوه في عرضيه، والذي أشاع الخبر وأتى بالبشارة رفيق البدوي الذي حمله على بعيره.

ولما ثبت موته عند الباشا امتلا فرحًا وسرورًا، وكذلك خاصته، ورفعوا روسهم وأحضر ذلك المبشر فألبسه فروة سمور وأعطاه مالًا، وأمره أن يركب بتلك الخلعة ويشق بها من وسط المدينة ليراه أهل البلدة، وشاع ذلك الخبر في الناس من وقت المبشر، وهم يكذبون ذلك الخبر ويقولون: هذا من جملة تحيلاته فإنه لما سافر إلى بلاد الإنكليز لم يعلم بسفره أحد، ولم يظهر سفره إلا بعد مضي أشهر.

فلذلك أمر الباشا ذلك المبشر أن يركب بالخلعة ويمر بها من وسط المدينة، ومع ذلك استمروا في شكهم نحو شهرين، حتى قويت عندهم القراين بما حصل بعد ذلك.

فإنه لما مات تفرقت قبايل العربان التي كانت متجمعة حوله، وبعضهم أرسل يطلب أمانًا من الباشا، وغير ذلك مما تقدم ذكره وخبره في ضمن ما تقدم، وكان محمد

علي باشا يقول: ما دام هذا الألفي موجودًا لا يهنا لي عيش ومثالي أنا وهو مثال بهلوانين يلعبان على الحبل، لكن هو في رجليه قبقاب فلما أتاه المبشر بموته قال بعد أن تحقق ذلك: الآن طابت لي مصر وما عدت أحسب لغيره حسابًا.

وكان المترجم أميرًا جليلًا مهيبًا محتشمًا مدبرًا بعيد الفكر في عواقب الأمور، صحيح الفراسة إذا نظر في سحنة إنسان عرف حاله وأخلاقه بمجرد النظر إليه، قوي الشكيمة صعب المراس عظيم الباس ذا غَيْرة حتى على من ينتمي إليه أو ينسب إلى طرفه، يحب علو الهمة في كل شي حتى إن التجار الذين يعاملهم في المشتروات لا يساومهم ولا يفاصلهم في أثمانها، بل يكتبون الأثمان بأنفسهم كما يحبون ويريدون في قوايم ويأخذها الكاتب ليعرضها عليه، فيمضي عليها ولا ينظر فيها، ويرى أن النظر في مثل ذلك أو المحاققة فيه عيب ونقض يخل بالأمرية، ولا تمضي السنة إلا والجميع قد استوفوا حقوقهم، ويستأنفوا احتياجات العام الجديد.

ولذلك راج حال المعاملين له رواجًا عظيمًا لكثرة ربحهم عليه ومكاسبهم، ومع ذلك يواسيهم في جملة أحبابه والمنتسبين إليه بإرسال الغلال لمونة بيوتهم وعيالهم وكساوي العيد، وينتصر لأتباعه ولمن انتمى إليه ويجب لهم رفعة القدر عن غيرهم، مع أنه إذا حصل من أحد منهم هفوة تخل بالمروءة عنَّفه وزجره، فترى؛ كشافه ومماليكه مع شدة مراسهم وقوة نفوسهم، وصعوبتهم يخافونه خوفًا شديدًا ويهابون خطابه.

ومن عجيب أمره ومناقبه التي انفرد بها عن غيره امتثال جميع قبايل العربان الكاينين بالقطر المصري لأمره، وتسخيرهم وطاعتهم له لا يخالفونه في شي، وكان له معهم سياسة غريبة ومعرفة بأحوالهم وطبايعهم، فكأنما هو مربى فيهم أو ابن خليفتهم أو صاحب رسالتهم، ويقعدون لأمره مع أنه يصادرهم في أموالهم وجمالهم ومواشيهم ويحبسهم ويطلقهم، ويقتل منهم، ومع ذلك لا ينفرون منه وقد تزوج كثيرًا من بناتهم، فالتي تعجبه يبقيها حتى يقضي وطره منها، والتي لا توافق مزاجه يسرحها إلى أهلها، ولم يبقَ في عصمته غير واحدة وهي التي أعجبته فمات عنها.

فلما بلغ العربَ موتُه اجتمعت بنات العرب، وصرن يندبنه بكلام عجيب تناقلته أرباب المغاني يغنون به على آلات اللهو المطربة، وركَّبوا عليه أدوارًا وقوافي وغير ذلك.

والعجب منه — رحمه الله — أنه لما كان في دولتهم السابقة، وينزل في كل سنة إلى شرقية بلبيس ويتحكم في عربانها ويسومهم سو العذاب بالقبض عليهم ووضعهم في الزناجير، ويتعاون على البعض منهم بالبعض الآخر، ويأخذ منهم الأموال والخيول والأباعر والأغنام، ويفرض عليهم الفرد الزايدة، ويمنعهم من التسلط على فلاحي البلاد.

ثم إنه لما رجع من بلاد الإنكليز وتعصب عليه البرديسي والعسكر وأحاطوا به من كل جانب، فاختفى منهم وهرب إلى الوادي عند عشيبة البدوي، فآواه وأخفاه وكتم أمره، والبرديسي ومن معه يبالغون في الفحص والتفتيش وبذْل الأموال والرغايب لمن يدل عليه أو يأتي به، فلم يطمعوا في شي من ذلك ولم يفشوا سره، وقيدوا بالطرق الموصلة له أنفارًا منهم تحرس الطريق من طارق يأتي على حين غفلة، وهذا من العجايب حتى كان كثير من الناس يقولون: إنه يسحرهم أو معه سر يسخرهم به.

فلما مات تفرق الجميع ولم يجتمعوا على أحد بعده، وذهبوا إلى أماكنهم وبعضهم طلب من الباشا الأمان.

وأما مماليكه وأتباعه فلم يفلحوا بعده وذهبوا إلى الأُمرا القبليين، فوجدوا طباعهم متنافرة عنهم ولم يحصل بينهم الْتِئام ولا صفا كَدَرُ الفريقين من الآخر؛ فانعزلوا عنهم إلى أن جرى ما جرى من صلحهم مع الباشا، وأوقع بهم ما سيتلى عليك بعد — إن شاء الله تعالى.

وبعد موت المترجم بنحو الأربعين يومًا وصلت نجدة الإنكليز إلى ثغر إسكندرية، وطلعوا إليه فبلغهم عند ذلك موت المذكور، فلم يسهل بهم الرجوع فأرسلوا رسلهم إلى الجماعة المصريين ظانين أن فيهم أثر الهمة والنخوة، يطلبونهم للحضور ويساعدهم الإنكليز على ردهم لملكتهم وأوطانهم، وكان محمد علي باشا حين ذاك بناحية قبلي يحاربهم، فطلبهم للصلح معه وأرسل إليهم بعض فُقها الأزهر وخادعهم وثبطهم فقعدوا عن الحركة، وجرى ما جرى على طايفة الإنكليز كما سيتلى عليك خبره ثم عليهم بعد ذلك، وكان أمر الله مفعولًا.

وكان للمترجم ولوع ورغبة في مطالعة الكتب خصوصًا العلوم الغربية مثل: الجفريات والجغرافيا والأسطر نوميا والأحكام النجومية والمناظرات الفلكية، وما تدل عليه من الحوادث الكونية، ويعرف أيضًا مواضع المنازل وأسماها وطبايعها، والخمسة المتحيرة وحركات الثوابت ومواقعها، كل ذلك بالنظر والمشاهدة والتلقي على طريقة العرب من غير مطالعة في كتاب ولا حضور درس.

وإذا طالع أحد بحضرته في كتاب أو أسمعه ناضله مناضلة متضلع، وناقشه مناقشة متطلع، وله أيضًا معرفة بالأشكال الرملية، واستخراجات الضماير بالقواعد الحرفية، وكان له في ذلك إصابات.

ومنها ما أخبرني به بعض أتباعه أنه لما وصل إلى ثغر إسكندرية راجعًا من بلاد الإنكليز رسم شكلًا، وتأمل فيه وقطب وجهه، ثم قال: إني أرى حادثًا في طريقنا، وربما

أني أفترق منكم وأغيب عنكم نحو أربعين يومًا؛ فلذلك أحب أن يخفى أمره ويأتي على حين غفلة.

وكان البرديسي قد أقام بالثغر رقيبًا يوصل خبر وروده، فلما وصل أرسل ذلك الرقيب ساعيًا في الحال، وكان ما ذكرناه في سياق التاريخ من غدرهم وقتلهم حسين بك أبو شاش بالبر الغربي، وهروب بشتك بك من القصر وإرسال العسكر لملاقاة المترجم على حين غفلة ليقتلوه، وهروبه واختفاه ثم ظهوره واجتماعهم عليه بعد انقضا تلك المدة أو قريب منها.

وكان — رحمه الله — إذا سمع بإنسان فيه معرفة بمثل هذه الأشياء أحضره ومارسه فيها، فإن رأى فيه فايدة ومزية أكرمه وواساه وصاحبه وقربه إليه وأدناه، وكان له مع جلساه مباسطة مع الحشمة والترفع عن الهذيان والمجون، وكان غالب إقامته بقصوره التي عَمَّرها خارج مصر وهو القصر الكبير بمصر القديمة تجاه المقياس بشاطي النيل، والقصر الآخر الكاين بالقرب من زاوية الدمرداش، والقصر الذي بجانب قنطرة المغربي على الخليج الناصري.

وكان إذا خرج من داره لبعض تلك القصور لا يمر من وسط المدينة، وإذا رجع كذلك فسُيل عن سبب ذلك، فقال: أستحي أن أمر من وسط الأسواق، وأهل الحوانيت والمارة ينظرون إليَّ وأفرجهم على نفسي.

وللمترجم أخبار وسير ووقايع لو سطرت لكانت سيرة مستقلة، خصوصًا وقايعه وسياحته ثلاث سنوات وثلاثة أشهر، أيام أقام الفرنساوية بالقطر المصري، ورحلته بعد ذلك إلى بلاد الإنكليز وغيابه بها سنة وشهورًا.

وقد تهذبت أخلاقه بما اطلع عليه من عمارة بلادهم وحسن سياسة أحكامهم، وكثرة أموالهم ورفاهيتهم وصنايعهم، وعدلهم في رعيتهم مع كفرهم؛ بحيث لا يوجد فيهم فقير ولا مستجدي ولا ذو فاقة ولا محتاج، وقد أهدوا له هدايا وجواهر وآلات فلكية وأشكالًا هندسية وأسطرلابات وكرات ونظارات، وفيها ما إذا نظر الإنسان فيها في الظلمة يرى أعيان الأشكال كما يراها في النور، ومنها لخصوص النظر في الكواكب فيرى بها الإنسان الكوكب الصغير عظيم الجرم، وحوله عدة كواكب لا تدرك بالبصر الحديد، ومن أنواع الأسلحة الحربية أشيا كثيرة، وأهدوا به آلة موسيقى تشبه الصندوق، بداخلها أشكال تدور بحركات، فيظهر منها أصوات مطربة على إيقاع الأنغام وضروب الألحان، وبها نشانات وعلامات لتبديل الأنغام بحسب ما يشتهي السامع، إلى غير ذلك، نهب ذلك

جميعه العسكر الذين أرسلهم إليه البرديسي ليقتلوه، وطفقوا يبيعونه في أسواق البلدة وأغلبه تكسر وتلف وتبدد.

وأخبرني بعض من خرج لملاقاته عند منوف العلا أنه لما طلع إليها وقابله سليمان بك البواب أخلى له الحمام في تلك الليلة، وكان قد بلغه كافة أفعاله بالمنوفية من العسف والتكاليف، وكذا باقي إخوانه وأفعالهم بالأقاليم.

فكان مسامرتهم معه تلك الليلة في ذكر العدالة الموجبة لعمار البلاد، ويقول لسليمان بك في التمثيل: الإنسان الذي يكون له ماشية يقتات هو وعياله من لبنها وسمنها وجبنها يلزمه أن يرفق بها في العلف، حتى تدر وتسمن وتنتج له النتاج، بخلاف ما إذا أجاعها وأجحفها وأتعبها وأشقاها وأضعفها، حتى إذا ذبحها لا يجد بها لحمًا ولا دهنًا، فقال: هذا ما اعتدناه ورُبينا عليه.

فقال: إن أعطاني الله سيادة مصر والإمارة في هذا القطر لأمنعن هذه الوقايع، وأُجري فيه العدل ليكثر خيره وتعمر بلاده، وترتاح أهله، ويكون أحسن بلاد الله، ولكن الإقليم المصري ليس له بخت ولا سعد، وأهله تراهم مختلفين في الأجناس متنافري القلوب (متنافرين) منحرفين في الطباع، فلم يمضِ على هذا الكلام إلا بقية الليل وساعات النهار حتى أحاطوا به وفر هاربًا ونجا بنفسه، وجرى ما تقدم ذكره من اختفاه وظهوره وانتقاله إلى الجهة القبلية واجتماع الجيوش عليه، وحكمت عليه الصورة التي ظهر فيها وحصل له ما حصل.

وأخبرني من اجتمع عليه في البحيرة وسامره فقال: يا فلان، والله يخيل لي أن أقتل نفسي، ولكن لا تهون عليَّ وقد صرت الآن واحدًا بين ألوف من من الأعدا، وهولا قومي وعشيرتي فعلوا بي ما فعلوا؛ تجنبوني وعادوني من غير جرم ولا ذنب سبق مني في حقهم، وأشقوني وأشقوا أنفسهم، وملَّكوا البلاد لأعداي وأعداهم، وسعيت واجتهدت في مراضاتهم ومصالحتهم والنصح لهم، فلم يزدهم ذلك إلا نفورًا وتباعدًا عني، ثم هذه الجنود وريسهم الذين ولجوا البلاد وذاقوا حلاوتها وشبعوا بعد جوعهم وترفهوا بعد ذلهم، يجيشون عليَّ ويحاربوني ويكيدوني ويقاتلوني.

ثم إن هولا العربان المجتمعين عليَّ أصانعهم وأسوسهم وأغاضبهم وأراضيهم، وكذلك جندي ومماليكي، وكلٌّ منهم يطلب مني رياسة وإمارة ويظنون بغفلتهم أن البلاد تحت حكمي، ويظنون أني مقصر في حقهم، فتارة أعاملهم باللطف وتارة أزجرهم بالعنف، فأنا بين الكل مثل الفريسة والجميع حولي مثل الكلاب الجياع يريدون نهشي

وأكلي، وليس بيدي كنوز قارون فأنفق على هولا الجموع منها فيضطرني الحال إلى التعدي على عبد الله وأخذ أموالهم، وأكل مزارعهم ومواشيهم، فإن قدر الله لي بالظفر عوضت عليهم ذلك ورفقت بحالهم، وإن كانت الأخرى فالله يلطف بنا وبهم، ولا بد أن يترحموا علينا ويسترضوا عن ظلمنا وجورنا بالنسبة لما يحل بهم بعدنا.

وبالجملة فكان آخر من أدركنا من الأُمرا المصريين شهامة وصرامة؛ ونظرًا في عواقب الأمور، وكان وحيدًا في نفسه فريدًا في أبناء جنسه، وبموته اضمحلت دولتهم وتفرقت جمعيتهم وانكسرت شوكتهم، وزادت نفرتهم، وما زالوا في نقص وإدبار وذلة وهوان وصَغَار، ولم تقم لهم بعده راية، وانقرضوا وطردوا إلى أقصى البلاد في النهاية.

وأما مماليكه وصناجقه فإنهم تركوا نصيحته، ونسوا وصيته وانضموا إلى عدوهم وصادقوه، ولم يزل بهم حتى قتلهم وأبادهم عن آخرهم، كما سيتلى عليك خبر ذلك فيما بعد.

وكانت صفة المترجم معتدل القامة أبيض اللون مشربًا بحمرة، جميل الصورة مدور اللحية أشقر الشعر وقد خطه الشيب، مليح العينين مقرون الحاجبين معجبًا بنفسه مترفهًا في زيه وملبسه، كثير الفكر كتومًا لا يبيح بسر ولا لأعز أحبابه، إلا أنه لم يسعفه الدهر وجنى عليه بالقهر، وخاب أمله وانقضى أجله، وخانه الزمان وذهب في خبر كان، ومات وله من العمر نحو الخمسة والخمسين سنة — غفر الله له.

ومات الأمير عثمان بك البرديسي المرادي وسُمي البرديسي؛ لأنه تولى كشوفية برديس بقبلي فعرف بذلك واشتهر به. تقلد الأمرية والصنجقية في سنة عشر ومايتين وألف، وتزوج ببنت أحمد كتخدا علي، وهي أخت علي كاشف الشرقية، وعمل لها مهمًا، وذلك قبل أن يتقلد الصنجقية، وسكن بدار علي كتخدا الطويل بالأزبكية، واشتهر ذكره وصار معدودًا من جملة الأُمرا.

ولما قُتل عثمان بك البرديسي المرادي بساحل أبو قير، ورجع من رجع إلى قبلي، كان الألفي هو المتعين بالرياسة على المرادية.

فلما سافر الألفي إلى بلاد الإنكليز تعين المترجم بالرياسة على خشداشينه مع مشاركة بشتك بك الذي عُرف بالألفي الصغير، فلما حضروا إلى مصر في سنة ثمان عشرة بعد خروج محمد باشا خسرو وقتْل طاهر باشا، انضم إليه محمد علي باشا، وكان إذ ذاك سرششمه العساكر، وتواخى معه وصادقه ورمح في ميدان غفلته، وتحالفا وتعاهدا وتعاقدا على المحبة والمصافاة وعدم خيانة أحدهما للآخر، وأن يكون محمد علي باشا

وعساكره الأروام أتباعًا له وهو الأمير المتبوع، فانتفخ جأشه؛ لأنه كان طايش العقل مقتبل الشبيبة فاغتر بظاهر محمد علي باشا؛ لأنه حين عمل شغلة في خدمة محمد باشا وبعده طاهر باشا دعا الأُمرا المصريين وأدخلهم إلى مصر، وانتسب إلى إبراهيم بك الكبير؛ لكونه رئيس القوم وكبيرهم.

وعين لإبراهيم بك خرجًا وعلوفة مثل أتباعه، وسيره واختبره فلم ترج سلعته عليه ووجده محرصًا على دوام التراحم والألفة والمحبة وعدم التفاشل في عشيرته وأبناء جنسه، متحرزًا من وقوع ما يوجب التقاطع والتنافر في قبيلته، فلما أيس منه مال عنه وانضم إلى المترجم واستخفه واحتوى على عقله، وصاحبه وصادقه وصار يختلي معه، ويتعاقر معه الشراب، ويسامره ويسايره حتى باح له بما في ضميره من الحقد لإخوانه، وتطلب الانفراد بالرياسة، فصار يقوي عزمه ويزيد في إغراه ويوعده بالمعاونة والمساعدة على إتمام قصده، ولم يزل به حتى رسخ في ذهن المترجم نصحه وصدقه.

كل ذلك توصلًا لما هو كامن في نفسه من إهلاك الجميع، ثم أشار عليه ببنا أبراج حول داره التي سكن بها بالناصرية، فلما أتمها أسكن بها طايفة من عساكره، كأنهم محافظون لما عساه أن يكون، ثم سار معه إلى حرب محمد باشا خسرو بدمياط، فحاربوه وأتوا به أسيرًا وحبسوه.

ثم فعلوا بالسيد علي القبطان مثل ذلك، ثم كاينه علي باشا الطرابلسي وقتله، وقد تقدَّم خبر ذلك كله، وجميعه ينسب فعله للمصريين، ولم يبقَ إلا الإيقاع بينهم، فكان وصول الألفي عقب ذلك، فأوقعوا به وبجنده ما تقدم ذكره، وتفاشلوا وتفرقوا بعد جمعهم وقلوا بعد الكثرة، ثم أشار على المترجم المصادق الناصح بتفريق أكثر الجمع الباقي في النواحي والجهات، البعض منهم لرصد الألفي والقبض عليه وعلى جنده، والبعض الآخر لظلم الفلاحين في البلاد، ولم يبقَ بالمدينة غير المترجم وإبراهيم بك الكبير وبعض أُمرا، فعند ذلك سلط محمد علي العساكر بطلب علايفهم المنكسرة فعجزوا عنها، فأراد المترجم أن يفرض على فُقرا البلدة فرضة بعد أن استشار الأخ النصوح.

وطافت الكتَّاب في الحارات والأزقة يكتبون أسما الناس ودورهم، ففزعوا وصرخوا في وجوه العسكر فقالوا: نحن ليس لنا عندكم شي ولا نرضى بذلك، وعلايفنا عند أُمراكم، ونحن مساعدون لكم، فعند ذلك قاموا على ساق وخرجت نسا الحارات وبأيديهم الدفوف يغنون ويقولون: «إيش تأخذ من تفليسي يا برديسي»، وصاروا يسخطون على المصريين ويترضون عن العسكر.

وفي الحال أحاطت العسكر ببيوت الأُمرا، ولم يشعر البرديسي إلا والعسكر الذين أقامهم بالأبراج التي بناها حوله ليكونوا له عزًّا ومنعة يضربون عليه ويحاربونه ويريدون قتله، وتسلقوا عليه فلم يسَع الجميع إلا الهروب والفرار، وخرجوا خروج الضب من الوجار، وذهب المترجم إلى الصعيد مذمومًا مدحورًا، وجوزي مجازاة من ينتصر بعدوه ويعول عليه ويقص أجنحته برجليه، وكالباحث على حتفه بظلفه والجادع بظفره مارن أنفه، ولم يزل في هجاج وحروب — كما سطر في السياق — ولم ينتصر في معركة، ولم يزل مصرًّا على معاداة أخيه الألفي وحاقدًا عليه وعلى أتباعه، محرصًا على زلاته، وأعظمها قضية القبودان وموسى باشا إلى غير ذلك.

وكان ظالمًا غشومًا طايشًا سيئ التدبير، وقد أوجده الله — جل جلاله — وجعله سببًا لزوال عزهم ودولتهم، واختلال أمرهم وخراب دورهم وهتك أعراضهم ومذلتهم وتشتيت جمعهم، ولم يزل خبثه حتى مرض ومات بمنفلوط ودُفن هناك.

ومات الأمير بشتك بك، وهو الملقب بالألفي الصغير، وهو مملوك محمد بك الألفي الكبير، أمَّره وجعله وكيلًا عنه مدة غيابه في بلاد الإنكليز، وكان قبل ذلك سلحداره، وأمر كشافه ومماليكه وجنده بطاعته وامتثال أمره، فلما حضر الأُمرا المصريون في سنة ثمانية عشر أقام هو بقصر مراد بك بالجيزة، فلم يحسن السياسة وداخله الغرور وأُعجب بنفسه وشمخ على نظراه وعلى أعمامه الذين هم خشداشون لأستاذه، بل وعلى إبراهيم بك الكبير الذي هو بمنزلة جده، وكان مراد بك الذي هو أستاذ أستاذه يراعي حقه ويتأدب معه ويقبِّل يده في مثل الأعياد، ويقول: هو أميرنا وكبيرنا. وكذلك أستاذ المترجم كان إذا دخل على إبراهيم بك قبَّل يده، ولا يجلس بحضرته إلا بعد أن يأذن له.

فلم يقتفِ المترجم في ذلك أسلافه، بل سلك مسلك التعاظم والتكبر على الجميع، واستعمل العسف في أموره مع الترفع على الجميع وإذا عقدوا أمرًا بدونه حَلَّه، أو حَلُّوا شيًّا بدونه عقده؛ فضاق لذلك خناق الجميع منه وكرهوه وكرهوا أستاذه، وكان هو من جملة أسباب نفورهم من أستاذه وانحراف قلوبهم عنه، فلما رجع أستاذه وظهر من اختفاه وبلغه أفعاله مقته وأبعده، ولم يزل ممقوتًا عنده حتى مات مبطونًا في حياة أستاذه بناحية قبلي في تلك السنة.

ومات غير هولا ممن له ذكر مثل سليمان بك المعروف بأبو دياب بناحية قبلي أيضًا.

ومات أيضًا أحمد بك المعروف بالهنداوي الألفي في واقعة النجيلة

ومات أيضًا صالح بك الألفي، وهو أيضًا ممن تأمَّر في غياب أستاذه، وعند حضور أستاذه من بلاد الإنكليز كان هو متوليًا كشوفية الشرقية وغايبًا هناك فأرسلوا، له

تجريدة ليقتلوه وكان بناحية شلشلمون، فوصله الخبر فترك خيامه وأحماله وأثقاله وهرب واختفى.

فلما وقعت حادثة الأُمرا مع العسكر وخرجوا من مصر هاربين وظهر الألفي من الوادي، ذهب إليه وأمده بما معه من الأموال، وذهب مع أستاذه إلى قبلي ولم يزل حتى مات أيضًا في هذه السنة، وغير أوليك كثير لم تحضرني أسماهم ولا وفاتهم.

ثم دخلت سنة اثنتين وعشرين ومايتين وألف (١٨٠٦م)

وكان ابتدا المحرم يوم الأربع: فيه وصل القابجي الذي على يده التقرير لمحمد علي باشا على ولاية مصر وطلع إلى بولاق.

وفيه وردت مكاتبات من الجهة القبلية فيها أنهم كبسوا على عرضي الألفية، وصحبتهم سليمان بك البواب وحاربوهم وهزموهم ونهبوا حملاتهم، وقطعوا منهم عدة روس وهي واصلة في طريق البحر، وصادفت هذه البشارة مع بشارة ورود القابجي ووصوله؛ فعمل لذلك شنك ضربت لذلك مدافع كثيرة من القلعة في كل وقت من الأوقات الخمسة ثلاثة أيام آخرها الجمعة، ثم إنه مضى عدة أيام ولم تحضر الروس التي أخبروا عنها، واختلفت الروايات في ذلك.

وفي يوم التلات سابعه عملوا جمعية ببيت القاضي حضرها المشايخ والأعيان، وذكروا أنه لما وردت الأوامر بتحصين الثغور فأرسل الباشا سليمان أغا ومعه طايفة من العسكر، وأرسل إلى أهالي الثغور والمحافظين عليها مكاتبات بأنهم إن كانوا يحتاجون إلى عساكر، فيرسل لهم الباشا عساكر زيادة على الذين أرسلهم، فأجابوا بأن فيهم الكفاية ولا يحتاجون إلى عساكر زيادة تأتيهم من مصر، فإنهم إذا كثروا في البلد تأَتَّى منهم الفساد والإفساد، فعملوا هذه الجمعية لإثبات هذا القول ولخلاص عهدة الباشا؛ لئلا يتوجه عليه اللوم من السلطنة وينسب إليه التفريط.

وفي تاسعه وردت مكاتبات مع السعاة من ثغر إسكندرية، وذلك يوم الخميس وقت العصر وفيها الأخبار بورود مراكب إنكليزية، وعدتها اثنان وأربعون مركبًا فيها عشرون قطعة كبارًا والباقي صغار، فطلبوا الحاكم والقنصل وتكلموا معهم وطلبوا الطلوع إلى

الثغر فقالوا لهم: لا نمكنكم من الطلوع إلا بمرسوم سلطاني، فقالوا: لم يكن معنا مراسيم وإنما مجينا لمحافظة الثغر من الفرنسيس، فإنهم ربما طرقوا البلاد على حين غفلة، وقد أحضرنا صحبتنا خمسة آلاف من العسكر نقيمهم بالأبراج لحفظ البلدة والقلعة والثغر، فقالوا لهم: لم يكن معنا إذن وقد أتتنا مراسيم بمنع كل من وصل عن الطلوع من أي جنس كان، فقالوا: لا بد من ذلك فإما أن تسمحوا لنا في الطلوع بالرِّضَى والتسليم، وإما بالقهر والحرب والمهلة في رد الجواب بأحد الأمرين أربعة وعشرون ساعة، ثم تندموا على الممانعة.

فكتبوا بذلك إلى مصر، فلما وصلت تلك المكاتبات اجتمع كتخدا بك وحسن باشا وبونابارته الخازندار وطاهر باشا والدفتردار والروزنامجي وباقي أعيانهم، وذلك بعد الغروب، وتشاوروا في ذلك ثم أجمع رأيهم على إرسال الخبر بذلك إلى محمد علي باشا، ويطلبونه للحضور هو ومن بصحبته من العساكر؛ ليستعدوا لما هو أولى وأحق بالاهتمام، ففعلوا ذلك وانصرفوا إلى منازلهم بعد حصة من الليل، وأرسلوا تلك المكاتبة إليه في صبح يوم الجمعة صحبة هجانين.

وشاع الخبر وكثر لغط الناس في ذلك، ولما انقضت الأربعة وعشرون ساعة التي جعلها الإنكليز أجلًا بينهم وبين أهل إسكندرية، وهم في الممانعة ضربوا عليهم بالقنابر والمدافع الهايلة ممن البحر، فهدموا جانبًا من البرج الكبير، وكذلك الأبراج الصغار والسور، فعند ذلك طلبوا الأمان، فرفعوا عنهم الضرب ودخلوا البلدة وذلك يوم الجمعة التالي.

وفي ليلة الاتنين تالت عشره وردت مكاتبات من رشيد بذلك الخبر على سبيل الإجمال من غير معرفة حقيقة الحال، بل بالعلم بأنهم طلعوا إلى الثغر ودخلوا البلدة، وعدم علمهم بالكيفية وتغيب الحال واشتبه الأمر.

وفيه حضر قنصل الفرنساوية إلى مصر، وكان بإسكندرية فلما وردت مراكب الإنكليز انتقل إلى رشيد، فلما بلغه طلوعهم إلى البر حضر إلى مصر، وذكر أنه يريد السفر إلى الشام هو وباقي الفرنساوية القاطنين بمصر.

وفي ليلة الخميس سادس عشره وردت مكاتبة من الباشا يذكر فيها أنه تحارب مع المصريين وظهر عليهم وأخذ منهم أسيوط وقبض على أنفار منهم وقُتل في المعركة كثير من كشافهم ومماليكهم، فعملوا في ذلك اليوم شنكًا وضربوا مدافع كثيرة من القلعة بالأزبكية تلاتة أيام في الأوقات الخمسة آخرها السبت.

وأشاعوا أيضًا أن إسكندرية ممتنعة على الإنكليز، وأنهم طلعوا إلى رأس التين والعجمي، فخرج عليهم أهل البلاد والعساكر وحاربوهم وأجلوهم عن البر، ونزلوا إلى المراكب مهزومين وحرقوا منهم مركبين، وأنه وصل إليهم عمارة العثمانيين والفرنساوية وحاربوهم في البحر وأحرقوا مراكبهم، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، ولم يبقَ منهم إلا القليل واستمر الأمر في هذا الخلط القبلي والبحري عدة أيام، ولم يأتِ من إسكندرية سعاة ولا خبر صحيح.

وفيه وصل الكثير من أهالي الفيوم، ودخلوا إلى مصر وهم في أسوأ حال من الشتات والعري؛ مما فعل بهم ياسين بك، فخرجوا على وجوههم وجلوا عن أوطانهم، ولم يمكنهم الخروج من بلادهم حتى ارتحل عنهم المذكور يريد الحضور إلى ناحية مصر، عندما بلغه خبر حضور الإنكليز إلى ثغر إسكندرية.

وفي سابع عشره وصل ياسين بك المذكور إلى ناحية دهشور، وأرسل مكاتبة خطابًا للسيد عمر مكرم والقاضي وسعيد أغا يذكر فيها أنه لما بلغه وصول الإنكليز أخذته الحمية الإسلامية، وحضر وصحبته ستة آلاف من العسكر ليرابطهم بالجيزة أو بقليوب ويجاهد في سبيل الله، فكتبوا له أجوبة مضمونها: إن كان حضوره يقصد الجهاد فينبغي أن يتقدم بمن معه إلى إسكندرية، وإذا حصل له النصر تكون له اليد البيضاء والمنقبة والذكر والشهرة الباقية، فإنه لا فايدة بإقامته بالجيزة أو قليوب، وخصوصًا قليوب بالبر الشرقي.

وكان حسن باشا خرج بعرضيه في موكب إلى ناحية الخلا قبل ذلك بأيام، ويرجع إلى داره آخر النهار فيبيت بها، ثم يخرج في الصباح وعساكره وأوباشه ينتشرون بتلك النواحي يعبثون ويخطفون متاع الناس ومبيعات الفلاحين وأهل بولاق، وفي كل يوم يشيعون بأنه مسافر إلى جهة البحيرة لمحاربة الإنكليز.

فلما ورد خبر مجي ياسين بك تأخر عن السفر، وعملوا مشورة فاقتضى رأيهم بأن حسن باشا يعدي إلى البر الغربي ويقيم بالجيزة؛ لئلا يأتي ياسين بك ويملكها، فعدى حسن باشا في يوم الاتنين عشرينه، وأقام بها وأعرض عن السفر إلى جهة البحيرة.

وفيه وردت الأخبار الصحيحة بأخذ إسكندرية، واستيلا الإنكليز عليها يوم الخميس المتقدم تاسع الشهر، ودخلوها وملكوا الأبراج يوم الأحد صبيحة النهار. وسكن صاري عسكرهم بوكالة القنصل، وشرطوا مع أهالي البلد شروط منها أنهم لا يسكنون البيوت قهرًا عن أصحابها بل بالمؤاجرة والتراضي، ولا يمتهنون المساجد ولا يبطلون منها الشعاير الإسلامية، وأعطوا أمين أغا الحاكم أمانًا على نفسه وعلى من معه من العسكر،

وأذنوا لهم بالذهاب إلى أي محل أرادوه، ومن كان له دَيْن على الديوان يأخذ نصيبه حالًا والنصف التاني موجلًا.

ومن أراد السفر في البحر من التجار وغيرهم فليسافر في خفارتهم إلى أي جهة أراد ما عدا إسلامبول، وأما المغرب والشام وتونس وطرابلس ونحوها، فمطلق السراح لا حرج ذهابًا وإيابًا.

ومن شروطهم التي شرطوها مع أهل البلد أنهم إن احتاجوا إلى قومانية أو مال لا يكلفون أهل إسكندرية بشي من ذلك، وأن محكمة الإسلام تكون مفتوحة تحكم بشرايعها، ولا يكلفون أهل الإسلام بقيام دعوى عند الإنكليز بغير رضاهم والحمايات من أي بنديرة تكون مقبولة عند الإنكليز الموجودين في إسكندرية، ويقيمون مأمونين رعاية لخاطر أهل إسكندرية، ولم يحصل لهم شي من المكروه من كامل الوجوه حتى الفرنساوية.

والجمارك من كل الجهات على كل ماية اثنان ونصف، وعلى ذلك انتهت الشروط، وليعلم أن هذه الطايفة من الإنكليز ومن انضم إليهم — وعدتهم على ما قيل ستة آلاف — لم تأتِ إلى الثغر طمعًا في أخذ مصر، بل كان ورودهم ومجيهم مساعدة ومعاونة للألفي على أخصامه باستدعاه لهم استنجاده بهم قبل تاريخه؛ وسبب تأخرهم في المجي لما بينهم وبين العثماني من الصلح، فلا يتعدون على ممالكه من غير إذنه لمحافظتهم على القوانين.

فلما وقعت الفرد بينهم وبينه بما تقدم، فعند ذلك انتهزوا الفرصة وأرسلوا هذه الطايفة، وكان الألفي ينتظر حضورهم بالبحيرة، فلما طال عليه الانتظار وضاقت عليه البحيرة ارتحل بجيوشه مقبلًا، وقضى الله موته بإقليم الجيزة، وحضر الإنكليز بعد ذلك إلى إسكندرية فوجدوه قد مات، فلم يسعهم الرجوع فأرسلوا إلى الأُمرا القبليين يستدعونهم ليكونوا مساعدين لهم على عدوهم ويقولون لهم: إنما جينا إلى بلادكم باستدعا الألفي لمساعدته ومساعدتكم فوجدنا الألفي قد مات، وهو شخص واحد منكم، وأنتم جمع فلا يكون عندكم تأخير في الحضور لقضا شغلكم؛ فإنكم لا تجدون فرصة بعد هذه وتندمون بعد ذلك إن تلكأتم.

فلما وصلتهم مراسلة الإنكليز تفرق رأيهم، وكان عثمان بك حسن منعزلًا عنهم وهو يدعي الورع، وعنده جيش كبير فأرسلوا إليه يستدعونه، فقال: أنا مسلم هاجرت وجاهدت وقاتلت في الفرنساوية، والآن أختم عملي وألتجي إلى الإفرنج، وأنتصر بهم على المسلمين! أنا لا أفعل ذلك.

وعثمان بك يوسف كان بناحية الهو، وكان الباشا يحارب الذين بناحية أسيوط، وهم المرادية والإبراهيمية والألفية، والتقى معهم وانكسروا منه وقتل منهم أشخاصًا.

فلما ورد عليه خبر الإنكليز انفعل لذلك وداخله وهم كبير، وأرسل إليهم المشايخ وخلافهم يطلبهم للصلح، وكان ما سيتلى عليك قريبًا وما كان إلا ما أراده المولى — جل جلاله — من تعسة الإنكليز والقطر وأهله، إلا أن يشاء الله.

وفيه وصل مكتوب من محمد علي باشا يطلب مصطفى أغا الوكيل وعلي كاشف الصابونجي؛ ليرسلهم إلى الأمرا القبالي فتراخوا في الذهاب؛ لكونهم وجدوا تاريخ المكتوب حادي عشر الشهر، فعلموا أن ذلك قبل تحقق خبر الإنكليز.

ثم ورد منه مكتوب آخر يذكر فيه عزمه على الرجوع إلى مصر قريبًا فإن العساكر يطالبونه بالعلايف، ويأمرهم فيه بتحصيل ذلك وتنظيمه ليستلموها عند حصولهم بمصر ويتجهزوا لمحاربة الإنكليز.

وفي تالت عشرينه ورد مكتوب من أهالي دمنهور خطابًا إلى السيد عمر مكرم النقيب مضمونه: أنه لما دخلت المراكب الإنكليزية إلى سكندرية هرب من كان بها من العساكر وحضروا إلى دمنهور، فعندما شاهدهم الكاشف الكاين بدمنهور ومن معه من العسكر انزعجوا انزعاجًا شديدًا، وعزموا على الخروج من دمنهور، فخاطبهم أكابر الناحية قايلين لهم: كيف تتركونا وتذهبوا ولم تروا منا خلافًا، وقد كنا فيما تقدم من حروب الألفي من أعظم المساعدين لكم؟ فكيف لا نساعد الآن بعضنا بعضًا في حروب الإنكليز؟ فلم يستمعوا لقولهم لشدة ما داخلهم من الخوف وعبوا متاعهم، وأخرج الكاشف أثقاله وجبخانته ومدافعه وتركها وعدى وذهب إلى فوة من ليلته، ثم أرسل في تاني يوم من أخذ الأثقال، فهذا ما حصل أخبرناكم به.

وأما «أحمد بك» بونابارته الخازندار الذي سافر لحرب الإنكليز، فإنه نزل على القليوبية وفعل ما أمكنه وقدر عليه بالبلاد من السلب والنهب والجور والكلف والتساويف، حتى وصل إلى المنوفية وكذلك طاهر باشا الذي سافر في أثره، وإسماعيل كاشف المعروف بالطوبجي فرض على البلاد جمالًا وخيولًا وأبقارًا وغير ذلك.

ومن جملة أفاعيلهم أنهم يوزعون الأغنام المنهوبة على البلاد ويلزمونهم بعلفها وكلفها، ثم يطلبون أثمانها مضاعفة بما يضاف إلى ذلك من حق طريق المعينين وأمثال ذلك.

وفي يوم الجمعة رابع عشرينه وردت أخبار من ثغر رشيد يذكرون بأن طايفة من الإنكليز وصلت إلى رشيد في صبح يوم التلات حادي عشرينه، ودخلوا إلى البلد، وكان أهل البلدة ومن معهم من العساكر متنبهين ومستعدين بالأزقة والعطف وطيقان

البيوت، فلما حصلوا بداخل البلدة ضربوا عليهم من كل ناحية، فألقوا ما بأيديهم من الأسلحة وطلبوا الأمان، فلم يلتفتوا لذلك وقبضوا عليهم وذبحوا منهم جملة كثيرة وأسروا الباقين، وفرَّ طايفة إلى ناحية دمنهور، وكان كاشفها عندما بلغه ما حصل برشيد اطمأن خاطره، ورجع إلى ناحية ديبي ومحلة الأمير وطلع بمن معه إلى البر، فصادف تلك الشرذمة فقتل بعضهم وأخذ ما بقي منهم أسرى وأرسلوا السعاة إلى مصر بالبشارة، فضربوا مدافع وعملوا شنكًا وخلع كتخدا بك على السعاة الواصلين، وأسرعت المبشرون من أتباع العثمانيين وهم القواسة الأتراك بالسعي إلى بيوت الأعيان يبشرونهم ويأخذون منهم البقاشيش والخلع، وصار الناس ما بين مصدق ومكذب.

فلما كان يوم الأحد سادس عشرينه أشيع وصول روس القتلى ومن معهم من الأسرى إلى بولاق، فهرع الناس بالذهاب للفرجة ووصل الكثير منهم إلى ساحل بولاق، وركب أيضًا كبار العسكر ومعهم طوايفهم لملاقاتهم، فطلعوا بهم إلى البر وصحبتهم جماعة العسكر المتسفرين معهم، فأتوا بهم من خارج مصر، ودخلوا بهم من بابا النصر وشقوا بهم من وسط المدينة وفيهم فسيال كبير وآخر كبير في السن، وهما راكبان على حمارين والبقية مشاة في وسط العسكر، وروس القتلى معهم على نبابيت وقد تغيرت وأنتنت ريحتها، وعدتهم أربعة عشر راسًا والأحيا خمسة وعشرون، ولم يزالوا سايرين بهم إلى بركة الأزبكية، وضربوا عند صولهم شنكًا ومدافع، وطلعوا بالأحيا مع فسيالهم إلى القلعة.

وفيه نبه السيد عمر النقيب على الناس وأمرهم بحمل السلاح، والتأهب للجهاد في الإنكليز حتى مجاوري الأزهر، وأمرهم بترك حضور الدروس، وكذلك أمر المشايخ المدرسين بترك إلقا الدروس.

وفيه وصل عابدين بك وعمر بك وأحمد أغا لاظ أوغلي من ناحية قبلي، وأشيع وصول الباشا بعد يومين.

وفي يوم الاتنين وصل أيضًا جملة من الروس والأسرى إلى بولاق، فطلعوا بها على الرسم المذكور وعدتهم ماية راس، وإحدى وعشرون راسًا وثلاثة عشر أسيرًا، وفيهم جرحى ومات أحدهم على بولاق فقطعوا راسه ورشقوها مع الروس، وشقوا بها من وسط المدينة آخر النهار.

وفي يوم التلات حصلت جمعية ببيت القاضي، وحضر حسن باشا وعمر بك والدفتردار وكتخدا بك السيد عمر النقيب والشيخ الشرقاوي والشيخ الأمير وباقي المشايخ، فتكلموا في شأن حادثة الإنكليز والاستعداد لحربهم وقتالهم وطردهم، فإنهم

أعدا الدين والملة، وقد صاروا أيضًا أخصامًا للسلطان؛ فيجب على المسلمين دفعهم، ويجب أيضًا أن يكون الناس والعسكر على حال الألفة والشفقة والاتحاد، وأن تمتنع العساكر عن التعرض للناس بالإيذا كما هو شأنهم، وأن يساعدوا بعضهم بعضًا على دفع العدو.

ثم تشاوروا في تحصين المدينة وحفر خنادق، فقال بعضهم: إن الإنكليز لا يأتون إلا من البر الغربي والنيل حاجز بين الفريقين، وإن الفرنساوية كانوا أعلم بأمر الحروب وإنهم لم يحفروا إلا الخندق المتصل من باب الحديد إلى البر، فينبغي الاعتنا بإصلاحه، ولو لم يكن كوضعهم وإتقانهم، إذ لا يمكن فعل ذلك، واتفقوا على ذلك.

وفيه حضر مكتوب من ثغر رشيد عليه إمضا علي بك حاكم رشيد وأحمد بك المعروف ببونابارته مورخ بيوم الجمعة رابع عشرينه، يذكرون فيه أن الإنكليز لما حضروا إلى رشيد، وحصل لهم ما حصل من القتل والأسر، ورجعوا خايبين حصل لباقيهم غيظ عظيم، وهم شارعون في الاستعداد للعود والمحاربة، والقصد أن تسعفونا وتمدونا بإرسال الرجال والمحاربين والأسلحة والجبخانة بسرعة وعجلة، وإلا فلا لوم علينا بعد ذلك، وقد أخبرناكم وعرَّفناكم بذلك، فأرسلوا في ذلك عدة من المقاتلين، وكتبوا مكاتبات إلى البلاد والعربان الكاينين ببلاد البحيرة، يدعونهم للمحاربة والمجاهدة، وكذلك أرسلوا في تاني يوم عدة من العسكر.

وفي يوم الأربع تاسع عشرينه ركب السيد عمر النقيب والقاضي والأعيان المتقدم ذكرهم، ونزلوا إلى ناحية بولاق لترتيب أمر الخندق المذكور، وصحبتهم قنصل الفرنساوية وهو الذي أشار عليهم بذلك، وصحبتهم الجمع الكثير من الناس والأتباع والكل بالأسلحة.

وفيه وصل المشايخ التلاتة الذين كانوا ذهبوا لإجرا الصلح بين الباشا والأُمرا القبالي، وذهبوا إلى دورهم، وكان من خبرهم أنهم لما وصلوا إلى الباشا بناحية ملوي، استأذنوه في الذهاب فيما أتوا بسببه من السعي في الصلح، فاستمهلهم وتركهم بناحية ملوي، واستعد وذهب إلى أسيوط وأودع الجماعة بمنفلوط، وتلاقى مع الأُمرا وحاربهم وظهر عليهم، وقتل من الأُمرا في تلك المعركة سليمان بك المرادي المعروف بـ «ريَّحه» بتشديد الياء، وسليمان بك الأغا.

ورجع الأُمرا القبالي إلى ناحية بحري، فعند ذلك حضر المشايخ، وكتب محمد علي مكاتبات إلى الأمرا وأرسلها صحبة المشايخ المذكورين إلى الأمرا وكانوا بالجانب الغربي بناحية ملوي، فتفاوضوا معهم فيما أتوا بسببه من أمر الصلح مع الباشا وكف الحروب، فقالوا: كم من مرة يراسلنا في الصلح ثم يغدر بنا ويحاربنا، فاحتجوا عليهم بما لقنه

لهم من مخالفتهم لأكثر الشروط التي كان اشترطها عليهم من إرسال الأموال الميرية والغلال، وتعديهم على الحدود التي يحددها معهم في الشروط، ثم إنهم اختلوا مع بعضهم وتشاوروا فيما بينهم، وكان عثمان بك حسن منعزلًا عنهم بالبر الشرقي، ولم يكن معهم في الحرب ولا في غيره، وبعد انقضا الحرب استعلى إلى جهة قبلي، وعثمان بك يوسف كان أيضًا بناحية الهو والكوم الأحمر.

وفي أثنا ذلك ورد على الباشا خبر الإنكليز وأخذهم إسكندرية، وأرسلوا رسلهم إلى الأمرا القبالي، فارتبك في أمره وأرسل إلى المشايخ يستعجلهم في إجرا الصلح وقبولهم كل ما اشترطوه على الباشا، ولا يخالفوهم في شي يطلبوه أبدًا ولما وصلتهم رسل الإنكليز اختلفت آراهم وأرسلوا إلى عثمان بك حسن يخبروه ويستدعوه للحضور، فامتنع وتورع، وقال: أنا لا أنتصر بالكفار. ووافقه على رأيه ذلك عثمان بك يوسف.

واختلف آراء باقي الجماعة، وهم: إبراهيم بك الكبير وشاهين بك المرادي وشاهين بك الألفي وباقي أمراهم، فاجتمعوا ثانيًا بالمشايخ وقالوا لهم: ما المراد بهذا الصلح؟ فقالوا: المراد منه راحة الطرفين ورفع الحروب واجتماع الكلمة، ولا يخفاكم أن الإنكليز تخاصمت مع سلطان الإسلام وأغارت على ممالكه وطرقت ثغر إسكندرية، ودخلتها وقصدهم أخذ الإقليم المصري كما فعل الفرنساوية، فقالوا: إنهم أتوا باستدعا الألفي لنصرتنا ومساعدتنا.

فقالوا: لا تصدقوا أقوالهم في ذلك، وإذا تملكوا البلاد لا يبقوا على أحد من المسلمين، وحالهم ليس كحال الفرنساوية؛ فإن الفرنساوية لا يتدينون بدين، ويقولون بالحرية والتسوية، وأما هولا الإنكليز فإنهم نصارى على دينهم ولا تخفى عداوة الأديان، ولا يصح ولا ينبغي منكم الانتصار بالكفار على المسلمين، ولا الالتجا إليهم، ووعظوهم وذكروا لهم الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وأن الله هداهم في طفوليتهم وأخرجهم من الظلمات إلى النور، وقد نشوا في كفالة أسيادهم وتربوا في حجور الفُقها وبين أظهر العُلما، وقروا القرآن وتعلموا الشرايع، وقطعوا ما مضى من أعمارهم في دين الإسلام، وإقامة الصلوات والحج والجهاد، ثم يفسدون أعمالهم آخر الأمر ويوالون من حاد الله ورسوله ويستعينون بهم على إخوانهم المسلمين، ويملكونهم بلاد الإسلام يتحكمون في أهلها، فالعياذ بالله من ذلك.

وكان بصحبة المشايخ مصطفى أفندي كتخدا قاضي العسكر يكلمهم باللغة التركية، ويترجم لهم ذلك وهو فصيح الكلام، فقالوا: كل ما قلتموه وأبديتموه نعلمه، ولو تحققنا

الأمن والصدق من مراسلكم ما حصل منا خلاف ولحاربنا وقاتلنا بين يديه، ولكنه غدار لا يفي بوعد ولا يبر في يمين ولا يصدق في قول. وقد تقدم أنه يصطلح معنا، وفي أثر ذلك يأتي لحربنا ويقتلنا ويمنع عنا من يأتي إلينا باحتياجاتنا من مصر، ويعاقب على ذلك حتى من يأتي من الباعة والمتسببين إلى الناحية التي نحن فيها.

ولا يخفاكم أنه لما أتى القبودان ومعه الأوامر بالرِّضَى والعفو الكامل عنا، والأمر له بالخروج فلم يمتثل وأرسل إلينا وخدعنا وتحيل علينا بإرسال الهدايا وصدقناه، واصطلحنا معه فلما تم له الأمر غدر بنا، وما مراده بصلحنا إلا تأخرنا عن ذهابنا إلى الإنكليز، فلا نذهب إليهم ولا نستعين بهم، وإن كان مراده يعطينا بلادًا يصالحنا عليها فها هي البلاد بأيدينا وقد عمها الخراب باستمرار الحروب من الفريقين، وقد تفرق شملنا وانهدمت دورنا، ولم يبقَ لنا ما نأسف عليه أو نتحمل المذلة من أجله، وقد ماتت إخواننا ومماليكنا، فنحن نستمر على ما نحن معه عليه حتى نموت عن آخرنا ويرتاح قلبه من جهتنا.

فقال لهم الجماعة: هذه المرة هي الأخرى وليس بعدها شر ولا حرب، بل بعدها الصداقة والمصافاة ويعطيكم كل ما طلبتموه من بلاد وغيرها، فلو طلبتم من إسكندرية إلى أسوان لا يمنع ذلك بشرط أن تكونوا معنا بالمساعدة في حرب الإنكليز ودفعهم عن البلاد، وأيضًا تسيرون بأجمعكم من البر الغربي والباشا وعساكره من البر الشرقي، وعند انقضا أمر الإنكليز ورجوعكم إلى بر الجيزة ينعقد مجلس الصلح بحضرة المشايخ الكبار والنقيب والوجاقلية وأكابر العسكر، وإن شيتم عقدنا مجلس الصلح بالجيزة قبل التوجه لمحاربة الإنكليز، ولا شر بعد ذلك أبدًا؛ فانخدعوا لذلك وكتبوا أجوبة، ورجع بها مصطفى أفندي كتخدا القاضي وصحبته يحيى كاشف، ثم رجع تانيًا وسار الفريقان إلى جهة مصر وحضر المشايخ وأخبروا بما حصل.

وفيه شرعوا في حفر الخندق المذكور ووزعوا كلفة حفره على مياسير الناس وأهل الوكايل والخانات والتجار، وأرباب الحرف والروزنامجي، وجعلوا على البعض أجرة ماية رجل من الفعلة، وعلى البعض أجرة خمسين، وعشرين، وكذلك أهل بولاق ونصارى ديوان المكس، والنصارى الأروام والشوام والأقباط واشتروا المقاطف والغلفان والفوس والقزم وآلات الحفر، وشرعوا في بنا حايط مستدير أسفل تل قلعة السبتية.

وفي يوم الخميس غايته ورد مكتوب من السيد حسن كريت نقيب الأشراف برشيد، والمشار إليه بها يذكر فيه أن الإنكليز لما وقع لهم ما وقع برشيد، ورجعوا في هزيمتهم إلى

إسكندرية استعدوا وأحضروا إلى ناحية الحماد قبلي رشيد، ومعهم المدافع الهايلة والعدد، ونصبوا متاريسهم من ساحل البحر إلى الجبل عرضًا، وذلك ليلة التلات تامن عشرينه. فهذا ما حصل أخبرناكم به، ونرجو الإسعاف والإمداد بالرجال والجبخانه والعُدَّة والعَدد وعدم التأني والإهمال.

فلما وصل ذلك الجواب قرأه السيد عمر مكرم النقيب على الناس، وحثَّهم على التأهب والخروج للجهاد، فامتثلوا ولبسوا الأسلحة، وجمع إليه طايفة المغاربة، وأتراك خان الخليلي، وكثيرًا من العدوية والأسيوطية، وأولاد البلد، وركب في صبحها إلى كتخدا بك، واستأذنه في الذهاب فلم يرضَ، وقال: حتى يأتي أفندينا الباشا ويرى رأيه في ذلك، فسافر من سافر وبقي من بقي وانقضى الشهر وحوادثه.

وفيه ورد الخبر بأن ركب الحاج الشامي رجع من منزلة هدية، ولم يحج في هذا العام؛ وذلك أنه لما وصل إلى المنزلة المذكورة أرسل الوهابي إلى عبد الله باشا أمير الحاج يقول له: تأتِ إلا على الشرط الذي شرطناه عليك في العام الماضي، وهو أن يأتي بدون المحمل وما يصحبهم من الطبل والزمر والأسلحة، وكل ما كان مخالفًا للشرع، فلما سمعوا ذلك رجعوا من غير حج، ولم يتركوا مناكيرهم.

واستهل شهر صفر بيوم الجمعة (سنة ١٢٢٢)

فيه كتبوا مراسلة إلى الأمرا القبالي، وختم عليها كثير من مشايخ الأزهر وغيرهم وأرسلوها إليهم.

وفي يوم السبت تانيه وردت مكاتبة أيضًا من ثغر رشيد وعليها إمضا علي بك السنانكلي حاكم الثغر، وطاهر باشا وأحمد أغا المعروف ببونابارته، بمعنى مكتوب السيد حسن السابق، ويذكرون فيه أن الإنكليز ملكوا أيضًا كوم الأفراح وأبو منضور ويستعجلون النجدة.

وفي تلك الليلة — أعني ليلة الأحد — وصل محمد علي باشا ودخل إلى داره بالأزبكية في سادس ساعة من الليل، وكان أشيع وصوله قبل ذلك اليوم، وخرج السيد عمر النقيب والمشايخ والمحروقي لملاقاته يوم الجمعة، فبعضهم ذهب إلى الآثار وبات هناك، وبعضهم بات بالقرافة بضريح الإمام الشافعي، ورجعوا في تاني يوم يحصل لهم ملاقاة.

فلما طلع نهار ذلك اليوم وأشيع حضوره إلى داره ركب الجميع وذهبوا للسلام عليه، ودار بينهم الكلام في أمر الإنكليز، فأظهر الاهتمام، وأمر كتخدا بك وحسن باشا

بالخروج في ذلك اليوم، فأخرجوا أطلابهم وعازلهم إلى بولاق، وسخط على أهل إسكندرية والشيخ المسيري وأمين أغا؛ حيث مكَّنوا الإنكليز من الثغر وملكوهم البلدة، ولم يقبل لهم عذرًا في ذلك.

ثم قالوا له: إنا نخرج جميعًا للجهاد مع الرعية والعسكر، فقال: ليس على رعية البلد خروج، وإنما عليهم المساعدة بالمال لعلايف العسكر، وانقضى المجلس وركبوا إلى دورهم.

وفيه وصل حجاج المغاربة إلى مصر من طريق البر، وأخبروا أنهم حجوا وقضوا مناسكهم وأن مسعود الوهابي وصل إلى مكة بجيش كثيف، وحج مع الناس بالأمن وعدم الضرر ورخا الأسعار، وأحضر مصطفى جاويش أمير الركب المصري، وقال له: ما هذه العويدات والطبول التي معكم؟ يعني بالعويدات المحمل، فقال: هو إشارة وعلامة على اجتماع الناس بحسب عادتهم، فقال: لا تأتِ بذلك بعد هذا العام، وإن أتيت به أحرقته.

وأنه هدم القباب وقبة آدم وقباب ينبع والمدينة، وأبطل شرب التنباك والنارجيلة من الأسواق وبين الصفا والمروة، وكذلك البدع.

وفي تلك الليلة أرسل الباشا وطلب السيد عمر في وقت العشا الأخيرة، وألزمه بتحصيل ألف كيس لنفقة العسكر وأن يوزعها بمعرفته.

وفي يوم الاتنين رابعه: دخلت طوايف العسكر الواصلين من الجهة القبلية إلى المدينة، وطلبوا سكنى البيوت كعادتهم، ولم يرجعوا إلى الدور التي كانوا ساكنين بها وأخربوها.

وفي يوم التلات: وردت مكاتبة من رشيد وعليها إمضا السيد حسن كريت، يخبر فيها بأن الإنكليز محتاطون بالثغر، ومتحلقون حوله، ويضربون على البلد بالمدافع والقنابر، وقد تهدم الكثير من الدور والأبنية، ومات كثير من الناس، وقد أرسلنا لكم قبل تاريخه نطلب الإغاثة والنجدة، فلم تسعفونا بإرسال شي، وما عرفنا لأي شي هذا الحال، وما هذا الإهمال، فالله الله في الإسعاف؛ فقد ضاق الخناق وبلغت القلوب الحناجر من توقع المكروه وملازمة المرابطة والسهر على المتاريس، ونحو ذلك من الكلام، وهي خطاب للسيد عمر النقيب والمشايخ، ومؤرخة في ثاني شهر صفر.

وفي ذلك اليوم: اهتم الباشا وعزم على السفر بنفسه، وركب إلى بولاق وصحبته حسن باشا وعابدين بك وعمر بك، فسافروا في تلك الليلة.

وفي يوم الأربع: سافر أيضًا حجو بك وخرج معه بعض المتطوعة من الأتراك وغيرهم، تهيَّئُوا واتفقوا مع المسافرين معهم، وأمدهم الكثير من إخوانهم بالاحتياجات والذخيرة والمؤن، ونصبوا لهم بيرقًا وخرجوا ومعهم طبل وزمر.

وفي يوم الجمعة ركب أيضًا أحمد أغا لاظ، وشق بعساكره الذين كان بهم بالمنية، وتداخل فيهم الكثير من أجناسهم وغيرهم من مغاربة وأتراك بلدية، ومر الجميع من وسط المدينة في عدة وافرة، ويذهب الجميع إلى بولاق يوهمون أنهم مسافرون على قدم الاستعجال بهمة ونشاط واجتهاد، فإذا وصلوا إلى بولاق تفرقوا، ويرجع الكثير منهم، ويراهم الناس في اليوم التاني والتالت بالمدينة، ومن تقدم منهم وسافر بالفعل ذهب فريق منهم إلى المنوفية، وفريق إلى الغربية؛ ليجمعوا في طريقهم من أهل البلاد والقرى ما تصل إليه قدرة عسفهم من المال والمغارم والكلف، وخطف البهايم ورعي المزارع وخطف النسا والبنات والصبيان وغير ذلك.

وفيه سافر أيضًا حسن باشا طاهر، وفيه نزل الدلاتية إلى بولاق وكذلك الكثير من العسكر، وحصل منهم الإزعاج في أخذ الحمير والجمال قهرًا من أصحابها، ونزلوا بخيولهم على ربب البرسيم والغلال الطايبة التي بناحية بولاق وجزيرة بدران وخلافها، فرعتها وأكلتها بهايمهم في يوم واحد، ثم انتقلوا إلى ناحية منية السيرج وشبرا والزاوية الحمرا والمطرية والأميرية، فأكلوا زروعات الجميع وخطفوا مواشيهم، وفجروا بالنسا وافتضوا الأبكار ولاطوا بالغلمان، وأخذوهم وباعوهم فيما بينهم حتى باعوا البعض بسوق مسكة وغيره، وهكذا تفعل المجاهدون.

ولشدة قهر الخلايق منهم وقبح أفعالهم تمنوا مجي الإفرنج من أي جنس كان وزال هولا الطوايف الخاسره الذين ليس لهم ملة ولا شريعة ولا طريقة يمشون عليها؛ فكانوا يصرخون بذلك بمسمع منهم فيزداد حقدهم وعداوتهم ويقولون: أهل هذه البلاد ليسوا مسلمين؛ لأنهم يكرهوننا ويحبون النصارى. ويتوعدونهم إذا خلصت لهم البلاد ولا ينظرون لقبح أفعالهم.

وفي يوم الاتنين حادي عشره: حضر جماعة من الططر الذين من عادتهم يأتون بالأخبار والبشارات بالمناصب، وقد وصلوا من طريق الشام يبشرون بولاية السيد علي باشا قبودان باشا، وعزل صالح قبودان عن رياسة الدونانمة، ويذكرون أنه خرج بالدونانمة التي تسمى بالعمارة، وصحبته عدة مراكب فرنساوية قاصدين جهة مالطة ليقطعوا على الإنكليز الطرق.

وأن هولا الططر الواصلين لم يعلموا بورود الإنكليز إلى إسكندرية إلا عند وصولهم صيدا. وذكروا أن سبب عزل صالح القبودان أن الإنكليز وردوا بغاز إسلامبول باثني عشر مركبًا، وقيل أربعة عشر، وظلوا داخلين والمدافع تضرب عليهم من القلاع المتقابلة،

فلم يبالوا بذلك حتى حصلوا بداخل المينة تجاه البلد؛ فانزعج أهالي البلد انزعاجًا شديدًا، وصرخت النسا، وهاجت المدينة وماجت بأناسها، لو ضرب عليها الإنكليز لاحترقت عن آخرها، لكنهم لم يفعلوا بل استمروا يومهم، ورموا مراسيهم، ثم أخذوها وولوا راجعين ولسان حالهم يقول: ها نحن ولجنا بغازكم الذي تزعمون أنه لا أحد يقدر على عبوره، وقدرنا عليكم وعفونا عنكم، ولو شينا أخذ دار سلطنتكم لأخذناها أو أحرقناها، وعندما فعلوا ذلك طلب السلطان قبودان باشا فوجدوه يتعاطى الشراب في بعض الأماكن، فعند ذلك أحضروا السيد علي وقلدوه رياسة الدونانمة، ونزل إلى الإنكليز وتكلم معهم إلى أن خرجوا من البغاز، وأخرجوا صالح قبودان منفيًّا إلى بعض الجهات.

وفي ذلك اليوم: طلع الباشا إلى القلعة وصحبته قنصل الفرنساوية يهندس معه الأماكن ومواطن الحصار، والقنصل المذكور مظهر الاهتمام والاجتهاد، ويسهل الأمر ويبذل النصح ويكثر من الركوب والذهاب والإياب وأمامه الخدم، وبأيديهم الحراب المفضضة، وخلفه ترجمانه وأتباعه.

وفيه: أرسل الأمرا القبليون جوابًا عن جواب أرسل إليهم قبل ذلك، وعليه ختوم كثيرة باستدعاهم واستعجالهم للحضور، فأرسلوا هذا الجواب يعتذرون فيه بأن السبب في تأخرهم أنهم لم يتكلموا، وأن أكثرهم متفرقون بالنواحي مثل عثمان بك حسن وغيره، وأنهم إلى الآن لم يثبت عندهم حقيقة الأمر؛ لأن من الثابت عندهم صداقة الإنكليز مع العثماني من قديم الزمان، وأن المراسيم التي وردت بالتحذير بالتحفظ من الموسكوب ولم يذكر الإنكليز.

فاتفق الحال بأن يراسلوا لهم جوابًا بالحقيقة صحبة مصطفى أفندي كتخدا القاضي، ويصحب معه المراسيم التي وردت في شأن ذلك، وفيها ذكر الإنكليز ومنابذتهم للدولة.

فسافر الكتخدا المذكور في صبحها إليهم، وكانوا حضروا إلى ناحية المنية.

وأما ياسين بك فإنه أذعن للصلح على أن يعطيه الباشا أربعماية كيس بعد ترداد المراسلات بينه وبين الباشا، ثم إنه عدى إلى ناحية شرق أطفيح، وفرض عليهم الأموال الجسيمة، وكان أهل تلك البلاد اجتمعوا بصول والبرنبل بمتاعهم وأموالهم ومواشيهم، فنزل عليهم وطلب منهم الأموال فعصوا عليه، فأوقد فيهم النيران وحرق جرونهم ونهبهم.

وفي عصر يوم التلات حضر جماعة من العرب، وصحبتهم ثلاثة أنفار من الإنكليز قبضوا عليهم من البرية، وأحضروهم إلى مصر فمثلوا بين يدي الباشا وكلمهم ثم أمر بطلوعهم إلى القلعة، وفيهم شخص كبير يقال إنه من قباطينهم.

وفي يوم الخميس رابع عشره: عملوا ديوانًا ببيت القاضي اجتمع فيه الدفتردار والمشايخ والوجاقلية، وقروا مرسومًا تقدم حضوره قبل وصول الإنكليز إلى إسكندرية مضمونه: ضبط تعلقات الإنكليز وما لهم من المال والودايع والشركات مع التجار بمصر والثغور.

وفي ذلك اليوم: حضر شخصان من السعاة، وأخبرا بالنصر على الإنكليز وهزيمتهم، وذلك أنه اجتمع الجم الكثير من أهالي بلاد البحيرة وغيرها وأهالي رشيد، ومن معهم من المتطوعة والعساكر وأهل دمنهور، وصادف وصول كتخدا بك وإسماعيل كاشف الطوبجي إلى تلك الناحية، فكان بين الفريقين مقتلة كبيرة، وأسروا من الإنكليز طايفة وقطعوا منهم عدة روس فخلع الباشا على الساعيين جوختين.

وفي إثر ذلك وصل أيضًا شخصان من الأتراك بمكاتبات بتحقيق ذلك الخبر، وبالغا في الأخبار، وأن الإنكليز انجلوا عن متاريس رشيد وأبي منضور والحماد.

ولم يزل المقاتلون من أهل القرى خلفهم إلى أن توسطوا البرية، وغنموا جبخاناتهم وأسلحتهم ومدافعهم ومهراسين عظيمين، وذكروا أنه واصل خلفهم أسرى وروس قتلى كثيرة في عدة مراكب، وأنه وصل معهما من جملة المتطوعين رجلان من أهل مكة التجار المقيمين بمصر كانا في الواقعة، بنحو ماية من البدو والمغاربة وغيرهم ينفقان عليهم، ويحرضانهم على القتال، ويعينان المقاتلين من الأهالي بما في أيديهما، ويقاتلان بأنفسهما، وبذلا جهدهما في ذلك، وأنهما بعد هزم الإنكليز وسلبهم فرَّقا ما غنماه، وما بقي معهما من الأشيا على من خرج خلف الإنكليز، وحضرا معهما: وهما السيد أحمد النجاري وأخوه السيد سلامة، فطلبهما الباشا وسألهما عن الخبر فأخبراه بخبر التركيين؛ فانسر الباشا لذلك سرورًا عظيمًا، وشكر فعلهما وأنعم عليهما وخلع عليهما، ورتب لهما مرتبًا وأوعدهما بالاستخدام في مصالحه، وخلع على ذينك التركيين فروتَي سمور، وحضرا بصحبة الساعيين إلى منزل السيد عمر النقيب بعد الغروب، وتعشوا عنده وطلبوا البقشيش، وبعد أن أخذوه توسل التركيان به بأن يسعى لهما عند الباشا في أن ينعم عليهما بمناصب، فأوعدهما بذلك، وترجى الباشا لهما؛ فضاعف مرتبهما، وضربوا في صبح ذلك اليوم مدافع كثيرة من القلعة بالأزبكية وبولاق والجيزة، وذك بين الظهر والعصر.

وفي يوم الجمعة خامس عشره: حضروا بأسرى وعدتهم تسعة أشخاص وعدة روس، فمروا بهم من وسط الشارع الأعظم، وأما الروس فمروا بها من طريق باب

الشعرية، وعدتها نيف وتلاتون راسًا موضوعة على نبابيت رشقوها بوسط بركة الأزبكية مع الروس الأولى صفين على يمين السالك من باب الهوا إلى وسط البركة وشماله.

وفيه: وصل تلات داوات من جدة إلى ساحل السويس فيها أتراك وشوام وأجناس آخرون، وذكروا أن الوهابي نادى بعد انقضا الحج أن لا يأتي إلى الحرمين بعد هذا العام من يكون حليق الذقن، وتلا في المناداة قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ وأخرجوا هولا الواصلين إلى مصر.

وفي يوم السبت وصل أيضًا تسعة أشخاص أسرى من الإنكليز وفيهم فَسْيال.

وفي يوم الأحد: وصل أيضًا نيف وستون وفيهم راس واحدة مقطوعة، فمروا بهم على طريق باب النصر من وسط المدينة، وهرع الناس للتفرج عليهم.

وبعد الظهر أيضًا مروا بتلاتة وعشرين أسيرًا وثمانية روس، وبعد العصر بتلاتة وعشرين راسًا وأربعة وأربعين أسيرًا من ناحية باب الشعرية، وطلعوا بالجميع إلى القلعة.

وفي يوم الأربع: وصل إلى ساحل بولاق مراكب وفيها أسرى وقتلى وجرحى، فطلعوا بهم إلى البر وساروا بهم على طريق باب النصر، وشقوا بهم من وسط المدينة إلى الأزبكية، فرشقوا الروس بالأزبكية مع الروس الأولى وهم نحو الماية واتنين وأربعين، والأحيا والمجاريح نحو المايتين وعشرين، فطلعوا بهم إلى القلعة عند إخوانهم، فكان مجموع الأسرى أربعماية أسير وستة وستين أسيرًا، والروس تلثماية ونيف وأربعون، وفي الأسرى نحو العشرين من فسيالاهم، وهذه الوقعة حصلت على غير قياس، وصادف بناها على غير أساس. وقد أفسد الله رأي كلٍّ من طايفة من الإنكليز والأمرا المصرية وأهل الإقليم المصري؛ لبروز ما كتبه وقدره في مكنون غيبه على أهل الإقليم من الدمار الحاصل، وما سيكون بعد، كما ستسمع به ويتلى عليك بعضه، أما فساد رأي الإنكليز فلتعديهم إسكندرية مع قلتهم وسماعهم بموت الألفي وتغريرهم بأنفسهم.

وأما الأمرا المصريون فلا يخفى فساد رأيهم بحال. وأما أهالي الإقليم فلانتصارهم لمن يضرهم ويسلب نعمهم، وما أصاب من مصيبة فبما كسبت أيدي الناس، وما أصابك من سيئة فمن نفسك. ولم يخطر في الظن حصول هذا الواقع، ولا أن الرعايا والعسكر لهم قدرة على حروب الإنكليز، وخصوصًا شهرتهم بإتقان الحروب، وقد تقدم لك أنهم هم الذين حاربوا الفرنساوية وأخرجوهم من مصر.

ولما شاع أخذهم إسكندرية داخل العسكر والناس وهم عظيم، وعزم أكثر العسكر على الفرار إلى جهة الشام، وشرعوا في قضا أشغالهم واستخلاص أموالهم التي أعطوها

للمتضايقين والمستقرضين بالربا، وإبدال ما بأيديهم من الدراهم والقروش والفرانسة التي يثقل حملها بالذهب البندقي والمحبوب الزر لخفة حملها، حتى أنها زادت في المصارفة بسبب كثرة الطلب لها، وبلغ صرف البندقي المشخص الناقص في الوزن أربعماية وعشرين نصفًا، والزر مايتين وعشرين والفرانسة مايتين، واستمرت تلك الزيادة بعد ذلك، وسيزيد الأمر فحشًا، وسعوا في مشترى أدوات الارتحال، والأمور اللازمة لسفر البر، وفارق الكثير منهم النسا، وباعوا ما عندهم من الفرش والأمتعة.

حتى إن محمد علي باشا لما بلغه حصولهم بإسكندرية، وكان يحارب المصريين ويشدد عليهم، فعند ذلك انحلت عزايمه، وأرسل يصالحهم على ما يريدونه ويطلبونه، وثبت في يقينه استيلا الإنكليز على الديار المصرية، وعزم على العود متلكيًا في السير يظن سرعة ورودهم إلى المدينة، فيسير مشرقًا على طريق الشام، ويكون له عذر بغيبته في الجملة، فلما وصلت الشرذمة الأولى من الإنكليز إلى رشيد ودخلوها من غير مانع، وحبسوا أنفسهم فيها فقتلوا وأسروا، وهرب من هرب. ووصلت الروس والأسرى، وأسرعت المبشرون إلى الباشا بالخبر فعند ذلك تراجعت إليه نفسه، وأسرع في الحضور، وتراجعت نفوس العساكر وطمعوا عند ذلك في الإنكليز وتجاسروا عليهم، وكذلك أهل البلاد قويت هممهم وتأهبوا للبروز والمحاربة، واشتروا الأسلحة ونادوا على بعضهم بالجهاد، وكثر المتطوعون ونصبوا لهم بيارق وأعلامًا، وجمعوا من بعضهم دراهم وصرفوا على من انضم إليهم من الفقرا، وخرجوا في مواكب وطبول وزمور.

فلما وصلوا إلى متاريس الإنكليز دهموهم من كل ناحية على غير قوانين حروبهم وترتيبهم، وصدقوا في الحملة عليهم وألقوا أنفسهم في النيران، ولم يبالوا برميهم وهجموا عليهم، واختلطوا بهم وأدهشوهم بالتكبير والصياح حتى أبطلوا رميهم ونيرانهم، فألقوا سلاحهم وطلبوا الأمان؛ فلم يلتفتوا لذلك وقبضوا عليهم وذبحوا الكثير منهم وحضروا بالأسرى والروس على الصور المذكورة، وفر الباقون إلى من بقي بإسكندرية.

وليت العامة شكروا على ذلك، أو نسب إليهم فعل، بل نسب كل ذلك للباشا وعساكره وجوزيت العامة بضد الجزا بعد ذلك.

ولما أصعدوا الأسرى إلى القلعة طلع إليهم قنصل الفرنساوية، ومعه الأطباء لمعالجة الجرحى، ومهد لهم أماكن، وميز الكبار منهم والفسيالات في مكان يليق بهم، وفرش لهم فرشات، ورتب لهم تراتيب وصرف عليهم نفقات ولوازم، واستمر يتعاهدهم في غالب الأيام، والجرايحية يترددون إليهم في كل يوم لمداواتهم، كما هي عادة الإفرنج مع بعضهم إذا وقع في أيديهم جرحى من المحاربين لهم فعلوا بهم ذلك، وأكرموا الأسرى.

وأما من وقع منهم في أيدي العسكر من المردان فإنهم اختصوا بهم، وألبسوهم من ملابسهم وباعوهم فيما بينهم.

ومنهم من احتال على الخلاص من يد الفاسق بحيلة لطيفة، فمن ذلك أن غلامًا منهم قال للذي هو عنده: إن لي بولصة عند قنصل الفرنساوية وهي مبلغ عشرون كيسًا، ففرح وقال له: أرنيها، فأخرج له ورقة بخطهم وهو لا يعرف ما فيها، فأخذها منه طمعًا في إحرازها لنفسه، وذهب مسرعًا إلى القنصل وأعطاها له فلما قرأها قال له: لا أعطيك هذا المبلغ إلا بيد الباشا، ويعطيني بذلك رجعة بختمه لتخلص ذمتي، فلما صاروا بين يدي الباشا فأخبره القنصل فأمر بإحضار الغلام، فلما سأله الباشا فقال: أريد الخلاص منه واحتلت عليه بهذه الحيلة لأتوصل إليك، فطيب الباشا خاطر العسكري بدراهم، وأرسل الغلام إلى أصحابه بالقلعة.

ولما انقضى أمر الحرب من ناحية رشيد، وانجلت الإنكليز عنها، ورجعوا إلى إسكندرية نزل الأتراك على الحماد وما جاورها، واستباحوا أهلها ونساها وأموالها ومواشيها زاعمين أنها صارت دار حرب بنزول الإنكليز عليها وتملكها، حتى إن بعض الظاهرين كلمهم في ذلك فرد عليه بذلك الجواب.

فأرسلوا إلى مصر بذلك، وكتبوا في خصوص ذلك سؤالًا، وكتب عليه المفتون بالمنع وعدم الجواز، وحتى يأتي الترياق من العراق يموت الملسوع ومن يقرا ومن يسمع، وعلى أنه لم يرجع طالب الفتوى، بل أهملت عند المفتي وتركها المستفتي.

ثم أحاطت العساكر وريساهم برشيد، وضربوا على أهلها الضرايب وطلبوا منها الأموال والكلف الشاقة، وأخذوا ما وجدوه بها من الأرز للعليق، فخرج كبيرها السيد حسن كريت إلى حسن باشا وكتخدا بك وتكلم معهما وشنع عليهما، وقال: أما كفانا ما وقع لنا من الحروب وهدم الدور وكلف العسكر ومساعدتهم ومحاربتنا معهم ومعكم، وما قاسيناه من التعب والسهر، وإنفاق المال، ونجازى منكم بعدها بهذا الأفاعيل؟! فدعونا نخرج بأولادنا وعيالنا ولا نأخذ معنا شيًّا، ونترك لكم البلدة افعلوا بها ما شيتم! فلاطفوه في الجواب وأظهروا له الاهتمام بالمناداة والمنع، وكتب المذكور أيضًا مكاتبات بمعنى ذلك، وأرسلها إلى الباشا والسيد عمر بمصر؛ فكتبوا فرمانًا وأرسلوه بالكف والمنع وهيهات.

ولما وصل من وصل بالقتلى والأسرى أنعم الباشا على الواصلين منهم بالخلع والبقاشيش، وألبسهم شلنجات فضة على روسهم؛ فازداد جبروتهم وتعديهم، ولما رجع الإنكليز إلى ناحية إسكندرية قطعوا السد، فسالت المياه وغرقت الأراضي حول إسكندرية.

وفي يوم الأحد سابع عشره وصل ياسين بك إلى ناحية طرا، وحضر أبوه إلى مصر، ودخل كثير من أتباعه إلى المدينة، وهم لابسون زي المماليك المصرية.

وفيه دفنوا روس القتلى من الإنكليز، وكانوا قطعوا آذانهم ودبغوها وملحوها ليرسلوها إلى إسلامبول.

وفيه أرسل الباشا فسيالًا كبيرًا من الإنكليز إلى إسكندرية بدلًا عن ابن أخي عمر بك، وقد كان المذكور سافر إلى إسكندرية قبل الحادثة ليذهب إلى بلاده بما معه من الأموال فعوقه الإنكليز، فأرسلوا هذا الفسيال ليرسلوا بدله ابن أخي عمر بك.

وفي يوم الاتنين تامن عشره: وصلت خيام ياسين بك وحملاته، ونصبوا وطاقه جهة شبرا ومنية السيرج، وفي سادس عشرينه وصل ياسين بك المذكور وصحبته سليمان أغا صالح وكيل دار السعادة سابقًا، وهو الذي كان بإسلامبول، وحضر بصحبته القبودان في الحادثة السابقة، وتأخر عنه، واستمر مع الألفي، ثم مع أمراه بعد موته.

وكان الباشا قد أرسل له يستدعيه بأمان، فأجاب إلى الحضور بشرط أن يجري عليه الباشا مرتبه بالضربخانة، وقدر ذلك ألف درهم في كل يوم، فأجابه إلى ذلك وحضر صحبته ياسين بك، وقابلا الباشا وخلع عليهما خلعتَي سمور، ونزلا وركبا ولعبا مع أجنادهما بوسط البركة بالرماح، وظهر من حسن رماحة سليمان أغا ما أعجب الباشا ومَن حوله مِن الأتراك، بل أصابوه بأعينهم؛ لأنه بعد انقضا ذلك سار مع ياسين بك إلى ناحية بولاق يترامحون ويتلاعبون، فأخرج طبنجته بيده اليمنى والرمح في يده اليسرى، وكان زنادها مرفوعًا فانطلقت رصاصتها، وخرقت كفه اليسار القابض به على سرع الجواد، ونفدت من الجهة الأخرى، فرجع إلى داره بجراحته وأذن له برد حملته، وذهب ياسين بك إلى بولاق فبات بها في دار حسن الطويل بساحل النيل.

وفيه: سافر المتسفر بآذان قتلى الإنكليز وقد وضعوها في صندوق، وسافر بها على طريق الشام، وصحبته أيضًا شخصان من أسرى فسيالات الإنكليز، وكتبوا عرضًا بصورة الحال من إنشا السيد إسماعيل الخشاب وبالغوا فيه.

وفيه حضر إسماعيل كاشف الطوبجي من ناحية بحري؛ ليقضي بعض الأغراض ثم يعود.

وفي يوم الخميس تامن عشرينه: سافر عمر بك تابع عثمان بك الأشقر وعلي كاشف بن أحمد كتخدا إلى ناحية القليوبية؛ لأجل القبض على أيوب فودة بسبب رجل يسمى زغلول، ينسب إليه بأنه يقطع الطريق على المسافرين في البحر، وكلما مرت بناحيةٍ مركب

حاربها ونهب ما فيها من بضايع التجار وأموالهم، أو أنهم يفتدون أنفسهم منه بما يرضيه من المال؛ فكثر تَشكِّي الناس منه، فيرسلون إلى أيوب فودة كبير الناحية فيتبرأ منه.

فلما زاد الحال عينوا من ذُكر للقبض عليه وقتله، فبلغه الخبر فهرب من بلده إبْناس، فلما وصلوا إلى محله فلم يجدوه، فأحاطوا بموجوداته وغلاله وبهايمه وما له من المواشي والودايع بالبلاد، فلما جرى ذلك حضر إلى السيد عمر وصالَح على نفسه بتلاتماية كيس ورجع الحال إلى حاله، وذلك خلاف ما أخذه المعينون من الكلف والمغارم من البلاد التي مروا عليها وأقاموا فيها واحتجوا عليها.

وفيه: حضر الكثير من أهل رشيد بحريمهم وأولادهم، ورحلوا عنها إلى مصر.

وفيه: حضر كتخدا القاضي من الأمرا القبالي، وأخبر أنهم محتاجون إلى مراكب لحمل الغلال الميرية والذخيرة، فهيَّأ الباشا عدة مراكب وأرسلها إليهم.

ومع هذه الصورة وإظهار المصالحة والمسالمة، يمنعون ويحجزون من يذهب إليهم من دورهم بثياب ومتاع، وكذلك يمنعون المتسببين والباعة الذين يذهبون بالمتاجر والأمتعة التي يبيعونها عليهم، وإذا وقعوا بشخص أو غمزوا عليه عند الحاكم أو صادفه بعض العيون المترقبة عليه، قبضوا عليه ونهبوا ما معه وعاقبوه وحبسوه، بل نهبوا داره وغرموه ولا يُغفر ذنبه، ولا تُقال عثرته ويتبرأ منه كل من يعرفه.

وكذلك نبهوا على القلقات الذين يسمونهم الضوابط المتقيدين بأبواب المدينة، مثل: باب النصر وباب الفتوح والبرقية والباب الحديد بمنع النسا عن الخروج؛ خوفًا من خروج نسا القبالي وذهابهن إلى أزواجهن.

واتفق أنهم قبضوا على شخص في هذه الأيام يريد السفر إلى ناحية قبلي، ومعه تليس، ففتحوه فوجدوا بداخله مراكيب ونعالات مصرية ومغربية التي تسمى بالبلغ، فقبضوا عليه وحبسوه واستمر محبوسًا.

وكذلك اتفق أن الوالي ذهب إلى جهة القرافة، وقبض على أشخاص من التُّربيَّة الذين يدفنون الموتى، واتهمهم بأن بعض أتباع الأمرا القبالي يخرجون إليهم بالأمتعة لأسيادهم، ويخفونها عندهم بداخل القبور حتى يرسلوها إلى أسيادهم في القفلات، وضربهم وهجم على دورهم فلم يجد بها شيًّا، واجتمع عليه خدام الأضرحة وأهل القرافة وشنعوا عليه، وكادوا يقتلونه فهرب منهم، وحضروا في صبحها عند السيد عمر والمشايخ، يشكون من الوالي وما فعله مع الحفارين ونحو ذلك، فأعجب لهذا التناقض.

وفيه وصل مكتوب من كبير الإنكليز الذي بإسكندرية مضمونه: طلب أسما الأسرى من الإنكليز والوصية بهم وإكرامهم، كما هم يفعلون بالأسرى من العسكر، فإنهم لما

دخلوا إلى إسكندرية أكرموا من كان بها منهم، وأذنوا لهم بالسفر بمتاعهم وأحوالهم إلى حيث شاءوا، وكذلك من أخذوه أسيرًا في حرابة رشيد.

واستهل شهر ربيع الأول بيوم السبت (سنة ١٢٢٢)

فيه: كتبوا لكبير الإنكليز جوابًا عن رسالته.

وفي يوم السبت خامس عشره: حضر علي كاشف الكبير الألفي بكلام من طرف شاهين بك الألفي يعتذر عن التأخير إلى هذا الوقت، وأنهم على صلحهم واتفاقهم الأول، وحضورهم إلى ناحية الجيزة، وبات تلك الليلة في بيته بمصر ثم أقام ثلاثة أيام، ورجع إلى مرسله وصحبته سليمان أغا الوكيل.

وفيه: حضر عابدين بك أخو حسن باشا من ناحية بحري، وحضر أيضًا في أثره أحمد أغا لاظ وغيره من ناحية بحري؛ وذلك أنهم ذهبوا خلف الإنكليز إلى قرب معدية البحيرة، فخرج عليهم طايفة الإنكليز من البر والبحر، وضربوا عليهم مدافع ونيرانًا كثيرة، فولوا راجعين وحضروا إلى مصر.

وفيه: حضر أيضًا الفسيال الكبير الإنكليزي الذي كان أُرسل بدلًا عن ابن أخي عمر بك، وقيل إنه ابن أخي صالح قوش، فلما وصل إليهم أجابوا بأن المذكور سافر مع من سافر إلى الروم بمتاعهم وأموالهم قبل الواقعة، وحيث لم يكن المطلوب موجودًا فلا وجه لإبقا الإنكليز المذكور، فردوه بعد أن رفعوا منزلته ورتبته عندهم. فلما رجع إلى مصر خلَّى سبيله الباشا ولم يحبسه مع الأسرى، بل أطلق له الإذن أيضًا في الرجوع إلى إسكندرية أو إلى بلاده متى أحب واختار.

وفي منتصفه: استوحش الباشا من ياسين بك وضاق خناقه منه؛ وذلك أنه لما حضر إلى مصر وخلع عليه الباشا، ودفع إليه ما كان وعده به من الأكياس، وقدم له تقادم وإنعامات على أنه يسافر إلى إسكندرية لمحاربة الإنكليز، وطلب مطالب كثيرة له ولأتباعه، وأخذ لهم الكساوي والسراويلات، وأخذ جميع ما كان عند جبجي باشا من الأقمشة والخيام والجبخانة والاحتياجات من القرب وروايا الماء، ولوازم العسكر في سفر البر والإفازة والمحاصرة إلى غير ذلك، وقلد أباه كشوفية الشرقية، وخرج هو بعرضيه وخيامه إلى ناحية الخلا ببولاق، فانضم إليه الكثير من العسكر والدلاتية وغيرهم، وصار كل من ذهب إليه يكتبه من جملة عسكره.

فاجتمع عليه كل عاصٍ وأزعر ومخالف وعاق وصرح بالخلاف، وتطلعت نفسه للرياسة وكلما أرسل إليه الباشا يرده وينهاه عن فعله يعرض عن ذلك، وداخله الغرور،

وانتشرت أوباشه يعبثون في النواحي، وبث أكابر جنده في القرى والبلدان، وعيَّنهم لجمع الأموال والمغارم الخارجة عن المعقول، ومن خالفهم نهبوا قريته وأحرقوها وأخذوا أهلها أسرى؛ فعند ذلك أخذ الباشا في التدبير عليه، واستمال العسكر المنضمين إليه وحل عرى رباطاته.

فلما كان في ليلة الأربع تاسع عشره أمر عساكر الأرنؤد بالاجتماع والخروج إلى ناحية بولاق، فخرجوا بأجمعهم إلى نواحي السبتية والخندق، وأحالوا بينه وبين بولاق ومصر.

وفي يوم السبت: ركب الباشا بجنوده وخرج إلى تلك الناحية، وحصن أبواب المدينة بالعساكر وأيقن الناس بوقوع الحرب بين الفريقين، وأرسل الباشا إلى ياسين بك يقول له: إن تستمر على الطاعة وتطرد عنك هذه اللموم وتكون من جملة كبار العسكر، وإلا تذهب إلى بلادك وإلا فأنا واصل إليك ومحاربك؛ فعند ذلك داخله الخوف، وانحلت عزايم جيوشه وتفرق الكثير منهم.

فلما كان بعد الغروب طلب الركوب، ولم يعلم عسكره أين يريد، فركب الجميع وهم ثلاثة طوابير، واشتبهت عليهم الطرق في ظلام الليل، فسار هو بفريق منهم إلى ناحية الجبل على طريق حلق الجرة، وفرقة سارت إلى ناحية بركة الحاج، والتالتة ذهبت على طريق القليوبية وفيهم أبوه، فلما علم الباشا بركوبهم ركب خلفهم وذهب خلف الطايفة التي توجهت إلى ناحية البركة حصة، فلما علموا انفرادهم عن أميرهم رجعوا متفرقين في النواحي ورجع الباشا إلى داره.

ولم يزل ياسين بك في سيره حتى نزل بمن معه في التبين واستقر بها، وأما أبوه فإنه التجأ إلى شيخ قليوب الشواربي، فأخذ له أمانًا وأحضره في تاني يوم إلى الباشا، فألبسه فروة وأمره أن يلحق بابنه، فنزل إلى بولاق ونزل في مركب مسافرًا.

وفي يوم الاتنين رابع عشرينه: عين الباشا عسكرًا وريسا عساكر وخيالة، وأصحب معهم شديدًا وجملة من عرب الحويطات للحوق بياسين بك ومحاربته. ولما نزل ياسين بك بناحية التبين نهب قرى الناحية بأسرها، مثل: التبين وحلوان وطرا والمعصرة والبساتين، وفعلوا بها أفاعيلهم الشنيعة من السلب والنهب وأَخْذ النسا ونهْب الأجران والغلال والأتبان والمواشي، وأخذ الكلف الشاقة، ومن عجز عن شي من مطلوباتها أحرقوه بالنار.

وفي يوم الخميس: رجع العسكر والعربان الذين كانوا ذهبوا لمحاربة ياسين بك؛ وذلك أنهم لما قربوا من وطاقهم ارتحل إلى صول والبرنبل فولوا راجعين، وتمموا في ذهابهم وإيابهم تدمير القرى.

وفيه ورد قاصد قابجي من إسلامبول وعلى يده مرسوم بالبشارة بولاية السيد علي باشا قبودان الدوننمة، وتاريخه نحو ثلاثة أشهر، فضربوا لقدومه المدافع من القلعة.

وفي يوم السبت تاسع عشرينه: رجع سليمان أغا من قبلي إلى مصر، وأخبر بقرب قدوم الأمرا المصريين، وأن شاهين بك وصل إلى زواية المصلوب وإبراهيم بك جهة قمن العروس، وأنهم يستدعون إليهم مصطفى أغا الوكيل وعلي كاشف الصابونجي.

واستهل شهر ربيع الثاني بيوم الاتنين (سنة ١٢٢٢)

فيه سافر مصطفى أغا والصابونجي إلى جهة قبلي وصحبتهما كتخدا القاضي.

وفي سادسه: وصل شخص ططري وعلى يده مرسوم فعمل الباشا ديوانًا، وقرا المرسوم بحضرة الجمع مضمونه: أن العرضي الهايوني الموجه لحرب الموسكوب خرج من إسلامبول، وذهب إلى ناحية أدرنه، وأن العساكر سارت لمحاربة الأعدا، ويذكرون فيه أن بشاير النصر حاصلة. وقد وصل روس قتلى وأسرى كثيرة، وأنه بلغ الدولة ورود نحو الأربع عشرة قطعة من المراكب إلى ثغر إسكندرية، وأن الكاينين بالثغر تراخوا في حربهم حتى طلعوا إلى الثغر، فمن اللازم الاهتمام وخروج العساكر لحروبهم ودفعهم وطردهم عن الثغر، وقد أرسلنا البيورلديات إلى سليمان باشا والي صيدا وإلى يوسف باشا والي الشام، بتوجيهه العساكر إلى مصر للمساعدة، وإن لزم الحال لحضور المذكورين لتمام المساعدة على دفع العدو إلى آخر ما نمقوه وسطروه.

ومحل القصد من ورود هذه البيورلديات والفرامانات والأغوات والقبيجات، إنما هو جر المنفعة لهم بما يأخذونه من خدمهم وحق طريقهم من الدراهم والتقادم والهدايا، فإن القادم منهم إذا ورد استعدوا لقدومه، فإن كان ذا قدر ومنزلة أعدوا له منزلًا يليق به ونظموه بالفرش والأداوت اللازمة، وخصوصًا إذا كان حضر في أمر مهم أو لتقرير المتولي على السنة الجديدة، أو بصحبته خلع رِضًى وهدايا، فإنه يقابَل بالإعزاز الكبير ويشاع خبره قبل وروده إلى إسكندرية، وتأتي المبشرون بوروده من الططر قبل خروجه من دار السلطنة بنحو شهر أو شهرين، ويأخذون خدمتهم وبشارتهم بالأكياس.

وإذا وصل هو أدخلوه في موكب جليل، وعملوا له ديوانًا ومدافع وشنكًا وأُنزل في المنزل المعَد له، وأقبلت عليه التقادم والهدايا من المتولي وأعيان دولته، ورتب له الرواتب والمصاريف لمأكله هو وأتباعه ولمطبخه، وشراب حانته أيام مكثه شهرًا أو شهورًا، ثم يعطَى من الأكياس قدرًا عظيمًا، وذلك خلاف هدايا الترحيلة من قدور الشربات المتنوعة،

والسكر المكرر وأنواع الطيب كالعود والعنبر والأقمشة الهندية والمقصبات لنفسه ورجال دولته، وإن كان دون ذلك أنزلوه بمنزل بعض الأعيان بأتباعه وخدمه ومتاعه في أعز مجلس، ويقوم رب المنزل بمصروفهم ولوازمهم وكلفهم وما تستدعيه شهوات أنفسهم، ويرون أن لهم المنة عليه بنزولهم عنده، ولا يرون له فضلًا، بل ذلك واجب عليه وفرض يلزمه القيام به مع التأمر عليه وعلى أتباعه، ويمكث ذلك شهورًا حتى يأخذ خدمته ويقبض أكياسه، وبعد ذلك كله يلزم صاحب المنزل أن يقدم له هدية؛ ليخرج من عنده شاكرًا ومثنيًا عليه عند مخدومه وأهل دولته، أقضية يحار العقل والنقل في تصورها.

وفي يوم الأحد سابعه: وصلت القافلة والحجاج من ناحية القلزم على مرسى السويس، وحضر فيها أغوات الحرم والقاضي الذي توجه لقضا المدينة وهو المعروف بسعد بك، وكذلك خدام الحرم المكي، وقد طردهم الوهابي جميعًا، وأما القاضي المنفصل فنزل في مركب ولم يظهر خبره، وقاضي مكة توجه بصحبة الشاميين، وأخبر الواصلون أنهم منعوا من زيارة المدينة، وأن الوهابي أخذ كل ما كان في الحجرة النبوية من الذخاير والجواهر.

وحضر أيضًا الذي كان أميرًا على ركب الحجاج، وصحبته مكاتبة من مسعود الوهابي، ومكتوب من شريف مكة، وأخبروا أنه أمر بحرق المحمل، واضطربت أخبار الإخباريين عن الوهابي بحسب الأغراض، ومكاتبة الوهابي بمعنى الكلام السابق في نحو الكراسة، وذكر فيها ما ينسبونه الناس إليه من الأقوال المخالفة لقواعد الشرع ويتبرأ عنها.

وفيه: ورد الخبر بأن إبراهيم بك وصل إلى بني سويف، وأن شاهين بك ذهب إلى الفيوم لاختلاف وقع بينهم، وأن أمين بك وأحمد بك الألفيين ذهبا إلى ناحية إسكندرية للإنكليز.

وفيه: كمل تحرير دفاتر الفرضة والمظالم التي ابتدعوها في العام الماضي على القراريط وإقطاعات الأراضي، وكذلك أخذ نصف فايظ الملتزمين، وعينوا المعينين لتحصيله من المزارعين، وذلك خلاف ما فرضوه على البنادر من الأكياس الكثيرة المقادير.

وفي ذلك اليوم: أرسل الأغا ووالي الشرطة أتباعهما لأرباب الصنايع والحرف والبوابين بالوكايل والخانات، يأمرونهم بالحضور من الغد إلى بيت القاضي، فانزعجوا من ذلك ولم يعلموا لأي شي هذا الطلب وهذه الجمعية، وباتوا متفكرين ومتوهمين.

فلما أصبح يوم الاتنين واجتمع الناس أبرزوا لهم مرسومًا قري عليهم بسبب زيادة صرف المعاملة؛ وذلك أن الريال الفرانسة وصلت مصارفته إلى مايتين وعشرة من

الأنصاف العددية، والمحبوب إلى مايتين وعشرين وأكثر، والمشخص البندقي وصل إلى أربعماية وأربعين فضة، ونحو ذلك. فلما قروا عليهم المرسوم وأمروهم بعدم الزيادة وأن يكون صرف الفرانسة بمايتين فقط، والمحبوب بمايتين وعشرين فضة، والبندقي بأربعماية وعشرين، فلما سمعوا ذلك قالوا: نحن ليس لنا علاقة بذلك، هذا أمر منوط بالصيارف وانفض المجلس.

وفيه وصلت مكاتبة من إبراهيم بك ومن الرسل مضمونها: الإخبار بقدومهم، وأرسل إبراهيم بك يستدعي إليه ابنه الصغير، وولد ابنته المسمى نور الدين، ويطلب بعض لوازم وأمتعة.

وفي يوم السبت تالت عشره: سافر أولاد إبراهيم بك والمطلوبات التي أرسل بطلبها، وصحبتهم فراشون وباعة ومتسببون وغير ذلك.

وفي يوم الاتنين: ورد سلحدار موسى باشا وعلى يده مرسوم بالعربي وآخر بالتركي، مضمونهما جواب رسالة أرسلت إلى سليمان باشا بعكا بخبر حادثة الإنكليز، وملخصها: أنه ورد علينا جواب من سليمان باشا يخبر فيه وصول طايفة الإنكليز إلى ثغر إسكندرية ودخولهم إليها بمخامرة أهلها، ثم زحفهم إلى رشيد، وقد حاربتهم أهل البلاد والعساكر، وقتلوا الكثير منهم وأسروا منهم كذلك.

ونؤكد على محمد باشا والعلما وأكابر مصر بالاستعداد والمحافظة وتحصين الثغور مثل السويس والقصير ومحاربة الكفار وإخراجهم وإبعادهم عن الثغر، وقد وجهنا لكلٍّ من سليمان باشا وجنج يوسف باشا بتوجيه ما تريدون من العساكر للمساعدة ونحو ذلك.

وفيه أحضروا أربعة روس من الإنكليز وخمسة أشخاص أحيا، فمروا بهم من وسط المدينة، وذكروا أن كاشف دمنهور حارب ناحية إسكندرية فقتل منهم وأسر هولا، وقيل إنهم كانوا يسيرون لبعض أشغالهم نواحي الريف، فبلغ الكاشف خبرهم فأحاط بهم وفعل بهم ما فعل وأرسلهم إلى مصر، وهم ليسوا من المعتبرين وكأنهم مالطية، وقيل إنهم سألوهم فقالوا: نحن متسببون طلعنا ناحية أبي قير وتهنا عن الطريق فصادفونا، ونحن تسعة لا غير، فأخذونا وقتلوا منا من قتلوه وأبقونا.

وفيه: وصلت مكاتبة من إبراهيم، وأرسل الباشا إليهم جوابًا صحبة إنسان يسمى شريف أغا.

وفي يوم التلات تالت عشرينه: وردت أخبار من ناحية الشام بأنه وقع بإسلامبول فتنة بين الينكجرية والنظام الجديد، وكانت الغلبة للينكجرية، وعزلوا السلطان سليم،

وولوا السلطان مصطفى ابن عمه، وهو ابن السلطان عبد الحميد بن أحمد، وخطب له ببلاد الشام.

وفي يوم الخميس: وصل ططري من طريق البر بتحقق ذلك الخبر، وخطب الخطبا للسلطان مصطفى على منابر مصر وبلاد مصر وبولاق، وذلك يوم الجمعة سادس عشرينه.

وفي أواخره: أحدثوا طلب مال الأطيان المسموح الذي لمشايخ البلاد، وحرروا به دفترًا وشرعوا في تحصيله، وهي حادثة لم يسبق مثلها، أضرت بمشايخ البلاد وضيقت عليهم معايشهم ومضايفهم.

وفيه: كتبوا أوراقًا للبلاد والأقاليم بالبشارة بتولية السلطان الجديد، وعينوا بها المعينين، وعليها حق الطرق مبالغ لها صورة، وكل ذلك من التحيل على سلب أموال الناس.

وفيه: كتبوا مراسلة إلى الأمرا القبليين بالصلح، وأرسلوا بها ثلاثة من الفقها وهم: الشيخ سليمان الفيومي والشيخ إبراهيم السجيني، والسيد محمد الدواخلي، وذلك أنه لما رجع شريف أغا الذي كان توجه إليهم بمراسلتهم وأرسلوا يطلبون الشيخ الشرقاوي والشيخ الأمير والسيد عمر النقيب لإجرا الصلح على أيديهم، فأرسلوا الثلاثة المذكورين بدلًا عنهم.

وفي هذه الأيام: كثر خروج العساكر والدلاة وهم يعدون إلى البر الغربي، وعدى الباشا بحر النيل إلى بر إنبابة وأقام هناك أيامًا.

واستهل شهر جمادى الأولى (سنة ١٢٢٢هـ/١٨٠٧م)

فيه شرع الباشا في تعمير القلاع التي كانت أنشاتها الفرنساوية خارج بولاق، وعَمِل متاريس بناحية منية عقبة وغيرها، ووزع على الجيارة جيرًا كثيرًا، ووسق عدة مراكب وأرسلها إلى ناحية رشيد ليعمروا هناك سورًا على البلد وأبراجًا، وجمعوا البنايين والفعلة والنجارين وأنزلوهم في المراكب قهرًا.

وفي منتصفه وصل إلى مصر نحو الخمسماية من الدلاتية أتوا من ناحية الشام، ودخلوا إلى المدينة.

وفيه طلب الباشا من التجار نحو الألفَي كيس على سبيل السلفة، فوزعت على الأعيان وتجار البن وأهل وكالة الصابون ووكالة التفاح ووكالة القرب وخلافها، وحجزوا

البضايع وأجلسوا العساكر على الحواصل والوكايل يمنعون من يُخرج من حاصله أو مخزنه شيًّا إلا بقصد الدفع من أصل المطلوب منهم، ثم أردفوا ذلك بمطلوبات من أفراد الناس المساتير، فيكون الإنسان جالسًا في بيته فما يشعر إلا والمعينون واصلون إليه وبيدهم بصلة الطلب، إما خمسة أكياس أو عشرة أو أقل أو أكثر، فإما أن يدفعها وإلا قبضوا عليه وسحبوه إلى السجن، فيُحبس ويعاقَب حتى يتمم المطلوب منه، فنزل بالناس أمر عظيم وكرب جسيم.

وفي الناس من كان تاجرًا ووقف حاله بتوالي الفتن والمغارم وانقطاع الأسباب والأسفار، وأفلس وصار يتعيش بالكُدِّ والقرض وبيع متاعه وأثاث داره وعقاره، واسمه باقٍ في دفاتر التجار فما يشعر إلا والطلب لاحقه بنحو ما تقدم لكونه كان معروفًا في التجار، فيوخذ ويُحبس ويستغيث فلا يغاث ولا يجد شافعًا ولا راحمًا، وهذا الشيء خلاف الفُرَض المتوالية على البلاد والقرى في خصوص هذه الحادثة، وكذلك على البنادر مقادير لها صورة وما يتبعها من حق طرق المعينين والمباشرين، وتوالى مرور العساكر آناء الليل وأطراف النهار، بطلب الكُلَف واللوازم وأشيا يكل القلم عن تسطيرها ويستَحِي الإنسان من ذكرها، ولا يمكن الوقوف على بعض جزئياتها حتى خربت القرى وافتقر أهلها وجَلَوْا عنها، فكان يجتمع أهل عدة من القرى في قرية واحدة بعيدة عنهم، ثم يلحقها وبالهم فتخرب كذلك.

وأما غالب بلاد السواحل، فإنها خربت وهرب أهلها وهدموا دورها ومساجدها وأخذوا أخشابها، ومن جملة أفاعيلهم الشنيعة التي لم يطرق الأسماع نظيرُها أنهم قرروا فُرْضة من فُرَض المغارم على البلاد، فكتبوا أوراقًا وسموها بشارة الفرضة، يتولاها بعض من يكون متطلعًا لمنصب أو منفعة، ثم يرتب له خدمًا وأعوانًا، ثم يسافر إلى الإقليم المعين له، وذلك قبل منصب الأصل، وفي مقدمته يبعث أعوانه إلى البلاد يبشرونهم بذلك، ثم يقبضون ما رُسِم لهم في الورقة من حق الطريق بحسب ما أدى إليه اجتهاده قليلًا أو كثيرًا، وهذه لم يسمع بما يقاربها في ملة ولا ظلم ولا جور. وسمعت مِن بعض مَن له خبرة بذلك أن المغارم التي قُررت على القرى بلغت ألف كيس، وذلك خلاف المصادرات الخارجة.

وفي أواخره قَوِيَ عزم الباشا على السفر لناحية إسكندرية، وأمر بإحضار اللوازم والخيام وما يحتاج إليه الحال من روايا الماء والقرب وباقي الأدوات.

ثم دخلت سنة اثنتين وعشرين ومايتين وألف (١٨٠٦م)

واستهل شهر جمادى الثانية بيوم الخميس (سنة ١٢٢٢)

في تانيه — وهو يوم الجمعة — ركب الباشا إلى بولاق، وعدى إلى ناحية بر إنبابة ونصبوا وطاقه هناك، وخرجت طوايف العسكر إلى ناحية بولاق وساحل البحر، وطفقوا يأخذون ما يجدونه من البغال والحمير والجمال، واستمروا على الدخول والخروج والذهاب والمجي والرجوع والتعدية أيامًا، وهم على ذلك النسق من خطف البهايم، وامتنعت السقايون عن نقل الماء من البحر حتى شح الماء وغلا سعره وعطشت الناس وامتنع حمل البضايع.

وفي تالته طلبوا أيضًا خيول الطواحين لجر المدافع والعربات حتى تعطلت الطواحين عن طحن الدقيق، ولما ذهبوا بها إلى العرضي اختاروا منها جيادها، وأعطوا أربابها عن كل فرس خمسين قرشًا، وردوا البواقي لأصحابها.

وفيه طلبوا أيضًا دراهم من طايفة القبانية والحطابة وباعة السمك القديد المعروف بالفسيخ، فكان القدر المطلوب من طايفة القبانية ماية وخمسين كيسًا، فأغلقوا حوانيتهم وهربوا والتجوا إلى الجامع الأزهر، وكذلك الحطابة وغيرهم، منهم من هرب ومنهم من التجا إلى السيد عمر، واستمر كذلك تلاتة أيام، وركب السيد عمر وعدى إلى الباشا وتشفع في الطوايف المذكورة، فرفعوا عنهم غرامتهم وكتبوا لهم أمانًا بذلك.

وفي خامسه حضر قابجي من طرف الإنكليز وصحبته أشخاص، فأنزلهم الباشا في خيمة بمخيمه بإنبابة، فرقدوا بها ليأخذوا لهم راحة، وناموا فلما استيقظوا فلم يجدوا ثيابهم، وسطا عليها السراق فشلحوهم، فأرسلوا إلى حارة الفرنساوية فأتوا لهم بثياب وقفوات لبسوها.

وفي يوم السبت مع ليلة الأحد حادي عشره عمل الفرنساوية عيدًا ومولدًا بحارتهم، وأولموا بينهم ولايم وأوقدوا قناديل كثيرة تلك الليلة وحراقات نفوط وصواريخ وشنكًا حصة من الليل، وهو عبارة عن مولد بونابارته السنوي.

وفي يوم التلات تالت عشره طلب الباشا حسين أفندي الروزنامجي فعدى إليه ببر إنبابة، فأخلع الدفتردارية، وحضر إلى داره الجديد، وهو بيت الهياتم بالقرب من قنطرة درب الجماميز، وذهب إليه الناس يهنونه، وانفصل أحمد أفندي عاصم عن الدفتردارية.

وفي ليلة الخميس خامس عشره عمل الباشا شنكًا بالبر الغربي بين المغرب والعشا، ولما أصبح أمر بالارتحال، وتمهل حتى تكامل ارتحال العساكر، فركب قريب الزوال إلى المنصورية.

وفي يوم الجمعة سادس عشره الموافق لسادس مسرى القبطي، أوفى النيل أذرعه، وذلك بعد أن حصل في الناس ضجر وقلق بسبب تأخر الوفا، ووقفات حصلت في الزيادة

قبل الوفا عدة أيام حتى رفعوا الغلال من العرصات وزادت أثمانها، فلما حصل الوفا اطمأن الناس وتراجعت إليهم أنفسهم، وأظهروا الغلال في العرصات والرقع، وركب كتخدا بك في صبح يوم السبت، وكذلك القاضي وطوسون ابن الباشا والسيد عمر النقيب وكسر السد بحضرتهم وجرى الماء في الخليج.

وفيه وصل قابجي إلى ثغر إسكندرية وحضر بعد ذلك إلى ثغر بولاق من طريق البر إلى قبرص، وتحرى الوصول إلى دمياط، ثم حضر إلى بولاق وقابل الباشا في طريقه، ووصل على يده سكة ضرب المعاملة الجديد بالضَّرْبخانه باسم السلطان الجديد، وكذلك الأمر بالخطبة والدعا والإخبار برفع النظام الجديد وإبطاله من إسلامبول، ورجوع الوجاقات على قانونها الأول القديم، ووصل في نيِّف وخمسين يومًا فاجتمعوا في صبحها يوم الأحد بباب الباشا وأحضروا الأغا بموكب، ودخل من باب النصر وقري الفرمان بحضرة الجميع، وضربوا شنكًا ومدافع من أبراج القلعة تلاتة أيام في الأوقات الخمسة.

ومن الحوادث أنه ظهر في هذه الأيام رجل بناحية بنها العسل يدعى بالشيخ سليمان، فأقام مدة في عشَّة بالغيط واعتقد فيه الناس الولاية والسلوك والجذب، فاجتمع إليه الكثير من أهل القرى وأكثرهم الأحداث، ونصبوا له خيمة وكتر جَمعُه وأقبلت عليه أهالي القرى بالنذور والهدايا، وصار يكتب إلى النواحي أوراقًا يستدعي منهم القمح والدقيق ويرسلها مع المريدين يقول فيها: الذي نُعْلِم به أهلَ القرية الفلانية حال وصول الورقة إليكم تدفعوا لحاملها خمسة أرادب قمح أو أقل أو أكثر برسم طعام الفقرا، وكرا طريق المعين تلاتون رغيفًا أو نحو ذلك، فلا يتأخرون عن إرسال المطلوب في الحال.

وصار الذين حوله ينادون في تلك النواحي بقولهم: لا ظلم اليوم ولا تعطوا الظلمة شيًّا من المظالم التي يطلبونها منكم، ومن أتاكم فاقتلوه؛ فكان كل من ورد من العسكر المعينين إلى تلك النواحي يطلب الكلف أو الفرض التي يفرضونها فزعوا عليه وطردوه، وإن عاند قتلوه فثقل أمره على الكُشَّاف والعسكر، وصار له عدة خيام وأخصاص، واجتمع لديه من المردان نحو المائة وستين أمردًا وغالبهم أولاد مشايخ البلاد.

وكان إذا بلغه أن بالبلد الفلانية غلامًا وسيم الصورة أرسل يطلبه، فيحضروه إليه في الحال ولو كان ابن عظيم البلدة حتى صاروا يأتون من غير طلب، ولا يخفى حال الإقليم المصري في التقليد في كل شي، وهذا من جنس المردان وكذلك ذوو اللحى هم كثيرون أيضًا، وعمل للمردان عقودًا من الخرز الملون في أعناقهم ولبعضهم أقراطًا في آذانهم.

ثم إن شيخًا من فُقها الأزهر من أهالي بنها يقال له: الشيخ عبد الله البنهاوي ادَّعى دعوى بِطِين مستأجرة من أراضي بنها كان لأسلافه، وأن الملتزمين بالقرية استولوا على ذلك الطين من غير حق لهم فيه، بل بإغرا بعض مشايخ القرية، والمذكور به رعونة ولم يحسن سبك دعواه، وخصوصًا كونه مفلسًا وخليًّا من الدراهم التي لا بد منها الآن في الجعالات والبراطيل للوسايط وأرباب الأحكام وأتباعهم، ويظن في نفسه أنه يقضي قضيته بقال المصنف إكرامًا لعلمه ودروسه، فتخاصم مع الملتزمين ومشايخ بلده، وانعقدت بسببه مجالس ولم يحصل منها بشي سوى التشنيع عليه من المشايخ الأزهرية والسيد عمر النقيب، ثم كتب له عرضحال ورفع أمره إلى كتخدا بك الباشا، فأمر الباشا بعقد مجلس بسببه بحضرة السيد عمر والمشايخ وقالوا للباشا: إنه غير محق وطردوه فسافر إلى بلده، وسافر الباشا أيضًا إلى جهة البحيرة وإسكندرية.

فذهب الشيخ عبد الله المذكور إلى الشيخ سليمان المذكور وأغراه على الحضور إلى مصر، وأنه متى وصل اجتمع عليه المشايخ وأهل البلدة وقابلوه، ويكون على يده الفتح والفتوح، وحركته خُسَّاف العقول المحيطون به والمجتمعون حوله على المجي إلى مصر، ويكون له شأن؛ لأن ولايته اشتهرت بالمدينة، ولهم فيه اعتقاد عظيم وحب جسيم.

ومن أوصاف ذلك الشيخ أنه لا يتكلم إلا بالذكر أو الكلام النزر الذي لا بد منه، ويتكلم في أكثر أوقاته بالإشارة، ثم إنه أطاع شياطينه وحضر برجاله وغلمانه، ومعه طبول وكاسات على طريقة مشايخ أهل العصر والأوان الذين يحسبون أنهم يُحْسِنون صُنْعًا، ودخلوا إلى المدينة على حين غفلة وبأيديهم فراقل يفرقعون بها فرقعة متتابعة وصياح وجلبة، ومن خلفهم الغلمان والبداوات وشيخهم في وسطهم، فما زالوا في سيرهم حتى دخلوا المشهد الحسيني وجلسوا بالمسجد يذكرون، ودخل منهم طايفة إلى بيت السيد عمر مكرم النقيب وهم يفرقعون بما في أيديهم من الفرقلات، فأقاموا بالمسجد إلى العصر.

ثم دعاهم إنسان من الأجناد يقال له: إسماعيل كاشف أبو مناخير فضة، له في الشيخ المذكور اعتقاد، فذهبوا معه إلى داره بعطفة عبد الله بك فعشاهم وباتوا عنده إلى الصباح، ولما طلع النهار ركب الشيخ بغلة ذلك الجندي وذهب بطايفته إلى ضريح الإمام الشافعي، فجلس بالمسجد أيضًا مع أتباعه يذكرون، وبلغ خبره كتخدا بك وأمثاله، فكتب تذكرة وأرسلها إلى السيد عمر النقيب بطلب الشيخ المذكور؛ ليتبركوا به وأكد في الطلب، وقصده أن يفتك بهم لقهرهم منه، وعلم السيد عمر ما يراد به فأرسل يقول له: إن كنت من أهل الكرامة فأظهر سرك وكرامتك، وإلا فاذهب وتغيب.

وكان صالح أغا قوج لما بلغه خبره ركب في عسكره، وذهب إلى مقام الشافعي وأراد القبض عليه، فخوفه الحاضرون وقالوا له: لا ينبغي لك التعرض له في ذلك المكان، فإذا خرج فدونك إياه، فانتظر بقصر شويكار فتباطأ الشيخ إلى قريب العصر، وأشاروا عليه بالخروج من الباب القبلي، وتفرق عنه الكثير من المجتمعين عليه.

فذهب إلى مقام الليث بن سعد، ثم سار من ناحية الجبل وذهبت بداياته وغلمانه إلى دار إسماعيل كاشف التي باتوا بها، ولما سار إلى ناحية الصحرا لحقه الحاج سعودي الحناوي، واقتفى أثره وبلَّغه رسالة السيد عمر ورجع إلى السيد عمر، فوجد كتخدا بك ورجب أغا حضرا إلى السيد عمر يسألانه عنه، ولم يكتفوا بالطلب الأول، فأخبرهما أنه ذهب ولم تلحقه المراسيل، فاغتاظوا وقالوا: نرسل إلى كاشف القليوبية بالقبض عليه أينما كان.

وانصرفوا ذاهبين وقصدت، العساكر بيت إسماعيل كاشف أبو مناخير فضة، فقبضوا على الغلمان وأخذوهم إلى دورهم، ولم ينجُ منهم إلا من كان بعيدًا، وهرب وتغيب وتفرق أتباعه ذوات اللحى.

وأما الشيخ فسار من طريق الصحرا حتى وصل إلى بهتيم، وذهب إلى نوب، فعرف بمكانه الشيخ عبد الله زقزوق البنهاوي الذي كان أغراه على الحضور إلى مصر، ولما سقط في يده تبرا عنه وذهب إلى كتخدا بك، وطلب له أمانًا وأخبره أنه مختفٍ بضريح الإمام الشافعي، فأعطاه أمانًا، وذهب إليه وأحضره من نوب، فلما حضر عند الكتخدا قال له: أرْخ لحيتك واترك ما أنت عليه، وأقم في بلدك وأعطيك طينًا تزرعه، ولا تتعرض لأحد ولا أحد يتعرض لك، والشيخ ساكت لا يتكلم وصحبته أربعة أنفار من تلاميذه هم الذين يخاطبون الكتخدا ويكلمونه، ثم أمر أشخاصًا من العسكر فأخذوه وذهبوا به إلى بولاق وأنزلوه في مركب وانحدروا به، ثم غابوا حصة وانقلبوا راجعين.

ثم بعد ذلك تبيَّن أنهم قتلوه وألقوه في البحر، إلا واحد من الأربعة ألقى بنفسه في البحر وسبح في الماء، وطلع إلى البر وهرب وانفض أمره.

وفيه أرسل الباشا وهو بالرحمانية يطلب شيخ دسوق، فحضر إليه طايفة من العسكر، فلما أتوا إليه امتنع وقال: ما يريد الباشا مني؟ أخبروني بطلبه وأنا أدفعه إن كان غرامة أو كلفة. فقالوا: لا ندري وإنما أمرنا بإحضارك فشاغلهم بالطعام والقهوة، ووزع بهايمه وحريمه، والذي يخاف عليه، وفي الوقت وصلت مراكب وبها عساكر، وطلعوا إلى البر فركب شيخ البلد خيوله وخيالته واستعد لحربهم، وحاربهم وأبلى معهم

وقتل منهم عدة كبيرة ثم ولى هاربًا، فدخل العسكر إلى البلد ونهبوها، وأخذوا ما وجدوه في دور أهلها وعبروا مقام السيد الدسوقي، وذبحوا من وجدوه من المجاورين وفيهم من طلبة العلم العواجز.

وفيه ركب كتخدا بك ومر على بيت الداودية وبه طايفة من الدلاة، فرأى شخصًا منهم يرجم دجاجة بحجر ليرميها من سطح دار أخرى، فانتهره وأراد ضربه، فقامت عليه رفقاه الدلاتية وفزعوا عليه فولى هاربًا منهم، فعدوا خلفه ولم يزل رامحًا هو وأتباعه حتى وصل إلى ناحية الأزبكية.

واستهل شهر رجب بيوم الجمعة (سنة ١٢٢٢)

في رابعه وردت مكاتبات من الباشا بوقوع الصلح بينه وبين الإنكليز، واتفقوا على خروجهم من إسكندرية وخلوها ونزلوهم منها، وأرسل يطلب الأسرى من الإنكليز.

وفي عاشره ورد قابجي ويسمى نجيب أفندي، فوصل إلى بولاق يوم الاتنين حادي عشره، وكان وروده من ناحية دمياط، فلما علم أن الباشا بناحية البحيرة ذهب إليه وقابله بدمنهور وبصحبته لخصوص الباشا قفطان وسيف وشلنج وخِلع لكبار العسكر، مثل حسن باشا طاهر وعابدين بك وعمر بك وصالح قوج، فنزل ببيت محمد الطويل التتنجي ببولاق.

وفيه نزلوا بالأسرى من الإنكليز إلى المراكب ليسافروا إلى إسكندرية.

وفي يوم الأربع تالت عشره وصل المبشر بنزول الإنكليز من ثغر إسكندرية إلى المراكب، ودخل إليها كتخدا بك ونزل بدار الشيخ المسيري، واستمر الباشا مقيمًا عند السد.

وفي يوم السبت سادس عشره ركب القابجي من بولاق بالموكب، وشق من وسط المدينة وذهب إلى بيت الباشا، وضربوا لقدومه مدافع من القلعة.

وفي يوم الأربع سابع عشرينه وُلد لمحمد علي باشا مولود من حظيته، وحضر المبشرون بنزول الإنكليز من إسكندرية، ودخول الباشا بها فعملوا شنكًا، وضربوا مدافع من القلعة تلاتة أيام في الأوقات الخمسة آخرها السبت.

وفي يوم الخميس والجمعة والسبت وصلت عساكر كثيرة، ودخلوا المدينة وطلبوا سكنى البيوت، وأزعجوا الناس وأخرجوهم من أوطانهم، وضجت الخلايق وحضر الكثير إلى السيد عمر والمشايخ، فكتبوا عرضًا في شأن ذلك وأرسلوه إلى كتخدا بك، فأظهر

الاهتمام وأحضر طايفة من كبار العسكر وكلمهم في ذلك، وقال لهم: كل من كان ساكنًا قبل الخروج إلى العرضي في دار فليرجع إليها ويسكنها، ولا تعارضوا الناس في مساكنهم فلم يفد كلامه في ذلك شيًّا؛ لأن البيوت التي كانوا بها أخربوها وحرقوا أخشابها وتركوها كيمانًا وذلك دأبهم.

واستهل شهر شعبان بيوم السبت (سنة ١٢٢٢)

في تالته يوم الاتنين وصل الباشا إلى ساحل بولاق، فضربوا لقدومه مدافع من القلعة وعملوا له شنكًا تلاتة أيام، واتفق أن الباشا في حال رجوعه من إسكندرية نزل في سفينة صغيرة وصحبته حسن باشا طاهر وسليمان أغا الوكيل سابقًا، فانقلبت بهم وأشرف تلاتتهم على الغرق، وتعلق بعضهم بحرف السفينة فلحقتهم مركب أخرى أنقذتهم من الغرق، وطلعوا سالمين وكان ذلك عند زفيتة.

وفيه كتبوا أوراق البشارة بذهاب الإنكليز وسفرهم من إسكندرية وأرسلوها إلى البلاد والقرى، وعليها حق الطريق أربعة آلاف وألفين فضة.

وصورة ما حصل أنه لما وصل الباشا إلى ناحية إسكندرية راسل الإنكليز، وحضر إليه أنفار منهم واختلى معهم، ولم يعلم أحد ما دار بينهم من الكلام، وذهبوا من عنده وأشيع الصلح، وفرحت العسكر؛ لأنهم لما رأوا صورة المتاريس والطوابي والخنادق وجري المياه بين ذلك بالأوضاع المتقنة هالهم ذلك، ثم حضر من عظماهم أشخاص، ولما علم الباشا بوصولهم رتب العساكر ونظم ديوانًا وهيَّأه، وأوقف العساكر صفوفًا يَمْنَة ويَسْرَة، وعندما وصلوا ضربوا لهم مدافع كثيرة وشنكًا، وقدم لهم خيولًا وهدايا وأقمشة هندية، وخلع عليهم خلعًا وشيلانًا كشميرية وغير ذلك، ثم ركب معهم في قلة إلى حيث منزلة صاري عسكرهم وكبيرهم، فتلاقى معهم وقدم له الآخر هدايا وظرايف، ثم ركب معه إلى إسكندرية وتسلم القلعة، وذلك بعد دخول كتخدا بك بخمسة أيام.

وكان في أسرى الإنكليز أنفار من عظماهم، فأحضرهم الباشا مع باقي الأسرى، وتم الصلح على رد المذكورين على أنهم لم يأتوا طمعًا في البلاد كما تقدم، ولما نزلوا بالمراكب لم يبعدوا عن الثغر إلا مسافة قليلة، واستمروا يقطعون على المراكب الواردين على الثغور؛ وذلك لما بينهم وبين العثماني من المفاقمة، هذا ما كان من أمر الإنكليز.

وأما العساكر فإنهم أفحشوا في التعدي على الناس وغصب البيوت من أصحابها، فتأتي الطايفة منهم إلى الدار المسكونة ويدخلونها من غير احتشام ولا إذن، ويهجمون

على سكن الحريم بحجة أنهم يتفرجون على أعالي الدار، فتصرخ النسا ويجتمع أهل الخطة ويكلمونهم فلا يلتفتون إليهم، فيعالجونهم مرة بالملاطفة وأخرى بكثر الجمع إن كان بهم قوة أو بمعونة ذي مقدرة، وإذا انفصلوا فلا يخرجون من الدار إلا بمصلحة أو هدية لها قدر، ويشترطون في ذلك الشيلان الكشميري، فإذا أحضروا لهم مطلوبهم فلا يعجب كبيرهم ويطلب خلافه أحمر أو أصفر.

واتفق أن بعضهم دخل عليه بينباشا بجماعته، فلم يزل به حتى صالحه على شال يأخذه ويترك له داره، فأتاه بشال أصفر فأظهر أنه لا يريد إلا الأحمر الدودة، فلم يسعه إلا الرِّضَى، وأراد أن يرد الأصفر ويأتيه بالأحمر فحجزه وقال: دعه حتى تأتي بالأحمر فاختار منهما الذي يعجبني، فلما أتاه بالأحمر ضمه إلى الأصفر، وأخذ الاثنين ثم انصرف عنه، وذلك خلاف ما يأخذونه من الدراهم.

فإذا انصرفوا وظن صاحب الدار أنهم انجلوا عنه، فيأتيه بعد يومين أو ثلاثة خلافهم، ويقع في ورطة أخرى مثل الأولى أو أخف أو أعظم منها. وبعضهم يدخل الدار ويسكنها بالتحيل والملاطفة مع صاحب الدار، فيقول له: يا أخي يا حبيبي أنا معي ثلاثة أنفار وأربعة لا غير، ونحن مسافرون بعد عشرة أيام، والقصد أن تفسح لنا نقيم في محل الرجال، وأنت بحريمك في مكانهم أعلى الدار فيظن صدقهم، ويرضى بذلك على تخوُّف وكره فيعبرون ويجلسون — كما قالوا — في محل الرجال ويربطون خيولهم في الحوش، ويعلقون أسلحتهم ويقولون: نحن صرنا ضيوفك، فإذا أراد أن يرفع فرش المكان يقولون: نحن نجلس على الحصير والبلاط وأيُّ شي يصيب الفرش؟ فيتركه حياءً وقهرًا ثم يطلبون الطعام والشراب فما يسعه إلا أن يتكلف لهم ذلك في أوقاته، ويستعملون الأواني ويطلبون ما يحتاجون إليه مثل الطشت والإبريق وغير ذلك، ثم تأتيهم رفقاهم شيًّا فشيًّا، ويدخلون ويخرجون وبأيديهم الأسلحة ويضيق عليهم المكان، فيقولون لصاحب المكان: أخل لنا محلًّا آخر في الدار فوق لرفقانا، فإن قال: ليس عندنا محل آخر أو قصَّر في مطلوب ابتدوه بالقسوة؛ فعند ذلك يعلم صاحب الدار أنهم لا انفكاك لهم عن المكان.

وربما مضت العشرة أيام أو أقل أو أكثر، وظهرت قبايحهم وقذَّروا المكان وحرقوا البسُط والحصر بما يتساقط عليها من الجمر من شربهم النارجيلات والتنباك والدخان، وشربوا الشراب وعربدوا وصرخوا وصفقوا، وغنوا بلغاتهم المختلفة وفقعت رايحة العرقي في المنزل، فيضيق صدر الرجل وصدر أهل بيته ويطيب خاطرهم على الخروج والنقلة، فيطلبون لأنفسهم مسكنًا ولو مشتركًا عند أقاربهم أو معارفهم.

وتخرج النسا في غفلة بثيابهم وما يمكنهم حمله، ثم يشرعون في إخراج المتاع والأواني والنحاس والفرش، فيحجزونه منهم ويقولون: إذا أخذتم ذلك فعلى أي شي نجلس، وفي أي شي نطبخ وليس معنا فرش ولا نحاس، والذي كان معنا استُهلك منا في السفر والجهاد ودفع الكفار عنكم، وأنتم مستريحون في بيوتكم وعند حريمكم، فيقع النزاع وينفصل الأمر بينهم وبين صاحب الدار إما بترك الدار بما فيها أو بالمقاسمة والمصالحة بالترجي والوسايط ونحو ذلك.

وهذا الأمر يقع لأعيان الناس والمقيمين بالبلدة من الأمرا والأجناد المصريين، وأتباعهم ونحوهم.

ثم إنهم تعدوا إلى الحارات والنواحي التي لم يتقدم لهم السكنى بها من قبل ذلك، مثل نواحي المشهد الحسيني وخلف الجامع المؤيدي والخرنفش والجمالية، حتى ضاقت المساكن بالناس؛ لقلتها وصار بعض المحتشمين إذا سكن بجواره عسكر يرتحل من داره ولو كانت ملكه؛ بعدًا من جوارهم وخوفًا من شرهم وتسلقهم على الدار؛ لأنهم يصعدون على الأسطح والحيطان، ويتطلعون على من بجوارهم ويرمون بالبندقيات والطبنجات.

ومما اتفق أن كبيرًا منهم دخل بطايفته إلى منزل بعض الفقها المعتبرين، وأمره بالخروج منها ليسكن هو بها، فأخبره أنه من مشايخ العلم فلم يلتفت لقوله، فتركه ولبس عمامته وركب بغلته وحضر إلى إخوانه المشايخ واستغاث بهم، فركب معه جماعة منهم وذهبوا إلى الدار ودخلوا إليها راكبين بغالهم، فعندما شاهدهم العسكر وهم واصلون في كبكبة أخذوا أسلحتهم وسحبوا عليهم السيوف، فرجع البعض هاربًا وثبت الباقون ونزلوا عن بغالهم وخاطبوا كبيرهم، وعرفوه أنها دار العالم الكبير وهذا لا يناسب، وأن النصارى واليهود يكرمون قسسهم ورهبانهم، وأنتم أولى؛ لأنكم مسلمون، فقالوا لهم في الجواب: أنتم لستم بمسلمين؛ لأنكم كنتم تتمنون تملك النصارى لبلادكم، وتقولون: إنهم خير منا. نحن مسلمون ومجاهدون طردنا النصارى، وأخرجناهم من البلاد فنحن أحق بالدور منكم. ونحو ذلك من القول الشنيع ثم لم يزالوا في معالجتهم إلى تاني يوم، ولم ينصرفوا عن الدار حتى دفعوا لهم مايتي قرش وشال كشمير لكبيرهم.

وفعل مثل ذلك بعدة بيوت دخلها على هذه الصورة وأخذ منها أكثر من ذلك، ومنها دار إسماعيل أفندي صاحب العيار بالضربخانة، وهو رجل معتبر أخذ منه خمسماية قرش وشال كشمير.

وفعل مثل ذلك بغيرهم هو وأمثاله.

ولما أكثر الناس من التشكي للباشا وللكتخدا قال الكتخدا: أناس قاتلوا وجاهدوا أشهرًا وأيامًا وقاسوا ما قاسوه في الحر والبرد والطل، حتى طردوا عنكم الكفار وأجلوهم عن بلادكم، أفلا تسعونهم في السكنى ونحو ذلك من القول.

ولما انقضى هذا الأمر واستقر الباشا واطمأن خاطره، وخلص له الإقليم المصري وثغر إسكندرية الذي كان خارجًا عن حكمه حتى قبل مجي الإنكليز، فإن إسكندرية كانت خارجة عن حكمه، فلما حصل مجي الإنكليز وخروجهم صار الثغر في حكمه أيضًا.

فأول ما بدأ به أن أبطل مسموح المشايخ والفقها ومُعَافَى البلاد التي التزموا لها؛ لأنه لما ابتدع المغارم والشهريات والفُرَض التي فرضها على القرى ومظالم الكشوفية، جعل ذلك عامًّا على جميع الالتزامات والحصص التي بأيدي جميع الناس حتى أكابر العسكر وأصاغرهم، ما عدا البلاد والحصص التي للمشايخ خارجة عن ذلك، ولا يوخذ منها نصف الفايظ ولا تلته ولا ربعه، وكذلك من ينتسب لهم أو يحتمي فيهم ويأخذون الجعالات والهدايا من أصحابها ومن فلاحيهم تحت حمايتها ونظير صيانتها، واغتروا بذلك واعتقدوا دوامه وأكثروا من شرا الحصص من أصحابها المنجاحين بدون القيمة، وافتتنوا بالدنيا وهجروا مذاكرة المسايل ومدارسة العلم إلا بمقدار حفظ الناموس مع ترك العمل بالكلية.

وصار بيت أحدهم مثل بيت أحد الأمرا الألوف الأقدمين، واتخذوا الخدم والمقدمين والأعوان، وأجروا الحبس والتعزير والضرب بالفلقة والكرابيج المعروفة بزبِّ الفيل، واستخدموا كتبة الأقباط وقُطاع الجرايم في الإرساليات للبلاد، وقدروا حق طرق لأتباعهم، وصارت لهم استعجالات وتحذيرات وإنذارات عن تأخر المطلوب مع عدم سماع شكاوى الفلاحين، ومخاصمتهم القديمة مع بعضهم بموجبات التحاسد والكراهية المجبولة والمركوزة في طباعهم الخبيثة.

وانقلب الوضع فيهم بضده، وصار دَيْدَنَهم واجتماعهم ذكرُ الأمور الدنيوية والحصص والالتزام، وحساب الميري والفايظ والمضاف والرماية والمرافعات والمراسلات والتشكي والتناجي مع الأقباط، واستدعا عظماهم في جمعياتهم وولايمهم والاعتنا بشأنهم والتفاخر بتردادهم والترداد عليهم، والمهاداة فيما بينهم إلى غير ذلك مما يطول شرحه، وأوقع مع ذلك زيادة عما هو بينهم من التنافر والتحاسد والتحاقد على الرياسة، والتقايم والتكالب على سفاسف الأمور وحظوظ الأنفس على الأشيا الواهية، مع ما جلبوا عليه من

الشُّح والشكوى والاستجدا وفراغ الأعين، والتطلع للأكل في ولايم الأغنيا والفقرا والمعاتبة عليها إن لم يدعوا إليها، والتعرض بالطلب وإظهار الاحتياج لكثرة العيال والأتباع واتساع الدايرة، وارتكابهم الأمور المخلة بالمروة المسقطة للعدالة، كالاجتماع في سماع الملاهي والأغاني والقيان والآلات المطربة، وإعطا الجوايز والنقوط بمناداة الخلبوص، وقوله «وا علاماه» في السامر وهو يقول في سامر الجمع بمسمع من النسا والرجال من عوام الناس، وخواصهم برفع الصوت الذي يسمعه القاصي والداني، وهو يخاطب ريسة المغاني: «يا ستي حضرة شيخ الإسلام والمسلمين مفيد الطالبين الشيخ العلامة فلان منه كذا وكذا من النصفيات الذهب»، قدر مسماه كثير وجِرْمه قليل، نتيجته التفاخر والكذب والازدرا بمقام العلم بين العوام وأوباش الناس، الذين اقتدوا بهم في فعل المحرمات الواجب عليهم النهي عنها.

كل ذلك من غير احتشام ولا مبالاة مع التضاحك والقهقهة المسموعة من البعد في كل مجمع، ومواظبتهم على الهزليات والمضحكات، وألفاظ الكناية المعبر عنها عند أولاد البلد بالأنقاط والتنافس في الأحداث إلى غير ذلك.

وفيه فتحوا الطلب من الملتزمين ببواقي الميري على أربع سنوات ماضية.

وفي عاشره فتحوا أيضًا دفاتر الطلب بميري السنة القابلة، ووجهوا الطلب بها إلى العسكر فدُهِي الناس بدواهي متوالية منها خرابُ القرى بتوالي المظالم والمغارم والكلف وحق الطرق والاستعجالات والتساويف والبشارات، فكان أهل القرية النازل بها ذلك ينتقلون إلى القرية المحمية لشيخ من الأشياخ، وقد بطلت الحماية أيضًا حينئذٍ، ثم أنزلوا بالبنادر مغارم عظيمة لها قدر من الأكياس الكثيرة، وذلك عقب فرضة البشارة، مثل: دمياط ورشيد والمحلة والمنصورة ماية كيس وخمسون كيسًا وماية وخمسون وأكثر وأقل.

وفي أثناء ذلك قرروا أيضًا فرضة غلال وسمن وشعير وفول على البلاد والقرى، وإن لم يجد المعينون للطلب شيًّا من الدراهم عند الفلاحين، أخذوا مواشيهم وأبقارهم لتأتيَ أربابها ويدفعوا ما تقرر عليهم، ويأخذوها ويتركوها بالجوع والعطش، فعند ذلك يبيعونها على الجزارين ويرمونها عليهم قهرًا بأقصى القيمة ويلزمونهم بإحضار الثمن، فإن تراخوا وعجزوا شددوا عليهم بالحبس والضرب.

وفي يوم الخميس تالت عشره مر الباشا في ناحية سويقة العزى سايرًا إلى ناحية بيت بلفيا، وهناك المكتب فوق السبيل الذي بين الطريقين تجاه من يأتي من تلك الناحية،

فطلع إلى ذلك المكتب شخصان من العسكر يرصدان الباشا في مروره، فحينما أتى مقابلًا لذلك المكتب أطلقا في وجهه برودتين، فأخطأتاه وأصابت إحدى الرصاصتين فرس فارس من الملازمين حوله فسقط، ونزل الباشا عن جواده على مصطبة حانوت مغلوقة، وأمر الخدم بإحضار الكامنين بذلك المكتب فطلعوا إليهما وقبضوا عليهما ثم حضر كبيرهم من دار قريبة من ذلك المكان، واعتذرا إلى الباشا بأنهما مجنونان وسكرانان، فأمره بإخراجهما وسفرهما من مصر، وركب وذهب إلى داره.

وفي يوم الاتنين تالت عشرينه اجتمع عسكر الأرنؤد والترك على بيت محمد علي باشا وطلبوا علايفهم، فوعدهم بالدفع، فقالوا: لا نصبر، وضربوا بنادق كثيرة ولم يزالوا واقفين، ثم انصرفوا وتفرقوا وارتجت البلد، وأرسل السيد عمر إلى أهل الغورية والعقادين والأسواق يأمرهم برفع بضايعهم من الحوانيت، ففعلوا وأغلقوها، فلما كان قبيل الغروب وصل إلى بيت الباشا طايفة من الدلاتية وضربوا أيضًا بنادق، فضرب عليهم عسكر الباشا كذلك، فقُتل من الدلاة أربعة أنفار وانجرح بعضهم، فانكفوا ورجعوا وبات الناس متخوفين — خصوصًا نواحي الأزهر — وأغلقوا البوابات من بعد الغروب وسهروا خلفها بالأسلحة، ولم تفتح إلا بعد طلوع الشمس.

وأصبح يوم التلات والحال على ما هو عليه من الاضطراب، ونقل الباشا أمتعته الثمينة تلك الليلة إلى القلعة، وكذلك في تاني يوم ثم إنه طلع إلى القلعة في ليلة الأربع وشيعه حسن باشا إلى القلعة ورجع إلى داره، ويقال: إن طايفة من العسكر الذين معه بالدار أرادوا غدره تلك الليلة، وعلم ذلك منهم بإشارة بعضهم لبعض رمزًا فغالطهم وخرج مستخفيًا من البيت، ولم يعلم بخروجه إلا بعض خواصه الملازمين له وأكثرهم أقاربه وبلدياته.

ولما تحققوا خروجه من الدار وطلوعه إلى القلعة صرف بونابارته الخازندار الحاضرين في الحال، ونقل الأمتعة والخزينة في الحال، وكذلك الخيول والسروج وخرجت عساكره يحملون ما بقي من المتاع والفرش والأواني إلى القلعة، وأشيع في البلدة أن العساكر نهبوا بيت الباشا وزاد اللغط والاضطراب، ولم يعلم أحد من الناس حقيقة الحال حتى ولا كبار العسكر.

وزاد تخوف الناس من العسكر، وحصل منهم عربدات وخطفُ عمايم وثياب وقتلُ أشخاص، وأصبح يومُ الخميس وباب القلعة مفتوح والعساكر مرابطون وواقفون بأسلحتهم، وطلع أفراد من كبار العسكر بدون طايفتهم ونزلوا، واستمر الحال على ذلك

يوم الجمعة والعسكر والناس في اضطراب، وكل طايفة متخوفة من الأخرى، والأرنؤد فرقتان: فرقة تميل إلى الأتراك، وفرقة تميل إلى جنسها، والدلاة تميل إلى الأتراك وتكره الأرنؤدة وهم كذلك، والناس متخوفة من الجميع، ومنهم مَن يخشى مِن قيام الرعية ويظهر التودد لهم، وقد صاروا مختلطين بهم في المساكن والحارات، وتأهلوا وتزوجوا منهم.

وفي يوم السبت طلع طايفة من المشايخ إلى القلعة، وتكلموا وتشاوروا في تسكين هذا الحال بأي وجه كان ثم نزلوا.

وفي ليلة الأحد كانت رؤية هلال رمضان، فلم يعمل الموسم المعتاد؛ وهو الاجتماع ببيت القاضي وما يعمل به من الحراقة والنفوط والشنك وركوب المحتسب، ومشايخ الحرف والزمور والطبول، واجتماع الناس للفرجة بالأسواق والشوارع وبيت القاضي، فبطل ذلك كله ولم تثبت الرؤية تلك الليلة، وأصبح يوم الأحد والناس مفطرون، فلما كان وقت الضحوة نودي بالإمساك ولم تعلم الكيفية.

واستهل شهر رمضان بيوم الاثنين (سنة ١٢٢٢)

وفي ليلته بين العصر والمغرب ضربوا مدافع كثيرة من القلعة، وأردفوا ذلك بالبنادق الكثيرة المتتابعة، وكذلك العسكر الكاينون بالبلدة فعلوا كفعلهم من كل ناحية ومن أسطحة الدور والمساكن، وكان شيًّا هايلًا واستمر ذلك إلى بعد الغروب، وذلك شنك لقدوم رمضان في دخوله وانقضاه.

وفي رابعه انكشفت القضية عن طلب مبلغ ألفَي كيس بعد جمعيات ومشاورات تارة ببيت السيد عمر النقيب، وتارة في أمكنة أخرى كبيت السيد المحروقي وخلافه، حتى رتبوا ذلك ونظموه، فوزع منه جانب على رجال دايرة الباشا وجانب على المشايخ الملتزمين نظير مسموحهم في فرض حصصهم التي أكلوها، وهي مبلغ مايتي كيس وزعت على القراريط، على كل قيراط ثلاثة آلاف نصف فضة على سبيل القرض لأجل أن ترد أو تحسب لهم في الكشوفات من رفع المظالم ومال الجهات يأخذونها من فلاحيهم، وفرض من ذلك مبالغ على أرباب الحرف وأهل الغورية، ووكالة الصابون، ووكالة القرب والتجار الآفاقية.

واستقر ديوان الطلب ببيت ابن الصاوي بما يتعلق بالفُقها وإسماعيل الطوبجي بالمطلوب من طايفة الأتراك وأهل خان الخليلي، والمرجع في الطلب والدفع والرفع إلى

السيد عمر النقيب، واجتمع الكثير من أهل الحرف كالصرماتية وأمثالهم، والتجوا إلى الجامع الأزهر، وأقاموا به ليالِيَ وأيامًا فلم ينفعهم ذلك.

وانبث المعينون بالطلب وبأيديهم الأوراق بمقدار المبلغ المطلوب من الشخص، وعليها حق الطريق وهم قواسة أتراك وعسكر ودلاة وقواسة بلدي، ودُهِيَ الناسُ بهذه الداهية في الشهر المبارك، فيكون الإنسان نايمًا في بيته ومتفكرًا في قوت عياله، فيدهمه الطلب ويأتيه المعين قبل الشروق فيزعجه ويصرخ عليه، بل ويطلع إلى جهة حريمه فينتبه كالمفلوج من غير اصطباح، ويلاطف المعين ويوعده ويأخذ بخاطره ويدفع له كرا طريقة المرسوم له في الورقة المعين بها المبلغ المطلوب قبل كل شي، فما يفارقه إلا ومعين آخر واصل إليه على النسق المتقدم وهكذا.

وفيه حضر محمد كتخدا شاهين بك الألفي بجواب عن مراسلة أرسلها الباشا إلى مخدومه، فأقام أيامًا يتشاور مع الباشا في مصالحته مع شاهين بك، وحصل الاتفاق على حضور شاهين بك إلى الجزيرة، ويتراضى مع الباشا على أمر، وسافر في تاني عشره وصحبته صالح أغا السلحدار.

وفي يوم الخميس تامن عشره قصد الباشا نفي رجب أغا الأرنؤدي، وأرسل إليه يأمره بالخروج والسفر بعد أن قطع خرجه وأعطاه علوفته، فامتنع من الخروج وقال: أنا لي عنده خمسون كيسًا ولا أسافر حتى أقبضها؛ وذلك أنه في حياة الألفي الكبير اتفق مع الباشا بأن يذهب عند الألفي، وينضم إليه ويتحيل في اغتياله وقتله، فإن فعل ذلك وقتله وتمت حيلته عليه أعطاه خمسين كيسًا.

فذهب عند الألفي والتجأ إليه، وأظهر أنه راغب في خدمته وكره الباشا وظلمه، فرحب به وقبله وأكرمه مع التحذر منه، فلما طال به الأمد ولم يتمكن من قصده رجع إلى الباشا، فلما أمره بالذهاب أخذ يطالبه بالخمسين كيسًا، فامتنع الباشا وقال: جعلت له ذلك في نظير شي يفعله ولم يخرج من يده فعله فلا وجه لمطالبته به.

واستمر رجب أغا في عناده؛ وذلك أنه لا يهون بهم مفارقة مصر التي صاروا فيها أُمرا وأكابر بعد أن كانوا يحتطبون في بلادهم ويتكسبون بالصنايع الدنية.

ثم إنه جمع جيشه إليه من الأرنؤد بناحية سكنه — وهو بيت حسن كتخدا الجربان بباب اللوق — فأرسل إليه الباشا من يحاربه، فحضر حسن أغا سرششمه من ناحية قنطرة باب الخرق.

وحضر أيضًا الجم الكثير من الأتراك وكبراهم من جهة المدابغ وعمل كلٌّ منهم متاريس من الجهتين، وتقدموا قليلًا حتى قربوا من مساكن الأرنؤدة تجاه بيت البارودي،

فلم يتجاسروا على الإقدام عليهم من الطريق، بل دخلوا من البيوت التي في صفهم، ونقبوا من بيت إلى آخر حتى انتهوا إلى أول منزل من مساكنهم فنقبوا البيت الذي يسكن به الشيخ محمد سعد البكري، ونفذوا منه إلى المنزل الذي بجواره ثم منه علي أغا الشعراوي، ثم إلى بيت سيدي محمد وأخيه سيدي محمود المعروف بأبي دفية الملاصق لمسكن طايفة من الأرنؤد، وعبثوا في الدور وأزعجوا أهلها بقبيح أفعالهم، فإنهم عندما يدخلون في أول بيت يصعدون إلى الحريم بصورة منكرة من غير دستور ولا استيذان، وينقبون في مساكن الحريم العليا فيهدمون الحايط، ويدخلون منها إلى محل حريم الدار الأخرى وتصعد طايفة منهم إلى السطح وهم يرمون بالبنادق في الهوا في حال مشيهم وسيرهم، وهكذا ولا يخفى ما يحصل للنسا من الانزعاج ويصرن يصرخن ويصحن بأطفالهن، ويهربن إلى الحارات الأخرى مثل حارة قواديس وناحية حارة عابدين بظاهر الدور المذكورة بغاية الخوف والرعب والمشقة، وطفقت العساكر تنهب الأمتعة والثياب والفرش ويكسرون الصناديق، ويأخذون ما فيها ويأكلون ما في القدور من الأطعمة في نهار رمضان من غير احتشام.

ولقد شاهدت أثر قبيح فعلهم ببيت أبي دفية المذكور من الصناديق المكسرة، وانتشار حشو الوسايد والمراتب التي فتقوها وأخذوا ظروفها، ولم يسلم لأصحاب المساكن سوى ما كان لهم خارج دورهم وبعيدًا عنها أو وزعوه قبل الحادثة، وأصيب محمد أفندي أبو دفية برصاصة أطلقها بعضهم من النقب الذي نقب عليهم نفذت من كتفه، وكذلك فعل العساكر التي أتت من ناحية المدابغ بالبيوت الأخرى.

واستمروا على هذه الأفعال تلاتة أيام بلياليها، فلما كان ليلة الاتنين ثاني عشرينه حضر عمر بك كبير الأرنؤد الساكن ببولاق، وصالح قوج إلى رجب أغا المذكور وأركباه وأخذاه إلى بولاق.

وبطل الحرب بينهم ورفعوا المتاريس في صبحها، وانكشفت الواقعة عن نهب البيوت ونقبها وإزعاج أهلها، ومات فيما بينهم أنفار قليلة، وكذلك مات أناس وانجرح أناس من أهل البلد.

وفي يوم السبت وصل شاهين بك الألفي إلى دهشور، ووصل صحبته مراكب بها سفار وهدية من إبراهيم بك ومحمد بك المرادي المعروف بالمنفوخ برسم الباشا، وهي نحو التلاتين حصانًا، ومااية قنطار بن قهوة، ومااية قنطار سكر وأربع خصيان وعشرون جارية سودا، فلما وصل شاهين بك إلى دهشور فحضر محمد كتخداه وعلي كاشف الكبير، فأرسل الباشا إليه صحبتهما هدية ومعهما ولده وديوان أفندي.

وفي خامس عشرينه سافر رجب أغا، وتخلف عنه كثير من عساكره وأتباعه وذهب من ناحية دمياط.

وفيه حضر ديوان أفندي من دهشور وابن الباشا أيضًا، وخلع شاهين بك على ابن الباشا فروة وقدَّم له تقدمة وسلاحًا نفيسًا إنكليزيًّا.

وفي تامن عشرينه وصل شاهين بك إلى شبرامنت، وقد أمر الباشا بأن يخلوا له الجيزة وينتقل منها الكاشف والعسكر، فعدى الجميع إلى البر الشرقي، وتسلم علي كاشف الكبير الألفي القصر وما حوله، وما به من الجبخانة والمدافع وآلات الحرب وغيرها.

واستهل شهر شوال بيوم التلات (سنة ١٢٢٢)

ولم يعمل العسكر شنكهم تلك الليلة من رميهم الرصاص والبارود الكثير المزعج من ساير النواحي والبيوت والأسطحة لانقباض نفوسهم، وإنما ضربوا مدافع من القلعة مدة تلاتة أيام العيد في الأوقات الخمسة.

وفي خامسه اعتنى الباشا بتعمير القصر لسكن شاهين بك بالجيزة، وكان العسكر أخربوه، وكذلك بيوت الجيزة، ولم يتركوا بها دارًا عامرة إلا القليل، فرسم الباشا للمعمارجية بعمارة القصر، فجمعوا البنايين والنجارين والخراطين وحملوا الأخشاب من بولاق وغيرها، وهدموا بيت أبي الشوارب وأحضروا الجِمال والحمير لنقل أخشابه وأنقاضه، وأخرجوا منه أخشابًا عظيمة في غاية العظم والتخن ليس لها نظير في هذا الوقت والأوان.

وفي سابعه حضر شاهين بك إلى بر الجيزة وبات بالقصر، وضربوا لقدومه مدافع كثيرة من الجيزة، وعمل له علي جربجي موسى الجيزاوي وليمة، وفرض مصروفها وكلفتها على أهل البلدة، وأعطاه الباشا إقليم الفيوم بتمامه التزامًا وكشوفية، وأطلق له فيها التصرف وأنعم عليه أيضًا بتلاتين بلدة من إقليم البهنسا مع كشوفيتها وعشرة بلاد من بلاد الجيزة من البلاد التي ينتقيها ويختارها وتعجبه مع كشوفية الجيزة، وكتب له بذلك تقاسيط ديوانية، وضم له كشوفية البحيرة بتمامها إلى حد إسكندرية، وأطلق له التصرف في جميع ذلك ومرسوماته نافذة في ساير البر الغربي.

وفي صبح يوم الأربع تاسعه ركب السيد عمر أفندي النقيب والمشايخ، وطلعوا إلى القلعة باستدعا إرسالية أُرسلت إليهم في تلك الليلة، فلما طلعوا إلى القلعة، ركب معهم

ابن الباشا طوسون بك ونزل الجميع وساروا إلى ناحية مصر القديمة، وكان شاهين بك عدى إلى البر الشرقي بطايفة من الكشاف والمماليك والهواره فسلموا عليه.

وكان بصحبتهم طايفة من الدلاة ساروا أمام القوم بطبلاتهم وسفافيرهم، ومن خلفهم طايفة من الهوارة ومن خلفهم الكشاف والمماليك والسيد عمر النقيب والمشايخ، ثم شاهين بك وبجانبه ابن الباشا وخلفهم الطوايف والأتباع والخدم، وخلفهم النقاقير فساروا إلى ناحية جهة القرافة وزاروا ضريح الإمام الشافعي.

ثم ركبوا وساروا إلى القلعة وطلعوا من باب العزب إلى سراية الديوان، وانفصل عنهم المشايخ ونزلوا إلى دورهم، وقابلوا الباشا وسلم شاهين بك عليه، فخلع عليه الباشا فروة سمور مثمنة وسيفًا وخنجرًا مجوهرًا وتعابي، وقدم له خيولًا بسروجها وعزم عليه ابن الباشا فأذن له أن يتوجه صحبته إلى سرايته فركب معه وتغدَّى عنده.

ثم ركب بصحبته ونزلا من القلعة وذهب عند حسن باشا فقابله أيضًا وسلم عليه، وخلع عليه أيضًا وقدم له خيولًا وركب صحبتهما وذهبوا عند طاهر باشا ابن أخت الباشا فسلم عليه أيضًا، وقدم له تقادم ثم ركب عايدًا إلى الجيزة وذهب إلى مخيمه بشبرامنت، واستمر مقيمًا بالمخيم حتى تمم عمارة القصر وتردد كشافهم وأجنادهم إلى بيوتهم بالمدينة، فيبيتون الليلة والليلتين ويرجعون إلى مخيمهم، وفيه قطع الباشا رواتب طوايف من الدلاة وأمروا بالسفر إلى بلادهم.

وفي يوم الجمعة انتقل الألفية بعرضيهم وخيامهم إلى بحري الجيزة.

وفي يوم السبت تاني عشره وصل أربعة من صناجق الألفية، وهم: أحمد بك ونعمان بك وحسن بك ومراد بك، فطلعوا إلى القلعة وخلع عليهم الباشا فراوي وقلدهم سيوفًا وقدم لهم تقادم، ثم نزلوا إلى حسن باشا فسلموا عليه وخلع عليه أيضًا خلعًا، ثم ذهبوا إلى بيت صالح أغا السلحدار، فأقاموا عنده إلى أواخر النهار، ثم ذهبوا إلى البيوت التي بها حريمهم فباتوا وذهبوا في الصباح إلى الجيزة.

وفي يوم التلات خامس عشره عملت وليمة وعقدوا لأحمد بك الألفي على عديلة هانم بنت إبراهيم بك الكبير، والوكيل في العقد شيخ السادات وقبل عنه محمد كتخدا بوكالته عن أحمد بك، ودفع الصداق الباشا من عنده وقدره ثمانية آلاف ريال.

وفيه اتفقوا على إرسال نعمان بك ومحمد كتخدا وعلي كاشف الصابونجي إلى إبراهيم بك الكبير لإجراء الصلح.

وفيه أيضًا أرادوا إجراء عقد زينب هانم ابنة إبراهيم بك على نعمان بك، فامتنعت وقالت: لا يكون ذلك إلا عن إذن أبي وها هو مسافر إليه فليستأذنه ولا أخالف أمره،

فأجيبت إلى ذلك. وأراد شاهين بك أن يعقد لنفسه على زوجة حسين بك المقتول المعروف بالوشاش، وهو خشداشه وهي ابنة السفطي، فاستأذن الباشا فقال: إني أريد أن أزوجك ابنتي وتكون صهري وهي واصلة عن قريب أرسلت بحضورها من بلدي قولة، فإن تأخر حضورها جهزت لك سرية وزوجتك إياها.

وفي يوم الأربع نزل الباشا من القلعة، وذهب إلى مضرب النشاب واستدعى شاهين بك من الجيزة، وعمل معه ميدانًا وترامحوا وتسابقوا ولعبوا بالرماح والسيوف، ثم طلع الجميع إلى القلعة واستمر شاهين بك عند الباشا إلى بعد الظهر، ثم نزل مع نعمان بك إلى بيت عديلة هانم فمكثا إلى قبيل المغرب، ثم أرسل إليهما الباشا فطلعا إلى القلعة فباتا عنده ونزلا في الصباح وعديا إلى الجيزة، قال الشاعر:

أمور تُضحك السفهاءَ منها ويبكي من عواقبها اللبيب

وفيه تقلد حسن أغا سرششمه إمارة دمياط عوضًا عن أحمد بك، وتقلد عبد الله كاشف الدرندلي إمارة المنصورة عوضًا عن عزيز أغا.

وفي يوم الأربع تالت عشرينه وصل قابجي ومعه مرسومات يتضمن أحدها التقرير لمحمد علي باشا على ولاية مصر، وآخر بالدفتردارية باسم ولده إبراهيم، وآخر بالعفو عن جميع العسكر جزا عن إخراجهم الإنكليز من ثغر إسكندرية، وآخر بالتأكيد في التشهيل والسفر لمحاربة الخوارج بالحجاز واستخلاص الحرمين، والوصية بالرعية والتجار، وصحبته أيضًا خلع وشلنجات، فأركبوه في موكب في صبح يوم الخميس، وطلع إلى القلعة وقريت المراسيم المذكورة بحضرة الباشا والمشايخ وكبار العسكر وشاهين بك وخشداشينه الألفية، وضربوا مدافع وشنكًا.

وفيه سافر إبراهيم بك ابن الباشا على طريق القليوبية وصحبته طايفة من مباشري الأقباط، وفيهم جرجس الطويل — وهو كبيرهم — وأفندية من أفندية الروزنامة، وكتبة مسلمين للكشف على الأطيان التي رويت من ماء النيل والشراقي، فأنزلوا بالقرى النوازل من الكلف وحق الطرقات، وقرروا على كل فدان رواه النيل أربعماية وخمسين نصف فضة تقبض للديوان، وذلك خلاف ما للملتزم والمضاف والبراني وما يضاف إلى ذلك من حق الطرق والكلف المتكررة.

واستهل شهر ذي القعدة بيوم الأربع (سنة ١٢٢٢)

وفيه فرضوا على مساتير الناس سُلف أكياس، ويحسب لهم ما يوخذ منهم من أصل ما يتقرر على حصصهم من المغارم في المستقبل، وعينوا العساكر بطلبها فتغيب غالبهم وتوارى لعدم ما بأيديهم، وخلو أكياسهم من المال والتجا الكثير منهم إلى ذوي الجاه، ولازموا أعتابهم حتى شفعوا فيهم وكشفوا غمتهم.

وفي عاشره ورد الخبر من الجهة القبلية بأن الأمرا المصريين تحاربوا مع ياسين بك بناحية المنية، وذلك عن أمر الباشا وهزموه فدخل إلى المنية ونهبوا حملته ومتاعه.

وفي أثر ذلك حضر أبو ياسين بك إلى مصر وعينت عساكر إلى جهة قبلي وأميرها بونابارته الخازندار وتقدمهم سليمان بك الألفي في آخرين.

وفي عشرينه تعين أيضًا عدة عساكر إلى ناحية بحري، وفيهم عمر بك تابع الأشقر المصرلي لمحافظة رشيد وآخرين إلى إسكندرية، ثم تعوق عمر بك عن السفر؛ وسبب ذلك أنه ورد قايف إنكليزي إلى ثغر إسكندرية، وأخبر بخروج عمارة الفرنسيس إلى البحر بسيسيليه وربما استولوا عليها وكذلك مالطة، فلما ورد هذا الخبر حضر البطروش قنصل الإنكليز المقيم برشيد إلى مصر بأهله وعياله.

وفي أواخره جمعوا عدة كبيرة من البنايين والنجارين، وأرباب الأشغال لعمارة أسوار وقلاع إسكندرية وأبي قير والسواحل.

واستهل شهر ذي الحجة بيوم الجمعة (سنة ١٢٢٢)

في تاني عشره ورد الخبر بأن سليمان بك الألفي لما وصل إلى المنية ونزل بفناها، خرج إليه ياسين بك بمجموعه وعساكره وعربانه، فوقع بينهما وقعة عظيمة وانهزم ياسين بك وولى هاربًا إلى المنية، فتبعه سليمان بك في قلة وعدى الخندق خلفه، فأصيب من كمين بداخل الخندق ووقع ميتًا بعد أن نهب جميع متاع ياسين بك وجِماله وأثقاله وشتت جموعه وانحصر هو وعساكره وعربانه، وما بقي منهم بداخل المنية.

وكانت الواقعة يوم الأربع سادس الشهر، فلما ورد الخبر بذلك على الباشا أظهر أنه اغتم على سليمان بك وتأسف على موته، وأقام العزا عليه خشداشينه بالجيزة وفي بيوتهم، وطفق الباشا يلوم على جراة المصريين وإقدامهم، وكيف أن سليمان بك يخاطر بنفسه ويلقي بنفسه من داخل الخندق، ويقول: أنا أرسلت إليه أحذره وأقول له: إنه

ينتظر بونابارته الخازندار ويرسل ياسين بك ويطلعه على ما بيده من المراسيم، فإن أبى وخالف ما في ضمنها فعند ذلك يجتمعون على حربه، وتتقدم عسكر الأتراك لمعرفتهم وصبرهم على محاصرة الأبنية، فلم يستمع لما قلت له وأغرى بنفسه، وأيضًا ينبغي لكبير الجيش التأخر عن عسكره، فإن الكبير عبارة عن المدير الريس، وبمصابه تنكسر قلوب قومه، وهولا القوم بخلاف ذلك يلقون بأنفسهم في المهالك.

ولما أرسل جماعة سليمان بك يخبرون بموت كبيرهم، وأنهم مجتمعون على حالتهم ومقيمون بعرضهم ومحطتهم على المنية، وأنهم منتظرون من يقيمه الباشا ريسًا مكانه، فعند ذلك أرسل الباشا إلى شاهين بك يعزيه، ويلتمس منه أن يختار من خشداشينه من يقلده الباشا إمارة سليمان بك، فتشاور شاهين بك مع خشداشينه فلم يرضَ أحد من الكبار أن يتقلد ذلك، ثم وقع اختيارهم على شخص من المماليك يسمى يحيى وأرسلوه إلى الباشا، فخلع عليه وأمره بالسفر إلى المنية، فأخذ في قضا أشغاله وعدى إلى بر الجيزة.

وفي منتصفه ورد الخبر بأن بونابارته الخازندار وصل إلى المنية بعد الواقعة وياسين بك محصور بها، فأرسل إليه يستدعيه إلى الطاعة وأطلعه على المكاتبات والمراسيم التي بيده من الباشا خطابًا له وللأمرا الحاضرين والغايبين المصرية، وفي ضمنها إنْ أبي ياسين بك عن الدخول في الطاعة، واستمر على عناده وعصيانه فإن بونابارته والأمرا المصرية يحاربونه.

فعند ذلك نزل ياسين بك على حكم بونابارته، وحضر عنده بعد أن استوثق منه بالأمان ووصلت الأخبار بذلك إلى مصر، وخرجت العربان المحصورون بالمنية بعد أن صالحوا على أنفسهم، وفتحوا لهم طريقًا وذهبوا إلى أماكنهم، واستلم بونابارته المنية فأقام بها يومين وارتحل عنها وحضر إلى مصر.

وفي ليلة التلات تاسع عشره حضر ياسين بك إلى ثغر بولاق، وركب في صبحها وطلع إلى القلعة، فعوقه الباشا وأراد قتله فتعصب له عمر بك الأرنؤدي وصالح قوج وغيرهما، وطلعوا في يوم الجمعة، وقد رتب الباشا عساكره وجنده وأوقفهم بالأبواب الداخلة والخارجة وبين يديه، وتكلم عمر بك وصالح أغا مع الباشا في أمره وأن يقيم بمصر، فقال الباشا: لا يمكن أن يقيم بمصر والساعة أقتله وأنظر أي شي يكون، فلم يَسَع المتعصبين له إلا الامتثال ثم أحضره وخلع عليه فروة، وأنعم عليه بأربعين كيسًا ونزلوا بصحبته بعد الظهر إلى بولاق، وسافر إلى دمياط ليذهب إلى قبرص ومعه محافظون.

وفي يوم الأحد حضر بونابارته الخازندار من المنية إلى مصر وانقضت السنة.

وأما من مات فيها ممن له ذكر

فمات الشيخ العلامة بقية العُلما والفُضلا والصالحين الورع القانع الشيخ أحمد بن علي بن محمد بن عبد الرحمن بن علاء الدين البرماوي الدهبي الشافعي الضرير، ولد ببلدة برما بالمنوفية سنة ١١٣٨ ونشا بها وحفظ القرآن والمتون على الشيخ المعاصري، ثم انتقل إلى مصر فجاور بالمدرسة الشيخونية بالصليبة، وتخرج في الحديث على الشيخ أحمد البرماوي، وحضر دروس مشايخ الأزهر كالشيخ محمد فهرس، والشيخ علي قايتباي، والشيخ الدفري، والشيخ سليمان الزيات، والشيخ الملوي، والشيخ المدابغي، والشيخ الغنيمي، والشيخ محمد الحفني وأخيه الشيخ يوسف، وعبد الكريم الزيات، والشيخ عمر الطحلاوي، والشيخ سالم النفراوي، والشيخ عمر الشنواني، والشيخ أحمد رزة، والشيخ سليمان البسوسي، والشيخ علي الصعيدي، وأقرأ الدروس وأفاد الطلبة ولازم الإقرا.

وكان منجمعًا عن الناس قانعًا راضيًا بما قسم له، لا يزاحم على الدنيا ولا يتداخل في أمورها، وأخبرني ولده العلامة الفاضل الشيخ مصطفى أنه وُلد بصيرًا، فأصابه الجدري فطمس بصره في صغره، فأخذه عم أبيه الشيخ صالح الدهبي ودعا له فقال في دعاه: اللهم كما أعميت بصره نور بصيرته، فاستجاب الله دعاه.

وكان قوي الإدراك ويمشي وحده من غير قايد، ويركب من غير خادم ويذهب في حواجه المسافة البعيدة، ويأتي إلى الأزهر ولا يخطي الطريق، ويتنحى عما عساه يصيبه من راكب أو جمل أو حمار مقبل عليه أو شي معترض في طريقه أقوى من ذي بصر، فكان يُضرب به المثل في ذلك مع شدة التعجب كما قال القايل:

ما عمى العيون مثلَ عمى القلـ ـب فهذا هو العمى والبلا
فعمى العيون تغميضُ عين وعمى القلوب فهو الشقا

ولم يزل ملازمًا على حالته من الانجماع والاشتغال بالعلم والعمل به، وتلاوة القرآن وقيام الليل، فكان يقرا كل ليلة القرآن إلى أن تُوُفِّيَ يوم التلات حادي عشر ربيع الأول من هذه السنة، وله من العمر أربع وتمانون سنة، وصُلِّي عليه بجامع ابن طولون، ودُفن بجوار المشهد المعروف بالسيدة سكينة — رضي الله عنها — بجانب الشيخ البرماوي رحمه الله وبارك في ولده الشيخ مصطفى وأعانه على وقته.

ومات العمدة الفاضل حاوي الكمالات والفضايل الشيخ محمد بن يوسف ابن بنت الشيخ محمد بن سالم الحفناوي الشافعي، وُلد سنة ١١٦٣ وتربى في حِجر جده وتخلق بأخلاقه، وحفظ القرآن والألفية والمتون، وحضر دروس جده وأخي جده الشيخ يوسف الحفناوي، وحضر أشياخ الوقت كالشيخ علي العدوي، والشيخ أحمد الدردير، والشيخ عطية الأجهوري، والشيخ عيسى البراوي وغيرهم، وتمهر وأنجب وأخذ طريق الخلوتية عن جده، ولقنه الأسما.

ولما تُوُفِّيَ جده ألقى الدروس في محله بالأزهر، ونشا من صغره على أحسن طريقة وعفة نفس، وتباعد عن سفاسف الأمور الدنيوية، ولازم الاشتغال بالعلم، وفتح بيت جده وعمل به ميعاد الذكر كعادته، وكان عظيم النفس مع تهذيب الأخلاق والتبسط مع الإخوان والممازحة، مع تجنبه ما يخل بالمروة، وله بعض تعليقات وحواشٍ وشعر مناسب.

ولم يزل على حالته إلى أن تُوُفِّيَ يوم السبت رابع شهر ربيع الأول من السنة، وصُلِّي عليه بالأزهر في مشهد حافل ودُفن مع جده في تربة واحدة بمقبرة المجاورين، ولم يخلف ذكورًا — رحمه الله.

ومات الشيخ العلامة المفيد والنحرير المجيد محمد الحصافي الشافعي الفقية النحوي الفرضي، تلقى العلوم وحضر أشياخ الطبقة الأولى ودرس العلوم بالأزهر، وأفاد الطلبة وقرأ الكتب المفيدة، وعاش طول عمره منعكفًا في زوايا الخمول منعزلًا عن الدنيا، وهي منعزلة عنه، راضيًا بما قسم الله له، قانعًا بما يسره له مولاه، لا يُدعى في وليمة، ولا ينهمك على شي من أمور الدنيا، ولم يزل على حالته حتى تُوُفِّيَ يوم الاتنين تالت عشر شوال من السنة.

ومات العمدة المفضل الشيخ محمد عبد الفتاح المالكي من أهالي كفر حشاد بالمنوفية، قدم من بلده صغيرًا فجاور بالأزهر، وحضر على أشياخ الوقت ولازم دروس الشيخ الأمير، وبه تخرج وتفقه عليه وعلى غيره من عُلما المالكية، وتمهر في المعقولات وأنجب وصارت له مَلَكَة واستحضار. ثم سافر إلى بلده وأقام بها يفيد ويُفتي، ويرجعون إليه في قضاياهم ودعاويهم، فيقضي بينهم ولا يقبل من أحد جعالة ولا هدية، فاشتُهر ذكره بالإقليم، واعتقدوا فيه الصلاح والعفة، وأنه لا يقضي إلا بالحق ولا يأخذ رشوة ولا جعالة ولا يجابي في الحق، فامتثلوا لقضاياه وأوامره فكان إذا قضى قاضٍ من قضاة البلدان بين خصمين رجعا إلى المترجم وأعادوا عليه دعواهما، فإن رأى القضاء صحيحًا موافقًا

للشرع أمضاه، وامتثل الخصم الآخر ولا يمانع بعد ذلك أبدًا ويذعن لما قضاه الشيخ لعلمه أنه لا لغرض دنيوي، وإلا أخبرهم بأن الحق خلافه فيمتثل الخصم الآخر.

ولم يزل على حالته حتى كان المولد المعتاد بطندتا، فذهب ابن الشيخ الأمير إلى هناك فأتى لزيارة ابن شيخه، ونزل في الدار التي هو نازل فيها فانهدمت الجهة التي هو بها، وسقطت عليه فمات شهيدًا مردومًا ومعه ثلاثة أنفار من أهالي قرية العسكروت، وذلك في أوايل شهر الحجة، ولم يخلف بعد مثله — رحمه الله.

ومات الأمير سعيد أغا دار السعادة العثماني الحبشي، قدم إلى مصر بعد مجي يوسف باشا الوزير في أهبة، ونزل بدرب الجماميز في البيت الذي كان نزل به شريف أفندي الدفتردار بعد انتقاله منه، وفتح باب التفتيش على جهات أوقاف الحرمين وغيرها، وأخاف الناس وحضر إليه كتبة الأوقاف، وجلسوا لمقارفة الناس والتعنت عليهم بطلب السندات، ويهولون عليهم بالأغا المذكور، ويأخذون منهم المصالحات ثم ينهون إليه الأمر على حسب أغراضهم، ويعطونه جزءًا ويأخذون لأنفسهم الباقي، ثم تنبه لذلك فطرد غالبهم وشدد على الباقين، وتساهل مع الناس. وكان ريسًا عاقلًا معدودًا في الريسا تعمل عنده الدواوين والاجتماعات في مهمات الأمور والوقايع — كما تقدم ذكر ذلك في مواضعه — ثم إنه تمرض بذات الرئة شهورًا ومات في يوم الاتنين رابع شهر صفر.

ومات الأمير سليمان بك المرادي، وهو من الأُمرا الذين تأمروا بعد موت مراد بك، وكان ظالمًا غشومًا ويعرف بـ «ريَّحه» بتشديد الياء؛ وسبب تسميته بذلك أنه كان إذا أراد قتل إنسان ظلمًا يقول لأحد أعوانه: خذه وريحه فيأخذه ويقتله. ومات في واقعة أسيوط الأخيرة، أخذت جلة المدفع دماغه وقطع ذراعه وعرفوا قتله بخاتمه الذي في أصبعه في ذراعه المقطوع.

ومات سليمان بك الألفي الذي قُتل في واقعة ياسين بك بالمنية عند الخندق وغير هؤلاء، والله أعلم.

واستهلت سنة تلات وعشرين ومايتين وألف (١٨٠٨م)

فكان أول المحرم يوم الأحد فيه برز القابجي المسمى بيانجي بك إلى السفر على طريق البر، وخرج الباشا لوداعه، وهذا القابجي كان حضر بالأوامر بخروج العساكر للبلاد الحجازية وخلاص البلاد من أيدي الوهابية، وفي مراسيمه التي حضر بها التأكيد والحث على ذلك، فلم يزل الباشا يخادعه ويَعده بإنفاذ الأمر ويعرِّفه أن هذا الأمر لا يتم بالعجلة، ويحتاج إلى استعداد كبير وإنشا مراكب في القلزم وغير ذلك من الاستعدادات.

وعمل الباشا ديوانًا جمع فيه الدفتردار والمعلم غالي والسيد عمر والمشايخ، وقال لهم: لا يخفاكم أن الحرمين استولى عليها الوهابيون ومشوا أحكامهم بها: وقد وردت علينا الأوامر السلطانية المرة بعد المرة للخروج إليهم ومحاربتهم وجلاهم وطردهم عن الحرمين الشريفين، ولا تخفى عنكم الحوادث والوقايع التي كانت سببًا في التأخير عن المبادرة في امتثال الأوامر، والآن حصل الهدو، وحضر قابجي باشا بالتأكيد والحث على خروج العساكر وسفرهم، وقد حسبنا المصاريف اللازمة في هذه الوقت فبلغت أربعة وعشرين ألف كيس، فأعمِلوا رأيكم في تحصيلها. فحصل ارتباك واضطراب، وشاع ذلك في الناس وزاد بهم الوسواس، ثم اتفقوا على كتابة عرضحال ليصحبه ذلك القابجي معه بصورة نمقوها.

وفي سادسه حضر مرزوق بك، وسليم بك المحرمجي، وعلي كشاف الصابونجي المرسل، فطلعوا إلى القلعة، وقابلوا الباشا، وخلع على مرزوق بك والمحرمجي فروتين، ونزلا إلى دورهما، ثم ترددوا وطلعوا ونزلوا وبلغوا رسايل الأمرا القبليين، وذكروا

مطالبهم وشروطهم وشروط الباشا عليهم والاتفاق في تقرير الصلح والمصالحة عدة أيام.

وفيه حضر عرب الهنادي والجهنة، وصالحوا على أنفسهم وأن يرجعوا إلى منازلهم بالبحيرة ويطردوا أولاد علي، وكانوا تغلبوا على الإقليم وحصل منهم الفساد والإفساد، وكانت مصالحتهم بيد شاهين بك الألفي، وسافر معهم شاهين بك وخشداشينه ولم يبقَ بالجيزة سوى نعمان بك، وذهبوا إلى ناحية دمنهور وارتحل أولاد علي إلى الحوش ابن عيسى، وذلك أواخر المحرم.

ثم إن شاهين بك ركب بمن معه وحاربوهم، ووقع بينهم مقتلة عظيمة، وقُتل فيها شخصان من كبار الأجناد الألفية، وهم عثمان كاشف وآخر، ونحو ستة مماليك، وقتل جملة كثيرة من العرب وانكشف الحرب عن هزيمة العرب، وأسروا منهم نحو الأربعين، وغنموا منهم غنايم كثيرة من أغنام وجِمال، وتفرقوا وتشتتوا وذهبوا إلى ناحية قبلي والفيوم، وذلك في شهر صفر.

واستهل شهر ربيع أول (سنة ١٢٢٣)

في عاشره حضر شاهين بك وباقي الألفية.

وفي عشرينه ورد الخبر بموت شاهين بك المرادي، فخلع الباشا على سليم بك المحرمجي، وجعله كبيرًا وريسًا على المرادية عوضًا عن شاهين بك وسافر إلى قبلي.

وفيه أيضًا حضر أمين بك الألفي من غيبته، وكان مسافرًا مع الإنكليز الذين كانوا حضروا إلى إسكندرية ورشيد وحصل لهم ما حصل، فلم يزل غايبًا حتى بلغه صلح خشداشينه مع الباشا، فرجع وطلع على ردته، فأرسلوا له الملاقاة والخيول واللوازم، وحضر في التاريخ المذكور.

وفيه زوَّج الباشا شاهين بك سرية انتقتها زوجة الباشا ونظمتها، وفرش له سبع مجالس بقصر الجيزة، وجمعوا لذلك المنجدين، وتقيد بتجهيز الشوار والأقمشة واللوازم الخواجا محمود حسن، وكذلك زوَّج نعمان بك سرية أخرى وسكن بيت المشهدي بدرب الدليل، بعد أن عمرت له الدار وفرشت على طرف الباشا، وكذلك تزوج عمر بك بجارية من جواري الست نفيسة المرادية، وجهزتها جهازًا نفيسًا من مالها وتزوج أيضًا علي كاشف الكبير الألفي بزوجة أستاذه.

شهر جمادى الأولى (سنة ١٢٢٣)

فيه سافر مرزوق بك بعد تقرير أمر الصلح بينه وبين الأمرا المصريين القبالي، وقلد الباشا مرزوق بك ولاية جرجا وإمارة الصعيد، وألبسه الخلعة وشرط عليه إرسال المال والغلال الميرية، فعند ذلك اطمأنت الناس وسافرت السفار والمتسببون، ووصل إلى السواحل مراكب الغلال والأشيا التي تُجلب من الجهة القبلية.

واستهل شهر جمادى الثانية (سنة ١٢٢٣)

فيه قطع الباشا مرتب الدلاة الأغراب وأخرجهم، وعزل كبيرهم الذي يسمى «كردي بوالي» الساكن ببولاق، وقلد ذلك مصطفى بك من أقاربه وجعله كبيرًا على طايفة الدلاتية الباقين، وضم إليه طايفة من الأتراك ألبسهم طراطير وجعلهم دلاتية، وسافر كردي بوالي لبلاده في منتصف الشهر، وخرج صحبته عدة كبيرة من الدلاة.

وفي أواخره وردت الأخبار من إسلامبول، وذلك أن طايفة من الينكجرية تعصبت وقامت على السلطان سليم وعزلوه، وأجلسوا مكانه السلطان مصطفى، وأبطلوا النظام الجيد وقتلوا دفتردار النظام الجديد، وكتخدا الدولة، ودفتردار الدولة وغيرهم، وقطعوهم في آت ميدان بعد أن تغيبوا، واختفوا في أماكن حتى في بيوت النصارى، واستدلوا عليهم واحدًا بعد واحد؛ فكانوا يستحبون الأمير منهم المترفِّه على صورة منكرة إلى آت ميدان فيقتلونه، وبعضهم قطعوه في الطريق، وسكن الحال على سلطنة السلطان مصطفى بن عبد الحميد، وكان السلطان سليم عندما أحس بحركة الينكجرية أرسل يستنجد ويستدعي مصطفى باشا البيرقدار، وكان برشق بالروملي بمخيم العرضي المتعين على حرب المسكوب.

ووصل خبر الواقعة إلى من بالعرضي فأقام أيضًا الينكجرية الفتنة العرضي، وقتلوا أغات العرضي وهرب الريس وخلافه عند مصطفى باشا المذكور، وقد وصله مراسلة السلطان سليم، فحركوا همته على القيام بنصرة السلطان سليم على الينكجرية، فركب من العرضي في عدة وافرة وحضر إلى إسلامبول، وشق بجمعه وعسكره من وسطها في كبكبة حتى وصل إلى باب السراية، فوجده مغلوقًا فأراد كسره أو حرقه إلى أن فتحوه بالعنف، وعبر إلى داخل السراية وطلب السلطان سليم، فعند ذلك أرسل السلطان مصطفى المتولي جماعة من خاصته، فدخلوا على السلطان سليم في المكان الذي هو

مختفٍ به وقتلوه بالخناجر والسكاكين حتى مات، وأحضروه ميتًا إلى مصطفى باشا البيرقدار، قالوا له: ها هو السلطان سليم الذي تطلبه، فلما رآه ميتًا بكى وتأسف.

ثم إنه عزل السلطان مصطفى وأحضر محمودًا أخاه ابن عبد الحميد، وأجلسه على تخت الملك ونودي باسمه، وكان ذلك يوم الخميس خامس جمادى الثانية من السنة وعمره تلات وعشرون سنة، ومات السلطان سليم وعمره إحدى وخمسون سنة؛ لأنه وُلد سنة ١١٧٢ ومدة ولايته نحو العشرين سنة تنقص شهرًا، فلما وردت هذه الأخبار وتواترت في مكاتبات التجار والسفار، خطب بعض الخطبا يوم الجمعة سادس عشرينه، باسم السلطان محمود وبعضهم أطلق في الدعا ولم يذكر الاسم.

وفيه قوي عزم الباشا على السفر إلى جهة دمياط ورشيد وإسكندرية فطلب لوازم السفر، ووعد بسفره بعد قطع الخليج وطفق يستعجل بالوفا ويطلب ابن الرداد المقياسي ويسأله عن الوفا، ويقول: اقطعوا جسر الخليج في غد أو بعد غد، فيقول: تأمرونا بقطعه قبل الوفا، فيقول: لا، ويقول: ليس الوفا بأيدينا.

فلما كان السبت سابع عشرينه وخامس عشر مسرى القبطي نقص النيل نحو خمسة أصابع، وانكشف الحجر الراقد الذي عند فم الخليج تحت الحجر القايم، فضج الناس ورفعوا الغلال من الرقع والعرصات والسواحل، وانزعجت الخلايق بسبب شحة النيل في العام الماضي وهيفان الزرع، وتنوع المظالم وخراب الريف وجلا أهله.

واجتمع في ذلك اليوم المشايخ عند الباشا فقال لهم: اعملوا استسقا وأمروا الفقرا والضعفا والأطفال بالخروج إلى الصحرا وادعوا الله، فقال له الشيخ الشرقاوي: ينبغي أن ترفقوا بالناس وترفعوا الظلم، فقال: أنا لست بظالم وحدي وأنتم أظلم مني، فإني رفعت عن حصتكم الفرض والمغارم إكرامًا لكم، وأنتم تأخذونها من الفلاحين وعندي دفتر محرر فيه ما تحت أيديكم من الحصص يبلغ الألفين كيس، ولا بد أني أفحص عن ذلك، وكل من وجدته يأخذ الفرضة المرفوعة من فلاحينه أرفع الحصة عنه، فقالوا له: لك ذلك.

ثم اتفقوا على الخروج والسقيا في صبحها بجامع عمرو بن العاص؛ لكونه محل الصحابة والسلف الصالح يصلون به صلاة الاستسقا، ويدعون الله ويستغفرونه ويتضرعون إليه في زيادة النيل، وبالجملة ركب السيد عمر والمشايخ وأهل الأزهر وغيرهم والأطفال، واجتمع عالم كثير وذهبوا إلى الجامع المذكور بمصر القديمة، فلما كان صبحها وتكامل الجمع صعد الشيخ جاد المولى على المنبر وخطب بعد أن صلى الاستسقا ودعا

الله، وأمَّن الناس على دعاه وحول رداءه ورجع الناس بعد صلاة الظهر، وبات السيد عمر هناك، وفي تلك الليلة رجع الماء إلى محل الزيادة واستتر الحجر الراقد بالماء.

وفي يوم الاتنين خرجوا أيضًا، وأشار بعض الناس بإحضار النصارى أيضًا، فحضروا وحضر المعلم غالي ومن يصحبه من الكتبة الأقباط، وجلسوا في ناحية من المسجد يشربون الدخان وانفض الجمع أيضًا.

وفي تلك الليلة التي هي ليلة التلات زاد الماء، ونودي بالوفا وفرح الناس، وطفق النصارى يقولون: إن الزيادة لم تحصل إلا بخروجنا.

فلما كانت ليلة الأربع طاف المنادون بالرايات الحمر، ونادَوْا بالوفا وعُمِل الشنك والوقدة تلك الليلة على العادة.

وفي صبحها حضر الباشا والقاضي، واجتمع الناس وكسروا السد وجرى الماء في الخليج جريانًا ضعيفًا لعلو أرض الخليج وعدم تنظيفه من الأتربة المتراكمة فيه من مدة سنين، وكان ذلك يوم الأربع غرة شهر رجب وتاسع عشر مسرى القبطي.

واستهل شهر رجب بيوم الأربع (سنة ١٢٢٣)

في تانيه يوم الخميس وصل إلى بولاق راغب أفندي، وهو أخو خليل أفندي الرجائي الدفتردار المقتول، وعلى يده مرسوم بإجراء الخطبة باسم السلطان محمود بن عبد الحميد، وأنزلوه ببيت ابن السباعي بالغورية وضربوا مدافع بالقلعة وشنكًا تلات أيام في الأوقات الخمسة، وخطب الخطبا في صبحها باسم السلطان محمود والدعا له في جميع المساجد.

وفي ليلة الأحد خامسه سافر محمد علي باشا إلى بحري، ونزل في المراكب وأرسل قبل نزوله بأيام بتشهيل الإقامات والكلف على البلاد من كل صنف خمسة عشر، وأخلوا له ولمن معه بيوت البنادر مثل المنصورة ودمياط ورشيد والمحلة وإسكندرية، وفرض الفرض والمغارم على البلاد على حكم القراريط التي كانوا ابتدعوها في العام الماضي، على كل قيراط سبعة آلاف وسبعماية نصف فضة، وسماها كلفة الذخيرة.

وأمر بكتابة دفتر لذلك فكتب إليه الروزنامجي أن الخراب استولى على كثير من البلاد، فلا يمكن تحصيل هذا الترتيب، فأرسل من المنصورة يأمر بتحرير العمار بدفتر مستقل والخراب بدفتر آخر، فلما فعل الروزنامجي ذلك أدخل فيها بلادًا بها بعض الرمق لتخلص من الفرضة، وفيها ما هو لنفسه، فلما وصلت إليه أمر بتوزيع ذلك

الخراب على أولاده وأتباعه وأغراضه وعدتهاماية وستون بلدة، وأمر الروزنامجي بكتابة تقاسيطها بالأسما التي عينها له، فلم يمكن الروزنامجي أن يتلاقى ذلك فتظهر خيانته، ووزعت وارتفعت عن أصحابها.

وكذلك حصل بإقليم البحيرة، لما عمها الخراب وتعطل خراجها وطلبوا الميري من الملتزمين فتظلموا واعتذروا بعموم الخراب، فرفعوها عنهم وفرقها الباشا على أتباعه واستولوا عليها.

وطلبوا الفلاحين الشاردة والمنسحبة من البلاد الأُخَر وأمروهم بسكناها.

وزادوا في الطنبور نغمات، وهو أنهم صاروا يتتبعون أولاد البلد أرباب الصنايع الذين لهم نسبة قديمة بالقرى، وذلك بإغرا أتباعهم وأعوانهم، فيكون الشخص منهم جالسًا في حانوته وصناعته فما يشعر إلا والأعوان محيطون به يطلبونه إلى مخدومهم، فإن امتنع أو تلكأ سحبوه بالقهر وأدخلوه إلى الحبس، وهو لا يعرف له ذنبًا فيقول: وما ذنبي؟ فيقال له: عليك مال الطين، فيقول: وأي شي يكون الطين؟ فيقولون له: طين فلاحتك من مدة سنين لم تدفعه وقدره كذا وكذا، فيقول: لا أعرف ذلك ولا أعرف البلد ولا رأيتها في عمري لا أنا ولا أبي ولا جدي، فيقال له: ألست فلانًا الشبراوي أو المنياوي مثلًا؟ فيقول لهم: هذه النسبة قديمة سرت إليَّ من عمي أو خالي أو جدي، فلا يُقبل منه ويُحبس ويُضرب حتى يدفع ما ألزموه به أو يجد شافعًا يصالح عليه، وقد وقع ذلك لكثير من المتسببين والتجار وصناع الحرير وغيرهم.

ولم يزل الباشا في سيره حتى وصل إلى دمياط، وفرض على أهلها أكياسًا، وأخذ من حكامها هدايا وتقادم، ثم رجع إلى سمنود وركب في البر إلى المحلة، وقبض ما فرضه عليها وهو خمسون كيسًا نقصت سبعة أكياس عجزوا عنها بعد الحبس والعقاب، وقدم له حاكمها ستين جملًا وأربعين حصانًا خلاف الأقمشة المحلاوية مثل: الزردخانات والمقاطع الحرير، وما يصنع بالمحلة من أنواع الثياب والأمتعة صناعة من بقي بها من الصناع.

ثم ارتحل عنها ورجع إلى بحر منوف وذهب إلى رشيد وإسكندرية، ولما استقر بها عبى هدية إلى الدولة، وأرسل إلى مصر فطلب عدة قناطير من البن والأقمشة الهندية، وسبعماية أردب أرز أبيض أُخذت من بلاد الأرز، وأرسل الهدية صحبة إبراهيم أفندي المهردار، وحضر إليه وهو بإسكندرية قابجي من طرف مصطفى باشا البيرقدار الوزير برسالة، ورجع بالجواب على أثره ولم يعلم ما دار بينهما.

وفي منتصفه — أعني شعبان — حضر محمد علي باشا من غيبته، وطلع على ساحل بولاق ليلة الخميس خامس عشره، وذهب إلى داره بالأزبكية ثم طلع في تاني يوم إلى القلعة لحضوره مدافع.

واستهل شهر رمضان بيوم الجمعة (١٢٢٣)

فيه وردت الأخبار بحرق القمامة القدسية، وظهر حريقها من كنيسة الأروام.

وفيه سافر عدة من العسكر والدلاة وعمر بك الألفي، ومعه طايفة من المماليك إلى البحيرة بسبب عربان أولاد علي؛ فإنهم كانوا بعد الحوادث نزلوا بالإقليم وشاركوا، وزرعوا مثل ما كان عليه الهنادي والجهنة، فلما اصطلح الألفية مع الباشا توسط شاهين بك في صلح الهنادي والجهنة على قدر، وذلك لِما كان بينهم وبين أستاذه من النسابة، ونزل صحبتهم إلى البحيرة وعمرهم بأرضها كما كانوا أولًا، وطرد أولاد علي وحاربهم ومكن الهنادي والجهنة.

ورجع إلى الجيزة فراسل أولاد علي الباشا بوساطة بعض أهل الدولة، وعملوا للباشا ماية ألف ريال على رجوعهم للبحيرة، وإخراج الهنادي فأجابهم طمعًا في المال فحنق أوليك وعصوا وحاربوا أولاد علي، ونهبوا ونالوا منهم بعد أن كانوا ضيقوا عليهم وحصلت اختلافات وامتنع أولاد علي من دفع المال الذي قرروه على أنفسهم، واجتمعوا بحوش عيسى فأرسل إليهم الباشا عمر بك المذكور ومن معه فحاربوهم مع الهنادي، فظهر عليهم أولاد علي وهزموهم، وقُتل من الدلاة أكثر من ماية وكذلك من العسكر، ونحو الخمسة عشر من المماليك، فأمر الباشا بسفر عساكر أيضًا وصحبتهم نعمان بك وخلافه، وسافرت طايفة من العرب إلى ناحية الفيوم، فأرسلوا لهم عدة من العسكر.

وفي أواخره سافر أيضًا شاهين بك، وباقي الألفية خلاف أحمد بك فإنه أقام بالجيزة.

وفيه نودي على المعاملة بأن يكون صرف الريال الفرنسا بمايتين وعشرين، وكان بلغ في مصارفته إلى مايتين وأربعين والمحبوب بمايتين وخمسين، فنودي على صرفه بمايتين وأربعين، وذلك كله من عدم الفضة العددية بأيدي الناس والصيارف لتحكيرهم عليها ليأخذها تجار الشام بفرط في مصارفتها تضم للميري، فيدور الشخص على صرف القرش الواحد فلا يجد صرفه إلا بعد جهد شديد، وبصرفه الصراف أو خلافه للمضطر بنقص نصفين أو تلاتة.

وفيه سافر أيضًا حسن الشماشرجي ولحق بالمجردين.

وفي أواخره ورد الخبر بأن محو بك كاشف البحيرة قبض على السيد حسين نقيب الأشراف بدمنهور، وأهانه وضربه وصادره وأخذ منه ألفَي ريال بعد أن حلف أنه إن لم يأتِ بها في مدة أربع وعشرين ساعة وإلا قتله، فوقع في عرض النصارى المباشرين فدفعوها عنه حتى تخلص بالحياة، وكذلك قبض على رجل من التجار وقرر عليه جملة كثيرة من المال، فدفع الذي حصلته يده وبقي عليه باقي ما قرره عليه فلم يزل في حبسه حتى مات تحت العقوبة، فطلب أهله رمته فحلف ألا يعطيها لهم حتى يكون ابنه في الحبس مكانه.

ومن الحوادث السماوية أن في سابع عشرين رمضان غيمت السما بناحية الغربية والمحلة الكبرى، وأمطرت برَدًا في مقدار بيض الدجاج وأكبر وأصغر، فهدمت دورًا وأصابت أنعامًا غير أنها قتلت الدودة من الزرع البدري.

واستهل شهر شوال بيوم الأحد (سنة ١٢٢٣)

في أواخره حضر شاهين بك الألفي من ناحية البحيرة، وذلك بعد ارتحال أولاد علي من الإقليم.

وفيه أيضًا حضر سليمان كاشف البواب من ناحية قبلي وصحبته عدة من المماليك وأربعة من الكشاف، فقابل الباشا وخلع عليه وأنزله ببيت طنان بسويقة العزى، وسكن بها وحضر مطرودًا من إخوانه المرادية.

واستهل شهر القعدة بيوم الاتنين (سنة ١٢٢٣)

فيه عزل الباشا السيد المحروقي عن نظارة الضربخانه، ونصب بها شخصًا من أقاربه.

وفي ثالث عشره نزل والي الشرطة وأمامه المناداة على ما يستقرضه الناس من العسكر بالربا والزيادة على أن يكون على كل كيس ستة عشر قرشًا في كل شهر لا غير، والكيس عشرون ألف نصف فضة، وهو الكيس الرومي؛ وذلك بسبب ما انكسر على المحتاجين والمضطرين من الناس من كثرة الربا لضيق المعاش، وانقطاع المكاسب وغلو الأسعار وزيادة المكوس، فيضطر الشخص إلى الاستدانة فلا يجد من يداينه من أهل البلد، فيستدين من أحد العسكر ويحسب عليه على كل كيس خمسين قرشًا في كل

شهر، وإذا قصرت يد المديون عن الوفا أضافوا الزيادة على الأصل، وبطول الزمن تفحش الزيادة ويئول الأمر لكشف حال المديون.

وجرى ذلك على كثير من مساتير الناس وباعوا أملاكهم ومتاعهم، والبعض لما ضاق به الحال ولم يجد شيًّا خرج هاربًا وترك أهله وعياله خوفًا من العسكري وما يلاقي منه، وربما قتله فأعرض بعض المديونين إلى الباشا، فأمر بكتابة هذا البيورلدي ونزل به والي الشرطة ونادى به في الأسواق، فعدَّ ذلك من غرايب الحكام حيث ينادي على الربا جهارًا في الأسواق من غير احتشام ولا مبالاة؛ لأنهم لا يرون ذلك عيبًا في عقيدتهم.

وفي رابع عشرينه غضب الباشا على محو بك الكبير الذي كان كاشفًا بالبحيرة، ونفاه إلى أبي قير وأخذ أمواله، وأنعم ببيته وهو بيت حسين أغا شنن بحارة عابدين وما بها من الخيل والجمال والجوار والخيام والمتاع على محو بك الصغير الأورفلي.

واستهل شهر ذي الحجة بيوم التلات (سنة ١٢٢٣)

فيه وصلت الأخبار من إسلامبول بوقوع فتنة عظيمة، وأنه لما حصل ما حصل في منتصف السنة من دخول مصطفى باشا البيرقدار على الصورة المذكورة، وقتل السلطان سليم وتولية السلطان محمود، وخذلان الينكجرية وقتلهم ونفيهم وتحكم مصطفى باشا في أمور الدولة، واستمر من بقي منهم تحت الحكم، فأجمعوا أمرهم ومكروا مكرهم وحذر بعضهم مصطفى باشا من المذكورين، فلم يكترث بذلك واستهون أمرهم واحتقر جانبهم، وقال: أي شي هولا «مناولري» بمعنى أنهم بياعون الفاكهة فكان حاله كما قيل.

فلا تحتقر كيد العدو فربما تموت الأفاعي من سموم العقارب

ثم إنهم تحزبوا وحضروا إلى سرايته على حين غفلة بعد السحور ليلة السابع والعشرين من رمضان، وجماعته وطايفته متفرقون في أماكنهم، فحرقوا باب السراية وكبسوا عليه فقُتل من قُتل من أتباعه وهرب من هرب على حمية.

واختفى مصطفى باشا في سرداب فلم يجدوه، وأوقعوا بالسراية الحرق والهدم والنهب، وخاف السلطان؛ لأن سراية الوزير بجانب السراية السلطانية ففتح باب السراية التي بناحية البحر، وأرسل يستعجل قاضي باشا بالحضور وكذلك قبطان باشا، فحضرا إلى السراية واشتد الحرب بين الفريقين، وأكثر الينكجرية من الحريق في البلدة حتى أحرقوا منها جانبًا كبيرًا.

فلما عاين السلطان ذلك هاله وخاف من عموم حريق البلدة، وهو ومَنْ معه محصورون بالسراية يومًا وليلة، فلم يسعه إلا تلافي الأمر فراسل كبار الينكجرية وصالحهم وأبطلوا الحرب وشرعوا في إطفا الحريق، وخرج قاضي باشا هاربًا وكذلك قبودان باشا وهو عبد الله رامز أفندي الذي كان في أيام الوزير بمصر.

ثم إنهم أخرجوا مصطفى باشا من المكان الذي اختفى فيه ميتًا من تحت الردم، وسحبوه من رجليه إلى خارج، وعلقوه في شجرة ومثَّلوا به وأكثروا على رمته من السخرية.

وعند وقوع هذه الحادثة ومجي قاضي باشا — وكان من أغراض السلطان مصطفى المنفصل — فخاف السلطان أن قاضي باشا إن غلب على الينكجرية فيعزله ويولي أخاه ويرده إلى السلطنة، فقتل السلطان محمود أخاه مصطفى خنقًا، ثم لما سكن الحال عيَّنوا على قاضي باشا وقتلوه، وكذلك عبد الله أفندي رامز قبودان باشا، وكان مصطفى باشا البيرقدار هذا مشكور السيرة يحب إقامة العدل، والوقتُ بخلاف ذلك.

وفيه قوي الاهتمام بسد ترعة الفرعونية، وتعين لذلك شخص يسمى عثمان السلانكلي الذي كان مباشرًا على جسر إسكندرية.

وفي منتصفه سافر الباشا وصحبته حسن باشا لمباشرة الترعة التي يريدون سدها، وأمر بوسق الأحجار وأفردوا لذلك عدة كثيرة من المراكب تشحن بالأحجار والأخشاب الكثيرة وترجع فارغة، وتعود موسوقة في كل يوم مرة، وأمر بجمع الرجال من القرى للعمل.

وفيه أيضًا شرع الباشا في إنشا أبنية بساحل شبرا الشهيرة الآن بشبرا المكاسة، وأشيع أن قصده إنشاء سواقي وعماير وبساتين ومزارع، وأخذ في الاستيلا على ما يحاذي ذلك من القرى والأطيان والرزَق والإقطاعات من ساحل شبرا إلى جهة بركة الحاج عَرْضًا.

وفي سابع عشره خرجت عساكر كثيرة إلى البر الغربي بقصد الذهاب إلى الفيوم، صحبة شاهين بك والألفية بسبب أولاد علي الذين كانوا بالبحيرة.

وفي تاني عشرينه وصل واحد قابجي وأشيع أنه طلع من بولاق وذهب إلى بيت الباشا، وعلى يده مرسومان: أحدهما تقرير للباشا على ولاية مصر، والتاني يذكر فيه أن يوسف باشا المعدني الصدر السابق تعين بالسفر على جهة الشام؛ لتنظيم بلاد العرب والحجاز، وأن يقوم محمد علي باشا بلوازمه وما يحتاج إليه من أدوات وذخيرة وغير ذلك، ولم يظهر لذلك الكلام أثر، ولما أصبح النهار، وحضر ذلك القابجي في موكب إلى

بيت الباشا وحضر الأشياخ والأعيان وكان الباشا غايبًا في الترعة كما تقدم، وعوضه كتخدا بك وأكابر دولتهم، وقريت المراسيم تحقق الخبر، وانقضت السنة بحوادثها التي لا يمكن ضبط جزئياتها لعدو الوقوف على حقيقتها.

فمن الحوادث العامة توالي الفرض والمظالم المتوالية، وإحداث أنواع المظالم على كل شي والتزايد فيها، واستمرار الغلا في جميع أسعار المبيعات والمآكل والمشارب بسبب ذلك، وفقر أهل القرى وبيعهم لمواشيهم في المغارم فقل اللحم والسمن والجبن، وأخذ مواشيهم وأغنامهم من غير تمن في الكلف، ثم رميها على الجزارين بأغلى تمن ولا يذبحونها إلا في المذبح، ويؤخذ منهم إسقاطها وجلودها وروسها، ورواتب الباشا وأهل دولته ثم يذهبون بما يبقى لهم لحوانيتهم، فتباع على أهل البلد بأغلى تمن حتى يخلص للجزار راس ماله، وإذا عثر المحتسب على جزار ذبح شاة اشتراها في غير المذبح قبض عليه وأشهره، وأخذ ما في حانوته من اللحم من غير تمن، ثم يُحبس ويُضرب ويُغرَّم مالًا ولا يُغفر ذنبه ويسمَّى خاينًا وفلاتيًّا.

ومنها انقطاع الحج الشامي والمصري معتلِّين بمنع الوهابي الناس عن الحج، والحال ليس كذلك؛ فإنه لم يمنع أحدًا يأتي إلى الحج على الطريقة المشروعة، وإنما يمنع من يأتي بخلاف ذلك من البدع التي لا يُجيزها الشرع، مثل: المحمل والطبل والزمر وحمل الأسلحة، وقد وصل طايفة من حجاج المغاربة، وحجوا ورجعوا في هذا العام — وما قبله — ولم يتعرض لهم أحد بشي.

ولما امتنعت قوافل الحج المصري والشامي وانقطع عن أهل المدينة ومكة ما كان يصل إليهم من الصدقات والعلايف والصرر التي كانوا يتعيشون منها وخرجوا من أوطانهم بأولادهم ونساهم، ولم يمكث إلا الذي ليس له إيراد من ذلك، وأتوا إلى مصر والشام، ومنهم من ذهب إلى إسلامبول يتشكون من الوهابي ويستغيثون بالدولة في خلاص الحرمين لتعود لهم الحالة التي كانوا عليها من إجرا الأرزاق، واتصال الصلات والنيابات والخدم في الوظايف التي بأسما رجال الدولة كالفراشة والكناسة ونحو ذلك، ويذكرون أن الوهابي استولى على ما كان بالحجرة الشريفة من الذخاير والجواهر، ونقلها وأخذها، فيرون أن أخذه لذلك من الكباير العظام.

وهذه الأشيا أرسلها ووضعها خساف العقول من الأغنيا والملوك والسلاطين الأعاجم وغيرهم، إما حرصًا على الدنيا وكراهة أن يأخذها من يأتي بعدهم، أو لنوايب الزمان فتكون مدخرة ومحفوظة لوقت الاحتياج إليها فيستعان بها على الجهاد ودفع الأعدا، فلما

تقادمت عليها الأزمنة وتوالت عليها السنين والأعوام الكثيرة وهي في الزيادة، ارتصدت معنًى لا حقيقة، وارتسم في الأذهان حرمة تناولها، وأنها صارت مالًا للنبي ﷺ فلا يجوز لأحد أخذها ولا إنفاقها، والنبي — عليه الصلاة والسلام — مُنزَّه عن ذلك، ولم يدخر شيًّا من عرض الدنيا في حياته، وقد أعطاه الله الشرف الأعلى؛ وهو الدعوة إلى الله تعالى والنبوة والكتاب، واختار أن يكون نبيًّا عبدًا ولم يختر أن يكون نبيًّا ملكًا.

وثبت في الصحيحين وغيرهما أنه قال: «اللهم اجعل رزق آل محمد قوتًا.» وروى الترمذي بسنده عن أبي أمامة — رضي الله عنه — عن النبي ﷺ قال: «عَرَضَ عليَّ ربي ليجعل لي بطحاء مَكة ذهبًا، قلت: لا يا رب، ولكنْ أشبعُ يومًا وأجوعُ يومًا (أو قال تلاتًا أو نحو ذلك) فإذا جعت تضرَّعتُ إليك وذكرتك، وإذا شبعتُ شكرتُك وحَمِدتُكَ.»

ثم إن كانوا وضعوا هذه الذخاير والجواهر صدقة على الرسول ومحبة فيه، فهو فاسد لقول النبي ﷺ: «إن الصدقة لا تنبغي لآل محمد، إنما هي أوساخ الناس.» ومنع بني هاشم من تناول الصدقة وحرمها عليهم، والمراد الانتفاع في حال الحياة لا بعدها، فإن المال أَوْجَدَهُ المولى — سبحانه وتعالى — من أمور الدنيا لا من أمور الآخرة، قال تعالى: ﴿أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ وهو من جملة السبعة التي ذكرها الله — سبحانه وتعالى — في كتابه العزيز في قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَاللهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾، فهذه السبعة بها تكون الخبايث والقبايح، وليست هي في نفسها أمورًا مذمومة، بل قد تكون مُعِينة على الآخرة إذا صرفت في محلها.

وعن مطرف عن أبيه قال: «أتيت النبي ﷺ وهو يقرأ «ألهاكم التكاثر» قال: يقول ابن آدم: مالي مالي، فهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلتَ فأفنيتَ، أو لبستَ فأبليتَ، أو تصدقتَ فأمضيتَ؟!» إلى غير ذلك، ومحبة الرسول بتصديقه واتباع شريعته وسنته، لا بمخالفة أوامره وكنز المال بحجرته وحرمان مستحقيه من الفقرا والمساكين وباقي الأصناف الثمانية، وإن قال المدخر: أكنزها لنوايب الزمان ليستعان بها على مجاهدة الكفار والمشركين عند الحاجة إليها، قلنا: قد رأينا شدة احتياج ملوك زماننا، واضطرارهم في مصالحات المتغلبين عليهم من قرانات الإفرنج وخلو خزاينهم من الأموال التي أفنوها بسو تدبيرهم وتفاخرهم ورفاهيتهم، فيصالحون المتغلبين بالمقادير العظيمة بكفالة أحد الفرق من الإفرنج المسالمين لهم، واحتالوا على تحصيل المال من رعاياهم بزيادة المكوس

والمصادرات والطلبات والاستيلا على الأموال بغير حق، حتى أفقروا تُجَّارهم ورعاياهم، ولم يأخذوا من هذه المدخرات شيًّا، بل ربما كان عندهم أو عند خونداتهم جوهر نفيس من بقايا المدخرات فيرسلونه هدية إلى الحجرة، ولا ينتفعون به في مهماتهم فضلًا عن إعطاه لمستحقه من المحتاجين، وإذا صار في ذلك المكان لا ينتفع به أحد إلا ما يختلسه العبيد الخصيون الذين يقال لهم أغوات الحرم، والفقرا من أولاد الرسول وأهل العلم والمحتاجون وأبناء السبيل يموتون جوعًا، وهذه الذخاير محجوز عليها وممنوعون منها.

إلى أن حضر الوهابي واستولى على المدينة، وأخذ تلك الذخاير فيقال: إنه عبى أربعة سحاحير من الجواهر المحلاة بالألماس والياقوت العظيمة القدر، ومن ذلك أربع شمعدانات من الزمرد وبدل الشمعة قطعة ألماس مستطيلة يضيء نورها في الظلام، ونحو ماية سيف قرباتها ملبسة بالذهب الخالص ومنزَّل عليها ألماس وياقوت، ونصابها من الزمرد واليَشَم ونحو ذلك، وسلاحها من الحديد الموصوف، كل سيف منها لا قيمة له، وعليها دمعات باسم الملوك والخلفا السالفين وغير ذلك.

ومنها أن الباشا عزم على عمارة المجراة التي تنقل الماء إلى القلعة، وقد خربت وتلاشى أمرها وتهدمت قناطرها، وبطل نقل الماء عليها من نحو عشرين سنة، فقيد بعمارتها محمد أفندي طبل ناظر المهمات، فعمَّرها وأجرى الماء بها في أواخر الشهر الماضي.

ومنها إحداث عدة مكوس على أصناف كثيرة، منها على بضاعة اللبان عن كل قطعة تلتماية نصف فضة، وكذلك على صنف الحنا عن كل مِخْلة عشرة أنصاف، وكذلك الموزونات كل ماية درهم أربعة دراهم على البايع، وعلى المشتري درهمان، وغير ذلك حوادث كثيرة لا نعلمها.

وأما من مات بها ممن له ذكر

فمات الأجلُّ المبجل والمحترم المفضل السيد خليل البكري الصديقي، ووالدته من ذرية شمس الدين الحنفي، وهو أخو الشيخ أحمد البكري الصديقي الذي كان متوليًا على سجادتهم، ولما مات أخوه لم يلها المترجم لما فيه من الرعونة وارتكابه أمورًا غير لايقة، بل تولاها ابن عمه السيد محمد أفندي مضافة لنقابة الأشراف، فتنازع مع ابن عمه المذكور وقسموا البيت الذي هو مسكنهم بالأزبكية نصفين، وعمر مَنابه عمارة متقنة وزخرفة، وأنشأ فيه بستانًا زرع فيه أصناف الأشجار والفواكه.

فلما تُوُفِّيَ السيد محمد أفندي تولى المترجم مشيخة السجادة، وتولى نقابة الأشراف السيد عمر مكرم الأسيوطي، فلما طرق البلاد الفرنساوية تداخل المترجم فيهم وخرج السيد عمر مع من خرج هاربًا من الفرنساوية إلى بلاد الشام، وعرف المترجم الفرنساوية أن النقابة كانت لبيتهم، وأنهم غصبوها منه فقلدوه إياها واستولى على وقفها وإيرادها، وانفرد بسكن البيت وصار له قبول عند الفرنساوية وجعلوه من أعاظم ريسا الديوان، الذي كانوا نظموه لإجرا الأحكام بين المسلمين، فكان وافر الحرمة مسموع الكلمة مقبول الشفاعة عندهم، فازدحم بيته بالدعاوى والشكاوى واجتمع عنده مماليك من مماليك الأمرا المصرية الذين كانوا خايفين ومتغيبين، وعدة خدم وقواسة ومقدم كبير وسراجين وأجناد.

واستمر على ذلك إلى أن حضر يوسف باشا الوزير في المرة الأولى التي انتقض فيها الصلح، ووقعت الحروب في البلدة بين العثمانية والفرنساوية، والأمرا المصرية وأهل البلدة، فهجم على داره المتهورون من العامة ونهبوه وهتكوا حريمه وعروه عن ثيابه، وسحبوه بينهم مكشوف الرأس من الأزبكية إلى وكالة ذي الفقار بالجمالية، وبها عثمان كتخدا الدولة فشفع فيه الحاضرون، وأطلقوه بعد أن أشرف على الهلاك، وأخذه الخواجا أحمد بن محرم إلى داره، وأسكن روعه وألبسه ثيابًا وأكرمه، وبقي بداره إلى أن انقضت أيام الفتنة.

وظهرت الفرنساوية على المحاربين لهم وخرجوا من البلدة واستقر بها الفرنساوية، فعند ذلك ذهب إليهم وشكا لهم ما حل به بسبب موالاته لهم، فعوضوا عليه ما نهب له، ورجع إلى الحالة التي كان عليها معهم، وكانت داره أخربها النهابون فسكن ببيت البارودي بباب الخرق، ثم انتقل منه إلى بيت عبد الرحمن كتخدا القازدغلي بحارة عابدين، وجدد بها عمارة.

وكان له ابنة خرجت عن طورها في أيام الفرنسيس، فلما أشيع حضور الوزير والقبودان والإنكليز وظهر على الفرنساوية الخروج من مصر فقتل ابنته المذكوره بيد حاكم الشرطة، فلما استقرت العثمانية بالديار المصرية عزل المترجم عن نقابة الأشراف، وتولاها السيد عمر مكرم كما كان قبل الفرنساوية، ولما حضر محمد باشا خسرو أنهى إليه الكارهون له بأنه مرتكب للموبقات ويعاقر الشراب وغير ذلك، وأن ابنته كانت تذهب إلى الفرنسيس بعلمه، وأنه قتلها خوفًا وتبرية لنفسه من الشهرة التي لا يمكنه سترها، ولا يُقْبَلُ عذره فيها ولا التنصل منها، وأنه لا يصلح لمشيخة سجادة السادة البكرية.

وعرفوه أن هناك شخصًا من سلسلتهم يقال له الشيخ محمد سعد، وهو من جملة أتباع المترجم، ولكنه فقير لا يملك شيًّا ولا دابة يركبها، فقال الباشا: أنا أواسيه وأعطيه، فأحضروه له بعد أن ألبسوه تاجًا كبيرًا وثيابًا وهو رجل مبارك طاعن في السن، فألبسه فروة سمور وقدم له حصانًا معددًا، وقيد له ألف قرش وسكن دارًا بناحية باب الخرق وترَيَّش حاله.

وخمل أمر المترجم، واشترى دارًا بدرب الجماميز بعطفة الفرن، وكان بظاهرها قطعة جنينة فاشتراها وغرس بها أشجارًا وحسَّنها وأتقنها، وبنى له مجلسًا مطلًّا عليها، وبالأسفل مساطب ولواوين جلوس لطيفة.

واشترى دارين من دور الأمرا المتقدمين بظاهر ذلك، وهدمهما وبنى بأنقاضهما وأخشابهما، وباع ما كان تحت يده من حصص الالتزام وسد بأثمانها ديونه، واقتصر على إيراده فيما يخصه من وقف جده لأمه الأستاذ الحنفي، وتصدى لمقاقمته وأذيته أنفار من المتظاهرين مثل: السيد عمر مكرم النقيب، والشيخ محمد وفا السادات وخلافهما، حتى إنه كان عقد لابنه سيدي أحمد على بنت المرحوم محمد أفندي البكري، فتعصبوا عليه بعد عزله من المشيخة والنقابة، وأبطلوا العقد وفسخوا النكاح ببيت القاضي.

وتسلط عليه من له دين أو دعوى أو مطالبة حتى بَيَّعوه حصصه، وكان قد اشترى مملوكًا في أيام الفرنساوية جميل الصورة، فلما حصل له ما حصل ادَّعى عليه البايع أنه أخذه بدون القيمة ولم يدفع له التمن، فلم يثبت عليه ذلك، وكان المملوك ذهب من عنده وتم الأمر والمصالحة على أن عثمان بك المرادي أخذ ذلك المملوك لنفسه. وقد تقدم ذكر قصته في الحوادث السابقة.

ولم يزل المترجم على حالة خمول حتى تحرك عليه داء الفتق، ومات على حين غفلة في منتصف شهر ذي الحجة، صُلي عليه بمسجد جده لأمه الشيخ شمس الدين أبي محمد الحنفي، ودُفن عند أسلافه بمشهد السادة البكرية بالقرافة — رحمه الله وعفا عنا وعنه.

ومات الأمير شاهين بك المرادي، ويعرف بباب اللوق لأنه كان ساكنًا هناك، وهو من مماليك مراد بك وأصله جركسي الجنس، ولما أعتقه مراد بك أنعم عليه بكشوفية إقليم الغربية ثم رجع إلى مصر، وأقام بطالًا متطلعًا للإمارة، ويرى أنه أحق بها من غيره، ولما رجع المصريون إلى مصر بعد قتل طاهر باشا — وكان الألفي غايبًا ببلاد الإنكليز — انضم إليه عثمان بك البرديسي، ووافقه على كراهة الألفي الباطنية، وكان هو أحد المباشرين والضاربين لحسين بك الوشاش بالبر الغربي ليلة خروجهم وتعديتهم لملاقاة

الألفي، ثم خرج من مصر مع عشيرته ولم يزل حتى مات في منتصف شهر ربيع الأول من السنة المذكورة، والله أعلم.

سنة أربع وعشرين ومايتين وألف (١٨٠٩م)

استهل شهر المحرم بيوم الخميس، وفي تلك الليلة — أعني ليلة الجمعة ثانيه — مرت سحابة سودا مظلمة في وقت العشا، وحصل فيها رعد مزعج وبرق مستتير شديد اللمعان، وأمطرت في محلات قليلًا وفي أخرى كثيرًا، ثم انجلت السماء سريعًا فظهرت النجوم، وبعد أيام أخبر الواردون من ناحية بلاد السماحات بالغربية أنها أمطرت بتلك الناحية في تلك الليلة بردًا كبيرًا وصغيرًا، والكبير في مقدار حجر الطاحون، والصغير في مقدار بيض الدجاج، وتهدمت منها دور، وقتلت مواشي وآدمية وأهلكت زروعًا كثيرة.

وفي يوم الأحد رابعه قتل الباشا حسين بن الخبيري، وهو بترعة الفرعونية وأرسل راسه إلى مصر فعلقت بباب زويلة.

وفي أواخره حضر الباشا من ترعة الفرعونية، وقد عجز عن سدها بعد أن بذل جهده وفرض الفرض العظيمة على البلاد، وأشغلوا المراكب في نقل الأحجار ليلًا ونهارًا، والسيد محمد المحروقي متقيد لذلك ومقيم بمسجد الآثار لتشهيل الحجارين، ووسقها بالمراكب وقطعها من الجبل قطعًا وصخورًا، فكانوا يشقون الجبل بألغام البارود مثل عمل الإفرنج، وظهر في قطعهم كهوف ومغارات وتجاويف، وتحدث الناس بذلك بأنواع الأكاذيب والخرافات، كقولهم: ظهر في الجبل باب من حديد وعليه أقفال ففتحوه، ونظروا من داخله أشخاصًا على خيول إلى غير ذلك.

وفيه حضر قاصد من قبودان باشا يطلب عوايده بإسكندرية، فقال له حاكم إسكندرية: ينبغي أن تذهب إلى الباشا بالترعة وتقابله، فذهب إليه وقابله عند السد فبات تلك الليلة وأصبح ميتًا فأخرجوه إلى المقبرة.

ثم حضر قاصد آخر يخبر بوصول قابجي وعلى يده مرسومان:

أحدهما: الإخبار عن صلح الدولة مع الإنكليز والموسكوب وانفتاح البحر وأمن المسافرين.

والثاني: الأمر بالسفر والخروج إلى فتح الحرمين وطرد الوهابية عنهما، وأن يوسف باشا الصدر السابق المعروف بالمعدن تعين بالسفر للحرمين على طريق الشام، وكذلك سليمان باشا والي بغداد متعين أيضًا بالسفر من ناحيته على الدَّرُعية، وأحضر للباشا تقريرًا بالولاية مجددًا وخلعة وسيفًا.

واستهل شهر صفر بيوم السبت (سنة ١٢٢٤)

فيه حضر الأغا الواصل إلى بولاق فركب لملاقاته أغات الينكجرية والوالي وأرباب العكاكيز، فأركبوه في موكب ودخلوا به من باب النصر وطلع إلى القلعة، وقروا المراسيم بحضرة الجمع وبعد الفراغ من قرايتها ضربوا مدافع وشنكًا.

وفي ذلك اليوم غيمت السما بالسحاب، وأمطرت كثيرًا ونزل مطر ببركة الحاج، وجدوا فيه سمكًا صغيرًا من جنس السمك الذي يعرف بالقاروص، وصار يتنطط على الأرض، وأحضروا منه إلى مصر، وشاهدناه وهو في غاية البرودة.

وفيه اهتم الباشا بإخراج تجريده إلى الأمرا القبليين؛ وذلك أنه تقدم بالإرسال إليهم يطالبهم بالغلال والأموال الميرية المرار العديدة ويعدون ولا يوفون، ووصل إليه من عندهم رضوان كتخدا البرديسي وهو بالترعة ومعه أجوبة وهدية وفيها خيول وجوارٍ وعبيد وسكر وخصيان، فاغتاظ الباشا وقال: أنا لست أطلب إحسانهم وصدقاتهم حتى إنهم يضحكون على ذقني بهذه الأمور، وحيث إنهم لا يرجعون عن الكامن في روسهم فلا بد من خروجي إليهم ومحاربتهم.

وأرسل مَنْ بمصر من الأكابر يأمرهم بالبراز والخروج، فخرج حسن باشا وصالح أغا قوج وطاهر باشا وأحمد بك والكثير من أعيانهم بعساكرهم، وعَدُّوا إلى بر الجيزة ونصبوا وطاقهم وخيامهم، ثم إن رضوان كتخدا لم يزل يلاطفه حتى توافق معه على وعد مقدار مسافة ذهاب الجواب ورجوعه أيامًا معدودة، فلما حضر من الترعة أخذ في التشهيل والخروج، فانتقلت العساكر إلى البر الغربي، وأخذ يستحث في المطلوبات وخروج الخيام وجمع المراكب.

وسافر قبودان بولاق إلى جهة بحري لجمع المراكب، وفرضوا على القرى غلالًا وجمالًا، وذلك في عقب ما فرضه عليهم في مهمات الترعة المتقدمة، وخلافها من بشارة

القبطان والتقرير، وما في ضمن ذلك من حق طرق المباشرين والمعينين، مع ما الناس فيه من القحط والغلا وغيرها وعدم وجود الغلة، والذين لا يقدرون على تحصيل الغلة يلزمونهم بدفع ثمنها بأقصى القيمة، بعد مصانعة المباشرين لذلك وإعطاهم الرشوات.

وحضر أيضًا نعمان سراج باشا من عند إبراهيم بك، وقابل الباشا على الترعة فلم ينفع حضوره أيضًا ولم يسمع له قول ورجع مزيفًا.

وفي خامسه حضر علي بك أيوب وصحبته آخر يقال له رضوان بك البرديسي، فطلعا إلى القلعة وتقابلا مع الباشا، وانخضع له علي بك أيوب وقبَّل رجله وترجى عنده في عدم خروج التجريدة، وكلمه في أمر الغلال المنكسرة والجديدة، وعلى أنهم يقومون بدفع الغلال القديمة بالثمن والجديدة بالكيل، وليس عندهم مخالفة، والقصد الإمهال إلى حصاد الغلال، فقال: إنهم إذا حصدوا الغلال أخذوها وفروا إلى الجبال، واستمر هذا القيل والقال نحو أربعة أيام.

ثم أشيع في تامنه الصلح وفرح الناس واستبشروا بذلك، لما يترتب وما يحصل من الفساد وأكل الزروعات وخراب البلدان، فإنهم أكلوا في الأربعة أيام التي ترددوا فيها بالجيزة نيفًا وخمسماية فدان، ولما أشيع بالجهة القبلية خروج العساكر للتجريدة انزعجوا وأيسوا من زروعاتهم، وخرجوا من أوطانهم على وجوههم لا يدرون أين يذهبون بأولادهم ونساهم وقصاعهم، وتفرقوا في مصر والبلاد البحرية.

وفي صبحها أعيد أمر التجريدة وأشيع خروج العساكر ثانيًا، فانقبضت النفوس ثانيًا وباتوا في نكد وطُلبت السلف من المساتير والملتزمين، وكتبت الدفاتر وحولت الأكياس وانبثت المعينون للطلب.

وفي عاشره بطل أمر التجريدة وانقضى أمر الصلح على شروط، وهي أنهم التزموا بتلت ما عليهم من غلال الميري وقدره ماية ألف أردب وسبعة آلاف أردب بعد مناقشات ومحققات، والذي تولى المناقشات معهم مساعدًا للباشا شاهين بك الألفي والموعد أحد وثلاثون يومًا، وسافر علي بك أيوب ورضوان بك البرديسي وأكرمهما الباشا وخلع عليهما.

وفي حادي عشرة قتل الباشا مصطفى أغا تابع حسن بك في قصبة رضوان ظلمًا، وسبب ذلك أنه لما نزل قبودان لجمع المراكب المطلوبة لسفر التجريدة، فصادف شخصًا من الأرنؤدة الذين يتسببون في بيع الغلال في مركب ومعه غلة، وذلك عند قرية تسمَّى سهرجت، فحجزه ليأخذ منه السفينة فقال: كيف تأخذها وفيها غلتي؟ قال: أخرج غلتك منها على البر واتركها فإنها مطلوبة لمهمات الباشا، فلم يرضَ وخاف على تبددها ولم يجد

سفينة أخرى؛ لأن جميع السفن مطلوبة مثلها، وقال له: عندما أصل بها إلى مصر وأنقل منها الغلة أرسل معي من يأخذها، فقال القبودان: لا سبيل إلى ذلك، وتشاجرا فحنق القبودان على الأرنؤدي وسل عليه سيفه ليضربه فعاجله الأرنؤدي وضربه بالطبنجة فقتله، فأراد أتباع القبودان القبض عليه ففر منهم إلى البلدة وبها جماعة من الدلاة معينون لقبض الفرضة، فالتجأ إليهم فمانعوا عنه وتنازع الفريقان.

وكان مصطفى أغا المذكور ملتزم البلدة هناك وغايبًا في بعض شئونه، فبلغه الخبر فحضر إليهم، وخاف من وقوع قتل بالبلدة فيكون سببًا لخراب الناحية، فقال: يا جماعة اذهبوا بنا إلى الباشا ليرى رأيه، فرضوا بذلك وحضر بصحبتهم والقاتل معهم، وطلعوا إلى ساحل بولاق فعندما وصلوا إلى البر هرب القاتل.

وذهب عند عمر بك الأرنؤدي الساكن ببولاق، فتبعه الأمير مصطفى المذكور فقال له عمر بك: اذهب إلى الباشا وأخبره أنه عندي وأنت لا باس عليك ففعل، فقال له الباشا: ولأي شي لم تحتفظ عليه وتتركه حتى يهرب، فاعتذر بعدم قدرته على ذلك من الدلاتية الملتجي إليهم، وكأنهم هم الذين أفلتوه فأمر بحبسه فأرسل إلى عمر بك، فحضر إلى الباشا وترجى في إطلاقه فوعده أنه في غد يطلقه إذا حضر القاتل، فقال: إنه عند أزمير أغا وهو لا يسلم فيه وركب إلى داره، فلما كان في الصباح أمر بقتل الأمير مصطفى المذكور، فأنزلوه إلى الرميلة ورموا رقبته عند باب القلعة ظلمًا.

وفي صبحها أيضًا قتلوا شخصًا من الدلاة بسبب هذه الحادثة.

وفي تاني يوم قتل الأرنؤد شخصين من الدلاة أيضًا.

وفي يوم الخميس تالت عشره أرسل الباشا وطلب الأرنؤدي القاتل للقبودان من عمر بك وشدد في طلبه، وقال: إن لم يرسله وإلا أحرقت عليه داره، فامتنع من إرساله وجمع إليه طايفة من الأرنؤد وصالح أغا قوج جاره، وركب الباشا وذهب إلى ناحية الشيخ فرج، وحصل ببولاق قلقة وانزعاج، ثم ركب الباشا راجعًا إلى داره بالأزبكية وقت الغروب، وكثرت الأرجاف واللقلقة بين الأرنؤد والدلاتية.

وفي خامس عشره قتل الأرنؤد شخصين من الدلاتية أيضًا جهة قناطر السباع، ثم إن القاتل الذي قتل القبودان التجا إلى كبير من كبار الأرنؤد، فأرسل الباشا يطلبه من ذلك الكبير، وأكد في طلبه أو أنه يقطع راس القاتل ويرسلها، فكأنه فعل وأرسل إليه براس ملفوفة في ملاية تسكينًا لحدته، وبردت القضية وسكنت الحدة وراحت عليه.

وفي أواخره أمر الباشا بتحرير دفاتر فرضة الأطيان، وزادوا فيها عن عام الشراقي الماضي التلت، وربطوها ورتبوها أربع مراتب تزيد كل ضريبة عن الأخرى ماية نصف

فضة، أعلاها يبلغ تمانماية نصف فضة، على أن الفرضة الماضية بقي الكثير منها بالذمم لخراب القرى وعجزهم، واختلى لتنظيم ذلك من الأفندية والأقباط بجهات متباعدة، الأفندية بربع أيوب ببولاق، والأقباط بدير مصر العتيقة حتى حرروا ذلك وتمموه، ورتبوه في عدة أيام ووقع الطلب في جانب معجلًا سموه الترويجة.

وفيه أمر الباشا عمر بك الأرنؤدي بالسفر من مصر وقطع خرجه ورواتبه هو وعسكره، فلم تسعه المخالفة وحاسب على المنكسر له ولعسكره من العلايف، وكذلك حلوان البلاد التي في تصرُّفه، فبلغ نحو ستماية كيس وزعت على دايرة الباشا وخلافهم، وكان الباشا ضبط جملة من حصص الناس واستولى عليها من بلاد القليوبية بحري شبرا، واختصها لنفسه، فلما استولى على حصص عمر بك ودفع حلوانها وهي بالمنوفية والغربية والبحيرة، عوض بعض من يراعي جانبه من ذلك، وأخذ عمر بك ومن يلوذ به في تشهيل أنفسهم وقضا حوايجهم.

واستهل شهر ربيع الأول (سنة ١٢٢٤)

فيه شرع السيد عمر مكرم نقيب الأشراف في عمل مهم لختان ابن ابنته، ودعا الباشا والأعيان وأرسلوا إليه الهدايا والتعابي، وعمل له زفة يوم الاتنين سادس عشره مشى فيها أرباب الحرف والعربات والملاعيب وجمعيات وعصب صعايدة، وخلافهم من أهالي بولاق والكفور والحسينية وغيرها من جميع الأصناف، وطبول وزمور وجموع كثيرة فكان يومًا مشهودًا اكتريت فيه الأماكن للفرجة، وكان هذا الفرح هو آخر طنطنه السيد عمر بمصر، فإنه حصل له عقيب ذلك ما سيتلى عليك قريبًا من النفي والخروج من مصر.

وفيه كمل سد ترعة الفرعونية، واستمر العمل فيها وفي تأييد السد بالأحجار والمشمعات والأتربة نحو ستة أشهر، وصرف عليها من الأموال ما لا يحصى، وجرى مجرى البحر الشرقي وغزر ماؤه، وجرت فيه السفن من دمياط بعد أن كان مخاضة، وملحت عذوبة النيل بما انعكس فيه وخالطه من ماء البحر الملح إلى قبلي فرس كور، وأقام بالسد عمر بك تابع الأشقر لخفارته وتعهد الخلل وكتم الجسر من التنفيس، وسكن هناك ولم يفارقه، واستمر في هذه الوظيفة والخدمة ولم يقم بمصر.

وفي هذا الشهر وما قبله تشحطت الغلال، وغلا سعرها حتى بلغ الأردب القمح ألفًا وستماية نصف فضة، وعز وجوده بالرقع والعرصات، وأما السواحل فلا يكاد يوجد بها شي من الغلة بطول السنة، ولولا لطف الله بوجود الذرة لهلكت الخلايق، ومع ذلك

استمرار المغارم والفرض حتى فرض الغلة عين، وكذلك تبن وجمال وما ينضاف إلى ذلك مما سمعته غير مرة مما يطول شرحه.

وفيه نودي على صرف الفرانسة والمحبوب والمجر كما نودي في العام الماضي؛ لأنه لما نودي بنقص صرفها ومضى نحو الشهر أو الشهرين رجع الصرف إلى ما كان عليه وزيادة، فأعيد الندا كذلك، وسيعود الخلاف ما دام الكرب والضيق بالناس، على أن هذه المناداة والأوامر بالنقص والزيادة ليست من باب الشفقة على الناس ولا الرحمة بهم، وإنما هي بحسب أغراضهم وزيادة طمعهم، فإنه إذا توجهت المطالبات بالفرض والمغارم نودي بالنقض ليزيد الفرط، وتتوفر لهم الزيادة، ويحصل التشديد والمعاقبة على من يقبض بالزيادة من أهل الأسواق، وإذا كان الدفع من خزانتهم في علايف العسكر أو لوازمهم الكبيرة، قبضوها بأزيد من الزيادة التي نادوا عليها من غير مبالاة ولا احتشام، تناقض ما لنا إلا السكوت عنه!

وفي أواخره تواجدت الغلال وانحل سعرها، وحضر الفلاحون ببداري الغلة وانحط السعر والحمد لله.

واستهل شهر ربيع الثاني (سنة ١٢٢٤)

في سادسه وردت مراسيم من الروم وبشارة بمولودة ولدت للسلطان وسموها فاطمة، وفي المراسيم الأمر بالزينة، فاقتضى الرأي أن يعملوا شنكًا ومدافع من القلعة تضرب في الأوقات الخمسة سبعة أيام، وهذا شي لم يُسمع بمثله فيما سبق أن يعملوا للأنثى شنكًا أو زينة، أو يذكر ذلك مطلقًا، وإنما يُعمل ذلك للمولود الذكر من بدع الأعاجم.

وفي يوم التلات تامنه حضر من الأمرا المصريين القبالي مرزوق بك ابن إبراهيم بك، وسليم أغا مستحفظان، وقاسم بك سلحدار مراد بك، وعلي بك أيوب حسب الاتفاق المتقدم في تقرير الصلح، ولكن لم يكن سليم أغا مذكورًا في الحضور، بل كان منجمعًا وممتنعًا عن التداخل في هذه الأحوال، والسبب في حضوره أن زوجته تُوُفِّيَتْ من نحو نصف شهر، فحضر لأجل تركتها ومتاعها الذي عندها وحصصها، ولما حضر وجد الباشا استولى على ذلك وأخذ المتاع والمصاغ والجواهر والعقار، وأخذ الحصص وأخذ حلوانها، وذلك بيد محمود بك الدويدار.

فلما حضر سليم أغا لم يجد شيًّا؛ لا دارًا ولا عقارًا ولا نافخ نار، فنزل عند علي بك أيوب بمنزله بشمس الدولة، فحضر إليه محمود بك الدويدار والترجمان، وأخذا بخاطره

وطمناه وأخبراه أن الباشا سيعوض عليه ما ذهب منه وزيادة، وزرعا له فوق السطوح فلم يسعه إلا التسليم.

وفيه سقط سقف القصر الذي أنشاه الباشا بشبرا وشرعوا في تعميره تانيًا.

وفيه وصل الخبر بحضور زوجة الباشا أم أولاده وابنه الصغير واسمه إسماعيل، وابن بونابارته الخازندار وكثير من أقاربهم وأهاليهم، حضر الجميع من بلدهم قوَلَة إلى الإسكندرية، فإنهم لما طابت لهم مصر واستوطنوها وسكنوها، وتنعموا فيها أرسلوا إلى أهاليهم وأولادهم وأقاربهم بالحضور، فكانوا في كل وقت يأتون أفواجًا أفواجًا نسا ورجالًا وأطفالًا، فلما وصل خبر وصولهم إلى الإسكندرية سافر لملاقاتها ابنها إبراهيم بك الدفتردار وذلك حادي عشره.

وفي تالت عشره حضر المذكور قبل حضور الواصلين، ولما وصلوا نزل الباشا لملاقاتهم إلى بولاق.

وفي يوم الاتنين رابع عشره نبهوا على جميع النسا والخوندات وكل من كانت لها اسم في الالتزام أن يركبن بأسرهن، ويذهبن إلى ملاقاة امرأة الباشا ببولاق، وذلك صبح يوم الأربع، واعتذرت الست نفيسة المرادية بأنها مريضة ولا تقدر على الحركة والخروج فلم يقبلوا لها عذرًا، فلما كان صبح يوم الأربع اجتمع السواد الأعظم من النسا بساحل بولاق على الحمارة المكارية، وهم أزيد من خمسماية مكاري حتى ركبت زوجة الباشا، وساروا معها إلى الأزبكية، وضربوا لوصولها وحلولها بمصر عدة مدافع كثيرة من القلعة والأزبكية، ثم وصلت الهدايا والتقادم وأقبلت من كل ناحية الهدايا المختصة بالأولاد والمختصة بالنسا.

واستهل شهر جمادى الأولى (سنة ١٢٢٤)

في تالته يوم السبت نزل عمر بك الأرنؤدي إلى المراكب من بيته من بولاق، وسافر على طريق دمياط ليذهب إلى بلاده، وسافر معه نحو الماية، وهم الذين جمعوا الأموال، واجتمع لعمر بك المذكور من المال والنوال أشيا كثيرة عباها في صناديق كثيرة وأخذها معه، وذلك خلاف ما أرسله إلى بلاده في دفعات قبل تاريخه.

وفي يوم الخميس خامس عشره سافر علي بك أيوب وسليم أغا مستحفظان إلى ناحية قبلي، واستمر بمصر مرزوق بك وقاسم بك المرادي.

وفيه طلب الباشا ألف كيس من المعلم غالي، وألزمه بها فوزعها على المباشرين والكتبة وجمعها في أقرب زمن.

وفيه حضر سلحدار الوزير يوسف باشا وعلى يده مرسوم مضمونه: طلب ما كان أحدثه حين كان بمصر على أوراق الإقطاعات والفراغات وتقاسيط الالتزام الذي سَمَّوه «قِصَر اليد وخَرْج القلم»، وجعل إيراد ذلك لنفسه فأرسل بطلب ذلك من تاريخ سنة ١٢١٧ سبعة عشر ومايتين وألف إلى وقت تاريخه حُسِب قَدْرُ ذلك فبلغ نيفًا وأربعة آلاف كيس.

وفيه شرعوا في تحرير دفتر بنصف فايظ الملتزمين، ودفتر آخر بفرض مال على الرِّزَق الإحباسية المرصدة على المساجد والأسبلة والخيرات وجهات البِر والصدقات، وكذلك أطيان الأوسية المختصة أيضًا بالملتزمين، وكتبوا بذلك مراسيم إلى القرى والبلاد، وعينوا بها معينين وحق طرق من طرف كشاف الأقاليم بالكشف على الرزق المرصدة على المساجد والخيرات، وتقدموا إلى كل متصرف في شي من هذه الأطيان، وواضع عليها يده بأن يأتي بسنده إلى الديوان ويجدد سنده، ويقوَّى بمرسوم جديد، وإن تأخر عن الحضور في ظرف أربعين يومًا يُرفع عنه ذلك ويُمكَّن منه غيره، وذكروا في مرسوم الأمر علة وحجة لم يطرق الأسماع نظيرها، بأنه إذا مات السلطان أو عُزل بطلت تواقيعه ومراسيمه وكذلك نوابه، ويحتاج إلى تجديد تواقيع من نواب المتولي الجديد ونحو ذلك.

ثم ليعلم أن هذه الإرصادات والأطيان موضوعة من أيام الملك الناصر يوسف صلاح الدين الأيوبي في القرن الخامس، وجعلها من مصاريف بيت المال؛ ليصل إلى المستحقين بعض استحقاقهم من بيت المال بسهولة.

ثم اقتدى به في ذلك الملوك والسلاطين والأمرا إلى وقتنا هذا، فيبنون المساجد والتكايا والربط والخوانق والأسبلة، ويرصدون عليها أطيانًا يخرجونها من زمام أوسيتهم، فيستغل أخراجها أو غلالها لتلك الجهة، وكذلك يربطون على بعض الأشخاص من طلبة العلم والفقرا على وجه البِر والصدقة ليتعيشوا بذلك ويستعينوا به على طلب العلم، وإذا مات المرصد عليه ذلك قرر القاضي أو الناظر خلافه ممن يستحق ذلك، وقُيد اسمُه في سجل القاضي ودفتر الديوان السلطاني عند الأفندي المقيد بذلك الذي عرف بكاتب الرزق، فيكتب له ذلك الأفندي سندًا بموجب التقرير يقال له الإفراج، ثم يضع عليه علامته ثم علامة الباشا والدفتردار، ولكل إقليم من الأقاليم القبلية والبحرية دفتر مخصوص عليه طرة من خارج مكتوب فيها اسم ذلك الإقليم؛ ليسهل الكشف والتحرير والمراجعة عند الاشتباه، وتحرير مقادير حصص أرباب الاستحقاقات.

ولم يزل ديوان الرزق الإحباسية محفوظًا مضبوطًا في جميع الدول المصرية جيلًا بعد جيل لا يتطرقه خلل، إلا ما ينزل عنه أربابه لشدة احتياجهم بالفراغ لبعض الملتزمين

بقدر من الدراهم معجل، ويقرر للمفرغ على نفسه قدرًا مؤجلًا دون القيمة الأصلية في نظير المعجل الذي دفعه للمفرغ، ويسمونها حينئذٍ داخل الزمام. لم تزل على ذلك بطول القرون الماضية.

وتملك الفرنساوية الديار المصرية فلم يتعرضوا لشي من ذلك.

ولما حضر شريف أفندي الدفتردار بعد دخول يوسف باشا الوزير، ووجَّه الطلب على الملتزمين بأن يدفعوا للدولة حلوانًا جديدًا على النظام والنسق الذي ابتدعوه للتحيل على تحصيل المال بأي وجه، وزاعمين أن أرض مصر صارت دار حرب بتملك الفرنساوية، وأنهم استنقذوها منهم واستولوا عليها استيلا جديدًا، وصارت جميع أراضيها ملكًا لهم، فمن يريد الاستيلا على شي من أرضٍ وغيرها، فليشتره من نايب السلطان بمبلغ الحلوان الذي قدروه واطلعوا على التقاسيط، وفي بعضها ما رفع عنه الميري الذي يقبض للخزينة بإذن الولاة بعد المصالحات والتعويض من المصاريف والمصارف الميرية كالعلايف والغلال، والبعض تمم ذلك بمراسيم سلطانية كما يقولون شريفة، بحيث يصير الالتزام مثل الرزق الإحباسية، ويسمونه «خزينة بند» ومنهم من أبقى على التزامه شيًّا قليلًا سموه مال الحماية، فلم يسهل بهم إبطال ذلك، بل جعل عليها الدفتردار الميري الذي كان مقيدًا عليها أو أقل أو أزيد بحسب واضع اليد وإكرامه إن كان ممن يكرم، وضمه إلى مال الحماية الأصلي أو المستجد فقط، وضيع على الناس سعيهم وما بذلوه من مرتباتهم وعلايفهم التي وضعوها، وقيدوها في نظير جعلها خزينة بند كما ذكر.

ثم تقيد لكتابة الإعلامات عبد الله أفندي رامز القبودان وقاضي باشا، وسمي في ذلك الوقت بكاتب الميري، وتوجَّه نحوه الناس لأجل كتابة الإعلامات لثبوت رزقهم الإحباسية وتجديد سنداتها، فتعنت عليهم بضروب من التعنت، كأن يطلب من صاحب العرضحال إثبات استحقاقه، فإذا ثبت له لا يخلو إما أن يكون ذلك بالفراغ أو المحلول فيكلفه إحضار السندات وأوراق الفراغات القديمة، فربما عدمت أو بليت لتقادم السنين أو تركها واضعُ اليد لاستغنائه عنها بالسند الجديد، أو كان القديم مشتملًا على غير المفروغ عنه، فيخصم بهامشه بالمنزول عنه ويبقى القديم عند صاحب الأصل، فإن أحضره إليه تعلل بشي آخر واحتج بشبهة أخرى، فإذا لم يبقَ له شبهة طالبه بحلوانها عن مقدار إيرادها ثلاث سنوات، وإلا خمس سنوات، وذلك خلاف المصاريف، فضج الناس واستغاثوا بشريف أفندي الدفتردار فعزل عبد الله أفندي رامز المذكور عن ذلك، وقيد أحد كتابه بكتابة الإعلامات، وقرر على كل فدان عشرة أنصاف فضة فما دونها برسمها في

السند الجديد، وجعلها مال حماية، وأوهم الناس أن مال الحماية يكون زيادة في تأكيد الإحباس، وحماية له من تطرق الخلل، فاستسهل الناس ذلك وشاع في الإقليم المصري فأقبل الناس من البلاد القبلية والبحرية لتجديد سنداتهم، فطفقوا يكتبون السندات على نسق تقاسيط الالتزام لا على الوضع القديم، ويعلم عليها الدفتردار فقط. وأما الصورة القديمة فكانت تُكتب في كاغد كبير بخط عربي مجرد وعليها طرة بداخلها اسم والي مصر وممهورة بختمه الكبير، وعليها علامة الدفتردار وبداخلها صورة أخرى تسمى التذكرة مستطيلة على صورة التقسيط والفرمة ممهورة أيضًا، وعليها العلامة والختم وهي متضمنة ما في الكبيرة، وعلى ذلك كان استمرار الحال إلى هذا الأوان من قرون خلت ومدد مضت.

وفيه أيضًا حرروا دفتر الإقليم البحيرة بمساحة الطين الري والشراقي، وأضافوا إليه طين الأوسية والرزق وكتبوا بذلك مناشير، وأخرج المباشرون كشوفاتها بأسما الملتزمين فضج الناس واجتمعوا إلى مشايخ الأزهر، وتشكوا فوعدوهم بالتكلم في شان ذلك بعد التثبيت.

وفيه قبض أغات التبديل على شخص من أهل العلم من أقارب السيد حسن البقلي وحبسه، فأرسل المشايخ يترجون في إطلاقه فلم يفعل وأرسله إلى القلعة.

وفيه بلغ الباشا أن الحاج سلامة النجاري نجل صاحبنا العالم العامل المرحوم السيد علي النجاري المكي الذي سبق ذكر وفاته، اشترى حصانًا من رجل بدوي نهبه من الغز بالصعيد، وإن الحصان المذكور من أعظم خيول الغز، وكان عند الباشا وقت أن بلغه هذا الخبر محمد أفندي طبل ناظر المهمات، وهو من أصحاب السيد سلامة النجاري وله معه مودة كبيرة، فلما رأى من الباشا الرغبة في الحصان المذكرو تحيل على أن كتبا في السر إلى الحاج سلامة المذكور وأعلمه بما وقع تفضيلًا وأشار عليه بإحضار الحصان المذكور بلا طالب عسى أن يكون سببًا في خير، فلما وصل المرسوم للحاج سلامة ذهب بالحصان فورًا إلى الباشا وقدمه له وقال: إني اشتريته بالأمس لنفسي ثم استعظمته لما وجدته فيه من العلامات الجيدة ورايته لا يصلح إلا لسعادة الباشا، فساله الباشا عن علامة الجودة وما يحمد ويذم في الخيل، فأجابه أجوبة مفيدة وقعت عنده موقعًا، فأنعم عليه الباشا بعشرة أكياس، وأمر محمد أفندي بأن يجعله في وظيفة معه.

وفيه أيضًا شرعوا في تحرير دفتر بنصف فايظ الملتزمين بأنواع الأقمشة، وباعة النعالات التي هي الصُّرَم والبُلَغ، وجعلوا عليها ختمية، فلا يباع منها شي حتى يُعلم

الملتزمين ويختم، وعلى وضع الختم والعلامة قدر مقدر بحسب تلك البضاعة وثمنها، فزاد الضجيج واللغط في الناس.

وفي يوم السبت سابع عشره حضر المشايخ بالأزهر على عاداتهم لقراءة الدروس، فحضر الكثير من النسا والعامة وأهل المسجون وهم يصرخون ويستغيثون، وأبطلوا الدروس، واجتمع المشايخ بالقبلة وأرسلوا إلى السيد عمر النقيب، فحضر إليهم وجلس معهم ثم قاموا وذهبوا إلى بيوتهم، ثم اجتمعوا في تاني يوم وكتبوا عرضحالًا إلى الباشا يذكرون فيه المحدثات من المظالم والبدع، وختم الأمتعة وطلب مال الأوسية والرزق والمقاسمة في الفايظ، وكذلك أخذ قريب البقلي وحبسه بلا ذنب، وذلك بعد أن جلسوا مجلسًا خاصًّا، وتعاهدوا وتعاقدوا على الاتحاد وترك المنافرة، وعند ذلك حضر ديوان أفندي وقال: الباشا يسلم عليكم ويسأل عن مطلوباتكم، فعرَّفوه بما سطروه إجمالًا وبيَّنوه له تفصيلًا، فقال: ينبغي ذهابكم إليه وتخاطبوه مشافهة بما تريدون، وهو لا يخالف أوامركم ولا يرد شفاعتكم، وإنما القصد أن تلاطفوه في الخطاب؛ لأنه شاب مغرور جاهل وظالم غشوم ولا تقبل نفسه الحكم، وربما حمله غرورُه على حصول ضرر بكم وعدم إنفاذ الغرض، فقالوا بلسان واحد: لا نذهب إليه أبدًا ما دام يفعل هذه الفعال، فإن رجع عنها وامتنع عن إحداث البدع والمظالم عن خلق الله رجعنا إليه وترددنا عليه كما كنا في السابق، فإننا بايعناه على العدل لا على الظلم والجور، فقال لهم ديوان أفندي: وأنا قصدي أن تخاطبوه مشافهة ويحصل إنفاذ الغرض، فقالوا: لا نجتمع عليه أبدًا ولا نثير فتنة، بل نلزم بيوتنا ونقتصر على حالنا ونصبر على تقدير الله بنا وبغيرنا، وأخذ ديوان أفندي العرضحال ووعدهم برد الجواب، ثم بعد رجوعه أطلقوا قريب السيد حسن البقلي الذي كان محبوسًا ولم يعلم سبب ذلك.

ثم انتظروا عودة ديوان أفندي فأبطأ عليهم، وتأخر عوده إلى خامس يوم بعد الجمعة، فاجتمع الشيخ المهدي والشيخ الدواخلي عند محمد أفندي طبل ناظر المهمات وثلاثتهم في نفسهم للسيد عمر ما فيها، وتناجوا مع بعضهم ثم انتقلوا في عصريتها وتفرقوا وحضر المهدي والدواخلي إلى السيد عمر، وأخبراه أن محمد أفندي ذكر لهم أن الباشا لم يطلب مال الأوسية ولا الرزق، وقد كذب من نقل ذلك، وقال: إنه يقول: إني لا أخالف أوامر المشايخ وعند اجتماعهم ومواجهته يحصل كل المراد، فقال السيد عمر: أما إنكاره طلب مال الرزق والأوسية فها هي أوراق من أوراق المباشرين عندي لبعض الملتزمين مشتملة على الفرضة ونصف الفايظ ومال الأوسية والرزق، وأما الذهاب

إليه فلا أذهب إليه أبدًا، وإن كنتم تنقضون الأيمان والعهد الذي وقع بيننا فالرأي لكم.

ثم انفض المجلس وأخذ الباشا يدبر في تفريق جمعهم وخذلان السيد عمر لما في نفسه من عدم إنفاذ أغراضه، ومعارضته له في غالب الأمور، ويخشى صولته ويعلم أن الرعية والعامة تحت أمره إن شاء جمعهم وإن شاء فرقهم، وهو الذي قام بنصره وساعده وأعانه وجمع الخاصة والعامة حتى ملَّكه الإقليم، ويرى أنه إن شاء فعل بنقيض ذلك، فطفق يجمع إليه بعض أفراد من أصحابه ويختلي معه ويضحك إليه، فيغتر بذلك ويرى أنه سار من المقربين وسيكون له شأن إن وافق ونصح، فيفرغ له جراب حقده ويرشده بقدر اجتهاده لما فيه من المعاونة.

ثم في ليلتها حضر ديوان أفندي وعبد الله بكتاش الترجمان، وحضر المهدي والدواخلي الجميع عند السيد عمر، وطال بينهم الكلام والمعالجة في طلوعهم ومقابلتهم الباشا، ورقرق لذلك كلٌّ من المهدي والدواخلي والسيد عمر مصمم على الامتناع، ثم قالوا: لا بد من كون الشيخ الأمير معنا ولا نذهب بدونه، فاعتذر الشيخ الأمير بأنه متوعك، ثم قام المهدي والدواخلي وخرجا صحبة ديوان أفندي والترجمان، وطلعوا إلى القلعة وتقابلوا مع الباشا ودار بينهم الكلام، وقال في كلامه: أنا لا أرد شفاعتكم ولا أقطع رجاكم، والواجب عليكم إذا رأيتم مني انحرافًا أن تنصحوني وترشدوني.

ثم أخذ يلوم على السيد عمر في تخلفه وتعنته، ويثني على البواقي: وفي كل وقت يعاندني ويبطل في أحكامي ويخوفني بقيام الجمهور، فقال الشيخ المهدي: هو ليس إلا بنا، وإذا خلا عنا فلا يسوى بشي، إن هو إلا صاحب حرفة أو جابي وقف يجمع الإيراد ويصرفه على المستحقين، فعند ذلك تبيَّن قصدُ الباشا لهم ووافق ذلك ما في نفوسهم من الحقد للسيد عمر، والشيخ الدواخلي حضوره نيابة عن الشيخ الشرقاوي وعن نفسه.

ثم تناجوا معه حصة وقاموا منصرفين مذبذبين، ومظهرين خلاف ما هو كامن في نفوسهم من الحقد وحظوظ النفس، غير مفكرين في العواقب. وحضروا عند السيد عمر وهو ممتلي بالغيظ مما حصل من الشذوذ، ونقض العهد، فأخبروه بأن الباشا لم يحصل منه خلاف، وقال: أنا لا أرد شفاعتكم ولكن نفسي لا تقبل التحكم، والواجب عليكم إذا رأيتموني فعلت شيًّا مخالفًا أن تصحوني وتشفعوا، فأنا لا أردكم ولا أمتنع من قبول نصحكم، وأما ما تفعلونه من التشنيع والاجتماع بالأزهر، فهذا لا يناسب منكم، وكأنكم

تخوفوني بهذا الاجتماع وتهييج الشرور وقيام الرعية كما كنتم تفعلون في زمان المماليك، فأنا لا أفزع من ذلك، وإن حصل من الرعية أمر ما فليس عندي إلا السيف والانتقام، فقلنا له: هذا لا يكون ونحن لا نحب ثوران الفتن، وإنما اجتماعنا لأجل قراءة البخاري، وندعو الله برفع الكرب، ثم قال: أريد أن تخبروني عمن انتبذ لهذا الأمر ومن ابتدا بالخلف فغالطناه، وأنه وعدنا بإبطال الدمغة وتضعيف الفايظ إلى الربع بعد النصف، وأنكر الطلب بالأوسية والرزق من إقليم البحيرة.

ثم قاموا منصرفين وانفتح بينهم باب النفاق، واستمر القال والقيل، وكلٌّ حريص على حظ نفسه وزيادة شهرته وسمعته، ومُظهرٌ خلاف ما في ضميره.

واستهل شهر جمادى الثانية بيوم الجمعة (سنة ١٢٢٤)

فيه حضر ديوان أفندي وعبد الله بكتاش الترجمان، واجتمع المشايخ ببيت السيد عمر وتكلموا في شان الطلوع إلى الباشا ومقابلته، فحلف السيد عمر أنه لا يطلع إليه ولا يجتمع به ولا يرى له وجهًا إلا إذا أبطل هذه الأحدوثات، وقال: إن جميع الناس يتهموني معه ويزعمون أنه لا يتجارأ على شي يفعله إلا باتفاقي معه، ويكفي ما مضى ومهما تقادم يتزايد الظلم والجور، وتكلم كلامًا كثيرًا.

فلما لم يجبهم إلى الذهاب قالوا: إذًا يطلع المشايخ وأرسلوا الشيخ الأمير فاعتذر بأنه متوعك الجسم، ولا يقدر على الحركة ولا الركوب، ثم اتفقوا على طلوع الشيخ عبد الله الشرقاوي والمهدي والدواخلي والفيومي، وذلك على خلاف غرض السيد عمر، وقد ظن أنهم يمتنعون لامتناعه للعهد السابق والأيمان.

فلما طلعوا إلى الباشا وتكلموا معه، وقد فَهِمَ كلٌّ منهم لغة الآخر الباطنية، ثم ذاكروه في أمر المحدثات فأخبرهم أنه يرفع بدعة الدمغة، وكذلك يرفع الطلب عن الأطيان الأوسية، وتقرير ربع الفايظ، وقاموا على ذلك ونزلوا إلى بيت السيد عمر وأخبروه بما حصل، فقال: وأعجبكم ذلك؟ قالوا: نعم، قال: إنه أرسل يخبرني بتقرير ربع المال الفايظ فلم أرضَ وأبيت إلا رفع ذلك بالكلية، فإنه في العام السابق لما طلب إحداث الربع قلت له: هذه تصير سنة متبعة، فحلف أنها لا تكون بعد هذا العام؛ وذلك لضرورة النفقة وإن طلبها في المستقبل يكون ملعونًا ومطرودًا من رحمة الله، وعاهدني على ذلك، وهذا في علمكم كما لا يخفاكم، قالوا: نعم، وأما قوله: إنه رفع الطلب عن الأوسية والرزق فلا أصل لذلك، وها هي أوراق البحيرة وجهوا بها الطلب، فقالوا: إننا ذكرنا له ذلك

فأنكر وكابرناه بأوراق الطلب فقال: إن السبب في طلب ذلك من إقليم البحيرة خاصة، فإن الكشافين لما نزلوا للكشف على أراضي الري والشراقي ليقرروا عليها فرضة الأطيان حصل منهم الخيانة والتدليس، فإذا كان في أرض البلدة خمسماية فدان ري قالوا: عليها ماية وسموا الباقي رزقًا وأوسية، فقررت ذلك عقوبة لهم في نظير تدليسهم وخيانتهم، فقال السيد عمر: وهل ذلك أمر واجب فعله؟ أليس هو مجرد جور وظلم أحدثه في العام الماضي، وهي فرضة الأطيان التي ادَّعى لزومها لإتمام العلوفة، وحلف أنه لا يعود لمثلها؟ فقد عاد وزاد وأنتم توافقونه وتسايرونه ولا تصدونه ولا تصدعونه بكلمة، وأنا الذي صرت وحدي مخالفًا وشاذًّا. ووجَّه عليهم اللوم في نقضهم العهد والأيمان.

وانفض المجلس وتفرقت الآراء وراج سوق النفاق، وتحركت حفايظ الحقد والحسد وكثر سعيهم وتناجيهم بالليل والنهار، والباشا يراسل السيد عمر ويطلبه للحضور إليه والاجتماع به ويعده بإنجاز ما يشير عليه به، وأرسل إليه كتخداه ليترفق به، وذكر له أن الباشا يرتب له كيسًا في كل يوم، ويعطيه في هذا الحين ثلثماية كيس خلاف ذلك فلم يقبل، ولم يزل الباشا متعلق الخاطر بسببه، ويتجسس ويتفحص عن أحواله وعلى من يتردد عليه من كبار العسكر، وربما أغرى به بعض الكبار فراسلوه سرًّا وأظهروا له كراهيتهم للباشا، وأنه إن انتبذ لمقاقمته ساعدوه وقاموا بنصرته عليه؛ فلم يخف على السيد عمر مكره، ولم يزل مصممًا وممتنعًا عن الاجتماع به والامتثال إليه، ويسخط عليه، والمترددون أيضًا ينقلون ويحرفون بحسب الأغراض والأهواء.

واتفق في أثنا ذلك أن الباشا أمر بكتابة عرضحال بسبب المطلوب لوزير الدولة وهي الأربعة آلاف كيس، ويذكر فيها أنها صرفت في المهمات، منها ما صرف في سد ترعة الفرعونية ومبلغه ثمانماية كيس، وعلى تجاريد العساكر لمحاربة الأُمرا المصرية حتى دخلوا في الطاعة، وذلك مبلغًا عظيمًا، وما صرف في عمارة القلعة والمجراة التي تنقل المياه إليها مبلغًا أيضًا، وكذلك في حفر الخلجان والترع، ونقص المال الميري بسبب شراقي البلاد ونحو ذلك، وأرسله إلى السيد عمر ليضع خطه وختمه عليه، فامتنع وقال: أما ما صرفه على سد الترعة فإن الذي جمعه وجباه من البلاد يزيد على ما صرفه أضعافًا كثيرة، وأما غير ذلك فكله كذب لا أصل له، وإن وجد من يحاسبه على ما أخذه من القُطر المصري من الفرض والمظالم لما وسعته الدفاتر.

فلما ردوا عليه وأخبروه بذلك الكلام حنق واغتاظ في نفسه، وطلبه للاجتماع به فامتنع، فلما أكثر من التراسل قال: إن كان ولا بد فأجتمع معه في بيت السادات، وأما

طلوعي إليه فلا يكون، فلما قيل له في ذلك ازداد حنقه، وقال: إنه بلغ به أن يزدريني ويرذلني ويأمرني بالنزول من محل حكمي إلى بيوت الناس.

ولما أصبح يوم الأربع سابع عشرينه ركب الباشا وحضر إلى بيت ولده إبراهيم بك الدفتردار، وطلب القاضي والمشايخ المذكورين وأرسل إلى السيد عمر رسولًا من طرفه ورسولًا من طرف القاضي للحضور؛ ليتحاقق ويتشارع معه، فرجعا وأخبرا بأنه شرب دوا ولا يمكنه الحضور في هذا اليوم، وكان قد أحضر شيخ السادات الوفائية والشيخ الشرقاوي، فعند ذلك أحضر الباشا خلعة وألبسها لشيخ السادات على نقابة الأشراف، وأمر بكتابة فرمان بخروج السيد عمر ونفيه من مصر يوم تاريخه، فتشفع المشايخ في إمهاله ثلاثة أيام حتى يقضي أشغاله فأجاب إلى ذلك، ثم سألوه في أن يذهب إلى بلده أسيوط، فقال: لا يذهب إلى أسيوط، ويذهب إما إلى إسكندرية أو دمياط.

فلما ورد الخبر على السيد عمر بذلك قال: أما منصب النقابة فإني راغب عنه وزاهد فيه وليس فيه إلا التعب، وأما النفي فهو غاية مطلوبي وأرتاح من هذه الورطة، ولكن أريد أن يكون في بلدة لم تكن تحت حكمه، إذا لم يأذن لي في الذهاب إلى أسيوط، فليأذن لي في الذهاب إلى الطور أو إلى درنة، فعرَّفوا الباشا فلم يرضَ إلا بذهابه إلى دمياط، ثم إن السيد عمر أمر باشجاويش أن يأخذ الجاويشية ويذهب بهم إلى بيت السادات، وأخذ في أسباب السفر.

وفي يوم الخميس تامن عشرينه الموافق الخامس مسرى القبطي أوفى النيل المبارك، ونودي بالوفا تلك الليلة، وخرج الناس لأجل الفرجة والضيافات في الدور المطلة على الخليج، فلما كان آخر النهار برزت الأوامر بتأخير الموسم لليلة السبت بالروضة، فبرد طعام أهل الولايم والضيافات وتضاعفت كلفهم ومصاريفهم، وحصلت الجمعية ليلة السبت بالروضة عند قنطرة السد، وعملوا الحراقات والشنك، وحضر الباشا وأكابر دولته والقاضي، وكسر السد بحضرتهم، وجرى الماء في الخليج وانفض الجمع.

وفي ذلك اليوم اعتنى السيد محمد المحروقي بأمر السيد عمر، وذهب إلى الباشا وكلمه وأخبره بأنه أقامه وكيلًا على أولاده وبيته وتعلقاته فأجازه بذلك، وقال: هو آمن من كل شي وأنا لم أزل أراعي خاطره ولا أفوته.

ثم أرسل السيد المحروقي فأحضر ابن ابنة السيد عمر، فقابل به الباشا وطمن خاطره، ولكن قال: لا بد من سفره إلى دمياط.

وعندما طلب السيد المحروقي الغلام إلى الباشا أشيع في الناس وقوع الرِّضَى، وتناقل الناس ذلك وفرح أهل منزله وزغرطوا وسروا، واستمروا على ذلك حتى رجع الغلام

وتبيَّن أنه لا شي؛ فانقلب الفرح بالتَّرح، وتعين بالسفر صحبة السيد عمر كتخدا الألفي إلى دمياط.

واستهل شهر رجب بيوم الأحد (سنة ١٢٢٤)

فيه اجتمع المودعون للسيد عمر، ثم حضر محمد كتخدا المذكور، فعند وصوله قام السيد عمر وركب في الحال وخرج صحبته وشَيَّعه الكثير من المتعممين وغيرهم، وهم يتباكون حوله حزنًا على فراقه، وكذلك اغتم الناس على سفره وخروجه من مصر؛ لأنه كان ركنًا وملجًا ومقصدًا للناس ولتعصبه على نصرة الحق، فسار إلى بولاق ونزل في المراكب وسافر في ليلته بأتباعه وخدمه الذين يحتاج إليهم إلى دمياط.

وفي صبح ذلك اليوم حضر الشيخ المهدي عند الباشا وطلب وظايف السيد عمر، فأنعم عليه الباشا بنظر أوقاف الإمام الشافعي ونظر وقف سنان باشا ببولاق، وحاسب على المنكسر له من الغلال مدة أربع سنوات، فأمر بدفعها له من خزينته نقدًا وقدرها خمسة وعشرون كيسًا، وذلك في نظير اجتهاده في خيانة السيد عمر حتى أوقعوا به ما ذكر.

وفيه تقيد الخواجا محمود حسن بزرجان باشا بعمارة القصر والمسجد الذي يُعرف بالآثار النبوية، فعمرها على وضعها القديم وقد كان آل إلى الخراب.

وفي يوم التلات خلع الباشا على تلاتة من الأجناد المصرية المنسوبين لسليمان بك البواب، وقلدهم صناجق وأمرا الوقت، وضم إليهم عساكر أتراك وأرنؤد ليسافر الجميع إلى الجهة القبلية بسبب عصيان الأمرا المرادية وتوقفهم عن دفع المال والغلال، وكذلك عين للسفر أيضًا أحمد أغا لاظ وصالح قوج وبونابارته وحسن باشا وعابدين بك، فارتجت البلد وطلبوا المراكب فتعطل المسافرون إلى الجهة القبلية والبحرية، وكذلك امتنع مجي الواصلين بالغلال والبضايع خوفًا من التسخير، وقد كان حصل بعض الاطمينان وسلوك الطريق القبلية، ووصول المراكب بالغلات والمجلوبات.

وفي عاشره سافر أحمد أغا لاظ وصالح قوج، خرجوا بعساكرهم ونزلوا في المراكب وذهبوا إلى قبلي.

وفيه حضر محمد كتخدا الألفي من دمياط راجعًا من تشييع السيد عمر ووصوله إلى دمياط واستقراره بها.

وفي يوم الخميس تاسع عشره سافر مَن كان متأخرًا إلى الجهة القبلية ولم يبقَ منهم أحد.

وفي تالت عشرينه نادى منادي المعمار على أرباب الأشغال في العماير من البنايين والحجارين والفعلة بأن لا يشتغلوا في عمارة أحد من الناس كاينًا من كان، وأن يجتمع الجميع في عمارة الباشا بناحية الجبل.

وفي تاسع عشرينه وردت أخبار عن التجريدة أزعجت الباشا، فاهتم اهتمامًا عظيمًا وقصد الذهاب بنفسه، ونبَّه على جميع كبرا العساكر بالخروج وأن لا يتخلف منهم أحد حتى أولاده إبراهيم بك الدفتردار وطوسون بك، وأنه هو المتقدم عنهم في الخروج في يوم الخميس، واستعجل التشهيل والطلب وأمر بتحرير دفتر فرضة ترويجة على إقليم المنوفية والغربية والشرقية والقليوبية، وذكروا أنها من أصل حساب الشهرية المبتدعة.

وفيه تقلد حسن أغا الشماشرجي كشوفية المنوفية وأرخى لحيته على ذلك.

واستهل شهر شعبان بيوم الثلاث (سنة ١٢٢٤)

فيه نَمَّق مشايخ الوقت عرضحال في حق السيد عمر بأمر الباشا ليرسله صحبة السلحدار، وذكروا فيه سبب عزله ونفيه عن مصر وعَدُّوا له مثالبَ ومعايبَ وجُنحًا وذنوبًا منها أنه أدخل في دفتر الأشراف أسما أشخاص ممن أسلم من القبط واليهود، ومنها أنه أخذ من الألفي في السابق مبلغًا من المال ليملكه مصر في أيام فتنة أحمد باشا خورشيد، ومنها أنه كاتَب الأمرا المصريين أيضًا في وقت الفتنة حين كانوا بالقرب من مصر ليحضروا على حين غفلة في يوم قطع الخليج، وحصل لهم ما حصل ونصر الله عليهم حضرة الباشا، ومنها أنه أراد إيقاع الفتن في العساكر لينقض دولة الباشا ويولي خلافه، ويجمع عليه طوايف المغاربة والصعايدة وأخلاط العوام وغير ذلك، وذلك على حد «من أعان ظالمًا سلط عليه».

وكتبوا عليه أسما المشايخ، وذهبوا به إليهم ليضعوا ختومهم عليه، فامتنع البعض من ذلك وقال: هذا كلام لا أصل له، ووقع بينهم محاججات ولام الأعاظم المتنعين على الامتناع، وقالوا لهم: أنتم لستم بأروع منا وأثبت لنفسه ورعًا.

وحصل بينهم منافسات ومخالفات ومقابحات، ثم غيروا صورة العرضحال بأقل من التحامل الأول، وكتب عليه بعض المتنعين، وكان المتنعون أولًا وآخرًا السيد عمر

الطهطاوي الحنفي، فزادوا في التحامل عليه، وخصوصًا شيخ السادات والشيخ الأمير وخلافهما.

واتفق أنه دُعي في وليمة عند الشيخ الشنواني بحارة خوش قدم، وتأخر في حضوره عنهم فصادفهم حال دخوله إلى المجلس وهم خارجون، فسلم عليهم ولم يصافحهم لما سبق منهم في حقه من الإيذا فتطاول عليه ابن الشيخ الأمير، ورفع صوته بتوبيخه وشتمه لكونه لم يُقبِّل يد والده، ويقول له في جملة كلامه: ليس هو إلا قليل الأدب والحيا تالت طبقة للشيخ الوالد، ونحو ذلك.

وفي تالته سافر الباشا إلى الجهة القبلية وتبعه العساكر.

وفي منتصفه خرجت الدلاة والأرنؤد وباقي الأجناد والعسكر، وأقام الباشا كتخدا بك قايم مقامه وأقام بالقلعة.

وفيه اتفق الأشياخ والمتصدرون على عزل السيد أحمد الطهطاوي من إفتا الحنفية، وأحضروا الشيخ حسين المنصوري وركبوا صحبته وطلعوا به إلى القلعة بعد أن مهدوا القضية، فألبس قايمقام الشيخ حسينًا فروة، ثم نزلوا ثم طاف للسلام عليهم وخلعوا هم عليه أيضًا خلعهم.

فلما بلغ الخبر السيد أحمد الطهطاوي طوى الخلع التي كانوا ألبسوها له عندما تقلد الإفتا بعد موت الشيخ إبراهيم الحريري في جماد الأولى بقرب عهد وأرسلها لهم، وكان الشيخ السادات ألبسه حين ذاك فروة، فلما ردَّها عليه احتد واغتاظ، وأخذ يسبه ويذكر لجلسايه جُرْمه ويقول: انظروا إلى هذا الخبيث، كأنه يجعلني مثل الكلب الذي يعود في قيئه، ونحو ذلك.

وأما السيد أحمد فإنه اعتكف في داره لا يخرج منها إلا إلى الشيخونية بجواره، واعتزلهم وترك الخُلطة بهم وتباعد عنهم، وهم يبالغون في ذمه والحط عليه لكونه لم يوافقهم في شهادة الزور.

والحامل لهم على ذلك كله الحظوظ النفسانية والحسد، مع أن السيد عمر كان ظلًّا ظليلًا عليهم وعلى أهل البلدة، يدافع ويرافع عنهم وعن غيرهم، ولم تقم لهم بعد خروجه من مصر راية، ولم يزالوا بعده في انحطاط وانخفاض.

وأما السيد عمر فإن الذي وقع له بعض ما يستحقه، ومن أعان ظالمًا سُلِّط عليه ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾.

وفي ثالث عشرينه سافر حسن باشا وعساكر الأرنؤد وتتابعوا في الخروج، وتحدَّث الناس بروايات عن الباشا والأمرا المصريين وصلحه معهم، وأن عثمان بك حسن ومحمد

بك المنفوخ ومحمد بك الإبراهيمي وصلوا عند الباشا وقابلوه، وأنه أرسل إلى إبراهيم بك الكبير ولده طوسون باشا فتلقاه وأكرمه، وأرسل هو أيضًا ولده الصغير إلى الباشا فأكرمه، ووصل إلى مصر بعض نسا حريمه وحريم الأمرا.

واستهل شهر رمضان بيوم الأربع (سنة ١٢٢٤)

وفي أواخره وصل طايفة من الدلاتية من ناحية الشام، ودخلوا إلى مصر وهم في حالة رَثَّة، كما حضر غيرهم وصحبتهم من المخنثين المعروفين بالخولات الذين يتكلمون بالكلام المؤنث، ومعهم دفوف وطنابير.

وفي أواخره حرروا دفتر الأطيان على ضريبة واحدة؛ عن كل فدان خمسة ريالات غير البرَّاني والخدم، ولم يحصل في ذلك مراجعة ولا كلام ولا مرافعة في شي كما وقع في العام الماضي، والذي قبله في المراجعة بحسب الري والشراقي.

وأما في هذه السنة فليس فيها شراقي، فحسابها بالمساحة الكاملة لعموم الري فإن النيل في هذه السنة زاد زيادة مفرطة، وعلا على الأعالي، وتلف بزيادته المفرطة الدراوي والأقصاب بقبلي، وكذلك غرق مزارع الأرز والسمسم والقطن وجناين كثيرة بالبحر الشرقي بسبب انسداد ترعة الفرعونية بتلك الناحية.

ولما تمموا تحرير الدفاتر على النسق المطلوب والباشا بقبلي، وأرسل يطلبها ليطلع عليها، فسافر إليه بها المعلم غالي، وأخذ صحبته أحمد أفندي اليتيم من طرف الروزنامة، وعبد الله بكتاش الترجمان، فذهبوا إليه بأسيوط وأطلعوه عليها فختم عليها وانقضى شهر رمضان.

واستهل شهر شوال بيوم الخميس (سنة ١٢٢٤)

في تالت عشره حضر المعلم غالي وأحمد أفندي وبكتاش وغيرهم من غيبتهم، وحضر أيضًا في أثرهم المعلم جرجس الجوهري، وقد تقدم أنه خرج من مصر هاربًا إلى الجهة القبلية واختفى مدة، ثم حضر بأمان إلى الباشا وقابله وأكرمه، ولما حضر نزل في بيته الذي بحارة الونديك وفرشه له المعلم غالي، وقام له بجميع لوازمه، وذهب الناس مسلمهم ونصرانيهم وعالمهم وجاهلهم للسلام عليه.

وفي يوم التلات عشرينه وصل الباشا على حين غفلة إلى مصر في تطريدة، وقد وصل من أسيوط إلى ناحية مصر القديمة في تلاتين ساعة، وصحبته ابنه طوسون وبونابارته

الخازندار وسليمان أغا الوكيل سابقًا لا غير، فركبوا حميرًا متنكرين حتى وصلوا إلى القلعة من ناحية الجبل وطلع من باب الجبل.

وعند طلوعه من السفينة أمر ملاحيها أن لا يذكروا لأحد وصوله حتى يسمعوا ضرب المدافع من القلعة، ثم طلع إلى سرايته ودخل إلى الحريم فلم يشعروا به إلا وهو بالحريم، وعند ذلك أمر بضرب المدافع وأشيع حضوره، فركب كتخدا بك وغيره مسرعين لملاقاته، ثم بلغهم طلوعه إلى القلعة فرجعوا على أثره.

وكان الخواجا محمود حسن البزرجان خرج لملاقاته قبل وصوله بثلاثة أيام إلى ناحية الآثار، وأخرج معه مطابخ وأغنامًا واستعد لقدومه استعدادًا زايدًا وذهب تعبه في الفارغ البطال.

ثم بعد وصول الباشا بثلاثة أيام وصلت طوايف العسكر وعظايمهم ومعهم المنهوبات من الغلال والأغنام والفحم والحطب والقلل وأنواع التمر، وغير ذلك حتى أخشاب الدور وأبوابها.

وفي يوم الاثنين وصل حسن باشا وطوايف الأرنؤد وصالح قوج والدلاة والترك، ووصل أيضًا شاهين بك الألفي وصحبته محمد بك المنفوخ المرادي ومحمد بك الإبراهيمي، وهم الذين حضروا في هذه المرة من المخالفين، وقيل: إن البواقي أخذوا مهلة لبعد التحضير.

وأما إبراهيم بك تابع الأشقر ومحمد أغا تابع مراد بك الصغير وصحبتهم عساكر، فذهبا إلى ناحية السويس بسبب وصول طايفة من العربان، قالوا إنها من التابعة للوهابيين حضروا وأقاموا عند بئر الماء ومنعوا السقيا منها.

واستهل شهر ذي القعدة بيوم السبت (سنة ١٢٢٤)

فيه حضر إبراهيم بك ابن الباشا وباقي العسكر وسكنوا الدور، وأزعجوا الناس وأخرجوهم من مساكنهم ومنازلهم ببولاق ومصر وغيرهما، واتفق أن بعض ذوي المكر من العسكر عندما أراد السفر إلى جهة قبلي أرسل لصاحب الدار التي هو غاصبها وساكن فيها، فأحضره وسلمه المفتاح، وهو يقول له: تسلم يا أخي دارك واسكنها، بارك الله لك فيها، وسامحني وأبري ذمتي، فربما إني أموت ولا أرجع، ولأن الكثير منهم تولى المناصب والأمريات بالجهة القبلية، وعندما يتسلم صاحب الدار داره يفرح بخلاصها ويشرع في عمارتها وإعادة ما تهدم منها فيكلف نفسه ولو بالدين ويعمرها، فما هو

إلا أن تمم العمارة والمرمة في مدة غيبتهم، فما يشعر إلا وصاحبه داخل عليه بحصانه وجمله وخدمه، فما يسع الشخص إلا الرحلة ويتركها لغريمه، وقد وقع ذلك لكثير من الناس المغفلين.

وفيه وصلت أخبار بأن عمارة الفرنساوية نزلت إلى البحر، وعدة مراكبهم مايتان وسبعة عشر مركبًا محاربين، لا يعلم قصدهم أي جهة من الجهات، وحضر ثلاثة أشخاص من الططر المعدين لتوصيل الأخبار، وبيدهم مرسوم مضمونه الأمر بالتحفظ على الثغور، فعند ذلك أمر الباشا بالاستعداد وخروج العساكر إلى الثغور.

وفي يوم السبت تامنه سافر جملة من العسكر إلى ناحية بحري، فسافر كبير منهم ومعه جملة من العسكر إلى إسكندرية، وكذلك سافر خلافه إلى رشيد وإلى دمياط وأبي قير والبرلس.

وفي ليلة الاتنين تامن عشره ركب الباشا ليلًا وخرج مسافرًا إلى السويس ليكشف على قلاع القلزم، وقام له بالاحتياجات من أحمال الماء والعليق والزوادة واللوازم السيد محمد المحروقي، وكان خروجه ومن معه على الهِجْن.

وفي ليلة الأحد رابع عشرينه حضر الباشا من السويس، وكان وصوله ليلًا وطلع إلى القلعة.

واستهل شهر ذي الحجة بيوم الأحد (سنة ١٢٢٤)

فيه شرع الباشا في إنشا مراكب ببحر القلزم، فطلب الأخشاب الصالحة لذلك، وأرسل المعينين لقطع أشجار التوت والنبق من القُطر المصري القبلي والبحري، وغيرها من الأخشاب المجلوبة من الروم، وجعل بساحل بولاق ترسخانة وورشات وجمعوا الصناع والنجارين والنشارين فيهيئونها وتحمل أخشابًا على الجِمال ويركبها الصناع بالسويس سفينة، ثم يقلفطونها ويبيضونها ويلقونها في البحر، فعملوا أربع سفاين كبار، إحداها تسمى الإبريق، وخلاف ذلك أدوات لحمل السفَّار والبضايع.

ومن الحوادث في آخره أن امرأة ذهبت إلى عرصة الغلة بباب الشعرية، واشترت حنطة ودفعت ثمنها قروشًا، فما ذهبت نظروا نقودها فإذا هي من عمل الزغلية، ثم عادت بعد أيام فاشترت الغلة ودفعت الثمن قروشًا أيضًا، فذهب البايع معها إلى الصيرفي فوجدها مزغولة مثل الأولى، فعلموا أنها الغريمة، فقال لها الصيرفي: من أين لك هذا؟ فقالت: من زوجي فقبضوا عليها، وأتوا بها إلى الأغا، فسألها الأغا عن زوجها فقالت:

هو عطار بسوق الأزهر، فأخذها الأغا وحضر بها إلى بيت الشيخ الشرقاوي بعد العشا، وأحضروا زوجها وسألوه فقال: أنا أخذتها من فلان تابع الشيخ الشرقاوي، فانفعل الشيخ وقال: إن يكن هو ابني فأنا بري منه، وطلبوه فتغيب واختفى، وأخذ الأغا المرأة وزوجها وقرَّرَهما فأقر الرجل وعرف أشخاصًا يفعلون ذلك، وفيهم من مجاوري الأزهر.

فلم يزل يتجسس ويتفحص ويستدل على البعض بالبعض، وقبض على أشخاص ومعهم العُدَد والآلات، وحبسهم أيضًا بالقلعة عند كتخدا بك وفرَّ ناس من مجاوري الأزهر من مصر لما قام بهم من الوهم، وفي كل يوم يشاع بالتنكيل والتجريس للمقبوض عليهم وقتلهم.

ولم يزل الأغا يتجسس حتى جمعوا ستة عشر عدة وأرسلوها إلى بيت محمد أفندي ناظر المهمات، وسألوا الحدادين عمن اصطنع هذه العدد منكم، فأنكروا وجحدوا وقالوا: هذا من صناعة الشام، ثم كسروها وأبطلوها، وطال أمر المحبوسين والتفحص عن غيرهم، فكان بعض المقبوض عليهم يعرف عن غيره أو شريكه.

فكانت هذه الحادثة من أشنع الحوادث، خصوصًا بنسبتها لخطة الأزهر، فكان كل من اشترى شيًّا ودفع الثمن للبايع قروشًا ذهب بها إلى الصيرفي؛ لأن في ذاك الوقت لم يكن موجودًا بأيدي الناس خلافها، وكانوا يقولون في ذهابهم إلى الصيرفي: لربما تكون «أزهرية» ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وانقضت السنة بحوادثها التي منها ما ذكر.

ومنها إحداث بدعة المكس على النشوق، وذلك أن بعض المتصدرين من نصارى الأروام أنهى إلى كتخدا بك أمر النشوق وكثرة المستعملين له والدقاقين والباعة، وأنه إذا جمعت دقاقوه وصنَّاعه في مكان واحد، وجعل عليهم مقادير يلتزم بها ويضبط رجاله، وجمع ماله وإيصاله إلى الخزينة مَنْ يكون ناظرًا وقيمًا عليه كغيره من أقلام المكوس التي يعبرون عنها بالجمارك، فإنه يتحصل من ذلك مال له صورة، فلما سمع كتخدا بك ذلك أنهاه إلى مخدومه، فأمر في الحال بكتابة فرمان بذلك، واختار الذي جعلوه ناظرًا على ذلك خانًا بخطة بين الصورين، ونادوا على جميع صناع النشوق وجمعوهم بذلك الخان، ومنعوهم من جلوسهم بالأسواق والخطط المتفرقة، والقيم على ذلك يشتري الدخان المعد لذلك من تجاره بثمن معلوم حدَّده لا يزيد على ذلك، ولا يشتريه سواه، وهو يبيعه على صناع النشوق بثمن حدده ولا ينقص عنه، ومن وجده باع شيًّا من الدخان أو اشتراه أو سحق نشوقًا خارجًا عن ذلك الخان ولو لخاصة نفسه، قبضوا عليه وعاقبوه وغرموه مالًا.

وعينوا معينين لجميع القرى والبلدان القبلية والبحرية، ومعهم من ذلك الدخان، فيأتون إلى القرية ويطلبون مشايخها ويعطونهم قدرًا موزونًا ويلزمونهم بالثمن المعين بالمرسوم الذي بيدهم، فيقول أهل القرية: نحن لا نستعمل النشوق ولا نعرفه، ولا يوجد عندنا من يصنعه، وليس لنا به حاجة ولا نشتريه ولا نأخذه، فيقال لهم: إن لم تأخذوه فهاتوا ثمنه، فإن أخذوه أو لم يأخذوه فهم ملزمون بدفع القدر المعين المرسوم، ثم كرا طريق المعينين وكلفتهم وعليق دوابهم.

ومنها أيضًا النطرون فرقوه وفرضوه على القرى محتجين أيضًا باحتياج الحياكة والقزازين إليه لغسل غزل الكتان وبياض قماشه، ونحو ذلك.

وأشنع من ذلك كله أنهم أرادوا فعل مثل هذا في الشراب المسكر المعروف بالعرقي، وإلزام أهل القرى بأخذه ودفع ثمنه إن أخذوه أو لم يأخذوه، فقيل لهم في ذلك، فقالوا: إن شربه يقوي أبدانهم على أعمال الزرع والزراعة والحرث والكد في القطوة والنطالة والشادوف، ثم بطل ذلك.

ومنها أن الباشا شرع في عمل زَلَّاقة تجاه باب القلعة المعروف بباب الجبل موصلة إلى أعلى الجبل المقطم، فجمعوا البنايين والحجارين والفَعَلة للعمل، وحرقوا عدة قمينات للجير بجانب العمارة وطواحين للجبس، ونودي بالمدينة على البنايين والفعلة بأن لا يشتغلوا في عمارة أحد من الناس كاينًا من كان، ويجتمع الجميع في عمارة الباشا بالقلعة والجبل إلى أن كمل عملها في السنة التالية طريقًا واسعًا منحدرًا من الأعلى إلى الأسفل، ممتدًّا في المسافة سهلًا في الطلوع إلى الجبل أو الانحدار منه، بحيث يجوز عليه الماشي والراكب من غير مشقة ولا تعب كثير.

وأما من مات في هذه السنة ممن له ذكر

مات العلامة المفيد والنحرير الفريد الفقيه النبيه الشيخ إبراهيم ابن الشيخ محمد الحريري الحنفي، مفتي مذهب السادات الحنفية كوالده، تفقه على والده وحضر في المعقولات على أشياخ الوقت كالبيلي والدردير والصبَّان وغيرهم، وأنجب وتمهر وصارت فيه مَلَكة جيدة واستحضار للفروع الفقهية.

ولما مات والده في شهر رجب سنة عشرين ومايتين وألف، تقلد منصب والده في الإفتا، وكان لها أهلًا مع التحري والمراجعة في المسايل المشكلة، والعفة والصيانة والديانة والتباعد من الأمور المخلة بالمروة، مواظبًا لوظايفه ودروسه، ملازمًا لداره إلا ما دعته

الضرورة إليه من المواساة، وحضور المجالس مع أرباب المظاهر، وكان مبتلًى بضعف البصر.

وبآخرته اعتراه داء الباسور وقاسى منه شدة، وانقطع بسببه عن الخروج من داره، ووُصف له حكيم بدمياط فسافر إليه لأجل ذلك وقصد تغيير الهوا، وذلك بإشارة نسيبه الشيخ المهدي، وقاسى أهوالًا في معالجته وقطعه بالآلة فلم ينجح، ورجع إلى مصر متزايد الألم.

ولم يزل ملازمًا للفراش حتى تُوُفِّيَ إلى رحمة الله — سبحانه وتعالى — في يوم الاتنين تاسع عشر جمادى الأولى من هذه السنة، وصُلي عليه بالأزهر، ودُفن بمدرسة الشعبانية بحارة الدويداري ظاهر حارة كتامة المعروفة الآن بالعينية بالقرب من الجامع الأزهر، خلفه ولده النجيب الأديب سيدي محمد الملقب عبد المعطي — بارك الله فيه وأعانه على وقته.

ومات الإمام العلامة والعمدة الفهامة شيخ الإسلام والمسلمين الشيخ عبد المنعم ابن شيخ الإسلام الشيخ أحمد العماوي المالكي الأزهري، وهو من آخر طبقة الأشياخ من أهل القرن الثاني عشر، تفقه على الشيخ الزهار وغيره من عُلما مذهبه، وحضر الأشياخ المتقدمين كالدفري والحفني والصعيدي، والشيخ سالم النفراوي والشيخ الصباغ السكندري والشيخ فارس، وقرا الدروس وانتفع به الطلبة.

ولم يزل ملازمًا على إلقا الدروس بالأزهر على طريقة المتقدمين مع العفة والديانة والانجماع عن الناس، راضيًا بحاله قانعًا بمعيشته ليس بيده من التعلقات الدنيوية سوى النظر على ضريح سيدي أبي السعود أبي العشاير، ولم يتجرأ على الفتيا مع أهليته لذلك وزيادة، ولم تطمح نفسه لزخارف الدنيا وسفاسف الأمور مع التجمل في الملبس والمركب، وإظهار الغنى وعدم التطلع لما في أيدي الناس، ويصدع بالحق في المجالس، ولا يتردد إلى بيوت الحكام والأكابر إلا في النادر بقدر الضرورة مع الأنفة والحشمة، ولا يشكو ضرورة ولا حاجة ولا زمانًا.

ولم يزل على حالته حتى مرض أيامًا وتُوُفِّيَ ليلة الخميس حادي عشر ذي القعدة عن أربع وثمانين سنة، وخرجوا بجنازته من منزله الكاين بدرب الحلفا بالقرب من باب البرقية، فمروا بالجنازة على خطة الجمالية على النحاسين على الأشرفية، ودخلوا من حارة الخراطين إلى الجامع الأزهر، وصُلي عليه في مشهد حافل، ودُفن مع والده بتربة المجاورين، وخلف من الأولاد الذكور أربعة رجال ذوي لحى صلحا، وخطهم الشيب خلاف البنات — رحمه الله وعفا عنه.

ومات الفقيه النبيه الصالح الورع العالم المحقق الشيخ أحمد الشهير ببرغوت المالكي، ومولده بالبلدة المعروفة باليهودية بالبحيرة، تفقه على أشياخ العصر ومهر في الفقه والمعقول، وأقرأ الدروس وانتفع به الطلبة، واشتُهر ذكره بينهم وشهدوا بفضله وكان على حالة حسنة منجمعًا عن الناس وراضيًا بما قسمه له مولاه منكسر النفس متواضعًا، ولم يتزيَّ بعمامة الفقها، يمشي في حوايجه، وتمرض بالزمانة مدة سنين يتعكز بعصاه، ولم يقطع درسه ولا أماليه حتى تُوُفِّيَ إلى رحمة الله — سبحانه وتعالى — يوم الأربع خامس شهر صفر من السنة، ودُفن بتربة المجاورين — رحمه الله.

ومات العمدة النحرير والنبيل الشهير الشيخ سليمان الفيومي المالكي، وُلد بالفيوم وحضر إلى مصر وحفظ القرآن، وجاور برواق الفيمة بالأزهر، وكان في أول عمره يمشي خلف حمار الشيخ الصعيدي، وعليه دُرَّاعة صوف وشملة صفرا، ثم حضر دروسه ودروس الشيخ الدردير وغيرهما، واختلط مع المنشدين وكان له صوت شجي، فيذهب مع المتذكرين إلى بيوت الأعيان في الليالي، فينشد الإنشادات ويقرا الأعشار فيعجبون به ويكرمونه زيادة على غيره.

واختلط ببعض الأعيان الذين يقال لهم البرقوقية من ذرية السلطان برقوق، وهم نظار على أوقافه، فراج أمره وكثرت معارفه بالأغوات الطواشية، وبهم توصل إلى نسا الأمرا والسعي في حوايجهن وقضاياهن، وصار له قبول زايد عندهن وعند أزواجهن، وتجمل بالملابس وركب البغال وأحدق به المحدقون.

وتزوج بامرأة بناحية قنطرة الأمير حسين، وسكن بدارها فماتت فوَرِثها.

ولما مات الشيخ محمد العقاد تعين المترجم لمشيخة رواق الفيمة.

وبنى له محمد بك المعروف بالمبدول دارًا عظيمة بحارة عابدين، واشتُهر ذكره وعلا شانه وطار صيته، وسافر في بعض مقتضيات الأمرا إلى دار السلطنة وعاد إلى مصر، وأقبلت عليه الهدايا من الأمرا والحريمات والأغوات والأقباط وغيرهم واعتنوا بشانه.

وزوَّجته الست زليخا زوجة إبراهيم بك الكبير ببنت عبد الله الرومي، وتصرف في أوقاف أبيها، ومنها عزب البر تجاه رشيد وغيرها، فاشتُهر بالبلاد القبلية والبحرية، وكان مع قلة بضاعته في العلم مشاركًا؛ بسبب التداخل في القضايا، وكان كريم النفس جدًّا يجود وما لديه قليل مع حسن المعاشرة والبشاشة والتواضع والمواساة للكبير والصغير والجليل والحقير، وطعامه مبذول للواردين ومن أتى في منزله إلى حاجة أو زايرًا لا يمَكِّنه الذهاب حتى يغديه أو يعشيه، وإذا أتاه مسترفد ولم يجد معه أشيا اقترض وأعطاه فوق مأموله، ولا يبخل بجاهه وسعيه على أحد كاينًا من كان بعوض وبدونه.

ومما اتفق له مرارًا أنه يركب من الصباح في حوايج الناس فلا يعود إلا بعد العشا الأخيرة، فيلاقيه آخر ذو حاجة في نصف الطريق أو آخره فينهي إليه قصته إما بشفاعة عند أمير أو خلاص مسجون أو غير ذلك، فيقف له ويستمع لقصته وهو راكب فيقول له: في غد نذهب إليه فإن الوقت صار ليلًا، فيقول صاحب الحاجة: هو في داره في هذا الوقت، فيعود من طريقه مع صاحب الحاجة إلى ذلك الأمير ولو بعدت داره، ويقضي حاجته ويعود بعد حصة من الليل.

وهكذا كان شانه، ولا ينتظر ولا يؤمل جعالة ولا أجرة نظير سعيه، فإن أتوه بشي أخذه أو هدية قبلها — قَلَّت أو كَثُرت — وشكرهم على ذلك؛ فمالت إليه القلوب ووفدت إليه ذوو الحاجات من كل ناحية فلا يرد أحدًا، ويستقبلهم بالبشاشة وينزلهم في داره ويطعمهم ويكرمهم، ويستمرون في ضيافته حتى يقضي حوايجهم ويزودهم، ويرجعون إلى أوطانهم مسرورين ومحبورين وشاكرين، ثم يكافئونه بما أمكنهم من المكافآت، وإذا وصلت إليه هدية وصادف وصولها حضوره بالمنزل فرَّق منها على مَن بمجلسه مِن الحاضرين؛ فبذلك انجذبت إليه القلوب وساد على أقرانه ومعاصريه كما قيل:

بِبذَلٍ وحِلمٍ سادَ في قومِه الفتى وكونُك إياه عليكَ يسيرُ

ولما حضر حسن باشا الجزايرلي إلى مصر، وارتحل الأمرا المصريون إلى الصعيد، وأحاط بدورهم وطلب الأموال من نساهم، وقبض على أولادهم وجواريهم وأمهات أولادهم، وأنزلهم سوق المزاد التجا إلى المترجم الكثيرُ من نسا الأمرا الكبار، فآواهن وأجهد نفسه في السعي في حمايتهن والرفق بهن، ومواساتهن مدة إقامة حسن باشا بمصر وبعدها في إمارة إسماعيل بك، فلما رجع أزواجهن بعد الطاعون إلى إمارتهم ازداد قدر المترجم عندهم وقبوله ومحبته ووجاهته، واشتُهر عندهم بعدمِ قبوله الرشوةَ ومكارمِ الأخلاق والديانةِ والتورعِ، فكان يدخل إلى بيت الأمير ويعبر إلى محل الحريم، ويجلس معهن وينسرون بدخوله عندهن، ويقولون: زارنا أبونا الشيخ، وشاورنا أبانا الشيخ فأشار علينا بكذا، ونحو ذلك.

ولم يزل مع الجميع على هذه الحالة إلى أن طرقت الفرنساوية البلاد المصرية، وأخرجوا منها الأمرا، وخرج النسا من بيوتهن وذهبن إليه أفواجًا أفواجًا حتى امتلأت داره وما حولها من الدور بالنسا، فتصدى لهن المترجم وتداخل في الفرنساوية، ودافع

عنهن وأقمن بداره شهورًا، وأخذ أمانًا لكثير من الأجناد المصرية، وأحضرهم إلى مصر وأقاموا بداره ليلًا ونهارًا.

وأحبه الفرنساوية أيضًا وقبلوا شفاعاته، ويحضرون إلى داره ويعمل لهم الولايم، وساس أموره معهم وقرروه في ريسا الديوان الذي رتبوه لإجرا الأحكام بين المسلمين، ولما نظموا أمور القرى والبلدان المصرية على النسق الذي جعلوه، ورتبوا على مشايخ كل بلد شيخًا ترجع أمور البلدة ومشايخها إليه، وشيخ المشايخ المترجم مضافًا ذلك لمشيخة الديوان، وحاكمهم الكبير فرنساوي يسمى إبريزون فازدحمت داره بمشايخ البلدان فيأتون إليه أفواجًا ويذهبون أفواجًا، وله مرتب خاص خلاف مرتب الديوان.

واستمر معهم في وجاهته إلى أن انقضَت أيامهم، وسافروا إلى بلادهم وحضرت العثمانية والوزير والمترجم في عداد العُلما والمتصدرين وافر الحرمة شهير الذكر، بعيد الصِّيت مرعيَّ الجانب مقبول القول عند الأكابر والأصاغر، ولما قتل خليل أفندي الرجائي الدفتردار وكتخدا بك في حادثة مقتل طاهر باشا، التجا إليه أخو الدفتردار وخازنداره وغيرهما، وذهبوا إلى داره وأقاموا عنده فحماهم وواساهم، حتى سافروا إلى بلادهم.

ولم يزل على حالته حتى نزل به خلط بارد فأبطل شِقَّه، وعقدَ لسانه، واستمر أيامًا وتُوُفِّيَ ليلة الأحد خامس عشر ذي الحجة، وخرجوا بجنازته من بيته بحارة عابدين، وصُلي عليه بالأزهر في مشهد عظيم جدًّا مثل مشاهد العلما الكبار المتقدمين، وربما كان جمع النسا خلفه كجمع الرجال في الكثرة، ووجدوا عليه ديونًا نحو العشرة آلاف ريال سامحه أصحابها، ولم يخلِّف من الأولاد إلا ابنتين — رحمه الله وسامحه وعفا عنا وعنه آمين.

سنة خمس وعشرين ومايتين وألف
(١٨١٠م)

استهل المحرم بيوم الاتنين، فيه وردت الأخبار من الديار الرومية بغلبة الموسكوب واستيلاهم على ممالك كثيرة، وأنه واقع بإسلامبول شدة حصر وغلا في الأسعار وتخوُّف، وأنهم يذيعون في الممالك بخلاف الواقع لأجل التطمين.

وفي خامسه حضر إبراهيم أفندي القابجي الذي كان توجَّه إلى الدولة من مدة سابقة، وعلى يده مراسيم بطلب ذخيرة وغلال، وعملوا لقدومه شنكًا ومدافع، وطلع في موكب إلى القلعة.

وفيه رجع ديوان أفندي من ناحية قبلي وصحبته أحمد أغا شويكار، فأقاما بمصر أيامًا ثم رجعا بجواب إلى الأمرا القبليين.

وفي ليلة السبت تالت عشره حصلت زلزلة عجيبة مزعجة، وارتجت منها الجهات تلات درجات متواليات، واستمرت نحو أربع دقايق فانزعج الناس منها من منامهم وصار لهم جلبة وقلقة، وخرج الكثير من دورهم هاربين إلى الأزقة يريدون الخلاص إلى الفضا مع بُعده عنهم، وكان ذلك في أول الساعة السابعة من الليل، وأصبح الناس يتحدثون بها فيما بينهم، وسقط بسببها بعض حيطان ودور قديمة وتشققت جدران وسقطت منارة بسوس، ونصف منارة بأم أخنان بالمنوفية، وغير ذلك لا نعلمه.

وفي عصر يوم السبت أيضًا حصلت زلزلة، ولكن دون الأولى فانزعج الناس منها أيضًا، وهاجوا ثم سكنوا ثم كثر لغط العالم بمعاودتها، فمنهم من يقول ليلة الأربع ومنهم من يقول خلافه، وأنها تستمر طويلًا، وأسندوا ذلك لبعض المنجمين، ومنهم من أسنده لبعض النصارى واليهود، وأن رجلًا نصرانيًّا ذهب إلى الباشا وأخبره بحصول

ذلك، وأكد في قوله وقال له: احبسني وإن لم يظهر صدقي اقتلني، وأن الباشا حبسه حتى يمضي الوقت الذي عينه ليظهر صدقه من كذبه، وكل ذلك من تخيلاتهم واختلاقاتهم وأكاذيبهم وما يعلم الغيب إلا الله.

وفي يوم الأحد رابع عشره أمر الباشا بالاحتياط على بيوت عظما الأقباط كالمعلم غالي والمعلم جرجس الطويل وأخيه فلتيوس وفرانسيكو وعدتهم سبعة، فأحضروهم في صورة منكرة وسمروا دورهم وأخذوا دفاترهم، فلما حضروا بين يديه قال لهم: أريد حسابكم بموجب دفاتركم هذه وأمر بحبسهم، فطلبوا منه الأمان وأن يأذن لهم في خطابه فأذن لهم فخاطبه المعلم غالي، وخرجوا من بين يديه إلى الحبس، ثم قرر عليهم بواسطة حسين أفندي الروزنامجي سبعة آلاف كيس، بعد أن كان طلب منهم تلاتين ألف كيس.

وفي يوم الخميس تامن عشره شاع في الناس حصول زلزلة تلك الليلة، وهي ليلة الجمعة ويكون ذلك في نصف الليل، فتأهب غالب الناس للطلوع بخارج البلد، فخرجوا بنساهم وأولادهم إلى شاطي النيل ببولاق ونواحي الشيخ قمر، ووسط بركة الأزبكية وغيرها، وكذلك خرج الكثيرُ من العسكر أيضًا، ونصبوا خيامًا في وسط الرملية وقراميدان والقرافتين، وقاسوا تلك الليلة من البرد ما لا يكيف ولا يوصف؛ لأن الشمس كان ببرج الدلو، وهو وسط الشتا، ولم يحصل شي مما أشاعوه وأذاعوه وتوهموه، وتسلق العيارون والحرامية تلك الليلة على كثير من الدور والأماكن وفتشوها، فلما أصبح يوم الجمعة كثر التشكي إلى الحكام من ذلك، فنادوا في الأسواق بأن لا أحدًا يذكر أمر الزلزلة، وكل من خرج لذلك من داره عوقب، فانكفوا وتركوا هذا اللفظ الفارغ.

وفيه ظهر بالأزهر أنفار يقفون بالليل بصحن الجامع الأزهر، فإذا قام إنسان لحاجته منفردًا أخذوا ما معه، وأشيع ذلك فاجتهد الشيخ المهدي في الفحص والقبض على فاعل ذلك إلى أن عرفوا أشخاصهم ونسبهم، وفيهم من هو من أولاد أصحاب المظاهر المتعممين، فستروا أمرهم وأظهروا شخصًا من رفقاهم ليس له شهرة، وأخرجوه من البلدة منفيًّا ونسبوا إليه الفعال، وسنكشف ستر الفاعلين فيما بعد ويفتضحون بين العالم كما يأتي خبر ذلك في سنة سبع وعشرين.

وكذلك أخرجوا طايفة من القوادين والنسا الفواحش سكنوا بحارة الأزهر، واجتمعوا في أهله حتى إن أكابر الدولة وعساكرهم، بل وأهل البلد والسوقة جعلوا سمرهم وديدنهم ذكر الأزهر وأهله، ونسبوا له كل رذيلة وقبيحة، ويقولون: هي كل موبقة تظهر منه

ومن أهله، وبعد أن كان منيع الشريعة والعلم صار بعكس ذلك، وقد ظهر منه قبلُ الزغلية، والآن الحرامية وأمور غير ذلك مخفية.

وفيه طلب الباشا تمهيد الطريق الموصلة من القلعة إلى الزلاقة، التي أنشاها طريقًا يصعد منها إلى الجبل المقطم السابق ذكرها، وأراد أن يفرض على الأخطاط والحارات رجالًا للعمل بعدد مخصوص، ومن اعتذر عن الخروج والمساعدة يُفرض عليه بدلًا عنه أو قدرًا من الدراهم يدفعها نظير البدل، وأشيع هذا الأمر واستحضر الأوباش على الطبول والزمور كما كانوا يفعلون في قضية عمارة محمد باشا خسرو، ثم إن الشيخ المهدي اجتمع بكتخدا بك وأدخل عليه وهمًا أن محمد باشا خسرو لما فعل ذلك لم يتم له أمرًا، وعزل ولم تطل أيامه، ونحن نطلب دوام دولتكم والأولى ترك هذا الأمر؛ فتركوا ذلك ولم يذكروه بعد.

واستهل شهر صفر الخير بيوم الأربع (سنة ١٢٢٥)

فيه قلد الباشا خليل أفندي النظر على الروزنامجي وكُتَّابه، وسمَّوه كاتب الذمة، أي: ذمة الإيراد والمصرف، وكان ذلك عند فتح الطلب بالميري عن السنة الجديدة فلا يُكتب تحويل ولا تنبيه ولا تذكرة حتى يُطلِعوه عليها، ويكتب عليها علامته؛ فتكدر من ذلك الروزنامجي وباقي الكتبة.

وهذه أول دسيسة أدخلوها في الروزنامة، وابتدا فضيحتها وكشف سرها، وذلك بإغرا بعض الأفندية الخاملين أنهى إليهم أن الروزنامجي ومن معه من الكتاب يوفرون لأنفسهم الكثير من الأموال الميرية ويتوسعون فيها، وفي ذلك إجحاف بمال الخزينة، وخليل أفندي هذا كان كاتب الخزينة عند محمد باشا خسرو ولا يُفيق من الشرب.

وفيه طلب الباشا ثلاثة أشخاص من كتبة الأقباط الذين كانوا متقيدين بقياس الأراضي بالمنوفية، وضربهم وحبسهم لكونه بلغه عنهم أنهم أخذوا البراطيل والرشوات على قياس طين أراضي بعض البلاد، وأنقصوا من القياس فيما ارتوى من الطين، وهي البدعة التي حدثت على الطين الري وسموها القياسة، وقد تقدم ذكرها غير مرة.

وحُررت في هذه السنة على الكامل لكثرة النيل وعموم الماء الأراضيَ، على أنه بقي الكثير من بلاد البحيرة وغيرها شراقي؛ بسبب عدم حفر الترع وحبس الحبوس، وتجسير الجسور، واشتغال الفلاحين والملتزمين بالفرض المظالم وعجزهم عن ذلك.

وفي خامسه طلب الباشا كشاف الأقاليم، وشرع في تقرير فرضة على البلاد بما يقتضيه نظره ونظر كشاف الأقاليم والمعلمين القبط، فقرروا على أعلاها ثمانين كيسًا والأدنى خمسة عشر كيسًا.

ولم يتقيد بتحرير ذلك أحد من الكتبة الذين يحررون ذلك بدفاتر ويوزعونها على مقتضى الحال، ولم يعطوا بالمقادير أوراقًا لملتزمي الحصص كما كانوا يفعلون قبل ذلك، فإن الملتزم كان إذا بلغه تقرير فرضة تدارك أمره وذهب إلى ديوان الكتبة، وأخذ علم القدر المقرر على حصته وتكفل بها وأخذ منهم مهلة بأجل معلوم، وكتب على نفسه وثيقة وأبقاها عندهم ثم يجتهد في تحصيل المبلغ من فلاحيه، وإن لم يسعفوه في الدفع وحولوا عليه الطلب دفعه من عنده إن كان ذا مقدرة أو استدانه ولو بالربا، ثم يستوفيه بعد ذلك من الفلاحين شيًّا فشيًّا.

كل ذلك حرصًا على راحة فلاحي حصته، وتأمينهم واستقرارهم في وطنهم ليحصِّل منهم المطلوب من المال الميري، وبعض ما يقتاتون به هم وعيالهم، وإن لم يفعل ذلك تحول باستخلاص ذلك كاشفُ الناحية وعيَّن على الناحية الأعوان بالطلب الحثيث، وما ينضاف إلى ذلك من حق طرق المعينين كُلَفهم، وإن تأخر الدفع تكرر الإرسال والطلب على النسق المشروع، فيتضاعف الهم وربما ضاع في ذلك قدر الأصل المطلوب وزيادة عنه مرة أو مرتين.

والذي يقبضونه يحبسونه بالفرط، وهو في كل ريال عشرة أنصاف فضة يسمونها ديواني، فيقبض المباشر عن الريال تسعين نصفًا فضة ويجعل التسعين ثمانين، وذلك خلاف ما يقرره في أوراق الرسم من خدم المباشرين من كتبة القبط، فينكشف حال الفلاح ويبيع ما عنده من الغلة والبهيمة، ثم يفر من بلدته إلى غيرها فيطلبه الملتزم ويبعث إليه المعينين من كاشف الناحية بحق طريق أيضًا، فربما أداه الحال إن كان خفيف العيال والحركة إلى الفرار والخروج من الإقليم بالكلية.

وقد وقع ذلك حتى امتلأت البلاد الشامية والرومية من فلاحي قرى مصر الذين جلَوا عنها، وخرجوا منها وتغربوا عن أوطانهم عن عظيم هَول الجور.

وإذا ضاق الحال بالملتزم وكتب له عرضحالًا يشكو حاله وحال بلده أو حصته وضعف حالها ويرجو التخفيف، وتجاسر وقدم عرضحاله إلى الباشا يقال له: هات التقسيط وخذ ثمن حصتك أو بدلها، أو يعين له ترتيبًا بقدر فايظها على بعض الجهات الميرية من المكوس والجمارك التي أحدثوها، فإن سلم سنده وكان ممن يُراعى جانبُه حوَّل إلى بعض الجهات المذكورة صورة وإلا أهمل أمره.

وبعضهم باعها لهم بما انكسر عليه من مال الفرض، وقد وقع ذلك الكثير من أصحاب الذمم المتعددة، انكسر عليه مقادير عظيمة فنزل عن بعضها وخصموا له ثمنها من المنكسر عليه من الفرضة، وبقي عليه الباقي يطالب به، فإن حدثت فرضة أخرى قبل غلاق الباقي وقعد بها وضُمَّت إلى الباقي، وقصرت يده لعجز فلاحيه واستدان بالربا من العسكر تضاعف الحال وتوجه عليه الطلب من الجهتين، فيضطر إلى خلاص نفسه وينزل عما بقي تحت يده كالأول، وقد يبقى عليه الكسر ويصبح فارغ اليد من الالتزام ومديونًا، وقد وقع ذلك لكثير كانوا أغنيا ذوي ثروة، وأصبحوا فقرا محتاجين من حيث لا يشعرون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم!

وفيه تحركت همم الأمرا المصريين القبليين إلى الحضور إلى ناحية مصر بعد ترداد الرسل والمكاتبات، وحضور ديوان أفندي ورجوعه وحضور محمد بك المنفوخ أيضًا، وكل من حضر منهم أنعم عليه الباشا، وألبسه الخلع ويقدم له التقادم ويعطيه المقادير العظيمة من الأكياس، وقصده الباطني صيدهم، حتى إنه كان أنعم على محمد بك المنفوخ بالتزام جمرك ديوان بولاق، ثم عوضه عنه ستماية كيس وغير ذلك.

وفيه قلد الباشا نظر المهمات لصالح بن مصطفى كتخدا الرزاز، ونقلوا ورشة الحدادين ومنافخهم وعُددهم من بيت محمد أفندي طبل الودنلي المعروف بناظر المهمات إلى بيت صالح المذكور بناحية التبانة، وكذلك العربجية وصناع الجلل والمدافع، ونزعوا منه أيضًا معمل البارود وكان تحت نظره، وكذلك قاعة الفضة وجمرك اللبان وغيره.

وفيه وصلت الأخبار من البلاد الرومية والشامية وغيرها بوقوع الزلزلة في الوقت، الذي حصلت فيه بمصر، إلا أنها كانت أعظم وأشد وأطول مدة، وحصل في بلاد كريت إتلافات كثيرة وهدمت أماكن ودورًا كثيرة، وهلك كثير من الناس تحت الردم، وخسفت أماكن وتكسر على ساحل مالطة عدة مراكب، وحصل أيضًا باللاذقية خَسْف، وحكى الناقلون أن الأرض انشقت في جهة من اللاذقية، فظهر في أسفلها أبنية انخسفت بها الأرض قبل ذلك ثم انطبقت ثانيًا.

وفيه من الحوادث ما وقع ببيت المقدس، وهو أنه لما احترقت القمامة الكبرى — كما تقدم ذكر حرقها في العام قبل الماضي — أعرضوا إلى الدولة، فبرز الأمر السلطاني بإعادة بناها، وعينوا لذلك أغا قابجي وعلى يده مرسوم شريف فحضر إلى القدس، وحصل الاجتهاد في تشهيل مهمات العمارة، وشرعوا في البنا على وضع أحسن من الأول، وتوسعوا في مساحة جرمها وأدخلوا فيها أماكن مجاورة لها، وأتقنوا البنا إتقانًا عجيبًا، وجعلوا أسوارها وحيطانها بالحجر النحيت، ونقلوا إليها من رخام المسجد الأقصى.

فقام يمنع ذلك جماعة من الأشراف الينكجرية، وشنعوا على الأغا المعين وعلى كبار البلدة، وتعصبوا حماية للدين قايلين: إن الكنايس إذا خربت لا يجوز إعادتها إلا بأنقاضها، ولا يجوز الاستعلا بها ولا تشييدها ولا أخذ رخام الحرم القدسي ليوضع في الكنيسة، ومانعوا في ذلك فأرسل ذلك الأغا المعين إلى يوسف باشا يعرفه عن المعارضين لأوامر الدولة، فأرسل يوسف باشا طايفة من عسكره في عدة وافرة، فوصلوا من طريق الغور وهو مسلك موصل إلى القدس قريب المسافة خلاف الطريق المعتاد، فدهموا الجماعة المعارضين على حين غفلة، وحاصروهم في دير وقتلوهم عن آخرهم وهم نيف وتلاتون نفرًا.

وشيدوا القمامة كما أرادوا أعظم وأضخم مما كانت عليه قبل حرقها، فنسأل المولى السلامة في الدين.

واستهل شهر ربيع الأول بيوم الخميس (سنة ١٢٢٥)

فيه وصلت الأمرا المصريون القبالي إلى ناحية بني سويف، وكثير من الأجناد إلى مصر، وترددت الرسل وحضر ديوان أفندي ثم رجع تانيًا إليهم.

وفيه أمر الباشا الكُتاب بعمل حساب حسين أفندي الروزنامجي عن السنتين الماضيتين، وهما سنة تلاتة وعشرين وأربع وعشرين، وذلك بإغرا البعض منهم، فاستمروا في عمل الحساب أيامًا فزاد لحسين أفندي ماية وتمانون كيسًا، فلم يعجب الباشا ذلك واستخونهم في عمل الحساب، ثم ألزمه بدفع أربعماية كيس وقال: أنا كنت أريد منه ستماية كيس وقد سامحته في مايتين في نظير الذي تأخر له، وطلع في صبحها إلى الباشا وخلع عليه فروة باستقراره في منصبه، ونزل إلى داره، فلما كان بعد الغروب حضر إليه جماعة من العسكر في هيئة مزعجة ومعهم مشاعل، وطلبوا الدفاتر وهم يقولون: معزول معزول، وأخذوا الدفاتر وذهبوا وحولوا عليه الحوالات بطلب الأربعماية كيس، فاجتهد في تحصيلها ودفعها ثم ردوا له الدفاتر تانيًا.

وفيه حصلت كاينة أحمد أفندي المعروف باليتيم من كتاب الروزنامة؛ وذلك أن الباشا كان ببيت الأزبكية، فوصل إليه مكتوب من كاشف إقليم الدقهلية، يعرِّفه فيه أنه قاس قطعة أرض جارية في إقطاع أحمد أفندي المذكور، فوجد مساحتها خلاف المقيد بدفتر المقياس الأول، ومسقوط منها نحو الخمسماية فدان، وذلك من فعل المذكور ومخامرته مع النصارى الكتبة والمساحين؛ لأنهم يراعونه ويدلسون معه؛ لأن دفاتر الروزنامة بيده.

فلما قرأ المكتوب أمر في الحال بالقبض على أحمد أفندي وسجنه، وكان السيد محمد المحروقي حاضرًا، وكذلك علي كاشف الكبير الألفي فترجيا عند الباشا وأخبراه بأن المذكور مريض بالسرطان في رجله ولا يقدر على حركتها، واستأذنه السيد المحروقي بأن يأخذه إلى داره، فإن داره باب من أبوابه فأجابه إلى ذلك.

وركب في الحال ولحق بالمعينين، وكانوا قد وصلوا إليه وأزعجوه فمنعهم عنه، وأخذه إلى داره وراجع الباشا في أمره، فقرر عليه تمانين كيسًا بعد أن قال: إني كنت أريد أن أقول: ثلثماية كيس فسبق لساني فقلت: ماية كيس، وقد تجاوزت لأجلك عن عشرين كيسًا، وهو لا يقدر على أكثر من ذلك؛ لأنه يفعل كذا وكذا، وعدَّد أشياء تدل على أنه ذو غنية كبيرة، منها أنه لما سافر إلى الباشا بدفتر الفرضة إلى ناحية أسيوط، طلع إلى البلدة في هيئة وصحبته فرش وسحاحير وبشخانات وكرارات وفراشون وخدم وكيلارجية ومصاحبجية والحكيم والمزين.

فلما شاهد الباشا هيئته سأل عنه وعن منصبه فقيل له: إنه جاجرت من كتبة الروزنامة، فقال: إذا كان جاجرت بمعنى تلميذ، فكيف يكون باش جاجرت أو قلفاوات لإقليم فضلًا عن كبيرهم الروزنامجي، وأي شي ذلك؟ وأسر ذلك في نفسه وطفق يسأل ويتجسس عن أحوالهم؛ لأنه من طبعه الحقد والحسد والتطلع لما في أيدي الناس.

ولما قلد خليل أفندي كتابة الذمة في الروزنامة — كما تقدم — انضم إليه الكارهون للمذكور الذين كانوا خاملي الذكر بوجوده، وتوصلوا إلى باب الباشا وكتخدا بك، وأنهوا فيه أنه يتصرف في الأموال الميرية كما يختار، وأن حسين أفندي الروزنامجي لا يخرج عن مراده وإشارته، وبيته مفتوح للضيفان ويجتمع عنده في كل ليلة عدة من الفقرا يثرد لهم الثريد في القصاع، ويواسي الكثير من أهل العلم وغيرهم، ويتعهد بكثير من الملتزمين بالفرض التي تقرر على حصصهم، ويضمها في حسابه ويصبر عليهم حتى يوفوها له في طول الزمن ونحو ذلك، وكل ما ذكر دليل على سعة الحال والمقدرة.

وأما الذنب الذي أخذه به فإن القدر المذكور من الطين كان من الموات، فاتفق المذكور مع شركاه ملتزمي الناحية وجرفوه وأحيوه وأصلحوه، بعد أن كان خرسًا ومواتًا لا يُنتفع به، وجعلوه صالحًا للزراعة وظن أن ذلك لا يدخل في المساحة فأسقطه منها، فوقع له ما وقع، وأسقطوا اسمه من كتَّاب الروزنامة، ومنعوه منها وانقطع في داره وزاد به ألم رجله.

وفيه انحرف أيضًا الباشا على الخواجا محمود حسن، وعزله من الجمارك والبزرجانية، وأكل عليه المطلوب له وهو مبلغ ألفان وخمسون كيسًا.

واستهل شهر ربيع التاني بيوم السبت (سنة ١٢٢٥)

فيه وصلت الأخبار من البلاد الحجازية بنزول سيل عظيم حصل منه ضرر كثير وهدم دورًا كثيرة بمكة وجدة، وأتلف كثيرًا من البضايع للتجار، حكوا أنه هدم بمكة خاصة ستماية دار، وكان ذلك في شهر صفر.

وفيه وصل الأمرا المصريون إلى ناحية الرقق وأوايلهم وصلوا إلى دهشور، وخرج إليهم الأتباع بالملاقاة من بيوتهم وأحبابهم، وذهب إليهم مصطفى أغا الوكيل وعلي كاشف الصابونجي وديوان أفندي، ثم الباشا ثم في أثرهم طوسون ابن الباشا، وقدم له إبراهيم بك تقادم وأقام بوطاقه أيامًا ثم رجعوا، وكثر ترداد المراسلات والاختلافات في أمر الشروط.

وفي خامسه حضر عثمان بك يوسف وصحبته صنجق آخر، فطلعا إلى القلعة وقابلا الباشا ثم رجعا وحضرا في تاني يوم كذلك، فخلع عليهما خلعًا وأعطاهما أكياسًا، وأرسل إلى إبراهيم بك هدايا وإلى سليم بك المحرمجي المرادي أيضًا.

وفي يوم التلات حادي عشره وصل الجميع إلى الجيزة، ونصبوا وطاقهم خارج الجيزة وصحبتهم عربان وهوارة كثيرة، وانتظروا أن الباشا يضرب لحضورهم مدافع، فلم يفعل وقال إبراهيم بك: سبحان الله! ما هذا الاحتقار؟ ألم أكن أمير مصر نيفًا وأربعين سنة تقلدت قايمقامية ولايتها ووزارتها مرارًا، وبأخرة صار من أتباعي وأعطيه خرجه من كيلاري، ثم أحضر أنا وباقي الأمرا على صورة الصلح، فلا يضرب لنا مدافع كما يفعل لحضور بعض الإفرنج، وتأثر من ذلك.

وأشيع في الناس تعدية الباشا من الغد للسلام على إبراهيم بك فلم يثبت، وظهر أنه لم يفعل وأصبح مبكرًا إلى شبرا وجلس في قصره، وحضر إليه شاهين بك الألفي في سفينة، ووقع بينهما مكالمات ورجع من عنده عايدًا إلى الجيزة منفعل الخاطر، ثم إن الباشا عرض عساكره، فاجتمع إليه الجميع وبدا اللغط وكثرت اللقلقة، وعندما وصل شاهين بك إلى الجيزة أزَّر حريمه وأركبهن وأرسلهن إلى الفيوم، ونقل متاعه وفرشه من قصر الجيزة في بقية اليوم، وكسر المرايات وزجاج الشبابيك التي في مجالسه الخاصة.

ثم ركب في طوايفه وأتباعه وخشداشينه ومماليكه، وذهب إلى عرضي إخوانه وقبيلته ونصب خيامه ووطاقه بحذاهم، واجتمع بهم وتصافى معهم، وقد كان حضر إليه عبد الرحمن بك تابع عثمان بك المرادي المعروف بالطنبرجي، وحول دماغه واتفق معه على الانضمام إليهم والخروج عن الباشا، ففعل ما فعل وجعلوه ريس الأمرا المرادية.

وفي ذلك اليوم عدى حسن باشا وصالح أغا قوج إلى بر الجيزة، وذهبا إلى عرضي الأمرا وسلما عليهم وتغديا عند شاهين بك، وجرى بينهما وبين إبراهيم بك كلام كثير وقال له حسن باشا: إنكم وصلتم إلى هنا لتمام الصلح على الشروط التي حصلت بينكم وبين الباشا والاتفاق الذي جرى بأسيوط، ويكون تمامه عند وصولكم إلى الجيزة واجتماعكم وقد حصل، فقال له إبراهيم بك: وما هي الشروط؟ قال: هي أن تدخلوا تحت حكمه وطاعته، وهو يوليكم المناصب التي تريدونها بشرط أن تقوموا بدفع الفرض التي يقررها على النواحي والغلال الميرية والخراج، وتعيين من يريده منكم صحبة العساكر الموجهة إلى البلاد الحجازية لفتح الحرمين، وتكونوا معه أمرا مطيعين، وهو يعطيكم الأمريات والإنعامات الجزيلة، ويعمر لكم ما تريدونه من الدور والقصور التي لكم ولأتباعكم على طرفه لا يكلفكم بشي من الأشيا، وقد رأيتم وسمعتم ما فعله من الإكرام والإنعام على شاهين بك، وما أعطاه من المماليك والجواري الحسان وشفاعاته عنده لا ترد. وأطلق له التصرف في البر الغربي من رشيد إلى الفيوم إلى بني سويف والبهنسا مما هو تحت حكمه، ويراعي بجانبه إلى الغاية، فقال له إبراهيم بك: نعم إنه فعل مع شاهين بك ما لا تفعله الملوك فضلًا عن الوزرا، وليس ذلك لسابق معروف فعله شاهين بك معه ليستحق به ذلك، بل هو لغرض سو يكتمه في نفسه، وشبكة يصطاد بها غيره، فإننا سبرنا أحواله وخيانته وشاهدنا ذلك في كثير ممن خدموه ونصحوا معه حتى ملَّكوه هذه الملكة. قال: ومن هم؟ قال: أولهم مخدومه محمد باشا خسرو، ثم كتخدا وخازنداره عثمان أغا جنج الذي خامر معه مع أخيه المرحوم طاهر باشا القلعة وأحرق سرايته.

ثم سلط الأتراك على طاهر باشا حتى قتلوه في داره، وأظهر موالاتنا وصداقتنا ومساعدتنا، وصيَّر نفسه من عسكرنا.

واتحد بعثمان بك البرديسي، وأظهر له خلوص الصداقة والأخوة وعاهده بالإيمان حتى أغراه على علي باشا الطرابلسي، وجرى ما جرى عليه من القتل ونسب ذلك إلينا، ثم اشتغل معه على خيانته لأخيه الألفي وأتباعه، ثم سلط علينا العساكر بطلب العلوفة، وأشار على عثمان بك بطلب المال من الرعية، حتى وقع لنا ما وقع وخرجنا من مصر على الصورة التي خرجنا عليها، ثم أحضر أحمد باشا خورشيد وولَّاه وزيرًا وخرج هو لمحاربتنا، ثم اتضح أمره لأحمد باشا وأراد الإيقاع به، فعجل العود إلى مصر وأوقع بينه وبين جنده، حتى نفروا منه ونابذوه.

وألقى إلى السيد عمر والقاضي والمشايخ أن أحمد باشا يريد الفتك بهم، فهيجوا العامة والخاصة وجرى ما جرى من الحروب وحرق الدور، وبذل السيد عمر جهده في

النصح معه بما يظهره له من الحب والصداقة، وراجت عليه أحواله حتى تمكن أمره وبلغ مراده، وأوقع به وأخرجه من مصر وغربه عن وطنه، ونقض العهود والمواثيق التي كانت بينه وبينه كما فعل بعمر بك وغيره.

وكل ذلك معلوم ومشاهد لكم ولغيركم؛ فمن يأمن لهذا ويعقد معه صلحًا؟! واعلم يا ولدي أننا كنا بمصر نحو العشرة آلاف أو أقل أو أكثر ما بين مقدمي ألوف وأمرا وكشاف وأكابر وجاقات ومماليك وأجناد وطوايف وخدم وأتباع مرفهي المعاش بأنواع الملاذ، كل أمير مختص ومعتكف بإقطاعه مع كثرة مصارفنا وإنعاماتنا على أتباعنا ومن ينتسب إلينا، وأسمطة الجميع ممدودة في الأوقات المعهودة، ولا نعرف عسكرًا ولا علوفة عسكر، والقرى والبلاد مطمينة والفلاحون ومشايخ البلاد مرتاحون في أوطانهم، ومضايفهم مفتوحة للواردين والضيفان، مع ما كان يلزم علينا من المصارف الميرية ومرتبات الفقرا وخزينة السلطان، وصرة الحرمين والحجاج وعوايد العربان، وكلف الوزرا المتولين والأغوات والقبالجية المعينين، وخدمهم والهدايا السلطانية وغير ذلك.

وأفندينا ما كفاه إيراد الإقليم وما أحدثه من الجمارك والمكوس، وما قرره على القرى والبلدان من فرض المال والغلال والجمال والخيول والتعدي على الملتزمين ومقاسمتهم في فايظهم ومعاشهم.

وذلك خلاف مصادرات الناس والتجار في مصر وقراها والدعاوى والشكاوى والتزايد في الجمارك، وما أحدثه في الضربخانة من ضرب القروش النحاس، واستغراقها أموال الناس بحيث صار إيراد كل قلم من أقلام المكوس بإيراد إقليم من الأقاليم، ويبخل علينا بما نتعيش به نحن وعيالنا ومن بقي معنا من أتباعنا ومماليكنا، بل وقصده صيدنا وهلاكنا عن آخرنا.

فقال حسن باشا: حاشا لله، لم يكن ذلك، ودايمًا يقول والدنا إبراهيم بك: ولكن لا يخفاكم أن الله أعطاه ولاية هذا القطر، وهو يؤتي الملك من يشا ولا ترضى نفسه من يخالف عليه أو يشاركه بالقهر والاستيلا، فإذا صار الصلح ووقع الصفا أعطاكم فوق مأمولكم، فهز إبراهيم بك رأسه وقال: صحيح يكون خيرًا، وانفض المجلس ورجع حسن باشا وصالح قوج وعديا إلى بر مصر.

وفي تلك الليلة خرج جميع من كان بمصر من الأمرا والأجناد المصرية بخيلهم وهجنهم ومتاعهم، وعدوا إلى بر الجيزة، ولم يبقَ منهم إلا القليل، واجتمعوا مع بعضهم وقسموا الأمر بينهم ثلاثة أقسام: قسم للمرادية وكبيرهم شاهين بك، وقسم للمحمدية

وكبيرهم علي بك أيوب، وقسم للإبراهيمية وكبيرهم عثمان بك حسن، وكتبوا مكاتبات وأرسلوها إلى مشايخ العربان لم أقف على مضمونها.

وفي يوم الجمعة رابع عشره أوقفوا عساكر على أبواب المدينة يمنعون الخارجين من البلد حتى الخدم، ومنعوا التعدية إلى البر الغربي، وجمعوا المراكب والمعادي إلى البر الشرقي، ونقلوا البضايع التي في مراكب التجارة المعدة لسفر رشيد ودمياط المعروفة بالرواحل، وأخذوها إليهم وشرعوا في التعدية بطول يوم الجمعة والسبت، وعدى الباشا آخر النهار، دخل إلى قصر الجيزة الذي كان به شاهين بك، وكذا عدوا بالخيام والمدافع والعربات والأثقال، واجتمعت طوايف العسكر من الأتراك والأرنؤد والدلاة والسجمان بالجيزة، وتحققت المفاقمة والأمرا المصرية خلف السور في مقابلتهم، واستمروا على ذلك إلى تاني يوم، والناس متوقعون حصول الحرب بين الفريقين، ولم يحصل. وانتقل المصرية وترفعوا إلى قبلي الجيزة بناحية دهشور وزنين.

وفي يوم الاتنين والتلات أنفق الباشا على العسكر وكان له مدة شهور لم ينفق عليهم.

وفي ليلة التلات ركب الباشا ليلًا، وسافر إلى ناحية كرداسة على جرايد الخيل، ورجع في تاني ليلة، وكان سبب ركوبه أنه بلغه أن طايفة من العربان مارين يريدون المصرية، فأراد أن يقطع عليهم الطريق، فلم يجد أحدًا وصادف نجعًا مقيمين في محطة، فنهب مواشيهم ورجع متعوبًا، وانقطع عنه أفراد من العسكر ومات بعضهم من العطش.

وفي يوم الجمعة ارتحل المصرية وترفعوا إلى ناحية جرز الهوى بالقرب من الرقق.

وفيه حضر مشايخ عربان أولاد علي للباشا، فكساهم وخلع عليهم وألبسهم شالات كشميري عدتها تمان شالات، وأنعم عليهم بماية وخمسين كيسًا وحضر عند المصرية عربان الهنادي ومشايخهم وانضموا إليهم.

وفي يوم الأحد تالت عشرينه عدى الباشا إلى بر مصر، وذهب إلى بيته بالأزبكية فبات به ليلتين ثم طلع يوم التلات إلى القلعة، وقد تكدر طبعه من هذه الحادثة بعد أن حصلوا بالجيزة وكاد يتم قصده فيهم، وخصوصًا ما فعله شاهين بك الذي أنفق عليه ألوفًا من الأموال ذهبت جميعها في الفارغ البطال.

وفي هذه الأيام — أعني منتصف شهر بشنس القبطي — زاد النيل زيادة ظاهرة أكثر من ذراع ونصف، واستمر أيامًا ثم رجع إلى حاله الأول، وهذا من جملة عجايب الوقت.

واستهل شهر جمادى الأولى بيوم الأحد (سنة ١٢٢٥)

فيه عمل الباشا ميدان رماحة بالجيزة، فتقنطر به الحصان ووقع به الأرض فأقاموه وأصيب غلام من مماليكه برصاصة فمات، ويقال: إن الضارب لها كان قاصدًا الباشا فأخطأته وأصابت ذلك المملوك والأجل حصن.

وفيه نبهوا على العسكر بالخروج فسعوا بالجد والعجلة في قضا أشغالهم ولوازمهم، وطفقوا يخطفون حمير الناس وجِمالهم ومن يصادفونه ويقدرون عليه من أهل البلد وخلافهم، ويقولون: في غد مسافرون وراحلون لمحاربة المصريين، والمصريون أيضًا مستمرون في منزلتهم لم ينتقلوا عنها.

وفي خامسه خرج حسن باشا وبرز خيامه بناحية الآثار، وخرج أيضًا محو بك بعسكره وطوايفه ومعهم بيارق، وسافر جملة عساكر في المراكب ليرابطوا في البنادر؛ فإنها خالية ليس بها أحد من المصريين، وفي كل يوم يخرج عساكر ثم يرجعون إلى المدينة، وهم مستديمون على خطف الدواب وحمير البطيخ وجمال السقايين، والباشا يعدي إلى بر مصر في كل يومين أو تلاتة، ويطلع إلى القلعة ثم يعود إلى مخيمه في الجيزة، وامتنع سفر المسافرين قبلي وبحري.

وفي يوم التلات سابع عشره بلغ الباشا أن الأمرا المرادية والإبراهيمية وغالب المصرية لهم مراسلات ومعاملات مع السيد سلامة النجاري وأخيه وابن أخيه، وأنه يرسل لهم جميع ما يلزم من أسلحة وأمتعة وخلافها بواسطة بعض عملاهم من العربان خفية، وأنه اشترى جملة أسلحة وخيول وثياب وغيرها، وأخذ أشيا من بيوت بعضهم لأجل أن يرسل الجميع إليهم، وأن جميع ذلك موجود عند المذكور الآن، ومن جملة أيام حضر مرسول من عندهم بدراهم ومعه حصان نعمان بك وهو عنده أيضًا، فأمر بجلبه وحبسه وهجم منزله، وضبط أوراقه وضبط ما يوجد بها، ففعلوا ذلك وحبسوا معه ابن أخيه وأزعجوهما، وهجموا منزله فوجدوا فيه خمسة خيول وجملة أسلحة، فطغوا وبغوا ونهبوا متاعه، وبددوا شمل كتب أبيه، ولم يجدوا مكاتبات من الأمرا القبالي، ولا أتر لذلك، بل إنهم وجدوا جوابًا من أخيه السيد أحمد مضمونه أننا عند وصولنا إلى مكة المشرفة اشترينا أربعة خيول نجدية بها العلامات التي أفدتونا عنها، وهي مرسلة لكم عسى أن تفوزوا بتقديمها لأفندينا.

ولما سيل عن الأسلحة والخيول التي عنده قال: إن السلاح عندنا من قديم وله مُدَد ورؤيته تدل على ذلك، وأما الخيول فمنها أربعة أحضرتها هدية لأفندينا، وجاءت ضعيفة

فأبقيتها عندي حتى تتقوى وأقدمها إليه، والحصان الخامس اشتريته لنفسي من رجل عميلنا اسمه عطوان أحمد من أهالي كفر حكيم، أخبرني أنه اشتراه من ناحية صول، لما رأيت فيه علامات الجودة وجات الأربعة خيول تركت ركوبه، وأبقيته معها حتى أقدِّم الجميع لأفندينا، فعند ذلك توجَّه محمد أفندي طبل للباشا وفهَّمه براءة ذمة المذكور، وأخبره بما صار وما وجدوه وما قاله المذكور، وسعى في إزالة هذه التهمة عنه، وعرفه أن هذا الرجل مستقيم الأحوال، وأنه من وقت توظيفه معه لم ينظر عليه ما يخالف، وصدق عليه الحاضرون، فلما ظهر للباشا كذب التهمة وتحقق براءته، وأنه أحضر هذه الخيول هدية له أمر بإطلاقه من السجن واسترجاع ما نهبته الأعوان من منزله، وتخلق عليهم بسبب ذلك.

ثم أمر بإحضاره وإحضار الخيول المهداة له فقبلها منه، ثم سأله عن علامات الجودة وما يحمد في الخيل وما يذم فيها، فأجابه بأجوبة مفيدة استحسنها، فأنعم عليه وضاعف مرتبه؛ فصارت جملته أربعة أكياس شهريًّا، وأحال عليه نظر مشتري الخيول.

وفيه وصلت الأخبار بأن حسن باشا وصالح قوج وعابدين بك وعساكر الأرنؤد وصلوا إلى ناحية صول والبرنبل فوجدوا المصريين جعلوا متاريس ومدافع على البر؛ ليمنعوا مرور المراكب فحاربوهم حتى أجلوهم عنها وملكوا المتاريس، وقُتل رجل من الأجناد، وهو الذي كان محافظًا على المتاريس يقال له إبراهيم أغا، سقط به الجرف إلى البحر، فأخذوه إليهم ومعه آخر وقتلوهما وقطعوا روسهما وأرسلوهما صحبة المبشرين إلى الباشا، فعلقوا الراسين بباب زويلة.

ولما بلغ الأمرا المصريين أخذ المتاريس تأهبوا وساروا من أول الليل، وهي ليلة السبت رابع عشره، مكمنين وكاتمين أمرهم، فدهموا الأرنؤد من كل ناحية فوقع بينهم مقتلة عظيمة، وأخذوا منهم عدة بالحياة وأخذوا منهم أشيا، وكان حسن باشا وأخوه عابدين بك صعدا بمراكبهما إلى قبلي المتاريس، فاحترق من مراكب أخيه مركب، وألقى مَن فيها بأنفسهم إلى البحر، فمنهم من نجا ومنهم من غرق. وأما مراكب حسن باشا فإنه ساعدها الريح أيضًا، فسارت إلى ناحية بني سويف، ثم إن المصريين عدى منهم طايفة إلى شرق أطفيح، وانتقل بواقيهم راجعين إلى ناحية الجيزة قريبًا من عرضي الباشا.

وفي ليلة الخميس تاسع عشره عدى الباشا إلى بر مصر وطلع إلى القلعة، فلما كان الليل وصل طايفة من المصريين إلى المرابطين لخفارة عرضي الباشا، واحتاطوا بهم وساقوهم إليهم فانزعج العرضي، وحصل فيهم غاغة، فأرسل طوسون باشا إلى أبيه، فركب ونزل من القلعة في سادس ساعة من الليل وعدى إلى البر الغربي.

ومما سمعته أن الباشا عندما نزل المعدية، وسار بها في البحر سمع واحدًا يقول لآخر: قدِّم حتى نقتل المصريين ونبدد شملهم، ويكرر ذلك، فأرسل الباشا مركبًا وأرسل بعض أتباعه بها لينظروا هذين الشخصين ولأي شي نزلا البحر في هذا الوقت، فلما ذهبوا إلى الجهة التي سُمع منها الصوت لم يجدوا أحدًا، وتفحصوا عنهما فلم يجدوهما، فاعتقد من له اعتقاد منهم أنهما من الأوليا وأن الباشا مساعد بأهل الباطن.

وفي عشرينه ظهر التفاشل بين الأمرا المصريين، وتبيَّن أن الذين كانوا عدوا إلى البر الشرقي هم ثلاثة أمرا من الألفية، وهم: نعمان بك وأمين بك ويحيى بك؛ وذلك أنهم لما تصالحوا مع الباشا وأميرهم شاهين بك، وهو الريس المنظور إليه، ومطلق التصرف في معظم البر الغربي والفيوم يتحكم فيهم وفي طوايف العربان وأهالي البلاد والفلاحين بما يريد، وكذلك أموال المعادي بناحية الأخصاص وإنبابة والخبيري وغير ذلك، وهو شي له قدر كبير وزاد فيهم أيضًا أضعاف المعتاد، فيأخذ جميع ذلك ويختص به، وذلك خلاف إنعامات الباشا عليه بالمئين من الأكياس، ويشتري المماليك والجواري الحسان، ولا يدفع لهم ثمنًا فيشكون إلى الباشا، فيدفعه إلى اليسرجية من خزينته وهو منشرح الخاطر، وإخوانه يتأثرون لذلك وتأخذهم الغيرة ويطمعون في جانبه، وهو يقصِّر في حقهم ولا يعطيهم إلا النزر مع المن والتضجر، وفيهم من هو أقدم منه هجرة ويرى في نفسه أنه أحق بالتقدم منه.

ولما دنت وفاة أستاذهم، أحضر شاهين بك وسلمه خزينته وأوصاه بأن يعطي لكل أمير من خشداشينه سبعة آلاف مشخص، ولم يعطِهم وطفق كلما أعطاهم شيًّا حسبه عليهم من الوصية، حتى إذا أعطى اليلك والبنش لنعمان بك مثلًا، يعطيه له أنقص من بنش أمين بك نصف ذراع، ويقول: هو قصير القامة، ونحو ذلك فيحقدون ذلك عليه ويتشكون من خسته وتقصيره في حقهم، ويعلم الباشا ذلك، فلما نقض شاهين بك عهده وانضم إلى المخالفين وخشداشينه المذكورين معه بالتنافر القلبي، راسلهم الباشا سرًّا ووعدهم ومنَّاهم بأنهم إذا حضروا إليه وفارقوا شاهين بك الخاين المقصر في حقهم، أنزلهم منزلة شاهين بك وزيادة، واختص بهم اختصاصًا كبيرًا، فمالت نفوسهم لذلك القول واعتقدوا بخسافة عقولهم صحته، وأنهم إذا رجعوا إليه هذه المرة ونبذوا المخالفين اعتقد صداقتهم وخلوصهم وزاد قدرهم ومنزلتهم عنده، وتذكروا عند ذلك ما كانوا فيه مدة إقامتهم بمصر من التنعم والراحة في القصور التي عمروها بالجيزة والبيوت التي اتخذوها بداخل المدينة، والرفاهية والفُرش الوطية، وتحركت غلمتهم للنسا والسراري

التي أنعم عليهم الباشا بها، وقالوا: ما لنا والغربة وتعب الجسم والخاطر والانزعاج والحروب والإلقا بنفوسنا في المهالك وعدم الراحة في النوم واليقظة.

فردوا الجواب بالإجابة وتمنوا عليه أيضًا ما حاك في نفوسهم بشرط طرح المؤاخذة، والعفو الكامل بواسطة من يعتمد صدقه، فأْجابهم لكل ما سألوه وتمنوه بواسطة مصطفى كاشف المورلي، وهو معدود سابقًا منهم، وانفصل عنهم وانتمى إلى كتخدا بك، وصار من أتباعه.

فعند ذلك شرعوا في مناكدة أخيهم شاهين بك ومفارقته وعقدوا معه مجلسًا، وقالوا له: قاسمنا في ربع المملكة التي خصونا به القسمة التي شرطوها فإننا شركاك، فإن إبراهيم بك قسم مع جماعته، وكذلك عثمان بك وعلي بك أيوب. فقال لهم: وما هو الذي ملكناه حتى أقاسمكم فيه؟ فقالوا: أنت تجحف علينا وتختص بالشي دوننا، فإنك لما اصطلحنا معك مع الباشا وصرفك في البر الغربي اختصيت بإيراده، وهو كذا وكذا دوننا، ولم تشركنا معك في شي، ولولا أن الباشا كان يرعينا ويواسينا من عنده لمتنا جوعًا، فنحن لا نرافقك ولا نصحبك ولا نحارب معك حتى تُظهر لنا ما نقاتل معك عليه، وتزايدوا معه في المكالمة والمعاتبة والمفاقمة، ثم انفصلوا عنه ونقلوا خيامهم إلى ناحية البحر، واعتزلوه وفارقوا عرضي الجميع.

فلما علم بذلك إبراهيم بك الكبير تنكد خاطره وقال: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم! أي شي هذا الفشل وخسافة العقل والتفرق بعد الالتيام والاجتماع! وذهب إليهم ليصالحهم، ويضمن لهم كل ما طلبوه وطمعوا فيه عند تملكهم، وقال لهم: إن كنتم محتاجين في هذا الوقت لمصرف أنا أعطيكم من عندي عشرين ألف ريال اقسموها بينكم وعودوا لمضربكم معنا، فامتنعوا من صلحهم مع شاهين بك، فرجع إبراهيم بك يريد أخذ شاهين بك إليهم، فامتنع من ذهابه إليهم وقال: أنا لست محتاجًا إليهم وإن ذهبوا قلدت أُمرا خلافهم، وعندي من يصلح لذلك ويكون مطيعًا لي دونهم، فإن هولا يرون أنهم أحق مني بالرياسة.

والجماعة شرعوا في التعدية وانتقلوا إلى البر الشرقي وحال البحر بين الفريقين، ووصل إليهم مصطفى كاشف المورلي بمرسوم الباشا، واجتمعوا معه عند عبد الله أغا المقيم بناحية بني سويف، وضرب لهم شنكًا ومدافع، ثم إنهم عزموا على الحضور إلى مصر، فوصلوا في يوم الخميس خامس عشرينه، وقابلوا الباشا وخلع عليهم وأعطاهم تقادم ورجعوا إلى مضربهم ناحية الآثار، وصحبتهم ستة عشر من كشافهم، والجميع

يزيدون عن المايتين، وأنعم عليهم الباشا بمايتي كيس، لكل كبير من الأربعة عشرون كيسًا، وماية وعشرون كيسًا لبقيتهم، واشتروا دورًا واسعة وشرعوا في تغييرها وزخرفتها على طرف الباشا، فاشترى أُمين بك دار عثمان كتخذا المنفوخ بدرب سعادة من عتقايه، ودفع له الباشا ثمنها، وأمر لكل أمير منهم بسبعة آلاف ريال؛ ليصرفها فيما يحتاج إليه في العمارة واللوازم وحوَّلهم بذلك على المعلم غالي.

ولما تحقق شاهين بك انفصالهم قلد أربعة من أتباعه إمرياتهم وأعطاهم بيرقًا وخيولًا، وضم لهم مماليك وطوايف، وتمت حيلة الباشا التي أحكمها بمكره، وعند ذلك أشيع في الإقليم القبلي والبحري تفرقهم وتفاشلهم، ورجع من كان عازمًا من القبايل والعربان عن الانضمام إليهم، وطلبوا الأمان من الباشا، وحضروا إليه ودخلوا في طاعته، وأنعم عليهم وكساهم.

وكانت أهالي البلاد عندما حصلت هذه الحادثة عصت عن دفع الفرض والمغارم، وطردوا المعينين وتعطل الحال، وخصوصًا عندما شاع غلبة المصريين على الأرنؤد، وتفرقت عنهم العربان الذين كانوا انضموا إليهم، وأطاع المخالف والعاصي والممانع، وكلها أسباب لبروز المقدور والمستور في غيبه — سبحانه وتعالى.

وفي أواخره حضر كثير من عسكر الدلاة من الجهة الشامية، وكذلك حضر أتراك من على ظهر البحر كثيرون.

واستهل شهر جمادى الثانية بيوم التلات (سنة ١٢٢٥)

في تالته يوم الخميس قلد الباشا ديوان أفندي نظر مهمات الحرمين، والتأهب لسفر الحجاز لمحاربة الوهابية، وسكن ببيت قصبة رضوان، كل ذلك مع توجه الهمة والاستعداد لمحاربة الأمرا المصريين، والمذكورين بناحية قنطرة اللاهون.

وأما حسن باشا وصالح قوج وعابدين بك ومن معهم، فإنهم صعدوا إلى قبلي وملكوا البنادر إلى حد جرجا، واستقر دبوس أوغلي بمنية ابن خصيب.

وفي يوم السبت خامسه ارتحل الباشا بعساكره من الجيزة وانتقل إلى جزيرة الذهب، ونودي في المدينة بخروج العساكر المقيمين بمصر ولا يتخلف منهم أحد، فزاد تعديهم وخطفهم الحمير والجِمال والرجال الفلاحين وغيرهم لتسخيرهم في خدمتهم، وفي المراكب عوضًا عن النوتية والملاحين الذين هربوا وتركوا سفاينهم، فكانوا يقبضون على كل من يصادفونه ويحبسونهم في الحواصل ببولاق.

واتفق أنهم حبسوا نحو ستين نفرًا في حاصل مظلم وأغلقوه عليهم، وتركوهم من غير أكل ولا شرب أيامًا حتى ماتوا عن آخرهم.

وانحدر قبطان بولاق وأعوانه في طلب المراكب من بحر النيل، فكانوا يقبضون على المراكب الواصلة إلى مصر بالغلال والبضايع والسفار، فيلقون شحنها التي لا حاجة لهم بها على شطوط الملق، ويأتون بالمراكب إلى بولاق والجيزة إلا أن يعطوهم براطيل على تركهم الغلة بالمركب حتى يصلوا بها إلى ساحل بولاق، فيخرجونها منها ثم يأخذون المركب، وهكذا كان دأبهم بطول هذه المدة.

وفي عاشره ارتحل الباشا من جزيرة الذهب يريد محاربة المصريين.

وفي منتصفه ورد الخبر بأن حسين بك تابع حسين بك المعروف بالوشاش الألفي أراد الهروب والمجي إلى الباشا، فقبض عليه شاهين بك وأهانه وسلب نعمته وكتَّفه وأركبه على جمل مغطَّى الرأس، وأرسله إلى الواحات فاحتال وهرب، وحضر إلى عرضي الباشا فأكرمه وأنعم عليه وأعطاه خمسين كيسًا واستمر عنده.

وفي خامس عشرينه وصلت الأخبار بأن الباشا ملك قناطر اللاهون، وأن المصريين ارتحلوا إلى ناحية البهنسا، ولم يقع بينهم كبير محاربة، وأن الباشا استولى على الفيوم، وأرسل الباشا هدايا لمن في سرايته ولكتخدا بك من ظرايف الفيوم، مثل ماء الورد والعنب والفاكهة وغير ذلك، واستولى على ما كان مودوعًا للمصريين من الغلال بالفيوم.

وفي أواخره وصلت أخبار من ناحية الشام بأن طايفة من الوهابية، جردوا جيشًا إلى تلك الجهة، فتوجه يوسف باشا إلى المزيريب وحصن قلعتها، واستعد إليهم بجيش وحاربوهم وطردوهم، ثم اضطربت الأخبار واختلفت الأقوال.

واستهل شهر رجب بيوم الخميس (سنة ١٢٢٥)

فيه وردت الأخبار بورود قزلار أغا من طرف الدولة، وعلى يده أوامر وخلعة وسيف وخنجر لمحمد علي باشا، وصحبته أيضًا مهمات وآلات مراكب ولوازم حروب لسفر البلاد الحجازية ومحاربة الوهابية، وهو يسمى عيسى أغا وأنه طلع إلى ثغر إسكندرية.

وفي يوم السبت عاشره الموافق لسادس مسرى القبطي أوفى النيل وحصلت الجمعية وحضر كتخدا بك والقاضي وباقي الأعيان، وكسر السد بحضرتهم في صبحها يوم الأحد وجرى الماء في الخليج.

وفيه وصل الأغا شبرا وعملوا له هناك شنكًا وحراقات وتعليقات قبالة القصر الذي أنشأه الباشا بساحل شبرا، وخرجوا لملاقاته في صبحها بعد تلات ليالٍ في يوم التلات تالت عشره، وعملوا له موكبًا عظيمًا وطلع إلى القلعة، وضربوا عند طلوعه إلى القلعة مدافع، وهذا الأغا أسمر اللون حبشي مخصي لطيف الذات متعاظم في نفسه قليل الكلام، وفي حال مروره كان بجانبه شخصان ينثران الذهب والفضة الإسلامبول على الناس المتفرجين، وحضر صحبته وصحبة أتباعه السكة الجديدة التس ضُربت بإسلامبول من الذهب والفضة، وهي دراهم فضة خالصة سالمة من أغش زنة الدرهم منها درهم وزني كامل، ستة عشر قيراطًا يصرف بخمسة وعشرين نصفًا من الأنصاف المعاملة العددية المستعملة في معاملة الناس الآن، وكذلك قطعة مضروبة وزن درهمين بالدرهم الوزني تصرف بخمسين، وكذلك قطعة مضروبة وزنها أربعة دراهم وتصرف بماية نصف، وقطعة وزنها تمانية دراهم وتصرف بمايتين، وكذلك ذهب فندقلي إسلامي يصرف بأربعماية نصف وأربعين نصفًا ونصفه وربعه.

وفي يوم الجمعة سادس عشره حضر الأغا المذكور إلى المسجد الحسيني، وصلى به الجمعة وخرج وهو يفرق على الفُقرا والمستجدين أرباع الفنادقة، وأعطى خَدمة الضريح وخَدمة المسجد قروشًا إسلامبولي في صُرَر، أقل ما في الصرة الواحدة عشرة قروش.

وفي يوم السبت سابع عشره عملوا ديوانًا بالقلعة، وأحضروا خلعة وصلت صحبة الأغا المذكور أرسلها صحبة خازنداره، وألبسوها لابن الباشا وجعلوه باش ميرميران، وابن الباشا المذكور ولد مراهق صغير يسمى إسماعيل، وضربوا شنكًا ومدافع.

وأشيع أنه وصلت مبشرون من الجهة القبلية بنصرة الباشا على المصريين، وأرسلوا بذلك أوراقًا للأعيان أخبروا فيها بنصرة الباشا على المصريين، وأرسلوا بذلك أوراقًا للأعيان أخبروا فيها بوقوع الحرب بين الفريقين ليلة السبت أو يوم السبت عاشر رجب.

وفي ليلة التالت عشرينه أرسلوا تنابيه إلى المشايخ بالحضور من الغد لأنفار عدوها، ويكون حضورهم بالمشهد الحسيني، فبات الناس في ارتياب وظنون وتخامين.

فلما أصبح اليوم حضر شيخ السادات وهو الناظر على أوقاف المشهد إلى قبة المدفن، وحضر الشيخ البكري، وأغلقوا باب القبة ومنعوا الناس من العبور بالمسجد متشوفين لثمرة هذا الاجتماع، وكل من حضر من الأشياخ المشاهير استأذنوا له وأدخلوه إلى القبة.

وحضر الشيخ الأمير والشيخ المهدي، وتأخر حضور الشيخ الشرقاوي؛ لكونه كان يبيت في بولاق، ثم حضر الأغا المذكور ودخل إلى القبة وصحبته ظرف من خشب، ففتحه

وأخرج منه لوحًا طوله أزيد من ذراعين في عرض ذراع ونصف، مكتوب فيه البسملة بخط الثلث مموه بالدهب، وهي بخط يد السلطان محمود وتحتها طرة العلامة السلطانية، فعلقوه على مقصورة المقام وقروا الفاتحة، ودعا السيد محمد المنزلاوي خطيب المسجد بدعوات للسلطان، ولما فرغ دعا أيضًا السيد بدر الدين المقدسي، ثم خلع على المشايخ خلعًا وفرَّق دهبًا، ثم خرج الجميع وركبوا إلى دورهم، فكان هذا الجمع سُخْف لا غير.

وفي يوم الجمعة ركب الأغا المذكور، وذهب إلى ضريح السادات الوفائية بالقرافة صحبة الشيخ المتولي خليفتهم، فزار مقابرهم وعلق هناك لوحًا أيضًا وفرَّق دراهم وخلع على الشيخ المذكور خلعة.

ومن الحوادث البدعية من هذا القبيل أن عثمان أغا المتولي أغات مستحفظان سولت له نفسه عمارة مشهد الراس، وهو راس زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب — رضي الله عنهم — ويُعرف هذا المشهد عند العامة بزين العابدين وبذلك اشتهر، ويقصدونه بالزيارة صبح يوم الأحد، فلما كانت الحوادث ومجي الفرنسيس أهملوا ذلك وتخرَّب المشهد وأهيلت عليه الأتربة، فاجتهد عثمان أغا المذكور في تعمير ذلك فعمره وزخرفه وبيَّضه، وعمل به سِتْرًا وتاجًا ليوضعا على المقام.

وأرسل فنادى على أهل الطرق الشيطانية المعروفين بالأشاير، وهم السوقة وأرباب الحرف المرذولة الذين ينسبون أنفسهم لأرباب الضرايح المشهورين كالأحمدية والرفاعية والقادرية والبرهامية ونحو ذلك، وأكد في حضورهم قبل الجمع بأيام.

ثم إنهم اجتمعوا في يوم الأحد خامس عشرينه بأنواع من الطبول والزمامير والبيارق والأعلام والشراميط والخرق الملوَّنة والمصبغة، ولهم أنواع من الصياح والنياح والجلبة والصراخ الهايل، حتى ملوا النواحي والأسواق، وانتظموا وساروا وهم يصيحون ويترددون ويتجاوبون بالصلوات والآيات التي يحرفونها، وأنواع التوسلات ومناداة أشياخهم أيضًا المنتسبين إليهم بأسماهم، كقولهم برفع الصوت وضرب الطبلات: ياهو ياهو يا جباوي ويا بدوي ويا دسوقي ويا بيومي.

ويصحبهم الكثير من الفُقها والمتعممين، والأغا المذكور راكب معهم، والستر المصنوع مُركب على أعواد وعليه العمامة مرفوعة بوسط الستر على خشب ومتحلقين حوله بالصياح والمقارع يمنعون أيدي الناس الذين يمدون أيديهم للتمسُّح والتبرُّك من الرجال والنسا والصبيان المتفرجين، ويرمون الخرق والطُّرَح حتى إنهم يرخونها من الطيقان بالحبال لتصل إلى ذلك التمثال لينالوا جزءًا من بركته.

ولم يزالوا سايرين به على هذا النمط والخلايق تزداد كثرة، حتى وصلوا إلى ذلك المشهد خارج البلدة بالقرب من كوم الجارح حيث المجراة، وصنع في ذلك اليوم والليلة أطعمة وأسمطة للمجتمعين، وباتوا على ذلك إلى تاني يوم.

وفيه بعث عيسى أغا الواصل نجيب أفندي إلى الباشا يخبره بحضوره وبالغرض الذي حضر من أجله ويستدعيه للمجي.

وفي يوم الجمعة غايته وردت أخبار بوقوع حرابة بين الباشا والمصريين، وقتل بين الفريقين مقتلة عظيمة عند دلجة والبدرمان، وكانت الغلبة للباشا على المصريين وأخذوا منهم أسرى، وحضر إلى الباشا جماعة من الأمرا الألفية بأمان وهرب الباقون، وصعدوا إلى قبلي فعملوا لذلك اليوم شنكًا ومدافع تلاتة أيام، كل يوم تلات مرات.

واستهل شهر شعبان بيوم السبت (سنة ١٢٢٥)

فيه حضر الباشا وقت الغروب في تطريدة وصحبته جماعة قليلون، وطلع من البحر من بر طرا والمعيصرة، وركب من هناك خيولًا من خيول العرب، وطلع إلى القلعة على حين غفلة، فضربوا في ذلك الوقت مدافع إعلامًا بحضوره.

وفي تاني ليلة صعد إليه عيسى أغا المذكور عند الغروب وقابله وسلَّم عليه.

وفي يوم الاتنين تالته عمل الباشا ديوانًا، وركب ذلك الأغا من بيت عثمان أغا الوكيل الكاين بدرب الجماميز في موكب وطلع إلى القلعة، وقرا المرسوم الذي وصل صحبته بالمعنى السابق، وهو الأمر بالخروج إلى الحجاز، ولبس الباشا الخلعة والسيف بحضرة الجمع، وضربوا مدافع كثيرة عقيب ذلك.

وفيه وردت الأخبار بمجي يوسف باشا والي الشام إلى ثغر دمياط، وكان من خبر وروده على هذه الصورة أنه لما ظهر أمره وأتته ولاية الشام فأقام العدل، وأبطل المظالم واستقامت أحواله وشاع أمر عدله النسبي في البلدان، فثقل أمره على غيره من الولاة وأهل الدولة لمخالفته طرايقهم، فقصدوا عزله وقتله فأرسلوا له ولوالي مصر أوامر بالخروج فحصل التواني.

وفي أثنا ذلك حضر فرقة من العربان الوهابيين، وخرج إليهم يوسف باشا المذكور وحصَّن المزيريب كما تقدم، ورجع إلى الشام وتفرقت الجموع، ثم وصل عيسى أغا هذا وعلى يده مراسيم بولاية سليمان باشا على الشام وعزل يوسف باشا، وأشاعوا ذلك وخرج سليمان باشا تابع الجزار من عكا في جمع، وخرج يوسف باشا بمجموعه أيضًا فتحاربا

فانهزم يوسف باشا ونزل بالمزة، واستعجل الرجوع إلى الشام فقامت عليه عساكره ونهبوا متاعه، وخرج سليمان باشا تابع الجزار من عكا وتفرقوا عنه، فما وسعه إلا الفرار وترك ثقله وأمواله، ونزل في مركب ومعه نحو التلاتين نفرًا، وحضر إلى مصر ملتجيًا لواليها محمد علي باشا؛ لأن بينهما صداقة ومراسلات.

فلما وصلت الأخبار بوصوله أرسل إلى ملاقاته طاهر باشا، وحضر صحبته إلى مصر، وأنزله بمنزل مطل على بركة الأزبكية، وعيَّن له ما يكفيه وأرسل إليه هدايا وخيولًا وما يحتاج إليه.

وفي هذه الأيام اختل سد ترعة الفرعونية وانفتح منه شرم واندفع فيه الماء فضج الناس، وتعين لسدها ديوان أفندي، وأخذ معه مراكب وأحجارًا وأخشابًا وغاب يومين ثم رجع، واتسع الخرق واستمر عمر بك تابع الأشقر مقيمًا عليها لخفارتها؛ وليمنع مرور المراكب ويقوي ردمها؛ لئلا تنحرها المياه فيزداد اتساع الخرق.

وفي هذه الأيام توقفت زيادة النيل فكان يزيد من بعد الوفا قليلًا، ثم ينقص قليلًا، ثم يرجع النقص وهكذا، فأشار بالاجتماع للاستسقا بالأزهر، فتجمع القليل ثم تفرقوا، وذلك يوم التلات رابعه، وخرج النصارى الأقباط يستسقون أيضًا، واجتمعوا بالروضة وصحبتهم القساوسة والرهبان وهم راكبون الخيول والرهوانات والبغال والحمير في تجمل زايد، وصحبتهم طايفة من أتباع الباشا بالعصي المفضضة.

وعملوا في ذلك اليوم سيبانة وحانات وقهوات وأسمطة وسكردانات عند جميز العبد.

ويقولون: إن النيل لما توقفت زيادته في العام الذي قبل العام الماضي، وخرج الناس يستسقون بجامع عمرو وخرج النصارى في تاني يوم، فزاد النيل تلك الليلة، وذلك لا أصل له على أنه لا استغراب للزيادة في أوانها، وهذه الأيام أيضًا أواخر مسرى وأيام النسيء، وفيها قوة الزيادة وأيام النوروز.

وفي يوم السبت خرج المشايخ والناس إلى جامع عمرو بمصر القديمة، وأرسلوا تلك الليلة فجمعوا الأطفال من مصر وبولاق، فحضر الكثير وخطبوا وصلوا، وأضر بالمجتمعين الجوع في ذلك اليوم ولم يجدوا ما يأكلونه.

وفي تاني يوم نقص النيل واستمر ينقص في كل يوم.

وفي يوم الخميس تالت عشره حضرت العساكر والتجريدة إلى نواحي الآثار والبساتين، ودخلوا في صبيحة يوم الجمعة رابع عشره بطموشهم وحملاتهم حتى ضاقت بهم الأرض، وحضر صحبتهم الكثير من الأجناد المصرية وأسرى ومستأمنين.

وفيه حضر يوسف باشا المنفصل عن الشام ونزل بقصر شبرا، وضربوا لحضوره مدافع، ثم انتقل إلى الأزبكية وسكن هناك كما تقدم ذكره.

وفي خامس عشرينه زاد النيل ورجع ما كان انتقصه، وزاد على ذلك نحو قيراطين، وثبت إلى أواخر توت واطمأن الناس.

وفي غايته سافر عيسى أغا بعدما قبض ما أهداه إليه الباشا له ولمخدومه من الهدايا والأكياس والتحف والسكاكر والشرابات والأقمشة الهندية وغير ذلك، ونزل لتشييعه عثمان أغا الوكيل وسافر صحبته نجيب أفندي.

وفي أواخره سافر سليمان بك البواب لمصالحة الأمرا المنهزمين على يد حسن باشا.

واستهل شهر رمضان بيوم الأحد (سنة ١٢٢٥)

في سابع عشره قبض الباشا على المعلم غالي كبير المباشرين الأقباط والمعلم فلتيوس والمعلم جرجس الطويل والمعلم فرنسيس أخي المعلم غالي وباقي أعيان المباشرين، فأما غالي وفلتيوس فنزلوا بهما تلك الليلة إلى بولاق، وأنزلوهما في مركب ليسافرا إلى دمياط، وحبسوا الباقين بالقلعة وختموا على دورهم، ووجدوا عند المعلم غالي نيفًا وستين جارية بيضا وسودا وحبشية.

ثم قلدوا المباشرة إلى المعلم منصور ضريمون الذي كان معلم ديوان الجمرك ببولاق سابقًا، والمعلم بشارة ورزق الله الصباغ مشاركان معه، ثم أنزلوا النصارى المعتقلين من القلعة إلى بيت إبراهيم بك الدفتردار بالأزبكية، وفيهم جرجس الطويل وأخوه حنا وجريس وفرنسيس أخو غالي ويعقوب كاتبه وغيرهم، وأشاعوا عمل حسابهم، ثم دار الشغل، وسعت الساعون في المصالحة على غالي ورفقاه إلى أن تم الأمر على أربعة وعشرين ألف كيس، ونزل له فرمان الرِّضَى والخلع والبشاير، وذلك في آخر رمضان.

واستهل شهر شوال بيوم التلات (سنة ١٢٢٥)

فيه نزلت طبلخانة الباشا إلى بيت المعلم غالي، واستمروا يضربون النوبة التركية تلاتة أيام العيد ببيته، وكذلك الطبل الشامي وباقي الملاعيب، وترمى لهم الخلع والبقاشيش.

وفي سابعه حضر المعلم غالي وطلع إلى القلعة، وخلع عليه الباشا خلع الرِّضَى وألبسه فروة سمور وأنعم عليه ونزل له عن أربعة آلاف كيس من أصل الأربعة وعشرين ألف

كيس المطلوبة في المصالحة، ونزل إلى داره وأمامه الجويشية والأتباع بالعصي المفضضة، وجلس بدكة داره وأقبل عليه الأعيان من المسلمين والنصارى للسلام عليه، والتهنية له بالقدوم المبارك، وأما المعلم منصور ضريمون، فجبروا خاطره بأن قيدوه بخدمة بيت إبراهيم بك ابن الباشا الدفتردار، وقيدوا رفيقيه في خدم أخرى.

وفي يوم الخميس عاشر شوال حضر شاهين بك الألفي ومن معه إلى مصر، ونصب وطاقه بناحية البساتين، وذلك بعد أن تمموا الصلح على يد حسن باشا بواسطة سليمان بك البواب، فلما استقر بخيامه وعرضيه ببر مصر حضر مع رفقاه وقابل الباشا وهو ببيت الأزبكية فبش في وجهه، فقال شاهين بك: نرجو سماح أفندينا وعفوه عما أذنبناه، فقال: نعم من قبل مجيكم بزمان، وهو مُصِر لهم على كل كريهة، وأخلى له بيت محمد كتخدا الأشقر بجوار طاهر باشا بالأزبكية وفرشوه ونظموه، ووعده برجوعه إلى الجيزة في مناصبه كما كان، حتى يتحول منها محرم بك صهر الباشا؛ لأنه عند انتقال شاهين بك من الجيزة، عَدَّى إليها محرم بك بحريمه وهي ابنة الباشا، وسكن القصر بعسكره.

وكذلك أسكن كبار أتباعه وخواصه القصور التي كان يسكنها الألفية، وكذلك البيوت والدور، فوعده بالرجوع إلى محله، وظن بخسافة عقله صحة ذلك، وحضر صحبة شاهين بك جملة من العسكر والدلاة وغيرهم، واستمرت حملاتهم وأمتعتهم تدخل إلى المدينة أرسالًا في عدة أيام.

وفي يوم الجمعة عمل الباشا ديوانًا بالأزبكية في بيت ابنه إبراهيم بك الدفتردار، واجتمع عنده المشايخ والوجاقلية وغيرهم، فتكلم الباشا وقال: يا أحبابنا، لا يخفاكم احتياجي إلى الأموال الكثيرة لنفقات العساكر والمصاريف والمهمات والإيراد لا يكفي ذلك، فلزم الحال لتقرير الفُرض على البلاد والأطيان، وقد أجحف ذلك بأهاليها حتى جلت وخربت القرى، وتعطلت المزارع وبارت الأطيان، ولا يمكنني رفع ذلك بالكلية، والقصد أن تدبروا لنا تدبيرًا وطريقًا لتحصيل المال من غير ضرر ولا إجحاف على أهل القرى، وتعود مصلحة التدبير عليهم وعلينا، فقال الجميع: الرأي لك، فقال: إني فوضت الرأي في تدبير الأمور السابقة لجماعة الكتبة، وهم الأفندية والأقباط، فوجدت الجميع خاينين، وإني دبرت رأيًا لا تدخله التهمة، وهو أن من المعلوم أن جميع الحصص لها سندات ومعين بها مقدار الميري والفايظ، فتقرر على كل حصة قدر ميريها وفايظها إما سنة أو سنتين، فلا يضر ذلك بالملتزمين ولا بالفلاحين.

فانتبذ أيوب كتخدا الفلاح، وهو كبير الاختيارية، وقال: لكن يا أفندينا يلزم إلى مساواة الناس، فإن حصص كثير من المشايخ مرفوع ما عليها من المغارم، ويرجع تتميم

الغرامة على حصص الشركا، فحنق من كلامه الشيخ الشرقاوي، وقال له: أنت رجل سو، وثار عليه باقي المشايخ الحاضرين، وزاد فيهم الصياح، فقام الباشا من المجلس وتركهم وذهب بعيدًا عنهم، وهم يتزايدون ويتشاجرون، فأرسل إليهم الباشا الترجمان، وقال: إنكم شوشتم على الباشا وتكدر خاطره من صياحكم، فسكتوا وقاموا من المجلس وذهبوا إلى دورهم وهم منفعلون المزاج.

ولعل كلام أيوب كتخدا وافق غرض الباشا أو هو بإغراه.

ثم شرعوا في تحرير الدفاتر وتبديل الكيفيات، وكان في العزم أولًا أن يجعلها على ذمم الأطيان شارقًا وغارقًا، بما فيها من الأوسية التي للملتزمين والأرزاق ومسموح مشايخ البلاد، وذكر ذلك في المجلس، فقيل له: إن الأوسية معايش الملتزمين، والرزق قسمان: قسم داخل في زمام أطيان البلد ومحسوب في مساحة فلاحتها، وقسم خارج عن زمامها، والقسمان من الإرصادات على الخيرات، وعلى جهات البر والصدقة والمساجد والأسبلة والمكاتب والأحواض لسقي الدواب وغير ذلك، فيلزم منه إبطال هذه الخيرات وتعطيلها، فقال الباشا: إن المساجد غالبها متخرب ومتهدم، فقالوا له: عليك بالفحص والتفتيش وإلزام المتولي على المسجد بعمارته، إذا كان إيراده رايجًا إلى آخر ما قيل.

وفي يوم الاتنين حادي عشرينه قتلوا شخصًا من الأجناد الألفية، وقطعوا راسه بباب الخرق بسبب أنه قتل زوجته من غير جرم يوجب قتلها.

واستهل شهر ذي القعدة بيوم الأربع (سنة ١٢٢٥)

في تانيه سافر الباشا إلى ثغر إسكندرية ليكشف على عمارة الأبراج والأسوار، ويبيع الغلال التي جمعها من البلاد في الفرض التي فرضت عليهم، وكذلك ما أحضره من البلاد القبلية، فجمعوا المراكب وشحنوها بالغلال وأرسلها إلى إسكندرية؛ ليبيعها على الإفرنج فباع عليهم أزيد من مايتي ألف أردب، كل أردب بماية قرش، وسعرها بمصر تمانية عشر قرشًا، وهو لم يشترِها ولم تكن عليه بمال، بل أخذها من زراعات الفلاحين من أصل ما فرضه عليهم من الظلم مع تطفيف الكيل عليهم، وإلزامهم بكلفة شَيْله وأجرة نقله إلى المحل الذي يلزمونهم بوضعه فيه، وأخذ من الإفرنج في ثمنه أصناف النقود من الدهب المشخص البندقي والمجر والفرانسة، وعروض البضايع من الجوخ المتنوعة والدودة التي يقال لها القرمز والقزدير، وأصناف البضايع الإفرنكية، وأحدث وهو بإسكندرية أحداثًا ومكوسًا.

واستهل شهر ذي الحجة الحرام بيوم الأحد (سنة ١٢٢٥)

في تاني عشرينه حضر الباشا من إسكندرية إلى مصر، وذلك يوم الجمعة أواخر النهار، وحضر في العشية إلى بيت الأزبكية وبات عند حريمه، وطلع في صبح يوم السبت إلى القلعة وضربوا مدافع كثيرة لحضوره؛ وبذلك علم الناس حضوره. وانقضت السنة بحوادثها التي قصصنا بعضها، إذ لا يمكن استيفاها للتباعد عن مباشرة الأمور، وعدم تحققها على الصحة، وتحريف النقلة وزيادتهم ونقصهم في الرواية، فلا أكتب حادثة حتى أتحقق صحتها بالتواتر والاشتهار، وغالبها من الأمور الكلية التي لا تقبل الكثير من التحريف، وربما أخرت قيد حادثة حتى أثبتها ويحدث غيرها وأنساها، فأكتبها في طيارة حتى أقيدها في محلها — إن شاء الله تعالى — عند تهذيب هذه الكتابة، وكل ذلك من تشويش البال وتكدر الحال، وهم العيال وكثرة الاشتغال، وضعف البدن وضيق العطن.

ومن حوادثها أحداث عدة مكوس زيادة على ما أحدث على الأرز والكتان والحرير والحطب والملح، وغير ذلك مما لم يصل إلينا خبره، حتى غلت أسعارها إلى الغاية وكان سعر الدرهم الحرير نصفين، فصار بخمسة عشر نصفًا، وكنا نشتري القنطار من الحطب الرومي في أوانه بتلاتين نصفًا وفي غير أوانه بأربعين نصفًا، فصار بتلتماية نصف، وكان الملح يأتي من أرضه بثمن القفاف التي يوضع فيها لا غير، ويبيعه الذين ينقلونه إلى ساحل بولاق الأردب بعشرين نصفًا وأردبه تلاتة أرادب، ويشتريه المتسبب بمصر بذلك السعر؛ لأن أردبه أردبان ويبيعه أيضًا بذلك السعر، ولكن أردبه واحد فالتفاوت في الكيل لا في السعر، فلما احتكر صار الكيل لا يتفاوت، وسعره الآن أربعماية وخمسون نصفًا، والتزم به من التزم وأوقف رجاله في مواردة البحرية لمنع من يأخذ منه شيًّا من المراكب المارة بالسعر الرخيص من أربابه، ويذهب به إلى قبلي أو نحو ذلك.

ومنها — وهي من الحوادث الغريبة — أنه ظهر بالتل الكاين خارج راس الصوَّة المعروفة الآن بالحطابة قُبالة الباب المعروف بباب الوزير في وَهْدة بين التلول نار كامنة بداخل الأتربة، واشتُهر أمرها وشاع ذكرها وزاد ظهورها في أواخر هذه السنة، فيظهر من خلال التراب ثُقب، ويخرج منها الدخان بروايح مختلفة كرايحة الخِرق البالية وغير ذلك.

وكثر ترداد الناس للاطلاع عليها أفواجًا أفواجًا نسا ورجال وأطفال، فيمشون عليها ويجدون حرارتها تحت أرجلهم، فيحفرون قليلًا فتظهر النار مثل نار الدِّمس، فيقربون منها الخرق والحلفا ونحو ذلك فتدق فيها النار وتورى ويصعد منها الدخان، وإن غَوَّصوا فيها خشبة أو قصبة احترقت.

ولما شاع ذلك وأخبروا بها كتخدا بك نزل إليها بجمع من أكابره وأتباعه وغيرهم، وشاهد ذلك فأمروا إلى الشرطة بصب الماء عليها، وإهالة الأتربة من أعالي التل فوقها، ففعلوا ذلك وأحضروا السقايين، وصبوا عليها بالقرب ماءً كثيرًا وأهالوا عليها الأتربة.

وبعد يومين صارت الناس المتجمعة والأطفال يحفرون تحت ذلك الماء المصبوب قليلًا، فتظهر النار ويظهر دخانها، فيقربون منها الخرق والحلفا واليدكات فتورى وتدخن، واستمر الناس يَغدون ويروحون للفُرجة عليها نحو شهرين، وشاهدت ذلك في جملتهم ثم بطل ذلك.

ومنها أنه نودي أواخر السنة على صرف المحبوب بزيادة صرفه تلاتين نصفًا، وكان يصرف بمايتين وخمسين من زيادات الناس في معاملاتهم، فكانوا ينادون بالنقص ورجوعها إلى ما كان قبل الزيادة ويعاقبون على التزايد.

وفي هذه الأيام نودي بالزيادة، وذلك بحسب الأغراض والمقاصد والمقتضيات ومراعاة مصالح أنفسهم لا المصلحة العامة، هذا مع نقص عياره ووزنه عما كان عليه قبل المناداة، وكذلك نقصوا وزن القروش وجعلوا القرش على النصف من القرش الأول ووزنه درهمين، وكان أربعة دراهم، وفي الدرهمين ربع درهم فضة، هذا مع عدم الفضة العددية ووجودها بأيدي الناس والصيارف.

وإذا أراد إنسان صرف قرش واحد من غيره صَرَفه بنقص ربع العشر، وأخذ بدله قطعًا صغارًا إفرنجية يصرف منها الواحدة باثني عشر وأخرى بعشرة وأخرى بخمسة، ولكنها جيدة العيار.

وهم الآن يجمعونها ويضربونها بما يزاد عليها من النحاس، وهو تلاتة أرباعها قروشًا؛ لأن القطعة الصغيرة التي تصرف بخمسة أنصاف وزنها درهم واحد وَزْني، فيصيرونها أربعة قروش فتضاعف الخمسة إلى تمانين، وكل ذلك نقص واختلاس أموال الناس من حيث لا يشعرون.

أما من مات في هذه السنة ممن له ذكر

فمات الفقيه الفريد والعلامة المفيد الشيخ علي الحصاوي الشافعي ولا أعلم له ترجمة، وإنما رأيته يقرر الدروس ويفيد الطلبة في الفقه والمعقول، ويشهد الفُضلا بفضله ورسوخه، وكان على طريقة المتقدمين في الانقطاع للإفادة وعدم الرفاهية والرِّضَى بما قُسم له منعكفًا في حاله، وتمرض بالبرودة ولم ينقطع عن ملازمة الدروس، حتى تُوُفِّيَ

في منتصف جمادى الثانية من السنة، وصُلي عليه بالأزهر ودُفن في تربة المجاورين بالصحرا.

ومات المعلم جرجس الجوهري القبطي كبير المباشرين بالديار المصرية، وهو أخو المعلم إبراهيم الجوهري، ولما مات أخوه في زمن رياسة الأمرا المصرية تعين مكانه في الرياسة على المباشرين والكتبة، وبيده حل الأمور وربطُها في جميع الأقاليم المصرية، نافذ الكلمة وافر الحرمة، وتقدم في أيام الفرنسيس فكان ريس الريسا، وكذلك عند مجي الوزير والعتمانيين، وقدموه وأجلسوه لما يسديه إليهم من الهدايا والرغايب، حتى كانوا يسمونه جرجس أفندي، ورأيته يجلس بجانب محمد باشا خسرو وبجانب شريف أفندي الدفتردار، ويشرب بحضرتهم الدخان وغيره، ويراعون جانبه ويشاورونه في الأمور.

وكان عظيم النفس ويعطي العطايا ويفرق على جميع الأعيان عند قدوم شهر رمضان الشموع العسلية والسكر والأرز والكساوي والبن، ويعطي ويهب وبنى عدة بيوت بحارة الونديك والأزبكية، وأنشأ دارًا كبيرة، وهي التي يسكنها الدفتردار الآن، ويعمل فيها الباشا وابنه الدواوين عند قنطرة الدكة، وكان يقف على أبوابه الحجاب والخدم.

ولم يزل على حالته حتى ظهر المعلم غالي وتداخل في هذا الباشا، وفتح له الأبواب لأخذ الأموال والمترجم يدافع في ذلك، وإذا طلب الباشا طلبًا واسعًا من المعلم جرجس يقول له: هذا لا يتيسر تحصيله، فيأتي المعلم غالي فيسهل له الأمور ويفتح له أبواب التحصيل، فضاق خناق المترجم وخاف على نفسه فهرب إلى قبلي، ثم حضر بأمان كما تقدم، وانحط قدره ولازمته الأمراض حتى مات في أواخر شعبان وانقضى، وخلا الجو للمعلم غالي وتعين بالتقدم، ووافق الباشا في أغراضه الكلية والجزئية، وكل شي له بداية وله نهاية، والله أعلم.

واستهلت سنة ست وعشرين ومايتين وألف (سنة ١٨١١م)

فكان أول المحرم يوم السبت، فيه أظهر الباشا الاهتمام بأمر الحجاز والتجهيز للسفر، وركب في ليلة الجمعة سابعه إلى السويس، وسافر صحبته السيد محمد المحروقي وقام باحتياجاته ولوازمه، فلما وصل إلى السويس حجز الدواب والسفن التي بالأساكل وحوزها، واستولى على البن الذي وجده ببندر السويس للتجار، فلما وصل خبر ذلك إلى مصر فغلا سعر البن وزاد حتى وصل إلى خمسين ريالًا فرانسة بعد أن كان بستة وتلاتين عنها اثنا عشر ألف فضة وخمسماية نصف فضة.

واستهل شهر صفر الخير بيوم الأحد (سنة ١٢٢٦)

في تانيه يوم الاتنين حضر الباشا من السويس إلى مصر في سادس ساعة من الليل، فضربوا في صبحها عدة مدافع لحضوره، وقد حضر على هجين بمفرده، ولم يصحبه إلا رجل بدوي على هجين أيضًا ليدله على الطريق، وقطع المسافة في إحدى عشرة ساعة، وحضر من كان بصحبته في تاني يوم، وهم مجدون السفر.

وحضر السيد محمد المحروقي بحمولة في اليوم التالت، وأخبروا أن الباشا أنزل من ساحة السويس خمسة مراكب من المراكب التي أنشاها باحتياجاتها ولوازمها وعساكرها، ووجههم إلى ناحية اليمن ليقبضوا على ما يجدونه من المراكب، وأن الصناع مجتهدون في العمل في مراكب كبار لحمل الخيول والعساكر واللوازم.

وفيه حضر صالح أغا قوج حاكم أسيوط، وتناقلت الأخبار عن الأمرا المصريين القبليين بأنهم حضروا إلى الطينة، ورجعوا إلى ناحية قنا وقوص، وخرج إليهم أحمد أغا لاظ وتحارب معهم، وقتل من عساكره عدة وافرة.

وفيه قلد الباشا ابنه طوسون باشا صاري عسكر الركب الموجه إلى الحجاز، وأخرجوا جاليشهم إلى ناحية قبة العزب، ونصبوا عرضيًّا وخيامًا وأظهر الباشا الاجتهاد الزايد والعجلة وعدم التواني، ونوه بتسفير عساكر لناحية الشام لتمليك يوسف باشا لمحله، وصاري عسكرهم شاهين بك الألفي، ونحو ذلك من الإيهامات، وطلب من المنجمين أن يختاروا وقتًا صالحًا لإلباس ابنه خلعة السفر، فاختاروا له الساعة الرابعة من يوم الجمعة، فلما كان يوم الخميس رابعه طاف ألاي جاويش بالأسواق على صورة الهيئة القديمة في المناداة على المواكب العظيمة، وهو لابس الضُّلمة والطبق على راسه وراكب حمارًا عاليًا، وأمامه مقدم بعكاز، وحوله قابجية ينادون بقولهم: «يارن ألاي» ويكررون ذلك في أخطاط المدينة، وطافوا بأوراق التنابيه على كبار العسكر والبينباشيات والأمرا المصرية الألفية وغيرهم، يطلبونهم للحضور في باكر النهار إلى القلعة، ليركب الجميع بتجملاتهم وزينتهم أمام الموكب.

ذكر مقتل الأمرا المصريين وأتباعهم (مذبحة القلعة)

فلما أصبح يوم الجمعة سادسه ركب الجميع وطلعوا إلى القلعة، وطلع المصرية بمماليكهم وأتباعهم وأجنادهم، فدخل الأمرا عند الباشا وصبحوا عليه وجلسوا معه حصة وشربوا القهوة وتضاحك معهم، ثم انجر الموكب على الوضع الذي رتبوه فانجر طايفة الدلاة وأميرهم المسمى أزون أوغلي، ومن خلفهم الوالي والمحتسب والوجاقلية والألداشات المصرية ومن تزيا بزيهم، ومن خلفهم طوايف العسكر الرجالة والخيالة والبيكباشيات وأرباب المناصب منهم، وإبراهيم أغا أغات الباب، وسليمان بك البواب يذهب ويجي ويرتب الموكب.

وكان الباشا قد بيت مع حسن باشا وصالح قوج والكتخدا فقط غدر المصرية وقتلهم، وأسر بذلك في صبحها إبراهيم أغا أغات الباب، فلما انجر الموكب وفرغ طايفة الدلاة ومَن خلفهم مِن الوجاقلية والألداشات المصرية وانفصلوا من باب العزب، فعند ذلك أمر صالح قوج بغلق الباب، وعرَّف طايفته بالمراد فالتفتوا ضاربين بالمصرية، وقد انحصروا بأجمعهم في المضيق المنحدر الحجر المقطوع في أعلى باب العزب مسافة ما

بين الباب الأعلى الذي يتوصل منه إلى رحبة سوق القلعة إلى الباب الأسفل، وقد أعدوا عدة من العساكر أوقفوهم على علاوي النقر الحجر والحيطان التي به، فلما حصل الضرب التحتانيين أراد الأمرا الرجوع القهقرى، فلم يمكنهم ذلك لانتظام الخيول في مضيق النقر، وأخذهم ضرب البنادق والقرابين من خلفهم أيضًا، وعلم العسكر الواقفون بالأعالي المراد فضربوا أيضًا، فلما نظروا ما حل بها سقط في أيديهم وارتبكوا في أنفسهم وتحيروا في أمرهم، ووقع منهم أشخاص كثيرة فنزلوا عن الخيول، واقتحم شاهين بك وسليمان بك البواب وآخرون في عدة من مماليكهم راجعين إلى فوق والرصاص نازل عليهم من كل ناحية، ونزعوا ما كان عليهم من الفراوي والثياب الثقيلة، ولم يزالوا سايرين وشاهرين سيوفهم حتى وصلوا إلى الرحبة الوسطى المواجهة لقاعة الأعمدة، وقد سقط أكثرهم.

وأصيب شاهين بك وسقط إلى الأرض فقطعوا راسه وأسرعوا بها إلى الباشا ليأخذوا عليها البقشيش، وكان الباشا عندما ساروا بالموكب ركب من ديوان السراية وذهب إلى البيت الذي به الحريم، وهو بيت إسماعيل أفندي الضربخانة.

وأما سليمان بك البواب فهرب من حلاوة الروح وصعد إلى حايط البرج الكبير، فتابعوه بالضرب حتى سقط وقطعوا راسه أيضًا، وهرب كثير إلى بيت طوسون باشا يظن الالتجا به والاحتما فيه، فقتلوهم وأسرف العسكر في قتل المصريين وسلب ما عليهم من الثياب ولم يرحموا أحدًا، وأظهروا كامن حقدهم وضَبَّعوا فيهم وفيمن رافقهم متجملًا معهم من أولاد الناس وأهالي البلد الذين تزيوا بزيهم لزينة الموكب وهم يصرخون ويستغيثون، ومنهم من يقول: أنا لست جنديًّا ولا مملوكًا، وآخر يقول: أنا لست من قبيلتهم، فلم يَرِقُّوا لصارخ ولا شاكٍ ولا مستغيث، وتتبعوا المتشتتين والهربانين في نواحي القلعة وزواياها، والذين فروا ودخلوا في البيوت والأماكن.

وقبضوا على من أمسك حيًّا ولم يمت من الرصاص أو متخلفًا عن الموكب وجالسًا مع الكتخدا، كأحمد بك الكيلارجي ويحيى بك الألفي وعلي كاشف الكبير، فسلبوا ثيابهم وجمعوهم إلى السجن تحت مجلس كتخدا بك.

ثم أحضروا أيضًا المشاعلي لرمي أعناقهم في حوش الديوان واحدًا بعد واحد، من ضحوة النهار إلى أن مضى حصة من الليل في المشاعل، حتى امتلأ الحوش من القتلى.

ومن مات من المشاهير المعروفين وانصرع في طريق القلعة قطعوا راسه وسحبوا جثته إلى باقي الجثث، حتى إنهم ربطوا في رجلَي شاهين بك ويديه حبالًا وسحبوه على الأرض مثل الحمار الميت إلى حوش الديوان؛ هذا ما حصل بالقلعة.

وأما أسفل المدينة، فإنه عندما أغلق باب القلعة وسمع من بالرميلة الرصاص، وقعت الكرشة في الناس، وهرب من كان واقفًا بالرميلة من الأجناد في انتظار الموكب، وكذلك المتفرجون، واتصلت الكرشة بأسواق المدينة فانزعجوا، وهرب من كان بالحوانيت لانتظار الفرجة، وأغلق الناس حوانيتهم، وليس لأحد علم بما حصل، وظنوا ظنونًا.

وعندما تحقق العسكر حصول الواقعة وقتل الأمرا انبثوا كالجراد المنتشر إلى بيوت الأمرا المصريين ومن جاورهم طالبين النهب والغنيمة، فولجوها بغتة ونهبوها نهبًا ذريعًا، وهتكوا الحراير والحريم، وسحبوا النسا والجواري والخوندات والستات، وسلبوا ما عليهن من الحلي والجواهر والثياب، وأظهروا الكامن في نفوسهم، ولم يجدوا مانعًا ولا رادعًا، وبعضهم قبض على يد امرأة ليأخذ منها السوار فلم يتمكن من نزعها بسرعة فقطع يد المرأة.

وحل بالناس في بقية ذلك اليوم من الفزع والخوف وتوقع المكروه ما لا يوصف؛ لأن المماليك والأجناد تداخلوا وسكنوا في جميع الحارات والنواحي، وكل أمير له دار كبيرة فيها عياله وأتباعه ومماليكه وخيوله وجِماله، وله دار وداران صغار في داخل العطف ونواحي الأزهر والمشهد الحسيني، يوزعون فيها ما يخافون عليه لظنهم بُعدها وحمايتها بحرمة الخطة، وصونها عند وقوع الحوادث، وكثير من كبار العسكر مجاورون لهم في جميع النواحي، ويرمقون أحوالهم ويطلعون على أكثر حركاتهم وسكناتهم، ويتدخلون فيهم ويعاشرونهم ويسامرونهم بالليل، ويُظهرون لهم الصداقة والمحبة، وقلوبهم محشوة من الحقد عليهم والكراهة لهم، بل والجميع أبناء العرب.

فلما حصلت هذه الحادثة بادروا لتحصيل مأمولهم، وأظهروا ما كان مخفيًّا في صدورهم، وخصوصًا من التشفي في النسا، فإن العظيم منهم كان إذا خطب أدنى امرأة ليتزوج بها فلا ترضى به وتعافه وتأنف قربه، وإن ألح عليها استجارت بمن يحميها منه، وإلا هربت من بيتها واختفت شهورًا، وذلك بخلاف ما إذا خطبها أسفل شخص من جنس المماليك أجابته في الحال.

واتفق أنه لما اصطلح الباشا مع الألفية وطلبوا البيوت، ظهر كثير من النسا المستترات المخفيات، وتنافسوا في زواجهم وعملوا لهم الكساوي وقدموا لهم التقادم، وصرفوا عليهم لوازم البيوت التي تلزم الأزواج لزوجاتهم، كل ذلك بمرأى من الأتراك يحقدونه في قلوبهم.

وفيهم من حمى جاره وصان دياره ومانع أعلاهم أدناهم، وقليل ما هم، وذلك لغرض يبتغيه وأمْر يرتجيه، فإنه بعد ارتفاع النهب كانوا يقبضون عليهم من البيوت، فيستولي الذي حماه ودافع عنه على داره وما فيها، وانتهبت دور كثيرة من المجاورين لهم أو لدور أتباعهم بأدنى شبهة وبغير شبهة، أو يدخلون بحجة التفتيش ويقولون: عندكم مملوك، أو سمعنا أن عندكم وديعة لمملوك، وبات الناس وأصبحوا على ذلك.

ونهب في هذه الحادثة من الأموال والأمتعة ما لا يقدِّر قدره ويحصيه إلا الله — سبحانه وتعالى — ونهبت دور كثيرة من دور الأعيان الذين ليسوا من الأمرا المقصودين، ومن المتقيدين بخدمة الباشا مثل ذي الفقار كتخدا المتولي خوليًّا على بساتين الباشا، التي أنشاها بشبرا، وبيت الأمير عثمان أغا الورداني، ومصطفى كاشف المورلي، والأفندية الكتبة وغيرهم، وأصبح يوم السبت والنهب والقتل والقبض على المتوارين والمختفين مستمر، ويدل البعض على البعض أو يغمز عليه.

وركب الباشا في الضحوة ونزل من القلعة وحوله أمراه الكبار مشاة، وأمامه الصفاشية والجاويشية بزينتهم وملابسهم الفاخرة، والجميع مشاة ليس فيهم راكب سواه، وهم محدقون به وأمامه، وخلفه عدة وافرة، والفرح والسرور بقتل المصريين والظفر بهم طافح من وجوههم.

فكان كلما مر على أرباب الدرك والقلقات والضابطين، وقف عليهم ووبخهم على النهب وعدم منعهم لذلك، والحال أنهم هم الذين كانوا ينهبون أولًا ويتبعهم غيرهم، فمر على العقادين الرومي والشواين فخرج إليه شخص من تجار المغاربة يسمى العربي الحلو، وصرخ في وجهه وهو يقول: إيش هذا الحال وإيش لنا علاقة حتى ينهبنا العسكر، ونحن ناس فقرا مغاربة متسببون، ولسنا مماليك ولا أجناد، فوقف إليه وأرسل معه نفرًا إلى داره، فوجدوا بها شخصين أحدهما تركي والآخر بلدي، وهما يلتقطان آخر النهب وما سقط من النهابين، فأمر بقتلهما فأخذوهما إلى باب الخرق وقطعوا روسهما.

ثم إنه عطف على جهة الكعكيين فلاقاه من أخبره بأن المشايخ مجتمعون ونيتهم الركوب لملاقاته والسلام عليه والتهنية بالظفر، فقال: أنا أذهب إليهم، ولم يزل في سيره حتى دخل إلى بيت الشيخ الشرقاوي، وجلس عنده ساعة لطيفة.

وكان قد التجا إلى الشيخ شخصان من الكشاف المصرية، فكلمه في شأنهما وترجى عنده في إعتاقهما من القتل، وأن يؤمنهما على أنفسهما، وقال له: لا تفضح شيبتي يا

ولدي واقبل شفاعتي، وأعطهما محرمة الأمان؛ فأجابه إلى ذلك، وقال له: شفاعتك مقبولة ولكن نحن لا نعطي محارم، وأنا أماني بالقول أو نكتب ورقة ونرسلها إليك بالأمان، فاطمأن الشيخ لذلك ثم قام الباشا وركب وطلع إلى القلعة، وأرسل ورقة إلى الشيخ بطلبهما فقال لهما الشيخ: إن الباشا أرسل هذه الورقة يؤمنكما ويطلبكما إليه، فقالا: وما يفعل بذهابنا إليه؟ فلا شك في أنه يقتلنا، فقال الشيخ: لا يصلح ذلك ولا يكون، كيف أنه يأخذكم من بيتي ويقتلكم بعد أن قبل شفاعتي؟ فذهبا مع الرسول، فعندما وصلا إلى الحوش وهو مملو بالقتلى، وضرب الرقاب واقع في المحبوسين والمحضرين قبضوا عليهما وأدرجا في ضمنهم.

وفي ذلك اليوم نزل طوسون ابن الباشا وقت نزول أبيه، وشق المدينة وقتل شخصًا من النهابين أيضًا فارتفع النهب وانكف العسكر عن ذلك، ولولا نزول الباشا وابنه في صبح ذلك اليوم لنهب العسكر بقية المدينة، وحصل منهم غاية الضرر.

وأما القبض على الأجناد والمماليك فمستمر، وكذلك كل من كان يشبههم في الملبس والزي، وأكثر من كان يقبض عليهم عساكر حسن باشا الأرنؤدي، فيكبسون عليهم في الدور أو في الأماكن التي توارَوْا فيها واستدلوا عليهم، فيقبضون على من يقبضون عليه، وينهبون من الأماكن ما يمكنهم حمله وثياب النسا وحليهن، ويسحبون الواحد والاتنين أو أكثر بينهم ويأخذون عمايمهم وثيابهم وما في جيوبهم في أثنا الطريق، وإذا كان كبيرًا أو أميرًا يُستحيى منه طلبوه بالرفق، فإذا ظهر لهم قالوا له: سيدنا حسن باشا يستدعيك إليه فلا تخشَ من شي ويطمين قليلًا، ويظن أنهم يحيرونه، وعلى أي حال لا يسعه إلا الإجابة؛ لأنه إن امتنع أخذوه قهرًا، فإذا خرج من الدار استصحبه جماعة منهم، وطلع البواقي إلى الدار فأخذوا ما قدروا عليه ولحقوا بهم وجرى على المأخوذ ما يجري على أمثاله من المأخوذين.

والبعض توارى والتجا إلى طايفة الدلاة، وتزيا بشكلهم ولبس له طرطورًا، وأجاروه وهرب كثير في ذلك اليوم، وخرجوا إلى قبلي وبعضهم تزيا بزي نسا الفلاحين، وخرج في ضمن الفلاحات اللاتي يبعن الجلة والجبنة، وذهبوا في ضمنهم وفر من نجا منهم إلى الشام وغيرها.

وأما كتخدا بك فإنه لشدة بغضه فيهم صار لا يرحم منهم أحدًا؛ فكان كل من أحضروه ولو فقيرًا هرمًا من مماليك الأمرا الأقدمين يأمر بضرب عنقه، وأرسل أوراقًا إلى كُشاف النواحي والأقاليم بقتل كل من وجدوه بالقرى والبلدان، فوردت الروس في

تاني يوم من النواحي فيضعونها بالرميلة، وعلى مصطبة السبيل المواجه لباب زويلة، وكان كثير من الأجناد بالأرياف لتحصيل الفرض التي تعهدوا بدفعها عن فلاحيهم، وانقضت أجلتهم وطولبوا بالدفع، والفلاحون قصرت أيديهم ولم يقبلوا للملتزمين عُذرًا في التأخير، فلم يسعهم إلا الذهاب بأنفسهم لأجل خلاص المطلوب منهم للديوان، فعندما وصلت الأوامر إلى كشاف الأقاليم بقتل الكاينين بالبلاد بادروا بقتل من يمكنهم قتله، ومَنْ بَعُد عنهم أرسلوا لهم العساكر في محلاتهم، فيدهمونهم على حين غفلة ويقتلونهم وينهبون متاعهم، وما جمعوه من المال ويرسلون بروسهم، أو يتحيلون على القبض عليهم وقتلهم، فصار يصل في كل يوم العدد من الروس من قبلي وبحري، ويضعونها على باب زويلة وباب القلعة، ولم يقبلوا شفاعة في أحد أبدًا، ويعطون الأمان للبعض فإذا حضروا قبضوا عليهم وشلحوهم ثيابهم وقتلوهم.

والباشا يعلم من كتخداه شدة الكراهة لجنس المماليك، ففوَّض له الأمر فيهم حتى إنه كان بينه وبين محمد أغا كتخدا الجاويشية سابقًا بعض منافرة من مدة سابقة؛ أو لكونه صاهر بعض الألفية وزوَّجه ابنته، وكان غايبًا ببلدة يقال لها الفرعونية جارية في إقطاعه تعهد بما عليها من الفرضة، فذهب إليها بنفسه ليستخلص منها الفرضة والمال الميري، فأرسل الكتخدا بك إلى كاشف المنوفية قبل الحادث بيوم يأمره فيه بأمره، فأرسل إليه طايفة من العسكر دخلوا عليه في الفجرية، وهو يتوضا لصلاة الصبح، فقتلوه وقطعوا راسه وأحضروها إلى مصر.

وكانوا يأتون بأشخاص من بقايا البيوت القديمة فيمثلونهم بين يدي الكتخدا، فيسألهم فيخبرون عن أنفسهم ونسبتهم، فيكذبهم ويأمر بهم إلى الحبس الأعلى حتى يتبين أمرُهم فإما تدركهم الألطاف فينجون بعد معاينة الموت، وهذا في النادر.

فقتل في هذه الحادثة أكثر من ألف إنسان أُمرا وأجناد وكشاف ومماليك، ثم صاروا يحملون رممهم على الأخشاب ويرمونهم عند المغسل بالرميلة، ثم يرفعونهم ويلقونهم في حفر من الأرض فوق بعضهم البعض لا يتميز الأمير عن غيره، وسلخوا عدة روس من روس العظما، وألقوا الجماجم المسلوخة على الرِّمم في تلك الحفر، فكانت هذه الكاينة من أشنع الحوادث التي لم يتفق مثلها.

ولم ينج من الألفية إلا أحمد بك زوج عديلة هانم بنت إبراهيم بك الكبير، فإنه كان غايبًا بناحية بوش، وأمين بك تسلق من القلعة وهرب إلى ناحية الشام، وعمر بك إيضا الألفي كان مسافرًا في ذلك اليوم إلى الفيوم فقتلوه هناك وبعثوا راسه بعد خمسة أيام،

ومعها نحو الخمسة عشر راسًا، وأرسل دبوس أوغلي حاكم المنية خمسة وتلاتين راسًا، وحضر من ناحية بحري غير ذلك كثير.

وأما من قُتل في ذلك اليوم ممن له ذكر وبلغني خبره، فهم: شاهين بك كبير الألفية، ويحيى بك، ونعمان بك، وحسين بك الصغير، ومصطفى بك الصغير، ومراد بك، وعلي بك؛ هولا من الألفية، ومن غيرهم أحمد بك الكلارجي، ويوسف بك أبو دياب، وحسن بك صالح، ومرزوق بك ابن إبراهيم بك الكبير، وسليمان بك البواب، وأحمد بك تابعه، ورشوان بك وإبراهيم بك تابعاه، وقاسم بك تابع مراد بك الكبير، وسليم بك الدمرجي، ورستم بك الشرقاوي، ومصطفى بك أيوب، ومصطفى بك تابع عثمان بك حسن، وعثمان بك إبراهيم، وذو الفقار تابع جوجو، وهو رجل كبير من الأقدمين البطالين هرب هو ومصطفى بك الجداوي وآخر عند صالح بك السلحدار، والتجوا إليه وطمنهم، وأرسل بخبرهم فحضر الأمر بقطع روسهم، فأحضر المشاعلي وقطع روسهم في مقعده وأرسلها.

ومن الأمرا الكشاف الألفية، فهم: علي كاشف الخازندار، وعثمان كاشف الحبشي، ويحيى كاشف، ومرزوق كاشف، وعبد العزيز كاشف، ورشوان كاشف، وسليم كاشف ططر، وقايد كاشف، وجعفر كاشف، وعثمان كاشف، ومحمد كاشف أبو قطية، وأحمد كاشف الفلاح، وأحمد كاشف صهر محمد أغا، وخليل كاشف، وعلي كاشف قيطاس، وأحمد كاشف، وموسى كاشف، وغير ذلك ممن لم يحضرني أسماهم وهم كثيرون، وختم الله للجميع بالخير؛ فإنه بلغني ممن عاينهم بالحبوس، وفي حال القتل، أنهم كانوا يقرون القرآن وينطقون بالشهادتين والاستغفار، وبعضهم طلب ماءً وتوضا وصلى ركعتين قبل أن يُرمى عنقه، ومن لم يجد ماءً تيمم؛ ولاشتغال أهل المقتولين بأنفسهم وما حصل لهم من النهب والسلب والتشتيت عن أوطانهم لم يعوا ولم يسألوا عن موتاهم غير أم مرزوق بك ابن إبراهيم بك الكبير، فإنها وجدت عليه وجدًا عظيمًا وطلبته في القتلى، فعرفوا جثته بعلامة فيه وجمجمته بكونه كان كريم العين، فأخرجوه وكفنوه ودفنوه في تربتهم، وذلك بعد مضي يومين من الحادثة، واجتمع عندها الكثير من أهل المقتولين ونساهم، وأقاموا على ذلك شهورًا.

وفي الحادثة أرسل محرم بك صهر الباشا حاكم الجيزة، فجمع مال المصرية بإقليم الجيزة الربيع من الخيول والجِمال والهجن وغيرها، فكان شيًّا كثيرًا.

وفي تامنه نودي على نسا المقتولين بالأمان، وأن يحضرن إلى بيوتهن ويسكنَّ فيها مع كونها صارت بلاقع، فرجع البعض — وهن اللاتي لم يحصل لهن كثير الضرر —

وبقي البعض في اختفاه وأنعم الباشا على خواصه بالبيوت بما فيها، فنزلوها وسكنوها وألبسوا النسا الخواتم، وجددوا الفرش والأواني، وغالبها من المنهوبات.

وأنعم ببيت شاهين بك على حسين أغا من أقاربه، ولم يحصل به ما حصل بغيره لكونه ملاصقًا لبيت طاهر باشا، وأرسل الباشا طايفةً من العسكر جلسوا على بابه.

وأما أحمد بك الألفي، فإنه وصله النذير فانتقل من بوش وذهب عند الأمرا القبالي، ولما وصلتهم أخبار هذه الحادثة وبلغ إبراهيم بك موت ولده على هذه الصورة، أقاموا العزا على إخوانهم ولبسوا السواد.

وفي تاني يوم الوقعة حضر أحد الكشاف رسولًا من عند الأمرا القبليين يطلبون العفو من الباشا، وأن يعطيهم جهة يتعيشون منها، فوعده برد الجواب في غير الوقت، فأهمله وما أدري ما تم له.

وفيه قلد الباشا مصطفى بك ابن أخته وجعله كبيرًا على طايفة الدلاة، وكان أحضره من ناحية الشرقية ليذهب إلى قبلي، وأقام بدله في كشوفية الشرقية علي كاشف ابن أحمد كتخدا من المصرلية.

وفي تامن عشره عدى مصطفى بك المذكور إلى بر الجيزة ليسافر إلى قبلي، ونصب وطاقه بحري القصر، وعدى أيضًا الباشا وأقام بالقصر، وشرع عسكره الدلاة في التعدية ليلًا ونهارًا.

وفيه أيضًا خرج عدة من عسكر الدلاة نحو الخمسماية نفر إلى ناحية قبة العزب ليسافروا إلى بلادهم، فاستمروا في قضا أشغالهم أيامًا ثم سافروا.

وفي يوم الاتنين تالت عشرينه ارتحل مصطفى بك، وانتقل إلى ناحية الشيخ عثمان مسافرًا إلى قبلي، وعدى باشا راجعًا إلى مصر.

وفيه حضر ططريان من الروم يبشران بالعفو عن يوسف باشا المنفصل عن الشام، وقُبل فيه ترجي باشة مصر وشفاعته.

وفي يوم الأربع خامس عشرينه أحضروا من ناحية قبلي أربعة وستين شخصًا، وأكثرهم من الذين كانوا مستوطنين بالبلاد من بقايا البيوت القديمة السنين العديدة ومحترفين، فلما أحضروهم إلى مصر القديمة أبقوهم إلى الليل في محبس، ثم أوقدوا المشاعل بساحل البحر وقطعوا روسهم ورموا بجثثهم إلى البحر، وأتوا بالروس فوضعوها تجاه باب زويلة ليراها الناس كما رأوا غيرها.

واستهل شهر ربيع الأول بيوم الثلاث (سنة ١٢٢٦)

وفي يوم الأحد سادسه عمل الباشا لابنه طوسون باشا موكبًا عظيمًا، ونبهوا في ليلتها على اجتماع العسكر في صبحها، ونزل هو إلى جامع الغورية ليتفرج على الموكب وصحبته حسن باشا، واستعد لذلك السيد المحروقي وفرش له بالجامع المذكور فروشًا ومراتب ووسايد، فمر الموكب وفي أوله طايفة الدلاة، فلما فرغوا مروا بعشرة مدافع كبار على عربيات وعربيتين تحملان هونين قنابر، وخلفهم طوايف العسكر الرَّجَّالة أرنؤد وأتراك وسجمان، وهم كثيرون مختلطون من غير ترتيب مدة طويلة، ثم كبارهم ركبانًا بطوايفهم، ثم الوالي والمحتسب وأغات مستحفظان، ثم طوايف صاحب الموكب وجنايبه، وكذا هجنه ثم الجاويشية والسعاة والملازمون ثم طوسون باشا وخلفه أتباعه وأغواته، ثم الكتخدا وهو محمد كتخدا المعروف بالبرديسي، وهو الذي كان كتخدا الألفي، وصحبته الخازندار وخلفهم النوبة التركية.

ولما انقضى أمر الموكب دعاه المحروقي إلى منزله، فنزل معه من باب السر الذي بالجامع المعروف بالغوري وصحبته حسن باشا، وتوجهوا إلى بيت المحروقي وتغدى عنده هو وأتباعه وخواصه، وأحضر له آلات الطرب واستمر هناك إلى آخر النهار في حظ وكيف، وقدم له المحروقي تعابي هدية ثم ركب عايدًا إلى محله.

وفي يوم الاثنين رابع عشره نزل الباشا إلى ترعة الفرعونية للاهتمام بسدها، ونقل الأحجار في المراكب مستمر، فأقام عند السد أربع ليالٍ وذهب إلى إسكندرية عندما أتته الأخبار بورود مراكب الإنكليز لأجل مشتري الغلال، فذهب ليبيع عليهم الغلال التي جمعها، فباع عليهم كل أردب بماية قرش رومي عنها أربعة آلاف فضة أو أكثر، واجتهد ببنا أسوار إسكندرية، وجدد بها أبراجًا وحصونًا، وأرسل بطلب البنايين والصناع، فجمعوهم من كل ناحية وطالت غيبته هناك وإقامته لتتميم أغراضه، وأمن مشايخ عربان أولاد على المستولين على البحيرة وتحيل عليهم، فلما حضروا إليه قبض عليهم وقرر عليهم أموالًا عظيمة، ثم خلع عليهم وعوَّقهم وأرسل العساكر فنهبت نجوعهم، وسبوا نساهم وأولادهم ومواشيهم.

وأما كتخدا بك فإنه بمصر يقرر الفرض على البلاد هو والكتبة حسب أوامر مخدومه، ونظموا كيفية أخرى وهي أنهم جمعوا الميري والمضاف والفايظ والرزق إيراد أربع سنوات، وكتبوا بها مراسيم بنصف المقرر ليقبض في دفعتين، وبعد أن تقرر النصف الأول وتحصل منه ما تحصل، وبقي الباقي مع النصف الآخر يطلب من أربابه،

ولا بد لا مسامحة في شي منه، ومن تكفل بما تقرر على حصته وألزم نفسه بدفعه وكتب على نفسه وثيقة لأجَل، طولب به حتى قبل حلول الأجل لاحتياج المهمات، فتوجه عليه الحوالات بيد العساكر فينزلون بداره، ويلازمونها ويضيقون أنفاسه ويكلفونه ما لا يطيق، فلا يجد ملجا ولا خلاصًا إلا بأحد الشيئين: إما الدفع بأي وجه كان، وإما ينزل عن حصته بالفراغ للديوان ولا يبقى بيده ما يتقوت به هو وعياله، ويصبح فقيرًا لا يملك شيًّا إن لم يكن له إيراد من جهة أخرى.

واستهل شهر ربيع التاني (سنة ١٢٢٦)

والكتخدا يتنوع في استجلاب الأموال ويتحيل في استخراجها بأنواع من الحيل، فمنها أنه يرسل إلى أهل حرفة من الحرف، ويأمرهم ببيع بضاعتهم بنصف ثمنها، ويُظهر أنه يريد الشفقة والرأفة بالناس، ويرخص لهم في أسعار المبيعات، وأن أرباب الحرف تعدوا الحدود في غلا الأسعار، فيجتمع أهل الحرفة ويضجون، ويأتون بدفاترهم وبيان رأس مالهم وما ينضاف إليه من غلو جزئيات تلك البضاعة، وما استحدث عليها من الجمارك والمكوس، وغلو الأجر في البحر والبر، فلا يستمع لقولهم ولا يقبل لهم عذرًا أو يأمر بهم إلى الحبس، فعند ذلك يطلبون الخلاص ويصالحون على أنفسهم بقدر من المال يدفعونه، ويوزعون ذلك على أفرادهم فيما بينهم، ثم يزيدون في سعر تلك البضاعة ليعوضوا غرامتهم من الناس معتذرين بتلك الغرامة وما حل بهم من الخسارة، ثم تستمر الزيادة على الدوام — وأظن استمرار الغرامة أيضًا — فجمع بهذه الكيفية أموالًا عظيمة، وهي في الحقيقة سلب أموال الناس من الأغنيا والفقرا.

وفي أواخره حضر الباشا من إسكندرية على حين غفلة فبات بقصر شبرا، ثم حضر إلى بيت الأزبكية فأقام به يومين ثم طلع إلى القلعة.

وفيه وصلت عساكر كثيرة من الأرنؤد والأتراك حتى غصت بهم المدينة، فلا يكاد المارة يقع بصره إلا عليهم أمام وخلف وبداخل الأزقة والعطف، وذلك خلاف الذين أقرهم وأبقاهم في إسكندرية ومن هو بالجهات والأقاليم القبلية والبحرية، ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾.

وفيه اهتم الباشا بتشهيل العرضي اهتمامًا زايدًا، وفرض على البلاد جمالًا وأتبانًا وغلالًا.

واستهل شهر جمادى الأولى (سنة ١٢٢٦)

وفيه ورد قاصد من الديار الرومية وعلى يده بشارة بأنه وُلد للسلطان مولودة أنثى، فعملوا لها شنكًا وهي مدافع تضرب من أبراج القلعة في الأوقات الخمسة تلاتة أيام، وفيه فرضوا فرضة بغال على مياسير الناس وأهل الحرف بغلة وبغلتين وثلاثة، والذي لم يكن عنده بغلة يلزم بالشرا أو أنه يدفع ثمنها كيسًا عشرون ألف فضة.

وفيه انقطع الوارد من الديار الحجازية، وغلا سعر البن حتى وصل إلى مايتين وسبعين نصف فضة كل رطل، وقل وجوده من الأسواق والدكاكين، فلا يوجد إلا مع المشقة، وصنع الناس القهوة من أنواع الحبوب المحمصة، كالشعير والقمح والفول وبزر العاقول وغيره مخلوطًا مع البن وبغير خلط.

واستهل شهر جمادى التانية (سنة ١٢٢٦)

في عشرينه خرج الباشا إلى البركة وطلب الجمال وقوافل العرب، وشهل طايفة من العسكر للسفر إلى السويس، فاهتموا بالدخول والخروج من المدينة وطفقوا يخطفون الحمير والبغال والجمال، وكل ما صادفوه من الدواب، ومن وجدوه راكبًا ولو من وُجَها الناس أنزلوه عن دابته وركبوها، فانقبض الناس وانكمش غالبهم عن الركوب لمصالحهم، وأخفوا حميرهم وبغالهم وأقام الباشا تلاتة أيام جهة البركة ثم ركب إلى السويس.

وفيه وردت مراكب وداوات وفيها البن، وذلك باستدعا الباشا لها من ناحية جدة واليمن لأجل حمل العساكر واللوازم وانحل سعر البن قليلًا.

واستهل شهر رجب (سنة ١٢٢٦)

في تاني عشرينه يوم الاتنين الموافق لسابع مسرى القبطي أوفى النيل أذرعه، وكسر السد في صبحها يوم التلات بحضرة كتخدا بك والباشا غايب بالسويس.

واستهل شهر شعبان (سنة ١٢٢٦)

في تانيه سافر ديوان أفندي بمن بقي من العساكر البحرية.

وفي يوم التلات تامنه حضر الباشا من السويس، وشرع في تشهيل العساكر البرية.

وفي خامس عشره خرج الباشا إلى العادلية واجتهد في تشهيل سفر العساكر البرية اجتهادًا كبيرًا، وجمع من أهل كل حرفة طايفة، وكذلك من أهل كل صنعة، والذي يعجز

عن السفر يخرج عنه بدلًا، وتعين من الفُقها للسفر الشيخ محمد المهدي من الشافعية، ومن الحنفية السيد أحمد الطهطاوي، وشيخ حنبلي وصل من ناحية الشام، وكانوا رسموا بإحضار السيد حسن كريت المالكي من رشيد، والشيخ علي خفاجي من دمياط، فحضرا واعتذرا فأُعفيا من السفر ورجعا إلى بلديهما.

وفي هذا الشهر ظهر نجم له ذَنَب في جهة الشمال بين بنات نعش الصغرى وبين منار بنات نعش الكبرى، رأسه جهة المغرب وذَنَبه صاعدًا إلى جهة المشرق، وله شعاع مستطيل في مقدار الرمح، واستمر يظهر في كل ليلة والناس ينظرون إليه ويتحدثون به ويسألون الفلكيين عنه، ويبحثون عن دلايله وعن الملاحم المصنفة في ذوات الأذناب، واستمر ظهوره قريبًا من ثلاثة أشهر واضمحل بعض جرمه، ومشى إلى ناحية الجنوب وقرب من النسر الطاير.

واستهل شهر رمضان بيوم الأربع (سنة ١٢٢٦)

وفي يوم الخميس تاسعه ارتحل العسكر من الحصوة ونزلوا ببركة الحج.

وفي يوم الأحد تاني عشره ارتحلوا من البركة، فكان مدة مكث العرضي من يوم خروج الموكب إلى يوم ارتحالهم من البركة قريبًا من ستة أشهر ونصف، والناس في أمر مريج في كل شي.

وفيه خرج السيد محمد المحروقي ليسافر صحبة الركب وخرج في موكب جليل؛ لأنه هو المشار إليه في رياسة الركب ولوازمه واحتياجاته وأمور العربان ومشايخها، وأوصى الباشا ولده طوسون باشا أمير العسكر بأن لا يفعل شيًّا من الأشيا إلا بمشورته واطلاعه، ولا ينفذ أمرًا من الأمور إلا بعد مراجعته.

وفيه وردت الأخبار بأن العساكر البحرية ملكوا ينبع البحر ونهبوا ما كان فيه من ودايع التجار، وذلك أنه كان بمراساة الينبع عدة مراكب وداوات، والشريف غالب أمير مكة يكاتب الباشا ويراسله ويظهر له النصح والصداقة وخلوص المودة، والباشا أيضًا يراسله ويكاتبه وأرسل له السيد سلامة النجاري والسيد أحمد المنلا الترجمان المحروقي بمراسلات وجوابات مرارًا عديدة، فكانا هما السفيرين بينهما، وأيضًا الشريف في كل كتابة مع كل مرسول يعاهد الباشا ويعاقده ويواعده بنصر عساكره متى وصلت، وينافق للطرفين الذي هو العثماني والوهابي ويداهنهما، أما الوهابي فلخوفه منه وعدم

قدرته عليه، فيُظهر له الموافقة والامتثال وأنه معه على العهود التي عاهده عليها من ترك الظلم واجتناب البدع ونحو ذلك.

ويميل باطنًا للعثمانيين لكونه على طريقتهم ومذاهبهم، وتعاقد مع الباشا أنه متى وصلت عساكره قام بنصرتهم وساعدهم بكليته وجميع همته، وأرسل إلى المراكب الكاينة بمراساة الينبع بأن ينقلوا ما فيها من مال التجار وغيرهم ويودعوه قلعة الينبع تحت يد وزيره، وترك معه نحو الخمسماية مع عسكره، وأخذ المراكب فأوسقها من بضايعه وبهاره وبنه وأرسلها إلى السويس لتباع بمصر، ثم توسق بمهمات العسكر البحرية، فلما وصلت مراكب العساكر البحرية وألقت مراسيها قبالة الينبع احتاجوا إلى الماء فلم يسعفوهم بالماء، فطلع طايفة من العسكر إلى البر في طلب عين الماء، فمانعهم من عندها مرابط فقاتلوهم وطردوهم ومنعوهم عن الماء، وفي حال رجوعهم رموا عليهم من القلعة المدافع والرصاص.

والحال أن الأمر مبهم على الفريقين، فعند ذلك استعدت العساكر لمحاربة من بالقلعة، واحتاطوا بها وضربوا عليها القنابل والمدافع، وركبوا على سورها سلالم وصعدوا عليها وتسلقوا على سور القلعة من غير مبالاة بالرصاص النازل عليهم من الكاينين بالقلعة، فملكوا القلعة وقتلوا من كان بها، ولم ينجُ منهم إلا الوزير ومعه ستة أنفار خرجوا هاربين على الخيول، ونهبوا كل ما كان بالينبع من الودايع والأموال والأقمشة والبن، وسبوا النسا والبنات الكاينات بالبندر، وأخذوهن أسرى ويبيعوهن على بعضهم البعض، ووصل المبشرون بذلك في عشرينه فضربوا لذلك مدافع من القلعة كثيرة وعملوا شنكًا، وطافت المبشرون على بيوت الأعيان ليأخذوا منهم البقاشيش، وأرسلوا بتلك البشارة شخصًا معينًا كبيرًا إلى إسلامبول يبشرون أهل الدولة وسلطان الإسلام، وكان ذلك أول فتح حصل.

واستهل شهر شوال بيوم الجمعة (سنة ١٢٢٦)

وكان حقه أن يكون بيوم السبت؛ لأن الهلال لم يكن موجودًا ليلة الجمعة، ولم يره ليلة السبت إلا النادر من الناس، وكان قوسه ليلة السبت عشر درجات.

وفي سادس عشره وصلت هجانة ومكاتبات من عساكر البر يخبرون بوصولهم إلى بندر المويلح في اليوم السابع من الشهر، وكان العيد عندهم بمغاير شعيب يوم السبت.

وفيه خرجت تجريدة لتسافر إلى قبلي لمحاربة من بقي من الأمرا المصريين بناحية إبريم.

واستهل شهر ذي القعدة بيوم الأحد (سنة ١٢٢٦)

فيه وصلت حجاج مغاربة في عدة مراكب على ظهر البحر، وتلف منهم نحو ثلاثة مراكب، وحضر بعدهم بأيام الركب الطرابلسي ونزل بساحل بولاق.

وفي سادسه حضر أيضًا الركب الفاسي، وفيهم ابن سلطان الغرب مولاي إبراهيم ابن مولاي سليمان، فاعتنى الباشا بشأنه وأرسل كتخدا بك لملاقاته وقدم له تقادم، وأعدوا له منزل علي كاشف بالقرب من بيت المحروقي لينزل فيه، وتقيد بخدمته الريس حسن المحروقي وحواشيهم لمطبخه وكلف طعامه، فلما عدى طلع إلى القلعة وقابل الباشا ونزل إلى المنزل الذي أعده له، وأمامه قواسة أتراك وطرادون وأشخاص أتراك يضربون على طبلات وأمامه جميع المغاربة مشاة، ويأمرون الناس الجالسين بالحوانيت بالقيام له على أقدامهم، فأقام خمسة أيام حتى قضى أشغاله.

وفي تلك المدة تغدو إليه وتروح رسل الباشا، وأرسل له هدية وذخيرة من كل صنف: سكر وعسل وسمن ودقيق وبقسماط وأشيا أُخَر وبارود، وأعطى له ألف بندقية لضرب الرصاص، وبرز في عاشره وسافروا في تاني عشره.

وفي يوم الخميس تاسع عشره وصلت هجانة على أيديهم مكاتبات خطابًا إلى الباشا وغيره، وفيهم الخبر بأن العسكر البري اجتمع مع العسكر البحري، وأخذوا ينبع البر من غير حرب، وأن العربان أتت إليهم أفواجًا وقابلوا طوسون باشا، وكساهم وخلع عليهم ثم انقطعت الأخبار.

واستهل شهر ذي الحجة (سنة ١٢٢٦)

في منتصفه وصلت هجانة ومعهم روس قتلى ومكاتبات مورخة في منتصف شهر القعدة، مضمونها أنهم وصلوا إلى ينبع البر في حادي عشرين شوال، واجتمع هناك العسكران البري والبحري، وأنهم ملكوا قرية ابن جبارة من الوهابية — وتسمى قرية السويق — وفر ابن جبارة هاربًا، وحضرت عربان كثيرة وقابلوا ابن الباشا، وأنهم مقيمون وقت تاريخه في منزلة الينبع منتظرين وصول الذخيرة، وعاق المراكب ريح الشتا المخالف.

وأنه ورد عليهم خبر ليلة أربعة عشر شهره بأن جماعة من كبار الوهابية، حضروا بنحو سبعة آلاف خيال وفيهم عبد الله بن مسعود وعثمان المضايفي ومعهم مشاة، وقصدوا أن يدهموا العرضي على حين غفلة، فخرج إليهم شديد شيخ الحويطات ومعه

طوايفه ودلاة وعساكر، فوافاهم قبل شروق الشمس، ووقع بينهم القتال والوهابية يقولون: هاه يا مشركون.

وانجلت الحرب عن هزيمة الوهابية وغنموا منهم نحو سبعين هجينًا من الهجن الجياد محملة أدوات، وكانت الحرب بينهم مقدار ساعتين، هذا ملخص ما ذكره وفي الأجوبة التي حضرت.

وفي يوم الجمعة خامس عشرينه وصلت قافلة من السويس، وحضر فيها جاويش باشا وصحبته مكاتبات، وحضر أيضًا السيد أحمد الطهطاوي والشيخ الحنبلي وأخبروا أن العرضي ارتحل من ينبع البر في سابع عشر ذي القعدة، ووصلوا إلى منزلة الصفرا والجديدة، ونصبوا عرضيهم وخيامهم ووطاقاتهم بالقرب من الجبال، فوجدوا هناك متاريس وأحجارًا فحاربوا على أول متراس حتى أخذوه، ثم أخذوا متراسًا آخر، وصعدت العساكر إلى قلل الجبال فهالهم كثرة الجيش، وسارت الخيالة في مضيق الجبال، هذا والحرب قايمة في أعلى الجبال يومًا وليلة إلى بعد الظهيرة من يوم الأربع تالت عشر ذي القعدة، فما يشعر السفلانيون إلا والعساكر الذين في الأعالي هابطون منهزمون، فانهزموا جميعًا وولوا الأدبار، وطلبوا جميعًا الفرار وتركوا خيامهم وأحمالهم وأثقالهم، وطفقوا ينهبون ويخطفون ما خف عليهم من أمتعة ريساهم، فكان القوي منهم يأخذ متاع رفيقه الضعيف ويأخذ دابته ويركبها، وربما قتله وأخذ دابته، وساروا طالبين الوصول إلى السفاين بساحل البريك؛ لأنهم كانوا أعدوا عدة مراكب بساحل البريك من باب الاحتياط، ووقع في قلوبهم الرعب واعتقدوا أن القوم في أثرهم، والحال أنه لم يتبعهم أحد؛ لأنهم لا يذهبون خلف المدبر، ولو تبعوهم ما بقي منهم شخص واحد، فكانوا يصرخون على القطاير فتأتي إليهم القطيرة وهي لا تسع إلا القليل، فيتكاثرون ويتزاحمون على النزول فيها، فيصعد منهم الجماعة ويمنعون البواقي من إخوانهم فإن لم يمتنعوا مانعوهم بالبنادق والرصاص، حتى كانوا من شدة حرصهم وخوفهم واستعجالهم على النزول في القطاير يخوضون في البحر إلى رقابهم، وكأنما العفاريت في أثرهم تريد خطفهم.

وكثير من العسكر والخدم لما شاهدوا الازدحام على أسكلة البريك ذهبوا مشاة إلى ينبع البحر، ووقع التشتيت في الدواب والأحمال والخلايق من الخدم وغيرهم، ورجع طوسون باشا إلى ينبع البحر بعد أن تغيب يومًا عن معسكره، حتى إنهم ظنوا فقده، ورجع أيضًا المحروقي وديوان أفندي واستقروا بالينبع، وترك المحروقي خيامه بما فيها

فنزل بها طايفة من العسكر المنهزمين وهم على جهد من التعب والجوع، فوجدوا بها المآكل والحلاوات وأنواع الملبسات والكعك المصنوع بالعجمية والسكر المكرر والغريبات والخشكنانكات والمربيات وأنواع الشرابات، فوقعوا عليها أكلًا ونهبًا، ولما تحققوا أن العرب لم تتبعهم ولم تأتِ في أثرهم أقاموا على ذلك يومين، حتى استوفوا أغراضهم وشبعت بطونهم وارتاحت أبدانهم، ثم لحقوا بإخوانهم؛ فكانوا هم أثبت القوم وأعقلهم، ولو كان على غير قصد منهم.

فكان مدة إقامة العسكر والعرضي بينبع البر أربعة وعشرين يومًا.

وأما الخيالة، فإنهم اجتمعوا وساروا راجعين إلى المويلح، وقد أجهدهم التعب وعدم الذخيرة والعليق، حتى حكوا أنهم كانوا قبل الواقعة يعلقون على الجمل بنصف قدح قمح مُسَوَّس، وكانت علايفهم في كل يوم أربعماية وخمسين أردبًا.

وأما المحروقي فإن كبار العسكر قامت عليه وأسمعوه الكلام القبيح وكادوا يقتلونه، فنزل في سفينة وخلص منهم وحضر من ناحية القصير، وحضر الكثير من أتباعه وخدمه متفرقين إلى مصر.

فأما الذين ذهبوا إلى المويلح، فهم تامر كاشف وحسين بك دالي باشا وآخرون، فأقاموا هناك في انتظار إذن الباشا في رجوعهم إلى مصر أو عدم رجوعهم.

وأما صالح أغا قوج فإنه عندما نزل السفينة كر راجعًا إلى القصير، واستقل برأيه لأنه يرى في نفسه العظمة وأنه الأحق بالرياسة، ويسفه رأي المحروقي وطوسون باشا، ويقول: هولا الصغار كيف يصلحون لتدبير الحروب؟ ويصرح بمثل هذا الكلام وأزيد منه، وكان هو أول منهزم، وعلم كل ذلك الباشا بمكاتبات ولده طوسون فحقده في نفسه، وتمم ذلك بسرعة رجوعه إلى القصير، ولم ينتظر إذنًا في الرجوع أو المكث.

ولما حصل ذلك لم يتزلزل الباشا واستمر على همته في تجهيزه عساكر أخرى، وبرزوا إلى خارج البلد، وفرض على البلاد جمالًا ذكر أنها من أصل الغرايم والفرض في المستقبل، وكذلك فرض غلالًا، فكان المفروض على إقليم الشرقية خاصة اثني عشر ألف أردب بعناية علي كاشف — قابله الله بما يستحق. وانقضت السنة بحوادثها التي منها هذه الحادثة وأظنها طويلة الذيل.

ومنها أن النيل هبط قبل الصليب بأيام قليلة بعد أن بلغ في الزيادة مبلغًا عظيمًا، حتى غرق الزرع الصيفي والدراوي، ولما انحسر عن الأرض زرعوا البرسيم والوقت صايف والحرارة مستجنة في الأرض؛ فتولدت فيه الدودة وأكلت الذي زُرع، فبذروه

ثانيًا فأكلته أيضًا، وفحش أمر الدودة جدًّا في الزرع البَدْري، وخصوصًا بإقليم الجيزة والقليوبية والمنوفية، بل وباقي الأقاليم.

ومنها أن الباشا أحدث ديوانًا ورتبوه ببيت البكري القديم بالأزبكية، وأظهر أن هذا الديوان لمحاسبة ما يتعلق به من البلاد ومحاسباتها، والقصد الباطني غير ذلك، وقيد به إبراهيم كتخدا الرزاز والشيخ أحمد يوسف كاتب حسن أفندي الروزنامجي، وما انضم إليهم من الكتبة المسلمين دون الأقباط ليحرروا به قوايم المصروف والمضاف والبراني، فكانوا يجلسون لذلك كل يوم ما عدا يوم الجمعة.

ثم تطرق الحال لعشور بلاد الباشا، وهو أن الكثير من الفلاحين لما سمعوا في ذلك أتوا من كل ناحية إلى مصر، وكتبوا عرضحالات إلى كتخدا بك وللباشا يتظلمون من أستاذيهم، وينهون أنهم يزيدون عليهم زيادات في قوايم المصروف، ويشددون عليهم في طلب الفرض أو بواقيها فيدفعهم الباشا أو الكتخدا إلى ذلك الديوان المحدث لينظر في أمورهم ويصحبهم معين تركي مباشر يأتي بالملتزم أيضًا والفلاحين والشاهد والصراف وقوايم المصروف لأجل المحاققة، فعند ذلك تعنت إبراهيم كتخدا في القوايم، وطلب قوايم السنين الماضية المختومة ونحو ذلك.

ولما فشا هذا الأمر وأشيع في البلدان أتت طوايف الفلاحين أفواجًا إلى هذا الديوان يطلبون الملتزمين ويخاصمونهم ويكافحونهم، فيكون أمرًا مهولًا وغاية في الزحام والعياط والشباط، وكذلك رفعوا المعلم منصور ومن معه من الكتبة من مباشرة ديوان ابنه إبراهيم بك الدفتردار، وقيدوا بدلهم السيد محمد غانم الرشيدي، ومحمد أفندي سليم، ومن انضم إليهم.

وأظهر الباشا أنه يفعل ذلك لما علمه من خيانة الأقباط، والقصدُ الخفي خلاف ذلك وهو الاستيلا والاستحواذ الكلي والجزئي وقطع منفعة الغير ولو قليلًا، فيضرب هذا بهذا، والناس أعدا بعضهم لبعض وقلوبهم متنافرة، فيغري هذا بذاك وذاك بهذا، ومن الناس من سمى هذا الديوان ديوان الفتنة.

ومنها الزيادة الفاحشة في صرف المعاملة والنقص في وزنها وعيارها؛ وذلك أن حضرة الباشا أبقى دار الضرب على ذمته وجعل خاله ناظرًا عليها، وقرر لنفسه عليها في كل شهر خمسماية كيس، بعد أن كان شهريتها أيام نظارة المحروقي خمسين كيسًا في كل شهر، ونقصوا وزن القروش نحو النصف عن القرش المعتاد، وزادوا في خلطه حتى لا يكون فيه مقدار ربعه من الفضة الخالصة، ويصرف بأربعين نصفًا، وكذلك المحبوب نقصوا من عياره ووزنه.

ولما كان الناس يتساهلون في صرف المحبوب والريال الفرانسة، ويقبضونها في خلاص الحقوق من المماطلين والمفلسين، وفي المبيعات الكاسدة بالزيادة لضيق المعايش، حتى وصل صرف الريال إلى مايتين وخمسين نصفًا، والمحبوب إلى مايتين وتمانين، ثم زاد الحال في التساهل في الناس بالزيادة أيضًا عن ذلك، فينادي الحاكم بمنع الزيادة ويمشي الحال أيامًا قليلة، ويعود لما كان أو أزيد؛ فتحصل المناداة أيضًا ويعقبونها بالتشديد والتنكيل بمن يفعل ذلك، ويقبض عليه أعوان الحاكم ويُحْبَسُ ويُضرب ويغرمونه غرامة، وربما مَثَّلوا به وخرموا أنفه وصلبوه على حانوته وعلقوا الريال في أنفه ردعًا لغيره.

وفي أثنا ذلك إذا بالمناداة بأن يكون صرف الريال بمايتين وسبعين والمحبوب بتلتماية وعشرة، فاستمع وتعجب من هذه الأحكام الغريبة التي لم يطرق سمع سامع مثلها.

هذا مع عدم الفضة العددية في أيدي الناس، فيدور الشخص بالقرش وهو ينادي على صرفه بنقص أربعة أنصاف نصف يوم حتى يصرفه بقطع إفرنجية، منها ما هو باثني عشر أو خمسة وعشرين أو خمسة فقط، أو يشتري من يريد الصرف شيًّا من الزيادات أو الخضري أو الجزار، ويبقى عنده الكسور الباقية يوعده بغلاقها، فيعود إليه مرارًا حتى يتحصل عنده غلاقها، وليس هو فقط بل أمثاله كثير، وسبب شحة الفضة العددية أنه يضرب منها كل يوم بالضربخانة ألوف مؤلفة يأخذها التجار بزيادةماية نصف في كل ألف يرسلونها إلى بلاد الشام والروم، ويعوضون بدلها في الضربخانة الفرانسة والدهب؛ لأنها تصرف في تلك البلاد بأقل مما تصرف به في مصر، وزاد الحال بعد هذا التاريخ حتى استقر على صرف الألف مايتين، وتقرر ذلك في حساب الميري فيدفع الصارف تلاتين قرشًا عنها ألف ومايتان، ويأخذ ألفًا فقط، والفرانسة والمحبوب بحسابه المتعارف بذلك الحساب، والأمر لله وحده.

وأما من مات في هذه السنة ممن له ذكر، فلم يمت من مشاهير الفقها من له شهرة ولا ذكر.

وأما الأمرا، فقد تقدم ذكرهم وما وقع لهم ومقتلهم إجمالًا، فأغنى عن التكرار، فالله يرحمنا أجمعين.

سنة سبع وعشرين ومايتين وألف (١٨١٢م)

استهل شهر محرم بيوم الخميس

وما تجدد بها من الحوادث فكان ابتدا المحرم بالرؤية يوم الخميس.

في عاشره وصل كثير من كبار العسكر الذين تخلفوا بالمويلح، فحضر منهم حسين بك دالي باشا وغيره، فوصلوا إلى قبة النصر جهة العادلية، ودخلت عساكرهم المدينة شيًّا فشيًّا وهم في أسوأ حال من الجوع وتغيُّر الألوان وكآبة المنظر والسحن، ودوابهم وجِمالهم في غاية العي، ويدخلون إلى المدينة في كل يوم، ثم دخل أكابرهم إلى بيوتهم، وقد سخط عليهم الباشا ومنع أن يأتيه منهم أحد ولا يراه، وكأنهم كانوا قادرين على النصرة والغلبة وفرطوا في ذلك، ويلومهم على الانهزام والرجوع، وطفقوا يتهم بعضهم البعض في الانهزام، فتقول الخيالة: سبب هزيمتنا القرابة، وتقول القرابة: بالعكس. ولقد قال لي بعض أكابرهم من الذين يدعون الصلاح والتورع: أين لنا بالنصر وأكثر عساكرنا على غير الملة، وفيهم من لا يتدين بدين ولا ينتحل مذهبًا، وصحبتنا صناديق المكسرات ولا يُسمع في عرضينا أذان ولا تقام به فريضة، ولا يخطر في بالهم ولا خاطرهم شعاير الدين، والقوم إذا دخل الوقت أذن المؤذنون وينتظمون صفوفًا خلف إمام واحد بخشوع وخضوع، وإذا حان وقت الصلاة والحرب قايم أذن المؤذن وصلوا صلاة الخوف، فتتقدم طايفة للحرب وتتأخر الأخرى للصلاة، وعسكرنا يتعجبون من ذلك؛ لأنهم لم يسمعوا به فضلًا عن رؤيته، وينادون في معسكرهم هلموا إلى حرب المشركين المحلقين الذقون، المستبيحين الزنا واللواط، الشاربين الخمور، التاركين للصلاة، الآكلين الربا، القاتلين الأنفس، المستحلين المحرمات، وكشفوا عن كثير من قتلى العسكر فوجدوهم غلفًا غير مختونين.

ولما وصلوا بدرًا واستولوا عليها وعلى القرى والخيوف وبها خيار الناس وبها أهل العلم والصلحا، نهبوهم وأخذوا نساهم وبناتهم وأولادهم وكتبهم، فكانوا يفعلون فيهم ويبيعونهم من بعضهم لبعض، ويقولون: هولا الكفار الخوارج حتى اتفق أن بعض أهل بدر الصلحا طلب من بعض العسكر زوجته، فقال له: حتى تبيت معي هذه الليلة وأعطيها لك في الغد.

وفيه خرج العسكر المجرد إلى السويس وكبيرهم بونابارته والخازندار ليذهب لمحافظة الينبع صحبة طوسون باشا.

وفيه وصل جماعة من الإنكليز وصحبتهم هدية إلى الباشا، وفيها طيور ببغا هندية خضر الألوان وملونة وريالات فرانسة نقود معبأة في براميل وحديد وآلات، ومجيهم وحضورهم في طلب أخذ الغلال، وفي كل يوم تساق المراكب المشحونة بالغلال إلى بحري، وكلما وردت مراكب سيرت إلى بحري حتى شحت الغلال وغلا سعرها، وارتفعت من السواحل والرقع، ولا يكاد يباع إلا ما دون الويبة، وكان سعر الأردب من أربعماية نصف إلى ألف ومايتين، والفول كذلك، وربما كان سعره أزيد من القمح لقلته، فإنه هاف زرعه في هذه السنة، ولم يتحصل من رميه إلا نحو التقاوي، وحصل للناس في هذه الأيام شدة بسبب ذلك، ثم بعد قليل وردت غلال وانحلت الأسعار، وتواجدت الغلال بالسواحل والرقع.

وفي منتصفه حضر رجل نصراني من جبل الدروز، وتوصل إلى الباشا وعرفه أنه يحسن الصناعة بدار الضرب، ويوفر عليه كثيرًا من المصاريف، وأنها بها نحو الخمسماية صانع، وأن يقوم بالعمل بأربعين شخصًا لا غير وأنه يصنع آلات وعددًا لضرب القروش وغيرها، ولا تحتاج إلى وقود نيران ولا كثير من العمل، فصدق الباشا قوله وأمر بأن يفرد له مكان ويضم إليه ما يحتاجه، وشرع في أشغاله واستمر على ذلك شهورًا.

وفيه الْتَفت الباشا إلى خدمة الضربخانة وأفنديتها، وطمعت نفسه في مصادرتهم وأخذ الأموال، لما يرى عليهم من التجمل في الملابس والمراكب؛ لأن من طبعه داء الحسد والشر والطمع والتطلع لما في أيدي الناس وأرزاقهم، فكان ينظر إليهم ويرمقهم وهم يغدون ويروحون إلى الضربخانة هم وأولادهم راكبون البغال والرهوانات المجملة وحولهم الخدم والأتباع، فيسأل عنهم، ويستخبر عن أحوالهم ودورهم ومصارفهم.

وقد اتفق أنه رأى شخصًا خرج آخر الصناع وهو راكب رهوانًا وحوله ثلاثة من الخدم، فسأل عنه فقيل له: إن هذا البواب الذي يغلق باب الضربخانة بعد خروج الناس

منها ويفتحه لهم في الصباح، فسأل عن مرتبه في كل يوم، فعرفوه أن له في كل يوم قرشين لا غير فقال: إن هذا المرتب له لا يكفي خدمه الذين هم حوله، فكيف بمصرف داره وعليق دوابه وجميع لوازمه مما ينفقه ويحتاجه في تجملاته وملابسه وملابس أهله وعياله، إن هولا الناس كلهم سراق، وكل ما هم فيه من السرقة والاختلاس، ولا بد من إخراج الأموال التي اختلسوها وجمعوها.

وتناجى في ذلك مع العلم غالي وقرناه، ثم طلب أولًا إسماعيل أفندي ليلًا وهو الأفندي الكبير، وقال له: عرفني خيانة فلان النصراني وفلان اليهودي المورد، فقال: لا أعلم على أحد منهم خيانة، وهذا شي يدخل بالميزان ويخرج بالميزان، ثم صرفه وأحضر النصراني وقال له: عرفني بخيانة إسماعيل أفندي وأولاده والمداد وإبراهيم أفندي الخضراوي الختام وغيره، فلم يزد على ما قاله إسماعيل أفندي، ثم أحضر الحاج سالم الجواهرجي وهدده، فلم يزد على قول الجماعة شيًّا، فقال: الجميع شركا لبعضهم البعض ومتفقون على خيانتي.

ثم أمر بحبس الحاج سالم وأحضر شخصًا آخر من الجواهرجية يسمى صالح الدنف، وألبسه فروة وجعله في خدمة الحاج سالم، ثم ركب الباشا إلى بيت الأزبكية، وطلب إسماعيل أفندي ليلًا هو وأولاده فأحضروهم بجماعة من العسكر في صورة هايلة وهددهم بالقتل، وأمر بإحضار المشاعلي فأحضروه وأوقدوا المشاعل وسعت المتكلمون في العفو عنهم من القتل، وقرروا عليهم مبلغًا عظيمًا من الأكياس التزموا بدفعها خوفًا من القتل، ففرضوا على الحاج سالم بمفرده سبعماية وخمسين كيسًا، وعلى إبراهيم المداد مايتي كيس، وعلى أحمد أفندي الوزان مايتي كيس، وعلى أولاد الشيخ السحيمي مايتي كيس؛ لأن لهم بها آلات ختم ووظايف يستغلون أجرتها، وأخذ الجماعة في تحصيل ما فرض عليهم فشرعوا في بيع أمتعتهم وجهات إيرادهم ورهنوا وتداينوا بالربا، وحولت عليهم الحوالات، لطف الله بنا وبهم.

واستهل شهر صفر الخير بيوم الجمعة (سنة ١٢٢٧)

في سابعه يوم الخميس حضر السيد محمد المحروقي إلى مصر، ووصل من طريق القصير، ثم ركب بحر النيل ولم يحضر الشيخ المهدي بل تخلف عنه بقنا وقوص لبعض أغراضه.

وفيه ألبس الباشا صالح أغا السلحدار خلعة، وجعله سر عسكر التجريدة المتوجهة على طريق البر إلى الحجاز، وكذلك ألبس باقي الكشاف.

وفي يوم الأحد عاشره ورد قابجي وعلى يده مرسوم ببشارة مولود وُلد للسلطان محمود، وتَسمَّى بمراد، وصحبته أيضًا مقرر للباشا على ولاية مصر، فضربوا مدافع لوروده وطلع إلى القلعة في موكب وقريت المراسيم، وعملوا شنكًا ومدافع تضرب في الأوقات الخمسة سبعة أيام من القلعة والأزبكية وبولاق والجيزة.

واستهل شهر ربيع الأول (سنة ١٢٢٧)

فيه حضر إبراهيم بك ابن الباشا من الجهة القبلية.

وفي منتصفه حضر أحمد أغا لاظ الذي كان أميرًا بقنا وقوص وباقي الكشاف بعد أن راكوا جميع البلاد القبلية والأراضي، وفوضوا عليها الأموال على كل فدان سبعة ريالات، وهو شي كثير جدًّا، وأحصوا جميع الرزق الإحباسية المرصدة على المساجد والبر والصدقة بالصعيد ومصر، فبلغت ستماية ألف فدان، وأشاعوا بأنهم يطلقون للمرصد على المساجد خاصة نصف المفروض وهو تلاتة ريال ونصف، فضجت أصحاب الرزق وحضر الكثير منهم يستغيثون بالمشايخ، فركبوا إلى الباشا وتكلموا معه في شان ذلك، وقالوا له: هذا يترتب عليه خراب المساجد، فقال: وأين المساجد العامرة؟ الذي لم يرضَ بذلك يرفع يده وأنا أعمر المساجد المتخربة وأرتب لها ما يكفيها، ولم يفد كلامهم فايدة فنزلوا إلى بيوتهم.

وفي أواخره انتقل السيد عمر مكرم النقيب من دمياط إلى طندتا وسكن بها.

وسبب ذلك أنه لما طالت إقامته بدمياط وهو ينتظر الفرج، وقد أبطا عليه وهو ينتقل من المكان الذي هو فيه إلى مكان آخر على شاطي البحر، وتشاغل بعمارة خان أنشاه هناك، والحرس ملازمون له، فلم يزل حتى ورد عليه صديق أفندي قاضي العسكر، فكلمه بأن يتشفع له عند الباشا في انتقاله إلى طندتا ففعل وأجاب الباشا إلى ذلك.

واستهل شهر ربيع الآخر (سنة ١٢٢٧)

في رابعه وصل الحجاج المغاربة، ووصل أيضًا مولاي إبراهيم ابن السلطان سليمان سلطان الغرب، وسبب تأخرهم إلى هذا الوقت أنهم أتوا من طريق الشام، وهلك الكثير من فقراهم المشاة، وأخبروا أنهم قضوا مناسكهم وحجوا وزاروا المدينة وأكرمهم الوهابية إكرامًا زايدًا وذهبوا ورجعوا من غير طريق العسكر.

وفي عاشره حضر تامر كاشف ومحو بك وعبد الله أغا، وهم الذين كانوا حضروا إلى المويلح بعد الهزيمة، فأقاموا به مدة ثم ذهبوا إلى ينبع البحر عند طوسون باشا، ثم حضروا في هذه الأيام باستدعا الباشا، وكان محو بك في مركب من مراكب الباشا الكبار التي أنشاها فانكسر على شِعْب، وهلك من عسكره أشخاص ونجا هو بمن بقي معه، وأخبروا عنه أنه كان أول من تقدم في البحر هو وحسين بك فقتل من عسكرهما الكثير من دون البقية الذين استعجلوا الفرار.

وفيه خرجت أوراق الفرضة على نسق العام الأول عن أربع سنوات مال وفايظ ومضاف وبراني ورزق وأوسية، واستقر طلبها في دفعة واحدة ويوخذ من أصل حسابها الغلال من الأجران بحساب تمانية ريال كل أردب، ويجمع غلال كل إقليم في نواحي عينوها لتساق إلى إسكندرية وتباع على الإفرنج، فشحت الغلال وغلا سعرها مع كون الفلاح لا يقدر على رفع غلته المتحصلة له من زراعة أرضه التي غرم عليها المغارم بطول السنة، بل توخذ منه قهرًا مع الإجحاف في الثمن والكيل؛ بحيث يكال الأردب أردبًّا ونصفًا ثم يلزمونه بأجرة حملها للمحل المعد لذلك، ويلزم أيضًا بأجرة الكيال وعوايد المباشرين لذلك من الأعوان وخدمة الكشوفية وأجرة المعادي، وبعض البلاد يطلق له الإذن بدفع المطلوب بالثمن، والبعض النصف غلال والنصف الآخر دراهم، حسب رسم المعلم غالي وأوامره وإذنه، فإنه هو المرخص في الأمر والنهي، فيبيع المأذون له غلته بأقصى قيمة بمرأى من المسكين الآخر الذي لم تسعده الأقدار، وحضر الكثير من الفلاحين وازدحموا بباب المعلم غالي وتركوا بيادرهم وتعطلوا عن الدارس.

وفي ليلة الاتنين خامس عشره ذهب الباشا إلى قصر شبرا وسافر تلك الليلة إلى ثغر الإسكندرية، ورجع ابنه إبراهيم بك إلى الجهة القبلية وكذلك أحمد أغا لاظ لتحرير وقبض الأموال.

وفيه ورد الخبر بأن العسكر بقبلي ذهبوا خلف الأمرا القبليين الفارين إلى خلف إبريم، وضيقوا عليهم الطرق وماتت خيولهم وجِمالهم، وتفرق عنهم خدمهم واضمحل حالهم، وحضر عدة من مماليكهم وأجنادهم إلى ناحية أسوان بأمان من الأتراك، فقبضوا عليهم وقتلوهم عن آخرهم، وفعلوا قبل ذلك بغيرهم كذلك.

وفي أواخره سافر عدة من عسكر المغاربة إلى الينبع ووصل جملة كبيرة من عسكر الأروام إلى إسكندرية، فصرف عليهم الباشا علايف، وحضروا إلى مصر وانتظموا في سلك من بها ويعين منهم للسفر من يعين.

وفيه وقعت حادثة بخط الجامع الأزهر، وهو أنه من مدة سابقة من قبل العام الماضي كان يقع بالخطة ونواحيها من الدور والحوانيت سرقات وضياع أمتعة، وتكرر ذلك حتى ضج الناس وكثر لغطهم وضاع تخمينهم، فمن قايل: إنه مسترعيات يدخلون من نواحي السور ويتفرقون في الخطة ويفعلون ما يفعلون، ومنهم من يقول: إن ذلك فعل طايفة من العسكر الذين يقال لهم «الحيطة» في بلادهم، إلى غير ذلك، ثم في تاريخه سُرق من بيت امرأة رومية صندوق ومتاع، فاتهمت أشخاصًا من العميان المجاورين بزاويتهم تجاه مدرسة الجوهرية الملاصقة للأزهر، فقبض عليهم الأغا وقررهم فأنكروا وقالوا: لسنا سارقين، وإنما سمعنا فلانًا سموه وهو محمد بن أبي القاسم الدرقاوي المغربي المنفصل عن مشيخة رواق المغاربة، ومعه إخوته وآخرون، ونعرفه بصوته وهم يتذاكرون في ذلك ونحن نسمعهم، فلما تحققوا ذلك وشاع بين الناس والأشياخ ذهب بعضهم إلى أبي القاسم وخاطبوه وكلموه سرًّا وخوفوه من العاقبة.

وكان المذكور جعل نفسه مريضًا ومنقطعًا في داره فغالطهم، فقالوا له: نحن قصدنا بخطابك التستر على أهل الخرقة المنتسبين إلى الأزهر في العمل بالشريعة وأخذ العلم، أوَما علمت ما قد جرى في العام السابق من حادثة الزغل وغير ذلك؟ فلم يزالوا به حتى وعدهم أنه يتكلم مع أولاده ويفحصون على ذلك بنباهتهم ونجابتهم.

وفي اليوم التالت وقيل التاني، أرسل أبو القاسم المذكور فأحضر السيد أحمد الذي يقال له جندي المطبخ وابن أخيه، وهما اللذان يتعاطيان الحسبة والأحكام بخط الأزهر، ويتكلمان على الباعة والخضرية والجزارين الكاينين بالخطة، فلما حضرا عنده عاهدهما وحلفهما بأن يسترا عليه وعلى أولاده، ولا يفضحاهم ويُبعِدا عنهم هذه القضية، وأخبرهما بأن ولده لم يزل يتفحص بفطانته حتى عرف السارق ووجد بعض الأمتعة، ثم فتح خزانة بمجلسه وأخرج منها أمتعة فسألوه عن الصندوق فقال: هو باقٍ عند من هو عنده ولا يمكن إحضاره في النهار، فإذا كان آخر الليل انتظروا ولدي محمدًا هذا عند جامع الفاكهاني بالعقادين الرومي، وهو يأتيكم بالصندوق مع سارقه فاقبضوا عليه واتركوا أولادي ولا تذكروهم ولا تتعرضوا لهم، فقالوا له كذلك.

وحضر الجندي وابن أخيه في الوقت الذي وعدهم به وصحبتهما أشخاص من أتباع الشرطة، ووقفوا في انتظاره عند جامع الفاكهاني فحضر إليهم وصحبته شخص صُرَماتي فقالا لهم: مكانكم حتى نأتيكم، ثم طلعا إلى ربع بعطفة الملطيين ورجعا في الحال بالصندوق حامله الصرماتي على راسه، فقبضوا على ذلك الصرماتي وأخذوه

بالصندوق إلى بيت الأغا فعاقبوه بالضرب وهو يقول: أنا لست وحدي وشركائي ابن أبي القاسم وأخواه وآخر يسمى شلاطة وابن عبد الرحيم، الجميع خمسة أشخاص.

فذهب الأغا وأخبر كتخدا بك فأمره بطلب أولاد أبي القاسم، فأرسل إليه ورقة بطلبهم، فأجابه بأن أولاده حاضرون عنده بالأزهر من طلبة العلم وليسوا بسارقين.

فبالاختصار أخذهم الأغا وأحضر ذلك الصرماتي معهم لأجل المحاققة، فلم يزل يذكر لابن أبي القاسم ما كانوا عليه في سرحاتهم القديمة والجديدة، ويقول له: أما كنا كذا كذا وكذا وفعلنا ما هو كذا في ليلة كذا واقتسمنا ما هو كذا وكذا؟ ويقيم عليه أدلة وقراين وأمارات، ويقول له أنت ريسنا وكبيرنا في ذلك كله ولا نمشي إلى ناحية ولا سَرْحة إلا بإشارتك، فعند ذلك لم يسع ابن أبي القاسم الإنكار، وأقر واعترف هو وإخوته، وحُبسوا سوية.

وأما شلاطة ورفيقه، فإنهما تغيبا وهربا واختفيا، وشاعت القضية في المدينة وكثر القال والقيل في أهل الأزهر ونواحيه، وتذكروا قضية الدراهم الزغل التي ظهرت قبل تاريخه، وتذكروا أقوالًا أُخَر، واجتمع كثير من الذين سُرق لهم، فمنهم رجل يبيع السمن أُخذ من مخزنه عدة مواعين سمن وصينية الفطاطري التي يعمل عليها الكنافة وأمتعة وفرش، وجدوا في تلاتة أماكن، وخاتم ياقوت ذكروا أنه بيع بجملة دنانير وعقد لولو وغير ذلك، واستمروا أيامًا والناس يذهبون إلى الأغا ويذكرون ما سُرق لهم ويسألهم، فيُقِرُّون بأشيا دون أشيا، ويذكرون ضياع أشيا تصرفوا فيها وباعوها وأكلوا بثمنها.

ثم اتفق الحال على المرافعة إلى المحكمة الكبيرة، فذهبوا بالجميع واجتمع العالَم الكثير من الناس وأصحاب السرقات وغيرهم نسا ورجالًا، وادعوا على هولا الأشخاص المقبوض عليهم، فأحضروا بعض ما ادعوا به عليهم، وقالوا أخذنا ولم يقولوا سرقنا، وبرأ محمد بن أبي القاسم أخويه وقال: إنهما لم يكونا معنا في شي من هذا، وحصل الاختلاف في ثبوت القطع بلفظ أخذنا، وقد حضرت دعوى أخرى مثل هذه على رجل صباغ، ثم إن القاضي كتب إعلامًا للكتخدا بك بصورة الواقع وفوض الأمر إليه، فأمر بهم إلى بولاق وأنزلوهم عند القبطان وصحبتهم أبوهم أبو القاسم فأقاموا أيامًا، ثم إن كتخدا بك أمر بقطع أيدي التلاتة، وهم: محمد بن أبي القاسم الدرقاوي، ورفيقة الصرماتي، والصباغ الذي ثبتت عليه السرقة في الحادثة الأخرى، فقطعوا أيدي التلاتة في بيت القبطان، ثم أنزلوهم في مركب وصحبتهم أبوهم أبو القاسم وولداه الآخران اللذان لم تقطع أيديهما وسفروهم إلى إسكندرية، وذلك في منتصف شهر جمادى الأولى من السنة.

واستهل شهر جمادى الثانية بيوم الخميس (سنة ١٢٢٧)

في تالته حضر التلاتة أشخاص المقطوعين الأيدي، وذلك أنهم لما وصلوا إلى إسكندرية وكان الباشا هناك تشفع فيهم المتشفعون عنده قايلين: إنه جرى عليهم الحد بالقطع، فلا حاجة إلى نفيهم وتغريبهم، فأمر بنفي أبي القاسم وولديه الصغار إلى أبي قير، ورجع ولده الآخر مع رفيقه الصرماتي والصباغ إلى مصر، فحضروا إليها وذهبوا إلى دورهم، وأما ابن أبي القاسم فذهب إلى داره وسلم على والدته ونزل إلى السوق يطوف على أصحابه ويسلم عليهم وهو يتألم مما حصل في نفسه، ولا يُظهر ذلك لشدة وقاحته وجمودة صدغه وغلاظة وجهه، بل يُظهر التجلد وعدم المبالاة بما وقع له من النَّكال وكسوف البال، ومر في السوق والأطفال حوله وأمامه يتفرجون عليه ويقولون: انظروا الحرامي، وهو لا يبالي بهم ولا يلتفت إليهم، حتى قيل إنه ذهب إلى مسجد خرب بالباطنية ودعا إليه غلامًا يهواه بناحية الدرب الأحمر، فجلس معه حصة من النهار ثم فارقه وذهب إلى داره واشتد به الألم؛ لأن الذي باشر قطع يده لم يحسن القطع، فمات في اليوم التالت.

وفي هذا الشهر وما قبله وردت عساكر كثيرة من الأتراك وعينوا للسفر، وخرجوا إلى مخيم العرضي خارج بابَي النصر والفتوح، فكانوا يخرجون مسا ويدخلون في الصباح، ويقع من أخذ الدواب وخطف بعض النسا والأولاد كعادتهم.

وفي ليلة الخميس تاني عشرينه حضر الباشا من إسكندرية ليلًا وصحبته حسن باشا إلى القصر بشبرا، وطلع في صبحها إلى القلعة وضربوا لقدومه مدافع من الأبراج، فكان مدة غيبته في هذه المدة شهرين وسبعة أيام، واجتهد فيها في عمارة سور المدينة وأبراجها وحصَّنها تحصينًا عظيمًا، وجعل بها جبخانات وبارودًا ومدافع وآلات حرب، ولم تزل العمارة مستمرة بعد خروجه منها على الرسم الذي رسمه لهم، وأخذ جميع ما ورد عليه من مراكب التجار من البضايع على ذمته ثم باعه للمتسببين بما أحب من الثمن.

وورد من ناحية بلاد الإفرنج كثير من البن الإفرنجي وحبه أخضر وجِرْمه أكبر من حب البن اليمني الذي يأتي إلى مصر في مراكب الحجاز، وأخذه في جملة ما أخذ في معاوضة الغلال ورماه على باعة البن بمصر بتلاتة وعشرين فرانسة القنطار، والتجار يبيعونه بالزيادة، ويخلطونه مع البن اليمني، وفي ابتداء وروده كان يباع رخيصًا؛ لأنه دون البن اليمني في الطعم واللذة في شربه وتعاطيه، وبينهما فرق ظاهر يدركه صاحب الكيف ألبتة.

وفيه وصل مرسوم صحبة قابجي من الديار الرومية مضمونه: وكالة دار السعادة باسم كتخدا بك وعزل أغا الوكيل تابع سعيد أغا، فعمل الباشا ديوانًا يوم الأحد وقري المرسوم، وخلع على كتخدا بك خلعة الوكالة وخلعة أخرى باستمراره في الكتخداية على عادته، وركب في مركب إلى داره، فلما استقر في ذلك أرسل في تاني يوم فأحضر الكتبة من بيت عثمان أغا، وأمرهم بعمل حسابه من ابتدا سنة ١٢٢١ لغاية تاريخه، فشرعوا في ذلك وأصبح عثمان أغا المذكور مسلوب النعمة بالنسبة لما كان فيه، ويطالب بما دخل في طرفه، وانتزعت منه بلاد الوكالة وتعلقات الحرمين وأوقافهما وغير ذلك.

وفي يوم الخميس غايته وصل صالح قوج ومحو بك وسليمان أغا وخليل أغا من ناحية الينبع على طريق القصير من الجهة القبلية، وذهبوا إلى دورهم.

واستهل شهر رجب بيوم الجمعة (سنة ١٢٢٧)

في تالته طلع جماعة الواصلون إلى القلعة، وسلموا على الباشا وخاطِره منحرف منهم ومتكدر عليهم؛ لأنه طلبهم للحضور مجردين بدون عساكرهم ليتشاور معهم فحضروا بجملة عساكرهم، وقد كان ثبت عنده أنهم هم الذين كانوا سببًا للهزيمة لمخالفتهم علي ابنه واضطراب رأيهم وتقصيرهم في نفقات العساكر ومبادرتهم للهرب والهزيمة عند اللقا، ونزولهم بخاصتهم إلى المراكب وما حصل بينهم وبين ابنه طوسون باشا من المكالمات، فلم يزالوا مقيمين في بيوتهم ببولاق ومصر، والأمر بينهم وبين الباشا على السكوت نحو العشرين يومًا، وأمرُهم في ارتجاج واضطراب وعساكرهم مجتمعة حولهم، ثم إن الباشا أمر بقطع خَرْجهم وعلايفهم، فعند ذلك تحققوا منه المقاطعة.

وفي رابع عشرينه أرسل إليهم علايفهم المنكسرة وقدرها ألف وثمانماية كيس جميعها ريالات فرانسة، وأمر بحملها على الجِمال ووجه إليهم بالسفر، فشرعوا في بيع بلادهم وتعلقاتهم وضاق ذرعهم وتكدر طبعهم إلى الغاية وعسر عليهم مفارقة أرض مصر، وما صاروا فيه من التنعم والرفاهية والسيادة والإمارة والتصرف في الأحكام والمساكن العظيمة والزوجات السراري والخدم والعبيد والجواري، فإن الأقل منهم له البيتان والتلاتة من بيوت الأمرا ونساهم اللاتي قُتلت أزواجهن على أيديهم وظنوا أن البلاد صَفَت لهم، حتى إن النسا المترفهات ذوات البيوت والإيرادات والالتزامات صرن يعرضن أنفسهن عليهم ليحتمين فيهم، بعد أن كن يَعفْنَهم ويأنفن من ذكرهم فضلًا عن قربهم.

وفيه ورد أغا قابجي من دار السلطنة وعلى يده مرسوم بالبشارة بمولود وُلد للسلطان فعملوا ديوانًا يوم الأحد رابع عشرينه، وطلع الأغا المذكور في موكب إلى القلعة، وقري ذلك المرسوم وصحبته الأمرا، وضربوا شنكًا ومدافع واستمروا على ذلك ثلاثة أيام في وقت كل أذان كأيام الأعياد.

وفي يوم التلات مات أحمد بك وهو من عُظما الأرنؤد وأركانهم وكان عندما بلغه قطع خَرْج المذكورين أرسل إلى الباشا يقول له: اقطع خرجي وأعطني علوفة عساكري وأسافر مع إخواني، فمنعه الباشا وأظهر الرأفة به فتغير طبعه وزاد قهره وتمرض جسمه، فأرسل إليه الباشا حكيمه فسقاه شربة وافتصده فمات من ليلته، فخرجوا بجنازته من بولاق ودفنوه بالقرافة الصغرى، وخرج أمامه صالح أغا وسليمان أغا وطاهر أغا وهم راكبون أمامه، وطوايف الأرنؤد عدد كبير مشاة حوله.

واستهل شهر شعبان بيوم الأحد (سنة ١٢٢٧)

في رابعه يوم الأربع الموافق لسابع مسرى القبطي أوفى النيل المبارك أذرعه، ونزل الباشا في صبح يوم الخميس في جم غفير وعُدَّة وافرة من العساكر، وكُسِر السد بحضرته وحضرة القاضي، وجرى الماء في الخليج ومنع المراكب من دخولها الخليج.

وفي منتصفه سافر سليمان أغا ومحو بك بعد أن قضوا أشغالهم وباعوا تعلقاتهم وقبضوا علايفهم.

وفي يوم الخميس تاسع عشره سافر صالح أغا قوج وصحبته نحو المايتين ممن اختارهم من عساكره الأرنؤدية، وتفرق عنه الباقون وانضموا إلى حسن باشا وأخيه عابدين بك وغيرهما.

وفي يوم الجمعة برزت خيام الباشا خارج باب النصر، وعزم على الخروج والسفر بنفسه إلى الحجاز، وقد اطمأن خاطره عندما سافر الجماعة المذكورون؛ لأنه لما قطع خَرْجهم ورواتبهم وأمرهم بالسفر جمعوا عساكرهم إليهم وخيولهم، وأخذوا الدور والبيوت ببولاق وسكنوها وصارت لهم صورة هايلة، وكثرت القالة وتخوف الباشا منهم وتحذر ونبه على خاصته وسفاشيته وغيرهم بالملازمة والمبيت بالقلعة وغير ذلك.

وفي يوم السبت حادي عشرينه اجتمعت العساكر وانجر الموكب من باكر النهار، فكان أولهم طوايف الدلاة ثم العساكر وأكابرهم وحسن باشا وأخوه عابدين بك وهو ماشٍ على أقدامه في طوايفه أمام الباشا وكتخدا بك وأغواتهم الصقلية وطوايفهم،

وخلفهم الطبلخانات، وعند ركوبه من القلعة ضربوا عدة مدافع فكان مدة مرورهم نحو خمس ساعات، وجروا أما الموكب تمانية عشر مدفعًا وتلات قنابر.

واستهل شهر رمضان بيوم الاثنين (سنة ١٢٢٧)

في رابع عشرينه وردت هجانة مبشرون باستيلا الأتراك على عقبة الصفرا والجديِّدة من غير حرب، بل بالمخادعة والمصالحة مع العرب وتدبير شريف مكة، ولم يجدوا بها أحدًا من الوهابيين، فعندما وصلت هذه البشارة ضربوا مدافع كثيرة تلك الليلة من القلعة، وظهر فيهم الفرح والسرور.

وفي تلك الليلة حضر أحمد أغا لاظ حاكم قنا ونواحيها، وكان من خبره أنه لما وصلت إليه الجماعة الذين سافروا في الشهر الماضي وهم صالح أغا وسليمان أغا ومحو بك ومن معهم، واجتمعوا على المذكور وبثوا شكواهم وأسروا نجواهم، وأضمروا في نفوسهم أنهم إذا وصلوا إلى مصر ووجدوا الباشا منحرفًا منهم أو أمرهم بالخروج والعود إلى الحجاز امتنعوا عليه وخالفوه، وإن قطع خَرْجهم وأعطاهم علايفهم بارزوه ونابذوه وحاربوه، واتفق أحمد أغا المذكور معهم على ذلك، وأنه متى حصل هذا المذكور وأرسلوا إليه فيأتيهم على الفور بعسكره وجنده، وينضم إليه الكثير من المقيمين بمصر من طوايف الأرنؤد كعابدين بك وحسن باشا وغيرهم بعساكرهم لاتحاد الجنسية.

فلما حصل وصول المذكورين وقطع الباشا راتبهم وخَرْجهم وأعطاهم علايفهم المنكسرة وأمرهم بالسفر أرسلوا لأحمد أغا لاظ المذكور بالحضور بحكم اتفاقهم معه، فتقاعس وأحب أن يبدي لنفسه عذرًا في شقاقه مع الباشا، فأرسل إليه مكتوبًا يقول له فيه: إن كنت قطعت خَرْج إخواني وعزمت على سفرهم من مصر وإخراجهم منها، فاقطع أيضًا خَرْجي ودعني أسافر معهم، فأخفى الباشا تلك المكاتبة وأخَّر عود الرسول، ويقال له الخجا، لعلمه بما أضمروه فيما بينهم حتى أعطى للمذكورين علايفهم على الكامل، ودفع لصالح أغا كل ما طلبه وادعاه، حتى إنه كان أنشأ مسجدًا بساحل بولاق بجوار داره له منارة ظريفة واشترى له عقارًا، وأمكنه وقْفَهَا على مصالح ذلك المسجد وشعايره، فدفع له الباشا جميع ما صرفه عليه وثمن العقار وغيره، ولم يترك لهم مطالبة يحتجون بها في التأخير.

وأعطى الكثير من رواتبهم لحسن باشا وعابدين بك أخيه، فمالوا عنهم وفارقهم الكثير من عسكرهم وانضموا إلى أجناسهم المقيمين عند حسن باشا وأخيه، فرتبوا لهم

العلايف معهم وأكثرهم مستوطنون ومتزوجون، بل ومتناسلون ويصعب عليهم مفارقة الوطن وما صاروا فيه من التنعم، ولا يهون بمطلق الحيوان استبدال الجحيم بالنعيم، ويعملون عاقبة ما هم صايرون إليه.

لأنه فيما بلغنا أنه من سافر منهم إلى بلاده قبض عليه حاكمها، وأخذ منه ما معه من المال الذي جمعه من مصر وما معه من المتاع وأودعه السجن، ويفرض عليه قدرًا فلا يُطلقه حتى يقوم بدفعه، على ظن أن يكون أودع شيًّا عند غيره، فيشتري نفسه به أو يشتريه أقاربه أو يرسل إلى مصر مراسلة لعشيرته وأقاربه، فتأخذهم عليه الغيرة فيرسلون له ما فرض عليه ويفتدونه، وإلا فيموت بالسجن، أو يطلق مجردًا ويرجع إلى حالته التي كان عليها في السابق من الخدم المتهنة والاحتطاب من الجبل، والتكسب بالصنايع الدنية ببيع الأسقاط والكروش، والمؤاجرة في حمل الأمتعة ونحو ذلك، فلذلك يختارون الإقامة ويتركون مخاديمهم خصوصًا والخِسةُ من طباعهم.

هذا والباشا يستحث صالح أغا ورفقاه في الرحيل حيث لم يبقَ له عذر في التأخير، فعندما نزلوا في المراكب وانحدروا في النيل أحضر الباشا الخجا المذكور، وهو عبارة عن الأفندي المخصوص بكتابة سره وإيراده ومصرفه، وأعطاه جواب الرسالة مضمونها تطمينه وتأمينه، ويذكر له أنه صعب عليه وتأثر من طلبه المقاطعة وطلبه المفارقة، وعَدَّد له أسباب انحرافه عن صالح أغا ورفقاه وما استوجبوا به ما حصل لهم من الإخراج والإبعاد.

وأما هو فلم يحصل منه ما يوجب ذلك وأنه باقٍ على ما يعهده من المودة والمحبة، فإن كان ولا بد من قصده وسفره فهو لا يمنعه من ذلك، فيأتي بجميع أتباعه ويتوجه بالسلامة أينما شا، وإلا فإن صرف عن نفسه هذا الهاجس فليحضر في القنجة في قلة ويترك وطاقه وأتباعه ليواجهه ويتحدث معه في مشورته وانتظام أموره التي لا يتحملها هذا الكتاب، ويعود إلى محل ولايته وحكمه مكرمًا، فراج عليه ذلك التمويه وركن إلى زخرف القول أن الباشا لا يصله بمكروه ولا يواجهه بقبيح من القول فضلًا عن الفعل؛ لأنه كان عظيمًا فيهم ومن الريسا المعدودين، صاحب همة وشهامة وإقدام، جسورًا في الحروب والخطوب، وهو الذي مهد البلاد القبلية وأخلاها من الأجناد المصرية.

فلما خلت الديار منهم واستقر هو بقنا وقوص وهو مطلق التصرف، وصالح أغا قوج بالأسيوطية، ثم إن الباشا وجَّه صالح أغا إلى الحجاز وقلد ابنه إبراهيم باشا ولاية الصعيد، فكان يناقض عليه أحمد أغا المذكور في أفعاله، ويمانعه التعدي على أطيان

الناس وأرزاق الأوقاف والمساجد، ويحل عقد إبراماته، فيرسل إلى أبيه بالأخبار فيحقد ذلك في نفسه ويظهر خلافه ويتغافل.

وأحمد أغا المذكور على جليته وخلوص نيته، فلما وصلته الرسالة اعتقد صدقه وبادر بالحضور في قلة من أتباعه حسب إشارته، وطلع إلى القلعة ليلة السبت وهي ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان، فعبر عند الباشا وسلم عليه فحادثه وعاتبه ونقم عليه أشيا وهو يجاوبه ويرادده حتى ظهر عليه الغيظ، فقام كتخدا بك وإبراهيم أغا فأخذاه وخرجا من عند الباشا، ودخلا إلى مجلس إبراهيم أغا وجلسوا يتحدثون، وصار الكتخدا وإبراهيم أغا يلطفان معه القول، وأشارا عليه بأن يستمر معهما إلى وقت السحور وسكون حدة الباشا، فيدخلون إليه ويتسحرون معه فأجابهم إلى رأيهم وأمر من كان بصحبته من العسكر — وهم نحو الخمسين — بالنزول إلى محلهم، فامتنع كبيرهم وقال: لا نذهب ونتركك وحيدًا، فقال الكتخدا: وما الذي يصيبه وهو همشري ومن بلدي، وإن أصيب بشي كنت أنا قبله؛ فعند ذلك نزلوا وفارقوه.

وبقي عنده من لا يستغني عنه في الخدمة، فعند ذلك أتاه من يستدعيه إلى الباشا، فلما كان خارج المجلس قبضوا عليه وأخذوا سيفه وسلاحه، ونزلوا به إلى تحت سلم الركوب، وأشعل الضوى المشعل، وأداروا كتافه ورموا رقبته ورفعوه في الحال وغسلوه وكنفوه ودفنوه، وذلك في سادس ساعة من الليل، وأصبح الخبر شايعًا في المدينة.

وأحضر الباشا الخجا وطولب بالتعريف عن أمواله وودايعه، وعين في الحال باشجاويش ليذهب إلى قنا ويختم على داره ويضبط ما له من الغلال والأموال، وطلبت الودايع ممن هي عنده التي استدلوا عليها بالأوراق، فظهر له ودايع في عدة أماكن، وصناديق مال وغير ذلك، ولم يتعرض لمنزله ولا لحريمه.

واستهل شهر شوال بيوم الأربع (سنة ١٢٢٧)

في رابعه يوم السبت قدم قابجي من إسلامبول وعلى يده مقرر للباشا بولاية مصر على السنة الجديدة، ومعه فروة لخصوص الباشا فلما وصل إلى بولاق فنزل كتخدا بك لملاقاته فركب في موكب جليل وخلفه النوبة التركية، شق من وسط البلد وصعد إلى القلعة وحضر الأشياخ وأكابر دولتهم وقري المرسوم بحضرة الجميع، فلما انقضى الديوان ضربوا عدة مدافع من القلعة.

وفيه ألبس شيخ السادات ابن أخيه سيدي أحمد خلعة وتاجًا، وجعله وكيلًا عنه في نقابة الأشراف وأركبه فرسًا بعباءة، ومشى أمامه أيضًا الجاويشية المختصين بنقيب

الأشراف، وأمره بأن يذهب إلى الباشا ويقابله ليخلع عليه، وأرسل صحبته محمد أفندي، فقال: مبارك وأشار إليه محمد أفندي بأن يخلع عليه فروة، فقال الباشا: إن عمه جعله نايبًا عنه ووكيلًا فليس له عندي تلبيس؛ لأنه لم يتقلدها بالأصالة من عندي؛ فقام ونزل من غير شي إلى داره بجوار المشهد الحسيني.

وفي يوم الخميس تالت عشرينه سافر مصطفى بك دالي باشا بجميع الدلاة وغيرهم من العسكر إلى الحجاز، وحصل للناس في هذا الشهر عدة كربات.

منها — وهو أعظمها — عدم وجود الما العذب، وذلك في وقت النيل وجريان الخليج من وسط المدينة حتى كاد الناس يموتون عطشًا؛ وذلك بسبب أخذهم الحمير للسخرة والرجال لخدمة العسكر المسافرين، وغلوِّ ثمن القرب التي تشترى لنقل الماء، فإن الباشا أخذ جميع القرب الموجودة بالوكالة عند الخليلية، وما كان بغيرها أيضًا حتى أرسل إلى القدس والخليل فأحضر جميع ما كان بهما، وبلغت الغاية في غلوِّ الأثمان حتى بيعت القربة والواحدة التي كان ثمنها مايه وخمسين نصفًا بألف وخمسماية نصف، ويأخذون أيضًا الجِمال التي تنقل الماء بالروايا إلى الأسبلة والصهاريج وغيرهما من الخليج، فامتنع الجميع عن السَّراح والخروج.

واحتاج العسكر أيضًا إلى الماء فوقفوا بالطرق يرصدون مرور السقايين أو غيرهم من الفقرا الذين ينقلون الماء بالبلاليص والجِرار على روسهم، فيوجد على كل مُورَدة من الموارد عدة من العسكر وهم واقفون بالأسلحة ينتظرون من يستقي من السقايين أو غيرهم، فكان الخدم والنسا والفقرا والبنات والصبيان ينقلون بطول النهار والليل بالأوعية الكبيرة والصغيرة على روسهم بمقدار ما يكفيهم للشرب، وبيعت القربة الواحدة بخمسة عشر نصف فضة وأكثر، وشح وجود اللحم وغلا في الثمن زيادة على غلوِّ سعره المستمر، حتى بيع بثمانية عشر نصف فضة كل رطل — هذا إن وجد — والجاموسي الجفيط بأربعة عشر.

وطلبوا للسفر طايفة من القبَّانية والخبازين ومن أرباب الصنايع والحرف، وشددوا عليهم الطلب في أواخر الشهر، فتغيبوا وهربوا فسُمِّرت بيوتهم وحوانيتهم، وكذلك الخبازون والفرانون بالطوابين والأفران حتى عُدم الخبز من الأسواق، ولم يجد أصحاب البيوت فرنًا يخبزون فيه عجينهم، فمن الناس القادرين على الوقود من يخبز عجينه في داره أو عند جاره الذي يكون عنده فرن، أو عند بعض الفرانين الذي تكون فرنه بداخل عطفة مستورة خِفْيةً أو ليلًا من الخوف من العسس والمرصدين لهم.

وكذلك عدم وجود التبن بسبب رصد العسكر في الطرق لأخذ ما يأتي به الفلاحون من الأرياف، فيخطفونه قبل وصوله إلى المدينة.

وحصل بسبب هذه الأحوال المذكورة شبكات ومشاجرات وضرب وقتل وتجريح أبدان، ولولا خوف العسكر من الباشا وشدته عليهم حتى بالقتل إذا وصلت الشكوى إليه لحصل أكثر من ذلك.

واستهل شهر ذي القعدة بيوم الجمعة (سنة ١٢٢٧)

في سابعه يوم الخميس سافر الباشا هجانًا إلى السويس وصحبته حسن الباشا.

وفي يوم الجمعة خامس عشره وصل مبشرون من ناحية الحجاز — وهم أتراك — على الهجن والخبر عنهم أن عساكرهم وصلوا إلى المدينة المنورة ونزلوا بفناها.

وفي يوم الأحد سابع عشره رجع الباشا من ناحية السويس إلى مصر.

وفيه وردت أخبار لطايفة الفرنساوية وقنصلهم المقيمين بمصر بأن بونابارته وعساكر الفرنساوية زحفوا في جمع عظيم على بلاد المسكوب ووقع بينهم حروب عظيمة، فكانت الهزيمة على المسكوب وانكسروا كسرة قوية، وكتبوا بذلك أوراقًا ألصقوها بحيطان دوايرهم وحاراتهم، ولما حضر الباشا طلع إليه القنصل وأخبره بتلك الأخبار وأطلعه على الكتب الواردة من بلادهم.

وفي ليلة التلات عدى الباشا إلى بر الجيزة وأمر بخروج العساكر إلى البر الغربي، وعدى أيضًا كتخدا بك؛ وذلك بسبب أن عربان أولاد علي نزلوا بناحية الفيوم بجمع عظيم وأكلوا الزروعات، فخرج إليهم حسن أغا الشماشرجي فوزن نفسه معهم فرأى أنه لا يقاومهم لكثرتهم، فحضر إلى مصر وأخبر الباشا وتحرك الباشا للخروج إليهم ثم بعقيبه أرسل لهم وخادعهم، فحضر إليه عظماهم فأخذ منهم رهاين وخلع عليهم وكساهم وأعطاهم راحتهم، وعين لهم جهات وشرط عليهم أن لا يتعدوها، ثم رجع وعدى إلى بر مصر في ليلة الخميس حادي عشرينه.

وفي سادس عشرينه نهب العرب القافلة القادمة من السويس بحمل بضايع التجار وغيرهم، وقتلوا العسكر الذين بصحبتهم وخفارتهم، وأخذوا الجِمال بأحمالها وذهبوا بها لناحية الوادي والجمال المذكورة على ملك الباشا وأتباعهم؛ لأنهم صيروا لهم جمالًا وأعدوها لحمل البضايع ويأخذون أجرتها لأنفسهم بدلًا عن جمال العرب، وذلك من جملة الأمور التي احتكروها طمعًا وحسدًا في كل شي، ولم ينجُ من الجمال إلا البعض

الذين سبقوهم — وهم لكتخدا بك — فحنق لذلك الباشا وأرسل في الحال مراسلات إلى سليمان باشا وحافظ عكا يعلمه بذلك ويلزمه بإحضارها، ويتوعده إن ضاع منها عقال بعير، والذي ذهب بالمراسلة إبراهيم أفندي المهردار.

واستهل شهر ذي الحجة بيوم السبت (سنة ١٢٢٧)

في عاشره يوم الأضحى وردت هجانة من ناحية الحجاز وعلى يدهم البشاير بالاستيلا على قلعة المدينة المنورة ونزول المتولي بها على حكمهم، وأن القاصد الذي أتت بشايره وصل إلى السويس وصحبته مفاتيح المدينة، فحصل للباشا بذلك سرور عظيم، وضربوا مدافع وشنكًا بعد مدافع العيد، وانتشرت المبشرون على بيوت الأعيان لأجل أخذ البقاشيش.

وفي يوم التلات حادي عشره وصل القادمون إلى العادلية فعملوا لقدومهم شنكًا عظيمًا وضربوا مدافع كثيرة من القلعة وبولاق والجيزة وخارج قبة العزب؛ حيث العرضي المعد للسفر، وأيضًا ضربوا بنادق كثيرة متتابعة من جميع الجهات حتى من أسطحة البيوت الساكنين بها، واستمر ذلك أكثر من ساعتين فلكيتين، فكان شيًّا مهولًا مزعجًا، وأشيع في الناس دخول الواصلين في موكب واختلفت رواياتهم.

وخرج الباشا إلى ناحية العادلية فاصطف الناس على مساطب الدكاكين والسقايف للفرجة، فلما كان قريب الغروب دخل طايفة من العسكر وصحبتهم بعض أشخاص راكبين على الهجن، وفي يد أحدهم كيس أخضر وبيد الآخر كيس أحمر بداخلهما المكاتبات والمفاتيح، وعاد الباشا من ليلته وصعد إلى القلعة، هذا والمدافع والشنك يُعْمَل في كل وقت من الأوقات الخمسة، وفي الليل.

وفي صبح يوم الأربع شق الأغا والوالي وأغات التبديل وأمامهم المناداة على الناس بتزيين الأسواق وما فيها من الحوانيت والدور ووقود قناديل وتعاليق، ويسهرون ثلاث ليالٍ بأيامها، أولها يوم الخميس وآخرها يوم السبت، الذي هو خامس عشره، وأخرجوا وطاقات وخيامًا إلى خارج بابَي النصر والفتوح وخرج الباشا في تاني يوم إلى ناحية العادلية وهو ليلة يوم الزينة، وعملوا حَرَّاقات ونفوطًا وسواريخ ومدافع من كل ناحية مدة أيام الزينة، وكتبت البشاير إلى جميع النواحي.

وأنعم الباشا بأمريات ومناصب على عشرين شخصًا من خواصه، وعين لطيف بك أغات المفتاح للتوجه إلى دار السلطنة بالبشاير والمفاتيح صحبته، وسافر في صبح يوم الزينة على طريق البر، وتعين خلافه أيضًا للسفر بالبشاير إلى البلاد الرومية والشامية

والأساكل الإسلامية، مثل: بلاد الأنضول والروملي ورودس وسلانيك وأزمير وكريت وغيرها.

وفي أواخره وردت الأخبار المترادفة بوقوع الطاعون الكثير بإسلامبول، فأشار الحكما على الباشا بعمل كورنتيلة بإسكندرية على قاعدة اصطلاح الإفرنج ببلادهم، فلا يدعون أحدًا من المسافرين الواردين في المراكب من الديار الرومية يصعد إلى البر إلا بعد مضي أربعين يومًا من وروده، وإذا مات بالمركب أحد في أثناء المدة استأنفوا الأربعين.

وفيه أوشى بعض اليهود على الحاج سالم الجواهرجي المباشر لإيراد الدهب والفضة إلى الضربخانة، وانعزل عنها كما ذكر في وسط السنة، وذلك عند ورود الرجل النصراني الدرزي الشامي بأنه كان في أيام مباشرته للإيراد يضرب لنفسه دنانير خارجة عن حساب الميري خاصة به، فأمر الباشا ذلك وتحقيقه فحصل كلام كثير، والحاج سالم يجحد ذلك وينكره، فقال له: أيوب تابعك الذي كان ينزل آخر النهار بالخُرْج على حماره في كل يوم بحجة الأنصاف العددية التي يفرقها على الصيارف بالمدينة، وأكثر ما في الخرج خاص بك، فأحضروا أيوب المذكور وطلبوه للشهادة، فقال: لا أشهد بما لا أعلم ولم يحصل هذا مطلقًا، ولا يجوز لي ولا يخلصني من الله أن أتهم الرجل بالباطل، فقال اليهودي: هذا رفيقه وصاحبه وخادمه ولا يمكنه أن يخبر ويقر إلا إذا خُوِّف وعوقب، وإذا ثبت قولي فإنه يطلع عليه ستة آلاف كيس، فلما سمع الباشا قول اليهودي ستة آلاف كيس أمر بحبس الحاج سالم، ثم أحضروا إخوته والحاج أيوب وسجنوهم وضربوهم، والباشا يطلب ستة آلاف كيس كما قال اليهودي، واستمروا في ذلك أيامًا، وذلك الحبس عند قرَاعَلي بجوار بيت الحريم بالأزبكية، وسبب خصومة شمعون اليهودي مع الحاج سالم أنهم احتجوا على اليهودي بأشيا وقرروا عليه غرامة أيضًا، فطلب من الحاج سالم المساعدة، وقال له: ساعدني كما ساعدتك في غرامتك، فقال الحاج سالم: إنك لم تساعدني بمال من عندك، بل هو من حسابي معك، فقال اليهودي: ألست كنت أداري عليك فيما تفعله؟ واتسع الكلام بينهما، وحضرة الباشا وأعوانه مترقبون لحادث يستخرجون به الأموال بأي وجه كان ويتقولون ويوقعون بين هذا وهذا، والناس أعداء لبعضهم البعض ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾.

ثم إن السيد محمد المحروقي خاطب الباشا في شان الحاج سالم، وحلف عليه أن الغرامة الأولى تأخر عليه منها تلاتماية كيس استدانها من الأوروبيين، ودفعها وهي باقية عليه إلى الآن ومطلوبة منه، وذلك بعد أن باع أملاكه وحصة التزامه، فإذا كان ولا بد من

تغريمه ثانيًا فإننا نمهل أصحاب الديون ونقوم بدفع التلتماية كيس المطلوبة للمداينين وندفعها للخزينة، فأجابه لذلك وأمر بالإفراج عن الحاج سالم وإخوته ومن معه، فدفعوا لقَراعَلي المتولي سجنهم وعقوبتهم وأتباعه سبعة أكياس.

وفيه اشتد الأمر على إسماعيل أفندي أمين عيار الضربخانة وأولاده بالطلب من أرباب الحوالات، مثل دالي باشا وخلافه، وضيق العسكر المعينون عليهم مَنافِسَهُم ولازموا دورهم، ولم يجدوا شافعًا ولا دافعًا ولا رافعًا، فباعوا أملاكهم وعقاراتهم وفراشهم ومصاغ حريمهم وأوانيهم وملابسهم، وكان الباشا أخذ من إسماعيل أفندي المذكور داره التي بالقلعة عندما انتقل إلى القلعة فأمره بإخلاها ففعل، ونزل إلى دار بحارة الروم بالقرب من دار ابنه محمد أفندي، فاتخذ الباشا دار إسماعيل أفندي دارًا لحريمه وأسكنهم بها؛ لأنها دار عظيمة جليلة عمَرها المذكور وصرف عليها في الأيام الخالية أموالًا جمة، فلما استولى عليها الباشا أسكن بها حريمه وجواريه وسراريه، ولما قرر عليه غرامته أسقط عنه منها عشرين كيسًا لا غير، وجعلها في تمن داره المذكورة، وذلك لا يقوم بثمن رخامها فقط، فلما اشتد الحال بإسماعيل أفندي أشار عليه بعض المتشفعين بأن يكتب له عرضحالًا ويطلع به إلى الباشا صحبة المعلم غالي كبير الأقباط المباشرين، ففعل ودخل معه المعلم غالي إلى الباشا، فعندما رآه مقبلًا صحبة المذكور أشار إليه بالرجوع ولم يدعه يتكلم، فرجع بقهره ونزل إلى داره فمرض وتُوُفِّيَ بعد أيام إلى رحمة الله تعالى.

ومات قبله ولده حسن أفندي، وبقي جميع الطلب على ولده محمد أفندي، فحصل له مشقة زايدة باع أثاث بيته وأوانيه وكتبه التي اقتناها وحصلها بالشرا والاستكتاب، فباعها بأبخس الأثمان على الصحافين وغيرهم، وطال عليه الحال وانقضت مواعيد المداينين له، فطالبوه وكربوه فتداين من غيرهم بالربا والزيادة وهكذا، والله يحسن لنا وله العاقبة.

وفيه قدم إلى إسكندرية قليون من بلاد الإنكليز فيه بضايع وأشيا للباشا، ومنها خمسون ألف كيس نقودًا ثمن غلال وخيول يأخذونها من مصر إلى بلادهم، فطفقوا يطلبون لهم الخيول من أربابها فيقيسون طولها وعرضها وقوايمها بالأشبار، فإن وجدوا ما يوافق غرضهم ومطلوبهم في القياس والقيافة أخذوه ولو بأغلى ثمن وإلا تركوه.

وفيه أيضًا أرسل الباشا لجميع كشاف الوجه القبلي بحجز جميع الغلال والحجر عليها لطرفه، فلا يدعون أحدًا يبيع ولا يشتري شيًّا منها، ولا يسافر بشي منها في مركب

مطلقًا ثم طلبوا ما عند أهل البلاد من الغلال، حتى ما هو مدَّخر في دورهم للقوت فأخذوه أيضًا، ثم زادوا في الأمر حتى صاروا يكبسون الدور ويأخذون من الغلال قل أو كثر ولا يدفعون له ثمنًا، بل يقولون لهم: نحسب لكم ثمنه من مال السنة القابلة، ويشحنون بذلك جميع مراكب الباشا التي استجَدَّها وأعدَّها لنقل الغلال، ثم يسيرون بها إلى بحري فتنقل إلى مراكب الإفرنج بحساب ماية قرش عن كل أردب، وانقضت السنة ولم تنقضِ حوادثها، بل استمر ما حدث بها كالتي قبلها وزيادة.

فمنها ما أحاط به علمنا وذكرنا بعضه، ومنها ما لم يحِط به علمنا أو أحاط ونسيناه بحدوث غيره قبل التثبت.

ومنها أن الباشا عمل ترسخانة عظيمة بساحل بولاق، واتخذ عدة مراكب بإسكندرية لخصوص جلب الأخشاب المتنوعة وكذلك الحطب الرومي من أماكنها على ذمته، ويبيعه على الحطَّابين بما حدَّده عليهم من الثمن، ويحمل في المراكب المختصة به بأجرة محددة أيضًا، ويأتي إلى ديوان الكمرك ببولاق فيؤخذ كمركه أي مكسه، وهو راجع إليه أيضًا إلى أن استقر سعر القنطار الواحد من الحطب بتلتماية وخمسة عشر نصف فضة، وأجرة حمله من بولاق إلى مصر تلاتة عشر نصف فضة، وأجرة تكسيره مثل ذلك، فيكون مجموع ذلك تلتماية وأربعين نصف فضة القنطار، وقد اشتريناه قبل استيلا هذه الدولة بتلاتين نصفًا، وأجرة حمله في المراكب عشرة أنصاف، وأجرته من بولاق إلى مصر تلاتة أنصاف وتكسيره كذلك، فيكون مجموع ذلك ستة وأربعين نصفًا.

وكذلك فعل في أنواع الأخشاب الكرسنة والحديد والرصاص والقصدير وجميع المجلوبات.

واستمر ينشي في المراكب الكبار والصغار التي تسرح في النيل من قبلي إلى بحري ومن بحري إلى قبلي، ولا يبطل الإنشا والأعمال والعمل على الدوام وكل ذلك على ذمته ومرمتها وعمارتها ولوازمها، وملاحوها بأجرتهم على طرفه لا بالضمان كما كان في السابق، ولهم قَوَمة ومباشرون متقيدون بذلك الليل والنهار.

ومنها — وهي من الحوادث الغريبة التي لم يتفق في هذه الأعصار مثلها — أن في أواخر ربيع الآخر احترق بحر النيل، وجف بحر بولاق وكثرت فيه الرمال وعلت فوق بعضها حتى صارت مثل التلول، وانحسر الماء حتى كان الناس يمشون إلى قريب إنبابة بمداساتهم، وكذلك بحر مصر القديمة بقي مخاضًا، وفقدت أهل القاهرة الماء الحلو واشتد بالناس العطش بسبب ذلك وبسبب تسخير السقايين، ونادى الأغا والوالي على أن يكون حمل القربة للمكان البعيد باثني عشر نصف فضة.

واستهل شهر بشنس القبطي فزاد النيل في أوله في ليلة واحدة نحو ذراع، ثم كان يزيد في كل يوم وليلة مثل دفعات أواخر أبيب ومسرى، وجرى بحر بولاق ومصر القديمة وغطى الرمال وسارت فيه المراكب الكبار منحدرة ومقلعة وغرقت المقاثي مثل البطيخ والخيار والعبد اللاوي، وما كان مزروعًا بالسواحل، وهو شي كثير جدًّا، واستمرت الزيادة نحو عشرين يومًا حتى تغير وابيض وكاد يحمر، وداخل الناس من ذلك وهْم عظيم من هذه الزيادة التي في غير وقتها حتى اعتقدوا أنه يوفي أذرع الوفا قبل نزول النقطة، ولم يعهد مثل ذلك، وكان ذلك رحمة من الله بعبيده الفقرا العطاش. ثم إني طالعت في تاريخ الحافظ المقريزي المسمى بالسلوك في دول الملوك، فذكر مثل هذه النادرة في سنة ثمان وثلاثين وثمانماية، ولما ترادفت هذه الزيادات خرج الوالي إلى قنطرة السد وجمع الفعلة للعمل في سد فم الخليج، ونادى على نزح الخليج وتنظيفه وكسح أوساخه وقطع أرضه، ثم وقفت الزيادة، بل نقص قليلًا وزاد في أوان الزيادة على العادة، وأوفى أذرعه في أيامه المعتادة، فسبحان الفعال.

ومنها شحة الغلال وخلو السواحل منها، فلا يجد الناس إلا ما بقي بأيدي فلاحي الجهات البحرية القريبة، فيحملونه على الحمير إلى العرصات والرقع، ويبيعونه على الناس كل أردب بأربعة وعشرين قرشًا خلاف المكس والكلف، واستقر مكس الأردب الواحد أربعة وتلاتين نصف فضة، وأجرته إذا كان من طريق البحر من المنوفية أو نحوها ماية نصف وأقل وأكثر، وأجرته من بولاق إلى مصر خمسة وعشرون نصفًا.

ومنها أنه لما انتظم له ملك بلاد الصعيد، ولم يبقَ له فيه منازع، وقلد إمارته لابنه إبراهيم باشا، ورسم بأن يضبط جميع أطيان بلاد الصعيد حتى الرزق الإحباسية المرصدة على المساجد والخيرات الكاينة بمصر وغيرها، وأوقاف سلاطين مصر المتقدمين وخيراتهم ومساجدهم ومكاتبهم وصهاريجهم ووظايف المدرسين والمقرين وغير ذلك، ففعل ذلك وراك الأراضي بأسرها، وشاع أنه جعل على كل فدان من أراضي الرزق والأوقاف ثلاثة ريالات لا غير، وعلى باقي فدادين الأطيان ثمانية ريالات خلاف النُّباري وهو مزارع الذرة، فجعل على كل عود من عيدان القطوة سبعة ريالات فرضي أصحاب الرزق والأطيان بهذا التنظيم، وظنوا استمراره، فإن الكثير من المرتزقة ما كان يحصل له من مزارعي رزقته مقدار ما يحصل له على هذا الحساب.

ومنها أنه رسم له بالحجر على جميع حصص الالتزام فلم يُبقِ لأربابها شيًّا إلا ما ندر، وهو شي قليل جدًّا، واحتج في ذلك باستيلا الأمرا المصريين عليها عندما خرجوا من

مصر وأقاموا بالبلاد القبلية فوضعوا أيديهم على ذلك، وأنه حاربهم وطردهم وقتلهم وورث ما كان بأيديهم بحق أو باطل وسموه المضبوط، وأما ما كان بأيدي أربابه أيام استيلا المصريين، وهم الملتزمون القاطنون بالبلاد القبلية أو بمصر ممن يراعى جانبه، فإنه إذ عرض حاله وطلب إذنًا في التصرف وأخبر بأنه كان مفروجًا عنه أيام استيلا المصريين، وأثبت ذلك بالكشف من الروزنامة وغيرها، فإما أن يؤذن له في التصرف أو يقال له نعوضك بدلها من البلاد البحرية، ويُسوَّف وتتمادى الأيام، أو يحيل ذلك على ابنه إبراهيم باشا ويقول: أنا لا عُلقة في البلاد القبلية والأمر فيها لإبراهيم باشا، وإذا ذهب لإبراهيم باشا يقول له: أنا أعطيك الفايظ، فإن رضي أعطاه شيًّا نزرًا ووعده بالإعطا، وإن لم يرضَ قال له: هات لي إذنًا من أفندينا، وكلٌّ منهما إما مرتحل أو مسافر أو أحدهما حاضر والآخر غايب، فيصير صاحب الحاجة كالجملة المعترضة بين الشارط والمشروط، وأمثال ذلك كثير.

ومنها الاستيلا على جميع مزارع الأرز بالبحر الغربي والشرقي، ورتب لهم مباشرين وكتابًا يصرفون عليهم من الكلف والتقاوي والبهايم، ويؤخذ ذلك جميعه من حساب الفرض التي قررها على النواحي، وعند استغلال الأرز يرفعونها بأيديهم ويسعِّرونها بما يريدونه ويستوفون المصاريف ومعاليم القَومة والمباشرين المعين لهم، وإن فضل بعد ذلك شي أعطوه للمزارع أو أخذوه منه وأعطوه ورقة يحاسَب بها في المستقبل، وفرض على كل دايرة من دواير الأرز خمسة أكياس في كل سنة خلاف المقرر القديم، وعلى كل عود ثلاثة أكياس، فإذا كان وقت الحصاد وزنوه شعيرًا على أصحاب الدواير والمناشر، حتى إذا صلح وابيض حسبوا كلفه من أصل المقرر عليهم، فإن زاد لهم شي أعطوهم به ورقة وحاسبوا بها من قابل.

وأبطل تعامل المزارعين مع التجار الذين كانوا معتادين بالصرف عليهم، واستقر الحال إلى أن صار جميعه أصلًا وفرعًا لديوان الباشا، ويباع الموجود على ذمته لأهل الأقاليم المتسببين وغيرهم، وهو عن كل أردبماية قرش بل وزيادة، وللإفرنج وبلاد الروم والشام بما لا أدري.

ومنها أنه حصل بين عبد الله أغا بكتاش الترجمان وبين النصراني الدرزي منافسة، وهو الذي حضر من جبل الدروز ويسمى إلياس، واجتمع بمصر على من أوصله إلى الباشا وهو بكتاش وخلافه، وعرفوه عن صناعته وأنه يعمل آلات بأسهل مما يصنعه صناع الضربخانة، ويوفر على الباشا كذا وكذا من الأموال التي تذهب في الدواليب

والكلف، وما يأخذه المباشرون من المكاسب لأنفسهم، وأفرد له بقعة خاصة به بجانب الضربخانة، وأمر بحضور ما يطلبه إليه من الحديد والصناع، واستمر على ذلك شهورًا، ولما تمم الآلة صنع قروشًا وضربها ناقصة في الوزن والعيار، وجعل كتابتها على نسق القروش الرومية، ووزن القرش درهمان وربع، وفيه من الفضة الخالصة الربع بل أقل والتلاتة أرباع نحاس، وكان المرتب في الأموال من النحاس في كل يوم قنطارين، فضوعف إلى ستة قناطير حتى غلا سعر النحاس والأواني المتخذة منه، فبلغ سعر الرطل النحاس المستعمل ماية وأربعين نصف فضة بعد أن كان سعره في الأزمان السابقة أربعة عشر نصفًا، والقراضة سبعة أنصاف أو أقل.

ثم زاد الطلب للضربخانة إلى عشرة قناطير في كل يوم؟ والمباشر لذلك كله بكتاش أفندي.

ثم إن بكتاش أفندي المذكور انحرف على ذلك الدرزي، وذلك بإغرا المعاير وحصل بينهما مناقشة بين يدي الباشا والمعلم غالي بينهم، وانحط الأمر في ذلك المجلس على منع الدرزي من مباشرة العمل، ورتب له الباشا أربعة أكياس لمصرفه في كل شهر، ومنعوا أيضًا مَن كان معه مِن نصارى الشوام من الطلوع الضربخانة، واستمر بكتاش أفندي ناظرًا عليها، ودقق على أرباب الوظايف والخدم ليأخذ بذلك وجاهة عند مخدومه، ثم إن الباشا بعد أيام أمر بنفي الدرزي من مصر وجميع أهله وأولاده، وانقضى أمره بعد أن تعلموا تلك الصناعة منه.

وفي تلك المدة بلغ إيراد الضربخانة لخزينة الباشا في كل شهر ألفًا وخمسماية كيس، وكان الذي يرد منها في زمن المصريين تلاتين كيسًا في كل شهر أو أقل من ذلك، فلما التزم بها السيد أحمد المحروقي أوصلها إلى خمسين، واستمرت على ابنه السيد محمد كذلك مدة، فانتبذ لها محمد أفندي طبل المعروف بناظر المهمات وزاد عليها تلاتين كيسًا، وبقيت تحت نظارة المحروقي بذلك القدر.

ثم إن الباشا عزل السيد محمد المحروقي عناه وأبقاها على ذمته وقيد خاله في نظارتها، ولم يزل الباشا يلعب هذه الملاعيب حتى بلغت هذا المبلغ المستمر وربما يزيد، وذلك خلاف الغرامات والمصادرات لأربابها، ثم وُشِيَ له على عبد الله أغا بكتاش بأنه يزيد في وزن القروش وينقص منه عن القدر المحدود، فإذا حسب القدر المنقوص وعمل معدله في مدة نظارته تحصل منه مقدار عظيم من الأكياس، فلما نوقش في ذلك قال: هذا الأمر يسأل فيه صاحب العيار، فأحضروه وأحضروا محمد أفندي ابن إسماعيل أفندي بدفتره،

وتحاققوا في الحساب فسقط منهم خمسة أكياس لم تدخل الحساب، فقالوا: أين ذهبت هذه الخمسة أكياس؟ فطفقوا ينظرون إلى بعضهم، فقال المورد: الحق أن هذه الخمسة أكياس من حساب محمد أفندي ومطلوبة له، وتجاوز عنها لفلان اليهودي المورد من مدة سابقة، فالتفت الباشا إلى محمد أفندي وقال له: لأي شي تجاوزت لليهودي عن هذا القدر؟ فقال: لعلمي أنه خلي ليس عنده، فأخذتني الرأفة عليه وتركت مطالبته حتى يحصل له اليسار، فقال: كيف تنعم بمالي على اليهودي؟ فقال: إنه من حسابي، فقال: ومن أين كان لك ذلك؟ وأمر به فبطحوه وضربوه بالعصي، ثم أقاموه وأضافوا الخمسة أكياس على باقي الغرامة المطلوبة منه التي هو متحير في تحصيلها ولو بالاستدانة من الربويين، كما قال القايل:

شكوت جلوس إنسان ثقيل   فجاءوني بمن هو منه أثقل
فكنت كمن شكا الطاعون يومًا   فزاوده على الطاعون دُمَّل

ومحمد أفندي هذا من وُجها الناس وخيارهم يفعل به هذه الفعال، ثم انحط الحال مع بكتاش أفندي على أن فرض عليه ستماية كيس يقوم بدفعها، فقال: ويعفوني أفندينا من نظارة الضربخانة فلم يجبه إلى ذلك، واستمر في تلك الخدمة مكرهًا خايفا من عواقبها.

ومنها أن الريال الفرانسة بلغ في مصارفته من الفضة العددية إلى مايتين وتمانين نصفًا، بل وزيادة خمسة أنصاف، فنودي عليه بنقص وشددوا في ذلك، وبعد أيام نودي بنقص عشرة أخرى فخسر الناس حصة من أموالهم، ثم إن ذلك القرش الذي يضاف إليه من الفضة ربع درهم ووزن الريال تسعة دراهم فضة، فيكون الريال الواحد بما يضاف إليه من النحاس على هذا الحساب سته وثلاثين قرشًا يخرج منها تمن الريال سته قروش ونصف، وكلفة الشغل في الجملة قرش أو قرشان، يبقى بعد ذلك سبعة وعشرون قرشًا ونصف وهو المكسب في الريال الواحد، وهو من جملة سلب الأموال؛ لأن صاحب الريال إذا أراد صرفه أخذ بدله ستة قروش ونصفًا، وفيها من الفضة درهم ونصف وثُمن وهي بدل التسعة دراهم التي هي وزن الريال.

ثم زيد في الطنبور نغمة وهي الحجر على الفضة العددية، فلا يصرفون شيًّا منها للصيارف ولا لغيرهم إلا بالفرط، وهو أربعة قروش على كل ألف، فيعطى للضربخانة تسعة وعشرون قرشًا زلايط، ويأخذ ألفًا عنها خمسة وعشرون قرشًا ثم زادوا بعد ذلك

في الفرط فجعلوه خمسة قروش، فيعطي ألفًا ومايتين ويأخذ بدلها ألفًا، فانظر إلى هذه الزيادة والرذالة وكذا السفالة.

ومنها استمرار غلا الأسعار في كل شي، وخصوصًا في الأقوات التي لا يستغني عنها الغني والفقير في كل وقت؛ بسبب الأحداثات والمكوس التي ترتبت على كل شي، ومنها المأكولات كاللحم والسمن والعسل والسكر وغير ذلك مثل الخضارات، وإبطال جميع المذابح خلاف مذبح الحسينية، والتزم به المحتسب بمبلغ عظيم مع كفاية لحم الباشا وأكابر دولته بالثمن القليل، ويوزع الباقي على الجزارين بالسعر الأعلى الذي يخرج منه ثمن لحوم الدولة من غير ثمن، فينزل الجزار بما يكون معه من الغنمة أو الاتنين الجفيط إلى بيت أو عطفة مستورة فتزدحم عليه المتبعون له والمنتظرون إليه، ويقع بينهم من المضاربة والمشاجرة ما لا يوصف، وتمن الرطل اثنا عشر نصفًا وقد يزيد على ذلك ولا ينقص عن الاثني عشر، وكذلك الخضارات التي تباع جزافًا، تباع بأقصى القيمة حتى إن الخس مثلًا الذي كان يباع كل عشرة أعداد بنصف واحد صارت الواحدة تباع بنصف، وقس على ذلك باقي الخضارات.

وأن الباشا لما وضع يده على الأراضي القريبة وأنشا السواقي تجاه القصر والبستان بناحية شبرا، وحرث الأراضي الخِرْس وزرع فيه أنواع الخضارات وأجرى عليها المياه، وقيد لخدمتها المرابعين أيضًا والمزارعين بالمؤاجرة، والمباشر على ذلك كله ذو الفقار كتخدا، وعندما يبدو صلاح البقول والخضارات يبيعها المتسببين فيها بأغلى ثمن، وهم يبيعونها على الناس بما أحبوا، وشاع بين الناس إضافة ذلك إلى الباشا، فيقولون: كرنب الباشا ولفت الباشا وملوخية الباشا وفجل الباشا وقرنبيط الباشا، وزرع أيضًا بستانه من أنواع الزهور العجيبة المنظر المتنوعة الأشكال من الأحمر والأصفر والأزرق والملون، أتوا بنقايلها من بلاد الروم فنتجت وأفلحت، وليس لها إلا حسن المنظر فقط ولا ريحة لها أصلًا.

ومنها أن ديوان المكس ببولاق الذي يعبرون عنه بالكمرك لم يزل يتزايد فيه المتزايدون حتى أوصلوه إلى ألف وخمسماية كيس في السنة، وكان في زمن المصريين يؤدي من يلتزمه تلاتين كيسًا مع محاباة الكثير من الناس، والعفو عن كثير من البضايع لمن ينسب إلى الأمرا وأصحاب الوجاهة من أهل العلم وغيرهم، فلا يتعرضون له ولو تحامى في بعض أتباعهم ولو بالكذب، ويعاملون غيرهم بالرفق مع التجاوز الكثير، ولا ينبشون المتاع ولا رباط الشي المحزوم، بل على الصندوق أو المحزوم قدر يسير معلوم،

فلما ارتفع أمره إلى هذه المقادير صاروا لا يعفون عن شي مطلقًا، ولا يسامحون أحدًا ولو كان عظيمًا من العلما أو من غيرهم وكان من عادة التجار إذا بعثوا إلى شركاهم محزومًا من الأقمشة الرخيصة، مثل العاتكي والنابلسي، جعلوا بداخل طيها أشيا من الأقمشة الغالية في التمن المقصبات الحلبي والكشميري والهندي ونحو ذلك، فتندرج معها في قلة الكمرك، وفي هذا الأوان يحلون رباط المحزوم ويفتحون الصناديق وينبشون المتاع ويهتكون ستره ويحصون عدده ويأخذون عُشره، أي من كل عشرة واحدًا أو ثمنه كما يبيعه التاجر غاليًا أو رخيصًا.

حتى البوابيج والأخفاف والمسوت التي تجلب من الروم يفتحون صناديقها ويعدونها بالواحد ويأخذون عشورها عينًا أو ثمنًا، ويفعل ذلك أيضًا متولي كمرك إسكندرية ودمياط وإسلامبول والشام، فبذلك غلت أسعار البضايع من كل شي لفحش هذه الأمور وخصوصًا في الأقمشة الشامية والحلبية والرومية المنسوجة من القطن والحرير والصوف، فإن عليها بمفردها مكوسًا فاحشة قبل نسجها، وكان الدرهم الحرير في السابق بنصف فضة، صار الآن بخمسة عشر نصفًا، وما يضاف إليه من الأصباغ وكلف الصناع والمكوس المذكورة، فبذلك بلغ الغاية من غلو الثمن، فيباع الثوب الواحد من القماش الشامي المسمى بالألاجة الذي كانت قيمته في السابق مايتي نصف فضة بألفين فضة، مع ما يضاف إليه من ربح البايع وطمع التاجر، والنعل الرومي الذي كان يباع بستين نصفًا صار يباع بأربعماية نصف، والذراع الواحد من الجوخ الذي كان يباع بماية نصف فضة بلغ في الثمن إلى ألف نصف فضة، وهكذا مما يُستعصى تتبعه ولا تُستقصى مفرداته، ويتولى هذه الكمارك كل من تزايد فيها من أي ملة كان من نصارى القبط أو الشوام أو الأروام أو من يدعي الإسلام، وهم الأقل في الأشيا الدون.

والمتولي الآن في ديوان كمرك بولاق شخص نصراني رومي يسمى كرابيت من طرف طاهر باشا؛ لأنه مختص بإيراده، وأعوان كرابيت من جنسه، وعنده قواسة أتراك يحجزون متاع الناس ويقبضون على المسلمين ويسجنونهم ويضربونهم حتى يدفعوا ما عليهم، وإذا عثروا بشخص أخفى عنهم شيًّا حبسوه وضربوه وسبوه ونكلوا به وألزموه بغرامة مجازاة لفعله.

والعجب أن بضايع المسلمين يؤخذ عُشرها يعني من العشرة واحد، وبضايع الإفرنج والنصارى ومن ينتسب إليهم يؤخذ عليها من الماية اتنان ونصف.

وكذلك أحدث عدة أشيا واحتكارات في كثير من البضايع، مثل السكر الذي يأتي من ناحية الصعيد، وزيادات في المكوس القديمة خلاف المحدثات؛ وذلك أن من كان بطَّالًا أو

كاسد الصنعة أو قليل الكسب أو خامل الذكر، فيعمل فكرته في شي مهمل مغفول عنه، ويسعى إلى الحضرة بواسطة المتقربين أو بعرضحال يقول فيه: إن الداعي للحضرة يطلب الالتزام بالصنف الفلاني، ويقوم للخزينة العامرة بكذا من الأكياس في كل سنة، فإذا فعل تنبه المشار إليه فيوعد بالإنجاز ويؤجل أيامًا، فتتسامع المتكالبون على أمثال ذلك فيزيدون على الطالب حتى تستقر الزيادة على شخص إما هو أو خلافه، ويقيد اسمه بدفتر الروزنامة ويفعل بعد ذلك الملتزم ما يريده وما يقرره على ذلك الصنف، ويتخذ له أعوانًا وخدمة وأتباعًا يتولون استخلاص المقررات، ويجعلون لأنفسهم أقدارًا خارجة عن الذي يأخذه كبيرهم الذي تولى كبر ذلك وفتح بابه لنصارى الأروام والأرمن؛ فترأسوا بذلك وعلت أسافلهم ولبسوا الملابس الفاخرة وركبوا البغال والرهوانات، وأخذوا بيوت الأعيان التي بمصر القديمة وعمروها وزخرفوها وعملوا فيها بساتين وجناين، وذلك خلاف البيوت التي لهم بداخل المدينة، ويركب الكلب منهم وحوله وأمامه عدة من الخدم والقواسة يطردون الناس من أماه وخلفه، ولم يدعوا شيًّا خارجًا عن المكس حتى الفحم الذي يجلب من الصعيد والحطب السنط والرتم وحطب الذرة الذي كان يباع منه كل ماية حزمة بماية نصف، فلما احتكروه صار يباع كل ماية حزمة بألف ومايتي نصف؛ وبسبب ذلك تشحطت أشيا كثيرة وغلت أثمانها مثل الجبس والجبر وكل ما كان يحتاج للوقود حتى الخبازين في الأفران، فإننا أدركنا الأردب من الجبس بتمانية عشر نصف فضة والآن بمايتين وأربعين نصفًا، وكذلك أدركنا القنطار من الجير بعشرة أنصاف، والآن بماية وعشرين، والحال في الزيادة.

ومنها أن الباشا شرع في عمارة قصر العيني، وكان قد تلاشى وخربته العسكر وأخذت أخشابه ولم يبق فيه إلا الجدران، فشرع في إنشائه وتعميره وتجديده على هذه الصورة التي هو عليها الآن في وضع الأبنية الرومية.

ومنها أنه هدم سراية القلعة وما اشتملت عليه من الأماكن، فهدم المجالس التي كانت بها والدواوين وديوان قايتباي، وهو المقعد المواجه للداخل إلى الحوش علو الكلار الذي به الأعمدة، وديوان الغوري الكبير وما اشتمل عليه من المجالس التي كانت تجلس بها الأفندية والقلفاوات أيام الدواوين، وشرع في بناها على وضع آخر واصطلاح رومي، وأقاموا أكثر الأبنية من الأخشاب، ويبنون الأعالي قبل بنا السفل، وأشيع أنهم وجدوا مخبآت بها ذخاير لملوك مصر الأقدمين.

ومنها أن الباشا أرسل لقطع الأشجار المحتاج إليها في عمل المراكب، مثل التوت والنبق من جميع البلاد القبلية، والبحرية فانبث المعينون لذلك في البلاد، فلم يبقوا من

ذلك إلا القليل لمصانعة أصحابه بالرشا والبراطيل حتى يتركوا لهم ما يتركون، فيجتمع بترسخانة الأخشاب لصناعة المراكب مع ما ينضم إليها من الأخشاب الرومية شي عظيم جدًّا يتعجب منه الناظر من كثرته، وكلما نقص منه شي في العمل اجتمع خلافه أكثر منه.

ومنها أن أحمد أغا أخا كتخدا بك لما تقلد وكالة دار السعادة ونظارة الحرمين انضم إليه أباليس الكتبة لتحرير الإيراد والمصرف، وحصروا الأحكار المقررة على الأماكن والأطيان التي أجَّرها النظار السابقون المدد الطويلة، وجعلوا عليها قدرًا من المال يقبض في كل سنة لجهة وقف أصله على عادة مصر السابقة واللاحقة في استيجار الأوقاف من نظارها والأطيان والأماكن المستأجرة من أوقاف الحرمين وتوابعها، كالدشيشة والخاصكية والمحمدية والمرادية وغير ذلك كثيرة جدًّا، ففتحوا هذا الباب وتسلطوا على الناس في طلب ما بأيديهم من السندات وحجج التآجرات، فإذا اطلعوا عليها فلا يخلو إما أن تكون لمدة قد انقضت ومضت أو بقي منها بقية من السنين، فإن كان بقي منها بقية زادوا في الأجرة المؤجلة التي هي الحكر مثلها أو مِثْلَيها بحسب حال المحل ورواجه، وإن كانت المدة قد انقضت ومضت استولوا على عين المحل وضبطوه أو جددوا له تآجُرًا وزادوا في حكره، ويكون ذلك بمصلحة جسيمه، وعلى كلتا الحالين لا بد من التغريم والمصالحات الجوانية والبرانية للكتاب والمباشرين والخدم والمعينين، ثم المرافعة إلى القاضي ودفع المحاصيل والرسوم والتسجيل وكتابة السندات التي يأخذها واضع اليد.

ومنها التحجير على الأجرا والمعمِّرين المستعمَلين في الأبنية والعماير، مثل: البنايين والنجارين والنشارين والخراطين وإلزامهم في عماير الدولة بمصر وغيرها بالإجارة والتسخير، واختفى الكثير منهم وأبطل صناعته وأغلق من له حانوت حانوته، فيطلبه كبير حرفته الملزم بإحضاره عند معمار باشا، فإما أنه يلازم الشغل أو يفتدي نفسه أو يقيم بدلًا عنه ويدفع له الأجرة من عنده، فترك الكثير صناعته وأغلق حانوته وتكسب بحرفة أخرى؛ فتعطل بذلك احتياجات الناس في التعمير والبنا، بحيث إن من أراد أن يبني له كانونًا أو مِدْودًا لدابته تحير في أمره وأقام أيامًا في تحصيل البنا وما يحتاجه من الطين والجير والقصرمل، وكان الباشا اشترى ألف حمار وعملوا لها مزابل وأعدوا لنقل أتربة عمايره وشَيْل القصرمل من مستوقدات الحمامات بالمدينة وبولاق، ونودي في المدينة بمنع الناس كافة عن أخذ شي من القصرمل، فكان الذي تلزمه الضرورة لشي منه إن كان قليلًا أخذه كالسرقة في الليل من المستوقد بأغلى ثمن، وإن كان كثيرًا لا يأخذه إلا بفرمان بالإذن من كتخدا بك بعد أن كان شيًّا مبتذلًا، وليس له قيمة ينقلونه إذا كثر بالمستوقدات

إلى الكيمان بالأجرة، وإن احتاجه الناس في أبنيتهم، إما نقلوه على حميرهم أو نقله خَدمة المستوقد بأجرتهم كل فردَين بنصف وأقل وأزيد ونحو ذلك، كما إذا ضاع لإنسان مفتاح خشب لا يجد نجارًا يصنع له مفتاحًا آخر إلا خفية ويطلب تمنه خمسة عشر نصف فضة، وكان من عادة المفتاح نصف فضة إن كان كبيرًا أو نصف نصف إن كان صغيرًا.

ومنها أن الذي التزم بعمل البارود قرر على نفسه مايتي كيس واحتكر جميع لوازمه، مثل الفحم وحطب الترمس والذرة والكبريت، فقرر على كل صنف من ذلك قدرًا من الأكياس وأبطل الذين كانوا يعملون في السباخ بالكيمان، ويستخرجون منه ملح البارود ثم يؤخذ منهم غبيطًا إلى المعمل فيكررونه حتى يخرج ملحًا أبيض يصلح للعمل، وهي صناعة قذرة ممتهنة فأبطلهم منها وبنى أحواضًا بدلًا عن الصناديق وجعلها متسعة وطلاها بالخافقي، وعمل ساقية وأجرى الما منها إلى تلك الأحواض وأوقف العمال لذلك بالأجرة يعملون في السباخ المذكور.

ومنها شحة الحطب الرومي في هذه السنة وإذا ورد منه شي حجزه الباشا لاحتياجاته فلا يرى الناس منه شيًّا، فكان الحطابة يبيعون بدله خشب الأشجار المقطوعة من القطر المصري، وأفضلها السنط فيباع منه الحملة بتلتماية نصف فضة، وأجرة حملها عشرة، وتكسيرها عشرة، وعز وجود الفحم أيضًا حتى بيعت الأقة بعشرين نصفًا؛ وذلك لانقطاع الجالب إلا ما يأتي قليلًا من ناحية الصعيد مع العسكر يتسببون فيه ويبيعونه بأغلى ثمن، كل حصيرة باثني عشر قرشًا وخمسة عشر قرشًا، وهي دون القنطار، وكانت تباع في السابق بستين نصفًا، وهي قرش ونصف. وغير ذلك أمور وأحداثات وابتداعات لا يمكن استقصاها ولم يصل إلينا خبرها؛ إذ لا يصل إلينا إلا ما تعلقت به اللوازم والاحتياجات الكلية، وقد يستدل بالبعض على الكل.

وأما من مات في هذه السنة ممن له ذكره

فمات الشيخ الإمام العلامة والنحرير الفهامة الفقيه الأصولي النحوي شيخ الإسلام والمسلمين، الشيخ عبد الله بن حجازي بن إبراهيم الشافعي الأزهري الشهير بالشرقاوي شيخ الجامع الأزهر.

وُلد ببلدة تسمى الطويلة بشرقية بلبيس بالقرب من القرين في حدود الخمسين بعد المساية وتربى بالقرين، فلما ترعرع وحفظ القرآن قدم إلى الجامع الأزهر، وسمع الكثير من الشهابين الملوي والجوهري والحفني وأخيه يوسف والدمنهوري والبليدي وعطية

الأجهوري ومحمد الفاسي وعلي المنسفيسي الشهير بالصعيدي وعمر الطحلاوي، وسمع الموطأ فقط على علي بن العربي الشهير بالسقاط، وبآخره تلقن بالسلوك والطريقة على شيخنا الشيخ محمود الكردي ولازمه، وحضر معنا في أذكاره وجمعياته ودرس الدروس بالجامع الأزهر وبمدرسة السنانية بالصنادقية، وبرواق الجبرت والطيبرسية، وأفتى في مذهبه وتميز في الإلقا والتحرير.

وله مؤلفات دالة على سعة فضله، من ذلك حاشيته على التحرير، وشرح نظم يحيى العمريطي، وشرح العقايد المشرقية والمتن له أيضًا، وشرح مختصر في العقايد والفقه والتصوف مشهور في بلاد داغستان، وشرح رسالة عبد الفتاح العادلي في العقايد، ومختصر الشمايل وشرحه له، ورسالة في لا إله إلا الله، ورسالة في مسألة أصولية في جمع الجوامع، وشرح الحكم والوصايا الكردية في التصوف، وشرح ورد سحر للبكري، ومختصر المغني في النحو وغير ذلك.

ولما أراد السلوك في طريق الخلوتية ولقنه الشيخ الحفني الاسم الأول حصل له وله جذب واختلال في عقله، ومكث بالمارستان أيامًا، ثم شُفي ولازم الإقرا والإفادة، ثم تلقن من شيخنا الشيخ محمود الكردي وقطع الأسماء عليه وألبسه التاج وواظب على مجالسته، وكان في قلة من خشونة العيش وضيق المعيشة؛ فلا يطبخ في داره إلا نادرًا، وبعض معارفه يواسونه ويرسلون إليه الصحفة من الطعام أو يدْعونه ليأكل معهم، ولما عرفه الناس واشتُهر ذكره فواصله بعض تجار الشوام وغيرهم بالزكوات والهدايا والصلات، فراج حاله وتجمل بالملابس وكبر تاجه.

ولما تُوُفِّيَ الشيخ الكردي كان المترجم من جملة خلفاه، وضم إليه أشخاصًا من الطلبة والمجاورين الذين يحضرون في درسه، يأتون في كل ليلة عشا يذكرون معه ويعمل لهم في بعض الأحيان ثريدًا، ويذهب بهم إلى بعض البيوت في مياتم الموتى وليالي السبح والجمع المعتادة، ومعهم منشدون ومولهون ومن يقرا الأعشار عند ختم المجلس، فياكلون العشا ويسهرون حصة من الليل في الذكر والإنشاد والتوله، وينادون في إنشادهم بقولهم: يا بكري مدد يا حفني مدد يا شرقاوي مدد، ثم يأتون إليهم بالطاري وهو الطعام بعد انقضا المجلس، ثم يعطونهم أيضًا دراهم، ثم اشترى له دار بحارة كتامة المسماة بالعينية، وساعده في تمنها بعض من يعاشره من المياسير، وترك الذهاب إلى البيوت إلا في النادر.

واستمر على حالته حتى مات الشيخ أحمد العروسي، فتولى بعده مشيخة الجامع الأزهر فزاد في تكبير عمامته وتعظيمها حتى كان يضرب بعظمها المثل.

وكانت تعارضت فيه وفي الشيخ مصطفى الصاوي ثم حصل الاتفاق على المترجم، وأن الشيخ الصاوي يستمر في وظيفة التدريس بالمدرسة الصلاحية المجاورة لضريح الإمام الشافعي بعد صلاة العصر، وهي من وظايف مشيخة الجامع، ولما تولاها الشيخ العروسي تعدى على الوظيفة المذكورة الشيخ محمد المصيلحي الضرير، وكان يرى في نفسه أنه أحق بالمشيخة من العروسي، فلم ينازعه فيه حسمًا للشر.

فلما مات المصيلحي تنزه عنها العروسي، وأجلس فيها الصاوي وحضر درسه في أول ابتداه لكونه من خواص تلامذته.

فلما مات العروسي وتولى المترجم المشيخة اتفقوا على بقا الصاوي في الوظيفة، ومضى على ذلك أشهر، ثم إن المجتمعين على الشرقاوي وسوسوا له وحرَّضوه على أخذ الوظيفة وأن مشيخته لا تتم إلا بها، وكان مطواعًا فكلم في ذلك الشيخ محمد بن الجوهري وأيوب بك الدفتردار ووافقاه على ذلك، واغتر بهما وذهب بجماعته ومن انضم إليهم وهم كثيرون وقرا بها درسًا.

فلم يحتمل الصاوي ذلك وتشاور مع ذوي الرأي والمكايد من رفقاه كالشيخ بدوي الهيتمي وأضرابه، فبيتوا أمرهم وذهب الشيخ مصطفى إلى رضوان كتخدا إبراهيم بك الكبير، وله به صداقة ومعاملة ومقارضة، فسامحه في مبلغ كان عليه له، فعند ذلك اهتم رضوان كتخدا المذكور، وحضر عند الشرقاوي وتكلم معه وأفحمه، ثم اجتمعوا في تاني يوم ببيت الشرقاوي وحضر الصاوي وعزوته وباقي الجماعة، فقال الشرقاوي: اشهدوا يا جماعة أن هذه الوظيفة استحقاقي وأنا نزلت عنها إلى الشيخ مصطفى الصاوي، فقال له الصاوي: ارجع، أما الآن فلا، ولا جميلة لك الآن في ذلك، وباكته بكلام كثير، وبإنفاذه لرأي من حوله وغير ذلك، وانفض المجلس على منعه من الوظيفة واستمرار الصاوي فيها إلى أن مات، فعادت إلى المترجم عند ذلك من غير منازع فواظب الإقرا فيها مدة، وطالب سدنة الضريح بمعلومها فماطلوه فتشاجر معهم وسبهم، فشكوه للمعاضدين لهم وهم أهل المكايد من الفُقها وغيرهم، وتعصبوا عليه وأنهوا إلى الباشا وضموا إلى ذلك أشيا حتى أغروا عليه صدره، واتفقوا على عزله من المشيخة.

ثم انحط الأمر على أن يلزم داره ولا يخرج منها ولا يتداخل في شي من الأشيا، فكان ذلك أيامًا ثم عفا عنه الباشا بشفاعة القاضي، فركب وقابله ولكن لم يعد إلى القراية في الوظيفة، بل استناب فيها بعض الفُقها وهو الشيخ محمد الشبراويني.

ولما حضرت الفرنساوية إلى مصر في سنة تلات عشرة ومايتين وألف، ورتبوا ديوانًا لإجرا الأحكام بين المسلمين جعلوا المترجم ريس الديوان، وانتفع في أيامهم بما يتحصل

إليه من المعلوم المرتب له عن ذلك وقضايا وشفاعات لبعض الأجناد المصرية وجعالات على ذلك، واستيلا على تركات وودايع خرجت أربابها في حادثة الفرنساوي وهلكوا.

واتسعت عليه الدنيا وزاد طمعه فيها واشترى دار ابن بيرة بظاهر الأزهر وهي دار واسعة من مساكن الأمرا الأقدمين، وزوجته بنت الشيخ علي الزغفراني هي التي تدبر أمره وتحرز كل ما يأتيه ويجمعه ولا يروح ولا يغدو إلا عن أمرها ومشورتها، وهي أم ولده سيدي علي الموجود الآن، وكانت قبل زواجه بها في قلة من العيش، فلما كثرت عليه الدنيا اشترت الأملاك والعقار والحمامات والحوانيت بما يغل إيراده مبلغًا في كل شهر له صورة.

وعمل مهمًا لزواج ابنه المذكور في أيام محمد باشا خسرو سنة سبع عشرة ومايتين وألف، ودعا إليه الباشا وأعيان الوقت فاجتمع إليه شي كثير من الهدايا، ولما حضر إليه الباشا أنعم على ابنه بأربعة أكياس عنها تمانون ألف درهم، وذلك خلاف البقاشيش.

واتفق للمترجم في أيام الأمرا المصرية أن طايفة المجاورين بالأزهر من الشرقاويين يقطنون بمدرسة الطيبرسية بباب الأزهر، وعمل لهم المترجم خزاين برواق معمر، فوقع بينهم وبين بعض المجاورين بها مشاجرة، فضربوا نقيب الرواق، فتعصب لهم الشيخ إبراهيم السجيني شيخ الرواق على الشرقاويين، ومنعوهم من الطيبرسية وخزاينها وقهروا المترجم وطايفته فتوسط بامرأه عميا فقيهة تحضر عنده في درسه إلى عديلة هانم ابنة إبراهيم بك، فكلمت زوجها إبراهيم بك المعروف بالوالي بأن يبني له مكانًا خاصًّا بطايفته فأجابه إلى ذلك.

وأخذ سكن أمام الجامع المجاور لمدرسة الجوهرية من غير ثمن، وأضاف إليه قطعة أخرى وأنشأ ذلك رواقًا خاصًّا بهم، ونقل إليه الأحجار والعامود والرخام الذي بوسطها من جامع الملك الظاهر بيبرس خارج الحسينية، وهو تحت نظر الشيخ إبراهيم السجيني ليكون ذلك نكاية له نظير تعصبه عليه، وعمل به قوايم وخزاين واشترى له غلالًا من جرايات الشون وأضافها إلى أخباز الجامع، وأدخلها في دفتره يستلمها خباز الجامع ويصرفها خبز قرصة لأهل ذلك الرواق في كل يوم، ووزعها على الأنفار الذين اختارهم من أهل بلاده.

ومما اتفق للمترجم أن بخارج باب البرقية خانكاه أنشأتها خوند طغاي الناصرية بالصحرا على يمنة السالك إلى وهدة الجبانة المعروفة الآن بالبستان، وكان الناظر عليها شخص من شهود المحكمة يقال له ابن الشاهيني، فلما مات تقرر في نظرها المترجم.

واستولى على جهات إيرادها، فلما ولج الفرنساوية أراضي مصر وأحدثوا القلاع فوق التلول والأماكن المستعلية حوالي المدينة، هدموا منارة هذه الخانكاه وبعض الحوايط

الشمالية وتركوها على ذلك، فلما ارتحلوا عن أرض مصر بقيت على وضعها في التخرب، وكانت ساقيتها تجاه بابها في علوة يصعد إليها بمزلقان، ويجري الماء منها إلى الخانكاه على حايط مبني وبه قنطرة يمر من تحتها المارون، وتحت الساقية حوض لسقي الدواب، وقد أدركنا ذلك وشاهدنا دوران الثور في الساقية.

ثم إن المترجم أبطل تلك الساقية وبنى مكانها زاوية وعمل لنفسه بها مدفنًا، وعقد عليه قبة وجعل تحتها مقصورة بداخلها تابوت عالٍ مربع، وعلى أركانه عساكر فضة، وبنى بجانبها قصرًا ملاصقًا لها يحتوي على أروقة ومساكن ومطبخ وكلار، وذهبت الساقية في ضمن ذلك وجعلها بيرًا وعليه خرزة يملون منها بالدلو، ونُسيت تلك الساقية وانطمست معالمها وكأنها لم تكن، وقد ذكر هذه الخانكاه العلامة المقريزي في خططه عند ذكر الخوانك، لا بأس بإيراد ما نصه للمناسبة، فقال: خانكاه أم أنوك هذه الخانكاه خارج باب البرقية بالصحرا، أنشأتها الخاتون طغاي تجاه تربة الأمير طاشتمر الساقي، فجات من أجل المباني وجعلت بها صوفية وقرا، ووقفت عليها الأوقاف الكثيرة، وقررت لكل جارية من جواريها مرتبًا يقوم بها، ثم ترجمها بقوله: طغاي الخوندة الكبرى زوج السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون وأم ابنه الأمير أنوك، كانت من جملة إماه فأعتقها وتزوجها، ويقال إنها أخت الأمير آقبغا عبد الواحد، وكانت بديعة الحسن باهرة الجمال، من السعادة ما لم يرَه غيرها من نسا ملوك الترك بمصر، وتنعمت في ملاذ ما وصل سواها لمثلها، ولم يدم السلطان على محبة امرأة سواها، وصارت خوندة بعد ابنة توكاي أكبر نساه حتى من ابنة الأمير تنكز، وحج بها القاضي كريم الدين الكبير، واحتفل بأمرها وحمل لها البقول في محاير طين على ظهور الجِمال، وأخذ لها الأبقار الحلابة فسارت معها طول الطريق لأجل اللبن الطري والجبن، وكان يقلي لها الجبن في الغدا والعشا، وناهيك بمن وصل إلى مداومة البقل والجبن واللبن في كل يوم بطريق الحج فما عساه يكون بعد ذلك؟!

وكان القاضي كريم الدين وأمير مجلس وعدة من الأمرا يترجلون عند النزول، ويسيرون بين يدي محفتها ويقبلون الأرض لها كما يفعلون بالسلطان، ثم حج بها الأمير بشتاك في سنة تسع وتلاتين وسبعماية.

وكان الأمير تنكز إذا جهز من دمشق تقدمة للسلطان لا بد أن يكون لخوند طغاي منها جزء وافر، فلما مات السلطان الملك الناصر استمرت عظمتها من بعده إلى أن ماتت في شهر شوال سنة تسع وأربعين وسبعماية أيام الوبا عن ألف جارية وتمانين خصيًّا

وأموال كثيرة جدًّا، وكانت عفيفة طاهرة كثيرة الخير والصدقات والمعروف، جهزت ساير جواريها وجعلت على قبر ابنها بقبة المدرسة الناصرية بين القصرين قراء، ووقفت على ذلك وقفا وجعلت من جملته خبزًا يفرق على الفقرا، ودُفنت بهذه الخانكاه وهي من أعمر الأماكن إلى يومنا هذا. انتهى كلامه.

يقول الحقير: إني دخلت هذه الخانكاه في أواخر القرن الماضي، فوجدت بها روحانية لطيفة، وبها مساكن وسكان قاطنون بها وفيهم أصحاب الوظايف، مثل: المؤذن والوقاد والكناس والملا، ودخلت إلى مدفن الواقفة وعلى قبرها تركيبة مكن الرخام الأبيض، وعند راسها ختمة شريفة كبيرة على كرسي بخط جليل، وهي مذهبة وعليها اسم الواقفة — رحمها الله تعالى — فلو أن الشيخ المترجم عمر هذه الخانكاه بدل هذا الذي ارتكبه من تخريبها لكان له بذلك منقبة وذكر حسن في حياته وبعد مماته، وبالله التوفيق.

وللمترجم طبقات جمعها في تراجم الفقها الشافعية المتقدمين والمتأخرين من أهل عصره ومن قبلهم من أهل القرن الثاني عشر، نقل تراجم المتقدمين من طبقات السبكي والإسنوي، وأما المتأخرون فنقلهم من تاريخنا هذا بالحرف الواحد، وأظن أن ذلك آخر تأليفاته، وعمل تاريخًا قبله مختصرًا في نحو أربعة كراريس عند قدوم الوزير يوسف باشا إلى مصر وخروج الفرنساوية منها، وأهداه إليه عدد فيه ملوك مصر وذكر في آخره خروج الفرنسيس ودخول العثمانية في نحو ورقتين، وهو في غاية البرود وغلط فيه غلطات، منها أنه ذكر الأشرف شعبان ابن الأمير حسين بن الناصر محمد بن قلاوون فجعله ابن السلطان حسن، ونحو ذلك.

ولم يزل المترجم حتى تعلل ومات في يوم الخميس ثاني شهر شوال من السنة، وصُلي عليه بالأزهر في جمع كثير، ودُفن بمدفنه الذي بناه لنفسه كما ذُكر، ووضعوا على تابوته المذكور عمامة كبيرة أكبر من طبيزيته التي كان يلبسها في حياته بكثير، وعمموها بشال أخضر وعصبوها بشال كشميري أحمر، ووقف شخص عند باب مقصورته وبيده مقرعة يدعو الناس لزيارته ويأخذ منهم دراهم.

ثم إن زوجته وابنها ومن يلوذ بهم ابتدعوا له مولدًا وعيدًا في أيام مولد العفيفي، وكتبوا بذلك فرمانًا من الباشا ونادى به تابع الشرطة بأسواق المدينة على الناس بالاجتماع والحضور لذلك المولد، وكتبوا أوراقًا ورسايل للأعيان وأصحاب المظاهر وغيرهم بالحضور، وذبحوا ذبايح وأحضروا طباخين وفراشين، ومدوا أسمطة بها أنواع الأطعمة والحلاوات والمحمرات والخشافات لمن حضر من الفقها والمشايخ والأعيان وأرباب

الأشاير والبدع، ونصبوا قبالة تلك القبة صواري علقوا بها قناديل وبيارق وشراريب حمرا وصفرا يلوحها الريح.

واجتمع حول ذلك من غوغا الناس وعملوا قهاوي وبياعي الحلوى والمخللات والترمس المملح والفول المقلي، ودهسوا ما بتلك البقعة من قبور الأموات وأوقدوا بها النيران وصبوا عليها القاذورات مع ما يلحقهم من البول والغايط، وأما ضجة الأوباش والأولاد وصراخهم وفرقعتهم بالبارود وصياحهم وضجيجهم، فقد شاهدنا به ما كنا نسمعه من عفاريت الترب وضرب المثل بهم، فهم أقبح منهم، فإن العفاريت الحقيقية لم نرَ لهم أفعالًا مثل هذه.

ولما مات الشيخ المترجم ومضى على موته ثلاثة أيام اجتمع المشايخ في يوم الأحد خامسه، وطلعوا إلى القلعة ودخلوا إلى الباشا وذكروا له موت المترجم ويستأذنونه فيمن يجعلونه شيخًا على الأزهر، فقال لهم الباشا: اعملوا رأيكم واختاروا شخصًا يكون خاليًا من الأغراض وأنا أقلده ذلك، فقاموا من مجلسه ونزلوا إلى بيوتهم واختلفت آراهم؛ فالبعض اختار الشيخ المهدي، والبعض ذكر الشيخ محمد الشنواني، وأما الشيخ محمد الأمير فإنه امتنع من ذلك، وكذلك ابن الشيخ العروسي، والشيخ الشنواني المذكور منعزل عنهم وليس له درس بالأزهر ويقرا دروسه بجامع الفاكهاني الذي في العقادين، وبيده وظايف خدم الجامع، وعند فراغه من الدروس يغير ثيابه ويكنس المسجد ويغسل القناديل ويعمرها بالزيت والفتايل، حتى يكنس المراحيض، فلما بلغه أنهم ذكروه تغيب.

ثم إن الباشا أمر القاضي وهو بهجة أفندي بأن يجمع المشايخ عنده ويتفقوا على شخص يجتمع رأيهم عليه بالشرط المذكور، فأرسل إليهم القاضي وجمعهم، وذلك في يوم التلات سابعه، وحضر فُقها الشافعية مثل القويسني والفضالي وكثير من المجاورين والشوام والمغاربة، فسأل القاضي: هل بقي أحد؟ فقالوا: لم يكن أحد غايبًا عن الحضور إلا ابن العروسي والهيتمي والشنواني، فأرسلوا إليهم فحضر العروسي والهيتمي، فقال: وأين الشنواني؟ فلا بد من حضوره، فأرسلوا رسولًا فغاب ورجع وبيده ورقة ويقول الرسول: إنه له ثلاثة أيام غايبًا عن داره وترك هذه الورقة عند أهله، وقال إن طلبوني أعطوهم هذه الورقة، فأخذها القاضي وقرأها جهارًا، يقول فيها: بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، لحضرة شيخ الإسلام: إننا نزلنا عن المشيخة للشيخ بدوي الهيتمي. إلى آخر ما قال.

فعندما سمع الحاضرون ذلك القول قاموا قومة وأكثرهم طايفة الشوام، وقال بعضهم: هو لم يثبت له مشيخة حتى إنه ينزل عنها لغيره، وقال كبارهم من المدرسين:

لا يكون شيخًا إلا من يدرس العلوم ويفيد الطلبة، وزادوا في اللغط فقال القاضي: ومن الذي ترضونه؟ فقالوا: نرضى الشيخ المهدي، وكذلك قال البقية وقاموا وصافحوه وقروا الفاتحة وكتب القاضي إعلامًا إلى الباشا بما حصل وانفض الجمع، وركب الشيخ المهدي إلى بيته في كبكبة وحوله وخلفه المشايخ وطوايف المجاورين، وشربوا الشربات وأقبلت عليه الناس للتهنية، وانتظر جواب الإعلام بقية ذلك اليوم فلم يأتِ الجواب، ومضى اليوم التاني والمدبرون يدبرون شغلهم.

وأحضروا الشيخ الشنواني من المكان الذي كان متغيبًا فيه بمصر القديمة وتمموا شغلهم، وأحضروا السيد منصور اليافاوي المنفصل عن مشيخة الشوام ليلًا ليعيدوه إلى مشيخة الشوام ويمنعوا الشيخ قاسمًا المتولي قمعًا له ولطايفته الذين تطاولوا في مجلس القاضي بالكلام، وجمعوا بقية المشايخ آخر الليل وركبوا في الصباح إلى القلعة، فقابلوا الباشا فخلع على الشيخ محمد الشنواني فروة سمور وجعله شيخًا على الأزهر، وكذلك على السيد منصور اليافاوي ليكون شيخًا على رواق الشوام كما كان في السابق، ثم نزلوا وركبوا وصحبتهم أغات الينكجرية بهيئة الموكب، وعلى راسه المجوزة الكبيرة وأمامه الملازمون بالبراقيع والريش على روسهم، وما زالوا سايرين حتى دخلوا حارة خوشقدم، فنزلوا بدار ابن الزليجي؛ لأن دار الشيخ الشنواني صغيرة وضيقة لا تسع ذلك الجمع، والذي أنزله في ذلك المنزل السيد محمد المحروقي، وقام له بجميع الاحتياجات، وأرسل من الليل الطباخين والفراشين والأغنام والأرز والحطب والسمن والعسل والسكر والقهوة والشربات والبخور وما الورد، وازدحمت الناس عليه وأتوا أفواجًا إليه.

وكان ذلك يوم التلات رابع عشره، ووصل الخبر إلى الشيخ المهدي ومن معه وحصل لهم كسوف وبطلت مشيخته، ولما كان يوم الجمعة حضر الشيخ الجديد إلى الأزهر وصلى الجمعة، وحضر باقي المشايخ وعملوا الختم للشيخ الشرقاوي، وحصل ازدحام عظيم وخصوصًا للتفرج على الشيخ الجديد، وكأنه لم يكن طول دهره بينهم ولا يلتفتون إليه، وبعد فراغ الختم أنشد المنشد قصيدة يرثي بها المُتَوَفَّى من نظم الشيخ عبد الله العدوي المعروف بالقاضي وانفض الجمع.

ومات الأستاذ المكرم بقية السلف الصالحين، ونتيجة الخلف المعتقد الشيخ محمد المكنى أبا السعود ابن الشيخ محمد جلال ابن الشيخ محمد أفندي المكنى بأبي المكارم ابن السيد عبد المنعم ابن السيد محمد المكنى بأبي السرور صاحب الترجمة، ابن السيد القطب الملقب بأبي السرور البكري الصديقي العمري من جهة الأم، تولى خلافة سجادتهم في

سنة سبع عشرة ومايتين وألف عندما عزل ابن عمه السيد خليل البكري، ولم تكن الخلافة في فرعهم، بل كانت في أولاد الشيخ أحمد بن عبد المنعم وآخرهم السيد خليل المذكور.

فلما حضرت العتمانية إلى مصر واستقر في ولايتها محمد باشا خسرو سعى في السيد خليل الكارهون له، وأنهوا إليه فيه ورموه بالقبايح، ومنها تداخله في الفرنسيس وامتزاجه بهم، وعزلوه من نقابة الأشراف ورُدت للسيد عمر مكرم، ولم يكتفوا بذلك وذكروا أنه لا يصلح لخلافة البكرية، فقال الباشا: وهل موجود في أولادهم خلافه؟ قالوا: نعم، وذكروا المترجم فيمن ذكروه وأنه قد طعن في السن وفقير من المال، فقال الباشا: الفقر لا ينفي النسب، وأمر له بفرس وسرج وعباءة كعادة مركوبهم، فأحضروه وألبسوه التاج والفرجية وخلع عليه الباشا فروة سمور، وأنعم عليه بخمسة أكياس، وأن يأخذ له فايظًا في بعض الإقطاعات ويعفى من الحلوان.

وسكن بدار جهة باب الخرق وراج أمره واشتُهر ذكره من حينئذٍ، وسار سيرًا حسنًا مقرونًا بالكمال جاريًا على نسق نظامهم بحسب الحال، ويتحاكم لديه حلفا الطرايق الصورية وأصحاب الأشاير البدعية كالأحمدية والرفاعية والبرهامية والقادرية، فيفصل قوانينهم العادية، وينتقل في أوايل شهر ربيع الأول إلى دار بالأزبكية بدرب عبد الحق، فيعمل هناك وليمة المولد النبوي على العادة، وكذلك مولد المعراج في شهر رجب بزاوية الدشطوطي خارج باب العدوي، ولم يزل على حالته وطريقته مع انكسار النفس إلى أن ضعفت قواه وتعلل ولازم الفراش، فعند ذلك طلب الشيخ الشنواني وباقي المشايخ وعرَّفهم أن مرضه الذي هو به مرض الموت؛ لأنه بلغ التسعين وزيادة، وأنه عهد بالخلافة على سجادتهم لولده السيد محمد؛ لأنه بالغ رشيد، والتمس منهم بأن يركبوا معه من الغد ويطلعوا إلى القلعة ويقابلوا به الباشا فأجابوه إلى ذلك، وركبوا من الغد صحبته إلى القلعة فخلع عليه الباشا فروة سمور، ونزل إلى داره بالأزبكية بدرب عبد الحق. وتُوُفِّيَ المترجم في أواخر شهر شوال من السنة، وحضروا بجنازته إلى الأزهر فصلوا عليه وذهبوا به إلى القرافة ودُفن بمشهد أسلافهم — رحمه الله تعالى.

ومات الأجل المكرم المهذب في نفسه، النادرة في أبنا جنسه، محمد أفندي الودنلي الذي عرف بناظر المهمات، ويعرف أيضًا بطبل أي الأعرج؛ لأنه كان به عرج.

وقدم إلى مصر في أيام قدوم الوزير يوسف باشا، وولاه محمد باشا خسرو كشوفية أسيوط، ثم رجع إلى مصر في ولاية محمد علي باشا فجعله ناظرًا على مهمات الدولة، وسكن ببيت سليمان أفندي ميسو بعطفة أبي كلبة بناحية الدرب الأحمر، فتقيد بعمل

الخيام والسروج واليرقات ولوازم الحروب، فضاقت عليه الدار فاشترى بيت ابن الدالي باللبودية بالقرب من قنطرة عمرشاه، وهي دار واسعة عظيمة متخربة هي وما حولها من الدور والرباع والحوانيت، فعمرها وسكن بها ورتب بها ورشات أرباب الأشغال والصنايع والمهمات المتعلقة بالدولة كسبك المدافع والجلل والقنابر والمكاحل والعربات، وغير ذلك من الخيام والسروج ومصاريف طوايف العساكر الطبجية والعربجية والرماة.

وعمر ما حول تلك الدار من الرباع والحونيت والمسجد الذي بجواره ومكتبًا لإقرا الأطفال، ورتب تدريسًا في المسجد المذكور بعد العصر وقرر فيه السيد أحمد الطهطاوي الحنفي ومعه عشرة من الطلبة، ورتب لهم ألف عثماني تُصرف لهم من الروزنامة، وللأطفال وكسوتهم خلاف ذلك، ويشتري في عيد الأضحى جواميس وكباشًا يذبح منها ويفرق على الفقرا والموظفين، ويرسل إلى أصحابه عدة كباش في عيد الأضحية إلى بيوتهم الكبش والكبشين على قدر مقاديرهم، ويرسل في كل ليلة من ليالي رمضان عدة قصاع مملوة بالثريد واللحم إلى الفقرا بالجامع الأزهر.

واتفق أن الباشا قصد تعمير المجراة والسواقي التي تنقل الماء من النيل إلى القلعة، وكانت قد تهدمت وتخربت وتلاشت وبطل عملها مدة سنين، فأحضروا المعمارجية فهولوا عليه أمرها وأخبروه أنها تحتاج خمسماية كيس تنفق في عمارتها، فعرض ذلك على المترجم فقال له: أنا أعمرها بماية كيس، قال: كيف تقول؟ قال: بل بتمانين كيسًا، والتزم بذلك، ثم شرع في عمارتها حتى أتمها على ما هي عليه الآن، وأهدى إليه رجال دولتهم عدة أثوار معونة له فعمر أيضًا سواقيها وأدارها وجرى فيها الماء إلى القلعة ونواحيها، وانتفع بها أهل تلك الجهات ورخص الماء وكثر في تلك الأخطاط، وكانوا قاسوا شدة من عدم الماء عدة سنين.

ومما عُدَّ من مناقبه أن القلقات المقيدين بالمراكز وأبواب المدينة كانوا يأخذون من الواردين والداخلين والخارجين والمسافرين من الفلاحين وغيرهم ومعهم أشيا أو أحمال ولو حطبًا أو برسيمًا أو تبنًا أو سرجينًا دراهم على كل شي، ولو امرأه فقيرة معها أو على راسها مقطف من رجيع البهايم تبيعه في الشارع وتقتات بتمنه، فيحجزونها ولا يدعونها تمر حتى تدفع لهم نصف فضة ثم يأخذون أيضًا من ذلك الشي، ويأخذون على كل حمل حمار أو بغل أو جمل نصف فضة، وإذا اشترى شخص من ساحل بولاق أو مصر القديمة أردب غلة أو حملة حطب لعياله، أخذ منه المتقيدون عند قنطرة الليمون، فإذا خلص منهم استقبله الكاينون بالباب الحديد، وهكذا ساير الطرق التي يدخل منها

المارة إلى المدينة ويخرجون، مثل: باب النصر وباب الفتوح وباب الشعرية وباب العدوي وطرق الأزبكية وباب القرافة والبرقية وطرق مصر القديمة، فسعى المترجم بإبطال ذلك وتكلم مع الباشا وعرفه تضرر الناس وخصوصًا الفقرا، وهولا المتقيدون لهم علايف يقبضونها من الباشا كغيرهم وهذا قدر زايد، فرخص له في إبطال هذا الأمر، وكتب له بيورلدي بمنع هولا المركوزين عن أخذ شي من الناس جملة كافية، وقيد بكل مركز شخصًا من أتباعه لمراقبتهم، وأشاع ذلك في الناس فانكفوا وامتنعوا عن أخذ شي من عامة الناس، وكانوا يجمعون من ذلك مقادير من الفضة العددية يتقاسمونها آخر النهار، وذلك خلاف ما يأخذونه من الأشيا المحمولة كالجبن والزبد والخيار والقثا وأنواع البطيخ والفاكهة والبرسيم والأحطاب والخضارات وغير ذلك.

ومن مناقبه أيضًا أن الجاويشية والقواسة الأتراك المختصين بخدمة الباشا والكتخدا كان من عوايدهم القبيحة أنهم في كل يوم جمعة يلبسون أحسن ملابسهم، وينتشرون بالمدينة ويطوفون على بيوت الأعيان وأرباب المظاهر وأصحاب المناصب ويأخذون منهم البقاشيش، ويسمونها الجمعية، فما هو إلا أن يصطبح أحد من ذكر ويجلس مجلسه إلا واثنان أو تلاتة عابرون عليه من غير استيذان فيقفون قبالته وبأيديهم العصي المفضضة، فيعطيهم القرشين أو التلاتة بحسب منصبه ومقامه، فإذا ذهبوا وانصرفوا حضر إليه خلافهم وهكذا، ولا يرون في ذلك ثقلًا ولا رذالة، بل يرون أن ذلك من اللازمات الواجبة، فلا يكفي أحد المقصودين الخمسون قرشًا أو أقل أو أكثر في ذلك اليوم تذهب سبهللًا، فكان منهم من ينقطع في حريمه ذلك اليوم أو يتوارى ويتغيب في منزله، فإذا صادفوه مرة أخرى ذاكروه فيما فاتهم في السابق، فإما سامحوه وامتنوا عليه بتركها أو طالبوه بها إن لم يكن ممن يخشونه فسعى أيضًا المترجم مع الباشا على منعهم من ذلك.

ومن مساويه أنه أول من فتح باب الزيادة في متحصل الضربخانة، حتى تنبه الباشا من ذلك الوقت لأهل الضربخانة وأوقع بهم ما تقدم ذكره.

ومنها إحداث المكس على اللبان والحنا والصمغ على ما قيل:

ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها كفى المرء نبلًا أن تعد معايبه

وبالجملة، فمن راس العين يأتي الكدر كما قال الليث بن سعد لما سأله الرشيد وقال له: يا أبا الحرث، ما صلاح بلدكم؟ فقال له: أما صلاح أمر زراعتها وجدبها وخصبها

فبالنيل، وأما صلاح أحكامها فمن راس العين يأتي الكدر، فقال له: صدقت. ذكر ذلك الحافظ ابن حجر في المرحمة الغيثية في الترجمة الليثية.

وعلى كل فكان المترجم أحسن مَن رأينا في هذه الدولة، وكان قريبًا من الخير وفِعله، مواظبًا على الصلوات الخمس في أوقاتها، ملازمًا على الاشتغال ومطالعة الكتب والممارسة في دقايق الفنون.

واقتنى كتبًا كثيرة في ساير الفنون واستنباط الصنايع، حتى إنه صنع الجوخ الملون الذي كان يعمل ببلاد الإفرنج ويجلب إلى الآفاق ويلبسه الناس للتجمل، وكان قل وجوده بمصر وغلا ثمنه فعمل عدة أنوال ومناسج غريبة الوضع، وأحضر أشخاصًا من النساجين فنسجوا الصوف بعد غزله مدات حددها لهم في الطول والعرض، ثم يتسلمه رجال أعدهم لتخميره وتلبيده بالقِلى والصابون منشورًا ومطويًّا بكيفيات في أوقات وأيام بمباشرته لهم في العمل وإشارته، ثم يضعونه مطويًّا في أحواض من خشب تخين مزفت تمتلي بالماء من ساقية صنعها لخصوص ذلك، يصب منها الماء إلى تلك الأحواض تديرها الأثوار، وعلى تلك الأحواض مدقات شبيهة بمدقات الأرز تتحرك في صعودها وهبوطها من ترس خاص يدور بدوران الساقية، وما يفيض من ماء الأحواض يجري إلى بستان زرعه حول ذلك، فيسقي ما به من الأشجار والمزارع فلا يذهب الماء هدرًا، ثم يخرجونه بعد ذلك ويبردخونه ويصبغونه بأنواع الأصباغ، ويضعونه في مكبس كبير يقال له التخت صنعه لذلك، وعند ذلك يتم عمله، فكان الناس يذهبون للتفرج على ذلك لغرابته عندهم.

ثم حضر إليه شخص فرنساوي وأشار عليه بإشارات في تغيير المدقات وأفسد العمل، واشتغل هو بكثرة المهمات فتكاسل عن إعادتها ثانيًا وبطل ذلك.

وكان مع كثرة أشغاله ومصاريفه ليس له كاتب، بل يكتب ويحسب لنفسه، وبين يديه عدة دفاتر لكل شي دفتر مخصوص ولا يشغله شي عن شي.

ولما اتسعت دايرته وكثرت حاشيته، واجتمعت فيه عدة مناصب مضافة لنظر المهمات، مثل: معمل البارود وقاعة الفضة ومدابغ الجلود وغير ذلك، فكان كتخدا بك يحقد عليه في الباطن لأمور بينهما حتى قيل: إن نفسه طمحت في الكتخداية، فكان يتصدر في الأمور والقضايا ويرافع ويدافع، ويهزل مع الباشا ويضاحكه ويرادده ويدخل عليه من غير استيذان.

فلم يزل الكتخدا يلقي فيه الدسايس ويعمل معدن الأشغال التي تحت نظره، ويعرف الباشا بما يتوفر من ذلك حتى نزعه من نظارة جميع المهمات وقلدها صالح كتخدا الرزاز.

ومما نقمه عليه أن الكتخدا حضر لزيارة المشهد الحسيني في عصرية يوم من رمضان، ثم ركب متوجهًا إلى داره قبيل الغروب، فصادف في طريقه عدة قصاع كبار مغطاة تحملها الرجال، فسأل عنها فعرفوه أن المترجم يرسلها في كل ليلة من ليالي رمضان إلى فقرا الجامع الأزهر وبها الثريد واللحم، فامتعض من ذلك وعرَّف الباشا أنه يؤلف الناس، ويتوادد إليهم بأموالك ونحو ذلك.

واستمر المترجم بطالًا نحو السنتين، ولم يتضعضع ولم يظهر عليه تغير، ونظامه ومطبخه على حاله وطعامه مبذول وراتبه جارٍ، وفي تلك المدة اشتغل بمطالعة الكتب والممارسة والمدارسة، وعانى الحسابيات وصناعة التقويم حتى مهر في ذلك، وعمل الدستور السنوي وما يشتمل عليه من تقويم الكواكب السيارة، وتداخل التواريخ والأهلة والاجتماعات والاستقبالات وطوالع التحاويل والنصبات، ويصنع بيده أيضًا الصنايع الفايقة مثل الظروف التي تأتي من بلاد الهند والإفرنج والروم، ويضع فيها الكتبة محابرهم وأقلامهم فيصنعها أولًا من الخشب الرقيق والقرطاس المقوم المتلاصق، ويصبغها وينقشها بأنواع الليق، ويعيد على النقوشات بالسندروس المحلول، ويضعها في صندوق من الزجاج صنعه لخلوص تلك الأشيا والقبورات وجفاف دهانها بحرارة الشمس المحجوب بالزجاج عن الهوا والغبار، وعند تمامها تكون في غاية الحسن والظرافة والبهجة، بحيث لا يشك من يراها بأنها من صناعة الهند أو الإفرنج المتقنين الصناعة.

وكان كلما سمع بشخص ذي معرفة لصناعة البضايع أو المعارف، اجتهد في تحصيلها وتلقيها عنه بأي وجه كان، ولو ببذل الرغايب، وأعد بمنزله أماكن لأشخاص من أرباب المعارف، ينزلهم فيها ويُجري عليهم النفقات والكساوي حتى يجتني ثمار معارفهم وصنايعهم، ويجتمع عنده في كل ليلة جمعة جماعة من القرا التي مساكنهم قريبة من داره، فيذكر الله معهم حصة من الليل ثم يفرق فيهم دراهم.

ولما طال به الإهمال وفتور الأحوال والباشا قليل الإقامة بمصر، وأكثر أيامه غايب عنها فحسن بباله الرحلة من مصر إلى الديار الرومية ويذهب إلى بلاده، فاستأذن الباشا عند وداعه وهو متوجه إلى ناحية قبلي، فأذن له وأخذ في أسباب السفر، فأرسل الكتخدا إلى الباشا ودس إليه كلامًا فأرسل بمنعه ويرتب له خروجًا لمطبخه، فتعوَّق عن السفر على غير خاطره، وفي أوايل السنة حضرت إليه والدته وابنته وزوجها، فأنزلهم في دار تجاه داره، وأجرى عليهم ما يحتاجون إليه من النفقة، فاتفق أن صهره المذكور حلف يمينًا بالطلاق التلات وحنث فيه، ففرق بينه وبين ابنته وطرده، فشكاه إلى كتخدا بك، فكلمه في

شأنه فلم يقبل، وقال: لا يجوز أن أحلل المحرم لأجلك واستمر صهره يتردد على الكتخدا ويلقي ما يلقيه في حقه من النميمة، ويذكر له عنه في حقه ما يزيده غيظًا وكراهة، ويقول له: إنه يجمع أناسًا في كل ليلة جمعة يقرون ويدعون عليك وعلى مخدومك، وذكر له أنه يقول لكم: إن قصده السفر إلى بلده وإنما قصده السفر إلى إسلامبول وليجتمع على مخدومه الأول لكونه تولى قبودان باشا ورياسة الدونانمة، ويقول: عندما أكون بدار السلطنة أفعل وأفعل وأخبرهم بحقيقة هولا وأفاعيلهم، وأنقض عليهم أمرهم، وذكر له أيضًا أنه استخرج من أحكام النجوم التي يعانيها أن الباشا يحصل له نكبة بعد مدة قريبة، ويحصل ما يحصل من الفتن فيريد الخروج من مصر قبل وقع ذلك، ونحو ذلك.

فلما رجع الباشا من سفرته توسل المترجم بالكتخدا في أن يأخذ له إذنًا من الباشا بالسفر، وهو لا يعلم سريرته ففاوض الباشا في ذلك، وألقى إليه ما ألقاه حتى أوغر صدره منه، ثم رد عليه بقوله: إني استأذنت الباشا فلم يسهل به مفارقتك، وقال: إن كان عن ضيق في المعيشة فأطلق له في كل شهر كيسين عنها أربعون ألف نصف فضة، فلما قال له ذلك قال: أنا لا يكفيني هذا المقدار، فإن كان فيطلق لي خمسة أكياس، فقال: لم يرضَ بأزيد مما ذكرته لك، وكل ذلك مخادعة من الكتخدا ليحقق ما حشده في صدر مخدومه.

وما زال يتردد في طلب الإذن حتى أذن له وأضمر له القتل بعد خروجه من مصر، فعند ذلك باع داره وما استجده حولها، والبستان خارج قناطر السباع، وما زاد عن حاجته من الأشيا والأمتعة، واشترى عبيدًا وجواري وقضى لوازمه وسافر إلى رشيد.

فعندما مضى من نزوله يومان أو ثلاثة كتبوا إلى خليل بك حاكم إسكندرية مرسومًا بقتله، فبلغه خبر ذلك وهو بثغر رشيد فلم يصدقه، وقال: أي ذنب أستوجب به القتل؟ ولو أراد قتلي ما الذي يمنعه مني وأنا عنده بمصر؟ وأنا سافرت بإذنه وودعته وقبلت يديه وطرفه، وأخذت خاطره وهو مبشوش معي كعادته.

فلما حصل بإسكندرية واستقر بالسفينة ومضى أيام وهم ينتظرون اعتدال الريح والإذن من الحاكم بالإقلاع، وصل المرسوم إلى خليل بك، فأرسل في وقته يدعوه ليتغدى معه في راس التين، ونظر إلى خليل بك وهو واقف في انتظاره على بُعد منه فوق علوة، فأجاب وخرج من السفينة، فوصل إليه جماعة من العسكر وأحاطوا به، فتحقق عند ذلك ما كان بلغه وهو برشيد، ونظر إلى خليل بك فلم يرَه فقال: أمهلوني حتى أتوضأ وأصلي ركعتين، وقام من حلاوة الروح وألقى بنفسه في البحر، فضربوا عليه بالرصاص

وأخرجوه وتمموا قتله وأخرجوا صناديقه وأخذوا ما فيها من الكتب؛ لأن الباشا أرسل يطلبها، وأخذ ما معه من المال والدراهم خليل بك، فأعطى لولده جانبًا منه، وأذن له بالسفر مع عياله وانقضى، أمره ووصلت الكتب إلى سراية الباشا، وأودعت عند ولي خوجا وتبدد الكثير منها وفرق منها عدة على غير أهلها، وكانت قتلته في أواخر شهر صفر من السنة، والله أعلم.

سنة ثمانٍ وعشرين ومايتين وألف (١٨١٣م)

استهل المحرم بيوم الاتنين (سنة ١٢٢٨)

فيه وصل الخبر من الجهة القبلية بأن إبراهيم بك ابن الباشا قبض على أحمد أفندي ابن حافظ أفندي الذي بيده دفاتر الرزق الإحباسية وشنقه، وضرب قاسم أفندي ابن أمين الدين كاتب الشهر عَلْقَةً قوية، وكان والده يصحبهما معه ليباشرا معه الأمور ويعرفاه الأحوال، وكان قاسم أفندي خصيصًا به مثل الوزير والصاحب والنديم، ورتب له الباشا في كل سنة تمانين كيسًا خلاف الخروج والكساوي، وشرط عليه المناصحة في كشف المستورات وما يكون فيه تحصيل الأموال، فكأنه قصر في كشف بعض الأشيا وأرسل إلى والده يعلمه بخيانته هو وكاتب الأرزاق، وأنهما منهمكان في ملاذِّهما، فأذن له في فعله بهما ما ذكر، وأخذ ما كانا جمعاه لأنفسهما، وأظهر أنه إنما فعل ذلك بهما عقوبة على ارتكابهما المعصية.

وفي عشرينه حضر إبراهيم بك المذكور إلى مصر وفيه حصلت منافسة بين حسين أفندي الروزنامجي وبين شخصين من كتَّابه، وهما مصطفى أفندي باش جاجرت وقيطاس أفندي، ولعل ذلك بإغراء باطني على حسين أفندي، فرفعا أمرهما إلى الباشا وعرفاه عن مصارف وأمور يفعلها حسين أفندي ويخفيها عن الباشا، وأنه إذا حوسب على السنين الماضية يطلع عليه ألوف من الأكياس، فعندما سمع ذلك أمرهما بمباشرة حسابه عن أربع سنوات متقدمة، فخرجا من عنده وأخذا صحبتهما مباشرًا تركيًّا، ونزلوا على حسين غفلة بعد العصر وتوجهوا إلى منزل أخيه عثمان أفندي السروجي، ففتحوا خزانة الدفاتر وأخذوها بتمامها إلى بيت ابن الباشا إبراهيم بك الدفتردار.

واجتمعوا في صبحها للمحاققة والحساب مع أخيه عثمان أفندي المذكور، واستمروا في المناقشة والمحاققة عدة أيام مع المرافعة والميل الكلي على حسين أفندي، ويذهبون في كل ليلة يخبرون الباشا بما يفعلون وبالقدر الذي ظهر عليه فيعجبه ذلك ويثني عليهما ويحرضهما على التدقيق، فتنتفخ أوداجهما ويزيدان في الممانعة والمدافعة والمرافعة في الحساب، وحسين أفندي على جليته ويظن أنه على عادته في كونه مطلق التصرف في الأموال الميرية، ويبلغها إذا سيل فيها للقايم بالدولة إيرادًا ومصرفًا ليكون إجمالًا لا تفصيلًا لكونه أمينًا وعَدْلًا، وكان الإيراد والمصرف محررًا أو مضبوطًا في الدفاتر التي بأيدي الأفندية الكتَّاب ومن انضم إليهم من كتَّاب اليهود في دفاترهم أيضًا بالعبراني، لتكون كل فرقة شاهدة وضابطة على الأخرى.

فلما استقل هذا الباشا بمملكة الديار المصرية، واستغول في تحصيل الأموال بأي وجه، واستحدث أقلام المكوس وجعلها في دفاتر تحت أيدي الأفندية وكتبة الروزنامة، فصارت من جملة الأموال الميرية في قبضها وصرفها وتحاويلها، والباشا مرخي العنان للروزنامجي ومرخص له في الإذن والتصرف، والروزنامجي كذلك مرخي العنان لأحد خواص كتَّابه المعروف بأحمد اليتيم لفطانته ودرايته، فكان هو المشار إليه من دون الجميع، ويتطاول عليهم ويمقت من فعل فعلًا دون إطلاعه، وربما سبه ولو كان كبيرًا أو أعلى منزلة منه في فنه، فيمتلي غيظًا وينقطع عن حضور الديوان فيهمله ولا يسأل عنه، والأفندي الكبير الذي لا يخرج عن رأيه لكونه سادًّا مسد الجميع، فدبروا على أحمد أفندي المذكور وحفروا له وأغروا به حتى نكبه الباشا، وصادره في تمانين كيسًا، ومخدومه حسين أفندي في أربعماية كيس.

وانقطع أحمد أفندي عن حضور الديوان وتقدم المتأخر وضم الباشا إلى ديوانهم من طرفه خليل أفندي، وسموه كاتب الذمة، بمعنى أنه لا يكتب تحويلًا ولا ورقة ميري ولا خلاف ذلك مما يسطر في ديوانهم حتى يطلع عليه خليل أفندي المذكور ويرسم عليه علامته، فأحاط علمه بجميع أسرارهم، وكل قليل يستخبر منه الباشا فيحيطه بمعلوماته، ولم يزل حتى تحول ديوانهم وانتقل إلى بيت خليل أفندي تجاه منزل إبراهيم بك ابن الباشا بالأزبكية، وترأس بالديوان قاسم أفندي كاتب الشهر وقريبه قيطاس أفندي ومصطفى أفندي باش جاجرت، وبعد مدة أشهر سافر إبراهيم بك وأخذ صحبته قاسم أفندي على الصورة المتقدمة.

والروزنامجي وولده محمد أفندي يراعيان جانب رفيقيه ولا يتعرضان لهما فيما يتصدران له ويضمنانه في عهدتهما، فلما وصل الخبر بنكبة إبراهيم بك لقاسم أفندي

فعند ذلك قصرا معهما، وأظهر ابن الروزنامجي مكمون غيظه في حقهما، ومانعهما أيضًا وخشن القول لهما، فاتفقا على إنهاء الحال إلى باب الباشا ففعلا ما ذكر.

وكان حسين أفندي عندما استأذن الباشا في صرف الجامكية السايرة للعامة والخاصة، فأذن له صرف ما يتعلق بمشايخ العلم والأفندية الكتبة والسيد محمد المحروقي بالكامل وما عداهم ربع استحقاقهم، وكتب له فرمانًا بذلك، فقال له الروزنامجي: في بعضهم من يستحق المراعاة كبعض أهل العلم الخاملين، وأهل الحرمين المهاجرين ومستوطنين بمصر بعيالهم، وليس لهم إيراد يتعيشون منه إلا ما هو مرتب لهم من العلايف في كل سنة، وكذلك بعض الملتزمين الذين اعتادوا سداد ما عليهم من الميري، وبعضه بما لهم من الإتلافات والعلايف والغلال، فقال له: النظر في ذلك لرأيك، فإن هذا الشي يعسر ضبط جزئياته، فاعتمد ذلك وطفق يفعل في البعض بالنصف والبعض بالثلث أو الثلثين، وأما العامة والأرامل فيصرف لهم الربع لا غير حسب الأمر، ويقاسون في تحصيل ربع استحقاقهم الشدايد من السعي وتكرار الذهاب والتسويف والرجوع في الأكثر من غير شي مع بُعد المسافة، وفيهم الكثير من العواجز فلما ترافعوا في الحساب مانع المتصدر فيما زاد على الربع، وطلع إلى الباشا فعرفه بذلك، فقال الباشا: لا تخصموا له إلا ما كان بإذني وفرماني، وما كان بدون ذلك فلا، وأنكر الحال السابق منه له، وقال: هو متبرع فيما فعله، فتأخر عليه مبلغ كبير في مدة أربع سنوات.

وكذلك كان يحول عليه حوالات لكبار العسكر برسول من أتباعه، فلا يسعه الممانعة ويدفع القدر المحول عليه بدون فرمان اتكالًا على الحالة التي هو معه عليها، فرجعوا عليه في كثير من ذلك وتأخر عليه مبلغ كبير أيضًا فتمموا حساب سنة واحدة على هذا النسق فبلغت نحو الألف كيس ومايتي كيس وكسور تبلغ في الأربع سنوات خمسة آلاف كيس، فتقلق حسن أفندي وتحير في أمره وزاد وسواسه ولم يجد مغيثًا ولا شافعًا ولا دافعًا.

وفي أواخره عمل الباشا مهمًا لختان ابن بونابارته الخازندار الغايب ببلاد الحجاز، وعملوا له زفة في يوم الجمعة بعد الصلاة اجتمع الناس للفرجة عليها.

وفيه أيضًا زاد الإرجاف بحصول الطاعون وواقع الموت منه بإسكندرية، فأمر الباشا كورنتيلة بثغر رشيد ودمياط والبرلس وشبرا، وأرسل إلى الكاشف الذي بالبحيرة بمنع المسافرين المارين من البر، وأمر أيضًا بقراءة صحيح البخاري بالأزهر، وكذلك يقرون بالمساجد والزوايا سورة الملك والأحقاف في كل ليلة بنية رفع الوبا، فاجتمعوا إلا قليلًا بالأزهر نحو ثلاثة أيام، ثم تركوا ذلك وتكاسلوا عن الحضور.

وفي يوم الاتنين تاسع عشرينه كسفت الشمس وقت الصحوة، وكان المنكسف منها نحو تلاتة أرباع الجرم، وكانت الشمس في برج الدلو أيام الشتا، فأظلم الجو إلا قليلًا ولم ينتبه له كثير من الناس لظنهم أنها غيوم متراكمة؛ لأنهم في فصل الشتا.

واستهل شهر صفر بيوم الأربع (سنة ١٢٢٨)

فيه في أخريات النهار هبت ريح جنوبية غريبة عاصفة باردة، واستمرت لعصر يوم السبت، وكانت قوتها يوم الجمعة أثارت غبارًا أصفر ورمالًا مع غيم مطبق وقتام ورش مطر قليل في بعض الأوقات.

وفي يوم التلات سابعه وردت بشاير من البلاد الحجازية باستيلا العساكر على جدة ومكة من غير حرب؛ وذلك أنه لما انهزمت الأتراك في العلم الماضي، ورجعوا على الصورة التي رجعوا عليها مشتتين ومتفرقين، وفيهم من حضر من طريق السويس، ومنهم من أتى من البر، ومنهم من حضر من ناحية القصير، ونفى الباشا من استعجل بالهزيمة والرجوع من غير أمره ويخشى صولته ويرى في نفسه أنه أحق بالرياسة منه، مثل: صالح قوج وسليمان وحجو وأخرجهم من مصر واستراح منهم، ثم قتل أحمد أغا لاظ جدد ترتيبًا آخر، وعرفه كبرا العرب الذين استمالهم واندرجوا معه وشيخ الحويطات أن الذي حصل لهم إنما هو من العرب الموهبين، وهم عرب حرب والصفرا وأنهم مجهودون، والوهابية لا يعطونهم شيًّا ويقولون لهم: قاتلوا عن دينكم وبلادكم، فإن بذلتم لهم الأموال وأغدقتم عليهم بالإنعام والعطا ارتدوا ورجعوا وصاروا معكم وملَّكوكم البلاد، فاجتهد الباشا في جمع الأموال بأي وجه كان، واستأنف الطلب ورتب الأمور وأشاع الخروج بنفسه، ونصب العرضي خارج باب النصر، وذلك في شهر شعبان.

وخرج بالموكب كما تقدم وجلس بالصيوان وقرر السفر في المقدمة بونابارته الخازندار، وأعطاه صناديق الأموال والكساوي ورافق معه عابدين بك ومن يصحبهما، وواظب على الخروج إلى العرضي والرجوع، تارة إلى القلعة وتارة إلى الأزبكية والجيزة وقصر شبرا، ويعمل الرماحة والميدان في يومي الخميس والاتنين والمصاف على طرايق حرب الإفرنج.

وسافر بونابارته في أواخر شعبان، واستمر العرضي منصوبًا والطلب كذلك مطلوبًا والعساكر واردة من بلادها على طريق إسكندرية ودمياط، ويخرج الكثير إلى العرضي ويستمرون على الدخول إلى المدينة في الصباح لقضا أشغالهم والرجوع أخريات النهار، مع تعدي أذاهم للباعة والحمارة وغيرهم.

ولما غدر الباشا بأحمد أغا لاظ وقتله في أواخر رمضان، ولم يبقَ أحد ممن يخشى سطوته، وسافر عابدين بك في شوال، وارتحل بعده بنحو شهر مصطفى بك دالي باشا وصحبته عدة وافرة من العسكر، ثم سافر أيضًا يحيى أغا ومعه نحو الخمسماية، وهكذا كل قليل ترحل طايفة بعد أخرى، والعرضي كما هو وميدان الرماحة وكذلك.

ولما وصل بونابارته إلى ينبع البر أخذوا في تأليف العربان واستمالتهم، وذهب إليهم ابن شديد الحويطي ومن معه وتقابلوا مع شيخ حرب، ولم يزالوا به حتى وافقهم وحضروا به إلى بونابارته فأكرمه وخلع عليه الخلع، وكذلك على من حضر من أكابر العربان، فألبسهم الكساوي والفراوي السمور والشالات الكشميري، ففرق عليهم من الكشمير ملء أربع سحاحير وصب عليهم الأموال، وأعطى لشيخ حرب ماية ألف فرانسة عين، وحضر باقي المشايخ فخلع عليهم وفرق فيهم فخص شيخ حرب بمفرده تمانية عشر ألف فرانسة، ثم رتب لهم علايف تصرف لهم في كل شهر، لكل شخص خمسة فرانسة وغِرارة عدس، فعند ذلك ملَّكوهم الأرض، والذي كان متأمرًا بالمدينة من جنسهم فاستمالوه أيضًا، وسلم لهم المدينة، وكل ذلك بمخامرة الشريف غالب أمير مكة وتدبيره وإشارته، فلما تم ذلك أظهر الشريف غالب أمره وملَّكهم مكة والمدينة.

وكان ابن مسعود الوهابي حضر في الموسم وحج ثم ارتحل إلى الطايف، وبعد رحيله فعل الشريف غالب فعله، وسيلقى جزاه، ولما وصلت البشاير بذلك في يوم التلات سابعه ضربوا مدافع كثيرة، ونودي في صبح ذلك بزينة المدينة ومصر وبولاق، فزينوا خمسة أيام أولها الأربع وآخرها الأحد.

وقاسى الناس في ليالي هذه الأيام العذاب الأليم من شدة البرد والصقيع وسهر الليل الطويل، وكان ذلك في قوة فصل الشتا، وكل صاحب حانوت جالس فيها وبين يديه مجمرة نار يتدفا ويصطلي بحرارتها وهو ملتف بالعباية والأكسية الصوف أو اللحاف.

وخرج الباشا من ليلة الأربع المذكور ونصبت الخيام، وخرجت الجِمال المحملة باللوازم من الفرش والأواني وأزيار الماء والبارود لعمل الشنانك والحرايق، وفي كل يوم يعمل مرماح وشنك عظيم مهول بالمدافع وبنادق الرصاص المتواصلة من غير فاصل، مثل الرعود والطبول من طلوع الشمس إلى قريب الظهر، وفي أول يوم من أيام الرمي أصيب إبراهيم بك ابن الباشا برصاصة في كتفه أصابت شخصًا من السواس، ونفذت منه إليه، وهي باردة فتعلل بسببها وخرج بعد يومين في عربة إلى العرضي ثم رجع.

ولما كان يوم الأحد وقت الزوال، ركب الباشا وطلع إلى القلعة وقلعوا خيام الشنك وحملوا الجمال ودخلت طوايف العسكر، وأذن للناس بقلع الزينة ونزول التعاليق وكان الناس قد عمروا القناديل، وأشاعوا أنه سبعة أيام، فلما حصل الإذن بالرفع فكأنما نشطوا من عقال وخلصوا من السجون لما قاسوه من البرد والسهر، وتعطيل الأشغال وكساد الصنايع، والتكليف بما لا طاقة لهم به، وفيهم من لا يملك قوت عياله أو تعمير سراجه، فيكلف مع ذلك هذه التكاليف، وكتب الباشا بالبشاير إلى دار السلطنة وأرسلها صحبة أمين جاويش، وكذلك إلى جميع النواحي، وأنعم بالمناصب على خواصه.

وفي هذا الشهر وردت أخبار بوقوع أمطار وثلوج كثيرة بناحية بحري وبإسكندرية ورشيد بحدود الغربية والمنوفية والبحيرة وشدة برد، ومات من ذلك أناس وبهايم والزروع البدرية، وطفَّ على وجه الماء أسماك موتى كثيرة فكان موج البحر يلقيه على الشطوط، وغرق كثير من السفن من الرياح العواصف التي هبَّت في أول الشهر.

وفي سابعه يوم وصول البشارة أحضر الباشا حسين أفندي الروزنامجي وخلع عليه خلعة الإبقا على منصبه في الروزنامة، وقرر عليه ألفين وخمسماية كيس، وذلك أنهم لما رافعوه في الحساب على الطريقة المذكورة، أرسل إليه الباشا بطلب خمسماية كيس من أصل الحساب فضاق خناقه ولم يجد له شافعًا ولا ذا مرحمة، فأرسل ولده إلى محمود بك الدويدار يستجير فيه وليكون واسطة بينه وبين الباشا، وهو رجل ظاهره خلاف باطنه، فذهب معه إلى الباشا فبش في وجهه ورحب به وأجلسه محمود بك في ناحية من المجلس، وتناجى هو مع الباشا ورجع إليه يقول له: إنه يقول: إن الحساب لم يتم إلى هذا الحين، وإنه ظهر على أبيك تاريخ أمس خمسة آلاف كيس وزيادة، وأنا تكلمت معه وتشفعت عنده في ترك باقي الحساب والمسامحة في نصف المبلغ والكسور فيكون الباقي ألفين وخمسماية كيس تقومون بدفعها، فقال: ومن أين لنا هذا القدر العظيم وقد عزلنا من المنصب أيضًا حتى كنا نتداين ولا يأمننا الناس إذا كان القدر دون هذا أيضًا؟ فرجع إلى الباشا وعاد إليه يقول له: لم يمكني تضعيف القدر سوى ما سامح فيه، وأما المنصب فهو عليكم وفي غد يطلع والدك ويتجدد عليه الإبقا وينكمد الخصم، وعلى الله السداد، ونهض وقبَّل يده وتوجه فنزل إلى دارهم وأخبر والده بما حصل، فزاد كربه ولم يسعه إلا التسليم، وركب في صبحها وطلع إلى الباشا فخلع عليه ونزل إلى داره بقهره، وشرع في بيع تعلقاته وما يتحصل لديه.

وفي يوم الاتنين تالت عشره خلع الباشا على مصطفى أفندي ونزل إلى داره وأتاه الناس يهنوه بالمنصب.

وفي يوم الأربع تالت عشرينه وردت بشاير بتملُّكهم الطايف وهروب المضايفي منها، فعملوا شنكًا وضربوا مدافع كثيرة من القلعة وغيرها تلاتة أيام في كل وقت أذان، وشرع الباشا في تشهيل ولده إسماعيل باشا بالبشارة ليسافر إلى إسلامبول، وتاريخ تملُّكها في سادس عشرين المحرم.

وفي هذه الأيام ابتدعوا تحرير الموازين وعملوا لذلك ديوانًا بالقلعة، وأمروا بإبطال موازين الباعة وإحضار ما عندهم من الصنج، فيزنون الصنجة فإن كانت زايدة أو ناقصة أخذوها وأبقوها عندهم، وإن كانت محررة الوزن ختموها بختم وأخذوا على كل ختم صنجة تلاتة أنصاف فضة، وهي النصف أوقية والأوقية إلى الرطل الذي يكون وزنه غير محور يعطوه رطلًا من حديد ويدفع ثمنه ماية نصف فضة، والنصف رطل خمسون، وهكذا، وهو باب ينجمع منه أكياس كثيرة.

وفيه أيضًا طلب الباشا من عرب الفوايد غرامة سبعين ألف فرانسة، فعصوا ورمحوا بإقليم الجيزة وأخذوا المواشي وشلحوا من صادفوه، ورمح كاشف الجيزة عليهم فصادف منهم أباعر محملة أمتعة لهم وصحبتهم نسا وأولاد فأخذهم ورجع بهم.

وفيه سافر إبراهيم بك ابن الباشا إلى ناحية قبلي، ووصلت الأخبار بوقوع الطاعون بإسكندرية، فاشتد خوف الباشا والعسكر مع قساوتهم وعسفهم وعدم مرحمتهم.

واستهل شهر ربيع الأول بيوم الخميس (سنة ١٢٢٨)

فيه قلدوا شخصًا يسمى حسين البرلي، وهو الكتخدا عند الكتخدا بك، وجعلوه في منصب بيت المال وعزلوا رجب أغا وكان إنسانًا سهلًا لا بأس به، فلما تولى هذا أرسل لجميع مشايخ الخطط والحارات، وقيد عليهم بأنهم يخبرونه بكل من مات من ذَكر أو أنثى ولو كان ذا أولاد أو ورثة أو غير ذلك، وكذلك على حوانيت الأموات، وأرسل فرمانات إلى بلاد الأرياف والبنادر بمعنى ذلك.

وفي يوم الأحد رابعه طلب الباشا حسين أفندي الروزنامجي، وطلب منه ما قرره عليه، وكان قد باع حصصه وأملاكه ودار مسكنه، فلم يوفِّ إلا خمسماية كيس، فقال له: ما لك لم توفِّ القدر المطلوب؟ وما هذا التأخير وأنا محتاج إلى المال؟ فقال: لم يبقَ عندي شي، وقد بعت التزامي وأملاكي وبيتي وتداينت من الربويين حتى وفيت خمسماية كيس، وها أنا بين يديك، وقال له: هذا كلام لا يروج عليَّ ولا ينفعك، بل أخرج المال المدفون، فقال: لم يكن عندي مال مدفون، وأما الذي أخبرك عنه، فيذهب فيخرجه من محله،

فحنق منه وسبه وقبض على لحيته ولطمه على وجهه وجرد السيف ليضربه، فترجى فيه الكتخدا والحاضرون فأمر به فبطحوه، وأمر القواسة الأتراك بضربه فضربوه بالعصي المفضضة التي بأيديهم بعد أن ضربه هو بيده عدة عصي وشج جبهته، حتى أتوا عليه ثم أقاموه وألبسوه فروته وحملوه وهو مغشي عليه، وأركبوه حمارًا وأحاط به خدمه وأتباعه حتى أوصلوه إلى منزله، وأرسل معه جماعة من العسكر يلازمونه ولا يدعونه يدخل إلى حريمه ولا يصل إليه منهم أحد، وركب في أثره محمود بك الدويدار بأمر الباشا وعبر داره ودار أخيه عثمان أفندي المذكور وأخذه صحبته إلى القلعة وسجنوه.

وأما ولده وأخواه فإنهم تغيبوا من وقت الطلب واختفوا، ونزل إليه في اليوم التاني إبراهيم أغا أغات الباب يطالبه بغلاق تمانماية كيس وقتئذٍ، فقال له: وكيف أحصِّل شيًّا وأنا رجل ضعيف وأخي عثمان عندكم في الترسيم، وهو الذي يعينني ويقضي أشغالي، وأخذتم دفاتري المختصة بأحوالي مع ما أخذتموه من الدفاتر، فأقام عنده إبراهيم أغا برهة ثم ركب إلى الباشا وكلمه في ذلك، فأطلقوا له أخاه ليسعى في التحصيل.

وفي حادي عشره عدى الباشا إلى بر الجيزة بقصد السفر إلى بلاد الفيوم، وأخذ صحبته كتبة مباشرين مسلمين ونصارى، وأشاع أن سفره إلى الصعيد ليكشف على الأراضي وروكها، وارتحل في ليلة التلات تالت عشره بعد أن وجه ابنه إسماعيل إلى الديار الرومية في تلك الليلة بالبشارة.

وفي خامس عشرينه حضر لطيف أغا راجعًا من إسلامبول، وكان قد توجه ببشارة فتح الحرمين، وأخبروا أنه لما وصل إلى قرب دار السلطنة خرج لملاقاته الأعيان، وعند دخوله إلى البلدة عملوا له موكبًا عظيمًا مشى فيه أعيان الدولة وأكابرهم، وصحبته عدة مفاتيح زعموا أنها مفاتيح مكة وجدة والمدينة، وضعوها على صفايح الذهب والفضة، وأمامها البخورات في مجامر الذهب والفضة والعطر والطيب، وخلفهم الطبول والزمور وعملوا لذلك شنكًا ومدافع، وأنعم عليه السلطان وأعطاه هدايا وكذلك أكابر الدولة، وأنعم عليه الخنكار بطوخين وصار يقال له لطيف باشا.

وفيه وردت الأخبار بقدوم قهوجي باشا، ومعه خلع وأطوق للباشا وعدة أطواخ بولايات لمن يختار تقليده، فاحتفل الباشا به عندما وصلته أخباره، وأرسل إلى أمرا الثغور بإسكندرية ودمياط بالاعتنا بملاقاته عند وروده على أي ثغر منها.

وفيه حضر خليل بك حاكم إسكندرية إلى مصر فرارًا من الطاعون؛ لأنه قد فشا بها ومات أكثر عسكره وأتباعه.

واستهل شهر ربيع الثاني بيوم الأحد (سنة ١٢٢٨)

في تامنه حضر الباشا على حين غفلة من الفيوم إلى الجيزة، وأخبروا أنه لما وصل إلى ناحية بني سويف ركب بغلة سريعة العدْو ومعه بعض خواصه على الهجن والبغال، فوصل إلى الفيوم في أربع ساعات، وانقطع أكثر المرافقين له ومات منهم سبعة عشر هجينًا.

وفي يوم التلات عاشره عملوا مولد المشهد الحسيني المعتاد، وتقيد لتنظيمه السيد المحروقي الذي تولى النظارة عليه، وجلس ببيت السادات المجاور للمشهد بعد أن أخلوه له، وفي ذلك اليوم أمر الباشا بعمل كورنتيلة بالجيزة ونوَّه بإقامته بها، وزاد به الخوف والوهم من الطاعون لحصول القليل منه بمصر، وهلك الحكيم الفرنساوي وبعض نصارى أروام وهم يعتقدون صحة الكورنتيلة وأنها تمنع الطاعون، وقاضي الشريعة الذي هو قاضي العسكر يحقق قولهم ويمشي على مذهبهم، ولرغبة الباشا في الحياة الدنيا وكذلك أهل دايرته وخوفهم من الموت يصدقون لهم، حتى إنه اتفق أنه مات بالمحكمة عند القاضي شخص من أتباعه فأمر بحرق ثيابه وغسل المحل الذي مات فيه وتبخيره بالبخورات، وكذلك غسل الأواني التي كان يمسها وبخروها.

وأمروا أصحاب الشرطة أنهم يأمرون الناس وأصحاب الأسواق بالكنس والرش والتنظيف في كل وقت ونشر الثياب، وإذا ورد عليهم مكاتبات خرقوها بالسكاكين، ودخنوها بالبخور قبل ورودها.

ولما عزم الباشا على كورنتيلة الجيزة أرسل في ذلك اليوم بأن ينادوا بها على سكانها بأن من كان يملك قوته وقوت عياله ستين يومًا وأحب الإقامة فليمكث بالبلدة، وإلا فليخرج منها ويذهب ويسكن حيث أراد في غيرها، ولهم مهلة أربع ساعات، فانزعج سكان الجيزة وخرج من خرج وأقام من أقام، وكان ذلك وقت الحصاد ولهم مزارع وأسباب مع مجاوريهم من أهل القرى، ولا يخفى احتياجات الشخص لنفسه وعياله وبهايمه، فمنعوا جميع ذلك حتى سدوا خروق السور والأبواب ومنعوا المعادي مطلقًا.

وأقام الباشا ببيت الأزبكية لا يجتمع بأحد من الناس إلى يوم الجمعة، فعدى في ذلك اليوم وقت الفجر، وطلع إلى قصر الجيزة وأوقف مركبين: الأولى ببر الجيزة والأخرى في مقابلتها ببر مصر القديمة، فإذا أرسل الكتخدا أو المعلم غالي إليه مراسلة ناولها المرسل للمقيد بذلك في طرف مزارق بعد تبخير الورقة بالشيح واللبان والكبريت، ويتناولها منه الآخر بمزارق آخر على بُعد منهما وعاد راجعًا، فإذا قرب من البر تناولها المنتظر له

أيضًا بمزارق وغمسها في الخل وبخرها بالبخور المذكور، ثم يوصلها لحضرة المشار إليه بكيفية أخرى، فأقام أيامًا وسافر إلى الفيوم ورجع كما ذكر، وأرسل مماليكه ومن يعز عليه ويخاف عليه من الموت إلى أسيوط.

وفي يوم السبت سابعه نودي بالأسواق بأن السيد محمد المحروقي شاه بندر التجار بمصر، وله الحكم على جميع التجار وأهل الحرف والمتسببين في قضاياهم وقوانينهم وله الأمر والنهي فيهم.

وفيه وصل إلى مصر عدة كبيرة من العساكر الرومية على طريق دمياط، ونصبوا لهم وطاقًا خارج باب النصر وحضر فيهم نحو الخمسماية نفر أرباب صنايع بنايين ونجارين وخراطين، فأنزلوهم بوكالة بخط الخليفة.

وفي يوم الأحد تامنه تقلد الحسبة الخواجا محمود حسن، ولبس الخلعة وركب وشق المدينة وأمامه الميزان، فرسم برد الموازين إلى الأرطال الزياتي التي عبره الرطل منها أربع عشرة أوقية في جميع الأدهان والخضروات على العادة القديمة، ونقص من أسعار اللحم وغيره، ففرح الناس بذلك، ولكن لم يستمر ذلك.

وفي يوم الأربع حادي عشره بين الظهر والعصر كانت السما مصحية، والشمس مضية صافية، فما هو إلا والسما والجو طلع به غيم وقتام ورياح نكبا غريبة جنوبية، وأظلم ضو الشمس وأرعدت رعدتين التانية أعظم من الأولى، وبرق ظهر ضوه وأمطرت مطرًا متوسطًا ثم سكن الريح وانجلت السما وقت العصر، وكان ذلك سابع بشنس القبطي وآخر يوم من نيسان الرومي، فسبحان الملك الفعال مغير الشون والأحوال، وحصل في تاليه يوم الجمعة مثل ذلك الوقت أيضًا غيوم ورعود كثيرة ومطر أزيد من اليوم الأول.

واستهل شهر جمادى التاني (سنة ١٢٢٨)

في تاني عشره وصل في النيل على طريق دمياط أغا من طرف الدولة يقال له قهوجي باشا السلطان، فاعتنى الباشا بشأنه وحضر إلى قصره بشبرا، وأمر بإحضاره عدة من المدافع وآلات الشنك وعملوا أمام القصر بساحل النيل تعاليق وقناديل وقدات، ونبه على الطوايف بالاجتماع بملابسهم وزينتهم، ووصل الأغا المذكور يوم الأحد فخرج الأغوات والسفاشية والصقالبة وهم لابسون القواويق وجميع العساكر الخيالة ليلًا، فما طلعت الشمس حتى اجتمعوا بأسرهم جهة شبرا، وانتظموا في موكب ودخلوا من باب النصر،

وتقدمهم طوايف الدلاة وأكابرهم، ويتلوهم أرباب المناصب مثل: الأغا والوالي والمحتسب وبواقي وجاقات المصرية، ثم موكب كتخدا بك وبعده موكب الأغا الواصل، وفي أثره ما وصل معه من الخلع، وهي أربع بقج وخنجران مجوهران وسيف وتلات شلنجات عليها ريش مجوهرة، وخلف ذلك العساكر الخيالة والتفكجية وخلفهم النوبة التركية.

فكان مدة مرورهم نحو ساعتين وربع وليس فيهم رَجَّالة مشاة سوى الخدم وقليل عسكر مشاة، وأما بقية العسكر فهم متفرقون بالأسواق والأزقة كالجراد المنتشر، خلاف من يرد منهم في كل وقت من الأجناس المختلفة برًّا وبحرًا، فمن الخلع الواردة ما هو مختص بالباشا وهو فروة وخنجر وريشة بشلنج وأطواخ، ولابنه إبراهيم بك مثل ذلك.

وأسكنوا ذلك الأغا ورفيقه وأتباعهما بمنزل إبراهيم بك ابن الباشا بالأزبكية بقنطرة الدكة، وأرسل بإحضار ولده من ناحية قبلي، فحضر على الهجن ولبس الخلعة بولايته على الصعيد، فنزل بالجيزة وعدى إلى بر الجيزة، وعندما وصل إلى البر أمر بتغريق السفينة بما فيها من الفرش، ثم أخرجوها، وكذلك أمر من معه من الرجال بالغطوس في الماء وغسل ثيابهم، كل ذلك خوفا من ريحة الطاعون وتطيُّرًا وهروبًا من الموت.

وفي خامس عشرينه سافر إبراهيم بك راجعًا إلى الصعيد.

وفيه حضر عرضي الباشا الذي كان سافر في ربيع الأول إلى الجهة القبلية، ومعه الكتبة أيضًا المسلمون لتحرير حساب الأقباط ومساحة الأراضي.

وفي أواخره نودي على أهل الجيزة باستمرار الكورنتيلة شهرَي رجب وشعبان، وأن يعطوا لهم فسحة للمتسببين والباعة تلاتة أيام، وكذلك لمن يخرج أو إذا دخل لا يخرج إذا كان عنده ما يكفيه ويكفي عياله في مدة الشهرين، والتلاتة أيام المفسح لهم فيها ليقضوا أشغالهم واحتياجاتهم، فخرج أهل البلدة بأسرهم ولم يبقَ منهم إلا القليل النادر القادر، وأيضًا تفرقوا في البلاد وبقي الكثير منهم حول البلدة وفي الغيطان حول بيادرهم وأجرانهم، وعملوا لهم أعشاشًا تظلهم من حر الشمس ووهج الهجير، وينادي المقيم بالبلدة بحاجته من أعلى السور لرفيقه أو صاحبه الذي هو خارج البلدة، فيجيبه ويرد جوابه من مكان بعيد، ولا يمكنونهم من تناول الأشيا، وأما العسكر فإنهم يدخلون ويخرجون ويقضون حوايجهم ويشترون الخضروات والبطيخ وغيره، ويبيعونه على المقيمين بالبلدة بأغلى الأتمان، وإذا أراد أحد من أهل البلدة الخروج منعوه من أخذ شي من متاعه أو شاته أو حماره، ولا يخرج إلا مجردًا بطوله.

وفي أواخره وصل من الديار الرومية واصل وعلى يده مرسوم، فقري بالمحكمة في يوم الأحد تامن عشرينه بحضرة كتخدا بك والقاضي والمشايخ وأكابر الدولة والجم

الغفير من الناس، ومضمونه الأمر للخطبا في المساجد يوم الجمعة على المنابر بأن يقولوا عند الدعا للسلطان، فيقولوا: السلطان ابن السلطان بتكرير لفظ السلطان تلات مرات محمود خان ابن السلطان عبد الحميد خان ابن السلطان أحمد خان المغازي خادم الحرمين الشريفين؛ لأنه استحق أن ينعت بهذه النعوت لكون عساكره افتتحت بلاد الحرمين، وغزت الخوارج وأخرجتهم منها؛ لأن المفتي أفتاهم بأنهم كفار لتكفيرهم المسلمين ويجعلونهم مشركين، ولخروجهم على السلطان وقتلهم الأنفس، وأن من قاتلهم يكون مغزيًا ومجاهدًا وشهيدًا إذا قُتل، ولما انقضى المجلس ضربوا مدافع كثيرة من القلعة وبولاق والجيزة، وعملوا شنكًا واستمر ضربهم المدافع عند كل أذان عشرة أيام وذلك ونحوه من الخور.

واستهل شهر رجب (سنة ١٢٢٨)

في منتصفه حضر بونابارته الخازندار من الديار الحجازية على طريق القصير.

وفي أواخره سافر قهوجي باشا الذي تقدَّم ذكْر حضوره بالخلع والشلنجات والخناجر بعدما أعطى خدمته مبلغًا من الأكياس، وأصحب معه من الباشا هدية عظيمة لصاحب الدولة وأكابرها، وقدره من الذهب العين أربعون ألف دينار، ومن النصفيات يعني نصف الدينار ستون ألفًا، ومن فروق البن خمسماية فرق، ومن السكر المكرر مرتين ماية قنطار، ومن المكرر مرة واحدة مايتي قنطار، ومايتا قدر صيني الذي يقال له أسكي معدن مملوة بالمربيات وأنواع الشربات الممسك المطيب المختلف الأنواع، ومن الخيول خمسون جوادًا مرختة بالجوهر والنمركش واللؤلؤ والمرجان، وخمسون حصانًا من غير رخوت، وأقمشة هندية كشميري، ومقصبات وشاهي ومهترخان في عدة تعابي بقج وبخور عود وعنبر وأشيا أخرى.

وفيه أيضًا حضر أغا يقال له جانم أفندي وصحبته مرسوم قري بالديوان في يوم الاتنين مضمونه البشارة بمولود وُلد للسلطان وسموه عثمان، واجتمع لسماع ذلك المشايخ والأعيان وضربوا بعد قراته شنكًا ومدافع، واستمر ذلك سبعة أيام في كل وقت من الأوقات الخمسة.

وفي يوم التلات عشرينه الموافق لتالت عشره مسرى القبطي أوفى النيل المبارك أذرعه، ونودي بذلك في الأسواق على العادة، وكثر اجتماع غوغا الناس للخروج إلى الروضة وناحية السد والولايم في البيوت المطلة على الخليج، وما يحصل من اجتماع

الأخلاط أمام جري الماء كما هو المعتاد في كل سنة، وأنه إذا نودي بالوفا حصل ذلك الاجتماع في تلك الليلة وكسروا السد في صبحها عادة لا تتخلف فيما نعلم، فلما كان آخر النهار ورد الخبر بأن الباشا أمر بتأخير فتح الخليج إلى يوم الخميس تانيه فكان كذلك.

وخرج الباشا في صبح يوم الخميس، وكسر السد وجرى الماء في الخليج، وتكلف أرباب الدور المطلة على الخليج كلفة تانية لضيفانهم.

واستهل شهر رمضان بيوم الجمعة (سنة ١٢٢٨)

وفي خامسه يوم التلات حضر ابن الباشا المسمى إسماعيل من الديار الرومية، ووصل إلى ساحل النيل بشبرا، وضربوا لوصوله مدافع من القلعة وبولاق وشبرا والجيزة، وتقدم أنه توجه ببشارة الحرمين وأكرمته الدولة وأعطوه أطواخًا.

وفي عاشره حضر قاصد من الديار الرومية، ووصل إلى ساحل النيل وصحبته بشارة بمولودة وُلدت لحضرة السلطان، فعملوا الديوان بالقلعة واجتمع به المشايخ والأعيان وأكابر الدولة، وقري الفرمان الواصل في شان ذلك، وفي مضمونه الأمر للكافة بالفرح والسرور وعمل الشنك، وبعد الفراغ من ذلك ضُربت المدافع من أبراج القلعة، واستمر ضربها في كل وقت أذان خمسة أيام، وهذا لم يُعهد في الدولة الماضية إلا للأولاد الذكور، وأما الإناث فليس لهن ذكر.

وفي ليلة الأربع سابع عشرينه عمل الباشا جمعية ببيت الأزبكية، وأحضر الأعيان والمشايخ والقضاة التلاتة، وهم: بهجت أفندي المنفصل عن قضا مصر، وصديق أفندي المتوجه إلى قضا مكة المنفصل عن قضا مصر العام الذي قبله، والقاضي المتوجه إلى المدينة، فعقدوا عقد ابنه إسماعيل باشا على ابنة عارف بك التي حضرت بصحبته من الديار الرومية، وعقدوا عقد أخته ابنة الباشا على محمد أفندي الذي تقلد الدفترداية، ولما تم ذلك قدموا لهم تعابي بقج، في كل واحدة أربع قطع من الأقمشة الهندية، وهي: شال كشميري، وطاقة مسجر، وطاقة قطني هندي، وطاقة شاهي، وفرقوا على الدون من الناس الحاضرين محارم.

ثم إن الباشا شرع في الاهتمام إلى سفر الحجاز وتشهيل المطاليب واللوازم، فمن جملة ذلك أربعون صندوقًا من الصفيح المشمع داخلها بالشمع والمصطكي وبالخشب من خارج وفوق الخشب جلود البقر المدبوغ، ليودع بها ماء النيل المغلي لشربه وشرب خاصته، ومثلها في كل شهر يتقيد بعمل ذلك وغيره السيد المحروقي ويرسله في كل شهر.

واستهل شهر شوال بيوم الأحد (سنة ١٢٢٨)

في سابعه يوم السبت أداروا كسوة الكعبة، وكانت مصنوعة من نحو خمس سنوات وموضوعة في مكان بالمشهد الحسيني، فأخرجوها في مستهل الشهر، وقد توسخت لطول المدة، فحلوها ومسحوها، وكان عليها اسم السلطان مصطفى فغيروه وكتبوا اسم السلطان محمود، فاجتمع الناس للفرجة عليها، وكان المباشر لها الريس حسن المحروقي فركب في موكبها.

وفي ليلة السبت رابع عشره خرج محمد علي باشا مسافرًا إلى الحجاز، وكان خروجه وقت طلوع الفجر من يوم السبت المذكور إلى بركة الحاج، وخرج الأعيان والمشايخ لوداعه بعد طلوع النهار، فأخذوا خاطره ورجعوا آخر النهار، وركب هو متوجهًا إلى السويس بعد مضي تمان ساعات وربع من النهار، وبرزت الخيالة والسفاشية إلى خارج باب النصر ليذهبوا على طريق البر.

وقبل خروج الباشا بيومين قَدِمت هجانة مبشرون بالقبض على عثمان المضايفي بناحية الطايف، وكان قد جرد على الطايف فبرز إليه الشريف غالب وصحبته عساكر الأتراك والعربان فحاربوه وحاربهم، فأصيب جواده فنزل إلى الأرض واختلط بالعسكر فلم يعرفوه، فخرج من بينهم ومشى وتباعد عنهم نحو أربع ساعات، فصادفه جماعة من جند الشريف فقبضوا عليه، وأصابته جراحة، وعندما سقط من بين قومه ارتفع الحرب فيما بين الفريقين، أخريات النهار، ولما أحضروه إلى الشريف غالب جعل في رقبته الجنزير، والمضايفي هذا زوج أخت الشريف، وخرج عنه وانضم إلى الوهابيين فكان أعظم أعوانهم، وهو الذي كان يحارب لهم ويقاتل ويجمع قبايل العربان ويدعو لهم عدة سنين، ويوجه السرايا على المخالفين، ونما أمره واشتهر لذلك ذكره في الأقطار، وهو الذي كان افتتح الطايف وحاربها وحاصرها وقتل الرجال وسبى النسا، وهدم قبة ابن عباس الغريبة الشكل والوصف، وكان هو المحارب للعسكر مع عربان حَرْب في العام الماضي بناحية الصفرا والجديدة، وهزمهم وشتت شملهم.

ولما قبضوا عليه أحضروه إلى جدة واستمر في الترسيم عند الشريف ليأخذ بذلك وجاهة عند الأتراك، الذي هو على ملتهم ويتحقق لديهم نصحه لهم ومسالمته إياهم، وسيلقى قريبًا منهم جزا فعله ووبال أمره كما سيُتلى عليك بعضُه بعد قليل.

واستهل شهر ذي القعدة بيوم التلات (سنة ١٢٢٨)

وفي أوايله وردت أخبار من الجهة الرومية بأن عساكر العثمانيين استولوا على بلاد بلغار من أيدي طايفة الصرب، وكانوا استولوا عليها نيفًا وأربعين سنة، والله أعلم بصحة ذلك.

وفيه عُزل محمود حسن من الحسبة وتقلدها عثمان أغا المعروف بالورداني.

وفي خامس عشره وصل عثمان المضايفي صحبة المتسفرين معه إلى الرَّيدانية آخر الليل وأشيع ذلك، فلما طلعت الشمس ضربوا مدافع من القلعة إعلامًا وسرورًا بوصوله أسيرًا، وركب صالح بك السلحدار في عدة كبيرة وخرجوا لملاقاته وإحضاره، فلما واجهه صالح بك نزع من عنقه الحديد وأركبه هجينًا ودخل به إلى المدينة، وأمامه الجاويشية والقواسة الأتراك وبأيديهم العصيُّ المفضضة وخلفه صالح بك وطوايفه، وطلعوا به إلى القلعة وأدخله إلى مجلس كتخدا بك وصحبته حسن باشا وطاهر باشا وباقي أعيانهم، ونجيب أفندي قبي كتخدا الباشا ووكيله بباب الدولة، وكان متأخرًا عن السفر ينتظر قدوم المضايفي ليأخذه بصحبته إلى دار السلطنة، فلما دخل عليهم أجلسوه معهم فحدثوه ساعة وهو يجيبهم من جنس كلامهم بأحسن خطاب وأفصح جواب، وفيه سكون وتؤدة في الخطاب، وظاهر عليه آثار الإمارة والحشمة والنجابة ومعرفة مواقع الكلام، حتى قال الجماعة لبعضهم البعض: يا أسفا على مثل هذا إذا ذهب إلى إسلامبول يقتلونه، ولم يزل يتحدث معهم حصة ثم أحضروا الطعام فواكلهم.

ثم أخذه كتخدا بك إلى منزله، فأقام عنده مكرَّمًا تلاتًا، حتى تمم نجيب أفندي أشغاله فأركبوه وتوجهوا به إلى بولاق وأنزلوه في السفينة مع نجيب أفندي ووضعوا في عنقه الجنزير، وانحدروا طالبين الديار الرومية، وذلك يوم الاتنين حادي عشرينه.

وفي أواخره وصلت أخبار بأن مسعود الوهابي أرسل قصادًا من طرفه إلى ناحية جدة فقابلوا طوسون باشا، والشريف غالب خلع عليهم وأخذهم إلى أبيه فخاطبهم وسألهم عما جاءوا فيه، فقالوا: الأمير مسعود الوهابي يطلب الإفراج عن المضايفي ويفتديه بماية ألف فرانسة، وكذلك يريد إجرا الصلح بينه وبينكم وكف القتال، فقال لهم: فإنه سافر إلى الدولة، وأما الصلح فلا نأباه بشروط، وهو أن يدفع لنا كل ما صرفناه على العساكر من أول ابتدا الحرب إلى وقت تاريخه، وأن يأتي بكل ما أخذه واستلمه من الجواهر والذخاير التي كانت بالحجرة الشريفة، وكذلك ثمن ما استُهلك منها، وأن يأتي بعد ذلك ويتلاقى معي وأتعاهد معه ويتم صلحنا بعد ذلك، وإن أبى ذلك ولم يأتِ فنحن ذاهبون إليه، فقالوا له: اكتب له جوابًا، فقال: لا أكتب جوابًا؛ لأنه لم

يرسل معكم جوابًا ولا كتابًا، وكما أرسلكم بمجرد الكلام فعودوا إليه كذلك، فلما أصبح الصباح وقت انصرافهم أمر باجتماع العساكر، فاجتمعوا ونصبوا ميدان الحرب والرمي المتتابع من البنادق والمدافع ليشاهد الرسل ذلك ويروه ويخبروا عنه مرسلهم.

واستهل شهر ذي الحجة الحرام بيوم الأربع (سنة ١٢٢٨)

في ليلة الأحد تاسع عشره وقعت كاينة لطيف باشا؛ وذلك أن المذكور مملوك الباشا أهداه له عارف بك، وهو عارف أفندي بن خليل باشا المنفصل عن قضا مصر من نحو خمس سنوات، واختص به الباشا وأحبه ورقاه في الخدم والمناصب إلى أن جعله انختار أغاسي أي: صاحب المفتاح، وصار له حرمة زايدة وكلمة في باب الباشا وشهرة، فلما حصلت النصرة للعسكر واستولَوْا على المدينة وأتوا بمفاتيح زعموا أنها مفاتيح المدينة، كان هو المتعين بها للسفر للديار الرومية بالبشارة للدولة، وأرسلوا صحبته المضايفي الذي كان متأمرًا بالمدينة، ولما وصل إلى دار السلطنة ووصلت أخباره احتفل أهل الدولة بشانه احتفالًا زايدًا، ونزلوا لملاقاته في المركب في مسافة بعيدة، ودخلوا إلى إسلامبول في موكب جليل وأبهة عظيمة إلى الغاية، وسَعَتْ أعيانُ الدولة وعظماها بين يديه مشاةً وركبانًا، وكان يومُ دخوله يومًا مشهودًا، وقتلوا المضايفي المذكور في ذلك اليوم وعلقوه على باب السراية، وعملوا شنانك ومدافع وأفراحًا وولايم.

وأنعم السلطان على لطيف المذكور وأعطاه أطواخًا، وأرسل إليه أعيان الدولة الهدايا والتحف، ورجع إلى مصر في أبهة زايدة، وداخله الغرور وتعاظم في نفسه، ولم يحتفل الباشا بأمره وكذلك أهلُ دولته لكونه من جنس المماليك، وأيضًا قد تأسست عداوتهم في نفوسهم وكراهتهم له أشد من كراهتهم لأبنائنا، وخصوصًا كتخدا بك، فإنه أشد الناس عداوة وبغضًا في جنس المماليك.

وطفق يلقي لمخدومه ما يغير خاطره عليه، ومنها أنه يضم أجناسه من المماليك البطالين ليكونوا عُزْوته ويغترون به؛ بحيث إن الباشا فوض إليه الأمر إن ظهر منه شي في غيابه، وسافر الباشا في أثر ذلك واستمر لطيف باشا مع الجماعة في صَلَف وهم يُحْدِقون عليه ويَرْصُدُون حركاته، ويتوقعون ما يوجب الإيقاع به وهو في غفلة وتيه لا يظن بهم سوءًا، فطلب من الكتخدا الزيادة في رواتبه وعلايفه لسعة دايرته وكثرة حواشيه ومصاريفه، فقال له الكتخدا: أما أنا لست صاحب الأمر، وقد كان هنا الباشا ولم يزدك شيًّا، فراسِلْه وكاتِبْه، فإن أمر بشي فأنا لا أخالف مأمورياته، وتزايد هو والحاضرون في الكلام والمفاقمة ففارقهم على غير حاله.

ونزل إلى داره وأرسل في العشية إلى مماليك الباشا ليحضروا إليه في الصباح ليعمل معهم ميدان رماحة على العادة، وأسر إليهم أن يصحبوا ما خف من متاعهم وأسلحتهم، فلما أصبحوا استعدوا كما أشار إليهم وشدوا خيولهم ووصل خبرهم إلى الكتخدا، فطلب كبيرَهم وسأله، فأخبره أن لطيف باشا طلبهم ليعمل معهم رماحة، فقال: إن هذا اليوم ليس هو موعد الرماحة، ومنعهم من الركوب، وفي الحال أحضر حسن باشا وطاهر باشا وأحمد أغا المسمى بونابارته الخازندار، وصالح بك السلحدار وإبراهيم أغا أغات الباب ومحو بك وخلافهم، ودبوس أوغلي وإسماعيل باشا ابن الباشا ومحمود بك الدويدار، وتوافق الجميع على الإيقاع به.

وأصبحوا يوم السبت مجتمعين وقد بلغه الخبر وأخذوا عليه الطرق، وأرسلوا يطلبونه للحضور في مجلسهم فامتنع وقال: ما المراد من حضوري؟ فنزل إليه دبوس أوغلي وخدعه فلم يقبل، فركب وعاد إليه ثانيًا يأمره بالخروج من مصر إن لم يحضر مجلسهم، فقال: أما الحضور فلا يكون وأما الخروج فلا أخالف فيه بشرط أن يكون بكفالة حسن باشا أو طاهر باشا، فإني لا آمن أن يتبعوني ويقتلوني، خصوصًا وقد أوقفوا العسكر بجميع الطرق، ففارقه دبوس أوغلي فتحير في أمره وأمر بشد الخيول وأراد الركوب فلم يتسع له ذلك.

ولم يزل في نقض وإبرام إلى الليل فشركوا الجهات وأبواب المدينة أيضًا بالعساكر وكثر جمعهم بالقلعة وأبوابها، وفي تاسع ساعة من الليل نزل حسن باشا ومحو بك في نحو الألفين من العسكر، واحتاطوا بداره بسويقة العزى، وقد أغلق داره فصاروا يضربون عليه بالبنادق والقرابين إلى آخر الليل، فلما أعياهم ذلك هجموا على دور الناس التي حوله وتسلقوا عليه من الأسطحة، ونزلوا إلى سطح داره وقتلوا من صادفوه من عسكره وأتباعه، واختفى هو في مخباة أسفل الدار مع ستة أشخاص من الجواري ومملوك واحد، وعلم بمكانهم أغات الحريم فداروا في الدار يفتشون عليه فلم يجدوه، فنهبوا جميع ما في الدار ولم يتركوا بها شيًّا، وسَبَوا الحريم والجواري والمماليك والعبيد، وكذلك ما حوله وما جاوره من دور الناس ودور حواشيه وهم نيف وعشرون دارًا، حتى حوانيت الباعة وغيرهم التي بالخطة، ودار علي كتخدا صالح الفلاح.

هذا ما جرى بتلك الناحية، وباقي نواحي المدينة لا يدرون بشي من ذلك إلا أنهم لما طلع نهار يوم الأحد وخرج الناس إلى الأسواق والشوارع، وجدوا العساكر مايجة وأبواب البلد مغلوقة وحولها العساكر مجتمعة، ومنهم من يعدو ومعه شي من المنهوبات، فامتنع الناس من فتح الحوانيت والقهاوي التي من عادتهم التبكير بفتحها، وظنوا ظنًّا.

واستمر لطيف باشا بالمخبأة إلى الليل، واشتد به الخوف وتيقن أن العبد الطواشي سينم عليه ويعرِّفهم بمكانه، فلما أظلم الليل وفرغوا من النهب والتفتيش وخلا المكان، خرج من المخبأة بمفرده ونط من الأسطحة حتى خلص إلى دار خازنداره وصحبته كبير عسكره وآخر يسمى يوسف كاشف دياب من بقايا الأجناد المصرية، وباتوا بقية تلك الليلة ويوم الاتنين، والكتخدا وأهل دولته يدأبون في الفحص والتفتيش عليه، ويتهمون كثيرًا من الناس بمعرفة مكانه، ومحمود بك داره بالقرب من داره أوقف أشخاصًا من عسكره على الأسطحة ليلًا ونهارًا لرصده.

وكان المذكور له اعتقاد في شخص يسمى حسن أفندي اللبلبي، ولبلب لفظ تركي علم على الحمص الجوهر أي: المقلي، ومن شان حسن أفندي هذا أنه رجل درويش يدخل بيوت الأعيان والأكابر من الناس الأتراك وغيرهم، وفي جيوبه من ذلك الحمص، فيفرق على أهل المجلس منه ويلاطفهم ويضاحكهم ويمزح معهم ويعرف باللغة التركية ويجانس الفريقين، فمن أعطاه شيًّا أخذه ومن لم يعطِه لم يطلب منه شيًّا، وبعضهم يقول له: انظر ضميري أو فالي فيعد على سبحته أزواجًا وأفرادًا ثم يقول: ضميرك كذا كذا، فيضحكون منه، فوشى بحسن أفندي هذا إلى كتخدا بك وباقي الجماعة بأنه كان يقول لطيف باشا أنه سيلي سيادة مصر وأحكامها ويقول له هذا وقت انتهاز الفرصة في غيبة الباشا ونحو ذلك، وجسموا الدعوى وأنه كان يعتقد صحة كلامه ويزوره في داره، ورتب له ترتيبًا وأشاعوا أنه أراد أن يضم إليه أجناس المماليك والخاملين من العساكر وغيرهم ويعطيهم نفقات، ويريد إثارة فتنة ويغتال الكتخدا بك وحسن باشا وأمثالهما على حين غفلة، ويتملك القلعة والبلد وأن اللبلبي يغريه على ذلك، وكل وقت يقول له جا وقتك ونحو ذلك من الكلام الذي المولى — جل جلاله — أعلم بصحته، فأرسل كتخدا بك إلى اللبلبي فحضر بين يديه في يوم الاتنين فسأله عنه فقال: لا أدري، فقال: انظر في حسابك هل نجده أم لا، فمسك سبحته وعدها كعادته وقال: إنكم تجدونه وتقتلونه، ثم إن الكتخدا أشار إلى أعوانه فأخذوه ونزلوا به وأركبوه على حماره، وذهبوا به إلى بولاق فأنزله في مركب وانحدروا به إلى شلقان وشلحوه من ثيابه وأغرقوه في البحر.

وفي ذلك اليوم عرفهم أغات حريم لطيف باشا بعد أن هددوه وقرروه عن محل أستاذه، وأخبرهم أنه في المخبأة وأراهم المكان، ففتحوه فوجدوا به الجواري الستة والمملوك ولم يجدوه معهم، فسألوهم عنه فقالوا: إنه كان معنا وخرج ليلة أمس ولم يُعلم أين ذهب، فأخرجوهم وأخذوا ما وجدوه في المخبأة من متاع وسروج ومصاغ ونقود

وغير ذلك، فلما كان بعد الغروب من ليلة التلات اشتد بلطيف باشا الخوف والقلق، فأراد أن ينتقل من بيت الخازندار إلى مكان آخر، فطلع إلى السطح وصعد على حايط يريد النزول منها هو ورفيقه البيوكباشي ليخلص إلى حوش مجاور لتلك الدار فنظرهما شخص من العسكر المرصد بأعلى سطح دار محمود بك الدويدار، فصاح على القريبين منه لينتبهوا له فعندما صاح ضربه لطيف باشا رصاصة فأصابته، وتنبهت المرصدون بالنواحي عند سماع الصيحة وبندقة الرصاصة، وتسارعوا إليه من كل ناحية وقبضوا عليه وعلى ورفيقه وأتوا بهما إلى محمود بك، فبات عنده ورمحت المبشرون إلى بيوت الأعيان يبشرونهم بالقبض عليه، ويأخذون على ذلك البقاشيش.

فلما طلع نهار يوم التلات طلع به محمود بك إلى القلعة، وقد اجتمع أكابرهم بديوان الكتخدا واتفقوا على قتله، ووافقهم على ذلك إسماعيل ابن الباشا بما نمقوه عليه؛ لأنه في الأصل مملوك صهره عارف بيك، فعندما وصل إلى الدرج قبض عليه الأعوان وهو بجانب محمود بك، فقبض بيده على علاقة سيفه وهو يقول بالتركي: «عرظندايم»، يعني: أنا في عرضك، وماتت يده على قيطان السيف فأخرج بعضهم سكينًا وقطع القيطان وجذبوه إلى أسفل سلم الركوبة، وأخذوا عمامته وضربه المشاعلي بالسيف ضربات، ووقع إلى الأرض ولم ينقطع عنقه، فكملوا ذبحه مثل الشاة وقطعوا راسه وفعلوا برفيقه كذلك، وعلقوا روسهما تجاه باب زويلة طول النهار.

وفي تاني يوم وهو يوم الأربع تاني عشرينه أحضروا أيضًا يوسف كاشف دياب وقتلوه أيضًا عند باب زويلة وانقضى أمرهم، والله أعلم بحقيقة الحال، وفتح أهل الأسواق حوانيتهم بعدما تخيل الناس بأنها ستكون فتنة عظيمة وأن العسكر ينهبون المدينة، وخصوصًا الكاينين بالعرضي خارج باب النصر، فإنهم جياع وبردانون وغالبهم مفلس؛ لأن معظمهم من الجدد الواردين الذين لم يحصل لهم كسب من نهب أو حادث واقع أدركوه، ولولا أنهم أوقفوا عساكر عند الأبواب منعتهم من العبور لحصل منهم غاية الضرر.

وانقضت السنة وحوادثها التي ربما استمرت إلى ما شا الله بدوامها وانقضاها.

فمنها أن الباشا لما فرغ من أمر الجهة القبلية بعدما ولى ابنه إبراهيم باشا عليها، وحرر أراضي الصعيد وقاس جملة أراضيه وفدنه وضبطه بأجمعه ولم يترك منه إلا ما قل، وضبط لديوانه جميع الأراضي الميرية والإقطاعات التي كانت للملتزمين من الأمرا والهوارة وذوي البيوت القديمة والرِّزق إحباسية والسراوي والمتأخرات والمرصد على

الأهالي والخيرات وعلى البر والصدقة وغير ذلك، مثل مصارف الولاية التي رتبها أهالي الخير المتقدمون لأربابها، رغبة منهم في الخير وتوسعة على الفقرا المحتاجين وذوي البيوت والدواوير المفتوحة المعدة لإطعام الضيفان والواردين والقاصدين وأبنا السبيل والمسافرين.

فمن ذلك أن بناحية سهاج دار الشيخ عارف، وهو رجل مشهور كأسلافه ومُعْتَقَد بتلك الناحية وغيرها، ومنزله محط لرجال الوافدين والقاصدين من الأكابر والأصاغر والفقرا والمحتاجين، فيقرر لكلٍّ بما يليق بهم ويرتب لهم التراتيب والاحتياجات، وعند انصرافهم بعد قضا أشغالهم يزودهم ويهاديهم بالغلال والسمن والعسل والتمر والأغنام، وهذا دأبه ودأب أسلافه من قبله على الدوام والاستمرار.

ورزقته المرصدة التي يزرعها وينفق منها ستماية فدان فضبطوها ولم يسمحوا له منها إلا بماية فدان بعد التوسط والترجي والتشفع، وأمثال ذلك بجرجا وأسيوط ومنفلوط وفرشوط وغيرها، وإذا قال المتشفع والمترجي للمتأمر: ينبغي مراعاة مثل هذا ومسامحته؛ لأنه يطعم الطعام وتنزل بداره الضيفان، فيقول: ومن كلفه بذلك؟ فيقال له: وكيف يفعل إذا نزلت به الضيوف على حسب ما اعتادوه؟ فيقول: يشترون ما يأكلون بدراهمهم من أكياسهم أو يغلقون أبوابهم ويستقلون بأنفسهم وعيالهم ويقتصدون في معايشهم فيعتادون ذلك، وهذا الذي يفعلونه تبذير وإسراف ونحو ذلك على حسب حالهم وشانهم في بلادهم، ويقول: الديوان أحق بهذا؛ فإن عليه مصاريف ونفقات ومهمات ومحاربات الأعدا وخصوصًا افتتاح بلاد الحجاز.

ولما حضر إبراهيم باشا إلى مصر وكان أبوه على أهبة السفر إلى الحجاز حضر الكثير من أهالي الصعيد يشكون ما نزل بهم، ويستغيثون ويتشفعون بوُجها المشايخ وغيرهم، فإذا خوطب الباشا في شي من ذلك يعتذر بأنه مشغول البال واهتمامه بالسفر، وأنه أناط أمر الجهة القبلية وأحكامها وتعلقاتها لابنه إبراهيم باشا، وأن الدولة قلدته ولاية الصعيد، فأنا لا علاقة لي بذلك، وإذا خوطب ابنه أجابهم بعد المحاججة بما تقدَّم ذكره ونحو ذلك، وإذا قيل له هذا على مسجد، فيقول: كشفت على المساجد فوجدتها خرابًا والنظار عليها يأكلون الإيراد، والخزينة أولى منهم، ويكفيهم أني أسامحهم فيما أكلوه في السنين الماضية، والذي وجدته عامرًا أطلقت له ما يكفيه وزيادة، وإني وجدت لبعض المساجد أطيانًا واسعة وهي خراب ومعطلة، والمسجد يكفيه مؤذن واحد وأجرته نصفان، والإمام مثل ذلك، وأما فرشه وإسراجه، فإني أرتب له راتبًا من الديوان في كل

سنة، فإذا تكرر عليه الرجا أحال الأمر على أبيه، ولا يمكن العود إليه لحركاته وتنقلاته وكثرة أشغاله وزوغانه.

ولما زاد الحال بكثرة المتشكين والواردين وبرز الباشا للسفر، بل وسافر بالفعل، فلم يمكث بعده ابنه إلا أيامًا قليلة يبيت بالجيزة ليلة وعند أخيه ببولاق ليلة أخرى، ثم سافر راجعًا إلى الصعيد يتمم ما بقي عليه لأهله من العذاب الشديد، فإنه فعل بهم فعل التتار عندما جالوا بالأقطار، وأذل أعزة أهله، وأساء أسوأ السو معهم في فعله، فيسلب نعمهم وأموالهم ويأخذ أبقارهم وأغنامهم، ويحاسبهم على ما كان في تصرفهم واستهلكوه، أو يحتج عليهم بذنب لم يقترفوه، ثم يفرض عليهم المغارم الهايلة والمقادير من الأموال التي ليست أيديهم إليها طايلة، ويلزمهم بتحصيلها وغلاقها وتعجيلها فتعجز أيديهم عن الإتمام، فعند ذلك يجري عليهم أنواع الآلام من الضرب والتعليق والكي بالنار والتحريق، فإنه بلغني — والعهدة على الناقل — أنه ربط الرجل ممدودًا على خشبة طويلة ومسك بطرفيها الرجال وجعلوا يقلبونه على النار المضرمة مثل الكباب، وليس ذلك ببعيد على شاب جاهل سنه دون العشرين عامًا وحضر من بلده ولم يرَ غير ما هو فيه، لم يؤدبه مؤدب ولا يعرف شريعة ولا مأمورات ولا منهيات، وسمعت أن قايلًا قال له: وحق من أعطاك، قال: ومن هو الذي أعطاني؟ قال له: ربك، قال له: إنه لم يعطِني شيًّا، والذي أعطاني أبي، فلو كان الذي قلت فإنه كان يعطيني وأنا ببلدي، وقد جيت وعلى راسي قبع مزفَّت مثل المقلاة؛ فلهذا لم تبلغه دعوى ولم يتخلق إلا بالأخلاق التي درَّبه عليها والده وهي تحصيل المال بأي وجه كان، فأنزل بأهل الصعيد الذل والهوان، فلقد كان به من المقادم والهوارة كل شهم يستحي الريس من مكالمته والنظر إليه بالملابس الفاخرة والأكراك السمور والخيول المُسَوَّمَة والأنعام والأتباع والجند والعبيد والأكمام الواسعة والمضايف والإنعامات والإغداقات والتصدقات، وخصوصًا أكابرهم المشهورين، وهمَّام وما أدراك ما همام وقد تقدم في ترجمته ما يغني عن الإعادة، فخربت دور الجميع وتشتتوا وماتوا غربا، ومن عَسُر عليه مفارقة وطنه جرى عليه ما جرى على غيره، وصار في عداد المزارعين.

وقد رأيت بعض بني همام وقد حضروا إلى مصر ليعرضوا حالهم على الباشا لعله يرفق بهم ويسامحهم في بعض ما ضبطه ابنه من تعلقاتهم يتعيشون به وهم أولاد عبد الكريم وشاهين ولدَي همام الكبير، ومعهم حريمهم وجواريهم وزوجة عبد الكريم، ويقولون لها الست الكبيرة، وهي أم أولاده، فلما وصلوا إلى ساحل مصر القديمة ورأى

أرباب ديوان المكس الجواري، وعدتهم ثلاثة حجزوهم وطالبوهم بكمركهن، فقالوا: هولا جوارينا للخدمة وليسوا مجلوبين للبيع، فلم يعبئوا بذلك وقبضوا منهم ما قبضوه، ثم إنهم لم يتمكنوا من الباشا وكان إذ ذاك قد توجه إلى الفيوم وعاد إلى العرضي مسافرًا إلى الحجاز، فاستمروا بمصر حتى نفدت نفقاتهم، ورأيتهم مرة مارين بالشارع وهم مخلقنون وفيهم صغير مراهق، واتفق أنهم تفاقموا مع ابن عمهم وهو عمر، وشكوه إلى مصطفى بك دالي باشا بأنه حاف عليهم في أشيا من استحقاقهم، دعوى مفلس على مفلس، فأحضره وحبسه مدة وما أدري ما حصل لهم بعد ذلك، وهكذا تخفض العالي وتعلى من سفل، اللهم إنا نعوذ بك من زوال النعم ونزول النقم.

وأما من مات في هذه السنة

فمات الأستاذ الشهير والجهبذ النحرير الريس المفضل والفريد المبجل، نادرة عصره ووحيد دهره، الشيخ شمس الدين محمد أبو الأنوار بن عبد الرحمن المعروف بابن عارفين، سبط بني الوفا وخليفة السادات الحنفا، وشيخ سجادتها، ومحط رحال سيادتها وشهرته غنية عن مزيد الإفصاح، ومناقبه أظهر من البيان والإيضاح.

وأمه السيدة صفية بنت الأستاذ جمال الدين يوسف أبي الأرشاد بن وفا، وتزوج بها الخواجا عبد الرحمن المعروف بعارفين، فأولدها المترجم وأخاه الشيخ يوسف، وكان أسن منه فتربى مع أخيه في حجر السيادة والصيانة والحشمة، وقرا القرآن وتولع بطلب العلم وحضر دروس أشياخ الوقت، وتلقى طريقة أسلافه وأورادهم وأحزابهم عن خاله الأستاذ شمس الدين محمد أبو الأشراق بن وفا عن عمه الشيخ عبد الخالق عن أبيه الشيخ يوسف أبي الأرشاد عن والده أبي التخصيص عبد الوهاب إلى آخر السند المنتهي إلى الأستاذ أبي الحسن الشاذلي.

ولازم العلامة القدوة الشيخ موسى البجيرمي فحضر عليه، كما ذكره في برنامج شيوخه، أم البراهين وشرح المصنف عليها والآجرومية وشرحها للشيخ خالد، وشرح الستين مسيلة للجلال المحلي، وهو أول أشياخه، ثم لازم الشيخ خليل المغربي فحضر عليه شرح إيساغوجي لشيخ الإسلام زكريا الأنصاري، وشرح العصام على السمرقندية، والفاكهي على القطر ومتن التوضيح، والأشموني على الخلاصة، ورسالة الوضع والمغني، وحضر دروس شيخ الشيوخ الشيخ أحمد الميجري الملوي في صحيح البخاري، والشيخ عبد السلام على الجوهرة، وأجازه بمروياته ومولفاته الإجازة العامة، وكذلك أجازه الشيخ

أحمد الجوهري الشافعي إجازةً عامةً وإجازةً خاصةً بطريقة مولاي عبد الله الشريف، ولازم وقرا وشارك ولده الشيخ محمدًا الجوهري الصغير.

وحضر أيضًا دروس الأستاذ الحفني في شرح التلخيص للسعد التفتازاني، وشرح التحرير لشيخ الإسلام، وشرح الألفية لابن عقيل والأشموني، وحضر دروس الشيخ عمر الطحلاوي المالكي في شرح الآجرومية للشيخ خالد، وشيًّا من شرح الهمزية للحافظ ابن حَجَر، وشيًّا من تفسير الجلالين والبيضاوي، وحضر الشيخ مصطفى السندوبي الشافعي في شرح ابن قاسم الغزي على أبي شجاع، وعلى السيد البليدي في شرح التهذيب للخبيصي، وعلى الشيخ عطية الأجهوري الشافعي في شرح الخطيب على أبي شجاع، وشرح التحرير لشيخ الإسلام وتفسير الجلالين، وعلى الشيخ محمد الناري شرح السلم لمصنفه، وشرح التحرير، وعلى الشيخ أحمد القوصي شرح الورقات الكبير لابن قاسم العبادي، وسمع المسلسل بالأولية من عالم أهل المغرب في وقته الشيخ محمد بن سودة التاودي الفاسي المالكي عند وروده مصر في سنة اتنين وتمانين وماية وألف بقصد الحج، وكتب له إجازة بخطه مع سنده، وإجازة أيضًا بدلايل الخيرات وأحزاب الشاذلي، وكذلك تلقى الإجازة من الأستاذ المسلك عبد الوهاب بن عبد السلام العفيفي المرزوقي، وتلقى أيضًا من إمام الحرم المالكي الشيخ إبراهيم ابن الريس محمد الزمزمي الإجازة بالمسبعات، واستجازه هو أيضًا بما لإسلافه من الأحزاب، وكنَّاه بأبي الفوز، وذلك في سنة تسع وسبعين وماية وألف بمكة سنة حجة المترجم.

ولما مات السيد محمد أبو هادي وانقرضت بموته سلسلة أولاده الذكور، وذلك في سنة ست وسبعين وماية وألف، تاقت نفس المترجم لخلافة بيتهم، وتهيأ لذلك ولبس التاج أيضًا والعصابة التي يجعلونها عليه فلم يتم له ذلك، وعورض بسيدي أحمد بن إسماعيل بك المعروف بالدالي المكنى بأبي الأمداد؛ لأنه في طبقته في النسب، وأمه السيدة أم المفاخر ابنة الشيخ عبد الخالق باتفاق أرباب الحل والعقد لكونه من بيت الإمارة، وقد صار منزلهم كمنازل الأمرا في الاتساع والتأنق والمجالس المزخرفة والقيعان والقصور، وفي ضمنه البستان بالنخيل والأشجار، وما يجتنى منها من الفواكه والثمار؛ لأن معظم الوجاهة والسيادة في هذه الأزمان بالمساكن الأنيقة والملابس الفاخرة وكثرة الإيراد والخدم والحشم، خصوصًا إن اقترن بذلك شي من المزايا المتعدية من بذل الإحسان وإكرام الضيفان، فعند ذلك يصير ربه قطب الزمان وفريد العصر والأوان، فلو فرضنا أن شخصًا اجتمعت فيه أوصاف الكمالات المعنوية والمعارف اللدنية وخلا عما ذُكر وكان

صعلوكًا قليل المال كثير العيال، فلا يعد في الرجال ولا يلتفت إليه بحال، حِكَم إلهية وأحكام ربانية.

فلما تقلدها سيدي أحمد المذكور دون المترجم، بقي متطلعًا يسلي نفسه بالأماني، ثم قصد الحج في سنة تسع وسبعين كما ذُكر، فلما عاد من الحج تزوج بوالدة الشيخ محمد أبي هادي وأسكنها بمنزل ملاصق لدار الخليفة توصلًا وتقربًا لمأموله، ولم تطل مدة الشيخ أبي الأمداد وتُوُفِّيَ سنة اثنتين وثمانين كما ذكرناه في ترجمته، وعند ذلك لم يبقَ للمترجم معارض، وقد مهد أحواله وتثبت أمره مع من يخشى صولته ومعارضته من الأشياخ وغيرهم، ودفن السيد أحمد وركب المترجم في صبحها مع أشياخ الوقت والشيخ أحمد البكري وجماعة الحزب ونقباهم إلى الرباط بالخرنفش، ودخل إلى خلوة جدهم فجلس بها ساعة وقرا أرباب الحزب وظيفتهم، ثم ركب مع المشايخ إلى أمير البلدة وكان إذ ذاك علي بك فخلع عليه وركبوا إلى دارهم ومحل سيادتهم المعهودة، وأصبح متقلدًا خلافة أسلافهم ومشيخة سجادتهم، فكان لها أهلًا ومحلًّا وتقدم على أخيه الشيخ يوسف مع كونه أسن منه لما فيه من زياده الفضيلة، ولما ثبطه به من مخادعته وسلامة صدر أخيه وحسن ظنه فيه.

وانتظم أمره وأحسن سلوكه بشهامة وحشمة ورياسة وتؤدة وأدب مع الأشياخ والأقران، وتحبب إلى أرباب المظاهر والأكابر واستجلاب الخواطر وسلوك الطرايق الحميدة والتباعد عن الأمور المخلة بالمروة، والأخذ بالحزم والرفق مع الاشتغال في بعض الأحيان بالمطالعة والمذاكرة في المسايل الدينية والأدبية، ومعاشرة الفضلا ومجالستهم والمناقشة معهم في النكات، واقتنا الكتب من كل فن، كل ذلك مع الجد والتحصيل للأسباب الدنيوية، وما يتوصل به إلى كثرة الإيراد بحسن تداخل وجميل طريقة مبعدة عما يخل بالمقدار، بحيث يقضي مرامه من العظيم وجميل الفضل له، ويراسل ويكاتب ويشاحح على أدنى شي ويحاسب ولا يدفع لأرباب الأقلام عوايدهم المقررة في الدفاتر، بل يرون أن أخذها منه من الكباير، وكذلك دواوين المكوس المبني على الإجحاف، فكل ما نسب له فيها فهو معاف، وكلما طال الأمد زاد المدد وخصوصًا إذا تقلبت الدول وارتفعت السفل، كان الأسبق القديم في أعينهم هو الجليل العظيم، وهم لديه صغار لا ينظر إليهم إلا بعين الاحتقار، ولما انقرضت بقايا الشيوخ الذين كان يهابهم ويخضع لهم ويتأدب معهم، وكانوا على طرايق الأقدمين في العفة والانجماع، بخل بتعظيم العلم وأهله والتباعد عن بني الدنيا إلا بقدر الضرورة، وخلف مِن بعدهم مَن هم على خلاف ذلك، وهم أعاظم

مدرسي الوقت، فأحدقوا به وأكثروا من التراداد عليه وعلى موايده وبالغوا في تعظيمه وتقبيل يده، ومدحوه بالقصايد البليغة طمعًا في صلاته وجوايزه القليلة وحصول الشهرة لهم وزوال الخمول والتعارف بمن يتردد إلى داره من الأمرا والأكابر، وزاد هو أيضًا وجهًا ووجاهة بمجالستهم ولا يريهم فضلًا بسعيهم إليه، ويزداد كبرًا وتيهًا، وبلغ به أنه لا يقوم لأكثرهم إذا دخل عليه، ومنهم من يدخل بغاية الأدب فيضم ثيابه، ويقول عند مشاهدته: يا مولاي يا واحد، فيجيبه هو بقوله: يا مولاي يا دايم يا علي يا حكيم، فإذا حصل بالقرب منه بنحو ذراعين حبى على ركبتيه ومد يمينه لتقبيل يده أو طرف ثوبه، وأما الأدون فلا يقبل إلا طرف ثوبه، وكذلك أتباعه وخدمه الخواص، وإذا كان من أهل الذمة أو كبار المباشرين وقبلوا يده وخاطبهم في أشغاله وهم قيام وانصرفوا، طلب الطست والإبريق وغسل يده بالصابون لإزالة أثر أفواههم، ولا يجيب في رد التحية إلا بقول: خير خير، ولا يقطع غالب أوقاته مع مجالسيه وخاصته ومسامرته إلا بانتقاد أهل مصره وغيبة أهل عصره، وتنبسط نفسه لذلك وإليه يصغى ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ﴾.

وفي سنة تسعين وماية وألف ورد إلى مصر عبد الرزاق أفندي ريس الكتَّاب ومن أكابر أهل الدولة، فتداخل معه واصطحب به وأهدى إليه هدايا واستدعاه وأضافه، وحضر في ذلك العام محمد باشا المعروف بالعزتي واليًا على مصر، فأنهى إليه بمعونة الريس المذكور احتياج زاوية أسلافه للعمارة، ودعا الباشا لزيارة قبورهم في يوم المولد المعتاد السنوي، وذكر له المقصود وأظهر به بعض الخلل، وزين له ذلك الفعل وأنه من تمام الشعاير الإسلامية والمشاهد التي يجب الاعتنا بشأنها، والسعي والطواف بحرمها، وكان المعين والسفير والمساعد في ذلك أيضًا شيخنا محدث العصر السيد محمد مرتضى، وهو عند العثمانيين مقبول القول، وكان عبد الرزاق الريس يتلقى عنه المسلسلات والإجازات، وقرا عليه مقامات الحريري، فأجاب الباشا ووعد بإتمام ذلك، وكاتب الدولة وورد الأمر بإطلاق خمسين كيسًا لمصرف العمارة من خزينة مصر، فشرع في هدم حوايطها ووسَّعها عن وضعها الأصلي واندرس في جدرانها قبور ومدافن، وحوطها وزخرفها بالنقوش وأنواع الرخام الملون والمموَّه بالذهب والأعمدة الرخام، ثم كاتب الدولة وأنهى أن ذلك القدر لم يكفِ وأن العمارة لم تكمل، والإحسان بالإتمام، فأطلقوا له خمسين كيسًا أخرى، وأتمها على هذا الوضع الذي هي عليه الآن.

وأنشأ حولها مساكن ومخادع، ووسع القصر الملاصق لها المختص به لجلوسه ومواضع الحريم أيام المولد، ثم أرسل في أثر ذلك كتخداه ووزيره الشيخ إبراهيم

السندوبي إلى دار السلطنة بمكاتبات وأعرض لرجال الدولة، والتمس رفع ما على قرية زفتا وغيرها مما في حوزه من الالتزام من المال الميري الذي يدفع إلى الديوان في كل سنة، وكان إبراهيم المذكور غاية في الدها والحيل الساسانية والتصنعات الشيطانية والتخليطات الوهمية وتقلبات الملامتية، فتمم مرامه بما ابتدعه من المخرقة والإيهامات الملفقة، ولم يدفع ما جرت به العادة من العوايد بل اجتلب خلاف ذلك فوايد.

ولما حضر حسن باشا الجزايرلي إلى مصر على راس القرن وخرج الأمرا المصريون إلى الجهة القبلية، واستباح أموالهم وقبض على نساهم وأولادهم، وأمر بإنزالهم سوق المزاد وبيعهم زاعمًا أنهم أرِقًّا لبيت المال، وفعل ذلك فاجتمع الأشياخ وذهبوا إليه فكان المخاطب له المترجم قايلًا له: أنت أتيت إلى هذه البلدة وأرسلك السلطان إلى إقامة العدل ورفع الظلم كما تقول أو لبيع الأحرار وأمهات الأولاد وهتك الحريم؟! فقال: هولا أرِقًّا لبيت المال، فقال له: هذا لا يجوز ولم يقُل به أحد؛ فاغتاظ غيظًا شديدًا وطلب كاتب ديوانه وقال له: اكتب أسما هولا وأخبر السلطان بمعارضتهم لأوامره، فقال له السيد محمود البنوفري: اكتب ما تريد، بل نحن نكتب أسمانا بخطنا، فأُفحم وانكفَّ عن إتمام قصده.

وأيضًا تتبع أموالهم وودايعهم، وكان إبراهيم بك الكبير قد أودع عند المترجم وديعة، وكذلك مراد بك أودع عند محمد أفندي البكري وديعته، وعلم حسن باشا فأرسل عسكرًا إلى السيد البكري فلم تسعه المخالفة وسلم ما عنده، وأرسل كذلك يطلب من المترجم وديعة إبراهيم بك فامتنع من دفعها قايلًا: إن صاحبها لم يمت، وقد كتبت على نفسي وثيقة فلا أسلم ذلك ما دام صاحبها في قيد الحياة، فاشتد غيظ الباشا منه وقصد البطش به فحماه الله منه ببركة الانتصار للحق، فكان يقول: لم أرَ في جميع الممالك التي ولجتها من اجترا على مخالفتي مثل هذا الرجل، فإنه أحرق قلبي.

ولما ارتحل من مصر ورجع المصريون إلى دولتهم حصل مراد بك في حق السيد البكري ما حصل، وغرَّمه مبلغًا عظيمًا باع فيه أقطاعه في نظير تفريطه في وديعته، واحتج عليه بامتناع نظيره، وحصل له قهر تمرض بسببه وتسلسل به المرض حتى مات.

ثم مات — رحمه الله — وكانت منه هفوة ولا بد للجواد من كبوة، ومن لم ينظر في العواقب فليس له الدهر بصاحب، حتى قيل: إنه هو الذي عرَّف حسن باشا عن ذلك لينال به زيادة في الحظوة عنده، ويترك منها حصة لنفسه بقرينة ما ظهر عليه في عقب

ذلك من التوسع، وقد غلب على ظنه — بل وظن غالب الناس — انقراض المصريين، وغفلوا عن تقلبات الدهر في كل حين.

وأما المترجم فإنه لما أخذ بالحزم سلم ورد الأمانة إلى صاحبها حين قدم، وحسنت فيهم سيرته وزادت عندهم محبته، وفي عقب ذلك نزل السيد محمد أفندي البكري المذكور عن وظيفته نظر المشهد الحسيني للمترجم، وأرسل إليه بصندوق دفاتر الوقف، وكان نظر المشهد ببيتهم مدة طويلة، ووعده المترجم بأن يبدله عنه وظيفة النظر على وقف الشافعي، فلما حصل الفراغ واحتوى على الدفاتر نكث وطمع على الوظيفتين، بل ومد يده إلى غيرهما لعدم من يعارضه ولا يدافعه من الأمرا وغيرهم، مثل نظر المشهد النفيسي والزينبي وباقي الأضرحة الكثيرة الإيراد، التي يصاد بها الدنيا من ناد وتأتيها الخلايق بالقربانات، وأخذ يحاسب المباشرين وخدمة الأضرحة المذكورة على الإيرادات والنذورات ويحاققهم على الذرات، ويسبهم ويهينهم ويضربهم بالجريد المحمص على أرجلهم، وفعل ذلك بالسيد بدوي مباشر المشهد الحسيني، وهو من وُجها الناس الذين يُخشى جانبهم، ومشهور ومذكور في المصر وغيره.

وكان معظم انقباض السيد البكري، ونزوله عن نظر المشهد ضيق صدره من المذكور ومناكدته له واستيلاه على المحل، ومحصول الوقف والتقصير في مصارفه اللازمة، وينسب التقصير للناظر. وكان — رحمه الله — عظيم الهمة يغلب عليه الحيا والمسامحة ويرى خلاف ذلك من سفاسف الأمور، فتنصل من ذلك وترك فعله لغيره.

فلما أوقع المترجم بالسيد بدوي وباقي عظما السدنة ما أوقع، انقمع الباقون وذلوا وخافوه أشد الخوف، ووشوا على بعضهم البعض، وطفق يطالبهم بالبذور والشموع والأغنام والعجول وما يتحصل من صندوق الضريح من المال، وكانوا يختصون بذلك كله وأقلهم في رفاهية من العيش، وجمع المال مع السفالة والشحاتة حتى من الفقير المعدم المفلس والكسرة الناشفة.

وكان إذا أراد الإيقاع بشخص أو إهانته وخشي عاقبة ذلك أو لومًا يلحقه ممن ينتصر له، مهَّد له الطريق سرًّا قبل الإيقاع به، فإنه لما أراد ضرب السيد بدوي طاف على الشيخ العروسي وأمثاله وأسرهم ما في نفسه.

وامتدت يده أيضًا إلى شهود بيت القاضي، فكان إذا بلغه أن أحدهم كتب حجة استبدال أو إجارة مكان مدة طويلة لناظر أو مستحق، وكان ذلك المكان يَئُول بعد انقراض مستحقيه لضريح من الأضرحة التي تحت نظره، أحضر ذلك الكاتب ووبَّخه

ولعنه، ولربما ضربه وأبطل تلك المكاتبة ومحاها من سجل القاضي أو يصالحونه على تنفيذ ذلك، مع أنها لا تَئُول إلى تلك الجهة إلا بعد سنين وأعوام متطاولة.

وقد نص علما الشرع على أن الوقف والنذر للقبور والأضرحة باطل، فإن قيل بصحته على الفقرا، قلنا إن سدنة هذه الأضرحة ليسوا بفقرا، بل هم الآن أغنى الناس، والفقرا حقيقة خلافهم من أولاد الناس الذين لا كسب لهم، والكثير من أهل العلم الخاملين والذين يحسبهم الجاهل أغنيا من التعفف.

ولما استولى المترجم على وظيفة نظر المشهد الحسيني قهر السيد بدوي المباشر المذكور، وأخذ دار سكنه شرقي المسجد وأخرجه منها وهدمها وأنشاها دارًا لنفسه ينزل بها أيام المولد المعتاد، ويأتي إليها في كل جمعة أو جمعتين، ولما تم بناها ونظامها وقرب وقت المولد انتقل إليها بخدمه وحريمه وتقدم إلى حكام الشرطة بأمر الناس والمناداة على أهل الأسواق والحوانيت بالسهر بالليل، ووقود السرج والقناديل خمس عشرة ليلة المولد، وكان في السابق ليلة واحدة.

وأحدثوا في تلك الليالي سيارات وجمعيات وطبولًا وزمورًا ومناور ومشاعل، وجمع خلايق من أوباش العالم الذين ينتسبون إلى الطرايق كالأحمدية والسعدية والشعيبية، ويتجاوبون في وسط الطبول بألفاظ مستهجنة ينادون بها مشايخ طرقهم بكلمات وعبارات تشمئز منها الطباع، وأمرهم بأن يمروا من تحت داره، ودعا أمرا البلدة في ظرف تلك الأيام متفرقين، ودعا عابدين باشا يوم المولد.

ولما سكن بتلك الدار وهي قبالة الميضاة والمراحيض، فكان يتضرر من الريحة فقصد إبطالها من تلك الجهة، فاشترى دارًا قبلي المسجد وهي بجانب حايط المسجد الجنوبية الفاصلة بينها وبين المسجد، وأدخل منها جانبًا في المسجد وزاد فيه مقدار باكية وجعلها مرتفعة عن أرض المسجد درجة لتمتاز عن البنا القديم، وجعل به محرابًا وخلفه خلوة يسلك إليها من باب بصدر الليوان المذكور إلى فسحة لطيفة أمام الخلوة، وبالخلوة شباك مطل على الليوان الصغير الذي بقبة الضريح، وأنشا فيما بقي من الدار ميضاة ومراحيض، وفتح لها بابًا من داخل المسجد من آخره بجانب باب السبيل، وأبطل الميضاة القديمة لانحراف مزاجه وتأَذِّيه من ريحتها، وتحول عبور الناس من داخل وخارج إلى هذه السكة الجديدة، وأتت عليها عدة أيام ففاحت الروايح على المصلين ومن بالمسجد وما انضاف إلى ذلك أيضًا من البلل والتقذير من أرجل الأوباش لقربها من المسجد، فلغط الناس ومن يحضر في أوقات الصلاة من أتراك خان الخليلي والتجار،

وشنعوا القالة وقاموا قومة واحدة وأغلقوا الباب وأبطلوا تلك الميضاة ومنعوا من دخولها وساعدهم المتصوفون من أجناسهم، فانكسف بال المترجم لذلك ولم يمكنه تنفيذ فعله، وأعاد الميضاة القديمة كما كانت وجعل المستجدة مربطًا للحمير يستغل أجرته بعد أن أزال تلك الميضاة ومحا أثر ذلك، وكان بنا هذه الزيادة سنة ست بعد المايتين.

ثم زاد في منزل سكنهم زيادة من ناحية البركة المعروفة ببركة الفيل خلف البستان، أخذ في تلك الزيادة مقدارًا كبيرًا من أرض البركة، وأنشا مجلسًا مربعًا متسعًا مطلًّا على البركة من جهتيه، وبوسطه عامود من الرخام، وبلَّط دور قاعته بالرخام وجعل به مخدعًا وخارجه فسحة كبيرة وشبابيكها مطلة على البركة، وصارت القاعة القديمة المعروفة بالغزال الملتفت بابها في ضمن الفسحة وبها باب القيطون، وسمى هذه المنشية الأسعدية، وبتلك الفسحه باب يدخل منه إلى منافع ومرافق، ثم عَنَّ له التغيير والتبديل لأوضاع البيت من ناحية أخرى فهدم الساتر على القاعة الكبيرة وفسحتها، وهي التي يسمونها بأم الأفراح، وهي من إنشا الشيخ أبي التخصيص، وهي أعظم المجالس التي بدارهم مزخرفة بالنقوش الذهب والقيشاني الصيني بجميع حيطانها والرخام الملون، وبها الفسقية والسلسبيل والقمريات الملونة، فكشف حايطها وأدخل فسحتها في رحبة الحوش، وهدم القاعة الأخرى التي كان يصعد إليها بسلم من الفسحة الأخرى، وأبطل الحواصل التي أسفلها وساواها بالأرض، وعمل بها فسقية بالرخام ومرافقها من داخلها، وبها باب يتوصل منه إلى الحريم، وسماها الأنوارية نسبة لكنيته، وأمامها فسحة عظيمة ديوان بدكك وكراسي بجانب البستان، وبها الطرقة والدهليز الممتد بوسط البستان الموصل إلى القاعة المسماة بالغزال والأسعدية.

وهدم المقعد القديم الذي به العامود وقناطره، وما كان بظاهر الحاصل المسمى بحاصل السجادة من الحواصل السفلية، وجعله مسجدًا يصلي فيه الجمعة، ونصب فيه منبرًا للخطبة وذلك لبُعد المساجد الجامعة عن داره وتعاظمه عن السعي الكثير والاختلاط بالعامة، وأخذ قطعة وافرة من بيت كتخدا الجاويشية وسع بها البستان وغرس بها الأشجار والرياحين والثمار.

وأفنى غالب عمره في تحصيل الدنيا وتنظيم المعاش والرفاهية واقتِنا كل مرغوب للنفس وشِرا الجواري والمماليك والعبيد والحبوش والخصيان، والتأنق في المآكل والمشارب والملابس، واستخراج الأدهان والعطريات والمركبات المفرحة والمنعشة للقوة، وتعاظم في نفسه وتعالى على أبنا جنسه، حتى إنه ترفَّع على لبس التاج وحضور المحيا بالأزهر

ليلة المعراج، وكذا الحضور في مجلس وردهم الذي هو محل عزهم وفخرهم، وصار يلبس قاووقًا بعمامة خضراء تشبهًا بأكابر الأمرا وبُعدًا عن التشبه بالمتعممين والفقها والمقرئين.

ولما طالت أيامه وماتت أقرانه والذين كان يستحي منهم ويهابهم، وتقلبت عليه الدول واندرجت أكابر الأمرا وتأمر أتباعهم ومماليكهم الذين كانوا يقومون على أقدامهم بين يدي مخاديمهم، وأسيادهم جلوس بالأدب مع المترجم، لا جرم كانت هيبته في قلوبهم أعظم من أسلافهم، واستصغاره هو لهم كذلك؛ فكان يصدعهم بالكلام وينفذ أمره فيهم، ويذكر الأمير الكبير بقوله: ولدنا الأمير فلان، وحوايجه عندهم مقضية وكلامه لديهم مسموع وشفاعته مقبولة، وأوامره نافذة فيهم وفي حواشيهم وحريماتهم، واتفق أن بعض أعاظم المباشرين من الأقباط توقف معه في أمر فأحضره ولعنه وسبه، وكشف رأسه وضربه على دماغه بزخمة من الجلد ولم يراعِ حرمة أميره، وهو إذ ذاك أمير البلدة، ولما شكا إلى مخدومه ما فعل به قال له: وما تريد أن أصنع بشيخ عظيم ضرب نصرانيًّا؟ فرحم الله عظامهم.

واتفق أيضًا أن جماعة من أولاد البلد ووُجهاها اجتمعوا ليلة بمنزل بعض أصحابهم وتباسطوا، فأخذ بعضهم يسخر ويقلد بعض أصحاب المظاهر، فوُشِي للمترجم مجلسهم وأنهم أدرجوه في سخريتهم؛ فتسماهم وأحضرهم واحدًا بعد واحد وعزَّرهم بالضرب والإهانة.

فكان كل قليل يقع في بيته الضرب والإهانة لأفراد من الناس، وكذلك فلاحو الحصص التي حازها والتزم بها، فإنه زاد في خراجهم عن شركاه، ويفرض عليهم زيادات ويحبسهم عليها شهورًا ويضربهم بالكرابيج، وبالجملة فقد قلب الموضوع وغيَّر الرسم المطبوع، بعد أن كان منزلهم محل سلوك ورشاد وولاية واعتقاد، فصار كبيت حاكم الشرطة يخافه من غلط أدنى غلطة.

ويتحاماه الناس من جميع الأجناس، وجُلساه ومرافقوه لا يعارضونه في شي بل يوافقونه، ولا يتكلمون معه إلا بميزان وملاحظة الأركان، ويتأدبون معه في رد الجواب وحذف كاف الخطاب، ونقل الضماير عن وضعها في غالب الألفاظ، بل كلها حتى في الآثار المروية والأحاديث النبوية وغير ذلك من المبالغات وتحسين العبارات، والوصف بالمناقب الجليلة والأوصاف الجميلة، حتى إن السيد حسين المنزلاوي الخطيب كان ينشي خطبًا يخطب بها يوم الجمعة التي يكون المترجم حاضرًا فيها بالمشهد الحسيني وبزاويتهم

أيام المولد، ويدرج فيها الإطرا العظيم في المترجم، والتوسل به في كشف المهمات وتفريج الكروب وغفران الذنوب، حتى إني سمعت قايلًا يقول بعد الصلاة: لم يبقَ على الخطيب إلا أن يقول: «اركعوا واسجدوا واعبدوا شيخ السادات.»

ولما قدمت الفرنساوية إلى الديار المصرية في أوايل سنة تلات عشرة ومايتين وألف، لم يتعرضوا له في شي، وراعوا جانبه وأفرجوا عن تعلقاته، وقبلوا شفاعاته وتردد إليه كبيرهم وأعاظمهم، وعمل لهم ولايم، وكنت أصاحبه في الذهاب إلى مساكنهم والتفرج على صنايعهم ونقوشهم وتصاويرهم وغرايسهم، إلى أن حضر ركب العثمانيين في سنة خمس عشرة، وحصلت بينهم المصالحة على انتقال الفرنساوية من أرض مصر ورجوعهم إلى بلادهم على شروط اشترطوها بينهم وبين وزير الدولة العثمانية.

ومنها حسابات تدفع إليهم وأخرى تخصم عليهم، وظن المترجم وخلافه إتمام الأمر والارتحال لا محالة، فعند ذلك لحقه الطمع فذكر مصلحة دفعها لكاتب جيشهم في نظير الإفراج عن تعلقاته، وأرسل يطلبها من بوسليك مدبر الجمهور، وكذلك ما قبضه ترجمانه فقال: هذه عوايد لا بد منها ودخلت في حساب الجمهور، وتغير خاطرهم منه وكانت منه هفوة ترتب عليها بينهم وبينه الجفوة.

ولما انتقض الصلح وحصلت المفاقمة ووقعت المحاربة في داخل المدينة، وتترست العساكر الإسلامية وأهل البلد في النواحي والجهات، وانقطع الجالب عن أهل البلد مدة ستة وتلاتين يومًا التزم أغنيا الناس، وأصحاب المظاهر الإطعام والإنفاق على المحاربين والمقاتلين في جهتهم ونواحيهم، والتزم المترجم كغيره الإنفاق على من حوله.

فلما انقضت أيام المحاربة وانتصر الفرنساوية ورجع الوزير ومن معه إلى جهة الشام منهزمين، فعند ذلك انتقم الفرنساوية من المبارزين لهم بأخذ المال بدلًا عن الأرواح، وقبضوا على المترجم وحبسوه وأهانوه أيامًا، وفرضوا عليه قدرًا عظيمًا من المال قام بدفعه كما ذكرنا ذلك مفصلًا في محله.

وقيل: إن الذي زاد الفرنساوية إغراءً به مراد بك حين اصطلح معهم، وعمل لهم ضيافة ببر الجيزة، وسببه أنه لما دهمت الفرنساوية وطلعوا إسكندرية، ووصل الخبر إلى مصر اجتمع الأمرا بالمساطب وطلبوا المشايخ ليشاوروا في هذا الحادث، فتكلم المترجم وخاطبهم بالتوبيخ، وقال: كل هذا سو فعالكم وظلمكم، وآخر أمرنا معكم ملَّكتمونا للإفرنج، وشافه مراد بك: وخصوصًا بأفعالك وتعديك أنت وأمراك على متاجرهم وأخذ بضايعهم وإهانتهم، فحقدها عليه وكتمها في نفسه حتى اصطلح مع الفرنساوية وألقى إليهم ما ألقاه، ففعلوا به ما ذُكر، وذلك في تاني يوم الضيافة.

فلما رجع العثمانية في السنة التانية إلى مصر بمعونة الإنكليز وصاروا بالقرب من المدينة، حبسوا المترجم مع من حُبس بالقلعة من أرباب المظاهر خوفًا من إحداثهم فتنة بالبلدة، ومات ولده الذي كان سماه محمد نور الله وهو معوَّق وممنوع، فأذنوا له في حضوره جنازة ولده، فنزل وصحبته شخص حرس منهم فلازمه حتى واراه، وعاد به ذلك الحرسي إلى القلعة، وكان هذا الولد مراهقًا له من العمر اثنتا عشرة سنة، كان في أمله أن يكون هو الخليفة في بيتهم من بعده ويأبى الله إلا ما يريد.

ولما انفصل الأمر وارتحل الفرنساوية من أرض مصر ودخل إليها يوسف باشا الوزير ومن معه، تقدم المترجم يشكو إليه حاله وما أصابه، وادَّعى الفقر والإملاق مع أن الفرنساوية لم يحجزوا عنه شيًّا من تعلقاته وإيراده، وجعل شكواه وما حصل له سلمًا للإفراج عن جميع تعلقاته، وإيراده من غير حلوان كغيره من الناس، وزاد على ذلك أشيا ومطالب ومسامحات، ودعا الوزير إلى داره وأفراد رجال الدولة الذين بيدهم مقاليدُ الأمور، وعاد إلى حالته في التعاظم والكبريا.

وارتحل الوزير بعد استقرار محمد باشا خسرو على ولاية مصر، وكان سموحًا، وكذلك شريف أفندي الدفتردار فرمح في غفلتهما، واستكثر في التحصيل والإيراد، إلى أن تقلبت الأحوال وعادت للمصريين في سنة تماني عشرة، ثم خروجهم وما وقع من الحوادث التي تقدم ذكرها.

واستقر محمد علي باشا وثبتت قدمه بمعونة العامة والسيد عمر مكرم بمملكة مصر، وشرع في تمهيد مقاصده، فكان السيد عمر يمانعه فدبَّر على إخراجه من مصر، وجمع المشايخ وأحضر المترجم وخلع عليه وقلَّده النقابة، وأخرج السيد عمر من مصر منفيًّا إلى دمياط، وذلك في سنة أربع وعشرين كما تقدم، ووافق فعلُه ذلك غرضَ المترجم، بل ربما كان بمعونته لحقده الباطني على السيد عمر وتشوُّفه إلى النقابة وادِّعاه أنها كانت ببيتهم؛ لكون الشيخ أبي هادي تولاها أيامًا ثم تولاها بعده أبو الأمداد، ثم نزل عنها لمحمد أفندي البكري الكبير فلم يزل في نفس المترجم التطلع لنقابة الأشراف، ويصرح بقوله: إنها من وظايفنا القديمة، وأحضر بها مرسومات من دار السلطنة، وأخفاه ولم يظهره مدة حياة محمد أفندي البكري الكبير، فلما مات وتقلدها ولده محمد أفندي ادَّعاها وأظهر المرسوم، وشاع خبر ذلك فاجتمع الجم الغفير من الأشراف بالمشهد الحسيني ممانعين وقايلين: لا نرضاه نقيبًا ولا حاكمًا علينا، فلم يتم مراده.

فلما تُوُفِّيَ محمد أفندي الصغير ظن أنه لم يبقَ له فيها منازع، فلا يشعر إلا وقد تقلدها السيد عمر بمعونة مراد بك وإبراهيم بك لصحبته معهما ومرافقته لهما

في الغربة حين كان المصريون بالصعيد، فسكت على ضغن وغيظ يخفيه تارة ويظهره أخرى، وخصوصًا وهو يرى أن السيد عمر في ذلك دون ذلك بكثير.

فلما خرج الفرنساوية ودخل الوزير إلى مصر، وصحبته السيد عمر متقلدًا للنقابة كما كان، وانفصل عنها السيد خليل البكري، وارتفع شان السيد عمر وزاد أمره بمباشرة الوقايع وولاية محمد علي باشا، وصار بيده الحل والعقد والأمر والنهي والمرجع في الأمور الكلية والجزئية، والمترجم يحقد عليه في الباطن ويظهر له خلافه، وهو الآخر كذلك كقول الشاعر:

أصادقه كُرها ويُظهر أنه ... صديقيَ كرْها والعداوةُ تشتد
ولستُ بمعتدٍّ له بصداقةٍ ... كما أنه منِّي بها ليس يَعتدُّ
وذاك لأني عالمٌ وهو عالم ... فعلميَ منه أنني مثله ضدُّ
ولكنني أخشاه وهْو يخافني ... فَيخْفى ويبدُو بيننا البغضُ والودُّ

فلما أخرج الباشا السيد عمر، وتقلد المترجم النقابة وبلغ مأموله، عند ذلك أظهر الكامن في نفسه وصرح بالمكروه في حق السيد عمر ومن ينتمي إليه أو يواليه، وسطر فيه عرضًا محضرًا إلى الدولة نسب إليه فيه أنواعًا من الموبقات التي منها أنه أدخل جماعة من الأقباط في دفتر الأشراف، وقطع أناسًا من الشرفا المستحقين، وصرف راتبهم للأقباط المدخلين.

ومنها أنه تسبب في خراب الإقليم وإثارة الفتن وموالاة البغاة المصريين وتطميعهم في المملكة، حتى إنه وعدهم بالهجوم على البلدة يوم قطع الخليج في غفلة الباشا والناس والعساكر، وأنه هو الذي أغرى المصريين على قتل علي باشا برغل الطرابلسي حين قدم واليًا على مصر، وهو الذي كاتب الإنكليز وطمَّعهم في البلاد مع الألفي حين حضروا إلى إسكندرية وملكوها ونصر الله عليهم العساكر الإسلامية، وغير ذلك من عبارات عكس القضية وتمنيق الأغراض النفسانية، وكتب الأشياخ عليه خطوطهم وطبعوا تحتها ختومهم، ما عدا الطهطاوي الحنفي، فإنه تنحَّى عن الشرور وامتنع من شهادة الزور، فأوسعوه سخطًا ومقتًا وعزلوه من الإفتا، وقد تقدم خبر ذلك في حوادث سنة أربع وعشرين، وإنما المعنى بإعادة ذلك لك هنا تتمة لترجمة المشار إليه، وحذروا من نقصها النسيان لأكثر جملها، فلو سلمت الفكرة من النسيان لفاقت سيرته كان وكان.

وفي سنة ست وعشرين أنشأ دارًا عظيمة بجانب المنزل، وصرف عليها جملًا من المال، وأنشأ بها مجالس وقاعات ورواشن ومنافع ومرافق وفساقي، وأنشا فيها بستانًا غرس فيه أنواع الأشجار المثمرة، وأدخل به ما حازه من دور الأمرا المتخربة، وكان السيد خليل البكري اشترى دارًا بدرب الفرن، وذلك بعد خروج الفرنساوية وخمول أمره وعزله من مشيخة البكرية والنقابة، وأنشا بها بستانًا أنيقًا وأنشا قصرًا برسم ولده مطلًّا على البستان، فلما تُوُفِّيَ السيد خليل تعدى على ولده سيدي أحمد وقهره، وأخذ منه ذلك البستان بأبخس الأثمان وخلطه ببستان الدار الجديدة، وبنى سوره وأحاطه وأقام حايطًا بينه وبين دار المذكور وطمسها وأعماها، وسدت الحايط شبابيك ذلك القصر وأظلمته، ولم يزل كلما طال عمره زاد كِبْره وقَلَّ برُّه وتعدَّى شره، ولما ضعفت قواه تقاعد عن القيام لأعاظم الناس إذا دخل عليه محتجًّا بالإعيا والضعف، ولازم استعمال المنعشات والمركبات المفرحة، ولا يصلح العطار ما أفسد الدهر.

وفي شهر شوال من السنة التي تُوُفِّيَ فيها أحضر ابن أخيه سيدي أحمد الذي تولى المشيخة بعده، وألبسه خلعة وتاجًا وجعله وكيلًا عنه في نقابة الأشراف وأركبه فرسًا بعباءة، وأرسله إلى الباشا صحبة سيدي محمد المعروف بأبي دفية وأمامه جاويشية النقابة على العادة، فلما دخلا إلى الباشا وعرَّفه المرسول بأن عمه أقامه وكيلًا عنه، فقال: مبارك، فأشار إليه أن يلبسه خلعة، فقال: إن موكله ألبسه ولم يتقلدها بالأصالة، ولو كنت قلدته أنا كنت أخلع عليه وألبسه، فقام ونزل إلى داره التي أسكنه بها عمه، وهي الدار التي عند المشهد الحسيني، وحضر إليه الناس للسلام والتهنية.

وفي هذه السنة أيضًا عَنَّ للمترجم أن يزيد في المسجد الحسيني زيادة مضافة لزيادته الأولى التي كان زادها في سنة ست ومايتين وألف، فهدم الحايط التي كان بناها الجنوبية، وأدخل القطعة التي كان عمل بها الميضاة وزاد باكية أخرى وصفَّ عواميد، وصارت مع القديمة ليوانًا واحدًا، وشرع في بنا دار عظيمة لينزل فيها وقت مجيه هناك في أيام المولد وغيره، عوضًا عن الدار التي نزل عنها لابن أخيه؛ فتكون هذه بعيدة عن روايح الميضاة القديمة، وتكون بالشارع وتمر من تحتها مواكب الأشاير، ولا يحتاجون إلى تعديهم المسجد ودخولهم من طريق باب القبة، وجعل بالحايط الفاصل بين الزيادة والدار المستجدة شبابيك مطلة على المسجد لينظر منها المجالس والوقودات من يكون بالدار من الحريم وغيرهم، فما هو إلا وقد قرب إتمام ذلك إلا وقد زاد به الإعياء والمرض، وانقطع عن النزول من الحريم، وتمت الزيادة ولم يبقَ إلا إتمام الدار، فيستعجل ويشتم

المشد والمهندس، وينسب إليهم إهمال استحثاث العمال، ويقول: قد قرب المولد ولم تكمل الدار فأين نجلس أيام المولد؟ هذا وكل يوم يزيد مرضه، وتورمت قدماه وضعف عن الحركة، وهو يقول ذلك ويؤمل الحياة، فلما زاد به الحال وتحقق الرحيل إلى مغفرة المولى الجليل، أوصى لأتباعه بدراهم، ولذي الفقار الذي كان كتخدا الألفي والآن في خوالة بستان الباشا الذي بشبرا بخمسماية ريال؛ لكون زوجته خشداشة حريمه، وهما من جواري إسماعيل بك الكبير، وليكون معينًا لها ومساعدًا في مهماتها، ولسيدي محمد أبي دفية مثلها في نظير خدمته وتقيده وملازمته له، وأوصى أن لا يُغَسَّل إلا على سريره الهندي الذي كان ينام عليه في حياته ليكون مخالفًا للعالم حتى في حال الموت.

فلما كان يوم الأحد تامن عشره ربيع الأول من السنة انقضى نحبه، وتُوُفِّيَ إلى رحمة الله تعالى وقت العصر وبات بالمنزل ميتًا، فلما أصبح يوم الاتنين غُسِّل وكُفِّن كما أوصى على السرير، وخرجوا بجنازته من المنزل ووصلوا بها إلى الأزهر، فصُلِّي عليه بعدما أنشد المنشد مرثية من إنشا العلامة الشيخ حسن العطار، وجعل براعة استهلالها الإشارة إلى ما كان عليه المترجم من التعاظم والتفاخر.

فقال: سلام على الدنيا فقد ذهب الفخر.

ثم حُمل إلى مشهد أسلافه بالقرافة ودُفن في التربة التي أعدها لنفسه بجانب مقام جدهم، وتقلد مشيخة سجادتهم في ذلك اليوم الشيخ أحمد ابن الشيخ يوسف، وهو ابن عمه وعصبته، وكنيته أبو الإقبال بإجماع من الخاص والعام، وجلس هو وأخوه سيدي يحيى لتلقي العزا، وفي الصباح حضر إلى الرباط بالخرنفش، وكان بزاوية الرباط المذكور خلوة جدهم، أقام بها حين حضر من الغرب إلى مصر، وعادتهم إذا تولى شخص منهم المشيخة، لا بد أن يأتي في الصباح ويدخل الخلوة فيجلس بها حصة لطيفة فيستروحن وتلبسه الولاية، فلما كان المترجم هدم حايط تلك الخلوة زاعمًا أنه خاتمة أولياه، وأنه لم يأتِ من يصلح للمشيخة سواه، كأنه أخذ بذلك عهدًا وميثاقًا، ولم يعلم أن ربه لم يزل خلاقًا، وأن الولاية ليست بفعل العبد ولا بالسعي والقصد، قال الله تعالى في محكم آياته: ﴿اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾، وقال سبحانه: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ❁ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ و﴿إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ﴾، نسأله التوفيق والهداية والحفظ عن أسباب الغواية.

ولما كان ذلك وأحبوا إجرا العادة القديمة حضر المتولي وصحبته أشياخُ الوقت والسيد محمد المحروقي وجماعة الحزب وغيرهم من المتفرجين، وقد جعلوا على محل

الخلوة ساترة بدل الحايط المهدوم، ودخل المتولي خلفها وقرا جماعةُ الحزب شيًّا من القرآن، ثم قام النقيب مع الشيخ البكري فتلقوا الشيخ فخرج على الحاضرين متطيلسًا، وصافحهم وركب بصحبتهم إلى القلعة، فخلع عليه كتخدا بك خلعة سمور، وقاموا ونزلوا إلى زاويتهم بالقرافة وأمامهم جماعة الحزب وجاويشية النقابة، فجلسوا حصة وقروا أحزابهم، ثم ركب ورجع إلى المنزل وجلس مع أخيه لعمل المأتم والقراءة الجمعية على العادة، وأرسل كتخدا بك ساعيًا يخبر موته إلى الباشا بالفيوم.

لأنه لما سافر إلى جهة قبلي ووصل إلى ناحية بني سويف، ركب بغلة سريعة العَدْو، وركب خلفه خواصه بالهجن والبغال، فوصلها في أربع ساعات، وانقطع أكثر المتوجهين معه، ومات منهم سبعة عشر هجينًا.

ورجع الساعي بعد تلاتة أيام بجواب الرسالة، ومضمونها عدم التعرض لورثة المُتَوَفَّى حتى يقدم الباشا من غيبته، فبقي الأمر على السكوت أربعة عشر يومًا.

وحضر الباشا ليلة الأحد تامن ربيع الآخر، فبمجرد وصوله إلى الجيزة أرسل بالختم على منزلهم، فما يشعرون إلا وحسين كتخدا الكتخدا بك وبيت المال واصل إليهم ومعهم آخرون، فختموا على المجالس التي بالحريم ومجلس الجلوس الرجالي ختموا على خزاينه.

وقبضوا على الكاتب القبطي المسمى عبد القدوس والفراش وحبسوهما، وعدى الباشا من ليلته إلى بر مصر، وطلع إلى القلعة فركب إليه في صبحها المشايخ وصحبتهم ابن أخي المُتَوَفَّى وهو الذي تولى المشيخة، فخاطبوه وقالوا له كلامًا معناه: أن بيوت الأشياخ مكرمة ولم تجرِ العادة بالختم على أماكنهم، وخصوصًا أن هذا المُتَوَفَّى كان عظيمًا في بابه، وأنتم أخبر به، وكان لكم به مزيد عناية ومراعاة، فقال: نعم، إني لا أريد إهانة بيتهم ولا أطمع في شي مما يتعلق بمشيختهم ولا وظايفهم القديمة، ولا يخفاكم أن المُتَوَفَّى كان طمَّاعًا وجمَّاعًا للمال، وطالت مدته، وحاز التزامات وإقطاعات، وكان لا يحب قرابته ولا يخصهم بشي، بل كتب ما حازه لزوجته وهي جارية نهاية ثمنها ألفا قرش أو أقل أو أكثر، ولم يكتب لأولاد أخيه شيًّا، فلا يصح أن أَمَةً تختص بذلك كله، والخزينة أولى به لاحتياجات مصاريف العساكر ومحاربة الخوارج واستخلاص الحرمين وخزينة السلطان، وأنا أرفع الختم رعاية لخواطركم، فدعوا له وقاموا إلى مجلس الكتخدا.

وخلع على الشيخ المتولي فروة سمور أخرى، وقلد السيد محمد الدواخلي نقابة الأشراف وخلع عليه فروة سمور عوضًا عن سيدي أحمد أبي الإقبال المتولي على خلافة السادات، فانفصل من النقابة ونزلت الجاويشية ولوازم النقابة مثل باش جاويش

والكاتب أمام الدواخلي وخلفه، وقلد السيد المحروقي نظارة المشهد الحسيني عوضًا عن المُتَوَفَّى، وكان فرغ بها لابن أخيه فلم ينفذ الباشا ذلك.

وفي تاني يوم حضر الأعوان إلى بيت السادات، وفكوا الختوم وطلبوا سقاء الحريم فأخذوه معهم، وأوجعوه بالضرب وأحضروا البنا وسألوهما عن محل الخبايا، ثم رجعوا إلى المنزل ففتحوا مخبأة مسدودة بالبنا، فوجدوا بها قوالب مساند قطيفة غير محشوة، ووجدوا نحاسًا وقطنًا وأواني صيني، فتركوا ذلك وذهبوا وأبقوا بالدار عدة من العسكر، فباتوا بها ثم رجعوا في تالت يوم وفتحوا مخبأة أخرى، فوجدوا بها أكياسًا مربوطة، فظنوا بداخلها المال ففتحوها فوجدوا بها بن قهوة وبغيرها صابون وشموع عسل ولم يجدوا شيًّا من المال، فتركوا تلك الأشيا ونزلوا إلى قاعة جلوسه، وفتحوا خزانة فوجدوا بها نقودًا فعدوها وحصروها فبلغت ماية وسبعة وعشرين كيسًا فأخذوها.

ثم سعى السيد محمد المحروقي في مصالحة الباشا، حتى قرر عليهم ألف كيس وخمسين كيسًا وخمسة أكياس براني لبيت المال، وخصموا منها الذي وجدوه بالخزانة وطولبوا بالباقي، وذلك بعد التشديد والتهديد على الزوجة وتوعدوها بالتغريق في البحر إن لم تُظهر المال، وأمر الكاتب بحساب إيراده ومصرفه في كل سنة وما صرفه في الأبنية، وينظر ما يتبقى بعد ذلك في مدة سنين ماضية.

فلم يزل السيد محمد المحروقي يدافع ويسعى حتى تقرر القدر المذكور، والتزم هو بدفعه وحولت عليه الحوالات، وضبط الباشا حصص الالتزام باسم الزوجة، ومنها قلقشندة بالقليوبية وسوادة ودفرينة بالجهة القبلية، وغير ذلك.

وبعد انقضا عدة الزوجة استأذن السيد المحروقي الباشا في عقد نكاحها على ابن أخي المُتَوَفَّى الذي هو السيد أحمد أبو الإقبال الذي تولى خلافة بيتهم، فأذن بذلك فحضر في الحال وأجرى العقد بعد أن حكمت عليه بطلاق التي في عصمته، وهي جاريتها زوَّجته بها في حياة عمه، ورُزق منها أولادًا، واستقر المشار إليه في المنزل خليفةً وشيخًا على سجادتهم ومحل سيادتهم، وسكن معه أخوه سيدي يحيى، زادهما الله توفيقًا وخيرًا واتفاقًا، وأشرق نجم المتصدر على أفق السعادة إشراقًا، فهو أبو الإقبال المتحلي بالجمال والكمال.

في المهد ينطق عن سعادة جده   أثر النجابة واضح البرهان
إن الهلال إذا رأيت نموَّه   أيقنت أنْ سيزيدُ في اللمعان

ومات الشيخ الناسك محمد بن عبد الرحمن اليوسي المغربي.

ورد إلى مصر وحج ورجع ونزل بدار الحاج مصطفى الهجين العطار منجمعًا عن خلطة الناس، والسعي على طريقة حميدة ومذاكرة حسنة، ويأتي إليه الناس يزورونه ويتبركون به ويسألونه الدعا، ويستفهمون منه مسايل فجيب كل إنسان بما ينسر منه، بتواضع وانكسار وتزهيد في الدنيا، وتمرض سنينًا وتُوُفِّيَ يوم التلاتا تامن عشرين المحرم، وصُلِّي عليه بالأزهر في مشهد حافل، ودُفن بجانب الخطيب الشربيني بتربة المجاورين، وهي القرافة الكبرى.

ثم دخلت سنة تسع وعشرين ومايتين وألف (١٨١٣م)

استهل المحرم بيوم الجمعة، فيه في ليلة الجمعة ثامنه وردت مكاتبات من الديار الحجازية، وفيها الأخبار بأن الباشا قبض على الشريف غالب أمير مكة، وقبض على أولاده الثلاثة وأربعة عبيد طواشية من عبيده، وأرسلهم إلى جدة، وأنزلهم في مركب من مراكبه وهي واصله بهم، والذي وصل بالخبر وصل في مركب صغيرة تسمى السحاب، سبقتهم في الحضور إلى السويس.

وأخبروا أيضًا في المكاتبة أنه لما قبض عليهم أحضر يحيى ابن الشريف سرور، وقلده الأمارة عوضًا عن عمه غالب، وقبضوا أيضًا على وزيره الذي بجدة وأصحبوه معهم، وقلد مكانه في الكمارك شخصًا من الأتراك يسمى علي الوجاقلي، فلما وصل الهجان بهذه المكاتبة إلى السيد محمد المحروقي ليلًا ركب من وقته إلى كتخدا بك في بيته وأطلعه على المكاتبات، فلما طلع النهار نهار يوم الجمعة، ضربوا عدة مدافع من القلعة إعلامًا وسرورًا بذلك.

وفيه احتفل كتخدا بك بعمل مهم أيضًا لزواج إسماعيل باشا ابن محمد علي باشا ومحمد بك الدفتردار على ابنة الباشا، وإسماعيل باشا على ابنة عارف بك ابن خليل باشا التي أحضرها صحبته من إسلامبول، وقد تقدم ذكر العقد عليهما في ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان من السنة الماضية قبل توجُّه الباشا إلى الحجاز، فألزم كتخدا بك السيد محمد المحروقي بتنظيم الفرح والاحتياجات واللوازم، واتفقوا على أن يكون نصبة الفرح ببركة الأزبكية تجاه بيت حريم الباشا، وتعمل الولايم واجتماع المدعوين ببيت طاهر باشا، والمطبخ بخرايب بيت الصابونجي.

وأرسلوا أوراق التنابيه للمدعوين على طبقات الناس بالترتيب، ونصبوا بوسط البركة عدة صواري لأجل الوقدات والقناديل التي تعمل عليها التصاوير من القناديل، فترى من البُعد صورة مركب أو سبعَين متقابلَين أو شجرة أو محمل على جمل أو كتابة مثل: ما شاء الله ونحو ذلك، وصفوا بوسط البركة عدة مدافع صفَّين متقابلَين، ونصب بهلوان الحبل حبله أوله من تجاه بيت الباشا وآخره برأس المنارة التي جهة حارة الفوالة خلف رصيف الخشاب، حيث الأبنية المتخربة في الحوادث الماضية، بالقرب من القشلة وعمارات محمد باشا خسرو التي لم تكمل، وبهلوان آخر شامي بالناحية الأخرى.

وانتقل السيد محمد المحروقي من داره إلى بيت الشرايبي تجاه جامع أزبك لأجل مباشرة المهمات.

فلما أصبح يوم السبت وهو يوم الابتدا ودعوة الأشياخ، رتبوهم فرقتَين: فرقة تأتي ضحوة النهار وأخرى بعد العصر، واجتمع بالأزبكية أصناف أرباب الملاعيب والمغزلكين والجنباذية والحبيظية والحواة والقرداتية والرقاصين والبرامكة، وغير ذلك أصناف وأشكال فاحتفلت، وأقبل من كل ناحية أصناف الناس رجال ونسا وأقارب وأباعد وأكابر وأصاغر وعساكر وفلاحون ويهود ونصارى وأروام لأجل التفرج، حتى ازدحمت الطرق الموصلة إلى الأزبكية من جميع النواحي بأصناف الناس الذاهبين والراجعين والمترددين.

واستمر ضرب المدافع من ليلة السبت المذكور إلى ليلة الجمعة التالية الأخرى ليلًا ونهارًا، والحرايق والنفوط والسواريخ في الليل، ولعبت أرباب الملاعيب والبهلوانات على الحبال.

وكذلك احتفل النصارى وعملوا وقدات وحراقات تجاه حاراتهم ومساكنهم، وصادف ذلك عيد الميلاد وعملوا لهم مراجيح وملاعيب.

وفي أثنا ذلك وقع التنبيه على أصحاب الحرف والصنايع بعمل عربات مشكلة وممثلة بحرفتهم وصنايعهم ليمشوا بها في زفة العروس، فاعتنى أهل كل حرفة وصناعة بتنميق وتزيين شكله، وتباهوا وتناظروا وتفاخروا على بعضهم البعض، فكان كل من سولت له نفسه وحدثه الشيطان بأحدث شي فعله، وذهب إلى المتعين لذلك فيعطيه ورقة؛ لأن ذلك لم يكن لأناس مخصوصة أو عدد مقدر، بل بتحكماتهم وإلزام بعضهم البعض، فيفرض رئيس الحرفة على أشخاص أهلها فرايض ودراهم يجمعها منهم، وينفقها على العربة وما يلزمها من أخشاب وحبال وحمير أو خيل أو رجال يسحبونها، وما يكتريه أو يستعيره لزينتها من المزركشات والمقصبات والطلعيات، وأدوات الصنعة التي تتميز بها عن غيرها

فتصير في الشكل كأنها حانوت، والبايع جالس فيها كالحلواني، وأمامه الأواني فيها أنواع الحلوى والسكر، وحوله أواني الملبس وأقماع السكر معلقة حوله والشربات، والشربتلي والعطار والحريري والعقاد البلدي والرومي والزيات والحداد والنجار والخياط والقزاز والحباك، والنشار وهو ينشر بمنشاره المعلق، والطحان والفران وعه الفرن وهو يخبز فيه، والفطاطرة والجزار وحوله لحم الغنم، ومثله جزار الجاموس والكبابجي والنيفاوي وقلاء الجبن والسمك، والجيارين والجباسين بالحجر والثور يدور به وهو ماشٍ بالعربة، والبَنَّاء والمبلط والمبيض للنحاس، وللبناء والسمكري تتمتة إحدى وتسعون عربة، وفيهم حتى المراكبي في قنجة كبيرة كاملة العدة، والقلوع تمشي على الأرض على العجل، خلاف أربع عربات المختصة بالعروس.

فلما كان يوم الأربع سحبوا تلك العربات، وانجروا بمواكبهم وطبولهم وزمورهم، وأمام كل عربة أهل حرفتها وصناعها مشاة خلف الطبول والزمور، وهم مزينون بالملابس وملابسهم الفاخرة وأكثرها مستعارة، فكانوا ينزلون إلى البركة من ناحية باب الهوا ويمرون من تحت بيت الباشا إلى ناحية رصيف الخشاب، ويأتي كبير الحرفة بورقته إلى المتعين لملاقاتهم فينعم عليه بخلعة ودراهم، فيعطي البعض شال كشميري وألفين فضة، والبعض طاقة تفصيلة قطني أو أربعة أذرع جوخ على قدر مقام الصنعة وأهلها.

واستمر مرورهم من أول النهار إلى بعد الغروب، واصطفوا بأسرهم عند رصيف الخشاب، ولما أصبح يوم الخميس رتبوا مرور الزفة، وعين لترتيبها أشخاصًا ومنهم السيد محمد ضرب الشمس وهو كبير المنظمين.

وكان خروجها من بيت الحريم، وهو الذي كان سكن الشيخ خليل البكري، وذهبوا وانجروا على طريق الموسكي على تحت الربع إلى باب زويلة إلى الغورية إلى بين القصرين إلى سوق مرجوش إلى باب الحديد إلى بولاق إلى سراية إسماعيل باشا التي حددوها قبلي بولاق قريبًا من الشون، فلم تصل إلى منزلها إلا عند الغروب.

وكان في أول الزفة طايفة من العسكر الدلاة ثم والي الشرطة ثم المحتسب، ثم موكب أغات الينكجرية وبعدهم المساخر والنقاقير، وعدتها عشرة نقاقير وعلى كل نقارة تفصيلة.

ثم العربات المذكورة وفيها أيضًا تجار الغورية وطايفة تجار خان الخليلي في موكب حفل، وتجار الحمزاوي من نصارى الشوام وغيرهم.

وكان يومًا مشهودًا اجتمعت فيه الخلايق للفرجة في طرقها حتى طريق بولاق، واكتره الناس الأماكن المطلة على الشارع والحوانيت بأغلى الأثمان.

ولما وصلت العروس إلى قصرها ضربوا عدة مدافع من بولاق والأزبكية والجيزة.

وكان العزم على المهم الثاني والابتدا فيه يوم السبت الذي بعد الجمعة، فرسموا بتأخيره إلى الجمعة الأخرى لتأخر أم العريس ومن يصحبها من النسا، وأقمن ببولاق تلك الجمعة، واستمرت نصبة الصواري والحبال والآلات على حالها بالأزبكية.

وفي يوم الأحد سابع عشره وصل السيد غالب شريف مكة إلى مصر القديمة، وقد أتت به السفينة من القلزم إلى مرساة ثغر القصير، فتلقاه إبراهيم باشا وحضر صحبته إلى قنا وقوص، ثم ركب النيل بمن معه من أولاده وعبيده والعسكر الواصلين صحبته وحضر إلى مصر القديمة، فلما وصل الخبر إلى كتخدا بك ضربوا عدة مدافع من القلعة إعلامًا بوصوله وإكرامًا له، على حد قوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾.

وركب صالح بك السلحدار وأحمد أغا أخو كتخدا بك في طايفة لملاقاته وإحضاره، وهيَّئُوا له مكانًا بمنزل أحمد أغا أخي كتخدا بك بعطفة ابن عبد الله بك بخط السروجية لينزل فيه، وانتظره الكتخدا هناك وصحبته بونابارته الخازندار ومحمود بك ومحو بك وإبراهيم أغا أغات الباب والسيد محمد المحروقي، فلما وصل إلى الدار نزل الكتخدا والجماعة ولاقوه عند سلم الركوبة وقبَّلوا يده، ولزم الكتخدا بيده تحت إبطه حتى صعد إلى محل الجلوس الذي أعدوه له، واستمر الكتخدا قايمًا على قدميه حتى أذن له في الجلوس هو وباقي الجماعة، وعرفه الكتخدا عن السيد محمد المحروقي فتقدم وقبَّل يده، فقام له وسلم عليه وجلس بحذا الكتخدا ليترجم عنه في الكلام ويؤانسوه ويطمنوا خاطره، ثم إن الكتخدا اعتذر له باشتغاله بأحوال الدولة واستأذنه في الذهاب إلى ديوانه، وعرفه أن أخاه ينوب عنه في الخدمة ولوازمه، فقبل عذره وقام منصرفًا هو وباقي الجماعة ما عدا السيد محمد المحروقي ومحمود بك، فإن الكتخدا أمرهما بالتخلف عنده ساعة، فجلسا معه وتغديا صحبته ومعه أولاده التلاتة وعبيده، ثم انصرفا إلى منزلهما.

ولم يأذن الكتخدا لأحد من الأشياخ أو غيرهم من التجار بالسلام عليه والاجتماع به، والذي بلغنا في كيفية القبض عليه أنه لما ذهب الباشا إلى مكة، واستمر هو وابنه طوسون باشا مع الشريف غالب على المصادقة والمسالمة والمصافاة، وجدد معه العهود والأيمان في جوف الكعبة بأن لا يخون أحدٌ صاحبَه، كان الباشا يذهب إليه في قلة، وهو الآخر يأتي إليه وإلى ابنه كذلك، واستمروا على ذلك خمسة عشر يومًا من ذي القعدة، ثم دعاه طوسون باشا إليه كعادته في قلة فوجد بالدار عساكر كثيرة، فعندما استقر به المجلس وصل عابدين بك في عدة وافرة، وطلع إلى المجلس فدنا منه وأخذ الجنبية من

حزامه وقال له: أنت مطلوب للدولة، فقال: سمعًا وطاعة، ولكن حتى أقضي أشغالي في ظرف ثلاثة أيام وأتوجه، فقال: لا سبيل إلى ذلك، والسفينة حاضرة في انتظارك.

فحصل في جماعة الشريف وعبيده رجة، وصعدوا على أبراج سرايته وأرادوا الحرب، فأرسل إليهم الباشا يقول لهم: إن وقع منكم حرب أحرقت البلدة وقتلت أستاذكم، وأرسل لهم أيضًا الشريف يكفهم عن ذلك، وكان بها أولاده الثلاثة، فحضر إليهم الشيخ أحمد تركي وهو من خواص الشريف وخدمهم، وقال لهم: لم يكن هناك بأس وإنما والدكم مطلوب في مشاورة مع الدولة ويعود بالسلامة، وحضرة الباشا يريد أن يقلد كبيركم نيابة عن أبيه إلى حين رجوعه.

ولم يزل حتى انخدع كبيرهم لكلامه وقاموا معه، فذهب بهم إلى محل خلاف الذي به والدهم محتفظًا بهم، وفي الوقت أحضر الباشا الشريف يحيى بن سرور، وهو ابن أخي الشريف غالب، وخلع عليه وقلده أمارة مكة، ونودي في البلدة باسمه وعزل الشريف غالبًا حسب الأوامر السلطانية، واستمر الشريف غالب أربعة أيام عند طوسون باشا، ثم أركبوه وأصحبوا معه عدة من العسكر وذهبوا به وبأولاده إلى بندر جدة، وأنزلوهم السفينة وساروا بها إلى ناحية القصير من صعيد مصر، وحضر كما ذكر.

وفي يوم الأربع وصل قاصد من الديار الرومية وعلى يده مثالان، فعمل كتخدا بك ديوانًا في صبحية يوم الخميس حادي عشرينه وقري ذلك، وهما مثالان أحدهما التقرير لمحمد علي باشا على ولاية مصر على السنة الجديدة، والثاني الإخبار والبشارة باستيلا العثمانيين على بلاد الصرب، ولما فرغوا من قرايتهما ضربوا عدة مدافع من القلعة.

وفي عصرية ذلك اليوم حضر حريم الباشا من بولاق إلى الأزبكية في عربات، فضربوا لحضورهن مدافع من الأزبكية وشرعوا في عمل المهم التاني لابنة الباشا علي الدفتردار، وافتتحوا ذلك من ليلة السبت على النسق المتقدم، وعملوا العزايم والولايم واحتفلوا أزيد من المهم الأول، وأحضروا الشريف غالب وأعدوا له مكانًا ببيت الشرايبي على حدته هو وأولاده ليتفرجوا على الملاعب والبهلوانات نهارًا والشنك والحراقات ليلًا، وعلى الشريف وأولاده الحرس، ولا يجتمع بهم أحد على الوجه والصورة التي كانوا عليها بالمنزل الذي أنزلوا فيه.

فلما كان في يوم الأربع اجتمع أرباب العربات وأصحابها، وقد زادوا عن الأولى خمسة عشر عربة وفيهم معمل الزجاج، وباتوا بنواحي البركة على النسق المتقدم، ونصبوا لهم خيامًا تقيهم من البرد والمطر؛ لأن الوقت شتا.

ولما أصبح يوم الخميس انجرت العربات وموكب الزفة من ناحية باب الهوا على قنطرة الموسكي على باب الخرق على درب الجماميز، وعطفوا من الصليبة على المظفر على

السروجية على قصبة رضوان بك على باب زويلة على شارع الغورية على الجمالية على سوق مرجوش على بين السورين على الأزبكية على باب الهوا إلى المنزل الذي أعدوه لها، وهو بيت ابنه إسماعيل بك وهي بنت إبراهيم بك، وكانت متزوجة بإسماعيل بك، ولما مات تزوج بها مملوكه محمد أغا ويعرف بالألفي، وقد تولى أغاوية مستحفظان في هذه الدولة واعتنى بهذه الدار، وعمر بها مكانين بداخل الحريم وزخرفها ونقشها نقشًا بديعًا صناعة صناع العجم، واستمروا في نقشها سنتين، ولما ماتت المذكورة في أوايل هذه السنة واستمر هو ساكنًا فيها، وأنزل الباشا عنده القاضي المنفصل عن قضا مصر المعروف ببهجة أفندي وقاضي مكة صادق أفندي حين حضر من إسلامبول، ثم أمره الباشا بالخروج منها وإخلاها لأجل أن يسكن بها ابنته هذه المزفوفة، فخرج منها في أوايل شوال، وكذلك سافر القاضيان إلى الحجاز بصحبة الباشا، وعند ذلك بيضوها وزادوا في زخرفتها وفرشوها بأنواع الفرش الفاخرة، ونقلوا إليها جهاز العروس والصناديق وما قدم إليها من الهدايا والأمتعة والجواهر والتحف من الأعيان وحريماتهم، حتى من نسا الأمرا المصريين المنكوبين، وقد تكلفوا فوق طاقتهم وباعوا واستدانوا وغرموا في النقوط والتقادم والهدايا في هذين المهمين ما أصبحوا به مجردين ومديونين.

وكان إذا قدمت إحدى المشهورات منهن هديتها عرضوها على أم العروسين التي هي زوجة الباشا، فقلبت ما فيها من المصاغ المجوهر والمقصبات وغيرها، فإن أعجبتها تركتها، وإلا أمرت بردها قايلة: هذا مقام فلانة التي كانت بنت أمير مصر أو زوجته، فتتكلف المسكينة للزيادة ونحو ذلك مع ما يلحقها من كسر الخاطر وانكساف البال، ثم أدخلوا العروس إلى تلك الدار عندما وصلت بالزفة.

ومما حصل أنه قبل مرور موكب الزفة بيومين طاف أصحاب الشرطة ومعهم رجال بأيديهم مقياس، فكلما مروا بناحية أو طريق يضيق عن القياس هدموا ما عارضهم من مساطب الدكاكين أو غيرها من الجهتين لاتساع الطريق لمرور العربات والملاعيب وغيرها، فأتلفوا كثيرًا من الأبنية، ونودي في يوم الأربع بزينة الحوانيت والطرق التي تمر عليها الزفة بالعروس.

ومما حصل من الحوادث السماوية أن في يوم الخميس المذكور عندما توسطت الزفة في مرورها بوسط المدينة، أطبق الجو بالغيام وأمطرت السما مطرًا غزيرًا حتى تبحرت الطرق وتوحلت الأرض وابتلت الخلايق من النسا والرجال المتجمعين للفرجة، وخصوصًا الكاينين بالسقايف وفوق الحوانيت والمساطب، وأما المتعينون للمشي في

الموكب ولا بد، الذين لا مفر لهم من ذلك ولا مهرب، فاختل نظامهم وابتلت ثيابهم وتكدرت طباعهم وانتقضت أوضاعهم وزادت وساوسهم وتلفت ملابسهم، وهطل الغيث على الأبريسم والحرير والشالات الكرخانة والسليمي والكشمير، وما زينت به العربات من أنواع المزركش والمقصبات، ونفذت على من بداخلها من القيان والأغاني الحسان، وكثير من الناس وقع بعدما تزحلق وصار ثوبه بالوحل أبلق، ومنهم من ترك الزفة وولَّى هاربًا في عطفة يمسح يديه في الحيط بما تلطخ لها من الرطريط، وتعارجت الحمير وتعثرت البياجير، وانهدم تنور الزجاج ولم ينفع به العلاج، وتلف للناس شي كثير، ولا يدفع قضا الله حيلة ولا تدبير، ولم تصل العروس إلى دارها إلا قبيل دنو الشمس من غروبها، وعند ذلك انجلى الجو وانكشفت بيوت النَّو ووافق ذلك اليوم ثالث عشر طوبة من شهور القبط المحسوبة، وحصل بذلك الغيث العميم النفع لمزارع الغلة والبرسيم.

وفيه وردت مكاتبات من العقبة فيها الإخبار بوصول قافلة الحج صحبة المحمل وأميرها مصطفى بك دالي باشا.

وفي يوم الجمعة تاسع عشرينه وصل كثير من الحجاج الأتراك وغيرهم، وردوا في البحر إلى بندر السويس، ووصل تابع قهوجي باشا، وأخبر عنه أنه فارق مخدومه من العقبة ونزل في مركب مع أم عابدين بك وحضر إلى السويس.

واستهل شهر صفر بيوم الأحد (سنة ١٢٢٩)

مما وقع في ذلك اليوم من الحوادث أن صناع البارود الكاينين بباب اللوق حملوا نحو عشرة أحمال من الجمال أوعية ملآنة بارود، وهي الظروف المصنوعة من الجلود التي تسمى البطط يريدون بها القلعة، فمروا من باب الخرق إلى ناحية تحت الربع، فلما وصلوا تجاه معمل الشمع، وبصحبة الجمال شخص عسكري، فتشاجر مع الجمال ورد عليه القول، فحنق منه فضربه بفرد الطبنجة فأصابت إحدى البطط، فالتهبت بالنار وسرت إلى باقي الأحمال، فالتهب الجميع وصعد إلى عنان السما، فاحترقت السقيفة المطلة على الشارع وما بناحيتها من البيوت والذي أسفلها من الحوانيت، وكذلك من صادف مروره في ذلك الوقت، واحترق ذلك العسكري والجمال فيمن احترق.

واتفق مرور امرأة من النسا المحتشمات مع رفيقتها، فاحترقت ثيابها مع رفيقتها وذهبت تجري والنار ترعى فيها، وكانت دارها بالقرب من تلك الناحية، فما وصلت إلى

الدار حتى احترق ما عليها من الثياب، واحترق أكثر جسدها، ووصلت الأخرى بعدها وهي محترقة وعريانة، فماتت من ليلتها ولحقتها الأخرى في ضحوة اليوم التاني.

ومات في هذه الحادثة أكثر من المابة نفس من رجال ونسا وأطفال وصبيان، وأما الجمال فأخذوها إلى بيت أبي الشوارب، وهي سود محترقة الجلود وفيها من خرجت عينه، فإما يعالجوها أو ينحروها، وكل هذا الذي حصل من الحرق والموت والهدم في طرفة عين.

وفي تانيه، يوم الاتنين وصل مصطفى بك أمير ركب الحجاج إلى مصر وترك الحجاج بالدار الحمرا، فبات في داره وأصبح عايدًا إلى البركة، فدخل مع المحمل يوم الأربع، ودخل الحجاج وأتعبهم بحيث إنه أخذ المسافة في واحد وعشرين يومًا، وسبب حضور المذكور أنه ذهب بعساكره وعساكر الشريف من الطايف إلى ناحية تربة، والمتأمر عليها امرأة فحاربتهم وانهزم منها شر هزيمة، فحنق عليه الباشا وأمره بالذهاب إلى مصر مع المحمل.

وفيه أرسل الباشا يستدعي ثنتين أو تلاتة عينهم من محاظيه، وصحبتهن خمسة من الجواري السود الأسطاوات في الطبخ وعمل أنواع الفطور، فأرسلوهن في ذلك اليوم إلى السويس وصحبتهن نفيسة القهرمانة، وهي من جواريه أيضًا وكانت زوجًا لقاضي أوغلي المحتسب الذي مات بالحجاز في العام الماضي.

وفيه أيضًا وصل حريم الشريف غالب فعينوا له دارًا يسكنها مع حريمه جهة سويقة العزى، فسكنها ومعه أولاده وعليهم المحافظون، واستولى الباشا على موجودات الشريف غالب من نقود وأمتعة وودايع ومخبآت وشرك وتجارات وبن وبهار ونقود بمكة وجدة والهند واليمن، شي لا يعلم قدره إلا الله، وأخرجوا حريمه وجواريه من سرايته بما عليهن من الثياب، بعدما فتشوهن تفتيشًا فاحشًا وهتكوا حرمته.

قل اللهم مالك الملك، هذا الشريف غالب انتُزع من مملكته وخرج من دولته وسيادته وأمواله وذخايره، وانسل من ذلك كله كالشعرة من العجين، حتى إنه لما ركب وخرج مع العسكر وهم متوجهون به إلى جدة أخذوا ما في جيوبه، فليعتبر من يعتبر، وكل الذي وقع له وما سيقع له بعدُ من التغريب وغيره فيما جناه من الظلم ومخالفة الشريعة، والطمع في الدنيا وتحصيلها بأي طريق، نسأل الله السلامة وحسن العاقبة.

وفي يوم الخميس خامسه طاف الأغا أيضًا بأسواق المدينة، وأمامه المناداة على أبواب الخانات والوكايل من التجار بأنهم لا يتعاملون في بيع البن والبهار إلا بحساب الريال

المتعارف في معاملة الناس، وهو الذي يصرف تسعين نصفًا؛ لأن باعة البن لا يسمون في بيعه إلا الفرانسة، ولا يقبضون في ثمنه إلا إياها بأعيانها، ولا يقبلون خلافها من جنس المعاملات، فيحصل بذلك تعب للمتسببين الفقرا والقطاعين ومن يشتري بالقنطار أو دونه، فبهذه المناداة يدفع المشتري ما يشا من جنس المعاملة والريال المعروف بين الناس، الذي صرفه تسعون نصفًا فضة، وإذا سمى سعر القنطار فلا يسمي إلا بهذا الريال، وهذه المناداة بإشارة السيد محمد المحروقي؛ بسبب ما كان يقع من تعطيل الأسباب.

وفيه سافر محمود بك وصحبته المعلم غالي للكشف عن قياس الأراضي البحرية التي نزل إليها القياسون بصحبة مباشريهم من النصارى والمسلمين من وقت انحسار الماء عن الأراضي، وانتشروا بالأقاليم البحرية وهم يقيسون بقصبة تنقص عن القصبة القديمة.

وفي يوم الاتنين تاسعه وصل حريم الشريف غالب من السويس، فأنزلوهن ببيت السيد محمد المحروقي وعدتهن خمسة، إحداهن جارية بيضا، والأربعة حبشيات، ومعهن جواري سود وطواشية، وحضر إليهم سيدهم وصحبته أحمد أغا أخو كتخدا بك، وصحبته نحو العشرين نفرًا من العسكر، واستمر الجميع مقيمين بمنزل المذكور، وهو يُجري عليهم النفقات اللايقة بهم والمصاريف، وفصَّل لهم كساوي من مقصبات وكشميري وتفاصيل هندية.

وفي يوم السبت رابع عشره خرج محو بك إلى ناحية الآثار بعساكره ليسافر من ساحل القصير إلى الحجاز باستدعا الباشا، فاستمر مقيمًا هناك عدة أيام لمخالفة الريح وارتحل في أواخره، وفي أوايل هذا الشهر، بل والذي قبله، عملوا كورنتيلة في إسكندرية ودمياط.

واستهل شهر ربيع الأول (١٢٢٩)

فيه رجع محمود بك والمعلم غالي من سرحتهما.

وفيه انتقل الشريف غالب بعياله من بيت السيد محمد المحروقي إلى المنزل الذي أعدوه له، وهو بيت لطيف باشا بسويقة العزى بعدما أصلحوه وبيضوه وأسكنوه به وعليه اليسق والعسكر الملازمون لبابه.

وفيه أبرز كتخدا بك فرمانًا وصل إليه من الباشا يتضمن ضبط جميع الالتزام لطرف الباشا، ورفع أيدي الملتزمين عن التصرف، بل الملتزم يأخذ فايظه من الخزينة،

فلما أشيع ذلك ضج الناس وكثر فيهم اللغط، واجتمعوا على المشايخ فطلعوا إلى كتخدا بك، وسألوه فقال: نعم، ورد أمر بذلك ولا يمكنني مخالفته، فقالوا له: كيف تقطعون معايش الناس وأرزاقهم، وفيهم أرامل وعواجز وللواحدة قيراط أو نصف قيراط يتعيشن من إيراده فينقطع عنهن؟ فقال: يأخذن الفايظ من الخزينة العامرة، فرادَدوه وناقشوه وهو يهون ويقرب ويبعد إلى أن قالوا له: نكتب للباشا عرضحالًا وننتظر الجواب؛ فأجابهم إلى ذلك من باب المسايرة وفك المجلس، وشرع الشيخ المهدي في ترصيف العرضحال فكتبوه وختموا عليه بعد امتناع البعض الذي ليس له التزام، وكثر اللغط فيهم بسبب ذلك.

وفي خامسه حضر جمع كثير من النسا الملتزمات إلى الجامع الأزهر، وصرخوا في وجوه الفقها وأبطلوا الدروس وبددوا محافظهم وأوراقهم، فتفرقوا وذهبوا إلى دورهم، وكان قد اجتمع معهم الكثير من العامة، واستمروا في هَرْج إلى بعد العصر، ثم جاهم من يقول لهم كلامًا كذبًا سكن به حدتهم فانفض الجمع، وذهب النسا وهن يقلن: نأتي في كل يوم على هذا المنوال حتى يفرجوا لنا عن حصصنا ومعايشنا وأرزاقنا، وفي ظن الناس وغفلتهم أن في الإناء بقية أو أنهم يدفعون الرزية، وما علموا أن البساط قد انطوى، وكلًّا قد ضل وأضل وغوى، ومال عن الصراط واتبع الهوى، وكلب الجور قد كشر أنيابه وعوى، ولم يجد له طاردًا ولا معارضًا ولا معاندًا، ولما وصل الخبر إلى كتخدا بك طلب بعض المشايخ، وقال له: ما خبر هذه الجمعية بالأزهر؟ فقال له: بسبب ما بلغهم عن قطع معاشهم، قال: ومن قطع معاشهم؟ وإنما أنتم الذين تسلطونهم على هذه الفعال لأغراضكم، ولا بد أني أستخبر على من أغراهم وأخرج من حقه، وطلبه علي أغا الوالي وقال له: أخبرني عن هولا النسا من أي البيوت؟ فقال: وما علمي ومن يميزهن وغالبهن وأكثرهن نسا العساكر، ولا قدرة لي على منعهن، وانفض المجلس وبردت همتهم، وانكمشوا وشرعوا في تنفيذ ما أمروا به وترتيبه وتنظيمه.

وفيه حضر محمود بك والمعلم غالي، فأقاما أيامًا وسافرا في تالت عشره.

وفيه أحضروا حسن أغا محرم المعروف بنجاتي من إقليم المنوفية، وهو مريض وتُوُفِّيَ تاني يوم ودُفن.

وفي خامس عشره مر الأغا والوالي وأغات التبديل وهم يأمرون الناس بكنس الأسواق ورشها حالًا في ذلك الوقت من غير تأخير، فابتدر الناس ونزلوا من حوانيتهم وبأيديهم المكانس يكنسون بها تحت حوانيتهم ثم يرشونها.

وفي تاسع عشره حضر الشريف عبد الله ابن الشريف سرور، أرسله الباشا إلى مصر من ناحية القصير منفيًّا من أرض الحجاز، فأنزلوه بمنزل أحمد أغا أخي كتخدا بك محجورًا عليه، ولم يجتمع بعمه ولم يره.

وفيه كثر الطلب للريال الفرانسة بسبب احتياج دار الضرب وما يرسل إلى الباشا من ذلك، وألزموا التجار بإحضار جملة من ذلك ويأخذون بدلها قروشًا فوزعوا مقادير على أفرادهم بما يحتمله، وجمعوا ما قدروا عليه منها.

وفيه شُنق شخص يسمى صالح عند باب زويلة، واستمر معلقًا يومين؛ وسبب ذلك أنه يدعي الجذب والولاية، وتزوج بامرأة وأخذ متاعها ومالها، وحصل لها خلل في عقلها، فأنهوا أمره إلى كتخدا بك فأمر بحبسه واستخلصوا منه جانبًا مما أخذه من متاع المرأة، وكثر كلام الناس في حقه فأمر الكتخدا بشنقه.

وفي أواخره حضر إبراهيم بك ابن الباشا من الجهة القبلية، ونزل بالبيت الذي اشتراه بناحية الجمالية بدرب المسمط، وهو بيت أحمد بن محرم.

واستهل شهر ربيع الثاني بيوم الأربع (سنة ١٢٢٩)

وفي ليلة الاتنين سادسه حضر ميمش أغا من ناحية الحجاز مرسلًا من عند الباشا باستعجال حسن باشا للحضور إلى الحجاز، وكان قبل ذلك بأيام أرسل بطلب سبعة آلاف عسكري وسبعة آلاف كيس، فشرع كتخدا بك في استكتاب أشخاص من أخلاط العالم ما بين مغاربة وصعايدة وفلاحي القرى، فكان كل من ضاق به الحال في معاشه يذهب ويعرض نفسه فيكتبونه، وإن كان وجيهًا جعله أميرًا على ماية أو مايتين ويعطيه أكياسًا يفرقها في أنفاره، ويشتري فرسًا وسلاحًا ويتقلد بسيف وطبنجات وكذلك أنفاره، ويلبسون قناطيش ولباسًا مثل لبس العسكر، ويعلق له وزنة بارود تحت إبطه، ويأخذ على كتفه بندقية ويمشون أمام كبيرهم مثل الموكب، وفيهم أشخاص من الفعلة الذين يُستعملون في شيل التراب والطين في العماير وبرابرة.

وأرسل الكتخدا إلى الفيوم وغيرهم بطلب رجال من أمثال ذلك، وجمعوا الكثير من أرباب الصنايع مثل: الخبازين والفرانين والنجارين والحدادين والبياطرة، وغيرهم من أرباب الصنايع ويسحبونهم قهرًا، فأغلق الفرانون مخابزهم وتعطل خبيز خبز الناس أيامًا.

وفيه ورد الطلب لحسن باشا فشرع في تشهيل أحواله ولوازم سفره، ثم حضر ميمش أغا باستعجاله واستعجال المطلوبات من الأموال وغيرها …

وفيه قبضوا على اليهود الموردين الذين يوردون الذهب والفضة لدار الضرب بسبب إحضار الفرانسة، وقد قَلَّت بأيدي الناس جدًّا لكثرة أَخْذها والطلب لها وانقطاع مجيها من بلادها، فحبسوهم وضربوهم ونزلوا في أسوا حال متحيرين؛ وذلك أن راتب الضربخانة سبعة آلاف في كل يوم عنها تلاتة وستين ألف درهم وقدرها تلات مرات من النحاس، يضربون ذلك قروشًا حتى بلغ سعر النحاس القراضة ماية وعشرين نصفًا فضة.

وفي تاسعه حضر محمود بك الدويدار والمعلم غالي من سرحتهما إلى مصر، وهما المتأمران على مباشرة قياس الأراضي وتشهيل المال المفروض، وسبب حضورهما أن إبراهيم باشا أرسل بطلبهما للحضور ليتشاور معهما في أمر فأقاما أربعة أيام وعادا راجعَين إلى شغلهما.

وفي منتصفه سافر إبراهيم باشا عايدًا إلى أسيوط، وذهب صحبته أخوه إسماعيل باشا والبيكات الصغار خوفًا وهروبًا من الطاعون.

وفيه كمل تعمير الجامع الذي عمره دبوس أوغلي الذي بقرب داره التي بغيظ العدة، وهو جامع جوهر العيني، وكان قد تخرب فهدمه جميعه، وأنشاه وزخرفه ونقل لعمارته أنقاضًا كثيرة وأخشابًا ورخامًا من بيت أبي الشوارب، وعمل به منبرًا بديع الصنعة، واستخلص جهة أوقافه أطيانًا وأماكن من واضعي اليد.

وفيه أرسلوا جملة أخشاب إلى الحجاز مطلوبة إلى الباشا.

وفيه أيضًا نادوا على سكان الجيزة بالخروج منها بعد عصر يوم السبت، ومن لا يريد الخروج فلا يخرج بعد ذلك، ومن خرج فلا يدخل، وأمهلوهم إلى الغروب فخرجوا بأمتعتهم وأطفالهم وأولادهم وأوانيهم إلى خارج البلدة، وبات الأكثر منهم تحت السما لضيق الوقت على الرحيل إلى بلدة أخرى، وخرج أيضًا الكثير من عساكرهم وأتباعهم ممن لا يريد المقام والحبس، فكانوا كلما وجدوا من حمل متاعه من أهل البلدة على حمار ليذهب إلى جهة يستقر بها رموا به إلى الأرض وأخذوا الحمار، وحصل لأهل الجيزة في تلك الليلة ما لا مزيد عليه من الكرب والجلا عن أوطانهم، وكل ذلك مجرد وهم مع قلة وجود الطعن إلا النزر اليسير.

وفي تالت عشرينه سافرت خزينة المال المطلوبة إلى الباشا إلى جهة السويس، وأصحبوا معها عدة كبيرة من عسكر الدلاة لخفارتها، وقدرها ألفان وخمسماية كيس جميعها قروش.

شهر جمادى الأولى (سنة ١٢٢٩)

استهل بيوم الجمعة، في ثالثه خرج حسن باشا بعساكره، ونزل بوطاقه وخيامه التي نُصبت له بالعادلية قبل خروجه بيومين.

وفي رابعه وصلت هجانة من ناحية الحجاز بطلب حسن بك دالي باشا وأخشاب واحتياجات وجمال، والذي أخبر به المخبرون عن الباشا وعساكره أن طوسون باشا وعابدين بك ركبوا بعساكرهم على ناحية تربة، التي بها المرأة التي يقال لها «غالية»، فوقعت بينهم حروب ثمانية أيام ثم رجعوا منهزمين، ولم يظفروا بطايل، ولأن العربان نفرت طباعهم من الباشا لما حصل منه في حق الشريف من القبض عليه.

وهاجر الكثير من الأشراف وانضموا إلى الأخصام وتفرقوا في النواحي، ومنهم شخص يقال له الشريف راجح، فأتى من خلف العسكر وقت قيام الحرب، وحاربهم ونهب الذخيرة والأحمال وقطع عنهم المدد، وأخبروا أن الجمال قَلَّ وجودها عند الباشا ويشتريها من العربان المسالمين له بأغلى ثمن، وأخبروا أيضًا أنه واقع بالحرمين غلا شديد لقلة الجالب واحتكار الباشا للغلال الواصلة إليه من مصر، فيبيعه حتى على عسكره بأغلى تمن من التحجير على المسافرين والحجاج في استصحابهم شيًّا من الحَب والدقيق، فيفتشون متاعهم في السويس ويأخذون ما يجدونه معهم مما يتزودون به في سفرهم من القمح أو الدقيق وما يكون معهم من الفرانسة لنفقتهم وأعطوهم بدلها من القروش.

وفيه بلغ صرف الريال الفرانسة من الفضة العددية تمانماية وعشرين نصفًا، عنها ثمانية قروش والمشخص عشرون قرشًا، وقلَّ وجود الفرانسة والمشخص، بل والمحبوب المصري بأيدي الناس جدًّا، ثم نودي على أن يُصرف الريال بسبعة قروش، والمشخص بستة عشر قرشًا، وشددوا في ذلك ونكلوا بمن يخالف ذلك، وعاقبوا من زاد على ذلك في قبض أثمان المبيعات، وأطلقوا في الناس جواسيس وعيونًا، فمن عثروا عليه في مبيع أو غيره أنه قبض بالزيادة أحاطوا به وأخذوا وعاقبوا بالحبس والضرب والتغريم.

وربما أرسلوا من طرفهم أشخاصًا متنكرين يأتي أحدهم للبايع فيساومه كأنه مشترٍ، ويدفع له في ضمن الثمن ريالًا أو مشخصًا ويحسبه بحسابه الأول، ويناكره في ذلك فربما تجاوز البايع خوفًا من بوار سلعته، وخصوصًا إذا كانت البيعة رابحة أو بيعة استفتاح على زعم الباعة، وقلة الزبون بسبب وقف حال الناس أو إفلاسهم، فما هو إلا أن يتباعد عنه يسيرًا فما يشعر إلا وهو بين يدي الأعوان ويلاقي وعده.

وفي منتصفه وصلت قافلة من السويس وفيها جملة من العسكر المتمرضين، ونحو العشرة من كبارهم نفاهم الباشا إلى مصر، وفيهم حجو أوغلي ودالي حسن وعلي أغا درمنلي وترجوا وحسن أغا أزرجنلي ومصطفى ميسو وأحمد أغا قنبور.

وفيه أيضًا خرج عسكر المغاربة ومَن معهم مِن الأجناس المختلفة إلى مصر العتيقة ليذهبوا من ناحية القصير إلى الحجاز، وأما محو بك فإنه لم يزل بقنا لقلة المراكب بالقصير التي تحملهم إلى الحجاز.

وفي سادس عشره وصلت قافلة وفيها أنفار من أهل مكة والمدينة وسُفَّار وبضايع تجارة بن وأقمشة وبياض شي كثير، وقد أتت إلى جدة من تجارات الشريف غالب، ولم يبلغهم خبر الشريف غالب وما حصل له، فلما حضروا وضع الباشا يده عليه جميعه وأرسله إلى مصر، فتولى ذلك السيد محمد المحروقي وفرقها على التجار بالثمن الذي قدره عليهم وألزمهم أن لا يدفعوه إلا فرانسة.

وفي هذا الشهر وصل الخبر بموت الشيخ مسعود كبير الوهابية، وتولى مكانه ابنه عبد الله.

وفيه خرج طايفة الكتبة والأقباط والروزنامجي والجاجرتية، وذهب الجميع إلى جزيرة شلقان ليحرروا دفاتر على الروك الذي راكوه من قياس الأراضي وزيادة الأطيان، وجفل الكثير من الفلاحين وأهالي الأرياف، وتركوا أوطانهم وزروعهم وهالهم هذا الواقع لكونهم لم يعتادوه ويألفوه، وباعوا مواشيهم ودفعوا أثمانها في الذي طلع عليهم في الزيادات الهايلة، وسيعودون مثل الكلاب ويعتادون سلخ الإهاب، وأما الملتزمون فبقوا حيارى باهتين، وارتفع أيدي تصرفهم في حصصهم ولا يدرون عاقبة أمرهم منتظرين رحمة ربهم، وآن وقت الحصاد وهم ممنوعون عن ضم زرع وساياهم إلى أن أذن لهم الكتخدا بذلك، وكتب لهم أوراقًا وتوجهوا بأنفسهم أو بمن ينوب عن مخدومه وأراد ضم زرعه، ولم يجد من يطيعه بهم، وتطاولوا عليهم بالألسنة، فيقول الحرفوش منهم إذا دُعي للشغل بأجرته: روح انظر غيري أنا مشغول في شغلي، «أنتم إيش بقالكم في البلاد؟ قد انقضت أيامكم، إحنا صرنا فلاحين الباشا».

وقد كانوا مع الملتزمين أذل من العبد المشترَى، فربما إن العبد يهرب من سيده إذا كلفه فوق طاقته أو أهانه بالضرب، وأما الفلاح فلا يمكنه ولا يسهل به أن يترك وطنه وأولاده وعياله ويهرب، وإذا هرب إلى بلدة أخرى واستعلم أستاذه مكانه أحضره قهرًا وازداد ذلًّا ومقتًا وإهانة، وكان من طرايقهم أنه إذا آن وقت الحصاد والتخضير طلب

الملتزم أو قايم مقامه الفلاحين، فينادي عليهم الغفير أمس اليوم المطلوبين في صبحه بالتبكير إلى شغل الملتزم، فمن تخلف لعذر أحضره الغفير أو المشد وسحبه من شنبه، وأشبعه سبًّا وشتمًا وضربًا، وهو المسمى عندهم بالعونة والسخرة، واعتادوا ذلك بل يرونه من اللازم الواجب.

هذا خلاف ما يلقونه من الإذلال والتحكم من مشايخهم والشاهد والنصراني الصراف وهو العمدة، خصوصًا عند قبض المال، فيغالطهم ويناكرهم، وهم له أطوع من أستاذهم وأمره نافذ فيهم، فيأمر قايمقام بحبس من شاء أو ضربه محتجًّا عليهم ببواقي لا يدفعها.

وإذا غلق أحدهم ما عليه من المال الذي وجب عليه في قايمة المصروف، وطلب من المعلم «وردة» وهي (ورقة الغلاق) وعده لوقت آخر حتى يحرر حسابه، فلا يقدر الفلاح على مراددته خوفًا منه، فإذا سأله من بعد ذلك قال له: بقي عليك حبتان من فدان أو خروبتان أو نحو ذلك، ولا يعطيه ورقة الغلاق حتى يستوفي منه قدر المال أو يصانعه بالهدية والرشوة.

وغير ذلك أمور وأحكام خارجة عن إدراك البهيمية فضلًا عن البشرية كالشكاوى ونحوها.

كما إذا تشاجر أحدهم مع آخر على أمر جزئي بادر أحدهم بالحضور إلى الملتزم، وتمثل بين يديه قايلًا: أشكو إليه فلانًا بماية ريال مثلًا، فبمجرد قوله ذلك يأمر بكتابة ورقة خطابًا إلى قايمقام أو المشايخ بإحضار ذلك الرجل المشتكي واستخلاص القدر الذي ذكره الشاكي قليلًا أو كثيرًا، أو حبسه وضربه حتى يدفع ذلك القدر، ويرسل والورقة مع بعض أتباعه ويكتب بهامشها «كرا طريقة» قليلًا أو كثيرًا، ويسمونه حق الطريق فعند وصوله أول شي يطالب به الرجل حق الطريق المعين ثم الشكوى، فإن بادر ودفعها وإلا حُبس أو حضر به المعين إلى بيت أستاذه، فيودع الحبس ويعاقبه بالضرب حتى يوفي القدر الذي تلفظ به الشاكي.

وإن تأخر عن حضوره أو حضور المعين أردفه بآخر وحق طريق الآخر كذلك، ويسمونها «الاستعجالة» وغير ذلك أحكام وأمور غير معقولة المعنى قد رُبُّوا عليها واعتادوها لا يرون فيها بأسًا ولا عيبًا، وقد سلط الله على هولا الفلاحين بسوء أفعالهم وعدم ديانتهم وخيانتهم وإضرارهم لبعضهم البعض من لا يرحمهم ولا يعفو عنهم، كما قال فيهم البدر الحجازي.

وسبعة بالفلح قد أنزلت لما حووه من قبيح الفعال
شيوخهم أستاذهم والمشد والقتل فيما بينهم والقتال
مع النصارى كاشف الناحية وزد عليها كدهم في اشتغال
وفقرهم ما بين عينيهم مع اسوداد الوجه هذا النكال

وإذا التزم بهم ذو رحمة ازدروه في أعينهم واستهانوا به وبخدمه وماطلوه في الخراج وسموه بأسما النسا، وتمنوا زوال التزامه بهم وولاية غيره من الجبارين الذين لا يخافون ربهم ولا يرحمهم لينالوا بذلك أغراضهم بوصول الأذى لبعضهم، وكذلك أشياخهم، إذا لم يكن الملتزم ظالمًا يتمكنون هم أيضًا من ظلم فلاحيهم؛ لأنهم لم يحصل لهم رواج إلا بطلب الملتزم الزيادة والمغارم، فيأخذون لأنفسهم في ضمنها ما أحبوا، وربما وزعوا خراج أطيانهم وزراعاتهم على الفلاحين، وقد انخرم هذا الترتيب بما حدث في هذه الدولة من قياس الأراضي والفدن، وما سيحدث بعد ذلك من الإحداثات التي تبدو قرايتها شيًّا بعد شي.

وفي تاني عشرينه أبرز حسن بك دالي باشا خيامه إلى خارج باب النصر، وخرج هو في تاني يوم في موكب ونزل بوطاقه ليتوجه إلى الحجاز على طريق البر.

وفي ليلة الأربع سابع عشرينه قبل الغروب بنحو نصف ساعة، وصل جراد كثير مثل الغمام، وصار يتساقط على الدور والأسطحة والأزقة مثل الغمام، وأفسد كثيرًا من الأشجار وانقطع أثره في ثاني يوم.

وفي يوم الاتنين عاشره (جماد ثانٍ) ارتحل حسن باشا من ناحية الشيخ قمر إلى بركة الحج.

وفي منتصفه حضر الروزنامجي والأفندية بعد أن استملى منهم القبط الدفاتر وأسما الملتزمين ومقادير حصصهم، ثم حضر محمود بك والمعلم غالي ومَن معهم مِن الكتبة الأقباط، وظهر للناس عند حضورهم نتيجة ما صنعوه ونظموه ورتبوه من قياس الأراضي وروك البلاد، وهو أن الأراضي زادت في القياس بالقصبة التي قاسوا بها، وحدودها مقدار الثلث أو الربع، حتى قاسوا الرزق الإحباسية بأسما أصحابها ومزارعيها وأطيان الوسايا على حدتها، حتى الأجران وما لا يصلح للزراعة وما يصلح من البور، الصالح وغير الصالح، فلما تم ذلك حسبوها بزياداتها بالأفدنة، ثم جعلوها ضرايب منها ضريبة خمسة عشر ريالًا وأربعة عشر واثني عشر وأحد عشر وعشرة مال الفدان

بحسب جودة الإقليم والأرض، فبلغ ذلك مبلغًا عظيمًا، بحيث إن البلدة التي كانت يفرض عليها في مغارم الفرض التي كانوا فرضوها قبل ذلك في سنيهم الماضية، ويشتكي منها الفلاحون والملتزمون ويستغيثون، ويبقى منها بواقي ويعجزون عنها ألف ريال، طلع عليها في هذه اللفة عشرة آلاف ريال إلىماية ألف وأقل وأكثر.

وأحضر الكتخدا إبراهيم أغا الرزاز والشيخ أحمد يوسف وخلع عليهما خلعتين، وجعلوا لهما ديوانًا خاصًّا لمن يلتزم بالقدر الذي تحرر على حصته التي في تصرفه فيعطونه ورقة تصرف، ويكتب على نفسه وثيقة بأجل معلوم يقوم بدفع ذلك ويتصرف في حصته بشرط أن لا يكون له إلا أطيان الأوسية، إن شاء زرعها وأخذ غلتها وإن شا أجرها لمن شا، وليس له من مال الخراج إلا المال الحر المعين بسند الديوان المعروف بالتقسيط، وما زاد في قياس الأرض من طين الفلاحة والأوسية فهو للميري قل أو كثر.

وأما الرزق الإحباسية المرصدة على البر والصدقة ولأهل المساجد والأسبلة والمكاتب والخيرات، فإنهم مسحوها بقياسهم، فما وجدوه زايدًا عن الحد الأصلي جعلوه للديوان، وما يقي قيدوه وحرروه باسم واضع اليد عليها واسم واقفها وزارعها أو ما يمليه المزارع الحاضر وقت القياس وسؤال المباشرين، وقرروا عليها المال مثل ضريبة البلد، فإن أثبتها صاحبها وكان بيده سند جديد من أيام الوزير وشريف أفندي وما بعده على سبقه لوقت تاريخه، قيدوا له نصف مال تاجرها والنصف الثاني الباقي للديوان.

ورسموا لكاتب الرزق أن يعمل ديوانًا لذلك ومعه عدة من الكتبة، ويأتي إليه الناس بأوراق سنداتهم، فمن وجد بيده سندًا جديدًا كتب له صورة قيد الكشف بموجب ما هو بدفتره في ورقة، فيذهب بها إلى الديوان فيقيدون ذلك بعد البحث والتعنت من الطرفين، ويقع الاشتباه الكثير في أسما أربابها وأسما حيضانها وغيطانها، فيكلفون صاحب الحاجة بإثبات ما ادعاه ويكتب له أوراقًا لمشايخ الناحية وقاضيها بإثبات ما يدعيه ويعود مسافرًا، ويقاسي ما يقاسيه من مشقة السفر والمصرف ومعاكسة المشايخ وقاضي الناحية، ثم يعود إلى الديوان بالجواب، ثم يمكن الاحتجاج عليه بحجة أخرى.

وربما كان سعيه وتعبه على فدان واحد أو أقل أو أكثر، وازدحم الناس على بيت كاتب الرزق وانفتح به لذلك بابًا؛ لأنه لا يكتب كشفًا حتى يأخذ عليه دراهم تعينت

على قدر الأفدنة، وأشاع الكثير من الناس ما تلقوه عن أسلافهم وما كانوا يرتزقون منه، وأهملوا تجديد السندات واتكلوا على ما بأيديهم من السندات القديمة لجهلهم، أو ظنهم انقضا الأمر وعدم دوام الحال وتغير الدولة وعود النسق الأول، أو لفقرهم وعدم قدرتهم على ما ابتدعوه من كثرة المصاريف التي تُصرف على تجديد السند، واشتغال مال الحماية التي قدرها شريف أفندي على أراضي الرزق عن كل فدان عشرة أنصاف أو خمسة، فكثير من الناس استعظم ذلك واعتمد على أوراقه القديمة فضاعت عليه رزقته وانحلت وأخذها الغير، والذي لم يرضَ بالتوت بل ولا حصل حطبه رضي بالولاش، وكان الشأن في أمر الرزق أن أراضيها تزيد عن موقع أراضي البلاد زيادة كثيرة، وخراجها أقل من خراج أراضي البلاد الذي يقال له المال الحر الأصلي، وليس عليها مصاريف ولا مغارم ولا تكاليف، فالمزارع من الفلاحين إذا كان تحت يده تاجر رزقة أو رزقتين، فإنه يكون مغبوطًا ومحسودًا في أهل بلده، ويدفع لصاحب الأصل القدر النزر، والمزارع يتلقى ذلك سلفًا عن خلف ولا يقدر صاحب الأصل أن يزيد عليه زيادة، وخصوصًا إذا كانت تحت يد بعض مشايخ البلاد، فلا يقدر أحد أن يتعدى عليه من الفلاحين ويستأجرها من صاحبها، وإن فعل لا يقدر على حمايتها، والكثير من الرزق واسعة القياس جدًّا ومالها قليل جدًّا، وخصوصًا في الأراضي القبلية؛ فإن غالبها رزق وشراوي ومتأخرات لم تمسح، ولم يعلم لها فدادين ولا مقادير.

وقد تزيد أيضًا بانحسار البحر عن سواحلها، وكذلك في البلاد البحرية ولكن دون ذلك، ومعظم أراضي الرزق القبلية مرصدة على جهات الأوقاف بمصر وغيرها، والواضعون أيديهم عليها لا يدفعون لجهاتها ولا لمستحقيها إلا ما هو مرتب ومقرر من الزمن الأول السابق وهو شي قليل.

وليتهم لو دفعوه، فإن في أوقاف السلاطين المتقدمة القطعة من الأراضي التي عبرتها أكثر من ألف فدان، وخراجها خمسون زكيبة، والزكيبة خمس ويبات، أو من الدراهم ألفين فضة وأقل وأكثر وهي تحت يد بعض كبرا البلاد، يزرعها ويأخذ منها الألوف من الأرادب من أجناس الغلال، ويضن ويبخل لدفع ذلك القدر اليسير لجهة وقفه، ويكسر السنة على السنة فإن كانت يد صاحب الأصل قوية، أو كان واضع اليد فيه خيرية — وقليل ما هم — دفع لأربابها ثمنها بعد أن يرد الخمسين إلى الأربعين بالتكسير والخلط، ثم يبخس الثمن جدًّا، فإن كان ثمن الأردب أربعماية حسبه بأربعين نصفًا أو أقل، فيعود ثمن الخمسين زكيبة إلى ثمن زكيبتين، وقس على ذلك.

والذي يكون تحت يده شي من أطيان هذه الأوقاف وورثها من بعده ذريته، فزرعوها وتقاسموها معتقدين ملكيتها تلقوها بالإرث من موروثهم، ولا يرون أن لأحد سواهم فيها حقًّا، ولا يهون بهم شي لأربابه ولو قل إلا قهرًا، وبالجملة ما أصاب الناس إلا ما كسبت أيديهم، ولا جنوا إلا ثمرات أعمالهم.

وكان معظم إدارات دواير عظما النواحي وتوسعاتهم ومضايفهم من هذه الأرزاق التي كانت تحت أيديهم بغير استحقاق، إلى أن سلط الله عليهم من استحوذ على جميع ذلك، وسلب عنهم ما كانوا فيه من النعمة، وتشتتوا في النواحي وتغربوا عن أوطانهم، وخربت دورهم ومضايفهم، وذهبت سيادتهم ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾.

وفي بعض الأرزاق من مات أربابه وخربت جهاته ونُسي أمره، وبقي تحت يد من هو تحت يده من غير شي أصلًا، وقد أخبرني بنحو ذلك شمس الدين بن حمودة من مشايخ برْما بالمنوفية عندما أحضر إلى مصر في وقت هذا النظام أنه كان في حوزهم ألف فدان لا علم للملتزم ولا غيره بها، وذلك خلاف ما بأيديهم من الرزق التي يزرعونها بالمال اليسير، وخلاف المرصد على مساجد بلادهم التي لم يبقَ لها أثر، وكذلك الأسلبة وغيرها، وأطيانهم تحت أيديهم من غير شي، وخلاف فلاحتهم الظاهرة بالمال القليل لمصارف الحج؛ لأنها كانت من جملة البلاد الموقوفة على مهمات أمير الحاج، وقد انتسخ ذلك كله.

وفيه أخبر المخبرون أن مراكب الموسم وصلت في هذا العام إلى جدة، وكان لها مدة سنين ممتنعة عن الوصول خوفًا من جور الشريف وزواله، وتملك الدولة البلاد وظنهم فيهم العدل فاطمأنوا وعبوا متاجرهم، وحضروا إلى جدة فجمع الباشا مكوسهم، فبلغت أربعة عشرين لكًّا واللك الواحد ماية ألف فرانسة، فيكون أربعة وعشرين ماية ألف فرانسة، فقبضها منهم بضايع ونقودًا وحسب البضايع بأبخس الأثمان، ثم التفت إلى التجار الذين اشتروا البضايع وقال لهم: إني طلبت منكم مرارًا أن تقرضوني المال فادعيتم الإفلاس، ولما حضر الموسم بادرتم بأخذه وظهرت أموالكم التي كنتم تبخلون بها، فلا بد أن تقرضوني تلتماية ألف فرانسة، فصالحوه على مايتي ألف دفعوها له نقودًا، وبضايع مشترواتهم حسبها لهم العشرة ستة، ثم فرض على أهل المدينين تلاتين ألف فرانسة.

واستهل شهر رجب (سنة ١٢٢٩) بيوم الأحد

في خامسه الخميس ضربوا عدة مدافع وأخبروا بوصول بشارة وأن عساكرهم حاربوا قنفدة واستولوا عليها ولم يجدوا بها غير أهلها.

وفي سادسه سار حسين بك دالي باشا بعساكره الخيالة برًّا.

وفيه عزم على السفر والد محرم بك زوج ابنة الباشا إلى بلاده، وذلك بعد عوده من الحجاز، فأرسلوا إلى الأعيان تنابيه بالأمر لهم بمهاداته، ففعلوا وعبوا له بقجًا وبنًّا وأرزًا وأقمشة هندية ومحلاوية، كل أمير على قدر مقامه.

وفي ليلة الاثنين تاسعه حصلت في وقت أذان العشاء زلزلة نحو دقيقتين، وكان المؤذنون طلعوا على المنارات وشرعوا في الأذان، فلما اهتزت بهم ظن كل من كان على منارة سقوطها فأسرعوا بالنزول، فلما علموا أنها زلزلة طلعوا وأعادوا الأذان، وسقط من شرايف الجامع الأزهر شرافة، وتحركت الأرض أيضًا في خامس ساعة من الليل، ولكن دون الأولى، وكذلك وقت الشروق هزة لطيفة.

وفي حادي عشره هرب الشريف عبد الله ابن الشريف سرور في وقت الفجرية، ولم يشعروا بهروبه إلا بعد الظهر، فلما بلغ كتخدا بك الخبر فتكدر لذلك، وأرسل إلى مشايخ الحارات وغيرهم وبث العربان في الجهات، فلما كان ليلة السبت حضروا به في وقت الغروب، وقد حجزوه بحلوان وأتوا به إلى بيت السيد محمد المحروقي، فأخذه إلى كتخدا بك فأرسله إلى بيت أخيه أحمد أغا، ومن ذلك الوقت ضيقوا عليه ومنعوه من الخروج والدخول بعد أن كان مطلق السراح يخرج من بيت أحمد أغا ويذهب إلى بيت عمه الشريف غالب ويعود وحده، فعند ذلك ضيقوا عليه وعلى عمه أيضًا.

وفي يوم الخميس تاسع عشره حضر المشايخ عند كتخدا بك، وعاودوه في الخطاب فيما أحدثوه على الرزق، وعرَّفوه أنه يلزم من هذه الأحداث إبطال المساجد والشعاير، فتنصل من ذلك وقال: هذا شي لا علاقة لي فيه، وهذا شي أمر به أفندينا ومحمود بك والمعلم غالي، ثم كلموه أيضًا في صرف الجامكية المعروفة بالسايرة والدعاجوي للفقرا والعامة، فوعدهم بصرفها وقتما يتحصل المال؛ فإن الخزينة فارغة من المال.

وفي يوم السبت حضر محمود بك والمعلم غالي من سرحتهما، فذهب إليهما المشايخ في ثاني يوم ثم خاطبوهما بالكلام في شأن الرزق، فأجابهم المعلم غالي بقوله: يا أسيادنا هذا أمر مفروغ منه بأمر أفندينا من عام أول من قبل سفره، فلا تتعبوا خاطركم، وواجب عليكم مساعدته، خصوصًا في خلاص كعبتكم ونبيكم من أيدي الخوارج، فلم يردوا عليه جوابًا وانصرفوا …

وفي ويوم الأحد تاسع عشرينه حصل كسوف شمس، وكان ابتداه بعد الشروق ومقداره قريبًا من ثلثي الجرم، وتم انجلاه في تاني ساعة من النهار، وكانت الشمس ببرج السرطان أربعة وعشرين درجة في حادي عشر أبيب القبطي.

وفيه وصلت القافلة من ناحية السويس، وأخبر الواصلون عن واقعة قنفدة وما حصل بها بعد دخول العسكر إليها، وذلك أنهم لما ركبوا عليها برًّا وبحرًا وكبيرهم محمود بك وزعيم أوغلي وشريف أغا، فوجدوها خالية فطلعوا إليها وملكوها من غير ممانع ولا مدافع، وليس بها غير أهلها وهم أناس ضعاف، فقتلوهم وقطعوا آذانهم وأرسلوها إلى مصر ليرسلوها إلى إسلامبول، وعندما علم العربان بمجي الأتراك خلوا منها، ويقال لهم عرب العسير وترافعوا عنها، وكبيرهم يسمى طامي، فلما استقر بها الأتراك ومضى عليهم نحو تمانية أيام رجعوا عليهم، وأحاطوا بهم ومنعوهم الماء، فعند ذلك ركبوا عليهم وحاربوهم فانهزموا وقتل الكثير منهم، ونجا محمود بك بنفسه في سبعة أنفار، وكذلك زعيم أوغلي وشريف أغا، فنزلوا في سفينة وهربوا فغضب الباشا، وقد كان أرسل لهم نجدة من الشفاسية الخيالة، فحاربهم العرب ورجعوا منهزمين من ناحية البر وتواتر هذا الخبر.

واستهل شهر شعبان بيوم التلات (سنة ١٢٢٩)

في تانيه حضر ميمش أغا من الديار الحجازية وعلى يده فرمانات خطابًا لدبوس أوغلي، وآخرين يستدعيهم إلى الحضور بعساكرهم، وكان دبوس أوغلي في بلدة البرلس، فتوجه إليه الطلب، وكذلك شرع كتخدا بك في استكتاب عساكر أتراك ومغاربة وعربان وغير ذلك.

وفي رابعه سافر طايفة من العسكر، وأرسل كتخدا بك بمنع الحجاج الواردين من بلاد الروم وغيرهم من النزول إلى السفاين الكاينة بساحل السويس والقصير، وبأن يخلوها لأجل نزول العساكر المسافرين، وبتأخير الحجاج؛ وذلك أنه لما وصلت البشاير إلى الديار الرومية بفتح الحرمين وخلاص مكة وجدة والطايف والمدينة، ووصول ابن مضيان والمضايفي وغيرهم إلى دار السلطنة وهروب الوهابيين إلى بلادهم، فعملوا ولايم وأفراحًا وتهاني، وكتبت مراسيم سلطانية إلى بلاد الروملي والأنضول بالبشاير بالفتح والإذن والترخيص والإطلاق لمن يريد الحج إلى الحرمين بالأمن والأمان والرفاهية والراحة، فتحركت همم مريدي الحج؛ لأن لهم سنين وهم ممتنعون ومتخوفون عن ورود الحج،

فعند ذلك أقبلوا أفواجًا بحريمهم وأولادهم ومتاعهم، حتى إن كثيرًا من المتصوفين منهم باع داره وتعلقاته، وعزم على الحج والمجاورة بالحرمين بأهله وعياله، ولم يبلغهم استمرار الحروب وما بالحرمين من الغلا والقحط إلا عند وصولهم إلى ثغر إسكندرية، ولم يتحققوها إلا بمصر، فوقعوا في حيرة ما بين مصدق ومكذب، فمنهم من عزم على السفر ولم يرجع عن عزمه وسلم الأمر لله، ومنهم من تأخر بمصر إلى أن ينكشف له الحال، وقرروا على كل شخص من المسافرين في مراكب السويس عشرين فرانسة، وذلك خلاف أجرة متاعه وما يتزود به في سفره، فإنهم يزنونه بالميزان، وعلى كل أقة قدر معلوم من الدراهم.

وأما من يسافر في بحر النيل على جهة القصير في مراكب الباشا، فيؤخذ على راس كل شخص من مصر القديمة إلى ساحل قنا تلاتون قرشًا، ثم عليه أجرة حمله من قنا إلى القصير، ثم أجرة بحر القلزم إن وجد سفينة حاضرة، وإلا تأخر إما بالقصير أو السويس، حتى يتيسر له النزول ويقاسي ما يقاسيه في مدة انتظاره، وخصوصًا في الماء وغلو ثمنه ورداءته.

ولا يسافر شخص ويتحرك من مصر إلا بإذن كتخدا بك ويعطيه مرسومًا بالإذن.

وبلغني أن الذين خرجوا من إسلامبول خاصة بقصد الحج نحو العشرة آلاف خلاف مَن وصل مِن بلاد الروملي والأنضول وغيرهما، وحضر الكثير من أعيانهم مثل إمام السلطان وغيره، فنزل البعض بمنزل عثمان أغا وكيل دار السعادة سابقًا، والبعض بمنزل السيد محمد المحروقي وبيت شيخ السادات، ومنهم من استأجر دورًا في الخانات والوكايل.

وفيه حضر قاصد من باب الدولة وعلى يده مرسوم، مضمونه الأمر باسترجاع ما أخذ من الشريف غالب من المال والذخاير إليه، وكان الباشا أرسل إلى الدولة بسبحتي لؤلؤ عظام من موجودات الشريف، فحضر بهما ذلك القبجي وردهما إلى الشريف غالب، ثم سافر ذلك القبجي بالأوامر إلى الباشا بالحجاز.

وفي سابعه وصلت هجانة باستعجال العساكر وتوالى حضور الهجانة لخصوص الاستعجال.

وفي يوم السبت تاسع عشره أنزلوا الشريف غالب إلى بولاق بحريمه وأولاده وعبيده، وكان قد وصل إلى مصر أغا معين بقصد سفر المذكور إلى سلانيك، فنزل صحبته إلى بولاق وصالحوه عما أخذ منه من المال وغيره بخمسماية كيس فأرادوا دفعها له قروشًا

فامتنع قايلًا: إنهم أخذوا مالي ذهبًا مشخصًا وفرانسة فكيف آخذ بدل ذلك نحاسًا لا نفع بها في غير مصر، فأعطوه مايتي كيس ذهبًا وفرانسة، وتحول بالباقي وكيله مكي الخولاني، ثم زوَّدوه وأعطوه سكرًا وبنًّا وأرزًا وشرباتًا وغير ذلك.

ونزل مسافرًا إلى المركب صحبة المعين إلى الحجاز من ناحية القصير، وبرز ابن باشت طرابلس وصحبته عساكر أيضًا من ناحية العادلية وآخر يقال له قنجة بك ومعهم نحو الألف خيَّال من العرب والمغاربة على طريق البر إلى الحجاز.

وفي يوم الخميس رابع عشرينه الموافق لسادس شهر مسرى القبطي، أوفى النيل المبارك أذرعه فداروا بالرايات ونودي بالوفا، وكسروا السد في صبح يوم الجمعة بحضرة كتخدا بك والقاضي والجم الغفير من العساكر.

وفي أواخره وصلت الأخبار بأن الباشا توجه إلى الطايف وأبقى حسن باشا بمكة.

واستهل شهر رمضان بيوم الأربع (سنة ١٢٢٩)

في رابعه حضر موسى أغا تفكجي باشا من الديار الحجازية، وكان فيمن باشر حرابة قنفدة ومِن جملة مَن انهزم بها وهلكت جميع عساكره وخدمه ورجع إلى مصر وصحبته أربعة أنفار من الخدم.

وفي عاشره خرجت العساكر المجردة بسفر الحجاز إلى بركة الحج، وهم مغاربة وعربان، وارتحلوا يوم الأحد تاني عشره.

وفي الأربع خامس عشره برز دبوس أوغلي خارج باب الفتوح ليسافر بعساكره إلى الحجاز، وكذلك حسن أغا سرششمه، ونصبوا خيامهم واستمروا يخرجون من المدينة ويدخلون غدوًّا وعشيًّا، وهم يأكلون ويشربون جهارًا في نهار رمضان ويقولون: نحن مسافرون ومجاهدون.

ويمرون بالأسواق ويجلسون على المساطب وبأيديهم الأقصاب والشبكات التي يشربون فيها الدخان من غير احتشام ولا حيا، ويجوزون بحارات الحسينية على القهاوي في الضحوة فيجدونها مغلوقة، فيسألون عن القهوجي ويطلبونه ليفتح لهم القهوة ويوقد لهم النار ويغلي لهم القهوة ويسقيهم، فربما هرب القهوجي واختفى منهم فيكسرون الباب ويعبثون بآلاته وأوانيه، فما يسعه إلا المجيء وإيقاد النار.

وأشنع من ذلك أنه اجتمع بناحية عرضيهم وخيامهم الجم الكثير من النسا الخواطي والبغايا، ونصبوا لهم خيامًا وأخصاصًا، وانضم إليهم بياع البوظة والعرقي

والحشاشون والغوازي والرقاصون وأمثال ذلك، وانحشر معهم الكثير من الفساق وأهل الأهواء والعُيَّاق من أولاد البلد، فكانوا جمعًا عظيمًا يأكلون الحشيش ويشربون المسكرات ويزنون ويلوطون، ويشربون الجوزة ويلعبون القمار جهارًا في نهار رمضان ولياليه، مختلطين مع العساكر كأنما سقط عن الجميع التكاليف، وخلصوا من الحساب.

وسمعت ممن شاهد بعينه محمود بك المهردار الذي هو أعظم أعيانهم، وهو المتولي على قياس الأراضي مع المعلم غالي، وهو جالس في ديوانهم المخصوص بالقرب من سويقة اللالا، وهو يشرب في النارجيلة التنباك ويأتون بالغداء جهارًا، ويقول: أنا مسافر الشرقية لعمل نظام الأراضي.

وفي غايته وصلت هجانة باستعجال العساكر.

واستهل شهر شوال بيوم الخميس (سنة ١٢٢٩)

في ليلته قلدوا عبد الله كاشف الدرندلي أميرًا على ركب الحجاج.

وفي يوم السبت تالته خرج دبوس أوغلي في موكب إلى مخيمه، وكذلك حسن أغا سرششمه ليسافر إلى الحجاز.

وفي يوم السبت حادي عشرة نزلوا بكسوة الكعبة بالطبول والزمور إلى المشهد الحسيني، واجتمع الناس على عادتهم للفرجة.

وفيه انتقل محمود بك والمعلم غالي إلى بيت حسن أغا نجاتي، وعملوا ديوانهم فيه وأتلقوا الجنينة التي به، وجلسوا تحت أشجارها وربط الأقباط حميرهم فيها، وشرع محمود بك في عمارة الجهة القبلية منه وانزوت صاحبة المنزل في ناحية منه.

وفي سابع عشره ارتحل دبوس أوغلي وحسن أغا سرششمه ومن معهم من العساكر من منزلهم متوجهين إلى الديار الحجازية.

وفي يوم الخميس تاني عشرينه رسم كتخدا بك بنفي طايفة من الفقها من ناحية طندتا إلى أبي قير؛ بسبب فتيا أفتوها في حادثة ببلدهم وقضى بها قاضيهم، وأُنهيت الدعوى إلى ديوان مصر فطُلبوا إلى إعادة الدعوى، فحضروا وترافعوا إلى قاضي العسكر، وأثبتوا عليهم الخطأ، فرسم بنفي الشاكي والمفتيَين والقاضي رابعهم.

وفي يوم السبت رابع عشرينه عملوا موكبًا لخروج المحمل، واستعد الناس للفرجة على عادتهم، فكان عبارة عن نحو ماية جمل تحمل روايا الماء والقِرب، وعدة من

طايفة الدلاة على روسهم طراطير سود قلابق، وأمير الحاج على شكلهم وخلفه أرباب الأشاير ببيارقهم وشراميطهم وطبولهم وزمورهم وجوقاتهم وخلفهم المحمل، فكان مدة مرورهم مع تقطيعهم وعدم نظامهم نحو ساعتين، فأين ما كان يُعمل من المواكب بمصر التي يُضرب بحسنها وترتيبها ونظامها المثل في الدنيا، فسبحان مغير الشئون والأحوال!

وفيه خرجت زوجة الباشا الكبيرة — وهي أم أولاده — تريد الحج إلى خارج باب النصر في تلاتة تخوت، والمتسفر بها بونابارته الخازندار، وقد حضر لوداعها ولدها إبراهيم باشا من الصعيد، وخرج لتشييعها هو وأخوه إسماعيل باشا وصحبتهما محرم بك زوج ابنتها حاكم الجيزة، ومصطفى بك دالي باشا، ويقال إنه أخوها، وكذلك محمد بك الدفتردار زوج ابنتها أيضًا، وطاهر باشا وصالح بك السلحدار، وارتحلت ومن معها في سادس عشرينه إلى بندر السويس، وفي ذلك اليوم برزت عساكر المغاربة وغيرهم ممن تعسكر، وارتحل أمير الحج من الحصوة إلى البركة.

وفي يوم التلات خرجت عساكر كثيرة مجردين للسفر …

وفي يوم الخميس تاسع عشرينه ارتحل أمير الحج، ومن معه من البركة في تاسع ساعة من النهار، وفي ذلك اليوم هبت رياح غربية شمالية باردة، واشتد هبوبها أواخر النهار وأطبقت السما بالغيوم والقتام، وأبرق البرق برقًا متتابعًا وأرعدت رعدًا له دوي متصل، ولما قرب من سمت روسنا كان له صوت عظيم مزعج، ثم نزل مطر غزير استمر نحو نصف ساعة ثم سكن بعد أن تبحرت منه الأزقة والطرق، وكان ذلك اليوم رابع شهر بابة القبطي.

وفيه ورد الخبر من السويس أن امرأة الباشا لما وصلت إلى هناك وجدت عالَمًا كبيرًا من الحجاج المختلفي الأجناس ممنوعين من نزول المراكب، فصرخوا في وجهها وشكوا إليها تخلفهم، وأن أمير البندر مانعهم من النزول في المراكب، وبذلك المنع يفوتهم الحج الذي تجشموا الأسفار وصرفوا أيضًا الأموال من أجله، وهم في مشقة عظيمة من عدم الماء، ولا يمكنهم الرجوع لعدم من يحملهم، وأن أمير البندر يشتط عليهم في الأجرة، ويأخذ على كل رأس خمسة عشر فرانسة، فحلفت أنها لا تنزل من المركب حتى ينزل جميع من بالسويس من الحجاج المراكب، ولا يؤخذ منهم إلا القدر الذي جعلته على كل فرد منهم، فكان ما حكمت به هذه الحرمة صار لها به منقبة حميدة، وذكرًا حسنًا وفرجًا لهولا الخلايق بعد الشدة.

واستهل شهر ذي القعدة بيوم السبت (سنة ١٢٢٩)

وفي يوم الاتنين نادى المنادي بوقود قناديل سهاري على البيوت والوكايل، وكل أربع دكاكين قنديل.

وفي تامنه جرسوا شخصًا وأركبوه على حمار بالمقلوب وهو قابض بيده على ذَنَب الحمار، وعمموه بمصارين ذبيحة وعلى كتفه كرش، بعد أن حلقوا نصف لحيته وشواربه، قيل: إن سبب ذلك أنه زور حجة تقرير على أماكن تتعلق بامرأة أجنبية، وباع بعض الأماكن، وكانت تلك المرأة غايبة من مصر، فلما حضرت وجدت مكانها مسكونًا بالذي اشتراه فرفعت قصتها إلى كتخدا بك، ففعل به ذلك بعد وضوح القضية.

وفي تاني عشره سافر عبد الله بن الشريف سرور إلى الحجاز باستدعا من الباشا، فأعطوه أكياسًا، وقضى أشغاله وخرج مسافرًا.

وفيه وقعت حادثة بحارة الكعكيين بين شخصين من الدلاتية رمحا خلف غلام بدوي عمل نفسه عسكريًّا مع طايفة المغاربة، يدَّعي أحدهما أن له عنده دراهم، فهرب منهما إلى الخطة المذكورة فرمحا خلفه، وبيد كلٍّ منهما سيفه مسلولًا، فدخل الغلام إلى عطفة الحمام، وفزعت عليهما المغاربة المتعسكرون القاطنون بتلك الناحية وضربوا عليهما بنادق، فسقط حصان أحد الدلاة وأصيب راكبه، وهرب رفيقه إلى كتخدا بك فأخبره، فأمر بإحضار كبرا المغاربة وطالبهم بالضارب فلم يتبين أمره، وقبضوا على الغلام الهارب فحبسوه، وفي ذلك الوقت حصل في الناس فَزْعة وأَغلقت أهلُ سوق الغورية والشواين والفحامين حوانيتهم، وبقي ذلك الغلام محبوسًا، ومات الدلاتي المضروب في ليلة السبت خامس عشره، فأحضروا ذلك الغلام إلى باب زويلة، وقطعوا راسه ظلمًا ولم يكن هو الضارب.

وفي عشرينه سافر ابن باشت طرابلس، وسافر معه عسكر المغاربة الخيالة.

واستهل شهر ذي الحجة الحرام ختام سنة (١٢٢٩)

في أوله ورد نجاب من الحجاز وأخبر بموت طاهر أفندي، وهو أفندي ديوان الباشا، وكان موته في شهر شوال بالمدينة حتف أنفه، وورد الخبر أيضًا بصلح الشريف راجح مع الباشا وأنه قابله وأكرمه وأنعم عليه بمايتي كيس، وأخبر أيضًا بأنه ترك الباشا بناحية الكلخة وهو ما بين الطايف وتربة، وانقضت السنة بحوادثها في هذه السنة.

وأما من مات في هذه السنة

فمات العمدة الفاضل الفقيه النبيه الشيخ حسين المعروف بابن الكاشف الدمياطي، ويُعرف بالرشيدي، تعلَّق بالعلم وانخلع من الأمرية والجندية، وحضر أشياخ العصر ولازم حضور الشيخ عبد الله الشرقاوي، وانتقل من مذهب الحنفية إلى الشافعية لملازمته لهم في المعقول والمنقول، وتلقى عن السيد مرتضى أسانيد الحديث والمسلسلات، وحفظ القرآن في مبدا أمره برشيد وجوَّده على السيد صديق، وحفظ شيًّا من المتون قبل مجيه إلى مصر، وأكب على الاشتغال بالأزهر، وتزيا بزي الفقها، يلبس العمامة والفرجية، وتصدر ودرس في الفقه والمعقول وغيرهما، ولما وصل محمد باشا خسرو إلى ولاية مصر اجتمع عليه عند قلعة أبي قير، فجعله إمامًا يصلى خلفه الأوقات، وحضر معه إلى مصر، ولم يزل مواظبًا على وظيفته، وانتفع بنسبته إليه واقتنى حصصًا وإقطاعات وتقلد قضايا مناصب البلاد البنادر، ويأخذ ممن يتولاها الجعالات والهدايا، وأخذ أيضًا وقف أزبك وغيره، ولم يزل تحت نظره بعد انفصال محمد باشا خسرو، واستمر المذكور على القراية والإقرا حتى تُوُفِّيَ أواخر السنة.

ومات الفاضل الشيخ عبد الرحمن الجمل، وهو أخو الشيخ سليمان الجمل، تفقه على أخيه ولازم دروسه وحضر غيره من أشياخ العصر، ومشى على طريقة أخيه في التقشف والانجماع عن خلطة الناس، ولما مات أخوه وكان يملي الدروس بجامع المشهد الحسيني بين المغرب والعشا على جمع من مجاوري الأزهر والعامة، تصدر للإقرا في محله في ذلك الوقت، فقرا الشمايل والمواهب والجلالين، ولم يزل على حالته حتى تُوُفِّيَ تاني عشر ذي الحجة.

ومات الشيخ المفيد محمد الإسناوي الشهير بجاد المولى، ممن جاور بالأزهر وحضر دروس أشياخ الوقت من أهل عصره، ولازم الشيخ عبد الله الشرقاوي في دروسه، وبه تخرج وواظب عليه في مجالس الذكر، وتلقى عنه طريقة الخلوتية وألبسه التاج، وتقدم في خطابة الجمعة والأعياد بالجامع الأزهر بدلًا عن الشيخ عبد الرحمن البكري عندما رفعوها عنه. وخطب بجامع عمرو بمصر العتيقة يوم الاستسقا عندما قصَّرت زيادة النيل في سنة تلات وعشرين وتأخر في الزيادة عن أوانه، ولما حضر محمد باشا خسرو إلى مصر وصلى صلاة الجمعة بالأزهر في سنة سبع عشرة خلع عليه بعد الصلاة فروة سمور، فكان يخرجها من الخزنة ويلبسها وقت خطبة الجمعة والأعياد، وواظب على قراءة الكتب للمبتديين كالشيخ خالد والأزهرية، ثم قرا شرح الأشموني على الخلاصة،

واشتُهر ذكره ونما أمره في أقل زمن، وكان فصيحًا مفوَّهًا في التقرير والإلقاء لتفهيم الطلبة، ولم يزل على حالة حميدة في حسن السلوك والطريقة حتى تُوُفِّيَ في شهر ذي الحجة، وقد ناهز الأربعين.

سنة تلاتين ومايتين وألف (١٨١٤م)

استهل المحرم بيوم التلات، وفي خامسه وصل نجاب من الحجاز، وعلى يده مكاتبات بالأخبار عن الباشا والحجاج بأنهم حجوا ووقفوا بعرفة وقضوا المناسك.

وفي تاسعه حضر إبراهيم باشا من الجهة القبلية إلى داره بالجمالية.

وفي عاشره يوم الخميس وصل في ليلته قابجي وعلى يده تقرير للباشا من الحجاز إلى ساحل القصير، فضربوا لذلك مدافع من القلعة.

وفي صبحها خرج ابن الباشا وأخوه وكذلك أكابر دولتهم إلى ناحية البساتين، ومنهم من عدَّى النيل إلى البر الغربي لملاقاته على مقتضى عادته في عجلته في الحضور وعلى حساب مضي الأيام من يوم وصوله إلى القصير، فغابوا في انتظاره حتى انقضى النهار ثم رجعوا.

وفي صبح اليوم التاني خرجوا ثم عادوا إلى دورهم آخر النهار، واستمروا على الخروج والرجوع تلاتة أيام ولم يحضر، وكثر لغط الناس عند ذلك واختلفت رواياتهم وأقاويلهم مدةً ليلًا ونهارًا، ثم ظهر كذلك هذا الخبر وأن الباشا لم يزل بأرض الحجاز، وقيل: إن سبب إشاعة خبر مجيه أنه وصل إلى ساحل القصير سفينة بها سبعة عشر شخصًا من العسكر، فسألهم الوكيل الكاين بالقصير عن مجيهم، فأجابوه: إنهم مقدمة الباشا، وإنه واصل في أثرهم، فعندما سمع جوابهم أرسل خطابًا إلى كاتب من الأقباط بقنا يعرِّفه بقدوم الباشا، فكتب ذلك القبطي خطابًا إلى وكيل شخص من أعيان كتبة الأقباط بأسيوط يسمى المعلم بشارة، فعندما وصله الجواب أرسل جوابًا إلى موكله بشارة المذكور بمصر بذلك الخبر.

وفي الحال طلع به إلى القلعة وأعطاه لإبراهيم باشا، فانتقل به إبراهيم باشا إلى مجلس كتخدا بك، فخلع كتخدا بك على بشارة خلعة وأمر بضرب المدافع، ونزلت المبشرون وانتشروا بالبشاير إلى بيوت الأعيان وأخذ البقاشيش.

ولما حصل التراخي والتباطؤ والتأخر في الحضور بعد الإشاعة أخذ الناس في اختلاق الروايات والأقاويل كعادتهم، فمنهم من يقول حضر مهزومًا، ومنهم من يقول مجروحًا، ومنهم من يثبت موته، والشي الذي أوجب في الناس هذه التخليطات ما شاهدوه من حركات أهل الدولة وانتقال نساهم من المدينة وطلوعهم إلى القلعة بمتاعهم وإخلا الكثير منهم البيوت، وانتقال طايفة الأرنؤد من الدور المتباعدة واجتماعهم وسكناهم بناحية خطة عابدين.

وكذلك انتقل إبراهيم باشا إلى القلعة ونقل إليها الكثير من متاعه.

وأغربُ من هذا كله إشاعة اتفاق عظما الدولة على ولاية إبراهيم باشا على الأحكام عوضًا عن أبيه في يوم الخميس، ويرتبون له موكبًا يركب فيه ذلك اليوم ويشق من وسط المدينة، واجتمع الناس للفرجة عليه واصطفوا على المساطب والدكاكين فلم يحصل، وظهر كذب ذلك كله وبطلانه.

واتفق في أثنا ذلك من زيادة الأوهام والتخبيلات أن رضوان كاشف المعروف بالشعراوي سَدَّ باب داره التي بالشارع بخط باب الشعرية، وفتح له بابًا صغيرًا من داخل العطفة التي بظاهره، فأوشى بعض مبغضيه إلى كتخدا بك فعلته في هذا الوقت، والناس يزداد بهم الوهم ويعتقدون صحة ما دار بينهم من الأكاذيب، وخصوصًا كونه من الأعيان المعروفين، فطلبه كتخدا بك وقال له: لأي شي سددت باب دارك، وما الذي قاله المنجم لك؟ فقال: إن طايفة من العساكر تشاجروا بالخطة ودخلوا إلى الدار وأزعجونا فسددتها من ناحية الشارع بُعدًا من الشر وخوفًا مما جرى على داري سابقًا من النهب، فلم يلتفت لكلامه وأمر بقتله فشفع فيه صالح بك السلحدار وحسن أغا مستحفظان، فعفا عنه من القتل وأمر بضربه فبطحوه وضربوه بالعصي، ثم نزل بصحبته الأغا إلى داره وفتح الباب كما كان.

وفي رابع عشرينه وصلت مكاتبات من الديار الحجازية من عند الباشا وخلافه مؤرخة في تالت عشر ذي الحجة يذكرون فيها أن الباشا بمكة وطوسون باشا ابنه بالمدينة، وحسن باشا وأخاه عابدين بك وخلافهم بالكلخة ما بين الطايف وتربة.

واستهل شهر صفر الخير بيوم الخميس (سنة ١٢٣٠)

في غرته أعيد إلى مشيخة الحنفية الشيخ أحمد إسماعيل الطهطاوي، ولبس الخلع من الشيخ الشنواني شيخ الأزهر، ثم من الباشا وباقي المشايخ وأرباب المظاهر، ولم يختلف عليه اثنان.

في خامس عشرينه نودي بنقص مصارفة أصناف المعاملة، وقد وصل صرف الريال الفرانسة من الفضة العددية إلى تلتماية وأربعين نصفًا، عنها تمانية قروش ونصف، فنودي عليه بنقص نصف قرش، والمحبوب وصل إلى عشرة قروش، فنودي عليه بتسعة قروش، وشددوا في هذه المناداة تشديدًا زايدًا، وقُتل كل من زاد على ذلك من غير معارضة، وكتبوا مراسيم إلى جميع البنادر وفيها التشديد والتهديد والانتقام ممن يزيد.

وفي أواخره التزم المعلم غالي بمال الجزية التي تُطلب من النصارى على خمسة وثمانين كيسًا؛ وسبب ذلك أن بعض أتباع المقيد لقبض الجوالي قبض على شخص من النصارى، وكان من قسوسهم، وشدد عليه في الطلب وأهانه، فأنهوا الأمر إلى المعلم غالي ففعل ذلك قصدًا لمنع الإيذاء عن أبناء جنسه، ويكون الطلب منه عليهم ومنع المتظاهرين بالإسلام عنهم.

واستهل شهر ربيع الأول بيوم السبت (سنة ١٢٣٠)

في تاسعه وصلت قافلة طياري من الحجاز قدم صحبتها السيد عبد الله الأقماعي، ومعها هجانة من الحجاز وعلى يدهم مكاتبات، وفيها الأخبار والبشرى بنصرة الباشا على العرب، وأنه استولى على تربة وغَنِمَ منها جِمالًا وغنايم وأخذ منهم أسرى، فلما وصلت الأخبار بذلك انطلق المبشرون إلى بيوت الأعيان لأخذ البقاشيش، وضربوا في صبحها مدافع كثيرة من القلعة.

وفي يوم التلات حادي عشره كان المولد النبوي، فنودي في صبحه بزينة المدينة وبولاق ومصر القديمة، ووقود القناديل والسهر تلاتة أيام بلياليها، فلما أصبح يوم الأربع والزينة بحالها إلى بعد أذان العصر، نودي برفعها ففرح أهل الأسواق بإزالتها ورفعها لما يحصل لهم من التكاليف والسهر في البرد والهوا، خصوصًا وقد حصل في آخر ليلة رياح شديدة باردة.

وفي هذه الأيام سافر محمود بك والمعلم غالي ومن يصحبهم من النصارى والأقباط، وأخذوا معهم طايفة من الكتبة الأفندية المختصين بالروزنامة، ومنهم محمد أفندي

ابن حسين أفندي المنفصل عن الروزنامة، ونزلوا لإعادة قياس الأراضي وتحرير الري والشراقي، وسبقهم القياسون بالأقصاب، نزلوا وسرحوا قبلهم بنحو عشرة أيام، وشرع كشاف النواحي في قبض الترويجة من المزارعين، وفرضوا على كل فدان الأدنى تسع ريالات إلى خمسة عشر بحسب جودة الأراضي وردايتها، وهذا الطلب في غير وقته؛ لأنه لم يحصل حصاد للزرع، وليس عند الفلاحين ما يقتاتون منه، ومن العجب أنه لم يقع مطر في هذه السنة أبدًا، ومضت أيام الشتا ودخل فصل الربيع ولم يقع غيث أبدًا سوى ما كان يحصل بعض الأيام من غيوم وأهوية غريبة، ينزل مع هبوبها بعض رشاش قليل لا تبتل الأرض منه، ويجف بالهواء بمجرد نزوله.

وفي أواخره ورد لحضرة الباشا هدية من بلاد الإنكليز، وفيها طيور مختلفة الأجناس والأشكال كبار وصغار، وفيها ما يتكلم ويحاكي، وآلة مصنوعة لنقل الماء يقال لها الطلمبة، وهي تنقل الماء المسافة البعيدة، ومن الأسفل إلى العلو، ومرآة زجاج نجف كبيرة قطعة واحدة، وساعة تضرب مقامات موسيقى في كل ربع يمضي من الساعة بأنغام مطربة، وشمعدان به حركة غريبة كلما طالت فتيلة الشمعة غمر بحركة لطيفة، فيخرج منه شخص لطيف من جانبه فيقص راس الفتيلة بمقص لطيف بيده، ويعود راجعًا إلى داخل الشمعدان؛ هذا ما بلغني ممن ادَّعى أنه شاهد ذلك.

وفيه عملوا تسعيرة على المبيعات والمأكولات، مثل اللحم والسمن والجبن والشمع، ونادوا بنقص أسعارها نقصًا فاحشًا، وشددوا في ذلك بالتنكيل والشنق والتعليق وخرم الآناف، فارتفع السمن والزبد والزيت من الحوانيت وأخفوه، وطفقوا يبيعونه في العشيات بالسعر الذي يختارونه على الزبون، وأما السمن فلكثرة طلبه لأهل الدولة شح وجوده، وإذا ورد منه شي خطفوه وأخذوه من الطريق بالسعر الذي سعَّره الحاكم، وانعدم وجوده عند القبانية، وإذا بيع منه شي بيع سرًّا بأقصى الثمن، وأما السكر والصابون فبلغا الغاية في غلو الثمن وقلة الوجود؛ لأن إبراهيم باشا احتكر السكر بأجمعه الذي يأتي من الصعيد، وليس بغير الجهة القبلية شي منه، فيبيعه على ذمته، وهو في الحقيقة لأبيه ثم صار نفس الباشا يعطيه لأهل المطابخ بالثمن الذي يعينه عليهم، ويشاركهم في ربحه؛ فزاد غلو ثمنه على الناس، وبيع الرطل من السكر الصعيدي الذي كان يباع بخمسة أنصاف فضة بثمانين نصفًا، وأما الصابون ففرضوا على تجاره غرامة فامتنع وجوده، وبيع الرطل الواحد منه خفية بستين نصفًا وأكثر، وفي هذه الأيام غلا سعر الحنطة والفول، وبيع الأردب بألف ومايتي نصف فضة خلاف الكلف والأجرة، مع أن

الأهراء والشون ببولاق ملآنة بالغلال، ويأكلها السوس، ولا يُخرجون منها للبيع شيًّا حتى قيل لكتخدا بك في إخراج شي منها يباع في الناس فلم يأذن، وكأنه لم يكن مأذونًا من مخدومه.

واستهل شهر ربيع التاني بيوم الاتنين (سنة ١٢٣٠)

في تامنه عمل محرم بك الكورنتيلة بالجيزة على نسق السنة الماضية من إخراج الناس وإزعاجهم تطيُّرًا وخوفًا من الطاعون.

وفيه خوزقوا شيخ عرب بلى فيما بين قبة العزب والهمايل بعد حبسه أربعة أشهر.

وفي يوم الجمعة تامن عشرينه ضربت مدافع، وأشيع الخبر بوصول شخص عسكري بمكاتبات من الباشا وخلافه، والخبر بقدوم الباشا، وانتشرت المبشرون إلى بيوت الأعيان وأصحاب المظاهر على عاداتهم لأخذ البقاشيش، فمِن قايل إنه وصل إلى القصير، ومِن قايل إنه نزل إلى السفينة بالبحر، ومنهم من يقول إنه حضر إلى السويس، ثم اختلفت الروايات وقالوا إن الذي وصل إلى السويس حريم الباشا فقط، ثم تبين كذب هذه الأقاويل وأنها مكاتبات فقط مؤرخة أواخر شهر صفر يذكرون فيها أن الباشا حصل له نصر واستولى على ناحية يقال لها بيشة ورنية وقتل الكثير من الوهابيين، وأنه عازم على الذهاب إلى ناحية قنفدة، ثم ينزل بعد ذلك البحر ويأتي إلى مصر، ووصل الخبر بوفاة الشيخ إبراهيم كاتب الصرة.

واستهل شهر جمادى الأولى بيوم التلات (سنة ١٢٣٠)

في سادسه يوم الأحد ضُربت مدافع بعد الظهيرة لورود مكاتبة بأن الباشا استولى على ناحية من النواحي جهة قنفدة.

وفي يوم الجمعة تامن عشره وصل المحمل إلى بركة الحج وصحبته من بقي من رجال الركب مثل خطيب الجبل والصيرفي والمحملجية، ووردت مكاتبات بالقبض على طامي الذي جرى منه ما جرى في وقايع قنفدة السابقة وقتله العساكر، فلم يزل راجح الذي اصطلح مع الباشا ينصب له الحبايل حتى صاده.

وذلك أنه عمل لابن أخيه مبلغًا من المال إن هو أوقعه في شركه، فعمل له وليمة ودعاه إلى محله فأتاه آمنًا، فقبض عليه طمعًا في المال، وأتوا به إلى عرضي الباشا فوجهه

إلى بندر جدة في الحال، وأنزلوه السفينة وحضروا به إلى السويس وعجلوا بحضوره، فلما وصل إلى البركة والمحمل إذ ذاك بها خرجت جميع العساكر في ليلة الاتنين حادي عشرينه، وانجروا في صبحها طوايف وخلفهم المحمل، وبعد مرورهم دخلوا بطامي المذكور وهو راكب على هجين وفي رقبته الحديد والجنزير مربوط في عنق الهجين، وصورته رجل شهم عظيم اللحية وهو لابس عباية عبداني، ويقرأ وهو راكب، وعملوا في ذلك اليوم شنكًا ومدافع، وحضر أيضًا عابدين بك وتوجه إلى داره في ليلة الاتنين.

واستهل شهر جمادى الثانية بيوم الخميس (سنة ١٢٣٠)

في خامسه وصلت عساكر في داوات إلى السويس، وحضروا إلى مصر، وعلى روسهم شلنجات فضة إعلامًا، وإشارة بأنهم مجاهدون وعايدون من غزو الكفار، وأنهم افتتحوا بلاد الحرمين وطردوا المخالفين لديانتهم، حتى إن طوسون باشا وحسن باشا كتبا في إمضاهما على المراسلات بعد اسمهما لفظة المغازي، والله أعلم بخلقه.

وفي تاسعه أخرجوا عساكر كثيرة، وجهوهم إلى الثغور ومحافظة الأساكل خوفًا من طارق يطرق الثغور؛ لأنه أشيع أن بونابارته كبير الفرنساوية خرج من الجزيرة التي كان بها، ورجع إلى فرنسا وملكها وأغار على بلاد الجورنة، وخرج بعمارة كبيرة لا يعلم قصده إلى أي جهة يريد، فربما طرق ثغر إسكندرية أو دمياط على حين غفلة، وقيل غير ذلك.

وسيل كتخدا بك عن سبب خروجهم فقال: خوفًا عليهم من الطاعون، ولئلا يوخموا المدينة؛ لأنه وقع في هذه السنة موتان بالطاعون، وهلك الكثير من العسكر وأهل البلدة والأطفال والجواري والعبيد، خصوصًا السودان، فإنه لم يبقَ منهم إلا القليل النادر وخلت منهم الدور.

وفي منتصفه أخرج كتخدا بك صدقة تفرق على الأولاد الأيتام الذين يقرون بالكتاتيب، ويَدْعُون برفع الطاعون، فكانوا يجمعونهم ويأتي بهم فُقهاهم إلى بيت حسين كتخدا الكتخدا عند حيضان مُصْلى، ويدفعون لكل صغير ورقة بها ستون نصفًا فضة، يأخذ منها جزأً الذي يجمع الطايفة منهم، ويدعي أنه معلمهم زيادة عن حصته؛ لأن معظم المكاتب مغلوقة وليس بها أحد بسبب تعطيل الأوقاف وقطع إيرادهم، وصار لهذه الأطفال جلبة وغوغا في الأسواق وعلى بيت الذي يقسم عليهم.

واستهل شهر رجب بيوم الجمعة (سنة ١٢٣٠)

في سادسه يوم الأربع وصلت هجانة من ناحية قبلي، وأخبروا بوصول الباشا إلى القصير، فخلع عليهم كتخدا بك كساوي، ولم يأمر بعمل شنك ولا مدافع حتى يتحقق صحة الخبر.

وفي ليلة الجمعة تامنه احترق بيت طاهر باشا بالأزبكية والبيت الذي بجواره أيضًا.

وفي يوم الجمعة المذكورة قبل العصر ضربت مدافع كثيرة من القلعة والجيزة، وذلك عندما ثبت وتحقق ورود الباشا إلى قنا وقوص، ووصل أيضًا حريم الباشا وطلعوا إلى قصر شبرا، وركب للسلام عليها جميع نسا الأكابر والأعيان بهداياهم وتقادمهم، ومنعوا المارين من المسافرين والفلاحين الواصلين من الأرياف المرور من تحت القصر، الذي هو الطريق المعتادة للمسافرين، فكانوا يذهبون ويمرون من طريق استحدثوها منعطفة خلف تلك الطريق ومستبعدة بمسافة طويلة.

وفي ليلة الخميس رابع عشره انخسف جرم القمر جميعه بعد الساعة التالتة، وكان في آخر برج القوس.

وفي ليلة الجمعة خامس عشره وصل الباشا إلى الجيزة ليلًا فأقام بها إلى آخر الليل، ثم حضر إلى داره بالأزبكية فأقام بها يومين، وحضر كتخدا بك وأكابر دولته للسلام عليه فلم يأذن لأحد، وكذلك مشايخ الوقت ذهبوا ورجعوا، ولم يجتمع به أحد سوى تاني يوم.

وترادفت عليه التقادم والهدايا من كل نوع من أكابر الدولة والنصارى بأجناسهم، خصوصًا الأرمن وخلافهم بكل صنف من التحف حتى السراري البيض بالحلي والجواهر وغير ذلك، وأشيع في الناس في المصر وفي القرى بأنه تاب عن الظلم وعزم على إقامة العدل، وأنه نذر على نفسه أنه إذا رجع منصورًا واستولى على أرض الحجاز أفرج للناس عن حصصهم، ورد الأرزاق الإحباسية إلى أهلها.

وزادوا على هذه الإشاعة أنه فعل ذلك في البلاد القبلية ورد كل شي إلى أصله، وتناقلوا ذلك في جميع النواحي، وباتوا يتخيلونه في أحلامهم.

ولما مضى من وقت حضوره تلاتة أيام كتبوا أوراقًا لمشاهير الملتزمين، مضمونها أنه بلغ حضرة أفندينا ما فعله الأقباط من ظلم الملتزمين والجور عليهم في فايظهم فلم يرضَ بذلك، والحال أنكم تحضرون بعد أربعة أيام، وتحاسبوا على فايظكم وتقبضونه،

فإن أفندينا لا يرضى بالظلم، وعلى الأوراق إمضا الدفتردار، ففرح أكثر المغفلين بهذا الكلام واعتقدوا صحته.

وأشاعوا أيضًا أنه نصب تجاه قصر شبرا خوازيق للمعلم غالي وأكابر القبط.

وفي رابع عشرينه حضر الكثير من أصحاب الأرزاق الكاينين بالقرى والبلاد مشايخ وأشرافًا وفلاحين، ومعهم بيارق وأعلام مستبشرين وفرحين بما سمعوه وأشاعوه، وذهبوا إلى الباشا وهو يعمل رماحة بناحية القبة برمي بنادق كثيرة وميدان تعليم، فلما رآهم وأخبروه عن سبب مجيهم فأمر بضربهم وطردهم، ففعلوا بهم ذلك ورجعوا خايبين.

وفيه حضر محمود بك والمعلم غالي من سرحتهما وقابلا الباشا، وخلع عليهما وكساهما وألبسهما فراوي سمور، فركب المعلم غالي وعليه الخلعة وشق من وسط المدينة وخلفه عدة كثيرة من الأقباط ليراه الناس ويكمد الأعدا ويبطل ما قيل من التقولات، ثم أقام هو ومحمود بك أيامًا قليلة ورجعا لأشغالهما وتتميم أفعالهما من تحرير القياس وجبي الأموال.

وكانا أرسلا قبل حضورهما عدة كثيرة من الجِمال الحاملة للأموال في كل يوم قطارات بعضها أثر بعض من الشرقية والغربية والمنوفية وباقي الأقاليم.

وفيه حضر شيخ طرهونة بجهة قبلي، ويسمى كريم بضم الكاف وفتح الرا وتشديد الياء وسكون الميم، وكان عاصيًا على الباشا ولم يقابله أبدًا، فلم يزل يحتال عليه إبراهيم باشا ويصالحه ويُمنِّيه حتى أتى إليه وقابله وأمَّنه، فلما حضر الباشا أبوه من الحجاز أتاه على أمان ابنه، وقدم معه هدية وأربعين من الإبل، فقبل هديته ثم أمر برمي عنقه بالرميلة.

واستهل شهر شعبان (سنة ١٢٣٠) بيوم الأحد

والناس في أمر مريج من قطع أرزاقهم، وأرباب الالتزامات والحصص التي ضبطها الباشا ورفع أيديهم عن التصرف في شي منها خلا طين الأوسية، فإنه سامحهم فيه سوى ما زاد عن الروك الذي قاسوه فإنه لديوانه، ووعدهم بصرف المال الحر المعين بالسند الديواني فقط بعد التحرير والمحاققة ومناقضة الكتبة الأقباط في القوايم.

وأقاموا منتظرين إنجاز وعده أيامًا يغدون ويروحون ويسألون الكتبة ومن له صلة بهم، وقد ضاق خناقهم من التفليس وقطع الإيراد ورضوا بالأقل وتشوَّفوا لحصوله، وكل قليل يوعدون بعد أربعة أيام أو ثلاثة أيام حتى تحرر الدفاتر، فإذا تحررت قيل: إن الباشا أمر بتغييرها وتحريرها على نسق آخر، ويكرر ذلك ثانيًا وتالتًا على حسب تفاوت المتحصل في السنين، وما يتوفره في الخزينة قليلًا أو كثيرًا.

وفيه وصل رجل تركي على طريق دمياط، يزعم أنه عاش من العمر زمنًا طويلًا، وأنه أدرك أوايل القرن العاشر ويذكر أنه حضر إلى مصر مع السلطان، وأدرك وقته وواقعته مع السلطان الغوري، وكان في ذلك الوقت تابعًا لبعض البيرقدارية، وشاع ذكره وحكى من رآه أن ذاته تخالف دعواه، وامتحنه البعض في مذاكرة الأخبار والوقايع فحصل منه تخليط ثم أمر الباشا بنفيه وإبعاده فأنزلوه في مركب وغاب خبره، فيقال إنهم أغرقوه، والله أعلم.

وفي خامس عشرينه عملوا الديوان ببيت الدفتردار وفتحوا باب صرف الفايظ على أرباب حصص الالتزام فجعلوا يعطون منه جانبًا، وأكثر ما يعطونه نصف القدر الذي قرروه وأقل وأزيد قليلًا.

وفيه أمر الباشا لجميع العساكر بالخروج إلى الميدان لعمل التعليم والرماحة خارج باب النصر، حيث قبة العزب فخرجوا من تلت الليل الأخير، وأخذوا في الرماحة والبندقة المتواصلة المتتابعة، مثل الرعود على طريقة الإفرنج، وذلك قُبَيل الفجر إلى الضحوة.

ولما انقضى ذلك رجعوا داخلين إلى المدينة في كبكبة عظيمة، حتى زحموا الطرق بخيولهم من كل ناحية، وداسوا أشخاصًا من الناس بخيولهم، بل حميرًا أيضًا.

وأشيع أن الباشا قصده إحصا العسكر وترتيبهم على النظام الجديد وأوضاع الإفرنج، ويلبسهم الملابس المقمطة ويغير شكلهم، وركب في تاني يوم إلى بولاق، وجمع عساكر ابنه إسماعيل باشا وصنَّفهم على الطريقة المعروفة بالنظام الجديد وعرَّفهم قصده، فعل ذلك بجميع العساكر، ومن أبى ذلك قابله بالضرب والطرد والنفي بعد سلبه حتى من ثيابه.

ثم ركب من بولاق وذهب إلى شبرا، وحصل في العسكر قلقلة ولغط وتناجوا فيما بينهم، وتفرق الكثير منهم عن مخاديمهم وأكابرهم، ووافقهم على النفور بعض أعيانهم واتفقوا على غدر الباشا.

ثم إن الباشا ركب من قصر شبرا وحضر إلى بيت الأزبكية ليلة الجمعة تامن عشرينه، وقد اجتمع عند عابدين بك بداره جماعة من أكابرهم في وليمة، وفيهم حجو بك وعبد الله أغا صاري جلة وحسن أغا الأزرنجلي، فتفاوضوا بينهم أمر الباشا وما هو شارع فيه.

واتفقوا على الهجوم عليه في داره بالأزبكية في الفجرية، ثم إن عابدين بك غافلهم وتركهم في أنسهم وخرج متنكرًا مسرعًا إلى الباشا وأخبره ورجع إلى أصحابه، فأسرع

الباشا في الحال الركوب في سادس ساعة من الليل، وطلب عساكر طاهر باشا فركبوا معه وحوَّط المنزل بالعساكر.

ثم أخلف الطريق وذهب على ناحية الناصرية ومرمى النشاب، وصعد إلى القلعة وتبعه من يثق به من العساكر وانخرم أمر المتوافقين، ولم يسعهم الرجوع عن عزيمتهم فساروا إلى بيت الباشا يريدون نهبه، فمانعهم المرابطون وتضاربوا بالرصاص والبنادق، وقتل بينهم أشخاص ولم ينالوا غرضًا.

فساروا على ناحية القلعة واجتمعوا بالرميلة وقراميدان، وتحيروا في أمرهم واشتد غيظهم، وعلموا أن وقوفهم بالرميلة لا يجدي شيًّا، وقد أظهروا المخاصمة، ولا ثمرة تعود عليهم في رجوعهم وسكونهم، بل ينكسف بالهم وتنذلُّ أنفسُهم ويلحقهم اللوم من أقرانهم الذين لم ينضموا إليهم، فأجمع رأيهم لسو طباعهم وخبث عقيدتهم وطرايقهم أنهم يتفرقون في شوارع المدينة، وينهبون متاع الرعية وأموالهم، فإذا فعلوا ذلك فيكثر جمعهم وتقوى شوكتهم ويشاركهم المتخلفون عنهم لرغبة الجميع في القبايح الذميمة، ويعودون بالغنيمة، ويحوصلون من الحواصل ولا يضيع سعيهم في الباطل، كما يقال في المثل: ما قَدَرْ على ضرب الحمار فضربَ البردعة.

ونزلوا على وسط قصبة المدينة على الصليبة وعلى السروجية، وهم يكسرون ويهشمون أبواب الحوانيت المغلوقة وينهبون ما فيها؛ لأن الناس لما تسامعوا بالحركة أغلقوا حوانيتهم وأبوابهم، وتركوا أسبابهم طلبًا للسلامة، وعندما شاهد باقيهم ذلك أسرعوا اللحوق وبادروا معهم للنهب والخطف، بل وشاركهم الكثير من الشطار والزُّعْر والعامة المقلين والجياع ومن لا دين له، وعند ذلك كثر جمعهم ومضوا على طريقهم إلى قصبة رضوان إلى داخل باب زويلة، وكسروا حوانيت السكرية وأخذوا ما وجدوه من الدراهم وما أحبوه من أصناف السكر، فجعلوا يأكلون ويحملون ويبددون الذي لم يأخذوه، ويلقونه تحت الأرجل في الطريق، وكسروا أواني الحلوى وقدور المربيات، وفيها ما هو الصيني والبباغوري والإفرنجي، ومجامع الأشربة، وأقراص الحلوى الملونة والرشال والملبس والفانيد والحماض والبنفسج، وبعد أن يأكلوا ويحملوا هم وأتباعهم ومن انضاف لهم من الأوباش البلدية والحرافيش والجعيدية، يلقون ما فضل عنهم على قارعة الطريق، بحيث صار السوق من حدِّ باب زويلة إلى المناخلية مع اتساعه وطوله مرسومًا، ومنقوشًا بألوان السكاكر وأقراص الحلوى الملونة وأعسال المربيات سايلة على الأرض.

وكان أهل ذلك السوق المتسببون جددوا وطبخوا أنواع المربيات والأشربة عند وفور الفواكه وكثرتها في أوانها، وهو هذا الشهر المبارك، مثل الخوخ والتفاح والبرقوق والتوت

والقرع المسير والحصرم والسفرجل، وملوا الأوعية وصففوها على حوانيتهم للمبيع، وخصوصًا على موسم شهر رمضان.

ومضوا في سيرهم إلى العقادين الرومي والغورية والأشرفية وسوق الصاغة، ووصلت طايفة إلى سوق مرجوش، فكسروا أبواب الحوانيت والوكايل والخانات، ونهبوا ما في حواصل التجار من الأقمشة المحلاوي والبز والحرير والزردخان.

ولما وصلت طايفة إلى راس خان الخليلي وأرادوا العبور والنهب، فزعت فيهم الأتراك والأرنؤد الذين يتعاطون التجارة الساكنون بخان اللبن والنحاس وغيرهما، وضربوا عليهم الرصاص، وكذلك من سوق الصرماتية والأتراك الخردجية الساكنون بالرباع بباب الزهومة، جعلوا يرمون عليهم من الطيقان بالرصاص حتى ردوهم ومنعوهم.

وكذلك تعصبت طايفة المغاربة الكاينون بالفحامين والكعكيين رموا عليهم بالرصاص وطردوهم عن تلك الناحية، وأغلقوا البوابات التي على روس العطف، وجلس عند كل درب أناس ومِنْ فوقهم أناس من أهل الخطة بالرصاص تمنع الواصل إليهم، ووصلت طايفة إلى خان الحمزاوي، فعالجوا في بابه حتى كسروا الخوخة التي في الباب، وعبروا الخان وكسروا حواصل التجار من نصارى الشوام وغيرهم، ونهبوا ما وجدوه من النقود وأنواع الأقمشة الهندية والشامية والمقصبات وبالات الجوخ والقطيفة والأصوفة وأنواع الأطلس والألاجات والسلاوي والجنفس والصندل والحَبَر وأنواع الشيت والحرير الخام والإبريسم وغير ذلك، وتبعهم الخدم والعامة في النهب وأخرجوا ما في الدكاكين والحواصل من أنواع الأقمشة، وأخذوا ما أعجبهم واختاروه وانتقوه، وتركوا ما تركوه ولم يقدروا على حمله مطروحًا على الأرض ودهليز الخان وخارج السوق، يطئون عليه الأرجل والنعالات، ويعدو القوي على الضعيف فيأخذ ما معه من الأشياء الثمينة، وقتل بعضهم البعض.

وكسروا أبواب الدكاكين التي خارج خان بالخطة، وأخرجوا ما فيها من التحف والأواني الصيني والزجاج المذهب والكاسات البلور والصحون والأطباق والفناجين البيشة، وأنواع الخردة، وأخذوا ما أعجبهم وما وجدوه من نقود ودراهم، وهشموا البواقي وكسروه وألقوه على الأرض تحت الأرجل شُقَافًا متنوعة.

وكذلك فعلوا بسوق البندقانيين وما به من حوانيت العطارين، وطرحوا أنواع الأشيا العطرية بوسط الشارع تداس بالأرجل أيضًا، وفعلوا ما لا خير فيه من نهب أموال الناس والإتلاف، ولولا الذين تصدوا لدفعهم ومنعهم بالبنادق والكرانك وغلق البوابات

لكان الوقع أفظع من ذلك، ولنهبوا أيضًا البيوت وفجروا بالنسا والعياذ بالله، ولكن الله سلَّم، وشاركهم في فعلهم الكثير من الأوباش والمغاربة المدافعين أيضًا، فإنهم أخذوا أشيا كثيرة، وكانوا يقبضون على من يمر بهم ممن يقدرون عليه من النهابين، ويأخذون ما معهم لأنفسهم، وإذا هشمت العساكر حانوتًا وخطفوا منها شيًّا ولحقهم من يطردهم عنها، استأصل اللاحقون ما فيها، واستباح الناس أموال بعضهم البعض.

وكان هذا الحادث الذي لم نسمع بنظيره في دولة من الدول في ظرف خمس ساعات، وذلك من قبيل صلاة الجمعة إلى قبيل العصر، حصل للناس في هذه المدة اليسيرة من الانزعاج والخوف الشديد ونهب الأموال وإتلاف الأسباب والبضايع ما لا يوصف.

ولم تُصَلَّ الجمعة في ذلك اليوم، وأُغلقت المساجد الكاينة بداخل المدينة، وأخذ الناس حِذرهم ولبسوا أسلحتهم وأغلقوا البوابات وقعدوا على الكرانك والمرابط والمتاريس، وسهروا الليالي وأقاموا على التحذر والتحفظ والتخوف أيامًا وليالي.

وفي يوم السبت تاسع عشرينه الموافق لآخر يوم من شهر أبيب القبطي أوفى النيل المبارك أذرعه، وكان ذلك اليوم أيضًا ليلة رؤية هلال رمضان، فصادف حصول الموسمين في آن واحد، فلم يعمل فيها موسم ولا شنك على العادة، ولم يركب المحتسب ولا أرباب الحرف بموكبهم وطبولهم وزمورهم، وكذلك شنك قطع الخليج وما كان يعمل في ليلته من المهرجان في النيل وسواحله وعند السد، وكذلك في صبحه وفي البيوت المطلة على الخليج، فبطل ذلك جميعه ولم يشعر بهما أحد وصام الناس باجتهادهم.

وكان وفاء النيل في هذه السنة من النوادر، فإن النيل لم تحصل فيه الزيادة بطول الأيام التي مضت من شهر أبيب إلا شيًّا يسيرًا، حتى حصل في الناس وهْم زايد وغلا سعر الغلة ورفعوها من السواحل والعرصات، فأفاض المولى في النيل واندفعت فيه الزيادة العظيمة، وفي ليلتين أوفى أذرعه قبل مظنته، فإن الوفا لا يقع في الغالب إلا في شهر مسرى، ولم يحصل في أواخر أبيب إلا في النادر.

وإني لم أدركه في سنين عمري أو في أبيب إلا مرة واحدة، وذلك في سنة تلات وثمانين وماية وألف، فتكون المدة بين تلك وهذه المدة سبعًا وأربعين سنة.

وفيه أرسل الباشا بطلب السيد محمد المحروقي، فطلع إليه وصحبته عدة كبيرة من عسكر المغاربة لخفارته، فلما واجهه قال له: هذا الذي حصل للناس من نهب أموالهم في صحايفي، والقصد أنكم تتقدمون لأرباب المنهوبات وتجمعونهم بديوان خاص طايفة بعد أخرى، وتكتبون قوايم لكل طايفة بما ضاع لها على وجه التحرير والصحة، وأنا

أقوم لهم بدفعه بالغًا ما بلغ، فشكر له ودعا له ونزل إلى داره وعرَّف الناس بذلك وشاع بينهم، فحصل لأربابه بعض الاطمينان.

وطلع إلى الباشا كبار العسكر مثل عابدين بك ودبوس أوغلي وحجو بك ومحو بك، واعتذروا وتنصلوا وذكروا وأقروا أن هذا الواقع اشتركت فيه طوايف العسكر، وفيهم من طوايفهم وعساكرهم، ولا يخفاه خبثُ طباعهم، فتقدم إليهم بأن يتفقدوا بالفحص وإحصا ما حازه وأخذه كلٌّ من طوايفهم وعساكرهم وشدَّد عليهم في الأمر بذلك، فأجابوه بالسمع والطاعة وامتثلوا لأمره، وأخذوا في جمع ما يمكنهم وإرساله إلى القلعة، وركبوا وشقوا بشوارع المدينة وأمامهم المناداة بالأمان، وأحضر الباشا المعمار وأمره بجمع النجارين والمعمرين وإشغالهم في تعمير ما تكسر من أخشاب الدكاكين والأسواق، ويدفع لهم أجرتهم، وكذلك الأخشاب على طرف الميري.

واستهل شهر رمضان بيوم الاتنين (سنة ١٢٣٠)

والناس في أمر مريج، وتخوُّف شديد، وملازمون للسهر على الكرانك، ويتحاشون المشي والذهاب والمجي، وكل أهل خطة ملازم لخطته وحارته، وكل وقت يذكرون وينقلون بينهم روايات وحكايات ووقايع مزعجات، وتطاولت أيدي العساكر بالتعدي والأذية والفتك والقتل لمن ينفردون به من الرعية.

وفي تاني ليلة طلع السيد محمد المحروقي، وطلع صحبته الشيخ محمد الدواخلي نقيب الأشراف وابن الشيخ العروسي وابن الصاوي المتعينون في مشيخة الوقت، وصحبتهم شيخ الغورية وطايفته وقد ابتدوا بهم في إملا ما نُهب لهم من حوانيتهم بعدما حرروها عند السيد محمد المحروقي، وتحليفهم بعد الإملا على صدق دعواهم، وبعد التحليف والمحاققة يتجاوز عن بعضه لحضرة الباشا ثم يثبتون له الباقي، فاستقر لأهل الغورية خاصة ماية وتمانون كيسًا، فدفع لهم تلتيها وأخر لهم التلت، وهو ستون كيسًا يستوفونها فيما بعد، إما عن عُروضهم إن ظهر لهم منها شي، أو من الخزينة.

ولازم الجماعة الطلوع والنزول في كل ليلة لتحرير بواقي المنهوبات، وأيضًا استقر لأهل خان الحمزاوي نحو تلاتة آلاف كيس كذلك، ولطايفة السكرية نحو من سبعين كيسًا خُصمت لهم من تمن السكر الذي يبتاعونه من الباشا.

واستمر الباشا بالقلعة يدير أموره ويجذب قلوب الناس من الرعية وأكابر دولته لما يفعله من بذل المال ورد المنهوبات، حتى ترك الناس يسخطون على العسكر ويترضون

عنه، ولو لم يفعل ذلك وثارت العساكر هذه الثورة ولم يقع منهم نهب ولا تعدي لساعدتهم الرعية، واجتمعت عليهم أهالي القرى وأرباب الإقطاعات لشدة نكايتهم من الباشا بضبط الرزق والالتزامات وقياس الأراضي وقطع المعايش، وذلك من سو تدبير العسكر وسعادة الباشا وحُسن سياسته باستجلابه الخواطر وتملقها بالكلام اللين والتصنع، ويلوم على فعل العسكر ويقول بمسمع الحاضرين: ما ذنب الناس معهم خصوصًا خصامهم معي أو مع الرعية، ها أنا لي منزل بالأزبكية فيه أموال وجواهر وأمتعة وأشيا كثيرة وسراية ابني إسماعيل باشا ببولاق ومنزل الدفتردار، ونحو ذلك، ويتحسبل ويتحوقل ويعمل فكرته ويدبر أمره في أمر العسكر وعظماهم، وينعم عليهم ويعطيهم الأموال الكثيرة والأكياس العديدة لأنفسهم وعساكرهم، وتنتبذ طايفة منهم ويقولون: نحن لم ننهب ولم يحصل لنا كسب فيعطيهم ويفرق فيهم المقادير العظيمة، فأنعم على عابدين بك بألف كيس، ولغيره دون ذلك.

وفي أثنا ذلك أخرج جردة من عسكر الدلاة ليسافروا إلى الديار الحجازية، فبرزوا إلى خارج باب الفتوح حيث المكان المسمى بالشيخ قمر، ونصبوا هناك وطاقهم وخرجت أحمالهم وأثقالهم.

وفي ليلة الخميس ثارت طايفة الطبجية، وخاضوا وضجوا وهم نحو الأربعماية، وطلبوا نفقة فأمر لهم بخمسة وعشرين كيسًا، ففرقت فيهم فسكتوا، وفي يوم الخميس المذكور نزل كتخدا بك وشق من وسط المدينة، ونزل عند جامع الغورية وجلس فيه، ورسم لأهل السوق بفتح حوانيتهم وأن يجلسوا فيها، فامتثلوا وفتحوا الحوانيت وجلسوا على تخوُّف، كل ذلك من عدم الراحة والهدوِّ وتوقُّع المكروه والتطيُّر من العسكر، وتعدِّي السفها منهم في بعض الأحايين والتحزر والاحتراس.

وأما النصارى فإنهم حصنوا مساكنهم ونواحيهم وحاراتهم، وسدوا المنافذ وبنوا كرانك، واستعدوا بالأسلحة والبنادق وأمدهم الباشا بالبارود وآلات الحرب دون المسلمين، حتى إنهم استأذنوا كتخدا بك في سد بعض الحارات النافذة التي يخشون وقوع الضرر منها فمنع من ذلك، وأما النصارى فلم يمنعهم، وقد تقدم ذكر فعله مع رضوان كاشف عندما سد باب داره وفتحه من جهة أخرى، وعزره وضربه وبهدله بوسط الديوان.

وفيه وصل نجيب أفندي وهو قبي كتخدا الباشا عند الدولة إلى بولاق، فركب إليه كتخدا بك وأكابر الدولة والأغا والوالي، وقابلوه ونظموا له موكبًا من بولاق إلى القلعة، ودخل من باب النصر وحضر صحبته خلع برسم الباشا وولده طوسون باشا وسيفان

وشلنجان وهدايا وأحقاق نشوق مجوهرة، وعملوا لوصوله شنكًا ومدافع من القلعة وبولاق.

وفيه ارتحل الدلاة المسافرون إلى الحجاز ودخل حجو بك إلى المدينة بطايفته.

وفي ضحوة ذلك اليوم بعد انفضاض أمر الموكب حصل في الناس زعجة وكرشات، وأغلقوا البوابات والدروب، واتصل هذا الانزعاج بجميع النواحي حتى إلى بولاق ومصر القديمة، ولم يظهر لذلك أصل ولا سبب من الأسباب مطلقًا.

وفي تلك الليلة ألبس الباشا حجو بك خلعة، وتوَّجَهُ بطرطور طويل وجعله أميرًا على طايفة من الدلاة، وانخلع هو وأتباعه من طريقتهم التركية التي كانوا عليها، وهولا الطايفة التي يقال لهم دلاة ينسبون أنفسهم إلى طريقة سيدنا عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — وأكثرهم من نواحي الشام وجبال الدروز والمتاولة وتلك النواحي، يركبون الأكاديش وعلى روسهم الطراطير السود مصنوعة من جلود الغنم الصغار، طول الطرطور نحو ذراع وإذا دخل الكنيف نزعه من على راسه ووضعه على عتبة الكنيف، وما أدري أذلك تعظيم له عن مصاحبته معه في الكنيف، أو الخوف والحذر من سقوطه إن انصدم بأسكفة الباب في صحن المرحاض أو الملاقي؟

وهولا الطايفة مشهورة في دولة العثمانيين بالشجاعة والإقدام في الحروب، ويوجد فيهم من هو على طريقة حميدة، ومنهم دون ذلك، وقليل ما هم، ولكونهم من تمام النظام رتبهم الباشا من أجناسه وأتراكه خلاف الأجناس الغريبة، ومَن بقي مِن أوليك يكون تبعًا لا متبوعًا.

وفي يوم التلات سادس عشره حصل مثل ذلك المتقدم من الانزعاج والكرشات، بل أكثر من المرة الأولى، ورمحت الرامحون وأغلقت الحوانيت، وطلبت الناس الساقين الذين ينقلون الماء من الخليج، وبيعت القربة بعشرة أنصاف فضة والراوية بأربعين، فنزل الأغا وأغات التبديل وأمامهم المناداة بالأمان، وينادون على العساكر أيضًا ومنعهم من حمل البنادق، ويأمرون الناس بالتحفظ واستمر هذا الأمر والارتجاج إلى قبيل العصر، وسكن الحال وكثر مرور السقايين وبيعت القربة بخمسة أنصاف والراوية بخمسة عشر، ولم يظهر لهذه الحركة سبب أيضًا، وتقوَّل الناس بطول نهار ذلك اليوم أصنافًا وأنواعًا من الروايات والأقاويل التي لا أصل لها.

وفي يوم الأربع سابع عشره حضر الشريف راجح من الحجاز، ودخل المدينة وهو راكب على هجين وصحبته خمسة أنفار على هجن أيضًا، معهم أشخاص من الأرنؤد من

أتباع حسن باشا الذي بالحجاز، فطلعوا به إلى القلعة ثم أنزلوه إلى منزل أحمد أغا أخي كتخدا بك.

وفي ليلة الخميس قلد الباشا عبد الله أغا المعروف بصاري جلة، وجعله كبيرًا على طايفة من الينكجرية أيضًا، وجعل على رأسه الطربوش الطويل المرخي على ظهره كما هي عادتهم وأتباعه، وكان من جملة المتهومين بالمخامرة على الباشا.

وفيه برز أمر الباشا لكبار العسكر بركوب جميع عساكرهم الخيول ومنعهم من حمل البنادق، ولا يكون منهم راجل أو حامل للبندقية إلا من كان من أتباع الشرطة والأحكام، مثل الوالي والأغا وأغات التبديل.

ولازم كتخدا بك وأيوب أغا تابع إبراهيم أغا أغات التبديل والوالي المرور بالشوارع والجلوس في مراكز الأسواق، مثل: الغورية والجمالية وباب الحمزاوي وباب زويلة وباب الخرق، وأكثر أتباعهم مفطرون في نهار رمضان ومتجاهرون بذلك من غير احتشام ولا مبالاة بانتهاك حرمة شهر الصوم، ويجلسون على الحوانيت والمساطب يأكلون ويشربون الدخان، ويأتي أحدهم وبيده شبك الدخان فيدني مجمرته لأنف ابن البلد على غفلة منه، وينفخ فيه على سبيل السخرية والهذيان بالصايم، وزادوا في الغي والتعدي وخطف النسا نهارًا وجهارًا حتى اتفق أن شخصًا منهم أدخل امرأة إلى جامع الأشرفية، وزنى بها في المسجد بعد صلاة الظهر في نهار رمضان.

وفي أواخره عملوا حساب أهل سوق مرجوش، فبلغ ذلك أربعماية وخمسين كيسًا قبضوا ثلثيها، وتأخر لهم الثلث، كل ذلك خلاف النقود لهم ولغيرهم مثل تجار الحمزاوي، وهو شي كثير ومبالغ عظيمة، فإن الباشا منع من ذكرها وقال لأي شي يدخرون في حوانيتهم وحواصلهم النقود ولا يتجرون فيها.

واتفق بتاجر من أهل سوق أمير الجيوش أنه ذهب من حاصلة من حواصل الخان تمانية آلاف فرانسة، فلم يذكرها ومات قهرًا، وكذلك ضاع لأهالي خان الحمزاوي من صرر الأموال والنقود والودايع والرهونات والمصاغ والجوهر مما يرهنه النسا على ثمن ما يشترونه من التجار والتفاصيل والمقصبات، أو على ما يتأخر عليهم من الأثمان ما لا يدخل تحت الحصر ويُسْتحيى من ذكره، وضاع لرجل يبيع الفسيخ والبطارخ تجاه الحمزاوي من حانوته أربعة آلاف فرانسة فلم يذكرها، وأمثال ذلك كثير.

وانقضى شهر رمضان والناس في أمر مريج وخوف وانزعاج وتوقع المكروه، ولم ينزل الباشا من القلعة بطول الشهر، وذلك على خلاف عادته، فإنه لا يقدر على الاستقرار

بمكانٍ أيامًا، وطبيعته الحركة حتى في الكلام، وكبار العساكر والسيد محمد المحروقي ومن يصحبه من المشايخ ونقيب الأشراف مستمرون على الطلوع والنزول في كل يوم وليلة، وللمتقيدين بالمنهوبين ديوان خاص، وفرق الباشا كساوي العيد على أربابها.

ولم يظهر في هذه القضية شخص معين، والكثير من العساكر الذين يمشون مع الناس في الأسواق يظهرون الخلاف والسخط، ويظهر منهم التعدي ويخطفون عمايم الناس والنسا جهارًا، ويتوعدون الناس بعودهم في النهب، وكأنما بينهم وبين أهل البلدة عداوة قديمة أو ثارات يخلِّصونها منهم، وفيهم من يظهر التأسف والتندم واللوم على المعتدين ويسفه رأيهم، وهو المحروم الذي غاب عن ذلك.

وبالجملة فكل ذلك تقادير إلهية وقضايا سماوية ونقمة حلت بأهل الإقليم وأهله من كل ناحية، نسأل الله العفو والسلامة وحسن العاقبة.

ومما اتفق أن بعض الناس زاد بهم الوهم، فنقل ماله من حانوته أو حاصله الكاين ببعض الوكايل أو الخانات إلى منزله أو حرز آخر، فسرقها السراق وحانوته أو حاصله لم يصبه ما أصاب غيره، وتعدد نظير ذلك لأشخاص كثيرة، وذلك من فعل أهل البلدة يراقبون بعضهم بعضًا، ويداورونهم في أوقات الغفلات في مثل هذه الحركات، ومنهم من اتهم خدمه وأتباعه وتهددهم وشكاهم إلى حكام الشرطة، ويغرم مالًا على ذلك أيضًا وهم بريون، ولا يفيده إلا ارتكاب الإثم والفضيحة وعداوة الأهل والخدم وزيادة الغرم، وغالب ما بأيدي التجار أموال الشركا والودايع والرهونات ويطالبه أربابها، ومنهم قليل الديانة وذهب من حانوته أشيا وبقي أشيا، فادَّعى ضياع الكل لقوة الشبهة.

واستهل شهر شوال بيوم التلات (سنة ١٢٣٠)

وهو يوم عيد الفطر وكان في غاية البرود والخمول عديم البهجة من كل شي، ولم يظهر فيه من علامات الأعياد إلا فطر الصايمين، ولم يغير أحد ملبوسه، بل ولا فصَّل ثيابًا مطلقًا ولا شيًّا جديدًا، ومن تقدم له ثوب وقطعه وفصله في شعبان تأخر عند الخياط مرهونًا على مصاريفه ولوازمه، لتعطيل جميع الأسباب من بطانة وعقادة وغيرها، حتى إذا مات ميت لم يدرك أهله كفنه إلا بمشقة عظيمة، وكسد في هذا العيد سوق الخياطين وما أشبههم من لوازم الأعياد، ولم يعمل فيه كعك ولا شريك ولا سمك مملح ولا نُقْل، ولم يخرجوا إلى الجبَّانات والمدافن أيضًا كعادتهم، ولا نصبوا خيامًا على المقابر، ولم يحسن في هذه الحادثة إلا امتناع هذه الأمور، وخصوصًا خروج النسا إلى المقابر، فإنه لا

يخرج منهن إلا بعض حرافيشهن على تخوف، ووقع لبعضهن من العسكر ما وقع عند باب النصر والجامع الأحمر.

وفي تالته نزل الباشا من القلعة من باب الجبل، وهو في عدة من عسكر الدلاة والأتراك الخيالة والمشاة وصحبته عابدين بك، وذهب إلى ناحية الآثار فَعيَّد على يوسف باشا المنفصل عن الشام؛ لأنه مقيم هناك لتغيير الهوا بسبب مرضه، ثم عدى إلى الجيزة وبات بها عند صهره محرم بك، ولما أصبح ركب السفاين وانحدر إلى شبرا وبات بقصره، ورجع إلى منزله بالأزبكية ثم طلع إلى القلعة.

وفي يوم التلات ثامنه عمل ديوانًا وجمع المشايخ المتصدرين وخاطبهم بقوله إنه يريد أن يفرج عن حصص الملتزمين، ويترك لهم وساياهم يؤجرونها ويزرعونها لأنفسهم، ويرتب نظامًا لأجل راحة الناس.

وقد أمر الأفندية كتَّاب الروزنامة بتحرير دفاتر، وأمهلهم اثني عشر يومًا يحررون في ظرفها الدفاتر على الوجه المرضي، فأثنوا عليه خيرًا ودعوا له، فقال الشيخ الشنواني: ونرجو من أفندينا أيضًا الإفراج عن الرزق الإحباسية كذلك.

فقال: كذلك ننظر في محاسبات الملتزمين ونحررها على الوجه المرضي أيضًا، ومن أراد منهم أن يتصرف في حصته ويلتزم بخلاص ما عليها من المال الميري لجهة الديوان من الفلاحين بموجب المساحة والقياس، صرَّفناه فيها، وإلا أبقاها على طرفنا ويقبض فايظه الذي يقع عليه التحرير من الخزينة نقدًا وعدًّا، فدعوا له أيضًا وسكتوا.

فقال لهم: تكلموا فإني ما طلبتكم إلا للمشورة معكم، فلم يفتح الله عليهم بكلمة يقولها أحدهم غير الدعا له.

على أن الكلام ضايع؛ لأنها حيل ومخادعة تروج على أهل الغفلات، ويتوصل بها إلى إبراز ما يرومه من المرادات، وعند ذلك انفض المجلس وانطلقت المبشرون على الملتزمين بالبشاير وهو الالتزام لتصرفهم، ويأخذون منهم البقاشيش، مع أن الصورة معلومة والكيفية مجهولة، ومعظم السبب في ذكره ذلك أن معظم حصص الالتزام كان بأيدي العساكر وعظماهم وزوجاتهم، وقد انحرفت طباعهم وتكدرت أمزجتهم بمنعهم عنه وحجزهم عن التصرف، ولم يسهل بهم ذلك، فمنهم من كظم غيظه وفي نفسه ما فيها، ومنهم من لم يطق الكتمان وبارز بالمخالفة والتسلط على من لا جناية عليه؛ فلذلك الباشا أعلن في ديوانه بهذا الكلام بمسمع منهم لتسكن حدتهم وتبرد حرارتهم إلى أن يتم أمر تدبيره معهم.

وفيه وصلت هجانة وأخبار ومكاتبات من الديار الحجازية بوقوع الصلح بين طوسون باشا وعبد الله بن مسعود، الذي تولى بعد موت أبيه كبيرًا على الوهابية، وأن عبد الله المذكور ترك الحروب والقتال وأذعن للطاعة وحقن الدما، وحضر من جماعة الوهابية نحو العشرين نفرًا من الأنفار إلى طوسون باشا، ووصل منهم اثنان إلى مصر.

فكأن الباشا لم يعجبه هذا الصلح، ولم يظهر عليه علامات الرِّضَى بذلك، ولم يحسن نزل الواصلين، ولما اجتمعا به وخاطبهما عاتبهما على المخالفة فاعتذرا وذكرا أن الأمير مسعود المُتَوَفَّى كان فيه عناد وحدة مزاج، وكان يريد الملك وإقامة الدين، وأما ابنه الأمير عبد الله فإنه لين الجانب والعريكة، ويكره سفك الدما على طريقة سلفه الأمير عبد العزيز المرحوم، فإنه كان مسالمًا للدولة، حتى إن المرحوم الوزير يوسف باشا حين كان بالمدينة كان بينه وبينه غاية الصداقة، ولم يقع بينهما منازعة ولا مخالفة في شي، ولم يحصل التفاقم والخلاف إلا في أيام الأمير مسعود.

ومعظم الأمر للشريف غالب، بخلاف الأمير عبد الله فإنه أحسن السير وترك الخلاف، وأمَّن الطرق والسبل للحجاج والمسافرين ونحو ذلك من الكلمات والعبارات المستحسنات.

وانقضى المجلس وانصرفا إلى المحل الذي أُمِرا بالنزول فيه، ومعهما بعض أتراك ملازمون لصحبتهما مع أتباعهما في الركوب والذهاب والإياب، فإنه أطلق لهما الإذن إلى أي محل أراداه، فكانا يركبان ويمران بالشوارع بأتباعهما ومن يصحبهما، ويتفرجان على البلدة وأهلها، ودخلا إلى الجامع الأزهر في وقت لم يكن به أحد من المتصدرين للإقرا والتدريس، وسألوا عن أهل مذهب الإمام أحمد بن حنبل — رضي الله عنه — وعن الكتب الفقهية المصنفة في مذهبه وأقواله ليشتروها، فلم يجدا فردًا من أهل مذهبه، وانقرضوا من أرض مصر بالكلية، واشتريا نسخًا من كتب التفسير والحديث مثل الخازن والكشَّاف والسنن على مذاهب الفقهاء للبَغَوي، والكتب الستة المجمع على صحتها، وغير ذلك.

وقد اجتمعت بهما مرتين فوجدت منهما أُنْسًا وطلاقة لسان واطلاعًا وتضلعًا ومعرفة بالأخبار والنوادر، مع التواضع وتهذيب الأخلاق وحسن الأدب في الخطاب والتفقه في الدين، واستحضار الفروع الفقهية واختلاف المذاهب فيها ما يفوق الوصف، واسم أحدهما عبد الله والآخر عبد العزيز وهو الأكبر حسًّا ومعنًى.

وفي يوم السبت تاسع عشره خرجوا بالمحمل إلى الريدانية خارج باب النصر، وشقوا به من وسط المدينة، وأميرُ الركب شخص من الدلاة يسمى أوزن علي وفوق راسه طرطور الدلاتية، ومعظم الموكب من عساكر الدلاة وعلى روسهم الطراطير السود بذاتهم المستبشعة، وقد عَمَّ الأقاليم المسخ في كل شي، فقد تغص الطبيعة وتتكدر النفس إذا شاهدت ذلك أو سمعت به، وقد كانت نظارة الموكب السالفة في أيام المصريين ونظامها وحسنها وترتيبها وفخامتها وجمالها وزينتها التي لم يكن لها نظير في الربع المعمور، ويُضرب بها المثل في الدنيا كما قال قايلهم فيها:

مصر السعيدة ما لها من مثيل فيها تلاتة من الهنا والسرور
مواكب السلطان وبحر الوفا ومحمل الهادي نهار يدور

فقد فقدت هذه التلاتة في جملة المفقودات.

وفي تالت عشرينه وصل قابجي وعلى يده تقرير ولاية مصر لمحمد علي باشا على السنة الجديدة، فعملوا لذلك الواصل موكبًا من بولاق إلى القلعة، وضربوا مدافع وشنكًا وبنادق.

واستهل شهر ذي القعدة الحرام بيوم الأربع (سنة ١٢٣٠)

في سادس عشره سافر الباشا إلى إسكندرية، وأخذ صحبته عابدين بك وإسماعيل باشا وولده وغيرهما من كبراهم وعظماهم، وسافر أيضًا نجيب أفندي وسليمان أغا وكيل دار السعادة سابقًا تابع صالح بك المصرلي المحمدي إلى دار السلطنة، وأصحب معهما الباشا إلى الدولة وأكابرهم الهدايا من الخيول المهارى والسروج المكللة بالذهب واللؤلؤ والمخيش، وتعابي الأقمشة الهندية المتنوعة من الكشمير والمقصبات والتحف، ومن الذهب المضروب السكة أربعة قناطير، ومن الفضة الثقيلة في الوزن والعيار عدة قناطير، ومن السكر المكرر مرارًا وأنواع الشراب في القدور الصيني وغير ذلك.

وفيه وردت الأخبار بوصول طوسون باشا إلى الطور، فهرعت أكابرهم وأعيانهم إلى ملاقاته وأخذوا في الاهتمام وإحضار الهدايا والتقادم، وركبت الخوندات والنسا والستات أفواجًا يطلعن إلى القلعة ليهنين والدته بقدومه.

وفي غايته وصل طوسون باشا إلى السويس فضربوا مدافع إعلامًا بقدومه، وحضر نجيب أفندي راجعًا من إسكندرية لأجل ملاقاته؛ لأنه قبي كتخداه اليوم أيضًا عند الدولة كما هو لوالده.

واستهل شهر ذي الحجة الحرام بيوم الجمعة (سنة ١٢٣٠)

في رابعه يوم الاتنين نودي بزينة الشارع الأعظم لدخول طوسون باشا سرورًا بقدومه، فلما أصبح يوم التلات خامسه احتفل الناس بزينة الحوانيت بالشارع وعملوا له موكبًا حافلًا، ودخل من باب النصر وعلى راسه الطلخان وشعار الوزارة، وطلع إلى القلعة وضربوا في ذلك اليوم مدافع كثيرة وشنكًا وحراقات.

وفي ليلة الجمعة خامس عشره سافر طوسون باشا المذكور إلى إسكندرية ليراه أبوه ويسلم هو عليه، وليرى هو ولدًا له وُلد في غيبته يسمى عباس بك أصحبه معه جده مع حاضنته، وسنه دون السنتين، يقال: إن جده قصد إرساله إلى دار السلطنة فلم يسهل بأبيه ذلك وشق عليه فارقه، وخصوصًا كونه لم يرَه، وسافر صحبة طوسون باشا نجيب أفندي عائدًا إلى إسكندرية.

وفي يوم السبت تالت عشرينه حضر طوسون باشا إلى مصر راجعًا من إسكندرية في تطريدة ومعه ولده، فكانت مدة غيبته ذهابًا وإيابًا تمانية أيام، فطلع إلى القلعة وصار ينزل إلى بستان بطريق بولاق ظاهر التبانة عمَّره كتخدا بك، وبنى به قصرًا فيقيم به غالب الأيام التي أقامها بمصر.

وانقضت السنة وما تجدد فيها من استمرار المبتدعات والمكوس والتحكير، وإهمال السوقة والمتسببين حتى عَمَّ غلو الأسعار في كل شي، حتى بلغ سعْر كل صنف عشرة أمثال سعره في الأيام الخالية مع الحجر على الإيراد وأسباب المعاش، فلا يهنأ بعيش في الجملة إلا من كان مكَّاسًا أو في خدمة من خدم الدولة مع كونه على خطر، فإنه وقع لكثير ممن تقدم في منصب أو خدمة أنه حوسب وأهين وألزم بما رافعوه فيه، وقد استهلكه في نفقات نفسه وحواشيه، فباع ما يملكه واستدان وأصبح مبئوسًا مديونًا، وصارت المعايش ضَنْكًا، وخصوصًا الواقع في اختلاف المعاملات والنقود والزيادة في صرفها وأسعارها، واحتجاج الباعة والتجار والمتسببين بذلك.

ولما حدث عليها من مال المكس مع طمعهم أيضًا، وخصوصًا سَفَلة الأسواق وبياعي الخضارات والجزارين والزياتين، فإنهم يدفعون ما هو مرتب عليهم للمحتسب مياومة ومشاهرة، ويخلصون أضعافه من الناس، ولا رادع لهم بل يسعِّرون لأنفسهم، حتى إن البطيخ في أوان كثرته تباع الواحدة التي كانت تساوي نصفين بعشرين وتلاتين، والرطل من العنب الشرقاوي الذي كان يباع في السابق بنصف واحد، يبيعونه يومًا بعشرة ويومًا باثني عشر ويومًا بثمانية، وقس على ذلك الخوخ والبرقوق والمشمش.

وأما الزبيب والتين واللوز والبندق والجوز والأشيا التي يقال لها الياميش، التي تجلب من بلاد الروم، فبلغت الغاية في الثمن، بل قد لا توجد في أكثر الأوقات.

وكذلك ما يجلب من الشام مثل الملبن والقمر الدين والمشمش الحموي والعناب، وكذلك الفستق والصنوبر وغير ذلك مما يطول شرحه ويزداد بطول الزمان قبحه.

مات في هذه السنة العلامة الأوحد والفهامة الأمجد محقق عصره ووحيد دهره الجامع لأشتات العلوم والمنفرد بتحقيق المنطوق والمفهوم، بقية الفصحا والفضلا المتقدمين والمتميز عن المتأخرين، الشيخ محمد بن أحمد بن عرفة الدسوقي المالكي، وُلد ببلدة دسوق من قرى مصر، وحضر إلى مصر وحفظ القرآن وجوَّده على الشيخ محمد المنير، ولازم حضور دروس الشيخ علي الصعيدي والشيخ الدردير، وتلقَّى الكثير من المعقولات عن الشيخ محمد الجناحي الشهير الشافعي، وهو مالكي، ولازم الوالد حسن الجبرتي مدة طويلة، وتلقى عنه بواسطة الشيخ محمد بن إسماعيل النفراوي علم الحكمة والهيئة والهندسة وفن التوقيت، وحضر عليه أيضًا في فقه الحنفية وفي المطول وغيره برواق الجبرت بالأزهر، وتصدر للإقرا والتدريس وإفادة الطلبة، وكان فريدًا في تسهيل المعاني وتبيين المباني، يفك كل مشكل بواضح تقريره، ويفتح كل مغلق برايق تحريره، ودرسه مجمع أذكيا الطلاب والمهرة من ذوي الأفهام والألباب، مع لين جانب وديانة وحسن خلق وتواضع وعدم تصنع وإطراح تكلف، جاريًا على سجيته لا يرتكب ما يتكلفه غيره من التعاظم وفخامة الألفاظ؛ ولهذا كثر الآخذون عليه والمترددون إليه.

وله تآليفات واضحة العبارات سهلة المأخذ ملتزمة بتوضيح المشكل، فمن تآليفه حاشية على مختصر السعد على التلخيص، وحاشية على شرح الشيخ الدردير على سيدي خليل في فقه المالكية، وحاشية على شرح الجلال المحلي على البُردة، وحاشية على الكبرى للإمام السنوسي، وحاشية على شرحه للصغرى، وحاشية على شرح الرسالة الوضعية، هذا ما عُني بجمعه وكتابته وبقي مسودات لم يتيسر له جمعها.

ولم يزل على حالته في الإفادة والإلقا والإفتا، وخطه حسن، وخلقه أحسن، إلى أن تعلل، وتُوُفِّيَ يوم الأربع الحادي والعشرين من شهر ربيع الثاني، وخرجوا بجنازته من درب الدليل، وصُلِّي عليه بالأزهر في مشهد حافل، ودُفن بتربة المجاورين بالمدفن الذي بداخل المحل الذي يسمى بالطاولية، وقام بكلفة تجهيزه وتكفينه ومصاريف ومدفنه الجناب المكرم السيد محمد المحروقي، وكذلك مصاريف الميتم بمنزله، وأرسل من قيَّده لذلك من أتباعه بإدارة المطبخ ولوازمه من الأغنام والسمن والأرز والعسل والحطب والفحم والقهوة وجميع الاحتياجات للمقرين، ومن يأتي لتعزية أولاده، جزاه الله خيرًا.

واستمر إجراه لذلك في التلات جمع المعتادة بالمنزل وما يعمل في صبح يوم الجمعة بالمدفن من الكعك والشريك الذي يفرق على الفقرا والحاضرين والتُّربيَّة والخدمة، وقد رثاه أمثل من عنه أخذ وأكمل، من له تتلمذ صاحبنا العلامة وصديقنا الفهامة المنفرد الآن بالعلوم الحكمية، والمشار إليه في العلوم الأدبية، صاحب الإنشاء البديع، والنظم الذي هو كزهر الربيع، الشيخ حسن العطار — حفظه الله من الأغيار — بقوله شعرًا:

أحاديثُ دهر قد ألمَّ فأوْجعا ... وحلَّ بنادي جمْعِنا فتصدَّعا
لقد صال فينا البَينُ أعظمَ صولة ... فلم يخل مِن وقْع المصيبة مَوضِعا
وجاءت خُطوب الدهر تَتْرَى فكلما ... مضى حادثٌ يعقُبْه آخرُ مسرعا
وحلَّ بنا ما لم نكُن في حسابه ... من الدهر ما أبكى العيونَ وأفزعا
خطوبُ زمانٍ لو تمادى أقلُّها ... بشامخ رَضْوَى أو ثَبِير تضعضعا
وأصبح شأنُ الناس ما بينَ عايد ... مريضًا وثانٍ للحبيب مشيِّعا
لقد كان روضُ العيش بالأمس يانعا ... فأضحى هشيمًا ظلُّه متقشِّعا
أيحسنُ أن لا يبذل الشخص مهجةً ... ويبكي دمًا إن أفْنَتِ العينُ أدمُعا؟
وقد سار بالأحبابِ في حينِ غفلةٍ ... سريرُ المنايا عاجلًا مُتسرِّعا
وفي كل يوم روعةٌ بعد روعةٍ ... فَلِلَّهِ ما قاسى الفؤاد ورُوِّعا
عزاءً بني الدنيا بفقد أَيِمَّة ... لكأسِ مريرِ الموت كلٌّ تجرَّعا
يمينًا لقد جلَّ المصاب بشيخنا الدْ ... دُسوقي وعاد القلبُ بالهَمِّ مُتْرعا
وشابتْ قلوبٌ لا مفارق عندما ... تنكَّرَتِ الأسماعُ صوتَ الذي نعَى
فلِلناس عذرٌ في البكاءِ وللأسى ... عليه، وأمَّا في السواء فتجْزعا
وكيف وقد ماتتْ علومٌ بفقدهِ ... لقد كان فيها جهبذيًّا سَميذَعا
فمن بَعْدَه يجلو دُجنَّة شبهةٍ ... ويكشفُ عن سِتر الدقائق مُقنعا؟
وإنْ ذو اجتهادٍ قد تعثَّر فهمُه ... فيا ليت شعري من يقولُ له لعا
يقرر في فنِّ البيان بمنطق ... بديع معانيه يتوِّج مسمعا
وسار مسيرَ الشمس غر علومه ... ففي كل أُفْق أشرقتْ فيه مطلعا
وأبقى بتأليفاته بيننا هُدى ... بها يسلك الطلاب للحق مَهْيعا
وحلَّ بتحريراته كلَّ مُشكِل ... فلم يبقَ للإشكال في ذاك مطمعا
فأي كتابٍ لم يفكَّ ختامه ... إذا ما سواه من تعاصيه ضيَّعا؟

ومن يبتغي تَعْداد حُسْن خصاله فليس ملومًا إن أطال وأشبعا
فلَلصدق عونٌ للمقال فمن يقُل أصاب مكانُ القول فيه مُوَسعا
تواضع للطلاب فانتفعوا به على أنه بالحِلم زاد ترفُّعا
وكان حليمًا واسع الصدر ماجدًا تقيًّا نقيًّا زاهدًا مُتورعا
سعى في اكتساب الحمد طول حياته ولم نرَه في غير ذلك قد سعَى
ولم تُلهه الدنيا بزخرفِ صورةٍ عن العلم كيما أن تَغُرَّ وتَخْدَعا
لقد صرف الأوقاتَ في العلم والتُّقى فما إن لها يا صاح أمسِ مضيعا
فقدناه لكن نفعُه الدهرَ دايمٌ وما مات من أبقى علومًا لمن وعَى
فَجُوزِيَ بالحسنى وتُوِّج بالرِّضَى وقُوبِلَ بالإكرام ممن له دعا

ومات الأستاذ الفريد واللوزعي المجيد، الإمام العلامة والنحرير الفهامة، الفقيه النحوي الأصولي الجدلي المنطقي، الشيخ محمد المهدي الحفني، ووالده من الأقباط، وأسلم هو صغيرًا دون البلوغ على يد الشيخ الحفني، وحلت عليه أنظاره وأشرقت عليه أنواره، وفارق أهله وتبرأ منهم، وحضنه الشيخ ورباه وأحبه، واستمر بمنزله مع أولاده واعتنى بشأنه، وقرا القرآن، ولما ترعرع اشتغل بطلب العلم وحفظ متن أبي شجاع وألفية النحو والمتون، ولازم دروس الشيخ وأخيه الشيخ يوسف وغيرهما من أشياخ الوقت مثل: الشيخ العدوي والشيخ عطية الأجهوري والشيخ الدردير والبيلي والجمل والخِرْشي وعبد الرحمن المقري والشرقاوي وغيرهم، واجتهد في التحصيل ليلًا ونهارًا ومهَر وأنجب، ولازم في غالب مجالس الذكر عند الشيخ الدردير بعد وفاة الشيخ الحفني، وتصدر للتدريس في سنة تسعين وماية وألف.

ولما مات الشيخ محمد الهلباوي سنة اتنين وتسعين جلس مكانه بالأزهر، وقرا شرح الألفية لابن عقيل، ولازم الإلقا وتقرير الدروس مع الفصاحة وحسن البيان والتفهيم وسلامة التعبير، وإيضاح العبارات وتحقيق المشكلات، ونما أمرُه واشتُهر ذكره وبَعُد صيتُه.

ولم يزل أمره ينمو واسمه يسمو مع حسْن السَّمْت، ووجاهة الطلعة وجمال الهيئة وبشاشة الوجه، وطلاقة اللسان وسرعة الجواب واستحضار الصواب في ترداد الخطاب ومسايرة الأصحاب.

وصاهر الشيخ محمد الحريري الحنفي على ابنته، وأقبلت عليه الدنيا وتداخل في الأكابر ونال منهم حظًّا وافرًا بحسن معاشرته وحلاوة ألفاظه وتنميق كلماته، ويقضي

أشغاله منهم ومن حواشيهم وحريماتهم، ويخاطب كلًّا بما يليق به ويناسبه، واتحد إسماعيل بك كتخدا حسن باشا الجزايرلي، وعاشره وأكثر من الترداد عليه.

فلما أتته ولاية مصر واستقر بالقلعة واظب على الطلوع والنزول إلى القلعة ويبيت عنده غالب الليالي، وأنعم عليه بالخلع والعطايا والكساوي، ورتب له وظايف في الضربخانة والسلخانة والجوالي.

ووقع في ولايته الطاعون الذي أفنى غالب أُمرا مصر وأهلها، وذلك سنة خمس ومايتين وألف، فاختص بما أحبه مما انحل عن الموتى من إقطاعات ورزق وغيرها، وزادت ثروته ورغبته وسعيه في أسباب تحصيل الدنيا، وعانى الشركات والمتاجر في كثير من الأشيا مثل الكتان والقطن والأرز وغير ذلك من الأصناف.

والتزم بعده حصص بالبحيرة مثل شابور وخلافها بالمنوفية والجيزة والغربية، وابتنى دارًا عظيمة بالأزبكية بناحية الرويعي بما يقابلها من الجهة الأخرى عند الساباط.

ولما حضرت الفرنساوية إلى الديار المصرية وخافهم الناس وخرج الكثير من الأعيان وغيرهم هاربًا من مصر، تأخر المترجم عن الخروج، ولم ينقبض كغيره عن المداخلة فيهم، بل اجتمع بهم وواصلهم وانضم إليهم وسايرهم ولاطفهم في أغراضهم، وأحبوه وأكرموه وقبلوا شفاعته ووثقوا بقوله، فكان هو المشار إليه في دولتهم مدة إقامتهم بمصر، والواسطة العظمى بينهم وبين الناس في قضاياهم وحوايجهم، وأوراقه وأوامره نافذة عند ولاة أعمالهم، حتى لقب عندهم وعند الناس بكاتم السر.

ولما رتبوا الديوان الذي رتبوه لإجراء الأحكام بين المسلمين في قضاياهم ودعاويهم، كان هو المشار إليه فيه، وخَدَمة الديوان الموظفين فيه تحت أوامره، وإذا ركب أو مشى يمشون حوله وأمامه وبأيديهم العصي يوسعون له الطريق، وراج أمره في أيامهم جدًّا، وزاد إيراده وجمعه واحتوى بلادًا وجهات وأرزاقًا، وأقاموا وكيلًا عنهم في أشيا كثيرة وبلاد وقرى يُجبى إليه خراجها ويصرف عنها ما يصرفه، ويأتيه الفلاحون منها ومن غيرها بالهدايا والأغنام والسمن والعسل وما جرت به العادة، ويتقدمون إليه بدعاويهم وشكاويهم ويفعل بهم ما كان يفعله أرباب الالتزامات من الحبس والضرب وأخذ المصالح.

وصار له أعوان وأتباع وخدم من وُجها الناس ومَن دونهم، يرسل منهم لجبي الأموال من القرى وفي مراسلاته في القضايا العامة، ويبعث الأمان للفارين والهاربين من الفرنسيس الراحلين إلى بلاد الشام والمختفين بالقرى من الأجناد وغيرهم، فيرسل إليهم

أوراقًا بالعود إلى أوطانهم إما باستدعاهم وطلبهم ذلك، وإما من باب الشفقة والمعروف منه عليهم، ويحمي دورهم وحريمهم ويمانع عنهم في غيابهم، ويكون له المنة العظيمة التي يستحق بها الجوايز الجزيلة.

وبالجملة فكان بوجوده وتصدره في تلك الأيام النفع العام، سد بعقله ثقوبًا واسعة الخروق وداوى برأيه جروحًا وفتوقًا، لا سيما أيام الهيازع والخصومات والتنازع، وما يكدر طباع الفرنساوية من مخارق الرعية، فيتلاقاه بمراهم كلماته ويسكن حدتهم بملاطفاته.

ولما مضت أيامهم وتنكست أعلامهم وارتحلوا عن الأقطار المصرية ووردت الدولة العثمانية، كان المترجم أعظم المتصدرين في مقابلتهم، وأوجه الوجها في مخاطبتهم ومكالمتهم، ولم يتأخر عن حالته في ظهوره، ولازمهم في عشيانه وبكوره، وبهرهم بتحيله واحتياله، واسترهبهم بسحره وحباله، واتحد بشريف أفندي الدفتردار وواظبه الليل والنهار، وتمم معه أغراضه في جميع تعلقاته وتقرير وظايفه والتزاماته ومسموحاته، واستجد غير ذلك مما ينتقيه من الديوان وكل ذلك من غير مقابلة ولا حلوان.

وتزوج بعدة زوجات ورُزق أولادًا ذكورًا وإناثًا، فمنهم الشيخ محمد أمين وهو من ابنة الشيخ الحريري، وتمذهب حنفيًّا على مذهب جده.

وآخر يسمى محمد تقي الدين تُوُفِّيَ في حياة والده من نحو خمس عشرة سنة أو أكثر عن نحو عشرين سنة، وكان مالكيًّا بإشارة أبيه.

والشيخ عبد الهادي، وتُوُفِّيَ بعد أبيه، وكان شافعي المذهب، وعقدوا له درسًا بعد موت أبيه، فلم تطل أيامه.

وزوَّج أولاده وبناته وعمل لهم مهمات وأفراحًا، استجلب بها هدايا من أعيان المسلمين والنصارى والنسا الأكابر والتجار وغيرهم.

ثم احترقت داره التي أنشاها بالأزبكية في حرابة الفرنساوية مع العثمانيين والمصريين عند مجي الوزير المرة الأولى، فشرع في بنا دار عند باب الشعرية ولم يتمها، بل تركها وأهملها وهي منهدمة، ولم يُحدث بها شيًّا من الأبنية.

ثم إنه تزوج بابنة الشيخ أحمد البشاري، وكانت تحت بعض الأجناد في دار جهة التبانة بالقرب من سوق السلاح وسويقة العزى، يذهب إليها في بعض الأحيان.

واشترى دارًا عظيمة بناحية الموسكي، وكانت لبعض عَتْقَى بقايا الأمرا الأقدمين، وهي دار واسعة الأرجا ذات رحبتين متسعتين، والرحبة الخارجة التي يسلك إليها باب

الزقاق الكبير على ظهر قنطرة الخليج التي تُعرف الآن بقنطرة الحفناوي لقربها من داره، وبهذه الدار مجالس وقيعان متسعة، ومن جملتها قاعة عظيمة ذات تلات لواوين مفروشة أرضها وحيطانها بأنواع الرخام الملون والقيشاني، مطلة على بستان عظيم مغروس بأنواع الأشجار، وهو أيضًا من حقوق الدار، وتنتهي حدود هذه الدار إلى حارة المناصرة وإلى كوم الشيخ سلامة وحارة الإفرنج من الناحية الأخرى.

ولما عمل بزارها وعقد عقد شراها من أصحابها، ودفع لهم بعض دراهم يقال لها «العربون»، وكتب حجة المشتري وسكنها، أخذ يوعدهم بدفع الثمن، ويماطلهم كعادته في دفع الحقوق، ثم تركهم وسافر إلى دمياط، وجعل يطوف البلاد التي تحت التزامه وغيرها مثل المحلة الكبيرة وطندتا وإسكندرية، وغاب نحو الخمس سنوات، ومات في غيبته بعض أصحاب الدار التي اشتراها منه، وبقي من مستحقيها امرأة، فكانت تتظلم وتشتكي وتراسله فأعرضت أمرها لكتخدا بك والباشا، إلى أن حضر إلى مصر وقبضت منه ما أمكنها من ثمن استحقاقها.

وبنى ابنه المسمى بأمين بقطعة من أرضها دارًا جهة حارة المناصرة، وهي مطلة على البستان ومختلطة به ونافذة إليه، وجعل لها بابًا من المناصرة ينفذ منه إلى الأزبكية وقنطرة الأمير حسين، أنفق عليها جملة كبيرة من المال بحيث إن المرخمين أقاموا في شغلهم نحو أربع سنوات خلاف من عداهم من أرباب الأشغال وتجهيز الأدوات من الأخشاب وغيرها من أنواع الاحتياجات. ويتعاطى ابنه المذكور التجارة أيضًا والشركة في كثير من الأصناف خلاف الإيراد الواسع الخاص به.

ولما رجع المترجم من سرحته إلى مصر أقام مصاحبًا ليسير الخمول، وتقيد لإلقا الدروس بالأزهر أشهرًا، ويعاني مع ذلك الاشتغال والتولع بعلم ومطالعة ما صُنِّف فيها، ويدبر مع بعض أصحابه في دورهم بإغراه من مالهم إلى أن بدت الوحشة بين الباشا والسيد عمر مكرم، فتولى كِبْر السعي عليه سِرًّا هو وباقي الجماعة حَسَدًا وطمعًا ليخلص لهم الأمر دونه حتى أوقعوا به كما تقدم ذكر ذلك في حوادث سنة أربع وعشرين، وفي أثنا هذه الحادثة طلب من الباشا إذنًا في قبض استحقاقه من ثمن غلال الأنبار في مدة غيابه، فأمر بدفعها له من الخزينة نقدًا بالثمن الذي قدره لنفسه، وهو خمسة وعشرون كيسًا.

وفي اليوم الذي خرج فيه السيد عمر مكرم، أنعم عليه الباشا أيضًا بنظر وقف سنان باشا ونظر ضريح الشافعي بعرضه له بطلب النظرين، وكانا تحت يد السيد عمر يتحصل منهما مال كثير، وعند ذلك رجع إلى حالته الأولى التي كان قد انقبض عن

بعضها من كثرة السعي والترداد على الباشا وأكابر دولته في القضايا والشفاعات وأمور الالتزام والفايظ والرزق والأطيان وما يتعلق به في بلاد الصعيد والفيوم، ومحاسبة الشركا، وازدحمت عليه الناس وشرع يقرا بالأزهر، فإذا حضر اجتمع حول درسه طابق من الناس، فإذا فرغ تكبكب عليه أرباب الدعاوى والفتاوى، فيكتب لهذا ويوعد ذلك ويسوِّف آخر، ويذهب مع مَن يريد أن يذهب معه لحاجته، فيقطع نهاره وليله طوافًا وسعيًا وذهابًا وإيابًا لا يستقر بمكان، ولا يعثر به صاحب حاجة إلا نادرًا، ولا يبيت من بيوته إلا في الجمعة مرة أو مرتين، ويتفق مجيه إلى داره بعد العشا الأخيرة، وغالب لياليه في غيرها.

وإذا غاب لا يعلم طريقه إلا بعض أتباعه، فيذهب إلى بولاق مثلًا فيقيم بها عدة أيام وليالي، ينتقل في الأماكن عند شركاه ومن يعاملهم من الأمنا والخصاصين والأبزار وغيرهم، أو يذهب إلى بلدة نهية بالجيزة أو غيرها فيقيم أيامًا أيضًا، وهكذا دأبه قديمًا، وإذا قيل له في ذلك قال: أنا بيتي ظَهر بغلتي.

وعلى ما كان فيه من الغنى وكثرة الإيراد والمصرف تراه مفقود اللذة عديم الراحة البدنية والنفسية، وإنما ذلك لأولاده والمقيمين أيضًا بداره، ويتفق أنه يذبح بداره التلاتة أغنام لضيوف النسا عند الحريم، ولا يأكل منها شيًّا بل يتركها ويذهب إلى بعض أغراضه ببولاق مثلًا، ويتغذى بالجبن الحلوم أو الفسيخ أو البطارخ، ويبيت بأي مكان ولو على نخ حصير في أي محل كان.

ولما مات الشيخ سلميان الفيومي عن زوجته المعروفة بالسحراوية، وكانت من نسا القدما مشهورة بالغنى وكثرة الإيراد تزوجت بالشيخ الفيومي حماية لمالها، وكانت طاعنة في السن فاشترت له جارية بيضاء، وأعتقتها وزوَّجتها له، ولم يدخل بها ومات عنهما وعن زوجته الأخرى، ثم ماتت السحراوية المذكورة لا عن وارث في غضون طنطنة المترجم، فوضع يده على دارها ومالها وجواريها وتعلقاتها من عقار والتزام وغيره، وزوج الجارية لابنه عبد الهادي، وكأنها سقطت بمالها ونوالها في بير عميق.

ولما جرد الباشا وعين العساكر إلى الحجاز مع ابنه طوسون باشا، اختار أن يصحب معه من أهل العلم فكان المتعين لذلك المترجم مع السيد أحمد الطهطاوي، وأنعم عليه بأكياس وترحيله للنفقة، فلما وقعت الهزيمة بالصفرا رجع مع الراجعين.

ولما تُوُفِّيَ الشيخ الشرقاوي تعين المترجم لمشيخة الجامع ثم انتقضت عليه، وقلدوها الشيخ الشنواني كما تقدم ذكر ذلك، فلم يظهر إلا الانشراح وعدم التأثر من الانكساف، وحضر إليه الشيخ الشنواني فخلع عليه فروة سمور خاص، وزاد في إكرامه.

وبآخره تملك دارًا بالكعكيين على شريطته في مشترواته، وهي التي كانت سكن الشيخ الحفني قبل سكناه بالموسكي، ثم تملكها الشيخ المرحوم عبد الرحمن العريشي، ثم ابن الخنفري ثم لا أدرى لمن آلت بعد ذلك، فلما أخذها شرع في تجديدها وتعميرها وفتح بها مرمة واسعة وأحضر أخشابًا كثيرة وأحجارًا وبلاطًا ورخامًا. وبجانبها زاوية قديمة بها مدافن فهدمها وأدخلها في الدار، وأخرج عظام الموتى من قبورهم ودفنهم بتربة المجاورين كما أخبرني عن ذلك من لفظه.

وعمل مكان الزاوية قاعة لطيفة بخارجها فسحة يتوصل إليها من حوش الدار، وجعل مكان القبور مخابي وعليها طوابق، وأسكن في تلك الدار إحدى زوجاته، وهي التي كانت الشيخ الدنجيهي الدمياطي، تزوج بها بدمياط، وأحضرها إلى مصر وأسكنها بهذه الدار ومعها ضرتها التي كانت من شابور.

وأكثر من المبيت فيها مع استمرار العمارة، فلما كان في آخر المحرم توعك أيامًا، ثم عُوفِي وذهب إلى الحمام وهناه الناس بالعافية ومشى إلى جيرانه يتحدث عندهم كعادته مثل الخواجا سيدي محمد بن الحاج طاهر، والسيد صالح الفيومي، فخرج ليلة الجمعة التاني من شهر صفر وذهب عند عثمان بن سلامة السناري، فتحدث عندهم حصة من الليل وتفكهوا، ثم قام ذاهبًا إلى داره ماشيًا على أقدامه وصحبته صاحبنا الشيخ خليل الصفتي يحادثه حتى وصل إلى داره المذكورة، وانصرف الشيخ خليل إلى داره أيضًا، ومضى نحو ساعة وإذا بتابع الشيخ المهدي يناديه ويطلبه إليه، فقام في الحين ودخل إليه فوجده راقدًا في المكان الذي ينبش منه القبور فجس يده، فقال له النسا: إنه ميت، وأخبرت زوجته أنه جامعها ثم استلقى وفارق الدنيا.

وأرسلوا إلى أولاده فحضروا وحملوه في تابوت إلى الدار الكبيرة بالموسكي ليلًا، وشاع موته، وجُهِّزَ وصُلِّي عليه بالأزهر في مشهد حافل جدًّا، ودُفن عند الشيخ الحفني بجانب القبر «فسبحان الحي الذي لا يموت» فرحم الله عبدًا زهد في الفاني وعمل لما بعده، ونظر إلى هذه الدار بعين الاعتبار، نسأله التوفيق والقناعة وحسن الخاتمة، عن نحو خمس وسبعين سنة.

وحاصل أمر المرحوم المترجم أنه كان من فحول العلما يدرس الكتب الصعاب في المعقول والمنقول بالتحقيق والتدقيق ويقررها بالحاصل، وانتفع عليه الكثير من الطلبة، منهم الآن مدرسون مشتهَرون ومميزون بين نُظراهم من أهل العصر، ولو استمر على طريقه في الدنيا لكان نادرة عصره، وأدَّاه ذلك إلى قطع الاشتغال، وإذا شرع في الإقرا

فلا يتم الكتاب في الغالب، ويحضر الدرس في الجمعة يومًا أو يومين ويهمل كذلك، ولم يصنف تأليفًا ولا رسالة في فن من الفنون مع تأهله لذلك، ولم يعانِ الشعر والنظم، ونثره في المراسلات ونحوها متوسط في بعض القوافي السهلة، وتقيد بقراة الحكم لابن عطا الله بعد العصر في رمضان التلات سنين الأخيرة.

ومات الأستاذ العلامة والنحرير الفهامة الفقيه النبيه المهذب المتواضع، الشيخ مصطفى بن محمد بن يوسف بن عبد الرحمن الشهير بالصفدي القلعاوي الشافعي، وُلد في شهر ربيع الأول من سنة ثمانٍ وخمسين وماية وألف، وتفقه على الشيخ الملوي والسحيمي والبراوي والحفني، ولازم شيخنا الشيخ أحمد العروسي، وانتفع عليه وأذن له في الفتيا عن لسانه، وجمع من تقريراته واقتطف من تحقيقاته.

وألَّف وصنَّف وكتَب حاشية على ابن قاسم الغزي على أبي شجاع في الفقه، وحاشية على شرح المطول للسعد التفتازاني على التخليص، وشرح شرح السمرقندي على الرسالة العضدية في علم الوضع، وله منظومة في آداب البحث وشرحها، ومنظومة في أحكام الجن وشرحها، ومنظومة لمتن التهذيب في المنطق وشرحها، وديوان شعر سماه إتحاف الناظرين في مدح سيد المرسلين، وعدة من الرسايل في معضلات المسايل وغير ذلك.

وكان سكنه بقلعة الجبل ويأتي في كل يوم إلى الأزهر للإقرا والإفادة، فلما أمر الباشا سكان القلعة بإخلاها والنزول منها إلى المدينة، فنزلوا إلى المدينة وتركوا دورهم وأوطانهم، نزل المترجم مع من نزل، وسكن بحارة أمير الجيوش جهة باب الشعرية، ولم يزل هناك حتى تمرض أيامًا، وتُوُفِّيَ ليلة السبت سابع عشري شهر رمضان، وصُلِّي عليه بالأزهر ودُفن بزاوية الشيخ سراج الدين البلقيني بحارة بين السيارج — رحمه الله تعالى.

فإنه كان من أحسن من رأينا سمتًا وعلمًا وصلاحًا وتواضعًا وانكسارًا وانجماعًا عن خلطة الكثير من الناس، مقبلًا على شأنه راضيًا مرضيًّا طاهرًا نقيًّا لطيف المزاج جدًّا محبوبًا للناس — عفا الله عنه وغفر لنا وله.

ومات الشيخ الفاضل الأجل الأمثل والوجيه المفضل الشيخ حسين بن حسن كناني بن علي المنصوري الحنفي، تفقه على خاله الشيخ مصطفى بن سليمان المنصوري، والشيخ محمد الدلجي والشيخ أحمد الفارسي، والشيخ عمر الدبركي والشيخ محمد المصيلحي، وأقرا في فقه المذهب دروسًا في محل جده لأمه بالأزهر، وسكن داره بحارة الحبانية على بركة الفيل مع أخيه الشيخ عبد الرحمن، ثم انتقلا في حوادث الفرنساوية إلى حارة الأزهر،

ولما كانت حادثة خروج السيد عمر مكرم النقيب من مصر إلى دمياط وكتبوا فيه عرضًا للدولة وامتنع السيد أحمد الطهطاوي من الشهادة عليه — كما تقدم — وتعصبوا عليه وعزلوه من مشيخة الحنفية قلدوها المترجم فلم يزل فيها حتى تمرض، وتُوُفِّيَ يوم التلات تاسع عشري لمحرم، وصُلِّي عليه بالأزهر ودُفن بتربة المجاورين — رحمه الله وإيانا.

ومات البليغ النجيب والنبيه الأريب نادرة الزمان وفريد الأوان، أخونا ومحبنا في الله تعالى ومن أجله، السيد إسماعيل بن سعد الشهير بالخشاب، كان أبوه نجارًا ثم فتح له مخزنًا لبيع الخشب تجاه تكية الكلشني بالقرب من باب زويلة، ووُلد له المترجم وأخوه إبراهيم ومحمد، وهو أصغرهما، فتولع السيد إسماعيل المترجم بحفظ القرآن ثم بطلب العلم، ولازم حضور السيد علي المقدسي وغيره من أفاضل الوقت، وأنجب في فقه الشافعية والمعقول بقدر الحاجة وتثقيف اللسان والفروع الفقهية الواجبة والفرايض، وتنزل في حرفة الشهادة بالمحكمة الكبيرة لضرورة التكسب في المعاش ومصارف العيال، وتمسك بمطالعة الكتب الأدبية والتصوف والتاريخ، وأولع بذلك وحفظ أشيا كثيرة من الأشعار والمراسلات وحكايات الصوفية وما تكلموا فيه من الحقائق، حتى صار نادرة عصره في المحاضرات والمحاورات، واستحضار المناسبات والماجريات، وقال الشعر الرايق ونثر النثر الفايق، وصحب بسبب ما احتوى عليه من دماثة الأخلاق ولطف السجايا وكرم الشمايل، وخفة الروح كثيرًا من أرباب المظاهر والريسا من الكتاب والأمرا والتجار، وتنافسوا في صحبته وتفاخروا بمجالسته، ومنهم مصطفى بك المحمدي أمير الحاج وحسن أفندي الغربية، وشيخ السادات، وغيرهم من الأماثل، فيرتاحون لمنادمته، وينتقلون على طيب مفاكهته، وحسن مخاطبته، ولطف عباراته، وكان الوقت إذ ذاك غاصًّا بالأكابر والريسا وأرباب الفضايل، والناس في بلهنية من العيش، وأمن من المخاوف والطيش.

وللمترجم — رحمه الله — قوة استحضار في إبدا المناسبات بحسب ما يقتضيه حال المجلس، فكان يجالس ويشاكل كل جليس بما يُدخل عليه السرور في الخطاب، ويجلب عقله بلطف محادثته كما يفعل بالعقول الشراب.

ولما رتب الفرنساوية ديوانًا لقضايا المسلمين تعين المترجم في كتابة التاريخ لحوادث الديوان وما يقع فيه من ذلك اليوم؛ لأن القوم كان لهم مزيد اعتنا بضبط الحوادث اليومية في جميع دواوينهم وأماكن أحكامهم، ثم يجمعون المتفرق في ملخص يرفع في سجلهم بعد أن يطبعوا منه نسخًا عديدة يوزعونها في جميع الجيش، حتى لمن يكون منهم في غير المصر من قرى الأرياف، فتجد أخبار الأمس معلومه للجليل والحقير منهم.

فلما رتبوا ذلك الديوان — كما ذكر — كان هو المتقيد برقم كل ما يصدر في المجلس من أمر أو نهى أو خطاب أو خطا أو صواب، وقرروا له في كل شهر سبعة آلاف نصف فضة، فلم يزل متقيدًا في تلك الوظيفة مدة ولاية عبد الله جاك مِنُو حتى ارتحلوا من الإقليم مضافة لما هو فيه من حرفة الشهادة بالمحكمة، وديوانهم هذا ضحوه يومين في الجمعة، فجمع من ذلك عدة كراريس ولا أدري ما فعل بها.

وبعد أن رجع صاحبنا العلامة الشيخ حسن العطار من سياحته، مازج المذكور وخالطه ورافقه ووافقه ولازمه، فكان كثيرًا ما يبيتان معًا، ويقطعان الليل بأحاديث أرق من نسيم السحر، وألطف من اتساق نظم الدرر، وكثيرًا ما كانا يتنادمان بداري لما بيني وبينهما من الصحبة الأكيدة والمودة العتيدة، فكانا يرتاحان عندي ويطرحان التكلفات التي هي على النفس شديدة ويتمثلان بقول من قال:

فيَّ انقباض وحشمة فإذا رأيت أهل الوفا والكرم
أرسلتُ نفسي على سجيتها وقلت ما قلت غير محتشم

ثم يتجاذبان أطراف الكلام فيجولان في كل فن من الفنون الأدبية والتواريخ والمحاضرات، فتارة يتشاكيان تغير الزمان وتكدر الإخوان، وأخرى يترنمان بمحاسن الغزلان، وما وقع لهما من صد وهجران ووصل وإحسان، فكانت تجري بينهما منادمات أرق من زهر الرياض، وأفتك بالعقول من الحدق المراض، وهما حينئذٍ فريدا وقتهما ووحيدا عصرهما، لم يُعزَّزا في ذلك الوقت بتالت؛ إذ ليس من يدانيهما فضلًا عن مساواتهما في تلك الشئون، التي أربت على المتاني والمتالت، واستمرت صحبتهما وتزايدت على طول الأيام مودتهما، حتى تُوُفِّيَ المترجم، وبقي بعده الشيخ حسن فريدًا عمن يشاكله ويناشده ويتجارى معه ويحاوره، فسكت بعد حسن البيان، وترك نظم الشعر والنثر إلا بقدر الضرورة ونفاق أهل العصر، وذلك لتفاقم الخطوب وتزايد الكروب، وفقد الإخوان وعدم الخلان، واشتغل بما هو خير من ذلك وأبقى ثوابًا فيما هنالك من تقدير العلوم وتحقيقها، والتأليفات المتنوعة في الفنون المختلفة وتنميقها.

وهو الآن على ما هو عليه من السعي في خدمة العلم وإقرا الكتب الصعبة، وله بذلك شهرة بين الطلاب.

وقد جمع المذكور للمترجم ديوان شعره وهو صغير الحجم له شهرة بين المتأدبين بمصر، ولهم به عناية ووفور رغبة، وقد كان قبل تملك الفرنسيس لمصر، كان للمترجم

تردد على شيخ السادات المكنى بأبي الأنوار المُتَوَفَّ في العام قبل الماضي، واستغرق كل شعره في مديحه، وكان له فيه غلو زايد وتأدب في الجلوس والحديث انتُقد فيه، وليم عليه هذه الأمور حتى كان لا يخاطبه إلا بضمير الغيبة، حتى ربما وقع ذلك في بعض آيات وأحاديث كما قدمنا الإشارة بذلك في ترجمته، وكان ذلك يوافق غرضه لما جُبل عليه من التعاظم.

وقد كان جلساه لما رأوا محبته لذلك يتشبهون بالمترجم في سلوك هذه الشئون، مع أنه لا داعي ولا باعث لارتكاب هذه المعاصي طلبًا لمرضاة من هو كثير التلون على جلساه، وإنما الناس شأنهم التقليد، وفي طباعهم الميل إلى أرباب الدنيا، ولو لم ينلهم منها شي، ولم يكن للمترجم شي يعاب به إلا هذه الارتكابات.

ولما وردت الفرنساوية لمصر اتفق أن علق شابًّا من ريسا كتَّابهم، كان جميل الصورة لطيف الطبع عالمًا ببعض العلوم العربية، مايلًا إلى اكتساب النكات الأدبية، فصيح اللسان بالعربي، يحفظ كثيرًا من الشعر؛ فلتلك المجانسة مال كلٌّ منهما للآخر ووقع بينما توادد وتصافٍ، حتى كان لا يقدر أحدهما على مفارقة الآخر، فكان المترجم تارة يذهب لداره وتارة يزوره هو، ويقع بينهما من لطف المحاورة ما يُتعجب منه، وعند ذلك قال المترجم الشعر الرايق ونظم الغزل الفايق.

فمما قاله فيه:

علقته لؤلؤي الثغر باسمه	فيه خلعت عذاري بل حُلا نُسكى
ملَّكته الروح طوعًا ثم قلت له:	مني ازديارك لي أفديك من ملك؟
فقال لي وحميًّا الراح قد علقت	لسانه، وهو يثني الجيد من ضحك
إذا غزا الفجر جيش الليل وانهزمت	منه عساكر ذاك الأسود الحلك
فجاءني وجبينُ الصبح مشرقة	عليه من شغف آثار معترك
في حلة من أديم الليل رَصَّعها	بمثل أنجمه في قبة الفلك
فخلت بدرًا به حفَّت نجوم دجا	في أسود من ظلام الليل محتبك
وافى وولَّى بعقل غير مختبل	من الشراب وسِتر غير منتهك

وله في آخر يسمى ريج:

أدِرها على زُهر الكواكب والزَّهْر وإشراق ضوء البدر في صفحة النهر
وهات على نغم المثاني فعاطني على خدك المحمر حمراء كالجمر
وموِّه لجين الكاس من ذهب الطِّلا وخضِّب بناني من سنا الراح بالنبر
وهاك عقودًا من لآلي حُبابها فم الكاس عنها قد تبسَّم بالبشر
ومزقْ رداء الليل وامحُ بنورها دجاه وطُف بالشمس فينا إلى الفجر
وأصلِ بنار الخد قلبي وأطفه ببرد ثناياك الشهية والثغر
أريج ذكى المسك أنفاسُك التي أريجُ شذاها قد تبسَّم عن عطر
معنبرة يسري النسيم بطيبها فتغدو رياض الزهر طيبة النشر
وبي ذابل الأجفان كالبيض طرفه مكحلة أجفانه السود بالسِّحر
رشا فاتك الألحاظ عيناه غادرت فؤاديَ في دمعي دمًا سائلًا يجري
طويلُ نجادِ السيفِ ألمى محجَّب شقيق المها زاهي البها ناحل الخصر
رقيق حواشي الطبع يغني حديثهُ عن اللؤلؤ المنظوم والنظم والنثر
يعير الرماح اللِّينَ عادلُ قدِّه ويُزْري الدراري ضوء مبسمه الدر
ويحكيه أغصان الربا في شمايل فيرفل في أثواب أوراقها الخضر
وفوقَ سَنَا ذاك الجبين غياهب من الشَّعر تبدو دونها طلعة البدر
ولما وقفنا للوداع عشيَّةً وأمسى بروحي يوم جَدَّ النَّوى سَيْري
تباكى لتوديعي فأبدى شقايقًا مكللة من لؤلؤ الطل بالقَطر

ولما نظم الشيخ حسن موشحته التي يقول فيها شعرًا:

أما فؤادي فعنك ما انتقلا فلم تخيرت في الهوا بدلا. فاعجب
يا معرضًا عن محبة الدنفِ
ومغرمًا بالجمال والصلفِ
ومن به زاد في الهوى شغفِي
أما كفى يا ظلوم ما حصلا حتى جعلت الصدود والملا. مذهب
فتش فؤادي فليس فيه سوى

شخصك أيها المليح ثوى
قد ضل قلبي بسكنه وغوى
وهكذا من يحب معتدلا   لم يلق إلا تأسفًا وقلا. مشرب

وهي طويلة مذكورة في ديوانه، عارضه المترجم المذكور بقوله في معشوقه الذي ذكرناه:

يهتز كالغصن ماس معتدلا   أطلع بدرًا عليه قد سدلا. غيهب
يُزري بسمر الرماح أن خطرا
ساحر جفن لمهجتي سحرا
علم عيني البكا والسهرا
فكيف أبغي بحبه بدلا   وليس لي عنه جار أو عدلا. مهرب
وضاح نور الجبين أبلجه
أغيد عذب الرضاب أفلجه
وجه غرامي عليه متجه
فلست أصغي لعاذل عذلا   كلا وعنه فلا أحول ولا. أرغب

وبقيتها في ديوانه. وقال أيضًا وهو مما يعتني به:

أدرها على زهر الكواكب والزهر   وإشراق نور البدر في صفحة النهر

إلى آخرها.

ولم يزل المترجم على حالته ورقته ولطافته مع ما كان عليه من كرم النفس والعفة والنزاهة، والتولع لمعالي الأمور والتكسب وكثرة الإنفاق، وسكنى الدور الواسعة والحزم، وكان له صاحب يسمى أحمد العطار بباب الفتوح، تُوُفِّيَ وتزوج هو بزوجته، وهي نَصَف، وأقام معها نحو تلاتين سنة، ولها ولد صغير من المُتَوَفَّى فتبنَّاه ورباه ورفَّهه بالملابس وأشفق به أضعاف والد بولده، ولما بلغ عمل له مهمًا وزوَّجه ودعا الناس إلى ولايمه، وأنفق عليه في ذلك إنفاقًا كثيرة، وبعد نحو سنة تمرَّض ذلك الغلام أشهرًا، فصرف عليه وعلى معالجته جملة من المال، ومات فجزع عليه جزعًا شديدًا ويبكي وينتحب، وعمل له مأتمًا وعزا، واختارت أمه دفنه بجامع الكردي بالحسينية، ورتبت

له رواتب وقراء، واتخذت مسكنًا ملاصقًا لقبره وأقامت به نحو التلاتين سنة، مع دوام عمل الشريك والكعك بالعجمية والسكر وطبخ الأطعمة للمقرين والزايرين، ثم ملازمة الميت واتخاذ ما ذكر في كل جمعة على الدوام، والمترجم طوع يدها في كل ما طلبته وما كلفته به تسخيرًا من الله تعالى.

وكل ما وصل إلى يده من حرام أو حلال، فهو مستهلك عليها وعلى أقاربها وخدمها لا لذة له في ذلك حسية ولا معنوية؛ لأنها في ذاتها عجوز شوها، وهو في نفسه نحيف البنية ضعيف الحركة جدًّا، بل معدومها، وابتُلي بحصر البول وسلسه القليل مع الحُرقة والتألم استدام بها مدة طويلة، حتى لزم الفراش أيامًا.

وتُوُفِّيَ يوم السبت تاني شهر الحجة الحرام بمنزله الذي استأجره بدرب ِقرْمز بين القصرين، وصلينا عليه بالأزهر في مشهد حافل، ودُفن عند ابنه المذكور بالحسينية، وكثيرًا ما كنت أتذكر قول القائل:

ومن تراه بأولاد السوى فرحًا في عقله عَزِّه إن شئت وانتدب
أولادُ صلب الفتي قلَّت منافعهم فكيف يلمح نفع الأبعد الجُنُب

مع أنه كان كثير الانتقاد على غيره فيما لا يداني فعلَه وانقياده إلى المرأة وحواشيها، نسأل الله السلامة والعافية وحسن العافية، كما قيل من تكملة ما تقدم:

فلا سرور سوى نفع بعافية وحسنُ خَتْم وما يأتي من الثغب
وأمنُ نُكْر نكير القبر ثمة ما يكون بعد من الأهوال والتعب

واستهلت سنة إحدى وتلاتين ومايتين وألف (١٨١٥م)

استهل شهر المحرم بيوم السبت، وحاكم مصر وصاحبها وإقطاعها وثغورها، وكذلك بندر جدة ومكة والمدينة المنورة وبلاد الحجاز محمد علي باشا، وذلك فضل الله يؤتيه من يشا، ولاظ محمد الذي هو كتخدا بك قايمقامه هو المتصدر لإجرا الأحكام بين الناس عن أمر مخدومه، وإبراهيم أغا أغات الباب، والدفتردار محمد أفندي صهر الباشا، والروزنامجي مصطفى أفندي تابع محمد أفندي باش جاكرت سابقًا، وغيطاس أفندي سرجي، وسليمان أفندي الكماخي باشمحاسب ورفيقه أحمد أفندي باشا قلفة، وصالح بك السلحدار وحسن أغا أغات الينكجرية، وعلي أغا الشعراوي زعيم مصر وهو الوالي، وأغات التبديل أحمد أغا وهو أخو حسن أغا المذكور، وكاتب الخزينة ولي خوجة وريس كتبة الأقباط المعلم غالي، وأولاد الباشا إبراهيم باشا حاكم الصعيد، وطوسون باشا فاتح بلاد الحجاز، وإسماعيل باشا ببولاق ومحرم بك صهر الباشا أيضًا على ابنته بالجيزة، أحمد أغا المعروف ببونابارته الخازندار وباقي كشاف الأقاليم وأكابر أعيانهم مثل: دبوس أوغلي وحسن أغا سرششمه، وحجو بك، ومحو بك، وخلافهم.

وفي ذلك اليوم قبض كتخدا بك على المعلم غالي وأمر بحبسه، وكذلك أخوه المسمى فرنسيس وخازنداره المعلم سمعان، وذلك عن أمر مخدومه من إسكندرية؛ لأنه حول عليه الطلب بستة آلاف كيس تأخر أداها إياه من حسابه القديم، فاعتذر بعدم القدرة عن أداها في الحين؛ لأنها بواقي على أربابها، وهو ساعٍ في تحصيلها ويطلب المهلة إلى رجوع الباشا من غيبته، فأرسل الكتخدا بمقالته واعتذاره إلى الباشا.

وانتبذ طايفة من الأقباط في الحط على غالي مع الكتخدا، وعرَّفوه أنه إذا حوسب يظهر عليه تلاتون ألف كيس، فقال لهم: وإن لم يتأخر عليه هذا القدر تكونوا ملزومين به إلى الخزينة، فأجابوه إلى ذلك، فأرسل يعرِّف الباشا بذلك، فورد الأمر بالقبض عليه وعلى أخيه وخازنداره وحبسهم وعزله ومطالبته بستة آلاف كيس القديمة أولًا، ثم حسابه بعد ذلك.

فأحضر المرافعين عليه، وهم: المعلم جرجس الطويل، ومنقريوس البتنوني، وحنا الطويل، وألبسهم خلعًا على رياسة الكتاب عوضًا عن غالي ومن يليه، واستمر غالي في الحبس ثم أحضره مع أخيه وخازنداره، فضربوا أخاه أمامه ثم أمر بضربه، فقال: وأنا أُضرب أيضًا؟ قال: نعم، ثم ضربوه على رجليه بالكرابيج، ورفع وكرر عليه الضرب، وضرب سمعان ألف كرباج حتى أشرف على الهلاك.

ووجدوا في جيبه ألف مشخص بندقي ومايتي محبوب عنها اثنان وعشرون ألف قرض، ثم بعد أيام أفرجوا عن أخيه وسمعان ليسعيا في التحصيل، وهلك سمعان واستمر غالي في السجن وقد رفعوا عنه وعن أخيه العقاب لئلا يموتا.

وفي عاشره رجع الباشا من غيبته من إسكندرية، وأول ما بدأ به إخراج العساكر مع كبراهم إلى ناحية بحري وجهة البحيرة والثغور، فنصبوا خيامهم بالبر الغربي والشرقي تجاه الرحمانية، وأخذوا صحبتهم مدافع وبارودًا وآلات الحرب، واستمر خروجهم في كل يوم، وذلك من مكايده معهم وإبعادهم عن مصر جزا فعلتهم المتقدمة فخرجوا أرسالًا.

واستهل شهر صفر الخير (سنة ١٢٣١)

فيه تشفع جوني الحكيم في المعلم غالي، وأخذه من الحبس إلى داره، والعساكر مستمرون في التشهيل والخروج وهم لا يعلمون المراد بهم، وكثرت الروايات والأخبار والإيهامات والظنون، ومعنى الشعر في بطن الشاعر.

واستهل شهر ربيع الأول (سنة ١٢٣١)

فيه سافر طوسون باشا وأخوه إسماعيل باشا إلى ناحية رشيد، ونصبوا عرضيهما عند الحماد وناحية أبي منضور وحسين بك دالي باشا وخلافه مثل: حسين أغا أزرجنلي ومحو بك وصارى جلة وحجو بك جهة البحيرة، وكل ذلك تواطين وتلبيس للعساكر

بكونه أخرج حتى أولاده العزاز للمحافظة، وكذلك الكثير من كبراهم إلى جهة البحر الشرقي ودمياط.

وفي تاني عشره صبيحة المولد النبوي طلب الباشا المشايخ، فلما جلسوا مجلسهم وفيهم الشيخ البكري، أحضروا خلعة وألبسوها له على منصب نقابة الأشراف عوضًا عن السيد محمد الدواخلي، وقد كان الباشا قبل حضورهم أحضر السيد محمد المحروقي وفاوضه في ذلك ورأى أن يقلده إياه، فاعتذر السيد المحروقي واستعفى وقال: أنا متقيد بخدمة أفندينا ومهمات المتاجر والعرب والحجاز، فقال: قد قلدتك إياها فأعطها لمن شيت، فذكر أنها كانت مضافة للشيخ البكري، وهو أولى من غيره، فلما حضروا وتكاملوا ألبسوه الخلعة واستصوب الجماعة ذلك وانصرفوا.

وفي الحال كتب فرمان بإخراج الدواخلي منفيًّا إلى قرية دسوقي، فنزل إليه السيد أحمد الملا الترجمان وصحبته قواس تركي وبيده الفرمان، فدخلوا إليه على حين غفلة وكان بداخل حريمه لم يشعر بشي مما جرى، فخرج إليهم فأعطوه الفرمان فلما قرأه غاب عن حواسه وأجاب بالطاعة، وأمروه بالركوب فركب بغلته وسارا به إلى بولاق، وأنزلوه في قياسة صحبته القواس المعين ومعه مملوكه الصغير الذي كان شراه بعد موت ولده الشيخ سالم الشرقاوي، وانسل مما كان فيه كانسلال الشعرة من العجين، وتفرق الجمع الذي كان حوله.

وشرع الأشياخ في تنميق عرضحال عن لسانهم بأمر الباشا بتعداد جنايات الدواخلي وذنوبه وموجبات عزله، وأن ذلك بترَجِّيهم والتماسهم عزله ونفيه، ويرسل ذلك العرضحال لنقيب الأشراف بدار السلطنة؛ لأن الذي يكون نقيبًا بمصر نيابة عنه، ويرسل إليه الهدية في كل سنة، فالذي نقموه عليه من الذنوب أنه تطاول على حسين أفندي شيخ رواق الترك، وسبه وحبسه من غير جرم؛ وذلك أنه اشترى منه جارية حبشية بقدر من الفراسة، فلما أقبضه الثمن أعطاه بدلها قروشًا بدون الفرق الذي بين المعاملتين، فتوقف السيد حسين وقال: إما تعطيني العين التي وقع عليهم الانفصال أو تكمل فرط النقص، وتشاحا وأدى ذلك إلى سبه وحبسه، وهو رجل كبير متضلع ومدرس وشيخ رواق الأتراك بالأزهر، وهذه القضية سابقة على حادثة نفيه بنحو سنتين، ومنها أيضًا أنه تطاول على السيد منصور اليافي بسبب فتيا رفعت إليه، وهي أن امرأة وقفت وقفًا في مرض موتها وأفتى بصحة الوقف على قول ضعيف، فسبه في ملأ من الجمع وأراد ضربه ونزع عمامته من على رأسه.

ومنها أيضًا أنه يعارض القاضي في أحكامه وينقص محاصيله، ويكتب في بيته وثايق قضايا صلحًا، ويسب أتباع القاضي ورسل المحكمة، ويعارض شيخ الجامع الأزهر في أموره ونحو ذلك.

وعندما سطروه وتمموه وضعوا عليه ختومهم، وأرسلوه إلى إسلامبول.

على أن جناياته عند الباشا ليست هذه النكات الفارغة، بل ولا علم له بها ولا التفات، وإنما هي أشيا ورا ذلك كله ظهر بعضها وخفي عنا باقيها؛ وذلك أن الباشا يحب الشوكة ونفوذ أوامره في كل مرام ولا يصطفي، ويحب من لا يعارضه ولو في جزئية، أو يفتح له بابًا يهب منه ريح الدراهم والدنانير، أو يدله على ما فيه كسب وربح من أي طريق أو سبب من أي ملة كان.

ولما حصلت واقعة قيام العسكر في أواخر السنة الماضية، وأقام الباشا بالقلعة يدبر أمره معهم وألزم أعيان المتظاهرين الطلوع إليه في كل ليلة، وأجل المتعممين الدواخلي وفوضوه في الصعود لكونه معدودًا في العلما ونقيبًا على الأشراف — وهي في رتبة الوالي عند العثمانيين — فداخله الغرور وظن أن الباشا قد حصل في ورطة يطلب النجاة منها بفعل القربات والنذور، ولكونه رآه يسترضي خواطر الرعية المنهوبين ويدفع لهم أثمانها، ويستميل كبار العساكر وينعم عليهم بالمقادير الكثيرة من أكياس المال، ويسترسل معه في المسامرة والمسايرة ولين الخطاب والمذاكرة والمضاحكة.

فلما رأى إقبال الباشا عليه زاد طمعه في الاسترسال معه، فقال له: الله يحفظ أفندينا وينصره على أعداه والمخالفين له، ونرجو من إحسانه بعد هدوِّ سره وسكون هذه الفتنة أن ينعم علينا ويجرينا على عوايدنا في الحمايات والمسامحات بخصوص ما يتعلق بنا من حصص الالتزام والرزق، فأجابه بقوله: نعم، يكون ذلك ولا بد الراحة لكم ولكافة الناس، فدعا له وأنس فؤاده، وقال: الله تعالى يحفظ أفندينا وينصره على أعداه كذلك يكون تمام ما أشرتم به من الراحة لكافة الناس الإفراج عن الرزق الإحباسية على المساجد والفقرا، فقال: نعم، ووعده مواعيده العرقوبية.

كما قيل:

كانت مواعيد عرقوب لها مثلًا وما مواعيدها إلا الأباطيل

فكان الدواخلي إذا نزل من القلعة إلى داره يحكي في مجلسه ما يكون بينه وبين الباشا من أمثال هذا الكلام ويذيعه في الناس، ولما أمر الباشا الكتَّاب بتحرير حساب

الملتزمين على الوجه المرضي بديوان خاص لرجال دايرة الباشا وأكابر العسكر، وذلك بالقلعة تطييبًا لخواطرهم، وديوان آخر في المدينة لعامة الملتزمين، فيحررون للخاصة بالقلعة ما في قوايم مصر وفيهم وما كانوا يأخذونه من المضاف والبراني والهدايا وغير ذلك، والديوان العام التحتاني بخلاف ذلك، فلما رأى الدواخلي ذلك الترتيب قال للباشا: وأنا الفقير محسوبكم من رجال الدايرة، فقال: نعم، وحرروا قوايمه مع أكابر الدولة، وأنعم عليه الباشا بأكياس أيضًا كثيرة زيادة على ذلك.

فلما راق الحال ورتب الباشا أموره مع العسكر، أخذ يذكر الباشا بإنجاز الوعد ويكرر القول عليه وعلى كتخدا بك بقوله: أنتم تكذبون علينا ونحن نكذب على الناس، وأخذ يتطاول على كتبة الأقباط بسبب أمور يلزمهم ويكلفهم بإتمامها، وعذرهم يخفى عنه في تأخيرها فيكلمهم بحضرة الكتخدا ويشتمهم، ويقول لبعضهم: أما اعتبرتم بما حصل للَّعين غالي؟ فيحقدون عليه ويشكون منه للباشا والكتخدا وغير ذلك أمورًا، مثل تعرضه للقاضي في قضاياه وتشكيه منه.

واتفق أنه لما حضر إبراهيم باشا من الجهة القبلية، وكان بصحبته أحمد جلبي ابن ذي الفقار كتخدا الفلاح، وكأنه كان كتخداه بالصعيد، وتشكت الناس من أفاعيله وإغوائه إبراهيم باشا، فاجتمع به الدواخلي عند السيد محمد المحروقي، وحضر قبل ذلك إليه للسلام عليه، وفي كل مرة يوبخه بالكلام ويلومه على أفاعيله بالقول الخشن في ملأ من الناس، فذهب إلى الباشا وبالغ في الشكوى، ويقول فيها: أنا نصحت في خدمة أفندينا جهدي وأظهرت من المخبآت ما عجز عنه غيري، فأجازى عليه من هذا الشيخ ما أسمعنيه من قبيح القول وتجبيهي بين الملأ، وإذا كان محبًّا لأفندينا فلا يكره نفعه ولا النصح في خدمته، وأمثال ذلك مما يخفى عنا خبره؛ فمثل هذه الأمور هي التي أوغرت صدر الباشا على الدواخلي، مع أنها في الحقيقة ليست خلافًا عند من فيه قابلية للخير.

وأنا أقول: إن الذي وقع لهذا الدواخلي إنما هو قصاص وجزا فعله في السيد عمر مكرم، فإنه كان من أكبر الساعين عليه إلى أن عزلوه وأخرجوه من مصر، والجزا من جنس العمل، كما قيل:

فقل للشامتين بِنا أفيقوا سيلقى الشامتون كما لقينا

ولما جرى على الدواخلي ما جرى من العزل والنفي أظهر الكثير من نظراه المتفقهين الشماتة والفرح، وعملوا ولايم وعزايم ومضاحكات، كما يقال:

أمور تضحك السفهاء منها ويبكي من عواقبها اللبيب

وقد زالت هيبتهم ووقارهم من النفوس، وانهمكوا في الأمور الدنيوية والحظوظ النفسانية والوساوس الشيطانية، ومشاركة الجهال في المآتم والمسارعة إلى الولايم في الأفراح والمياتم، يتكالبون على الأسمطة كالبهايم فتراهم في كل دعوة ذاهبين، وعلى الخوانات راكعين، وللكباب والمحمرات خاطفين، وعلى ما وجب عليهم من النصح تاركين.

وفي أواخره شرعوا في عمل مهم عظيم بمنزل ولي أفندي، ويقال له ولي خجا، وهو كاتب الخزينة العامرة، وهو من طايفة الأرنؤد، واختص به الباشا واستأمنه على الأمور، وضم إليه دفاتر الإيراد من جميع وجوه جبايات الأموال من خراج البلاد والمحدثات وحسابات المباشرين، وأنشأ دارًا عظيمة بخطة باب اللوق على البركة المعروفة بأبي الشوارب، وأدخل فيها عدة بيوت بجوانبها وتجاهها على نسق واصطلاح الأبنية الإفرنجية والرومية، وتأنق في زخرفتها واتساعها واستمرت العمارة بها نحو السنتين، ولما كملت وتمت أحضروا القاضي والمشايخ، وعقدوا لولديه على ابنتين من أقارب الباشا بحضرة الأعيان ومن ذكر، واحتفلوا بعمل المهم احتفالًا زايدًا، وتقيد السيد محمد المحروقي بالمصاريف والتنظيم واللوازم، كما كان في أفراح أولاد الباشا، واجتمعت الملاعيب والبهلوانات بالبركة وما حولها وبالشارع، وعلقوا تعاليق قناديل ونجفات وأحمال بلور وزينات، واجتمع الناس للفرجة، وبالليل حراقات ونفوط ومدافع وسواريخ سبع ليالٍ متوالية.

وعملت الزفة يوم الخميس واجتمعت العربات لأرباب الحرف كما تقدم في العام الماضي، بل أزيد؛ وذلك لأن الباشا لم يشاهد أفراح أولاده لكونه كان غايبًا بالديار الحجازية، وحضر الباشا للفرجة وجلس بمدرسة الغورية بقصد الفرجة، وعمل له السيد محمد المحروقي الغدا، وخرجوا بالزفة أوايل النهار وداروا بها دورة طويلة، فلم يمروا بسوق الغورية إلا قريب الغروب أواخر النهار.

واستهل شهر ربيع التاني (سنة ١٢٣١)

وخروج العساكر إلى ناحية بحري مستمر، وأفصح الباشا وذكر في كلامه في مجالسه وبيَّن السر في إخراجهم من المدينة بأن العساكر قد كثروا، وفي إقامتهم بالبلدة مع كثرتهم ضرر وإفساد وضيق على الرعية مع عدم الحاجة إليهم داخل البلدة، الأولى والأحوط أن يكونوا خارجها وحولها مرابطين لحفظ الثغور من طارق على حين غفلة أو حادث خارجي، وليس لهم إلا رواتبهم وعلايفهم تأتيهم في أماكنهم ومراكزهم، والسر الخفي إخراج الذين قصدوا غدره وخيانته ووقع بسبب حركتهم ما وقع من النهب والإزعاج على أواخر شعبان من السنة الماضية.

وكان قد بدأ بإخراج أولاده وخواصه، ثم من تخيل منه واحدًا بعد واحد، وأسرَّ إلى أولاده بما في ضميره، وأصحب مع ولده طوسون باشا شخصًا من خواصه يسمى أحمد أغا البخورجي المدللي.

وأخذ طوسون باشا في تدبير الإيقاع مع من يريد به، فبدأ بمحو بك وهو أعظمهم وأكثرهم جندًا، فأخذ في تأليف عساكره حتى لم يبقَ معه إلا القليل، ثم أرسل في وقت بطلب محو بك عنده في مشورة، فذهب إليه أحمد أغا المدللي المذكور وأسرَّ إليه ما يراد به وأشار إليه بعدم الذهاب، فركب محو بك في الحال وذهب عند الدلاة فأرسلوا إلى مصطفى بك وهو كبير على طايفة من الدلاة وأخو زوجة الباشا وقريبه، وإلى إسماعيل باشا ابن الباشا ليتوسطا في صلح محو بك مع الباشا، وليعفوه ويذهب إلى بلاده، فأرسلا إلى الباشا بالخبر وبما نقله أحمد أغا المدللي إلى محو بك، فسفه رأيه في تصديق المقالة وفي هروبه عند الدلاة، ثم يقول: لولا أن في نفسه خيانة لما فعل ما فعل من التصديق والهروب.

وكان طوسون باشا لَمَّا جرى من أحمد أغا ما جرى من نقل الخبر لمحو بك عوَّقه وأرسل إلى أبيه يعلمه بذلك، فطلبه للحضور إليه بمصر، فلما مثل بين يديه وبَّخه وعزَّره بالكلام، وقال له: ترمي الفتن بين أولادي وكبار العسكر، ثم أمر بقتله فنزلوا به إلى باب وزيلة وقطعوا راسه هناك، وتركوه مرميًّا طول النهار ثم رفعوه إلى داره، وعملوا له في صبحها مشهدًا ودفنوه.

وفيه حضر إسماعيل باشا ومصطفى بك إلى مصر.

وفي أواخره حضر شخص يسمى سليم كاشف من الأجناد المصرية مرسلًا من عند بقاياهم من الأمرا، وأتباعهم الذين رماهم الزمان بكلكله، وأقصاهم وأبعدهم عن

أوطانهم واستوطنوا دنقلة من بلاد السودان، يتقوتون مما يزرعونه بأيديهم من الدُّخْن، وبينهم وبين أقصى الصعيد مسافة طويلة نحو من أربعين يومًا، وقد طال عليهم الأمد ومات أكثرهم ومعظم ريساهم مثل: عثمان بك حسن وسليم أغا وأحمد أغا شويكار وغيرهم ممن لا علم لنا بخبره أو أخبارهم لبعد المسافة حتى على أهل منازلهم، وبقي ممن لم يمت منهم إبراهيم بك الكبير، وعبد الرحمن بك تابع عثمان بك المرادي، وعثمان بك يوسف، وأحمد بك الألفي زوج عديلة ابنة إبراهيم بك الكبير، وعلي بك أيوب، وبواقي صغار الأمرا والمماليك على ظن خيانتهم، وقد كبر سن إبراهيم بك الكبير وعجزت قواه ووهن جسمه، فلما طالت عليهم الغربة أرسلوا هذا المرسل بمكاتبة إلى الباشا يستعطفونه ويسألونه فضله ويرجون مراحمه بأن ينعم عليهم بالأمان على نفوسهم، ويأذن لهم بالانتقال من دنقلة إلى جهة من أراضي مصر يقيمون بها أيضًا، ويتعيشون فيها بأقل العيش تحت أمانه، ويدفعون ما يجب عليهم من الخراج الذي يقرره عليهم، ولا يتعدون مراسمه وأوامره، فلما حضر وقابل الباشا وتكلم معه وسأله عن حالهم وشأنهم ومن مات ومن لم يمت منهم وهو يخبره خبره، ثم أمره بالانصراف إلى محله الذي نزل فيه إلى أن يرد عليه الجواب، وأنعم عليه بخمسة أكياس.

فأقام أيامًا حتى كتب له جواب رسالته مضمونها أنه أعطاهم الأمان على أنفسهم بشروط شرطها عليهم إن خالفوا منها شرطًا واحدًا، كان أمانهم منقوضًا وعهدهم منكوثًا ويحل بهم ما حل بمن تقدم منهم.

فأول الشروط أنهم إذا عزموا على الانتقال من المحل الذي هم فيه يرسلون أمامهم نجابًا بخبرهم وحركتهم، وانتقالهم ليأتيهم من أعيِّنه لملاقاتهم.

التاني إذا حلوا بأرض الصعيد لا يأخذون من أهل النواحي كُلْفةً ولا دَجاجةً ولا رغيفًا واحدًا، وإنما الذي يتعين لملاقاتهم يقوم لهم بما يحتاجون إليه من مونة وعليق ومصرف.

التالت أني لا أقطعهم شيًّا من الأراضي والنواحي، ولا إقامة في جهة من جهات أراضي مصر، بل يأتون عندي وينزلون على حكمي، ولهم ما يليق بكل واحد منهم من المسكن والتعيين والمصرف، ومن كان ذا قوة قلدته منصبًا أو خدمة تليق به، أو ضممته إلى بعض الأكابر من ريسا العسكر، وإن كان ضعيفًا أو هرمًا أجريت عليه نفقة لنفسه وعياله.

الرابع أنهم إذا حصلوا بمصر على هذه الشروط وطلبوا شيًّا من إقطاع أو رزقة أو قنطرة أو أقل مما كان في تصرفهم في الزمن الماضي أو نحو ذلك، انتقض معي عهدهم،

وبطل أماني لهم بمخالفة شرط واحد من هذه الشروط. وهي سبعة غاب عن ذهني باقيها، فسبحان المعز المذل مقلب الأحوال ومغير الشئون.

فمن العبر أنه لما حضر المصريون ودخلوا إلى مصر بعد مقتل طاهر باشا وتأمروا وتحكموا فكانت عساكر الأتراك في خدمتهم، ومن أرذل طوايفهم وعلايفهم تصرف عليهم من أيدي كتابهم وأتباعهم، وإبراهيم بك هو الأمير الكبير وراتب محمد علي باشا هذا من الخبز اللحم والأرز والسمن الذي عينه له من كيلاره، نعوذ بالله من سو المنقلب، ورجع سليم كاشف المرسل إليهم بالجواب المشتمل على ما فيه من الشروط.

وفيه أمر الباشا بحبس أحمد أفندي المعايرجي بدار الضرب، وحبس أيضًا عبد الله بكتاش ناظر الضربخانة، واحتج عليهما باختلاسات يختلسانها، واستمر أيامًا حتى قرر عليهما نحو السبعماية كيس، وعلى الحاج سالم الجواهرجي، وهو الذي يتعاطى إيراد الذهب والفضة إلى شغل الضربخانة مثلها، ثم أطلق المذكوران ليحصلا ما تقرر عليهما، وكذلك أطلق الحاج سالم وشرعوا في التحصيل بالبيع والاستدانة، واشتد القهر بالحاج سالم ومات على حين غفلة، وقيل: إنه ابتلع فص ألماس، وكان عليه ديون باقية من التي استدانها في المرة الأولى والغرامة السابقة.

نادرة غريبة

ومن النوادر الغريبة والاتفاقات العجيبة أنه لما مات إبراهيم بك المداد بالضربخانة قبل تاريخه، تزوج بزوجته أحمد أفندي المعايرجي المذكور، فلما عوق أحمد أفندي خافت زوجته المذكورة أن يدهمها أمر مثل الختم على الدار أو نحو ذلك، فجمعت مصاغها وما تخاف عليه مما خف حمله وثقل ثمنه، وربطته في صرة وأودعتها عند امرأة من معارفها، فسطا على بيت تلك المرأة شخص حرامي، وأخذ تلك الصرة وذهب بها إلى دار امرأة من أقاربه بالقرب من جامع مسكة وقال لها احفظي عندك هذه الصرة حتى أرجع، ونزل إلى أسفل الدار، فنادته المرأة حتى آتيك بشي تأكله، فقال: نعم، فإني جيعان وجلس أسفل الدار ينتظر إتيانها له بما يأكله.

وصادف مجي زوج المرأة تلك الساعة، فوجده ورحَّب به وهو يعلم بحاله ويكره مجيه إلى داره، وطلع إلى زوجته فوجد بين يديها تلك الصرة فسألها عنها، فأخبرته أن قريبها المذكور أتى بها إليها حتى يعود لأخذها فجسَّها فوجدها ثقيلة.

فنزل في الحال ودخل على محمد أفندي سليم من أعيان جيران الخطة فأخبره، فأحضر محمد أفندي أنفارًا من الجيران أيضًا وفيهم الخجا المنسوب إلى أحمد أغا لاظ

المقتول، ودخل الجميع إلى الدار وذلك الحرامي جالس ومشتغل بالأكل فوكَّلوا به الخدم، وأحضروا تلك الصرة وفتحوها فوجدوا بها مصاغا وكيسًا بداخله أنصاف فضة عديدة، ذكروا أن عدتها أربعون ألفًا، ولكنها من غير ختم وبدون نقش السكة.

فأخذوا ذلك وتوجهوا لكتخدا بك وصحبتهم الحرامي، فسألوه وهددوه فأقر وأخبر عن المكان الذي اختلسها منه، فأحضروا صاحبة المكان فقالت: هو وديعة عندي لزوجة أحمد أفندي المعايرجي، فثبت لديهم خيانته واختلاسه، وسيل أحمد أفندي فحلف أنه لا يعلم بشي من ذلك، وأن زوجته كانت زوجًا لإبراهيم المداد، فلعل ذلك عندها من أيامه.

وسيلت هي أيضًا عن تحقيق ذلك فقالت: الصحيح أن إبراهيم المداد كان اشترى هذه الدراهم من شخص مغربي عندما نهب عسكر المغاربة الضربخانة في وقت حادثة الأمرا المصريين، وخروجهم من مصر عندما قامت عليهم عسكر الأتراك.

فلم يزيلوا الشبهة عن أحمد أفندي، بل زادت، وكانت هذه النادرة من عجايب الاتفاق، فقدروا أثمانها وخصموها من المطلوب منه.

وفي يوم الخميس عشرينه حصلت جمعية ببيت البكري، وحضر المشايخ وخلافهم، وذلك بأمر باطني من صاحب الدولة، وتذكروا ما يفعله قاضي العسكر من الجور والطمع في أخذ أموال الناس والمحاصيل؛ وذلك أن القضاة الذين يأتون من باب السلطنة كانت لهم عوايد وقوانين قديمة لا يتعدونها في أيام الأمرا المصريين.

فلما استولت هولا الأروام على الممالك والقاضي منهم، فحُش أمرهم وزاد طمعهم وابتدعوا بدعًا وابتكروا حيلًا لسلب أموال الناس والأيتام والأرامل، وكلما ورد قاضٍ ورأى ما ابتكره الذي كان قبله أحدث هو الآخر أشيا يمتاز بها عن سلفه، حتى فحش الأمر وتعدَّى ذلك لقضايا أكابر الدولة وكتخدا بك بل والباشا، وصارت ذريعة وأمرًا محتمًا لا يحتشمون منه، ولا يراعون خليلًا ولا كبيرًا ولا جليلًا.

وكان المعتاد القديم أنه إذا ورد القاضي في أول السنة التوتية، التزم بالقسمة بعض المميزين من رجال المحكمة بقدر معلوم يقوم بدفعه للقاضي، وكذلك تقرير الوظايف كانت بالفراغ أو المحلول، وله شهريات على باقي المحاكم الخارجة كالصالحية وباب سعادة والخرق وباب زويلة وباب الفتوح وطيلون وقناطر السباع وبولاق ومصر القديمة ونحو ذلك، وله عوايد وإطلاقات وغلال من الميري، وليس له غير ذلك إلا معلوم الإمضا، وهو خمسة أنصاف فضة، فإذا احتاج الناس في قضاياهم ومواريثهم أحضروا شاهدًا من المحكمة القريبة منهم فيقضي فيها ما يقضيه ويعطونه أجرته، وهو يكتب التوثيق

أو حجة المبايعة أو التوريث، ويجمع العدة من الأوراق في كل جمعة أو شهر، ثم يمضيها من القاضي ويدفع له معلوم الإمضا لا غير، وأما القضايا لمثل العلما والأمرا فبالمسامحة والإكرام.

وكان القضاة يخشون صولة الفقها وقت كونهم يَصْدَعون بالحق ولا يداهنون فيه.

فلما تغيرت الأحوال وتحكمت الأتراك وقضاتها ابتدعوا بدعًا شتى، منها إبطال نواب المحاكم، وإبطال القضاة التلاتة خلاف مذهب الحنفي، وأن تكون جميع الدعاوى بين يديه ويدي نايبه.

وبعد الانفصال يأمرهم بالذهاب إلى الكتخدا ليدفع المحصول، فيطلب منهم المقادير الخارجة عن المعقول، وذلك خلاف الرشوات الخفية والمصالحات السرية، وأضاف التقرير والقسمة لنفسه، ولا يلتزم بها أحد من الشهود كما كان في السابق.

وإذا دُعي بعض الشهود لكتابة توثيق أو مبايعة أو تركة، فلا يذهب إلا بعد أن يأذن له القاضي، ويصحبه جوخدار دار ليباشر القضية، وله نصيب أيضًا.

وزاد طمع هولا الجخدارية حتى لا يرضون بالقليل كما كانوا في أول الأمر، وتخلف منهم أشخاص بمصر عن مخاديمهم، وصاروا عند المتولي لما انفتح لهم هذا الباب.

وإذا ضبط تركة من التركات وبلغت مقدارًا أخرجوا للقاضي العشر من ذلك، ومعلوم الكاتب والجوخدار والرسول ثم التجهيز والتكفين والمصرف والديون، وما بقي بعد ذلك يقسم بين الورثة، فيتفق أن الوارث واليتيم لا يبقى له شي، ويأخذ من أرباب الديون عشر ديونهم أيضًا، ويأخذ من محاليل وظايف التقارير معلوم سنتين أو تلاتة، وقد كان يصالح عليها بأدنى شي وإلا إكرامًا.

وابتدع بعضها الفحص عن وظايف القبانية والموازين، وطلب تقاريرهم القديمة ومن أين تلقوها، وتعلل عليهم بعدم صلاحية المقرر، وفيها من هو باسم النسا وليسوا أهلًا لذلك، وجمع من هذا النوع مقدارًا عظيمًا من المال، ثم محاسبات نظار الأوقاف والعزل والتولية فيهم، والمصالحات على ذلك.

وقرر على نصارى الأقباط والأروام قدرًا عظيمًا في كل سنة بحجة المحاسبة على الديور والكنايس.

ومما هو زايد الشناعة أيضًا أنه إذا ادَّعى مبطل على إنسان دعوى لا أصل لها بأن قال ادعى عليه بكذا وكذا من المال وغيره، كتب المقيدُ ذلك القول حقًّا كان أو باطلًا، معقولًا أو غير معقول، ثم يظهر بطلان الدعوى أو صحة بعضها، فيطالب الخصم

بمحصول القدر الذي ادعاه المدعي وسطره الكاتب، يدفعه المدَّعى عليه للقاضي على داير النصف الواحد أو يُحبس عليه حتى يوفيه، وذلك خلاف ما يؤخذ من الخصم الآخر، وحصل نظيرها لبعض من هو ملتجي لكتخدا بك، فحُبس على المحصول فأرسل الكتخدا يترجى في إطلاقه والمصالحة عن بعضه فأبى، فعند ذلك حنق الكتخدا وأرسل من أعوانه من استخرجه من الحبس، ومن الزيادات في نغمة الطنبور كتابة الإعلامات.

وهو أنه إذا حضر عند القاضي دعوى بقاصد من عند الكتخدا أو الباشا ليقضي فيها وقضى فيها لأحد الخصمين طلب المقضي له إعلامًا بذلك إلى الكتخدا أو الباشا يرجع به مع المقاصد تقييدًا وإثباتًا، فعند ذلك لا يكتب له ذلك الإعلام إلا بما عسى لا يرضيه إلا أن يسلخ من جلده طاقًا أو طاقين، وقد حكمت عليه الصورة، وتابع الباشا أو الكتخدا ملازم له ويستعجله ويساعد كتخدا القاضي عليه، ويسليه على ذلك الظفر والنصرة على الخصم، مع أن الفرنساوية الذين كانوا لا يتدينون بدين لما قلدوا الشيخ أحمد العريشي القضا بين المسلمين بالمحكمة حددوا له حدًّا في أخذ المحاصيل لا يتعداه، بأن يأخذ على المائة اثنين فقط، له منها جزء والكتَّاب جزء.

فلما زاد الحال وتعدى إلى أهل الدولة رتبوا هذه الجمعية، فلما تكاملوا بمجلس بيت البكري كتبوا عرضًا محضرًا ذكروا فيه بعض هذه الإحداثات، والتمسوا من ولي الأمر رفعها، ويرجون من المراحم أن يجري القاضي ويسلك في الناس طريقًا من إحدى الطرق التلات: إما الطريقة التي كان عليها القضاة في زمن الأمرا المصريين.

وإما الطريقة التي كانت في زمن الفرنساوية، أو الطريقة التي كانت أيام مجي الوزير، وهي الأقرب والأوفق، وقد اخترناها ورضيناها بالنسبة لما هم عليه الآن من الجور.

وتمموا العرض محضرًا وأطلعوا عليه الباشا، فأرسله إلى القاضي فامتثل الأمر وسجل بالسجل على مضض منه ولم تسعه المخالفة.

واستهل شهر جمادى التاني (سنة ١٢٣١)

في منتصفه ورد الخبر بموت مصطفى بك دالي باشا بناحية إسكندرية، وهو قريب الباشا وأخو زوجته.

واستهل شهر رجب الأصم بيوم التلات (سنة ١٢٣١)

في تالته يوم الخميس قبل الغروب حصل في الناس انزعاج ولغط، ونقَل أصحاب الحوانيت بضايعهم منها مثل سوق الغورية ومرجوش وخان الحمزاوي وخان الخليلي وغيرهم، ولم يظهر لذلك سبب من الأسباب، وأصبح الناس مبهوتين ولغطوا بموت الباشا.

وحضر أغات الينكجرية وأغات التبديل إلى الغورية، وأقاما بطول النهار، وهما يأمران الناس بالسكون وفتح الدكاكين، وكذلك علي أغا الوالي بباب زويلة.

وأصبح يوم السبت فركب الباشا وخرج إلى قبة العزب، وعمل رماحة وملعبًا ورجع إلى شبرا، وحضر كتخدا بك إلى سوق الغورية، وجلس بالمدفن وأمر بضرب شيخ الغورية، فبطحوه على الأرض في وسط السوق وهو مرشوش بالماء، وضربه الأتراك بعصيهم ثم رفعوه إلى داره ثم أمر الكتخدا بكتابة أصحاب الدكاكين الذين نقلوا متاعهم، فشرعوا في ذلك وهرب الكثير منهم، وحَبَسهم في داره.

ثم ركب الكتخدا ومرَّ في طريقه على خان الحمزاوي وطلب البواب، فلما مثل بين يديه أمر بضربه كذلك، وضرب أيضًا شيخ مرجوش، وأما طايفة خان الخليلي ونصارى الحمزاوي فلم يتعرض لهم.

واستهل شهر شعبان بيوم الخميس (سنة ١٢٣١)

فيه من الحوادث أن بعض العيارين من السراق تعدوا على قهوة الباشا بشبرا، وسرقوا جميع ما بالنصبة من الأواني والبكارج والفناجين والظروف، فأحضر الباشا بعض أرباب الدرك بتلك الناحية، وألزمه بإحضار السراق والمسروق، ولا يقبل له عذرًا في التأخير، ولو يصالح على نفسه بخزينة أو أكثر من المال، ولا يكون غير ذلك أبدًا وإلا نكل به نكالًا عظيمًا وهو المأخوذ بذلك، فترجى في طلب المهلة أيامًا، وحضر بخمسة أشخاص وأحضروا المسروق بتمامه، لم ينقص منه شي، وأمر بالسراق فخوزقوهم في نواحي متفرقين بعد أن قرروهم على أمثالهم، وعرفوا عن أماكنهم وجمع منهم زيادة عن الخمسين، وشنق الجميع في نواحي متفرقة بالأقاليم مثل: القليوبية والغربية والمنوفية.

وفي منتصفه يوم الجمعة الموافق لرابع مسرى القبطي أوفى النيل أذرعه، وفتح سد الخليج يوم السبت.

وفيه وقع من النوادر أن امرأة ولدت مولودًا براسين وأربعة أيدي وله وجهان متقابلان، والوجهان بكتفيهما مفروقان من حد الراس، وقيل لحد الصدر، والبطن واحد،

وتلاتة أرجل وإحدى الأرجل لها عشرة أصابع، فيقال إنه قام يومًا وليلة حيًّا ومات، وشاهده خلق كثير، وطلعوا به إلى القلعة ورآه كتخدا بك وكل من كان حاضرًا بديوانه، فسبحان الخلاق العظيم!

واستهل شهر رمضان بيوم الجمعة (سنة ١٢٣١)

حصل فيه من النوادر أن في تاسع عشره علق شخص عسكري غلامًا من أولاد البلد، وصار يتبعه في الطرقات إلى أن صادفه ليلة بالقرب من جامع ألماس بالشارع، فقبض عليه وأراد الفعل به في الطريق، فخدعه الغلام وقال له: إن كان ولا بد فادخل بنا في مكان لا يرانا فيه أحد الناس، فدخل معه درب حلب المعروف الآن بدرب خير بك حديد، وهناك دور الأمرا التي صارت خرايب، فحل العسكري سراويله فقال له الغلام: أرني بتاعك فلعله يكون عظيمًا لا أتحمله جميعه، وقبض عليه وكان بيده موسى مخفية في يده الأخرى، فقطع ذكره بتلك الموسى سريعًا، وسقط العسكري مغشيًّا عليه، وتركه الغلام وذهب في طريقه، وحضر رفقا العسكري وحملوه، وأحضروا له سليم الجرايحي فقطع ما بقي من مذاكيره، وأخذ في معالجته ومداواته ولم يمت العسكري.

واستهل شهر شوال بيوم السبت (سنة ١٢٣١)

وكان حقه يوم الأحد؛ وذلك أن أواخر رمضان حضر جماعة من دمنهور البحيرة وأخبروا عن أهل دمنهور أنهم صاموا يوم الخميس، فطلب الباشا حضور من رأى الهلال تلك الليلة، فحضر اتنان من العسكر وشهدا برؤيته ليلة الخميس، فأثبتوا بذلك هلال رمضان، ويكون تمامه يوم الجمعة، وأخبر جماعة أيضًا أنهم رأوا هلال شوال ليلة السبت، وكان قوسه في حساب قواعد الأهلة تلك الليلة قليلًا جدًّا، ولم يرَ في تاني ليلة منه إلا بعسر وإنما اشتبه على الرائين؛ لأن المريخ كان مقارنًا للزهرة في برج الشمس من خلفها، وبينهما وبين الشمس رؤيا بعدها في شعاع الشمس يشبه الهلال، فظن الراءون أنه الهلال، فليتنبه لذلك فإن ذلك من الدقايق التي تخفى على أهل الفطانة، فضلًا عن غيرهم من العوام الذين يسارعون إلى إفساد العبادات حِسْبة بالظنون الكاذبة لأجل أن يقال: شهد فلان ونحو ذلك.

وفي أواخره قلد الباشا شخصًا من أقاربه يسمى شريف أغا على دواوين المبتدعات، وضم إليه جماعة من الكتبة أيضًا المسلمين والأقباط، وجعلوا ديوانهم ببيت أبي

الشوارب وعمروه عمارة عظيمة، وواظبوا الجلوس فيه كل يوم لتحرير المبتدعات ودفاتر المكوس.

واستهل شهر ذي القعدة (سنة ١٢٣١)

فيه انهدم جانب من السواقي التي أنشاها الباشا بشبرا على حين غفلة، وقد قوي عليها النيل فتهدمت وتكسرت أخشابها وسقط معها أشخاص كانوا حولها، فنجا منهم من نجا وغرق منهم من غرق، وكان الباشا بقصر شبرا مقيمًا به وهو يرى ذلك.

وانقضت السنة وأخبار بعض حوادثها، واستمرار ما تجدد فيها من المبتدعات التي لا حصر لها.

منها الحجر على المزارع التي يزرعونها الفلاحون في الأراضي التي يدفعون خراجها من الكتان والسمسم والعصفر والنيلة والقطن والقرطم، وإذا بدا صلاحه لا يبيعون منه كعادتهم، وإنما يشتريه الباشا بالثمن الذي يفرضه ويقدره على يد أُمنا النواحي والكشاف، ويحملونه إلى المحل الذي يؤمرون بحمله إليه، ويعطى لهم الثمن أو يحسب لهم من أصل المال، فإن احتاجوا لشي من ذلك اشتروه بالثمن الزايد المفروض، وكذلك القمح والفول والشعير لا يبيعون منه شيًّا لغير طرف الباشا بالثمن المفروض والكيل الوافي.

ومنها الأمر لكشاف الأقاليم بالمناداة على العامة بالمنع لمن يأخذ أو يأكل من الفول الأخضر والحمص والحلبة، وأن المعينين في الخدم والمباشرين وكشاف النواحي لا يأخذون شيًّا من الفلاحين كعادتهم من غير ثمن، فمن عثر عليه يأخذ شيًّا ولو رغيفًا أو تبنًا أو من رجيع البهايم حصل له مزيد الضرر، ولو كان من الأعاظم، وكذلك الأمر بتكميم أفواه المواشي التي تسرح للمرعى حوالي الجسور والغيطان.

ومنها أن نصرانيًّا من الأرمن التزم بقلم الأبزار التي تأتي من بلاد الصعيد مثل الحبة السودا والشمر والأنيسون والكمون والكراويا ونحو ذلك بقدر كبير من الأكياس، ويتولى هو شراها دون غيره ويبيعها بالثمن الذي يفرضه، ومقدار ما التزم بدفعه من الأكياس للخزينة على ما بلغنا خمسماية كيس، وكانت في أيام الأمرا المصريين عشرة أكياس لا غير، فلما تولى على وكالة دار السعادة صالح بك المحمدي زادها عشرة أكياس.

وكانت وكالة الأبزار والقطن وقفًا لمصطفى أغا دار السعادة سابقًا على خيرات الحرمين وخلافهما، فلما كانت هذه الدولة تولاها شخص على مايتي كيس، وعند ذلك سعر

الأبزار أضعاف الثمن الأصلي، ومن داخل الأبزار التمر الأبريمي والسلطاني، والخوص والمقاطف والسلب والليف، وبلغ سعر المقطف الذي يسع الكيلة من البُر خمسة وعشرين نصفًا، وكان يباع بنصف أو نصفين إن كان جيدًا وفي الجملة أقل من ذلك.

ومنها أن كربليت معلم ديوان الكمرك ببولاق التزم بمشيخة الحمامية، وأحدث عليها وعلى توابعها حوادث، وعلى النسا البلانات في كل جمعة قدرًا من الدراهم، وجعل لنفسه يومًا في كل جمعة يأخذ إيراده من كل حمام.

ومنها ما حصل في هذه السنة من شحة الصابون وعدم وجوده بالأسواق ومع السراحين، وهو شي لا يستغني عنه الغني ولا الفقير، وذلك أن تُجَّارَه بوكالة الصابون زادوا في ثمنه محتجِّين بما عليهم من المغارم والرواتب لأهل الدولة، فيأمر الكتخدا فيه بأمر ويسعره بثمن فيدَّعون الخسران وعدم الربح.

وتكرر الحال فيه المرة بعد المرة يتشكون من قلة المجلوب إلى أن سعر رطله بستة وتلاتين نصفًا، فلم يرتضوا ذلك وبالغوا في التشكي، فطلب قوايمهم وعمل حسابهم وزادهم خمسة أنصاف في كل رطل، وحلف أن لا يزيد على ذلك، وهم مصممون على دعوى الخسران.

فأرسل من أتباعه شخصًا تركيًّا لمباشرة البيع وعدم الزيادة، فيأتي إلى الخان في كل يوم يباشر البيع على من يشتري بذلك الثمن لأربابه، ويمكث مقدار ساعتين من النهار، يغلق الحواصل ويرفع البيع لتاني يوم، وفي ظروف هاتين الساعتين تزدحم العسكر على الشرا ولا يتمكن خلافهم من أهل البلد من أخذ شي، وتخرج العسكر فيبيعون من الذي اشتروه على الناس بزيادة فاحشة، فيأخذ الرطل بقرش ويبيعه على غيره بقرشين.

ورفع التشكي إلى كتخدا فأمر ببيعه عند باب زويلة في السبيلين المواجه أحدهما للباب والسبيل الذي أنشأته الست نفيسة المرادية عند الخان تجاه الجامع المؤيدي، ليسهل على العامة تحصيله وشراه، فلم يزداد الحال إلا عسرًا.

وذلك أن البايع يجلس داخل السبيل ويغلق عليه بابه، ويتناول من خروق الشبابيك من المشتري الثمن ويناوله الصابون، فازدحمت طوايف العسكر على الشراء، ويتعلقون بأيديهم وأرجلهم على شبابيك السبيلين، والعامة أسفلهم لا يتمكنون من أخذ شي، ويمنعون من يزاحمهم؛ فيكون على السبيلين ضجة وصياح من الفريقين، فلا يسع ابن البلد الفقير المضطر إلا أن يشتري من العسكري بما أحب، وإلا رجع إلى منزله من غير شي، واستمر الحال على هذا المنوال أيامًا.

وفي بعض الأحايين يكثر وجود الصابون بين أيدي الباعة بوسط السوق، ولا تجد عليه مزاحمة وأمام البائع كوم عظيم وهو ينتظر من يشتري، وذلك في غالب الأسواق مثل: الغورية والأشرفية وباب زويلة والبندقانيين والجهات الخارجة، ثم يصبحون فلا يوجد منه شي، ويرجع الازدحام على السبيلين كالأول.

ومنها أن الباشا أطلق المناداة في البلدة وندب جماعة من المهندسين والمباشرين للكشف على الدور والمساكن، فإن وجدوا به أو ببعضه خللًا أمروا صاحبه بهدمه وتعميره، فإن كان يعجز عن ذلك فيؤمر بالخروج منها وإخلاها، ويعاد بناها على طرف الميري، وتصير من حقوق الدولة.

وسبب هذه النكتة أنه بلغ الباشا سقوط دار ببعض الجهات ومات تحت ردمها تلات أشخاص من سكانها، فأمر بالمناداة وأرسل المهندس والأمر بما ذكر، فنزل بأهالي البلد من الكرب أمر عظيم مع ما هم فيه من الإفلاس وقطع الإيراد وغلوِّ الأسعار.

على أن من كان له مقدرة على الهدم والبنا لا يجد من أدواته شيًّا بحسب التحجير الواقع على أرباب الأشغال واستعمال الجميع في عماير الباشا وأكابر الدولة، حتى إن الإنسان إذا احتاج لبنا كانون لا يجد من يبنيه، ولا يقدر على تحصيل صانع أو فاعل أو أخذ شيء من رماد الحمام إلا بفرمان، ومن حصَّل شيًّا من ذلك على طريق السرقة في غفلة وعثر عليه نكلوا به وبريس الحمام.

وحمير الباشا — وهي أزيد من ألفي حمار — تنقل بالمزابل والسرقانيات طول النهار ما يوجد بالحمامات من الرماد، وتنقل أيضًا الطوب والدبش والأتربة وأنقاض البيوت المنهدمة لمحل العماير بالقلعة وغيرها، فترى الأسواق والعطف مزدحمة بقطارات الحمير الذاهبة والراجعة، وإذا هدم إنسان داره التي أمروه بهدمها وصل إليه في الحال قطار من الحمير لأخذ الطوب الذي يتساقط، إلا أن يكون من أهل القدرة على منعهم، وربما كانت هذه الأوامر حيلة على أخذ الأنقاض، وأما الأتربة فتبقى بحالها حتى في طرق المارة للعجز عن نقلها، فترى غالب الطرق والنواحي مردومة بالأتربة.

وأما الهدم ونقل الأنقاض من البيوت الكبار والدور الواسعة التي كانت مساكن الأمرا المصريين بكل ناحية، وخصوصًا بركة الفيل وجهة الحبانية فهو مستمر، حتى بقيت خرايب ودعايم قايمة وكيمان هايلة، واختلطت بها الطرق وأصبحت موحشة ولا مأوى بها حتى للبوم بعد أن كانت مراتع غزلان، فكنت كلما رأيتها أتذكر قول القايل:

هـذي مـنـازل أقـوام عـهـدتـهُـمُ   في خفض عيش نعيم ما له خَطَرُ
صاحتْ بهم نُوَبُ الأيام فارتحلوا   إلـى الـقـبـور فـلا عـينٌ ولا أثـرُ

وكذلك بولاق التي كانت متنزه الأحباب والرفاق، فإنه تسلط عليها كلٌّ من سليمان أغا السلحدار وإسماعيل باشا في الهدم وأخذ أنقاض الأبنية لأبنيتهم ببر إنبابة والجزيرة الوسطى بين إنبابة وبولاق، فإن سليمان أغا أنشأ بستانًا كبيرًا بين إنبابة وسوَّره وبنى به قصرًا وسواقي، وأخذ يهدم أبنية بولاق من الوكايل والدور، وينقل أحجارها وأنقاضها في المراكب ليلًا ونهارًا إلى البر الآخر.

وإسماعيل باشا كذلك أنشأ بستانًا وقصرًا بالجزيرة، وشرع أيضًا في اتساع سرايته ومحل سكنه ببولاق، وأخذ الدور والمساكن والوكايل من حد الشُّوَن القديم إلى آخر وكالة الأبزار العظيمة طولًا، فيهدمون الدور وغيرها من غير مانع ولا شافع، وينقلون الأنقاض إلى محل البنا، وكذلك ولي خوجة شرع في بنا قصر بالروضة ببستان، فهو الآخر يهدم ما يهدمه من مصر القديمة، وينقل أنقاضه لبناه، وهلك قبل إتمامه.

وأما نصارى الأرمن وما أدراك ما الأرمن الذين هم أخصاء الدولة الآن، فإنهم أنشوا دورًا وقصورًا وبساتين بمصر القديمة لسكنهم، فإنهم يهدمون أيضًا وينقلون لأبنيتهم ما شاءوا ولا حرج عليهم، وإنما الحرج والمنع والحجر والهدم على المسلمين من أهل البلدة فقط.

ومنها أن الباشا أمر ببنا مساكن للعسكر الذين أخرجهم من مصر بالأقاليم يسمونها القشلات، بكل جهة من أقاليم الأرياف لسكن العساكر المقيمين بالنواحي لتضررهم من الإقامة الطويلة بالخيام في الحر والبرد، واحتياج الخيام في كل حين إلى تجديد وترقيع وكثير خدمة، وهي جمع قشلة بكسر القاف وسكون الشين وهي في اللغة التركية المكان الشتوي؛ لأن الشتاء في لغتهم يسمى قش بكسر القاف وسكون الشين.

فكتب مراسيم إلى النواحي بساير القرى بالأمر لهم بعمل الطوب اللبن ثم حرقه وحمله إلى محل البنا، وفرضوا على كل بلد وقرية فرضًا وعددًا معينًا، فيفرض على القرية مثلًا خمسماية ألف لبنة وأكثر بحسب كبر القرية وصغرها، فيجمع كاشف الناحية مشايخ القرى، ثم يفرض على كل شيخ قدرًا وعددًا من اللبن عشرين ألفًا أو تلاتين ألفًا أو أكثر أو أقل، ويلزم بضربها وحرقها ورفعها وأجلهم مدة تلاتين يومًا.

وفرضوا على كل قرية أيضًا مقادير من أفلاق النخل ومقادير من الجريد، ثم فرضوا عليهم أيضًا أشخاصًا من الرجال لمحل الأشغال والعماير يستعملونهم في فعالة

نقل أدوات العمارة في النواحي حتى إسكندرية وخلافها، ولهم أجرة أعمالهم في كل يوم لكل شخص سبعة أنصاف فضة لا غير، ولمن يعمل اللبن أجرة أيضًا، ولثمن الأفلاق والجريد قدر معلوم لكنه قليل.

ومنها أنه توجه الأمر لكشاف النواحي عند انكشاف الماء عن الأراضي بأن يتقدموا إلى الفلاحين بأن من كان زارعًا في العام الماضي فداني كتان أو حمص أو سمسم أو قطن، فليزرع في هذه السنة أربعة أفدنة ضعف ما تقدم؛ لأن المزارعين عزموا على عدم زراعة هذه الأشيا لما حصل لهم من أخذ ثمرات متاعهم وزراعاتهم التي دفعوا خراجها الزايد بدون القيمة التي كانوا يبيعون بها، مع قلة الخراج الذي كانوا يماطلون فيه الملتزمين السابقين مع التظلم والتشكي، فيزرع الزراع ما يزرعه من هذه الأشيا من التقاوي المتروكة في مخزنه، ثم يبيع الفدان من الكتان الأخضر في غيطه إن كان مستعجلًا بالثمن الكثير، وإلا أبقاه إلى تمام صلاحه فيجمعه ويدقه ويبيع ما يبيعه من البزر خاصة بأغلى ثمن، ثم يتمم خدمته من التعطين والنشر والتخمير، إلى أن يصفى وينظف من أدرانه وخشوناته، وينصلح للغزل والنسج فيباع حينئذٍ بالأوقية والرطل، وكذا القطن والنيلة والعُصفر.

فلما وقع عليهم التحجير وحُرموا من المكاسب التي كانوا يتوسعون بها في معايشهم باقتنا المواشي والحلي للنسا قالوا: ما عدنا نزرع هذه الأشيا.

وظنوا أن يُتركوا على هواهم، ونسوا مكر أولياهم، فنزل عليهم الأمر والإلزام بزرع الضعف، فضجوا وترجوا واستشفعوا ورضوا بمقدار العام الماضي، فمنهم من سومح، ومنهم من لم يسامَح وهو ذو المقدرة.

وبعد إتمامه وكمال صلاحه يؤخذ بالثمن المفروض على طرف الميري، ويباع لمن يشتري من أربابه أو خلافهم بالثمن المقدر، وربح زيادته لطرف حضرة الباشا مع التضييق والحجر البليغ والفحص عن الاختلاس، فمن عثروا عليه باختلاس شيء ولو قليلًا عوقب عقابًا شديدًا ليرتدع خلافه.

والكتبة والموظفون لتحرير كل صنف ووزنه وضبطه في تنقلات أطواره، وعند تسليم الصناع.

ونتج من ذلك وأثمر عزة الأشيا وغلوٍّ الأسعار على الناس، منها أن المقطع القماش الذي كان تمنه تلاتين نصفًا بلغ سعره عشرة قروش مع عزة وجدانه بالأسواق المعدة لبيعه، مثل سوق مرجوش وخلافه خلا الطوافين به، والتوب البطانة الذي كان تمنه

قرشين بلغ تمن الثوب شبعة قروش، وأدركناه في الأزمان السابقة يباع بعشرين نصفًا، وبلغ تمن التوب من البفتة المحلاوي أربعة عشر قرشًا، وكان يباع فيما أدركنا بدكان التاجر بستين نصفًا.

وقس على ذلك، وبسبب التحجير على النيلة غلا صبغ تياب الفقرا، حتى بلغ صبغ الذراع الواحد نصف قرش، والله يلطف بحال خلقه، وما دام توزون له امرأة مطاعة فالميل في الجمر.

ومنها استمر التحجير على الأرز ومزارعه على مثل هذا النسق، بحيث إن الزارعين التعبانين فيه لا يمكَّنون من أخذ حبة منه، فيؤخذ بأجمعه لطرف الباشا بما قدره من الثمن، ثم يخدم ويضرب ويبيض في المداوير والمدقات والمناشر بأجرة العمال على طرفه، ثم يباع بالثمن المفروض.

واتفق أن شخصًا من أبنا البلد يسمى حسين جلبي عجوة ابتكر بفكره صورة دايرة، وهي التي يدقون بها الأرز، وعمل لها مثالًا من الصفيح تدور بأسهل طريقة، بحيث إن الآلة المعتادة إذا كانت تدور بأربعة أثوار فيدير هذه ثوران، وقدم ذلك المثال إلى الباشا فأعجبه وأنعم عليه بدراهم وأمره بالمسير إلى دمياط، ويبني بها دايرة ويهندسها برأيه ومعرفته، وأعطاه مرسومًا بما يحتاجه من الأخشاب والحديد والمصرف، ففعل وصح قوله ثم فعل أخرى برشيد وراج أمره بسبب ذلك.

ومنها أن الباشا لما رأى هذه النكتة من حسين شلبي هذا قال: إن في أولاد مصر نجابة وقابلية للمعارف، فأمر ببنا مكتب بحوش السراية، ويرتب فيه جملة من أولاد البلد ومماليك الباشا، وجعل معلمهم حسن أفندي المعروف بالدرويش الموصلي يقرر لهم قواعد الحساب والهندسة، وعلم المقادير والقياسات والارتفاعات واستخراج المجهولات مع مشاركة شخص رومي يقال له روح الدين أفندي، بل وأشخاصًا من الإفرنج، وأحضر لهم آلات هندسية متنوعة من أشغال الإنكليز يأخذون بها الأبعاد والارتفاعات والمساحة، ورتب لهم شهريات وكساوي في السنة.

واستمروا على الاجتماع بهذا المكتب وسموه مهندس خانة، في كل يوم من الصباح إلى بعد الظهيرة، ثم ينزلون إلى بيوتهم، ويخرجون في بعض الأيام إلى الخلا لتعليم مساحات الأراضي وقياساتها بالأقصاب، وهو الغرض المقصود للباشا.

ومنها استمرار الإنشا في السفن الكبار والصغار لنقل الغلال من قبلي وبحري لناحية إسكندرية لتباع على الإفرنج من ساير أصناف الحبوب، فيشحنون السفن من

سواحل البلاد القبلية، وتأتي إلى ساحل بولاق ومصر القديمة، فيصبونها كيمانًا هايلة عظيمة صاعدة في الهوا، فتصل المراكب البحرية لنقلها، فتصبح ولا يبقى شي منها، ويأتي غيرها وتعود كما كانت بالأمس، ومثل ذلك بساحل رشيد.

وأما الحبوب البحرية، فإنها لا تأتي إلى هذه السواحل، بل تذهب من سواحلها إلى حيث هي برشيد ثم إلى إسكندرية.

ولما بطل البغاز جمعوا الحمير الكثيرة والجِمال، ينقلون عليها على طريق البر بالأجرة القليلة، فكانت تموت من قلة العلف ومشقة الطريق، وتوسق بها السفن الواصلة بالطلب إلى بلاد الإفرنج بالثمن عن كل أردب من البُر ستة آلاف فضة، وأما الفول والشعير والحلبة والذرة وغيرها من الحبوب والأدهان فأسعارها مختلفة، ويعوض بالبضايع والنقود من الفرانسة معبأة في صناديق صغيرة، تحمل التلاتة منها على بعير إلى الخزينة وهي مصفحة بالحديد يمرون بها قطارات إلى القلعة.

وعند قلة الغلال ومُضي وقت الحصاد يتقدم إلى كشاف النواحي القبلية والبحرية بفرض مقادير من الغلال على البلدان والقرى، فيلزمون مشايخ البلدان بما تقرر على كل بلد من القمح والفول والذرة ليجمعوه ويحصلوه من الفلاحين.

وهم أيضًا يعملون بفلاحي بلادهم ما يعملون بجورهم وأغراضهم، ويأخذون الأقوات المدخرة للعيال، وذلك بالثمن عن كل أردب من البُر تمانية ريال، يعطى له نصفها، ويبقى له النصف التاني ليحسب له من أصل المال الذي سيطالَب به في العام القابل.

ومنها أن الباشا سنح له أن ينشي بالمحل المعروف برأس الوادي بشرقية بلبيس سواقي وعمارات ومزارع وأشجار توت وزيتون، فذهب هناك وكشف عن أراضيه فوجدها متسعة وخالية من المزارع، وهي أراضي رمال وأودية، فوكل أناسًا لإصلاحها وتمهيدها، وأن يحفروا بها جملة من السواقي تزيد عن الألف ساقية، ويبنوا أبنية ومساكن ويزرعوا أشجار التوت لتربية دود القز وأشجارًا كثيرة من الزيتون لعمل الصابون، وشرعوا في العمل والحفر والبنا، وفي إنشا توابيت خشب للسواقي تُصنع ببيت الجبجي بالتبانة، وتُحمل على الجِمال إلى راس الوادي شيًّا بعد شي، وأمر أيضًا ببنا جامع الظاهر بيبرس خارج الحسينية، وأن يعمل مصبنة لصناعة الصابون وطبخه، مثل الذي يُصنع ببلاد الشام، وتوكل بذلك السيد أحمد بن يوسف فخر الدين، وعمل به أحواضًا كبيرة للزيت والقلي.

ومن المتجددات أيضًا محل بخطة تحت الربع يعمل به وتسبك أواني ودسوت من النحاس في غاية الكبر والعظم.

ومنها شغل البارود وصناعته بالمكان والصناع المعدة لذلك بجزيرة الروضة بالقرب من المقياس، بعد أن يستخرجوه من كيمان السباخ في أحواض مبنية ومخفقة، ثم يكررونه بالطبخ حتى يكون ملحه غاية البياض والحدة كالذي يُجلب من بلاد الإنكليز، والمتقيد كبيرًا على صناعة شخص أفرنكي، ولهم معاليم تصرف في كل شهر.

ومكان أيضًا بالقلعة عند باب الينكجرية لسبك المدافع وعملها وقياساتها وهندستها، والبنبات وارتفاعاتها ومقاديرها، وسُمي ذلك المكان الطبخانة، وعليه ريس وكتبة وصناع ولهم شهريات.

ومنها شدة رغبة الباشا في تحصيل الأموال والزيادة من ذلك من أي طريق بعد استيلاه على البلاد والإقطاعات والرزق الإحباسية، وإبطال القراع والبيع والشرا والمحلول عن الموتى من ذلك، والعلوفات وغلال الأنبار ونحو ذلك، فكل من مات عن حصته أو رزقته أو مرتب انحل بموته ما كان على اسمه وضُبط وأُضيف إلى ديوانه، ولو له أولاد أو كان هو كتبه باسم أولاده وماتت أولاده قبله، انحل عنه وأصبح هو وأولاده من غير شيء، فإن أعرض حاله على الباشا أمر بالكشف عن إيراده، فإن وجدوا بالدفاتر جهة أو وظيفة أخرى قيل له: هذه تكفيك، وإن لم يوجد في حوزه خلافها أمر له بشي يستغله من أقلام المكوس، إما قرش أو نصف قرش في كل يوم أو نحو ذلك.

هذا مع التفاته ورغبته في أنواع التجارات والشركات، وإنشا السفن ببحر الروم والقلزم، وأقام وكلا بساير الأساكل حتى ببلاد فرانسة والإنكليز ومالطة وأزمير وتونس والنابلطان والونديك والبنادقة واليمن والهند.

وأعطى أناسًا جملًا عظيمة من أموال يسافرون بها ويجلبون البضايع، وجعل لهم الثلث في الربح في نظير سفرهم وخدمتهم، فمن ذلك أنه أعطى للريس حسن المحروقي خمسماية ألف فرانسة يسافر بها إلى الهند ويشتري البضايع الهندية ويأتي بها إلى مصر، ولشخص نصراني أيضًا ستماية ألف فرانسة، وكذلك لمن يذهب إلى بيروت وبلاد الشام لمشتري القز والحرير وغير ذلك.

وعمل بمصر أماكن ومصانع لنسج القطاني التي يتخذها الناس في ملابسهم من القطن والحرير، وكذلك الجنفس والصندل، واحتكر ذلك بأجمعه.

وأبطل دواليب الصناع لذلك ومعلميهم، وأقامهم يشتغلون وينسجون في المناسج التي أحدثها بالأجرة، وأبطل مكاسبهم أيضًا وطرايقهم التي كانوا عليها، فيأخذ من

ذلك ما يحتاجه في اليلكات والكساوي وما زاد يرميه على التجار، وهم يبيعونه على الناس بأغلى ثمن، وبلغ ثمن الدرهم من الحرير خمسة وعشرين نصفًا بعد أن كان يباع بنصفين.

ومنها أنه أبطل ديوان المنجرة، وهي عبارة عما يؤخذ من المعاشات، وهي المراكب التي تغدو وتروح لموارد الأرياف مثل: شيبين الكوم وسمنود والبلاد البحرية، وعليها ضرايب وفرايض للملتزم بذلك وهو شخص يسمى علي الجزار؛ وسبب ذلك أن معظم المراكب التي تصعد ببحر النيل وتنحدر من إنشا الباشا ولم يبقَ لغيره إلا القليل جدًّا.

والعملُ والإنشا بالترسخانة مستمر على الداوم، والريسا والملاحون يخدمون فيها بالأجرة، وعمارة خللها وأحبالها وجميع احتياجاتها على طرف الترسخانة، ولذلك مباشرون وكتاب وأُمنا يكتبون ويقيدون الصادر والوارد، وهذه الترسخانة بساحل بولاق بها الأخشاب الكثيرة والمتنوعة، وما يصلح للعماير والمراكب، ويأتي إليها المجلوب من البلاد الرومية والشامية، فإذا ورد شي من أنواع الأخشاب سمحوا للخشابة بشيء يسير منها بالثمن الزايد، ورفع الباقي إلى الترسخانة، وجميع الأخشاب الواردة والأحطاب جميعها في متاجر الباشا، وليس لتجارها إلا ما كان من داخل متاجره وهو القليل.

ومن النوادر أنه وصل من بلاد الإنكليز سواقي بآلات الحديد تدور بالماء، فلم يستقم لها دوران على بحر النيل.

ومنها أنه أنشأ جسرًا ممتدًّا من ناحية قنطرة الليمون على يمنة السالك إلى طريق بولاق، متصلًا إلى شبرا على خط مستقيم، وزرعوا بحافتيه أشجار التوت، وعلى هذا النسق جسور بطرق الأرياف والأقاليم.

ومنها أن اللحم قل وجوده من أول شهر رجب إلى غاية السنة، وغلا سعره مع رداه وهزاله حتى بيع الرطل بعشرين نصفًا وأزيد وأقل، مع ما فيه من العظام وأجزا السقط والشغت، وسبب ذلك رواتب الدولة وأخذها بالثمن القليل، فيستعوض الجزارون خسارتهم من الناس، وكان البعض من العسكر يشتري الأغنام ويذبحها ويبيعها بالثمن الغالي، وينقص الوزن ولا يقدر ابن البلد على مراجعته.

ومنها أن إبراهيم أغا الذي كان كتخدا إبراهيم باشا قلده الباشا كشوفية المنوفية، فمن أفاعيله أنه يطلب مشايخ البلدة أو القرية فيسأل الشخص منهم على من شيَّخه فيقول: أستاذ البلدة، فيقول له: في أي وقت؟ فيقول: سنة كذا، فيقول: وما الذي قدمته في شياختك؟ ويهدده أو يحبسه على الإنكار أو يخبر من بادي الأمر، ويقول: أعطيته كذا وكذا

إما دراهم أو أغنامًا، فيأمر الكاتب بتقييده وتحريره وضبطه على الملتزم، وسطر بذلك دفترًا وأرسله إلى الديوان ليخصم على الملتزمين من فايظهم المحرر لهم بالديوان، فيتفق أن المحرر عليه يزيد على القدر المطلوب له، فيطالب بالباقي أو يخصم عليه من السنة القابلة.

ومنها التحجير على القصب الفارسي، فلا يتمكن أحد من شرا شي منه ولو قصبة واحدة إلا بمرسوم من كتخدا بك، فمن احتاج منه في عمارة أو شباك أو لدوران الحرير أو أقصاب الدخان، أخذ فرمانًا بقدر احتياجه، واحتاج إلى وسايط ومعالجات واحتجاجات حتى يظفر بمطلوبه.

ومنها وهي من محاسن الأفعال أن الباشا أعمل همته في إعادة السد الأعظم الممتد الموصل إلى إسكندرية، وقد كان اتسع أمره وتخرب من مدة سنين، وزحف منه ماء البحر المالح، وأتلف أراضي كثيرة وخربت منه قرى ومزارع، وتعطلت بسببه الطرق والمسالك، وعجزت الدول في أمره، ولم يزل يتزايد في التهور وزحف المياه المالحة على الأراضي، حتى وصلت إلى خليج الأشرفية التي يمتلي منها صهاريج الثغر، فكانوا يجسرون عليه بالأتربة والطين.

فلما اعتنى الباشا بتعمير إسكندرية وتشييد أركانها وأبراجها وتحصينها، ولم تزل بها العمارات اعتنى أيضًا بأمر الجسر، وأرسل إليه المباشرين والقَوَمة والرجال والفَعَلة والنجارين والبنايين والمسامير وآلات الحديد والأحجار، والمون والأخشاب العظيمة والسهوم والبراطيم حتى تمَّمه، وكان له مندوحة لم تكن لغيره من ملوك هذه الأزمان، فلو وفقه الله لشي من العدالة على ما فيه من العزم والرياسة والشهامة والتدبير والمطاولة لكان أعجوبة زمانه وفريد أوانه.

وأما أمر المعاملة فلم يزل حالها في التزايد حتى وصل صرف الريال الفرانسة إلى تسعة قروش، وهو أربعة أمثال الريال المتعارف، ولما بطل ضرب القروش من العام الماضي ضربوا بدلها أنصاف قروش، وأرباعها وأثمانها، وتصرف بالفرط، والأنصافُ العددية لا وجود لها بأيدي الناس إلا ما قلَّ جدًّا، فإذا أراد إنسان منها دَفَعَ في إبدالها عشرة قروش عنها أربعماية نصف فضة زيادة على المبدل إن كان ذهبًا أو فرانسة أو قروشًا، ووصل صرف البندقي إلى ثمانماية نصف، والمجر ثمانية عشر قرشًا، والمحبوب المصري إلى أربعماية، والإسلامبولي إلى أربعماية وثمانين.

كل ذلك أسما لا مسميات لانعدام الأنصاف، مع أنه يضرب منها المقادير والقناطير يأخذها التجار الشاميون والروميون بالفرط، ثم يرسلونها متاجرة بدلًا عن البضايع؛

لأن الريال في تلك البلاد صرفه تلتماية نصف فقط، فيكون فيه من الربح ستون نصفًا في كل ريال.

ولما علم الباشا ذلك جعل يرسل لوكلاه بالشام في كل شهر ألف كيس من الفضة العددية، ويأتيه بدلها فرانسة، فيضيف عليها ثلاثة أمثالها نحاسًا ويضربها فضة عددية، فيربح فيها ربحًا بدون حاء مالًا عظيمًا، وهكذا من هذا الباب فقط.

ومن حوادث السنة الآفاقية واقعة الإنكليز مع أهل الجزاير، وهو أن لأهل الجزاير صولة واستعدادات وغزوات في البحر، ويغزون مراكب الإفرنج ويغتنمون منها غنايم ويأخذون منهم أسرى، وتحت أيديهم من أسارى الإنكليز وغيرهم شي كثير، ومدينتهم حصينة يدور بها سور خارج في البحر كنصف الدايرة في غاية الضخامة والمتانة، ذو أبراج مشحونة بالمدافع والقنابر والمرابطين والمحاربين ومراكبهم من داخله، فوصل إليهم بعض مراكب الإنكليز ومعهم مرسوم من السلطان العثماني ليفتدوا أساراهم بمال، فأعطوهم ما يزيد عن الألف أسير، ودفعوا عن كل رأس أسير ماية وخمسين فرانسًا، ورجعوا من حيث أتوا.

وبعد مدة وصل منهم بعض سفاين إلى خارج المينا، رافعين أعلام السلم والصلح فعبروا داخل المينا من غير ممانع، ونزل منهم أنفار في فلوكة وبيدهم مرسوم بطلب باقي الأسرى، فامتنع حاكمهم من ذلك وترددوا في المخاطبات، وفي أثنا ذلك وصلت عدة مراكب من مراكبهم وشلنبات، وهي المراكب الصغار المعدة للحرب، وعبروا مع مساعدة الريح إلى المينا وأثاروا الحرب والضراب بطرايقهم المستحدثة، فأحرقوا مراكب أهل الجزاير مع المضاربة أيضًا من أهل المدينة، مع تأخر استعدادهم وسرعة استعداد الخصم، ومدافع الأبراج الداخلة لا تصيب الشلنبات الصغيرة المتسفلة وهم لا يخطون.

ثم هم في شدة الغارة والحرب إذ قيل للحاكم بأن عساكره الأتراك تركوا المحاربة واشتغلوا بنهب البلدة وإحراق الدور، فسقط في يده، واحتار في أمره ما بين قتال العدو الواصل أو قتال عسكره ومنعهم وكفهم عن النهب والإحراق والفساد، وهذا شأنهم فلم يسعه إلا خفض الأعلام وطلب الأمان من الإنكليز.

فعند ذلك بطلوا الحرب وكفوا عن الضرب، وترددوا في الصلح على شرايطهم التي منها تسليم بواقي الأسرى واسترداد المال الذي سلموه في الفدا السابق حالًا من غير مهلة فكان ذلك، وتسلموا الأسرى وفيهم من كان صغيرًا وأسلم وقرا القرآن، واتفقوا على المتاركة والمهلة زمنًا مقداره ستة أشهر، ورجعوا إلى بلادهم بالظفر والأسرى والأمر لله وحده.

ثم إن الجزايرلية اجتهدوا في تعمير ما تهدم وتخرب من السور والأبراج والجامع في الحرب، وكذلك ما أخربه عساكرهم الذين هم أعدى من الأعدا، وأضر ما يكون على الإسلام وأهله.

وصارت الأخبار بذلك في الآفاق وأمدهم سلطان المغرب مولاي سليمان، وبعث إليهم مراكب عوضًا عن الذي تلف من مراكبهم، فأرسل إليهم معمرين وأدوات ولوازم عمارات، وكذلك حاكم تونس وغيرها، ومن السلطان العثماني أيضًا.

ولم يتفق فيما نعلم لأهل الجزاير مثل هذه الحادثة الهايلة ولا أشنع منها، وكانت هذه الواقعة غرة شهر شوال من السنة وهو يوم عيد الفطر، وكان عيدًا عليهم في غاية الشناعة، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وأما من مات في هذه السنة ممن له ذكر، فمات الشيخ الفهامة والنحرير العلامة الفقيه النحوي الأصولي، إبراهيم البسيوني البجيرمي الشافعي، وهو ابن أخت الشيخ موسى البحيرمي الشيخ الصالح المقتصد الورع والزاهد، حضر جُلَّ الأشياخ المتقدمين، وهو في عداد الطبقة الأولى، ودرس وأفاد وانتفع به الطلبة، بل غالب الناس، كان طارحًا للتكلف متقشفًا مع التواضع والانكسار ملازمًا على العبادة، مستحضرًا للفروع الفقهية والمعقولية والمناسبات الشعرية والشواهد النحوية والأدبية، جيد الحافظة، لا تمل مجالسته ومؤانسته، ولم يزل على حالته وإفادته وانجماعه وعفته حتى تمرض وتُوُفِّيَ يوم السبت منتصف المحرم من السنة عن نحو الخمسة وسبعين، وصُلِّي عليه بالأزهر في مشهد حافل — رحمه الله تعالى وإيانا.

ومات الشيخ العلامة الأصولي الفقيه النحوي على الحصاوي الشافعي، نسبة إلى بلدة بالقليوبية تسمى الحِصَّة، حضر إلى الجامع الأزهر صغيرًا وحفظ القرآن والمتون، وحضر دروس الأشياخ كالشيخ علي العدوي المنسفيسي الشهير بالصعيدي، والشيخ عبد الرحمن النحريري الشهير بالمقري، ولازم الشيخ سليمان الجمل وبه تخرج، وحضر على الشيخ عبد الله الشرقاوي مصطلح الحديث، وكان يحفظ جمع الجوامع مع شرحه للجلال المحلي في الأصول ومختصر السعد، ويقرا الدروس ويفيد الطلبة.

وكان إنسانًا حسنًا مهذبًا متواضعًا، ولا يرى لنفسه مقامًا، عاش معانقًا للخمول في جهد وقلة من العيش، مع العفة وعدم التطلع لغيره، صابرًا على مناكدة زوجته، وبآخره أصيب في شقه بدا الفالج انقطع بسببه أشهرًا، ثم انجلى عنه يسيرًا مع سلامة حواسه، وعاد إلى الإقرا والإفادة.

ولم يزل على حسن حاله ورضاه وانشراح صدره وعدم تضجره وشكواه للمخلوقين، إلى أن تُوُفِّيَ في شهر جمادى التانية سنة إحدى وتلاتين ومايتين وألف — رحمه الله وإيانا.

ومات الشيخ العلامة والنحرير الفهامة السيد أحمد بن محمد بن إسماعيل من ذرية السيد محمد الدوقاطي الطهطاوي الحنفي، والده رومي حضر إلى أرض مصر متقلدًا القضاء بطهطا، بلدة بالقرب من أسيوط بالصعيد الأدنى، فتزوج بامرأة شريفة فوُلد له منها المترجم، وأخوه السيد إسماعيل، ولم يزل مستوطنًا بها إلى أن مات، وترك ولديه المذكورين وأختًا لهما.

حضر المترجم إلى مصر في سنة إحدى وتمانين وماية وألف، وكان قد بدا نبات لحيته بعدما حفظ القرآن ببلده، وقرا شيًّا من النحو فدخل الأزهر ولازم الحضور في الفقه على الشيخ أحمد الحماقي والمقدسي والحريري، والشيخ مصطفى الطائي، والشيخ عبد الرحمن العريشي حضر عليه من أول كتاب الدر المختار إلى كتاب البيوع، وتمَّم حضوره على المرحوم الوالد مع الجماعة لتوجه الشيخ عبد الرحمن لدار السلطنة لبعض المقتضيات عن أمر علي بك في سنة تلات وتمانين وماية وألف، فالتمس الجماعة تكملة الكتاب على الوالد فأجابهم لذلك، فكانوا يأتون للتلقي عنه في المنزل والمترجم معهم.

وفي أثنا ذلك قرأت مع المترجم عن الوالد متن نور الإيضاح بعد انصراف الجماعة عن الدرس، ويتخلف المترجم وذلك لعلوِّ السند فإن الوالد تلقاه عن ابن المولف، وهو جد الوالد عن المولف وجد الوالد والمولف يسميان بحَسَن، فهو من عجيب الاتفاق.

وكان المترجم يلائم طبع الفقير في الصحبة؛ فكنتُ معه في غالب الأوقات إما في الجامع أو في المنزل للطافة طبعه وقرب سني من سنه، وكان الوالد يرى ذلك ويسألني عنه إذا تخلف في بعض الأحيان، ويقول: أين رفيقك الصعيدي؟ فكان يعيد معي ويفهمني ما يصعب عليَّ فهمه.

ولم يزل يدأب في الاشتغال والطلب مع جودة ذهنه وخلو باله وتفرغه، والفقير بخلاف ذلك، وتلقى المترجم الحديث سماعًا وإجازة عن كلٍّ من الشيخ حسن الجداوي والشيخ محمد الأمير والشيخ عبد العليم الفيومي، تلاتتهم عن الشيخ علي العدوي المنسفيسي عن الشيخ محمد عقيلة بسنده المشهور.

ولما ترشح للإفادة والتدريس، وكان مسكنه بناحية الصليبة، وجلس للإقرا بالمدرسة الشيخونية والصرغتمشية، واحتف به سكان تلك الناحية وأكابرهم واعتنوا بشأنه وأسكنوه في دار تليق به وهادوه وواسوه وأكرموه، وكانت تلك الناحية عامرة بأكابرها،

وانفرد المترجم عندهم لكونه على مذهبهم وأصله من جنس الأتراك، وخلو تلك النواحي من أهل العلم وخصوصًا الأحناف، وملازمة المترجم للحالة المحمودة من الإفادة مع شرف النفس والتباعد عما يخل بالمروة إلا ما يأتيه عفوًا، فازدادت محبتهم له ووثقوا فيما يقضيه.

ثم تصدى لوقف الشيخونتين وإيرادهما واستخلاص أماكنهما وشرع في تعميرها، وساعده على ذلك كل مَن كان يحب الإصلاح، فجدد عمارة المسجد والتكية وأنشأ بها صهريجًا، وفي أثنا ذلك انتقل بأهله إلى دار مليحة بجوار المسجد بالدرب المعروف بدرب الميضاة، وقفها بانيها على المسجد، كل ذلك والمترجم لم ينقطع عن الحضور إلى الأزهر في كل يوم، ويقرا درسه أيضًا بالجامع.

ولما كثرت جماعته انتقل إلى المدرسة العينية بالقرب من الأزهر، ولما عمَّر محمد أفندي الودنلي الجامع المجاور لمنزله تجاه القنطرة المعروفة بعمر شاه والمكتب، قرر المترجم في درس الحديث بها في كل يوم بعد العصر، وقرر له عشرة من الطلبة، ورتب للشيخ والطلبة معلومًا وافرًا يُقبض من الديوان.

ولما مات الشيخ إبراهيم الحريري تعين المترجم لمشيخة الحنفية، فتقلدها على امتناع منه، فاستمر إلى أن أخرج السيد عمر مكرم من مصر منفيًّا، وكتبوا في شانه عرضحالًا إلى الدولة نسبوا إليه فيه أشيا لم تحصل منه، وطلبوا الشهادة فيها فامتنع عليه، وبالغوا في الحط عليه وعزلوه من المشيخة وقلدوها الشيخ حسين المنصوري.

فلما مات المذكور أعيد المترجم إلى مشيخة الحنفية، وذلك في غرة شهر صفر سنة ألف ومايتين وتلاتين، ولبس الخلع من الشيخ الشنواني شيخ الجامع، ثم من الباشا وباقي المشايخ أرباب المظاهر، ولم يختلف عليه اثنان.

وفي هذه السنة استأذن الفقير في بنا مقبرة يُدفن فيها إذا مات بجوار الشيخ أبي جعفر الطحاوي بالقرافة، لكوني ناظرًا عليها، فأذنت له في ذلك، فبنى له قبرًا بجانب مقام الأستاذ.

ولما تُوُفِّيَ دُفن فيه وكانت وفاته ليلة الجمعة بعد الغروب خامس عشر شهر رجب سنة إحدى وتلاتين ومايتين وألف.

وله من المآثر حاشية على الدر المختار شرح تنوير الأبصار في أربع مجلدات، جمع فيها المواد التي على الكتاب وضم إليها غيرها.

ومات النجيب الأريب والنادرة العجيب، أعجوبة الزمان وبهجة الخلان، حسن أفندي المعروف بالدرويش الموصلي كما أخبر عن نفسه، الذكي الألمعي والسميدع اللوذعي، وكان إنسانًا عجيبًا في نفسه مميزًا شهيرًا في مصْره.

طاف البلاد والنواحي، وجال في الممالك والضواحي، واطَّلع على عجايب المخلوقات، وعَرَف الكثير من الألسن واللغات، ويعتزى لكل قبيل، ويخالط كل جيل، فمرة ينتسب إلى فارس، وأخرى إلى بني مكانس، فكأنه المعني بما قيل:

طورًا يمان إذا لاقيت ذا يَمَن وإن رأيت مَعَدِّيًّا فعدْنَان

هذا مع فصاحة لسان وقوة جنان، والمشاركة في كل فن من الرياضيات والأدبيات حتى يظن سامعه أنه مجيد في ذلك الفن منفرد به، وليس الأمر كذلك، وإنما ذلك بقوة الفهم والحفظ، وما فيه من القابلية فيستغني بذلك عن التلقي من الأشياخ، وأيضًا فقد انقرض أهل الفنون فيحفظ اصطلاحات الفن وأوضاع أهله، ويبرزه في ألفاظ ينمقها ويحسنها، ويذكر أسما كتب مولفة وأشيا وحكمًا يقل الاطلاع عليها والوصول إليها.

ولمعرفته باللغات خالط كل ملة حتى يظن كل أهل ملة أنه واحد منهم، ويحفظ كثيرًا من الشُّبه والمدركات العقلية والبراهين الفلسفية، وأهمل الواجبات الشرعية والفرايض القطعية، وربما قلد كلام الملحدين وشكوك المارقين، ويزلق لسانه في بعض المجالس بغلطات من ذلك ووساوس؛ فلذلك طعن الناس عليه في الدين وأخرجوه عن اعتقاد المسلمين، وساءت فيه الظنون وكثر عليه الطاعنون، وصرَّحوا بعد موته بما كانوا يخفونه في حياته لاتقا شره وسطوته.

وكان له تداخل عجيب في الأعيان، ومع كل أهل دولة وزمان، ورؤسا الكتبة والمباشرين من الأقباط والمسلمين بالمعزة الزايدة واستجلاب الفايدة، لا تُمل مجالسته ولا معاشرته.

وبآخره لما رغب الباشا في إنشا محل لمعرفة علم الحساب والهندسة والمساحة، تعين المترجم ريسًا ومعلمًا لمن يكون متعلمًا بذلك المكتب؛ وذلك أنه تداخل بتحيلاته لتعليم مماليك الباشا الكتابة والحساب ونحو ذلك، ورتب له خروجًا وشهرية ونجب تحت يده بعض المماليك في معرفة الحسابات ونحوها.

وأَعجب الباشا ذلك فذاكره وحسن له بأن يفرد مكانًا للتعليم، ويضم إلى مماليكه من يريد التعليم من أولاد الناس، فأمر بإنشا ذلك المكتب، وحضر إليه أشيا من آلات

الهندسة والمساحة والهيئة الفلكية من بلاد الإنكليز وغيرهم، واستجلب من أولاد البلد ما ينيف على الثمانين شخصًا من الشبان الذين فيهم قابلية التعليم، ورتبوا لكل شخص شهرية وكسوة في آخر السنة، فكان يسعى في تعجيل كسوة الفقير منهم ليتجمل بها بين أقرانه، ويواسي من يستحق المواساة، ويشتري لهم الحمير مساعدة لطلوعهم ونزولهم إلى القلعة، فيجتمعون للتعليم في كل يوم من الصباح إلى بعد الظهر.

وأضيف إليه آخر حضر من إسلامبول له معرفة بالحسابيات والهندسيات لتعليم من يكون أعجميًّا لا يعرف العربية مساعدًا للمترجم في التعليم، يسمى روح الدين أفندي، فاستمرا نحوًا من تسعة أشهر.

ومات المترجم؛ وذلك أنه افتصد وطلع إلى القلعة فحنق على بعض المتعلمين وضربه فانحلت الرفادة، فسال منه دم كثير فحُمَّ حمَّى مختلطة، واستمر أيامًا، وتُوُفِّيَ ودُفن بجامع السراج البلقيني بين السيارج.

وعند ذلك زاد قول الشامتين وصرَّحوا بما كانوا يخفونه في حياته، فيقول البعض: مات ريس الملحدين، وآخر يقول: انهدم ركن الزندقة، ونسبوا إليه أن عنده الكتاب الذي ألفه ابن الراوندي لبعض اليهود، وسماه دافع القرآن، وأنه كان يقراه ويعتقد به، وأخبروا بذلك كتخدا بك، فطلب كتبه وتصفحوها فلم يجدوا بها ذلك الكتاب.

وما كفى مبغضه وحاسده من الشناعات حتى رأوا له منامات شنيعة تدل على أنه من أهل النار، والله أعلم بخلقه. وبالجملة فكان غريبًا في بابه، وكانت وفاته يوم الخميس سابع عشرين جمادى التانية من السنة، وانفرد برياسة المكتب روح الدين أفندي المذكور.

ومات الأجل المكرم الشريف غالب بسلانيك، وهو المنفصل عن إمارة مكة وجدة والمدينة وما انضاف إلى ذلك من بلاد الحجاز، فكانت إمارته نحوًا من سبع وعشرين سنة، فإنه تولى بعد موت الشريف سرور في سنة تلات ومايتين وألف، وكان من دهاة العالم، وأخباره ومناقبه تحتاج إلى مجلدين، ولم يزل حتى سلط الله عليه بأفاعيله هذا الباشا، فلم يزل يخادعه حتى تمكَّن منه وقبض عليه وأرسله إلى بلدة سلانيك، وخرج من سلطنته وسيادته إلى بلاد الغربة، ونهبت أمواله وماتت أولاده وجواريه، ثم مات هو في هذه السنة.

ومات الأمير مصطفى بك دالي باشا وهو قريب الباشا ونسيبه أيضًا، وكان من أعاظم أركان دولته شهير الذكر موصوفًا بالإقدام والشجاعة، ومات بإسكندرية، ولما

وصل خبره إلى الباشا اغتمَّ غمًّا شديدًا وتأسف عليه، وكان الباشا ولَّاه كشوفية الشرقية وقرن به علي كاشف، فأقام بها نحو السنتين، ومهد البلاد وأخاف العربان وأذلهم وقتل منهم الكثير، وجمع لمخدومه أموالًا جمة.

وكان جسيمًا بطينًا يأكل التيس المخصي وحده، ويشرب عليه الزق من الشراب، ثم يتبعه بشالية أو اثنتين من اللبن، ويستلقي نايمًا مثل العجل العظيم ذي الخوار، إلا أنه كان يقضي حاجة مَن التجا إليه، ويحب أولاد الناس ويواسيهم ويتجاوز عن الكثير، ويعطي ما يلزمه من الحقوق لأربابها.

ولما تحققت أخته التي هي زوج الباشا وكذلك والدته أمرتا بإحضار رمته إلى مصر، ويُدفن بمدافنهم، وتعين لذلك سليمان أغا السلحدار، فسافر إلى إسكندرية ووضعه في صندوق مزفت على عربية، ووصل به بعد اثني عشر يومًا من موته.

وكان وصوله في تاني ساعة من ليلة الجمعة سادس عشري جمادى التانية، وذهبوا به إلى المدفن في المشاعل من خلف المجراة، فلما وصلوا إلى المدفن أرادوا إنزاله إلى القبر بالصندوق، فلم يمكنهم فكسروا الصندوق فبعقت ريحته وقد تهرى، فهرب كل من كان حاضرًا، فكبوه على حصير ولفوه فيه وأنزلوه إلى الحفرة وغشي على الفحارين، وجزعت النفوس من ريحة أخشاب الصندوق، فحثوا عليه الأتربة وليس من يفتكر ويعتبر.

ومات أيضًا حسن أغا حاكم بندر السويس مطعونًا، فولى الباشا عوضه السيد أحمد الملا الترجمان.

ومات أيضًا سليمان أغا حاكم رشيد.

ومات الأمير الكبير الشهير بإبراهيم بك المحمدي عين أعيان أمرا الألوف المصريين، ومات بدنقلة متغربًا عن مصر وضواحيها، وهو من مماليك محمد بك أبي الدهب، تقلد الإمرة والإمارة في سنة اتنين وتمانين وماية وألف في أيام علي بك الكبير، وتقلد مشيخة البلد ورياسة مصر بعد موت أستاذه في سنة تسع وثمانين وماية وألف، مع مشاركة خشداشه مراد بك وباقي أُمراهم، والجميع راضون برياسته وإمارته لا يخالفهم ولا يخالفونه، ويراعي جانب الصغير منهم قبل الكبير، ويحرص على جمعية أمرهم وألفة قلوبهم، فطالت أيامه، وتولى قايمقامية مصر على الوزرا نحو العشرة مرار، وطلع أميرًا على الحج سنة ست وتمانين، وتولى الدفتردارية في سنة سبع وتمانين، وكلاهما في حياة أستاذه.

واشترى المماليك الكثيرة ورباهم وأعتقهم، وأمَّر وقلد منهم صناجق وكشافًا، وأسكنهم الدور الواسعة وأعطاهم الإقطاعات، ومات الكثير منهم في حياته وأقام خلافهم من مماليكه، ورأى أولاد أولاده، بل وأولادهم، وما زال يولد له.

وأقام في الإمارة نحو تمان وأربعين سنة، وتنعَّم فيها وقاسى في أواخر أمره شدايد واغترابًا عن الأهل والأوطان، وكان موصوفًا بالشجاعة والفروسية وباشر عدة حروب، وكان ساكن الجأش صبورًا ذا تؤدة وحلم، قريبًا للانقياد للحق، متجنبًا للهزل إلا نادرًا مع الكمال والحشمة، ولا يحب سفك الدما مرخصًا لخشداشينه في أفاعيلهم، كثير التغافل عن مساويهم مع معارضتهم له في كثير من الأمور، وخصوصًا مراد بك وأتباعه، فيغضي ويتجاوز ولا يظهر غمًّا ولا خلافًا ولا تأثرًا، حرصًا على دوام الألفة وعدم المشاغبة، وإن حدث فيما بينهم ما يوجب وحشة تلافاه وأصلحه.

وكان هذا الإهمال والترخص والتغافل سببًا لمبادي الشرور؛ فإنهم تمادوا في التعدي وداخلهم الغرور وغمرتهم الغفلة عن عواقب الأمور، واستصغروا من عداهم، وامتدت أيديهم لأخذ أموال التجار وبضايع الإفرنج الفرنساوية وغيرهم بدون الثمن مع الحقارة لهم ولغيرهم، وعدم المبالاة والاكتراث بسلطانهم الذي يدَّعون أنهم في طاعته، مع مخالفة أوامره ومنع خزينته واحتقار الولاة، ومنعهم من التصرف والحجر عليهم، فلا يصل للمولى عليهم إلا بعض صدقاتهم، إلى أن تحرك عليهم حسن باشا الجزايرلي في سنة مايتين وألف، وحضر على الصورة التي حضر فيها وساعدته الرعية، وخرجوا من المدينة إلى الصعيد، وانتهكت حرمتهم.

ثم رجعوا بعد الفصل في سنة ست ومايتين إلى إمارتهم ودولتهم، وعادوا إلى حالتهم الأولى، بل وأزيد منها في التعدي، فأوجب ذلك ركوب الفرنساوية عليهم، ولم يزل الحال يتزايد والأهوال يتلو بعضها بعضًا حتى انقلبت أوضاع الديار المصرية، وزالت حرمتها بالكلية، وأدى الحال بالمترجم إلى الخروج والتشتيت والتشريد هو ومن بقي من عشيرته إلى بلاد العبيد، يزرعون الدُّخن ويتقوتون منه، وملابسهم القمصان التي يلبسها الجلَّابة في بلادهم، إلى أن وردت الأخبار بموته في شهر ربيع الأول من السنة، وأما جملة أخباره فقد تقدمت في ضمن السوابق والماجريات واللواحق.

ومات الأمير الأجل أحمد أغا الخازندار المعروف ببونابارته، وهو أيضًا شهير الذكر من أعاظم الدولة، وقد تقدم كثير من أخباره وسفره إلى الحجاز، وكان عمَّر دارًا عظيمة على بركة الأزبكية جهة الرويعي، ثم عمل مهمًا كبيرًا لزواج ابنه، وهو إذ ذاك مريض في

حياض الموت، حتى أشيع في الناس يوم زفة العروس، ثم مات بعد أيام قليلة مضت على الفرح، وذلك يوم الأربع تالت شهر جمادى التانية.

وماتت الست جليلة خاتون وهي سُرِّيَّة علي بك بلوط قبان الكبير، وكانت محظيته، وبنى لها الدار العظيمة على بركة الأزبكية بدرب عبد الحق، والساقية والطاحون بجانبها، ولما مات علي بك وتأمر مراد بك فتزوج بها وعمرت طويلًا مع العز والسيادة والكلمة النافذة، وأكثر نسا الأمرا من جواريها.

ولم يأتِ بعد الست شويكار من اشتُهر ذكره وخبره سواها، وكان أيام الفرنساوية واصطلح معهم مراد بك حصل لها منهم غاية الكرامة، ورتبوا لها من ديوانهم في كل شهر ماية ألف نصف فضة، وشفاعتها عندهم مقبولة لا ترد، وبالجملة فإنها كانت من الخيِّرات، ولها على الفقرا بر وإحسان، ولها من المآثر الخان الجديد والصهريج داخل باب زويلة.

تُوُفِّيَتْ يوم الخميس لعشرين من شهر جمادى الأولى بمنزلها المذكور بدرب عبد الحق، ودُفِنَتْ بحوشهم في القرافة الصغرى بجوار الإمام الشافعي، وأضيفت الدار إلى الدولة، وسكنها بعض أكابرها، وسبحان الحي الذي لا يموت!

ومات المقر الكريم أحمد باشا الشهير بطوسون ابن حضرة الوزير محمد علي باشا مالك الأقاليم المصرية والحجازية والثغور وما أضيف إليها، وقد تقدم ذكر رجوعه من البلاد الحجازية، وتوجهه إلى إسكندرية ورجوعه إلى مصر، ثم عوده إلى ناحية رشيد وعرضي خيامه جهة الحماد بالعسكر على الصورة المذكورة، وهو ينتقل من العرضي إلى رشيد ثم إلى برنبال وأبي منضور والعزب.

ولما رجع في هذه المرة أخذ صحبته من مصر المغنين وأرباب الآلات المطربة بالعود والقانون والناي والكمنجات، وهم إبراهيم الورَّاق والحبابي وقشوة ومن يصحبهم من باقي رفقاهم، فذهب ببعض خواصه إلى رشيد ومعه الجماعة المذكورون فأقام أيامًا، وحضر إليه من جهة الروم جوارٍ وغلمان أيضًا رقاصون، فانتقل بهم إلى قصر برنبال، ففي ليلة حلوله بها نزل به ما نزل من المقدور، فتمرَّض بالطاعون وتملل نحو عشر ساعات وانقضى نحبه، وذلك ليلة الأحد سابع شهر القعدة.

وحضرة خليل أفندي قوللي حاكم رشيد، وعندما خرجت روحه انتفخ جسمه وتغير لونه إلى الزرقة، فغسَّلوه وكفَّنوه ووضعوه في صندوق من الخشب، ووصلوا به في السفينة منتصف ليلة الأربع عاشره.

وكان والده بالجيزة فلم يتجاسروا على إخباره، فذهب إليه أحمد أغا أخو كتخدا بك، فلما علم بوصوله ليلًا استنكر حضوره في ذلك الوقت، فأخبره عنه أنه ورد إلى شبرا متوعكًا، فركب في الحين القنجة، وانحدر إلى شبرا، وطلع إلى القصر وصار يمر بالمخادع ويقول: أين هو؟ فلم يتجاسر أحد أن يصرح بموته، وكانوا ذهبوا به وهو في السفينة إلى بولاق ورسوا به عند الترسخانة، وأقبل كتخدا بك على الباشا فرآه يبكي، فانزعج انزعاجًا شديدًا وكاد أن يقع على الأرض، ونزل السفينة فأتى بولاق آخر الليل.

وانطلقت الرسل لإخبار الأعيان فركبوا بأجمعهم إلى بولاق، وحضر القاضي والأشياخ والسيد المحروقي، ثم نصبوا تظلك ساترًا على السفينة، وأخرجوا الناووس والدم والصديد يقطر منه، وطلبوا القلافطة لسد خروقه ومنافسه، ونصبوا عودًا عند رأسه ووضعوا عليه تاج الوزارة المسمى بالطلخان، وانجروا بالجنازة من غير ترتيب، والجميع مشاة أمامه وخلفه، وليس فيها من جوقات الجنايز المعتادة كالفقها وأولاد الكتاتيب والأحزاب شي من ساحل بولاق على طريق المدابغ وباب الخرق على الدرب الأحمر على التبانة إلى الرميلة، فصلوا عليه بمصلى المومنين، وذهبوا به إلى المدفن الذي أعده الباشا لنفسه ولموتاه.

كل هذه المسافة ووالده خلف نعشه ينظر إليه ويبكي، ومع الجنازة أربعة من الحمير تحمل القروش وربعيات الذهب، ودراهم أنصاف عددية ينثرون منها على الأرض وعلى الكيمان، وعن يمين الكتخدا ويساره شخصان يتناول منهما قراطيس الفضة يفرق على من يتعرض له من الفقرا والصبيان، فإذا تكاثروا عليه نثر ما بقي في يده عليهم، فيشتغلون عنه بالتقاطها من الأرض، فكان جملة ما فُرق وبُدر من الأنصاف العددية فقط خمسة وعشرين كيسًا عنها خمسماية ألف فضة، وذلك خلاف القروش أيضًا والربعيات الدهب.

وساقوا أمام الجنازة ستة روس من الجواميس الكبار، أخذ منها خدمة التربة ومَنْ حولهم وخدمة ضريح الإمام الشافعي، ولم ينل الفقرا إلا ما فضل عنهم.

وأخرجوا لإسقاط صلاة المُتَوَفَّى خمسة وأربعين كيسًا تناولها فقرا الأزهر.

وفرقت بجامع الفاكهاني بحسب الأغراض للغني منهم أضعاف قسم الفقير، وأكثر الفقرا من الفقها لم ينالوا إلا القليل.

ولما وصلوا إلى المدفن هدموا التربة وأنزلوه فيها بتابوته الخشب لتعسر إخراجه منه بسبب انتفاخه وتهرِّيه، حتى إنهم كانوا يطلقون حول تابوته البخورات في المجامر الدهب، والريحة غالبة على ذلك، وليس ثَمَّ من يتعظ أو يعتبر.

ولما مات لم يخبروا والدته بموته إلا بعد دفنه، فجزعت عليه جزعًا شديدًا، ولبست السواد وكذلك جميع نساهم وأتباعهم، وصبغوا براقعهم بالسواد والزرقة وكذلك مَنْ ينافقهم من الناس، حتى لطخوا أبواب البيوت ببولاق وغيرها بالوحل.

وامتنع الناس بالأمر عليهم من عمل الأفراح ودق الطبول مطلقًا، ونوبة الباشا وإسماعيل باشا وطاهر باشا حتى ما يفعله دراويش المولوية في تكاياهم عند المقابلة من الناي والطبل أربعين يومًا.

وأقاموا عليه العزا عند القبر وعدد من الفقها والمقرئين يتناوبون قراءة القرآن مدة الأربعين يومًا، ورتبوا لهم ذبايح ومآكل وكل ما يحتاجونه ثم ترادفت عليهم العطايا من والدته وإخواته والواردين من أقاربه وغيرهم، على حد قول القايل: «مصايب قوم عند قوم فوايد.»

ومات وهو مقتبل الشبيبة لم يبلغ العشرين، وكان أبيض جسيمًا كما قد دارت لحيته، بطلًا شجاعًا جوادًا له ميل لأولاد العرب، منقادًا لملة الإسلام، ويعترض على أبيه في أفعاله، تخافه العسكر وتهابه، ومن اقترف ذنبًا صغيرًا قتله، مع إحسانه وعطاياه للمنقاد منهم ولأمراه، ولغالب الناس إليه ميل وكانوا يرجون تأمره بعد أبيه ويأبى الله إلا ما يريد.

ومات الوزير المعظم يوسف باشا المنفصل عن إمارة الشام، وحضر إلى مصر من نحو تلات سنوات هاربًا وملتجيًا إلى حاكم مصر، وذلك في أواخر سنة سبع وعشرين ومايتين وألف.

وأصله من الأكراد الدكرلية، ويُنسب إلى الأكراد الملية.

وابتدا أمره بأخبار من يعرفه أنه هرب من أهله وعمره إذا ذاك خمس عشرة سنة، فوصل إلى حماة وتعاطى بيع الحشيش والسرجين والروث، ثم خدم عند رجل يسمى مُلا حسين مدة سنين إلى أن ألبسه قلبق، ثم خدم بعده مُلا إسماعيل بكتاش وتعلم الفروسية والرماحة.

فلعب يومًا في القمار وخسر فيه وخاف على نفسه، فخرج هاربًا إلى عمر أغا باسيلي من إشراقات إبراهيم باشا المعروف بالأزدن، فتوجه معه إلى غزة وكان مع المترجم جواد أشقر من جياد الخيل، فقلد علي أغا متسلم غزة عمر أغا المذكور وجعله دالي باشا، ففي بعض الأيام طلب المتسلم من المترجم الجوادَ فقال له: إن قلدتني دالي باشا قدمته لك، فأجابه إلى ذلك وعزل عمر أغا، وقلد المترجم المنصب عوضًا عنه وامتنع من إعطاه ذلك الجواد، وأقام في خدمته مدة.

فوصل مرسوم من أحمد باشا الجزار خطابًا للمترجم بالقبض على المتسلم وإحضاره إلى طرفه، وإن فعل ذلك ينعم عليه بمبلغ خمسين كيسًا وماية بيرق، ففعل ذلك وأوقع القبض على علي أغا المتسلم، وتوجه إلى عكا بلدة الجزار، فقال المتسلم للمترجم في أثناء الطريق: تعلم أن الجزار رجل سفاك دما فلا توصلني إليه، وإن كان وعدك بمال أنا أعطيك أضعافه وأطلقني أذهب حيث شاء الله ولا تشاركه في دمي، فلم يجبه إلى ذلك وأوصله إلى الجزار فحبسه ثم قتله ورماه في البحر.

وأقام المترجم بباب الجزار أيامًا ثم أرسل إليه يأمره بالذهاب إلى حيث يريد، فإنه لا خير فيه لخيانته لمخدومه، فذهب إلى حماة وأقام عند أغاته إسماعيل أغا وهو متولي من طرف عبد الله باشا المعروف بابن العظم، فأقام في خدمته كلارجي زمنًا نحو التلات سنوات.

وكان بين عبد الله باشا وأحمد باشا الجزار عداوة، فتوجه عبد الله باشا إلى الدورة فأرسل الجزار عساكره ليقطع عليه الطريق، فسلك طريقًا أخرى، فلما وصل إلى جنين، وهي مدينة قريبة من بلاد الجزار، وجه الجزار عساكره عليه، فلما تقارب العسكران وتسامعت أهل النواحي امتنعوا من دفع الأموال، فما وسع عبد الله باشا إلا الرحيل، وتوجه إلى ناحية نابلس مسافة يومين وحاصر بلدة تسمى صوفين، وأخذ مدافع من يافا، وأقام محصرًا لها ستة أيام، ثم طلبوا الأمان فأمنهم، ورحل عنهم إلى طرف الجبل مسيرة نصف ساعة، وفرق عساكره لقبض أموال الميري من البلاد، وأقام هو في قلة من العسكر فوصل إليه خيَّال وقت العصر في يوم من الأيام يخبره بوصول عساكر الجزار، وأنه لك يكن بينه وبينهم إلا نصف ساعة وهم خمسة آلاف مقاتل، فارتبك في أمره وأرسل إلى النواحي، فحضر إليه من حضورهم نحو التلتماية خيَّال، وهو بدايرته نحو التمانين فأمر بالركوب، فلما تقاربا هاله كثرة عساكر العدو وأيقنوا بالهلاك، فتقدم المترجم إلى العسكر وأشار عليهم بالثبات وقال لهم: لم يكن غير ذلك فإننا إن فررنا هلكنا عن آخرنا، وتقدم المترجم مع أغاته مُلا إسماعيل وتبعهم العسكر، وولجوا أوسط خيل العدو وصدقوا الحملة جملة واحدة، فحصلت في العدو الهزيمة وركبوا أقفيتهم، وتبعهم المترجم حتى حان الليل بينهم، فرجعوا بروس القتلى والقلايع.

فلما أصبح النهار عرضوها على الوزير، وهي نحو الألف راس وألف قليعة، فخلع عليهم وشكرهم، وارتحلوا إلى دمشق وذهب المترجم مع أغاته إلى مدينة حماة.

واستمر هناك إلى أن حضر الوزير الأعظم يوسف باشا المعروف بالمعدن إلى دمشق بسبب الفرنساوية، ففارق المترجم مخدومه في نحو السبعين خيَّالًا، وجعل يدور بأراضي

حماة بطالًا ويقال له قبيس، فيراسل الجزار لينضم إليه، وكان الجزار عند حضور الوزير انفصل حكمه عن دمشق، ووجه ولايتها إلى عبد الله باشا العظم، فلما بلغ المترجم ذلك توجه إلى لقاء عبد الله باشا بالمعرة، فأكرمه عبد الله باشا وقلده دالي باشا كبيرًا على جميع الخيالة، حتى على أغاته مُلا إسماعيل أغا.

وأقام بدمشق مدة إلى أن حاصر عبد الله باشا مدينة طرابلس، فوصل إليه الخبر بأن عساكر الجزار استولوا على دمشق وبلادها، فركب عبد الله باشا وذهب إلى دمشق ودخلها بالسيف ونصب عرضيه خارجها، فوصل خبر ذلك إلى الجزار، فكاتب عساكر عبد الله باشا يستميلهم؛ لأن معظمهم غربا، فاتفقوا على خيانته والقبض عليه وتسليمه إلى الجزار، وعلم ذلك وتثبته فركب في بعض مماليكه وخاصته إلى وطاق المترجم، وهو إذ ذاك دالي باشا وأعلمه الخبر وأنه يريد النجاة بنفسه، فركب بمن معه وأخرجه من بين العسكر قهرًا عنهم، وأوصله إلى شول بغداد، ثم ذهب على الهجن إلى بغداد.

ورجع المترجم إلى حماة، فقبل وصوله إليها ورد عليه مرسوم الجزار يستدعيه فذهب إليه فجعله مقدم ألف، وقلده باش الجردة فسافر إلى الحجاز بالملاقاة.

وكان أمير الحاج الشامي إذ ذاك سليمان باشا عوضًا عن مخدومه أحمد باشا الجزار، فلما حصلوا في نصف الطريق وصلهم خبر موت الجزار، فرجع يوسف المترجم إلى الشام، واستولى إسماعيل باشا على عكا، وتوجه منصب ولاية الشام إلى إبراهيم باشا المعروف بقطر أغاسي أي «أغات البغال»، وفي فرمان ولايته الأمر بقطع رأس إسماعيل باشا وضبط مال الجزار.

فذهب المترجم بخيله وأتباعه إلى إبراهيم باشا وخدم عنده، وركب إلى عكا وحصروها وحطوا في أرض الكرداني مسيرة ساعة من عكا، وكانت الحرب بينهم سجالًا، وعساكر إسماعيل باشا نحو العشرة آلاف، والمترجم يباشر الوقايع وكل وقعة يظهر فيها على الخصم.

ففي يوم من الأيام لم يشعروا إلا وعسكر إسماعيل باشا نافذ إليهم من طريق أخرى، فركب المترجم وأخذ صحبته تلاتة مدافع وتلاقى معهم، وقاتلهم وهزمهم إلى أن حصرهم بقرية تسمى دعوق، ثم أخرجهم بالأمان إلى وطاقه وأكرمهم، وعمل لهم ضيافة تلاتة أيام، ثم أرسلهم إلى عكا بغير أمر الوزير.

ثم توجه إبراهيم باشا إلى الدورة وصحبته المترجم، وتركوا سليمان باشا مكانهم، وخرج إسماعيل باشا من عكا وأغلقت أبوابها، فاتفقت عساكره وقبضوا عليه وسلموه

إلى إبراهيم باشا، فعند ذلك برز أمر إبراهيم باشا بتسليم عكا إلى سليمان باشا، وذهب بالمرسوم المترجم فأدخله إليها ورجع إلى مخدومه، وذهب معه إلى الدورة ثم عاد معه إلى الشام.

وورد الأمر بعزل إبراهيم باشا عن الشام وولاية عبد الله باشا المعروف بالعظم على يد باشت بغداد، فخرج المترجم لملاقاته من على حلب، فقلده دالي باشا في جميع العسكر، فلما وصل إلى الشام ولاه على حوران وإربد والقنيطرة ليقبض أموالها فأقام نحو السنة.

ثم توجه صحبة الباشا مع الحج، وتلاقوا مع الوهابية في الجديدة فحاربهم المترجم وهزمهم، وحجوا واعتمروا ورجعوا ومكثوا إلى السنة التانية، فخرج عبد الله باشا بالحج وأبقى المترجم نايبًا عنه بالشام، فلما وصل إلى المدينة المنورة منعه الوهابيون، ورجع من غير حج ووصل خبر إلى الدولة.

فورد الأمر بعزل عبد الله باشا عن ولاية الشام وولاية المترجم على الشام وضواحيها، فارتاعت النواحي والعربان، وأقام السنة ولم يخرج بنفسه إلى الحج، بل أرسل مُلا حسن عوضًا عنه، فمُنع أيضًا عن الحج، فلما كانت القابلة انفتح عليه أمر الدورة، وعصى عليه بعض البلاد فخرج إليها وحاصر بلدة تسمى كردانية، ووقع له فيها مشقة كبيرة إلى أن ملكها بالسيف وقتل أهلها، ثم توجه إلى جبل نابلس وقهرهم وجبى منهم أموالًا عظيمة.

ثم رجع إلى الشام واستقام أمره وحسنت سيرته، وسلك طريق العدل في الأحكام وأقام الشريعة والسنة، وأبطل البدع والمنكرات واستتوب الخواطي وزوجهن، وطفق يفرق الصدقات على الفقرا وأهل العلم والغربا وابن السبيل، وأمر بترك الإسراف في المآكل والملابس، وشاع خبر عدله في النواحي، ولكن ثقل ذلك على أهل البلاد بترك مألوفهم.

ثم إنه ركب إلى بلاد النصيرية وقاتلهم، وانتصر عليهم وسبى نساهم وأولادهم، وكان خيَّرهم بين الدخول في الإسلام أو الخروج من بلادهم، فامتنعوا وحاربوا وانخذلوا وبيعت نساهم وأولادهم، فلما شاهدوا ذلك أظهروا الإسلام تقية فعفا عنهم وعمل بظاهر الحديث، وتركهم في البلاد.

ورحل عنهم إلى طرابلس وحاصرها بسبب عصيان أميرها بربر باشا على الوزير، وأقام محاصرًا لها عشرة أشهر حتى ملكها واستولى على قلعتها ونهب منها أموال التجار وغيرهم.

ثم ارتحل إلى دمشق وأقام بها مدة فطرقه خبر الوهابية أنهم حضروا إلى المزيريب، فبادر مسرعًا وخرج إلى لقاهم، فلما وصل إلى المزيريب وجدهم قد ارتحلوا من غير قتال،

فأقام هناك أيامًا فوصل إليه الخبر بأن سليمان باشا وصل إلى الشام وملكها، فعاد مسرعًا إلى الشام، وتلاقى مع عسكر سليمان باشا وتحارب العسكران إلى المسا.

وبات كلٌّ منهم في محله، ففي نصف الليل في غفلتهم والمترجم نايم وعساكره أيضًا هامدة فلم يشعروا إلا وعساكر سليمان باشا كبستهم، فحضر إليه كتخداه وأيقظه من منامه وقال له: إن لم تسرع وإلا قبضوا عليك، فقام في الحين وخرج هاربًا وصحبته تلاتة أشخاص من مماليكه فقط، ونهبت أمواله ويرقه، وزالت عنه سيادته في ساعة واحدة، ولم يزل حتى وصل إلى حماة، فلم يتمكن من الدخول إليها، ومنعه أهلها عنها وطردوه، فذهب إلى سيجر وارتحل منها إلى بلدة يعمل بها البارود، ومنها إلى بلدة تسمى ريمة، ونزل عند سعيد أغا فأقام عنده تلاتة أيام، ثم توجه إلى نواحي أنطاكية بصحبة جماعة من عند سعيد أغا المذكور ثم إلى السويد، ولم يبقَ معه سوى فرس واحد.

ثم إنه أرسل إلى محمد علي باشا صاحب مصر، واستأذنه في حضوره إلى مصر فكاتبه بالحضور إليه والترحيب به، فوصل إلى مصر في التاريخ المذكور، فلاقاه صاحب مصر وأكرمه وقدم إليه خيولًا وقماشًا ومالًا، وأنزله بدار واسعة بالأزبكية ورتب له خروجًا زايدة من لحم وخبز وسمن وأرز وحطب وجميع اللوازم المحتاج إليها، وأنعم عليه بجواري وغير ذلك، وأقام بمصر هذه المدة وأرسل في شأنه إلى الدولة وقبلت شفاعة محمد علي باشا فيه، ووصله العفو والرِّضَى ما عدا ولاية الشام.

وحصلت فيه علة ذات الصدر فكان يظهر به شبه السلعة مع الفواق بصوت يسمعه من يكون بعيدًا عنه، ويذهب إليه جماعة الحكما من الإفرنج وغيرهم، ويطالع في كتب الطب مع بعض الطلبة من المجاورين، فلم ينجع فيه علاج.

وانتقل إلى قصر الآثار بقصد تبديل الهوا، ولم يزل مقيمًا هناك حتى اشتد به المرض ومات في ليلة السبت العشرين من شهر ذي القعدة، وحُملت جنازته من الآثار إلى القرافة من ناحية الخلا، ودُفن بالحوش الذي أنشاه الباشا وأعده لموتاه، وكانت مدة إقامته بمصر نحو الستة سنوات، فسبحان الحي الذي لا يموت الدايم الملك والسلطان!

ودخلت سنة اثنتين وتلاتين ومايتين وألف
(١٨١٦م)

استهل المحرم بيوم الخميس، وحاكم مصر والمتولي عليها وعلى ضواحيها وثغورها من حد رشيد ودمياط إلى أسوان وأقصى الصعيد، وأسكلة القصير والسويس وساحل القلزم وجدة ومكة والمدينة والأقطار الحجازية بأسرها محمد علي باشا القوللي، ووزيره وكتخداه محمد أغا لاظ.

والدفتردار محمد بك صهر الباشا وزوج ابنته.

وأغات الباب إبراهيم أغا.

ومدبر أمور البلاد والأطيان والرزق والمساحات، وقبض الأموال الميرية وحساباتها ومصارفها محمود بك الخازندار، والسلحدار سليمان أغا.

وحاكم الوجه القبلي محمد بك الدفتردار صهر الباشا عوض إبراهيم باشا ولد الباشا لانفصاله عن إمارة الوجه القبلي، وسفره إلى الحجاز آنفًا لمحاربة الوهابيين.

وباقي أمرا الدولة مثل: عابدين بك وإسماعيل باشا ابن الباشا وخليل باشا، وهو الذي كان حاكم إسكندرية سابقًا، وشريف أغا وحسين بك دالي باشا، وحسين بك الشماشرجي، وحسن بك الشماشرجي الذي كان حاكمًا بالفيوم وغير هولا.

وحسن أغا أغات الينكجرية، وأحمد أغا أغات التبديل وعلي أغا الوالي، وكاتب الروزنامة مصطفى أفندي وحسن باشا بالديار الحجازية.

وشاه بندر التجار السيد محمد المحروقي، وهو المتعين لمهمات الأسفار وقوافل العربان ومخاطباتهم وملاقاة الأخبار الواصلة من الديار الحجازية والمتوجه إليها، وأجر المحمول وشحنة السفن ولوازم الصادرين والواردين والمنتجعين والمقيمين والراحلين، والمتعهد بجميع فرق القبايل والعشير وغوايلهم ومحاكماتهم وإرغابهم وإرهابهم،

وسياستهم على اختلاف أخلاقهم وطباعهم، وهو المتعين أيضًا لفصل قضايا التجار والباعة وأرباب الحرف البلدية، وفصل خصوماتهم ومشاجرتهم وتأديب المنحرفين منهم والنصابين، وبعوثات الباشا ومراسلاته ومكاتباته وتجاراته وشركاته وابتداعاته، واجتهاده في تحصيل الأموال من كل وجه وأي طريق، ومتابعة توجيه السرايا والعساكر والذخاير إلى نواحي الحجاز للإغارة على بلاد الوهابية.

وأخذ الدرعية مستمر لا ينقطع، والعرضي منصوب خارج باب النصر وباب الفتوح، وإذا ارتحلت طايفة خرجت أخرى مكانها.

وفيه سومحت أرباب الحرف والباعة والزياتين والجزارين والخضرية والخبازين ونحوهم من المسانهات والمشاهرات واليوميات الموظفة عليهم للمحتسب، ونودي برفعها أمام المحتسب في الأسواق، وعوِّض المحتسب عنها خمسة أكياس كل شهر يستوفيها من الخزينة العامرة.

وعملوا تسعير بتراخيص أسعار المبيعات بدلًا عما كانوا يغرمونه للمحتسب، ولكن من غير مراعاة النسبة والمعادلة في غالب الأصناف، فإن العادة عند إقبال وجود الفاكهة أو الخضروات تباع بأغلى ثمن لعزتها وقلتها حينئذٍ، وشهوة الطباع واشتياق النفوس لجديد الأشيا وزهدها في القديم الذي تكرر استعماله وتعاطيه، كما يقال: لكل جديد لذة، فلم يراعوا ذلك، ولم ينظروا في أصول الأشيا أيضًا، فإن غالب الأصناف داخل في المحتكرات وزيادة المكوس الحادثة في هذه السنين، وما يضاف إلى ذلك من طمع الباعة والسوقة وغشهم وقبحهم وعدم ديانتهم وخبث طباعهم.

فلما نودي بذلك وسمع الناس رخص المبيعات ظنوا بغفلتهم حصول الرخا، ونزلوا على المبيعات مثل الكلاب السعرانة، وخطفوا ما كان بالأسواق بموجب التسعيرة من اللحم وأنواع الخضروات والفاكهة والأدهان، فلما أصبح اليوم التاني لم يوجد بالأسواق في شي من ذلك وأغلقت الفكهانية حوانيتهم وأخفوا ما عندهم، وطفقوا يبيعونه خفية في الليل بالثمن الذي يرتضونه.

والمحتسب يكثر الطواف بالأسواق، ويتجسس عليهم ويقبض على من أغلق حانوته أو وجدها خالية، أو عثر عليه أنه باع بالزياده، وينكل بهم ويسحبهم مكشوفين الروس مشنوقين وموثقين بالحبال، ويضربهم ضربًا مولمًا ويصلبهم بمفارق الطرق مخزومين الأنوف ومعلق فيها النوع المزاد في ثمنه، فلم يرتجعوا عن عادتهم.

ثم إن هذه المناداة والتسعيرة ظاهرها الرفق بالرعية ورخص الأسعار، وباطنها المكر والتحيل والتوصل لما سيظهر بعدُ عن قريب؛ وذلك أن ولي الأمر لم يكن له من

الشغل إلا صرف همته وعقله وفكرته في تحصيل المال والمكاسب، وقطع أرزاق المسترزقين والحجر والاحتكار لجميع الأسباب، ولا يتقرب إليه من يريد قربه إلا بمساعدته على مراداته ومقاصده، ومن كان بخلاف ذلك فلا حظ له معه مطلقًا، ومن تجاسر عليه من الوجها بنصح أو فعل مناسب، ولو على سبيل التشفع، حقد عليه وربما أقصاه وأبعده وعاداه معاداة من لا يصفو أبدًا.

وعرفت طباعه وأخلاقه في دائرته وبطانته، فلم يمكنهم إلا الموافقة والمساعدة في مشروعاته، إما رهبة أو خوفًا على سيادتهم ورياستهم ومناصبهم، إما رغبة وطمعًا وتوصلًا للرياسة والسيادة، وهم الأكثر وخصوصًا أعدا الملة من نصارى الأرمن وأمثالهم الذين هم الآن أخصا لحضرته ومجالسته، وهم شركاه في أنواع المتاجر وهم أصحاب الرأي والمشورة، وليس لهم شغل ودرس إلا فيما يزيد حظوتهم ووجاهتهم عند مخدومهم، وموافقة أغراضه وتحسين مخترعاته، وربما ذكروه ونبهوه على أشيا تركها أو غفل عنها من المبتدعات، وما يتحصل منها من المال والمكاسب التي يسترزقها أرباب تلك الحرفة لمعاشهم ومصاريف عيالهم، ثم يقع الفحص على أصل الشي وما يتفرع منه وما يئول إذا أحكم أمره وانتظم ترتيبه، وما يتحصل منه بعد التسعير الذي يجعلونه مصاريف الكتبة والمباشرين، أبرزت مباديه في قالب العدل والرفق بالرعية.

ولما وقع الالتفات إلى أمر المذابح والسلخانة وما يتحصل منها، وما يكتسبه الموظفون فيها فأول ما بدوا به إبطال جميع المذابح التي بجهات مصر والقاهرة وبولاق، خلاف السلخانة السلطانية التي خارج الحسينية، وتولى رياستها شخص من الأتراك، ثم سعرت هذه التسعيرة فجعل الرطل الذي يبيعه القصاب بسبعة أنصاف فضة وتمنه على القصاب من المذبح تمانية أنصاف ونصف، وكان يباع قبل هذه التسعيرة بالزيادة الفاحشة فشح وجود اللحم، وأغلقت حوانيت الجزارين، وخسروا في شرا الأغنام وذبحها وبيعها بهذا السعر.

وأُنهي أمر شحة اللحم إلى ولي الأمر وأن ذلك من قلة المواشي وغلو أتمان مشترواتها على الجزارين، وكثرة رواتب الدولة والعساكر، وأُشيع أنه أمر بمراسيم إلى كشاف الأقاليم قبلي وبحري لشرا الأغنام من الأرياف لخصوص رواتبه ورواتب العسكر والخاصة وأهل الدولة، ويترك ما يذبحه جزارين المذبح لأهل البلدة وعند ذلك ترخص الأسعار، ثم تبين خلاف ذلك وأن هذه الإشاعة توطئة وتقدمة لما سيتلى عن قريب.

وفي منتصفه وصلت أغنام وعجول وجواميس من الأرياف هزيلة، وازدادت بإقامتها هزالًا من الجوع وعدم مراعاتها، فذبحوا منها بالمذابح أقل من المعتاد، ووزعت على

الجزارين فيخص الشخص منهم الاثنان أو التلاتة، فعندما يصل إلى حانوته وهو مثل الحرامي فيتخاطفها العساكر التي بتلك الخطة، وتزدحم الناس فلا ينوبهم شي، وتذهب في لمح البصر، ثم امتنع وجودها واستمر الحال، والناس لا يجدون ما يطبخونه لعيالهم.

وكذلك امتنع وجود الخضروات، فكان الناس لا يحصلون القوت إلا بغاية المشقة، واقتاتوا بالفول المصلوق والعدس والبيصار ونحو ذلك.

وانعدم وجود السمن والزيت والشيرج وزيت البذر وزيت القرطم لاحتكارها لجهة الميري، وأغلقت المعاصر والسيارج.

وامتنع وجود الشمع العسل والشمع المصنوع من الشحم لاحتكارها الشحم، والحجز على عمال الشمع، فلا يصنعه الشماعون ولا غيرهم، ونودي على بيع الموجود منه بأربعة وعشرين نصفًا، وكان يباع بتلاتين وأربعين فأخفوه وطفقوا يبيعونه خفية بما أحبوا.

وانعدم وجود بيض الدجاج لجعلهم العشرة منه بأربعة أنصاف، وكان قبل المناداة اتنين بنصف، وكل ذلك والمحتسب يطوف بالأسواق ويشدد على الباعة، ويؤلمهم بالضرب والتجريس، وفقد وجود الدجاج فلا يكاد يوجد بالأسواق دجاجة؛ لأنه نودي على الدجاجة باثني عشر نصفًا، وكان الثمن عنها قبل ذلك خمسة وعشرين فأكثر.

واستهل شهر صفر الخير (سنة ١٢٣٢)

فيه حضر المعلم غالي من الجهة القبلية، ومعه مكاتبات من محمد بك الدفتردار الذي تولى إمارة الصعيد عوضًا عن إبراهيم باشا ابن الباشا الذي توجه إلى البلاد الحجازية لمحاربة الوهابية، يذكر فيها نصح المعلم غالي وسعيه في فتح أبواب تحصيل الأموال للخزينة، وأنه ابتكر أشيا وحسابات يتحصل منها مقادير كثيرة من المال، فقوبل بالرِّضَى والإكرام، وأخلع عليه الباشا واختص به وجعله كاتب سره ولازم خدمته، وأخذ فيما ندب إليه وحضر لأجله التي منها حسابات جميع الدفاتر وأقلام المبتدعات ومباشريها وحكام الأقاليم.

وفيه تجردت عده عساكر أتراك ومغاربة إلى الحجاز، وصحبتهم أرباب صنايع وحرف.

وفيه أرسل الباشا إلى بندر السويس أخشابًا وأدوات عمارة وبلاط كذان وحديدًا وصناعًا بقصد عمارة قصر لخصوصه إذا نزل هناك.

واستهل شهر ربيع الأول (سنة ١٢٣٢)

فيه شحت المبيعات والغلال والأدهان، وغلا سعر الحبوب وقل وجودها في الرقع والسواحل، فكان الناس لا يحصلون شيًّا منها إلا بغاية المشقة.

وفيه عزل الباشا حكام الأقاليم والكشاف ونوابهم وطلبهم للحضور، وأمر بحسابهم وما أخذوه من الفلاحين زياده على ما فرضه لهم، وأرسل من قبله أشخاصًا مفتشين للفحص والتجسس على ما عسى يكون أخذوه منهم من غير ثمن، فأخذوا يقررون المشايخ والفلاحين ويحررون أثمان مفرق الأشيا من غنم أو دجاج أو تبن أو عليق أو بيض أو غير ذلك في المدة التي أقامها أحدهم بالناحية، فحصل للكثير من قايم مقاماتهم الضرر، وكذلك من انتمى إليهم، فمنهم من اضطُر وباع فرسه واستدان.

وفيه حضر علي كاشف من شرقية بلبيس معزولًا عن كشوفيتها وقلدها خلافه، وكان كاشفًا بالإقليم عدة سنوات، وكذلك جرى لكاشف المنوفية والغربية، وحضر أيضًا حسن بك الشماشرجي من الفيوم معزولًا، ووجَّهه الباشا إلى ناحية درنة لمحاربة أولاد علي.

واستهل شهر ربيع التاني (سنة ١٢٣٢)

فيه حصل الحجز والمنع على من يذبح شيًّا من المواشي في داره أو غيرها، ولا يأخذ الناس لحوم أطعمتهم إلا من المذبح، وأوقفت عساكر بالطرق رصدًا لمن يدخل بشي من الأغنام، وذلك أنه لما نزلت المراسيم إلى الكشاف بمشترى المواشي من الفلاحين، وإرسالها إلى المكان الذي أعده الباشا لذلك.

ويؤخذ منها مقدار ما يذبح بالسلخانة في كل يوم لرواتب الدولة والبيع، وطلب كشاف النواحي شرا الأغنام والعجول والجواميس بالثمن القليل من أربابها، فهرب الكثير من الفلاحين بأغنامهم، فيخرجون من القرية ليلًا ويدخلون المدينة ويمرون بها في الأسواق ويبيعونها بما أحبوا من الثمن على الناس، فانكب الناس على شراها منهم لجودتها، ويشترك الجماعة في الشاة فيذبحونها ويقسمونها بينهم؛ وذلك لقلة وجدان اللحم كما سبقت الإشارة إليه، وإن تيسر وجوده فيكون هزيلًا رديًّا، فإن في كل يوم ترد الجملة الكثيرة من بحري وقبلي إلى المكان المعد لها، ولم يكن ثَمَّ من يراعيها بالعلف والسقي؛ فتهزل وتضعف.

فلما كثر ورود الفلاحين بالأغنام وشرا الناس لها، ووصل خبر ذلك إلى الباشا فأمر بوقوف عساكر على مفارق الطرق خارج المدينة من كل ناحية، فيأخذون الشاة من الفلاحين إما بالثمن أو يذهب صاحبها معهم إلى المذبح فتذبح في يومها ومن الغد، ويوزن اللحم خالصًا، ويعطى لصاحبها تمنه عن كل رطل تمانية فضة ونصف، ويوزن على الجزارين بذلك الثمن بما فيه من القلب والكبد والمنحر والمذاكير، والمخرج بما فيه من الزبل أيضًا، والجزارين يبيعونها على من يشتري لشدة الطلب بزيادة النصف والنصفين بل والتلاتة والأربعة إن كان به نوعُ جودة، وأما الأسقاط من الروس والجلود والكروش فهو للميري، وكذلك يفعل فيما يرد لخاصة الناس من الأغنام يفعل بها كذلك، ولا ياخذ إلا قدر راتبه في كل يوم من المذابح.

وفيه شح وجود في الرقع والسواحل حتى امتنع وجود الخبز في الأسواق، فأخرج الباشا جانب غلة ففرقت على الرُّقع وبيعت على الناس، وهي ألف أردب انقضت في يومين ولا يبيعون أزيد من كيلة أو كيلتين، وبيع الأردب بألف ومايتين وخمسين نصفًا، وفيه أفرد محل لعمل الشمع الذي يعمل من الشحوم بعطفة ابن عبد الله بك جهة السروجية، واحتكروا لأجل عمله جميع الشحوم التي من المذبح وغيره، وامتنع وجود الشحم من حوانيت الدهانين، ومنعوا من يعمل شيًّا من الشمع في داره أو في القوالب الزجاج، وتتبعوا من يكون عنده شي منها فأخذوها منه، وحذروا من عمله خارج المعمل كل التحذير، وسعَّروا رطله بأربعة وعشرين نصفًا.

واستهل شهر جمادى الأولى (سنة ١٢٣٢)

فيه حُوِّل معمل الشمع إلى جهة الحسينية عند الدرب الذي يعرف بالسبع والضبع.

وفيه ارتحلت عساكر مجردة إلى الحجاز.

وفيه برزت أوامرُ إلى كشاف النواحي بإحصا عدد أغنام البلاد والقرى، ويفرض على كل عشرة شياه واحدة من أعظمها، إما كبش أو نعجة بأولادها، يجمعون ذلك ويرسلون به إلى مجمع أغنام الباشا.

وفرض أيضًا على كل فدان رطلًا من السمن، يجمعها مشايخُ البلاد من الفلاحين عند كشاف النواحي ويرسلونها إلى مصر.

وسبب هذه الحادثة أنه لما عملت التسعيرة وتسعر رطل السمن بسته وعشرين نصفًا، ويبيعه السمان والزيات بزيادة نصفين امتنع وجودُه وظهوره، فيأتي الفلاح ليلًا

في الخفية ويبيعه للزبون أو للمتسبب بما أحب، ويبيعه المتسبب أيضًا بالزيادة لمن يريده سرًّا، فيبيعون الرطل بأربعين وخمسين ويزيد على ذلك غش المتسبب وخلطه بالدقيق والقرع والشحم وعكر اللبن، فيصفو على النصف، ولا يقدر مشتريه على رد غشه للبايع؛ لأنه ما حصَّله إلا بغاية المشقة والعزة والإنكار والمنع، وإن فعل لا يجد من يعطيه ثانيًا.

وتقف الطايفة من العسكر بالطرق ليلًا، وفي وقت الغفلات يرصدون الواردين من الفلاحين، ويأخذونه منهم بالقهر ويعطونهم ثمنه بالسعر المرسوم، ويحتكرونه هم أيضًا ويبيعونه لمن يشتريه منهم بالزيادة الفاحشة، فامتنع وروده إلا في النادر خفية مع الغرر أو الخفارة والتحامي في بعض العساكر من أمثالهم، واشتد الحال في انعدام السمن حتى على أكابر الدولة.

فعند ذلك ابتدع الباشا هذه البدعة وفرض على كل فدان من طين الزراعات رطلًا من السمن، ويعطي في ثمن الرطل عشرين نصفًا، واشتغلوا بتحصيل ما دَهَمهم من هذه النازلة، وطولب المزارع بمقدار ما يزرعه من الأفدنة أرطالًا من السمن، ومن لم يكن متأخرًا عنده شي من سمن بهيمته، أو لم يكن له بهيمة، أو احتاج إلى تكملة موجودة عنده فيشتريه ممن يوجد عنده بأغلى ثمن ليسد ما عليه اضطرارًا جزاءً وفاقًا.

وفيه حصل الإذن بدخول ما دون العشرة من الأغنام إلى المدينة، وكذلك الإذن لمن يشتري شيًّا منها من الأسواق، وسبب إطلاق الإذن بذلك مجي بعض أغنام إلى أكابر الدولة، ولا غنى عن ذلك لأدنى منهم أيضًا، وحجزوا عن وصولها إلى دورهم، فشكوا إلى الباشا فأطلق الإذن فيما دون العشرة.

وفيه أيضًا امتنع وجود الغلال بالعرصات والسواحل بسبب احتكارها واستمرار انجرارها ونقلها في المراكب قبلي وبحري إلى جهة إسكندرية للبيع على الإفرنج بالثمن الكثيرة — كما تقدم — ووجهت المراسيم إلى كشاف النواحي بمنع بيع الفلاحين غلالهم لمن يشتري منهم من المتسببين والتراسين وغيرهم، وبأن كل ما احتاجوا لبيعه مما خرج لهم من زراعتهم يؤخذ لطرف الميري بالثمن المفروض بالكيل الوافي.

واشتد الحال في هذا الشهر وما قبله حتى قلَّ وجودُ الخبز من الأسواق، بل امتنع وجوده في بعض الأيام، وأقبلت الفقرا نسا ورجالًا إلى الرقع بمقاطفهم، ورجعوا بها فوارغ من غير شي، وزاد الهول والتشكي وبلغ الخبر الباشا فأطلق أيضًا ألف أردب توزَّع على الرقع ويباع على الناس إما ربع واحد وكيلة فقط، وكل ربع تمنه قرش فيكون الأردب بأربعة وعشرين قرشًا.

وفيه حضر حسن بك الشماشرجي من ناحية درنة وبلد أخرى يقال لها سيوة وصحبته فرقة من أولاد علي، وذلك أن أولاد علي افترقوا فرقتين: إحداهما طايعة والأخرى عاصية عن الطاعة ومنحازون إلى هذه الناحية، فجرد الباشا عليهم حسن بك المذكور، فحاربهم فهزمهم وهزموه ثانيًا، فرجع إلى مصر فضم إليه الباشا جملة من العساكر، وأصحب معه الفرقة الأخرى الطايعة فسار الجمع ودهموهم على حين غفلة، وتقدم لحربهم إخوانهم الطايعة وقتلوا منهم وأغاروا على مواشيهم وأباعرهم وأغنامهم، فأرسلوا المنهوبات إلى جهة الفيوم، وفي ظن العرب الفوز بالغنيمة وأن الباشا لا يطمع فيها لكون النصرة كانت بأيديهم، وأنه يشكر لهم ويزيدهم إنعامًا.

وكانوا نزلوا ببر الجيزة، وحضر حسن بك إلى الباشا، فطلب كبار العرب ليخلع عليهم ويكسوهم، فلما حضروا إليه أمر بحبسهم وإحضار الغنيمة من ناحية الفيوم بتمامها، فأحضروها بعد أيام وأطلقهم، فيقال: إن الأغنام ستة عشر ألف راس أو أكثر، ومن الجمال تمانية آلاف جمل وناقة، وقيل أكثر من ذلك.

وفيه نجزت عمارة السواقي التي أنشأها الباشا بالأرض المعروفة براس الوادي بناحية شرقية بلبيس، قيل: إنها تزيد على ألف ساقية، وهي سواقي دواليب خشب تعمل في الأرض التي يكون منبع الماء فيها قريبًا، واستمر الصناع مدة مستطيلة في عمل آلاتها عند بيت الجبجي، وهو بيت الرزاز الذي جهة التبانة بقرب المحجر، وتُحمل على الجمال إلى الوادي، وهناك المباشرون للعمل المقيدون بذلك، وغرسوا بها أشجار التوت الكثيرة لتربية دود القز واستخراج الحرير، كما يكون بنواحي الشام وجبل الدروز، ثم برزت الأوامر إلى جميع بلاد الشرقية بإشخاص أنفار من الفلاحين البطالين الذين لم يكن لهم أطيان فلاحة يستوطنون بالوادي المذكور، وتُبنى لهم كفور يسكنون فيها ويتعاطون خدمة السواقي والمزارع، ويتعلمون صناعة تربية القز والحرير، واستجلب أناسًا من نواحي الشام والجبل من أصحاب المعرفة بذلك، ويرتب للجميع نفقات إلى حين ظهور النتيجة ثم يكونون شركا في ربع المتحصل.

ولما برزت المراسيم بطلب الأشخاص من بلاد الشرق أشيع في جميع قرى الأقاليم المصرية إشاعات وتقولوا أقاويل، منها أن الباشا يطلب من كل بلدة عشرة من الصبيان البالغين وعشر من البنات ويزوجهم بهن ويمهرهن من ماله ويرتب لهم نفقات إلى بدو صلاح المزارع، ثم أشاعوا الطلب للصبيان الغير مختونين ليرسلهم إلى بلاد الإفرنج ليتعلموا الصنايع التي لم تكن بأرض مصر، وشاع ذلك في أهل القرى، وثبت ذلك عندهم

فختن الجميع صبيانهم، ومنهم من أرسل ابنه أو بنته وغيَّبها عند معارفه بالمدينة، إلى غير ذلك من الأقاويل التي لم يثبت منها إلا ما ذُكر أولًا من أن المطلوب جلب الفلاحين البطالين من بلد الشرقية لا غير، وقد تعمر هذا الوادي بالسواقي والأشجار والسكان من جميع الأجناس، وانتشا واديًا جديدة متسعة لم يكن لها وجود قبل ذلك، بل كانت برِّيَّة خرابًا وفضا واسعًا.

وفيه سافر جملة من عساكر الأتراك والمغاربة وكبيرهم إبراهيم أغا الذي كان كتخدا إبراهيم باشا ثم تولى كشوفية المنوفية، وصحبته خزينة وجبخانة ومطلوبات لمخدومه.

واستهل شهر جمادى التاني بيوم التلات (سنة ١٢٣٢)

في أوله حضر إلى مصر ابن يوسف باشا حاكم طرابلس، ومعه أخوه أصغر منه يستأذنان الباشا في حضور والدهما إلى مصر فارًّا من والده، وكان ولَّاه على ناحية درنة وبني غازي، فحصل منه ما غيَّر خاطر والده عليه، وعزم على أن يجرِّد عليه فأرسل أولاده إلى صاحب مصر بهدية ويستأذن في الحضور إلى مصر والالتجاء إليه، فأذن له في الحضور وهو ابن أخي الذي بمصر أولًا وسافر مع الباشا إلى الحجاز، ورجع إلى مصر واستمر ساكنًا بالسبع قاعات.

وفيه وصل الخبر بأن إبراهيم أغا سافر مع الجردة لما وصل إلى العقبة أمر مَن بصحبته مِن المغاربة والعسكر بالرحيل، فلما ارتحلوا ركب هو في خاصته وذهب على طريق الشام.

وفي ليلة الأربع سادس عشره وصل جراد كثير ليلًا، ونزل ببستان الباشا بشبرا وتعلق بالأشجار والزهور، وصاحت الخَوَلة والبستانجية وأرسل الباشا إلى الحسينية وغيرها، فجمعوا مشاعل كثيرة وأوقدوها وضربوا بالطبول والصنوج النحاس لطرده، وأمر الباشا لكل من جمع منه رطلًا فله قرشان، فجمع الصبيان والفلاحون منه كثيرًا.

ثم في ليلة السبت تاسع عشره قبل الغروب وصل جراد كثير من ناحية المشرق مارًّا بين السما والأرض مثل السحاب، وكان الريح ساكنًا فسقط منه الكثير على الجناين والمزارع والمقاثي، فلما كان في نصف الليل هبت رياح جنوبية واستمرت واشتد هبوبها عند انتصاف النهار وأثارت غبارًا أصفر وعبوقًا بالجو، ودامت إلى بعد العصر يوم السبت فطردت ذلك الجراد وأذهبته، فسبحان الحكيم المدبر اللطيف!

وفي يوم الأحد طاف منادٍ أعمى يقوده آخر بالأسواق، ويقول في نداه: مَن كان مريضًا أو به رمد أو جراحه أو أدْرة، فليذهب إلى خان بالموسكي به أربعة من حكما الإفرنج أطبا يداوونه من غير مقابلة شي، فتعجب الناس من هذا وتحاكوه، وسعوا إلى جهتهم لطلب التداوي.

وفيه حضر ابن باشت طرابلس، ودخل إلى المدينة وصحبته نحو المايتي نفر من أتباعه، فأنزله الباشا في منزل أم مرزوق بك بحارة عابدين، وأجرى عليه النفقات والرواتب له ولأتباعه.

وفي يوم الخميس حادي عشرينه وصل خبر الأطبا ومناداتهم إلى كتخدا بك، فأحضر حكيم باشا، وسأله فأنكر معرفتهم وأنه لا علم عنده بذلك، فأمر بإحضارهم وسألهم فخلطوا في الكلام فأمر بإخراجهم من البلدة ونفوهم في الحال، وذهبوا إلى حيث شاء الله، ولو فعل مثل هذه الفعلة بعض المسلمين لجوزي بالقتل أو الخازوق.

وكان صورة جلوسهم أن يجلس أحدهم خارج المكان والآخر من داخل وبينهما ترجمان، ويأتي مريد العلاج إلى الأول، وهو كأنه الريس، فيجس نبضه أو بيضه وكأنه عرف علته، ويكتب له ورقة فيدخل مع الترجمان بها لآخر بداخل المكان، فيعطيه شيًّا من الدهن أو السفوف أو الحب المركب، ويطلب منه إما قرشًا أو قرشين أو خمسة بحسب الحال، وذلك ثمن الدوا لا غير، وشاع ذلك وتسامع به الناس، وأكثرهم معلول، ومن طبيعتهم التقليد والرغبة في الوارد الغريب، فتكاثروا وتزاحموا عليهم فجمعوا في الأيام القليلة جملة من الدراهم، واستلطف الناس طريقتهم هذه بخلاف ما يفعله الذين يدَّعون التطبيب من الإفرنج.

واصطلاحهم إذا دُعي الواحد منهم لمعالجة المريض فأول ما يبدأ به نقل قدمه بدراهم يأخذها إما ريال فرانسة أو أكثر بحسب الحال والمقام، ثم يذهب إلى المريض فيجسه ويزعم أنه عرف علته ومرضه، وربما هوَّل على المريض داءه وعلاجه، ثم يقاول على سعيه في معالجته بمقدار من الفرانسة إما خمسين أو ماية أو أكثر بحسب مقام العليل، ويطلب نصف الجعالة ابتدا، ويجعل على كل مرة من الترددات عليه جعالة أيضًا، ثم يزاوله بالعلاجات التي تجددت عندهم، وهي مياه مستقطرة من الأعشاب أو أدهان كذلك، يأتون بها للمرضى في قوارير الزجاج اللطيفة في المنظر يسمونها بأسما بلغاتهم ويعربونها بدهن البادزهر وأكسير الخاصة ونحو ذلك، فإن شفى الله العليل أخذ منه بقية ما قاوله عليه أو أماته طالب الورثة بباقي الجعالة وتمن الأدوية طبق ما

يدعيه، وإذا قيل له: إنه قد مات، قال في جوابه: إني لم أضمن أجله، وليس على الطبيب منع الموت ولا تطويل العمر، وفيهم من جعل له في كل يوم عشرة من الفرانسة.

وفيه رأى رأيه حضرة الباشا حفر بحر عميق يجري إلى بركة عميقة تحفر أيضًا بإسكندرية، تسير فيها السفن بالغلال وغيرها، ومبدها من مبدا خليج الأشرفية عند الرحمانية، فطلب لذلك خمسين ألف فاس ومسحة يصنعها صناع الحديد، وأمر بجمع الرجال من القرى، وهم ماية ألف فلاح توزع على القرى والبلدان للعمل والحفر بالأجرة، وبرزت الأوامر بذلك فارتبك أمر الفلاحين ومشايخ البلاد؛ لأن الأمر برز بحضور المشايخ وفلاحيهم، فشرعوا في التشهيل وما يتزودون به في البرية ولا يدرون مدة الإقامة، فمنهم من يقدرها بالسنة، ومنهم بأقل أو أكثر.

واستهل شهر رجب بيوم الأحد (سنة ١٢٣٢)

في تانيه يوم الاتنين الموافق لتاني عشر بشنس القبطي وسابع آيار الرومي قبل الغروب بنحو ساعة، تغير الجو بسحاب وقتام، وحصل رعد متتابع وأعقبه مطر بعد الغروب، ثم انجلى ذلك، والسبب في ذكر مثل هذه الجزئية شيان؛ الأول: وقوعها في غير زمانها لما فيه من الاعتبار بخرق العوايد، التاني: الاحتياج إليها في بعض الأحيان في العلامات السماوية، وبالأكثر في الوقايع العامية، فإن العامة لا يؤرخون غالبًا بالأعوام والشهور، بل بحادثة أرضية أو سماوية، خصوصًا إذا حصلت في غير وقتها، أو ملحمة أو معركة أو فصل أو مرض عام أو موت كبير أو أمير، فإذا سيل شخص عن وقت مولده أو مولد ابنه أو ابنته أو موت أبيه أو سنة بلوغه سن الرشد، يقول: كان بعد الحادثة الفلانية بكذا من الأيام، ثم لا يدري في أي شهر أو عام، وخصوصًا إذا طال الزمان بعده.

وقد تكرر الاحتياج إلى تحرر الوقت في مسايل شرعية في مجلس الشرع، في مثل الحضانة والعدة والنفقة وسن اليأس ومدة غيبة المفقود، بأن يتفق قولهم على أن الصبي ولد يوم السيل الذي هدم القبور، أو يوم موت الأمير فلان، أو الواقعة الفلانية، ويختلفون في تحقيق وقتها، وعند ذلك يحتاجون إلى السؤال ممن عساه يكون أرَّخ وقتها، وفي غير وقت الاحتياج يسخرون بمن يشغل بعض أوقاته بشي من ذلك لاعتيادهم إهمال العلوم التي كان يعتني بتدوينها الأوايل إلا بقدر إقامة الناموس الذي يحصلون به الدنيا.

ولولا تدوين العلوم — وخصوصًا علم الأخبار — ما وصل إلينا شي منها، ولا الشرايع الواجبة، ولا يشك شاك في فوايد التدوين وخصايصه بنص التنزيل، قال تعالى:

﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ۚ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وفي عاشره وصلت هجانة وأخبار عن إبراهيم باشا من الحجاز بأنه وصل إلى محل يسمى الموتان، فوقع بينه وبين الوهابية، وقتل منهم مقتلة عظيمة، وأخذ منهم أسرى وخيامًا ومدفعين، فضربوا لتلك الأخبار مدافع سرورًا بذلك الخبر.

وفي يوم الأربع تامن عشره سافر الباشا إلى أسكلة السويس، وصحبته السيد محمد المحروقي ليتلقى سفاينه الواصلة بالبضايع الهندية.

واستهل شهر شعبان بيوم الاتنين (سنة ١٢٣٢)

فيه رجع الباشا من السويس، وأخلوا للبضايع الواصلة تلات خانات توضع في حواصلها، ثم توزع على الباعة بالثمن الذي يفرضه.

وفيه وصل الخبر أيضًا بوصول سفاين إلى بندر جدة وفيها تلاتة من الفيلة.

وفيه قوي اهتمام الباشا لحفر الترعة الموصلة إلى إسكندرية كما تقدم، وأن يكون عرضها عشرة أقصاب، والعمق أربعة أقصاب بحسب علو الأراضي وانخفاضها، وتعينت كشاف الأقاليم لجمع الرجال، وفرضوا أعدادهم بحسب كثرة أهل القرية وقلتها، وعلى كل عشرة أشخاص شخص كبير.

وجمعت الغُلقان، ولكل غلق فاس وتلاتة رجال لخدمته، وأعطوا كل شخص خمسة عشر قرشًا ترحيلة، ولكل شخص تلاتون نصفًا في أجرته كل يوم وقت العمل.

وحصل الاهتمام لذلك في وقت اشتغال الفلاحين بالحصيدة والدراس وزراعة الذرة التي هي معظم قوتهم، وشرعوا في تشهيل احتياجاتهم وشرا القرب للماء، فإن بتلك البرية لا يوجد الماء إلا ببعض الحفاير التي يحفرها طالب الماء، وقد تخرج مالحة؛ لأنها أراض مسبخة.

وتعين جماعة من مهندسخانة ونزلوا مع كبيرهم لمساحتها وقياسها فقاسوا من فم ترعة الأشرفية حيث الرحمانية، إلى حد الحفر المراد بقرب عمود السواري الذي بإسكندرية، فبلغ ذلك ستة وعشرين ألف قصبة، ثم قاسوا من أول الترعة القديمة المعروفة بالناصرية وابتداها من المكان المعروف بالعطف عند مدينة فوة، فكان أقل من ذلك ينقص عنه خمسة آلاف قصبة وكسر، فوقع الاختيار على أن يكون ابتداها هناك.

وفي أثناء ذلك زاد النيل قبل المناداة عليه بالزيادة، وذلك في منتصف بؤنة القبطي وغرَّق المقاثي من البطيخ والخيار والعبدلاوي، وأهمل أمر الحفر في الترعة المذكورة إلى ما بعد النيل، واستردت الدراهم التي أعطيت للفلاحين لأجل الترحيلة، وفرحوا بذلك الإهمال، وقد كان أطلق الباشا لمصارفها أربعة آلاف كيس من تحت الحساب، ورجع المهندسون إلى مصر وقد صوروا صورتها في كواغد ليطلع عليها الباشا عيانًا، وكان رجوعهم في تامن عشر شعبان.

وفيه تقلد إبراهيم أغا المعروف بأغات الباب أمر تنظيم الأصناف والمحدثات، وعمل معدلاتها لبيان سرقات ومخفيات المتقلدين آخر كل صنف من الأصناف بعد البحث والتفتيش، والتفحص على دقايق الأشيا.

وفيه وصل نحو المايتي شخص من بلاد الروم أرباب صنايع معمرين ونجارين وحدادين وبنايين، وهم ما بين أرمني ونجريجي ونحو ذلك.

وفيه أيضًا اهتم الباشا ببنا حايطين بحري رشيد عند الطينة على يمين البغاز وشماله لينحصر فيما بينهما الماء ولا تطمى الرمال وقت ضعف النيل، ويقع بسبب ذلك العطب للمراكب وتلف أموال المسافرين، وقد كمل ذلك في هذا الشهر، وهذه الفعلة من أعظم الهمم الملوكية التي لم يسبق بمثلها.

وفي عشرينه شُنق شخص بباب زويلة بسبب الزيادة في المعاملة، وعلقوا بأنفه ريال فرانسة، مع أن الزيادة سارية في المبيعات والمشتروات من غير إنكار.

وفيه أيضًا خزم المحتسب آناف أشخاص من الجزارين في نواحي وجهات متفرقة، وعلَّق في آنافهم قطعًا من اللحم؛ وذلك بسبب الزيادة في تمن اللحم وبيعهم له بما أحبوه من الثمن في بعض الأماكن خفية؛ لأن الجزارين إذا نزلوا باللحم من المذبح وأكثره هزيل ونعاج ومعز والقليل من المناسب الجيد، فيعلقون الردي بالحوانيت ويبيعونه جهارًا بالثمن المسعر، ويخفون الجيد ويبيعونه في بعض الأماكن بما يحبون.

وفي يوم الخميس عشرينه وصلت الأفيال التلاتة من السويس أحدها كبير عن الاتنين، ولكن متوسط في الكبر، فعبروا بها من باب النصر وشقوا من وسط المدينة، وخرجوا بهم من باب زويلة على الدرب الأحمر، وذهبوا بهم إلى قراميدان، وهرولت الناس والصبيان للفرجة عليها، وذهبوا خلفها وازدحموا في الأسواق لرؤيتها، وكذلك العسكر والدلاة ركبانًا ومشاة وعلى ظهر الفيل الكبير مقعد من خشب.

واستهل شهر رمضان بيوم التلات (سنة ١٢٣٢)

وعملت الرؤية تلك الليلة وركب المحتسب وكذا مشايخ الحرف كعادتهم، وأثبتوا رؤية الهلال تلك الليلة، وكان عسر الرؤية جدًّا.

وفي صبح ذلك اليوم عزل عثمان أغا الورداني من الحسبة وتقلدها مصطفى كاشف كرد، وذلك لما تكرر على سمع الباشا أفعال السوقة وانحرافهم وقلة طاعتهم، وعدم مبالاتهم بالضرب والإيذا وخزم الأنوف والتجريس، قال في مجلس خاصته: لقد سرى حكمي في الأقاليم البعيدة فضلًا عن القريبة، وخافني العربان وقطاع الطريق وغيرهم خلاف سوقة مصر، فإنهم لا يرتدعون بما يفعله فيهم ولاة الحسبة من الإهانة والإيذا، فلا بد لهم من شخص يقهرهم ولا يرحمهم ولا يهملهم، فوقع اختياره على مصطفى كاشف كرد هذا، فقلده ذلك وأطلق له الإذن، فعند ذلك ركب في كبكبة وخلفه عدة من الخيالة، وترك شعار المنصب من المقدمين والخدم الذين يتقدمونه، وكذلك الذي أمامه بالميزان ومن بأيديهم الكرابيج لضرب المستحق والمنقص في الوزن.

وبات يطوف على الباعة ويضرب بالدبوس هشمًا بأدنى سبب، ويعاقب بقطع شحمة الأذن، فأغلقوا الحوانيت، ومنعوا وجود الأشيا حتى ما جرت به العادة في رمضان من عمل الكعك والرقاق المعروف بالسحير وغيره، فلم يلتفت لامتناعهم وغلقهم الحوانيت وزاد في العسف، ولم يرجع عن سعيه واجتهاده، ولازم على السعي والطواف ليلًا ونهارًا لا ينام الليل بل ينام لحظة وقت ما يدركه النوم في أي مكان ولو على مصطبة حانوت، وأخذ يتفحص على السمن والجبن ونحوه المخزون في الحواصل ويخرجه، ويدفع ثمنه لأربابه بالسعر المفروض، ويوزعه لأرباب الحوانيت ليبيعوه على الناس بزيادة نصف أو نصفين في كل رطل.

وذهب إلى بولاق ومصر القديمة فاستخرج منهما سمنًا كثيرًا، ومعظم ذلك في مخازن للعسكر، فإن العسكر كانوا يرصدون الفلاحين وغيرهم فيأخذونه منهم بالسعر المفروض، وهو مايتان وأربعون في العشرة منه، ثم يبيعونه على المحتاجين إليه بما أحبوا من الزيادة الفاحشة، فلم يراعِ جانبهم، واستخرج مخبآتهم قهرًا عنهم، ومن خالف عليه منهم ضربه وأخذ سلاحه ونكل به.

وذهب في بعض الأوقات إلى بولاق فأخرج من حاصل ببعض الوكايل تلتماية وخمسين ماعونًا لكبير من العسكر، فحضر إليه بطايفته فلم يلتفت إليه ووبخه وقال له: أنتم عساكر لكم الرواتب والعلايف واللحوم والأسمان وخلافها، ثم تحتكرون أيضًا

أقوات الناس وتبيعونها عليهم بالثمن الزايد، وأعطاه الثمن المفروض وحمل المواعين على الجِمال إلى الأمكنة التي أعدها لها عند باب الفتوح.

وعندما رأى أرباب الحوانيت الجد وعدم الإهمال والتشديد عليهم فتح المغلق منهم حانوته، وأظهروا مخبآتهم أمامهم وملوا السدريات والطسوت من السمن وأنواع الجبن خوفًا من بطش المحتسب، وعدم رحمته بهم، ويقف بنفسه على باعة البطيخ والقاوون.

وفي منتصف شهر رمضان وصلوا برمة إبراهيم بك الكبير من دنقلة؛ وذلك أنه لما وصل خبر موته استأذنت زوجته أم ولده الباشا في إرسالها امرأة تدعى نفيسه لإحضار رمته، فأذن بذلك، وأعطى المتسفرة فيما بلغنا عشرة أكياس وكتب لها مكاتبات لكشاف الوجه القبلي بالمساعدة، وسافرت وحضرت به في تابوت، وقد جف جلده على عظمه لنحافته، وذلك بعد موته بنحو ستة شهور، وعملوا له مشهدًا وأمامه كفارة، ودفنوه بالقرافة الصغرى، عند ابنه مرزوق بك.

وفي ليلة الخميس سابع عشره طلب المحتسب حجاج الخضري الشهير بنواحي الرملية، فأخذه إلى الجمالية وشنقه على السبيل المجاور لحارة المبيضة، وذلك في سادس ساعة من الليل وقت السحور، وتركوه معلقًا لمثلها من الليلة القابلة، ثم أذن برفعه فأخذه أهله ودفنوه، وحجاج هو الذي تقدم ذكره غير مرة في واقعة خورشيد باشا وغيرها.

وكان مشهورًا بالإقدام والشجاعة طويل القامة عظيم الهمة، وكان شيخًا على طوايف الخضرية، صاحب صَوْلة وكلمة بتلك النواحي ومكارم أخلاق، وهو الذي بنى البوابة بآخر الرملية عند عرصة الغلة أيام الفتنة.

واختفى مرارًا بعد تلك الحوادث، وانضم إلى الألفي ثم حضر إلى مصر بأمان، ولم يزل على حالته في هدو وسكون، ولم يؤخذ على هذه بجرم فعَله يوجب شنقه، بل قُتل مظلومًا لحقد سابق وزجرًا لغيره.

وفي يوم الاتنين تامن عشرين شهر رمضان الموافق لسادس مسرى القبطي أوفى النيل أذرعه بالوفا، وكسر السد صبح يوم التلات بحضرة كتخدا بك والقاضي وغيره، وجرى الماء في الخليج، ولم يقع فيه مهرجان مثل العادة، وهذا والمحتسب مواظب على السروح ليلًا ونهارًا ويعاقب بجرح الآذان والضرب بالدبوس، وأقعد بعض صناع الكنافة على صوانيهم التي على النار، وأمر بكنس الأسواق ومواظبة رشها بالماء ووقود القناديل على أبواب الدور، وعلى كل تلاتة من الحوانيت قنديل.

ويركب آخر الليل، ثم يذهب إلى بولاق ليتلقى الواردين بالبطيخ الأخضر والأصفر، ويعرف عدة الشروات ويأمرهم بدفع مكوسها المفروض، ثم يأمرهم بالذهاب إلى مراكز

بيعهم ولا يبيعون شيًّا حتى يأتيهم بنفسه أو بحضرة من يرسله من طرفه، ثم يعود طايفا عليهم فيحصي ما في فرش أحدهم عددًا، ويميز الكبير بثمن والصغير بثمن، ويترك عند البايع من يباشره، أو يقف هو بنفسه ويبيع على الناس بما فرضه ويعطي لصاحبه الثمن والربح، فيراه قد ربح العشرة قروش وأكثر بعد مكسه ومصارفه فيقول له: أما يكفي مثلك ربح هذا القدر حتى تطمع أيضًا في الزياده عليه؟

وهو مع ذلك يكر ويطوف على غيرهم ويحلق على ما يرد من السمن الوارد والذي تقرر على المزارعين، فيزنه منهم بالسعر المفروض وهو أربعة وعشرون نصفًا الرطل، ويرد عليهم الفوارغ ويعطيه للبايع بالثمن المقرر، وهو ستة وعشرون وهو يبيعونه بزيادة نصفين في كل رطل وهو تمانية وعشرون، ويناله الناس بأسهل وجدان سالمًا من الخلط والغش، ويأمرهم بإعادة ما عسى يوجد فيه من المُرْتة والعكار إلى مواعينه ليوزن مع فوارغه.

ورصد أيضًا ما يرد للناس ولو لأكابر الدولة من السمن، فيطلق البعض ويأخذ الباقي بالثمن، وكذلك ما يأتيهم من البطيخ والدجاج، ولو كان لصاحب الدولة، حسب إذنه له بذلك، كل ذلك للحرص على كثرة وجدان الأشيا، وتعدت أحكامه إلى بضايع التجار والأقمشة الهندية وأهل مرجوش والمحلاوية وخلافهم، وطلب قوايم مشترواتهم والنظر في مكايلهم فضاق خناق أكثر الناس لكونهم لم يعتادوه من محتسب قبله.

وكأنه وصله خبر ولاة الحسبة وأحكامهم في الدول المصرية القديمة، فإن وظيفة أمين الاحتساب وظيفة قضاء، وله التحكم والعدالة والتكلم على جميع الأشيا، وكان لا يتولاها إلا المتضلع من جميع المعارف والعلوم والقوانين ونظام العدالة، حتى على من يتصدر لتقرير العلوم، فيحضر مجلسه ويباحثه فإن وجد فيه أهلية للإلقا أذن له بالتصدر أو منعه حتى يستكمل، وكذلك الأطباء والجراحية حتى البيطارية والبزدرية ومعلمو الأطفال في المكاتب ومعلمو السباحة في الماء، والنظر في وسق المراكب في الأسفار وأحمال الدواب في نقل الأشيا ومقادير روايا الماء مما يطول شرحه، وفي ذلك مؤلَّف للشيخ ابن الرفعة، وقد سهل بعض ذلك مع العدالة وعدم الاحتكار وطمع المتولي، وتطلعه لما في أيدي الناس وأرزاقهم.

ومما يحكى أن الرشيد سأل الليث بن سعد فقال له: يا أبا الحارث ما صلاح بلدكم؟ (يعني مصر) فقال له: أما صلاح أمرها ومزارعها فبالنيل، وأما أحكامها فمن رأس العين يأتي الكدر.

وفي أواخر رمضان زاد المحتسب في نغمات الطنبور، وهو أنه أرسل مناديه في مصر القديمة ينادي على نصارى الأرمن والأروام والشوام بإخلا البيوت التي عمروها وزخرفوها وسكنوا بها بالإنشا والملك والمؤجرة المطلة على النيل، وأن يعودوا إلى زيهم الأول من لبس العمايم الزرق وعدم ركوبهم الخيول والبغال والرهوانات الفارهة واستخدامهم المسلمين، فتقدم أعاظمهم إلى الباشا بالشكوى وهو يراعي جانبهم؛ لأنهم صاروا أخصا الدولة وجلسا الحضرة وندما الصحبة.

وأيضًا نادى مناديه على المردان ومحلقي اللحى بأنهم يتركونها ولا يحلقونها وجميع العسكر، وغالب الأتراك سنتهم حلق اللحى ولو طعن في السن، فأشيع فيهم أن يأمرهم بترك لحاهم، وذلك خرم لقواعدهم بل يرونه من الكباير، وكذلك السيد محمد المحروقي بسبب تعرضه إلى بضايع التجار من أهل الغورية فإن ذلك منوط به.

وفي أثناء ذلك ورد إلى عابدين بك مواعين سمن فأرسل الجِمال إلى حملها من ساحل بولاق، فبلغ خبرها المحتسب فأخذها وأدخلها مخزنه، وعادت الجمال فارغة وأخبروا مخدومهم بحجز المحتسب لها، فأرسل عدة من العسكر فأخرجوها من المخزن وأخذوها، ولم يكن المحتسب حاضرًا، واتفق أنه ضرب شخصًا من عسكر المذكور أرنؤدي بالدبوس حتى كاد يموت، فاشتد بعابدين بك الحنق، وركب إلى كتخدا بك وشنع على المحتسب.

وتعددت الشكاوى وصادفت في زمن واحد، فأنهي الأمر إلى الباشا فتقدم إليه بكف المحتسب عن هذه الأفعال، فأحضره الكتخدا وزجره وأمره أن لا يتعدى حكمة الباعة ومن كان يسري عليهم أحكام من كان في منصبه قبله، وأن يكون أمامه الميزان ويؤدب المستحق بالكرابيج دون الدبوس.

واستهل شهر شوال بيوم الخميس (سنة ١٢٣٢)

فترك المحتسب السروح في أيام العيد، وأشيع بين السوقة عزله، فأظهروا الفرح ورفعوا ما كان ظاهرًا بين أيديهم من السمن والجبن وأخفوه عن الأعين، ورجعوا إلى حالتهم الأولى في الغش والخيانة وغلا السعر، وأغلق بعضهم الحانوت وخرجوا إلى المنتزهات وعملوا ولايم.

وفي رابعه شنقوا عدة أشخاص في أماكن متفرقة، قيل إنهم سُرَّاق وزغلية، وكانوا مسجونين في أيام رمضان، ولم يركب المحتسب حسب الأمر، بل أركب خازنداره، وشق بالميزان عوضًا عنه، ثم ركب هو أيضًا وبيده الدبوس، لكن دون الحالة الأولى في الجبروت، ولم يَسْرِ حكمه على النصارى فضلًا عن غيرهم.

وفي عاشره يوم السبت نزلوا بكسوة الكعبة من القلعة وشقوا بها من وسط الشارع إلى المشهد الحسيني.

وفي يوم السبت سابع عشره أداروا المحمل وخرج أميرُ الركب إلى خارج باب النصر، ووصلت حجاج كثيرة من ناحية المغرب إلى بر إنبابة وبولاق، وطفقوا يشترون الأغنام من الفلاحين ويذبحونها ويبيعونها ببولاق وطرقها على الناس جزافًا من غير وزن، ويذهب الكثير من الناس إلى الشرا منهم، فيقعون في الغبن الفاحش والزيادة على السعر بالضعف وأكثر، وضرورتهم في الشرا منهم رداءة ما يحمله القصابون من المذبح من أغنام الباشا المحضرة من البلاد والقرى، وقد هزلت من السفر والإقامة بالجوع والعطش، ويموت الكثير منها فيسلمونه ويزنونه على الجزارين بالبيع للناس، وفيه المتغير الريحة وما تعافه النفوس، فبسبب ذلك اضطُر الناس إلى الشرا من هولا الأجناس بالغبن وتحمل سو أخلاقهم.

وحصل بينهم وبين بعض العسكر شرور وقتل بينهم قتلى ومجاريح، والباشا وحكام الوقت يتغافلون عنهم خوفًا من وقوع الفتن، ثم ارتحلوا لأنهم كثروا وملوا الأزقة والنواحي.

وحضر أيضًا الركب الفاسي وفيه ولدا السلطان سليمان ومن يصحبهما، فأحسن الباشا نزلهم، وتقيد السيد محمد المحروقي بملاقاتهم ولوازمهم، وأنزلوهم في منزل بجوار المشهد الحسيني، وأجريت عليهم نفقات تليق بهم، وأهديا للباشا هدية، وفيها عدة بغال وبرانس حرير وغير ذلك.

وفي تامن عشرينه ارتحل الحج المصري من البركة، وكانت الحجوج في هذه السنة كثيرة من ساير الأجناس أتراك وططر وبشناق وجركس وفلاحين من ساير الأجناس، ورجع الكثير من المسافرين على بحر القلزم إلى الحجاز من السويس لقلة المراكب التي تحملهم، وغصت المدينة من كثرة الزحام زيادة على ما بها من ازدحام العساكر وأخلاط العالم من فلاحي القرى المشيعين والمسافرين، ومن يرد من الآفاق والبلاد الشامية ونصارى الروم والأرمن والدلاة والواردين، والذين استدعاهم الباشا من الدروز والمتاولة والنصيرية وغيرهم لعمل الصنايع والمزارع وشغل الحرير، وما استجده بوادي الشرقية، حتى إن الإنسان يقاسي الشدة والهول إذا مر بالشارع من كثرة الازدحام ومرور الخيالة وحمير الأوسية، والجِمال التي تحمل الأتربة والأنقاض والأحجار لعماير الدولة، سوى ما عداها من حمول الأحطاب والبضايع والتراسين حتى الزحمة في داخل العطف الضيقة،

وزيادة على ذلك كثرة الكلاب بحيث يكون في القطعة من الطريق نحو الخمسين، ثم صياحها ونباحها المستمر، وخصوصًا في الليل على المارين، وتشاجرها مع بعضها مما يزعج النفوس ويمنع الهجوع.

وقد أحسن الفرنساوية بقتلهم الكلاب، فإنهم لما استقروا وتكرر مرورهم ونظروا إلى كثرة الكلاب من غير حاجة ولا منفعة سوى الهبهبة والعوا، وخصوصًا عليهم لغرابة أشكالهم، فطاف عليهم طايف منهم باللحم المسموم، فما أصبح النهار إلا وجميعها موتى مطروحة بجميع الشوارع، فكان الناس والصغار يسحبونها كذا بالحبال إلى الخلا، واستراحت الأرض ومن فيها، فالله يكشف عنا مطلق الكرب في الدنيا والآخرة بمنِّه وكرمه.

واستهل شهر ذي القعدة (سنة ١٢٣٢)

في خامسه يوم الأربع وليلة الخميس ارتحل ركب الحجاج المغاربة من الحصوة.

وفي أواخره حصل الأمر للفقها بأزهر بقراية صحيح البخارى، فاجتمع الكثير من الفقها والمجاورين وفرقوا بينهم أجزا وكراريس من البخارى يقرون فيها في مقدار ساعتين من النهار بعد الشروق، فاستمروا على ذلك خمسة أيام، وذلك بقصد حصول النصر لإبراهيم باشا على الوهابية، وقد طالت مدة انقطاع الأخبار عنه، وحصل لأبيه قلق زايد، ولما انقضت أيام قراية البخاري نزَّل للفقها عشرين كيسًا فُرقت عليهم، وكذلك على أطفال المكاتب.

واستهل شهر ذي الحجة بيوم الأحد (سنة ١٢٣٢)

في رابعه شنقوا أشخاصًا قيل إنهم خمسة، ويقال إنهم حرامية.

وفيه أرسلت الأفيال الثلاثة إلى دار السلطنة وصحبة الهدايا المرسلة ثلاثة سروج ذهب وفيها سرج مجوهر، وخيول كبوش ونقود وأقمشة هندية وسكاكر وأرز.

وفيه وصل آخَر كبير مروا به من وسط المدينة، وذهبوا به إلى رحبة بيت السيد محمد المحروقي وقفوا به في أواخر النهار والناس تجتمع للفرجة عليه إلى أواخر النهار، ثم طلعوا إلى القلعة وأوقفوا بالطبخانة، وهي محل عمل المدافع، وحضر بصحبته شخص يدَّعي العلم والمعرفة بالطب والحكمة، ومعه مجلد كبير في حجم الوسادة يحتوي على

الكتب الستة الحديثية، وخطه دقيق، قال إنه نسخه بيده، ونزل ببيت السيد محمد المحروقي وركب له معجون الجواهر، أنفق فيه جملة من المال وكحلا، وركب أيضًا تراكيب لغيره، وشرط عليهم في الاستعمال بعد مضي ستة أشهر وشي منها بعد شهرين وتلاتة، وأقام أيامًا ثم سافر راجعًا إلى صنعا.

وفي يوم التلات عاشره كان عيد النحر، ولم يرد فيه مواشي كثيرة كالأعياد السابقة من الأغنام والجواميس، التي تأتي من الأرياف، فكانت تزدحم منها الأسواق لكثرتها والوكايل والرميلة، فلم يرد إلا النزر القليل قبل النحر بيومين، ويباع بالثمن الغالي، ولم يذبح الجزارون في أيام النحر للبيع كعادتهم إلا القليل منهم مع التحجير على الجلود وعلى من يشتريها، وتباع لطرف الدولة بالثمن الرخيص جدًّا.

وانقضت السنة مع استمرار ما تجدد بها من الحوادث التي منها ما حدث في آخر السنة من الحجر وضبط أنواع الحياكة وكل ما يصنع بالمكوك، وما ينسج على نول أو نحوه من جميع الأصناف من إبريسم أو حرير أو كتان إلى الخيش والفلِّ والحصير في ساير الإقليم المصري طولًا وعرضًا قبلي وبحري، من إسكندرية ودمياط إلى أقصى بلاد الصعيد والفيوم، وكل ناحية تحت حكم هذا المتولي، وانتظمت لهذا الباب دواوين ببيت محمود بك الخازندار وأيامًا ببيت السيد محمد المحروقي، ويحضره من ذكر والمعلم غالي، ومتولي كبر ذلك والمفتتح لأبوابه المعلم يوسف كنعان الشامي، والمعلم منصور أبو سربمون القبطي.

ورتبوا لضبط ذلك كتَّابًا ومباشرين يتقررون بالنواحي والبلدان والقرى، وما يلزم لهم من المصاريف والمعاليم والمشاهرات ما يكفيهم في نظير تقيدهم وخدمتهم، فيمضي المتعينون لذلك فيحصون ما يكون موجودًا على الأنوال بالناحية من القماش والبز والأكسية الصوف المعروفة بالزعابيط والدفافي، ويكتبون عدده على ذمة الصانع، ويكون ملزومًا به حتى إذا تم نسجه دفعوا ثمنه بالفرض الذي يفرضونه، وإن أرادها صاحبها أخذها من الموكلين بالثمن الذي يقدرونه بعد الختم عليها من طرفيها بعلامة الميري، فإن ظهر عند شخص شي من غير علامة الميري أخذت منه، بل وعوقب وغرم تأديبًا على اختلاسه وتحذيرًا لغيره.

هذا شأن الموجود الحاصل عند النساجين واستئناف العمل المجدد، فإن الموكل بالناحية ومباشريها يستدعون من كل قرية شخصًا معروفًا من مشايخها فيقيمونه وكيلًا ويعطونه مبلغًا من الدراهم ويأمرونه بإحصا الأنوال والشغالين والبطالين منهم

في دفتر، فيأمرون البطالين بالنسج على الأنوال التي ليس لها صناع بأجرتهم كغيرهم على طرف الميري، ويدفع المتوكل لشخصين أو تلاتة دراهم يطوفون بها على النسا اللاتي يغزلن الكتان بالنواحي، ويجعلنه أذرعًا، فيشترون ذلك منهن بالثمن المفروض، ويأتون إلى النساجين، ثم تجمع أصناف الأقمشة في أماكن للبيع بالثمن الزايد، وجعلوا لمبيعها أمكنة مثل خان أبو طقية وخان الجلاد، وبه يجلس المعلم كنعان ومن معه وغير ذلك، وبلغ ثمن الثوب القطن الذي يقال له البطانة إلى تلتماية نصف فضة بعدما كان يُشترى بماية نصف وأقل وأكثر، بحسب الرداءة والجودة، وأدركناه يباع في الزمن السابق بعشرين نصفًا، وبلغ تمن المقطع القماش الغليظ إلى ستماية نصف فضة، وكان يباع بأقل من تلت ذلك، وقس على ذلك باقي الأصناف، وهذه البدعة المحدثة، فإن ضررها عم الغني والفقير والجليل والحقير، والحكم لله العلي الكبير.

ومنها أن المشار إليه هدم القصر الذي بالآثار وأنشأه على الهيئة الرومية التي ابتدعوها في عمايرهم بمصر، وهدموه وعمروه وبيضوه في أيام قليلة؛ وذلك أنه بات هناك ليلتين فأعجبه هواه فاختار بناه على هواه، وعند تمامه وتنظيمه بالفرض والزخارف جعل يتردد إلى المبيت به بعض الأحيان مع السراري والغلمان، كما يَتَنَقَّل ما قصر الجيزة وشبرا والأزبكية والقلعة وغيرها من سرايات أولاده وأصهاره، والملك لله الواحد القهار.

ومنها أن طايفة من الإفرنج الإنكليز قصدوا الاطلاع على الأهرام المشهورة الكاينة ببر الجيزة غربي الفسطاط؛ لأن طبيعتهم ورغبتهم الاطلاع على الأشيا المستغربات والفحص عن الجزئيات، وخصوصًا الآثار القديمة وعجايب البلدان والتصاوير والتماثيل التي في المغارات والبرابي بالناحية القبلية وغيرها، ويطوف منهم أشخاص في مطلق الأقاليم بقصد هذا الغرض، ويصرفون لذلك جملًا من المال في نفقاتهم ولوازمهم ومواجريهم.

حتى إنهم ذهبوا إلى أقصى الصعيد وأحضروا قطع أحجار عليها نقوش وأقلام وتصاوير ونواويس من رخام أبيض كان بداخلها موتى بأكفانها، وأجسامها باقية بسبب الأطلية والأدهان الحافظة لها من البلا، ووجه المقبور مصور على تمثال صورته التي كان عليها حال حياته، وتماثيل آدمية من الحجر السماقي الأسود المنقط الذي لا يعمل فيه الحديد، جالسين على كراسي واضعين أيديهم على الركب، وبيد كل واحد شبه مفتاح بين أصابعه اليسرى، والشخص مع كرسيه قطعة واحدة مفرغ معه أطول من قامة الرجل الطويل، وعلو رأسه نصف دايرة منه في علو الشبر، وهم شبه العبيد المشوهين الصورة وهم ستة على مثال واحد، كأنما أفرغوا في قالب واحد يحمل الواحد منهم الجملة من العتالين، وفيهم السابع من رخام أبيض جميل الصورة.

وأحضروا أيضًا رأس صنم كبير دفعوا في أجرة السفينة التي أحضروه فيها سته عشر كيسًا عنها تلتماية وعشرون ألف نصف فضة، وأرسلوها إلى بلادهم لتباع هناك بأضعاف ما صرفوه عليها، وذلك عندهم من جملة المتاجر في الأشيا الغريبة.

ولما سمعت بالصور المذكورة، فذهبت بصحبة ولدنا الشيخ مصطفى باكير المعروف بالساعاتي، وسيدي إبراهيم المهدي الإنكليزي إلى بيت قنصل بدرب البرابرة بالقرب من كوم الشيخ سلامة جهة الأزبكية، وشاهدت ذلك كما ذكرته وتعجبنا من صناعتهم وتشابههم وصقالة أبدانهم الباقية على ممر السنين والقرون التي لا يعلم قدرها إلا علام الغيوب، وأرادوا الاطلاع على أمر الأهرام وأذن لهم صاحب المملكة، فذهبوا إليها ونصبوا خيمة وأحضروا الفعلة والمساحي والغلقان، وعبروا إلى داخلها وأخرجوا منها أتربة كثيرة من زبل الوطواط وغيره، ونزلوا إلى الزلاقة ونقلوا منها ترابًا كثيرًا وزبلًا، فانتهوا إلى بيت مربع من الحجر المنحوت غير مسلوك، هذا ما بلغنا عنهم.

وحفروا حوالي الرأس العظيمة التي بالقرب من الأهرام التي تسميها الناس رأس أبي الهول، فظهر أنه جسم كامل عظيم من حجر واحد ممتد كأنه راقد على بطنه رافع رأسه، وهي التي يراها الناس، وباقي جسمه مغيب بما انهال عليه من الرمال، وساعِداه من مرفقيه ممتدان أمامه، وبينهما شبه صندوق مربع إلى استطالة من سماق أحمر عليه نقوش شبه قلم الطير، في داخله صورة سبع مجسم من حجر مدهون بدهان أحمر رابض باسط ذراعيه في مقدار الكلب، رفعوه أيضًا إلى بيت القنصل، ورأيته يوم ذاك، وقيس المرتفع من جسم أبي الهول من عند صدره إلى أعلى رأسه فكان اتنين وتلاتين ذراعًا، وهي نحو الربع من باقي جسمه، وأقاموا في هذا العمل نحوًا من أربعة أشهر.

وأما من مات في هذه السنة من المشاهير

فمات العالم العلامة الفاضل الفهامة صاحب التحقيقات الرايقة والتأليفات الفايقة شيخ شيوخ أهل العلم، وصدر صدور أهل الفهم، المتفنن في العلوم كلها نقليها وعقليها وأدبيها، إليه انتهت الرياسة في العلوم بالديار المصرية وباهتْ مصرُ ما سواها بتحقيقاته البهية، استنبط الفروع من الأصول، واستخراج نفايس الدرر من بحور المعقول والمنقول، وأودع الطروس فوايد وقلدها عوايد فرايد، الأستاذ الشيخ محمد بن محمد بن أحمد بن عبد القادر بن عبد العزيز بن محمد السنباوي المالكي الأزهري الشهير بالأمير، وهو لقب جده الأدنى أحمد، وسببه أن أحمد وأباه عبد القادر كان لهما إمرة بالصعيد،

وأخبرني المترجم من لفظه أن أصلهم من المغرب، نزلوا بمصر عند سيدي عبد الوهاب أبي التخصيص، كما أخبر عن ذلك وثايق لهم، ثم التزموا بحصة بناحية سنبو، وارتحلوا إليها وقطنوا بها، وبها ولد المترجم.

وكان مولده في شهر ذي الحجة سنة أربع وخمسين وماية وألف بإخبار والديه، وارتحل معهما إلى مصر وهو ابن تسع سنين، وكان قد ختم القرآن فجوده على الشيخ المنير على طريقة الشاطبية والدرة، وحبب إليه طلب العلم، فأول ما حفظ متن الآجرومية، وسمع ساير الصحيح والشفا على سيدي علي بن العربي السقاط، وحضر دروس أعيان عصره، واجتهد في التحصيل ولازم دروس الشيخ الصعيدي في الفقه وغيره من كتب المعقول، وحضر على السيد البليدي شرح السعد على عقايد النسفي، والأربعين النووية، وسمع الموطأ على هلال المغربي وعالمه الشيخ محمد التاودي ابن سودة بالجامع الأزهر سنة وروده بقصد الحج.

ولازم المرحوم الوالد حسن الجبرتي سنين، وتلقى عنه الفقه الحنفي وغير ذلك من الفنون كالهيئة والهندسة والفلكيات والأوفاق والحكمة عنه، وبواسطة تلميذه الشيخ محمد بن إسماعيل النفراوي المالكي، وكتب له إجازة مثبتة في برنامج شيوخه.

وحضر الشيخ يوسف الحنفي في آداب البحث وبانت سعاد، وعلى الشيخ محمد الحنفي أخيه مجالس من الجامع الصغير والشمايل والنجم الغيطي في المولد، وعلى الشيخ أحمد الجوهري في شرح الجوهرة للشيخ عبد السلام، وسمع منه المسلسل بالأولية، وتلقى عنه طريق الشاذلية من سلسلة مولاي عبد الله الشريف، وشملته إجازة الشيخ الملوي وتلقى عنه مسايل في أواخر أيام انقطاعه بالمنزل.

ومهر وأنجب وتصدر لإلقا الدروس في حياة شيوخه، ونما أمره واشتُهر فضله خصوصًا بعد موت أشياخه، وشاع ذكره في الآفاق وخصوصًا بلاد المغرب، وتأتيه الصلات من سلطان المغرب، وتلك النواحي في كل عام، ووفد عليه الطالبون للأخذ عنه والتلقي منه، وتوجه في بعض المقتضيات إلى دار السلطنة، وألقى هناك دروسًا حضره فيها علماهم وشهدوا بفضله واستجازوه وأجازهم بما هو مجاز به من أشياخه.

وصنف عدة مولفات اشتُهرت بأيدي الطلبة، وهي غاية التحرير منها مصنف في فقه مذهبه سماه المجموع، حاذى به مختصر خليل، جمع فيه الراجح في المذهب وشرحه شرحًا نفيسًا، وقد صار كلٌّ منهما مقبولًا في أيام شيخه العدوي، حتى كان إذا توقف شيخه في موضع يقول: هاتوا مختصر الأمير، وهي منقبة شريفة، وشرح مختصر خليل،

وحاشية على المغني لابن هشام، وحاشية على الشيخ عبد الباقي على المختصر، وحاشية على الشيخ عبد السلام على الجوهرة، وحاشية على شرح الشذور لابن هشام، وحاشية على الأزهرية، وحاشية على الشنشوري على الرحبية في الفرايض، وحواشي على المعراج، وحاشية على شرح الملوي على السمرقندية، ومولف سماه مطلع النيرين فيما يتعلق بالقدرتين، وإتحاف الأنس في الفرق بين اسم الجنس وعلم الجنس، ورفع التلبيس عما يسأل عنه ابن خميس، وثمر النمام في شرح آداب الفهم والإفهام، وحاشية على المجموع، وتفسير سورة القدر، ومن نظمه قوله متغزلًا:

أيها السيد المدلل ضاعت | في الهوى ضيعتي وأنسيت نسكي
يا لك الله لا تمل لسوايَ | وتحكم ولو بما فيه فتكي
وانظر الحق في علو غناه | كل شيء يمحوه غير الشرك

وله في التشبيه:

يا حسن لون الشمس عند غروبها | في روض أنس نزهة للأنفس
فكأنه وكأنه في ناظري | ذهب يجول على بساط سندس

وله أيضًا:

تخيلت أن الشمس والبحر تحتها | قد بسطت منها عليه بوارق
مليح أتى المرآة ينظر وجهه | ففي وجهها من وجهه الضوء دافق

وله أيضًا:

يا مالك القلب من بين السلاح وإن | توهم الغير أن القلب مشترك
إني أغار على حظي لديك فغر | أيضًا على قلب صب فيك مرتبك
وقل لهم ينتهوا عما تسوله | نفوس سومهم طرق الردى سلكوا
توهموا أنهم حلوا وقد ملكوا | ويعلم الله ما حلوا وما ملكوا
يا سيد الكل يا قطب الجمال ومن | في دولة الحسن يروى أنه الملك

ما كان قلبيَ يهوى الغير يا أملي | فابعث رميميَ إذ أهل الهوى ملكوا
وأسقط البين وارفع حجب شأنك لي | ليشتفي خاطر بالفكر يعترك
بلطف ذاتك لا تقطع رجاء فتى | على عيوب له بالعهد يمتسك

وله أيضًا:

دع الدنيا فليس بها سرور | يتم ولا من الأحزان تسلم
ونفرض أنه قد تم فرضًا | فغم زواله أمر محتم
فكن فيها غريبًا ثم عبي | إلى دار البقا ما فيه تغنم
وإن لا بد من لهم فلهو | بشيء نافع، والله أعلم

وله غير ذلك من النظم المليح والذوق الصحيح واللسان الفصيح.

وكان — رحمه الله — رقيق القلب لطيف المزاج ينزعج طبعه من غير انزعاج، يكاد الوهم يوله، وسماع المنافر يوهنه ويسقمه، وبآخره ضعفت قواه وتراخت أعضاه وزاد شكواه ولم يزل يتعلل ويزداد أنينه ويتململ، والأمراض به تتسلسل، وداعي المنون عنه لا يتحول، إلى أن تُوُفِّيَ يوم الاتنين عاشر ذي القعدة الحرام، وكان له مشهد حافل جدًّا ودُفن بالصحرا بجوار مدفن الشيخ عبد الوهاب العفيفي بالقرب من عمارة السلطان قايتباي، وكثر عليه الأسف والحزن وخلف ولده العلامة النحرير الشيخ محمدًا الأمير، وهو الآن أحد الصدور كوالده يقرا الدروس ويفيد الطلبة، ويحضر الدواوين والمجالس العالية — بارك الله فيه.

ومات الشيخ الفقيه العلامة الشيخ خليل المدابغي، لكونه يسكن بحارة المدابغ، حضر دروس الأشياخ من الطبقة الأولى، وحصل الفقه والمعقول، واشتُهر فضله مع فقره وانجماعه عن الناس متقشفًا متواضعًا، ويكتسب من الكتابة بالأجرة، ولم يتجمل بالملابس ولا بزي الفقها، يظن الجاهل به أنه من جملة العوام، تُوُفِّيَ يوم الاتنين تامن عشر ذي القعدة من السنة.

ومات الشيخ الفقيه الورع الشيخ علي المعروف بأبي زكرى البولاقي لسكنه ببولاق، وكان ملازمًا لإقرا الدروس ببولاق، ويأتي إلى الجامع الأزهر في كل يوم يقرا الدروس ويفيد الطلبة، ويرجع إلى بولاق بعد الظهر، ومات حماره الذي كان يأتي عليه إلى الجامع الأزهر، فلم يتخلف عن عادته ويأتي ماشيًا ثم يعود مدة حتى أشفق عليه بعض

المشفقين من أهالي بولاق واشتروا له حمارًا، ولم يزل على حالته وانكساره حتى تُوُفِّيَ يوم الخميس تامن شهر ذي القعدة من السنة، رحمه الله وإيانا وجمعنا في مستقر رحمته آمين.

ومات من أكابر الدولة المسمى ولي أفندي ويقال له ولي خوجا، وهو كاتب خزينة الباشا، وأنشأ الدار العظيمة التي بناحية باب اللوق، وأدخل فيها عدة بيوت ودورًا جليلة تجاهها وملاصقة لها من الجهتين، وبعضها مطل على البركة المعروفة ببركة أبي الشوارب، وتقدم من أخبار العام الماضي أن الباشا صاهره، وزوج ابنته لبعض أقارب الباشا الخصيصين به مثل الذي يقال له شريف أغا وآخر، وعمل له مهمًا عظيمًا احتفل فيه إلى الغاية وزفة وشنكًا، كل ذلك وهو متمرض إلى أن مات في تاني عشرين ربيع التاني، وضُبطت تركته فوُجد له كثير من النقود والجواهر والأمتعة وغير ذلك، فسبحان الحي الذي لا يموت.

واستهلت سنة تلاتة وتلاتين ومايتين وألف (١٨١٧م)

واستهل المحرم بيوم الاتنين، ووالي مصر وحاكمها الوزير محمد علي باشا، وهو المتصرف فيها قبليها وبحريها، بل والأقطار الحجازية وضواحيها، وبيده أزمة الثغور الإسلامية.

ووزيره محمد بك لاظ المعروف بكتخدا بك، وهو قايم مقامه في حال غيابه وحضوره، والمتصدر في ديوان الأحكام الكلية والجزئية، وفصل الخصومات ومباشرة الأحوال، نافذ الكلمة وافر الحرمة.

وأغات الباب إبراهيم أغا ومتولي أيضًا أمر تعديل الأصناف ليوفر على الخزينة ما يأكله المتولي على كل صنف، ويخفي أمره فيشدد الفحص في المكيل والموزون والمزروع، حتى يستخرج المخبأ ولو قليلًا، فيجتمع من القليل الكثير من الأموال، فيحاسب المتولي مدة ولايته فيجتمع له ما لا قدرة له على وفا بعضه؛ لأن ذلك شي قد استُهلك في عدة أيدي أشخاص وأتباع، ويلزم الكبير بأداه ويقاسي ما يقاسيه من الحبس والضرب وسلب النعمة ومكابدة الأهوال، وسلحدار الباشا سليمان أغا عوضًا عن صالح بك السلحدار لاستعفاه عنها في العام السابق، وهو السلط على أخذ الأماكن وهدمها وبناها خانات ورباعًا وحوانيت، فيأتي إلى الجهة التي يختار البنا فيها ويشرع في هدمها، ويأتيه أربابها فيعطيهم أثمانها كما هي في حججهم القديمة، وهو شي نادر بالنسبة لغلو أثمان العقارات في هذا الوقت لعموم التخريب، وكثرة العالم، وغلا المون وضيق المساكن بأهلها، حتى إن المكان الذي كان يؤجر بالقليل صار يوجر بعشرة أمثال الأجرة القديمة ونحو ذلك، ومحمود بك الخازندار وخدمته قبض أموال

البلاد والأطيان والرزق، وما يتعلق بذلك من الدعاوى والشكاوى، وديوانه بخط سويقة اللالا.

والمعلم غالي كاتب سر الباشا وريس الأقباط، وكذلك الدفتردار محمد بك صهر الباشا وحاكم الجهة القبلية.

والروزنامجي مصطفى أفندي، وأغا مستحفظان حسن أغا البهلوان، والزعيم علي أغا الشعرواي ومصطفى أغا كرد المحتسب، وقد بردت همته عما كان عليه، ورجع الحال في قلة الأدهان كالأول، وازدحم الناس على معمل الشمع فلا يحصل الطالب منه شيًّا إلا بشق الأنفس، وكذلك انعدم وجود بيض الدجاج لعدم المجلوب، ووقوف العسكر ورصدهم من يكون معه شي منه من الفلاحين الداخلين إلى المدينة من القرى، فيأخذونه منهم بدون القيمة، حتى بيعت البيضة الواحدة بنصفين.

وأما المعاملة فلم يزل أمرها في اضطراب بالزيادة والنقص وتكرار المناداة كل قليل، وصرف الريال الفرانسة إلى أربعماية نصف فضة والمحبوب إلى أربعماية وتمانين، والبندقي إلى تسعماية نصف، والمجر إلى تمانماية نصف، وأما هذه الأنصاف العددية التي تذكر فهي أسما لا وجود لمسمياتها في الأيدي.

وفي تاني عشره سافر الباشا إلى جهة إسكندرية لمحاسبة الشركا والنظر في بيع الغلال والمتاجر والمراسلات.

وفي تاسع عشره ارتحلت عساكر أتراك ومغاربة مجردة إلى الحجاز.

واستهل شهر صفر بيوم الأربع (سنة ١٢٣٣)

في ثالث عشره وصل الكثير من حجاج المغاربة.

وفي يوم الجمعة سابع عشره وصل جاويش الحاج، وفي ذلك اليوم وقت العصر ضربوا عدة مدافع من القلعة لبشارة وصلت من إبراهيم باشا بأنه حصلت له نصرة وملك بلدة من بلاد الوهابية وقبض على أميرها ويسمى عتيبة وهو طاعن في السن.

وفي يوم التلات حادي عشرينه وصل ركب الحاج المصري والمحمل وأمير الحاج من الدلاة.

واستهل شهر ربيع الأول بيوم الجمعة (سنة ١٢٣٣)

وصل قابجي من دار السلطنة فعملوا له موكبًا وطلع إلى القلعة، وضربوا له شنكًا سبعة أيام وهي مدافع تُضرب في كل وقت من الأوقات الخمسة.

وفي هذا الشهر انعدم وجود القناديل الزجاج، وبيع القنديل الواحد الذي كان ثمنه خمسة أنصاف بستين نصفًا إذا وجد.

واستهل شهر ربيع التاني بيوم السبت (سنة ١٢٣٣)

ووافقه أيضًا أول أمشير القبطي.

وفي منتصفه سافر أولاد سلطان المغرب والكثير من حجاج المغاربة، وكانوا في غاية الكثرة بحيث ازدحمت منهم أسواق المدينة وبولاق وما بينهما من جميع الطرق، فكانوا يشترون الأغنام من الفلاحين ويذبحونها ويبيعونها على الناس جزافًا من غير وزن بعد أن يتركوا لأنفسهم مقدار حاجتهم، فذهب الكثير للشرا منهم بسبب رداءة اللحم الموجود بحوانيت الجزارين، ولو وقف عليهم بالثمن الزايد.

وفي أواخره حضر مبشر من ناحية الديار الحجازية يخبر بنصرة حصلت لإبراهيم باشا، وأنه استولى على بلدة تسمى الشقرا وأن عبد الله بن مسعود كان بها، فخرج منها هاربًا إلى الدرعية ليلًا، وأن بين عسكر الأتراك والدرعية مسافة يومين، فلما وصل هذا المبشر ضربوا لقدومه مدافع من أبراج القلعة، وذلك وقت الغروب من يوم الأربع سادس عشرينه.

واستهل شهر جمادى الأولى بيوم الأحد (سنة ١٢٣٣)

فيه نودي على طايفة المخالفين للملة من الأقباط والأروام بأن يلزموا زيهم من الأزرق والأسود، ولا يلبسون العمايم البيض؛ لأنهم خرجوا عن الحد في كل شي، ويتعممون بالشيلان الكشميري الملونة والغالية في الثمن، ويركبون الرهوانات والبغال والخيول، وأمامهم وخلفهم الخدم بأيديهم العصي يطردون الناس عن طريقهم، ولا يظن الرائي لهم إلا أنهم من أعيان الدولة، ويلبسون الأسلحة وتخرج الطايفة منهم إلى الخلا ويعملون لهم نشانًا يضربون عليه بالبنادق الرصاص وغير ذلك، فما أحسن هذا النَّهْي لو دام.

وفي يوم السبت حادي عشرينه حضر الباشا من غيبته بإسكندرية أواخر النهار، فضربوا لقدومه مدافع، فبات بقصر شبرا وطلع في صبحها إلى القلعة، فضربوا بها مدافع أيضًا، فكانت مدة غيبته بإسكندرية أربعة أشهر وتسعة أيام.

وفي أواخره وصل هجان من شرق الحجاز ببشارة بأن إبراهيم باشا استولى على بلد كبير من بلاد الوهابية، ولم يبقَ بينه وبين الدرعية إلا ثمان عشرة ساعة، فضربوا شنكًا ومدافع.

وفيه وصل هجان من حسن باشا الذي بجدة بمراسلة يخبر فيها بعصيان الشريف حمود بناحية يمن الحجاز، وأنه حاصر من بتلك النواحي من العساكر وقتلهم، ولم ينجُ منهم إلا القليل وهو من فر على جرايد الخيل.

ووقع فيه أيضًا الاهتمام في تجريد عساكر للسفر، وأرسل الباشا بطلب خليل باشا للحضور من ناحية بحري هو وخلافه، وحصل الأمر بقراءة صحيح البخاري بالأزهر فقري يومين، وفُرق على مجاوري الأزهر عشرة أكياس، وكذلك فُرقت دراهم على أولاد المكاتب.

واستهل شهر جمادى الثانية (سنة ١٢٣٣)

في منتصفه ليلة التلات حصل خسوف للقمر في سادس ساعة من الليل، وكان المنخسف منه مقدار النصف، وحصل الأمر أيضًا بقراءة صحيح البخاري بالأزهر.

وفيه ورد الخبر بموت الشريف حمود وأنه أصيب بجراحه ومات بها.

وفي يوم التلات تاسع عشرينه حصل كسوف للشمس في تالت ساعة من النهار، وكان المنكسف منها مقدار التلت، وفي ذلك اليوم ضُربت مدافع لوصول بشارة من إبراهيم باشا بأنه ملك جانبًا من الدرعية وأن الوهابية محصورون، وهو ومن معه من العربان محيطون بهم.

واستهل شهر شعبان (سنة ١٢٣٣)

فيه حضر خليل باشا وحسين بك دالي باشا من الجهة البحرية ونزلوا بدورهم.

واستهل شهر رمضان بيوم الأحد (سنة ١٢٣٣)

في منتصفه وصل نجاب وأخبر بأن إبراهيم باشا ركب إلى جهة من نواحي الدرعية لأمر يبتغيه وترك عرضيه، فاغتنم الوهابية غيابه وكبسوا على العرضي على حين غفلة وقتلوا من العساكر عدة وافرة وأحرقوا الجبخانة، فعند ذلك قوي الاهتمام، وارتحل جملة من العساكر في دفعات ثلاث برًّا وبحرًا يتلو بعضهم بعضًا في شعبان ورمضان.

وبرز عرضي خليل باشا إلى خارج باب النصر، وترددوا في الخروج والدخول.

واستباحوا الفطر في رمضان بحجة السفر، فيجلس الكثير منهم بالأسواق يأكلون ويشربون ويمرون بالشوارع، وبأيديهم أقصاب للدخان والتتن من غير احتشام ولا احترام لشهر الصوم، وفي اعتقادهم الخروج بقصد الجهاد وغزو الكفار المخالفين لدين الإسلام، وانقضى شهر الصوم والباشا متكدر الخاطر ومتقلق ومنتظر ورود خبر ينْسرُّ بسماعه.

واستهل شهر شوال بيوم الاثنين (سنة ١٢٣٣)

وكان هلاله عسر الرؤية جدًّا، فحضر جماعة من الأتراك إلى المحكمة وشهدوا برؤيته.

وفي ذلك اليوم الموافق لثامن عشري شهر أبيب القبطي أوفى النيل أذرعه، فأخروا فتح سد الخليج ثلاثة أيام العيد ونودي بالوفا يوم الأربع، وحصل الجمع يوم الخميس رابعه، وحضر فتح الخليج كتخدا بك والقاضي ومن له عادة بالحضور، فكان جمعًا وازدحامًا عظيمًا من أخلاط العالم في جهة السد والروضة تلك الليلة، واشتعلت النار في الحديقة واحترق فيها أشخاص ومات بعضهم.

وفي سادسه يوم السبت خرج خليل باشا المعين إلى السفر في موكب، وشق من وسط المدينة، وخرج من باب النصر وعطف على باب الفتوح، ورجع إلى داره في قلة من أتباعه في طريقه التي خرج منها.

وفيه انتدب مصطفى أغا المحتسب ونادى في المدينة ويأمر الناس بقطع أراضي الطرقات والأزقة حتى العطف والحارات الغير النافذة، فأخذ أرباب الحوانيت والبيوت يعملون بأنفسهم في قطع الأرض والحفر، ونقل الأتربة وحملها من خوفهم من أذيته، ولعدم الفَعَلة والأُجَرا، واشتغال حمير الترابين باستعمالهم في عماير أهل الدولة، فلو كان الاهتمام في قطع أرض الخليج الذي يجري به الماء، فإنه لم تقطع أرضه وينقطع

جريانه في أيام قليلة لعلو أرضه من الطمي، ولما يتهدم عليه من الدور القديمة وما يلقيه السكان فيه من الأتربة، وزاد على ذلك بهذه الفعلة إلقا ما يحفرونه وينقلونه من أتربة الأزقة والبيوت القديمة منه فيه ليلًا ونهارًا.

وفي تامنه ارتحل خليل باشا مسافرًا إلى الحجاز من القلزم وعساكره الخيالة على طريق البر.

وفي يوم السبت تالت عشره نزلوا بكسوة الكعبة إلى المشهد الحسيني على العادة.

وفي يوم الاتنين تاني عشرينه عمل الموكب لأمير الحاج وهو حسين بك دالي باشا، وخرج بالمحمل خارج باب النصر تجاه الهمايل، ثم انتقل في يوم الأربع إلى البركة، وارتحل منها يوم الاتنين تاسع عشرينه، وسافر الكثير من الحجاج وأكثر فلاحي القرى والصعايدة ومن باقي الأجناس، مثل المغاربة والقرمان والأتراك أنفار قليلة.

وفي ذلك اليوم وصل قابجي وعلى يده تقرير لحضرة الباشا على السنة الجديدة، وطلع إلى القلعة في موكب، وقري التقرير بحضرة الجمع وضُربت مدافع كثيرة، وكذلك وصل قبله قابجي صحبته فرمان بشارة بمولود وُلد لحضرة السلطان، فعمل له شنك ومدافع تلاتة أيام في الأوقات الخمسة، وذلك في منتصفه.

واستهل شهر ذي القعدة بيوم الأربع (سنة ١٢٣٣)

وانقضى والباشا منفعل الخاطر لتأخر الأخبار وطول الانتظار، وكل قليل يأمر بقراءة صحيح البخاري بالأزهر، ويفرق على صغار المكاتب والفقرا دراهم، ولضيق صدره واشتغال فكره لا يستقر بمكان؛ فيقيم بالقلعة قليلًا، ثم ينتقل إلى قصر شبرا، ثم إلى قصر الآثار، ثم الأزبكية ثم الجيزة وهكذا.

واستهل شهر ذي الحجة الحرام بيوم الجمعة (سنة ١٢٣٣)

في سابعه وردت بشاير من شرق الحجاز بمراسلة من عثمان أغا الورداني أمير الينبع بأن إبراهيم باشا استولى على الدرعية والوهابية؛ فانسر الباشا لهذا الخبر سرورًا عظيمًا، وانجلى عنه الضجر والقلق وأنعم على المبشر، وعند ذلك ضربوا مدافع كثيرة من القلعة والجيزة وبولاق والأزبكية، وانتشر المبشرون على بيوت الأعيان لأخذ البقاشيش.

وفي تاني عشره وصل المرسوم بمكاتبات من السويس والينبع، وذلك قبل العصر، فأكثروا من ضرب المدافع من كل جهة، واستمر الضرب من العصر إلى المغرب، بحيث ضرب بالقلعة خاصة ألف مدفع.

وصادف ذلك شنك أيام العيد، وعند ذلك أمر بعمل مهرجان وزينة داخل المدينة وخارجها وبولاق ومصر القديمة والجيزة، وشنك على بحر النيل تجاه الترسخانه ببولاق من النجارين والخراطين والحدادين، وتقيد لذلك أمين أفندي المعمار وشرعوا في العمل، وحضر كشاف النواحي والأقاليم بعساكرهم وأخرجوا الخيام والصواوين والوطاقات خارج باب النصر وباب الفتوح، وذلك يوم التلات سادس عشرينه، ونودي بالزينة وأولها الأربع، فشرع الناس في زينة الحوانيت والخانات وأبواب الدور ووقود القناديل والسهر.

وأظهروا الفرح والملاعيب، كل ذلك مع ما الناس فيه من ضيق الحال والكد في تحصيل أسباب المعاش، وعدم ما يسرجون به من الزيت والشيرج والزيت الحار وكذا السمن، فإنه شح وجوده ولا يوجد منه إلا القليل عند بعض الزياتين، ولا يبيع الزيات زيادة عن الأوقية، وكذلك اللحم لا يوجد منه إلا ما كان في غاية الرداءة من لحم النعاج الهزيل، وامتنع أيضًا وجود القمح بالساحل وعرصات الغلة، حتى الخبز امتنع وجوده بالأسواق ولما أنهي الأمر إلى مَن لهم ولاية الأمر، فأخرجوا من شون الباشا مقدارًا ليباع في الرقع، وقد أكلها السوس ولا يباع منها أزيد من الكيلة أكثرها مسوس.

وكذلك لما شكا الناس من عدم ما يسرج به في القناديل، أطلقوا للزياتين مقدار من الشيرج في كل يوم يباع في الناس لوقود الزينة، وفي كل يوم يطوف المنادي ويكرر المناداة بالشوارع على الناس بالسهر والوقود والزينة وعدم غلق الحوانيت ليلًا ونهارًا، وانقضى العام بحوادثه ومعظمها مستمر.

فمنها — وهو أعظمها — شدة الأذية والضيق، خصوصًا بذوي البيوت والمساتير من الناس بسبب قطع إيرادهم وأرزاقهم من الفايظ والجامكية السايرة والرزق الإحباسية وضبط الأنوال التي تقدم ذكرها، وكان يتعيش منها ألوف من العالم، ولما اشتد الضنك بالملتزمين وتكرر عرضحالهم فأمر لهم بصرف التلت، وتحول المصرفجي على بعض الجهات، فكان كلما اجتمع لديه قدر يلحقه الطلب بحوالة من لوازم عساكر السفر المجردين.

وانقضى العام وأكثر الناس لم يحصل على شي؛ وذلك لكثرة المصاريف والإرساليات من الذخاير والغلال والمون وخزاين المال من أصناف خصوص الريال الفرانسة والذهب البندقي والمحبوب الإسلامي بالأحمال، وهي الأصناف الريجة بتلك النواحي.

وأما القروش فلا رواج لها إلا بمصر وضواحيها فقط، أخبرني أحد أعيان كتاب الخزينة عن أجرة حمل الذخيرة على جِمال العرب خاصة في مرة من المرات خمسة وأربعين ألف فرانسة، وذلك من الينبع إلى المدينة حسابًا عن أجرة كل بعير ستة فرانسة، يدفع نصفها أمير الينبع، والنصف الأخير يدفعه أمير المدينة عند وصول ذلك، ثم من المدينة إلى الدرعية ما يبلغ المائة والأربعين ألف فرانسة، وهو شي مستمر التكرار والبعوث، ويحتاج إلى كنوز قارون وهامان وإكسير جابر بن حيان.

ومنها العمارة التي أمر بإنشاها الباشا المشار إليه بين السورين وحارة النصارى المعروفة بخميس العدس المتوصل منها إلى جهة الخرنفش، وذلك بإشارة أكابر نصارى الإفرنج ليجتمع بها أرباب الصنايع الواصلون من بلاد الإفرنج وغيرهم، وهي عمارة عظيمة ابتدوا فيها من العام الماضي واستمروا مدة في صناعة الآلات الأصولية التي يصنع بها اللوازم مثل: السندالات والمخارط للحديد والقواديم والمناشير والتزجات ونحو ذلك، وأفردوا لكل حرفة وصناعة مكانًا وصُنَّاعًا يحتوي المكان على الأنوال والدواليب والآلات الغريبة الوضع والتركيب لصناعة القطن وأنواع الحرير والأقمشة والمقصبات.

وفي أواخر هذا العام جمعوا مشايخ الحارات وألزموهم بجمع أربعة آلاف غلام من أولاد البلد ليشتغلوا تحت أيدي الصناع ويتعلموا ويأخذوا أجرة يومية ويرجعوا لأهاليهم أواخر النهار، فمنهم من يكون له القرش والقرشان والتلاتة بحسب الصناعة وما يناسبها، وربما احتيج إلى نحو العشرة آلاف غلام بعد إتمامها، والمحتاج إليه في هذا الوقت القدر المذكور، وهي كرخانة عظيمة صرف عليها مقادير عظيمة من الأموال.

ومنها أنه ظهر بأراضي الأرز بالبحر الشرقي بناحية دمياط حيوان يخرج من البحر الشرقي في قدر الجاموس العظيم ولونه، فيرعى الفدان من الزرع ثم يتقايأ أكثره، وكان ظهوره من العام الماضي، فيجتمع عليه الكثير من أهل الناحية ويرجمونه بالحجارة ويضربون عليه بنادق الرصاص، فلا تؤثر في جلده ويهرب إلى البحر، واتفق أنه ابتلع رجلًا إلى أن أصيب في عينه وسقط وتكاثروا عليه وقتلوه وسلخوا جلده، وحشوه تبنًا وأتوا به إلى بولاق وتفرج عليه الباشا والناس، وأخبرني غير واحد ممن رآه أنه أعظم من الجاموس الكبير، طوله تلاتة عشر قدمًا، وجلده أملس ورأسه عظيم يشبه رأس ابن عرس، وعيناه في أعلى دماغه، واسع الفم، وذنبه مثل ذنب السمك، وأرجله غلاظ مثل أرجل الفيل في أواخرها أربع ظلوف طوال وأسفلها كخف الجمل، وأدخلوه إلى بيت الإفرنج وأنعم به الباشا على بغوص الترجمان الأرمني، وهو يبيعه على الإفرنج بتمن كبير.

ومنها أن امرأة يقال لها الشيخة رقية، تتزر بمئزر أبيض، وبيدها خيزرانة وسبحة تطوف على بيوت الأعيان، وتقرأ وتصلي وتذكر على السبحة، ونسا الأكابر يعتقدون فيها الصلاح ويسألن منها الدعا، وكذلك الرجال حتى بعض الفقها، وتجتمع على الشيخ العالم المعتقد الشيخ تعيلب الضرير، ويكثر من مدحها للناس فيزدادون فيها اعتقادًا، ولها بمنزل خليل بك طوقان النابلسي مكان مفرد تأوي إليه على حدتها، وإذا دخلت بيتًا من البيوت قام إليها الخدم واستقبلوها بقولهم: نهارنا سعيد ومبارك، ونحو ذلك، وإذا دخلت على الستات قمن إليها وفرحن بقدومها وقبَّلن يدها، وتبيت معهن ومع الجواري.

فذهبت يومًا إلى دار الشيخ عبد العليم الفيومي، وذلك في شهر شوال، فتمرضت أيامًا وماتت، فضجوا وتأسفوا عليها وأحبوا تغيير ما عليها من الثياب، فرأوا شيًّا معجر ما بين أفخاذها فظنوه صرة دراهم، وإذا هو آلة الرجال الخصيتان والذي فوقهما، فبهت النسا وتعجبن، وأخبروا الشيخ تعيلب بذلك، فقال: استروا هذا الأمر، وغسِّلوه وكفِّنوه ووارُوه في التراب، ووارَوْه في التراب، ووجدوا في جيبه مرآة وموسى وملقاطًا، وشاع أمره واشتُهر وتناقله الناس بالتحدث والتعجب.

ومنها زيادة النيل في هذا العام الزيادة المفرطة التي لم نسمع ولم نرَ مثلها، حتى غرق الزروع الصيفية مثل الذرة والنيلة والسمسم والقصب والأرز وأكثر الجناين، بحيث صار البحر وسواحله والملق لجة ماء، وانهدم بسببه قرى كثيرة، وغرق الكثير من الناس والحيوان حتى كان الماء ينبع بين الناس من وسط الدور، واختلط بحر الجيزة ببحر مصر العتيقة حتى كانت المراكب تمشي فوق جزيرة الروضة، وكثر عويل الفلاحين وصراخهم على ما غرق لهم من المزارع، وخصوصًا الذرة التي هي معظم قوتهم، وكثير من أهل البلاد ندبوا بالدفوف.

ومنها أن الباشا زاد في هذه السنة الخراج وجعل على كل فدان ستة قروش وسبعة وثمانية، وذكر أنها مساعدة على حروب الحجاز والخوارج، فدهي الفلاحون بهاتين الداهيتين، وهي زيادة النيل وزيادة الخراج في غير وقت وأوان، فإن من عادة الفلاحين وأهل القرى إذا انقضت أيام الحصاد والدراوي وشطبوا ما عليهم من مال الخراج لملتزميهم، ويكون ذلك في مبادي زيادة النيل، وارتفع عنهم الطلب وارتحلت كشاف النواحي وقايمقام الملتزمين والصيارف والمعينون، وخلت النواحي منهم؛ فعند ذلك ترتاح نفوسهم وتجتمع حواسهم، ويعملون أعراسهم، ويجددون ملبوسهم ويزوجون بناتهم، ويختنون صبيانهم، ويشيدون بنيانهم، ويصلحون جسورهم وحبوسهم، فإذا

أخذ النيل في الزيادة شرعوا في زراعة الصيفي الذي هو معظم قوتهم وكسبهم، حتى إذا انحسر الماء وانكشفت الأراضي وآن أوان التحضير وزراعة الشتوي من البرسيم والغلة، وجدوا ما يسدون به مال التجهية، وما يرقعون به أحوالهم، ومن بهايم الحرث ومحاريث وتقاوي وأجر عمال ونحو ذلك، فدهموا هذه السنة بهاتين الآفتين الأرضية والسماوية، ورحل الكثير عن أهله ووطنه، وكان ابتداء طلب هذه الزيادة قبل زيادة النيل ومجي خبر النصرة، فلما ورد خبر النصرة لم يرتفع ذلك.

ومنها الاضطراب في المعاملة بالزيادة والنقص والمناداة عليها كل قليل، والتنكيل والترك، وبلغ الصرف البندقي ثمانماية وثمانين نصفًا فضة، والفرانسة أربعماية نصف وعشرة والمحبوب أربعماية وأربعين وهو المصري، وأما الإسلامبولي فيزيد أربعين، والمجر ثمانماية نصف، وأما هذه الأنصاف — وهي الفضة العددية — فهي أسما من غير مسميات لمنعها واحتكارها، فلا يوجد منها في المعاملة بأيدي الناس إلا النادر جدًّا، ولا يوجد بالأيدي في محقرات الأشيا وغيرها إلا المجزأ بالخمسة والعشرة والعشرين، وتصرف من اليهود والصيارف بالفرط والنقص، ومن حصل بيده شي من الأنصاف عض عليه بالنواجذ، بإخراج شي منها عند شدة الاضطرار اللازم.

ومنها أن السيد محمد المحروقي أنشأ ببركة الرطلي دارًا وبستانًا في محل الأماكن التي تخربت في الحوادث؛ وذلك أنه لما طرقت الفرنساوية الديار المصرية واختل النظام وجلا أكثر الناس عن أوطانهم، وخصوصًا سكان الأطراف، فبقيت دور البركة خالية من السكان، وكان بها عدة من الديار الجليلة منها حسن كتخدا الشعراوي، وتابعه عمر جاويش وداره على سمته أيضًا، ودار علي كتخدا الخربطلي، ودار قاضي البهار، ودار سليمان أغا، ودار الحموي، وخلاف ذلك دور كانت جارية في وقف عثمان كتخدا القازدغلي وغيره، وهذه الدور هي التي أدركناها بل وسكنا بها عدة سنين، وكانت في الزمن الأول عدة دور مختصرة يسكنها أهل الرفاهية من أهالي البلد، وكان بها بيت البكرية القديم بالناحية الجنوبية تجاه زاوية جدهم الشيخ جلال الدين البكري، وكان الناس يرغبون في سكناها لطيب هواها وانكشاف الريح البحري بها، وليس في تجاهها من البر الآخر سوى الأشجار والمزارع، ويعبر بها المراكب والسفاين والقنج في أيام النيل بالمتفرجين والمتنزهين وأهل الخلاعة بمزامرهم ومغانيهم، ولصدى أصواتهم المطرب طرب آخر، فلما انقشع عنها السكان تداعت الدور إلى الخراب، وبقيت مسكنًا للبوم والغراب مدة إقامة الفرنساوية.

فلما حضر يوسف باشا الوزير في المرة الأولى، وذلك سنة أربع عشرة ومايتين وألف، وانتقض الصلح بينه وبين الفرنساوية، وحصلت المفاقمة ووقعت الحروب داخل البلدة، واحتاطت الفرنساوية بجهات البلد، وجرى ما تقدم ذكره في الحوادث السابقة، وكان طايفة من الفرنساوية أتوا إلى ناحية هذه البركة، ومسكوا التل المعروف بتل أبي الريش، وأخذوا يرمون بالمدافع والقنابر على أهل باب الشعرية وتلك النواحي، فما انجلت الحروب حتى خربت بيوت البركة وما كان بتلك النواحي من الدور التي بظاهرها وبقيت كيمانًا، فحسن بباال السيد المذكور أن يجعل له سكنًا هناك، فاحتكر أراضي تلك المساكن من أربابها من مدة سابقة، ثم تكاسل عن ذلك واشتغل بتوسعة دار سكنه التي بخطة الفحامين محل دكة الحسبة القديمة، حتى أتمها على الوضع الذي قصده.

ثم شرع في السنة الماضية في إنشا سكن لخصوص نزاهته، فشرع في تنظيف الأتربة وإصلاح الأرض، وأنشأ دار متسعة وقيعانًا وفسحات، وهي مفروشة بالرخام، وحولها بستان وغرس به أنواع الأشجار ودوالي الكروم، وهي بمكان حسن كتخدا ومن كان على سمته من الدور نحو الثلاثين، وأنشأ كاتبه السيد عمر الحسيني دارًا عظيمة لخصوصه أخذ فيها باقي أراضي الأماكن وزخرفها وانتقل إليها بأهله وعياله، وجعلها دارًا لسكناه صيفًا وشتا، وبنيا خارج ظاهرها حايطًا ليكون لدورهما سورًا، وعملا بها بوابة تفتح وتقفل، وكان بجوار ذلك جامع متخرب يسمى جامع الحريشي، فعمره أيضًا السيد محمد المحروقي وأقام حوايطه وأعمدته وسقفه وبيضه، وأقام الخطبة آخر جمعة شهر المحرم.

وأما من مات في هذه السنة ممن له ذكر

فمات شيخ الإسلام وعمدة الأنام الفقيه العلامة والنحرير الفهامة الشيخ محمد الشنواني، نسبة إلى شنوان الغرق، الشافعي الأزهري شيخ الجامع الأزهر، من أهل الطبقة الثانية، الفقيه النحوي المعقولي، حضر الأشياخ أجلهم الشيخ فارس وكالصعيد والدردير والفرماوي، وتفقه على الشيخ عيسى البراوي، ولازم دروسه وبه تخرج، وأقرا الدروس وأفاد الطلبة بالجامع المعروف بالفاكهاني بالقرب من دار سكناه بخشقدم، مهذب النفس مع التواضع والانكسار والبشاشة لكل أحد من الناس، ويشمر ثيابه ويخدم بنفسه ويكنس الجامع ويسرج القناديل.

ولما تُوُفِّيَ الشيخ عبد الله الشرقاوي اختاروه للمشيخة، فامتنع وهرب إلى مصر العتيقة بعدما جرى ما تقدم ذكره من تصدر الشيخ محمد المهدي، فأحضروه قهرًا عنه وتلبس بالمشيخة مع ملازمته لجامع الفاكهاني كعادته، أقبلت عليه الدنيا فلم يتهنا بها واعترته الأمراض وتعلل بالزحير أشهرًا، ثم عوفي، ثم بآخره بالبرودة وانقطع بالدار كذلك أشهرًا، ولم يزل منقطعًا حتى تُوُفِّيَ يوم الأربع رابع عشرين المحرم، وصُلِّي عليه بالأزهر في مشهد عظيم، ودُفن بتربة المجاورين.

وله تآليف منها حاشية جليلة على شرح الشيخ عبد السلام على الجوهرة مشهورة بأيدي الطلبة، وكان يجيد حفظ القرآن، ويقرا مع فقها الجوقة في الليالي.

وتقلد المشيخة بعده الشيخ العلامة السيد محمد ابن شيخنا الشيخ أحمد العروسي من غير منازع وبإجماع أهل الوقت، ولبس الخلع من بيوت الأعيان مثل البكري والسادات وباقي أصحاب المظاهر ومن يحب التظاهر.

ومات العمدة الشيخ محمد بن أحمد بن محمد المعروف هو بالدواخلي الشافعي، ويقال له السيد محمد؛ لأن أباه تزوج بفاطمة بنت السيد عبد الوهاب البرديني، فوُلد له المترجم منها، ومنها جاه الشرف، وهم من محلة الداخل بالغربية، ووُلد المترجم بمصر وتربى في حجر أبيه، وحفظ القرآن واجتهد في طلب العلم وحضر الأشياخ من أهل وقته، كالشيخ محمد عرفة الدسوقي، والشيخ مصطفى الصاوي وخلافه من أشياخ هذا العصر، ولازم الشيخ عبد الله الشرقاوي في فقه مذهبه وغيره من العقولات ملازمة كلية، وانتسب له وصار من أخص تلامذته.

ولما مات السيد مصطفى الدمنهوري الذي كان بمنزلة كتخداه قام مقامه، واشتُهر به وأقرا الدروس الفقهية والمعقولية، وحف به الطلبة وتداخل في قضايا الدعاوى والمصالح بين الناس.

واشتهر ذكره وخصوصًا أيام الفرنساوية حين تقلد شيخه رياسة ديوانهم، وانتفع في أيامهم انتفاعًا عظيمًا من تصدِّيه لقضايا نسا الأمرا المصرية وغيرهم، ومات والده فأحرز ميراثه، وكذلك لما قُتل عديله الحاج مصطفى البشتيلي في الحرابة ببولاق لا عن وارث، فاستولى على تعلقاته وأطيانه وبستانه التي ببشتيل، واتسع حاله واشترى العبيد والجواري والخدم.

ولما ارتحل الفرنساوية ودخلها العثمانيون انطوى إلى السيد أحمد المحروقي؛ لأنه كان يراسله سرًّا بالأخبار حين خرج مع العثمانيين في الكسرة إلى الشام، فلما رجع فراعاه وراشاه ونوَّه بذكره عند أهل الدولة.

وفي أيام الأمرا المصريين حين رجعوا إلى مصر بعد قتل طاهر باشا في سنة ثمان عشرة، واحتوى على رزق وأطيان وحصص التزام، ولبس الفراوي بالأقبية وركب البغال وأحدق به الأشياخ والأتباع، وعنده ميل عظيم للتقدم والرياسة ولا يقنع بالكثير.

ولما وقع ما وقع في ولاية محمد علي باشا، وانفرد السيد عمر أفندي في الرياسة وصار بيده مقاليد الأمور ازداد به الحسد، فكان هو من أكبر الساعين عليه سرًّا مع المهدي وباقي الأشياخ حتى أوقعوا به، وأخرجه الباشا من مصر كما تقدم، فعند ذلك صفا لهم الوقت، وتقلد المترجم النقابة بعد موت الشيخ محمد بن وفا، وركب الخيول ولبس التاج الكبير ومشت أمامه الجاويشية والمقدمون وأرباب الخدم، وازدحم بيته بأرباب الدعاوى والشكاوى وعمر دار سكنهم القديمة بكفر الطماعين، وأدخل فيها دورًا وأنشا تجاهها مسجدًا لطيفًا وجعل فيه منبرًا وخطبة، وعمر دارًا ببركة جناق وأسكنها إحدى زوجاته.

وداخله الغرور، وظن أن الوقت قد صفا له فأول ما ابتداه به الدهر من نكباته أن مات ولده أحمد، وكان قد ناهز البلوغ ولم يكن له من الأولاد الذكور غيره، فوجد عليه وجدًا شديدًا حتى كان يتكلم بكلام نقمه الناس عليه، وعمل ميتمًا ودفنه بمسجده تجاه بيته، وعمل عليه مقامًا ومقصورة مثل المقامات التي تُقصد للزيارة، وكان موته في منتصف سنة تسع وعشرين.

ووقعت حادثة قومة العسكر على الباشا في أواخر شهر شعبان من السنة المذكورة، والمترجم إذ ذاك من أعيان الروس يطلع وينزل في كل ليلة إلى القلعة، ويشار إليه ويحل ويعقد في قضايا الناس، ويسترسل معه الباشا كما تقدم ذكر ذلك، وداخله الغرور الزايد، ولقد تطاول على كبار الكتبة الأقباط وغيرهم، ويراجع الباشا في مطالبه بعد انقضا الفتنة إلى أن ضاق صدر الباشا منه وأمر بإخراجه ونفيه إلى دسوق، وذلك في سنة إحدى وثلاثين.

فأقام بها أشهرًا ثم توجه بشفاعة السيد المحروقي إلى المحلة الكبرى، فلم يزل بها متعلق الحواس منحرف المزاج متكدر الطبع، وكل قليل يراسل السيد المحروقي في أن يشفع فيه عند الباشا وليأذن له في الحج، فلم يؤذن له في شي من ذلك، ولم يزل بالمحلة حتى تُوُفِّيَ في منتصف شهر ربيع الأول من السنة، ودُفن هناك، وكان — رحمه الله تعالى — يميل إلى الرياسة طبعًا، وفيه حدة مزاج، وهي التي كانت سببًا لموته بأجله، رحمه الله تعالى وإيانا.

ومات الصدر المعظم والدستور المكرم الوزير طاهر باشا، ويقال إنه ابن أخت محمد علي باشا، وكان ناظرًا على ديوان الكمرك ببولاق وعلى الخمامير ومصارفه من ذلك، وشرع في عمارة داره التي بالأزبكية بجوار بيت الشرايبي تجاه جامع أزبك على طرف الميري، وهي في الأصل بيت المدني ومحمود حسن، واحترق منه جانب ثم هدم أكثرهما، وخرج بالجدار إلى الرحبة وأخذ منها جانبًا وأدخل فيه بيت رضوان كتخدا الذي يقال له: تلاتة وليه تسمية له باسم العمودين الرخام الملتفين على مكسلتي الباب الخارج، وشيد البناء بخرجات في العلو متعددة، وجعل بابه مثل باب القلعة ووضع في جهتيه العامودين المذكورين، وصارت الدار كأنها قلعة مشيدة في غاية من الفخامة، فما هو إلا أن قارب الإتمام وقد اعتراه المرض فسافر إلى إسكندرية بقصد تبديل الهوا فأقام هناك أيامًا، وتُوُفِّيَ في شهر جمادى الثانية، وأحضروا رمته في أواخر الشهر ودفنوه بمدفنه الذي بناه محل بيت الزعفراني بجوار السيدة بقناطر السباع، وترك ابنًا مراهقًا فأبقاه الباشا على منصب أبيه ونظامه وداره.

ومات الأمير أيوب كتخدا الفلاح، وهو مملوك الأمير مصطفى جاويش تابع صلاح الفلاح، وكان آخر الأعيان المبجلين من جماعة الفلاح المشهورين وله عزوة وأتباع، وبيته مفتوح للواردين، ويحب العلما والصلحا ويتأدب معهم، وكان الباشا يجله ويقبل شفاعته، وكذلك أكابر الدولة في كل عصر، وعلى كل حال كان لا بأس به، تُوُفِّيَ يوم الأربع لعشرين من شهر شعبان وقد جاوز السبعين — رحمه الله تعالى.

واستهلت سنة أربع وتلاتين ومايتين وألف (١٨١٨م)

واستهل المحرم بيوم السبت، وسلطان الإسلام السلطان محمود شاه بن عبد الحميد بدار سلطنته إسلامبول، ووالي مصر وحاكمها محمد علي باشا القولي وكتخداه، وباقي أرباب المناصب على حالهم وما هم عليه في العام الماضي.

ووردت الأخبار من شرق الحجاز والبشاير بنصرة حضرة إبراهيم باشا على الوهابية قبل استهلال السنة بأربعة أيام، فعند ذلك نودي بزينة المدينة سبعة أيام؛ أولها الأربع سابع عشرين الحجة، ونصبت الصواوين خارج باب النصر عند الهمايل، وكذلك صيوان الباشا وباقي الأمرا والأعيان خرجوا بأسرهم لعمل الشنك والحرايق.

وأخرجوا من المدافع ماية مدفع وعشرة وتماثيل وقلاعًا وسواقي وسواريخ وصورًا من بارود، وبدوا في عمل الشنك من يوم الأربع فيضربون بالمدافع مع رماحة الخيالة من أول النهار مقدار ساعة زمانية وربع قريبًا من عشرين درجة ضربًا متتابعًا لا يتخلله سكون على طريقة الإفرنج في الحروب، بحيث إنهم يضربون المدفع الواحد اثنتي عشرة مرة، وقيل أربع عشرة مرة في دقيقة واحدة، فعلى هذا الحساب يزيد ضرب المدافع في تلك المدة على ثمانين ألف مدفع، بحيث يتخيل الإنسان أصواتها مع أصوات بنادق الخيالة المترامحين رعودًا هايلة، ورتبوا المدافع أربع صفوف، ورسم الباشا أن الخيالة ينقسمون كذلك طوابير ويكمنون في الأعالي، ثم ينزلون مترامحين وهم يضربون بالبنادق، ويهجمون على المدافع في حال اندفاعها بالرمي، فمن خطف شيًّا من أدوات الطبجية الرماة يأتي به إلى الباشا ويعطيه البقشيش والإنعام، فمات بسبب ذلك أشخاص وسواس.

ويكون مبادي نهاية وقوف الخيالة نهاية محط جلة المدفع، فإنهم عند طلوع الفجر يضربون مدافع معمورة بالجلل بعدد الطوابير، فتستعد الخيالة ويقف كل طابور عند

مرمى جلته ويأخذون أهبتهم من ذلك الوقت إلى بعد شروق الشمس، ويبتدون في الرمي والرماحة الحصة المذكورة، وبعد العشا الأخير يعمل كذلك الشنك برمي المدافع المتتالية المختلطة أصواتها بدون الرماحة، ومع المدافع الحراقة والنفوط والسواريخ التي تصعد في الهوا، وفيها من خشب الزان بدل القصب وكرنجة بارودها أعظم من تلك، بحيث إنها تصعد من الأسفل إلى العلو مثل عامود النار، وأشياء أخرى لم يسبق نظايرها تفنن في عملها الإفرنج وغيرهم.

وحول محل الحراقة حلقة دايرة متسعة حولها ألوف من المشاعل الموقدة، وطلبوا لعمل أكياس بارود المدافع مايتي ألف ذراع من القماش البز، وكان راتب الأرز الذي يطبخ في القزانات ويفرق في عراضي العساكر في كل يوم أربعماية أردب وما يتبعها من السمن، وهذا خلاف مطابخ الأعيان وما يأتيهم من بيوتهم من تعابي الأطعمة وغيرها.

واستمر هذا الضرب والشنك إلى يوم التلات رابع المحرم، وأهل البلد ملازمون للسهر والزينة على الحوانيت والدور ليلًا ونهارًا وتكرار المناداة عليهم في كل يوم، وركب حضرة الباشا وتوجَّه إلى داره بالأزبكية، وهدمت الصواوين والخيام، وبطل الرمي ودخلت العساكر والبينبات بمتاعهم وعازقهم أفواجًا إلى المدينة وذهبوا إلى دروهم.

ورفع الناس الزينة، وكان معظمها حيث مساكن الإفرنج والأرمن، فإنهم تفننوا في عمل التصاوير والتماثيل وأشكال السرج والفنيارات الزجاج والبلور وأشكال النجف، ومعظمها في جهات المسلمين بخان الخليلي والغورية والجمالية، وببعض الأماكن والخانات ملاهي وأغاني وسماعات وقيان وجنك رقاصات.

هذا والتهيؤ والأشغال والاستعداد لعمل الدونانمة على بحر النيل ببولاق، فصنعوا صورة قلعة بأبراج وقباب وزوايا وأنصاف ودواير وخورنقات وطيقان للمدافع، وطلوها وبيضوها ونقشوها بالألوان والأصباغ، وصورة باب مالطة، وكذلك صورة بستان على سفاين وفيه الطين ومغروس به الأشجار ومحيط به درابزين مصبغ، وبه دوالي العنب وأشجار الموز والفاكهة والنخيل والرياحين في قصاري لطيفة على حافاته، وصورة عربة يجرها أفراس وبها تماثيل وصور جالسين وقايمين، وتمثال مجلس وبه جنك رقاصات من تماثيل مصورة تتحرك بآلات ابتكار بعض المبتكرين؛ لأن كل من تخيل بفكره شيًّا ملعوبًا أو تصويرًا ذهب إلى الترسخانه، حيث الأخشاب والصناع فيعمله على طرف الميري حتى يبرزه في الخارج ويأخذ على ابتكاره البقشيش، وأكثرها لخصوص الحراقات والنفوط والبارود والسواريخ وغير ذلك.

وبعد انقضاء السبعة أيام المذكورة حصل السكون من يوم التلات المذكور إلى يوم الأحد التالي له من الجمعة الأخرى مدة خمسة أيام، في أثناها اجتهد الناس من الأعيان وكل من له اسم من أكابر الناس وأهل الدايرة والأفندية الكتبة، حتى الفقها أرباب المناصب والمظاهر ومشايخ الإفتا والنواب والمتفرجين في نصب الخيام بحافتي النيل، واستأجروا الأماكن المطلة على البحر ولو من البعد، وتنافسوا واشتط أربابها في الأجرة حتى بلغ أجرة أحقر طبقة بمثل وكالة الفسيخ إلى خمسماية قرش وزيادة، وكان الباشا أمر بإنشا قصر لخصوص جلوسه بالجزيرة تجاه بولاق قبلي قصر ابنه إسماعيل باشا، وتمموا بياضه ونظامه في هذه المدة القليلة.

فلما كان ليلة الاثنين، وهو يوم عاشورا، خرج الباشا من ليلته وعدى إلى القصر المذكور، وخرج أهل الدايرة والأعيان إلى الأماكن التي استأجروها، وكذلك العامة أفواجًا.

وأصبح يوم الاتنين المذكور فضربت المدافع الكثيرة التي صففوها بالبرين، وزين أهالي بولاق أسواقهم وحوانيتهم وأبواب دورهم، ودقت الطبول والزمامير والنقرزانات في السفاين وغيرها، وطلبخانة الباشا تضرب في كل وقت، والمدافع الكثيرة في ضحوة كل يوم وعصره وبعد العشا كذلك، وتوقد المشاعل وتعمل أصناف الحراقات والسواريخ والنفوط والشعل، وتتقابل القلاع المصنوعة على وجه الماء يرمون منها المدافع على هيئة المتحاربين، وفيها فوانيس وقناديل وهيئة باب مالطة بوابة مجسمة مقوصرة لها بدنات، ويرى بداخلها سرج وشعل، ويخرج منها حراقات وسواريخ، وغالب هذه الأعمال من صناعة الإفرنج.

وأحضروا سفاين رومية صغيرة تسمى الشلنبات يرمى منها مدافع وشنابر وشيطيات وغلايين مما يسير في البحر المالح، وفي جميعها وقدات وسرج وقناديل، وكلها مزينة بالبيارق الحرير والأشكال المختلفة الألوان، ودبوس أوغلي ببولاق التكرور وعنده أيضًا الحراقات الكثيرة والشعل والمدافع والسواريخ، وبالجيزة عباس بك ابن طوسون باشا، والنصارى الأرمن بمصر القديمة وبولاق والإفرنج، وأبرز الجميع زينتهم وتماثيلهم وحرايقهم وعند الأعيان حتى المشايخ في القنج والسفاين المعدة للسروح والتفرج والنزاهة والخروج عن الأوضاع الشرعية والأدبية، واستمروا على ما ذكر إلى يوم الاتنين سابع عشره.

وفي ذلك اليوم وصل عبد الله بن مسعود الوهابي، ودخل من باب النصر وصحبته عبد الله بكتاش قبطان السويس وهو راكب على هجين، وبجانبه المذكور وأمامه طايفة

من الدلاة فضربوا عند دخوله مدافع كثيرة من القلعة وبولاق وخلافهما، وانقضى أمر الشنك وخلافه من ساحل النيل وبولاق ورفعوا الزينة، وركب الباشا إلى قصر شبرا في تلك السفينة وانفض الجمع، وذهبوا إلى دورهم.

وكان ذلك من أغرب الأعمال التي لم يقع نظيرها بأرض مصر ولا ما يقرب من ذلك، ومطبخ الميري يطبخ به الأرز على النسق المتقدم والأطعمة، ويؤتى لأرباب المظاهر منها في وجبتي الغدا والعشا، خلاف المطابخ الخاصة بهم وما يأتيهم من بيوتهم، وأما العامة والمتفرجون من الرجال والنسا فخرجوا أفواجًا وكثر زحامهم في جميع الطرق الموصلة إلى بولاق ليلًا ونهارًا بأولادهم وأطفالهم ركبانًا ومشاة.

وقد ذهب في هاتين الملعبتين من الأموال ما لا يدخل تحت الحصر، وأهل الاستحقاق يتلظون من القشل والتفليس مع ما هم فيه من غلا الأسعار في كل شي وانعدام الأدهان وخصوصًا السمن والشيرج والشحم، فلا يوجد من ذلك الشي اليسير إلا بغاية المشقة، ويكون على حانوت الدهان الذي يحصل عنده بعض السمن شدة الزحام والصياح، ولا يبيع بأزيد من خمسة أنصاف وهي أوقية اثنا عشر درهمًا بما فيها من الخلط، وأعوان المحتسب مرصدون لمن يرد من الفلاحين والمسافرين بالسمن، فيحجزونه لمطالب الدولة ومطابخهم ودورهم في هذه الولايم والجمعيات، ويدفع لهم ثمنه على موجب التسعيرة، ثم يوزع ما يوزعه وهو الشي القليل على المتسببين وهم يبيعونه على هذه الحالة، ومثل ذلك الشيرج وخلافه حتى الجبن القريش.

وفيه وصل عبد الله الوهابي فذهبوا به إلى بيت إسماعيل باشا ابن الباشا، فأقام يومه وذهبوا به في صبحها عند الباشا بشبرا، فلما دخل عليه قام له وقابله بالبشاشة وأجلسه بجانبه وحادثه وقال له: ما هذه المطاولة؟ فقال: الحرب سجال، قال: وكيف رأيت إبراهيم باشا؟ قال: ما قصر وبذل همته ونحن كذلك حتى كان ما كان قدَّره المولى، فقال: أنا — إن شاء الله تعالى — أترجى فيك عند مولانا السلطان، فقال: المقدر يكون، ثم ألبسه خلعة وانصرف عنه إلى بيت إسماعيل باشا ببولاق.

ونزل الباشا في ذلك اليوم السفينة وسافر إلى جهة دمياط، وكان بصحبة الوهابي صندوق صغير من صفيح، فقال له الباشا: ما هذا؟ فقال: هذا ما أخذه أبي من الحجرة أصحبه معي إلى السلطان، وفتحه فوجد به ثلاثة مصاحف قرآنًا مكلفة ونحو تلتماية حبة لؤلؤ كبار وحبة زمرد كبيرة وبها شريط ذهب، فقال له الباشا: الذي أخذه من الحجرة أشيا كثيرة غير هذا، فقال: هذا الذي وجدته عند أبي، فإنه لم يستأصل كل ما

كان في الحجرة لنفسه، بل أخذ كذلك كبار العرب وأهل المدينة وأغوات الحرم وشريف مكة، فقال الباشا: صحيح، وجدنا عند الشريف أشيا من ذلك.

وفي يوم الأربع تاسع عشره سافر عبد الله بن مسعود إلى جهة إسكندرية، وصحبته جماعة من الططر إلى دار السلطنة ومعه خدم لزومه.

واستهل شهر صفر بيوم الاثنين (سنة ١٢٣٤)

في تالته وصل طايفة من الحجاج المغاربة يوم الأربع وصحبتهم حجاج كثيرة من الصعايدة وأهل القرى، فدخلوا على حين غفلة وكان الريس فيهم شخص من كبار عرب أولاد علي يسمى الحبالي، وهذا لم يتفق نظيره فيما وعيناه، وسببه أمن الطريق وانكماش العربان وقطاع الطريق.

وفيه أخبر المخبرون بأن الباشا أقام بدمياط أيامًا قليلة، ثم توجه إلى البرلس، ونزل في نقيرة وذهب إلى إسكندرية على ظهر البحر المالح، وقد استعد أهلها لقدومه وزينوا البلد، والذي تولى الاعتنا بذلك طايفة الإفرنج، فإنهم نصبوا طريقًا من باب البلد إلى القصر الذي هو سكن الباشا، وجعلوا بناحيتيه يمنى ويسرى أنواع الزينة والتماثيل والتصاوير والبلور والزجاج والمرايات، وغير ذلك من البدع البديعة الغريبة.

وفي غايته وصل الحاج المصري ودخلوا أرسالًا شيًّا فشيًّا، ومنهم من دخل ليلًا وخصوصًا ليلة الاتنين، وفي صبحه دخل حسن باشا أرنؤد الذي كان مقيمًا بجدة، وفي ذلك اليوم دخل بواقي الحجاج إلى منازلهم.

واستهل شهر ربيع الأول بيوم التلات (سنة ١٢٣٤)

في صبحه دخلوا بالمحمل المدينة، وأكثر الناس لم يشعر بدخوله، وهذا لم يتفق فيما نعلم تأخر الحاج إلى شهر ربيع الأول.

وفي ليلة التلات تامنه احترق السرب، والجملون الكاين أسفل جامع الغورية بما فيه من الحوانيت وبضايع التجار والأقمشة الهندية وخلافها، فظهرت به النار من بعد العشا الأخيرة، فحضر الوالي وأغات التبديل فوجدوا الباب الذي من جهة الغورية مغلوقًا من داخل، وكذلك الباب الذي من الجهة الأخرى، وهما في غاية المتانة، فلم يزالوا يعالجون فتح الباب بالعتالات والكسر إلى بعد نصف الليل، والنار عمالة من داخل، وهرب الخفير، واحترق ليوان الجامع البراني والدهليز.

وأخذوا في الهدم وصب المياه بآلات القصارين، مع صعوبة العمل بسبب علو الحيطان الشاهقة والأخشاب العظيمة والأحجار الهايلة والعقود، فلم يخمد لهب النار إلا بعد حصة من النهار.

وسرحت النار في أخشاب الجامع التي بداخل البنا، ولم يزل الدخان صاعدًا منها، وسقطت الشبابيك النحاس العظام، وبقيت مفتتة ومكلسة، واستمر العلاج في إطفا الدخان تلاتة أيام، ولولا لطف المولى وتأخير فتح الباب لكونه مصفحًا بالحديد فلم تعمل فيه النار، فلو لم يكن كذلك لاحترق وسرحت النار إلى الحوانيت الملاصقة به، وهي كلها أخشاب ويعلوها سقايف أخشاب كذلك، ومن فوق الجميع السقيفة العظيمة الممتدة على السوق من أوله إلى آخره، وهي في غاية العلو والارتفاع، وكلها أخشاب وحجنة وسهوم وبراطيم من أعلى ومن أسفل لحملها من الجهتين، ومن ناحيتها الرباع والوكايل والدور وحيطان الجميع من الحجنة والأخشاب العتيقة التي تشتعل بأدنى حرارة، فلو وصلت النار — والعياذ بالله تعالى — إلى هذه السقيفة لما أمكن إطفاها بوجه وكان حريقًا دوميًّا، ولكن الله سلم.

وفي يوم السبت تاني عشره حضر السيد عمر أفندي نقيب الأشراف سابقًا؛ وذلك أنه لما حصلت النصرة والمسرة للباشا، فكتب إليه مكتوبًا بالتهنية وأرسله مع حفيده السيد صالح إلى إسكندرية، فتلقاه بالبشاشة وطفق يسأله عن جده فيقول له: بخير ويدعو لكم، فقال له: هل في نفسه شي أو حاجة نقضيها له؟ فقال: لا يطلب غير طول البقاء لحضرتكم.

ثم انصرف إلى المكان الذي نزل به، فأرسل إليه في تاني يوم عثمان السلانكلي ليسأله ويستفسر عما عسى أن يستحي من مشافهة الباشا بذكره، فلم يزل يلاطفه حتى قال: لم يكن في نفسه إلا الحج إلى بيت الله إن أذن له أفندينا بذلك، فلما عاد بالجواب أنعم عليه بذلك، وأذن له بالذهاب إلى مصر، وأن يقيم بداره إلى أوان الحج إن شاء برًّا وإن شاء بحرًا، وقال: أنا لا أتركه في الغربة هذه المدة إلا خوفًا من الفتنة، والآن لم يبقَ شي من ذلك، فإنه أبي وبيني وبينه ما لا أنساه من المحبة والمعروف، وكتب له جوابًا بالإجابة، وصورته بحروفه:

> مظهر الشمايل سنيها، حميد الشئون وسميها، سلالة بيت المجد الأكرم، والدنا السيد عمر مكرم، دام شانه. أما بعد، فقد ورد الكتاب اللطيف من الجناب الشريف، تهنية بما أنعم الله علينا وفرحًا بمواهب تأييده لدينا، فكان ذلك

مزيدًا في السرور، ومستديمًا لحمد الشكور، ومجلبة لثناكم، وإعلانًا بنيل مناكم، جزيتم حسن الثنا، مع كمال الوقار ونيل المنى.

هذا وقد بلغنا نجلكم عن طلبكم الإذن في الحج إلى البيت الحرام، وزيارة روضته عليه الصلاة والسلام، للرغبة في ذلك، والترجي لما هنالك، وقد أذناكم في هذا المرام تقربًا لذي الجلال والإكرام، ورجا لدعواتكم بتلك المشاعر العظام، فلا تدعوا الابتهال ولا الدعا لنا بالقال والحال كما هو الظن في الطاهرين، والمأمول من الأصفيا المقبولين، والواصل لكم جواب منا خطابًا إلى كتخداينا، ولكم الإجلال والاحترام، مع جزيل الثنا والسلام.

وأرسل إليه المكتوبين صحبة حفيده السيد صالح، وأرسل إلى كتخدا بك كتابًا وصل إليه قبل قدومه، فأرسل الكتخدا ترجمانه إلى منزله ليبشرهم بذلك، وأشيع خبر مقدمه، فكان الناس بين مصدق ومكذب، حتى وصل في اليوم المذكور إلى بولاق، فركب من هناك وتوجه إلى زيارة الإمام الشافعي، وطلع إلى القلعة وقابل الكتخدا وسلم عليه، وهنته الشعرا بقصايدهم وأعطاهم الجوايز، واستمر ازدحام الناس أيامًا، ثم امتنع عن الجلوس في المجلس العام نهارًا، واعتكف بحجرته الخاصة، فلا يجتمع به إلا بعض من يريده من الأفراد، فانكف الكثير عن الترداد وذلك من حسن الرأي.

واستهل شهر ربيع التاني بيوم السبت (سنة ١٢٣٤)

فيه حصل الاهتمام بحفر الترعة المعروفة بالأشرفية الموصلة إلى إسكندرية، وقد تقدم في العام الماضي بل والذي قبله اهتمام الباشا، ونزل إليها المهندسون ووزنوا أرضها، وقاسوا طولها وعرضها وعمقها المطلوب، ثم أهمل أمرها لقرب مجي النيل، وتركوا الشغل في مبديها، ولم يترك الشغل في منتهاها عند إسكندرية بالقرب من عامود السواري، فحفروا هناك منبتها، وهي بركة متسعة، وحوطوها بالبنا المحكم المتين، وهي مرسى المراكب التي تعبر منها إلى إسكندرية بدلًا عن البوغاز، وهو ملتقى البحرين، وما يقع فيه من التلف للمراكب، فتكون هذه أسلم وأقرب وأقل كلفة إن صحت، بل وأقرب مسافة.

ونزل الأمر لكشاف الأقاليم بجمع الفلاحين والرجال على حساب مزارع الفدادين، فيحصون رجال القرية المزارعين، ويدفعون للشخص الواحد عشرة ريال، ويخصم له مثلها من المال، وإذا كان له شريك وأحب المقام لأجل الزرع الصيفي أعطاه حصته وزاده

عليها حتى يرضى خاطره، وزوده بما يحتاج إليه أيضًا، وعند العمل يدفع لكل شخص قرشًا في كل يوم.

ويخرج أهل القرية أفواجًا ومعهم أنفار من مشايخ البلاد، ويجتمعون في المكان المأمورين باجتماعهم فيه، ثم يسيرون مع الكاشف الذي بالناحية ومعهم طبول وزمور وبيارق ونجارون وبناءون وحدادون، وفرضوا على البلاد التي فيها النخيل غلقانًا ومقاطف وعراجين وسلبًا، وعلى البنادر فوس ومساحي شي كثير بالثمن، وطلبوا أيضًا طايفة الغواصين؛ لأنهم كانوا إذا اشتغلوا في قطع الأرض في بعض المواضع منها ينبع الماء قبل الوصول إلى الحد المطلوب.

وفي يوم الخميس عشرينه ورد مرسوم من الباشا بعزل كتخدا بك عن منصب الكتخداية، وتولية محمود بك فيها عوضًا عنه، وحضر محمود بك في ذلك اليوم قادمًا من إسكندرية، وطلع إلى القلعة وحضر أيضًا حسن باشا وكان قد ذهب إلى إسكندرية ليسلم على الباشا لكونه كان بالديار الحجازية المدة المديدة، وحضر إلى مصر والباشا بإسكندرية فتوجه إليه وأقام معه أيامًا، وعاد إلى مصر صحبة محمود بك، وحضر أيضًا إبراهيم أفندي من إسلامبول وهو ديوان أفندي الباشا، فتقلد في نظر الأطيان والرزق والالتزام عوضًا عن محمود بك.

واستهل شهر جمادى الأولى (سنة ١٢٣٤)

وفي سابعه يوم الخميس ضربت مدافع كثيرة وقت الشروق؛ بسبب ورود نجابة من الديار الحجازية باستيلا خليل باشا على يمن الحجاز صلحًا.

وفيه وصلت الأخبار أيضًا عن عبد الله بن مسعود أنه لما وصل إلى إسلامبول طافوا به البلدة وقتلوه عند باب همايون، وقتلوا أتباعه أيضًا في نواح متفرقة فذهبوا مع الشهدا.

وفيه أشيع وصول قابجي كبير من طرف الدولة يقال له قهوجي باشا إلى إسكندرية، وورد الأمر بالاستعداد لحضوره مع الباشا، فطلعوا بالمطابخ إلى ناحية شبرا وطلبت الخيول من الربيع، واستمر خروج العساكر ودخولهم وكذلك طبخ الأطعمة، وفي كل يوم يشيعون الورود فلم يأتِ أحد، ثم ذكروا أن ذلك القابجي حين قرب من إسكندرية رده الريح إلى رودس، واستمر هذا الريح إلى آخر الشهر.

وفيه قوي الاهتمام بأمر حفر الترعة المتقدم ذكرها، وسيقت الرجال والفلاحون من الأقاليم البحرية، وجدُّوا في العمل بعدما حددوا لكل أهل إقليم أقصابًا توزع على أهل كل

بلد من الإقليم، فمن أتم عمله المحدود انتقل إلى مساعدة الآخرين، وظهر في حفر بعض الأماكن منها صورة أماكن ومساكن وقيعان وحمام بعقوده وأحواضه ومغاطسه، ووجد ظروف بداخلها فلوس نحاس كفرية قديمة، وأخرى لم تفتح لا يعلم ما فيها رفعوها للباشا مع تلك.

وفي يوم الأربع سابع عشرينه حضر الباشا إلى شبرا، ووصل في أثره قهوجي باشا، وعملوا له موكبًا في صبيحة يوم الخميس، وطلعوا إلى القلعة ومع الأغا المذكور ما أحضره برسم الباشا وولده إبراهيم باشا الذي بالحجاز، وهو خلعتا سمور لكل واحد خلعة، وخنجر مجوهر لكل واحد، وشلنجان مجوهران وساعة جوهر وغير ذلك، وقري الفرمان بحضرة الجمع وفيه الثنا الكثير على الباشا والعفو عمن بقي من الوهابية، وبعد القراءة ضربت مدافع كثيرة وكذلك عند ورودهم، واستمر ضرب المدافع تلاتة أيام في جميع الأوقات الخمس، ونزل القابجي المذكور ببيت طاهر باشا بالأزبكية، وحضر أيضًا عقبه أطواخ لكلٍّ من عباس بك ابن طوسون باشا ابن الباشا ولأحمد بك ابن طاهر باشا، وفي ضمن الفرمان الإذن للباشا بتولية إمريات وقبجيات لمن يختار.

وفي صبحها يوم الجمعة خلع الباشا على أربعة أو خمسة من أمراه بقبجيات باشا، وهم علي بك السلانكلي قابجي باشا وحسن أغا أزرجانلي كذلك وخليل أفندي حاكم رشيد وشريف بك.

واستهل شهر جمادى الثانية (سنة ١٢٣٤)

فيه حضر محمد بك الدفتردار من الجهة القبلية فأقام أيامًا وعاد إلى قبلي.

وفي أواخره رجع الكثير من فلاحي الأقاليم إلى بلادهم من ترعة الأشرفية، وهم الذين أتموا ما لزمهم من العمل والحفر، ومات الكثير من الفلاحين من البرد ومقاساة التعب.

وفي هذا الشهر حصل بعض موت بالطاعون، فداخَل الناس وهْم بسبب ما حدث في أكابر الدولة والنصارى من التحجب وعمل الكورنتيلات، وهي التباعد من الملامسة وتبخير الأوراق والمجالس ونحو ذلك.

واستهل شهر رجب بيوم الاثنين (سنة ١٢٣٤)

في خامسه مات عبود النصراني كاتب الخزينة، وكان مشكور السيرة في صناعته، وعنده مشاركة ودعوى عريضة ودعوى علم، ويتكلم بالمناسبات والآيات القرآنية، ويُضمِّن إنشاءاته ومراسلاته آيات وأمثالًا وسجعات.

وأخذ دار القيسرلي بدرب الجنينة وما حولها وأنشأها دارًا عظيمة وزخرفها، وجعل بها بستانًا ومجالس مفروشة بالرخام الملون وفساقي وشاذروانات وزجاج بلور، وكل ذلك على طرف الميري، وله مرتب واسع وكان الباشا يحبه ويثق به، ويقول: لولا الملامة لقلدته الدفتردارية.

وفي سابعه حضر إلى مصر حاكم يافا المعروف بمحمد بك أبو نبوت معزولًا عن ولايته، فأرسل إلى الباشا يستأذنه في الحضور إلى مصر فأطلق له الإذن، فحضر فأنزله بقصر العيني وصحبته نحو الخمسماية مملوك وأجناد وأتباع، واجتمع بالباشا وأجلَّه وسلم عليه، وأقام معه حصة من الليل ورتب له مرتبًا عظيمًا، وعين له ما يقوم بكفايته وكفاية أتباعه، فمن جملة ما رتب له تلاتة آلاف تذكرة، كل تذكرة بألفين وستماية نصف فضة في كل شهر، وذلك خلاف المعين واللوازم من السمن والخبز والسكر والعسل والحطب والأرز والفحم والشمع والصابون، فمن الأرز خاصة في كل يوم أردبان وللعليق خمسة وعشرون أردبًّا في كل يوم.

وفي يوم السبت تالت عشره سافر قهوجي باشا عايدًا إلى إسلامبول، واحتفل به الباشا احتفالًا زايدًا، وقدَّم له ولمخدومه وأرباب الدولة من الأموال والهدايا والخيول والبن والأرز والسكر والشربات وتعابي الأقمشة الهندية وغيرها شيًّا كثيرًا، وكذلك قدَّم له أكابر الدولة هدايا كثيرة، ولأنه لما حضر إلى مصر قدَّم لهم هدايا فقابلوه بأضعافها، وعندما سافر احتجب الباشا وأمر كل من كان يلازم ديوانه بالانصراف والتحجب، فتكرتن منهم من تكرتن في داره ومنهم في القصور، وسافر مع قهوجي باشا سليمان أغا السلحدار وشربتشي باشا وآخرون لتشييعه إلى إسكندرية.

وفي يوم الخميس ثامن عشره حضر بواقي الوهابية بحريمهم وأولادهم، وهم نحو الأربعماية نسمة، وأسكنوا بالقشلة التي بالأزبكية، وابن عبد الله بن مسعود بدار عند جامع مكة هو وخواصه من غير حرج عليهم، وطفقوا يذهبون ويجيئون ويترددون على المشايخ وغيرهم، ويمشون في الأسواق ويشترون البضايع والاحتياجات.

واستهل شهر شعبان (سنة ١٢٣٤)

وفيه وصل جماعة هجانة من جهة الحجاز وصحبتهم ابن حمود أمير يمن الحجاز؛ وذلك أنه لما مات أبوه تأمر عوضه وأظهر الطاعة وعدم المخالفة للدولة، فلما توجه خليل باشا إلى اليمن أخلى له البلاد واعتزل في حصن له، ولم يخرج لدفعه ومحربته كما فعل أبوه، وترددت بينهما المراسلات والمخادعات حتى نزل من حصنه وحضر عند الخليل باشا فقبض عليه وأرسله مع الهجانة إلى مصر.

وفيه صرفوا الفلاحين عن العمل في الترعة لأجل حصاد الزرع، ووجهوا عليهم طلب المال.

واستهل شهر رمضان (سنة ١٢٣٤)

والباشا مكرتن بشبرا، ولم يطلع إلى القلعة كعادته في شهر رمضان.

وفي تامن عشرينه طلع إلى القلعة وعيد بها.

واستهل شهر شوال بيوم الجمعة (سنة ١٢٣٤)

وفي رابع عشره الموافق لآخر يوم من شهر أبيب نودي بوفا النيل، وكان الباشا سافر إلى جهة إسكندرية بسبب ترعة الأشرفية، وأمر حكام الجهات بالأرياف بجمع الفلاحين للعمل فأخذوا في جمعهم، فكانوا يربطونهم قطارات بالحبال، وينزلون بهم المراكب، وتعطلوا عن زرع الدراوي الذي هو قوتهم، وقاسوا شدة بعد رجوعهم من المرة الأولى بعدما قاسوه.

ومات الكثير منهم من البرد والتعب، وكل من سقط أهالوا عليه من تراب الحفر ولو فيه الروح، ولما رجعوا إلى بلادهم للحصيدة طولبوا بالمال وزيد عليهم عن كل فدان حمل بعير من التبن وكيلة قمع وكيلة فول، وأُخذ ما يبيعونه من الغلة بالثمن الدون والكيل الوافر، فما هم إلا والطلب إلى الشغل في الترعة ونزح المياه التي لا ينقطع نبعها من الأرض وهي في غاية الملوحة، والمرة الأولى كانت في شدة البرد، وهذه المرة في شدة الحر وقلة المياه العذبة، فينقلونها بالروايا على الجِمال مع بُعد المسافة وتأخر ري إسكندرية.

وفي سابع عشرينه ارتحل ركب الحجاج من البركة وأمير الحاج عابدين بك أخو حسن باشا.

واستهل شهر ذي القعدة (سنة ١٢٣٤)

والعمل في الترعة مستمر.

واستهل شهر ذي الحجة (سنة ١٢٣٤)

في منتصفه سافر الباشا إلى الصعيد وسافر صحبته حسن باشا طاهر ومحمد أغا لاظ المنفصل عن الكتخداية وحسن أغا أزرجانلي وغيرهم من أعيان الدولة.

وفيه وصل الخبر بموت سليمان باشا حاكم عكا، وهو من مماليك أحمد باشا الجزار.

وفي أواخره وصل ابن إبراهيم باشا وصحبته حريم أبيه، فضربوا لوصولهم مدافع وعملوا للصغير موكبًا، ودخل من باب النصر وشق من وسط المدينة.

وانقضت السنة وما تجدد بها من الحوادث التي منها زيادة النيل الزيادة المفرطة أكثر من العام الماضي، وهذا من النوادر وهو الغرق في عامين متتابعين، واستمر أيضًا في هذه السنة إلى منتصف هاتور حتى فات أوان الزراعة، وربما نقص قليلًا ثم يرجع في تاني يوم أكثر ما نقص.

ودخلت سنة خمس وثلاثين ومائتين وألف (١٨١٩م)

فكان أول المحرم بالهلال يوم الخميس، وفيه وما قبله بأيام حصل بالأرياف، بل وبداخل المدينة انزعاجات بسبب تواتر سرقات، وإشاعة سروح مناسر وحرامية، وعمر الناس أبواب الدور والدروب، وحصل منع الناس من المسير والمشي بالأزقة من بعد الغروب، وصار كتخدا بك وأغات التبديل والوالي يطوفون ليلًا بالمدينة، وكل من صادفوه قبضوا عليه وحبسوه ولو كان ممن لا شبهة فيه، واستمر هذا الحال إلى آخر الشهر.

وفي سابع عشرينه حضر الباشا من الصعيد بعد أن وصل في سرحته إلى الشلال، وكان الناس تقوَّلوا على ذهابه إلى قبلي أقاويل، منها: أنه يريد التجريد على بواقي المصريين المنقطعين بدنقلة، فإنهم استفحل أمرهم واستكثروا من شرا العبيد وصنعوا البارود والمدافع وغير ذلك، ومنها أنه يريد التجريد أيضًا وأخذ بلاد دارفور والنوبة، ويمهد طريق الوصول إليها، ومنها أنهم قالوا: إنه ظهر بتلك البلاد معدن الذهب والفضة والرصاص والزمرد، وأن ذهابه للكشف على ذلك وامتحانه وعمل معدنه ومقدار ما يصرف عليه حتى يستخرج صافيه، وبطل كل ما توهموه وخمنوه برجوعه.

وأما قولهم عن هذه المعادن، فالذي تلخص من ذلك أنه ظهر بأرض أحجار خضر تشبه الزمرد، وليست إياه وبمكان آخر شي أسود مخرفش مثل خرء الحديد، يخرج منه بعد العلاج والتصفية رصاص قليل، فقد أخبرني أخونا الشيخ عمر الناوي المعروف بالمخلصي أنه أخذ منه قطعة وذهب بها إلى الصايغ ودقها ووضعها في بوط كبير، وساق

عليها بنار السبك وانكسر البوط فنقلها إلى بوط آخر، ولم يزل يعالجها بطول النهار وأحرق عليها زيادة عن القنطار من الفحم.

وفيه حضر أيضًا جماعة من الوهابية وأُنزلوا بدار بحارة عابدين.

واستهل شهر صفر بيوم الجمعة (سنة ١٢٣٥)

في غرته سافر محمد أغا المعروف بأبي نبوت الشامي إلى دار السلطنة باستدعا من الدولة؛ وذلك أنه لما حضر إلى مصر ونزل برحاب الباشا — كما تقدم — وكاتب الباشا في شأنه إلى الدولة فحضر الأمر بطلبه وكذا بالإكرام، فعند ذلك هيا له الباشا ما يحتاج إليه من هدية وغيرها، وتعين للسفر صحبته خمسة وتلاتون شخصًا أرسل إليهم الباشا كساوي وفراوي وترك باقي أتباعه بمصر، أنزلوهم في دار بسويقة اللالا، وهم يزيدون عن المايتين، ويصرف لهم الرواتب في كل يوم والشهرية.

وفيه وصل جماعة من عسكر المغاربة والعرب الذين كانوا ببلاد الحجاز، وصحبتهم أسرى من الوهابية نسا وبنات وغلمانًا نزلوا عند الهمايل وطفقوا يبيعونهم على من يشتريهم مع أنهم مسلمون وأحرار.

وفي منتصفه مات مصطفى أغا وكيل دار السعادة سابقًا، ومات أيضًا الشيخ عبد الرحمن القرشي الحنفي.

وفي سابع عشره وصل الحاج المصري، ومات الكثير من الناس فيه بالحمى، وكذلك كثرت الحمى بأرض مصر وكأنها تناقلت من أرض الحجاز.

وفي حادي عشرينه وصل إبراهيم باشا ابن الباشا من ناحية القصير، وكان قبل وروده بأيام وصل خبر وصوله إلى القصير، وضربوا لذلك الخبر مدافع من القلعة وغيرها، ورمحت المبشرون لأخذ البقاشيش من الأعيان، واجتمعت نسا أكابرهم عند والدته للتهنية، ونظموا له القصر الذي كان أنشاه ولي خوجة وتممه شريف بك الذي تولى في منصبه وهو بالروضة بشاطي النيل تجاه الجيزة، وعند وصول المذكور عملوا جسرًا من الروضة إلى ساحل مصر القديمة على مراكب من البر إلى البر، وردموه بالأتربة من فوق الأخشاب.

وفي ذلك اليوم وصل قابجي من دار السلطنة بالبشارة بمولود وُلد لحضرة السلطان وطلع إلى القلعة في موكب.

وفي يوم الخميس حادي عشرينه عند وصول إبراهيم باشا نودي بزينة المدينة سبعة أيام بلياليها، فشرع الناس في تزيين الحوانيت والدور والخانات بما أمكنهم وقدروا عليه من الملونات والمقصبات.

وأما جهات النصارى وحاراتهم وخاناتهم، فإنهم أبدعوا في عمل تصاوير مجسمات وتماثيل وأشكال غريبة، وشكا الناس من عدم وجود الزيت والشيرج، فرسموا بجملة قناطير شيرج تعطى للزياتين لتباع على الناس بقصد ذلك، فيأخذونها ويبيعونها بأغلى ثمن بعد الإنكار والكتمان.

ولما أصبح يوم الجمعة وقد عدى إبراهيم باشا إلى بر مصر رتبوا له موكبًا، ودخل من باب النصر وشق المدينة وعلى رأسه الطلخان السليمي من شعار الوزارة، وقد أرخى لحيته بالحجاز وحضر والده إلى جامع الغورية بقصد الفرجة على موكب ابنه، وطلع بالموكب إلى القلعة ثم رجع سايرًا بالهيئة الكاملة إلى جهة مصر القديمة، ومر على الجسر وذهب إلى قصره المذكور بالروضة.

واستمرت الزينة والوقود والسهر بالليل وعمل الحراقات وضرب بالمدافع في كل وقت من القلعة، ومغاني وملاعب في مجامع الناس سبعة أيام بلياليها في مصر الجديدة والقديمة وبولاق وجميع الأخطاط.

ورجع إبراهيم باشا من هذه الغيبة متعاظمًا في نفسه جدًّا، وداخله من الغرور ما لا مزيد عليه، حتى إن المشايخ لما ذهبوا للسلام عليه والتهنية بالقدوم، فلما أقبلوا عليه وهو جالس في ديوانه لم يقم لهم ولم يرد عليهم السلام، فجلسوا وجعلوا يهنوه بالسلامة فلم يجبهم ولا بالإشارة، بل جعل يحادث شخصًا سخرية عنده، وقاموا على مثل ذلك منصرفين ومنكسفين ومنكسري الخاطر.

واستهل شهر ربيع الأول بيوم الأحد (سنة ١٢٣٥)

في تامنه مات ابن إبراهيم باشا وهو الذي تقدمه في المجي إلى مصر، وعملوا له الموكب وعمره نحو ست سنوات، وكان موته في أول الليل من ليلة الأحد، فأرسلوا التنابيه لأعيان الدولة والمشايخ، فخرج البعض منهم في تلت الليل الأخير إلى مصر القديمة، حيث المعادي؛ لأنه مات بقصر الجيزة فما طلع النهار حتى ازدحموا بمصر القديمة، وما حضروا به إلا قرب الزوال، وانجروا بالمشهد إلى مدفنهم بالقرب من الإمام الشافعي، وعملوا له مأتمًا وفرقوا دراهم على الناس والفقها وغير ذلك.

ثم حكى المخبرون عن كيفية موته أنه كان نايمًا في حجر دادته جارية سودا، فشاجرتها جارية بيضا ورفستها برجلها فأصابت الغلام فاضطرب، ووصل الخبر إلى أبيه، فدخل إليهم وقبض على الجواري الحاضرات وحبسهن في مكان بالقصر، وقال: إن مات ولدي قتلتكن عن آخركن فمات من ليلته، فخنق الجميع وألقاهن في البحر بما فيهن الدادة، قيل إنهن خمسة، وقيل ستة، والله أعلم.

وفي أواخره انقضى أمر الحفر بترعة إسكندرية، ولم يبقَ من الشغل إلا القليل، ثم فتحوا لها شرمًا خلاف فمها المعمول خوفًا من غلبة البحر، فجرى فيها الماء واختلط بالمياه المالحة التي نبعت من أرضها وعلا الماء منها على بعض المواطن المسبخة وبها روبة عظيمة، وساح على الأرض وليس هناك جسور تمنع، وصادف أيضًا وقوع نوة وأهوية علا فيها البحر المالح على الجسر الكبير، ووصل إلى الترعة فأشيع في الناس أن الترعة فسد أمرها ولم تصح، وأن المياه المالحة التي منها ومن البحر غرقت الإسكندرية، وخرج أهلها منها إلى أن تحقق الخبر بالواقع، وهو دون ذلك، ورجع المهندسون والفلاحون إلى بلادهم بعدما هلك معظمهم.

واستهل شهر ربيع التاني (سنة ١٢٣٥)

في أوله عزل الباشا محمد بك الدفتردار عن إمارة الصعيد، وقلد عوضه أحمد باشا ابن طاهر باشا، وسافر في خامسه.

وفي سابعه سافر الباشا إلى إسكندرية للكشف على الترعة، وسافر صحبته ابنه إبراهيم باشا ومحمد بك الدفتردار والكتخدا القديم ودبوس أوغلي.

وفي تالت عشره حضر الباشا ومن معه من غيبتهم، وقد انشرح خاطره لتمام الترعة وسلوك المراكب وسفرها فيها، وكذلك سافرت فيها مراكب رشيد والنقاير بالبضايع، واستراحوا من وعر البغاز والسفر في المالح إلى إسكندرية والنقل والتجريم، وانتظار الريح المناسب لاقتحام البغاز والبحر الكبير، ولم يبقَ في شغل الترعة إلا الأمر اليسير وإصلاح بعض جسورها.

واتفق وقوع حادثة في هذا الشهر، وهو أن شخصًا من الإفرنج الإنكليز ورد من إسكندرية وطلع إلى بلدة تسمى كفر حشاد، فمشى بالغيط ليصطاد الطير فضرب طيرًا ببندقيته فأصابت بعض الفلاحين في رجله، وصادف هناك شخص من الأرنؤد بيده هراوة أو مسوقة، فجا إلى ذلك الإفرنجي وقال له: أما تخشى أن يأتي إليك بعض

الفلاحين ويضربك على رأسك هكذا؟ فاغتاظ من ذلك الإفرنجي وضربه ببندقيته فسقط ميتًا.

فاجتمع عليه الفلاحون وقبضوا على الإفرنجي، ورفعوا الأرنؤدي المقتول وحضروا إلى مصر وطلعوا بمجلس كتخدا بك واجتمع الكثير من الأرنؤد وقالوا: لا بد من قتل الإفرنجي، فاستعظم الكتخدا ذلك؛ لأنهم يراعون جانب الإفرنج إلى الغاية، فقال: حتى نرسل إلى القناصل ونحضرهم ليروا حكمهم في ذلك، وأرسل بإحضارهم، وقد تكاثر الأرنؤد وأخذتهم الحمية وقالوا: لأي شيء نؤخر قتله إلى مشورة القناصل، وإن لم يُقتل في هذا الوقت نزلنا إلى حارة الإفرنج ونهبناها وقتلنا كل من بها من الإفرنج، فلم يسع الكتخدا إلا أن أمر بقتله فنزلوا به إلى الرميلة وقطعوا راسه، وطلع أيضًا القناصل في كبكبتهم وقد نُفذ الأمر وكان ذلك في غيبة الباشا.

واستهل شهر جمادى الأولى (سنة ١٢٣٥)

فيه جرد الباشا حسن بك الشماشرجي حاكم البحيرة على سيوة من الجهة القبلية، فتوجه إليها من البحيرة بجنده ومعه طايفة من العرب.

وفيه قوي عزم الباشا على الإغارة على نواحي السودان، فمن قايل: إنه متوجه إلى سنار، ومن قايل: إلى دارفور، وسارى العسكر ابنه إسماعيل باشا وخلافه، ووجه الكثير من اللوازم إلى الجهة القبلية وعمل البقسمات والذخيرة ببلاد قبلي والشرقية، واهتم اهتمامًا عظيمًا، وأرسل أيضًا بإحضار مشايخ العربان والقبايل.

وفيه خرج الباشا إلى ناحية القليوبية حيث الخيول بالربيع، وخرج محو بك لضيافته بقلقشندة، وأخرج خيامًا وجِمالًا كثيرة محملة بالفرش والنحاس وآلات المطبخ والأرز والسمن والعسل والزيت والحطب والسكر وغير ذلك، وأضافه تلاتة أيام، وكذلك تامي كاشف الناحية وغيره، وكذلك أحضر له ضيافة ابن شديد شيخ الحويطات وابن الشواربي كبير قليوب وابن عسر، وكان صحبة الباشا ولداه إبراهيم باشا وإسماعيل باشا وحسن باشا.

وفي أثناء ذلك ورد الخبر بموت عابدين بك أخو حسن باشا بالديار الحجازية وكذلك الكثير من أتباعه بالحمى، فتكدر حظهم وبطلت الضيافات وحضر الباشا ومن معه في أواخره لعمل العزا والميتم، وأخبر الواردون بكثرة الحمى بالديار الحجازية حتى قالوا: إنه لم يبقَ من طايفة عابدين بك إلا القليل جدًّا.

واستهل شهر جمادى الثانية (سنة ١٢٣٥)

وفي عشرينه وردت هدية من والي الشام فيها من الخيول الخاص عشرة، بعضها ملبس والباقي من غير سروج وأشيا أخرى لا نعلمها.

وفي أواخره ورد الخبر بأن حسن بك الشماشرجي استولى على سيوة، وفيه ورد الخبر بأنه وقع بإسلامبول حريق كبير.

وفيه ورد الخبر أيضًا عن حلب بأن أحمد باشا المعروف بخورشيد الذي كان سابقًا والي مصر استولى على حلب وقتل من أهلها وأعيانها أناسًا كثيرة؛ وذلك أنه كان متوليًا عليها فحصل منه ما أوجب قيام أهل البلدة عليه وعزلوه وأخرجوه، وذلك من مدة سابقة، فلما أخرجوه أقام خارجها، وكاتب الدولة في شانهم وقال ما قال في حقهم، فبعثوا أوامر ومراسيم لولاة تلك النواحي بأن يتوجهوا لمعونته على أهل حلب، فاحتاطوا بالبلدة وحاربوها أشهرًا حتى ملكوها وفتكوا في أهلها، وضربوا عليهم ضرايب عظيمة وهم على ذلك.

وفي أواخره أيضًا تقلد أغاوية مستحفظان مصطفى أغا كرد مضافة للحسبة عوضًا عن حسن أغا، الذي تُوُفِّيَ في الحج، فأخذ يعسف كعادته في مبادي توليته للحسبة، وجعل يطوف ليلًا ونهارًا ويحتج على المارين بالليل بأدنى سبب فيضرب من يصادفه راجعًا من سهر ونحوه، أو يقطع من أذنه أو أنفه.

واستهل شهر رجب بيوم الجمعة (سنة ١٢٣٥)

في تالته تقلد نظر الحسبة شخص يسمى حسنين أغا المورلي وهو بخشونجي بساتين الباشا.

وفيه رجع حسن بك الشماشرجي من ناحية سيوة بعد أن استولى عليها وقبض من أهاليها مبلغًا من المال والتمر، وقرر عليها قدرًا يقومون به في كل عام إلى الخزينة.

وفي عشرينه سافر محمد أغا لاظ وهو المنفصل عن الكتخداية إلى قبلي، بمعنى أنه في مقدمة الجردة يتقدمها إلى الشلال.

وفي أواخره وصل الخبر بموت خليل باشا بالديار الحجازية، فخلع الباشا على أخيه أحمد بك وهو تالت إخوته، وهو أوسطهم وقلده في منصب أخيه عوضًا عنه وأعطى البيرق واللوازم.

وفي أواخره توجه الباشا إلى ناحية الوادي لينظر ما تجدد به من العماير والمزارع والسواقي، وقد صار هذا الوادي إقليمًا على حدته وعمر به قرى ومساكن ومزارع.

واستهل شهر شعبان بيوم الأحد (سنة ١٢٣٥)

فيه سافر إبراهيم باشا إلى القليوبية، ثم إلى المنوفية والغربية لقبض الخراج عن سنة تاريخه، والطلب بالبواقي التي انكسرت على الفقرا، وكان الباشا سامح في ذلك وتلك بواقي سبع سنين، فكان يطلب مجموع ما على القرية من المال والبواقي في ظرف ثلاثة أيام، ففزعت الفلاحون ومشايخ البلاد، وتركوا غلالهم في الأجران وطفشوا في النواحي بنساهم وأولادهم، وكان يحبس من يجده من النسا ويضربهن، فكان مجموع المال المطلوب تحصيله على ما أخبرني به بعض الكتَّاب ماية ألف كيس وسعين ألف كيس.

وفي منتصفه حضر الباشا من ناحية الوادي.

وفي أواخره وقع حريق ببولاق في مغالق الخشب التي خلف جامع مرزة، وأقام الحريق نحو يومين حتى طفي، واحترق فيه الكثير من الخشب المعد للعماير بالكرسنة والزفت وحطب الإشراق وغيره.

واستهل شهر رمضان بيوم الأحد (سنة ١٢٣٥)

والاهتمام حاصل، وكل قليل يخرج عساكر ومغاربة مسافرين إلى بلاد السودان، ومن جملة الطلب ثلاثة أنفار من طلبة العلم يذهبون بصحبة التجريدة، فوقع الاختيار على محمد أفندي الأسيوطي قاضي أسيوط والسيد أحمد البقلي الشافعيين، والشيخ أحمد السلاوي المغربي المالكي، وأقبضوا محمد أفندي المذكور عشرين كيسًا وكسوة، ولكل واحد من الاثنين خمسة عشر كيسًا وكسوة، ورتبوا لهم ذلك في كل سنة.

وفي سابعه وقع حريق في سراية القلعة فطلع الأغا والوالي وأغات التبديل واهتموا بطف النار وطلبوا السقايين من كل ناحية حتى شح الماء ولا يكاد يوجد، وكان ذلك في شدة الحر، وتوافق شهر بؤنة ورمضان، وأقاموا في طف النار يومين، واحترق ناحية ديوان كتخدا بك ومجلس شريف بك وتلفت أشيا وأمتعة ودفاتر حرقًا ونهبًا.

وذلك أن أبنية القلعة كانت من بناء الملوك المصرية بالأحجار والصخور والعقود، وليس بها إلا القليل من الأخشاب، فهدموا ذلك جميعه وبنوا مكانه الأبنية الرقيقة

وأكثرها من الحجنة والأخشاب على طريق بنا إسلامبول والإفرنج، وزخرفوها وطلوها بالبياض الرقيق والأدهان والنقوش، وكان سريع الاشتعال، حتى إن الباشا لما بلغه هذا الحريق وكان مقيمًا بشبرا تذكر بنا القلعة القديم وما كان فيه من المتانة، ويلوم على تغير الوضع السابق ويقول: أنا كنت غايبًا بالحجاز والمهندسون وضعوا هذا البنا، وقد تلف في هذا الحريق ما ينيف عن خمسة وعشرين ألف كيس حرقًا ونهبًا، ولما حصل هذا الحريق انتقلت الدواوين إلى بيت طاهر باشا بالأزبكية، وانقضى شهر رمضان.

واستهل شهر شوال بيوم التلات (سنة ١٢٣٥)

وقع في تلك الليلة اضطراب في ثبوت الهلال لكونه كان عسر الرؤية جدًّا، وشهد اثنان برؤيته ورد الواحد ثم حضر آخر، ولم يزالوا كذلك إلى آخر الليل، ثم حكم به عند الفجر بعد أن صليت التراويح وأوقدت المنارات وطاف المسحرون بطبلاتهم، وتسخرت الناس وأصبح العيد باردًا.

وفي خامسه سافر الباشا إلى ثغر إسكندرية كعادته، وأقام ولده إبراهيم باشا بشاطي النيل تجاه مضرب النشاب، وتعاظم في نفسه جدًّا.

ولما رجع إبراهيم باشا من سرحته شرعوا في عمل مهم لختان عباس باشا ابن أخيه طوسون باشا، وهو غلام في السادسة، فشرعوا في ذلك في تاسع عشره ونصبوا خيامًا كثيرة تحت القصر، وحضرت أرباب الملاعيب والحواة والمغزلكون والبهلوانيون، وطبخت الأطعمة والحلوا والأسمطة، وأوقدت الوقدات بالليل من المشاعل والقناديل والشموع بداخل القصر، وتعاليق النجفات البلور وغير ذلك.

ورسموا بإحضار غلمان أولاد الفقرا فحضر الكثير منهم، وأحضروا المزينين فختنوا في أثنا أيام الفرح نحو الأربعماية غلام، ويفرشون لكل غلام طراحة ولحافًا يرقد عليها حتى يبرى جراحه، ثم يعطى لكل غلام كسوة وألف نصف فضة، وفي كل ليلة يعمل شنك وحراقات ونفوط ومدافع بطول الليل.

ودعوا في أثنا ذلك كبار الأشياخ والقاضي والشيخ السادات والبكري، وهو نقيب الأشراف أيضًا والمفاتي، وصار كل من دخل منهم يُجلسونه من سكوت، ولم يقم لواحد منهم ولم يرد على من يسلم ولا بالإشارة السلام، ولم يكلمهم بكلمة يؤانسهم بها، وحضرت المائدة فتعاطوا حتى انقضى المجلس، وقاموا وانصرفوا من سكوت.

وفي يوم الأربع تالت عشرينه خرجوا بالمحمل إلى الحصوة، وأمير الحاج شخص من الدلاة لم نعرف اسمه.

وفي يوم الخميس عملوا الزفة لعباس باشا، ونزلوا به من القلعة على الدرب الأحمر على باب الخرق إلى القصر، وختنوه في ذلك اليوم وامتلا طشت المزين الذي ختنه بالدنانير من نقوط الأكابر والأعيان، وخلعوا عليه فروة وشال كشميري، وأنعموا على باقي المزينين بتلاتين كيسًا وانقضى ذلك.

وفي يوم التلات تاسع عشرينه الموافق لتالت مسرى القبطي أوفى النيل أذرعه، وكسر السد في صبحها يوم الأربع وجرى الماء في الخليج، وذلك بحضرة كتخدا بك والقاضي.

وفي هذا الشهر حضر طايفة من بواقي الأمرا المصرية من دنقلة إلى بر الجيزة، وهم نحو الخمسة وعشرين شخصًا، وملابسهم قمصان بيض لا غير، فأقاموا في خيمة ينتظرون الإذن، وقد تقدم منهم الإرسال بطلب الأمان عندما بلغهم خروج التجاريد، وحضر ابن علي بك أيوب وطلب أمانًا لأبيه فأُجيبوا إلى ذلك، وأرسل لهم أمانًا لأجمعهم ما عدا عبد الرحمن بك والذي يقال له المنفوخ فليس يعطيهم أمانًا، ولما حضرت مراسلة الأمان لعلي بك أيوب وتأهب للرحيل حقدوا عليه وقتلوه ووصل خبر موته، فعملوا نعيه في بيت سكن زوجته الكاين بشمس الدولة، وأكثروا من الندب والصراخ عدة أيام.

وفي هذا الشهر أيضًا حضر أشخاص من بلاد العجم، وصحبتهم هدية إلى الباشا وفيها خيول، فأنزلوهم ببيت حسين بك الشماشرجي بناحية سويقة العزى.

واستهل شهر ذي القعدة بيوم الخميس (سنة ١٢٣٥)

في رابعه يوم الأحد وصل قابجي وعلى يده مرسوم تقرير للباشا بولاية مصر على السنة الجديدة، وتقرير آخر لولده إبراهيم باشا بولاية جدة، وركب القابجي المذكور في موكب من بولاق إلى القلعة، وقريت المراسيم بحضرة كتخدا بك وإبراهيم باشا وأعيانهم، وضربوا مدافع.

وفيه سافر إسماعيل باشا إلى جهة قبلي، وهو أمير العسكر المعينة لبلاد النوبة، كل ذلك والباشا الكبير على حاله بإسكندرية.

واستهل شهر ذي الحجة (سنة ١٢٣٥)

فيه توجه إبراهيم باشا إلى أبيه بإسكندرية، فأقام هناك أيامًا وعاد في آخر الشهر، فأقام بمصر أيامًا قليلة وسافر إلى ناحية قبلي ليجمع ما يجده عند الناس من القمح والفول والعدس التلاتة أصناف، وأخذوا كل سفينة غصبًا وساقوا الجميع إلى قبلي لحمل الغلال وجمعها في الشون البحرية لتباع على الإفرنج والروم بالأتمان الغالية، وانقضت السنة.

من حوادثها زيادة النيل الزيادة المفرطة، وخصوصًا بعد الصليب، وقد كان حصل الاعتنا الزايد بأمر الجسور بسبب ما حصل في العامين السابقين من التلف، فلما حصلت هذه الزيادة بعد الصليب، وَطِفَ الماء على أعلى الجسور، وغرق مزارع الذرة والنيلة والقصب والأرز والقطن وأشجار البساتين وغالب أشجار الليمون والبرتقال بما عليها من الثمار، وصار الماء ينبع من الأرض الممنوعة نبعًا، ولا عاصم من أمر الله، وطال مكث الماء على الأرض حتى فات أوان الزراعة.

ولم نسمع ولم نرَ في حوالي السنين تتابع الغرقات، بل كان الغرق نادر الحصول، وعلا ماء الخليج حتى سد غالب فرجات القناطر، ونبع الماء من الأراضي الواطية القريبة من الخليج، مثل غيط العدة وجامع الأمير حسين ونحو ذلك.

ومنها أن ترعة إسكندرية المحدثة لما تم حفرها وسموها بالمحمودية على اسم السلطان محمود، فتحوا لها شرمًا دون فمها المعد لذلك، وامتلأت بالماء، فلما بدأت الزيادة فزادت وطف الماء في المواضع الواطية، وغرقت الأراضي فسدوا ذلك الشرم وأبقوا من داخله فيها عدة مراكب للمسافرين، فكانوا ينقلون منها إلى مراكب البحر ومن البحر إلى مراكبها، وبقي ماؤها مالحًا متغيرًا، واستمر أهل الثغر في جهد من قلة الماء العذب، وبلغ ثمن الراوية قرشين.

ومنها أنه لما وقع القياس في أراضي القرى قرروا مسموحًا لمشايخ البلاد في نظير مضايفهم خمسة أفدنة من كل ماية فدان، وفي هذا العام يدفع مال المسموح سنتين، وذلك عقب مطالبتهم بالخراج قبل أوانه، وما صدقوا أنهم غلقوه ببيع غلالهم بالنسيئة والاستدانة وبيع المواشي والأمتعة ومصاغ النسا.

وكانوا أيضًا طولبوا بالبواقي في السنين الخوالي التي كانوا عجزوا عنها، ولم يزل رمي الغلال في هذه السنة، وكذلك الفول وتمر النخيل والفواكه، ولما طولب مشايخ البلاد بمال المسموح ازداد كربهم، فإنه ربما يجي على الواحد ألف ريال وأقل وأكثر، وقد قاسوا الشدايد في غلاق الخراج الخارج عن الحد وعدم زكاء الزرع وغرق مزارع النيلة والأرز والقطن والقصب والكتان وغير ذلك.

وفي إثر ذلك فرضوا على الجواميس كل راس عشرين قرشًا، وعلى الجمل ستين قرشًا، وعلى الشاة قرش، والراس من المعز سبعة وعشرين نصفًا وثلث، والبقرة خمسة عشر والفرس كذلك.

ومنها احتكار الصابون، ويحجز جميع الوارد على ذمة الباشا، ثم سومح تجاره بشرط أن يكون جميع صابون الباشا ومرتباته ودايرته من غير تمن، وهو شي كثير، ويستقر تمنه على ستين نصفًا بعد أن كان بخمسين جردًا من غير نقو.

ومنها ما أحدث على البلح بأنواعه وما يجلب من الصعيد والإبريمي، وأنواع العجوة حتى جريد النخل والليف والخوص يوخذ جميع ذلك بالتمن القليل ويباع ذلك للمتسببين بالتمن الزايد، وعلى الناس بأزيد من ذلك، وفي هذه السنة لم تثمر النخيل إلا القليل جدًّا، ولم يظهر البلح الأحمر في أيام وفرته ولم يوجد بالأسواق إلا أيامًا قليلة، وهو شي ردي وبسر ليس بجيد، ورطله بخمسة أنصاف، وهي تمن العشرة أرطال في السابق، وكذلك العنب لم يظهر منه إلا القليل وهو الفيومي والشرقاوي، وقد التزم به من يعصره شرابًا بأكياس كثيرة مع غيره من الأصناف، وغير ذلك جزئيات لم يصل إلينا علمها، ومنها ما وصل إلينا علمها وأهملنا ذكرها.

ومنها أن حسن باشا سافر إلى الجهة القبلية وصحبته بعض الإفرنج، الذين كان رخص لهم الباشا السياحة والغوص بأراضي الصعيد والفحص، وفحر الأراضي والكهوف والبرابي، واستخراج الآثار القديمة والأمم السالفة من التماثيل والتصاوير ونواويس الموتى، وقطع الصخور بالبارود.

وأشاعوا أنه ظهر لهم شي مخرفش يشبه خرء الرصاص أو الحديد وبه بعض بريق ذكروا أنه معدن إذا تصفى خرج منه فضة وذهب، وأخبرني بعض من أثق بخبره أنه أخذ منه قطعة تزيد في الوزن على رطلين وذهب بها عند رجل صايغ فأوقد عليها نحو قنطار من الفحم بطول النهار، فخرج منها في آخر الأمر وهو ينقلها من بوط إلى آخر بعد كسره، قطعة مثل الرصاص قدر الأوقية، وذكروا أيضًا أن بالجبل أحجارًا سودا توقد في النار مثل الفحم؛ وذلك لأنهم أتوا بمثل ذلك من بلاد الإفرنج وأوقدها بالضربخانة كريهة الريحة مثل الكبريت، ولا تصير رمادًا بل تبقى على حجريتها مع تغير اللون، ويحتاج إلى نقلها إلى الكيمان.

وقالوا: إنه بداخل جبال الصعيد كذلك، فسافر حسن باشا بقصد استخراج هذه الأشيا وأمثالها، فأقام نحو تلاتة أشهر وذلك بأمر الباشا الكبير، وهم يكسرون الجبل

بالبارود، فظهر بالجبل بجس يسيل منه دهن أسود بزرقة ورائحته زنخة كبريتية يشبه النفط، وليس هو، وأتوا بشي منه إلى مصر، وأوقدوا منه في السرج فملوا منه سبعة مصافي وانقطع، وأشيع في الناس قبل تحقق صورته، بل وصلت مكاتبات بأنه خرج من الجبل عين تسيل بالزيت الطيب ولا ينقطع جريانها يكفي مصر وأقطاعها بل والدنيا أيضًا، وأخبرني بعض أتباعهم أن الذي صرف في هذه المرة نحو الألفي كيس.

ومن حوادث هذه السنة الخارجة عن أرض مصر أن السلطان محمود تغير خاطره على علي باشا المعروف بتبه دنلي حاكم بلاد الأرنؤد وجرد عليه العساكر، ووقع لهم معه حروب ووقايع واستولوا على أكثر البلاد التي في حكمة، وتحصن هو في قلعة منيعة، وعلي باشا هذا في مملكة واسعة وجنوده كثيرة، وله عدة أولاد متأمرين كذلك، وبلادهم بين بلاد الرومنلي والنيمسا ويقال: إن بعض أولاده دخل تحت الطاعة وكذلك الكثير من عساكره، وبقي الأمر على ذلك ودخل الشتا وانقضت السنة ولم يتحقق عنه خبر.

ومنها أمر المعاملة وما يقع فيها من التخليط والزيادة، حتى بلغ صرف الريال الفرانسة اثني عشر قرشًا عنها أربعماية وتمانون نصفًا، والبندقي ألف فضة، وكذلك المجر والفندقلي الإسلامي سبعة عشر قرشًا، والقرش الإسلامبولي بمعنى المضروب هناك والمنقول إلى مصر يصرف بقرشين وربع يزيد عن المصري ستين نصفًا.

كذلك الفندقلي الإسلامبولي يصرف في بلدته بأحد عشر قرشًا، وبمصر بسبعة عشر كما تقدم، فتكون زيادته ستة قروش، وكذلك الفرانسة في بلادها تصرف بأربعة قروش، وإسلامبول بسبعة وبمصر باثني عشر.

وأما الأنصاف العددية التي تذكر في المصارفات، فلا وجود بها أصلًا إلا في النادر جدًّا، واستغنى الناس عنها لغلو الأتمان في جميع المبيعات والمشتريات، وصار البشلك الذي يقال له الخمساوية أي صرفه خمسة أنصاف هي بدل النصف؛ لأنه لما بطل ضرب القروش بضربخانة مصر وعوض عنها نصف القرش وربعه وثمنه الذي هو البشلك، ولم يبقَ بالقطر إلا ما كان موجودًا قبل، وهو كثير يتناقل بأيدي الناس وأهل القرى، ويعود إلى الخزينة ويصرف في المصارف والمشاهرات وعلايف العساكر، وهم كذلك يشترون لوازمهم فتذهب وتعود، هكذا تدور مع الفلك كلما دار، ويصرف القرض عند الاحتياج إلى صرفه بسبعة من البشلك بنقص التمن، فباعتبار كونها في مقام النصف يكون القرش بسبعة أنصاف لا غير، وباعتبار ذلك يكون الألف فضة بماية وخمسة وسبعين فضة؛ لأن الخمسة وعشرين قرشًا التي هي بدل الألف إذا نقصت في المصارفة التمن تكون إحدى

وعشرين، وإذا ضربنا السبعة في الخمسة وعشرين كانت ماية وخمسة وسبعين، وفيها من الفضة الخالصة ستة دراهم لا غير، وأوزان هذه القطع مختلفة لا تجد قطعة وزن نظيرتها، وفي ذلك فرط آخر، والقليل في الكثير كثير، والذي أدركناه في الزمن السابق أن هذه القروش لم يكن لها وجود بالقطر المصري ألبتة.

وأول من أحدثها بمصر علي بك القازدغلي بعد الثمانين وماية وألف، عندما استفحل أمره وأكثر من العساكر والنفقات وأظهر العصيان على الدولة، ولما استولى محمد بك المعروف بأبي الدهب أبطلها راسًا من الإقليم، وخسر الناس بسبب إبطالها حصة من أموالهم مع فرحهم بإبطالها، ولم يتأثروا بتلك الخسارة لكثرة الخير والمكاسب، ولم يبقَ من أصناف المعاملة إلا أنواع الذهب الإسلامي والإفرنجي والفرانسة ونصفه وربعه، والفضة الصغيرة التي يقال لها نصف فضة، مع رخا الأسعار وكثرة المكاسب.

ويصرف هذا النصف بعدد من الأفلس النحاس التي يقال لها الجدد، إما عشرة أو اثنا عشر إذا كانت مضروبة ومختومة، أو عشرين إذا كانت صغيرة وبخلاف ذلك، ويقال لها السحاتة، فكان غالب المحقرات يقضى بهذه الجدد، بل وخلاف المحقرات، وفي البيع والشرا.

وكان يجلب منها الكثير مع الحجاج المغاربة في المخالي ويبيعونها على أهل الأسواق بوزن الأرطال ويربحون فيها، فكان الفقير أو الأجير إذا اكتسب نصفًا، وصرفه بهذه الجدد كفاه نفقة يومه مع رخاء الأسعار، ويشتري منها خبزًا وأدمًا.

وإذا احتاج الطابخ لوازم الطبخة في التقلية أخذ من البقال البصل والثوم والسلق والكسبرة والبقدونس والفجل والكراث والليمون، الصنف أو الصنفين أو الثلاثة بالجديد الواحد، وقد انعدمت هذه الجدد بالكلية، وإذا وجدت فلا ينتفع بها أصلًا.

وصار النصف الفضة بمنزلة الجديد النحاس، ولا وجود له أيضًا، وصارت الخمسماية بمنزلة النصف بل وأحقر؛ لأنه كان يصرف بعدد كثير من الجدد وهذه بخمسة فقط، فإذا أخذ الشخص شيًّا من المحقرات بنصف أو نصفين أو ثلاثة، ما كان يؤخذ بجديد أو جديدين، ولم يجد عند البايع بقية الخمساوية فإما يترك الباقي لوقت احتياج آخر إن كان يعرفه، وإلا تعطلا.

وإذا كان الإنسان بالسوق ولحقه العطش، فيشرب من السقاء الطواف ويعطيه جديدًا، أو يملأ صاحب الحانوت إبريقه بجديد.

وفي هذه الأيام إذا كان الشخص لم يكن معه بشلك يشرب به، وإلا بقي عطشان حتى يشرب من داره، ولا يهون عليه أن يدفع ثمن قربة في شربة ماء؛ وذلك لعدم

وجود النصف، وكذلك الصدقة على الفقرا وأمثالهم، وقد كان الناس من أرباب البيوت إذا زاد بعد ثمن اللحم والخضار نصف يسألون الخادم في اليوم التاني عنه لكونه نصف المصروف، ويحاسبونه عليه.

وكان صاحب العيال وذوو البيوت المحتوية على عدة أشخاص من عيال وجوارٍ وخدم، إذا ادَّخر الغلة والسمن والعسل والحطب ونحو ذلك، يكفيه في مصرف يومه العشرة أنصاف في ثمن اللحم والخضار وخلافه، وأما اليوم فلا يقوم مقامها العشرة قروش وأزيد لغلو الأسعار في كل شي؛ بسبب الحوادث والاحتكارات السابقة والمتجددة كل وقت في جميع الأصناف، ولا يخفى أن أسباب الخراب التي نص عليها المتقدمون اجتمعت وتضاعفت في هذه السنين، وهي زيادة الخراج واختلال المعاملة أيضًا والمكوس، وزاد على ذلك احتكار جميع الأصناف والاستيلا على أرزاق الناس، فلا تجد مرزوقًا إلا مَن كان في خدمة الدولة متوليًا على نوع من أنواع المكوس، أو مباشرًا أو كاتبًا أو صانعًا في الصنايع المحدثة، ولا يخلو من هفوة ينم بها عليه، فيحاسب مدة استيلاه، فيجمع عليه جملة من الأكياس فيلزم بدفعها، وربما باع داره ومتاعه فلا يفي بما تأخر عليه، فإما يهرب إن أمكنه الهرب، وإما يبقى في الحبس.

هذا إن كان من أبناء العرب وأهالي البلدة، وأما إن كان بخلاف ذلك فربما سومح، أو تصدى له من يخفف عنه، أو يدخله في منصب أو شركة فيترفع حاله ويرجع أحسن ما كان.

ومما حدث أيضًا في هذه السنة الاستيلا على صناعة المخيش والقصب والتلي الذي يصنع من الفضة للطرازات والمقصبات والمناديل والمحارم وخلافها من الملابس، وذلك بإغرا بعض صناعهم وتحاسدهم، وأن مكسبها يزيد على ألف كيس في السنة؛ لأن غالب الحوادث بإغرا الناس على بعضهم البعض، وكذلك الاستيلا على وكالة الجلابة التي يباع فيها الرقيق من العبيد والجواري السود، وغيرهم من البضايع التي تجلب من بلاد السودان كسن الفيل والتمر هندي والشسم، وروايا الماء وريش النعام وغير ذلك.

ومنها الحجر على عسل النحل وشمعه، فيضبط جميعه للدولة ويباع رطل الشمع بستة قروش، ولا يوجد إلا ما كان مختلسًا، ويباع خفية، وكان رطله قبل الحجر بتلاتة قروش، فإذا وردت مراكب إلى الساحل نزل إليها المفتشون على الأشيا ومن جملتها الشمع، فيأخذون ما يجدونه، ويحسب لهم بأبخس تمن، فإن أخفى شيًّا، وعثروا عليه أخذوه بلا تمن ونكلوا بالشخص الذي يجدون معه ذلك وسموه حراميًا ليرتدع غيره، والمتولي على ذلك نصارى، وأعوانهم لا دين لهم.

وقد هاف النحل في هذه السنة، وامتنع وجود العسل، وكذلك ثمر النخيل بل والغلال، فلم تزل في هذه السنين مع كثرة الأسيال التي غرقت منها الأراضي، بل وتعطل بسببها الزرع وزادت أثمانها وخصوصًا الفول، وأما العدس فلا يوجد أيضًا إلا نادرًا، وكذلك التزم بالملاحة وتوابعها من زاد في مالها، وبلغ ثمن الكيلة قرشًا، وكانت قبل ذلك بثلاثين نصفًا، وفيما أدركنا بثلاثة أنصاف.

وأما أجر الأجرا والفعلة والمعمرين، فأبدل النصف بالقرش، وكذلك ثمن الجير البلدي والجبس؛ لأن عماير أهل الدولة مستديمة لا تنقضي أبدًا، ونقل الأتربة إلى الكيمان على قطارات الجمال والحمير من شروق الشمس إلى غروبها، حتى ستر علوها الأفق من كل ناحية.

وإذا بنى أحدهم دارًا فلا يكفيه في ساحتها الكثير، ويأخذ ما حولها من دور الناس بدون القيمة ليوسع بها داره، ويأخذ ما بقي في تلك الخطة لخاصته وأهل دايرته، ثم يبني أخرى كذلك لديوانه وجمعيته وأخرى لعسكره، وهكذا.

وأما سليمان أغا السلحدار، فهو الداهية العظمى والمصيبة الكبرى؛ فإنه تسلط على بقايا المساجد والمدارس والتكايا التي بالصحراء، ونقل أحجارها إلى داخل باب البرقية بالغريب، وكذلك ما كان جهة باب النصر، وجمعوا أحجارها خارج باب النصر، وأنشا جهة خان الخليلي وكالة، وجعل بها حواصل وطباقًا وأسكنها نصارى الأروام والأرمن بأجرة زايدة أضعاف الأجر المعتادة، وكذلك غيرهم ممن رغب في السكنى، وفتح لها بابًا يخرج منه إلى وكالة الجلابة الشهيرة التي بالخراطين؛ لأنها بظاهرها، وأجر الحوانيت كانت بأجرة زايدة، فأجر الحانوت بثلاثين قرشًا في الشهر.

وكانت الحانوت تؤجر بثلاثين نصفًا في الشهر، والعجب في إقدام الناس على ذلك وإسراعهم في تأجرهم قبل فراغ بناها مع ادعاهم قلة المكاسب ووقف الحال، ولكنهم أيضًا يستخرجونها من لحم الزبون وعظمه.

ثم أخذ بناحية داخل باب النصر مكانًا متسعًا يسمى حوش عطي بضم العين وفتح الطاء وسكون الياء، كان محطًّا لعربان الطور ونحوهم إذا وردوا بقوافلهم بالفحم والقلي وغيره، وكذلك أهالي شرقية بلبيس، فأنشا في ذلك المكان أبنية عظيمة تحتوي على خانات متداخلة وحوانيت وقهاوي ومساكن وطباق، وسكن غالبها أيضًا الأرمن وخلافهم بالأجر الزايد، ثم انتقل إلى جهة خان الخليلي، فأخذ الخان المعروف بخان القهوة وما حوله من البيوت والأماكن والحوانيت والجامع المجاور لذلك، تُصلى فيه الجمعة بالخطبة، فهدم ذلك جميعه.

وأنشاه خانًا كبيرًا يحتوي على حواصل وطباق وحوانيت عدتها أربعون حانوتًا، أجرة كل حانوت تلاتون قرشًا في كل شهر، وأنشا فوق السبيل وبعض الحوانيت زاوية لطيفة يصعد إليها بدرج عوضًا عن الجامع.

ثم انتقل إلى جهة الخرنفش بخط الأمشاطية، فأخذ أماكن ودورًا وهدمها، وهو الآن مجتهد في تعميرها كذلك، فكان يطلب رب المكان ليعطيه التمن، فلا يجد بدًّا من الإجابة فيدفع له ما سمى به نفسه، إن شاء عشر التمن أو أقل أو أزيد بقليل؛ وذلك لشفاعة أو واسطة خير، وإذا قيل له: إنه وقف ولا مسوغ لاستبداله لعدم تخربه، أمر بتخريبه ليلًا، ثم يأتي بكشاف القاضي فيراه خرابًا فيقضي له، وكان يثقل عليه لفظة وقف، ويقول: إيش يعني وقف؟ وإذا كان على المكان حكر لجهة وقف أصله لا يدفعه، ولا يلتفت لتلك اللفظة أيضًا، ويتمم عمايره في أسرع وقت لعسفه وقوة مراسه على أرباب الأشغال والموانة، ولا يطلق للفعلة الرواح بل يحبسهم على الدوام إلى باكر النهار، ويوقظونهم من آخر الليل بالضرب ويبتدون العمل من وقت صلاة الشفع إلى قبيل الغروب، حتى في شدة الحر في رمضان، وإذا ضجوا من الحر والعطش أمرهم مشد العمارة بالشرب، وأحضر لهم السقا ليسقيهم، وظن أكثر الناس أن هذه العماير إنما هي لمخدومه؛ لأنه لا يسمع لشكوى أحد فيه.

واشتد في هذا التاريخ أمر المساكن بالمدينة، وضاقت بأهلها لشمول الخراب وكثرة الأغراب، وخصوصًا المخالفين للملة، فهم الآن أعيان الناس، يتقلدون المناصب ويلبسون ثياب الأكابر، ويركبون البغال والخيول المسومة والرهوانات، وأمامهم وخلفهم العبيد والخدم، وبأيديهم العصي يطردون الناس ويفرجون لهم الطرق، ويتسرَّوْن بالجواري بيضًا وحبوشًا، ويسكنون المساكن العالية الجليلة، ويشترونها بأغلى الأتمان، ومنهم من له دار بالمدينة ودار مطلة على البحر للنزاهة، ومنهم من عمر له دارًا وصرف عليها ألوفًا من الأكياس.

وكذلك أكابر الدولة لاستيلا كل من كان في خطة على جميع دورها وأَخْذها من أربابها بأي وجه، وتوصلوا بتقليدهم مناصب البدع إلى إذلال المسلمين؛ لأنهم يحتاجون إلى كتبة وخدم وأعوان، والتحكم في أهل الحرفة بالضرب والشتم والحبس من غير إنكار، ويقف الشريف والعامي بين يدي الكافر ذليلًا، فضاقت بالناس المساكن وزادت قيمتها أضعاف الأضعاف، وأبدل لفظ الريال الذي كان يذكر في قيم الأشيا بالكيس، وكذلك الأجر، والأمر في كل شي في الازدياد، والله لطيف بالعباد.

ودخلت سنة خمس وتلاتين ومائتين وألف (١٨١٩م)

ولو أردنها استيفا بعض الكليات فضلًا عن الجزئيات لطال المقال وامتد الحال.

وعشنا ومتنا ما نرى غير ما نرى   تشابهت العجما وزاد انعجامها

نسأل الله حسن اليقين وسلامة الدين.

ثم دخلت سنة ست وتلاتين ومايتين وألف (١٨٢٠م)

استهل شهر المحرم بيوم الاتنين، وفي أوايله حضر الباشا من إسكندرية.

وفيه من الحوادث أن الشيخ إبراهيم الشهير بباشا المالكي بالإسكندرية قرر في درس الفقه أن ذبيحة أهل الكتاب في حكم الميتة لا يجوز أكلها، وما ورد من إطلاق الآية فإنه قبل أن يغيروا ويبدلوا في كتبهم، فلما سمع فقها الثغر ذلك أنكروه واستغربوه، ثم تكلموا مع الشيخ إبراهيم المذكور وعارضوه، فقال: أنا لم أذكر ذلك بفهمي وعلمي، وإنما تلقيت ذلك عن الشيخ علي الميلي المغربي، وهو رجل عالم متورع موثوق بعلمه.

ثم إنه أرسل إلى شيخه المذكور بمصر يعلمه بالواقع، فألف رسالة في خصوص ذلك وأطنب فيها، فذكر أقوال المشايخ والخلافات في المذاهب، واعتمد قول الإمام الطرشوشي في المنع وعدم الحل، وحشا الرسالة بالحط على علما الوقت وحكامه، وهي نحو التلاتة عشر كراسة، وأرسلها إلى الشيخ إبراهيم فقراها على أهل الثغر، فكثر اللغط والإنكار خصوصًا وأهل الوقت أكثرهم مخالفون للملة.

وانتهى الأمر إلى الباشا فكتب مرسومًا إلى كتخدا بك بمصر، وتقدم إليه بأن يجمع مشايخ الوقت لتحقيق المسألة، وأرسل إليه بالرسالة أيضًا المصنفة، فأحضر كتخدا بك المشايخ وعرض عليهم الأمر، فلطف الشيخ محمد العروسي العبارة وقال: الشيخ علي الميلي رجل من العلما تلقى عن مشايخنا ومشايخهم، لا ينكر علمه وفضله، وهو منعزل عن خلطة الناس إلا أنه حاد المزاج وبعقله بعض خلل، والأولى أن نجتمع به ونتذاكر في غير مجلسكم، وننهي بعد ذلك الأمر إليكم، فاجتمعوا في تاني يوم، وأرسلوا إلى الشيخ علي يدعونه للمناظرة فأبى عن الحضور، وأرسل الجواب مع شخصين من مجاوري

المغاربة يقولان: إنه لا يحضر مع الغوغا، بل يكون في مجلس خاص يتناظر فيه مع الشيخ محمد ابن الأمير بحضرة الشيخ حسن القويسني، والشيخ حسن العطار فقط؛ لأن ابن الأمير يناقشه ويشن عليه الغارة، فلما قالا ذلك القول تغير ابن الأمير، وأرعد، وأبرق، وتشاتم بعض من بالمجلس مع الرسل، وعند ذلك أمروا بحبسهما في بيت الأغا، وأمروا الأغا بالذهاب إلى بيت الشيخ علي وإحضاره بالمجلس ولو قهرًا عنه، فركب الأغا وذهب إلى بيت المذكور فوجده قد تغيب، فأخرج زوجته ومن معها من البيت وسمر البيت، فذهبت إلى بيت بعض الجيران.

ثم كتبوا عرضًا محضرًا وذكروا فيه بأن الشيخ علي على خلاف الحق، وأبى عن حضور مجلس العلما والمناظرة معهم في تحقيق المسألة، وهرب واختفى لكونه على خلاف الحق، ولو كان على الحق ما اختفى ولا هرب، والرأي لحضرة الباشا فيه إذا ظهر، وكذلك في الشيخ إبراهيم باشا السكندري، وتمموا العرض وأمضوه بالختوم الكثيرة وأرسلوه إلى الباشا، وبعد أيام أطلقوا الشخصين من حبس الأغا، ورفعوا الختم عن بيت الشيخ علي ورجع أهله إليه.

حضر الباشا إلى مصر في أوايل الشهر، ورسم بنفي الشيخ إبراهيم باشا إلى بني غازي، ولم يظهر الشيخ علي مِن اختفاه.

واستهل شهر صفر بيوم الأربع (سنة ١٢٣٦)

وفي أوايله حضر إبراهيم باشا من الجهة القبلية بعدما طاف الفيوم أيضًا، وأحضر معه جملة أشخاص قبض عليهم من المفسدين من العربان، وهم في الجنازير الحديد، وشقوا بهم البلد ثم حبسوهم.

واستهل شهر ربيع الأول بيوم الخميس (سنة ١٢٣٦)

وفي أوايله حضر نحو العشرة أشخاص من الأمرا المصرية البواقي في حالة رثة وضعف وضيم، واحتياج واجتياح، وكانوا أرسلوا وطلبوا الأمان، وأجيبوا إلى ذلك.

وفيه أشهروا العربان الذين أحضرهم إبراهيم باشا معه وقتلوهم؛ وهم أربعة: اثنان بالرميلة واثنان بباب زويلة.

واستهل ربيع التاني بيوم السبت (سنة ١٢٣٦)

وفيه أخرج الباشا عبد الله بك الدرندلي منفيًّا، وكان عبد الله بك هذا يسكن بخطة الخرنفش، وهو رجل فيه سكون قليل الأذى، وملك بتلك الناحية دُورًا وأماكن، وله عزوة وعساكر وأتباع، وكان يجلس بحضرة الباشا وينادمه ويتوسع معه في الكلام والمسامرة، وسبب تغير خاطر الباشا عليه أنه جرى ذكر علي باشا تبه دنلي الأرنؤدي وحروبه، ومخالفة العساكر عليه، فقال عبد الله المذكور: إن العساكر يرون محاربة السلطان معصية أو كلامًا هذا معناه.

فتغير وجه الباشا من ذلك القول، ويقال: إنه أمر بقتله فشفع فيه حسن باشا طاهر من القتل، وأن يخرج منفيًّا، وهكذا أشيع واستفيض، وانضم إلى ذلك أنه قال لشريف بك أمين الخزنة عند تأخر علوفته: خدمة نصراني أحسن من خدمتكم مع المشاجرة، فبلغها شريف بك للباشا أيضًا وأوغر صدره عليه، ودفع له الباشا علوفته وتمن ما حازه من الأماكن والأملاك، ووصله على عدة جمال محملة بالدراهم، وسافر في تامنه على طريق البر، وأبقى حريمه وأثقاله ليأتوه على سفن البحر.

وفي سادس عشره أمر الباشا بقراءة صحيح البخاري بالجامع الأزهر، فاجتمعوا في يوم الاتنين سابع عشره وقروا في الأجزاء على العادة ضحوة النهار وأربعة أيام آخرها الخميس، وفرقوا على أولاد المكاتب دراهم، وكذلك على مجاوري الأزهر في نظير قراءة البخاري.

واستهل شهر جمادى الأولى بيوم الأحد (سنة ١٢٣٦)

فيه حضر إبراهيم باشا، ونزل بقصره الجديد بل قصوره؛ لأنه أنشا عدة قصور متصلة وبساتين ومصانع متصلة متسعة مزخرفة، منها قصر لديوانه وقصر لحريمه، وقصر لخصوص عباس باشا ابن أخيه، وغير ذلك.

واستهل شهر جمادى الثانية بيوم التلات (سنة ١٢٣٦)

فيه عزم إبراهيم باشا على إعادة قياس أراضي قرى مصر، وأحضر من بلاد الصعيد عدة كبيرة من القَيَّاسين نحو الستين شخصًا.

وفي يوم السبت خامسه عدى إلى الجيزة تجاه القصور، وجمع القياسين والمهندسين، وكذلك مهندسي الإفرنج، وقاس كل قياسته وكيفية عمله، فعاند المعلم غالي وأحب تأييد

أهل حرفته من قياسي القبط، وقال كلٌّ منهم على الصحيح، وعلم إبراهيم باشا أن قياس المهندسين وأرباب المساحة أصح، ولكنْ فيها بطء، فقال: أريد الصحيح ولكن مع السرعة، بعد أن عمل امتحانًا ومثالًا في قطعة من الأرض يظهر بها برهان الصحة والتفاوت، وأمسى الوقت فأمرهم بالذهاب والرجوع يوم الخميس الآتي، فحضروا كذلك واشتغلوا يومهم بالعمل إلى آخر النهار، ثم اختار من مهندسي الأقباط طايفة وطرد الآخرين.

وسافر في رابع عشره إلى ناحية شرق أطفيح، وأخذ من المهندسخانة كبيرها وصحبته سبعة عشر شخصًا.

وكذلك أشخاصًا من الإفرنج المهندسين، وانتقصوا من القصبة في هذه المرة مقدار قبضة.

واستهل شهر رجب بيوم الخميس (سنة ١٢٣٦)

فيه سافر مماليك الباشا إلى جهة أسيوط مثل العام الماضي ليكرتنوا هناك حذرًا وخوفًا عليهم من حدوث الطاعون بمصر.

وفي سابع عشره ارتحل محمد بك الدفتردار مسافرًا إلى دارفور ببلاد السودان، بعد أن تقدمه طوايف كثيرة عساكر وأتراك ومغاربة.

وفي خامس عشرينه أمر الباشا بنفي محمد المعروف بالدرويش كتخدا محمود بك الذي هو الآن كتخدا بك، والسيد أحمد الرشيدي كاتب الرزق، وسليمان أفندي ناظر المدابغ والجلود تلاتتهم إلى قلعة أبي قير لمقتضيات واهية في خدم مناصبهم، ومحمد كتخدا كان ناظرًا على الجلود في العام الماضي قبل سليمان أفندي المذكور.

وفي أواخره حضر جماعة من المماليك المصرية الذين كانوا بدنقلة، فيهم تلاتة صناجق أحدهم أحمد بك الألفي، وهو زوج عديلة هانم بنت إبراهيم بك الكبير.

واستهل شهر شعبان بيوم الجمعة (سنة ١٢٣٦)

في تامنه يوم الجمعة عمل سليمان أغا السلحدار الجمعية بالجامع المعروف بالأحمر، وكان قد تخرب ولم يبقَ به إلا الجدران، فتصدى لعمارته سليمان أغا المذكور وسقفه أيضًا بأفلاق النخيل والجريد والبوص، وأقام له عمدًا من الحجارة وجدَّد منبره وبلاطه وميضاته ومراحيضه وفرشه بالحصر، وعمل به الجمعية في ذلك اليوم واجتمع به عالم

كثيرون من الناس، وخطب على منبره الشيخ محمد الأمير، وبعد انقضا الصلاة قرا درسًا وأملى فيه حديث: «من بنى لله مسجدًا»، وبعد انقضا ذلك خلع عليه فروة وكذلك على الشيخ العروسي وعمل لهم شربات سكر.

وفي يوم السبت تالت عشرينه حضر إبراهيم باشا من ناحية شرق أطفيح.

وفي يوم التلات سادس عشرينه سافر بمن معه إلى ناحية شرقية بلبيس.

واستهل شهر رمضان بيوم الأحد (سنة ١٢٣٦)

وعملت الرؤية في تلك الليلة كالعادة، وركب فيها مشايخ الحرف والمحتسب، وأثبتوا رؤية الهلال تلك الليلة بعد مضي أربع ساعات من الليل، ولم يحصل فيه من الحوادث غير تغالي الأتمان وتعاليها بسو فعل السوقة، وإظهار ردي المأكولات وإخفاء جيدها، وقد انقضى بخير.

واستهل شهر شوال بيوم التلات (سنة ١٢٣٦)

في تالته حضرت هجانة من أراضي نجد وبصحبتهم أشخاص من كبار الوهابية مقيدون على الجمال، وهم عمر بن عبد العزيز وأولاده وأبنا عمه؛ وذلك أنهم لما رجعوا إلى الدرعية بعد رحيل إبراهيم باشا وعساكره، وكان معهم مشاري بن مسعود، وقد كانوا هربوا في الدرعية بعدما رحل عنها إبراهيم باشا، وتركي بن عبد الله ابن أخي عبد العزيز وولد عم مسعود الأمشاري، فإنه هرب من العسكر الذين كانوا من أولاد مسعود وجماعتهم حين أرسلهم إبراهيم باشا إلى مصر في الحمرا، وهي قرية بين الجديدة وينبع البحر، وذهب إلى الدرعية واجتمع عليه مَن فرَّ حين قدمت العساكر، وأخذوا في تعميرها، ورجع أكثر أهلها، وقدموا عليهم مشاري، ودعا الناس إلى طاعته فأجابه الكثير منهم، فكادت تتسع دولته وتعظم شوكته.

فلما بلغ الباشا ذلك جهز له عساكر ريسها حسين بك، فأوثقوا مشاري وأرسلوه إلى مصر فمات في الطريق، وأما عمر وأولاده وبنو عمه فتحصنوا في قلعة الرياض المعروفة عند المتقدمين بحجر اليمامة، وبينها وبين الدرعية أربع ساعات للقافلة، فنزل عليهم حسين بك وحاربهم تلاتة أيام أو أربعة، وطلبوا الأمان لما علموا أنهم لا طاقة لهم به، فأعطاهم الأمان على أنفسهم، فخرجوا له إلا تركي، فإنه خرج من القلعة ليلًا وهرب،

وأما حسين بك فإنه قيد الجماعة وأرسلهم إلى مصر في الشهر المذكور، وهم الآن مقيمون بمصر بخطة الحنفي قريبًا من بيت جماعتهم الذين أتوا قبل هذا الوقت.

واستهل شهر ذي القعدة بيوم الأربع (سنة ١٢٣٦)

فيه حضر إبراهيم باشا من سرحته بالشرقية بسبب قياس الأراضي والمساحة.

وفي منتصفه سافر الباشا إلى إسكندرية لداعي حركة الأروام وعصيانهم وخروجهم عن الذمة ووقوفهم بمراكب كثيرة العدد بالبحر وقطعهم الطريق على المسافرين واستيصالهم بالذبح والقتل، حتى إنهم أخذوا المراكب الخارجة من إسلامبول وفيها قاضي العسكر المتولي قضا مصر ومن بها أيضًا من السفار والحجاج، فقتلوهم ذبحًا عن آخرهم ومعهم القاضي وحريمه وبناته وجواريه وغير ذلك، وشاع ذلك بالنواحي، وانقطعت السبل، فنزل الباشا إلى إسكندرية وشرع في تشهيل مراكب مساعدة للدونانمة السلطانية، وسيأتي تتمة هذه الحادثة، وبعد سفر الباشا سافر أيضًا إبراهيم باشا إلى ناحية قبلي قاصدًا بلاد النوبة.

واستهل شهر ذي الحجة بيوم الجمعة (سنة ١٢٣٦)

فيه خرجت عساكر كثيرة ومعهم ريساهم وفيهم محو بك ومغاربة وآلات الحرب كالمدافع وجبخانات البارود واللغمجية وجميع اللوازم قاصدين بلاد النوبة، وما جاورها من بلاد السودان.

وفيه سافر أيضًا محمد كتخدا لاظ المنفصل عن الكتخداية إلى إسنا ليتلقى القادمين ويشيع الذاهبين.

وفيه وصلت بشاير من جهة قبلي باستيلا إسماعيل باشا على سنار بغير حرب، ودخول أهلها تحت الطاعة، فضربت لتلك الأخبار مدافع من القلعة.

وانقضت هذه السنة، وما تجدد بها من الحوادث انقضى بعضها والبعض باق الآن.

فمنها توقف زيادة النيل؛ وذلك أنه لم يستتم أذرع الوفا إلى تامن عشر مسرى القبطي، حتى ضجر الناس وضج الفلاحون.

ومنها أمر المعاملة التي زادت زيادة فاحشة، حتى بلغ البندقي ألفًا ومايتي نصف، والمجر والفندقلي عشرين قرشًا عنها تمانماية نصف، وبلغ صرف الريال الفرانسة أربعة عشر قرشًا عنها خمسماية نصف وستون نصفًا، وقس على ذلك باقي الأصناف.

ومنها غلو الأثمان في جميع المبيعات من ملبوسات ومأكولات والغلال، حتى وصل الأردب إلى ألف وخمسماية نصف، والرطل السمن إلى خمسين نصفًا وإلى تسعين نصفًا، وقس على ذلك.

وأما حادثة الأروام التي هي باقية إلى الآن، وما وقع منهم من الإفساد وقطع الطريق على المسافرين، واستيلاهم على كل ما صادفوه من مراكب المسلمين، وخروجهم عن الذمة وعصيانهم، وما وقع معهم من الوقايع، وما سينتهي حاله إليه، فسيتلى عليك — إن شاء الله تعالى — بكمالة الجزء الآتي بعد ذلك، والله الموفق للصواب، وإليه المرجع والمآب.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.